

P i e r r e R a z o u x



بيير رازو

الحرب

العراقية - الايرانية

ترجمة:

فلاح حسن الأسدي

” أكثر الكتب حيادية فيما يتعلق بهذه الحرب،
مزوّدة بإحصائيات دقيقة وشاملة “

The New York Times



**الحرب
العراقية - الإيرانية**

الحرب العراقية - الإيرانية

بيير رازو

الترجمة إلى الإنكليزية: نيكولاس أليوت

الترجمة إلى العربية: فلاح حسن الأسدي

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة بغداد

التدقيق اللغوي: كرار رحيم آل حبيب

الطبعة الأولى 2023 م

عدد النسخ: 1000

القياس: 24 × 17

عدد الصفحات: 752

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 2575 لسنة 2023

الترقيم الدولي: 2-35-697-9922-978-ISBN

تم نشر الكتاب بعد الاتفاق مع دار نشر بيرين الفرنسية

وجميع حقوق الطبعة العربية محفوظة لدى دار ومكتبة عدنان

© Perrin, in départment de Place des éditeurs, 2013, 2017.



لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

هام: إن دار ومكتبة عدنان والمترجم غير مسؤولين عن الآراء الواردة في الكتاب، وتعبّر عن آراء المؤلف وفكره....

بيير رازو

الحرب العراقية - الإيرانية

الترجمة إلى الإنكليزية
نيكولاس أليوت

الترجمة إلى العربية
فلاح حسن الأسدي
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة بغداد



2023

الإهداء

إلى أندريه مارتل وجاك فريمو

الذين يعرفون كم أنا مدين لهم...

من السهل أن تبدأ كلُّ حربٍ ولكن تنتهي بصعوبةٍ بالغةٍ
سالتوت

الحربُ رسالةٌ إلهيةٌ

آية الله الخميني

المحتويات

5.....	الإهداء
15.....	المقدمة
21.....	الفصل الأول: التصعيد
22.....	الحرب الإعلامية
27.....	صدّام يختار الحرب
31.....	الاستعدادات النهائية
36.....	القوات في الميدان
45.....	الفصل الثاني: قادسية صدّام
47.....	صقور صدّام يبدؤون الحرب
51.....	النسور الإيرانية تتأّر
58.....	الهجوم البري
65.....	الهجوم على خوزستان
69.....	العراقيون يجهدون للتوقف خارج خرمشهر
73.....	الفصل الثالث: كيف وصل الأمر لذلك؟
73.....	النزاعات القديمة على الحدود
77.....	ظهور صدّام حسين
81.....	التنافس على السيادة الإقليمية

84	اتفاقية الجزائر.....
88	وصول آية الله الخميني إلى طهران غير اللعبة.....
94	صدّام يتولّى السلطة.....
99	الفصل الرابع: هل دفعت الولايات المتحدة الأمريكية صدّام حسين للهجوم؟
103	الثورة الإسلامية تُعكر المياه
107	مبدأ كارتر
114	واشنطن تعلن حيادها.....
116	موسكو تعاقب بغداد وتتودّد لطهران
121	بكين تصطف مع العراق
123	الفصل الخامس: فرنسا تقف إلى جانب العراق
124	العراق: الدورادو للصناعيين الفرنسيين
	قرض Eurodif لليورانيوم المخصّب
128	في قلب النزاع الإيراني - الفرنسي
131	ميتران يدعم صدّام حسين
132	الأوروبيون المشتتون
139	الفصل السادس
139	العرب منقسمون
140	الملك الأردني الحسين سفير المعسكر المؤيد للعراق.....
144	قادة عمان، مصر، والجزائر يرفضون الانحياز
146	حافظ الأسد قائد المعسكر المؤيد لإيران
151	تدخل مجلس التعاون الخليجي
153	الفصل السابع: إسرائيل تتكل على إيران وتركيا تستفيد من الحرب
154	الاستراتيجية البراغماتية
158	تركيا: المنتصر الصامت

163	الفصل الثامن : تأثير معركة "فالمي"
166	الجبهة الداخلية، أولاً
169	القتال يبدأ مرةً أخرى
173	سقوط خورمشهر ومحاصرة عبادان
179	الفصل التاسع : تجميد المعارك
180	الأولوية للجبهة الجنوبية
183	المبارزة الجوية فوق خوزستان
185	المعارك الجوية والبحرية عند مصب شط العرب
192	التخمين الأولي محبط جداً لبغداد
197	الفصل العاشر: طرفا القتال يتبادلون المبادرات
198	فشل أول هجوم معاكس إيراني
203	فتح جبهة جديدة في كردستان
209	الغارة على محطة H-3
213	أوزيراك خارج الخدمة
219	الفصل الحادي عشر: سيطرة الملاي على السلطة
220	استئصال العلمانيين
223	ظهور التوتر بين باريس وطهران
225	رفسنجاني وخامنئي يتشاركان في السلطة
228	قائد جديد، عقيدة جديدة
231	الفصل الثاني عشر: الانتصارات الأولى
232	إنقاذ عبادان
234	في الطريق إلى القدس
238	المهندسون العراقيون يعملون بجد
241	ضربة قاسية لبغداد
246	انتصار مُشجّع

255	الفصل الثالث عشر : وساطة جديدة
256	المجتمع الدولي مرتبك
257	لا مبالاة حذرة في بقية أنحاء العالم
259	واشنطن بدأت التقارب مع بغداد
262	كردستان الإيرانية
265	الفصل الرابع عشر: استعادة الإيرانيين لأراضيهم
266	تحرير خورمشهر
271	الانسحاب الاستراتيجي
276	اتفاق رفسنجاني وخامنئي على استمرار الحرب
281	الفصل الخامس عشر: هجوم رمضان كريم
282	القوات الإيرانية تدخل العراق
286	الحظر على النفط
292	هجمات فصل الخريف
301	موسكو وبكين تحددان استراتيجيتهما
305	الفصل السادس عشر: هجومات الفجر الدامية
306	حرب الاستنزاف
309	هجوم الفجر الأول
311	العودة إلى كردستان
319	الفصل السابع عشر: ورقة صدام الرابعة
320	العراقي يساوي لغزا
323	تسارع التدريب
324	الاستخبارات الشخصية
326	ورقة مساومة
330	الإيرانيون يستولون على جزر مجنون

- 339 **الفصل الثامن عشر: أزمة الرهائن في لبنان**
- 340 فرنسا في مرمى إيران
- هل كانت عمليات القصف والاختطاف
- 342 تمثل التحذيرات النهائية لطهران؟
- 344 الغارة على بعلبك
- 346 الانتقام الأمريكي
- 349 طهران تعاقب واشنطن
- 352 فرنسا تغير مسارها
- 356 باريس تتفاوض مع طهران
- 363 **الفصل التاسع عشر: المال لا رائحة له**
- 366 التجارة تعني التجارة
- 373 أسلحة كيميائية تحت الفحص
- 377 **الفصل العشرون: الحرب الشاملة**
- 378 حرب المدن
- 380 غارة على بوشهر
- 381 حرب الناقلات
- 383 خط فهد
- 385 القوة الجوية على خط الجبهة
- 388 الألغام في البحر الأحمر
- 389 الحفاظ على معنويات القوات
- حركة الاستقلال الكردية
- 395 تجبر تركيا على التقارب مع العراق
- 397 **الفصل الحادي والعشرون: سنة الطيار**
- 398 معركة الأهوار الثانية
- 403 جولة أخرى من حرب المدن

- 407 حرب العصابات في كردستان العراق
- 411 الانتخابات الرئاسية في إيران
- 413 الفصل الثاني والعشرون: الماكنة الحربية والنفط**
- 415 اتفاق واشنطن والرياض على سياسة نفط جديدة
- 418 أبدال السوفييت أساليبهم مرةً أخرى
- 422 الهدف خارج
- 429 الفصل الثالث والعشرون : مذبح الجنود الأطفال**
- 430 تضحيات شباب الباسيج
- 434 الإيرانيون يحتلُّون شبه جزيرة الفاو
- 440 الهجوم العراقي المضاد
- 443 انتقال النزاع إلى كردستان العراق
- 449 الفصل الرابع والعشرون : الطريق المغلق**
- 450 حافظ الأسد يرفع الرهان
- 452 في الطريق إلى كربلاء
- 455 تصاعد التوتر بين طهران وأنقرة
- 458 بدء موسم المطاردة
- 461 طائرات الميراج تقصف في الخليج
- 469 الفصل الخامس والعشرون: قضية إيران - كونترا**
- 470 صلة إسرائيل بالقضية
- 472 السلاح مقابل الرهائن
- 475 تضارب المصالح في طهران
- 477 حصيلة كارثية لواشنطن
- 479 الفصل السادس والعشرون: الهجمات الشاملة**
- 480 الهجوم على البصرة

- 482 معركة "أم المعارك"
- 489 على أبواب البصرة
- 495 **الفصل السابع والعشرون: إيران تُغير استراتيجيتها**
- 496 المناورات العسكرية والدبلوماسية والتجارية
- 501 الهجوم على السفينة الأمريكية USS Stark
- 506 الألغام البحرية في الخليج
- 508 حملة الأنفال
- 511 قضية كورجي أجبرت فرنسا على التدخل في الخليج
- 514 عملية برومثيروس
- 517 **الفصل الثامن والعشرون: اشتعال النيران في الخليج**
- 518 الولايات المتحدة تتخذ عملًا مباشرًا
- 524 إيران تتحدى البحرية الأمريكية
- 528 البحرية الأمريكية ترد بالانتقام
- 533 **الفصل التاسع والعشرون: مذبحه حلبجة**
- 534 الجيش العراقي ينهض من جديد
- 535 طهران تبدأ حرب العواصم
- 538 قصف الكرد بالغازات
- 541 الجيش العراقي يعيد الاستيلاء على شبه جزيرة الفاو
- 547 **الفصل الثلاثون: تدمير رحلة الطيران الإيرانية رقم 655**
- 548 المعركة البحرية والجوية في الخليج
- 555 العراقيون يستعيدون بقية أراضيهم التي خسروها
- 562 تدمير طائرة إيرباص إيرانية:
- 567 انتقام على الطريقة الإيرانية

571	الفصل الحادي والثلاثون: نهاية اللعبة.....
572	آية الله الخميني يوافق على نهاية للنزاع.....
574	المناوشات الأخيرة.....
577	باريس وطهران تسويان حساباتهما.....
579	حرب رهبية ومميتة.....
583	الخلاصة.....
587	وضع جيوسياسي جديد.....
591	ما الدرس العسكري الذي يمكن تذكره؟.....
594	هل الدروس السياسية ممكنة التطبيق اليوم؟.....
599	الملاحق.....
711	المصادر.....
729	شكر وتقدير.....

تقديم المؤلف للطبعة العربية

إنَّه لمن دواعي فخري الكبير أن أرى كتابي أخيراً عن "الحرب الإيرانية العراقية 1980-1988" مترجماً وصادراً باللغة العربية في بغداد، البلد الذي وقعت فيه هذه الحرب الفضيعة التي حدّدت على نحو طويل الجغرافية السياسية للشرق الأوسط. ولحسن الحظّ، أنّ عراق اليوم هو ليس عراق صدام حسين. وبالنظر لمعدل عمر العراقيين المتوسط حالياً، لم يعاصر معظمهم تلك الحرب. لذلك كانت لديهم ذاكرة مشوّهة نقلها لهم آباؤهم، وكذلك من خلال المجتمعات المتنوّعة والعشائر المتعدّدة والأحزاب السياسية الذين غالباً ما كان لهم مصالحهم - وبالتأكيد روايتهم - المتباينة في أغلب الأحيان.

من هنا كان لا بدّ أن يقوم ناشرٌ شجاعٌ ومترجمٌ صاحب رؤية بترجمة هذا العمل إلى اللغة العربية، وقد كان هذا الكتاب نشره أساساً بطبعته الفرنسية من قبل الناشر بيرين Perrin، ثم قامت مطابع جامعة هارفرد في الولايات المتحدة بنشره. وقد اعترف مجتمع الباحثين والمؤرخين بهذا الكتاب كونه مرجعاً لجميع الجنسيات، بما في ذلك إيران والعالم العربي. وأمنيّتي، من خلال تقديم هذه الطبعة باللغة العربية أن يعرف أكبر عدد من القراء الناطقين بالعربية ويفهم بدون أية حساسية أو تحيُّز أيديولوجي أو ديني، حقيقة ما حدث خلال هذا الصراع الرهيب الذي استمرّ ثمان سنوات، وكان له عواقب دائمة على حياة شعوب المنطقة؛ وذلك لأنّ الذاكرة الجماعية تظلُّ أثمن ما يملكه البشر.

إنّ فهمي للأسباب، ثم لتطوُّر هذا الصراع يرنو أن يكون موضوعياً قدر الإمكان. ويمكن تحدي هذه الرؤية من خلال دراسة الأرشيفات الجديدة، لأنّ ذلك هو الأساس نفسه لأية رؤية تاريخية وعلمية جادّة.

وعند قراءة هذا الكتاب، سيفهم الجميع لماذا دخل صدام حسين هذه الحرب، ولماذا لم تتوقف الحرب في عام 1982 عندما طرد الإيرانيون الجيش العراقي إلى الحدود الدولية، ولماذا استمرت كل هذه السنوات الطويلة ولماذا توقفت في صيف 1988. لقد انتصر صدام حسين في هذه الحرب، إلا أن انتصاره كان انتصار بيروس *victoire à la Pyrrhus* ⁽¹⁾ باهظ الثمن الذي حمل بذور الهزائم المستقبلية في عامي 1991 و2003.

واليوم، مضى أكثر من خمسة وثلاثين عامًا منذ نهاية حرب إيران والعراق، وأكثر من عشرين عامًا منذ غزو الولايات المتحدة للعراق الذي أدى إلى سقوط صدام حسين. فلم تتعاف الدولة العراقية تمامًا بعد عشرين عامًا من الفوضى، والحرب الأهلية، والقتال ضد داعش والصراع من أجل الاستيلاء على السلطة الذي أعقب احتلال الولايات المتحدة للعراق. فمن لاعب أساسي في اللعبة الجيوسياسية في الشرق الأوسط، أصبح العراق ضحية للتنافس على السلطة بين إيران، المملكة العربية السعودية، سوريا، تركيا، الولايات المتحدة والصين. فأصبح العراق خلال عقدين من الزمن، ساحة للمعركة، من خلال الميليشيات المتشابكة غالبًا، للاعبين الإقليميين الذين لا يريدون الهجوم بشكل مباشر.

لقد آن أوان أن يستعيد المجتمع المدني العراقي الثقة بالنفس وربما التوافق على مقاييس جديدة للسلطة وتقاسم الثروات، لتحرير نفسه من سطوة القوى الخارجية، والسماح للعراق وفقًا لذلك أن يكون قوة إقليمية مؤثرة، قادرًا على التأثير بشكل إيجابي على المشاريع والاستراتيجيات التي يتم تطويرها في مجالات متعددة: المجالات الاقتصادية وقضايا الطاقة، لكن في المقام الأول المسائل البيئية، لأن للتغيرات المناخية تأثيرًا كبيرًا وقاسيًا ودائمًا على العراق وجميع بلدان المنطقة. وهذا ما أتمناه من كل قلبي للعراقيين ذوي العزيمة القوية⁽²⁾.

بيير رازو

طولون، الرابع من تموز، 2023

1- نسبة إلى القائد اليوناني بيروس (319-272 ق.م.)، أصبح لاحقًا ملك ابيروس ومقدونيا القديمة. وقد حقق انتصارات متعدّدة لكنها كانت باهظة الثمن ترقى إلى الهزيمة. لذلك أصبح هذا المصطلح عسكريًا يُستخدم للانتصارات باهظة الثمن التي تقود لاحقًا إلى الهزيمة. (المترجم)

2- ترجمها عن الفرنسية محمود القيسي.

المقدمة

في الأول من مايس عام 2003 أعلن الرئيس الأمريكي جورج . دبليو بوش في خطبته من على ظهر حامله الطائرات إبراهيم لنكولن أن "المهمة أنجزت". هل كان يدرك أنه منح النظام الإسلامي في إيران - وهو أحد أشرس أعدائه - الانتصار على العراق الذي كان يحلم به منذ عام 1980؟ حيث سحق الجيش العراقي في غضون أسابيع قليلة وفكك نظام صدام حسين البعثي، فرئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثالث والأربعين قد أنجز ما فشل فيه الملاي خلال الحرب الشرسة ضد بغداد (أيلول 1980 - آب 1988). وبذلك، خلق جورج دبليو بوش حالة من عدم الاستقرار العميقة وعدم التوازن الجيوسياسي في منطقة الخليج، توازن طالما كافح والده من أجل الحفاظ عليه في أثناء شغله منصب نائب رئيس الولايات المتحدة، ثم رئيساً لها. لم يتردد بوش الأب في تعزيز علاقاته مع صدام حسين؛ لأنه كان يدرك أن الديكتاتور العراقي يمثل أفضل مظلة ضد النزعة التوسعية الثورية الشيعية التي كان يدعو إليها آية الله الخميني. وإن قراره للإبقاء على صدام حسين في السلطة بعد غزوه للكويت يمثل استراتيجية لاحتواء إيران. وبذلك، أقيمت مؤخرًا "الواقعية السياسية" بدلاً من الأيديولوجية "المحافظة الجديدة"؛ في محاولة لتشكيل الشرق الأوسط الجديد.

وبعد الانسحاب من العراق في شهر كانون الأول عام 2011 بعد أكثر من ثماني سنوات من الاحتلال العسكري، فقد سمحت الولايات المتحدة لإيران أن تجني ثمار الفوائد التي ترغب بها من الوضع السياسي الجديد. وإن علي خميني وأكبر هاشمي رفسنجاني ومحمد خاتمي وحسن روحاني قد تمتعوا بلحظة من الاطمئنان العميق حينما أدركوا أن الإدارة الأمريكية قد أنجزت لهم ما يريدون: إنها وضعت دولة عراقية ضعيفة،

منقسمة، وسيطر عليها الشيعة، وهي ثلاثة أهداف عظيمة حاول النظام الإيراني جاهداً إنجازها. فبعد ثلاثة وعشرين عامًا بعد هزيمتها، بإمكان الجمهورية الإسلامية في إيران أن تحتفل الآن بنصرها.

كانت الحرب العراقية - الإيرانية تمثل نقطة انعطاف في تاريخ الشرق الأوسط. ولا يمكن للمرء أن يفهم الوضع الحالي في الخليج الذي يمتدُّ من طموحات إيران النووية إلى الأزمات السياسية العراقية الإيرانية، ودون الإمساك بقوة بالآليات المعقدة، الأحقاد القديمة، الصراعات المريرة على السلطة، الإحباطات والمخاوف الملحة الناتجة من تلك الحرب القاسية التي تركت انطباعاً دائماً على التصور الجمعي للسكان في الخليج والغرب. هل يمكن للمرء أن ينسى تلك الصور المزعجة للجنود الأطفال الذين تم زجُّهم في أتون المعارك، وخنادق الدم، والمدن المدمرة، ومصافي النفط المحترقة، والجثث المتفحمة، والدبابات الغاطسة في الوحل، وناقلات النفط المشتعلة؟

والواقع أنَّ الحرب بين العراق وإيران كانت أبعد من ذلك كثيرًا. إنَّ آخر الصراعات الكبرى في عصر الحرب الباردة يوضح أهمية مفهوم أمن الطاقة الذي أجبر الكثير من الدول الغربية لتصبح متورطةً باستمرار في شؤون الخليج، فالسماح للنظام الإيراني بالبقاء والتماسك يعني أنَّ الحرب أدت إلى حراك سياسي وعسكري جديد في الإقليم وتزايد الإرهاب في الشرق الأوسط وأوروبا. والحرب من الزاوية العسكرية تخدم كمختبر لتطور الأساليب الإبداعية وميدان لاختبار الأسلحة الأكثر تعقيداً.

تبقى الحرب العراقية الإيرانية وهي الأكثر طولاً في القرن العشرين حرباً نسبيةً. ولا تزال نتائجها محسوسة: تهميش العراق، وإيران أكثر راديكالية، وتسريع للبرنامج النووي الإيراني. إذا ما أخذنا بالحسبان التطورات السياسية لهاتين الأمتين القديمتين، فمن الممكن عملياً لهما الصدام مرةً أخرى لإعادة تأسيس وحدتهم الوطنية وإعادة فرض شرعية حكوماتهم القائمة حينما تستخدم مرةً أخرى القومية، الطائفية الدينية، والترهيب؛ للحصول على الغايات السياسية. وعلى الرغم من سيطرة الشيعة فإنَّ الصحافة العراقية تتحدث بانتظام عن قضية وضعية شط العرب. ومهما تكن الشخصية التي ستخلف نوري المالكي فإنَّها ربما

تحاول أن تلعب بالورقة القومية مرةً أخرى لإنقاذ العراق من التفكك. وإذا ما كان على خليفة المالكي اختيار هذا الطريق، فإنَّ خياراته ستكون محصورة بثلاثة خيارات التي طالما حرَّكت عرب العراق: تركيع الكرد، الادعاء بالكويت، وإثارة قضية شط العرب. فبالنسبة إلى الخيار الأول سيكون محرماً العمل عليه بسبب المصالح الأساسية لتركيا والولايات المتحدة، ولا سيَّما في مجال الطاقة في إقليم كردستان الذي يتمتع بالحكم الذاتي حالياً. ووضع الخيار الثاني جانباً؛ لأنَّ الولايات المتحدة أقامت من نفسها حامية للكويت، وأنها على استعداد للقتال من أجل ذلك. وهذا يترك الخيار الثالث الذي تبدو مخاطره مقبولة إذا ما بقي العراق منبوذاً من المجتمع الدولي لأطول فترة ممكنة. أمَّا من الزاوية العراقية؛ فإنَّ الخيار الأخير يمكن أن يوفر أيضاً للعراق فائدة التقارب مع النظم الملكية في الخليج التي ستكون سعيدة لرؤية العراق يستأنف دوره بوصفه حاجزاً أمام نظام الملالي الثوري بإيران.

هناك عدد من القضايا المحددة حول الحرب تبقى لا نجد إجابة لها: لماذا لجأ صدام حسين إلى هذا النزاع الطويل والمكلف الذي لا طائل منه؟ ولماذا استمرَّ ثماني سنوات في الوقت الذي كان يمكن حله في غضون ثلاثة أشهر؟ وكيف تورطت القوى الكبرى وفرنسا في هذا النزاع؟ وما تأثير عامل النفط فيه؟ وكيف كانت عناوين الصحافة الرئيسة مثل: فضيحة إيران كونترا، الهجمات الإرهابية في فرنسا، والاختطافات في لبنان المتعلقة بالحرب؟ ومن هم الرابحون الحقيقيون من الحرب؟ هذه الأسئلة المتعددة سأحاول الإجابة عنها في هذا الكتاب الذي هو ثمرة عشر سنوات من البحث الذي قادني من باريس إلى عواصم الخليج ومن طريق واشنطن، لندن، روما، إسطنبول، بيروت، القاهرة، القدس، وعمان. لقد اعتمدتُ على المصادر النادرة ذات العلاقة بالموضوع، وعلى أوراق الأرشيفات العسكرية القيمة وغير المنشورة، وعلى المصادر الشفوية الاستثنائية وغير المُستغلَّة حتى الآن من مقابلات مع اللاعبين الرئيسيين في تاريخ تلك الحرب (ولا سيَّما من الجانب الإيراني)، والضباط العراقيين الذين تركوا العراق بعد سقوط النظام البعثي، والمحللين الذين درسوا تطوُّرات النزاع.

وخلال سير بحثنا تمكَّنتُ من الوصول إلى "تسجيلات صدام الصوتية" المعروفة جيداً التي استولى عليها الجيش الأمريكي في بغداد عام 2003. كان الدكتاتور العراقي يعلم

أنه خطيبٌ وليس كاتبًا، وإدراكه هذا جعله لم يترك أية كتابات للأجيال المقبلة التي ربّما ستذكر الناس به. لقد ربط صدام كلّ مناصب السلطة التي شغلها وغرف اللقاءات بشبكة من الاتصالات؛ لكي يتم تسجيل خطابه وتصريحاته العامة بشكل منتظم. وكان الهدف أن يترك سجلات تسمح للمؤرخين العراقيين من تبجيل قراراته الكبيرة بعد موته، وليجعل نوابه ووزراءه تحت المراقبة. من الطبيعي أن تلك التسجيلات تتضمن المناقشات بين صدام حسين وضباط القيادة العسكرية العليا، وبالأخص في أثناء الفترات الحرجة من الحرب. إن دراسة هذه التسجيلات تمثل تجربة جميلة سمحت لي بالجلوس للاستماع للمناقشات عن بعد. كانت هذه المناقشات في الغالب، وليس دائمًا، مسيطرًا عليها من الرئيس العراقي - لدى صدام قدرة مذهلة على الإصغاء.

والآن يتم الاحتفاظ بعناية بهذا الكنز القيم في جامعة الدفاع الوطني بواشنطن، ويمكن الرجوع إليه في الموقع على وفق شروط محددة أو بالاتصال بمركز بحوث سجلات النزاعات على الموقع الإلكتروني: CRRC@ndu.edu.

أمّدت المعلومات المتراكمة والمدققة بإمعان سرديتي للأحداث التي تبتعد كثيرًا عن رواية الصحافة الغربية ومؤرخيها، وكذلك عن رواية السلطات العراقية والإيرانية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة. وهذه المعلومات سمحت لي أيضًا العمل على تقييم دقيق للقوات في الميدان، وتخمين معقول للخسائر، والحجم الحقيقي للمساعدة العسكرية المقدمة لطرفي النزاع، ولا سيّما من الأعضاء الدائمين الخمسة بمجلس الأمن في الأمم المتحدة. وفي هذا المجال، كان موقف فرنسا الدقيق إلى جانب العراق، بينما استمرّت في التفاوض مع إيران.

وهذه الحرب لها انعكاساتها أيضًا على السلطة في كلا البلدين، ففي حالتي صدام حسين وآية الله الخميني استخدمت الحرب لتعزير سلطاتهم الشخصية والقبض عليها. أمّا في حالتي أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي القائد الأعلى للثورة الإسلامية في الوقت الحاضر؛ فقد استخدمت الحرب وسيلة للوصول إلى السلطة. وبعد ربع قرن كان التنافس بين الرجلين لا يزال يقود الصراع على السلطة في طهران ويؤثر بشكل أساسي في القرارات

هناك. وإنَّ انتخاب الرئيس روحاني مؤخرًا يمثل التطور الأخير في هذا السياق، ووسائل الإسلاميين الإيرانيين للسيطرة على السلطة من خلال التهميش المتعاقب للمنافسين يعلمنا الكثير أيضًا عن الثورات الجارية حاليًا في العالم العربي.

أخيرًا، يجب أن أذكرُ القارئ أنني أكتب على مسؤوليتي الشخصية، وأنَّ ملاحظاتي لا تمثل مواقف وزارة الدفاع الفرنسية أو موقف معهد البحوث الاستراتيجية لكلية الحرب الفرنسية. والأكثر أهمية، هو أنني لا أفرض قراءةً معينةً للتاريخ، إنما لتحريكه إلى الأمام بتحليل وتفكيك عددٍ من الخرافات وفتح سبل جديدة للتفكير والتأمل.

الفصل الأول

التصعيد

بعد سنوات متعدّدة من الهدوء في الظاهر، أخذت العلاقات بين العراق وإيران بالانحدار فجأة نحو الأسوأ خلال شتاء 1979-1980، والدلاع مظاهرات عنيفة أمام السفارة العراقية في طهران تدعو إلى الإطاحة بصدّام حسين ونظامه البعثي. وتم إحراق العلم العراقي وصور للرئيس العراقي أمام مراسلي الصحافة العالمية. وفي محافظة خوزستان (أرض الأبراج) الحدودية مع العراق التي طالما طالبت بها بغداد بسبب سكانها المتحدّثين باللغة العربية؛ فقد تم نهب القنصلية العراقية في خور مشهر (المحمّرة) وإبعاد القنصل من هناك. وتم تدمير الكثير من المدارس التي تُعلم اللغة العربية والتخلص من معلمها، مع الادّعاء أن مجاهدي (خلق) المعادين للثورة الإسلامية موجودون في العراق آنذاك. وأرسل النظام الإيراني طائراته الحربية إلى الأجواء العراقية؛ للبحث عن مهاجمة الثكنات العسكرية بالعراق. ردت بغداد بقصف عدة قرى حدودية، وأمرت بإغلاق القنصليات الإيرانية في البصرة وكر بلاء، وأعدت تأكيد حقوقها في شط العرب الذي يمتد بطول 250 كم من ملتقى نهري دجلة والفرات حتى مصبه في الخليج الفارسي. ويتشاطأ البلدان على هذا النهر لمسافة مئة كيلومتر تقريباً وبعرض يتراوح بين 1300 و4920 قدماً (400-1500 متر)، ويشكّل النهر دلتا شاسعة من الأهوار تقوم على جانبها من أكبر المصافي في العالم: البصرة وعبادان.

الحرب الإعلامية

ظهر صدام حسين في يوم 8 شباط 1980 على التلفزيون وهو يرتدي بدلة الخاكي الخضراء يدعو إلى تضامن الدول العربية كلها للوقوف بوجه الاستفزازات الإيرانية وبكل الوسائل المتاحة. فهم كل شخص في العالم العربي أن الرئيس العراقي لديه هدف واحد فقط: إعاقة المناورات الإيرانية ولو بالقوة إذا اقتضت الضرورة.

أمّا في إيران، بدأ القمع من قبل الثوار الذين أطاحوا بالشاه في شهر شباط عام 1979 واستمر بقسوة وضاوّة. واندلعت معارك شرسة بين حرس الثورة ومناصري الشاه السابق. وبقي الوضع ضبابياً، فشاور بختيار آخر رئيس وزراء إمبراطوري الآن منفي في فرنسا بدأ يصبّ الزيت على النار ويصرح مؤكداً أنه "سيتم التخلص من الخميني في الحال، أو ربّما خلال سبعة أو ثمانية أشهر على الأكثر! وفي كل الأحوال خلال أقل من سنة. وهذا من المؤكد"⁽¹⁾. أمّا في بغداد؛ فقد فهمت تلك التصريحات بأنّها دليل على ضعف الجيش الإيراني. وقد عززت ذلك الانطباع العناصر الإيرانية المعارضة التي اتخذت من بغداد ملجأً لها بوصفها لذلك الوضع إقناع النظام البعثي بمساعدتهم للإطاحة بالحكومة المؤقتة⁽²⁾، وأكدت الفوضى السائدة هناك، وانهيار الإدارة، وعملية تطهير الجيش والهروب منه، ممّا أدى إلى أن يصبح مشلولاً. أعطت السلطات العراقية وبحكمة عناصر المعارضة مجرد وعود كلامية، وكانت تشكك في قدرة تلك العناصر على إسقاط النظام الثوري. كان العراقيون يفضلون وبشكل خفي تسليح الحركات الاستقلالية في كردستان إيران، بلوجستان، أو في خوزستان الغنية بالنفط ومحاولاتها الانعتاق من السلطة المركزية الإيرانية.

1- Jeune Afrique, March 26, 1980 .

2- كما يذكر تقرير الملحق العسكري العراقي في طهران المؤرخ في 19 نيسان 1979 الذي استولى عليه الجيش الأمريكي في عام 2003، والم محفوظ الآن في معهد التحليلات الدفاعية بواشنطن ويعنون في الأرشيف رقم

.SH-GIMD-D-000-845

وخلال ذلك، تصاعدت حدة المقارعة اللفظية بين بغداد وطهران. في يوم 15 آذار 1980 دعا آية الله الخميني الرأي العام العراقي: "يا أهل العراق، احذروا قادتكم وقوموا بالثورة حتى النصر". وبعد ستة أيام صرّح ابنه أحمد مهدداً أكثر: "يجب علينا نشر كل الجهود الضرورية لتصدير الثورة إلى البلدان الأخرى ورفض فكرة حصرها ضمن حدودنا"⁽¹⁾. ومن جانبها، طلبت الحكومة العراقية الانسحاب من اتفاقية الجزائر الموقعة في يوم 6 آذار 1975 التي سمحت لصدّام حسين وشاه إيران الإعلان أمام الصحافة العالمية أنّهم اتفقوا لوضع نهاية لاختلافاتهم. وبموجب بنودها قبل الطرفين ترسيم حدودهما البرية والمائية بشكل نهائي بعد أن كانت موضع خلاف لقرون متعددة⁽²⁾. وبذلك أصبح خط الحدود النهرية يسير في وسط شط العرب (خط التالوك) وليس مع ضفة النهر الفارسية كما كان معمولاً به في السابق.

وفي الأول من نيسان 1980 تم الهجوم على طارق عزيز وهو من المقربين من صدّام حسين ومن الشخصيات المسيحية البارزة في العراق، بينما كان يخطب في الجامعة المستنصرية حيث انفجرت رمانة على بعد عدة أمتار منه وأصابته بجروح خفيفة. تُوفي نحو اثني عشر طالباً أيضاً، ممّا أدّى إلى اعتقال الناشطين الشيعة مباشرةً. اتهم الأمن العراقي السري الناشطين بأنهم الوكلاء السريون لجهاز السافاما Savama الإيراني، وهو جهاز سري إيراني جديد، البديل عن السافاك الرهيب. وفي اليوم التالي أعلن الرئيس العراقي وبصورة عاطفية أنّ الدم الذي سُفك لن يُنسى. وبعد ثلاثة أيام هزّ العاصمة انفجار آخر في موكب التشييع لضحايا الهجوم الأول: رُميت قبلة محلية الصنع من مبنى المدرسة الإيرانية الواقع على طريق موكب التشييع، ممّا أدّى إلى مقتل وجرح الكثير من المواطنين. احتجّ النظام العراقي بشدة متهمًا طهران بذلك، لكنّ الرئيس الإيراني أبا الحسن بني صدر أجاب على الفور واتهم بغداد بالاستفزازات الفاضحة وأدان الأيديولوجية البعثية بأنّها "ليس أكثر من خليط من العقائد النازية والفاشية والماركسية"⁽³⁾.

1- Paul Blata, Iran- Irak: Un guerre de 5000 ans(Paris, Anthropos-Economica, 1988 ,136.)

2- قادت اتفاقية الجزائر إلى معاهدة إيرانية - عراقية لترسيم الحدود الدولية وعلاقات جوار طيبة، وقعت في بغداد في يوم 13 حزيران 1975.

3- Balta, Iran -Irak,136.

وهكذا أصبح الوضع يسخن بازدياد، فقد أخبر آية الله بهشتي الصحافة الدولية في طهران بأن "صدّامًا جزار بغداد، شريك مناخيم بيغن، مجرد ألعوبة بيد الولايات المتحدة"⁽¹⁾. هذا الاستفزاز أصاب عين الثور: الديكتاتور العراقي المصاب بمرض الكراهية لليهود، ويرى نفسه زعيمًا للقتال ضد إسرائيل، لم يستطع تحمّل أن تصبح مصداقيته في هذا المجال محلّ شبهة. ولمّا كان آيات الله مصممين على كشف الحقيقة فإنّهم - كما يبدو - سيتلقون عمليًا ما يترتب على أقوالهم وتصرفاتهم. أصدر صدّام حسين تحذيرًا شديد اللهجة لآية الله الخميني ودعا مجلس الأمن بالأمم المتحدة إلى التصويت على قرار يدين إيران لاحتلالها غير الشرعي للجزر الإماراتية الصغيرة الثلاث: طنب الصغرى وطنب الكبرى وأبو موسى (الواقعة بالقرب من مضيق هرمز). ولأجل أن يكون قراره واضحًا لآية الله، أمر صدّام مباشرة بإعدام آية الله (محمد باقر الصدر) الذي كان رفيقًا للقائد الأعلى للثورة الإيرانية في أثناء منفاه⁽²⁾. وأمر أيضًا بترحيل أربعين ألف عراقي من أصل إيراني. كانت ردة فعل آية الله الخميني الدعوة صراحة إلى الإطاحة بصدّام حسين منتقدًا بقوة "نظام حزب البعث العراقي البشع والمنحرف، الشيطان الصغير الحقيقي الذي وضع نفسه في خدمة الشيطان الكبير (الولايات المتحدة)". ولم يخف نيّاته كثيرًا وذهب بعيدًا ليعلن: "نريد إيجاد دولة إسلامية تجمع العرب والفرس والأترك والقوميات الأخرى تحت راية الإسلام"⁽³⁾. وعند سماعهم ذلك، استعدّت ملكيات الخليج للحرب وأدركوا أهمية التوحد بشكل أو بآخر، وأنّهم سيُجبرون على مساندة نظام صدّام لاحتواء النزعة التوسعية الشيعية لإيران.

استمرت المناوشات المتقطعة في الميدان، وفي منتصف شهر نيسان هاجمت دورية آلية مخفّرًا حدوديًا ردًا على قصف من طائرة هليكوبتر عراقية على موقع إيراني، ممّا أدّى إلى تكثيف الحرب النفسية. وفي 27 نيسان 1980 أعلن راديو طهران اغتيال صدّام حسين ونشر معلومات مضللة لزعزعة النظام العراقي. وبعد ثلاثة أيام تعرضت السفارة الإيرانية

1 - وكالة (France Press) ثم سيشار إليها بالرمز AFP,6 نيسان 1980.

2 - قُتل محمد (باقر) الصدر في يوم 8 نيسان 1980. وصهره وابن عمّه الثاني مقتدى الصدر سيحمل السلاح ضد

الأمريكيين ويصبح واحدًا من قادة الطائفة الشيعية بعد سقوط صدّام حسين في العام 2003.

3 - وكالة الصحافة الفرنسية، 18 نيسان 1980.

بلندن إلى هجوم من جماعة تدّعي أنها تعود إلى الجبهة الديمقراطية الثورية لتحرير عربستان، وهي جبهة غير معروفة سابقًا. استدعت فرقة المهمات الخاصة الجوية البريطانية للتدخل بعد خمسة أيام؛ لإنقاذ وتحرير الدبلوماسيين الإيرانيين الذين احتجزوا رهائن.

وجعل الوضع أكثر تعقيدًا، منح إيران حق اللجوء إلى الأخوين برزاني، وهما قادة التمرد الكردي تاريخيًا الذي ساد شمال العراق من عام 1974 إلى عام 1975. انتهز الأخوان إدريس ومسعود برزاني الفرصة لإحياء شبكتهم من اليشمركة (مقاتلون من أجل الحرية). وبما إن الحكومة العراقية كانت تتجنب استئناف الحرب في الجبهة الكردية ضاعفت التنازلات لجلال الطالباني المنافس الرئيس للأخوين برزاني، في الوقت الذي شرعت بسلسلة من الغارات القاتلة ضد اليشمركة الموالية للبرزانيين. انتهز جلال طالباني الفرصة لإقامة سيطرته على المدن الكردية ومنطقة كركوك الغنية بالنفط، تاركًا منافسيه يسيطرون على المناطق الحدودية الجبلية. وفاوض صدام حسين للاتفاق على أن يتوقف أنصاره عن مضايقة النظام عسكريًا مقابل توسع أكبر لمناطق الحكم الذاتي. وهذا يُرضي الرئيس العراقي؛ لأنه يفرق الجماعات الكردية المسلحة ويمنع تشكيلها جبهة موحدة ضده.

وفي الوقت نفسه، بقي الوضع في إيران فوضويًا كما هو. قام الرئيس بني صدر بتكثيف عملياته ضد خصوم النظام الجديد، واحتفظ بالقوات المسلحة تحت المراقبة الشديدة؛ لخوفه من وقوع انقلاب عسكري. ولم تكن اجترازاته من فراغ، فقد أكد الجنرال عويسي Oveisi في 4 تموز 1980 أن بإمكانه السيطرة على طهران في نهاية فصل الصيف. وفي ليلة 9-10 تموز تم إحباط مؤامرة قبل ساعات من تحركها. كان هذا الانقلاب قد تم تنسيقه من باريس بإشراف الجنرال عويسي وشابور بختيار واتخذ من قاعدة نوجه Nojeh الجوية بالقرب من همدان نقطة انطلاق له بقيادة الجنرال سيد مهديون والجنرال آية محققي. اختار المتمردون هذه القاعدة؛ كونها تضم عدة أسراب من الطائرات المقاتلة وقريبة من العاصمة الإيرانية. وكانت الخطة تقوم على حركة ثلاثين طائرة مسلحةً بالتسليح الثقيل والشروع عند الفجر وقصف مقر إقامة آية الله الخميني، والقصر الرئاسي، ومقر الحكومة، والكثير من ثكنات الحرس الثوري، ثم يتم نقل عدة كتائب من الجنود الموالين للشاه إلى العاصمة بوساطة الهيلوكوبتر للاستيلاء على مقرات السلطة، ويتم تعزيزهم من قبل عدة كتائب أخرى على الأرض.

كانت ردة فعل النظام الثوري عنيفة. تم اعتقال 600 من الضباط المجندين وغير المجندين وبضمنهم نحو 50 طيارًا، الذين تم إعدام أغلبيتهم بعد محاكمة سريعة بإشراف من الحرس الثوري الذي طوّق القواعد الجوية الرئيسة. أمّا القوة الجوية التي كانت تعاني أصلاً من عمليات التطهير⁽¹⁾، والتدريب غير الكافي لطواقمها، والنقص في الأدوات الاحتياطية؛ أصبحت الآن في فوضى كاملة، فأغلبية الطائرات المقاتلة وطائرات الهيلوكوبتر بقيت على الأرض من غير طيران لعدة أسابيع. أمّا بالنسبة إلى الجنرال عويسي وشابور بختيار؛ فإنّهما وقعا صكّ نهايتهم؛ إذ بدأ النظام الإيراني بمتابعتهم دون رحمة خلال الكثير من السنوات؛ للتخلص منهم⁽²⁾.

هل دعم صدام حسين محاولة الانقلاب؟ لا يوجد دليل يساند هذا الافتراض، وباعتراف الجميع أنّ بعض الطائرات العراقية المقاتلة عبرت الحدود الإيرانية وهاجمت محطات الرادار الواقعة بالقرب من القاعدة الجوية نوجة، وفي الوقت الذي كانت قوات الانقلاب على وشك الحركة. إن أولئك الذين يعتقدون أن المتآمرين والنظام العراقي كانوا متواطئين يرون أنّ هذا الهجوم الجوي ربما سيكون بمنزلة حجة للطائرات الإيرانية للاقلاع وسيهدئ من شكوك العسكريين الموالين للحكومة الثورية. ولكن في هذه الحالة، لماذا لم يكن الجيش العراقي في حالة الإنذار؟ ولماذا لم يكن مجاهدو (خلق) الإيرانيون في المنفى متأهين لعبور الحدود والتوجه لتعزيز المتمردين؟ ويبدو أنّه من غير المحتمل أن يكون صدام حسين قد مارس دورًا واضحًا في هذه المؤامرة، ولا سيما أنّه يكره الإيرانيين ولا يرغب إعطاء خصومهم ثقة كبيرة. هناك ما يكفي من المؤشرات على أنّه كان يمارس لعبة الانتظار، على الرغم من أنّه كان يدرك وجود محاولة مهمة وشيكة الحدوث للإطاحة بالنظام الإسلامي عرفَ بها من الملك الأردني حسين والملك السعودي خالد اللذين أُبلغا بتحذير من وكالة المخابرات الأمريكية التي بدورها كانت تساند سرًا الشبكات العسكرية الموالية للشاه.

1- لقد فقدت القوة الجوية الإيرانية ثلث كوادرها خلال ثمانية عشر شهرًا.

2- تم اغتيال الجنرال عبيسي في باريس من كوماندو إيراني في يوم 7 شباط 1984. وقُتل شابور بختيار من أشخاص إيرانيين في يوم 6 آب 1991، بعد أن كان هدفًا لمحاولة اغتيال فاشلة في يوم 18 حزيران 1980.

صدام يختار الحرب

كان فشل المؤامرة قد عزّز من قناعات صدام. أولاً أدرك الرئيس العراقي أنّه من الخداع أن يعول على نجاح أي انقلاب يزيل الثورة الإسلامية. وأدرك أنّه على الرغم من المساندة النشطة للمخابرات الأمريكية فإنّ المعارضة الإيرانية لا تملك الفرصة، وأنّ الكرد والأذريين والبلوش يقاتلون من أجل الحكم الذاتي لهم واحتمالية الاستقلال وليس الإطاحة بالنظام في طهران. وأدرك صدام أيضاً أنّ من الخطأ التعويل على التدخل العسكري، سواء من الولايات المتحدة أم الاتحاد السوفيتي، المنغمسين بوحل أفغانستان منذ الأشهر العشرة الأخيرة. وسيكون من المزحة الاعتماد على الملكيات النفطية في الخليج. ولذلك؛ توصل إلى قناعة أنّه إذا رغب في الإطاحة بالنظام الإيراني بوقت قصير فإنّه يحتاج إلى العمل بسرعة ثم إضعافه. إنّ كلا النظامين الآن في حالة من الصدام، فالطعن والاستفزاز ذهب بعيداً لكي يتم التسامح معه. كان الدكتاتور العراقي مقتنعاً بقوة أنّ آية الله الخميني لن يأتي للتفاهم بأي حال من الأحوال، وأنّه لم يتوقف أبداً عن الإطاحة به، ولذلك وصل إلى قناعة منطقية أنّه لكي يحافظ على سلطته فإنّه يحتاج إلى المبادرة بضربة وقائية ضد إيران. كان يأمل أن ذلك سيضعف آية الله الخميني وربما يؤسس للإطاحة به. والأكثر أهمية من ذلك كلّ، سيكون باستطاعته استعادة السيادة العراقية على شط العرب بالكامل ومحو "الإهانة" التي تعرّض لها في اتفاقية الجزائر التي كانت تمثل إذلالاً شخصياً له. والأفضل من ذلك تمكنه من السيطرة على بعض الأراضي الحدودية الغنية بالنفط بينما هو هناك.

يبدو أن الوقت مناسب جداً، ولا سيّما أنّ الجيش الإيراني في حالة من التفكك بعد الثورة والحصار الغربي الذي لم يكن مجرد ظل لنفسه كما في السابق⁽¹⁾. كان ما بقي من

1- وبعد أن قدّم جهاز المخابرات العراقي إلى صدام حسين تقريراً موثقاً يحلّل الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية في إيران في يوم 30 حزيران 1980؛

الجيش مبعثراً في عدة جبهات لقتال الانفصاليين الكرد والأذريين والعرب والبلوش وبمساعدة الحرس الثوري. وأكدت تقارير الأجهزة السرية العراقية أن القوة الجوية الإيرانية وهي رأس الحربة في الجيش الإمبراطوري قد مُنعت من الطيران بعد فشل مؤامرة نوجه. لذلك؛ اعتقد الدكتاتور أن الحرب الخاطفة مع إيران ستسمح له بإشغال جنوده وتزيد من هيئته. ويبدو أن ثقة أكبر قد توافرت له باعتقاده أن برنامج النوي يسير في الاتجاه الصحيح بينما إيران تعيش حالة من الشلل المفاجئ بسبب الثوار. واستناداً إلى خبرائه فإن محطة "أوزيراك" النووية التي ساعدت فرنسا على بنائها في منطقة التويثة (على نهر دجلة على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بغداد) ستكون جاهزة للعمل خلال خمسة عشر شهراً، مما يسمح للعراق برفع مكانته واللعب مع الكبار.

وتم أيضاً إقناع صدام حسين أنه بمهاجمة إيران سيفرض نفسه قائداً للعالم العربي، وبذلك سيهشم منافسه الأكبر الرئيس السوري حافظ الأسد. واقتنع أيضاً أن ملوك الخليج سواء في السعودية والكويت حينما يواجهون الواقع فلا خيار لهم سوى مساندته ودعمه مالياً. وبالنسبة إليه فإن الولايات المتحدة ستترث، وببساطة ستنتظر لترى ماذا سيحدث. كان صدام يعتقد أن الأوربيين سيتبعونه؛ لأنهم متخوفون من مخاطر انتشار الثورة الإسلامية في المنطقة، وسيقومون ببيعه الأسلحة. وفي الواقع، كان قلقه فقط من الكرملين؛ لأن ردود فعله لا يمكن التنبؤ بها بسهولة. كان حدسه أن السوفييت بعد خسارتهم لكل نفوذهم في مصر فإنهم سيحترمون اتفاقية الصداقة والمساعدة التي تربطهم بالعراق، وأنهم لا يخاطرون بخسارة حليف وازن في الشرق الأوسط.

وفي منتصف شهر تموز، استدعى صدام حسين رئاسة أركان جيشه وكبار ضباطه وطلب منهم الاستعداد والذهاب للحرب مع إيران، ولكن لم يحدد بعد موعداً لتلك الحرب ولا الأهداف العسكرية الدقيقة منها. أعطى ضباطه شهراً واحداً لتهيئة الجيش وتسليمه خطة متماسكة للمعركة، متجاهلاً حقيقة أن مثل هذه المهمة تتطلب وقتاً أطول بشكل عام. تلقى أغلبية الضباط الخبر بحذر وشكوك، ولكن لا أحد منهم يملك الجرأة والشجاعة لمناقشة القرار ولا حتى عدنان خير الله الذي يتمتع بمكانة متميزة في المؤسسة العسكرية كأخ لزوج

الرئيس ويشغل المنصب المغربي وزيراً للدفاع. وكل أولئك المتورطين مع صدام يعرفون جيداً أنه شخصية لا تقبل النصح بسهولة، وأن كل من لا يخلص الولاء لأفكاره ويقف بوجه مشاريعه فإنه سيتخلص منه من دون رحمة. لقد اعترف أحد ضباطه وهو رعد ماجد راشد الحمداني مؤخراً أن "صداماً ينظر مباشرة في العين وكما أنه يسيطر عليك ومن المروع أنك لا تعرف بما يدور في ذهنه... لدى صدام أكثر من سمة شخصية... ففي لحظة ما تراه حنوناً إلى حد كبير، وبعد لحظة تراه قاسياً وهائجاً بعنف... ففي دقيقة يكون كريماً جداً وفي أخرى شحيحاً جداً... ويمكنه أن يأخذ الأفكار من كل شخص ويكون منها فكرة جديدة. أما على المستوى السياسي كان لاعباً تكتيكياً بارعاً ولكن على المستوى الاستراتيجي فإن 99٪ من مفاهيمه كانت خاطئة. كانت مشكلته فرض المعايير العشائرية على إدارة البلاد"⁽¹⁾. ولم يجازف أحد لتعريض نفسه لغضب الدكتاتور بتحذيره أنه يركب المخاطر بتيهانه في مغامرة لا يمكن التحكم بها.

وبعد أن كتم أفواه ضباطه، لم يعد صدام يعتمد عليهم لإخباره بالحقيقة ومنعهم من ارتكاب الخطأ. والحقيقة، لم يكن الجيش مستعداً للحرب. وعلى الرغم من أن آلياته قد تم تحديثها فإنها بصورة عامة لا تُقارن بمثيلاتها في الجيش الإيراني. هناك حاجة كبيرة للتدريب المطلوب. ولم تكن عمليات السوق متناسقةً ومتراصةً وبقية الدوافع ضعيفة. ربما يكون الجيش العراقي مستعداً لخوض معركة لحماية بلده، أو لقتال الكرد، أو لغزو الكويت كونها جزءاً من العراق، ولكن مهاجمة إيران قضية مختلفة بالكامل. بدأت القيادة العسكرية العليا العراقية الاستعداد لعملية عسكرية على نطاق واسع وفي سرية تامة ودون أدنى مستوى من الحماس، والضباط فيها يعلمون أن قائدهم لا يحتمل تسريب حرف واحد، وأن المصير المرعب ينتظر أي واحد منهم لأية حماقة بسيطة. تحدّث صدام وبنقته إلى الصحافة مادحاً "كفاح الشعب الإيراني ضد النزعة الرجعية لآيات الله وسلوكهم الاستبدادي ومبادئهم

1- مقتبس من :

Kevin Woods, Saddam's Generals- Perspectives of the Iran-Iraq War(Alexandria,VA: Institute for Defense Analyses),60-61.

المتخلفة والمستترة وراء قناع الدين"، وأشار إلى سكان عربستان (الاسم العربي لمحافظة خوزستان الإيرانية) للثورة ضد "الزمرة العنصرية في طهران"⁽¹⁾.

وبينما كان الصراع يحتدم على السلطة في طهران، تابع آية الله الخميني بصرامة تنفيذ أولوياته الثلاثة: تعزيز الثورة الإسلامية، تهيئة رجال الدين لتسلّم السلطة، والمحافظة على إيران وعدم وقوعها تحت النفوذ الأجنبي مرةً أخرى. وبقيادة آية الله بهشتي وآية الله منتظري أفادَ رجال الدين من الانقسامات الأيديولوجية التي أضعفت الأطراف العلمانية وعززوا من مواقعهم وانتقدوا الرئيس بني صدر علانيةً. وعلى الرغم من تمتعه بمساندة القادة الكبار فإنّ اللوم قد وُجّه إلى الرئيس بني صدر لعجزه عن إخمد الثورات المزعزعة للأمن في محافظات خوزستان وكردستان. وفي محاولته استعادة السيطرة وإعادته العمل بالخدمة العسكرية الإجبارية المعلقة، قرّر بني صدر مسيرة الثورة وأرسل تعزيزات كبيرة إلى المحافظتين، فقد أرسل إلى الجنوب الفرقة المدرعة 92 التي برهن ضباطها على ولائهم للنظام، فضلاً عن كتيبتين من الدبابات، وثلاث كتائب مشاة تعود إلى الألوية المرابطة على الحدود الشرقية مع أفغانستان وباكستان. كان يأمل من هذه الإجراءات توجيه ضربة قاضية لمقاتلي الاستقلال من جبهة تحرير عربستان في الأهواز بقيادة محمد طاهر الخاقاني. وساندت وحدات الحرس الثوري المحلية حملة بني صدر الكبيرة هذه. وفي الشمال، نشر الرئيس الإيراني الفرقة المدرعة 28 لمساندة فرقة المشاة 64؛ لملاحقة عناصر البيشمركة التابعين للحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني. وفي وسط البلاد بالقرب من كرمشاه، وضع بني صدر اللواء المدرع 81 والفرقة الآلية 84 واللواء الجوي الأول في حالة الإنذار؛ لتعزيز الجهات الشمالية والجنوبية عند الحاجة إليها. كلُّ هذه الوحدات الآن قريبة من الحدود العراقية، وعليها احتواء أي تأثير لغزو عراقي في الأسابيع القليلة لاحقاً.

تفاقت النزعة المؤذية في طهران لما يبدو أنّ الحكومة الإيرانية عاجزة في تصحيح الاقتصاد الذي انهار نتيجة لمغادرة الفنين الغربيين البلاد منذ ثمانية أشهر. ويبدو أنّ لا أحد يتصور أنّ إيران على شفا الحرب مع العراق، على الرغم من استمرار المناوشات خلال

1 - صحيفة لوموند في يوم 18 و19 تموز 1980.

فصل الصيف، التي اتخذت طابعاً روتينياً ممّا هدأ من مخاوف القيادة الإيرانية. حاولت الأطراف العلمانية القيام بحركة استراتيجية إلى الأمام وتحجيم نفوذ رجال الدين المتنامي ومن دون أي التفات لما كان يجري خارج البلاد. وفي يوم 27 تموز 1980 قُوبلت أخبار وفاة شاه إيران المخلوع محمد رضا بهلوي في القاهرة باللامبالاة، في حين أجرى له الرئيس المصري أنور السادات مراسم دفن رسمية فخمة، ممّا أدى إلى استفزاز النظام الإيراني وإثارة حنقه وقيامه بتشويه سمعة مصر. وبينما كان آية الله الخميني يدرك المخاطر المتزايدة باندلاع نزاع مسلح بين العراق وإيران فإنه لم يعمل أي شيء لتجنبه؛ لأنه كان مقتنعاً أنه عند اندلاع الحرب فإن شيعة العراق سيثورون ضد صدام ثمّ يمهدون لإسقاطه.

الاستعدادات النهائية

في يوم 16 آب 1980 استدعى صدام حسين القيادة العسكرية مرةً أخرى، وأخبر ضباطها بقراره الذي لا رجعة عنه، وهو مهاجمة إيران، لكنّه لم يحدد موعداً محدداً. إنّ يوم اندلاع الأعمال العدائية سيتم اختياراً في اللحظات الأخيرة واعتماداً على الظروف. وداخلياً فإنّ الرئيس العراقي كان لا يزال متردداً في شنّ الهجوم ما دام جيشه يبدو غير مستعداً للحرب. وهو وإن كان لا يعرف كثيراً في الشؤون العسكرية، أدرك تماماً أنه لا يمكنه شنّ حربٍ شاملة ضد إيران بهدف سحق الجيش الإيراني والاستيلاء على طهران؛ لأنّ إيران بلد شاسع جداً وجبلي بكثافة سكانية كبيرة، ممّا يجعل تحقيق مثل هذا الهدف مستحيلاً. وبدلاً من ذلك، كان صدام ببساطة يهدف إلى حرب محدودة تسمح له الحصول على مكاسب أرضية، تؤدي إلى إعادة المفاوضات على المواقع الحدودية والوضع القانوني لشط العرب إلى صالحه باغتنام لحظة الضعف الإيراني. كان يتصور الحرب الخاطفة، محدودة في ميدانها ووقتها - عدة أسابيع في الأغلب - بهدف الإضعاف الدائم للنظام الإيراني وتأسيس مجالٍ للقوة يكون في صالح العراق. وكان يأمل تحقيق انتصار خاطف سيهزُّ سلطة آية الله الخميني ويجبره على كبح طموحاته في السيطرة والتوسع. ونتيجة لحنقه من حكمة القيادة العسكرية،

أَنْبَ صَدَّامَ جنرالاته قائلاً: "ماذا يمنعكم من التقدم في إيران وتطويق الجيوش الإيرانية والاستيلاء عليها؟ لا أحد يقول سوف لم تكن هناك مقاومة! ولا أحد يقول إنه لا توجد خسائر وقتلى! يجب التوغل في إيران الآن ليرى عدونا أننا بإمكاننا أن نضرب"⁽¹⁾.

تبقى الأهداف المتوخاة غير واضحة كما هو توقيت بداية الهجوم، ولكن يبدو أنها محددة بغزو السهول الساحلية لخوزستان وتأمين ضفتي نهر شط العرب. ولم تنو القيادة العسكرية الهجوم على جبال زاكروس، ولا سيّما كان الخريف والأسوأ الشتاء على الأبواب. ومن هذه السلسلة الجبلية التي ترتفع 13100 قدم (نحو 4000 متر) يسيطر الإيرانيون على السهول العراقية. ومن أجل تجنب أيّ هجوم إيراني مضاد من هذه الجبال، خطّط الضباط العراقيون لاتخاذ نقاط سيطرة استراتيجية في قمم تلك الجبال تمكنهم من حماية أفضل للمدن العراقية القريبة من هناك. واختاروا محافظة خوزستان هدفاً رئيساً للهجوم؛ لأنّهم كانوا يأملون أن انبساط الأرض هناك سيسمح لدباباتهم الحركة بحرية، على الرغم من وجود عدة أهوار هناك، ووجود شبكة طرق كثيفة تسمح بالتطويق والمناورة بالهجوم المضلل. فضلاً عن تركيز ثلثي إنتاج النفط الإيراني في تلك المحافظة. وإن الاستيلاء أو تدمير البنية التحتية النفطية لإيران سيؤدي إلى إضعاف النظام الإيراني من خلال تقليص موارده المالية إلى حدّ كبير. كان صَدَّامُ حسين مقتنعاً أن سكان محافظة خوزستان المتحدثين بالعربية سينهضون بمجرد وصول طلائع الدبابات العراقية ويرحّبون بجنوده بوصفهم محررين. كان صَدَّامُ يرى في نفسه أنه وريث الخلفاء العباسيين ويقع على عاتقه مهمة هزيمة الجيش الإيراني الذي كان دائماً على أهبة الاستعداد لاضطهاد السكان العرب. ولربّما يتصور المرء أيضاً النزعة اللصوصية والغريزية لصدّام قد تقوده لمحاولة سرقة احتياطات النفط الإيراني برغم أنه يعرف من الصعوبة استغلالها لحاجتها للوقت الطويل ويتطلب كلفة مالية ضخمة لربط مستودعات النفط في خوزستان مع خطوط نقل النفط العراقية. واستناداً لذلك، أمر ضباطه حشد أسطول من الشاحنات لجلب أكبر كمية ممكنة من المشتقات النفطية من هناك إلى العراق.

1 - كما سمعته من التسجيلات الصوتية بتاريخ 16 آب 1980 التي تم الاستيلاء عليها في بغداد.

وفي يوم 26 آب 1980 وبعد ثلاثة أيام من زيارة صدام حسين إلى الحامية العسكرية الحدودية في خانقين الواقعة بالقرب من مدينة قصر شيرين الإيرانية، أصبح الوضع على طول الحدود الإيرانية - العراقية متوترًا فجأة. وأطلقت النيران من كلا الطرفين على الحدود ومن بينها بالأسلحة الثقيلة ودون دليل واضح على أي من الطرفين بدأ باندلاع المناوشات⁽¹⁾. ولكن هناك شيء مؤكد: أن الوضع يعود بالفائدة على القوة العراقية التي زادت من حدة التوتر لتبرير سبب الحرب. وسمحت هذه المناوشات لصدام حسين بإرسال تعزيزات كبيرة إلى المناطق الحدودية. ردَّ الجنود الإيرانيون بسهولة، وأحيانًا بشكل غير مناسب، وهكذا أصبح اللعب بيد صدام. وتسلمَّ الجنود الإيرانيون الأوامر من الرئيس بني صدر الذي شجَّعهم للتعامل مع الجار العراقي بصرامة كلما أمكن ذلك. ولكي تتجنبَّ الحكومة الإيرانية شهود العيان غير المناسبين لها فقد منعت المراسلين الأجانب من الوصول إلى مناطق النزاع، مما عزَّز من عدم ثقة المجتمع الدولي بطهران.

في يوم 4 أيلول تدخل سلاح المدفعية وبدأ الوضع بالتدهور حينما ردت المدفعية الإيرانية وضربت مدن خانقين ومندلي العراقيتين الواقعتين في وسط الطريق المؤدي إلى سفوح جبال زاكروس، وأكثر بقليل من ستين ميلًا (100 كم) من بغداد. اتهم - وياستهج - صدام حسين الإيرانيين بإثارة الحرب، ولم يدَّخر وسعًا بجلب الصحفيين الأجانب لرؤية القرى التي تعرضت للقصف، وانتهاز الفرصة وأصدر الأوامر لجيشه باحتلال بعض الأراضي الإيرانية الحدودية التي كان العراق يدَّعي بها. وبعد أيام قليلة سيطرت قوات عراقية مدعومة بالمدفعية والدبابات على بعض الجزر الحجرية الصغيرة في شط العرب وعلى بعض المناطق المتنازع عليها بلغت مساحتها 201 ميل مربع (324 كم مربع). خسر الإيرانيون قارين لخفر السواحل في شط العرب، خمس دبابات، ونحو خمسين جنديًا، في حين خسر العراقيون نحو مئة مقاتل خلال هذه المعركة.

وبدأت المناوشات الجوية تنشط. في يوم 7 أيلول عبرت خمس طائرات هليكوبتر عراقية الحدود الإيرانية التي سرعان ما تعرضت لها الطائرات الإيرانية وأسقطت إحداها

1 - في مدة ستة أشهر التي سبقت اندلاع الحرب بصورة رسمية تم تسجيل 524 خرقًا واشتباكًا حدوديًا.

وتركت البقية للعودة. كان ذلك يمثل مفاجأة قاسية للطيارين العراقيين الذين ظنوا أن المقاتلات F-14 المتفوقة جواً لم تكن قادرة على التحليق. وفي اليوم التالي وقعت أول معركة جوية بين الطرفين، حيث أسقطت طائرتان عراقيتان من نوع Mig-21 طائرة إيرانية من نوع Phantom كانت تهاجم الدبابات العراقية المنتشرة على طول الحدود. وبعد يومين هاجمت طائرة عراقية من نوع Mig-21 طائرة إيرانية من نوع F-5 وأسقطتها. وفي يوم 10 أيلول قام الإيرانيون بالثأر. فلأول مرة منذ أن وضعت طائرات "القط" Tomcat في الخدمة نجحت واحدة من هذه الطائرات المتفوقة جواً والمرعبة بتدمير طائرة S-22 لتبرهن على قوة صواريخها من نوع فينكس البعيدة المدى. وبعد أربعة أيام، كان الرئيس بني صدر نفسه على الأرض شخصياً اعتراضه طوافة عراقية من نوع M-23 أطلق طيارها صاروخين جو-جو نحوها دون أية فكرة من على ظهر هدفه. أطلق الطيار الإيراني فوراً الإنارة الخادعة وهبط نحو الأرض بعد عدة مناورات للمراوغة بينما كانت القوة المرافقة للرئيس تطلق النار على المقاتلة العراقية. وفي هذا الوقت كانت هناك طوافة فانتوم بالقرب جاءت لنجدة طائرة الرئيس وطرده الطائرة العراقية بعيداً. بعد ذلك ترجل الرئيس الإيراني وهو في حالة نفسية سيئة. وفي اليوم التالي أسقطت طائرة إيرانية من نوع Tomcat طائرة عراقية من نوع M-21 بالقرب من الحدود. وهكذا عاد الإيرانيون في المقدمة.

في يوم 16 أيلول جمع صدام حسين مستشاريه المقربين للاستشارة النهائية وأخبرهم أنه قرر الذهاب للحرب مع إيران في الأيام المقبلة. كان علي حسن المجيد ابن عم الرئيس ورئيس جهاز المخابرات المرعب يملك الشجاعة الكافية لتوضيح مخاطر مثل هذه العملية وذكر قائمة بالأسباب التي جعلته يعتقد أن ظروف الحرب ليست ناضجة. وبعد أن استمع إليه بتأن، دحض الدكتاتور حجج المجيد الواحدة بعد الأخرى وسأله: "يا علي لماذا تأتي دائماً بالأخبار السيئة وليست الجيدة"⁽¹⁾، عندئذ لم يتحدث علي حسن المجيد أكثر. استمر الرئيس باستدعاء ضباطه وأمرهم بالذهاب للهجوم فوراً، وأنه لم يحتمل أي تأجيل بسيط من

7- إن الوثيقة الكاملة لهذا اللقاء الحساس الذي يمثل بشكل خاص نموذجاً لإدارة صدام حسين. ويمكن إيجاده في

مجموعة الأرشيف الشفوي في CRRC تحت رمز SH-SHTP-A-000-835.

جانبهم. الآن أصبح الضباط أحرارًا في اختيار التاريخ والساعة المثالية للهجوم ما دامت المواجهة ستقع لا محالة.

وفي اليوم التالي، 17 أيلول 1980 ألغى صدام حسين اتفاقية الجزائر وأعلن أنها لاغية وباطلة، وأعلن للعالم "أنّ الوضع القانوني لشطّ العرب يجب أن يعود كما كان تاريخيًا، ويجب أن يتوقف كلُّ ما من شأنه غير ذلك، أي نهرا عربيا يعطي للعراق حق التمتع بكلّ الحقوق الناتجة من سيادته الكاملة عليه"⁽¹⁾. واستنادًا إلى ذلك، لم تعد حدود العراق في شط العرب تسير في منتصف النهر (خط التالوك)، بل ترجع على طول الضفة الشرقية منه. وبهذا الإعلان، اجتاز الدكتاتور العراقي الخطّ الأخير الذي يفصله عن الحرب مع إيران. وفي إشارة جوهرية استفزازية دعا الحكومة الإيرانية للتفاوض للمصادقة على الوضع القانوني الجديد للنهر. ولربّما كان يأمل في السرّ أنّ النظام الإيراني الذي يدرك ضعف جيشه سيُجبرُ على التفاوض والاستسلام ويوافق على الإذعان لاتفاقية جائزة تليبي ثار العراق من اتفاقية الجزائر. بدّد الوزير الإيراني للشؤون الخارجية في اليوم التالي مثل هذا الوهم. وصرّح أنّ بلاده ترفض بشكل قاطع عرض الحكومة العراقية للتفاوض وإلغاء اتفاقية الجزائر من طرف واحد. أدرك صدام حسين أنّ لا خيار له سوى الحرب، ولذلك أرسل طارق عزيز مبعوثًا دعائيًا إلى القادة العرب الرئيسيين. كانت الرسالة واضحة: أنّ الإيرانيين مسؤولون عن تدهور الأوضاع ومن واجب هذه البلدان العربية القدرة على المساعدة المالية في حملة صدام العسكرية التي تستعد لقيادة عملية احتواء المعتدي الفارسي. وأُرسلت هذه الرسالة أيضًا إلى الغرب الذي بدأ يقلق من مجرى الأحداث. أمّا مجلس الأمن بالأمم المتحدة الذي كان منهمكًا في منطلق الحرب الباردة التي تمنع أعضاءه من الاتفاق على أي قرار؛ كان واقفًا فقط ويراقب الخطر المتنامي. وفي الميدان، تكثّف القتال على طول ضفاف شط العرب، حيث استهدفت المدفعية العراقية بقذائفها مدينة عبادان. وفي الجو، تم إسقاط طائرتين F-5 إيرانيّتين من الدفاعات الجوية العراقية حينما كانت تهاجم الدبابات العراقية المنتشرة على طول الحدود ومقتل أحد طياريهما ونجاة الآخر. وألقت القوات العراقية مباشرة القبض على

- 1 - وكالة الصحافة الفرنسية 17 أيلول 1980.

الملازم الثاني حسين لاشكاري الذي لم يُطلق سراحه حتى عام 1996، وبذلك يكون الأسير الإيراني الذي قضى أطول مدة في الأسر لدى العراقيين. وفي يوم 18 أيلول 1980 وضع الضباط العراقيون اللمسات الأخيرة على خطط المعركة. كان التنبؤ بالظروف الجوية المناسبة في يوم 22 أيلول جعلهم يقررون الهجوم في ذلك اليوم، وتبقى ثلاثة أيام فقط لنشر حالة الإنذار بين وحداتهم، وبذلك تم تحديد لحظة انفجار القنبلة، ولا يمكن لأي شيء إيقافها.

القوات في الميدان

في الظروف الاعتيادية لا يمكن - بل من غير المعقول - أن يبدأ النظام العراقي الحرب مع إيران التي تبلغ مساحتها أربعة أضعاف مساحة العراق، وعدد سكانها ثلاثة أضعاف سكانه، وموارد إيران المالية من النفط التي هي ضعف موارد العراق، ووقوع المدن الإيرانية الرئيسة على مسافة آمنة بعيداً عن الحدود العراقية ومحمية بسلسلة جبال زاكروس الشاهقة- فضلاً عن بعد العاصمة الإيرانية 460 ميلاً (740 كم) عن الجبهة في هضبة مقابل سلسلة جبال شاهقة تمتد حتى بحر قزوين. وتملك إيران سكاناً من الشباب يمدونها بقوات احتياطية كبيرة. وأخيراً، يبلغ حجم ميزانيتها العسكرية 60% أكثر من مثلتها العراقية، وتمثل نسبة بسيطة (4%) من حجم الناتج القومي الإيراني مقابل 6.5% للعراق. وتملك الحكومة الإيرانية مجالاً أوسع للمناورة المالية مما تملكه الحكومة العراقية. إن نقطة الضعف الإيرانية الوحيدة هي شبكة الأنابيب الناقلة للنفط الممتدة على طول السهل الساحلي لخوزستان، وهي منطقة الحقول النفطية الرئيسة أيضاً، ومستودع المواد الهيدروكربونية الرئيس (الأهواز)، وخورمشهر ميناؤها النهري الرئيس، وعبادان مصفاة نفطها الرئيسة، وفيها المحطتان الرئيستان لتحميل النفط: خرج وبندر خميني.

والعراق فيما عدا أنهاره وأهواره لا يملك دفاعات طبيعية، ومدنه الرئيسة قريبة من الجبهة، ولا سيما بغداد التي تبعد مئة ميل (160 كم) فقط عن الحدود، أي ست دقائق

بالطائرة. أمّا البصرة وهي ثاني أكبر مدينة عراقية؛ فهي في مرمى المدفعية الإيرانية. ولذلك؛ على الضباط العراقيين الثبات على الأرض بقوة بينما يمكن للإيرانيين الاعتماد على مرونة دفاعية أعمق. وشبكة أنابيب النفط العراقية حساسة بشكل خاص؛ لأنها موزعة بين مناطق للإنتاج غير متصلة (في منطقة كركوك في الشمال والبصرة في الجنوب).

ومن أجل تعويض ضعفه البيئي، عبأ العراق نفسه وبنى جيشاً مهيباً قوامه 250 ألف مقاتل، أربعة أخماسه أخذ يعمل في صنف القوات البرية⁽¹⁾. ويتألف من ثلاثة فيالق، 12 فرقة (خمس مدرعات، فرقتين آليتين، وخمسة مشاة) وستة ألوية تتكون من 1750 دبابة و2350 آلية نقل أخرى، و1350 قطعة مدفعية. كذلك عزز الجيش الشعبي الذي يضم ربع القوات البرية الجيش النظامي وشكّل أغلبية فرق المشاة، وانتشر أيضاً في المدن العراقية لحماية النظام. أمّا القوة الجوية؛ فكانت تتألف من 295 طائرة مقاتلة موزعة على 18 سرباً منتشرة في 11 قاعدة جوية، فضلاً عن 60 طائرة قديمة على الأرض لتعويض أي خسائر كبيرة. وفي الوقت نفسه، كان ينتظر تسلّم طائرات جديدة. أمّا طيران الجيش - وعلى الرغم من كونه جزءاً من القوة الجوية - كان يُستخدم بشكل رئيس لمساندة القوات البرية ويضمّ 300 طائرة هليكوبتر، 58 منها تم تجهيزها بسلاح مضاد للدبابات.

أمّا الدفاع الجوي؛ فكان يعتمد على شبكة كثيفة من المراقبة بالرادار وتسعة ألوية مجهزة بصواريخ أرض - جو ومدفعية سريعة ضدّ الجو. هذه الوحدات تم نشرها في المناطق الأكثر حساسية وكذلك لحماية الفرق المدرعة، ولديها القدرة على إطلاق أكثر من 400 صاروخ أرض - جو على الفور. ومن الناحية النظرية فإنّها تشكّل مظلةً قويةً مضادةً للطائرات على طول الأراضي العراقية. أخيراً، تعدّ القوة البحرية أفقر صنف من القوات العراقية، فهي لا تملك سوى 14 قارباً مجهّزاً بالصواريخ، وثلاث سفن برمائية هجومية، و28 قارباً لخفارة السواحل، وبضمنها عشرة قوارب طوربيد: تتوزع هذه السفن والقوارب على القواعد البحرية في البصرة، وأم قصر، والفاو عند مصبّ شطّ العرب، التي ينتشر فيها أربعة ألوية مشاة بحرية للدفاع عنها.

1- انظر: ملحق رقم 4 عن القائمة المفصلة للقوات العسكرية في الميدان لكلا الجانبين العراقي والإيراني.

تم بناء القوات المسلحة العراقية اعتمادًا على نموذج هجين من الأنظمة العسكرية البريطانية والسوفيتية، فالوحدات المدرعة والآلية قد نُظِّمت على وفق النموذج الروسي. بينما بقيت فرق المشاة قريبةً من النموذج البريطاني. أمَّا الدفاعات المضادة للطائرات؛ فقد أعادت إنتاج النموذج السوفيتي بالكامل، في حين تم تنظيم القوة الجوية على شكل أسراب مستقلة تشبه القوة الجوية الملكية البريطانية. والجزء الأكبر من هذه القوات تم تجهيزها بالمعدات السوفيتية والكثير منها قديم⁽¹⁾. وهذه المعدات على الرغم من صناعيتها الرديئة فميزتها أنها يمكن صيانتها وإدامتها بسهولة. وفي الواقع، كانت الآليات الأكثر حداثة محددة بأربع وخمسين طائرة M-23 (على الرغم من أنها من النموذج المعدل للتصدير وأنها أقل جودة من مثيلاتها المستخدمة في القوات الجوية السوفيتية)، وثمانية عشرة طائرة هليكوبتر مقاتلة من نوع Mi-24، وبالكاد مئة دبابة T-72، ومئتي ناقلة مشاة مقاتلة من نوع BMP-1، ومئتين قاعدة إطلاق صواريخ أرض - جو من نوع Sam-6 و Sam-9. أمَّا الآليات غير السوفيتية؛ فكانت تتألف من كميات محدودة من ناقلات Cascavel برازيلية، وناقلات مدرعة خفيفة فرنسية من نوع Panhard-M-3 و AML-60 / 90، وطائرات هليكوبتر Alouette III. Super Frelon، Gazelle، و Puma. وكانت كميات كبيرة من الأسلحة الفرنسية تحت الطلب بضمنها طائرات Mirag-1s ولكنها لم يتم تسليمها في الوقت الذي كان العراق يستعد للحرب. وبشكل عام، كانت كفاءة الجيش العراقي متوسطة، ولا سيما أن الحكومة بكل شيء ممكن لتأسيس المؤسسة العسكرية وإحباط أي شعور عسكري بالمبادرة. والضباط والجنود الوحيدون الذين يملكون تجربة قتالية مقابل عدوٍّ مدجج بالآليات هم أولئك الذين قاتلوا في جبهة الجولان في حرب تشرين (حرب يوم كيور) قبل سبع سنوات. والكثير منهم كان ضحية عمليات التطهير المتعاقبة في الجيش. إن مجموع المقاتلين الأشداء في معركة صعبة

1- المعدات المتعلقة بهذه القضية تتكوّن من دبابات T-54، T-55، T-62؛ عربات مدرعة BTR-60، BTR-152؛ مدفع ميداني مقطور D-30، M-46؛ مدفع ذاتي الحركة Su-100، Su-152؛ بندقية هجومية AK-47؛ قاذفات رمانات RPG-7؛ طائرات مقاتلة ميغ - 21، Su-7، Su-20؛ طائرات هليكوبتر Mi-8؛ صواريخ أرض - جو SAM-2، SAM-3؛ زوارق حاملة للصواريخ Osa-I، Osa-II؛ زوارق طوربيد P-6؛ معدات بريطانية كانت عتيقة ومهملة إلى حد كبير وتحلّت بسيارات اللوري، مدفعية ميدان مقطورة قديمة ونحو عشرين طائرة هنتر كانت في المخازن.

عرضة للقتال بالدبابات كان محدودا إلى حدٍ كبيرٍ. ومن ناحيةٍ أخرى، حصل رجال المشاة على تجربة قتالية قيمة في منتصف العام 1970 خلال حربهم على الكرد. كان التوجه بالنسبة إليهم، ولسوء الحظ، التحوُّل نحو الجيش الآلي، تأثراً بالنموذج السوفيتي، حيث حول الضباط العراقيون كتائب المشاة الاعتيادية والمتزايد عددها إلى وحدات مشاة متشرة قادرة على متابعة وحماية الدبابات بالقرب من ناقلاتهم المدرعة. ولم يعد هؤلاء رجال المشاة مدربين للانقضاض على خنادق العدو وتركت دوافعهم على وفق بعض رغباتهم. كانت قوات النخبة الوحيدة التي يمكن لصدّام حسين الاعتماد عليها هي: لواء الحرس الجمهوري المدرع، القوات الخاصة، والهندسة العسكرية⁽¹⁾. وخدمت القوّة الجوية كمظلة النظام الأخيرة؛ إذ تمتّع قادتها وطياروها وأشبعت رغباتهم بعدة امتيازات.

أمّا إيران؛ فكانت تملك جيشاً (بالفارسي آرتش) قوامه 290 ألف مقاتل، ثلاثة أرباعه من القوّة البرية وهي موزّعة بين فيلق واحد، سبع فرق (ثلاث مدرعة، ثلاث آليّة، وواحدة من المشاة) وسبعة ألوية مستقلة تضمّ 1710 دبابات و1900 آليّة مدرعة أخرى، و1100 قطعة مدفعية. وفي الوقت نفسه، كان جيش حرس الثورة الإسلاميّة (بالفارسية سپاه) يتألف من الباسدران والباسيج وهو يُشكّل سدس القوّة البرية، ولكن هذه النسبة سرعان ما زادت إلى صالحه. كان النظام الثوري يميل إلى منح هذه القوّة امتيازات؛ لأنّها موالية للنظام تماماً، وليس كالجيش النظامي الذي يبقى محلّ شكّ. كان الحرس الثوري يتألف من وحدات مستقلة أخذت تحلّ تدريجياً محلّ قوّة الانضباط العسكري⁽²⁾، وتكون مسؤولة أمام القائد الأعلى للثورة فقط. والتزمت الحكومة بتشكيل وحدات كبيرة من الباسدران (فرق وألوية) لاستيعاب النموّ الهائل بين صفوفه.

1- منذ اللحظة التي وصل فيها صدّام حسين إلى السلطة ميّز فيلق المهندسن واستخدمه لتنفيذ سياسته في إنجاز المشاريع العامة. ولمّا كان هذا الفيلق لا يمكنه أن يشكّل خطراً كبيراً (المهندسون العسكريون لا يستخدمون سلاحاً ثقيلًا)، نجح هذا الفيلق من عمليات التطهير إلى حدّ كبير التي ضربت بقية صنوف الجيش. لذلك؛ أصبح ملاذاً لأولئك الضباط اللامعين الذين يبحثون عن سيرة مهنية من دون الانضمام إلى حزب البعث.

2- في الفترة قبل الثورة كانت قوّة الانضباط العسكري الإيراني وقوات حرس الحدود لا تزال تتكوّن من 75 ألف عنصر من القوى العسكرية الساندة القوية، وبصورة مبدئية مسؤولة عن حفظ البلد وجعله تحت المراقبة، ولكن تفكّكت تدريجياً وجُعِل الباسدران بدلاً منها.

أمَّا القوة الجوية التي طالما عدت قوات النخبة في الجيش الإمبراطوري كانت تتألف من 421 طائرة موزعة بين 23 سرًا مرابطًا في تسع قواعد جوية. لكن نصف هذه الطائرات كان صالحًا للطيران نتيجة لنقص في الصيانة والطيارين والأدوات الاحتياطية. ولعل من المفارقة أن القوة الجوية كانت تملك خزينًا مهمًا من الذخيرة والأدوات الاحتياطية، لكنها مبعثرة في الكثير من المناطق البعيدة وتدار بنظام حاسوبي معقد الذي ترك غير كامل؛ بسبب استدعاء المهندسين الأمريكيين للعودة إلى بلادهم. ولذلك؛ وجد الفنيون الإيرانيون أنفسهم أمام مسؤولية خزن كميات هائلة من الأدوات التي لا يملكون لها خططًا ولا تسميات. وواجهوا تحديًا لمعرفة وتشخيص الأدوات الاحتياطية لطائرات الفانتوم المخرونة إلى جانب المعدات الاحتياطية لطائرات Tomcat الاعراضية وطائرات هليكوبتر من نوع كوبرا. ومما جعل الوضع أكثر سوءًا أن الكثير من الفنيين ترك العمل، أمَّا الذين بقوا؛ فقد كرسوا طاقاتهم لمهمة رهيبه لا نهاية لها وهي إعادة تصميم نظام إداري متماسك، وكان عملهم بعيدًا جدًا عن الإنجاز عند اندلاع الحرب. بقيت الضمانة الرئيسة للقوة الجوية أربع طائرات من نوع بوينغ 747 تم تحويلها إلى مواقع لقيادة الطيران، ودرزينة من طائرات بوينغ لإعادة التعبئة بالوقود في الجو التي تسمح للطائرات المقاتلة الإيرانية البقاء في الجو لفترات أطول مما يتمتع به الأعداء وللقصف في عمق الأراضي العراقية إذا تطلب الأمر.

أمَّا الطائرات الخفيفة للقوات الجوية والبرية التي يبلغ عددها نحو 800 هليكوبتر لم تكن صالحة للعمل سوى 300 منها فقط. وقوة الدفاع الجوي تتكون من 16 كتيبة مجهزة بصواريخ أرض - جو ومدفعية سريعة الحركة. بينما كانت شبكة الاستطلاع الجوي حديثة جدًا، لكنها تعاني من مشاكل الصيانة كما هو الحال في القوة الجوية. كانت تلك الشبكة مصممة لتغطية المدن الإيرانية الرئيسة والقواعد الجوية وكذلك الحدود مع الاتحاد السوفيتي، لكنها تحتوي على الكثير من الثغرات التي تسمح للطيارين العراقيين التسلل والطيران فوق بعض الأراضي الإيرانية.

ومن ناحية أخرى، كانت القوة البحرية لا تزال القوة الأكثر أهمية في الخليج، وتتألف من ثلاث مدمرات، أربع فرقاطات، أربعة طرادات، تسعة قوارب حاملة للصواريخ (وهناك

ثلاثة تحت الطلب من فرنسا)، خمس سفن برمائية هجومية، عشر سفن إسناد، 35 هليكوبتر، فضلاً عن 26 قارباً لخفر السواحل، 14 طائرة مائية قادرة على تنفيذ غارات مدمرة على منصات النفط التابعة للعدو، وهذه السفن ترسو في القواعد البحرية في بندر عباس، وبحر عمان، وبوشهر على الخليج.

كانت البنية التحتية العسكرية الإيرانية متأثرةً بالأنظمة البريطانية والأمريكية، وكان تشكيل فرق القوات البرية يشبه إلى حدٍ كبيرٍ تركيبة الجيش الأمريكي: عدد محدود لفرق كبيرة جداً، ومجهزة بكثافة بالمقاتلين والأسلحة، يستطيعون التحرك بشكل مستقل عن بعضهم الآخر بفضل دعم قوي، ولكن ليست مرنة بشكل خاص، وتعتمد كثيراً على السوقيات (نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم). ومن ناحية أخرى، نُظمت الألوية والكتائب على وفق النموذج البريطاني الذي يميل إلى تعدد الاستعمالات والتفاعل. أمّا القوة الجوية؛ فقد أعادت إنتاج النموذج الأمريكي للقوة الجوية: أجنحة متخصصة في نماذج مهمات خاصة، كلٌ جناح يتكوّن من 2-3 أسراب بنحو عشرين طائرة. وتشكّل تركيبة القوة الجوية من بقايا النموذج الأمريكي: ألوية مختلطة تتألف من عدة كتائب للمراقبة والنقل وطائرات هليكوبتر مضادة للدبابات. أمّا تنظيم القوة البحرية؛ فقد تأثر بصورة مباشرة بالقوة البحرية البريطانية.

ولعلّ من السخرية أنّه بينما يرفض الإيرانيون أية إشارة إلى الغرب فإنّهم يطبقون مبادئه العسكرية على جيشهم، وأبرز انعكاس لهذه الازدواجية كان الجيش الإيراني مجهزاً قبل كلّ شيء بالمعدات والذخيرة الأمريكية والبريطانية، وبذلك عقد من مهماته السوقية. وما عدا القوة الجوية التي بقيت مجهزة تماماً بأنظمة الأسلحة الأمريكية فإنّ بقية أصناف الجيش كانت مجهزةً بأسلحة مختلفة الأصول وليس بالمعايير نفسها أو حتى أساليب العمليات المعتمدة. ولذلك؛ كان على سائق الدبابة الإيراني أن يعيد تكييف أسلوب قتاله، هل هو يقاتل على ظهر دبابة أمريكية من نوع Patton أو على ظهر دبابة بريطانية من نوع Chieftain. والواقع نفسه فيما يتعلّق برجال المدفعية الذين قد يجدون أنفسهم يطلقون صواريخ أرض - جو أمريكية من نوع Hawk أم صواريخ بريطانية من نوع Rapier! وممّا يجعل الأمور أكثر تعقيداً أنّ القوات البرية كان لديها 1000 ناقلة جنود مدرعة سوفيتية

الصنع (BTR-50 و BTR-60) تسلمتها إيران من الاتحاد السوفيتي في ستينيات القرن المنصرم في وقت كان الشاه مصممًا على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع موسكو. وعلى الرغم من تباين هذه المعدات واختلافها فإنها تتميز في كونها حديثة الصنع مما يسمح للجيش الإيراني بالتقدم تدريجيًا. وأغلبية أنظمة التسليح هذه (Tomcat و Phantom، Chieftain ودبابات M-60، وبنادق ذاتية الدفع نوع M-107 و m-109، صواريخ أرض-جو نوع Hawk، صواريخ بحر mk-5 Vosper) تتفوق عمًا يملكه الجيش العراقي⁽¹⁾. ولكن من الناحية العملية الكثير من هذه المعدات لم تعد صالحة للعمل؛ بسبب نقص في الصيانة أو عدم وجود جنود مؤهلين لاستخدامها. ونتيجة لذلك، الكثير من الدبابات والطائرات والهيليكوبتر فككت لاستخدام أجزاء منها في صيانة آليات وأجهزة أخرى، مما يسمح للإيرانيين استخدامها وجعلها صالحة للعمل. فضلًا عن ذلك، كانت وحدات الجيش متشرة في طول البلاد وعرضها لمواجهة العصاة وحماية النظام وحراسة الحدود كلها. وهكذا كان نصف الجيش الإيراني فقط في وضع يمكنه مواجهة الجيش العراقي عند اندلاع النزاع.

وإذا وضعنا التقييم الكمي جانبًا، يجب ملاحظة الضعف النوعي للجيش الإيراني لمرحلة ما بعد الثورة: تسييس متعاقب للقيادات التنفيذية، الوجود المعيق للمسؤولين السياسيين المحبط لروح المبادرة للضباط، المنافسة المتنامية بين الجيش النظامي وحرس الثورة، التنسيق الضعيف بين أصناف القوات المسلحة المختلفة، والنقص في التدريب. والنقطة الأخيرة مزعجة وشاقّة؛ لأنّ الجيش الإيراني لا يملك الخبرة الحقيقية لقتال آلي مكثف جدًا. وكلّ ما يتذكره الضباط أنّ أعداءهم كانوا من مقاتلي حرب العصابات للجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل حينما ساعد الجيش الإمبراطوري الجيش العماني في مطلع سبعينيات القرن الماضي، وفي الفترة القريبة جدًا القتال مع البيشمركة الكردية (PDKI)، ومع فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير الأهواز ومقاتلي من أجل الحرية الأذريين

1- وفي الواقع تميّز الجيش العراقي في معاركه المضادة للدبابات فقط وبفضل الإرساليات الكبيرة لصواريخ HOT و Milan الفرنسية التي عُدت لاحقًا الأفضل عالميًا.

والبلوش، وكلُّ هؤلاء الخصوم لم يتجهَّزوا بالأسلحة الثقيلة، والهليكوبتر، والطائرات المقاتلة، والدبابات.

وبينما كان الجنود الإيرانيون يتدربون على مواجهة الفرق السوفيتية المدرعة فإنهم نسوا الجزء الأكبر من المعرفة بهذا التدريب وفقدوه منذ اندلاع الثورة الإسلامية. ولم يكن الوضع أفضل في قمة الهرم العسكري. لم تكن دورات التعيينات متناسب والجهود المبذولة لتحسين حالة الجيش، فقد عُيِّنَ ثلاثة وزراء للدفاع وثلاثة رؤساء للأركان في غضون خمسة عشر شهرًا⁽¹⁾. أمَّا بالنسبة إلى القيادة العسكرية العليا كانت تتشكَّل من أفراد يتميزون بالولاء الثوري التام وإن كانوا يمتلكون تجربة عملياتية وقدرات قتالية محدودة جدًا. والأسوأ من ذلك، لا يوجد جنرال أو عقيد يمكن أن يُدعى بالعقل الاستراتيجي الحقيقي، ولم يكن الباسدران أفضل حالًا، كان قائده آية الله علي خامنئي رجل دين متمكِّن جدًا في النقاش والجدل، ولكن ليس في الواقع على الأرض. كان الحرس الثوري بحاجة إلى قائد قادر على قيادته في القتال، وليس إلى مراقب يراقب سلوكهم الديني القويم.

وبينما يبدو الجيش الإيراني أنه أكثر قوةً من الجيش العراقي على الورق، لكن كانت نسبة القتال إلى جانب الجيش العراقي، ولا سيَّما في صنف الطائرات والناقلات المدرعة. وعلى جبهة القتال الممتدة من عمق كردستان بطول 560 ميلًا (900 كم) حتى مصب نهر شط العرب، كان العراقيون يتفوقون على الإيرانيين بنسبة اثنين إلى واحد، وفي بعض الجهات من الجبهة يصل التفوق أربعة إلى واحد. وبالتأكيد، لا يمكننا الافتراض أن هذه الميزة ستستمر، لكنها تبدو كافية في حالة لو أرادت بغداد القيام بحرب خاطفة. ومع هذا الإدراك في البال، يمكن للمرء أن يفهم بشكلٍ أفضل قرار صدّام حسين المخاطرة بالذهاب إلى الحرب مع إيران.

1 - أحمد مدني، نقي رياحي، ومصطفى شامران، شغلوا حقيبة الدفاع على التوالي، بينما شغل رئاسة الأركان الجنرالات: محمد ولي قراني، ناصر فاربود، وحسين شاكري.

الفصل الثاني

قادسية صدام

أصبحت القيادة الإيرانية في طهران أكثر وعياً بمخاطر الحرب. حضر القادة الرئيسون للقوات المسلحة عند آية الله الخميني الذين شاركوا للتو في جلسة مغلقة للبرلمان برئاسة السلطة العليا للناطق باسمه أكبر هاشمي رفسنجاني. في يوم 20 أيلول 1980 اجتمع مجلس الأمن القومي برئاسة الرئيس أبي الحسن بني صدر. كان رئيس الوزراء محمد علي رجائي ووزير الدفاع مصطفى كامران يصغون إلى الآراء التحذيرية من القادة العسكريين الذين كانوا يدركون أن الجيش لم يكن مستعداً للحرب. وازداد التوتر سوءاً في اللقاء؛ بسبب أن الرئيس ورئيس الوزراء كانوا بوضوح على طرفي نقيض. فرئيس الوزراء علي رجائي المقرب بقوة من رجال الدين لا يريد التوقف عن أي شيء حتى إنكار مخاطر الحرب؛ من أجل إضعاف موقف بني صدر الذي كان آيات الله يعدونه تقدماً جداً. وبعد مباحكات اتسمت بالسأم، تمكن الرئيس الإيراني من فرض رأيه باستدعاء 120 ألفاً من الاحتياط على أمل أن وجودهم يكبح جوع العراق للحرب.

وبينما في بغداد، كان الجنرالات يضعون اللمسات النهائية لاستعدادهم. وأطلق صدام حسين متباهياً على الهجوم تسمية "صدى القادسية" في إشارة إلى معركة القادسية (636م) التي سحق فيها الجيوش العربية الفاتحة الجيش الإيراني إلى الجنوب من النجف

على الضفة الغربية من نهر الفرات، وأصبحت هذه المعركة منذ ذلك الوقت رمزًا للنصر العربي على الفرس.

بدأت العملية العراقية اعتياديًا بالهجوم على قواعد القوة الجوية المعادية. لم يكن الجنرالات ميالين إلى المخاطرة بشكل خاص بطائراتهم الثمينة للذهاب والضرب في عمق أراضي العدو، ولكن كان صدّام حسين يصرُّ على ذلك، كان الدكتاتور مقتنعًا أن "قوته" الجوية قادرة على القيام بذات العمل الجريء للطيارين الإسرائيليين الذين دمّروا القوات الجوية العربية خلال ساعات قليلة في 5 حزيران 1967. ومِمَّا لا شكَّ فيه أن الرغبة لمحو هذه الذكرى الحزينة قد امتزجت بطموحه في توجيه ضربة كبيرة تؤسس لهيبته في العالم العربي وتقنعه بضرورة مثل هذا الهجوم الجوي، وحتى الآن كانت أهدافه سياسية وليست عسكرية. وخير مثال على مؤيدي هذا التوجه الجنرال محمد جاسم الجبوري قائد القوة الجوية الذي أتبع رغبات الدكتاتور، ووضع جانبًا الاعتراضات القليلة لأولئك الذين يرأسهم من الشجعان وقالوا بكفاءة نظام الدفاع الجوي الإيراني أرض - جو، وافتقار العراق للأسلحة الفعّالة لتدمير ملاجئ الطائرات الكونكريتية الإيرانية. واستنادًا إلى صعوبة تدمير الطائرات المقاتلة الإيرانية في ملاجئها الكونكريتية المحصنة، ركّز الطيارون العراقيون على تحييد مدارج الطائرات وعمليات السوق للمستودعات لمنع القوة الجوية الإيرانية من الإقلاع وتحقيق التفوق الجوي في الجبهة. وسيتم أيضًا قصف المقاتلات المرابطة على جوانب المدارج بالقنابل بعنف وإن لم تشكل هدفًا أوليًا لهذه الضربات الوقائية. كان الاستراتيجيون العسكريون يجادلون أن على الطيارين العراقيين إعطاء الأولوية لتدمير وقصف رادارات وأنظمة الدفاع الجوي للعدو، على الرغم من أنهم لا يملكون في الواقع صواريخ مخصّصة لمثل هذه المهمة، وهذه واحدة من الأمثلة عن العجز الذي يوضح الاحترافية المفرطة لتأسيس المؤسسة العسكرية العراقية التي خططت لهذه الحرب على مفضض.

صقور صدام يبدؤون الحرب

في يومي 20 و21 أيلول زارَ الجنرال سالم قائد أركان القوة الجوية العراقية سريةً لتفتيش قواعد القوة الجوية الستة التي ستنتقل منها الطائرات المقاتلة والقاذفة، وأصدر أوامره وأوضح أهدافه. وعلى العكس مما هو معتاد، لم يقع الهجوم عند الفجر، بل في منتصف النهار؛ لكي يسمح للطيارين العراقيين تفادي ظهورهم على رادار العدو والطيران منخفضًا بين منحدرات الجبال. لم تكن الطائرات العراقية السوفيتية الصنع مجهزة بأنظمة ملاحية أرضية، ولم يكن طياروها مدربين على الطيران الليلي، ولكي يتم تنفيذ ضربات متناسقة لقصف كل الأهداف عند انبلاج الفجر؛ كان على الطيارين التحليق في الليل والطيران فوق كل تلك المسافة في ظلام تام، وهذا خارج قدراتهم. ولذلك؛ كان مخططو العمليات يرون أن الهجوم عصرًا سيعطي للطيارين العراقيين أفضل فرصة للهروب من العدو.

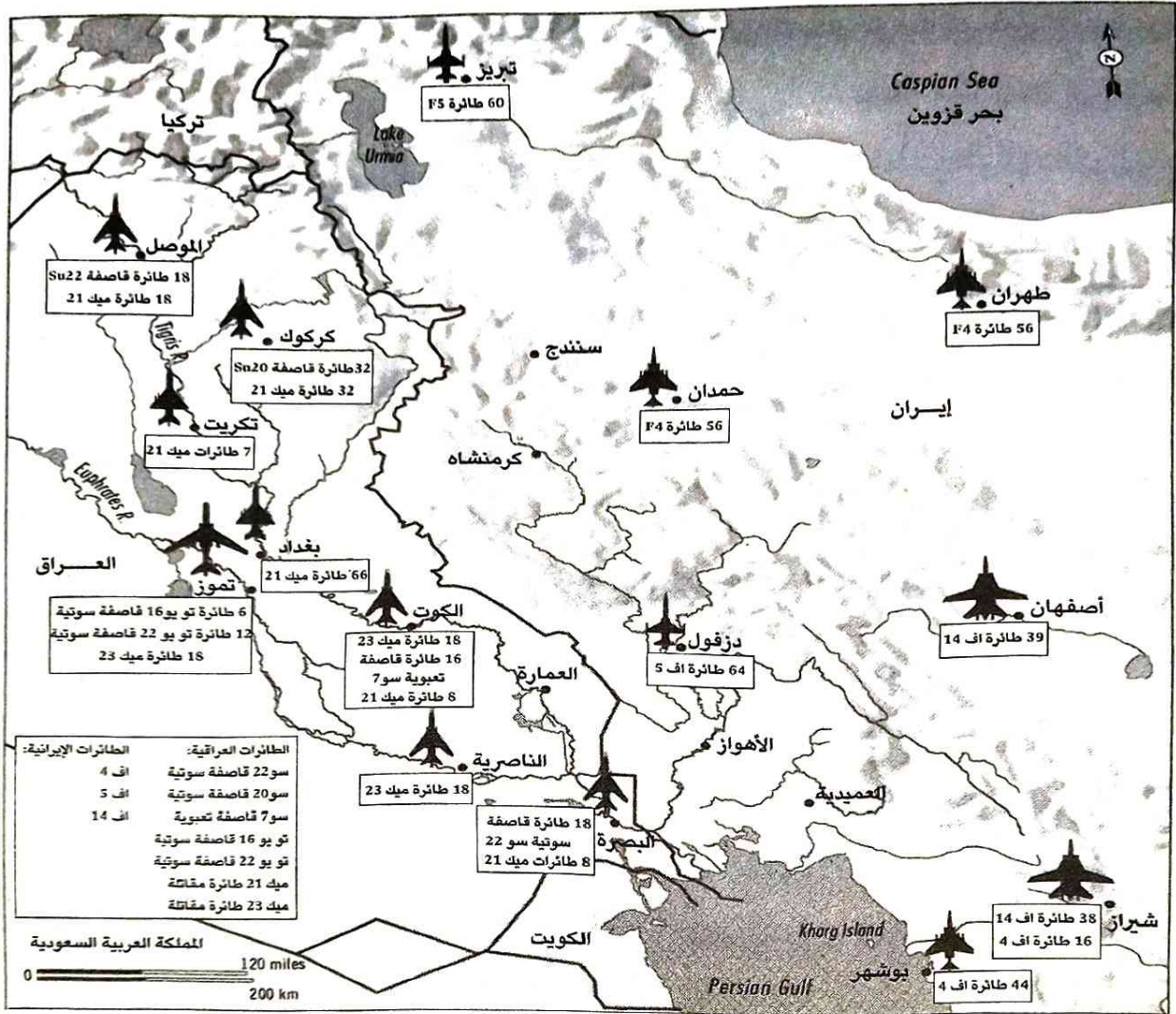
عمل الطيارون والفنيون العراقيون خلال اليوم بجنون لتهيئة الطائرات، وفي وقت متأخر من العصر زُودت الطائرات بالوقود وربطت الصواريخ المدمرة للمدارج إلى طائرات الميغ وسيخوي، ومع أخذ المسافة للوصول إلى بعض الأهداف قُلِّصت حمولة الطائرات للسماح بتزويد الطائرات بأكثر كمية من خزانات الوقود الخارجية. وفي المعدل، كلُّ طائرة تحمل مظلتين (برشوتين) فقط مزودتين بقنابل مدمرة، وهي ليست كافية لتحديد القواعد الجوية المنتشرة التي بناها الشاه على النموذج الأمريكي. على أية حال، كانت خزانات طائرات توبولوف محملة تمامًا بقنابل حديدية وهي مثالية لسحق الأهداف.

أخذت مراكز العمل بالتوثب في 22 أيلول 1980، وبعد نظرة وجيزة ونهاية، صعد الطيارون الذين كان التوتر واضحًا على وجوههم ولكن بثقة إلى طائراتهم البالغ عددها 192 المشتركة في الموجة الأولى من الهجوم في وقت متأخر من الصباح. وفي العصر أخذت القواعد الجوية تهتزُّ بأصوات الطائرات التي بدأت بالحركة بسرعة وبالتعاقب، وكلُّ سرب

توجّه تدريجيًا إلى المدرج استنادًا للأوامر المعطاة بالدقّة والتوقيت، واصطفّت الطائرات في خطّ واحد للإقلاع نحو إيران. حلّق المهاجمون تحليقًا منخفضًا بتشكيل 4-6 طائرات والالتزام بعدم الاتصال وبالصمت التام. وعليهم الاسترشاد باستخدام معلومات الملاحة الجوية والدلالات الأرضية التي يمكن الاستفادة منها، ولم تكن هناك طائرات مرافقة؛ وذلك للسرعة وعنصر المفاجأة اللتين تُعدّان أفضل حماية لهم. كانت المقاتلات العراقية مستعدة لمساعدتهم في حال تعرضهم للخطر عند العودة من مهمتهم.

كانت أولى الطائرات التي وصلت إلى أهدافها هي SU-20s من كركوك التي قصفت قاعدة نوجه في همدان في الساعة 1:45 بعد الظهر وسببت بعض الأضرار في مدارجها. وبناءً على الأوامر الصارمة قام الطيارون بصولة هجومية منفردة وعادوا إلى قواعدهم مباشرةً وقلّصوا بذلك من فرص إسقاطهم. وإلى الشمال، ألقعت طائرات SU-22s من الموصل وقصفت قاعدة تبريز الجوية، وتمكّن العراقيون من إلحاق أضرار خفيفة بالقاعدة وقصفوا طائرة الخطوط الجوية الإيرانية بوينغ 727 التي هبطت لتوها هناك، ولكن هذه مجرد غنيمة طفيفة لصقور صدّام الذين كانوا يطيرون بسرعة فائقة وليس لديهم تدريب كافٍ لإيقاف طائرات Tiger المنتشرة في صفّ واحدٍ حول محيط القاعدة أو تقاطعاتها. كذلك قُصفت الطائرات الأخرى في ملاحجها الكونكريتية من دون مقاومة. وفي الوقت نفسه، قصفت الطائرات التي ألقعت من البصرة القواعد الجوية في دزفول وبوشهر، وكانت قاعدة دزفول الأكثر تضررًا، حيث دُمّرت مدارجها وبنيتها العسكرية بقوة شديدة، ولكن لم تُدمر أية طائرة مقاتلة. وفي أقصى الجنوب تمكنت دورية للإنذار المبكر من إسقاط اثنين من المهاجمين، فطائرات سيخوي عاجزة عن مواجهة الفانتوم.

أمّا طائرات Mig-23s هي الأفضل للهجوم الأرضي، ألقعت من قاعدة الناصرية وقصفت قاعدة كرمشاه العسكرية الواسعة المساحة وتجمع فيها الكثير من طائرات الهليكوبتر الإيرانية. وقصفت طائرات Mig-23s و SU-7S المرابطة في الكوت المطارات المدنية في الأهواز وسندج التي خدمت كملاذات لتشتيت رجال القوة الجوية الإيرانية.



خارطة القوات الجوية للطرفين عند اندلاع الاعتداءات

كان الهجوم المثير للإعجاب قد حدث عند الساعة 2:20 بعد الظهر حينما قصفت خمس طائرات TU-22 التي أقلعت من قاعدة تموز (الجبانية إبان السيطرة البريطانية) وحلقت على ارتفاعات منخفضة جداً فوق طهران وانقسمت على تشكيلين: الأول هاجم مطار مهراباد الدولي الذي كان قاعدة لسرب من طائرات الفانتوم، لكن قنابله التي تزن كل واحدة 1,100 باوند (500 كغم) أخطأت المدارج وأصابت طائرة نقل C-130 هيراكلس وطائرة بوينغ 707 المخصصة لتزويد الوقود للطائرات في الجو ودمرت بشدة طائرتين مدنييتين أخريين. شاءت صدف الحظ خلال توجه القاذفات بشكل حاد للعودة إلى قواعدهما

في الوطن شاهد أحد رماة البنادق المحمولة صفًا من طائرات الفانتوم أمام نظره كأنما تريد الاستعراض في الجوّ وأطلق رصاص بندقيته (23 ملم) لها بحماسة ممّا أدى إلى شطر إحداها إلى نصفين. وهذه الطائرة المقاتلة الإيرانية الوحيدة التي أسقطت طوال ذلك اليوم. بينما قام التشكيل الثاني بقصف ثكنات قيادة القوة الجوية الإيرانية بهدف القضاء على قيادتها، ولكن مرة أخرى أخطأ الطيارون العراقيون أهدافهم، وردت الدفاعات الجوية الإيرانية وأسقطت إحدى الطائرات العراقية المغيرة.

وفي الساعة 2:30 بعد الظهر ظهرت بشكل مهيب فوق مهابط الطائرات في أصفهان أربع طائرات TU-16 وهي من القاذفات الثقيلة التي ترابط في قاعدة تموز (الجبانية) أيضًا. كانت هذه المهابط تمثل قاعدةً لنصف عدد طائرات F14s الإيرانية. بعثر الطيارون العراقيون قنابلهم في محيط تلك القاعدة ولم ينجحوا في تدمير مهابط الطائرات هناك؛ لأنّ نظام رصد الأهداف عندهم لم يكن مصمّمًا للطيران والقصف المنخفض. أجبرت قوة الدفاع الجوي هناك المهاجمين للقيام بحركات مفاجئة للتخلص والانسحاب، ولكن تفاجأ قائد التشكيل واصطدم بالجبال القريبة ممّا أدى إلى انفجار محركات الطائرة الأربعة واحتراقها ككرة من النار، وكانت صور بقايا هذه الطائرة التي شاهدها الناس حول العالم شاهدًا على فشل الهجوم العراقي.

وفي الساعة 2:40 بعد الظهر، وصلت أربع طائرات TU-22s إلى قاعدة شيراز الجوية وهي الهدف الأبعد في ذلك اليوم. كان الهجوم مهمًا؛ لأنّ تلك القاعدة كانت تضمّ النصف الآخر من طائرات F-14 الإيرانية. أنزل الطيارون العراقيون قنابل قليلة على مهابط القاعدة وفجّروا بعض مستودعات الأسلحة فيها، لكنهم فشلوا في تدمير أيّ من الطائرات الاعتراضية الثمينة، أمّا القواعد الجوية في بندر عباس وكانجان الواقعتين قريبًا من مضيق هرمز؛ بعيدتان جدًّا ولا يمكن للعراقيين مهاجمتهما.

وحالما هبطت طائرات الميغ والسيخوي أُعيدَ تجهيزُهما بسرعة. وفي العصر أقلعت مرة أخرى لتهاجم القواعد الجوية الإيرانية الأربع والأقرب للعراق، وهي: تبريز، همدان، دزفول، وبوشهر. لكن تلك الضربات لم تكن أكثر دقةً من سابقتها. كان قلق الطيارين

العراقيين الأكبر كيفية تجنب المقاتلات الإيرانية، وهي مهمة كانت سهلة إلى حد كبير؛ لأنّ الطيارين الإيرانيين اقتصرتهم مهمتهم آنذاك على حماية القواعد الجوية في طهران وشيراز وأصفهان، اللواتي لم يتعرضن إلى أية هجومات في ذلك اليوم. ومع انتهاء الهجوم الثاني، وضعت القوة الجوية العراقية نهايةً لتلك الهجومات في ذلك اليوم، وأمرت بانتشار طائراتها في المهابط الثانوية، وأرسلت بعض قاذفاتها الثقيلة إلى الأردن واليمن الشمالية لحمايتها من أية ضربات إيرانية مضادة. وفي نهاية اليوم، كانت نتائج 250 مهمة جوية متواضعة: تدمير أربع طائرات للعدو (من بينها ثلاث طائرات نقل) مقابل خسارة العراق لخمس طائرات (MIG-21, TU-, TU-22, 16) واثنين (SU-22s). والقواعد الجوية الإيرانية خرجت غير متضررة من هذه العمليات التي هدفت في الأصل إلى إخراجها عن الخدمة. وربما تحتاج الطائرات العراقية إلى تسليح خاصّ وإلى خمسة أضعاف عدد تلك الطلعات الجوية؛ للتحديد الدائم لتلك القواعد الإيرانية، فمعظم الحفر التي تركتها القنابل العراقية تمّ ردمها ليلاً، وفي الصباح كانت القواعد الجوية الإيرانية الرئيسة تعمل مرةً أخرى.

النسور الإيرانية تتأثر

نظراً لمفاجأة الهجوم العراقي وللعجز في وجود اتصال مع رئاسة الأركان التي تعرّضت للارتباك من كثرة الاتصالات بها، فقد ترك قادة القواعد الجوية لاتخاذ ما يرونها مناسباً خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى من الهجوم العراقي. لقد اكتفوا بالتوجيهات العامة التي لا فائدة منها في مثل هذه الظروف. أعطيت الأولوية لحماية الطائرات، واستدعاء ما يتوفر من الطيارين، وتجهيز الطائرات بالسلاح، وإصلاح مهابط الطائرات، واختيار الأهداف. وفي غياب أية توجيهات صادرة مؤخراً، أخرج القادة خطط العمليات التي وضعت أيام الشاه التي تستدعي هجوماً متزامناً على القواعد الجوية العراقية، بينما توجه قائد القوة الجوية الإيرانية العقيد جواد فاكوري إلى مطار مهراباد لمحاولة الحصول على فهم أفضل عن الوضع، ونجح في الاتصال مع قادة القواعد الجوية لتقييم الأضرار الناتجة من

الهجوم العراقي، وتنسيق الخطوط العريضة للهجوم المعاكس اعتمادًا على المعلومات الواردة من تلك القواعد. اعتمدت الخطة الأساسية على ضرب العدو بالسرعة الممكنة للتأثير في معنوياته، ولإظهار أن الأسد الفارسي لا يمكن أن يترك بلده يتعرض للهجوم دون نتائج. ولكن من المهم جدًا أن يُقنع السلطات المدنية بإخلاء وولاء القوة الجوية وقدرتها على الرد بسرعة. كان العقيد فاكوري ينظر من النافذة إلى جبال البرز المطلّة على طهران، وهو يردُّ على المكالمات الهاتفية، قرّر أن يختار اسم تلك الجبال تسميةً لعمليته.

عمل الفنيون بمشقةً خلال الليل لتهيئة الطائرات للتحليق، ودرسَ الطيارون خططَ العمليات التي أخرجت من المدارج المهملة. كان المبدأ بسيطًا: كلُّ قاعدة ستهاجم الأهداف الأقرب إليها، وأن تحلق طائرات البوينغ 707s و747s باستمرار في السماء الإيرانية؛ لإعادة تزويد طائرات الفانتوم التي تحمي طهران أو أية طائرة مقاتلة بحاجة إلى الوقود في الجو، وتتولّى الطائرات القليلة من نوع Tomcat الدفاع الجوي عن طهران وأصفهان وشيراز. ولسوء الحظ، لم يستطيعوا مهاجمة الرادارات العراقية ولا بطاريات صواريخ أرض-جو؛ لأنَّ الطواقم المؤهلة لمثل هذه المهام تم رميهم في الحبس بعد الثورة⁽¹⁾.

وعند الساعة الرابعة فجرًا من يوم 23 أيلول كانت القواعد الجوية في مهراباد، همدان، بوشهر، وتبريز قد استعدت لإقلاع 120 طائرة فانتوم و40 طائرة Tiger كلها مسلحة بطاقاتها القصوى. كان ذلك عملاً بطوليًا رائعًا إذا أخذنا بالحسبان الحالة المفترضة المشوشة للقوة الجوية الإيرانية. قام الطيارون بعملية التفتيش النهائية، بدأت عمليات تشغيل المحركات، وبعد ذلك خرجت الطائرات من حظائرها بموكب منسق جدًا، أقلعت أول طائرة عند الساعة الخامسة فجرًا واتجهت مباشرة غربًا نحو العراق بثماني طائرات لكل تشكيل، لكنَّ إحدى طائرات الفانتوم انفجرت عند الإقلاع؛ بسبب خللٍ فنيٍّ ومقتل طاقمها بالكامل، لكن هذه الحادثة لم تعرقل العملية. كانت المقاتلات عند بزوغ الفجر تحلق على ارتفاعات منخفضة

1 - عن التفاصيل الكاملة للعمليات الجوية خلال الصفحة الأولى من الحرب، انظر الجزء الرابع من كتاب:

Tom Cooper and Farzad Bishop, Iran-Iraq War in the Air (Atglen, PA: Schiffer Publishing 2000),

72-110.

فوق إيران وباسكات كامل لأجهزة الرادار والإشارة الراديوية مستخدمة حيلة النجدة عند التدريب للتعليم على مهمتها. كانت كل طائرة فانتوم مزودة بخزانين إضافيين للوقود وست قنابل وبنديقية من نوع Gatling ذي 20 ملم وبمعدل نار كثيفة وستة صواريخ جو - جو لتأمين الدفاع عنها في حالة اعتراضها من المقاتلات العراقية. أمّا المقاتلات الصغيرة من نوع Tiger؛ فقد زوّدت بخزان وقود خارجي واحد وقنبلتين وبنديقية ذي 20 ملم.

وحالما عبرت جبال زاكروس هبطت الطائرات إلى ارتفاعات منخفضة وزادت من سرعتها إلى أقصى معدل ممكن، كانت تحلق بسرعة 560 ميلا (900 كم/ ساعة) في الساعة وعلى ارتفاع 65 قدمًا (20 مترًا) عن الأرض، ونظرًا تكون قريبة من الرصد. وفي السادسة صباحًا كانت مقاتلات الفانتوم من همدان أول من تصل إلى أهدافها: مطار بغداد العسكري حيث تنتشر فيه ثلاثة أسراب من مقاتلات الميغ-21. ونتيجة لمفاجأتهم، لم يكن لدى العراقيين الوقت لإطلاق صواريخهم أرض-جو. وعند اقترابهم من القاعدة، ارتفع الطيارون الإيرانيون نحو 3,280 قدمًا (ألف متر) لتصوير أهدافهم، ثم قادوا طائراتهم والانحراف لقصف المطار من عدة زوايا مختلفة وخلق حالة من الهلع بين الطواقم المدافعة، وهو تكتيك تعلموه من الطيارين اليهود⁽¹⁾. وكما هو الحال مع العراقيين، قامت الطائرات الإيرانية بدورة واحدة لإطلاق قنابلها وقصف أهدافها بعنف، وعادت من دون خسائر في الوقت الذي بدأ الدفاع الجوي يطلق نيرانه.

وبعد دقائق قليلة تبع المقاتلات أعلاه تشكيلان من طائرات الفانتوم التي أقلعت من طهران وبوشهر وظهرتا في سماء بغداد في الوقت نفسه؛ بسبب عدم التنسيق بينهما، على الرغم من أنهما كانا من المفترض أن تفصل عشر دقائق بين وصولهما. ونتيجة لذلك، استغرق الطيارون الإيرانيون وقتًا أطول تجنبًا لعدم الاصطدام فيما بينهما والابتعاد عن المقذوفات التي تطلقها الدفاعات المضادة للطائرات أكثر من القنابل الدقيقة. أطلقت الدفاعات الجوية العراقية على التعاقب صواريخ أرض-جو سام-2 و سام-3، والكثير منها سقط على المدينة وما حولها مما أدى إلى سقوط الكثير من المدنيين. وفي هذه الفوضى

1 - سافر الكثير من الطيارين خلال حكم الشاه إلى إسرائيل لتطوير تدريبهم.

أسقط الطيارون إحدى طائراتهم للنقل نوع II-76 التي كانت على وشك الهبوط. وبعد ذلك، عادت طائرات الفانتوم الست عشرة إلى إيران، والقاعدة العراقية تضررت بشكل طفيف. وعدا طائرة النقل Antonov-6 لم تدمر أية طائرة على الأرض؛ لأن أغلبية الطائرات المقاتلة محمية في مخابئها.

وتمَّ أيضًا قصف قاعدة تموز الواقعة إلى الغرب من بغداد بعنف. كان الطيارون الإيرانيون يأملون قصف أسطول من المقاتلات العراقية هناك. ومن أجل نجاح تلك المهمة خصَّصوا ست عشرة طائرة فانتوم من قواعد طهران وهمدان ووصلوا إلى هناك في الوقت المناسب ولكن وجدوا الحظائر فارغة؛ لأنَّ كلَّ المقاتلات العاملة قد تم إيوائها خارج العراق. وعلى الرغم من أنَّ سرب طائرات الميغ-23 المسؤول عن الدفاع عن القاعدة لم يكن لديه الوقت للإقلاع كان على الطيارين الإيرانيين العمل للتخلُّص من دفاعات القاعدة الجوية. تعرضت إحدى الطائرات الإيرانية للأضرار البليغة لإصابتها بصاروخ سام-3. وتعرض طيار آخر إلى قذائف مدفعية 23 ملم وكافح؛ من أجل السيطرة على طائرته. عادت طائرات الفانتوم إلى قواعدها بعد أن خربت مهبطين للطائرات والتخلص من الضربات، ولكن واجهت تعرضًا من أربع طائرات الميغ-21 أقلعت من قاعدة أخرى. وبرهن الطيارون العراقيون على عنادهم وألحقوا أضرارًا بليغة بطائرتين اثنتين من طائرات الفانتوم الإيرانية قبل تمكنها من العودة.

وفي غضون ذلك، قامت طائرات فانتوم متعددة بضرب العاصمة العراقية من جديد، مركزة هجماتها على مطارها الدولي، حيث دمرت بعض الطائرات المدنية، وقصفت مصفى الدورة الذي يزود مناطق بغداد بالوقود. كذلك أقلعت طائرات فانتوم أخرى من بوشهر وقصفت مهابط الطيران في الكوت والناصرية، وأسقطت الدفاعات الجوية إحداها. أما قاعدة البصرة الجوية؛ فقد عانت من ضربتين متعاقبتين ناجحتين، حيث نجح المهاجمون من تدمير طائرتين نوع SU-20s في حظائرها، وأصيبت عدة طائرات أخرى بالضرر. ووجهوا أيضًا ضربات لمهابط الطائرات هناك. ثم عادت كلُّ الطائرات في هذه الغارة إلى قاعدتها دون أن تصاب بأذى.

وحاولت أربع طائرات أخرى تدمير أحد الجسور الاستراتيجية على نهر دجلة في العمارة، وهو الجسر الوحيد على نهر دجلة في طريق بصرة - عمارة الرئيس، وتدميره يعني عرقلة شبكة الاتصالات البرية والسوقية تمامًا بين العاصمة وجنوب البلاد. ولضرب هذا الهدف المهم، تم تسليح المقاتلات - القاذفات بقنابل تزن الواحدة منها طنًا واحدًا من نوع (GBU-10) موجهة بالليزر لتحديد المواقع الأرضية. يملك الإيرانيون عددًا قليلًا من هذه الأنظمة ويستخدمونها فقط لقصف الأعمال الهندسية والمباني المحصنة. وفي هذه الحالة، واجهت الطائرات الإيرانية طائرات الميغ - 21 العراقية التي أسقطت إحداها وأجبرت الثلاثة الأخريات على الهروب.

وإلى الشمال، هاجمت طائرات Tiger التي أقلعت من تبريز قاعدة الموصل؛ إذ أسقطت طائرات الميغ - 21 اثنتين منها، وأصابت الدفاعات الجوية اثنتين أخريين بأضرار بليغة، وما تبقى من الطائرات ألقت عدة قنابل على الأهداف المقررة. وقامت إحدى الطائرات بمناورة خاطئة ما أدى إلى ارتطامها بالأرض في كتلة من اللهب.

وعند منتصف الصباح عادت الطائرات إلى قواعدها؛ لإعادة تجهيزها بالسلاح. ومع ذلك، وصلت العمليات السوقية الإيرانية إلى حدودها: في وقت مبكر من العصر كانت خمسون طائرة فقط مستعدة للتحليق لقصف القواعد الجوية العراقية مرةً أخرى. ومن بينها نحو عشرين طائرة Tiger القادرة على التحليق من قاعدة دزفول بعد أن تم إعادة أحد مهابطها للعمل للجهود المتواصلة خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية. ركزت الموجة الثانية على قصف قاعدتي البصرة وكركوك الجوييتين. كانت قاعدة البصرة مجهزةً بمضادات دفاعية جوية قوية، ما أدى إلى إسقاط إحدى الطائرات المغيرة بصاروخ سام - 2. وكما هو الحال في بغداد، سقطت أغلبية القذائف على المناطق السكنية لتكون أكثر خطرًا على السكان المحليين منها على الأعداء في الجو. أمّا المقاتلات الأخرى؛ فقد استطاعت تدمير طائرة أنتوف - 24 وألحقت أضرارًا بعدة طائرات الميغ - 21.

حاولت القوة الجوية العراقية القيام ببعض الغارات المتفرقة ضد قاعدتي تبريز وبوشهر الجوييتين ولكن من دون أية نتائج تذكر، بل خسرت طائرتي ميغ - 23 أسقطتهما المقاتلات الإيرانية. وقصفت موقع كرمشاه لطائرات الهلوكوبتر ودمرت عددًا قليلًا منها.

وتزايدت طلعات الطائرات العراقية لحماية القواعد الجوية، ما أدى إلى إسقاط ثلاث طائرات ميغ - 21 عراقية من طريق الخطأ من الدفاعات الجوية العراقية؛ بسبب سوء عمل أجهزة الرادار (من المفترض أن تشخصهما أنها طائرات "صديقة"). وفي الغروب، تم تجهيز عدة طائرات فانتوم بمعدات تصوير معقدة للطيران فوق القواعد الجوية العراقية لتقييم الأضرار التي ألحقت بالعدو. وربما تُجانب الحقيقة إذا قلنا إنها نتائج مبهرة. تمكنت الطائرات الإيرانية من تحييد نحو عشر طائرات فقط، بينما فقدت خمس طائرات فانتوم، وثلاث طائرات من نوع Tiger.

وفي ليلة 23-24 أيلول اجتمع القادة الإيرانيون مع ضباط القيادة الجوية؛ لوضع الخطط لاستمرار العمليات. كانت القيادة قد هيأت خطة سُميت "بكامان" (آلة حربية قديمة) التي تخدمهم كخطة استرشادية للأيام القليلة المقبلة⁽¹⁾. وتقوم الخطة على تدمير المقاتلات العراقية خلال طيرانها؛ لأنهم لم يتمكنوا من تدميرها على الأرض.

وفي يوم 24 أيلول 1980 هاجمت نحو ستين مقاتلة قاذفة إيرانية مرة أخرى القواعد الجوية العراقية في البصرة، الناصرية، الكوت، بغداد، كركوك، والموصل. وهذه المرة رافقتها طائرات مكلفة بالاشتباك مع طائرات الميغ التي قد تعترضها، لكن العراقيين لم يقفوا في الفخ واعتمدوا على دفاعاتهم الجوية لصد المهاجمين. وبرهنت هذه الخطة على فشلها، حيث أسقطت الدفاعات الجوية العراقية طائرتي Tiger فوق الموصل والبصرة، بينما تعرضت الثالثة للأضرار البليغة لانفجار صاروخ أرض - جو بالقرب منها، وبالكاد تمكنت من العودة إلى قاعدتها بعد أن فقدت زعنفه ذيلها. كذلك سقطت طائرة أخرى من نوع Tiger لا صطدامها بأحد الجبال خلال طيرانها المنخفض لتتفادى النيران العراقية، فضلاً عن سقوط طائرة Tiger أخرى بنيران قاعدتها في أثناء استعدادها للهبوط. توتر رجال الدفاعات الجوية الإيرانية آنذاك جعلهم لا يميزون بين طائرات F-5 الإيرانية وطائرات الميغ - 21 العراقية.

1- تدين هذه الخطة وبصورة كبيرة للقائد عباس دوران بوصفه واحدًا من أبرز طياري طائرات الفانتوم الذي أثبت أنه واحد من أفضل المراهقين في القوة الجوية الإيرانية. لقد قاد طلعات هجومية واستطلاع فوق العراق قبل أن يتم إسقاط طائرته فوق بغداد في يوم 21 تموز 1982 خلال غارة كانت تستهدف قصر مؤتمر حركة بلدان عدم الانحياز خلال انعقادها.

وتعرضت طائرات الفانتوم لخسائر أيضا: أصيبت اثنتان منها بالأضرار الكبيرة وأجبرتتا على الهبوط على بطنها عند عودتهما من مهامهما، وطائرة ثالثة ارتطمت بالأرض عند الإقلاع، وطائرتان أخريان من نوع فانتوم أسقطتهما طائرات الميغ العراقية. ومع ذلك، ألحق الطيارون الإيرانيون أضرارا كثيرة ومباشرة أيضا، ففي كركوك دمروا طائرة نقل أنتنوف-24، وطائرتي ميغ-21، وطائرة هنتر المقاتلة المرعبة التي أعيدت للعمل مؤخرا للمشاركة في مهمات الإسناد الجوي، ودمروا أيضا طائرتي SU-22 في البصرة، وطائرتي SU-7s في كركوك.

وخلال هذين اليومين استهدف الطيارون الإيرانيون أيضا البنية التحتية النفطية العراقية، قصفوا مصافي النفط في البصرة وبغداد والكثير من مستودعات النفط، حتى ألحقوا أضرارا بخطط نقل النفط الذي يربط العراق وتركيا، ولكن تم إصلاحه حالاً لإعادة تدفق الذهب الأسود إلى معدلاته الاعتيادية مرة أخرى بعد أيام قليلة. ولذلك؛ شنَّ العراقيون غارات على مجمع البتروكيمياويات في بندر خميني ومستودعات الوقود في الأهواز. انتهز العقيد فاكوري الفرصة للاشتباك في قتال مع القوة الجوية العراقية، وأمر طائرات المراقبة Tomcat بالإنذار المبكر للتوقف عن تغطية المدن الإيرانية الثلاث الرئيسة والاشتباك مع العدو على الحدود. لا بدَّ من الثناء على طائرات إعادة تجهيز الوقود في الجو من نوع بوينغ التي تحلق فوق إيران وطواقمها ولا يحتاجون إلى الهبوط. وأعطيت الأوامر إلى كلِّ طائرتين من نوع فانتوم التي احتفظ بها سابقاً كاحتياط للاستعداد للإقلاع والتحليق في مناطق القتال. ولكن هذه المهمة فشلت؛ لأنَّ باستخدامهم أجهزة الرادار المعقدة تمكن الطيارون الإيرانيون من التقاط أعدائهم على مسافة بعيدة وقبل أن ترصدهم الطائرات المعادية. ولذلك؛ يجب أن يأخذوا وضعاً في أفضل زاوية ممكنة لإطلاق صواريخهم الطويلة المدى التي أسقطت خمس طائرات ميغ-21s، وخمساً أخرى ميغ-23s، وطائرتين SU-20 ومزقتها أشلاء في الجو.

وبعد أربعة أيام من العمليات الكثيفة كانت نتائج القتال في الجو 16 إلى 5 في صالح إيران، ولكن تصبح أكثر توازناً عند حساب كلِّ الخسائر في الجو⁽¹⁾. وإذا أخذنا بالحسبان

1 - خلال الأيام الأربعة الأولى من الحرب خسر العراقيون 25 طائرة مقاتلة (8 ميغ-21، 5 ميغ-23، 4 Su-7، 3 Su-20، طائرة هنتر واحدة، Tu-16 واحدة و Tu-22 واحدة). أمَّا الإيرانيون؛ خسروا 15 طائرة مقاتلة (8 فانتوم F-4، 7 F-5 Tiger).

عدد المقاتلات المتضررة جدًّا خسِر العراقيون 40 طائرة بينما خسِر الإيرانيون 24. ولا يمكن استمرار العمليات الجوية بهذه المعدلات. وفي الواقع أصدر الجنرال الجبوري أوامره الحكيمة بوضع نهاية لهذه الغارات ووضع قوته الجوية في حالة الدفاع، وحصر مهماتها في حماية الأراضي العراقية وإسناد القوات البرية التي بدأت لتوَّها في غزو الأراضي الإيرانية. وأمر المقاتلات العراقية المنتشرة في مطارات شبه الجزيرة العربية للعودة إلى قاعدتها تموز/ الحبانية، حيث تم إصلاح مهابطها مؤخرًا.

وعلى الرغم من الخسائر المتحققة، حقَّق العقيد فاكوري على الجانب الإيراني نقطتين: أولاً أدلَّ النظام العراقي، الذي كان عليه أن يشرح لمواطنيه لماذا تمكنت الطائرات الإيرانية من التحليق فوق المدن العراقية الكبرى، وثانيًا برهن على إخلاصه وولائه للنظام الإيراني. كان الرئيس بني صدر شاكرًا له وسارع لإقناع حكومته، المرشد الأعلى، والملاي الأكثر نفوذًا بضرورة إطلاق سراح الطيارين والفنيين الإيرانيين القابعين في السجون منذ عملية التطهير بعد الثورة. ولكن أولئك الذين شاركوا بمحاولة الانقلاب في قاعدة نوجه في شهر تموز المنصرم عليهم البقاء في سجنهم، ولكن يمكن للآخرين الالتحاق بوحداتهم بعد أسبوع من التقدير الذاتي. ومن أجل ضمان إخلاصهم وتجنُّب الردة وضع النظام عوائل رجال القوة الجوية ومصيرها بيده، فأولئك الذين يهربون من الخدمة أو يجبنون في القتال سيتم اعتقال آبائهم بقسوة ومحاكمتهم. سمح هذا العفو غير المتوقع لسربي طائرات Tomcat استعادة ثلثي ملاحيتها الجويين، وفي النهاية خسِر الجنرال فاكوري عشرين طيارًا، ولكن تضحياتهم سمحت له بتحرير الكثير.

الهجوم البري

بعد أن خاب ظنُّ صدَّام حسين بطياريه وضع جميع آماله على الهجوم البري حيث كانت حساباته أنه يحقق أهدافه. ذهب الضباط العراقيون للبحث في ملفاتهم لوضع خطة للهجوم. وجدوا وثائق استعداد لتمارين لرئاسة الأركان وُضعت في عام 1941 من المعلمين

البريطانيين في المدرسة العسكرية ببغداد. كان الهدف الذي وضع لطلاب المدرسة العراقيين آنذاك السيطرة على المدن الإيرانية: كرمشاه، دزفول، الأهواز، وعبادان، بأربع فرق آلية في غضون أقل من عشرة أيام. أخذ الضباط العراقيون خطة المناورة البريطانية هذه ونفضوا التراب من عليها؛ كونها تليبي الظروف الحالية آنذاك. ونظرًا لوجود عشر فرق تحت تصرفهم - نصفها مدرعة - قدروا أن بإمكانهم تحقيق أهدافهم بسهولة ما داموا سيعتمدون على إسناد المدفعية الكبير بشكل خاص الذي لم يذكره المعلمون البريطانيون في خططهم في أعلاه.

وتم الاتفاق على أن تتولى وحدات الفيلق الثاني (فرقتان مدرعتان، وثلاث فرق مشاة) السيطرة على عدة نقاط استراتيجية عند قدمات جبال زاكروس وفي وسط مخارجها؛ لكي تُحسن من مهام الدفاع عن بغداد وجعلها أقل عرضة لأي هجوم إيراني معاكس. وأعطيت المهمة الرئيسة للهجوم للفيلق الثالث الذي سيرابط في الجنوب باتجاه السهل الساحلي الشاسع لمحافظة خوزستان؛ من أجل السيطرة على مدن دزفول، أهواز، وخرمشهر، وعزل مجمع عبادان النفطي الذي سيقع بأيدي العراقيين ثمرةً ناضجةً. وإذا سارت الخطة على وفق ما خطط لها فإن هذه القوات ستواصل تقدمها نحو ميناء بندر خميني. كانت مدينة أهواز الهدف المركزي للهجوم. ولذلك؛ ركزت القيادة العسكرية العليا ثلاث فرق مدرعة، وفرقتين آليتين في هذا الجزء من الجبهة.

ولم يُخطط لأية عمليات متزامنة مع ما في الجنوب في كردستان، حيث كانت فرقتان من الفيلق الأول تواصلان قتال البيشمركة التابعة للأخوين البارزانيين، ومنع أية تعزيزات كردية من التسلل من إيران إلى العراق. ولم تشكل القوات الإيرانية المنتشرة على الجانب الآخر من الحدود تهديدًا مباشرًا للعراق؛ لأنها كانت مشغولةً هي الأخرى بمقاتلة البيشمركة من الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني (PDKI) هناك، الذين تساندهم بغداد.

وفي يومي 20 و 21 أيلول قام عدنان خير الله وزير الدفاع وابن خال الرئيس بجولة مارثونية تفتيشية على الحدود، واجتمع مع قادة الفرق العشر المكلفة بمهاجمة إيران، ويصطحبه رئيس أركان القوات المسلحة عبد الجبار شنشل، والمفتش العام للقوات المسلحة محمد سالم، وعبد الجبار الأسدي رئيس العمليات المسؤولة عن التنسيق بين

القوات البرية. وأعطى هؤلاء الرجال الأربعة كلَّ قائد فرقة أوامر مغلقة ومختومة تتعلق بفرقته، وتمنوا لهم النجاح وذكروهم أن ليس من الحكمة جعل الرئيس صدام خائبًا. أخذ القادة العراقيون الحذرين هذه التوجيهات الأخيرة إشارةً للتروي والتقدم ببطء، واتباع الدليل بدقة، والحدُّ من المخاطر، وعدم التورط في حالة من الذعر ربما يعرضهم لهجمات معاكسة مميتة؛ لأنَّ البحث عن المجد مع شخصية كصدام يُعدُّ ترفًا محفوظًا بالمخاطر.

وفي وقت متأخر من صباح يوم 22 أيلول 1980 رُفعت شباك التمويه عن الدبابات، وتم تسليح بطاريات المدفعية، وبدأت محركات الدبابات بالدوران. وبعد تناول وجبة طعام خفيفة، اعتلى رجال المشاة ألياتهم التي سيعبرون بها الحدود. ما زالت الشمس ساطعةً، ودرجات الحرارة لا تزال مرتفعةً بعد صيف قائنض، وحجب الأفق حرارة جو خانق تخفي وراءها المخافر الإيرانية. ولم يكن الهجوم مخططًا له عند الفجر فقط لكي يتم التنسيق مع هجوم جوي، بل لكي يضمن المهاجمون عدم وقوع الشمس أمام أعينهم حين يشنون الهجوم على المواضع الإيرانية في الشرق الذي يواجه ارتفاع الشمس. وبعد الموجة الأولى من الطلعات الجوية للمقاتلات القاذفات العراقية تحركت 1600 دبابة، 2000 آلية مدرعة، و4000 ناقلة جنود وفي دوامة من الغبار خلال العصر متوجهة نحو جبال زاكروس والسهول القاحلة لخورستان. كانت الموجة الأولى من الهجوم تضمُّ نحو 100 ألف مقاتل، وعلى الجانب الآخر انتشر 25000 مقاتل على طول الجبهة مع 800 دبابة و600 آلية مدرعة أخرى نصفها في الواقع لا يتحرك. كانت نسبة القوة تقترب من أربعة لواحد لصالح العراق.

وإلى الشمال الشرقي من بغداد تركت الفرقة المدرعة السادسة وفرقة المشاة الثامنة مقارها في خانقين وتوجهت نحو قصر شيرين الموقع الاستراتيجي المهم على تقاطع طرق تربط بغداد وكربنشا. عبرت هذه الوحدات الحدود من دون أية مقاومة ولو كانت بسيطة، وبعد ذلك انتشرت وعزلت قصر شيرين. وفي العصر دخلت طلائع التقدم العراقي إلى المدينة المحاصرة التي كان يدافع عنها كتيبة من الشرطة العسكرية، وقوة صغيرة من الشرطة النظامية مع سرية من الحرس الثوري. وعدد كل هؤلاء لا يتجاوز 200 مقاتل مجهزون بالأسلحة الخفيفة من الصعب أن تواجه الدبابات والمدفعية. ومع كلِّ طرق الهروب التي

طوقها العراقيون كان المقاتلون الإيرانيون مصممين على إنزال أكبر خسائر ممكنة بهم. نجح الباسدران في تدمير الآليات المتقدمة بقذائف RBG7 والرمانات اليدوية والصواريخ الصغيرة، ما جعل القوات العراقية في فوضى وأجبرها على تغيير خططها. وضع العراقيون بطاريات مدفعيتهم وبدؤوا بقصف المدينة لمدة أكثر من ساعتين واستدعوا الطيران لزيادة فرص نجاحهم.

مع كل طائرة من نوع ميغ أو سيخوي يمكن تحريكها لمهاجمة قواعد العدو، فإن قيادة الأركان يمكنها إرسال أربع مقاتلات من نوع Hunter الثقيلة التي أعيدت إلى الخدمة للتو بعد سنوات من بقائها في حظائرها. ونظرًا لنقص معلوماتهم، أطلق طيارو Hunter صواريخهم على قصر شيرين عشوائيًا، مما زاد في حالة الفوضى فيها. أسقطت إحداها بقذيفة واحدة فقط من الدفاعات الجوية العراقية في المدينة.

عند حلول الليل، أنزل العراقيون سرايا المشاة للهجوم مرة أخرى وبدعم من الدبابات، وتقدموا تحت نيران القناصين القاتلة ومشطوا المناطق المجاورة للمدينة الواحدة بعد الأخرى. وفي أثناء الليل اشتدت المعركة حول المنازل المهجورة⁽¹⁾. انتهب العراقيون طلوع الفجر لإسكات آخر جيب للمقاومة. كلف هذا الانتصار الأول العراقيين مئة قتيل و300 جريح تقريبًا. وعلى الجانب الآخر، استسلم القلة من الإيرانيون ولكن الأغلبية منهم من اختار التضحية بحياته وأعطوا لأعدائهم دلالة منذرة بانتمائهم الوطني. قضى العراقيون بقية يومهم في إعادة تجمعهم وإخلاء الأسرى والجرحى.

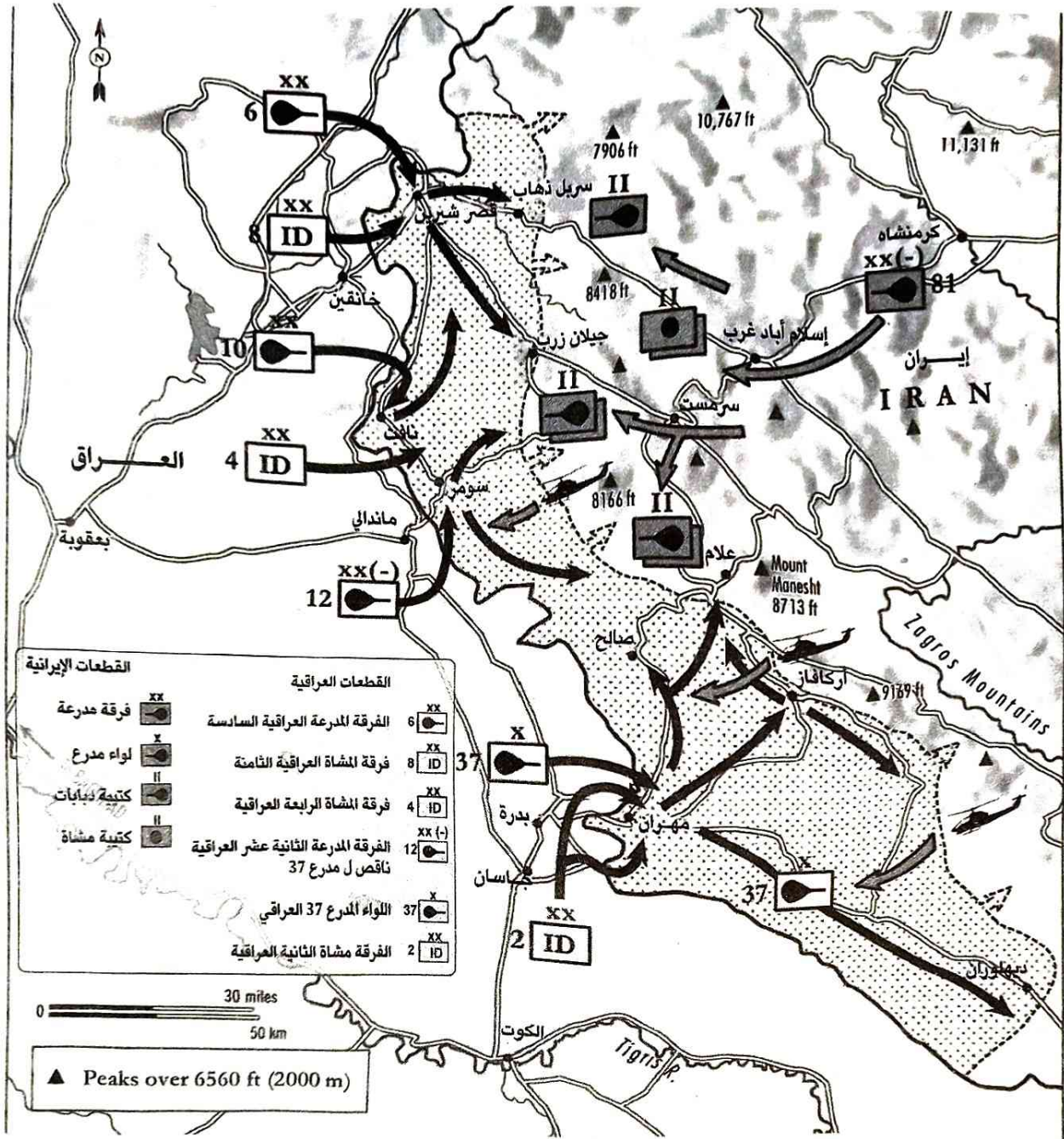
في يوم 24 أيلول استمرت الفرقة السادسة المدرعة بالتقدم نحو جبال زاكروس وبإسناد من مشاة الفرقة الثامنة. وفي هذا الوقت، لا توجد ضرورة للإسراع نحو كرمشاه العاصمة الإقليمية. إن هذا النوع من الهجوم الذي يرتبط بطرق جبلية ضيقة من السهل إغلاقها وممكن تحقيقه فقط إذا انهار الإيرانيون. وفي الوقت الحالي كان التحرك المناسب لتحديد سارماست وإسلام عباد غرب؛ لكي يمنعوا أي هجوم معاكس كبير تقوم به الفرقة المدرعة الإيرانية 81. ومن أجل ذلك، إن أول ما يقوم به العراقيون السيطرة على قرى سربيل

1- تم إخلاء سكان قصر شيرين كما هو الحال مع بقية المدن الحدودية قبل أسبوعين ومنذ بدء المناوشات الأولى بالمدفعية.

زهاب وجيلان غرب. وفي الوقت الذي كان من السهل السيطرة على جيلان غرب، واجهوا صعوبة في الاستيلاء على سربيل زهاب. تقدمت دباباتهم خطوة خطوة مع رجال المشاة الذين ترجلوا من ناقلاتهم الشخصية المدرعة الحساسة، واستغرق الوقت ثلاثة أيام لقطع مسافة 30 ميلاً تقريباً (50 كم) بين قصر شيرين وهدفهم. وحينما ظهر العراقيون بالقرب من جيلان غرب، تم استقبالهم بالنيران الكثيفة من جماعات من الباسدران العنيدون الذين جاؤوا من كرمشاه بالباصات قبل يومين للتوجه إلى خط الجبهة غير المستقر. ومن أجل تفادي الخسائر غير الضرورية، استقر العراقيون خارج مديات النار والانتظار بصبر وصول المدفعية، وهذا ما كلفهم يوماً آخر. في يوم 29 وبعد قصف كثيف دمر كيلان غرب، انسحب المدافعون عن المدينة إلى الجبال بعد أن كبدوا المهاجمين خسائر كبيرة، ثم دخل العراقيون المدينة، ثم واصلوا سيرهم نحو سارمست.

وإلى أقصى الجنوب، سيطرت فرقة المشاة الرابعة التي تحركت من بعقوبة وبتعزيز من اللواء المدرع العاشر حرس جمهوري على قرية نفت Naft. وبعد أن ترك لواء مشاة فيها، واصل قائد الفرقة تقدمه البطيء على طول الحدود للانضمام إلى الفرق الأخرى التي غزت القاطع. بعد أيام قلائل، التقى بالفرقتين الثامنة والثانية عشرة هناك، بينما عاد لواء الحرس الجمهوري المدرع إلى بغداد ليكون وحدة احتياط متنقلة بإمرة رئاسة الأركان.

وبينما غادرت الفرقة المدرعة الثانية عشرة مندلي وعبرت الحدود متوجهة نحو إقليم سومر التاريخي، واجهت مقاومة غير متوقعة من كتيبة للانضباط العسكري والباسدران المتخذة في الموقع. وبعد ست وثلاثين ساعة من الاستعداد المتواصل تمكن اللواءان من التغلب عن المدافعين والتغلغل في المنطقة وتحديد أية مناطق معزولة للمقاومة على التعاقب. كان بإمكان قائد الفرقة الثانية عشرة أن يتباهى لقله خسائره، لكنه أضع وقتاً ثميناً الذي سمح للإيرانيين بإرسال كتيبة دبابات لمواجهة ولإبطاء تقدمه نحو سارمست وتكبيده خسائر فادحة. كانت طبيعة الأرض إلى جانب دبابات Chieftain الإيرانية المتخفية جيداً خلف التلال، وأنهكت المهاجمين بدعم من سرب من طائرات الهليكوبتر الكوبرا، وألحقت خسائر مباشرة كبيرة بالدبابات العراقية.



خارطة الهجوم العراقي على الجبهة الوسطى (22 أيلول - 1 تشرين الأول 1980)

وإلى الجنوب مرة أخرى، عبرت فرقة المشاة الثانية الحدود إلى الشرق من بكرة وجصان؛ لتطويق مهران، حيث أخذت كتيبة مشاة إيرانية التخندق هناك منذ عدة أسابيع. ولنقص في المعلومات عن إمكانات العدو هناك، تحرك قائد الفرقة بحذر، وإن كان يفضل الهجوم الساحق. وبعد القصف المدفعي لعدة ساعات ومستفيداً من شروق الشمس بوجه

الإيرانيين، أصدر أوامره بالهجوم. استطاع العراقيون السيطرة على مهران بعد أن استغرقت المعركة ستاً وثلاثين ساعة، وخسروا ما يساوي كتيبتين من المقاتلين. استمروا في التقدم طوال يوم 25 أيلول، حيث توجه لواءان نحو إيلام، وهي مدينة صغيرة تقع على منتصف الطريق المنحدر من جبل مانشت المطل على أحد الطرق المؤدية إلى كرمنشاه. وإيلام مهمة من الناحية الاستراتيجية؛ لأنها تسيطر على الطريق المؤدية إلى محطة رادار مهمة تقع على قمة جبل مجاور تمكن الإيرانيين من رصد أية تحركات جوية في قواعد الكوت وبغداد. ولكون إيلام منطقة حساسة للإيرانيين فقد أرسلوا كتيبة المراقبة من الفرقة 81 المدرعة؛ للدفاع عن المدينة، وقبل وصول القوات العراقية إليها.

كذلك التحقت بها كتيبة آلية للمشاة التي تم تجميعها بسرعة، فضلاً عن كتيبة دبابات من الفرقة نفسها بدعم من كتيبة مدفعية هاوتزر ذي 55 ملم ذاتي الدفع، التي اتخذت موقعاً في سارمست وإسلام - عباد - غرب؛ لصد أي هجوم من الألوية المدرعة القادمة من سربيل زهاب وجيلان زارب. كانت طائرات الهلوكوبتر تراقب القاطع لتقييم تقدم القوات العراقية، وطيرانها المنخفض قام كل زوج من تلك الطائرات بنجدة القوات المتخفية على الأرض ونصبت كمائن قاتلة. أما بقية الفرقة 81؛ فقد بقيت في كرمنشاه آنذاك ولفترة ليست قصيرة لتعزيز صفوفها، وإصلاح ما يمكن من دباباتها، وانتظار الأوامر من القيادة العسكرية العليا. درس الإيرانيون قتال الدبابات مع اليهود وتعلموا الدرس من أخطاء الصفحة الأولى من حرب تشرين (حرب يوم كيبور) قبل سبع سنوات حينما هاجم قادة الدبابات اليهود المصريين بمجموعات صغيرة ومن دون أي دعم مدفعي أو من المشاة، ودمروا دباباتهم بالصواريخ المضادة للدروع.

لم تتمكن قيادة الفرقة الثانية مشاة من رصد وصول هذه التعزيزات؛ لأنها لا تملك وسائل كافية لجمع المعلومات. ولذلك، واصل قائد الفرقة متابعة تنفيذ خطته للعمليات بهدوء. وبينما كان أحد ألويته يمسك مهران بقوة، سيطر لواءان آخران على صالح وأركفاز، ومن هناك واصلوا السير نحو إيلام. تقدّم رجال المشاة ببطء مجتازين التلال الصخرية الجرداء الواحد بعد الآخر تحت أشعة الشمس القائضة ودخان آلياتهم يدقون أي موضع للقناصة قد يختفون بدقة هناك، وأحياناً كانت طائرات الهلوكوبتر من نوع كوبرا تحلق فوق رؤوسهم وتطلق

نيرانها عليهم، وتختفي بعد ذلك وراء الجبال. وحالما أصبحوا في مديات أهدافهم، تم صدُّهم بنيران دبابات سكوريون الدقيقة وقوة المشاة الراجلة المتخذة عند ضواحي المدينة. وبعد ثمانٍ وأربعين ساعة من القتال أرسل قادة اللواءين رجال استخباراتهم لمعرفة دفاعات العدو، وبعد أن اقتنعوا بصلاية تلك الدفاعات طلبوا من قائدهم دعمًا مدفعيًا ومن الدبابات، لكنَّهُ رفض وأمرهم بدلاً من ذلك أن يقيموا مواضع دفاعاتهم الخاصَّة بهم؛ لأنَّ قائد الفرقة الثانية مشاة نشر دباباته على الطريق المحاذي للحدود الذي يصل إلى دهلران؛ للسيطرة على هذا الطريق الاستراتيجي الفرعي والاتصال مع قوات الفيلق الثالث، ثمَّ الربط بينهما. كان اللواء المدرع 37 يقود رتل الدبابات المرسل من الفرقة الثانية عشرة، ولكن تقدُّمها تباطأ؛ بسبب هجمات الهلكوتبر الكوبرا الإيرانية العنيفة. ولذلك خسر العراقيون في أيام قليلة نحو أربعين دبابة T-55. في يوم 30 أيلول سيطروا على دهلران وعلى بعض حقول النفط المنتشرة حولها. وأتبع قادة فرقتي المشاة الثانية والرابعة الأوامر الصادرة لهم من بغداد، وأبلغوا مهندسيهم لتدمير خزانات المياه على حافَّات الجبال وأنظمة الري التي تروي السهول القاحلة المحاذية للحدود بين نفت ودهلران. وكان هدف القادة العراقيين من تجفيف الأراضي الزراعية بطول 125 ميل (200 كم) وبعرض 15 ميلاً (25 كم) هو عدم تشجيع سكان الأرياف هناك على محاولة العودة إلى هذا القطاع من الجبهة. كانوا يأملون إلحاق هذه الأراضي ودفع الحدود نحو 12 ميلاً (20 كم) إلى الشرق حتى قدمات جبال زاكروس ولأجل حصر الإيرانيين في قممها فقط.

الهجوم على خوزستان

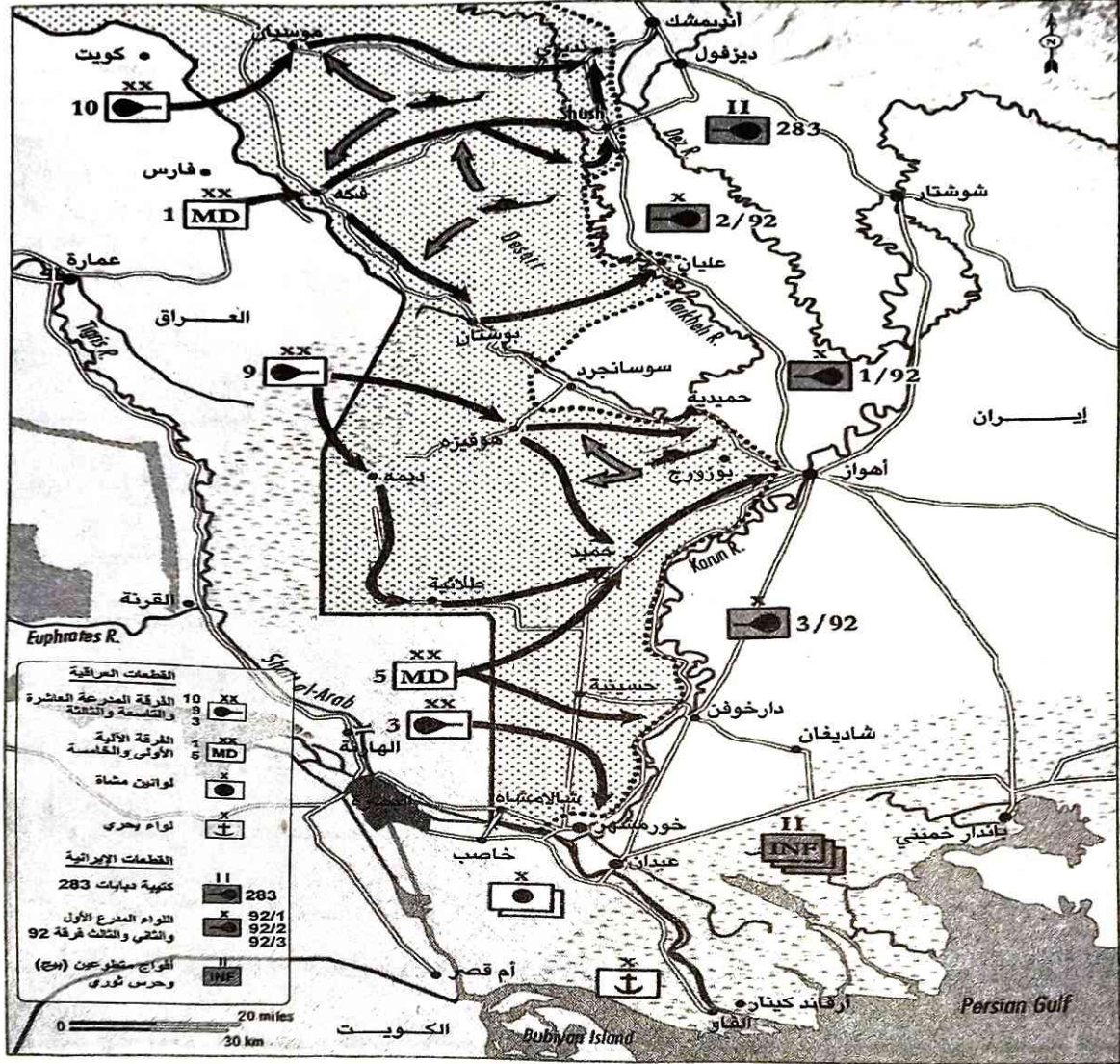
في يوم 22 أيلول 1980 دخلت خوزستان ثلاث فرق مدرعة وفرقتان آليتان، خُصِّص لكلِّ فرقة قطاع محدَّد بدقة من تلك المنطقة. إلى الشمال، عبرت الفرقة المدرعة العاشرة الحدودَ بالقرب من قرية الكويت متوجهةً نحو موسيان Musiyan والوصول إلى هذه القرية الصغيرة بعد ستِّ وثلاثين ساعةً. وبعد السيطرة عليها توجَّهت الدبابات نحو الشرق،

واستمرت في تجولها؛ بهدف الوصول إلى نهر الكرخة. برهنت هذه الرحلة وهي بطول نحو 60 ميلاً (100 كم) على أنها أطول وأصعب ممّا كان متوقّعا، فالطريق الوحيد مليء بالوحد ومتعرج وهو الذي يربط موسيان بقرية نادري على ضفتي الكرخة وعبر مناظر طبيعية قاحلة خانقة ومتعرّجة ومتصدّعة بشكل متناسق لهضبة صخرية مرتفعة مع بعض الأودية الجافة المنتشرة التي تشكّل عوائق طبيعية وحافات حادّة كما في بعض مناظر القمر. ولذلك؛ لم يكن أمام قائد الفرقة إلّا أن يمدّ جسوره على طول الطريق وبإشرافٍ من فوج مراقبة وتحديد العوائق والكمائن. وفي هذا الوضع تكون الدبابات العراقية عرضةً لقنص الهولكوبتر الكوبرا التي سيطرت على المنطقة وعزلت نهر الكرخة عن الحدود العراقية وحوّلتها إلى ساحة قنص شاسعة. كان الطيّارون الإيرانيون ماهرين في تكتيكات الطيران، يحلّقون منخفضاً في الأودية الضيقة، يظهرون على نحو غير متوقّع، يهاجمون، ثمّ يختفون في ملاجئ الإغاثة الطائرة. وفي أيام قليلة تمكنت الكوبرا من تحييد نحو ستين دبابةً ومئة ناقلةٍ للجند وآليات أخرى. ومع ذلك، أسقطت الدفاعات الجوية العراقية عدة طائرات كوبرا، وطالما بددت لحظات سماع طنين أصوات الكوبرا. أثبتت قذائف ZSU-23x4s أنّها سلاحٌ معادٍ قاتلٌ لطيار الكوبرا.

وفي مثل تلك الظروف لم تتقدّم الفرقة المدرعة العاشرة سوى عشرة أميال (16 كم) في اليوم. وعلى النقيض من ذلك، لم تواجه أية قوات معادية على الأرض. ومن أجل محاولة تقليل الخسائر والإسراع في التقدّم طلب أمر الفرقة مساندة طائرات الهلوكوبتر المقاتلة ومن ضمنها طائرات Mi-24s والغزال المجهزة بمدفعية 20 ملم لكي ترافق هذه الطائرات تقدم الفرقة وتستكشف لها الطريق، وتشتبك بانتظام في قتال الكوبرا الإيرانية.

وفي يوم 28 أيلول وصلت الفرقة المدرعة العاشرة إلى نهر الكرخة وعبرت جسر نادري، وسحقت الكتبية الإيرانية رقم 138 التي تحرس الجسر، وأقامت مباشرة موضع قدم عند رأس الجسر بانتظار أن تنضمّ إليها الفرقة الآلية الأولى التي عبرت الحدود عند نقطة فارس وسيطرت بسهولة على قرية الفكّة. بعد ذلك انشطرت الفرقة إلى قسمين للتقدّم على محورين مختلفين. التفّ أحد الألوية جنوباً باتجاه البستان تاركاً إحدى كتائبه لاحتلال

مفترق الطرق المهمّ هذا، ثمّ توجه خلال شبكة من الكثبان الرملية الواسعة إلى الشمال الشرقي نحو قرية الفان Alvan.



خارطة الهجوم على خوزستان (22 أيلول - 1 تشرين الأول 1980)

وكما في كل مكان تظهر فيه الدبابات العراقية ومواجهة طائرات الهليكوبتر الإيرانية التي كانت تهاجمها بضراوة، تقوم تلك الدبابات بتدمير الناقلات المدرعة من نوع Panhard وكذلك نحو 15 ناقلة جنود نوع OT-64. استمرّت بقية الفرقة بالتوجّه شرقاً نحو الشوش. وحالما وصلوا إلى نهر الكرخة، أمر قائد الفرقة الأولى القيام بمناورة الالتفاف، فبينما يقوم

اللواء الآلي بالسيطرة على الجسر الذي يقود إلى الشوش، يتحرك لواءه أميالاً قليلة نحو الجنوب للخوض في النهر. كانت هذه البيئة تختلف تماماً عن التي وجدوها على الضفة الأخرى من النهر، سهل زراعي شاسع وبمزارع ومراسٍ منتشرة وأجمّة تمتدّ من الكرخة إلى نهر الدز توفر تحسناً مهماً عن تلك التلال الصخرية القاحلة التي اعتاد عليها العاملون على الدبابات العراقية. هذه الأرض الخصبة والسهلة تساعد كثيراً في تقدم الدبابات التي تمكّنت بسرعة في تطويق الشوش، ومهاجمة المدافعين هنا من الخلف، واتصلت بسرعة مع دبابات الفرقة المدرعة العاشرة. وخلال يومين هاجمت القوات العراقية مدعومة بالقصف المدفعي وقليل من طائرات الهليكوبتر مدينة الشوش التي كانت الكتيبة رقم 141 مشاة تتولّى الدفاع عنها ويدعم من عدة سرايا من الباسدران. وفي النهاية، استسلم من بقي في المدينة بعد تطويقها. لم يكد العراقيون يلتقطون أنفاسهم عند رأس الجسر حتى تعرّضوا إلى هجوم معاكس بقيادة كتيبة الاستطلاع سكورييون رقم 283 ولواء الدبابات الثاني Chieftain من الفرقة المدرعة 92.

و قليلاً إلى الجنوب، وصلت الفرقة المدرعة التاسعة أيضاً إلى أهدافها الأولية. ففي البداية، كان عليها الانتشار إلى الجنوب الشرقي من العمارة وعليها عبور منطقة الأهوار هناك التي يمكن اجتيازها عند نهاية فصول الجفاف قبل الاندفاع في سهلٍ صخريٍّ قاحلٍ للسيطرة على ديمة والحويزة. ومن هناك توزّعوا في ثلاثة أرتال: الأول اتّبع الطريق الأطول للوصول إلى الأهواز من الجنوب، والابتعاد عن الحدود العراقية إلى التلاية Talayeh، ومن هناك التوجه نحو حميد. وبعد التغلب على القوات القليلة المتخذقة في القرية السابقة، واصل ذلك الرتل التقدّم نحو الأهواز والسير بمحاذاة الضفة الغربية لنهر الكارون. ولعدم وجود جسور على النهر في هذه المنطقة، تمكن العراقيون من التقدم دون خطر مهاجمتهم من جناحهم الأيمن. أمّا الرتل الثاني؛ فقد أسرع خطاه نحو سوسنغرد التي تجاوزها دون أية مقاومة، ويبدو أنّ المدينة قد تُركت دون دفاعات. ولذلك؛ استمرّ الرتل بالتقدم نحو الحميدية. وأصبح على اتصال فوج الاستطلاع التابع للفرقة المدرعة 92 الإيرانية الذي واجه ذلك الرتل بدفاعٍ مستميتٍ، ولكن كان لا بدّ للإيرانيين في النهاية من الخضوع بوجه

الضغط العراقي. فمدفعية السكوربيون 90 ملم لا يمكنها الصمود أمام مدفعية الدبابات T-62 ذي 115 ملم. وهكذا، سيطر العراقيون على الحميدية ثم مدينة بزورك Bozorg. أمّا الرتل الثالث؛ فقد ترك الحويزة سالكاً الطريق الصحراوي باتجاه نهر الكارون وكان يسير في منطقة اللواء الأول للفرقة 92 الإيرانية الذي نجح في إبطاء تقدم ذلك الرتل بإسناد عدد قليل من الكوبرا. أمّا قادة الدبابات الإيرانية؛ تجنبوا الاشتباك الشامل واختاروا أن يبقوا عدوّهم على مسافة. ولأجل التقدّم، كان على العراقيين الاعتماد على إسنادهم المدفعي، والهلكوبتر الغزال المسلحة بصواريخ HOT المضادة للدبابات. ولكن تم إسقاط الكثير من طائرات الغزال.

وبعد نهاية أسبوع من العمليات القتالية، وصلت الفرقة المدرعة التاسعة على مشارف الاهواز، ولكن لم تعد تملك قوات ولا ذخيرة ولا وقود ولا مياه تكفي لشنّ هجوم على عاصمة خوزستان التي يسكنها 300 ألف نسمة، ومستودعات كثيرة، فضلاً عن محطة للسكك الحديدية ومنطقة التقاء عدة طرق. إن خطوط اتصال هذه الفرقة قد وصلت حدودها القصوى، واستنفدت وسائلها السوقية في ميادينها الخلفية. وإنّ القيام بأي هجوم بمنزلة انتحار لها، ولا سيّما أنّ هذه المدينة الممتدة على طول الضفة الشرقية لنهر الكارون تتولى القطعات المتبقية من الفرقة المدرعة 92 الدفاع عنها ببسالة وبشكل خاصّ مدفيعتها، وقوات كبيرة من الحرس الثوري. وجسورها الستة ممسوكة بقوة، والمناطق المحيطة بها زرعت بالمدفعية والقذائف المضادة للطائرات.

العراقيون يجهدون للتوقف خارج خرمشهر

وبينما تم تنفيذ الهجوم البري على وفق الخطة المرسومة في القواطع الأخرى من الجبهة، واجه التوقف مباشرة في منطقة البصرة، ففي اليوم الأول من الحرب سيطرت الفرقة المدرعة التاسعة والمعززة بلواء الدبابات من الفرقة الآلية الخامسة على مخفر الشلامجة الحدودي، ممّا سمح للمهندسين العراقيين ببناء جسر عائم على شطّ العرب.

وانتشر لواء الصواريخ سام-6 المضاد للطائرات بالقرب منه لحماية الطرق المرتبطة به. وعند الانتهاء من هذا الجسر، فإنه سيسهل إيصال التجهيزات والتعزيزات بين أبي الخصيب والشلامجة. وفي الوقت نفسه، سيُمكن المدفعية العراقية من التصويب على مصافي النفط ومستودعات الوقود في عبادان، ويُمكن تلك المدفعية من العمل لأسابيع متعدّدة ويعادل الكمّيات الهائلة من الذخيرة الضائعة. كان هدف القيادة العراقية من ذلك مزدوجًا: تدمير أكبر مصافي للنفط في العالم؛ لإضعاف الاقتصاد الإيراني من جانب، وتدمير المدينة المهجورة جزئيًا تدميرًا كاملًا عقوبة لطهران من جانبٍ آخر. وبما إن المنشآت النفطية قريبة من المدينة فإنّ القصف سيحولها إلى حقل واسع من الدمار الذي سيجعل من مهمة المدافعين عنها أكثر سهولة. بالمقابل ردّت المدفعيةُ الإيرانية وقصفت ميناء الفاو العراقي الذي تم إخلاؤه.

ومن دون ضجة كثيرة، شنت الفرقة الثالثة هجومًا مركّزًا على خرمشهر (المحمّرة) في محاولة لتقسيم المدينة والوصول إلى الجسرين القائمين على نهر الكارون وإقامة موطئ قدم عند رأس أحد الجسور؛ من أجل الوصول إلى عبادان. ومخالفًا للمنطق، أرسل القائد العراقي دباباته للهجوم وليس رجال المشاة، ولم يصمد رتل الدبابات أكثر من بضع ساعات في قلب المدينة التي يدافع عنها 1500 مقاتلٍ من كتيبة التحصينات 151، ومن كتيبة المشاة البحرية، ومن الكثير من سرايا الباسدران. قاتل الإيرانيون بشراسةٍ لصدّ المهاجمين بقذائف RBG7، وبالألغام المغناطيسية المضادّة للدبابات، وقناني المولوتوف. لاقت الدبابات العراقية صعوبةً في مواجهة المتاريس المرتجلة المتكوّنة من الباصات، وناقلات الأشغال العامّة، واللوريات المحطّمة التي حولت المدينة إلى متاهة قاتلة. وأفاد القناصون في السقوف العالية من الوضع لقنص رجال المشاة الراجلة واستئصال قادة الدبابات إن تجرؤوا على الظهور خارج أبراجهم. تراجع العراقيون في نهاية الأمر بعد أن حُوصروا في داخل دباباتهم، وبعد أن خسروا ما يساوي كتيبة دبابات وكتيبة آلية أخرى. لذلك؛ قرّرت قيادة الفرقة تغيير تكتيكاتها ومحاصرة خرمشهر بانتظار تعزيزات من المشاة وإخضاعها للقصف المدفعي العنيف.

أدرك صدام حسين في يوم 28 أيلول 1980 أن معدّل تقدّم الجيش العراقي كان أبطأ ممّا هو مخطّط له، وأنّ الإيرانيين إن كانوا مستعدين للتفاوض فإنّه ربّما يفضّل التوقّف عن الهجوم. واعتقد أنّه أظهر ما يكفي من القوة لاقتراح هدنة، والتوقع أنّ المفاوضات ستعطيه اليد العليا. وأعلن بهدوء للصحافة الدولية "أنّ العراق مستعدّ للتفاوض مع الطرف الإيراني، أو من خلال طرف ثالث، أو من خلال أية منظمة دولية؛ من أجل حلّ عادلٍ ومشرفٍ يضمن حقوقنا"⁽¹⁾. وفي الجوهر، أراد الرئيس العراقي أن تقوم إيران بإلغاء اتفاقية الجزائر، والاعتراف بالسيادة العراقية على شطّ العرب كاملاً وعلى عددٍ محدّد من الجيوب التي استولى عليها الجيش العراقي مؤخّراً، ولا سيّما في قصر شيرين، وسومر، ومهران. ومن أجل إقناع الطرف الإيراني لقبول عرضه، أمرَ بهدنة من طرف واحد خلال الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول. لم يتأخّر ردُّ إيران اللاذع، ففي يوم 30 أيلول وضعت الحكومة الإيرانية قائمة شروط غير مقبولة لعقد المفاوضات: استقالة صدام حسين، واعتراف النظام العراقي بأنّه المعتدي، وموافقة العراق على تعويض الدمار الذي أحدثه، وأن تصبح البصرة تحت السيطرة الإيرانية حتى يفى العراق بدينه، وإجراء استفتاء في كردستان العراق يسمح للکرد الاختيار بين الحكم الذاتي أو الانضمام إلى إيران، وما عدا ذلك فالمفاوضات مستحيلة، والقرار سيحسم في أرض المعركة. وعلى الرغم من أنّ الهدنة لم يتم الموافقة عليها فإنّ هدنة صدام حسين خفضت من حماسة الجنود العراقيين الذين لم يفهموا لماذا أرسلهم رئيسهم إلى المعركة بينما يُعلن أنّه مستعدّ للتفاوض مع العدو.

-1 - لوموند في يوم 29 أيلول 1980.

الفصل الثالث

كيف وصل الأمر لذلك؟

كانت الحرب العراقية - الإيرانية أولاً وأخيراً نتيجة لإرادة المواجهة بين رجلين ذوي طموحات مثيرة للنزاع، صدام حسين وآية الله روح الله الخميني. كلُّ قائد يعتقد أنَّ بقاء النظام الذي بناه يعتمد على تدمير أو على أقل تقدير إضعاف الآخر. ولكن هذه المواجهة القاسية بين هذين الرجلين ربّما لم تندلع في حرب شاملة لو لم يكونا على قناعة أنَّهما يقاتلان من أجل حقوقهما الشرعية باسم التنافس نيابةً عن الأسلاف. وفي الواقع، لقد تحارب العرب والفرس طويلاً حول الهلال الخصيب المعروف "ببلاد ما بين النهرين"، الذي يقع الجزء الأكبر منه في الأراضي العراقية، والجزء الصغير ضمن الأراضي الإيرانية.

النزاعات القديمة على الحدود

كانت الإمبراطوريتان الفارسية والعثمانية يتنازعان في مطلع القرن السادس عشر على طول خط الحدود المتصدعة عند جبال زاكروس، الذي يمثّل الحدود الطبيعية بينهما ويفصل بين الحضارتين العربية والفارسية. وهذا الصراع بين الفرس والعثمانيين سرعان ما اتخذ مضموناً دينياً، فبينما عدّ العثمانيون أنفسهم ورثة الخلفاء والمدافعين عن الإسلام السني،

يرى الفرس أنفسهم فرسان الإسلام الشيعي. في العام 1503 أعلن إسماعيل الأول - مؤسس الأسرة الصفوية - المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للإمبراطورية الفارسية. وبينما كان ينتظر السيطرة على المدينتين المقدستين كربلاء والنجف اللتين لا يمكنه الوصول إليهما؛ بسبب وقوعهما تحت سيطرة العثمانيين؛ جعل من مدينة قم مقدسةً وموطناً للمدارس الدينية المسؤولة عن تأهيل رجال الدين الشيعة، وكذلك مدينة مشهد التي تضم قبر الإمام الرضا الذي اغتاله الخليفة العباسي المأمون البغدادي. وهكذا أصبحت مدينتا قم ومشهد مزارات دينية للشيعة، وبذلك تمكنت بلاد فارس من جعل نفسها وصيةً على المذهب الاثني عشري. في العام 1534 غزا السلطان سليمان العظيم بغداد، ووقَّع معاهدة أماسيا عام 1555، وبموجبها تخلت بلاد فارس عن ادعاءاتها ببلاد ما بين النهرين وشط العرب، اللتين ضُمَّتا إلى الإمبراطورية العثمانية في ولايات الموصل وبغداد والبصرة. كذلك أكدت معاهدة قصر - شيرين لعام 1639 البنود في أعلاه. وبذلك استقرت الحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية، ما عدا السهول الساحلية لخوزستان الممتدة بين شط العرب وجبال زاكروس. يدَّعي الفرس أن مناطق الأهوار هذه كما كانت على الدوام تمثل إطلالتهم الطبيعية على مياه الخليج. ولكن عدَّة قبائل عربية من سكان المنطقة الأصليين نافسوا السيادة الفارسية على المنطقة الساحلية. وبعد أن وجد شيخ قبائل بني كعب فرصة تدهور الأسرة الصفوية شعَرَ بقوة كافية للانقلاب على الشاه، وأعاد تسمية المنطقة باسم "عربستان". وهذا لم يكن مقبولاً لدى السلطات الفارسية التي جهَّزت سلسلة من الحملات التأديبية ضده، ممَّا سبَّب الكثير من المصاعب مع الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت موازين الصراع إلى جانب الصدر الأعظم الذي فرض معاهدة أمير أشراف عام 1727م، وبموجبها تعهدت بلاد فارس بعدم التدخل بشؤون عربستان. ومن هذا الوقت قامت تسمية العراق بدلاً من بلاد ما بين النهرين.

أبدت القوى الأوروبية اهتماماً بالإقليم بعد مؤتمر فيينا عام 1815. وطالب الروس والإنكليز الفرس والعثمانيين للتوصل إلى اتفاق دائم بينهما حول الحدود؛ لكي ينهم الإقليم بالاستقرار وحماية مصالحهم. حاولت لجنة أنكلو- روسية مشتركة عام 1843 ترسيم

الحدود العثمانية - الفارسية ابتداءً من جبل آرات حتى الخليج العربي-الفارسي، وتمت المصادقة على هذه الحدود الجديدة في معاهدة أرضروم 1847. حفظ العثمانيون شط العرب كاملاً للعراق، ولكن اضطروا إلى تسليم التلال الجبلية الواقعة بين مهرا وقصر شيرين لبلاد فارس. ولكن الفرس طالبوا باسترداد خوزستان، وأعطوا الحق بالملاحة في شط العرب مقابل تخليهم الادعاء بمحافظة السليمانية التي هي مأهولة بالسكان الكرد بشكل رئيس.

في أواخر القرن التاسع عشر أصبح الوضع أكثر تعقيداً بوصول أعداد كبيرة من القبائل الشيعية؛ للتخلص من الدعوات الوهابية التي ظهرت في مملكة نجد. هذه القبائل التي استقرت في جنوب العراق، ولا سيما في المناطق المحيطة بالبصرة، والساكنة بالقرب من كربلاء والنجف أيضاً بشكل خاص قد عادت إلى مناطقها قرب الأماكن المقدسة. وهذه التحركات أدت إلى موجة من التحوّل المذهبي الذي أدى تدريجياً إلى تغيير التوازن بين المسلمين الشيعة والسنة بالعراق.

أبدى العثمانيون والفرس ارتياحهم في العام 1911 من معاهدة أرضروم. مارس البريطانيون والروس الضغط عليهم لقبول وساطة جديدة، حيث سافر فريق إلى المنطقة؛ لترسيم الحدود وإرساء تخطيطٍ دقيقٍ جداً للحدود والذي أصبح رسمياً يُعرف ببروتوكول القسطنطينية في 4 تشرين الثاني 1913. تم تحديد الحدود البرية، وتم تأكيد السيادة العثمانية على شط العرب ما عدا دزينة من الجزر الصغيرة الواقعة بين المحمرة ومصبّ الخليج لم تعد تحت السيطرة العثمانية. وقد ألحق بهذا البروتوكول تقارير مفصلة جداً لوصف نقاط الحدود، كذلك ألحقت بالبروتوكول خرائط البحرية الملكية البريطانية التي خدمت بوصفها مصادر للعراقيين والإيرانيين حتى نهاية القرن العشرين وظهور الخرائط المأخوذة من الفضاء.

قلبت الحرب العالمية الأولى هذا البناء السياسي الدقيق رأساً على عقب. وحالما دخل السلطان الحرب إلى جانب الألمان، احتلّ البريطانيون البصرة ثم تقدّموا نحو بغداد. وشدّد الروس قبضتهم على القسم الشمالي من بلاد فارس. وعند نهاية الحرب أصبح البريطانيون أسياداً في العراق. وسمحت لهم الثورة الروسية وسقوط الإمبراطورية العثمانية بتعزيز موقعهم لتأسيس نفوذهم في قطر والحصول من عصبة الأمم الانتداب على العراق

من خلال اتفاقية سايكس - بيكو التي قسّمت مناطق النفوذ في الشرق الأوسط بين البريطانيين والفرنسيين والروس. كانت لندن سعيدةً بسيطرتها على بغداد، وبشكل خاص بعد اكتشاف مكامن النفط في كركوك والموصل.

وبحصول العراق على الاستقلال في 30 حزيران 1930 أعاد الملك فيصل تأكيد السيادة العراقية على شط العرب، بينما طالب شاه إيران رضا بهلوي المشاركة بالسيادة على ذلك الشط، وألغى بروتوكول القسطنطينية لعام 1913. وبعد مفاوضات بتوسط من البريطانيين اتفق العراقيون والإيرانيون على معاهدة جديدة وقّعت في طهران في 18 تموز 1937، اعترفت بسريان مفعول بروتوكول القسطنطينية كلّها، ولكن سمحت بإقامة شريط يمتد في وسط النهر يبدأ من موانئ المحمرة وعبادان حتى الخليج، عُرف بخط التالوك ليكون حدوداً بين الطرفين مقابل أن يحتفظ العراق باحتكار الملاحة في طول النهر.

غيرت الحرب العالمية الثانية المشهد الجيوسياسي، حيث أصبح الأمريكيون "كفلاء" لإيران بدلاً من البريطانيين، بينما أجبر الروس على إخلاء الأقسام الشمالية من إيران. وفي منتصف خمسينيات القرن المنصرم فرض شاه إيران الجديد محمد رضا بهلوي الاتجاه الغربي على البلاد، وجعل نفسه أحد القادة الأكثر نفوذاً في الشرق الأوسط. في حين أصبح الوضع في العراق متفجراً. ووقوع سلسلة من الثورات الدموية التي أزاحت بقسوة الملكية في 14 تموز 1958، ثم جماعة الضباط بزعامة قاسم في 8 شباط 1963، وعبد الرحمن عارف في 17 تموز 1968. أمّا شاه إيران الذي كان بارعاً في جلب الأمريكان لجانبه ومساندة البريطانيين له؛ فقد انتهز الفرصة للعودة إلى قضية شط العرب، ولكنه فشل في إدراك تعهد السوفييت للعراقيين الذين أغلقوا الباب أمام إعادة التفاوض على المعاهدات. وبذلك دخلت الحرب الباردة إلى الشرق الأوسط، ولذلك زاد الكرملين من اقتراحاته وتسليمه السلاح لبغداد بعد وصول حزب البعث للسلطة. هذا الحزب الذي أسّسه في دمشق اثنان من المثقفين السوريين في أربعينيات القرن الماضي، كان هذا الحزب العلماني الاشتراكي يهدف إلى بعث شعور الإخوة والوحدة بين العرب، وهذه العقيدة سرعان ما جذبت النخبة السنية المسيطرة في العراق والمتخوفة من قوة الشيعة المتنامية. لذلك؛

رأى هؤلاء المثقفون في الأيديولوجية البعثية إمكانية أن تكون طريقًا للتخلص من النزاعات الدينية. ولأسباب مماثلة، جذب حزب البعث أعدادًا كبيرة من المسيحيين العراقيين. في 17 تموز 1968 أُسس مجلس قيادة الثورة وعُيّن الجنرال البكر رئيسًا للجمهورية ومنح هذه الشخصية البالغة من العمر 54 عامًا الذي كرّس حياته للخدمة العسكرية وحزب البعث التقدير المطلق.

جلب رجل العراق القوي قريبه بالزواج شخصية يُدعى صدام حسين الذي فرض نفسه تدريجيًا بوصفه أحد أعمدة حزب البعث. وهو مثل البكر من مدينة تكريت التي تبعد عن بغداد نحو 60 ميلًا (100 كم). شعر البكر أنه ليس لديه ما يخافه من هذا الرجل البالغ من العمر 31 عامًا وبشارب متغطرس: مِمَّا لا شكَّ فيه، بينما كان شخصيةً طموحًا لكن تنقصه الخبرة العسكرية ولم تكن له صلات لمنافسة البكر.

ظهور صدام حسين

وُلد صدام حسين لعائلة فلاحية متواضعة في يوم 28 نيسان 1937، وتُرك لرغباته الخاصة في سن مبكر. وأصبح راعيًا لكي يهرب من العصا الغليظة لزوج أمّه، بعد ذلك ذهب ليعيش مع خاله خير الله طلفاح. هذا المعلم القومي والعسكري السابق سيربّي صدام ويرسله إلى المدرسة ويطلعه على الثقافة الثورية. كان صدام معجبًا بمعلمه الخاص بصورة مطلقة، الذي بدأ يعلمه تاريخ العراق وما كتبه الكتاب الثوريون، ويدرسه كيف يتعامل مع السلاح. أصبح قريبًا من ساجدة ابنة خاله خير الله، التي سيتزوجها لاحقًا، وكذلك من أخيها عدنان ابن خاله الذي سيعامله كأخيه الذي سيصبح لاحقًا مستشاره الخاص. وبعد أن التحق بعائلة خير الله التي استقرت في بغداد، كافح صدام؛ من أجل إكمال دراسته الثانوية، وفشل في دخول الامتحان للكلية العسكرية. بعد إصابته بالإحباط عمل صدام بمختلف الأعمال الصغيرة التي سمحت له التعرف على حياة الشارع القاسية، وجعل من نفسه رئيس عصابة، مِمَّا جعلته يكتشف سلطة الخوف والعنف.

في منتصف الخمسينيات انضمَّ إلى خلية سرية لحزب البعث من خلال تدخل خاله خير الله طلفاح الذي أصبح عضوًا في ذلك الحزب بوقت مبكر. هنا أثبت صدام أنه صاحب قرار، قاس، ووحش إن اقتضت الضرورة. هذه الصفات الثلاثة ستطبع سيرته اللاحقة. تعرَّض صدام للسجن لقتله شرطياً في العهد الملكي، ثم أُطلق سراحه بعد ثورة 1958. حاول صدام الحفاظ على هدوئه لبعض الوقت، لكن سرعان ما عاد إلى العمل السري حينما قرَّر النظام الجديد متابعة أعضاء حزب البعث. في يوم 7 تشرين الأول 1959 كان أحد أعضاء المجموعة التي حاولت وفشلت في اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم، ممَّا أدَّى إلى جرحه وهروبه إلى دمشق، حيث التقى ميشيل عفلق رمز حزب البعث الذي تنبأ لصدام مستقبلاً رائعاً ونصحته بدراسة القانون في القاهرة. لم يكن صدام طالباً واعدًا؛ لأنَّ الحياة الأكاديمية لا تتناسب مع رجل عيونه على السلطة والعمل الحزبي. منحت ثورة 1963 الفرصة لصدام للعودة إلى بغداد. وبمساندة من عفلق أصبح الوسيط بين جناحي حزب البعث السوري والعراقي، ممَّا سمح له بتوثيق علاقته من جديد مع البكر، خاله بالقرابة ونال ثقته تدريجياً.

في العام 1964، وبعد وقت قصير من ولادة ابنه الأوَّل عدي، اعتقل صدام حسين في حملة للتخلص من قادة الحزب. كانت فترة اعتقاله فرصة لتعميق ثقافته الثورية. أصبح معجباً بكتابات ستالين الذي جعل منه قدوته الفكرية الآن. في العام 1966 هرب من السجن في أثناء عملية تسفيره وتحوَّل إلى العمل السري مرةً أخرى، وشغل عدة مناصب قيادية خلال حياة الحزبية السرية. في 30 تموز 1968 عيَّنَ أحمد حسن البكر صدام حسين نائب الأمين العام لحزب البعث، وهذا يعني جعله الرجل الثاني في الحزب والنظام. الآن ارتقى صدام السلطة ولم يجعلها تفلت من يديه أبداً. ومن الآن ولاحقاً، أخذ يبذل قصارى جهده للحصول على السلطة المطلقة، علماً عليه أن يدرك التعامل مع البكر بحذرٍ لفترة كافية لتقوية موقفه للسيطرة على الحزب. ومن أجل الوصول لهدفه، عيَّنَ نفسه رئيساً لجهاز أمن النظام وبمساندة من عشيرته، وعائلته، ومن أولئك المدِين لهم تمكن صدام من التخلص من منافسيه والسيطرة على بغداد. وفضلاً عن خاله طلفاح وابنه عدنان كان يعلم بإمكانه الاعتماد

على شقيقه برزان التكريتي، وابن عمّه علي حسن المجيد، واثنين من رفاقه خلال فترة النضال السري، وهما: المسيحي طارق عزيز، والكردي طه ياسين رمضان.

يرجع طارق عزيز إلى طائفة المسيح الكلدان ومثقف بعمق بالثقافة الإنكليزية ومن جيل صدّام حسين حينما التقى به في العام 1957 وانضمامه لحزب البعث آنذاك. كان طارق عزيز معجباً بشخصية صدّام ورهن سيرته به، واستخدم مواهبه متحدّثاً بالإنكليزية وصحفيّاً لخدمة صدّام في الخارج، ولا سيّما في أوروبا. أمّا طه ياسين رمضان؛ فقد انضمّ إلى حزب البعث في العام 1965 وهو في عمر 18 عامًا حينما كان موظّفًا في أحد المصارف. وكأيّ كرديّ كان يدرك أنّه بحاجة إلى غطاءٍ عربيّ للمضيّ مع حزب البعث. ونظرًا لإعجابه بصدّام أصبح واحدًا من ثقاته وأقرب المساندين المتحمسين له. وبذلك، شقّ طريقه بسرعة بين صفوف الحزب ليصبح قائد الجيش الشعبي، وهي الميليشيا المسؤولة عن حماية نظام البعث.

كان صدّام مستوعبًا للانقلابات العسكرية التي شهدتها العراق، لذلك قرّر أن يلجم الجيش وأن يضعه تحت السيطرة السياسية لحزب البعث لقمع أية نزعة للتمرد. فتم طرد أكثر الضباط كفاءة، وإلغاء كل أنواع التمارين على نطاق واسع، وقُلصت الذخيرة الاحتياطية للحدود الدنيا. وأعيد تنظيم الوحدات العسكرية وتعيين مراقبين سياسيين عليها. كذلك أُعيد تشكيل المناصب في القيادة العسكرية العليا مرارًا. وكان المستشارون السوفييت يمثلون الخط الموازي لذلك كلّ. وتم تعزيز قوات الشرطة والأمن الوطني وأعطيت اهتمامًا خاصًا. فالأمن الوطني الذي كان تحت سيطرة صدّام المباشرة أصبح أكثر قوةً من أيّ جهازٍ آخر. وبذلت كلّ جهد للدفاع عن النظام حتى على حساب تقليص مكانة الجيش وإضعافه. أصبح الجنرال البكر محزونًا لهذا الوضع لكنه كان يدرك أنّه لا قوة له إذا أراد التحرك والتمسك برئاسة الجمهورية. لم تكن هذه التطورات غائبة عن شاه إيران الذي وجد فرصة للقيام بعمل ما. في يوم 19 نيسان 1969 ألغى اتفاقية طهران لعام 1937 وأعلن أنّ خط التالوك المقابل للضفة الشرقية عند منتصف شطّ العرب يمثل الحدود العراقية - الإيرانية النهرية. دحضت بغداد هذا الادّعاء وأكدت السيادة العراقية على النهر كاملاً. ولأجل زيادة الضغط على النظام العراقي سلّح الشاه مقاتلي الميليشيا الكردية التي تكافح من أجل الاستقلال عن بغداد.

كان يعيش نحو عشرين مليون كردي موزعين بين العراق وتركيا وإيران في نهاية ستينيات القرن الماضي، وأغليبيتهم ينتمون إلى قبائل جبلية متنافسة فيما بينها، وهذا جعلها مسؤولة إلى حد كبير عن فشل محاولاتهم للانعتاق. وفي ذلك الوقت، كان يعيش في العراق نحو ثلاثة ملايين كردي، وهذا شكّل نحو 20٪ من مجموع السكان، ويتركزون في المحافظات الجبلية في شمال العراق في محافظات الموصل والسليمانية وكركوك. وبذلك فإنهم يحتلون منطقة استراتيجية مهمة وموطن حقول النفط الرئيسة المسؤولة عن ثراء العراق. وإن الأنبوب الناقل للنفط من حقول نفط كركوك إلى دورتول Dörtöl في تركيا يسير بالقرب من معازل سيطرة البشمركة، وهذه المنطقة المهمة تضم أيضاً الممرات التي تقود إلى شمال إيران وتركيا، مما يسمح للبشمركة بالتحرك بين تلك البلدان وإيجاد ملجأ لها في أيّ منهما نظراً لما يقع من أحداث. ولهذا، فأولئك الذين يسيطرون على كردستان العراق يسيطرون على اقتصاد العراق ومناقذه الحدودية، وهذا يفسّر لماذا تحاول الحكومة العراقية المركزية بقوة السيطرة على هذه المنطقة وتقسيمها على ثلاث محافظات متباينة (أربيل، سليمانية، ودهوك). كانت استراتيجيتها على سياسة فرق تسد، وتغيير تحالفاتها مع العشائر الرئيسة التي تقاتل؛ من أجل السيطرة على كردستان العراق. كان من أبرز العشائر الأكثر قوة هناك تلك التي يرأسها الملاً مصطفى البرزاني مؤسس الحزب الديمقراطي الكردستاني (KDP) الذي يمثل السكان الأكراد رسمياً منذ عام 1960.

وحالما وصل إلى السلطة، شنّ الجنرال البكر حملة عسكرية ضد البشمركة، لكنه واجه مقاومة صامدة من المقاتلين الأكراد المتحصنين في قمم الجبال التي أنهكت بنجاح القوات النظامية وهددت البنية التحتية للنفط. وتدين قوات برزاني في تماسكها وصمودها؛ كونها مسلحة من إيران. وجد صدام حسين فائدة من هذا الوضع مما سمح له ببقاء الجيش مشغولاً بتلك المواجهة، وإعطائه قوة لفرض سلطته الشخصية والشروع بالإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي تحتاجها البلاد. كان صدام يدرك أن عليه الحصول على حياد الكرد؛ لإنجاز الإصلاحات وتحديث العراق. ولذلك؛ قرّر التفاوض مع ملا مصطفى البرزاني، وبعمله ذلك سيجعله يربح في جميع الجبهات.

فعمل على استقرار البلاد، وإضعاف أستاذه البكر، واتخاذ دور الرجل القوي الذي يتمكن من الوصول لاتفاق مع المقاومة الكردية وسحب البساط من تحت أقدام الشاه ومنعه من استخدام التمرد الكردي لتحقيق غاياته. في 11 آذار 1970 منح صدام الحكم الذاتي للکرد معترفاً بلغتهم وثقافتهم الكردية، وإعطائهم صلاحيات واسعة في إدارة شؤونهم المحلية، وتم تعيين خمسة وزراء أكراد في حكومته. وأعطى كل من صدام حسين والملا مصطفى البرزاني أنفسهم فترة أربع سنوات لتطبيق الحكم الذاتي. وبذلك، فإن كلا الطرفين اشترى الوقت الثمين لتعزيز مواقعهم.

التنافس على السيادة الإقليمية

في كانون الأول 1970 انسحبت الحكومة البريطانية من منطقة الخليج في محاولة منها لتقليص النفقات بعد أن اقتنعت بتحرير الإمارات التي كانت تحت حمايتها في السابق. بعد أن أصبحت مستقلة، انضمت كل من عُمان والإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين إلى السعودية والكويت والعراق في جبهة واحدة؛ في محاولة لاحتواء طموحات إيران الإقليمية. وعند تركها منطقة الخليج، سلّمت بريطانيا إيران مسؤولية أن تكون "شرطي الخليج". وقد انتهزت إيران فرصة إبرام عقود تسليح ضخمة مع المملكة المتحدة واستولت على ثلاث جزر صغيرة (أبو موسى، طنب الكبرى، وطنب الصغرى)، هذه الجزر تسيطر على الممر نحو مضيق هرمز الذي بلغت أهميته الاستراتيجية إلى حدّ مرور ثلثي إنتاج النفط في الشرق الأوسط من خلاله. تعود هذه الجزر للإمارات العربية المتحدة، لكن إيران كانت تدّعي بها منذ القرن الثامن عشر، وكان احتلالها نتيجة صفقات بين طهران ولندن. كانت الحكومة البريطانية تُدرك أنّ الإمارات العربية المتحدة غير قادرة على الدفاع عن هذه الجزر، وتفضل رؤيتها بأيدي إيران الحليف المعتمد للغرب. وبالمقابل تعهد الشاه بالتخلي عن مطالبته بجزيرة البحرين، الإمارة الصغيرة الواقعة بين السعودية وقطر. وهكذا ظلّ التاج البريطاني منطلق النفوذ في منطقة الخليج.

وبينما كانت الحكومة الأمريكية متورطة في الحرب مع فيتنام، اتكلت على الشاه ووعدته بمساعدات عسكرية كبيرة، ورأى الرئيس ريجارد نيكسون وهنري كيسنجر أن العاهل الإيراني يمثل أفضل سور واقٍ ضدَّ النشاط السوفييتي في الشرق الأوسط. ولذلك؛ شحنت الولايات المتحدة كميات هائلة من السلاح للشاه، وحوّلت إيران إلى قوة إقليمية حقيقية قادرة على بسط نفوذها بعيداً عن حدودها. هذه الكتلة الضخمة من الأسلحة مؤّلت من واردات النفط. كانت ثقة البيت الأبيض بالشاه كبيرة، حتى إنّه وافق على شحن ثمانين طائرة Tomcat الاعتراضية والمجهزة بصاروخ فينكس المدمر - الذي يمكنه تدمير الهدف على بعد 90 ميلاً (150 كم)، على الرغم من رفضها في السابق تصدير هذه المقاتلة الفائقة للصوت في سرعتها وذات التقنية المعقدة؛ خوفاً من وقوعها بأيدي السوفييت. كذلك درّبت الولايات المتحدة الآلاف من الطلاب العسكريين الإيرانيين كلّ عام (ومن بينهم جميع الطيارين الشبان). والأفضل من ذلك، أقامت الولايات المتحدة برنامجاً للتعاون النووي للأغراض السلمية مع طهران، ووعدت الشاه بإرسال عدة مصانع كاملة لإنتاج السلاح. ويصاحب هذه المساعدة التقنية تعاونٌ وثيقٌ في قطاع المخابرات، ولا سيّما أنَّ CIA كانت تعمل بقوة مع السافاك، الشرطة السرية الإيرانية. وكانت طائرات التجسس الأمريكية نوع "الطائر الأسود" U-2 و SR-71 تعمل بانتظام من الأراضي الإيرانية. وبعضها كان يحلق فوق العراق لتخبر الشاه عن التصرفات العسكرية لجاره الحيوي.

أمّا في العراق؛ كان صدام حسين مصمّماً على إخراج بلده من عزلته الدبلوماسية، ولكي يمارس دوره على وفق أهدافه في العالم العربي، وأكثر أهمية في مواجهة الدولتين اللتين يراهما من أشد أعدائه، وهما: إيران و "إسرائيل"⁽¹⁾. وكان يرى مناورةً من ثلاث خطوات لبلوغ هدفه ووافق عليها الجنرال البكر. أولاً: استرضاء الاتحاد السوفييتي والعمل ليس على وفق قرارات أيديولوجية، ولا على سياسة واقعية خالصة، فبغداد تحتاج إلى

1- تدهورت صورة العراق في الغرب بعد "إعدامات بغداد" حينما أعدم نظام البعث خمسة عشر عراقياً وعلق جثثهم علانيةً بساحة التحرير وسط بغداد بتهمة التجسس لصالح إسرائيل في شهر كانون الثاني 1969.

أسلحة حديثة ومساندة مضمونة من مجلس الأمن في الأمم المتحدة لوقف أية محاولات أمريكية، إيرانية، إسرائيلية لعزل النظام البعثي.

ومن جانبه كان الكرملين يبحث عن تحسين وضعه في المنطقة، على الرغم من أنهم على بينة بخصوص تعهدات النظام العراقي الحقيقية حول أيديولوجيتهم، فالقادة السوفييت كانوا ميالين لتفرقة المعسكر الموالي للغرب واحتواء الاندفاع الأمريكي في الخليج. وكان صدام حسين تواقاً للسفر إلى موسكو لدفع المناقشات إلى الأمام، ما أدى إلى توقيع اتفاقية صداقة وتعاون بين العراق والاتحاد السوفيتي في بغداد في يوم 9 نيسان 1972. وبالمقابل تعهد النظام البعثي بقبول الحزب الشيوعي العراقي والتوقف عن ملاحقة أعضائه. ولذلك؛ تسلّم العراق كميات كبيرة من الأسلحة التي سمحت له أن يقف على قدم المساواة مع جاره القوي إيران، بيد أنها لم تكن متطورةً بشكل خاص لكنها كافية لإقناع إيران بعدم مهاجمة العراق.

وبعد تقاربه مع الروس، قرّر صدام حسين تعزيز علاقاته مع أوروبا؛ لكي يبقى بعيداً عن الصراع بين الشرق والغرب ويتجنّب العداء مع أمريكا والاعتماد كثيراً على السوفييت. كان النظام البعثي قومياً أولاً وأخيراً، ويرفض أن يكون تحت مظلة أي نوع من الحماية، ولهذا السبب رفض العراق منح السوفييت التسهيلات في قواعده. وبما إن الألمان كانوا قريبين جداً من الإسرائيليين، وبريطانيا ليست مفضلة، ولا ثقة بالإيطاليين، توجه العراقيون طبعياً نحو فرنسا التي كما يبدو هي الوحيدة القادرة على تجهيز العراق بما يحتاج: تعاون وثيق في قطاع النفط، مساعدة على نطاق واسع في مجال الطاقة الذرية السلمية، وأسلحة حديثة لردع جيرانه الإيرانيين. وبذلك تمكنت فرنسا وبسرعة من تثبيت نفسها بوصفها مصدراً ثميناً لتوريد الأسلحة للنظام في بغداد.

وضع صدام حسين لمسأته الأخيرة على مناورته الدبلوماسية بالالتفات إلى سحر العواصم العربية الرئيسة، ففي الخليج قدّم نفسه الحامي الطبيعي للعرب ضدّ الإمبريالية الإيرانية. وفي الشرق الأدنى، ادّعى أنّه بطل تحرير فلسطين والكفاح ضد المحتل الإسرائيلي. وأرسل جزءاً من جيشه لقتال الإسرائيليين في هضبة الجولان خلال حرب تشرين (حرب يوم كيبور) عام 1973. سمحت مشاركته في الحرب له بتهدئة مؤقتة مع منافسه نظام البعث السوري. ومنذ

أن استولى الجنرال حافظ الأسد على السلطة في دمشق في تشرين الثاني 1970، تفاقمت التوترات بين العراق وسوريا، وأصبح كلٌّ من البلدين يرى تلك التوترات منافسةً بين الأخوين. وعلى الرغم من أن حافظ الأسد بعثي مجرب وموثوق، فإنه لا يشارك البعث العراقي رؤاه. وفي الوقت الذي تودّد فيه إلى القاهرة وموسكو فإنه تعجرف في إهمال بغداد. والأكثر أهمية، كان القائد السوري يمثل الخطّ البعثي العسكري، بينما يرى صدام نفسه بطل الخط "المدني" الذي يهدف لإخضاع المؤسسة العسكرية لحمايم الحزب. وأخيراً قادت التوترات إلى انشقاق القيادة في حزب البعث وهروب ميشيل عفلق من دمشق واللجوء إلى بغداد. ومن هنا ولاحقاً، أخذ النظام العراقي يتفاخر أنه الممثل الوحيد لخطّ الحزب التاريخي. ومبتهجاً بهذه الشرعية، أعاد صدام حسين تنظيم الحياة السياسية في العراق حول عقيدة البعث وأسكت المعارضة إلى الأبد. وبينما تمكّن صدام حسين من سحب العراق من عزلته الدبلوماسية، كرّس جهوده لأولوياته الأخرى: تأميم الصناعة النفطية. في الأول من حزيران 1972 أمّمت الحكومة العراقية شركة النفط العراقية وجميع الشركات النفطية العاملة على الأراضي العراقية. كانت تلك ضربةً قاضيةً للشركات الأنكلو-سكسونية التي عملت كلّ ما باستطاعتها لمعارضة هذا القرار. وبفضل الشراكة مع فرنسا في مجال الطاقة وضعت القيادة العراقية مرافئ خور العمية وميناء البكر في الخدمة لتصدير النفط. وازداد إنتاج النفط في سنوات قليلة من مليوني برميل يومياً إلى ثلاثة ملايين ونصف المليون، وجعلت من العراق لاعباً كبيراً في منظمة الأقطار المصدّرة للنفط (أوبك)، ومنافساً خطيراً لإيران في مجال الطاقة.

اتفاقية الجزائر

وبينما تحسّن وضع العراق إقليمياً، فإنه تدهور داخليا. لم يكن صدام حسين عند وعده، ولم ينفذ الحكم الذاتي الذي وعد به الكرد مستفزاً بذلك عشيرة البرزاني. والأسوأ من ذلك، بدأ النظام العراقي بتنفيذ برنامج واسع لتسفير السكان الكرد من أكبر مدينتين في شمال العراق، وهما الموصل وكركوك، وفرض التعريب فيهما.

وفي ربيع عام 1974 حرّك مصطفى البرزاني قواته ودعا إلى كردستان المستقلة وكركوك عاصمتها. نزل أكثر من 50 ألفاً من البيشمركة إلى الشارع، مهددين بإقامة معاقل لهم في الموصل وكركوك. وفي هذا الوقت، لم يعتمد مصطفى البرزاني على مساندة إيران النشطة التي وجدت الفرصة سانحةً لإضعاف العراق وإجباره على التفاوض على وضع شط العرب، ولكن مساندة الولايات المتحدة أيضاً التي كانت تبحث عن وسائل لزعزعة استقرار النظام العراقي؛ لأنّ الأمريكيين أخذوا يعتقدون أنّ العراق أصبح جيئاً سوفيتياً. وحصل البرزاني أيضاً على دعم الإسرائيليين الذين يرون في العراق من أخطر أعدائهم.

ولذلك كان السافاك والموساد وCIA نشطين جداً في تمويل المقاتلين الكرد وتدريبهم وتسليحهم، ممّا أزعج بغداد إلى حدّ كبير. حشدت مئة ألف جندي، والجزء الأكبر من دباباتها ومدفعتها وقوتها الجوية؛ لسحق هذه الثورة الجديدة. أخذ الجنرال البكر هذه الحملة بيديه؛ لأنّه يرى فيها فرصة غير مرغوب فيها ترفع من مكانة الجيش واستعادة نفوذه ضمن الحزب. وعدا بعض النجاحات المحلية القليلة، لم يتمكن البيشمركة من الوقوف بوجه هذه القوّة الساحقة والمسلحة جيئاً الآن. وبذلك، تم دفعهم إلى الحدود التركية والإيرانية من دون رحمة. كانت المعارك شديدة، والإجراءات الصارمة وحشية، ولكن بدأت علامات التعب تظهر على الجيش العراقي في أواخر عام 1974. هنا قفز الشاه لاستغلال الفرصة وأرسل عدة آلاف من الجنود الإيرانيين متكرين بملاص البيشمركة وبمساندة من الآليات المدرعة والمدفعية، وشارك هؤلاء الجنود مباشرة في المعارك. كان الشاه هذه المرة مصمماً على إخضاع بغداد.

في مطلع عام 1975 فقدت الحملة العسكرية زخمها، وأصبحت الجبهة مستقرّة، ممّا شجّع الشاه على زيادة مساعداته لمصطفى البرزاني وحزبه الديمقراطي الكردستاني. وأدركت الحكومة العراقية أنّ هذه الحرب الأهلية أصبحت مكلفةً كثيراً وتمنع العراق من متابعة عمليات تحديث البلاد التي بدأت للتوّ تعطي ثمارها، فقد ترك القتال ما يقرب من عشرين ألف قتيل، وخسر الجيش العراقي نحو مئة دبابة، وعشرين طائرة، ولجوء نحو 200 ألف كردي إلى إيران. كان الجنرال البكر وصدّام حسين يدركان أنّ سير القتال لم يكن لصالحهم،

وفهموا أنه ليس باستطاعتهم مواجهة الجيش الإيراني مباشرة، ولا خيار لهم سوى التعامل مع الشاه. كانت الولايات المتحدة تخاف أن التوترات المتواصلة بين العراق وإيران ستعود على الكرملين بالفائدة، ولذلك أيدت الوصول إلى نهاية للقتال يتم التفاوض عليها حتى لو تعني التخلي عن المساعدات للكورد. أمّا الاتحاد السوفيتي بقي صامتاً، ومنقسماً بين تقاعسه الطبيعي عن مساندة الحركة الكردية وبين التزاماته التعاقدية مع الحكومة العراقية. كانت إسرائيل الوحيدة التي ترغب باستمرار القتال؛ لأنه يحقق لها فائدة استثنائية في إضعاف الجيش العراقي وإشغاله عنها في الوقت نفسه.

وافق العراقيون والإيرانيون على البدء بمفاوضات برعاية الرئيس الجزائري هواري بومدين رئيس حركة بلدان عدم الانحياز، الذي يتمتع بعلاقات رائعة بين بغداد وطهران. دعا بومدين القادة العراقيين والإيرانيين للالتقاء في الجزائر لحضور اجتماعات قمة منظمة الأوبك، حيث كانت الجزائر رئيسها الدوري. في 6 آذار 1975 وجد الشاه محمد رضا بهلوي وصدّام حسين أرضية مشتركة للتفاهم والاتفاق على ترسيم نهائي للحدود البرية استناداً إلى بروتوكول القسطنطينية لعام 1913، وترسيم حدودهم المائية استناداً إلى خط التالوك، وبذلك تكون الحدود المائية بين الطرفين عند وسط شط العرب، وبذلك ربح الشاه. وبالمقابل، سحب كل دعمه للتمرد الكردي. لقد استسلمت الحكومة العراقية في قضية شط العرب لضمان أنها ستمكن من سحق التمرد الكردي نهائياً. ولم يُترك لمصطفى البرزاني ولولديه إدريس ومسعود سوى الفرار وانتظار فرصة أفضل. أصدر الجنرال البكر وبرحابة صدر عفواً عن البيشمركة الذين يوافقون على إلقاء سلاحهم.

شعر صدّام حسين بالذلة، وقامت الجماعة الأكثر قومية في حزب البعث بتوجيه اللوم له؛ لأنه تنازل ببساطة عن مصالح الشعب العراقي لطاغية إيران. ونظرًا لتعرض هيئته للخدش، سيفعل صدّام كل شيء ممكن لقلب معادلة القوة وخلق الظروف المناسبة لإلغاء اتفاقية الجزائر التي صوّرت كأنها فشله السياسي الوحيد. وبما إنه مصمم على أن يكون في القمة دائماً، التفت إلى الداخل واستخدم ثروة البلد من النفط، فنفّذ مشاريع عامة وتسريع وتائر الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، ممّا يسمح للطبقة الوسطى التي تشكل القاعدة

الصلبة لحزب البعث لتحسين ظروف عيشها. لقد أدرك صدام أن قبول المجتمع العراقي بطبيعة النظام السلطوية بحاجة إلى إمكانية لزيادة ثرواته والحصول على مستوى معين من العيش. ومن أجل عمل ذلك، كان رجل بغداد القوي يأمل سحب البساط من تحت أقدام الشيعة الذين انضموا إلى صفوف حزب الدعوة، الذين أخذوا يستعرضون نفوذهم المتنامي مؤخرًا من خلال العدد المتصاعد للتظاهرات⁽¹⁾.

وبينما شدد صدام من قبضته على المجتمع العراقي، بذل قصارى جهده ليمسك بالجيش، ولا سيما أنه لم يعد مشغولًا بالجبهة الكردية. وعليه ضمان الطاعة له وسحق أية نزعة للتحريض فيه. كل ذلك بينما يسير بهدوء مع الجنرال البكر الذي يعد جزءًا من عائلته، لكنّه احتفظ بالكلمة النهائية على الجيش. ومن أجل الوصول إلى أهدافه، جعل صدام مجلس قيادة الثورة يمنحه رتبة عسكرية على الرغم من أنه لا يملك أية خبرة في الجيش ولا حتى أدنى الخدمة العسكرية الإلزامية فيه. ومن أجل تعزيز موقعه، عهد بوزارة الدفاع إلى ابن خاله عدنان خير الله، الذي قضى وطراً من حياته في العسكرية وأحرز مكانة متميزة في القتال ضدّ البيشمركة. وبذلك، وبمساندة من عدنان تمكّن صدام من زيادة سيطرته على الجيش في وقت زاد من تعبئة مستودعاته بالسلاح، ممّا لفت انتباه المراقبين الأجانب كمحاولة لجعل ميزان القوة مع إيران يميل لصالح العراق. كذلك أوجد وحدات من الشباب المجندين وغير المجندين ومن المخلصين للنظام ليكونوا ضباطاً في الجيش، وطبع في الذهن مناخاً عاماً من الإرهاب بتطهير الجيش من الأفراد الذين صوروا بصفة متمردين. ففي مطلع عام 1978 تم اكتشاف "مؤامرة" في داخل الجيش، وألقي القبض على عشرين ضابطاً وإعدامهم بعد محاكمتهم صورياً، في حين وقّعت اتفاقيات مع فرنسا والاتحاد السوفيتي لتوريد السلاح الحديث للعراق وبشكلٍ خاصّ صواريخ سكود البالستية القادرة على ضرب إيران.

كان صدام حسين نشطاً أيضاً على مستوى الإقليم. وبينما كان الجنرال البكر يحاول التفاوض على بنود الاتحاد المؤسّساتي بين العراق وسوريا استناداً إلى مبادئ التضامن

1- شكّل حزب الدعوة الشيعي آية الله محمد باقر الصدر في أواخر خمسينيات القرن الماضي للترويج لتأسيس دولة إسلامية في العراق.

لحزب البعث التي من المفترض أن تقود لوحدة البلدين كان صدام يبحث عن التقارب مع ملكيات الخليج النفطية. كان يستشير بانتظام الملك السعودي خالد مستخدمًا المداينة عند الضرورة. وعمل جاهدًا لتحسين العلاقات مع تركيا، ولا سيَّما أن بغداد تعتمد على تركيا في تزويدها بالمياه العذبة (منابع نهري دجلة والفرات كليهما في تركيا) وتبيع عليها النفط أيضًا. لقد منح القدر صدام فرصة مناسبة حينما زار الرئيس المصري أنور السادات القدس وما تبعها من توقيع اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، ثم شوَّهت من مكانة الرئيس المصري في عيون العالم العربي. قفز نائب الرئيس العراقي ليقدم نفسه بطلًا جديدًا للوحدة العربية والوسيط بين مختلف الحركات المعادية لإسرائيل. كان طموحه ليس أقل من أن يكون عبد الناصر الجديد، على الرغم من أنه تحدَّث فقط عن الرئيس المصري الراحل بأشد عبارات الاستخفاف. لذلك؛ ضيَّف العراق مؤتمر القمة العربي الثامن في تشرين الثاني 1978 الذي سمح له بتهميش مصر ووضع نفسه في سباق على الزعامة الإقليمية مع الرئيس السوري حافظ الأسد. وعلى رأس كل ذلك، أوجد انطباعًا بوجود علاقات سلمية مع شاه إيران، وأن العلاقات بين العراق وإيران ودية منذ توقيع اتفاقية الجزائر، وتسترشد في الظاهر بمبادئ السياسة الواقعية. وكلُّ حكومة يبدو أنَّها مستعدة لقبول التعايش مع الحكومة الأخرى. وقام الأمير غلام، شقيق الشاه بزيارة رسمية للعراق علامةً على التصالح الظاهري بين البلدين. كان محمد رضا بهلوي أكثر وديةً في تعامله مع السلطات العراقية، ولا سيَّما أنه أصبح يواجه وضعًا حرجًا في الجبهة الداخلية، فالاحتجاجات تكتسب شعبيةً في إيران وأصبحت أيام الشاه معدودة.

وصول آية الله الخميني إلى طهران غير اللعبة

في يوم 8 كانون الثاني 1979 انطلقت جماهير كبيرة نحو شوارع طهران تطالب بإسقاط الشاه، وتدهور الوضع إلى صدمات عنيفة. وتأهب الجيش بسلاحه مستعدًا، تاركًا السافاك يحاول كبح طوفان الجماهير الذي لم يتوقف. كان الشاه المتقدم في السن والمريض

يدرك جيداً تخلي الرئيس الأمريكي جيمي كارتر عنه، وقرّر أن يصطحب عائلته ويغادر البلاد لمنع انحدار الوضع إلى حرب أهلية حقيقية. في 16 كانون الثاني 1979 رحلت العائلة الإمبراطورية في رحلة لجوء محزنة قادتهم من مصر إلى المغرب ومن البهاماس إلى المكسيك، بعد رفض الولايات المتحدة منحه اللجوء إليها. وخلال الأسبوعين اللاحقين حاول رئيس الوزراء شابور بختيار جاهداً عمل كل شيء ممكن لاستعادة السيطرة على الوضع، وأمر بحلّ السافاك وإطلاق سراح الكثير من السجناء السياسيين، لكن ذلك لم يهدئ من روع الجماهير التي تطالب بتغيير حقيقي للنظام ودعت قوى المعارضة إلى الاتحاد. أدرك الخميني الذي يتمتع بمساندة شعبية واسعة وقيادة الثورة معنوياً أنّ الوقت قد حان للتحرك. ترك الخميني لجوءه في فرنسا في الأول من شباط 1979 وعاد لطهران منتصراً. كانت الجماهير المختشدة في المطار تنتظره للترحيب به.

كان روح الله الخميني ابنٌ وخفيدٌ أكبر لآيات الله، وُلد في العام 1902 وأصبح يتيمًا في سنٍّ مبكرة، أخذه خاله ليعلمه قيم العدالة والمبادئ القويمة للإسلام الشيعي. وحينما قضى طفولته بين مدارس القرآن وبيت العائلة، واصل دراسته الفقهية في جامعة قم وحصل على درجتها في سنٍّ خمسة وعشرين عامًا، وأصبح أستاذًا في تلك الجامعة المشهورة، ثمّ تزوّج. ولاحقًا حصل على مرتبة آية الله التي تسمح له بتسلّم المسؤولية بين علماء الدين. سرعان ما أصبح من أكثر أساتذة كلية الفقه شهرةً. عاش الخميني حياة الزهد ومارس نشاطاً روحياً معمّقا لم يفصل بين الدين والسياسة. كانت صوفيته وقصة حياته وحتى اسمه الأول "روح الله" قد أقنعه أنّ لديه رسالة فريدة. ففي الخمسينات من عمره أصبح منهمكًا في معارضة نظام الشاه ومنتقدًا بقسوة لحماسته لسياسات التغريب. ودعا إلى الإطاحة بالملكية وتبني الشريعة الإسلامية بديلاً منها، وإخراج الأمريكيين من البلاد. ولذلك؛ وضعته آراؤه السياسية في خصام مع الحكومة. في العام 1964، وبعد سجنه لفترة قصيرة أُجبر على اللجوء، فذهب إلى تركيا أولاً ثمّ سافر إلى العراق. قضى الأربع عشرة سنة الأولى من لجوئه في النجف، ثمّ في كربلاء، وهي المدن المقدّسة لدى شيعة العراق الذين رحّبوا به كواحدٍ منهم. انتهز فرصة لجوئه الإجباري ليُدين نظام الشاه بوتائر متصاعدة وبأشدّ العبارات

قسوة⁽¹⁾، وعمل أيضًا على تسهيل التقارب بين شيعة العراق وعلماء إيران الذين بقى على اتصال وثيق معهم. وتآخى مع محمد باقر الصدر مؤسس حزب الدعوة.

كانت هداية آية الله الخميني أزعجت السلطات العراقية وخاصة صدام حسين الذي طلب من السلطات الفرنسية منحه اللجوء السياسي، ثم أبعده في شهر تشرين الأول من العراق. وفي فرنسا وضعت السلطات تحت المراقبة في قلعة نوفيل - لي - شاتو خارج باريس، لكنه استمر في سياسته لزعة النظام علانية من خلال إرشاداته وإرساله التسجيلات الصوتية التي كانت تُوزع في إيران بشكل واسع، وبذلك أسهم أكثر في إضعاف الشاه. وكان هجومه ضد الحكومة العراقية التي وجه إليها اللوم في إجباره على اختياره اللجوء غير المشرف في أرض المشركين. وفي هذا الوقت أخذت صورته تنتشر في كل الشوارع بالمدن الإيرانية الرئيسة. كان تصلبه، ومظهره الأبوي، ولحيته التي ملأها الشيب، وعمامته السوداء؛ كلُّها علامات انحداره من نسل النبي محمد، وأسهمت في جعله الشخصية الأكثر مشاهدة ومعارضة لنظام الشاه، واستهوت الكثير من المثقفين الإيرانيين من خلال تأثيره وجاذبيته.

وعلى الرغم من بلوغه السبعين من العمر، لا يزال آية الله الخميني يتمتع بذاكرة حادة وتصميم صلب. ومن أجل أن تسود رؤيته العالمية، دعا إلى تأسيس جمهورية إسلامية تعجل من ظهور الإمام المهدي. هذا الخطاب الفقهي لم يُعجب المعارضة التقدمية في إيران، لكنها مستعدة لقبول التحالف وإن مع الأصوليين الإسلاميين؛ من أجل التخلص من الشاه ونظامه. "فأرض الورود والحمام" كما يذكر الشاعر الفارسي الأسطوري عمر الخيام، عادت لتكون صفحة مهمة من صفحات التاريخ.

في 5 شباط 1979 أعلن آية الله الخميني نفسه "المرشد الأعلى للثورة" وطرده شابور بختيار الذي هرب إلى فرنسا. أمّا الجيش الذي يؤيد الملكية لكنه أراد أن يحافظ تماسكه وأن يُنقذ ما يمكن إنقاذه، أعلن حياده وتعهد بخدمة النظام الجديد. فتم حلُّ الحرس الإمبراطوري وإعدام الكثير من العقدااء والجنرالات؛ لأنَّ بعضهم من دفع حياته ثمنًا لمشاركته في اضطهاد الدولة لقوى المعارضة. وجعلوا بدلًا منهم ضباطًا مجندين وموالين للنظام الجديد،

1- اغتال السافاك مصطفى خميني، الابن الأكبر لآية الله الخميني، في العام 1977، ما أدى إلى زيادة حقد الخميني على الشاه.

وفي بعض الأحيان من غير العسكريين، وظهرت اللجان الثورية في وحدات الجيش، وألقى الكثير من المجندين الإلزاميين سلاحه وذهب إلى البيت. وسادت الفوضى الوضع حتى أجبرت السلطات العسكرية على إيقاف التجنيد الإلزامي. وبذلك سادت الجيش الفوضى كما هو الحال في الإدارة والصناعة. وإن إمكانية انهيار الإنتاج النفطي ومخاوف عدم الاستقرار في الإقليم أشعلت فتيل أزمة نفط ثانية ربّما تؤدي إلى آثار مستمرة على اقتصاديات الدول الصناعية. ارتفع سعر النفط نحو 65٪ خلال أشهر قليلة وهي القفزة الأكبر منذ أزمة النفط الأولى في العام 1973.

في أواخر شهر شباط عين آية الله الخميني مهدي بزركان رئيسًا للوزراء. يتتمي هذا المهندس ذي الثلاثة والسبعين عامًا إلى الحركة الليبرالية، وقضى عدة سنوات في سجن الشاه. كان بزركان يهدف إلى التوفيق بين الدين والحداثة. فهو معروفٌ جيدًا بزهدِه ونزاهته، وأراد أن يزوج بين المبادئ الديمقراطية والليبرالية مع الأطر الإسلامية المعتدلة. فقربه من الدوائر الثقافية الغربية كان يهدف لطمأنة واشنطن ببرنامج الثورة الإيرانية. ومن أجل الحصول على المساندة السريعة للفتات المحرومة وتبني سياسة اجتماعية تقوم على المساواة، حاول مهدي بزركان تقديم المساعدات الزراعية الكبيرة، ولكن افتقاره للجاذبية الشخصية لم يخدمه كثيرًا. وهناك صعوبة هائلة لتقديم نفسه ظلًا لآية الله الخميني الذي يتمتع بشخصية عبادية حقيقية.

وبعد إجراء الاستفتاء الشعبي في يوم 2 نيسان 1979 أعلن آية الله الخميني الجمهورية الإسلامية في إيران وكلف لجنة من الفقهاء بوضع دستورٍ جديدٍ للبلاد. تسارعت عمليات التطهير وأنشئت المحاكم الشعبية في المدن الكبرى التي اعتقلت عدة الآف من السكان وأعدمت نحو 200 منهم بعد محاكمة صورية، من بينهم 50 جنرالًا وضباط كبار من سلك الحرس الإمبراطوري السابق. وألغيت الكثير من القوانين الإمبراطورية، ومن بينها قانون حماية حقوق المرأة. هذه القيود على الحقوق الفردية أدت إلى هجرة جماعية للفتات الثرية من المجتمع. والكثير من المتخصصين بالشؤون العسكرية ترك العمل واختار اللجوء إلى الغرب. وأغلبية الطيارين والبحّارة الذين كانوا يتدربون في الولايات المتحدة وُصفوا

"بالموالة للغرب" فضّلوا البقاء في الخارج؛ لخوفهم على حياتهم إن عادوا إلى إيران. أدى غيابهم هذا إلى معاناة حادة في القوات العسكرية وقدراتها العملية، ولا سيّما في القوتين الجوية والبحرية. لكن النظام الجديد كان يدفع بسياسة "اللاتغريب" في البلاد ولم يبالِ بكل ذلك. بينما انتهزت القوات المتمردة الفرصة لمحاولة تثبيت الحكم الذاتي لبعض المحافظات بعيداً عن الحكومة المركزية. ولذلك؛ أصبح الأذريون والكرد والمتحدثون بالعربية والبلوش⁽¹⁾ منشقين، وقاتلوا اللجان الثورية، حيث وقعت أكثر المصادمات عنفاً في كردستان وخوزستان. ولأجل استعادة الأمن، والأكثر أهمية متابعة الجيش النظامي حيث كان النظام يشك بولائه كثيراً، قرر آية الله إنشاء جيش مواز ومخلص للنظام تماماً. ففي يوم 5 مايس 1979 أصدر مرسوماً بتشكيل "باسدران - انقلاب"، أي حرس الثورة، ويشار إليه بالإنكليزية "بالحرس الثوري". أصبح هذا الجهاز تحت إشراف المرشد الأعلى مباشرة ومقسماً على ثلاث قيادات رئيسة مسؤولة عن حماية طهران، والدفاع عن المدن الرئيسية في المحافظات، ويتولى حراسة الحدود. أرادت السلطات ضمان أن الجيش النظامي لم يسمح للعناصر المناوئة للثورة من التسلل إلى البلاد من خارجها. وتولّت القيادة الرابعة تدريب المنخرطين الشباب في الباسدران. ففي البداية، تألف الحرس من 15 ألف عنصر موزعين في وحدات صغيرة بحجم سرية أو لواء، ومجهّزين بشكل شامل بأسلحة خفيفة. لكن أعدادهم تضخمت سريعاً. اختار آية الله الخميني أن يضع هذا الجهاز تحت قيادة الشاب على خامنئي النجم الساطع في الحزب الإسلامي، الذي وضع فيه ثقته الكاملة. كان الخامنئي مدعوماً من رئاسة الأركان التي تمتع بسلطة كاملة في مصادرة المواد كالغاز والمعدات والغذاء والطعام. ولأجل المحافظة على التوازن بين الجنود المتدينين والعلمانيين وضمنان عملية تجنيد متجانسة تمثل بدقة المجتمع الإيراني، قررت السلطات السماح للشباب الذين يريدون خدمة بلدهم الاختيار بين الجيش النظامي أو جهاز الباسدران، وهذا ما كان يُقسم المجتمع الإيراني على معسكرين في الأشهر الأولى من الثورة.

1- يتركز السكان البلوش بالقرب من الحدود الأفغانية والباكستانية وهم أقلية من المزارعين وسكان الجبال الذين يدينون بالمذهب السني كالأكراد الذين يختلفون عن بقية سكان البلاد من الشيعة.

يتألف المعسكر الأول من أولئك الذين يعتبرون أن القضايا الثورية والمبادئ الجمهورية تفوق أهمية الأبعاد الدينية، مع أنه لا يمكن نكران مكانة الدين، وأغلب القادة السياسيين يعدون أنفسهم مسلمين صالحين. هذا المعسكر يضم الليبراليين والديمقراطيين الاجتماعيين والمثقفين والطبقات الوسطى. وهؤلاء تدعمهم جماعة المجاهدين (مجاهدي خلق) التي تدعو إلى مجتمع إسلامي حديث ومدني، وكذلك من اليسار المتطرف المتمثل بالحزب الشيوعي الإيراني "توده"، وفدائيي الشعب (فدائيي خلق)⁽¹⁾. ومن منظمة العمال الثوريين بكرستان إيران المعروف باسم "كوملا". ولكن بقي هذا المعسكر التقدمي في أغليته منقسماً بعمق، ولم يُقدم شخصية مرجعية له، حتى مسعود رجوي رئيس مجاهدي خلق لا يمكنه الادّعاء بقيادته.

أمّا المعسكر المعارض؛ فهو يتألف من رجال الدين والأصوليين الإسلاميين، وهؤلاء وضعوا أهميةً أوليةً على البعد الديني، وعدّوا أن الفترة الثورية مجرد مرحلة انتقالية نحو إقامة المجتمع الديني الحقيقي. كانت أهدافهم تقوم على استخدام الجانب التقدمي كرمية حجر للوصول إلى السلطة. إن استراتيجيتهم نشطة: التجذر في الحياة السياسية، ثم التخلص تدريجيًا من كل شخص من أعدائهم. فمن هؤلاء؟ ومن أجل أي شيء يناضلون؟ العلماء وعلى الرغم من انقسامهم على عدة مدارس فكرية، يتفقون على مكانة آية الله علي منتظري الأساسية، الذي كان محور المعارضة الدينية للشاه خلال وجود آية الله الخميني في المنفى. هذه الشخصية الدينية ذو السبعة والخمسين سنة من العمر درس الفلسفة على أيدي الخميني، وقبل أن يصبح الشخصية الأكثر احترامًا في جامعة قم. فأصوله الريفية، وإخلاصه الكبير، والسنوات المتعددة التي قضاها في سجون الشاه أوجدت شرعيته الشعبية، فكل شخص يعرف حساسيته لمعاناة الإنسان، وأنه يؤثر الأخلاق والعدل على السياسة. كان علي منتظري من الأوائل الدعاة إلى الجمهورية الإسلامية، وأصبح واحدًا من الذين يؤدلجون لها، وهذا لم يمنع من توجيه النقد إلى النظام الجديد حينما يرى ضرورة ذلك. لقد أصبح وبسرعة

1- يطالب فدائيو الشعب بالحكم الذاتي بالمحافظات الإيرانية ويدعون لتأسيس دولة ماركسية. ويرتبطون بروابط وثيقة مع الحركات الثورية الفلسطينية.

"تروتسكي" إيران الذي يرى أن في مقدمة أولويات النظام ضرورة تصدير الثورة إلى البلدان الأخرى. وظهر للكثير أنه سيكون الخليفة الشرعي لآية الله الخميني.

كانت الحركة الإسلامية الأصولية التي تملك نفوذاً كبيراً في المناطق الريفية وبين الطبقات الدنيا تتجمع حول حزب الجمهورية الإسلامي (IRP) برئاسة آية الله محمد بهشتي من أنصار آية الله الخميني المخلصين. هذه الشخصية الطموح البالغة من العمر خمسين عاماً والمجاملة في العلاقات الدولية، رأس المركز الإسلامي في هامبورغ، وهو مؤسسة مسؤولة عن تلقين المبادئ الإسلامية للطلاب الإيرانيين المقيمين في أوروبا عدة سنوات. كان يخطط لفرض نفسه ورثاً لآية الله الخميني، مستفيداً من علاقاته الواسعة. ولأجل تحقيق ذلك، كان ينوي تهميش منافسيه، ولا سيما آية الله العظمى كاظم شريعتمداري الذي يعارض آية الله الخميني حول بعض القضايا العقائدية. كذلك بذل بهشتي قصارى جهده لعرقلة وصول الشباب الصغار من رجال الدين إلى قمة الهرم لرجال الدين الكبار. كان اثنين من بينهم يشحذون حججهم، إن لم تكن سكاكينهم: أكبر هاشمي رفسنجاني، وعلى خامنتي.

صدّام يتولّى السلطة

وفي هذا الوقت تبدّل الوضع في العراق. في ربيع العام 1979 همّش صدّام حسين الحزب الشيوعي العراقي، وأعلن حظر حزب الدعوة الشيعي واعتقال كل أعضائه الذين اصطفوا ضدّ نظام البعث. كان سبب مخاوف صدّام حسين الشديدة - ولو جزئياً - قلقه من تأثير الثورة الإسلامية الإيرانية الكبير في نظام البعث. ومع ذلك، بذل العراق جهده ليسوس محاوره الجديد بعناية، أرسلت الحكومة العراقية برقية تهنئة حذرة لمهدي بزرگان رئيس حكومة الجمهورية الإيرانية المؤقتة. كانت هذه الالتفاتة تعني عرض بغداد مساندة لها للجماعة الثورية العلمانية؛ من أجل تجنب الإشارة إلى انتصار الأصوليين الإسلاميين الذين يدعون إلى تأسيس دولة إسلامية تضمّ المدن المقدسة في كربلاء والنجف. وكانت هذه

البرقية تعني المناشدة لإدامة العلاقات الودية بين البلدين، لكنها أدت إلى توترٍ حادٍّ بين العاصمتين. شعر آية الله الخميني بالضيق؛ كون البرقية لم تخاطبه، وانتقد بشدة نظام البعث، ودعا علانيةً السكان الشيعة في العراق إلى الانتفاضة ضدَّ النظام.

اقتنع صدام الآن أن يكون صارمًا كلما أمكنه ذلك مع النظام الإيراني الجديد. وكان يعتقد أنَّ الجنرال البكر يعوزه التصميم الضروري لنصح الحكومة الإيرانية والعدول عن تنفيذ استراتيجيتها بزعزعة النظام العراقي. والأكثر أهمية من ذلك، كان يعتقد أنَّ معلمه المتقدم في السنِّ قد أَدَّى دوره. الآن يبلغ صدام اثنين وأربعين عامًا من العمر، ولديه التأييد القليل، شعر أنَّه قوي بما يكفي لقيادة البلاد علانيةً، حيث كان يقوم بذلك في المهام العملية لعدة سنوات. ففي 16 تموز 1979 وبمساندة من أعضاء عشيرته، أزاح صدام معلمه السابق وتولَّى السلطة في بغداد، ووضع البكر تحت الإقامة الجبرية في بيته بحذر، وأعلن رسمياً أنَّه تنازل عن السلطة لأسباب صحية. اختار البكر أن يتجنب الإرهاق والمواجهة مع صدام، ووافق على الحصول على تقاعد ذهبي في فيلا فارهة في إحدى الضواحي الأنيقة من العاصمة مقابل انسحابه الدائم من الحياة السياسية⁽¹⁾.

كان صدام ينوي استئصال أي زمالة بين الشباب، وأن يقيم سلطته الخاصة به بصرامة، وإن تطلَّب ذلك إراقة الدماء. وشغل منصب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة في وقت واحد، وعيَّن ابن عمِّه علي حسن المجيد في الموقع الحساس رئيسًا لجهاز المخابرات، وثبَّت شقيقه برزان التكريتي رئيسًا للأمن العام، ورفع صديقه طارق عزيز نائبًا لرئيس الوزراء وأودعه وزارة الخارجية حيث ستكون مهمته الأساسية المحافظة على صورة النظام الإيجابية في الغرب. وبإسنادٍ من حلقتة المصغرة استأصل صدام كلَّ منافسيه داخل الحزب، ووضع نهايةً لمحاولة البكر التقارب مع سوريا؛ لأنَّه كان يرى أنَّ وحدةً رصينةً بين البلدين ستؤدي إلى إقامة دولةٍ عربيةٍ جديدةٍ تمتد من الخليج إلى البحر المتوسط، وتقود

1- تُوفي الجنرال أحمد حسن البكر في يوم 4 تشرين الأول 1982 في بيته ببغداد. كانت وفاته في لحظة حاسمة لصدام حسين، حينما كان الجيش العراقي قد اكتوى بنيران الجيش الإيراني، وشخصية الجنرال البكر يمكن أن تظهر رحمةً إلهيةً لكثير من العراقيين.

إلى تقليص سلطته، وتزيد من سلطة حافظ الأسد. ولذلك؛ لم يقاتل صدام من أجل السلطة كل هذه السنوات ليتقاسمها مع رجل كان يعدّه من أشد منافسيه. في 28 تموز 1979 أدان صدام مؤامرة مزعومة لإسقاطه خلال اجتماع استثنائي لمجلس قيادة الثورة.

تم اعتقال "عدة دوزينات" من المندوبين خلال الاجتماع بتهمة الخيانة، وأخذوا إلى الخارج ليتم إعدامهم على الفور، حتى إنّ صداماً أعدم بعضهم بنفسه باستخدام مسدسه الذي يحمله معه دائماً، وبعد أن أمر الأعضاء المقربين من عشيرته لإعدام البعض الآخر لكي يمكنه استخدام ذلك متى ما يريد ضدهم، وضمان ولائهم له. وهذه الإعدامات صوّرت ووُزعت على القادة في الخليج والشرق الأوسط لإخافتهم وإقناعهم بعزيمة صدام الشديدة. قرّر صدام أن يجعل من نفسه الرجل القوي الجديد في الإقليم. إنّ وسائل الخوف التي يستخدمها الآن مع رفاقه نفسها التي كان يستخدمها في السابق حينما فرض نفسه في الشوارع. وبظهوره اللطيف الكاذب، يحاول أن يشكل صورة القائد الأب والعيديم الرحمة، يجمع بين شخصيتي ستالين وآل كابوني. وسمح صدام بتصويره وهو يرتدي القمصنة السوداء القصيرة وهو يدخن السيجار ويلوح ببندقية من نوع طومسن التي أنشأت السمعة السيئة لعصابة شيكاغو، هذه الصورة التي رآها العالم أدّت دورها وكوّنت أسطورة مزيفة لديكتاتور عنيد.

واشترك صدام في كثيرٍ من السمات مع ستالين، وأكثر ممّا يتوقع المرء. كلا الرجلين ينحدر من أصول متواضعة وتعرّضا إلى العنف الأسري في طفولتهم. وكلاهما كافح من أجل تعليمهم. ولذلك؛ كانا يشككان دائماً بالمتقنين والأستاذة ويخافون النقد ودسّ السمّ لهم. وكلاهما تم اعتقاله وفرض نفسه زعيم عصاية خارجاً عن القانون. كانا مفتونين دائماً بقوة الدولة والعنف، ويعدان الخوف أفضل وسيلة لإقامة سلطتهم⁽¹⁾. وكلاهما احتلّ مكانته من خلال السيطرة على مكاتب أحزابهم الخاصة بهم. وأخيراً، كلاهما اتصف بالعنف والشكّ بالآخر ويُظهرا المرح الزائف، ووحشان إن اقتضت الضرورة، ومستعدان دائماً

1 - ومن تصريحات الكثير من البعثيين السابقين للمؤلف أنّ صدام حسين أخبر المقربين منه مراراً أنّ "الرب والعنف أدوات يمكن استخدامها بحكمة".

للتوافق إن كان ميزان القوى ليس في صالحهما. ومع ذلك، يختلف صدام حسين عن ستالين في عدة صفات، فهو لا يشبه حالة ستالين كونه لم يُظهر ألمعية عسكرية أو قدرات استراتيجية، والأكثر دقة أنه وضع دائماً اعتماداً كبيراً على عائلته وعشيرته، ومستعدّ دائماً للتسامح مع نقاط ضعف حلقاته المصغرة حتى المخاطرة بارتكاب أخطاء خطيرة، وفي ذلك كشف عن شخصية أقرب إلى زعيم للمافيا من ديكتاتور مؤدلج. وأخيراً، لم تستند أعماله إلى رؤية استراتيجية طويلة المدى، فصدام لم يكن مثاليًا كثير الرؤى.

وبعد أن كبح الحزب، أمر صدام ابن خاله عدنان خير الله بتطهير الجيش من الضباط الموالين للجنرال البكر، مع إدراكه تمامًا أن ذلك يقلص من كفاءة أي جيش ربّما يحتاجه لمواجهة النظام الإيراني. ولكن كانت مخاوفه المفرطة من وقوع انقلاب عسكري تفوق العقل. أجبر صدام كل ضابط برتبة ملازم يتخرج في الكلية العسكرية أن يقسم اليمين الولاء له، وأصرّ على الالتقاء بكل ضابط كبير لتقييم ولائه قبل ترقيته إلى رتبة أعلى. وبذلك أصبحت الترقيات العسكرية تتم على وفق معايير سياسية، فعُيّن عبد الجبار شنشل الذي يحمل درجة عضو "مرشح" في حزب البعث لمنصب حسّاس رئيساً لأركان القوات المسلحة، وعُهد بقيادة الجيش الشعبي إلى طه ياسين رمضان، رفيق الرئيس منذ زمن طويل. وأدرك أن الحرس الإمبراطوري مفيد جداً، حوّل صدام أحد الألوية المدرعة إلى "حرس جمهوري". هذه الوحدات النخبة تم تمييزها بمثلث برتقالي مرسوم على كل آلية من آلياتها، أصبحت بإمرة عدنان خير الله. كانت مجهزة بأفضل الأسلحة والمعدات وتنتشر في العاصمة بغداد؛ لكي يمكنها التدخل فوراً في حالة وقوع أية محاولة لإسقاط النظام.

ولأجل توطيد سلطته، طوّر الرئيس الجديد صورةً جديدةً لعبادة الشخصية. انتشرت صورته المبهرجة بسرعة في طول البلاد وعرضها، التي تعرض تلك الابتسامة لآكلي اللحوم. سواء ارتدى البدلة النظامية ذات الثلاثة قطع أو الجلابية، فإن صداماً يبدو أنه ينظر من خلال هذه الصور أنه يراقب الشعب من قرب، ويعرف أنه لا حدود في بحثه عن الاعتراف به، فهو يقارن نفسه بنبوخذنصر أو بصلاح الدين. وظهرت أيضاً الصور الجدارية على جدران بغداد تصوّر صداماً وهو يمتطي جواداً عربياً ويبيده السيف وكأنه يقاتل الأسد الفارسي. وفي خطوة

جيدة، تكلف الديكتاتور بإنتاج فلم سماه "القادسية"، الذي تبجح فيه بشجاعة المقاتل العربي ضد القوات الفارسية. في هذه الملحمة التاريخية المهمة جمعت الممثلين العرب الكبار في ذلك الوقت الذي كان من أكثر الأفلام غلاءً أنتجته صناعة الأفلام العربية. ومن الطبيعي، أن الإشارة إلى هذه المعركة الرمزية تهدف إلى استحضار العقل العراقي ويذكرهم من هو عدوهم الطبيعي: الإيرانيون المنحدرون من الفرس. وكأني حيوان بري في الميدان السياسي يدرك صدّام حسين أنه شخصية مهددة، ففي أواخر عام 1979 توقع أنه بطريقة أو بأخرى سيجبر على المواجهة مع آية الله الخميني الذي لم تترك خطبه الانتقامية مجالاً للشك برغبته الإطاحة بالحكومة العراقية. كانت أهداف كل من النظامين متناقضة، فصدّام حسين يمكنه التعايش مع الشاه، لكنه لا يستطيع مع آية الله الخميني.

الفصل الرابع

هل دفعت الولايات المتحدة الأمريكية صدام حسين للهجوم؟

انتشرت بعد اندلاع الحرب العراقية الإيرانية بوقت قصير إشاعة بأن حكومة الولايات المتحدة حرّضت صدام حسين لمهاجمة إيران وما تبعها من توقع بإسناد واشنطن له سياسياً ومساعدته مادياً بشكل كبير، مما يسمح له بتمويل الحرب. كان الادّعاء بأن حكومة الولايات المتحدة عملت على تجنب انتشار الثورة الإسلامية إلى مشيخات الخليج، ولكنها في الواقع تريد معاقبة النظام الإيراني بصورة خاصة لتورطه في أزمة الرهائن. استندت هذه الإشاعة إلى تصريحات أبي الحسن بني صدر علانية بعد الإطاحة به بعدة أشهر، أن الولايات المتحدة حرّضت العراق على مهاجمة إيران، وادّعى أن العراق لا يمكنه الذهاب إلى الحرب دون مساندة واشنطن. ربما استخدم الرئيس الإيراني السابق هذه الاتهامات لتبرير عجز الجيش الإيراني الاستعداد للحرب، والمصاعب التي واجهها بصورة خاصة بوصفه قائداً للقوات المسلحة كما أكدها في كتاب سيرته الذاتية التي نشرها بعد الحرب⁽¹⁾. ولربما كان ذلك

1- أبو الحسن بني صدر:

Jean-Charles Deniau " My Turn to Speak: Iran the Revolution and Secret Deals with the US

(Washington ,DC :Brassey's,1991),70 ff.

وسيلة لبني صدر للانتقام من الأميركيين الذين لم يثقوا به أبداً ويعُدُّونه يساريًا مخلصًا للنظريات الاجتماعية الأوروبية.

في العام 1985، وبعد محاولة العربية السعودية التقارب مع إيران، سرّبت السلطات السعودية تصريحات ساندت ادعاءات بني صدر للصحافة البريطانية: يقال إنَّ حكومة جيمي كارتر قد حرّضت صدام حسين للهجوم على إيران، بل ضغطت على الملك خالد لتشجيع صدام لشنِّ حملة عسكرية على الخميني والوعد بدعم ملكيات الخليج النفطية. وُزِعَ أيضًا أنَّ الرئيس العراقي سافر إلى الرياض في يوم 5 آب 1980 بناءً على طلب من الملك خالد لإبلاغه بإمكانه الاعتماد على المساندة الأمريكية. وباستخدامه هذه التصريحات المختلفة أدلة، نشر الصحفي ديليب هيرو Dilip Hiro هذه الإشاعات في كتابه الذي لاقى رواجًا⁽¹⁾. والتقطتها بعض الدوائر الأوروبية وبعض المثقّفين العرب التواقه دائمًا لنظريات المؤامرة التي تنسجم مع الفرضيات المناهضة للأمريكان. هذه الإشاعات ما زالت باقية حتى اليوم وبشكل خاص في إيران - ولأسباب واضحة تتعلق بالدعاية المناهضة للغرب - دليلًا على خطبة آية الله الخميني عام 2009 بوصفه ردًّا فعل لسياسة مدِّ اليد للرئيس باراك أوباما. "لقد أعطت الولايات المتحدة الضوء الأخضر لصدام، كان ذلك مسرحية أخرى لحكومة الولايات المتحدة لمهاجمة إيران. وإذا لم يحصل صدام على ذلك الضوء الأخضر من الولايات المتحدة، فلا يمكنه مهاجمة حدودنا"⁽²⁾.

ومهما بدت هذه النظرية مهندثة، فإنها لا صحة لها. ففي مطلع العام 1988 كتب بول بالتا Paul Balta مراسل صحيفة لوموند الفرنسية في الشرق الأوسط ومن الصعب الشكُّ في تساهله مع السياسة الخارجية لأمريكا يقول: "لا توجد أدلة حقيقية تؤيد الرأي القائل إنَّ أمريكا دفعت بغداد لبدء الأعمال العدائية"⁽³⁾. ومنذ ذلك الوقت، التحليل الشاقُّ للأحداث، والقرائن، والتصريحات من الشخصيات المعاصرة مجتمعة مع المصادر الأخيرة،

1- Dilip Hiro, The Longest War (New York, Routledge, 1991), 71.

2- BBC Worldwide Monitoring Service, March 22, 2009.

3- Paul Balta, Iran-Irak: Un guerre de 5000 ans (Paris, Anthropos-Economica, 1988), 196.

والمقابلات مع الشخصيات المشاركة في الحرب آنذاك؛ شككت في أن الحكومة الأمريكية دفعت صدام حسين للقيام بسلوك إجرامي.

قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة بعد حرب الأيام الستة في العام 1967 متهمًا واشنطن بدعمها "لإسرائيل" في تلك الحرب "الوقائية" ضد جيرانها العرب. ولذلك؛ شارك القتال ضد "إسرائيل" في حرب العام 1973، ولم يكن الأمريكيون مقدرين في بغداد كونهم حماة للإسرائيليين، ومنذ دعمهم إيران ويعارضون دائمًا ادعاء العراق بحقوقه في شط العرب. وبسبب حقه العميق لليهود، شوّه فورًا سمعة القادة الأمريكيين وعدّ أيّ تقارب معهم مستحيلًا. وتؤيد ذلك التسجيلات الصوتية التي استولى عليها الأمريكيان في العام 2003. كان الدكتاتور العراقي مقتنعًا أن الولايات المتحدة تريد التخلص من كل الأنظمة "التقدمية" في العالم العربي، ومن بينها نظامه، وإقامة أنظمة إسلامية بدلًا منها تكون مبالغة أكثر لمقاومة التخريب الشيوعي. كان يشكّ بعمق بالسياسيين الأمريكيين وليس لديه علاقات مباشرة معهم. كان وسطاؤه فقط الملك الأردني حسين، والملك السعودي خالد اللذين يمتلكان علاقات وثيقة مع الحكومة الأمريكية. وإن لم يكن صدام يثق بهم. ولربّما لم يكن مخطئًا تمامًا، فبالنسبة إليه، السعوديون مزدوجو التعامل ويضعون مسؤولية أفعالهم على عاتق الحكومة الأمريكية⁽¹⁾.

وبينما تؤيد عدة روايات ذهاب صدام إلى الرياض في يوم 5 آب 1980، لكن كلّها تتفق أنّه ليس ليتسلّم الضوء الأخضر من الإدارة الأمريكية، بل على العكس لإخبار الملك خالد خططه لغزو إيران والحصول على الدعم المالي⁽²⁾. وفي الظاهر، كان العاهل السعودي يشارك الرئيس العراقي تحفظاته، وقيل إنّ كان يخاف المواجهة مع إيران؛ لأنّها قد تدفع

1- الكثير من المشاركين في هذه الأحداث أكدوا لي هذه النظرية، منهم: ريجارد ميرفي السفير الأمريكي السابق في المملكة العربية السعودية، و Hambley Mark القنصل الأمريكي العام في الرياض في ذلك الوقت، و Judith Yaphe رئيس مكتب العراق بقسم التحليلات في المخابرات المركزية الأمريكية.

2- Lawrence Potter and Gary Sick, *Iran, Iraq and the Legacies of War* (New York: Macmillan, 2004), 173;

وأكد قادة البعث السابقون هذه المعلومات عند مقابلتهم للمؤلف.

طهران لزعة استقرار الملكيات النفطية، كما برهن العمل الإرهابي مؤخرًا في مكة. وقيل أيضًا إنه أكد ضعف جيشه في حالة الاشتباك المباشر مع إيران، وخطر التدخل السوفيتي في المنطقة الذي سيكون كارثيًا على دول الخليج والولايات المتحدة. كذلك زُعم أنه لم يكن متحمسًا للفت انتباه صدام حسين لمخاطر الحرب الشاملة بين العراق وإيران؛ لأنها قد تؤدي إلى وقف الصناعة النفطية بشكل كامل، وهي المورد المالي الرئيس للممالك التي يريد صدام منها المساعدة. وإن مثل هذه الحرب ربما تُجبر السعودية على تبني سياسة رفع أسعار النفط وعلى عكس استراتيجيتها في المحافظة على أسعار نفط منخفضة. وزُعم أن الملك السعودي لم يستطع تغيير رأي صدام، لكنّه وافق ضمنيًا بشرط أن يمتنع الجيش العراقي عن مهاجمة الصناعة النفطية الإيرانية؛ لتجنب أية حلقة للثأر تستهدف البنى التحتية النفطية في المنطقة كلها. وقيل أيضًا إن الملك السعودي أخبر بصورة خاصة مستشاريه أنه "إذا ربح صدام الحرب ستكون حربه "هو" ونصره "هو"؛ وإذا خسرها سيكون خطأنا"⁽¹⁾.

إن الإدارة الأمريكية التي تحلل الشؤون الخارجية من خلال منظار الحرب الباردة، كانت تعدّ العراق من حلفاء الاتحاد السوفيتي، ولذلك فهو عدوٌّ محتملٌ، ولا سيما أن بغداد وموسكو قد وقعا اتفاقيةً للصدقة والتعاون والمساعدة العسكرية منذ ثماني سنوات. وأليس الجيش العراقي مجهز بالأسلحة السوفيتية؟ وإذا لم تحرض العراق على شنّ اشتباكاتٍ مع إيران فإنّها تخاطر بخلق حالة من العرض للأسلحة السوفيتية، بينما تهدف سياسة الولايات المتحدة إلى استعراض تفوق الأسلحة الأمريكية الصنع؟ وبالتأكيد أن الإدارة الأمريكية لا ترى في النظام البعثي شريكًا يمكنها معه إعادة تشكيل التوازنات في الخليج من الناحية الجيوسياسية. وإنّها شخصت بوضوح ثلاثة تهديدات لأمن الخليج: الاتحاد السوفيتي، إيران، والعراق. وإنّ نظريات البعث الاشتراكية تعدّ مناهضةً للمبادئ التي يبذل الدبلوماسيون الأمريكيون قصارى جهدهم لترويجها في الشرق الأوسط. كان صدام حسين يُعدّ "دكتاتور مافيا من المستحيل المناورة معه ولا يثق بأي أحد"⁽²⁾. فعداؤه "لإسرائيل" وبرنامجه النووي

1- Balta, Iran-Irak, 240 .

2- كما وصف ذلك Charles Cogan مدير عمليات الشرق الأوسط السابق بالمخابرات المركزية الأمريكية عند مقابلة المؤلف له.

(الذي يشكُّ فيه بأنَّه غطاء سري لحصوله على القنبلة الذرية) أفقده ثقة الكونجرس تمامًا، والبيت الأبيض، واللوبي الإسرائيلي الذي يعمل بصورة استراتيجية في واشنطن. إنَّ الحكومة الإسرائيلية بقيادة مناحيم بيغن - الذي يدين له الرئيس الأمريكي بالفضل لتوصله إلى سلام مع مصر - واصلت ضغطها المتواصل لتجنُّب أيِّ تقارب بين واشنطن وبغداد. لقد حذَّر وبوضوح كلاً من وزارة الخارجية والبتاغون والمخابرات الأمريكية من أنَّ أيَّ تقارب مع بغداد يُعدُّ انتهاكاً غير مقبولٍ للتحالف الذي يربط "إسرائيل" بالولايات المتحدة، وعلى الأقلِّ ما دام البرنامج النووي العراقي لم يتم تحييده بشكلٍ ما. وأخيراً، والأكثر واقعية، أنَّ الإدارة الأمريكية ليست مهتمةً بالعراق؛ لأنَّها بقيت مهووسةً بإيران.

الثورة الإسلامية تعكس المياه

وبعد شهور من وقوع الثورة الإسلامية، كلُّ واحد في واشنطن حاول التحلل من فشله في التنبؤ بسقوط الشاه. كانت المؤسسة الأمريكية منقسمةً بين أولئك الذين يريدون القفز على الفرصة لإعادة بناء الشراكة مع طهران، وأولئك الذين يتتقدون الإدارة في معالجتها الكارثية للأزمة الإيرانية - ولا سيَّما الجمهوريون الذين يريدون الإطاحة بجيمي كارتر. فأولئك الذين كانوا يتعاملون مع النظام السابق يرذِّدون مطالبة جزء كبير من المجتمع الإيراني بعدم التفاهم مع الثورة. كانت النزعة العامة قد سُمتت أكثر باعتقاد الكثير أنَّ المخابرات الروسية KGB مارست دورًا حاسمًا في تفجير الثورة الإيرانية بوصفها خطوةً أوليةً لهجوم سوفيتي على منطقة الخليج. والأكثر أهمية، أنَّ إدارة كارتر فقدت تقريباً كلَّ اتصالاتها وفتقر لأية معلومات واقعية لمتابعة الاضطراب السياسي الهائل في إيران. كان تقرير القائم بالأعمال الأمريكي في طهران كئيِّباً "نحن ببساطة لا نملك أية سير ذاتية ولا جرِّداً للمجموعات السياسية، أو أية صورة حالية للحياة اليومية التي تتطور في مستويات مختلفة في إيران"⁽¹⁾.

1 - اقتبسها Bruce Laingen من كتاب المؤلف Bill James الرائع بعنوان

The Egal and the Lion - The Tragedy of American- Iranian Relations (New Haven, CT: Yale University Press, 1988), 276.

والأسوأ من ذلك، اختار خبراء كثيرون مغادرة مواقعهم أو أُجبروا على التنازل. فوزارة الخارجية وجهاز المخابرات يفتقرون وبمرارة إلى محللين أكفاء لتفسير تطورات الأوضاع. ولأجل استعادة تأسيس قائمة اتصال، توجهت السلطات الأمريكية إلى أولئك الأكثر تأثراً بالغرب ومن الشخصيات السياسية الإيرانية الليبرالية ومن بينهم رئيس الوزراء مهدي بزرگان، ووزير خارجيته ابراهيم يزدي، ووزير دفاعه مصطفى كامران، ووزير الإعلام صادق قطب زاده.

وحاولت المخابرات الأمريكية استئناف محاولاتها مع القيادة الإيرانية، والكثير من خبرائها من سافر إلى طهران في شهر آب 1979 لإبلاغ السلطات المحلية بالمواقف الأمريكية وتحذيرهم من المخاطر السوفييتية لزعة استقرار الإقليم⁽¹⁾. وحاول السفير سوليفان فتح حوار مع آية الله بهشتي، لكن اللقاء لم يؤدِّ إلى مناقشات أوسع. وحاول زيغنيو بريجنسكي مستشار الرئيس كارتر للأمن القومي التقرب من آية الله الخميني ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح. وبتأثير من عناصر اللوبي القريبين من النظام السابق، أُجبر الكونغرس بريجنسكي على التوقف فجأة. وآية الله الخميني الذي كان يشعر بالإطراء عليه حول النتائج المتوقعة من هذا اللقاء كان يحمل ضغينة شرسة لإلغائه. ولذلك؛ لا أحد في واشنطن متخوف من ذلك أو فهم أن الوضع يمكن أن يتحرك للإمام من دون حوارٍ مباشرٍ بين المرشد الأعلى وصانعي القرار الأمريكيين الكبار. وفي الواقع، كان لدى البيروقراط الأمريكي قلق واحد: المحافظة على عقود التسليح واستمرار ضخ النفط الإيراني للولايات المتحدة.

كلُّ هذه التغيرات حدثت في شهر آب حينما ألغت إيران عقود التسليح مع الولايات المتحدة. وكان على مهدي بزرگان أن يقوم بتقليصات مالية كبيرة لتعويض النقص الهائل في واردات النفط التي جاءت نتيجة الفوضى في هذا القطاع الحساس من الاقتصاد الإيراني. واستناداً إلى مستشاري بزرگان فإنَّ الإنفاق الهائل للشاه قد جعل الجيش الإيراني يمتلك معدات حديثة كافية. ولكن بهذا القرار ذهبت نحو عشرة مليارات دولار قيمة عقود السلاح

1 - المصدر نفسه، 290-291. أكد هذه المعلومات Charles Cogan مدير عمليات الشرق الأوسط بالمخابرات المركزية الأمريكية.

أدراج الرياح وترك الصناعيين الأمريكيين في هيجان. ولذلك؛ استجاب الكونغرس لفرض حظر على توريد الأدوات الاحتياطية للجيش الإيراني، ولم يعد أي سبب للبيت الأبيض للتساهل مع القادة الإيرانيين.

وفي أواخر شهر تشرين الأول التقى بريجنسكي مهدي بزركان في الجزائر، وأبلغه قرار الرئيس كارتر السماح للشاه المريض جدًا بالسفر إلى الولايات المتحدة لعمل عملية طارئة في مشفى بمدينة نيويورك. وبمنح حق اللجوء لمحمد رضا بهلوي فإن واشنطن نسفت جهود الليبراليين الإيرانيين للمحافظة على الحوار مع الولايات المتحدة. كانت المشاعر لا تزال خامدة والخطاب المناوئ لأمريكا يتزايد باستمرار. فالإيرانيون لن ينسوا مناورات القوى الخارجية معهم لما يقرب من قرنين من الزمن. كانت ردة فعل الشعب غاضبة حينما علم أن الشاه وصل إلى الأراضي الأمريكية مع الإشاعة - وببراعة انتشرت من اعداء مهدي بزركان - أن لقاءً سرّيًا قد تم بين رئيس الوزراء ومبعوث أمريكي رفيع. وقد فسّر الإيرانيون تلك الأخبار دليلاً على نية الحكومة الأمريكية لإعادة النظام السابق. ومن مقر إقامته في قم، حينما كان يُشرف على نشاطات اللجان الثورية - وهي نسخة من لجان "الأمن العام" في الثورة الفرنسية - وجد الإمام الخميني مباشرةً الفرصة مؤاتية لتوجيه ضربة قاضية للوجود الأمريكي في إيران بتنحيته العناصر الليبرالية التي يعدّها قريبةً جدًا من الغرب.

وفي يوم 4 تشرين الثاني استعرضت حشود من المتظاهرين في شوارع طهران التي أصبحت الآن مجرد مشهد معتاد عليه، وتسَلَّقت جماعة من الطلاب حائط السفارة الأمريكية خلال مرورهم بالقرب منها، وانتشروا داخل السفارة وأخذوا القائم بالأعمال والموظفين فيها رهائن. لم يتمكن الحرس من الاستجابة؛ لأنّه أخذ على حين غرة. كانت مطالب "الطلاب" المتورطين في هذا التطور المفاجئ غامضة وهي دعوة الولايات المتحدة إلى تغيير سياستها في الشرق الأوسط. أعلن آية الله الخميني دعمه علانيةً للطلاب الذين أخذوا الرهائن قائلاً: إنّه يتفهّم شكواهم. ثم حلّ حكومة مهدي بزركان، وكلف محمد علي رجائي بدلاً منه، وهو أكاديمي لديه علاقات قوية مع الجماعات الثورية الراديكالية وشارك في تطهير الحياة الأكاديمية من أي نفوذ غربي. وأسس أيضًا فيلق الباسيج "الحشد" للحرس

الثوري الذي يتألف من الطلاب الشباب الموالية للثورة الإسلامية، ثم امتدَّ ليشمل الطلاب في المدارس المتوسطة والإعدادية الراغبين بقوة لخدمة القضايا الثورية. عُهد بقيادة هذه القوة إلى حسن رحمانى، الحليف المخلص للمرشد الأعلى، وهي كقوة احتياط للباسدران. وهكذا أُلقيت الولايات المتحدة في آتون الارتباك. فقد تم احتجاز نحو خمسين مواطناً أمريكياً رهائنَ في طهران. وخلال أيام قليلة، خسرت الإدارة ما بقي لها من اتصالات محدودة مع الحكومة الإيرانية. وتصورت الإدارة المصابة بالذهول أكثر الاحتمالات تهوُّراً لإنقاذ مواطنيها، كما تم عرضه في الفيلم الرائع Argo من اخراج وبطولة بين افليك Ben Affleck الذي يصور عملية إنقاذ تقوم بها المخابرات الأمريكية لستة دبلوماسيين أمريكيين الذين التجؤوا إلى السفارة الأمريكية في اللحظات الأخيرة. جمَّد الرئيس كارتر، وهو في حالة من الغضب، الأصول الإيرانية في البنوك الأمريكية، وأعلن حظراً على شحن الأسلحة لها. أمر الفنين الأمريكيين الذين يقيمون في إيران لصيانة المعدات الأمريكية بالعودة إلى الولايات المتحدة⁽¹⁾. ولكنه رفض قطع العلاقات الدبلوماسية معها. ورفض على الفور استخدام القوة، وكلف وزارة الخارجية بحلِّ أزمة الرهائن سلمياً. ولكن الوضع أكثر تعقيداً وبسرعة؛ لأنَّ الأحداث في إيران بدأت بخلق مشاكل ارتدادية في الإقليم. ففي يوم 20 تشرين الثاني 1979 احتجزت مجموعة من الحجاج المتشددين بعض مئات من المتعبدين رهائنَ في داخل الحرم المكي. ودعوا إلى قتال فساد الدولة السعودية وأدانوا اتفاقاتها مع الحكومة الأمريكية، وبعد عدة أيام من محاصرتهم، هاجمتهم القوات السعودية حيث كانت النهاية دموية بقتل 135 من الرهائن. كانت هذه المأساة تمثل جرس إنذار للملكيات في الخليج. نشطت تلك الملكيات من احتراسها ضدَّ الشيعة لشعورها بالهجوم عليها، ممَّا أدى بالخميني إلى توبيخها بقسوة.

وزاد الوضع تعقيداً أكثر، قيام الجيش السوفييتي بغزو مفاجئ لأفغانستان في 26 كانون الأول 1979 وإعادة الرئيس الماركسي السابق بابرak كارمال إلى السلطة. وأصبح واضحاً مباشرة أنَّ الكرملين مستعدُّ لانتهاز فرصة ضعف الولايات المتحدة ظاهرياً لاستعراض قوته

1 - اتهمت السلطات الإيرانية لاحقاً هؤلاء الفنين بأنهم خربوا بعض العناصر الإلكترونية لطائرات Tomcat المقاتلة وكذلك صواريخ Phoenix جو - جو بناءً على أوامر من البنتاغون، وأن لا تقع في الأيدي الخطأ خلال العمل.

في الإقليم. وبذلك، أصبحت الملكيات في الخليج قلقةً وهي ترى الخطر السوفييتي يقترب أكثر من حقول نفطها الثمينة. وحتى الثوريون الإيرانيون أصبحوا قلقين وهم يرون وجود التعزيزات العسكرية السوفييتية ظاهرة للعيان على حدودهم. إنَّ انتشار القوات في جمهورية أرمينيا السوفييتية وأفغانستان أظهر أنَّ السوفييت وإلى حدٍّ كبيرٍ أكثر قوةً في الميدان من الجيش الإيراني. وفوق ذلك، لم تتمكن طهران من إرسال الجزء الأكبر من قواتها لمواجهة الاتحاد السوفييتي كما كان الحال أيام الشاه، ولمواجهة الثورات في الداخل وتهيئة نفسها لمواجهة تهديدات النظام العراقي. وكان صدّام حسين هو الآخر قلقًا وخوفه من أن حلفاءه السوفييت ربما يحاولون إعادة المشهد الأفغاني في العراق. كان يعلم أنَّ موسكو ترى فيه شريكًا صعبًا، ويصعب التفاوض معه، وغالبًا لا يمكن التنبؤ به، وفوق كلِّ ذلك، من المعادين للحزب الشيوعي. وبإمكان شيوخ الكرملين الإطاحة به. وبما إنَّه مصمم على تأكيد سلطته، انتقد صراحةً الموقف الإمبريالي للاتحاد السوفييتي، ممَّا أفرغ قادة الكرملين الذين وبَّخوه بتذكيره أنَّ مساعداتهم العسكرية ربما لن تستمر طويلاً.

مبدأ كارتر

استمرَّ الرئيس كارتر في ترده لاستخدام القوة لتحرير الرهائن وتخوفه أنَّ التدخل العسكري سيدفع إيران لأيدي السوفييت. في 12 كانون الثاني 1980 أرسل مذكرةً إلى طهران اقترح فيها تشكيل وفد مشترك لوضع إجراءات رصينة لإيجاد حلٍّ للأزمة. وهنا كررت واشنطن خطأ بغداد. حاول البيت الأبيض التفاوض مع الحكومة الإيرانية ولم يزعج نفسه بمخاطبة الشخص الذي بيده السلطة الحقيقية: آية الله الخميني. ربما يكون المرشد الأعلى رجل دين، ولكنه أساسًا من المتسمين بالعناد ولا يتحمل أن يتجاهله أحد وكأنه غير موجود. ولذلك حصلت الإدارة الأمريكية على رفض صريح لاقتراحها.

ونتيجة لانزعاجها من الموقف الإيراني والقلق من النشاط السوفييتي، أرسل الرئيس كارتر نحو ثلاثين قطعة بحرية - وبضمنها حاملات الطائرات Nimitz و Coral Sea - إلى

خليج عمان، وهو أكبر تركيز بحري تجمّع في الإقليم. واتخذت هذه "القوة البحرية في الشرق الأوسط" من المنامة عاصمة جزيرة البحرين الصغيرة مقرًا لها؛ لحمايتها من أية محاولة إيرانية أو سوفياتية لزعزعة الأمن هناك. قام الكرملين بالرد على تلك الحملة بإصدار الأمر بنشر دوزينة من السفن والمدمرات العابرة للبحار تدعمها خمس من الغواصات المهاجمة في المحيط الهندي. في يوم 23 كانون الثاني 1980، صاغ كارتر مبدأً جديدًا للاحتواء اتخذ من اسمه عنوانًا له، وبموجبه أعلن وبعبارات واضحة أن أية محاولة من القوى الخارجية للسيطرة على منطقة الخليج تعدُّ هجومًا على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية التي ستواجه بكلِّ الوسائل الضرورية وبضمنها اللجوء إلى العمل العسكري. ولأجل إظهار تصميمه، أعلن جيمي كارتر تشكيل "قوة الانتشار السريع" ومهمتها الدفاع عن المصالح الأمريكية في المنطقة.

ولم يكن مبدأ كارتر مثيرًا لاهتمام لأولئك من في السلطة في إيران الذين كانوا منشغلين كثيرًا بصراعاتهم الداخلية المُقسمة للنظام. فالمعسكر التقدمي الذي ضعف كثيرًا بعد طرد مهدي بزرگان من السلطة أخذ يعتمد الآن على الاشتراكيين والجنح اليساري الإسلامي لوقف اندفاع الحزب الجمهوري الإسلامي الذي يقف خلف بهشتي والذي ظهر أكثر قوة من أيِّ وقتٍ مضى ومنذ اغتيال اثنين من منافسيه الرئيسين مؤخرًا⁽¹⁾. وتم أيضًا تهميش الحزب الشيوعي "تودة". ومجاهدو الشعب يعيشون في شبه ظلمة ويتوقعون دائمًا أن يقوم الباسدران بسحقهم، ولا سيّما أنّه ينتظر كلمة من المرشد الأعلى للبدء بالملاحقة دون رحمة. وكعادته، بقي آية الله الخميني فوق الصراعات ويحرك بيادقه ويستوعب التناقضات؛ من أجل تأمين مهمته كونه "مرجعية تحكيم"، التي ينافسه عليها العلماء الأكثر محافظة. ويعترض هؤلاء العلماء على أنّه من غير الجائز أن يأخذ الإنسان دور "الله" في تقرير قيام الثورة الإسلامية الحقيقية، أي الثورة التي تقود إلى ظهور الإمام المنتظر. وعلى الجهة

1- أطلق النار على آية الله مرتضى مطهري (تسع وخمسون سنة من العمر) في اليوم الأول من شهر مايس بينما قتل محمد

مفتاح (إحدى وخمسون سنة من العمر) من مهاجميه في يوم 18 كانون الأول 1979. وقد نُسبت هذه الاغتيالات

بشكل طبيعي إلى فصيل من مجاهدي الشعب.

الأخرى من الطيف السياسي، اليسار المدني المتطرف الذي ينافس الصبغة الدينية للنظام ويطالب بالجمهورية الماركسية. في هذا الصراع على السلطة الذي لا يرحم، كان رجال الدين يعتمدون كثيرًا على المرشد الأعلى، وعلى مجلس الخبراء، وعلى مجلس أمناء الثورة، بينما يعتمد المعسكر العلماني على رئيس الجمهورية وعلى البرلمان.

في هذا السياق المتوتر انتخب الإيرانيون أبا الحسن بني صدر رئيسًا للجمهورية في 25 كانون الثاني 1980. كان بني صدر يبلغ من العمر خمسًا وأربعين سنةً وهو مثقفٌ وتدرَّب ودرس الاقتصاد وعاش في فرنسا لسنوات متعدّدة قبل أن ينضمَّ إلى آية الله الخميني في منفاه في نوفيل - لي - شاتو. عاد إلى إيران مع آية الله الخميني وأُسند إليه منصب وزير المالية. وبوصفه وطنيًا مخلصًا ومسلمًا صالحًا، وابنًا لأحد الملالي، كان يؤمن بالمبادئ الاشتراكية ومصبِّمًا على الانضمام إلى المعسكر التقدمي الذي كان يبحث عن الموازنة بين العقائد الدينية ومبادئ الجمهورية. وفي نموذج الحياة السياسية الغربية فهو يساوي الجناح اليساري المسيحي، لكنَّ أقرانه أخذوا يفحصون قدراته العملية وأُشروا افتقاره لشخصية رئيس الجمهورية، ولكنهم اعترفوا بذكائه الحادِّ ونزاهته التامة. كان يرى نفسه مثقفًا خالصًا أكثر منه رجل قرار. وفي الواقع، كان انتخابه للرئاسة نتيجة موقف توافقي. فأية الله الخميني الذي يقدره ويشكره على إخلاصه بقي معارضًا لفكرة أن يتولَّى رجال الدين مناصب في الحكومة. ولذلك؛ كان بني صدر المرشح التوافقي والسماح له بممارسة العمل مع التقدميين الذين بحاجة لهم لتقوية إنجازات الثورة. ومن أجل ضمان أن بني صدر لم يتجاوز دوره، فرض الخميني أن يحتفظ محمد علي رجائي بمنصبه رئيسًا للوزراء. كان رجائي ضمن المعسكر الديني بوضوح وإن لم يكن من رجال الدين. اتفق الرجلان على تشكيل حكومة تكنوقراط ودون أيِّ وزن سياسي. ولأجل إغلاق هذا النظام في مكانه، عيّن الخميني آية الله بهشتي السكرتير العام للحزب الجمهوري الإسلامي رئيسًا لمجلس أمناء الثورة.

وبهذه المناورات السياسية التي ملأت أيديهم، لم يملك القادة الإيرانيون الوقت أو الإرادة الكافية لإقامة علاقات فتوية مع أية إدارة أمريكية، وإن تبدو محتضرة. وانهارت المفاوضات بين واشنطن وطهران لعدم وجود دافع لدى الجانب الإيراني وانعدام الانسجام

الأمريكي. كان الموقف الأمريكي غير الموحد بين بريجنسكي الذي يدعو إلى موقف صلب في التعامل مع إيران وبين وزير الخارجية سايروس فانس الذي يؤيد التهدئة، لم يتمكن جيمي كارتر من تبني أي من الموقفين، ستكون هذه مأساته. كان قادرًا فقط على تقييم حقيقة أن محاولات النقاش لم تصل إلى أية نتيجة. وأخيرًا، قطع علاقاته مع إيران في يوم 7 نيسان 1980⁽¹⁾. أعلن كارتر حظرًا شاملاً على إيران، وقرّر استخدام القوة لإنقاذ الرهائن. وضع البنتاغون - المدافع عن نفسه - خططًا لعملية عسكرية ضخمة للقيام بضربات جوية، وحصار بحري للموانئ الإيرانية، والقيام بعملية إنزال فوق طهران من قبل الفرقة 82 المنقولة جواً، لكن البيت الأبيض سرعان ما قلل من حماسة الجنرالات، ومفضلاً عملية سرية تنفذها قوة عسكرية خاصة والمخابرات الأمريكية. وقبل كل شيء لا أحد يهرول لبدء حرب عالمية ثالثة.

في يوم 24 نيسان 1980 شنّ الرئيس كارتر عملية "مخلب النسر"، وهي خطة تتضمن إقلاع ثماني طائرات هليكوبتر من نوع Sea Stallion في منتصف الليل من حامله الطائرات Nimitz التي تبخر بالقرب من الساحل الإيراني في خليج عمان. زودت هذه الطائرات بالوقود كاملاً والتحليق في مهبط مخصّص يُعرف باسم "الصحراء 1" Desert One ويقع على بعد 375 ميلاً (600 كم) جنوب شرق طهران في قلب الصحراء. وهناك سيجدون أربع طائرات من نوع هيراكلس C-130 للنقل التي ستصل من عمان قبل دقائق من وصول طائرات الهليكوبتر وهي تحمل الوقود، والأكثر أهميةً من ذلك، قوة الكوماندوز دلتا Delta Force المخصصة للعملية. بعد أن تزود طائرات الهليكوبتر بالوقود تحلق للوصول إلى المهبط الثاني الذي يقع جنوباً على بعد 50 ميلاً (80 كم) من العاصمة الإيرانية. وهناك ستصعد القوة دلتا بالناقلات و بإشراف عناصر المخابرات الأمريكية التي ستقودهم إلى قلب العاصمة الإيرانية لمهاجمة ثلاثة مواقع، حيث يُحتجز الرهائن الأمريكيون فيها. ويفترض أن عنصر المفاجأة سيضمن نجاح العملية، وستأخذ طائرات الهليكوبتر الرهائن ومنقذهم إلى سفينة هجومية تبخر في الخليج.

1- بعد قطع العلاقات الدبلوماسية قامت السفارة السورية بتمثيل المصالح الأمريكية بينما قامت السفارة الباكستانية بتمثيل المصالح الإيرانية بالولايات المتحدة.

تبدو هذه العملية على الورق تشبه أفلام جيمس بوند، ولكن في الواقع تبدو مجرد كابوس من التنسيق المعقد. ومن الناحية العملية، سرعان ما تفككت هذه العملية الموضوعة بإمعان. وفي أثناء الطيران فوق الصحراء واجهت طائرات الهليكوبتر عاصفةً رمليةً شديدةً، ما أدى إلى ظروف تحليق جهنمية، وأجبر اثنين من الطائرات على العودة. أمّا البقية؛ فقد هبطت بصعوبة بالغة في مهبط "الصحراء 1"، وهناك تعرّضت إحدى الطائرات إلى خللٍ فنيٍّ، بينما الرابعة اصطدمت بإحدى طائرات الهيراكلس، ما أدى إلى مقتل طاقمي الطائرتين. وبذلك، لا تملك قوة الدلتا طائرات هليكوبتر كافية لإكمال المهمة. وهكذا أجهضت المهمة وترك الرهائن لمصيرهم حيث كان الإخفاق تامًا. والأكثر ذلّةً من كل ذلك، أُجبر الجنود الأمريكيون على ترك حطام طائراتهم ليكون شاهدًا على خيبتهم⁽¹⁾. ساد الارتباك واشتظن، وأعلن الرئيس جيمي كارتر بنبل مسؤوليته عن فشل المهمة، بينما قدّم وزير الخارجية الذي كان يعارض أيّ عمل عسكري منذ البداية استقالته متذمّرًا. وهكذا، أصبح خيار حلّ أزمة الرهائن خارج النقاش.

أمّا في طهران، شعرت الحكومة الإيرانية بالغبطة والارتياح، وأدرك الرئيس بني صدر أنّ كارثة الأمريكيين ستمنحه مهلةً غير متوقعة، فلم يعد هناك خوفٌ من التدخل العسكري للولايات المتحدة، وأنّه يسجل بعض النقاط ضدّ رجال الدين الراديكاليين الذين عملوا كلّ ما في وسعهم لعرقلة سلطته. وأرسل وزير دفاعه أحمد مدني حاكمًا لخوزستان مع الصلاحيات الكاملة للقضاء على المتمردين من جبهة تحرير الأهواز. وتبنّى سياسةً عدائيةً نوعًا ما، وخطابًا لا يساوم مع النظام العراقي وبمساندة تامة من آية الله الخميني. وكلاهما يشعر أنّ هناك حاجةً لإنعاش التهديد الخارجي؛ لتعزيز التماسك الوطني الذي تأثر بالثورة الإسلامية. أليس أفضل لهو هو الفزاعة العراقية؟

أمّا بالنسبة إلى الإدارة الأمريكية، بقيت قلقةً بسبب أزمة الرهائن، فبعد فشل عملية تحريرهم كان البيت الأبيض غير مستعدّ للقيام بأية حركة - ولو بسيطة - لتعريض حياة

1 - عن التحليل الشامل لهذه المهمة، انظر التفصيلات الرائعة التي أوردها Charles Cogan في تاريخه الرائع المعنون La Republique de Dieu (Paris: Jacob-Duvernet, 2008), 88-98.

الرهائن للخطر. فكلُّ تقارير الدبلوماسيين السابقين، ورؤوساء المخابرات، أو أعضاء مجلس الأمن القومي؛ تؤكد ذلك التوجُّه. أمَّا جيمي كارتر؛ كان منهمكًا في الانتخابات الرئاسية. وببساطة، لم يكن من المستحسن وقبل أسابيع قليلة من الانتخابات في يوم 4 تشرين الثاني 1980 أن يخاطر كارتر بأزمة كبيرة يمكن أن تزعزع استقرار منطقة الخليج وترسل أسعار النفط إلى السماء بينما بلده في حالة مخاض أزمة نفط ثانية. وأيضًا كانت المخابرات العسكرية تتخوَّف من أن الحرب بين العراق وإيران ربَّما تشكل ذريعةً للكرملين للقيام بتدخل عسكري في إيران، وبذلك يعطي لموسكو ميزة حاسمة.

أمَّا من زاوية واشنطن، فإنَّ أيَّ نصر للعراق على إيران سيكون كارثيًا؛ لأنَّه سيؤدي إلى تعزيز نفوذ الكتلة السوفييتية في المنطقة. ومن الواضح، أنَّ البيت الأبيض يؤيد الوضع الراهن لحالة الحرب آنذاك بين بغداد وطهران التي ربما لها نتائج ارتدادية، فالخارجية الأمريكية ومجلس الأمن القومي لم يفقدوا الأمل بإعادة العلاقات مع طهران، ففي مذكراته، ذكر وزير الخارجية السابق كريستفور وارن أنَّ مبعوثًا أمريكيًّا التقى صادق طباطبائي - شقيق زوجة ابن الخميني - في ألمانيا لمناقشة شروط إطلاق سراح الرهائن وقبل اندلاع الحرب بين العراق وإيران⁽¹⁾. ولكن ما لم تعلم به الإدارة الأمريكية أنَّ مبعوثين من المرشح الجمهوري رونالد ريغان رفعوا المخاطر باتصالاتهم في الوقت نفسه مع طهران، وأنَّ لا تعقد أية اتفاقية قبل انتخابات شهر تشرين الثاني⁽²⁾. وفي أعين النخب الأمريكية فإنَّ إيران يجب أن تبقى الشريك الطبيعي، وأنَّ العراق مجرد ورقة للضغط. وعلى ضوء ذلك، كيف يمكن لمستشاري الرئيس المخاطرة بخلق فوضى أخرى؟

وفي الوقت نفسه، كانت المخابرات الأمريكية والبتاغون يقومون بمفاوضات سرية مع السلطات الإيرانية لمقايضة حرية الرهائن مقابل إرسال الأدوات الاحتياطية على الرغم من الحظر الذي شرعه الكونغرس. وفتح جورج كَيْف - وهو من أفضل خبراء المخابرات الأمريكية حول إيران - الطريق قبل أشهر قليلة بالسفر إلى طهران لإبلاغ السلطات الإيرانية

1- Warren Christopher, Chances of a Lifetime(New York: Scribner, 2001), 108-111.

2- Pierre Pean, La Menace(Paris:Fayard, 1987),11-15.

عن الاستعدادات العسكرية العراقية. وكانت المخابرات الأمريكية والبتاغون يتكلمون على معارضة إيران في زعزعة الأمن بالمنطقة. ولم يُذكر العراق أصلاً في تلك المناقشات. وفي النهاية، هل يمكن لأي شخص أن يعتقد حقاً أن جيمي كارتر حسن النية، الساذج بشكل مذهل كان قادراً على ترويح مثل ذلك المخطط الميكيافلي بتشجيع صدام حسين على غزو إيران؟ وأخيراً، كارتر يمكنه أن يجيز مثل هذه المناورة. ولربما بعض الدوائر البيروقراطية المتنفذة قد ناقشت استغلال العراق، ولكن ببساطة كان من المستحيل شنّ مثل هذه العملية الخطيرة من دون موافقة الرئيس. كانت الحجج الأكثر وضوحاً ضدّ نظرية المؤامرة هذه أنّ صدام حسين ليس بحاجة إلى تشجيع: إنّه الآن مصمّم على القيام بعملٍ ما.

والحكومة الأمريكية ليس إنها لا تريد دفع صدام حسين إلى إعلان الحرب فقط، لكنها قلقة من احتمال تجدد التوتر بين العراق وإيران. فمنذ سقوط الشاه، كانت المخابرات الأمريكية تراقب إيران وما حولها من قرب. وما عدا طائرات التجسس من نوع U-2 و SR-71 التي تحلق بانتظام فوق المنطقة، كان لديهم قمران صناعيان للمراقبة من نوع Key Hole يرسلان صوراً عن المنطقة بانتظام. وقد توصلوا بسرعة إلى قناعة أنّ الجيش العراقي قد أكمل استعداداته لشنّ هجوم واسع على إيران⁽¹⁾. وفي يوم 18 حزيران 1980 كتبت المخابرات الأمريكية مذكرةً تحذيريةً تشير إلى زيادة حدّة الحوادث الحدودية بين العراق وإيران التي وصلت إلى نقطة مفادها أنّ توقع النزاع بين الطرفين يبرر التمهيص الجاد⁽²⁾. كذلك توصلت المخابرات إلى أنّ العراق يستعدّ لشنّ عملية واسعة انتقاماً للقصف الإيراني، ولكن لم تتصور حرباً حقيقية في الأفق. تسلّم الجنرال عيسى تحذير المخابرات الأمريكية قد تكون حرباً حقيقية، لكنها لم تؤخذ على محمل الجدّ. فالجنرال السابق فقد مصداقيته منذ فشل المؤامرة على قاعدة نوجه. ومع ذلك، أوصت الخارجية الأمريكية بمغادرة العاملين في العراق كإجراء احترازي والتجمّع في الكويت. واقترح بعض المحاطين بكارتر أنّه يجب

1- Gary Sick, All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran (New York: Random House, 1985), 245-246.

2- هذه المذكرة رُفعت عنها السرية الآن ويمكن استشارتها في الأرشيف الوطني الأمريكي في مجموعة المخابرات المركزية الأمريكية تحت الرمز HNO 1999 series.

على الولايات المتحدة أن تحذر إيران لكي يبرهنوا على حسن نياتهم، ويعملوا على تسريع حلٍّ محتملٍ لأزمة الرهائن. لكن البيت الأبيض الذي يفضل الحذر رفض المقترح في النهاية. إن إدارة كارتر الجريئة، بل والمحتضرة بسبب فشل تدخلها العسكري في إيران، ومنقسمة بسبب مخاوفها من الاتحاد السوفيتي، وعدم ثقتها بالعراق، نشرت موقفها القاتل تنتظر ونرى.

واشنطن تعلن حيادها

إن اندلاع المعارك بين العراق وإيران أزعج مخططات الرئيس كارتر ومستشاريه الذين كانوا يركزون على أولويتين في أواخر شهر أيلول: الفوز بالانتخابات الرئاسية وحل أزمة الرهائن، ولا سيَّما أن صناديق الاقتراع تشير إلى فوز المرشح الجمهوري رونالد ريغان بفارق كبير. وفي لقاء صحفي قصير في البيت الأبيض، أعلن كارتر "يجب عدم التدخل مطلقاً من قبل أية دولة أخرى في النزاع... وأننا لم نكن ولا سنصبح منخرطين في النزاع بين إيران والعراق"⁽¹⁾. وأعلن في اليوم التالي أنه أرسل سفينة الصواريخ Leahy إلى الخليج فضلاً عن أربع طائرات أواكس للمراقبة تنتشر في السعودية وعليها رادارات مصممة لرصد أي شيء يحلق أو يبحر بمدى عدة مئات من الأميال. كانت هذه التعزيزات تهدف إلى حماية السواحل السعودية من هجمات أي من طرفي النزاع. ولكن في نظر واشنطن، الخطر الذي فرضه العراق كان كبيراً كالخطر الذي تفرضه طهران.

وفي الأيام الأولى من شهر تشرين الأول، بذلت إدارة كارتر ما في وسعها لاستئناف الاتصالات مع النظام الإيراني، عارضةً تجهيزه بالأدوات الاحتياطية، وتعيد أموال الشاه وأملاكه، وتعلق التجميد على الأموال الإيرانية مقابل تحرير الرهائن قبل الانتخابات

1- Jimmy Carter,"Situation in Iraq and Iran, Remarks Concerning the Conflict, September 24,1980,"The American Presidency Project, ed.Gerhard Peters and John T. Woolley,<http://www.presidency. ucsb.edu/ws/?pid=45129>.

الرئاسية⁽¹⁾. رفضت السلطات الإيرانية العرض الأمريكي، ولكن تركت بحذر الباب مفتوحاً للمفاوضات، معتمدةً على فوز الرئيس ريغان، فمن السخف عمل صفقة مع الخاسر، ومن الأفضل التفاوض مع من يشغل المكتب البيضاوي مستقبلاً ومن البداية.

وفي يوم 4 تشرين الثاني 1980 فاز رونالد ريغان بالانتخابات فوزاً كاسحاً. وفي يوم 20 كانون الثاني حينما أذى ريغان اليمين الدستورية رئيساً للولايات المتحدة أطلقت إيران سراح الرهائن بعد 444 يوماً من الأسر. وبذلك، اكتمل إذلال كارتر. ورسمياً، ادعى النظام الإيراني أنه أبدى رضاه ويعرض نيته لإعادة بناء علاقاته مع واشنطن. وفي الواقع، ان تحرير الرهائن كان ثمرة المناورات والتعامل بين الحكومة الإيرانية والادارة الأمريكية الجديدة من خلال تدخل الدبلوماسيين الجزائريين. دارت مفاوضات عنيفة بين أكبر هاشمي رفسنجاني ووليم كيسي، المستشار السري لرونالد ريغان الذي سيصبح في الحال رئيساً لجهاز المخابرات. هددت إيران في أواخر كانون الأول مبعوثي الرئيس ريغان أنها ستحاكم الرهائن بوصفهم جواسيس. ولكن اتفق الإيرانيون والأمريكيون من حيث المبدأ في أواسط كانون الثاني على توقيع اتفاق يتم التوقيع عليه في يوم 19 كانون الثاني 1981 في الجزائر، أي قبل يوم واحد من تسلّم الرئيس الجديد منصبه⁽²⁾.

ومقابل تحرير الرهائن أعادت واشنطن ثمانية مليارات دولار من الأموال المجمّدة في الولايات المتحدة، وتعهدت بتسليم أدوات احتياطية للطائرات والدبابات الإيرانية بقيمة 480 مليون دولار على الرغم من حظر الكونجرس⁽³⁾. وتقوم واشنطن بتنفيذ تلك الأدوات الاحتياطية عبر حلفاء متفق عليهم. وعند بداية الشهر اللاحق بدأت كوريا الجنوبية وتايوان واليونان وتركيا بتوريد المعدات المتفق عليها سراً. بعد ذلك، عوّض البتاغون وعلى نفقته

1- كما ذكرها الرئيس الإيراني أبو الحسن بني صدر في كتابه:

L'Esperance trahie(Paris, Edition Papyrus, 1980)

2- Mark Bowden, Guests of the Ayatollah(New York:Atlantic Monthly Press,2006),563 off.

3- Anthony Cordesman, The Iran-Iraq War and Western Security (London, Jane's Publishing, Royal United Services Institute for Defence Studies,1987,115 .

كانت قطع غيار طائرات F-14 يتم تسليمها إلى إيران من طريق منظمة متقدمة موظفيها من الفنيين السابقين في البحرية الأمريكية وتقيم خارج الولايات المتحدة.

تلك البلدان بالتجهيزات العسكرية التي أرسلتها لإيران. كانت أولى التجهيزات عبارة عن إطارات لطائرات الفانتوم المقاتلة ذات المحركين الثقيلة التي بحاجة فورية للاستبدال. وقد ذكّر الكساندر هيك، وزير الخارجية الجديد، الطرفين المتحاربين أنّ الولايات المتحدة لن تسمح لأيّ منهما أن يُعرّض أمن ملكيات الخليج للخطر. أمّا بالنسبة إلى هنري كيسنجر، الذي سيخدم مستشارًا للإدارة الأمريكية الجديدة، أدرك وبسرعة أنّ هذه الحرب ستحمل فوائد كبيرة لإسرائيل وتحيدها بين أشرس عدوين لها، والأفضل لها أن تتّجه نحو سوريا حليف الاتحاد السوفييتي، وحتى ذكر "أنّه من المخجل أن يكون هناك خاسر واحد فقط"⁽¹⁾.

موسكو تعاقب بغداد وتتودّد ل طهران

على الرغم من وابل الأقمار الصناعية التي أطلقها الكرملين لمتابعة التطورات، فإنّه تفاجأ باندلاع الحرب⁽²⁾. ولمواجهة الأمر الواقع، كان القادة السوفييت غاضبين لعدم استشارتهم من صدّام حسين، بل وأصيبوا بالذهول بصورة خاصة لإعتقادهم أنّ صدّامًا يمثل واحدًا من أفضل حلفائهم في المنطقة، وأنّه طمأن أناتولي باركوفسكي السفير الروسي في بغداد قبل أيام متعددة أنّه لا ينوي تنفيذ عمليات كبيرة ضدّ إيران.

كان الشعور العام في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي أنّ غطرسة دكتاتور العراق قد ذهبت بعيدًا، ويحتاج إلى العقاب، ولا سيّما بعد تجرّؤه على انتقاده بشدة

1- Larry Everest, "Iran-Iraq : Helping Both Sides Lose the War," Press for Conversion! 51 (May 2003) :30-31. On Haig's actions, personal interview with Mark Hambley, London, LSE, September 24 2010.

2- كما أقرّ بذلك يوفغيني بريماكوف وزير الشؤون الخارجية السوفييتي السابق في كتابه

" Russia and the Arabs: Behind the Scenes in the Middle East from the Cold war to the Present (New York: Basic Books, 2009), 309..

أطلق الروس سلسلة Cosmos للأقمار الصناعية: 1208 (28 آب 1980)، 1209 (3 أيلول)، 1210 (19 أيلول)، 1211 (23 أيلول)، 1212 (26 أيلول). وكلّ هذه الأقمار الصناعية وُضعت في مدار منخفض وتبقى في الفضاء لمدة أسبوعين فقط.

التدخل الروسي في أفغانستان، واستمراره في إعدام أعضاء الحزب الشيوعي العراقي على الرغم من وعده بالتساهل معهم. والأكثر أهمية لهم، أن الحرب على إيران تهدد بتعزيز الأمريكيين لموقعهم في المنطقة وهذا بالضبط ما تريد موسكو تجنبه. وكما هو الحال لمنافسيهم الأمريكيين والصينيين كان القادة السوفييت يحللون الحرب بمنظار الحرب الباردة. وكانوا يتخوفون من الانجرار إلى حرب ضد مصالحهم. وإذا ما ذهب كل شيء خطأ، ربّما يقوم الرئيس العراقي الطلب منهم التدخل العسكري. إن هذا النوع بالضبط من التدخل الذي يهدف الدكتاتور العراقي إلى تجنبه، لأنه يعتقد أن هدفه سيكون إزاحته من السلطة. وبدلاً من ذلك، فإنهم قلقون أن يكون صدماً قد لعب معهم لعبة مزدوجة، ويشكون أنه يريد تغيير تحالفاته كما هو أنور السادات الذي سلّح نفسه بأسلحة سوفيتية لقتال إسرائيل، وهي الحرب التي سمحت له في النهاية بعمل سلام مع الإسرائيليين والذهاب للتحالف مع الأمريكيين. ليس لدى أعضاء مكتب الحزب الشيوعي السوفيتي الرغبة في أن يظهر وا كمن يأخذهم كمطية في بغداد وواشنطن. وباستخدامهم الخط الساخن بين موسكو وواشنطن، اتفقوا مع البيت الأبيض على احتواء النزاع ضمن حدوده الإقليمية.

وبينما كانوا متفقون في تحليلهم للوضع، كان شيوخ الكرملين منقسمين حول السياسة التي يجب تبنيها. فبعد تحوّل الرئيس المصري نحو المعسكر الغربي فإنهم يدركون في الوقت نفسه أن الثورة الإسلامية في إيران والتدخل السوفيتي في أفغانستان لم يحصلوا على دعم شعبي في الشرق الأوسط. وكان وزير الخارجية أندريه غروميكو ورئيس المخابرات الروسية يوري أندروبوف يعدّان أن الحرب فرصة لتغيير التحالفات. اقترحوا الابتعاد عن العراق والتقرّب من إيران التي جعلت من نفسها هدفاً استراتيجياً من الدرجة الأولى وأكثر من العراق. وأكدوا أن خطاب النظام الإيراني المناوئ للأمريكيين جعلهم يقتنعون بوجود نقاط قوة للوصول إلى اتفاق بين موسكو وطهران. ولاحظوا أيضاً أهمية الحزب الشيوعي الإيراني. وأخيراً، أصرّوا على ضرورة أن يقوم الاتحاد السوفيتي بتشكيل روابط مع الإسلام السياسي؛ لأجل إضعاف مقاومة المجاهدين في أفغانستان وتهدئة النزعة الاستقلالية في الجمهوريات السوفيتية الإسلامية.

أمّا ميخائيل سوسلوف مفكر الحزب الشيوعي السوفييتي كان حائرًا بين الرغبة في مساندة نظريات حزب البعث العراقي التقدمية والعلمانية وتقاعسه في نصرته القضية الكردية التي أساء الحزب نفسه التعامل معها⁽¹⁾. كان ينظر بعدم الارتياح إلى حليف للاتحاد السوفييتي يهاجم بلدًا من العالم الثالث تخلص لتوّه من قبضة الغرب - لم يكن مشهّدًا جيدًا للدعاية السوفييتية! ولذلك؛ دعا لوقف الاعتداءات سريعًا. في حين كان اليكسي كوسيجن رئيس المجلس مريضًا جدًّا ولا يمكنه أن يمارس دورًا نشطًا في النقاش، وتُوفيَ بعد شهر تقريبًا. أمّا المارشال أوستينوف؛ كان يدافع عن التحالف مع العراق بأسنانه وأظافره، مؤكّدًا أنّه من الكارثة مساندة إيران وخذلان العراق، ولا سيّما أن موسكو قد سلّحت بغداد، وأنّ هزيمة العراق قد تُفسر في النهاية هزيمة للسلاح السوفييتي. ودكّر المارشال العجوز رفاقه بأهمية عقود التسليح الموقّعة مع العراق، وأشار إلى المخاطرة في رؤية بغداد تتحوّل إلى مصدر آخر للتجهيز إذا ما تركتها موسكو.

وفي النهاية قرر ليونيد بريجنيف سكرتير الحزب الشيوعي السوفييتي اتخاذ موقف وسط. كان يدرك - وهو مريض ومشوّش الذهن - أنّه لا بدّ من الاعتماد على المساندة العسكرية لهذا الهدف الصعب في هذا المجال الذي شهد توترًا متزايدًا بين الرأيين. فهو لا يمكنه التنصل من وزير دفاعه، ولذلك اختار الاحتفاظ بعلاقاته الدبلوماسية مع بغداد وبقاء 1200 مستشار عسكري يساعدون الجيش العراقي. ومع ذلك، أمر نهاية مباشرة لعمليات تسليم السلاح للعراق وتجميد أية عقود تحت التفاوض وبضمنها المتعلقة بتسليم طائرات الميغ-25 المتطورة. وصدرت الأوامر بإعادة ثلاث مقاتلات مزوّدة جيدًا بالتجهيزات فورًا، بينما وصلت اثنتين منها إلى الأراضي العراقية بميناء أم قصر. وهكذا، رأى العراقيون أنّ تجهيز الدبابات T-72 و bmp-1 تخفي من أمام أعينهم. وفي الوقت نفسه، كان كلٌّ من بريجنيف وغروميكو واندروبوف يدرسون فيما إذا كان الإيرانيون سيقبلون بمساعدة الاتحاد السوفييتي. ومن أجل أن تبدو الأمور مرضية، أخبر بريجنيف الصحافة "أنّ

1 - أكدت ذلك هيلين كارير Helene Carrere d'Encausse في مقابلة مع المؤلف للدفاع عن الشعب الكردي كان من

سياسة الاتحاد السوفييتي الدائمة.

الاتحاد السوفيتي يعدُّ نفسه صديقًا لكلِّ من إيران والعراق ويأمل أن يتمكَّن البلدان من حلِّ مشاكلهم بالمفاوضات بالسرعة الممكنة لوضع حدٍّ للمعارك بين الأخوين⁽¹⁾. وتبع هذا التصريح، أن بعث السكرتير العام للحزب الشيوعي برسالة إلى الرئيس العراقي يدعوه فيها إلى وضع نهاية لهذه الحرب التي بدأ الغرب يلعبُ بها. لم يتفاجأ صدام حسين بذلك؛ لأنَّه كان يتوقَّع ردًّا لا أهمية له من السوفييت ولكنه شعر أنَّه سيمضي دون مساندتهم لأسابيع قليلة، وهي كافية لإنهاء حرب خاطفة على إيران. وكان يرى أنَّ الكرملين سيكون غير قادر على الانغلاق على نفسه بصورة نهائية، خاصَّة إذا تمكَّن العراق من الانضمام إلى النادي النووي.

وفي هذا الوقت، التقى فالديمر فينوغرادوف السفير السوفيتي في طهران رئيس الوزراء الإيراني وأبلغه عرض الكرملين بالمساعدة العسكرية وسيلةً لتقوية العلاقات الجديدة بين البلدين⁽²⁾. وبعد أن نقل رئيس الوزراء الإيراني محمد علي رجائي العرض السوفيتي إلى آية الله الخميني عاد ليخبر السفير أنَّ المرشد الأعلى يرفض ذلك؛ لأنَّ الشعب الإيراني تمكَّن من تحقيق رغبته في الحرية والانعقاد من الوصاية الغربية، وأنَّهم لا يرغبون أن يكونوا تحت نفوذ قوة أخرى، ملحدة ومعادية لرجال الدين ولم تخجل من إساءة التعامل مع المسلمين الأفغان. ومع ذلك، فقد أبقَّت السلطات الإيرانية الباب مفتوحًا لحوار هادئ.

في مطلع العام 1981، تم الاتصال بموسكو مرَّةً أخرى وإبلاغها استعداد إيران لقبول المساعدة العسكرية السوفيتية طالما بقيت سريةً ولا تتطلَّب تعويضًا سياسيًا. وافق الكرملين بحذرٍ مع علمه أنَّ الوضع في الداخل الإيراني بدأ بالتغيُّر. كان محللو المخابرات السوفيتية ولأشهر عدة قد تنبؤوا بصعود رجال الدين إلى السلطة. وإنَّ تغيُّر لهجة السلطات الإيرانية سمح لموسكو التحرك قدمًا في استراتيجيتها. تبدو المساعدة العسكرية السوفيتية منطقية؛ لأنَّ الجيش الإيراني استولى على كميات كبيرة من المعدات السوفيتية الصنع من العراق، ويحتاج إلى قطع غيار وذخيرة لإعادتها إلى العمل في وحداتها الخاصَّة بها⁽³⁾.

1 - صحيفة برافدا في 1 تشرين الأول 1980.

2- Aryeh Yodfat, The Soviet Union and Revolutionary Iran (London: Croom Helm, 1984), 123.

3 - وقَّع الاتحاد السوفيتي وإيران في مايس 1981 اتفاقيةً لإضفاء الصفة الرسمية على تعاونهم العسكري.

تسلّمت إيران خلال العام 1981 من بلغاريا 150 دبابةً من نوع BTR-60 و T-72 و T-62 فضلاً عن كميات كبيرة من الأسلحة الخفيفة وذخيرة متنوعة. ومن خلال ميناء بندر أنزلي على بحر قزوين، سلّم الاتحاد السوفيتي إيران مباشرةً بضعة مئات من الناقلات، وكميات كبيرة من قطع الغيار، وصواريخ سام-7 المضادة للطائرات المحمولة على الكتف، التي تسمح لقوات المشاة الإيرانية باسقاط الكثير من المقاتلات العراقية. والأفضل من ذلك، أرسل السوفييت 300 مستشار عسكري للمساعدة في إصلاح وصيانة الدبابات التي استولوا عليها من الجيش العراقي. ومن الطبيعي أن تقوم السلطات السوفيتية بتسعير تلك المساعدات بالدولار، مستغلةً احتياطات إيران الكبيرة من البترودولار. وبالمقابل، سلّمت إيران السوفييت واحدة من أثمن طائراتها نوع Tomcat التي تمثّل الدرّة الثمينة في تاج تكنولوجيا الأسلحة الأمريكية، وسمحت للمهندسين الروس بدراستها وللطيارين الروس بتجربتها⁽¹⁾.

ومن أجل الحفاظ على التوازن بين طرفي الصراع، ولتجنّب تحول الصراع إلى روتين؛ قررت موسكو مساعدة العراق سرّياً ومن خلال تدخل أقطار أخرى من المعسكر الاشتراكي. وفي هذه الحالة، هم لا يجهزون أسلحةً متطورةً جداً بل أسلحة شديدة الفتك المتوافرة في مخازن حلف وارشو. وبذلك، تسلّم العراق 500 دبابة من نوع T-55 و T-62، و850 ناقلة مدرعة من نوع BMP-1 و OT-62 و OT-64 و BRDM-1 وعشرات الآلاف من الأسلحة الخفيفة من رومانيا وبولندا وتشيلوفاكيا وهنغاريا. وخلال هذه الفترة لم يتسلّم العراق أية أسلحة مباشرة من الاتحاد السوفيتي، ولا مقاتلة واحدة، ولا هليكوبتر مقاتلة، أو مدفعية متطورة جداً. وبامتناع موسكو عن مساندةتها المباشرة لصدّام حسين مارست ضغطاً عليه لسحب قواته إلى الحدود الدولية والإسراع في حلّ النزاع؛ لأنّ الكرملين وصل إدراك أنّ الإيرانيين لن يقبلوا أية هدنة ما دام لم يتمكنوا من استعادة أراضيهم التي غزاها الجيش العراقي. سافر طارق

1 - بعد سقوط الاتحاد السوفيتي سمح نظام امتحان الطيارين الروسي بالطيران على طائرات.

F-14. Centre d'Exploitation du Renseignement militaire(CERM).

عزيز إلى موسكو في شهر آذار 1981 في محاولة لتغيير موقف القادة السوفيت، ولكن طلباته وقعت على آذان صماء⁽¹⁾.

بكين تصطف مع العراق

أثارت الحرب العراقية الإيرانية جمهورية الصين الشعبية، وكان القادة الصينيون يتخوفون من أن موسكو وواشنطن سيحسنون من موقعهم في المنطقة. وكانت بكين قلقة من الخطوة التالية لموسكو مع الإدراك أن الولايات المتحدة قد خسرت التبعية لها في هذا الجزء من العالم، كما يبدو بعد سقوط الشاه وفشل عملية إنقاذ الرهائن. وكان القادة الصينيون - الذين كانت تربطهم علاقات ممتازة مع الشاه لمشاركتهم معه المصالح الجيوسياسية⁽²⁾ - يتخوفون من تصلب النظام الإيراني مع واشنطن، وسيؤدي حتماً إلى التقارب بين إيران والاتحاد السوفيتي. وبينما كانت الصين تشكك بقتامة بالكرملين، فإنها كانت قلقة من المنحى الديني لطهران، وحذرت من أن تصدير الثورة الإسلامية ربما يزعزع الأمن في مقاطعة أكسنجيانغ الصينية وموطن السكان الإيغور المسلمين. وهذا ما جعل بكين تتقد تغيير النظام في طهران.

لقد أدرك الرئيس دينغ اكسيوبنغ أن على الصين أن تفعل كل شيء ممكن لمواجهة الخطط السوفيتية، ولا سيما أن الكرملين يبدو أنه أدار ظهره لبغداد والانفتاح على طهران. ولذلك، يرى أن على الصين أن تساند العراق؛ من أجل إضعاف السوفيت في المنطقة. وفكر الرئيس الصيني بطريقة براغماتية وأعلن استعدادة لتسليح العراق سرّاً لإخراج العراق من دائرة النفوذ السوفيتي. كذلك ستمكن المساعدة العسكرية بكين للحصول على بعض العملة الثمينة الدولار، ولا سيما أن النظام الصيني بأمر الحاجة إليها. ومع ذلك،

1 - بريماكوف، روسيا والعرب، 312.

2 - كانت إيران من أوائل الدول التي اعترفت بعضوية جمهورية الصين الشعبية بالأمم المتحدة. وتصور الصين لإيران أنها تعادل الاتحاد السوفيتي، في حين ترى إيران في الصين عائقاً أمام السوفيت للوصول إلى الخليج والمحيط الهندي.

ربما لا تستطيع الصين التعجيل بسقوط النظام الإيراني الذي سيكون في مصلحة موسكو. ولذلك؛ يمكننا إيجاز موقف الحكومة الصينية في ثلاث أولويات: احتواء الاتحاد السوفيتي، فتح أسواق جديدة، والمحافظة على التوازن بين طرفي القتال. جعل وزير الخارجية الصيني هوانغ هوا موقف بلده رسمياً حينما أعلن "أننا قلقون عميقاً حول النزاع الأخير بين العراق وإيران. ونأمل بإخلاص أن يقوم الطرفان بوضع نهاية للاعتداءات على الفور، وأن يضعوا نهاية لخلافاتهم من خلال المفاوضات؛ لكي يبعدوا أنفسهم عن استغلال أولئك الذين يريدون تحقيق أهداف مخزية"⁽¹⁾.

وخلال ذلك، سافرت بعثة عسكرية صينية إلى بغداد؛ لتقييم حاجات الجيش العراقي. ومع إدراك العراقيين الغاضبين من الموقف السوفيتي، فقد رحّبوا ترحيباً دافئاً باستقبال البعثة الصينية بشكلٍ خاص. وبما إنَّ الأسلحة الصينية تعدُّ نسخةً ثانويةً من المعدات السوفيتية، فلم تكن الأسلحة الصينية بالجودة العالية نفسها للأسلحة الروسية، ولكن ميزتها أنَّها متوافرة بسرعة وبكميات كبيرة. ولذلك؛ تركّزت المفاوضات على المعدات الأرضية؛ لأنَّ العراق توجّه إلى فرنسا لتعزيز قوته الجوية.

1- صحيفة أخبار بكين في يوم 6 تشرين الأول 1980.

الفصل الخامس

فرنسا تقف إلى جانب العراق

إن اندلاع الحرب وضع الحكومة الفرنسية في موقف دقيق؛ لأنها واجهت ورطة محاولة الاحتفاظ بتجارة السلاح والتنسيق الصناعي مع العراق دون قطع العلاقات مع إيران. لم تتو فرنسا التخلي عن بغداد لمصالحها الاقتصادية والصناعية ومن الصعب خسارتها في العراق. ولذلك؛ كانت السلطات الفرنسية قلقة من أن مساندة علنية للعراق ستؤدي إلى استفزاز ردة فعل عنيفة من إيران. أعلن الناطق باسم وزارة الخارجية الفرنسية ويتروي "لم تكن فرنسا عدوة لأحد، وإن روابطها التجارية مع العراق لا تعني العداء للثورة الإسلامية"⁽¹⁾. لم يُطمئن جبن الحكومة الفرنسية طهران. سافر الكثير من ممثلي الحكومة الإيرانية إلى باريس لتحذير السلطات الفرنسية من أن استمرارها في توريد الأسلحة للعراق ربما يقود إلى تدهور خطير في العلاقات بين باريس وطهران. استجابت القيادة العسكرية العليا الفرنسية بتعزيز وجودها البحري في الخليج بنشر فرقاطة من حاملات الصواريخ Suffren، وسفينة إعادة تزويد عزيز إلى باريس لمعرفة الأخبار، فأكد له فاليري جيسكارد ديستان أنه بإمكان العراق الاعتماد على المساندة الفرنسية الدائمة. ومن أجل فهم تعهدات باريس لبغداد، لا بد من إلقاء نظرة على عقود من العلاقات في الفترة ما قبل الحرب.

- 1 وكالة الصحافة الفرنسية (AFP) في يوم 24 1980 .

العراق: الدورادو للصناعيين الفرنسيين

بعد تصريح الجنرال ديغول بوقوفه على الحياد في حرب الأيام الستة بين العرب وإسرائيل في حزيران 1967، كانت شعبية فرنسا في ذروتها في الشرق الأوسط. وشعرت الحكومة الفرنسية بالتحزُّر والاعتراف بسياستها السرية المؤيدة للعرب التي أنجزتها بعد نهاية حربها في الجزائر. كانت فرنسا تأمل من أتباعها لتلك السياسة استعادة بعض نفوذها الذي فقدته في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت تبحث عن الإمساك ببعض الأسواق في بعض الدول العربية التي أصبحت ثرية بمواردها النفطية. في يوم 7 شباط 1968 رحَّب الجنرال ديغول بالرئيس العراقي في باريس مذكراً إياه بعلاقات الأسلاف شارلمان والخليفة العباسي هارون الرشيد. وبعد الإطراء عليه طرح عليه ديغول الفوائد الكبيرة للتعاون مع فرنسا. كانت تلك مهمة صعبة للعراق الذي ارتبط مع الاتحاد السوفيتي ونبذته الكثير من الدول الغربية. كانت هذه الاتصالات الأولية مثمرة، حيث تمكنت شركة بانهارد Panhard التي ترتبط بروابط قوية مع الحكومة الفرنسية من بيع الكثير من الناقلات المدرعة الخفيفة نوع AML-60 للجيش العراقي، والتعاقد مع شركات بيرليت Berliet و سافيم Saviem لإرسال 687 ناقلة عسكرية.

وحالما تم الإعلان عن تأميم صناعة النفط العراقية في ربيع عام 1972، أبلغت بغداد باريس أنها ستعمل كل ما في وسعها لضمان المصالح الفرنسية. وأعلنت الحكومة العراقية أنها مستعدة لتوقيع اتفاق للتعاون الوثيق مع شركة النفط الفرنسية (CFP)، ومجموعة توتال (التي تملك نسبة 23,75٪ في شركة النفط العراقية)، ومؤسسة النشاط والبحوث النفطية (ELF-ERAP). استمرت المفاوضات بهدوء وبفضل وساطة داروك - دابر الرئيس التنفيذي لشركة النفط الفرنسية الذي يمتلك روابط فذة مع بغداد وفرض نفسه خلال السنوات الخمس عشرة الماضية بوصفه شخصية رائدة في العلاقات العراقية الفرنسية. في 11 حزيران 1972 بدأ صدام حسين زيارته لفرنسا، وهي الأولى لبلد أوروبي ولوضع الشروط

النهائية للتعاون النفطي بين العراق وفرنسا. وطمأن شركاؤه المحتملين أن الشركات الفرنسية ستكون آخر شركات يتم تأميمها. وانتهاز الفرصة لاتخاذ خطوة استراتيجية، وأعلن أنه مستعد لشراء الأسلحة وأعطى السلطات الفرنسية قائمة بالمعدات التي يرغب العراق في شرائها بالسرعة الممكنة، ومنها: طائرات ميراج، طائرات هليكوبتر، أجهزة رادار، وأسلحة أرضية مختلفة.

أمّا صناعة النفط الفرنسية المتلهفة للحفاظ على مصالحها في العراق؛ شنت حملة إعلامية لمساندة النظام العراقي وضغطت على السلطات لقبول مطالب صدام بحجّة الدفاع عن المصالح الصناعية الفرنسية. ولذلك؛ نُوقشت هذه المسألة بسخونة بين رئيس الوزراء جاك شابان - دلماس ووزير الدفاع ميشيل دبريه الذين كانوا يؤيدون تلك المطالب. لكنّ فاليري جيسكار ديستان وزير المالية آنذاك كان أكثر حذرًا ومتسائلًا عن قدرة العراق على الإيفاء بالأثمان. أمّا وزير الشؤون الخارجية موريس شومان؛ كان ضدّ ذلك المقترح؛ لأنّه ضدّ تقوية عدو لإسرائيل، وأكد الطبيعة الفاشية للنظام العراقي. وفي النهاية، قرّر الرئيس جورج بومبيدو الموافقة على طلبات العراق عدا بيعه طائرات الميراج والدبابات؛ لأنّه كان يرغب توسيع سياسة الرئيس الذي سبقه في انفتاح فرنسا على العالم العربي.

وقّعت الحكومات العراقية والفرنسية في يوم 18 حزيران 1972 اتفاقية للمحافظة على المصالح النفطية الفرنسية في العراق لمدة عشر سنوات. ويمكن لشركة النفط الفرنسية شراء ما تستطيع من النفط العراقي بسعر تفضيلي إلى حدّ كبير. ولذلك؛ أزاحت هذه الاتفاقية ما تبقى من تحفظات السلطات الفرنسية. تعهدت الشركة الوطنية للصناعات الجوية بتسليم العراق 102 طائرة هليكوبتر (Pumas 3، Super Frelons 12، Gazelles 40، Alouette IIIs 47) على الرغم من عدم تسليمها طائرات الميراج، فإنّ شركة Dassault سلمت العراق ثلاث طائرات ارتباط نوع Mystere-20 المتطورة جدًّا، بينما أرسلت شركة بانهارد دفعةً جديدةً تتكوّن من 194 ناقلةً مدرعةً خفيفةً، وباعت شركة براندت 580 مدفع هاون مع 420 ألف قذيفة. وكلفت شركة Thomson-CSF بتحديث شبكة الدفاعات الجوية العراقية المضادة للطائرات مع تزويد العراق بستة أجهزة رادار متقدمة جدًّا. أصبحت باريس أكثر استعدادًا

لمساعدة العراق، ولا سيَّما بعد أن وقف العراق إلى جانب فرنسا في منظمة أوبك ورفض إدراجها ضمن الحظر النفطي الذي فرضته الدول العربية الأخرى خلال أزمة النفط الأولى. وصل التعاون بين البلدين إلى ذروته بانتخاب فاليري جيسكار ديستان للرئاسة الفرنسية وتسمية جاك شيراك رئيسًا للوزراء وهو من أقرب أصدقاء عائلة Dalssault⁽¹⁾، وزار بغداد للفترة 30 تشرين الثاني - 2 كانون الأول 1974 وإبلاغ بغداد بأخبار جديدة: موافقة فرنسا تجهيز العراق ما كان يأمله من طائرات ميراج-1s. استقبل رئيس الوزراء بترفٍ فخيم في العاصمة العراقية حتى طغى على شخصية صدام حسين وجلب لفرنسا عقود تسليح بلغت قيمتها أكثر من ثلاثة مليارات دولار. كان أول تلك العقود التي وقعت يتضمن بيع 40 طائرة ميراج-1s يتم تسليمها في أواخر عام 1980.

ورجع جاك شيراك بأخبار مهمة: تريد الحكومة العراقية التعاون مع فرنسا في مجال الطاقة الذرية السلمية، وهذا يمثل منجمًا غنيًا للشركات الفرنسية مثل سانت جوبان Saint-Gobain وفراماتوم Framatome. كان صدام حسين مفاوضًا قديرًا بإغرائه السلطات الفرنسية بالعقود المربحة في المجالات النفطية والعسكرية. كانت هذه استراتيجيةً مربحةً في الوقت نفسه؛ لأنَّ الصناعيين الفرنسيين في كلا المجالين زادوا من حملات ضغطهم لإقناع حكومتهم لقبول طلب صدام بدعوى دفاعهم من مصالحهم في العراق.

التقت الوفود العراقية والفرنسية مرات متعددة خلال عام 1975؛ للتفاوض على مواد اتفاقية التعاون الذري. عرضت باريس تسليم العراق اليورانيوم المخصب، وأن تقوم ببناء

1 - سيصبح العراق من أفضل الزبائن لشركة Dassault في الشرق الأوسط. وبعد هذه الصفقة الأولية يبيعه أربعين طائرة ميراج F-1EQ، وقعت صفقة ثانية في عام 1979 يبيع 29 طائرة إضافية (يبدأ تسليمها في بداية عام 1983). وقعت صفقة ثالثة في عام 1983 لبيع أربع وعشرين طائرة ميراج-F-1EQ5 مصممة لإطلاق صواريخ Exocet (يتم تسليمها بعد سنتين). وسلمت الصفقة النهائية المتكونة من 28 طائرة ميراج F-1EQ في عام 1988 للتعويض جزئيًا عن الخسائر في الحرب. لقد سلمت شركة Dassault العراق ما مجموعه 121 طائرة ميراج F-1 (106 بمقعد واحد وخمس عشرة بمقعدين) الذي أثبت أنه أفضل الزبائن للتصدير في هذه الفترة. وبشكل عام، طائرة الميراج F-1 مطلوبة في فرنسا، والأردن "أعارت" بعض هذه الطائرات للعراق، فشكّل منها أربعة أسراب (79، 81، 89، 91). وأجريت المفاوضات أيضًا لتسليم العراق طائرات ميراج-2000 وطائرات ألفا للتدريب ولكن تأخرت هذه الصفقة - بسبب أنَّ مديونية العراق الكبيرة الناتجة من مجهوده الحربي - وتوقف نتيجة اندلاع حرب الخليج الثانية في آب 1990.

مفاعل للبحوث النووية بطاقة 800 كيلو واط ومحطة للطاقة الذرية سعة 70 ميغا واط تُسمّى "أوزيراك". كان صدام حسين في فرنسا طوال الفترة 0-8 أيلول 1975 لاختتام المفاوضات بهذا المجال. واستقبله جاك شيراك بالعبارات التالية: "أنت صديقي الشخصي، كن واثقاً عن تقديري، وتبجيلي وكل مشاعري"⁽¹⁾. والأكثر من ذلك، قضى رئيس الوزراء عطلة نهاية الأسبوع مع صدام في مزرعته في منطقة البروفانس، وقبل أن يستقبله باحتفال فخم في العاصمة الفرنسية.

وُقعت اتفاقية التعاون العراقية - الفرنسية بأبهة فخمة في بغداد في يوم 18 تشرين الثاني 1975. أمّا الولايات المتحدة فلا تزال ترى في العراق تابعاً موثقاً للاتحاد السوفيتي تحذوه المصلحة الذاتية. وترى فيه إسرائيل عدوها الرئيس وانتقدت علانية الموقف الفرنسي وهدّدت أنها ستعمل كل شيء؛ من أجل إفشال ذلك التعاون. وفي ليلة 6-7 نيسان 1979 تسلّل كوماندوز إسرائيلي إلى مرسى السفن Seyne-sur-Mer في فرنسا ودمّر القبة التي ستضمّ نواة المفاعل النووي العراقي، ما أدّى إلى إبطاء البرنامج بالكامل. وبعد أشهر قليلة (14 تموز 1980) اغتال الموساد عالم الذرة المصري يحيى المشدّ الذي يعمل في البرنامج النووي العراقي.

أمّا في فرنسا؛ أزال اتفاقية الطاقة النووية السلمية آخر القيود التي تمنع بيع المواد الأكثر حساسية للعراق. ومنذ 1976 وإلى عام 1979 كان صنّاع الأسلحة الفرنسية يشهدون ذروة فترات بيعهم للعراق كلّ شيء يحتاجه جيشه ولم يحصل عليه من الاتحاد السوفيتي: 11000 صاروخ (Milan, Hot, AS-12, Magic, Exocet)، و225 من منظومات قواعد صواريخ من نوع Hot وMilan المضادة للدبابات، ومعدات حرب إلكترونية، ودفعة ثلاثة متكوّنة من 150 ناقلة مدرعة خفيفة من شركة بانهارد. وتسارع التعاون العسكري بتوقيع عدّة اتفاقيات ثنائية تتعلّق بتدريب طلاب الطيران والفنيين المسؤولين عن وضع طائرات الميراج في الخدمة. وشمل برنامج التدريب تسجيل الطلاب العراقيين في الأكاديمية العسكرية الفرنسية. كان يتم تدريب نحو مئة طالب سنوياً في فرنسا ومن بينهم دوزينة من الطيارين.

1 - وكالة الصحافة الفرنسية في 5 أيلول 1975.

على الرغم من أن العراق لديه شريطاً بحرياً ضيقاً يطلُّ على الخليج، عرضت شركة الإنشاءات البحرية الفرنسية على القيادة العسكرية العراقية فرصة "المياه- الزرقاء" البحرية، واقتُرحت بيع العراق سفن حراسة، فرقاطات، وغواصات. وكما أخبر الأدميرال بيير لاكوست الرئيس السابق لمجلس Raymond Barre's العسكري مؤلف هذا الكتاب أن هذا المشروع لم يكن منطقيًا، ولذلك لم يثمر عن أيِّ شيء. وبالمجموع، حصلت فرنسا على خمسة مليارات دولار من مبيعاتها للأسلحة إلى العراق خلال عقد السبعينيات من القرن الماضي.

وهذا التعاون مع العراق امتدَّ ليشمل مجال البناء والأشغال العامة. فمجموعة Bouygues عبَّدت شوارع البلاد، ووسَّعت من مطاراته، وأنشأت الكثير من الملاجئ تحت الأرض لصالح لجيش العراقي. ففي نهاية عقد السبعينيات من القرن المنصرم كان يعمل في العراق أكثر من 65 شركة فرنسية في العراق، ونحو عشرة آلاف فني يعيشون هناك لإنجاز الكثير من المشاريع الصناعية بين البلدين. أصبح العراق الشريك التجاري الأول لفرنسا في الشرق الأوسط، والمجهَّز الثاني لها بالنفط. ولربَّما أصبح أيضًا مصدرًا مهمًّا للتمويل للحزب الغالي⁽¹⁾، الذي أغدق المديح على النظام العراقي، ممَّا جعل بعض المثقفين يصفونه بأنَّه يمثل "الغالية العربية" الحقيقية. وفي الواقع، أصبحت كلُّ من بغداد وباريس قريبتين جدًّا، ممَّا جعلهما رهينة الواحدة للأخرى.

قرض Eurodif لليورانيوم المخصَّب في قلب النزاع الإيراني - الفرنسي

من اللوحة الأولى، كانت العلاقات بين فرنسا وإيران بسيطة ونافعة؛ لأنَّها كانت تستند إلى التبادل الثقافي. وكان الشاه رضا بهلوي يعدُّ صديقًا لفرنسا على الرغم من إدانته من الكثير؛ بسبب طبيعة نظامه الفاشي. ويبدو أنَّ العلاقات الفرنسية - الإيرانية إجمالاً

1- Pierre Pean, La Menace(Paris: Fayard, 1987), 97.

واضحة، ولا سيَّما أنَّ باريس تدرك أنَّها لا تستطيع بيع طهران أية أسلحة - عدا بعض القوارب المسلحة - لأنَّ إيران كانت حقلاً خصباً أمريكياً وبريطانياً. لذلك؛ ركزت الحكومة الفرنسية على الروابط التجارية وحصدت أكثر من سبعة مليارات دولار ثمن عقود لتطوير سكك الحديد، وصناعة السيارات، والبصر سمعيات والأكثر أهمية المعدات النووية. ومنذ أن كانت فرنسا الرائدة في المجال النووي، فلم يجد خبراءؤها صعوبةً في إقناع الشاه باستثمارات هائلة من أمواله البترودولار في هذه الطاقة. واستقبل الشاه استقبالاً ملكياً في باريس في حزيران 1974 من فاليري جيسكار ديستان الذي انتُخب رئيساً للتوّ، وأسرع في المفاوضات. وقسّم كلُّ من الرئيس ورئيس الوزراء مهامهم، فالرئيس الذي يتمتع بعلاقات ممتازة مع الشاه⁽¹⁾، احتفظ لنفسه مشاريع التعاون مع إيران، بينما أشرف رئيس الوزراء على الروابط التجارية مع العراق.

في يوم 27 حزيران تعهّدت الحكومة الفرنسية ببيع إيران عدة محطات نووية للأغراض السلمية. واقترحت أن تقوم شركة Technicatome ببناء ثلاثة مفاعلات نووية للبحوث في طهران، وأن تقوم شركة فرنسية - إيرانية باستغلال أية مكامن لليورانيوم الطبيعي المكتشف في إيران ومشاركة كلا البلدين في الفوائد المترتبة على ذلك. والأكثر أهميةً، اقترحت باريس على طهران الاستثمار في بناء مصنع تخصيب اليورانيوم باسم Eurodif لكي تحصل إيران على الوقود اللازم لتشغيل محطات الطاقة النووية للأغراض السلمية. يُدار مصنع يورودف بحسب اتفاقيةٍ بإشرافٍ دوليٍّ ووكالة الطاقة الذرية الدولية. ولذلك؛ أجاز وزير الصناعة الفرنسي في يوم 18 تشرين الثاني بيع إيران مفاعلين نوويين من نوع ويستنغ هاوس وان يتم بناؤهما باجازة من شركة Framatome.

أقرض الشاه فرنسا في كانون الأول 1974 مبلغاً قدره مليار دولار مقابل حصة تساوي 10٪ من رأسمال Eurodif (كان رأسمال الشركة آنذاك 27.8٪ فرنسياً فضلاً عن حصص

1- وكمتطوع في الجيش خلال الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية التقى فاليري جيسكار ديستان بشاه إيران حينما كان يخدمه بصفة سائق له خلال زيارته للجهة. وإنه بوصفه رئيساً فرنسياً في المستقبل ربح الانتخابات بفضل شخصيته الجذابة.

بلجيكية وإيطالية وإسبانية). وتم الاتفاق أن هذا الاستثمار يسمح لإيران بشراء 10% من إنتاج اليورانيوم المخصب من مفاعل Tricastin حينما يبدأ بالعمل في عام 1981. وعلى الفور أُسست شركة Sofidif بين وكالة الطاقة النووية الفرنسية ومثيلتها الإيرانية (الشركة الفرنسية - الإيرانية لليورانيوم المخصب من خلال انتشار الغاز) لإدارة التعاون النووي بين البلدين. ولأجل تسريع العمل دفع الشاه مبلغاً إضافياً قدره 180 مليون دولار. ومع ذلك، تخلف العمل بذلك التعاون، بينما بدأت Framatome العمل في المفاعل النووي الأول في بوشهر.

وفي 5 تشرين الأول 1978 منح فاليري جيسكار ديستان اللجوء السياسي لآية الله الخميني الذي أبعده من إيران وبعد أن حصل على موافقة الشاه السرية⁽¹⁾. كانت الحكومة الفرنسية تركز على الاعتراف على الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني، ولم تعمل الكثير لمعارضة التوجه الديني لضيفها الثقيل، ولم تدرك كيف أن الوضع في إيران أخذ بالتدهور السريع، وكشفت باختصار الأحداث الجارية. توصلت الحكومة الفرنسية إلى اتفاق مع حلفائها الأمريكيين والألمان لمساندة الخميني في قمة Guadelope المنعقدة في كانون الثاني 1979. وفي الواقع، سيعود آية الله الخميني على طائرة الخطوط الجوية الفرنسية متصراً إلى طهران في الأول من شهر شباط 1979 ليتسلم السلطة.

أدانت الحكومة الإسلامية الجديدة في يوم 9 نيسان 1979 اتفاق التعاون النووي مع فرنسا، وعلقت الدفعات المالية الجارية وطالبت بتعويض المليار دولار التي دفعها الشاه قرضاً لشركة يورودف، لكنها أكدت أن إيران تملك حصّة فيها. رفضت باريس جملةً وتفصيلاً تعويض إيران المليار دولار، وعارضت امتياز إيران ممارسة حقوقها بوصفها حامل حصّة في شركة يورودف. ولذلك؛ اتهمت طهران باريس بالابتزاز، وردّت باريس بسرعة أن إيران ليست شريكاً تجارياً واقعياً. كان هذا بداية نزاع طويل سيؤثر في العلاقات الإيرانية - الفرنسية لعقد من السنين، وسبب انعكاسات قاسية على أمن فرنسا ومواطنيها. وتعمّدت العلاقات الثنائية أكثر حينما أُلقي القبض على كوماندو إيراني بقيادة أنيس نقاش في 18 تموز 1979 بعد فشل محاولة اغتيال شابور بختيار الذي كان لاجئاً في نويلي Neuilly، وقبل اعتقال

1- Valery Giscard d'Estaing, Le Pouvoir et la vie, vol.1(Paris: Compagnie 12, 1989),112-113.

خمسة من الإيرانيين المدعورين الذين قتلوا أحد المتفجرين وضابط شرطة. ولذلك؛ حُكِمَ عليهم بعشرين سنةً سجن، بينما كانت طهران تطالب بإلحاح إطلاق سراحهم.

ميتران يدعم صدام حسين

لم يتغير الوضع عند انتخاب الحكومة الاشتراكية بفرنسا في شهر مايس 1981. وبينما كان يُنتقد الفرنسيون على الدوام بمساندتهم للعراق، أرسل الرئيس المنتخب فرنسوا ميتران رسالة لصدام حسين في 25 مايس يطمئنه بدعم فرنسا له. وأعلن صراحةً أنه لا يريد العراق منهزمًا ومن الجوهرى أن يتم الحفاظ على التوازن بين الفرس والعرب. ويعد مواجعتها للواقع، اعترفت الحكومة الاشتراكية بقوة اللوبي الصناعي الذي يدافع بشدة عن التحالف مع العراق. وهذا التحالف في الواقع يطمئن قسمًا مهمًا من الحزب الاشتراكي الذي يرى العراق أنموذجًا للحدثة، والتقدم والعلمانية مقارنةً بملكيات النفط المحافظة والثورة الإيرانية الإسلامية "الظلامية". أصبح جان بيير Jean-Pierre Chevenement وزير الدولة رئيسًا للجمعية العراقية - الفرنسية البرلمانية. وصرح بيير جوكس Pierre Joxe رئيس الجماعة الاشتراكية في الجمعية الوطنية علانية ولمرات متعددة بتأييده للنظام العراقي، فضلًا عن تصريح كلود تشيسون Claude Cheysson وزير الشؤون الخارجية من أن "العراق العقبة الوحيدة أمام الهجوم لزعة أمن الإقليم كاملاً والإطاحة بالأنظمة العربية المعتدلة"⁽¹⁾. وأكدت الحكومة الفرنسية ضرورة حماية مصادر تجهيزها بالطاقة، وواجب الدعم المعنوي للنظام التقدمي الوحيد في المنطقة الذي يمكنه احتواء التوجه الديني الخطر للثورة الإسلامية. أثار هذا الخطاب حفيظة الملاي، وأصبح الوضع أكثر سوءًا حينما انتهزت الحكومة الإيرانية فرصة افتتاح مفاعل Tricastin النووي للطاقة، وأدعت بحقها في نسبة 10% من اليورانيوم المخصب المنتج، والمطالبة مرةً أخرى بتعويض عن قرض يورودف، لكن طهران لم تحصل على شيء بعد رفض مطالبها.

1- Jose Garcon, " La France et le conflit Iran-Iraq," in Politique étrangere 2 (IFRI,1987-1992),359.

الأوروبيون المشتتون

في بروكسل، عاصمة الاتحاد الأوروبي الاقتصادية، تمّ الترحيب بالأخبار القادمة من الخليج في أواخر أيلول 1980 بالنغمات المتنافرة نفسها التي تشعلها أية أزمة في الشرق الأوسط. ولم تكن سياسات الأمن والدفاع الأوروبيين على الطاولة بعد، والدول الأوروبية الرئيسة غير قادرة على الاتفاق على استراتيجية عامة، إنّما كانوا يقاتلون من أجل مصالحهم السياسية والتجارية الخاصة بها والتي كانت متناقضة في الأعم الأغلب. فالاتحاد الأوروبي اعتاد على اجترار التصريحات الفارغة للتعبير عن قلقه الجدي فيما يتعلّق بالوضع، وأضاف أنّ من الأهمية لأوروبا أن تتمتع بحرية الإبحار في الخليج. فالأوروبيون يعتمدون إلى حدّ كبير على النفط القادم من الجزيرة العربية ولربما أكثر من الأمريكيين. ولذلك؛ فهم أكثر حساسية لعدم الاستقرار في المنطقة، والتهديد بغلق مضيق هرمز يبقى من أسوأ كوابيسهم، ولا سيّما أنّهم ما زالوا مصابين بدوار أزمة النفط الثانية، وشعروا بعجزهم من تحمل ارتفاع غير متوقع لأسعار الوقود. ولذلك؛ كانت أولوياتهم تأمين التجهيز بالطاقة وحماية مصالحهم التجارية مع ملكيات النفط. ولأجل عمل ذلك، يجب عليهم النسيج ناعمًا مع طرفي النزاع وكذلك مع شيوخ الخليج. ولذلك؛ عارض القادة الأوروبيون بتقرُّز الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة على بيع السلاح لبلدان المنطقة؛ لتخوفهم من أنّ تلك البلدان ربما تتأثر وتعلن فرض حظرٍ نفطيٍّ على أوروبا كما فعلوا خلال حرب حزيران 1967. وأدرك الأوروبيون بشكل قاطع أنّ الاستمرار ببيع المعدات العسكرية لبلدان الخليج سيفيد بشكلٍ كبيرٍ صناعاتهم للأسلحة.

وفي هذه الظروف الاقتصادية الصعبة، وضع القادة الأوروبيون نصب أعينهم المؤشرات الاقتصادية الكبيرة. فعلى سبيل المثال، كانت رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر تواجه أزمة اجتماعية كبيرة جعلت من المستحيل أن تضحّي بحصصها في السوق الإيرانية التي كافحت من أجلها في العقد السابق، على الرغم من اشمئزازها بعمق من نظام

الثورة الإسلامية. ولذلك؛ تبنت موقفاً حيادياً شديداً ورفضت الاصطفاف مع أيّ جانب. كانت أولوياتها في السياسة الخارجية وكما في كلّ مكان تهدف قبل كلّ شيء إلى احتواء الاتحاد السوفيتي. فطالما ان الاتحاد السوفيتي لم يتدخل في الخليج، والمصالح البريطانية لم تُهدد مباشرة، فلا يوجد للندن مبرر للتدخل في النزاع. وكانت مارغريت تاتشر تعتمد بسهولة على نفط بحر الشمال لتقليص اعتماد بريطانيا في مجال الطاقة على الشرق الأوسط. سمح هذا الموقف البراغماتي للبريطانيين أن يبيعوا لطرفي النزاع متوجات صيدلانية، وقطع غيار السيارات، وأدوات ميكانيكية أخرى.

وفيما يتعلّق بالقضايا العسكرية، فرضت الحكومة البريطانية قاعدتين شديتين: تنفيذ العقود الموقعة التي أبرمت قبل الحرب، ولكن منع بيع أية معدات تؤدي إلى زيادة القدرات العسكرية لأي من طرفي النزاع⁽¹⁾. وبتفسير هذه القواعد الفضفاضة، فقد أرسلت الحكومة البريطانية إلى كلّ من الإيرانيين والعراقيين السيارات وقطع الغيار لدبابات Chieftain و Scorpion التي سمحت للإيرانيين صيانة الدبابات التي حصلت عليها خلال عهد الشاه، وللعراقيين إصلاح الدبابات التي غنموها من الإيرانيين. وجهّزت لندن طهران مكونات صواريخ أرض - جو من نوع Rapier، وأنظمة إلكترونية مضادة التي تسمح بصيانة وتحديث نظام الرصد الجوي المحلي. وفي النهاية، أصبحت الجمهورية الإسلامية أكبر زبون للملكة المتحدة في الشرق الأوسط بعد السعودية. ولأجل المحافظة على التوازن، أرسل البريطانيون أنظمة رادار الموجهة للمدفعية، و300 سيارة لاند روفر لبغداد. وسجّلت الكثير من الطلاب العراقيين في كلياتها العسكرية، ووفّرت تدريباً أساسياً لبعض طياري صدام. وعرضوا أيضاً تجهيز العراق بمعمل لتجميع 200 طائرة تدريب من نوع هوك. لكن المفاوضات استمرّت طويلاً، ما أدّى بالعراقيين إلى شراء طائرات تدريب من الجيك والبرازيل وسويسرا.

وتبنّى المستشار الألماني هلموت شميدت موقفاً حيادياً متشدداً ومستنداً إلى الدستور الألماني الذي يمنع انخراط بلده في أيّ نزاع مسلح. ولكن في الواقع، كانت حججه تجارية

1- John Chipman, "Europe and the Iran-Iraq War," in the Iran-Iraq War: Impact & Implications, ed. Efraim Karsh (London: JCSS-MacMillan, 1989), 220.

كما هي البريطانية. ولسنوات خلت، أصبحت إيران الشريك التجاري الرئيس في الشرق الأوسط، وارتبط البلدان بعقود تجارية كبيرة استمرت حتى في عهد الثورة الإسلامية. فأعداد هائلة من السيارات الألمانية الصنع ظلت تجوب شوارع المدن الإيرانية الرئيسة، وفي خارجها بقيت المصانع تعمل بالأدوات الميكانيكية المستوردة من ألمانيا. ومن الأمثلة الصارخة على هذه المصالح المشتركة تملك إيران حصة 25٪ من الرأسمال المختلط لشركة Krupp الصناعية الشهيرة. كان المستشار شميدت مصممًا على فعل أي شيء يجنبه التضحية بهذه العلاقات المتميزة وبضمنها تجهيز إيران سرًا بالمعدات العسكرية مثل ناقلات مرسيدس، والسيارات الناقلة للدبابات، وذخيرة الأسلحة الخفيفة التي تصنعها شركة وارنر. ولتخفيف شعور الطبقة السياسية الألمانية بوخز الضمير، وُصفت تلك المعدات وبتواضع أنها "ليست هجومية". وهناك مشاكل كثيرة للحكومة الألمانية لتبرير المفاوضات حول بيع غواصات نوع 290 المتطورة جدًا، مما جعل واشنطن وباريس والرياض تمارس ضغطًا كبيرًا لوقف تلك المفاوضات. وكان فشلها سببًا في اختطاف اثنين من الألمان في لبنان (ردولف كوردس وألفريد شميدت) واللذين استُخدما ورقة لإقناع بون بإعادة فتح المفاوضات، وكذلك لتحرير "إرهابي" شيعي من أصول إيرانية معتقل في ألمانيا. ولذلك؛ سافر وزير الخارجية الألماني في زيارة رسمية إلى إيران لمحاولة حلحلة الوضع، وصرَّح علانيةً واصفًا المحاولات الغربية لعزل الجمهورية الإسلامية "بالخطأ الهائل"⁽¹⁾. وإنَّ انتخاب هلموت كول مستشارًا جديدًا لألمانيا لم يلطّف الموقف الألماني الذي بقي ثابتًا حتى نهاية الحرب.

قامت السلطات الألمانية بالتحوط والاتقان في رهاناتها، والكثير من الكلام اللطيف في إدارتها؛ للمحافظة على علاقاتها الودية مع بغداد. كان هذا يمثل استغلالًا كبيرًا، ولا سيَّما أنَّ النزاع مع إيران قد أطلق العنان للنظام البعثي الوقوف بوجه أولئك الذين يساندون أعداءه. بينما لم ينخدع العراقيون بالعبارات الودية للسفير الألماني في بغداد، لكنهم أخذوا كل شيء

1- Hans Dietrich Genscher, "How Bonn got Iran off the Hook," The Middle East Journal(December 1988); 20-22.

كانت حكومته على استعداد لبيعهم: سيارات المرسيدس للنخبة من النظام، الأدوات الميكانيكية والعناصر الكيميائية للمهندسين المسؤولين عن تطوير أسلحة الدمار الشامل، وناقلات إعادة الدبابات، والناقلات ذات الحمولات الثقيلة للجيش العراقي. ولأجل إراحة ضميرها، درّبت بون الأطباء العسكريين العراقيين، وأرسلت الكثير من المستشفيات العسكرية لبغداد. وباع الصناعيون الألمان لبغداد نحو 60 طائرة هليكوبتر هجومية نوع BO-105 مع صواريخها من نوع Hot المضادة للدبابات. وسُلّمت كلُّ هذه الأسلحة من خلال إسبانيا التي كانت تقوم بتجميع أجزاء من طائرات الهليكوبتر وسمحت لألمانيا باستعراض حيادها بهدوء أمام طرفي النزاع. حافظت ألمانيا على هذه الواجهة لتجنب رد الفعل العنيف من الإسرائيليين الذين يعارضون بشدة بيع أية معدات معقدة للعراق، ويملك القادة الجerman علاقات معقدة معهم نتيجة التاريخ المأساوي الذي أجبرهم على تجنب أي شيء قد يُعرض أمن إسرائيل للخطر.

وكألمانيا، حاولت إيطاليا المحافظة على علاقاتها التجارية مع العراق وإيران. أعلن رئيس مجلس الدولة فرانيسكو كوسيكو وهو من الحزب الديمقراطي المسيحي أنه يقف على الحياد ويريد الاحتفاظ بعلاقات ودية مع بغداد وطهران. وأكد بقوة أن العقود الموقّعة قبل الحرب سيتم الإيفاء بها، ولذلك؛ أمر بشحن 24 طائرة هليكوبتر للنقل نوع شينوك إلى إيران مع دفعات من محركاتها وقطع غيارها، وعدة دوزينات من أنظمة الحرب الإلكترونية، و13 جهاز رادار لمراقبة السواحل. وأجازت حكومته تسليم طهران عدة ملايين من الطلقات، وعدة مئات الآف من الألغام التي تمّ شحنها من خلال سنغافورة. ولسوء حظّ كوسيكو، فإنّ عدم الاستقرار الحكومي الذي ابتليت به السياسة الإيطالية قاد إلى سقوطه السريع. أمّا حكومة التحالف البديلة التي تقع إلى اليسار في المنظور السياسي، أجبرت خلفاءه على تحريم بيع الأسلحة إلى طرفي النزاع. ولذلك؛ تم تجميد كلّ العقود تحت المفاوضات. كانت هذه من الأخبار السيئة لشركة Fincantieri التي كانت قد وافقت لتوّها على بيع 11 سفينةً حربيةً للعراق (أربع فرقاطات، وستة طرادات، وسفينة تموين النفط)، وسبع قوارب ساحلية إلى إيران. وخلال أشهر قليلة، استطاعت السلطات الإيطالية إفشال تلك

الصفقات مع كلا البلدين اللذين تدمراً بصخب لأجل تسليم السفن التي وعدوا بها. هذه المعاملات الشائكة ستؤدي إلى تسمم العلاقات بين روما وبغداد وطهران، وجعلت الحياة صعبةً للدبلوماسيين الإيطاليين لسنوات قادمة، بل وأصبح الحظر سبباً لمشاكل أكبر؛ لأنَّ الحكومة الإيطالية أمرت أن تُبنى سفن الحرب العراقية للمحافظة تشغيل الأيدي العاملة أحواضها البحرية. وعند إكمال بنائها أخذ الصداً يدبُّ فيها وهي ما زالت في الحوض. لذلك؛ كانت تنتظر إرسالها بسرعة إلى الخليج. وفي النهاية نقلت الحكومة الإيطالية حق ملكية السفن إلى البحرية العراقية التي أطلقت عليها أسماء حربية وأرسلت طواقم محدودة العدد ليكونوا مسؤولين عنها. ومع ذلك، لم تحصل السفن على ترخيص بمغادرة البحر الأبيض المتوسط ولم تشارك في الحرب. ولأجل تهدة غضب العراقيين والإيرانيين نظرت السلطات الإيطالية بطريقة أخرى، حيث سمحت للشركات الإيطالية بالانخراط في صفقات غير رسمية لبيع الأسلحة الخفيفة والألغام والذخيرة ولكلا الطرفين المتحاربين. وفي النهاية، أجبرت الحكومة الإيطالية على اعتقال مدراء شركة Valsella (شركة مساهمة مع مجموعة فيات ومتخصصة بصناعة الألغام) لذهابهم بعيداً في حرقهم علانية الحظر الذي أصدرته روما.

أمّا أسبانيا واليونان؛ فكلاهما يعتمد على النفط المصدر من الشرق الأوسط، ورفضاً أن يكونا إلى جانب أحد الأطراف المتحاربة، ولكنهم كانوا على استعداد لبيع الأسلحة والذخيرة سرّاً للحصول على الموارد المالية. وكلا البلدين كان بحاجة إلى الأموال لانتشالهم من الأزمات الاقتصادية العميقة التي يعانون منها. ومنذ كان طياروهم يحلقون بطائراتهم الفانتوم، أرسلت حكومتا إسبانيا واليونان قطع الغيار لطائرات الفانتوم إلى إيران وتجاهلنا الانعكاسات الكبيرة على قواتهم الجوية. كان تصميم الحكومة الإسبانية على الاستفادة من فرصة الحرب إلى أقصى ما يمكن، وباعت إسبانيا أيضاً للعراق الأسلحة الخفيفة، ومدافع مضادة للدبابات عديمة التراجع، وسيارات لاند روفر سانتانا، وكذلك الاشتراك مع ألمانيا في عقود بيع طائرات هلكوبتر نوع BO-105 الألمانية.

كانت بعض الدول، كدول Benelux الذي يتمثل بهولندا وبلجيكا ولكسمبورغ، برهنت على أنها أكثر استقلالية في مواقفها. وأدانوا كلاً من العراق وإيران لاستدراج أحدهم الآخر إلى نزاع غبي وإجرامي. ولكون هذه البلدان بعيدة عن اعتمادها على نפט الشرق الأوسط بسبب وصولها إلى نפט بحر الشمال، ولا تملك مصالح في المنطقة؛ وجد الاسكندنافيون أنفسهم قادرين على الحديث بحرية ودون الخوف من النتائج. ومع ذلك، اتّسخت أيديهم بتوقيع بعض العقود المربحة مع هذا الطرف أو ذاك من طرفي النزاع، وفي بعض الأحيان مع كليهما. وبالمجموع، أرسلت البلدان الأوروبية ما قيمته 27 مليار دولار من المعدات العسكرية إلى كلٍّ من العراق وإيران، ممّا شكّل ربع مشترياتهم من الأسلحة⁽¹⁾.

1- أرشيفات (CERM) مركز أعمال المخابرات العسكرية.

الفصل السادس

العرب منقسمون

حينما اندلعت الحرب، أدرك العرب أنَّهم بحاجة إلى اتخاذ موقفٍ ما، لكن ذلك كان صعبًا بصورة خاصة؛ لأنَّه من غير الممكن ربطه بأيٍّ من القضايا الثلاثة المفارقة للعرب، ومن ثمَّ تحدّد علاقاتهم الدولية. وأولى هذه القضايا، إنَّ الحرب لا علاقة لها بالواجهة بين الشرق والغرب، ولا تشير إلى أية علاقة بالصراع العربي - الإسرائيلي، وهذا ربما يسمح للعرب الوقوف تحت راية واحدة ثانيًا. ولا تتعلّق هذه الحرب بحروب التخلص من الاستعمار؛ لأنَّ كلا النظامين في العراق وإيران يدّعي أنَّه ضد الاستعمار، ويدّعي بالقومية، وأنَّه من دول العالم الثالث. وحرّضت هذه الحرب البلدين المسلمين الواحد ضدَّ الآخر ثالثًا. وبذلك، تكمن الصعوبة في تحديد الموقف الأيديولوجي الذي سيقود قادة العالم العربي للاختيار بين الطرفين وهو من المواقف الدقيقة، ولا سيّما أنَّ العالم العربي منقسمًا بشكل عميق؛ بسبب خطوط متصدعة أصلا "ملكيات محافظة" ضد "جمهوريات متقدمة"، أنظمة علمانية مقابل أنظمة إسلامية، دول مؤيدة للاتحاد السوفيتي مقابل دول مؤيدة للغرب، وتلك الدول الراغبة بالتحدث مع إسرائيل مقابل أولئك المنتمية لجهة التصدي لإسرائيل، ودول غنية مقابل دول فقيرة. وتظهر تلك الاختلافات في بعض الأحيان في أربع قضايا تقسم جامعة الدول العربية أيضًا: القضية الفلسطينية، النزاع في اليمن (بين جنوب ماركسي وشمال يؤيد السعودية)،

والصراع في الصحراء الغربية (بين المغرب وجبهة البوليساريو المدعومة من الجزائر)، وسياسة تحديد أسعار النفط المتفق عليها في منظمة أوبك. وفي مواجهة الحرب بين العراق وإيران التي استحضرت هذه القضايا المقسمة للعرب، أخذ القادة العرب موقفًا يستند إلى مصالحهم الخاصة، وطبيعة علاقاتهم الثنائية بين بغداد وطهران، وبشكل خاص بين منافسيهم، والكثير منهم من يخفي طموحه لفرض قيادته على العالم العربي. اتفقوا كلهم على شيء واحد: عمل كل شيء لتجنب أن يتطور النزاع إلى حرب إقليمية يمكنها إثارة النزاع العسكري بين السوفييت والأمريكيين وترك العرب يتحملون النتائج الكارثية. وفي هذا المجال، تجاوزت البراغماتية الاعتبارات التاريخية والعرقية والدينية.

الملك الأردني الحسين سفير المعسكر المؤيد للعراق

في 23 أيلول 1980، كان الملك الأردني حسين من أوائل الذين تميّزوا بردّ فعل واضح ووقف دون تحفظ إلى جانب العراق. وبينما استحضر مبادئ التضامن العربي، لكن موقفه تأطر أيضًا بالواقعية السياسية. فهزيمة العراق ربما تضع الأردن في وضع غير مريح إلى حدّ كبير، ولا سيّما أن الأردن دون عمق استراتيجي لمواجهة إسرائيل وموقع مضغوط بين سوريا والعربية السعودية، وكلاهما يسعى إلى مدّ نفوذه على المملكة الهاشمية. وكان الملك حسين يشكك بنوايا الملالي ورغبتها في زعزعة الأمن في مملكته وتحويلها إلى جمهورية أصولية يحكمها الفلسطينيون. ولذلك؛ تقرب الملك الأردني كثيرًا إلى بغداد التي وفرت له ضمانًا مجانيًا لأمنه ونفطًا رخيصًا مقابل تسهيلات دائمة في ميناء العقبة الأردني. فالطريق بين بغداد والعقبة الذي تم تحديثه من صدام حسين بكلفة عالية أصبح الطريق الرئيس للتجهيزات العراقية.

وبينما يُعدّ الأردن من البلدان الفقيرة، ولا يستطيع الملك حسين مساعدة العراق ماليًا، فإنّه عمل كلّ ما في وسعه لمساعدته دبلوماسيًا، فجعل من نفسه مبعوثًا أمريكيًا لصدام ومن خلاله لم تتحدث الولايات المتحدة مباشرة مع صدام. ولأجل تقديم المساعدة العسكرية

لصدام، سمح الملك حسين للقوة الجوية العراقية باستخدام ونشر طائراتها في قاعدة H-5 الجوية والقريبة من الحدود الأردنية واستخدامها لإعادة التجهيز بالوقود. وشجّع طياري المقاتلات العراقية على التدريب في الأجواء الأردنية مع الطائرات الأردنية نوع F-5s المشابهة لتلك التي استخدمها الجيش الإيراني. وسمح أيضًا للمهندسين العراقيين فحص صواريخ دفاعاته الجوية نوع هوك المشابهة لما تملكه إيران؛ لأجل أن يتمكن العراقيون من تطوير أفضل لتكتيكاتهم في المراوغة. ولكنه نظر بطريقة مختلفة حينما بدأت الأسلحة تصل العراق من طريق الأردن. فحينما تسلّمت بغداد أولى طائراتها الميراج F-1s من فرنسا جعل الملك الأردني قسمًا من أسطول طائراته F-1 تحت تصرف العراق. قاتلت عشرة منها تحت العلم العراقي، وحلّق نحو 15 طيارًا أردنيًا على طائرات الميراج العراقية خلال فترة الحرب كلها. وأخيرًا، ومنذ اللحظة التي تسلّمت إيران إلى الأراضي العراقية أرسل الملك حسين لواء اليرموك الآلي لمساعدة صدام والصمود على خطّ الجبهة. وسمح لعدة آلاف من المتطوعين الأردنيين للانخراط في الجيش العراقي خلال فترة الحرب. لقد سمحت تعهدات الملك حسين اللامحدودة بأن يجني فوائد اقتصادية كبيرة لبلاده. فقد تحوّلت العقبة إلى منطقة بحرية مزدهرة، وأصبحت القلب الاقتصادي للمملكة. وتم تحديث شبكة الطرق بشكل كبير، ما أدّى إلى تطوير الكثير من شركات النقل الأردنية. وسمحت الأموال من التجارة غير الرسمية مع العراق على تزيين العاصمة الأردنية عمان وتحديثها.

وفي المغرب اتبع ملكها الحسن الثاني والرئيس التونسي الحبيب بورقيبة فورًا خطوات الملك الأردني، ولكن كلّ واحد منهما دعم صدام حسين لأسباب مختلفة. يبقى القلق الرئيس للملك المغربي النزاع في الصحراء الغربية، فقد غزا تلك المنطقة الصحراوية الغنية بمعادنها لتعزيز أمن مملكته، والضمان بديمومة البقاء هناك. فمذ العام 1976 كان يقاتل جبهة البوليساريو المحلية التي تطالب سابقًا بالاستقلال عن إسبانيا. كان النظام العراقي من أشدّ المتحمسين لمساندة ادّعاء المغرب بالصحراء الغربية، ويعارض أية حركة انفصالية بحسب مبدأ أنّ مثل هذه الحركات ربّما تشجع بصورة غير مباشرة الأقلية الكردية في العراق على الاستقلال. ولذلك؛ كان الملك الحسن الثاني شاكرًا لبغداد وردّ جميلها

بمساندتها بكل قوته السياسية والدينية. وتشجع أيضًا على مساندة بغداد؛ لأنّ الجزائر غريمته في المغرب العربي تتعاطف دون تردّد مع إيران. وبما إنّه يفتقر إلى طرق مباشرة مع العراق لمساعدته مادياً ومالياً، سمح الملك الحسن الثاني بتزويد العراق بلواء من "المتطوعين" من جيشه النظامي.

كان الرئيس الحبيب بورقيبة يرى في البعث العراقي أنموذجاً للمجتمع العربي العلماني الذي كان يكافح من أجل تطويره في تونس، وحاجزاً ضدّ الحماسة الدينية الإيرانية التي يخافها من أيّ شيء آخر. ولا تزعجه الطبيعة الفاشية لصدّام حسين؛ لأنّه مقتنع أنّ شخصية أوتوقراطية متنورة فقط يمكنها قيادة الشعب العربي بعيداً عن الظلام والفقر. كان الحبيب بورقيبة - كما هو الحال مع الحسن الثاني - سعيداً جداً لمساندة الرئيس العراقي الذي وقف ضدّ السلطات الجزائرية التي يعتقد الرئيس التونسي أنّها تتآمر ضدّه. وكانت المساندة السياسية للرئيس بورقيبة حسّاسة بشكل خاص لصدّام؛ كون تونس تأوي مقر الجامعة العربية منذ نقلها من مصر التي وضعت على القائمة السوداء.

وعلى الرغم من أنّ الملك السعودي خالد وقف أيضًا إلى جانب صدّام، فإنّه فعل ذلك بحماسة فاترة. فمن الواضح، يجب عليه دعم العراق الذي يرى فيه الحاجز الطبيعي ضدّ التوجّه الديني العدواني للنظام الإيراني. أبلغ صدّام الملك خالدًا خططه، وبذلك تركه دون خيار آخر سوى مساندته ولو مُكرهًا. كان العاهل السعودي قلقًا من دكتاتور العراق الذي يشكّ في طموحاته إلى حدّ كبير التي قد تشكل في النهاية تهديدًا لسيادة الملكيات في الخليج. فمن وجهة نظره، ربما هناك مشكلة في خروج صدّام منتصرًا في حملته العنيفة ضدّ إيران قويًا بأكثر ممّا ينبغي. إنّ المقاربة الصحيحة دعم صدّام بما يكفي لكي لا يخسر، ولكن عدم إعطائه الإمكانيات للنجاح الباهر. وفي الواقع كان الحلّ المثالي بالنسبة إلى الملك خالد بقاء الحالة الراهنة بين طرفي النزاع كما هي. كانت أولويات الملك تعزيز قدراته المالية وموقف مسيطر في منظمة أوبك لمنع وجود واضح لأي قوات أجنبية على أرضيه؛ من أجل الحفاظ على صورته خادمًا للحرمين الشريفين. وفي النهاية، لإنجاز بنية الأمن الإقليمي الذي يتركز حول المملكة السعودية الذي يمكن أن يسمح لها بحلّ النزاع الشائك في اليمن

لصالحها. كان الملك خالد يدرك أنّ عليه التعامل مع العراق بوساطة قفازات الأطفال لتحقيق الأهداف الطموح. ولذلك؛ طمأن صدام حسين بمساندته ووعده بقروض مالية ضخمة تسمح له تمويل حربه ضد إيران (من 1980 إلى 1988 دفعت السعودية للعراق 60 مليار دولار). ومنح العراق حق نقل أسلحته المشتراة من أنحاء العالم عبر أراضيه. وأمدّ العراق ببضائع استهلاكية أيضًا. وأخيرًا، وافق على استخراج النفط من منطقة الحياض نيابة عن العراق وبيع 300 ألف برميل نفط يوميًا لتعويض جزء من خسارة العراق من موارده المالية. ومنطقة الحياض صغيرة المساحة تغطي 2700 ميل مربع (7000 كم مربع) بين العراق والسعودية بموجب بروتوكول العقير بين مملكة نجد وسلطة الانتداب البريطاني بالعراق عام 1922. تم تنفيذ هذا الاتفاق من العراق والسعودية وأجازت لكلا الطرفين الاستغلال الحرّ للمنطقة شرط عدم بنائهما أية منشآت عسكرية فيها. هذه التركة من الماضي سيتمّ التخلّص منها بعد حرب الخليج الثانية في عام 1991.

أمّا ملكيات الخليج الأخرى؛ كانت منقسمةً حول الموقف الذي يجب تبنيه. كانوا يراقبون بعصبية الصراع الثلاثي بين العراق وإيران والسعودية للسيطرة على الخليج، ويأملون أن لا تكون غير مؤاتية لهم كثيرًا. كان كلٌّ من أمير الكويت جابر الثالث وأمير البحرين عيسى الأكثر تكتّمًا في مساندة بغداد علانية واستفزاز طهران بصورة صريحة؛ لأنّهم يدركون حساسية وضعهم؛ لأنّ أمير الكويت يدرك أنّ الحدود الإيرانية تقع على مرمى حجر منه، ولكنّه يعلم بعمقٍ أيضًا أنّ العراق يحلم دائمًا باسترجاع الكويت ويعدها صدام المحافظة التاسعة عشر. وكان قلقلًا أنّ صدامًا ربّما سيفيدُ من فرصة فوضى المعارك ويمدّد قبضته على الإمارة. أمّا أمير البحرين؛ فعليه أولاً معالجة السكان الشيعة الذين يؤيدون إيران سرًا. هذا الخطر الذي الثابت لزعة الأمن تأكد بالحادثة الدموية في مكة في السنة الماضية التي هزّت كلّ قادة الخليج.

ولذلك؛ تبنّى كلٌّ من الأميرين مواقف مختلفة. فقد أعاد الأمير جابر تأكيد معارضته لوجود أية قوات أجنبية على أراضيه وبضمنها القوات العربية. وأجرى أيضًا اتصالات واسعة لتوضيح إيمانه بالمجتمع الدولي وتجنّب الوقوع تحت كعب أيّ من طرفي النزاع. وكانت

استراتيجيته تتكوّن من جلب أكبر عددٍ ممكن من اللاعبيين إلى منطقة الخليج. ومع ذلك، كان جابر واقعياً وعليه التعامل مع صدام بدقّة، وطمأنه سرّاً بمساندته له مالياً ولوجستياً. وبذلك، أصبحت الكويت ثاني أكبر راعيا للعراق بعد العربية السعودية: في الفترة 1981-1988 دفعت لبغداد 15 مليار دولار. أمّا امير البحرين عيسى؛ فقد وضع نفسه تحت الحماية العسكرية المزدوجة لكلّ من السعودية والولايات المتحدة والدعوة لتواجد عسكري غربي أكبر في المنطقة.

كان الشيخ خليفة آل ثاني أمير قطر قريباً من موقف الملك السعودي خالد واصطفّ مع الموقف السعودي. وأعلن صراحة أنّه يساند صدام حسين، ولكن كانت مساندته من الناحية المالية شكلية فقط. أمّا الشيخ زايد رئيس الإمارات العربية المتحدة؛ اتخذ موقفاً ضبابياً. فقد اصطفّ مع صدام ضمن التضامن العربي، ولكنه صرح أنّه يريد المحافظة على علاقاته الودية مع طهران على الرغم من اجتلالها لجزر طمب الكبرى وطمب الصغرى وأبو موسى. ومن الطبيعي أنّ ميناء جبل علي الجديد ومدينة أبوظبي أصبحوا مؤخرًا المحور التجاري مع إيران ويولدان موارد مالية هائلة لدولة الإمارات. ومع ذلك، أسهم الشيخ زايد بخمسة مليارات دولار في المجهود الحربي العراقي.

قادة عمان، مصر، والجزائر يرفضون الانحياز

أخذ سلطان عمان قابوس الموقف الأكثر تحفظاً في منطقة الخليج برفضه الاصطفاف مع أيّ من طرفي النزاع وعرض استعداده للتوسط وتسهيل أية محاولة لرأب الصدع. كان خياره متأثراً بالجغرافيا، ولا سيّما أنّه يسيطر على مضيق هرمز، وكان مسؤولاً عنه بوصفه حارساً له ويضمن حرية المرور في ممراته الاستراتيجية. فضلاً عن ذلك، كان السلطان قابوس يعتمد على إيران من الناحية الاقتصادية، وعليه أن يأخذ بحسبانته نفوذ الأقلية الشيعية الكبير، ولا يمكنه نسيان الموقف الإيراني في قمع تمرد ظفار قبل عدة سنوات، ولذلك لم يكن مستعداً لإغضاب إيران، ولم يوفر أيّة مساعدات مالية ولا مادية لبغداد ورفض إيواء

قواعده الجوية للقاذفات العراقية التي يرغب بها صدام حسين؛ لكي يصل بشكل أفضل إلى التجارة البحرية الإيرانية. كان السلطان يعتمد على وجود القواعد الأمريكية والبريطانية لضمان سيادته والتي تسمح لواشنطن ولندن بعملية الرصد الجوي والنشاط البحري في مضيق هرمز. أمّا الرئيس المصري أنور السادات؛ كان في وضع صعب. ولا خيار له سوى مساندة العراق لفظياً ودون الخروج عن التضامن العربي، ولكن دون إعلان الكراهية للنظام الإيراني أيضاً، والذي يعدّه التهديد الأكبر لاستقرار العالم العربي. كان يخاف انتصار إيران؛ لأنّه سيعزز حركة إخوان المسلمين في مصر ثمّ زعزعة نظامه. ولكنه ليس مستعداً لمساعدة صدام حسين الذي يهزأ منه علانية؛ لأنّه انتقد بشدّة وصراحة الرئيس المصري لتوقيعه معاهدة سلام بشكل مستقل مع إسرائيل. ولذلك؛ أصبح السادات منبوذاً من أقرانه، ومحروماً من الجامعة العربية ومن منظمة التعاون الإسلامي، وليس لديه سبب ليؤدّي أية خدمة لدكتاتور العراق. وبعد اغتياله من تنظيم الجهاد في يوم 6 تشرين الأول 1981، وبسبب التضامن العربي والواقعية السياسية قادا خليفته حسني مبارك بالتقرب من بغداد.

بدأ الرئيس مبارك في مطلع العام 1982 بتقديم مساعدات مادية مهمة لصدام حسين: كميات كبيرة من قطع غيار للأسلحة السوفيتية الصنع، وكميات مختلفة من الذخيرة والصواريخ، دبابات T-55، وحتى نحو ثلاثين طائرة مقاتلة - قاذفة نوع SU-7 التي يعدّها العراقيون من أسوأ أنواع الطائرات في التحليق ويستخدمونها للتمويه في قواعدهم الجوية. ولكي يسدّ هذا النقص، أرسل مبارك سرباً من طائرات الميراج - 5 المقاتلة للدفاع عن الجبهة العراقية. وأجاز انتشار نحو مئة طيار مصري وعدة آلاف من الفنيين الذين سيسهمون في جعل طائرات صدام نوع الميغ من العودة للعمل مرةً أخرى. وأخيراً، وافق على انخراط عدة آلاف من المليون مصري المقيمين في العراق في الجيش العراقي طوال فترة الصراع مقابل رواتب جيدة. وبذلك، جعلت مساعدة حسني مبارك للعراق إحياء محور بغداد - عمان - القاهرة مقابل محور طهران - دمشق - طرابلس. وقد تمت مكافأة مبارك بجهود كل من صدام حسين وطارق عزيز بعودة مصر إلى منظمة التعاون الإسلامي في العام 1984، وبعد ذلك عادت لترؤس جامعة الدول العربية.

أمّا الرئيس الجزائري هواري بومدين؛ فقد وجد نفسه في وضع حرج؛ لأنّ لديه من الأسباب لمساندة العراق وإيران معاً. فكلا البلدين - كما هو الحال مع الجزائر - يؤكدُ رغبته في الاستقلال والحدّاتة، وإدارة ظهره للغرب، وكلاهما لاعبٌ رئيسٌ في تجارة النفط. ولذلك؛ لا تريد الجزائر الدخول في النزاع إلى جانب أيّ من الطرفين. وكان بومدين أيضاً يطمح للاعتراف به وسيطاً موثقاً قادراً على جلب استقرار أكبر للشرق الأوسط. ولذلك؛ كان ثابتاً في موقفه غير المنحاز، وعارضاً خدماته لطرفي النزاع. وفي الواقع، كان مصمماً على مساعدة إيران سرّاً لعدة أسباب، ولا سيّما تدمره من صدّام حسين الذي ساند المغرب المنافس الأكبر للجزائر، ورفض حقّ شعب الصحراء في الاستقلال. والأسوأ من ذلك كلّهُ، اقتراف صدّام الخطيئة الكبرى بإلغائه اتفاقية الجزائر التي كان الرئيس الجزائري مهندسها الكبير. لم يذهب هواري بومدين بعيداً في مساندة إيران مادياً ومالياً التي تحولت إلى سلطة ثيوقراطية طالما انتقدها، ولكن اتخذ من الدبلوماسية السرية الداعمة لإيران خطوةً بديلةً ومؤقتةً يأمل منها مساندة طهران له في منظمة أوبك.

حافظ الأسد قائد المعسكر المؤيد لإيران

وقف الرئيس السوري حافظ الأسد مباشرةً خلف طهران محترماً التحالف الذي توصل إليه مع النظام الإيراني منذ عام. وحتى في هذه النقطة، كانت سوريا علانية ضمن المعسكر العربي سواء في التضامن معه أو في مصالحها الخاصة. فهي في حالة من المواجهة الدائمة مع إسرائيل، ولذلك؛ فهي بحاجة إلى المساعدة المادية من البلدان العربية وكذلك مسانبتها السياسية للمحافظة على الضغط على الدولة العبرية والاستمرار في تجهيز المقاومة الفلسطينية. كانت تملك مخزوناً تسليحياً رائعاً وبحجم مكلف جداً، وإنّ سوريا تعتمد فقط على إنتاج زراعي ضئيل، وقليل من إنتاج النفط، وتكافح دائماً لموازنة ميزان مدفوعاتها. ولعدم قدرتها الاعتماد على المشيخات النفطية التي ترفض النظام الجمهوري والتوجّهات الاشتراكية، لذلك؛ توجّهت سوريا ومنذ وقت طويل نحو مصر والعراق، وهما

الجمهوريات العربية اللتان تشتركان معها في القيم وعدائهما لإسرائيل. وبعد تغير السادات المفاجئ وتوقيعه معاهدة السلام مع إسرائيل، فدمشق لا تملك خيارات كثيرة سوى التقرب أكثر في علاقاتها نحو بغداد، على الرغم من الصراعات القديمة بين حزبي البعث في سوريا والعراق. كان حافظ الأسد يعتقد أنه بإمكانه التفوق على الرئيس البكر وأن يفرض نفسه رجل الشرق الأوسط القوي ومستغلاً موقعه قائداً لجهة الصمود والتصدي لإسرائيل.

لكن الوضع تغير بعد صعود صدام حسين الى السلطة في صيف عام 1979. كانت الصفعة التي وجهها صدام حسين للأسد في الوقت الذي كان البلدان على وشك توقيع إتفاقية الوحدة بينهما، أجبرت الرئيس السوري على تغيير موقفه بشكل جذري. عزز حافظ الأسد روابطه مع الاتحاد السوفيتي، وتحوّل نحو إيران التي تبدو له القوة الإقليمية الوحيدة القادرة على ممارسة ضغط كافٍ على الأقطار الثلاثة التي تهدد إلى حد كبير أمن بلاده: تركيا، العراق، وإسرائيل. كانت سوريا تعدّ نفسها في حالة حرب مع إسرائيل منذ العام 1948. وكانت تريد استعادة سنجق الاسكندرونة الذي ألحق بتركيا اعتباراً من سلطات الانتداب الفرنسي في العام 1939. وكانت تدرك أيضاً أن تركيا تملك منابع نهري دجلة والفرات وبإمكانها تقليص تدفق المياه إليها ومن ثم جفاف الزراعة السورية. أمّا بالنسبة إلى العراق؛ كانت دمشق تخاف أن يستولي العراق على حقول النفط السورية القليلة بالقرب من الحدود العراقية.

كانت إيران تشارك تركيا حدودها، وكانت تهددها عند الضرورة، ولم تناقش تلك الحدود منذ القرن السابع عشر. وكانت إيران الثورة قادرة على ممارسة ضغط كبير على إسرائيل من الطائفة الشيعية الكبيرة في جنوب لبنان، التي اعترفت بولاية آية الله الخميني منذ يوم 24 تموز 1975 في إتفاقية صيدا بين علماء إيران وشيعة لبنان. ولدى إيران وسائل متعدّدة للضغط على العراق. وأخيراً، كانت إيران الغنية بالنفط على استعداد لإمداد سوريا بكميات كبيرة من النفط. ولذلك؛ كان من المنطقي تماماً لحافظ الأسد أن يتبنّى المقاربة الجيوسياسية لبسمارك، وأن يفتح مناقشاته مع النظام الإيراني في خريف عام 1979؛ لتشكيل تحالف غير رسمي مع طهران. كان الإيرانيون متفتحين بشكل خاصّ لمثل هذا

الاقتراح، ولا سيّما أنهم يدركون أنّ الأقلية العلوية التي ينتمي إليها الرئيس الأسد تدّعي أنّها جزءٌ من الطائفة الشيعية على الرغم من عدم اعترافها بالمذهب الاثني عشري الذي يؤمن به علماء إيران.

وهذا التحول غير المتوقع منح القادة الإيرانيين فرصة "غير مرغوب" فيها لتفتيت المعسكر العربي وإضعاف العراق الذي لم يعد قادرًا على الاعتماد على تعزيزات من القوات السورية في حالة الحرب. ويمكن تهديد الصادرات العراقية من النفط، ولا سيّما ذلك الذي يتدفّق خلال الأنبوب الناقل عبر سوريا بين كركوك وميناء بانباس. ويبدو هذا التحالف النادر صائبًا بشكلٍ خاصٍّ لعدم وجود حدود مشتركة بين سوريا وإيران، وهذا يقلّل من مصادر الاحتكاك بينهما. والأكثر أهمية، أفنح هذا التحالف علماء إيران الذين يريدون تصدير الثورة، هذا العامل المزعزع للأمن يجب أن يوجه قبل أيّ مكان إلى العراق؛ لأجل تأسيس محور شيعي يمتدّ من إيران إلى العراق وسوريا ولبنان.

أمّا بالنسبة إلى حافظ الأسد؛ فإنّه يرى في صدام حسين أكثر شراسةً من منافس الذي أخذ يساند الآن حركة الإخوان المسلمين في سوريا، ولا سيّما أنّ المعارك قد بدأت بين العراق وإيران. ولذلك؛ قرّر الأسد تقديم المساعدة العسكرية لطهران، وأمر تسليمها كميات هائلة من الذخيرة والصواريخ والمعدات الخفيفة السوفيتية الصنع للاستفادة منها في إصلاح الأسلحة التي استولى الإيرانيون عليها من الجيش العراقي. وكلّ هذه الأسلحة تم تسعيرها بأسعار مرتفعة من الدولار. وجّهت سوريا إيران بكميات من المتوجات الصيدلانية والغذائية، وسمحت لإيران بنشر عدة مئات من عناصر الباسدران في لبنان. وهذا أعطى إيران موطئ قدم في بلاد الأرز، ومنحها تسهيلات للوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، وفرصة لتشديد قبضتها على الطائفة الشيعية في لبنان. هؤلاء الباسدران سيشكلون نواة لحزب الله والجهاد الاسلامي. وبالمقابل، ساعدوا الدكتاتور السوري القضاء على الميليشيات المناوئة لدمشق. الآن كان جيرانه في العراق مشغولًا بقتال إيران. ويجب على حافظ الأسد أن يحترس لنفسه في هذه الجبهة، وأصبح حراً لعمل أيّ شيء يريد في لبنان، والقضاء بوحشية على الإخوان المسلمين بسوريا. حرك في شهر شباط 1982 جيشه للقضاء

على مقاتلي حركة إخوان المسلمين المتخذين في مدينة حماة. تركت هذه الحملة الصارمة ثلاثين ألف قتيل ودمرت ثلث المدينة. ولأجل إضعاف بغداد وإسعاد طهران، فتح الأسد حدوده للقادة العراقيين الأكراد الهاربين من الأمن السري لصدّام، وحتى ذهب بعيداً حينما أمر بهجمات إرهابية ضد المصالح العراقية في لبنان، ومن أبرز الأمثلة على ذلك تورط وكلاء سوريا في مهاجمة السفارة العراقية في بيروت في شهر كانون الأول 1981⁽¹⁾.

ولم يكن حافظ الأسد الوحيد من اصطفّى مع إيران. كان معمر القذافي قائد الثورة الليبية ينتظر دوره طويلاً للثأر من صدّام حسين الذي طالما عامله باحتقار وبعده مجنوناً. وبخ العقيد القذافي صدّام حسين بتعزيزه موقف إسرائيل حينما يتبنى مواقف معادية لسوريا. ووبّخه مرةً أخرى حينما ساند ياسر عرفات حين رفضته عدة عواصم عربية وبتهمًا إياه بزعة أمن لبنان. ولكن كان موقف القذافي يتقرّر قبل كل شيء من خلال تنافسه مع دكتاتور العراق. كان القذافي يرى في نفسه القائد الذي يتحدّى صدّامًا والأسد في قيادة العالم العربي. وحينما علم أنّ العراق كان المفضّل لدى السوريين، فقد اختار التحالف مع سوريا. ففي الأول من أيلول 1980، وقبل ثلاثة أسابيع من اندلاع القتال مع إيران، عرض على الرئيس السوري الوحدة الاندماجية بين الجماهيرية الليبية والجمهورية السورية، معلناً استعداداه دعم سوريا ماليًا والوقوف معها في سياساتها الخارجية. وهكذا، حينما اندلعت الحرب بين العراق وإيران وجد القذافي نفسه مقيدًا ومجبّرًا على مساندة طهران كما الأسد. وفوق ذلك، هذا الموقف منح القذافي إمكانية تعديل وضعه في أعين علماء إيران ووضع قضية اغتيال الإمام موسى الصدر الضبابية خلفه.

وقبل سنتين اختفى الإمام اللبناني موسى الصدر بصورة غامضة خلال زيارة رسمية إلى ليبيا، وهو من المقربين من آية الله الخميني. وادّعت السلطات الليبية أنّه غادر ليبيا، ولكن لا أحد رآه منذ ذلك الوقت. كان الإمام من الشخصيات البارزة في الطائفة الشيعية بلبنان ومعروفًا بموقفه الوسطي المعتدل، ودوره في الحوار بين الطوائف، ولذلك كثر أعداؤه، ولا سيّما بين القادة الفلسطينيين الذين اتهمهم بأنهم يريدون إضعاف لبنان. وأدّى

1- Ralph King, Irak-Iran : La guerre paralysee (Paris: Editions Bosquet,1987),80.

نشاطه إلى تهيج النظام السوري من الأعماق. وبعد وقت قصير من اختفائه اتهم علماء إيران العقيد القذافي بتنظيم حملة لاستئصال رجال الدين ربما بتوصية من الفلسطينيين أو من السوريين. في عام 2011، انتهز السفير الليبي في الجامعة العربية فرصة اندلاع الانتفاضة الشعبية ضد القذافي، وأعلن أن الإمام الصدر تم اغتياله في الواقع ودُفن في ليبيا. وفي العام 1980، كان العقيد القذافي تواقًا للصفح عنه بسبب اختفاء الإمام ووعده الحكومة الإيرانية بكميات كبيرة من المعدات العسكرية. وكان من السهل الإيفاء بوعدته لامتلاكه مخزونًا هائلًا من الأسلحة التي دفع ثمنها نقدًا من موارد النفط الغنية وتراكم الغبار عليها في مخازنها. وبدأت حملات السفن والطائرات في غدوِّها ورواحها بين ليبيا وطهران بتسليم دبابات T-55, T-62, T-72، والناقلات المدرعة نوع BMP, BTR-60 والأسلحة المضادة للدبابات وللطائرات وعدة ملايين من طلقات البنادق والذخيرة الأخرى.

أمَّا علي ناصر محمد الذي كان يحكم النظام الماركسي في جنوب اليمن بقبضة من حديد؛ اتخذ من القضية الإيرانية غطاءً لمعاوية صدام حسين لمساندته حكومة شمال اليمن. قبل ستة أشهر تعهَّد الرئيس العراقي بمساندة شمال اليمن لينال الحظوة عند ملك السعودية. يُعدُّ جنوب اليمن من البلدان الفقيرة ولا يمكنه إمداد إيران بالمساعدات المادية، ولكن موقعه الجيوستراتيجي عند مدخل البحر الأحمر يوفرُّ فرصةً ثمينةً لطهران التي كانت تريد تنفيذ هجمات في مضيق باب المندب وإنهاك التجارة البحرية في البحر الأحمر. فأغلب الأسلحة التي يحصل عليها العراق وكذلك قسم كبير من النفط المستخرج من السعودية يمران عبر باب المندب. وهكذا، أصبحت الخزائن الإقليمية مرتبهة عند جنوب اليمن الذي سمح لإيران بزيادة الضغط على المملكة العربية السعودية. وبالتماثل، تحالفت حكومة شمال اليمن مع العراق وتعهدَّ الرئيس علي عبد الله صالح بإرسال عدة آلاف من "المتطوعين" للقتال على الجبهة العراقية.

كانت السمة النهائية لكلِّ هذه الانقسامات الإقليمية عجز جامعة الدول العربية عن القيام بردُّ فعل ما. وكانت مبادرتها الوحيدة الدعوة لعقد قمة عربية والتي في ختامها اتفق المشاركون فيها على بيان متحفظ جدًا يطلب من إيران القبول بالهدنة.

وكلُّ مبادرة من المبادرات اللاحقة سرعان ما يتمُّ ضربها من الأطراف المساندة أو المعارضة لأحد طرفي النزاع.

تدخل مجلس التعاون الخليجي

في 25 مايس 1981 وبعد عدة أشهر من النقاشات المكثفة وقّع شيوخ وملوك العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والكويت والبحرين وقطر وعمان اتفاقية مجلس التعاون الخليجي. لم يكن المجلس حلفاً عسكرياً، ولكن بصورة متواضعة، أداة للتكامل الاقتصادي ولفائدة الدول الأعضاء الست. كان من بين أهدافه العمل على إقامة سوق مشتركة ستؤدّي في النهاية إلى عملة مشتركة. كذلك كان قادة الملكيات النفطية الست مقتنعين أنّ القوة العسكرية لوحدها غير كافية لضمان أمنهم إن لم تستند إلى قاعدة مالية صلبة. وشعروا أنّ من الضروري التنسيق بين سياساتهم الاقتصادية لمواجهة أكثر كفاءة مع إيران، ولا سيّما في منظمة أوبك واستعراض وحدتهم لطرفي النزاع. وعلى الرغم من نزاعاتهم الحدودية والخصومات القبلية، ظهرت الملكيات الست شركاء طبيعيين يشتركون في تراث ثقافيّ عامّ يشابه أنظمتهم السياسية والبيئة الاستراتيجية الخطرة نفسها.

لقد خدمت الحرب كمهمّازٍ لإقناع الملوك والشيوخ لوضع تنافسهم جانباً؛ من أجل مصالحهم العامة (بعد ثلاثين سنةً بقي مجلس التعاون نشطاً وسمح لأعضائه بالتقدم نحو تكامل إقليمي أوسع). كان ذلك انتصاراً سياسياً للملك خالد الذي عمل كلّ ما في وسعه لإقناع أقرانه لمساندة مبادرته. وفي الواقع، كان ذلك لأول مرة يتوحد فيه الملوك الستة حول مشروع سياسي يسمح لهم بتعزيز مواقفهم بوجه العراق وإيران، وكذلك مقابل الدول الغربية التي تطمع في ثرواتهم النفطية بشكل معلن ومضطرد. ولأجل مراعاة حساسيات كل عضو وتجنب إعطاء الانطباع بأنّ المجلس بعيداً عن السيطرة السعودية تم منح السكرتارية العامة إلى عبد الله بشارة الدبلوماسي الكويتي المخضرم. وفي الواقع، كان الملك السعودي ورئيس الإمارات العربية يمارسون نفوذهم بطريقة أو أخرى على المنظمة التي ستكون

بوصفها أداة لتنسيق المساعدة المالية للعراق، وهذا يفسر السبب في معارضة إيران الدائمة لمحاولات المجلس التوسط بين الطرفين.

ولأجل التعبير عن فزعها وحذرهما، ضاعفت طهران استفزازاتها للكويت التي تعدُّ الحلقة الأضعف في مجلس التعاون الخليجي. ففي 23 حزيران 1981، أقلعت أربع طائرات فانتوم من بوشهر وحلقت باستعراض فوق الامارة، وتجنبت الطائرات المضادات الجوية الكويتية ولكن لم تهاجم أيَّ هدف فيها. كانت الرسالة واضحة: على الامارة أن تلتزم الحياد وأن لا تقف مع بغداد علانيةً والمخاطرة بإثارة غضب طهران. استمرت تلك الخروقات للمجال الجوي الكويتي حتى شهر تشرين الأول 1981 حينما طاردت طائراتُ الميراج-1s - اللتان تسَلَّمَتها الكويت على عجلٍ من فرنسا - طائرتين فانتوم إيرانيتين فوق الامارة.

الفصل السابع

إسرائيل تتكل على إيران وتركيا تستفيد من الحرب

ساندت إسرائيل منذ الأيام الأولى للحرب إيران، على الرغم من أن آية الله الخميني ينعى إسرائيل "الشیطان الأصغر"، ويدعو العالم الإسلامي للجهاد لتحرير القدس من الاحتلال الصهيوني. وبينما يبدو ذلك متناقضًا، لكن الموقف الإسرائيلي كان عقلانيًا تمامًا. فمنذ نشأتها احتفظت إسرائيل بعلاقات ممتازة مع إيران خلال حكم عائلة بهلوي، وتشاركها اهتمامها في احتواء المعسكر العربي. كانت إيران دائمًا الحليف الخلفي الكامل لإسرائيل والعكس بالعكس. فأغلب القادة السياسيين الإسرائيليين الكبار زاروا إيران من وقت لآخر، وأغلب جنرالات الجيش الإمبراطوري سافروا لإسرائيل لدراسة انتصارات "تزال" Tzahal على العرب. وتم تدريب الطيارين الإيرانيين بانتظام على طائرات الفانتوم في صحراء النقب لتحسين مهاراتهم القتالية بالتعاون مع الطيارين الإسرائيليين. وقد أراح هذا التحالف إسرائيل من الضغط العسكري العربي في حربي 1967 و1973. وسمح للكثير من اليهود العراقيين من الهروب من العراق إلى إيران ثم التوجه إلى إسرائيل. وكانت إسرائيل ولمدة خمس

وعشرين سنة تشتري نفطها من إيران. وتعاون الموساد بقوة مع السافاك. وكلا البلدين من أفضل حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة آنذاك.

وقبل ستة أشهر من سقوط الشاه، التقى وكيل وزير الدفاع الإيراني الجنرال حسن توفانباري السلطات العسكرية العليا في القدس؛ لتعزيز العلاقات العسكرية بين البلدين، والذهاب بعيداً إلى مناقشة القيام بغارة مشتركة على المفاعل النووي العراقي "أوزيراك" في المستقبل. وحتى بعد اندلاع الثورة، اعتقد الكثير أن الجمهورية الإسلامية لن تستمر، وحالما يتم التحرر من هذه الفكرة، سيعيد الإيرانيون روابطهم القوية مع إسرائيل لتشكيل مرة أخرى جبهة عامة ضدّ العرب. وصف إسحاق رابين التقرب الطبيعي من الإيرانيين "كونهم أصدقاء لإسرائيل لمدة 28 عاماً من أصل 37. وإذا ما عملت إسرائيل لتلك السنين... فلماذا لا تختفي تلك الفكرة المجنونة عن الأصولية الشيعية؟" (1). وتعتقد الحكومة الإسرائيلية أن من مصلحتها الاحتفاظ بالقنوات مفتوحة بين طهران والقدس في الوقت الذي تتظر فيه انهيار نظام الملالي.

الاستراتيجية البراغماتية

تشكل الموقف الإسرائيلي نتيجة لرغبتها في تقويض النظام العراقي؛ لأنه أصبح في ذلك الوقت العدو الأكثر خطراً على إسرائيل، وفوق ذلك، كان عدواً يحاول الحصول على القنبلة الذرية. وكان ينظر للنظام الإسلامي بإيران تهديداً بعيد المسافة. فمن زاوية إسرائيل، يجب عمل كل جهد لإيقاف صدام وإضعاف جيشه. وكان تفسير عامنون إسحاق، رئيس المخابرات العسكرية، تحذيراً "أن أيّ انتصار للعراق سيكون كابوساً لنا" (2). فمن بين شرّين، اختار مناحيم بيغن أقل واحد منهما. وبعد اجتماع مصغر للدفاع، قرّر بيغن مساندة طهران وتجهيز الإيرانيين سراً بالمساعدة العسكرية. وقد أدرك مباشرة أن كل ما ستجنيه

1 - صحيفة والمنظر بوست، يوم 29 تشرين الأول 1987.

2 - Paul Balta, Iran-Irak: Un guerre de 5000 ans (Paris: Anthorpos-Economica), 1988, 220.

إسرائيل من الحرب فائدة هائلة وهي شل وإضعافُ عدوين كلِّما طالَّت هذه الحرب لإنهاكهما. وبمساندة إيران التي تبدو أضعف من العراق، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي يريد إطالة الحرب. وكان تصريحه المشهور "أتمنى لطرفي النزاع الحظ السعيد والكثير من النجاح!". كان أيرل شارون الهائج أكثر صراحةً في بيانه الواضح "لإسرائيل مصلحة حيوية في استمرار الحرب في الخليج الفارسي"⁽¹⁾.

وهناك عامل ثالث يلقي الضوء على الموقف الإسرائيلي من الحرب. فمنذ بداية الثورة الإسلامية، كانت القدس تعتقد أن اليهود الإيرانيين في خطر وتريد جلب أكبر عددٍ ممكنٍ منهم إلى إسرائيل. وقد اطمأنت الحكومة الإسرائيلية مرةً أخرى أن لا الحماية التقليدية التي كان يتمتع بها اليهود الإيرانيون (يُخَمَّن عددهم آنذاك 75 ألفاً) ولا بيانات آية الله الخميني تضمن أمنهم. لذلك؛ شجَّعتهم على مغادرة البلاد. ولكن من أجل إقناع إيران بالسماح لهم بالمغادرة، فلا بدَّ للقدس من تقديم صفقة. فماذا أكثر إقناعاً من المساعدة العسكرية في وقت الحرب؟ فمنذ شتاء 1980 حتى صيف 1988 تم السماح لخمسة وخمسين ألف يهودي إيراني بالمغادرة ودون الخوف على حياتهم (عشرون ألفاً آخرون بقوا في إيران). وفي كلِّ مرة تنهار فيها المفاوضات بين العاصمتين، يجفُّ فيها تيار اللجوء ممَّا يجعل إسرائيل دون خيار سوى استئناف شحن الأسلحة لتسهيل وضع المغادرة.

وكان بيع الإسرائيليين للأسلحة سمح لهم بتقديم مساعدة للأمريكيين أيضاً الذين كانوا يبحثون عن وسطاء لإرسال قطع الغيار التي وعدوا بها إيران، وكذلك تسمح لإسرائيل بإيجاد منافذ جديدة لصناعاتها من الأسلحة، لكن الوقت صعب والمؤشرات الحمراء قائمة. فقد تعرضت إسرائيل إلى أزمة مالية حادة وبحاجة إلى بيع متوجاتها؛ للحفاظ على فرص العمل. وبيعتها بعض أسلحتها القديمة نسبياً يمكنها الحصول على أسلحة حديثة من صنعها بدلاً من المعدات القديمة. فخلال ستِّ سنوات (1980-1986) حصلت إسرائيل على ما قيمته مليار إلى ملياري دولارٍ من مبيعاتها للأسلحة وقطع الغيار التي شحنتها إلى إيران،

1- Pierre Pean, La Menace (Paris: Fayard, 1987), 25.

وأصبحت رابع أكبر مجهز للأسلحة لطهران. ففي العام 1986 لوحده، أُشيع أن المبيعات وصلت إلى مبلغ قيمته 750 مليون دولار⁽¹⁾.

وخلف حقيقة أن الحرب سمحت لإسرائيل تدبير أمرها مع إيران وعلى حساب العراق، المفاوضات لإعادة توطين اليهود الإيرانيين، والحصول على الأموال، وكذلك تركها حرة لاتخاذ موقف متشدد مع سوريا والفلسطينيين. وهكذا، كان من المنطقي إطلاقاً للحكومة الإسرائيلية أن تفتح باب المناقشات مع السلطات العسكرية الإيرانية بعد أيام قليلة من اندلاع الحرب وتعرض مساعدتها. ولكن منذ قطع العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين، فإسرائيل لا يوجد لها اتصال مع صانعي القرار بإيران. وقد حاول الملحق العسكري الإسرائيلي السابق (1975-1979) في طهران يعقوب نمرودي إعادة الاتصالات. ولكونه وُلد في بغداد لعائلة يهودية عراقية، ويملك خلفية في المخابرات السرية، كان نمرودي يملك علاقات ممتازة مع القيادة العليا للجيش الإمبراطوري. كان من الإسرائيليين القلائل الذين سافروا بانتظام إلى إيران بعد قيام الجمهورية الإسلامية. واستناداً إلى مصادر متعددة أرسل نمرودي فاكساً إلى أحد الذين كان يتصل بهم في القوة الجوية الإيرانية طالباً منه "ماذا يمكننا عمله لمساعدتكم؟"، قيل إنَّ الجواب جاء بعد عدة أيام على شكل قائمة طويلة تضمُّ مختلف المواد والأسلحة، وتطلب تسليمًا فورياً لمحركات وقطع غيار لطائرات الفانتوم المقاتلة، والهلوكوبتر الكوبرا، ودبابات باتون. وبذلك فتحت إسرائيل مباشرة قناة يتمُّ من خلالها تجهيز إيران. وشبكة الاتصالات اعتمدت على عدة وسطاء. أطلق على العملية في إسرائيل تسمية "المحار Shellfish" وأشرف عليها رئيس الوزراء مناحيم بيغن. بقي يعقوب نمرودي مسمار جحا لإسرائيل؛ لأنه يملك كلَّ الاتصالات الضرورية في إيران. وكان مسؤولاً عن أية اقتراحات تتعلَّق بما يمكن أو لا يمكن لإسرائيل إرساله إلى طهران؛ وذلك لتجنب خلق تهديد لأمنها الخاص بها. وتم أيضاً تشكيل خلية من إسحاق عوفي مدير الموساد، وزيفي ريتز مدير الصادرات بوزارة الدفاع، وآل شيفايما من الصناعات الجوية الإسرائيلية للعمل عن قرب مع نمرودي. وحتى شمعون بيرس وإسحاق راين قادة حزب

1 - صحيفة واشنطن بوست، يوم 6 تشرين الأول 1987

العمل المعارض تمّ إبلاغهم بالعملية وساندوها. كان أعضاء الارتباط من الضباط العسكريين الإيرانيين الذين اعتادوا العمل مع الإسرائيليين وأقسموا يمين الولاء للنظام الإسلامي. وكانوا يعتمدون على الدعم المعنوي لإبراهيم يزدي من أقرب حلفاء آية الله الخميني.

والتقى أحد الإيرانيين نظيره الإسرائيلي في زيورخ لتقرير كيفية تنفيذ العملية. كان فاروق عزيزي من الإيرانيين العاملين في تجارة السلاح السوداء والمعروف جيداً للمخابرات السرية الإسرائيلية، وأصبح مسؤولاً عن تنظيم التسليم لإيران من طريق شركة أرجنتينية مؤقتة باسم شركة "النهر الفضي للنقل الجوي". تم تحميل طائرات الشركة بأقفاص من المعدات العسكرية في إسرائيل، وتوقفت في قبرص، وبعد ذلك حلقت فوق تركيا، ثم فوق الهضاب العالية للأناضول قبل أن تفرغ حمولاتها في منطقة من تبريز بإيران. والمعدات الأكثر تعقيداً يتم تسليمها عبر القوارب عبر وسطاء بحريين يخدمون كشركات في الجبهة. عرضت إيران إسرائيل بشحنات من النفط بأسعار تفضيلية، وهكذا حصل كل واحد على ما يريد. وكعلامة حسن نية، أرسلت إيران لإسرائيل صوراً عن المفاعل النووي العراقي. ويُشاع أنّ إيران تسلّمت الجواب الآتي: "لا تقلقوا حول هذا الهدف، نحن سنعتني به"⁽¹⁾.

ولم تجهز إسرائيل إيران بقطع الغيار فقط، بل بكميات متزايدة من الأسلحة والذخيرة. وتضمّنت عدة مئات من صواريخ هوك، وSidewinder، وSparrow؛ و1250 صاروخ تاو مضاد للدبابات، قرون تشويش لتحسين قدرة المقاتلات الإيرانية على التسلّل، ومعدات رادار، وألف جهاز اتصال ميداني، وبضع مئات سيارات جيب، وخمسين مدفع هاوتزر نوع Soltam-M71، 150 مدفعية مضادة للدبابات نوع M-40، عدة آلاف من الأسلحة الخفيفة مع ملايين طلقات الرصاص، وعدة مئات من قذائف -105، -175، -155، و203 ملم⁽²⁾. ولربّما تبقى هذه الشحنات السرية غير معروفة لولا قيام الطائرات السوفيتية المقاتلة بإسقاط

1- Toom Cooper, Ahmed Sadik, Farzad Bishop, "La guerre Iran-Irak: les combats aeriens-1re partie, "Avion, special issue no.22(2007):64-65.

2- Ronen Bergman, The Secret War with Iran (New York: Free Press, 2008) 40-48; Trita Parsi, Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the US (New Haven, CT: Yale University Press, 2007), 104-108 ;

طائرة شحن مكوكية بين تبريز وقبرص في يوم 18 تموز 1981. ونتيجة لخطأ ملاحى، أظلت الطائرة طريقها في المجال الجوي السوفيتي بالقرب من الحدود التركية مما جعلها هدفا لطائرة SU15s ومطاردها واسقاطها في الاراضي الارمنية وقُتل جميع من عليها. أثارت هذه الحالة انتباهاً كبيراً، ولكن سرعان ما تمت تغطيتها من السلطات الإسرائيلية والحكومة الأمريكية التي لم ترغب أن تتناول الصحافة الدولية القضية باهتمام كبير.

تركيا: المنتصر الصامت

وكما هو الحال مع إسرائيل، انتهزت تركيا فرصة الحرب العراقية - الإيرانية لتستفيد من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. فاندلاع النزاع جاء بالكاد بعد عشرة أيام بعد انقلاب 12 أيلول 1980 الذي وضع العسكر في السلطة. ولم يكن بإمكان الجنرال كنعان إيفرن رئيس اللجنة العسكرية التوجّه لتغيير أفضل للأحوال بتركيا ولتخفيف النقد الموجّه لبلاده من المجتمع الدولي، حيث كانت تركيا تقف على حافة الانهيار الداخلي. ولسنوات متعدّدة، كانت تركيا تكافح أزمة اقتصادية ودينياً كارثياً ترك البلاد على حافة الإفلاس ويمنعها من تسلّم حتى قرض واحد. وهذا الوضع المأساوي أدّى إلى تشتيت الطبقة السياسية، وعدم استقرار حكومي كبير، وحالة قريبة من الحرب الأهلية. ولذلك؛ قرر العسكر، سواء كان صحيحاً أم خطأ، السيطرة على الوضع. قام الجنرال إيفرن بحل الجمعية الوطنية، ومنع الأحزاب السياسية، وشكل حكومة من الأحرار التكنوقراط التي من أولوياتها وضع الاقتصاد التركي على السكة الصحيحة⁽¹⁾. كانت الحرب بين العراق وإيران المساعدة المهمة لتحقيق هذا الهدف.

فعند اندلاع الحرب كان كلا الطرفين يريان في تركيا البلد الذي يخطبون ودّه، والذي سيكون من الخطر أن تكون علاقاتهم عدائية معه. ومن وجهة نظر بغداد، تركيا تمثل قوة

1- أعادت "اللجنة" السلطة للمدنيين في شهر كانون الأول 1983 وأنهت حالة الحصار في عام 1984 بعد أن وضعت دستوراً "أنيقاً" للحفاظ على دور مركزي للجيش.

إقليميةً تسيطر على واحد من أنابيب نقل النفط العراقي المصدر للغرب، وكذلك تتحكم في جريان نهري دجلة والفرات، النهريين الحيويين لزراعة العراق وصناعته. فضلاً عن أنها تمثل محوراً جوهرياً للاتصالات الذي يسمح للعراق الربط بين منطقة الخليج والانفتاح على البحر الأبيض المتوسط. وإنَّ الضباط الكبار العراقيين يحسبون حساباً للجيش التركي الذي يعدُّ من أقوى جيوش الشرق الأوسط. لكن النظام العراقي لديه سببان للتعاون الوثيق مع تركيا، تشتري تركيا كمية كبيرة من إنتاج النفط العراقي دون تحدٍّ لشروطها، وثانياً العاصمتان مصممتان بالتساوي لمقاتلة الحركة الكردية المطالبة بالاستقلال. ولديهما كلُّ المصلحة في الذهاب معاً لمنع الجماعة الكردية من اللجوء إلى أراضي أيٍّ من البلدين لتعزيز وضعها هناك. ولذلك؛ كانت العلاقة مع تركيا مهمةً جداً لصدّام حسين، ما جعله يُعيّن وزير تجارته ممثلاً خاصاً لدى اللجنة العسكرية، الذي كان يقوم برحلاته المكوكية بين بغداد وأنقرة طوال فترة الحرب.

كذلك تبلور المنظور الإيراني لتركيا على قاعدة المصالح المشتركة، فالإيرانيون والأتراك يشتركون في حدودٍ جبليةٍ كانت مستقرةً لثلاثة قرون ونصف ولقائده السكان المحليين. ولم يرغب كلُّ من البلدين في العودة إلى عقلية المواجهة التي سيكون الخاسر فيها الإيرانيون والأتراك لو حدهم. وبالمقارنة، فتركيا وإيران بلدان قويان (بالحجم والسكان والثروات) ومن شأنهما أن يُضعف بعضهما الآخر في صراعٍ لا نهاية له إذا ما تم تحريضهما. وبالعكس، فكلُّ بلد لديه من الأسباب الممتازة للتعاون فيما بينهم. تحتاج تركيا إلى فتح أسواق جديدة للتخلص من أزمته الاقتصادية التي تكافح من أجل حلّها لسنين متعددة. وتحاول إيران كسر عزلتها وتأمين خطّ اتصالات مع الغرب. وتشهد تركيا موجة تصنيع سريعة وتحتاج إلى طاقة قادرة على شرائها. وإيران بلد منتج كبير للنفط وبإمكانه بيعه إلى تركيا بشروط تفضيلية.

ويدرك النظام الإيراني أنّ لا خيار له سوى التعامل مع تركيا؛ لأنّها البديل الوحيد لإدخال السلع الأجنبية إلى إيران ومن خلال ميناء بندر عباس أو من باكستان. وأي خطوط أخرى ستكون طويلةً جداً، ومكلفةً جداً ومحفوفةً بالمخاطر. فضلاً عن أنّ استخدام

الأراضي السوفيتية أضرارها أكثر من فوائدها. وبذلك، كان الطريقان اللذان يربطان مدينة تبريز بأضروم وفان التركيتين ولسنوات متعددة يعدّان الطريقين الاستراتيجيين لتجهيز طهران. وإنّ السلطات التركية والإيرانية يتذكران أنّهما قاتلا العرب خلال فترات من التاريخ. ويدركان أيضًا أنّه يمكن لتركيا أن تمارس نفوذًا قويًا على الجماعات الأذربيجانية المتحدثة بالتركية التي تشكل ربع سكان إيران. ويدرك البلدان بشكل خاص أنّهما لا بدّ أن يستمعا إلى النصيح والاتفاق على المسألة الكردية، وللأسباب نفسها التي دفعت بأنقرة إلى التعاون مع بغداد فيما يتعلق بالكرد.

وتدرك الحكومة التركية كلّ ذلك. واختارت فرصة هذا الوضع للتعامل مع طرفي النزاع في الوقت الذي تتخذ واجهة الحياد التي لا تخدع أيّ أحدٍ ولكن تسمح لها بمظهر التواصل بينهما. في يوم 2 تشرين الأول 1980، وبعد أن ترك الرهان على بقاء العراقيين والإيرانيين معلقين ببعضهم لمدة عشرة أيام تقريبًا، أعلن إيفرن رسميًا التزام بلاده طريق "الحياد النشط". ومن الناحية العملية، يعني ذلك البقاء على علاقات ممتازة مع طرفي النزاع ودون الذهاب مع أيّ من الطرفين. أمّا بالنسبة إلى إسرائيل؛ فإنّ من مصلحة تركيا أن تستمرّ الحرب طويلا.

ضاعفت تركيا في منتصف شهر تشرين الأول كمية مشترياتها من النفط العراقي (من طريق الأنبوب الناقل بين كركوك ودرتيول)، ومن إيران (من طريق رصيف جزيرة خارج)، بعد أن فاوضت على تخفيضٍ مهمّ للأسعار. وشرعت الحكومة التركية بإرسال شحنات من السلع المختلفة بوساطة اللوريات وبالتزامن إلى كلّ من إيران والعراق، وهذا أدى إلى بعث نظام طرق المواصلات التركية من جديد. ونظرت تركيا بطريقة أخرى قدر تعلق الأمر بشحنات الأسلحة المارّة عبر أراضيها، سواء المتوجهة إلى بغداد أم طهران. ومن الطبيعي، كانت تقوم بجباية ضريبة المرور.

وقّعت تركيا وإيران في 5 مايس 1981 اتفاقيةً لزيادة حجم التبادل التجاري والربط بين شبكات الاتصالات بينهما. وسافر نحو مئة طبيب تركي مع لوازمهم وأدويتهم إلى الجبهة لمساعدة الإيرانيين بالخدمات الطبية، ولا سيّما بعد تزايد أعداد الجرحى. وفي

طهران أجهد أكبر هاشمي رفسنجاني نفسه لإقناع أقرانه لممارسة نفس الدور التركي تماما. ولم يتردد في الإشارة إلى تركيا ووصفها بالحليف الوظيفي الفعّال. وحاول وزير الخارجية ولايتي كسب ودّ أنقرة وضاعف العقود بين البلدين (وهذا ما طمأن كثيرا الصناعيين الأتراك). ولعلّ الأفضل من ذلك، استأجر النظام الإيراني العمالة التركية وأحلّها محلّ الإيرانيين الذين توجّهوا لجبهات القتال. وخلال خمس سنوات تضاعف حجم الصادرات التركية لإيران اثنتي عشرة مرة، وازداد من 85 مليوناً في العام 1980 إلى أكثر من مليار دولار في العام 1985. وأصبحت تركيا الشريك التجاري الرئيس لإيران التي امتصّت نحو ربع الصادرات التركية. وخطّطت كلٌّ من أنقرة وطهران لمد أنبوب لنقل النفط من إيران إلى البحر المتوسط عبر تركيا، ولكن الصعوبات الفنية الكبيرة ونقص التمويل جعل السلطات الإيرانية تدفن المشروع. ومع ذلك احتفظت اللجنة العسكرية بزمام الأمور: رفضت تركيا إبعاد الجنود الإيرانيين الذين لجؤوا إلى تركيا في 16 آذار 1981 بعد اختطافهم طائرة شحن إيرانية نوع C-130.

وإنّ ازدياد التبادل التجاري بين العراق وتركيا كان مذهلاً أيضاً، وازداد من 135 مليوناً في العام 1980 إلى 960 مليون دولار في العام 1985. إنّ انهيار أسعار النفط الذي بدأ في العام 1985 زاد من اعتماد طرفي النزاع على تركيا، ولا سيّما بعد أن خسروا قسمًا من مواردهم المالية المتأتية من بيع النفط، ولجوء العراقيين والإيرانيين إلى التعامل المؤقت مع السلع الاستهلاكية الواطئة الكلفة المنتجة في تركيا. وبذلك، كان الميزان التجاري مع كلٍّ من بغداد وطهران إلى صالح تركيا وهذا ما سمح لتركيا الادعاء بأنّها "المنتصر الصامت" في الحرب العراقية الإيرانية.

الفصل الثامن

تأثير معركة "فالمي"

على عكس توقعات صدام حسين، حينما غزا العراق محافظة خوزستان في شهر أيلول 1980، لم يرحب سكانها بالعراقيين بوصفهم محررين، ولم تُقدم لهم أكاليل الزهور أو الجماهير المرحبة عند مداخل المدن والقرى. وفي أفضل الحالات كان ينظر إلى القوات الغازية بالشك والريبة. وفي أغلب الأوقات كانوا يقاتلون بغضب وتصميم شديدين. كان العامل العرقي - الكثير من سكان خوزستان ذو أصول عربية عميقة - قد تم تحجيمه؛ لأنّ المدن الحدودية قد أفرغت من سكانها. وإنّ مقاتلي الجبهة العربية لتحرير الأهواز الذين كانوا يعانون من اضطهاد طهران العنيف، تم تهميشهم ولم يتمكنوا من تهيئة الظروف للقيام بانتفاضة شعبية. وسرعان ما طغى الشعور الوطني الذي تعزز بالإجراءات العقابية ضد القبائل المتحدثة بالعربية التي قام بها بعض الضباط العراقيين خلال الأيام الأولى لبدء الحرب. على سبيل المثال، أعدم الجنرال طالع الدوري قائد الفرقة المدرعة التاسعة بدم بارد 56 من الإيرانيين المتحدثين بالعربية واتهمهم "بخيانة القضية العربية"، ما أدى إلى تحوّل السكان المحليين جميعهم ضده خلال أقل من أسبوع. وأُشيع أنّ الجنرال صباح الفخري والجنرال طه الشكرجي اقترفا جرائم مشابهة في قواطع عملياتهما.

برهنت روح المقاومة على قوتها بشكل خاص؛ لأنها تركز على الوعي الثوري الأصيل الذي أشعل روح الكرامة الوطنية التي جعلت من التدخل الأجنبي شيطانًا. فيمكن للنظام الإيراني أن يلعبَ على إثارة الروح الوطنية للإيرانيين، ولكن على شعارات "الأمة في خطر" و"الثورة مهددة"، وهي ذات الشعارات التي استخدمها الثوريون الفرنسيون في العام 1792 في معركة فالمي لصدّ الجيوش المتحالفة وإنقاذ الجمهورية.

وحالما انتشرت أخبار الغزو العراقي في البلاد أسرع عشرات الآف من المتطوعين إلى مراكز التجنيد؛ لينضموا إلى الحرس الثوري، والكثير من صعد الباصات في اللحظة التي سجّلوا في المراكز وتوجهوا للجبهة مسلحين فقط بحماستهم وشجاعتهم والسلاح الخفيف الذي يرغب الباسدران تجهيزهم به. وقصتهم الملحمية هذه تم تصويرها في فلم المدير إيرج غديري "برزخيه"، أي "يقع في الخطر" الذي يروي قصة المغامرين الاستثنائيين من الشباب المقاتلين الذين هربوا من زنزانة سجن الشاه وتم جرحهم بالصدفة في خطوط الجبهة تقريبًا. وفي عدة حالات، هؤلاء المتطوعون يشتركون كل اثنين أو ثلاثة في سلاح واحد قد يتوفر لهم عند وفاة أحد الشركاء. أمّا الذين غادروا من المدن الحدودية الكبيرة (كرمنشاه، خرم آباد و دزفول وأهواز) وصلوا إلى الجبهة بسرعة. وأولئك الذين جاؤوا من طهران وشيراز وأصفهان واجهوا رحلة طويلة. والكثير من طلبة الجامعات تركوا مقاعدهم لقتال العراقيين، وتدربوا على السلاح في ميدان المعارك، حيث يكون الاختيار الطبيعي قاسيًا، وأغلبيتهم قُتل بسرعة. أما أولئك الذين يتمتعون بكاريزما حقيقية، وشخصية عنيدة، وموهبة عسكرية ليتمكن إنكارها، وإمكانية جيدة من الحظ؛ ارتقوا على أكتاف رفاقهم ليصبحوا زعماء حرب حقيقيين.

برزت عدة شخصيات وصنعت لأنفسها اسمًا في هيكل الحرس الثوري. كان محسن رضائي ذو الست والعشرين سنة من الأوائل الذين نالوا شهرةً في هذا المجال. وهو أحد أفراد حماية الإمام الخميني، وطالب التكنولوجيا الذي أثبت أنه أحد القادة الرجال - فظ، ومهيب، ومحترم. وبعد سنة سيتولى قيادة الباسدران. وتبعه في خطواته حسين خرازي ذو الثلاث والعشرين سنة، وجندي نظامي

هرب من الجيش أثناء حكم الشاه. وبعد أسابيع قليلة تولّى قيادة قاطع دارخوفين الواقع بين أهواز وعبادان. وبعد أشهر قليلة، تمت ترقيته إلى جنرال مسؤول عن فرقة باسدران جديدة التي ستقوده فيما بعد إلى الإشراف على تنظيم الهجمات الشاملة التي اختصّ بها الحرس الثوري. أدّى حسين خرازي دورًا حاسمًا في معركة كسر الحصار على عبادان. وكان من الأوائل الذين عبروا نهر الكارون لملاحقة العراقيين حتى خورمشهر. وبعد أن فقد إحدى ذراعيه في هجوم الفجر الرابع قاد فرقة للهجوم على شبه جزيرة الفاو، وأخيرًا تم قتله بقذيفة مدفع خلال عملية كربلاء الخامسة في عام 1986. وسار على الدرب نفسه رحيم صفوي ذو الاثني والعشرين عامًا. وعلى الرغم من أصوله النبيلة من الأسرة الصفوية، فقد كُفّف بقيادة إحدى الفرق العسكرية. كان واحدًا من الأبطال القلائل الباقين على قيد الحياة من الذين شاركوا في الأيام الأولى للحرب. أصبح قائدًا للباسدران في العام 1997، ثم انضم إلى حلقة الرئيس أحمددي نجاد.

كان محمد باقر قاليباف يبلغ من العمر تسع عشرة سنة حينما ترك الجامعة ليلتحق بجبهات القتال في قاطع الأهواز، ثم عبادان. سرعان ما أظهر بسالة لا تتناسب وعمره، ونفذ الكثير من الأعمال البطولية، وتولى قيادة إحدى فرق الباسدران التي ستؤدّي دورًا حاسمًا في معركة خورمشهر الثانية. وعلى الرغم من أنّه شاب ليصبح جنرالًا، فإنّه تولّى جميع مراتب المسؤولية، ويصوّر نفسه بسعادة أنّه بونابرت إيران. وتم تعيينه لاحقًا قائدًا لفرقة نصر، ثم تولّى مسؤوليات مهمة في فيلق الباسيج. وبعد أن تدرّب على الطيران، وتم تعيينه قائدًا للقوة الجوية لباسدران. ثم تولّى منصب قائد الشرطة العام في عهد الرئيس خاتمي عام 1999. ولم يحالفه الفوز حينما رشح لرئاسة الجمهورية في العام 2005، ولكن تم انتخابه أمينًا للعاصمة طهران، ولكن بقي نظره على الرئاسة، بيد أنّه فشل مرةً أخرى في انتخابات عام 2013، وما زال ينتظر فرصته.

هؤلاء المقاتلون اندفعوا جميعًا بما قد يدعى "روح فالمي". كانوا مقتنعين أنّ من الضروري السير ضد الغازي لإنقاذ أمتهم. وبينما يؤمنون بالإسلام لكنهم كانوا يعدّون أنفسهم مقاتلين علمانيين منخرطين في حرب دينية لإنقاذ بلادهم ومؤسساتهم، فهم

لا يفهمون فتور رجال الدين وقلة التزام بعضهم، الذين يعدّونهم ممن يتمون إليهم وليس الجلوس على مقاعد المدارس القرآنية فقط. وهذا الامتعاظ سيغذي الكثير من النزاعات السياسية في قلب السلطة الإيرانية خلال أو بعد الحرب.

الجبهة الداخلية، أولاً

لم يكن الهجوم العراقي وحده فشل في إسقاط الجمهورية الإسلامية كما كان يأمل صدام حسين أن يؤدي ذلك، بل أدى إلى تعزيزها وتماسكها، وختم على الروابط بين الشعب والنظام بدماء الشهداء. كانت السلطات الإيرانية سريعة في التقاط تلك الحالة، وستسمح تلك المواجهة مع عدو مكروه ومحتقر لها بتوحيد الشعب خلفها. وفي الواقع، كان النظام يقاتل ثلاثة حروب في آن واحد. كانت المعركة الأهم ضد الحركات المعارضة الراديكالية التي حملت السلاح وتقاتل الحكومة في المدن الرئيسية، ومن ضمنها حركة مجاهدي الشعب بقيادة مسعود رجوي، وحركات حسين روحاني بيكار، والمناصرين السابقين للشاه بقيادة شابور بختيار والجنرال عيسني. والنزاع الثاني الذي لا يقل أهمية كان مع مجموعات كثيرة من الحركات التي تطالب بالاستقلال في محافظات كردستان وأذربيجان وبلوچستان. كانت الحركة الكردية الأكثر نشاطاً من بين تلك الحركات، حيث لا يزال الجيش والباسدران يكافحان ضد البيشمركة، وكوملا، وفدائيي الشعب.

والحرب الثالثة هي بين العراق وإيران، وهي ثانوية في أهميتها بشكل عام عند المرشد الأعلى، وينظر إليها أنها مجرد نزاع حدودي للسيطرة على حدود الإمبراطورية السابقة. ومن الطبيعي، لا يوجد خلاف على عدم السماح للغازي أن ينتشر على الأرض المقدسة لبلاد فارس الخالدة. ولكن لا حاجة لهجوم على نطاق واسع مضاد ومباشر آنذاك، ولا سيما أن الهجوم العراقي ينحصر فقط في أهداف محددة. كان من أولويات آية الله الخميني الدفاع عن النظام أينما يوجد تهديد حقيقي: في الجبهة الداخلية. وتم التوصل إلى اتفاق ضمني وسريع في أعلى الهرم الإداري للسلطة على أن يتولّى الرئيس بني صدر والجيش الحرب مع

العراق وبمساعدة الباسدران، في حين يتولّى رئيس الوزراء محمد علي رجائي قتال الأعداء في الداخل وبمساندة من رجال الدين والعناصر الأكثر إخلاصًا في الحرس الثوري والقوى الأمنية. يلقي تقسيم العمل هذا الضوء على الصراع الرهيب في طهران الذي استمرّ ليضع رجال الدين ضدّ مؤيدي العلمانية الذين تجمعوا خلف أبي الحسن بني صدر، وأخذوا يواجهون صعوبات متزايدة في الاحتفاظ بتوازن بين محوري النظام.

وفي اليوم الأول من تشرين الأول، وبعد أن أعلنت التعبئة العامة ومدد فترة الخدمة الإجبارية من ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين شهرًا، نقل الرئيس الإيراني مقرّ عمله إلى مركز القيادة تحت الأرض في القاعدة الجوية بدزفول مع رئيس أركان القوات المسلحة الجنرال حسين شاكري. يقع الموقع في وسط القاعدة، وهو محميّ جيدًا، ويسمح بالتفتيش السريع لمختلف قواطع الجبهة باستخدام طائرات الهليكوبتر المتعدّدة في القاعدة. ولكن كان اختيارها أيضًا يبعث رسالةً قويةً: أنّ دزفول لن تسقط بأيدي العراقيين؛ لأنّ سقوطها سيفتح الطريق نحو أصفهان وطهران، ويقسم الجبهة على قسمين، ويجعل من الصعب جدًا التحرك من قسم لآخر. استغلت القيادة الإيرانية العليا أيام الهدنة القليلة التي أعلنها صدام حسين لإعادة تنظيم انتشارها العسكري. ومنذ أن كانت الفرقة المدرعة 81 تتولّى الدفاع عن القاطع الأوسط آنذاك، كانت أولويتها تعزيز القطاعات الثلاثة التي تُعدّ الأكثر حساسيةً والأكثر أهميةً: وهي مدن أندمشك ودزفول، ثمّ منطقة المقاومة حول أهواز، وأخيرًا ميناءًا خورمشهر وعبادان.

ونُقِلَ لواء البراشوت رقم 55 جواً من قاعدته في شيراز إلى دزفول، وخلال ثلاث ليالي حلقت طائرات النقل في رحلات مكوكية وفي ظروف خطيرة. ونُشِرَ اللواء الآلي 84 في أندمشك. وفي خورمشهر نُشِرَ اللواء الثالث بدلاً من اللواء المدرع 16 الذي تحركت بعض وحداته نحو دزفول. أمّا اللواء 16 لدبابات M-60؛ أخذ مواضعه خارج المدينة متخفيًا خلف المراسي التي تقسم حقول الحبوب الممتدة من نهر الدز حتى نهر الكرخة. ويحمي المشاة الآليون الدبابات بينما تحمي المدفعية الذاتية الإطلاق المدينة. وتعدّ القيادة العليا أنّها يمكن لهذه الألوية الأربعة صدّ هجمات الفرقتين الأولى والعاشرة العراقيتين، ولا سيّما أنّ مدينة دزفول تم تعزيزها بمدفعية مستقلة وسرايا من الباسدران.

وإلى الجنوب، كانت الضفة الشرقية لنهر الكرخة بحماية ما تبقى من اللواء الثاني في الفرقة 92، في حين تم نشر بقية الفرقة عند أطراف أهواز، وذلك لدفع الفرقتين الخامسة والتاسعة العراقيتين. وتوجّهت من طهران وحدات الدبابات المدعومة باللواء الآلي 21 إلى القاطع الواقع بين أهواز وعبادان. وتمكّن لواء من الفرقة نفسها بالتسلل إلى خورمشهر؛ لتعزيز المدينة المحاصرة بعدة آلاف من عناصر الباسدران الذين اندفعوا من كل مناطق البلاد بالباصات والسيارات وحتى بسيارات المواشي؛ لمنع العراقيين من السيطرة على تلك المدينة الرمز. وأسندت مدينة عبادان بوصول الحرس الثوري، وكتيبة مشاة بحرية، واللواء المدرّع 37 الذي كان يربط اعتيادياً في شيراز. وصدرت الأوامر بإرسال وحدتين منه إلى الجبهة، ولكن تطلّب عدة أسابيع للوصول إلى خطوط القتال لبعدها المسافة التي عليها قطعها، ونُشر اللواء المدرّع 88 المرابط على الحدود الباكستانية، والفرقة الآلية 77، على الحدود السوفيتية والأفغانية في منطقة مشهد.

وقرّرت القيادة العسكرية العليا ترك عدة وحدات في أمكنتها للدفاع عن الجبهة الداخلية، الفرقتان 28 و64 بقيتا في كردستان. وتولّى لواء المشاة الجبلي حراسة الممرات التي تسيطر على الطرق المؤدية لطهران. وبقي اللواء قوات خاصّة 23 في العاصمة ليشكّل الحماية الأخيرة للعاصمة. أمّا اللواء الآلي 30؛ استمرّ في تواجده على الحدود السوفيتية لأي أمر طارئ هناك.

وانتهزت القيادة العسكرية العراقية العليا فرصة الهدنة القصيرة؛ لتعزيز انتشارها في قطاع البصرة. فأمر الجنرال عدنان خير الله والجنرال شنشل اللواء قوات خاصّة 33 استعداداً لشنّ هجوم على خورمشهر. وهذه القوة ستقوم بدور قوات الصدمة الاحتياطية؛ من أجل السيطرة على المدينة. بينما تسلّمت قوات المشاة الراجلة تدريباً متسارعاً للقتال في المدن بإشراف مستشارين روس قلائل ومن الكوادر السابقة في الجيش التي استُعدت للخدمة بصورة طارئة. فحالما يكونون في المدينة عليهم ترك ناقلاتهم المدرعة والقتال مشياً على الأقدام، وهذه مهمة سوف لا تكون ساحرة. كذلك أصدرت القيادة العسكرية العليا بياناً باستدعاء عدة قطاعات من الاحتياط للالتحاق بالجيش الشعبي وزيادة عدده. وأخيراً، أمرت

الفرقة الرابعة مشاة ترك قطاع النفط Naft الذي تم تحصينه، والانضمام إلى الفرقتين السابعة والحادية عشرة مشاة المرابطين في كردستان للمساعدة في إقناع البيشمركة على عدم إحياء قتالهم ضدّ النظام.

القتال يبدأ مرة أخرى

اقترب الجنرالات العراقيون خطأً كبيراً سيكلفهم كثيراً؛ لأنهم نسوا أن يحتلوا مدينة سوسنجرد التي استولوا عليها في الأيام الأولى للحرب. فحالما عبروا المدينة توجّهت دباباتهم مباشرةً نحو الأهواز تاركين هذه المدينة الواقعة على تقاطع طريق استراتيجي دون حماية. في مطلع شهر تشرين الأول، انتفضت المدينة وجمعت سلطاتها عدّة مئات من المقاتلين الذين جرى تعزيزهم بعناصر من الباسدران. أصبح نتوء سوسنجرد شوكةً في خاصرة العراقيين. ولحسن حظّ المدينة أنّها معزولةٌ عن بقية أنحاء إيران بكتبان من الرمال على الضفة المقابلة لنهر الكرخة وتحول دون حصول المتمردين فيها على أية معدات ثقيلة. ومع ذلك، جلبت طائرات الهليكوبتر لهم التعزيزات والذخيرة في الليل في الوقت الذي بدأت العمليات الجوية تنشط من جديد.

في يوم 30 أيلول 1980 أبدت الحكومة الإيرانية تصميمها بقصف المفاعل النووي العراقي أوزيراك الذي يقع على بعد نحو عشرين ميلاً (30 كم) إلى الجنوب الشرقي من بغداد (عملية السيف الساطع). كانت طهران قلقةً كثيراً من التقدّم الحاصل في البرنامج النووي العراقي وتريد تحييد هذا المفاعل قبل أن يدخل الخدمة الفعلية. ولكن ينقص جهاز مخابراتها معلومات واقعية للتأكد من وجود وقود نووي أو عدم وجوده في المفاعل الرئيس. ولأجل تجنّب سقوط إشعاعات قوية، قرّرت طهران تقليص هجومها على بنايتي البحث والسيطرة على المفاعل. أقلعت أربع طائرات فانتوم من همدان، اثنتان منها في المقدمة لتنفيذ المهمة، واثنتان في الخلف لاستبدالهما في حالة وقوع أية مشكلة. وإذا ذهبت المهمة على ما يرام، فالطائرتان في الخلف تدوران في اللحظات الأخيرة لقصف محطة

الكهرباء التي تغذي العاصمة. بينما تقوم طائرات الفانتوم الأخرى بتنفيذ هجوم مضلل على الطائرات المقاتلة في قواعد بغداد لإلهاء لواء صواريخ Sam-6 المسؤول عن حماية القاطع. ولإنجاز هذه المهمة الحساسة تم تحميل طائرات الفانتوم بست قنابل زنة الواحدة 500 باوند (225 كغم)، وجهاز إلكتروني مضاد للذبذبات نوع ALQ-101 للتأثير على رادارات العدو. وبعد إقلاعها وإعادة تزويدها بالوقود في الجو، حلقت الطائرات على ارتفاع منخفض جداً وسلكت طريقاً يسمح لها بالتسلل إلى الأجواء العراقية بأقل خطورة ممكنة لرصدها. وعند اقترابها من الهدف، توجهت الطائرتان الاحتياط نحو بغداد كما هو مخطط، بينما استدارت الطائرتان المكلفتان بالمهمة لتصوير الهدف والحوم حوله لاتخاذ الوضع الدقيق لاستهدافه وإطلاق قنابلها دفعةً واحدة. عادت الطائرات مباشرةً إلى قواعدهما دون معرفتهم إن كانت غارتهم ناجحة. وفي الواقع، لم يكن الضرر كبيراً. وأعلن المهندسون الفرنسيون في الموقع أن العمل سيستأنف في الحال. تبعثت الاثنتا عشرة قنبلة لتدمير منطقة مخازن للمواد الكيميائية لا غير.

وفي اليوم التالي، عادت ست عشرة طائرة فانتوم لمهاجمة بغداد، وبعد تحليق منخفض يسمح لها بتجنب الدفاعات الجوية العراقية قصفت الدوائر الحكومية ومقرات حزب البعث، والمقرات العسكرية، وثكنات الحرس الجمهوري ومقر جهاز المخابرات، كانت الضربات غير دقيقة والأضرار طفيفة؛ لأن الطيارين كانوا مهتمين أكثر بالقفز فوق سقوف مباني العاصمة لتجنب نيران الدفاعات الجوية.

ولم ينتظر الهجوم العراقي المضاد طويلاً، ففي اليوم التالي مباشرةً أقلعت اثنتا عشرة طائرة SU-20s من قاعدتها في كركوك وقصفت بقنابلها قاعدة همدان مدمرةً ثلاث طائرات فانتوم وألحقت أضراراً بأخرى عدة، ثم عادت الطائرات سالمة. وفي يوم 3 تشرين الأول، شنت طائرات القوة الجوية العراقية سلسلة غارات على العاصمة الإيرانية، حيث تسللت الطائرات القاذفة فوق الصوتية نوع TU-22 إلى أراضي العدو وهاجمت مطار طهران الدولي، ومصفى النفط الذي يجهز المدينة، ومعامل الطائرات المسؤولة عن تجميع طائرات الهليكوبتر الإيطالية والأمريكية المرخصة، فضلاً عن مقرات الحكومة وبنية البرلمان. كانت

هذه الضربات غير دقيقة، واللقطات الجوية لطائرات توبولوف مصممةً للتحليق والقصف من ارتفاعات عالية. ومع ذلك، كانت صدمةً لسكان طهران الذين اندهشوا لرؤية الطائرات العراقية تحلّق فوق رؤوسهم. وفي بداية يوم 6 تشرين الأول استهدفت أصفهان وقم. كانت هذه الغارات المنتظمة لا تضمُّ أكثر من أربع طائرات، وتكرّرت حتى يوم 29 تشرين الأول حينما تمكنت الدفاعات الجوية الإيرانية من إسقاط طائرتين TU-22s بصواريخ هوك. بعد ذلك، توقفت الغارات العراقية في عمق أراضي العدو.

كانت ردّة فعل الإيرانيين بشنّ غارات يومية؛ من أجل مضايقة العاصمة العراقية. هذه المهامّ التي عُرفت باسم "طريق بغداد السريع" حيث تقوم طائرة فانتوم واحدة بالتحليق وتخرق الصوت فوق بغداد وبتحليق منخفض مزعج عند الغروب، وبعد التحليق فوق المباني الرمزية للنظام ولا سيّما القصور الرئاسية المتعددة، ولا سيّما أنّ الطيارين الإيرانيين يتفوقون في لعبة "اختفِ وابحث" مع أجهزة الرصد العراقية لاختبار أعصاب الطيارين العراقيين. ومع ذلك، أُسقطت طائرتا فانتوم واحدة بالدفاعات الجوية، والأخرى بعد مطاردتها من طائرة الميغ-23. لكن هذه المهام توقفت بعد أن توقفت الغارات العراقية على طهران في نهاية شهر تشرين الأول.

أمر صدّام حسين في يوم 8 تشرين الأول 1980 بإطلاق ثلاث صواريخ بالستية نوع Frog لقصف قاعدة دزفول الجوية، وبذلك يُعلن شنّ الموجة الثانية من الهجمات الأرضية. هذا النموذج من الصواريخ يتفوّق بجيلٍ على صواريخ سكود المعروفة بقوتها التدميرية ويبلغ مداه 45 ميلاً (70 كم). كانت هذه أول دفعة من صواريخ Frog تُستخدم منذ اندلاع الحرب، ولم تكن الأخيرة. ولعدم دقتها، سقطت هذه الصواريخ على أطراف القاعدة الجوية، ولكن الهدف الرئيس هو كان إبلاغ الرئيس الإيراني الذي كان مقره هناك، جديّة النظام العراقي. وبالتزامن، اندفعت ثلاثة ألوية عراقية مدرعة نحو قاعدة دزفول. عبرت الدبابات العراقية الميدان بتشكيلات معركة، ولكن سرعان ما توقّفت لإطلاق المشاة الإيرانيين المتخفين خلف المراسي صليات من صواريخ تاو ودراكون. انسحب العراقيون لمسافة كافية لمدفيعتهم أن تردّ وتسكت المدافعين، ثمّ عادوا ليوажها مدى نيران أكثر دقة

من دبابات M-60. كسب الإيرانيون بعض الأرض ولكنهم أبعدها دفاعاتهم إلى الخلف. وبهذه الجولة، تقدّم العراقيون أميالاً قليلةً خلال ثلاثة أيام، ولكنهم استهلكوا كلّ وقودهم وذخيرتهم تقريباً. وبما إنّ إمداداتهم كانت بطيئة التعويض بشكل خطير، أُجبروا على وضع نهاية لهذه الجولة التي كلفتهم نحو ثلاثين دبابةً مقابل حصولهم الشيء القليل جداً. ومع ذلك نجحت إحدى كتائبهم من الوصول إلى نهر الدز عبر الشوش. ولعدم وجود أية أوامر، اختار قائد الكتيبة التراجع والانضمام إلى خطوط القتال بدلاً من خوض النهر والاشتباك على الضفة الأخرى من النهر بحالةٍ من الذعر الخطير. كان الهم الرئيس للعراقيين آنذاك تأمين خطوط إمداداتهم.

وإلى الشمال، حاول الجنرال لطيف قائد الفيلق الثاني زيادة مكاسبه والتحرك نحو كرمينشاه بالفرق السادسة والثامنة والعاشر المترنحة بين قصر شيرين وسومر. أمّا الفرقة الثانية التي تم اختبارها في المعارك السابقة؛ لم تكن في ظروف تسمح لها بالمشاركة في هذا الهجوم الجديد، بينما أُعيد انتشار الفرقة الرابعة في كردستان لتعزيز الفيلق الأول، وغادر لواء سربيل زهاب، وكل واحد يسير في طريق موازٍ للآخر متوجهين نحو تقاطع طرق استراتيجي في سارماست وإسلام عباد غرب. بينما تسلّق لواءٌ آليٌّ آخر الطريق الجبلي من المفترض أن يقوده إلى سارماست، حيث من المؤمل أن يلتقي أحد الألوية المدرعة التي تركت سومر. ومن خلال هذه المناورة كان العراقيون يخططون لعزل الحامية الإيرانية المتمركزة في إيلام والاستيلاء على المدينة، ثم الحصول على موطء قدم في قلب جبال زاغروس وأن يصبحوا أقرب إلى كرمينشاه.

وفي البداية، سلكت القوات الطريق ومن دون توقف، وتقدّمت الدبابات T-55 و T-62 نحو عشرين ميلاً (نحو 30 كم) خلال التلال الجبلية. ولكنها سرعان ما أصبحت وجهاً لوجه مع كتائب الدبابات من الفرقة المدرعة 81 التي تم نشرها بعناية في عدة كمائن. ومنذ اندلاع المعارك كان لدى طواقم الدبابات الإيرانية الوقت للتجمّع ثم الانتشار جيداً في مواقع مهيأة لذلك. كانت الدبابات الإيرانية تنظر من أعلى لعدوّها، ومدعومة بمدفعيتها ذاتية الحركة المرابطة بإمعان لتغطية خطوط التقدّم الرئيسة. كان الاشتباك شديداً، وحاولت

الألوية العراقية التغلب على أسراب الدبابات الإيرانية التي اشتبكت في سلسلة قتال عنيف على التعاقب ولكنها أُجبرت على التراجع تحت نيران طائرات الهليكوبتر الغزال العراقية المسلحة بصواريخ HOT. وخلال اليومين اللاحقين قامت الدبابات Chieften الإيرانية بعمليات فعّالة لتأخير تقدّم العدو والتمسك بالأرض. ومع ذلك، تضاعف عددهم بسرعة، ما أجبرهم على استدعاء قواتهم الجوية وطائرات الهليكوبتر لقهر العدو. تمكنت طائرات الهليكوبتر الكوبرا والنسر من مطاردة الهليكوبتر الغزال وتركت الدبابات العراقية من دون حماية، ولكن وصول كتائب من الفرقة 81 قلب موازين القوى، وبدأت الدبابات الإيرانية بإجبار الناقلات العراقية المدرعة على التراجع. ومع ذلك لم يتمكنوا من استغلال الفرصة؛ لأنهم توقفوا؛ بسبب صليات صواريخ Milan التي أطلقها رجال المشاة المتخندقين على طول الطرق الجبلية. وبما إن كلا الطرفين لا يملك قوات كافية لشنّ هجوم آخر، فكلاهما رجع إلى مواقعه السابقة. وبينما يبدو الوضع على هذا الجزء من الجبهة جامدًا، لكنه كان مختلفًا حول البصرة، حيث كان العراقيون والإيرانيون يتقاتلون بشراسة في معركة للسيطرة على خور مشهر وعبادان.

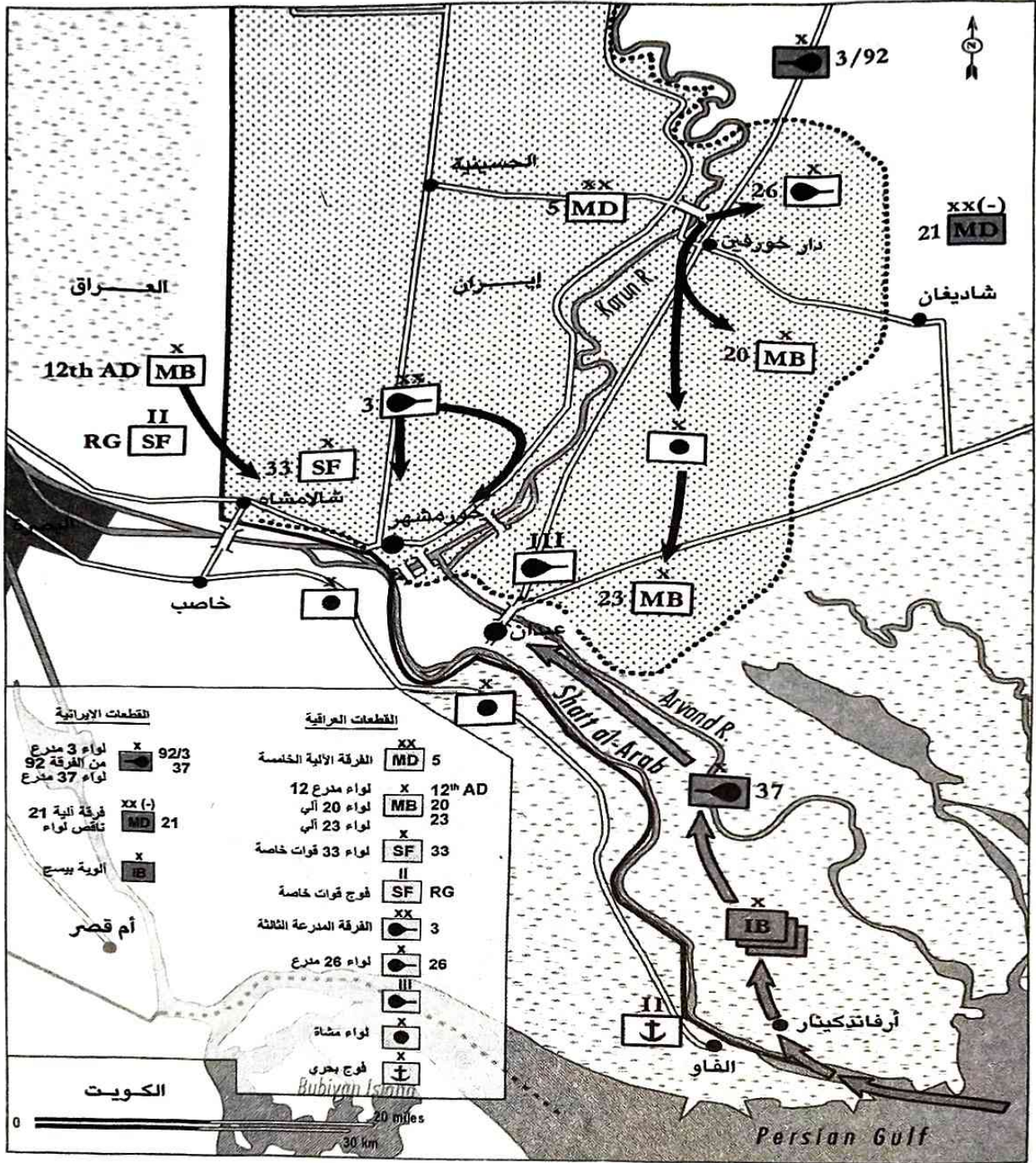
سقوط خور مشهر ومحاصرة عبادان

في ليلة العاشر من شهر تشرين الأول 1980 عبر زارعو الألغام نهر الكارون بالقرب من دارخوفين على ظهر طوافات، وبمساعدة كتيبة بناء الجسور من الفيلق الثالث تمكنوا من إقامة جسر عائم خلال ساعات قليلة. وعند الفجر تمكن اللواء المدرع 26 من العبور واتخذ موقعًا دفاعيًا لحراسة رأس الجسر. توقفت عمليات عبور الجسر عند شروق الشمس - لكن العراقيين كانوا يخافون الضربات الجوية الإيرانية - وبدؤوا مرةً أخرى عند حلول الليل. وفي صباح اليوم التالي تمكن اللواء الآلي 20 من عبور النهر. يبدو أن العراقيين قد سيطروا على دارخوفين. أخذ اللواء المدرع 26 طريقه بحذر متجهًا نحو الشمال لاخترق التحصينات الإيرانية القوية. وفي الصباح، لاحظ قائد اللواء غيومًا من الغبار تصعد من أربعين دبابةً تتقدّم باتجاهه. كان ذلك كتيبة الدبابات من الفرقة المدرعة 92 القادمة من أهواز. وبعد أن تسلّمت

الإذار تلفونياً من قوات شرطة دارخوفين المتخذقة في محطة شرطة المدينة، هرعت طواقم الدبابات نحو الجنوب ومصممة على صدّ العراقيين، بينما أخذ العراقيون مواضع الكمائن. وحينما وصلت دبابات Chieften ضمن مدى مرمى دبابات T-55 العراقية التي أطلقت نيرانها في ظروف مثالية (1650 قدماً، أي 500 م). وفي أقلّ من عشر دقائق دُمّرت عشر دبابات إيرانية، ولم يبقَ خيار للدبابات الأخرى إلا الهروب باتجاه الكارون، وأغلبيتها غاصت في وحل ضفاف النهر. ونتيجة لمطاردة الدبابات العراقية، هجر الإيرانيون دباباتهم في الوحل وهربوا بصعودهم على ظهر خمس عشرة دبابةً عائدين بحالة تثير الشفقة إلى أهواز. استولى العراقيون على نحو عشرين دبابة Chieften التي قطروها إلى الخلف وتباهاوا في عرضها لمراسلي الحرب لتصويرها.

وإلى الجنوب، وبينما كان الجنرال الدوري قائد الفيلق الثالث يشنُّ هجومه على خورمشهر، أصدر صدّام حسين أوامره بالسيطرة على المدينة بأية كلفة كانت، ثمّ التوجّه نحو عبادان. وفي 11 تشرين الأول، وبينما كانت الفرقة المدرعة الثالثة تريد الحصول على العتاد لتشديد الشرك حول خورمشهر، تسلّل فوج المراقبة عبر نهر الكارون إلى الشمال منه على بعد خمسة أميال (ثمانية كيلومترات) من المدينة.

وفضلاً عن وجود جسرين في مدينة خورمشهر، كان ذلك الطريق الوحيد عبر النهر الذي يصل إلى الأهواز. لذلك؛ كانت السيطرة على الجسر مسألة حسّاسة. وغامرت قوات الاستكشاف العراقية بالوصول إلى نهر آرفند أحد روافد نهر الكارون الذي يجري بموازاة شطّ العرب ليصبّ في الخليج، واحتلوا الجسر الوحيد على النهر قاطعين الطريق إلى تهواز. أمّا ميناء عبادان المحصور على طول شبه جزيرة سبخة وضيقة تشكلت من رواسب أنهار شط العرب وكارون وآرفند؛ فهو الآن معزول تماماً. وبعد ثلاثة أيام تمكنت الفرقة الآلية الخامسة من السيطرة على طريق عبادان - أهواز على الضفة الشرقية لنهر الكارون. وهذا وسّع من موقع رأس الجسر ليمتدّ إلى حافات منطقة المستنقعات المطلة على الخليج. ولا يمكن لأية سيارة التنقل ما وراء تلك المنطقة سوى المرور بالطريق المؤدي إلى بندر خميني الذي زُرِع بالألغام. وعلى الطريق نفسه، لم تتمكن القوات العراقية من السيطرة على شاديكان؛



خارطة سقوط خورمشهر ومحاصرة عبادان (10-28 تشرين الأول 1980)

لأن هذه المدينة الصغيرة احتلتها كتيبة من الفرقة 21 الإيرانية. في 14 تشرين الأول تمت محاصرة عبادان، لكن حاميتها العسكرية المؤلفة من ستة آلاف مقاتل وستين دبابة أوقفوا العراقيين الذين لم يتجمعوا بأعداد كبيرة كافية تمكنهم من مهاجمة المدينة.

في يوم 18 تشرين الأول أمر قائد الفرقة الخامسة لواءه 23 لعبور نهر آرفند على جسرٍ عائمٍ أقامته وحداته من كاسحي الألغام ومهاجمة عبادان من الخلف. برهنت هذه المحاولة على فشلها الذريع، حيث تم صد العراقيين بوحشية من خلال دبابات M-48 وإطلاق نار كثيف من المدفعية الآلية المتقاطعة. وبعد ساعات قلائل، أُجبر العراقيون على التخلي عن تقدمهم والانسحاب إلى مواقعهم على الضفة الشرقية لنهر آرفند.

كان الوضع في خورمشهر مختلفًا وخطيرًا، فلمدة يومين كان خمسة الآف من الإيرانيين المتخندقين يواجهون هجومًا لا يتزعزع من 12 ألف عراقي يدركون أن عيون صدام ترصدهم، وبعد إطلاق نار كثيف من أكثر من 300 مدفع، أنزلت الفرقة المدرعة الثالثة مشاتها مع كوماندوز اللواء 33 قوات خاصة، الذين تمكنوا من دخول خورمشهر وبدعم من 200 دبابة نوع T-55 و T-62 الذين كانوا يرافقون المشاة، بل والتقدم أمامهم. واصل الجنود العراقيون تقدمهم ببطء في أحياء المدينة الواحد بعد الآخر، حيث كان القتال شديدًا، وفي الأعم الأغلب كان القتال بالأيدي.

تشبَّث الإيرانيون بكلِّ مبنى وكلِّ بيت، وضايقوا المهاجمين بالقاذفات المضادة للدبابات وقنابل المولوتوف. والقناصون أعاقوا الوصول إلى كلِّ شارع لمدة أيام في كلِّ مرة. ولأجل طرد القناصين، أُجبر العراقيون على استدعاء الدبابات والمدفعية لقصف المدينة التي حولوها إلى حقل دمار شديد، الذي جعل حتى تقدمهم أكثر صعوبة. اندفع الإيرانيون إلى ذروة الولاء المتعصب نتيجة دعوة آية الله الخميني المقدسة لهم بتحويل خورمشهر إلى "ستالينغراد الفارسية"، التي ستكون مقبرة للعدو. تدخلت القوات الجوية لكلا الطرفين لمساندة التقدم أو لإبطاء القوات العراقية، وأسقطت طائرتا فانتوم والنسر بصواريخ سام-6 للواء الذي كان يحمي الانتشار العراقي. وعلى الأرض أخذت الألغام وقنابل المغفلين نصيبها الرهيب. كان عدد ضحايا الغزاة يزداد بشكل مقلق ومضطرد. وبعد عشرة أيام من القتال، تكبَّد العراقيون ألفًا وخمسمئة قتيل وأربعة الآف وخمسمئة جريح. ففي كل ليلة كان الكوماندوز العراقي يتسلل إلى خطوط العدو لنشر الرعب ويلقي القبض على بضعة جنود ليحصلوا على المعلومات منهم.

وبينما لم يتسلّم الإيرانيون سوى تعزيزات شحيحة من عبادان وخسروا بعض الأراضي وتراجعوا نحو الجسرين على نهر الكارون، وتركوا خلفهم بعض جيوب المقاومة، وبعد أن أصبح النصر في اليد؛ طلب قائد الفيلق الثالث من بغداد تعويض خسائره من المشاة. أرسلت القيادة العسكرية العليا - بعد حصولها على موافقة صدام حسين - لواء القوات الخاصة من الحرس الجمهوري ولواء آلياً من الفرقة المدرعة الثانية عشرة، الذي تحرك من سومر إلى خورمشهر في ثلاثة أيام. سمحت هذه التعزيزات للعراقيين بالسيطرة على الجسرين وملاحقة الإيرانيين الفارين إلى الضفة الأخرى من النهر. في يوم 24 تشرين الأول أعلن الجنرال الجبوري الاستيلاء على خورمشهر. وبعد أربعة أيام، تمكن من القضاء على جيوب المقاومة. إنّه انتصارٌ لا يمكن إنكاره، لكنه نصر كلف العراقيين ألفي قتيل وستة آلاف جريح. وكلف الطرف الآخر ألفاً وخمسمئة قتيل. وثلاثا القوات التي انخرطت في القتال أصبحت خارج الخدمة. أدّى سقوط خورمشهر إلى نهاية الجنرال حسين شاكري القائد العام للقوات المسلّحة الذي جعل الجنرال فلاحي بدلاً منه، وتعيين الجنرال قاسم علي زاهر نجاد محل فلاحي قائداً للقوات البرية.

ونتيجة لخسائرتهم في الاستيلاء على خورمشهر، أدركت القيادة العسكرية العراقية العليا أنّ من غير المنطقي مواصلة الهجوم باتجاه عبادان، ولا سيّما أنّهم يتقصصهم احتياطي المشاة بشكل خاص، وأنّ الثكنة الإيرانية في عبادان تسلّمت تعزيزات في الليل بوساطة طائرات الهليكوبتر من بندر خميني وبالطائرات المائية من آرفندكينار، الميناء الصغير الواقع عند مصبّ شط العرب. لذلك؛ قرر العراقيون تشديد حصارهم على عبادان.

الفصل التاسع

تجميد المعارك

لم تتقدّم القوات العراقية في نهاية شهر تشرين الأول 1980 على كلّ الجبهات، وفشلت في السيطرة على كرمنشاہ ودزفول وأهواز وعبادان، ممّا فرض شبح تجميد المعارك. وتمكن الإيرانيون في الفترة 15-18 من تشرين الأول من صدّ العراقيين بعنفٍ بالقرب من آندمشك وإجبارهم على التراجع إلى جسر نادري. وكان يجب على القوة الجوية التدخل لتسمح للعراقيين بصدّ الدبابات الإيرانية وإعادة تشكيل خطوطهم الدفاعية. ونتيجة لإدراكها بهذا الجمود، حاولت السلطات العراقية مفاتحة إيران. عندئذٍ صرّح طه ياسين رمضان قائد الجيش الشعبي علانيةً أنّ "نفت عربستان سيكون للعراق ما دامت طهران ترفض التفاوض، وأنّ العراق لديه الوسائل لدعم الحرب لمدة عام ودون أي تأثير في شعبه، ولربما لمدة سنتين أو أكثر وبفرض بعض القيود التي شعبنا مستعد لقبولها"⁽¹⁾. ومن الواضح كان هذا التصريح بموافقة صدّام الذي ظنّ أنّ من الأفضل استقباله من شخص ما غيره. كررت الحكومة الإيرانية بكل هدوء شروطها السابقة: رحيل صدّام حسين، وسقوط النظام، اعتراف العراق بكامل مسؤوليته عن الحرب، ودفع التعويضات الكاملة عنها.

1- صحيفة لوموند، يوم 22 تشرين الأول 1980.

الأولوية للجهة الجنوبية

أعلن آية الله الخميني في طهران أنَّ خورمشهر "المدينة الشهيدة"، ومؤكدٌ أنَّ مثلها يجب أن يشكل إلهامًا للمقاتلين الإيرانيين. وطلب من الحكومة أن تتخذ إجراءات اجتماعية في صالح عوائل الشهداء الذين سقطوا في المدينة. وهذا أدى إلى - بعد أشهر قليلة - تأسيس مؤسسة الشهداء، وهي منظمة مخصصة لمساعدة عوائل الحرس الثوري الذين قُتلوا في جبهات القتال. وتحت ضغط رجال الدين، وبصورة خاصة من آية الله بهشتي، أمر المرشد الأعلى تأسيس مجلس الدفاع الأعلى الذي سيمارس دورًا أكثر تقييدًا للسيطرة على عمليات القوات المسلحة وتعزيز سلطة الباسدران. وفضلاً عن بني صدر، تألف المجلس من أكبر هاشمي رفسنجاني القائم بمهام ممثل المرشد الأعلى، والجنرال فلاح رئيس أركان القوات المسلحة، ووزير الدفاع، قائد القوات البرية، القائد العام للباسدران، ورئيس الوزراء، ورئيس هيئة الإعلام. وللمجلس سلطة على الباسدران وقوات الجيش النظامية، وصلاحيّة اتخاذ القرار في كلِّ الأمور المتعلقة بإدارة الحرب. وفي حالة تعادل الأصوات، فلممثل المرشد الأعلى ترجيح أصوات أيٍّ من الطرفين. ويُعدُّ هذا المجلس خطوةً أخرى لتهميش بني صدر والمعسكر العلماني.

وعلى الرغم من أنَّ المجلس يضم الجناحين المتنافسين، الباسدران والجيش النظامي، لكن تشكيل المجلس سمح بتنسيق أفضل للعمليات، وذلك بتأسيس تقسيم للمسؤوليات. فالجيش أصبح مسؤولاً عن القتال في أطراف المدن، بينما يكون الحرس الثوري مشرفاً على العمليات في المناطق الحضرية ممَّا يسمح له بزيادة مكانتهم وتجنيد مقاتلين أكثر. ونتيجة لذلك، انخرط نحو ألف متطوع يوميا في الباسدران في طهران وحدها. والتحق نحو مئة ألف من الشباب في البلاد كلّها خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من 1980.

وفي الوقت نفسه، كثَّف صدام حسين من قصفه لمدن خوزستان لمعاقبة الإيرانيين والضغط على طهران لإجبارها على التفاوض. وقصفت المدفعية العراقية يوميا أهدافاً في

الألوية للجهة الجنوبية

أعلن آية الله الخميني في طهران أن خورمشهر "المدينة الشهيدة"، ومؤكّد أن مثلها يجب أن يشكل إلهامًا للمقاتلين الإيرانيين. وطلب من الحكومة أن تتخذ إجراءات اجتماعية في صالح عوائل الشهداء الذين سقطوا في المدينة. وهذا أدى إلى - بعد أشهر قليلة - تأسيس مؤسسة الشهداء، وهي منظمة مخصصة لمساعدة عوائل الحرس الثوري الذين قُتلوا في جبهات القتال. وتحت ضغط رجال الدين، وبصورة خاصة من آية الله بهشتي، أمر المرشد الأعلى تأسيس مجلس الدفاع الأعلى الذي سيمارس دورًا أكثر تقييدًا للسيطرة على عمليات القوات المسلحة وتعزيز سلطة الباسدران. وفضلاً عن بني صدر، تألف المجلس من أكبر هاشمي رفسنجاني القائم بمهام ممثل المرشد الأعلى، والجنرال فلاح رئيس أركان القوات المسلحة، ووزير الدفاع، قائد القوات البرية، القائد العام للباسدران، ورئيس الوزراء، ورئيس هيئة الإعلام. وللمجلس سلطة على الباسدران وقوات الجيش النظامية، وصلاحيّة اتخاذ القرار في كلّ الأمور المتعلقة بإدارة الحرب. وفي حالة تعادل الأصوات، فلممثل المرشد الأعلى ترجيح أصوات أيّ من الطرفين. ويُعدّ هذا المجلس خطوةً أخرى لتهميش بني صدر والمعسكر العلماني.

وعلى الرغم من أن المجلس يضم الجناحين المتنافسين، الباسدران والجيش النظامي، لكن تشكيل المجلس سمح بتنسيق أفضل للعمليات، وذلك بتأسيس تقسيم للمسؤوليات. فالجيش أصبح مسؤولاً عن القتال في أطراف المدن، بينما يكون الحرس الثوري مشرفاً على العمليات في المناطق الحضرية ممّا يسمح له بزيادة مكانتهم وتجنيد مقاتلين أكثر. ونتيجة لذلك، انخرط نحو ألف متطوع يوميا في الباسدران في طهران وحدها. والتحق نحو مئة ألف من الشباب في البلاد كلّها خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من 1980. وفي الوقت نفسه، كثّف صدّام حسين من قصفه لمدينة خوزستان لمعاوية الإيرانيين والضغط على طهران لإجبارها على التفاوض. وقصفت المدفعية العراقية يومياً أهدافاً في

عبادان واهواز. وبما إن دزفول تقع خارج نطاق المدفعية، قرّر النظام العراقي قصفها بسبعة صواريخ نوع Frog في يوم 26 تشرين الأول للتأثير في السكان وتشبيط معنوياتهم. ومن الطبيعي فقد أنتجت تلك الضربات تأثيرات معاكسة. وحينما أدرك صدام حسين أن أهدافه التي وضعها لم تصل إلى نتيجة، وأنّ الوضع بدأ ينزلق إلى ورطة، أعلن خطة لجسّ نبض الإيرانيين، وصرّح "أنّ العراق مستعدّ لسحب قواته إذا اعترفت إيران بحقوقه الشرعية"⁽¹⁾. رفضت السلطات الإيرانية تمامًا، واختارت بدلًا من ذلك تعبئة فئتين عمريتين جديدتين.

شنت القيادة العسكرية في يوم 13 تشرين الأول هجومًا جديدًا على خوزستان استنادًا إلى أوامر صدام حسين. واستعدت الفرقتان الأولى والعاشره للتوجه نحو دزفول مرةً أخرى. وبعد تقدمهم أميالًا قليلةً واجهوا سدًا من النيران القاتلة، حيث قامت الفرقة المدرعة الإيرانية السادسة عشر بهجوم معاكس وضربت دباباتهم M-60 الدبابات العراقية T-55 و T-62 في معركة مفتوحة ومشوشة خرجوا منها منتصرين. وبعد خسارتها نحو ستين دبابة، أُجبر العراقيون على التراجع واللجوء إلى الضفة الغربية من نهر الكرخة. وعانى العراقيون من التنسيق المتواضع وضعف الإسناد الجوي. وخسر الإيرانيون نحو أربعين دبابةً ولكنهم أعادوا الاستيلاء على قرى ألفتان والشوش ونادري. وهذا يعدُّ نصرًا للجنرال فلاحى وللرئيس بني صدر اللذين رفعا رأسيهما عاليًا وانتهزا الفرصة لإسكات انتقادات رجال الدين.

وإلى الجنوب، تركت الفرقة المدرعة التاسعة مواقعها المتقدمة في الحميدية والتحرك بسرعة نحو أهواز. كان الإيرانيون ينتظرون هذا الهجوم لأسابيع متعددة وأغرفوا المناطق السهلية الشاسعة بين نهري الكارون والكرخة. وبكسرهم للسدود هناك، حوّلوا السهل الزراعي هناك إلى مستنقع ممتدّ، ممّا جعل الأرتال العراقية تغطس في وحله. وممّا أضاف إلى محتهم أن بدأت الأجواء بالمطر ومعلنة حلول موسم من الجو الرطب. وحولت الزخات الكثيفة الأرض إلى مستنقع مرعب وجعلت الدبابات وناقلات الاستكشاف والناقلات المدرعة في موقف مميت. وتحت نيران المدفعية ومن الجوّ نزلت طواقم تلك الآليات في الوحل إلى ركبهم وكافحوا من أجل إنقاذ آلياتهم، وترك كثير منها. ولعدم وجود

1 - وكالة الصحافة الفرنسية، يوم 9 تشرين الثاني 1980.

ما يكفي من قوات للاحتفاظ بسيطرتهم على الحميدية، اضطروا إلى إخلاء هذه القرية والحصول على مواقع لإعادة بناء خطوط اتصالات أفضل. كانت هذه الهزيمة القاسية قد ضاعفت من الإذلال الرهيب حينما دعا الإيرانيون عددًا كبيرًا من مراسلي حرب المستنقعات ليكتشفوا مشهد 150 دبابة غاطسة في الوحل ومتجهة نحو مدينة أهواز. هذه الصورة التي رآها العالم ستكون رمزًا لفشل الهجوم العراقي. تمكن الإيرانيون من استعادة هذه الدبابات وتنظيفها وإصلاحها وضمها لوحداتهم العسكرية. لم يعمل هذا المشهد على تحسين مكانة الفرقة المدرعة التاسعة التي أصبح يُنظر إليها بأنها أسوأ وحدة في الجيش العراقي. وخلافًا للتوقعات، لم يعان قائدها طالع الدوري من حنق الدكتاتور العراقي الذي يقدره ويحميه. كان الجنرال الدوري - على الرغم من عدم كفاءته وعنفه - من النوع المخلص والشجاع الذي يحبه صدام.

وفشل العراقيون في تحجيم نتوء سوسنكرد على الرغم من حساسيته لإعادة بناء خطوط اتصالات أفضل. وكلا محاولاتهم ظهرت واضحة لعناصر باسدران المتحمسين الذين صدّوا هجماتهم بانتظام. جلبت طائرات الهليكوبتر الإيرانية تعزيزات في كل ليلة إلى سوسنكرد لتعويض الضحايا. ونظرًا لتعبهم وانهايار معنوياتهم وقلة ذخيرتهم، أوقف العراقيون هجومهم واعتمدوا على مدفيعتهم لمضايقه المدينة. وكما في كل المعارك، لم تكن العمليات السوقية كما ينبغي. أدى هذا المشهد إلى اعتقال نحو عشرة ضباط الذين أُدينوا لانتهزاميتهم وإعدامهم ليكونوا مثلًا لغيرهم.

ولم تحدث أية معجزات خارج عبادان أيضًا، ولم تتقهقر دفاعات المدينة لمجرد رؤية المقاتلين العراقيين أو سماع هدير مدافعهم وبنادقهم. وهنا مرةً أخرى تم صدّ القوات المهاجمة، ولم يصرّ العراقيون وتراجعوا بحكمة إلى مواضعهم المحمية. ولأسباب غير مفهومة، لم تعمل القيادة العراقية على تطويق عبادان تمامًا. كان من السهل على اللواء البحري العراقي المرابط في الفاو عبور شط العرب والسيطرة على آرفندكينار وقطع الطريق المؤدي إلى عبادان. وكذلك يمكن نقل قوة الكوماندوز بسهولة بواسطة الهليكوبتر على طول هذا الطريق لإحكام الطوق على المدينة المحاصرة. ومرةً أخرى، كان ما يفتقر إليه المعسكر العراقي بجديّة هو عنصر المبادرة.

المبارزة الجوية فوق خوزستان

انتَهز الطيارون الإيرانيون فرصة معركة خوزستان لفرض تفوقهم. في الفترة من تشرين الأول حتى كانون الأول تمكنوا من إسقاط نحو أربعين طائرة مقاتلة، بينما خسروا تسع طائرات فقط. دَمَّرَ طيارو الفانتوم لوحدهم اثنتي عشرة طائرة، بينما تمكنت طائرات الميغ من إسقاط أربع طائرات فانتوم. وتم إسقاط طيار الفانتوم الخامس صدفة بدفاعاته الجوية. لكن حصد طيارو Tomcat حصة الأسد بإسقاط 23 طائرة للعدو (بضمنها ميغ - 23) ودون تكبدهم أية خسائر. هناك ثلاثة أسباب وراء هذا الرقم المذهل: الأول أنظمة التسليح المعقدة لطائرات Tomcat التي تجمع بين الرادار الدقيق جداً مع صواريخ Sparrow و Phoenix الطويلة المدى، وأنظمة إلكترونية فعّالة مضادة للذبذبات المعادية، فضلاً عن جهاز تنبيه طاقم الطائرة عند اقتراب طائرة العدو من نوع "Combat Tree IFF"، والسبب الثاني مهارة الطيارين الذي اعتادوا على دوامة القتال الجوي وتحليق المراوغة والتملص، فالتدريب لأشهر متعددة في الولايات المتحدة خلال حكم الشاه ولا سيَّما خلال البرنامج المعروف بتمارين "Top Gun" سرعان ما أثمر وسمح للطيارين الأوائل الذين أُطلق سراحهم من السجن استعادة تأهيلهم العمليتي بسرعة، والسبب الأخير هو دوافع الطواقم الحارة للطيران حتى النهاية للبرهنة على قيمتهم ولجعل قادة النظام يرون أنَّهم يبقون أفضل بكثير من الباسدران الذين يعدُّونهم بشكل عام من عصابات المشردين المتحمسة.

وعلى الرغم من إلحاق الأضرار بثلاث طائرات F-14 خلال تلك الاشتباكات فإنها تمكنت من العودة إلى قواعدها. وتم تقليد أحد طياريها - وهو قائد سرب - المدعو عباس حزين بأحد أوسمة التميز الرفيعة وأصبح بطلاً شعبياً. وبينما استمر النظام بالحذر من الطيارين لكنه احتاج إلى رمز للوطنية. في 26 تشرين الأول تمكن الطيار حزين من الطيران بأمان والعودة بطائرته Tomcat بعد أن تحولت طائرته إلى مجرد حطام طائر بعد اصطدامها

بأشلاء طائرة ميغ-21 التي أسقطها للتو. تمت ترقيته بسرعة إلى رتبة عقيد، وأصبح بعد الحرب أحد القادة الكبار في القوة الجوية الإيرانية.

وتميز الكابتن محمد ماسبوغ بإطلاقه صاروخًا من نوع Phoenix وإسقاطه ثلاث طائرات دفعة واحدة فوق جزيرة خرج. كان الصاروخ مصممًا لضرب طائرة قائد التشكيل في المقدمة، لكنه انفجر بينما كانت طائرة الجناحين قريبة منه جدًا. هذه المأثرة تمت بوساطة عبوة فينكس الناسفة التي تمَّ التحقق منها من الجيش الإيراني الذي عثر على حطام طائرات الميغ بالقرب من رصيف تحميل النفط. وفي يوم 29 تشرين الأول، أصبح الكابتن سيغي Seghi، وهو طيار F-14 من السرب 81 "الطيار الأول" بإسقاطه خامس ضحية له فوق عبادان. وقبل أيام قلائل، أسقط أربع طائرات ميغ بسرعة وعلى التعاقب. ولم يكن طيارو طائرات النسر خارج ذلك المشهد وإن كان مجموع ما أسقطوه متواضعًا. تمكَّن أحدهم من تدمير طائرة ميغ-23 دون إطلاق قذيفة واحدة، ولكن بإجبار عدوّه بمناورات مفاجئة على ارتفاعات منخفضة جدًا، ما أدَّى إلى ارتطام الطيار المرتبك بالأرض. وتميَّز طيارو الهلكوبتر الكوبرا بإسقاطهم طائرة Gazelle وطائرتي Mi-24.

وعلى الجانب العراقي، أنقذ قائد السرب السابع سمير عبد الرزاق ماء وجه العراق بإسقاطه أربع طائرات النسر بطائرته الميغ-21. ومن أجل رفع المعنويات العامة، عرض العراقيون حطام المقاتلات الإيرانية على ممرات متنزّه الزوراء في قلب بغداد، وتبعهم الإيرانيون بعرضهم بقايا الطائرات العراقية في ساحات المدن الرئيسية.

وفي أواخر شهر كانون الأول، وبعد ثلاثة أشهر من القتال الجوي اليومي تقريبًا، كانت النتيجة مقتل 60 من العراقيين و15 من الإيرانيين. وربح طيارو الشاه سباق السيادة الجوية فوق ميادين القتال. أصبح الطيارون العراقيون متعبين وغير متشجعين؛ بسبب خسائرهم، لكنهم استمروا في تحليقهم لفترات قصيرة فوق رؤوس جسورهم، ورفضوا الاشتباك عند رؤية مقاتلات العدو. والآن حان الوقت لدخول البحرية ميدان القتال.

المعارك الجوية والبحرية عند مصب شط العرب

وحتى الآن، لم تشارك البحرية العراقية في معركة صدام. صحيح، ولسوء التنسيق في الجيش العراقي، أنها لا تملك سوى معدات هجومية ضئيلة. وحتى لم يرأسها أدميرال بحري، بل من الجنرال المستسلم علاء حماد الدين الجنابي والعبد المطلق للنظام وخبرته البحرية الوحيدة قيادة اللواء المشاة البحري. يدرك العراقيون أن من الانتحار إرسال قواربهم للحراسة لمقاتلة الطرادات البحرية الإيرانية، والمدمرات والفرقاطات المجهزة بأسلحة ورادار أفضل كثيرًا مما عندهم.

أمّا بالنسبة إلى الإيرانيين، فقد كرسوا كلَّ اهتمامهم للدفاع عن الجبهة، والقيام بالعمليات الجوية؛ لأنهم يدركون أنهم سوف يحققون السيادة البحرية حينما يحين الوقت لذلك. والبداية كانت في يوم 23 أيلول حينما هاجمت قواتهم الجوية ميناء الفاو وإغراق كاسحة ألغام وخمس قوارب حراسة خفيفة. وبعد يومين، حاولت عدة طائرات فانتوم مهاجمة القاعدة البحرية في أم قصر، لكنها فشلت أمام نيران الدفاعات الجوية الكثيفة وأجبرتها على الهروب. وثأر العراقيون بالهجوم المعاكس وقصف قاعدة بوشهر البحرية وإغراق ثلاثة قوارب للحراسة وطراد واحد نوع PF-103. وقصفت الكثير من ناقلات النفط الذي يبلغ عددها آنذاك 62 ناقلة المحاصرة بشط العرب؛ بسبب اندلاع المعارك، وإغراق عدة منها في النهر، فضلاً عن إغراق عدد قليل من كاسحات الألغام الراسية في عبادان.

وفي اليوم الأول من تشرين الأول، أوعد الرئيس بني صدر المجتمع الدولي أنه سوف لا يعيق الملاحة في مضيق هرمز؛ لكي يتجنب تدخل القوى الغربية. ومع ذلك، أعلن محاصرة ميناءي البصرة والفاو العراقيين. وراقبت طائرات الهلوكبتر البحرية Sea King مدخل شط العرب بينما تقوم المدفعية بضرب أية سفينة ربما تحاول الهروب من النهر إلى الخليج. وفي يومي 6-7 تشرين الأول أغرقت طائرات القوة الجوية الإيرانية عدة سفن شحن في شط العرب؛ من أجل تأمين إغلاقه بالكامل. ولما

صار النهر غير صالح لاستخدامهم، الآن لا بدّ من تدمير ميناءي عبادان وخور مشهر، فمن الطبيعي كان الإيرانيون ينوون منع العراقيين من استخدامهما.

خلال الأسابيع الأولى من الحرب، اقتصر عمل البحرية الإيرانية على مراقبة الملاحة البحرية بمضيق هرمز لثني العرب والغرب من القيام بأيّ عمل غير مرحّب به قدر تعلق الأمر بجزر طمب وأبو موسى⁽¹⁾. ونُشرت أيضًا بعض الطوافات المائية في بندر خميني واستخدمت لإعادة تجهيز القوات الإيرانية المعزولة في عبادان. وامتنعت البحرية الإيرانية عن إرسال سفنها الحربية بالقرب من مصبّ شطّ العرب خوفًا من قصفها من الطيران العراقي. ففي يومي 28 و31 تشرين الأول حاولت اختبار دفاعات العدو وأرسلت أسطولًا صغيرًا يتألف من ثلاثة قوارب حراسة (جوشان، بيكان، وكاردونه) لمضايقة المنصات النفطية في الفاو بمدفعتها ذات 76 ملم. وخلال العمليتين، كانت طائرات الهليكوبتر Sea King المزوّدة برادار رصد السفن المعادية تحرس السفن الإيرانية. وفي المحاولة الثانية، ردّ العراقيون بإرسال ثلاثة قوارب Osa II مزوّدة بالصواريخ، ولم تسفر المواجهة عن أية نتائج. أطلق البحّارة العراقيون صواريخهم نوع Styx بصورة عشوائية وضمن مدياتها، ثم انسحبت بسرعتها القصوى. وتمكنت القوارب الإيرانية من تجنب الصواريخ العراقية بسهولة، ولكنها بمرور الوقت تحاول الانتقام، لكن الأعداء عادوا بأمان إلى قناة قادتهم إلى قاعدتهم في أم قصر.

وفي أواخر شهر تشرين الثاني، قرّر الإيرانيون الردّ بقوة نتيجة لقصف المدفعية العراقية مصفى عبادان وتدميره، الذي أدى إلى تقليص إنتاج الوقود إلى النصف وإجبار طهران على استيراد الغاز. ولذلك؛ قرر الإيرانيون تحييد منصات خور العمية وميناء البكر؛

1- كانت القوة البحرية الأمريكية للشرق الأوسط تنتشر في ذلك الوقت في الخليج (مدمرتان، فرقاطتان، وسفينة قيادة واحدة)، وكان أسطولها السابع يربط في المحيط الهندي (يتكوّن من حاملات الطائرات Midway و Eisenhower، حاملات هليكوبتر New Orleans، وغواصتين هجوميتين، ثلاثة طرادات حاملات للصواريخ، مدمرتين، أربع فرقاطات، ثلاث حوامات إنزال، وسفينة تموين واحدة). كان لدى البحرية الملكية البريطانية مدمرة Coventry فقط في المنطقة، بينما البحرية الفرنسية يمكنها الاعتماد على زوارق الإرسال Commandant Riviere, Victor Schelcher, Bouvet.. أما مجموع القوى البحرية لكلّ من العربية السعودية والإمارات أربعة طرادات وخمسة عشر زورقًا حاملًا للصواريخ.

لتصدير النفط، التي من خلالها يصدر العراق ثلثي إنتاجه من النفط الخام. ولأجل القيام بذلك، خطَّط الإيرانيون لسحب البحرية العراقية إلى المياه المفتوحة والسماح للقوتين البحرية والجوية بضربهما وتمزيقهما. كان هدف طهران خنق الاقتصاد العراقي وإجبار بغداد على الانسحاب. وللمرة الأولى منذ اندلاع الحرب، قرَّرت رئاسة الأركان الإيرانية خوض عملية لكلِّ الجيش التي سُميت "مورفايد" أي اللؤلؤة، حيث تشترك القوات البحرية والبرية والجوية في آنٍ واحد. كُلف بالصفحة الأولى من العملية الكابتن البحري بهرام أفضلي الذي قاد البحرية بعد إزاحة الأدميرال مدني قبل أشهر قليلة.

وبعد حلول ليلة 27 تشرين الثاني 1980، ظهرت فجأة وحدة كوماندوز بحرية محمولة بطائرات هليكوبتر نوع شينوك فوق منصات النفط في خور العُمية وميناء البكر. وكانت طائرة EC-130 تحمل أجهزة إلكترونية تحلق بالقرب من الموقع للتشويش على الاتصالات العراقية. انزلق مقاتلو النخبة في البحرية على أهدافهم بالحبال والاشتباك في معركة مع عددٍ قليل من الجنود الذين كانوا يتولون الدفاع عن المنصات. ودعمت المهاجمين نيران طائرات الهليكوبتر الكوبرا التي تطوَّق منصات النفط وأنزلت بها ضربات دقيقة ومميتة من خلال نظارات الرؤية الليلية التي كان يرتديها كلُّ من الطيارين والمدفعيين. وانتهت المعركة بالقتال بالأيدي، لكنَّ الإيرانيين تمكنوا من السيطرة على المنصات. وبعد أقلَّ من ساعة، غادرت ثلاث طوافات مائة جزيرة خرج وبحراسة القوارب جوشان وبيكان، وشكَّلوا قوة قتالية برقم 421 وتم دعمها بثلاث طوافات أخرى من ميناء بندر خميني. أنزلت الطوافات تعزيزاتها والمتفجرات على المنصات التي زُرعت بالكامل بتلك المتفجرات. وبعد أن صعدوا على الطوافات مع قتلاهم وجرحاهم وأسراهم قاموا بتفجير كلِّ شيء هناك في كتلة هائلة من النار. وخلال ساعات قليلة خسر العراقيون قدرتهم على تصدير النفط المستخرج من منطقة البصرة في ضربة قاضية لمجهودهم الحربي.

وبينما كان الكوماندوز عائدين إلى ميناء بندر خميني اقترب قاربا الحراسة جوشان وبيكان من مصبِّ شطِّ العرب في تحدِّ للبحرية العراقية. كان قارب ثالث يُسمَّى "زوبن" يبحر على بعد خمس عشرة عقدة بحرية إلى الغرب من جزيرة خرج على استعداد لاستبدال

أي من القاربين إذا غرق، وكان يقف على أهبة الاستعداد لنجدتهم طرادين نوع PF-103 وقاربي مقاتلين نوع class II - تاركين قواعدهم في بوشهر.

قُوبل هذا الهجوم بفزع شديد في مقرات القيادة البحرية العراقية في البصرة. لم يفكر أي شخص أبدًا أن الإيرانيين سيقومون بمثل هذه الحركة الوقحة والمتهوره، وكان التوقع أن تقتصر حركتهم على قصف مدفعيتهم لخور العُمية وميناء البكر، ولم يتمكنوا مطلقًا من المخاطرة بشنّ إنزال أرضي. تم إيقاظ الجنرال الجنابي في منتصف الليل الذي حاول جمع شتات المعلومات المتوافرة لديه. أفادت محطة رادار الفاو بوجود قاربي حراسة إيرانيين بعيدين عند مصب شط العرب، والفرصة الآن أفضل من أن تذهب سدى. أمر الجنرال الجنابي مباشرةً بنشر كل ما لديه من طواقم، وكل ما لديه من سفن كفاءة. وقبل الفجر بوقت قصير، انطلقت أربعة طوربيدات P-6 من الفاو، وغادرت خمس قوارب حاملة للصواريخ نوع Osa-1-11 قاعدتها في أم قصر لقصف جزيرة بوبيان في محاولة لضرب قوارب الحراسة الإيرانية من الخلف قامت القوارب الإيرانية بمناورة أغرت العراقيين تمامًا، كما لو أنها هربت باتجاه خور العمية وميناء البكر، فأثارت تلك المطاردة حماسة البحّارة العراقيين، وأسرعوا لإطلاق أول دفعة من صواريخهم نوع Styx. ألقى الإيرانيون معدات وهمية، وأدّوا حركات مراوغة متعاقبة للتخلص بسهولة من الصواريخ. أدّى قائد القارب جوشان انعطافه حادّة والاختباء خلف صفائح معدنية مدمرة، ما أدى إلى تداخل ذبذبات راداره مع ذبذبات رادار منصة النفط المدمرة في الليلة الماضية. كان ينسحب من فترةٍ لأخرى من المنصة لرصد العدو ويطلق النار عليه بصواريخ Harpoon المعروفة بأنها أكثر ملائمة ودقةً من صواريخ Styx الثقيلة المحمّلة بالقوارب العراقية. ولذلك؛ نجح القارب جوشان بإغراق قارب P-6 العراقي الذي كان يطارده، وإبعاد قاربين آخرين حاملين للصواريخ نوع Osa. وخلال سلسلة من إطلاق النار، تمكن القارب جوشان من العودة إلى حماية الكتلة المعدنية الهائلة التي كانت ترسل ذبذبات الرادار العراقية. وإلى الجنوب منه أتبع قائد القارب بيكان الأسلوب نفسه، واتخذ من بقايا الأنقاض المدمرة لمنصة النفط بميناء البكر مخبأً له.

واستمرَّ قارباً الحراسة الإيرانيان بممارسة اللعبة نفسها "التخفي والبحث" عدة ساعات؛ لكبح أعدائهم والتمكُّن من إغراق قاربين عراقيين نوع Osa بصواريخهم Harpoon. وعلى الجانب العراقي، كان الحذر سيد الموقف، أطلق قائدا القاربين الآخرين نيرانهم بصورة عشوائية في محاولة لإبقاء أعدائهم في أماكنهم في الوقت الذي ينتظرون تدخل القوة الجوية. وأخيراً، ألحقت الأضرار بالقارب بيكان بانفجار صاروخ Styx بالقرب منه. وحلقت طائرتا SU-22 العراقيتان مرتين فوق القوارب الإيرانية لكنهما فشلتا في قصفهما؛ لأنَّ الطيارين العراقيين غير مدربين على مهاجمة الأهداف البحرية. وبدلاً من ذلك، كان تطاير شظايا من برج مدفعية بيكان 76 ملم أدت إلى تدمير إحدى طائرات SU-22. وفي البصرة، أمر الجنرال الجنابي إحدى سفنه الهجومية LSM بالتوجه نحو خور العمية وميناء البكر لاستعادة السيطرة على المنصتين وتقييم الأضرار. نقلت هذه سفينة الإنزال هذه المجموعة البحرية العراقية من السباحين المقاتلين وسرية مشاة بحرية تم تجميعها بسرعة، وبحراسة قاربين نوع Osa-II مجهزين بالصواريخ الذين تمكنا من الانطلاق في وقت مبكر من اليوم بعد تجميع طاقم مخفض وبشكل عشوائي.

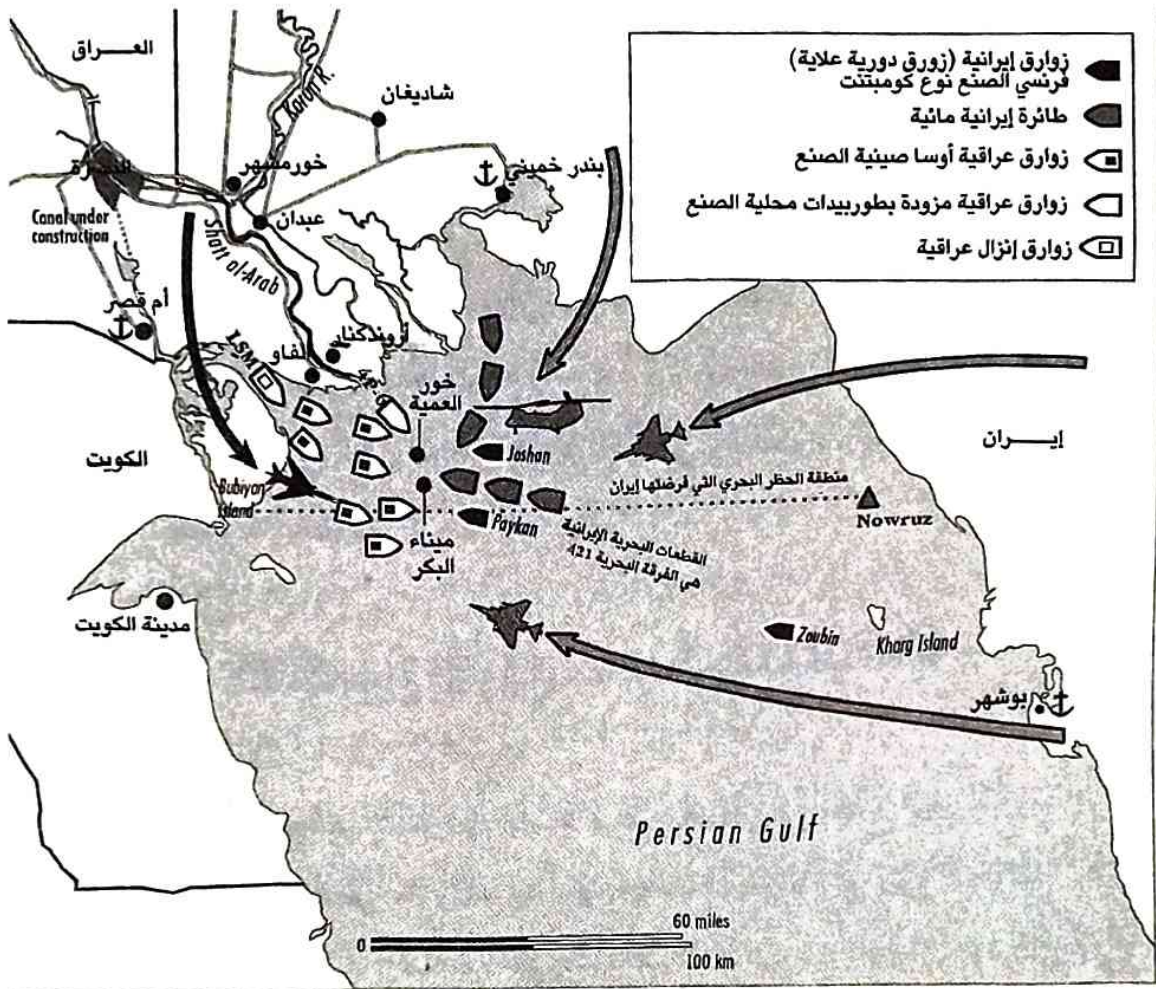
وفي هذا الوقت، أصبح القاربان الإيرانيان يعانيان نقصاً في الذخيرة، وطلبوا السماح بالانسحاب، لكن طلبهما رُفض؛ لأنَّ عملية "مورفاريدي" اللؤلؤة دخلت مرحلتها الجوية، وكان رئيس أركان القوة الجوية العقيد جواد فاكوري يحتاج القاربين لمشاغلة العدو في مكانهما ومراقبة المنطقة. وعند منتصف الصباح ظهرت فجأةً فوق المياه عدة طائرات فانтом انطلقت من قواعدها في شيراز وبوشهر وإرشاد من القاربين جوشان وبيكان وكذلك طائرة Tomcat الاعتراضية يقومون بدور محطة رادار. كانت الطائرة في المقدمة بقيادة قائد السرب عباس دوران، وهو الضابط الذي خطط لعملية "قوس قزح" قبل عدة أسابيع وشارك في كلِّ المهمات الحساسة.

اختار دوران هدفه بدقة وأطلق صاروخ Maverick الموجه ودمر قارب طوربيد P-6 وأغرق قائد جناحه آخر قاربي طوربيد ودون أية مقاومة تذكر. أدرك قادة القوارب الثلاثة نوع Osa في الموقع أنَّ الوضع قد تغيَّر جذرياً، وخاطروا بكلِّ شيء وتوجهوا نحو القارب

الإيراني بيكان بأقصى سرعة بهدف تدميره. أطلقوا عليه أربعة صواريخ بهدف مشاغلة دفاعاته، لكن بيكان الذي لم يستطع الرد وبدأ بالانحراف والميلان بصورة خطيرة تمكن بمراوغته التخلص من الصاروخ Styx الأول، لكن الصواريخ الثلاثة الأخرى أصابته مباشرة، ما أدى إلى تدميره تمامًا. الآن توجهت القوارب Osa الثلاثة نحو القارب جوشان الذي تسلّم الأمر بالسماح له بعرقلة الاشتباك واللجوء إلى ميناء بندر خميني. أطلقت القوارب العراقية آخر ما تملكه من صواريخ لكنها أخطأت الهدف. بعد ذلك ظهرت أربع طائرات ميغ-23 فوق منطقة القتال وحاولت إغراق جوشان. ولكن سرعان ما رصدتها طائرات Tomcat التي كانت توفر الغطاء الجوي لجوشان وأسقطت إحداها، وطردت الأخرى. وفي الوقت نفسه، ظهرت مجموعة من الفانتوم المزودة بصواريخ مافريك فوق الموقع، واشتبكت مع قوارب الطوربيد Osa الثلاثة الباقية وأغرقتها. ولكن كان لدى الطواقم العراقية الوقت لإطلاق صواريخ سام-7 المحمولة على المقاتلات الإيرانية وإسقاط إحداها، وإلحاق الأضرار الكبيرة بالثانية وإن تمكن طيارها من العودة بها إلى القاعدة لمهارته بشكل خاص. وفي المساء، هاجمت طائرات القوة الجوية الإيرانية السفن العراقية التي غادرت لتوها أم قصر متوجهة إلى الخليج. وتمكنت طائرات الفانتوم من إغراق سفينة الهجوم البرمائية، ما أدى إلى اضطراب قوارب الحراسة المرافقة التي أسرعت بالعودة إلى قاعدتها بالسرعة القصوى. وفي عصر وغروب ذلك اليوم، قصفت طائرات القوة الجوية الإيرانية مرافق ميناء الفاو ودمرت الكثير من قوارب الحراسة الخفيفة وطائرة هليكوبتر بحرية نوع Super Frelon. ونتيجة لتعلمهم من هزائمهم السابقة، تجنب الطيارون الإيرانيون وبحذر الوصول إلى قاعدة أم قصر البحرية المحمية جيدًا. على أية حال، كانت قوارب الطوربيدات التسعة المتبقية منتشرة في ملاجئ كونكريتية ومقاومة إلى حد كبير.

وبحلول مساء يوم 28 تشرين الثاني 1980، لا يمكن إنكار نتائج المعارك، فبعد خسارة الإيرانيين قارب الحراسة بيكان، وطائرة فانتوم ونحو اثني عشر من الكوماندوز، تمكن بحارتهم وطياروهم من تدمير منصتين لتصدير النفط، ومقتل أكثر من مئة مقاتل عراقي، وإسقاط طائرتين. فضلًا عن إغراق خمسة قوارب حاملة للصواريخ، وأربعة قوارب

طوربيد، وثلاثة قوارب خفيفة، وسفينة برمائية هجومية حمولة 800 طن. وتباغت البحرية الإيرانية بإنجازاتها، على الرغم من أنها تدين بأغلبية نجاحاتها إلى رفاقهم في القوة الجوية (سيصبح يوم 28 تشرين الأول اليوم الوطني للبحرية في إيران). وهكذا، احتفظت البحرية بوجود رادع حول منصة خرج للنفط وتتكوّن من ثلاثة قوارب حاملة للصواريخ، وطرادين. وبذلك أصبح حصار العراق بحريًا خانقًا الآن.



خارطة عملية مورافيد "اللؤلؤة" (27-28 تشرين الأول 1980)

كانت الهزيمة العراقي قاسية، وأدركت البحرية العراقية أنّ أيّ خروج لها سيكون خطرًا إلى حدّ كبير. وتوصلت إلى نتيجة منطقية أنّه لا يمكنها العمل إلا في الليل؛ لكي تتجنب الضربات الجوية. وباستثناء بعض الخروج المؤقت، قضت البحرية العراقية أغلبية

فترة الحرب راسية بأمان في قاعدتها بأمر قصر، بينما قامت وحدات المشاة البحرية بتعزيز دفاعات البصرة والقاو. وفي النهاية، تمكنت الأدميرالية العراقية من استعادة السيطرة على منصتي النفط المدمرتين والاحتفاظ بحامية كوماندوز بحرية هناك. ونصبت جهاز رادار في خور العمية الذي سيسمح لها بزيادة إمكاناتها للرصد في منطقة الخليج. أنقذ الجنرال الجنابي نفسه - ولو إلى حين - بالاعتراف بفشله أمام الدكتاتور العراقي. وفي الواقع، كان صدام حسين يدرك - ودون أدنى شك - أن بحريته لا يمكنها كسر الحصار الذي فرضته البحرية الإيرانية.

وضعت هذه الهزيمة على أكتاف القوة الجوية العراقية المسؤولية الكاملة لمهاجمة التجارة البحرية الإيرانية. وأدت إلى تسريع العمل ببناء القناة التي تربط أم قصر بالبصرة، ولا سيما أن التجول البحري في شط العرب أصبح مستحيلًا تمامًا. وإن الحاجة لهذه القناة لأنها ستسمح بإخلاء قوارب الطوربيد الست، وكاسحات الألغام الست، وستة قوارب حراسة التي كانت محصورة في البصرة وإخراجها إلى أم قصر، وكذلك إعادة تجهيز الميناء بالسفن ذات الحمولة الخفيفة.

التخمين الأولي محبط جدًا لبغداد

كانت طلائع الضباب المتجمد لشتاء مبكر وممطر في مطلع شهر كانون الأول نذير شؤم لطموحات صدام حسين، وأشارت نهاية الصفحة الأولى من الحرب. لقد خسر العراقيون قارب النصر، والآن أصبحوا على الجانب الدفاعي من الحرب. وتمكن الإيرانيون من تعزيز خطوط جبهتهم بشكل كبير، جاعلين أي خرق عراقي لها مجرد وهم. وفي مواجهة اثنتي عشرة فرقة عراقية على الجبهة، أصبح الآن لدى الإيرانيين ما يساوي ثماني فرق من الجيش النظامي وثلاث فرق من الباسدران. وعلى كل حال، معظم الطرق الآن غير سالكة، والإيرانيون يملكون اليد العليا في البحر والجو، حتى إنهم تجاسروا في يوم 10 كانون الأول بشن هجوم مضاد في منطقة دارخوفين لفك الحصار عن عبادان. لكن الهجوم فشل بسبب

التسيق البائس، ولكن نجحوا في تقليص مساحة رأس الجسر العراقية على الضفة الشرقية من نهر الكارون.

وبعد ثلاثة أشهر من اندلاع المعارك، كان الجيش العراقي يسيطر على 4130 ميلاً مربعاً (10,700 كم مربع) من الأراضي الإيرانية (أقل من 1%). وقد تغلغل في الأراضي الإيرانية بعمق أقل من 20 ميلاً (نحو 30 كم)، على الرغم من أن الامتداد يصل إلى 45 ميلاً (سبعين كم) باتجاه دزفول، و50 ميلاً (80 كم) باتجاه أهواز. ومع ذلك، وباستثناء خورمشهر، فالعراق فشل في الاستيلاء على أي من المدن الكبيرة التي كان يهدف أصلاً في السيطرة عليها، مثل: عبادان، دزفول، وكرمنشاه. وقد أدرك صدام حسين أنه لا يمكنه أن يربح الحرب، إلا إذا امتلك القنبلة الذرية، والتسجيلات الصوتية التي تم الاستيلاء عليها في بغداد بعد العام 2003 تؤيد ذلك. ويجب عليه الآن عمل كل شيء حتى لا يخسر الحرب، حتى وإن كان ذلك يعني القبول بالانسحاب الذي يحفظ له صورته ومكانته بوصفه قائداً معترفاً به للعالم العربي. وأدرك دكتاتور العراق أن الحرب الآن قد طال أمدها. ولكي تبقى الحرب مقبولة للطبقات الوسطى العراقية التي تشكل أغلبية صفوف حزب البعث، فيجب أن تبقى تأثيراتها المنظورة محدودة. وكّرّس صدام حسين جهوده للحفاظ على ما يشبه الحالة الطبيعية في الحياة اليومية العراقية. وأبقى على الجنود في الخدمة آنذاك، ولكن رفض إعلان التعبئة العامة. واستمرّ في ضخّ أموال النفط في المجتمع، وتابع سياسة تنفيذ المشاريع العامة، وأمر التسريع لإكمال بناء المفاعل النووي أوزيراك، وفي الوقت نفسه أقنع ملوك وشيوخ الخليج بتمويل المجهود الحربي العراقي؛ بسبب انهيار موارده المالية من النفط؛ لأن الاحتفاظ بجيشه في الجبهة مكلف بشكل كبير.

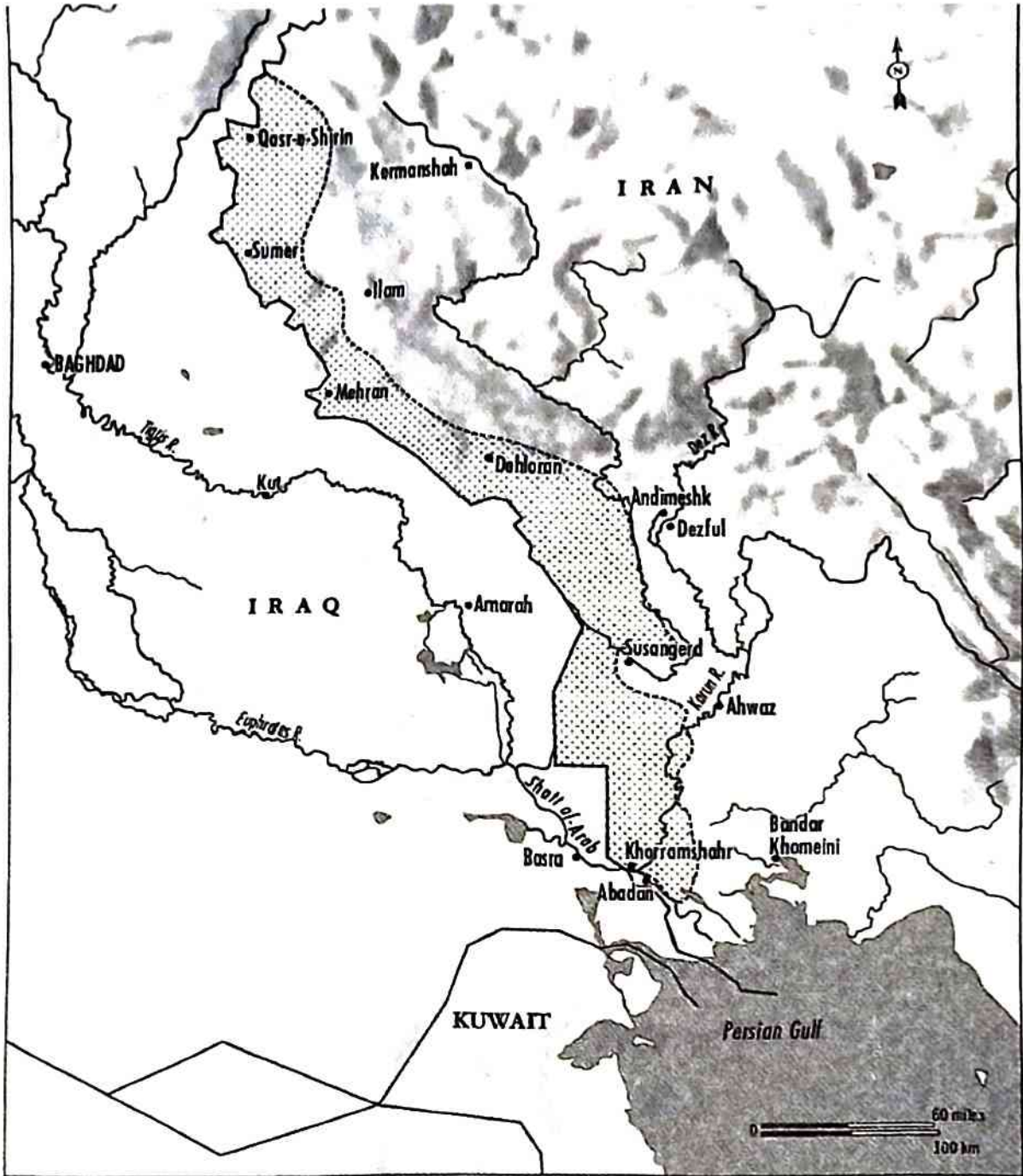
وبعد مناقشات مكثفة مع وزير دفاعه حول كيف يُبقي العراق خسائره ضمن الحدود المقبولة، قرّر صدام حسين التوقف عند ما حصل عليه ومن دون البحث عن مكاسب إضافية، فعدد الضحايا لا يزال قبولاً آنذاك (أربعة آلاف من القتلى وعشرة آلاف جريح ومئات قليلة من الأسرى)، ولكن لا يسمح لها بالارتفاع. ومن جانب آخر، كانت الخسائر المادية جسيمة إلى حدٍّ بعيد: 450 دبابة، 350 ناقلة مدرعة، 80 طائرة (31 ميغ-21، 20 ميغ-23،

11 سو-20، 9 سو-22، 3 سو-7، 3 تيو-22، 2 هنتر، واحدة تيو-16)، و40 طائرة هليكوبتر (17 غزال، 10 Mi-24، 8 Mi-8، 2 Mi-4، 2 Alouette-III، واحدة Super Frelon).

وهناك نحو ثلاثين مقاتلة عراقية متضررة ولا يمكنها التحليق. ويتدمير أو تحييد 110 طائرات، خسر العراقيون أكثر من ثلث قوتهم الجوية. بقي لديهم 180 طائرة مقاتلة فقط ثلثها على الأرض بحاجة إلى صيانة دورية. والبحرية تم تدمير عشرينها. ومع ذلك، ويمكن تعويض هذه الخسائر المادية من شحنات الأسلحة الجديدة، والمعدات التي تم الاستيلاء عليها (مثلاً، استولى العراقيون على نحو مئة دبابة إيرانية).

وفي الوقت الذي لم يحصل دكتاتور العراق على قرار إيراني بقوة السلاح، صمّم على إجبارهم على التفاوض من خلال قصف السكان والبنية التحتية النفطية. في 24 كانون الأول شنت الطائرات العراقية هجومها لأول مرة على منصبة النفط في جزيرة خرج المسؤولة عن تصدير 80% من نفط إيران. أجاب الإيرانيون بقصف مصفى البصرة. كانت النتيجة خسارة مورد مالي كبير لكلا الجانبين، أربعة مليارات دولار للعراقيين، وستة مليارات دولار للإيرانيين لسنة 1980 لوحدها.

في إيران، رأى النظام أنّ عليه الاستعداد للأسوأ، وتمكن حتى الآن وبشكل ما من احتواء تأثيرات الغزو العراقي، على الرغم من أنّهم خسروا بعض الأراضي. ففي خارج خورمشهر وعبادان تمكّن الجنود الإيرانيون من تجنب ورطة المواجهة الجامدة، وتبنوا حركات عملياتية تسمح لهم إبطاء التقدم العراقي وتقليص خسائرهم. ونتيجة لذلك، كانت الخسائر أقل مما توقعه العسكريون؛ 4500 قتيل، 12 ألف جريح، ومئات قليلة من الأسرى، مجرد أكثر بقليل من خسائر عدوّهم. ومن ناحية أخرى، كانت خسائرهم المادية أقل من خسائر العراقيين: 250 دبابة، 150 ناقلة مدرعة، 60 هليكوبتر (32 كوبرا، 27 AB-205 /212s، وواحدة CH-47)، 30 مقاتلة (F-4 18 فانتوم، و12 Tiger)، وعشرين طائرة مقاتلة أخرى متضررة وبضمنها ثلاث طائرات Tomcat وبضع طائرات نقل. كان الإيرانيون يأملون تعويض تلك الخسائر من خلال إصلاح الطائرات المتضررة من المعدات الجديدة المخزونة عميقاً في حظائرهم. وخطّطوا لإصلاح 120 دبابة استولوا عليها من العراقيين.



خارطة الجبهة في أواخر شهر كانون الأول 1980

وفوق ذلك، كانت الحكومة الإيرانية تواجه تحديات كثيرة. كان عليها أن تقاتل كل أولئك الذين يريدون إسقاطها، وأولئك الذي يكافحون من أجل استقلالهم. وعليها أن تحافظ على التوازن بين محوريها - المعسكرين العلماني والديني - وأن تجد حلاً للنزاع

على السلطة بين رجال الدين الراديكاليين والرئيس بني صدر. وعليها أيضًا تدبر التنافس المتزايد بين الباسدران والجيش النظامي، وتتولَّى مسؤولية الملايين من اللاجئين الذين فروا من مناطق القتال واكتظَّت بهم ضواحي المدن الكبيرة، والعيش في ظروف قدرة لأشهر متعددة. وأخيرًا، كانت بحاجة للتعامل مع الصعوبات المتزايدة في الحياة اليومية، ولا سيَّما أنَّ أمد الحرب يوحى بطول فترتها وكلفتها العالية، وأنَّ موارد الجمهورية الإسلامية المالية أكثر شحًا؛ بسبب انهيار الإنتاج النفطي. وعلى عكس النظام العراقي الذي توجَّه لإدانة مجهوده الحربي من طريق الائتمان والاعتماد على المساعدات المالية ومبالغ الدفع الكريمة التي تمَّت الموافقة عليها من البلدان المساندة له، اعتمدت الحكومة الإيرانية على نفسها، ولا سيَّما بعدم استعداد أيِّ بلدٍ ثري لمساعدتها. وسيتعيَّن عليها إصلاح التمويل معًا والادخار والاستثمار وإدارة الموارد المالية.

الفصل العاشر

طرفا القتال يتبادلون المبادرات

بدأت السلطات الإيرانية في مطلع شهر كانون الثاني 1981 التخطيط لاستعادة جميع الأراضي التي استولى عليها الجيش العراقي تدريجياً. واستناداً إلى رئاسة أركان القوات المسلحة أنه لا يمكن شئ مثل تلك العملية قبل حلول فصل الربيع؛ من أجل إتاحة الفرصة للقوات المسلحة من إعادة تنظيم نفسها، ودعم قواتهم، وإصلاح المعدات المتضررة والمستولى عليها، وتحسن التنسيق بين القوات النظامية والحرس الثوري، والأكثر أهمية انتظار الفصل الجاف وحلول الطقس المناسب. لم يشارك هذا الرأي رجال الدين في طهران؛ لأنهم بحاجة إلى أيّ نجاح أولي، وإن كان رمزياً لإسكات السخط الشعبي الذي تراكم بسبب الثورات المختمرة في كردستان وأذربيجان الإيرانية. ولم يتحمل رجال الدين الانتظار حتى حلول فصل الربيع. ولذلك؛ تحرك آية الله بهشتي رئيس مجلس أمناء الثورة وبدعم من أكبر هاشمي رفسنجاني، الناطق باسم البرلمان وقائد الباسدران وطلب من المرشد الأعلى تسوية المسألة لصالحهم. فقد علموا من خلال التقارير أن الجيش العراقي متعب إلى حد كبير. كانوا مقتنعين، ولو بطريقة ساخرة، أنهم سيربحون من الجانبين. فإذا نجح الهجوم المعاكس فإنهم سيدعون مسؤوليتهم عن الانتصار، وإذا فشلوا فإنه سيكون خطأ القوات النظامية ومسانديها من العلمانيين. ولم يدخر آية الله

الخميني وسعًا للاقتناع وضغط على الرئيس بني صدر الاستعداد لشنّ عملية عسكرية واسعة النطاق كلما أمكن ذلك.

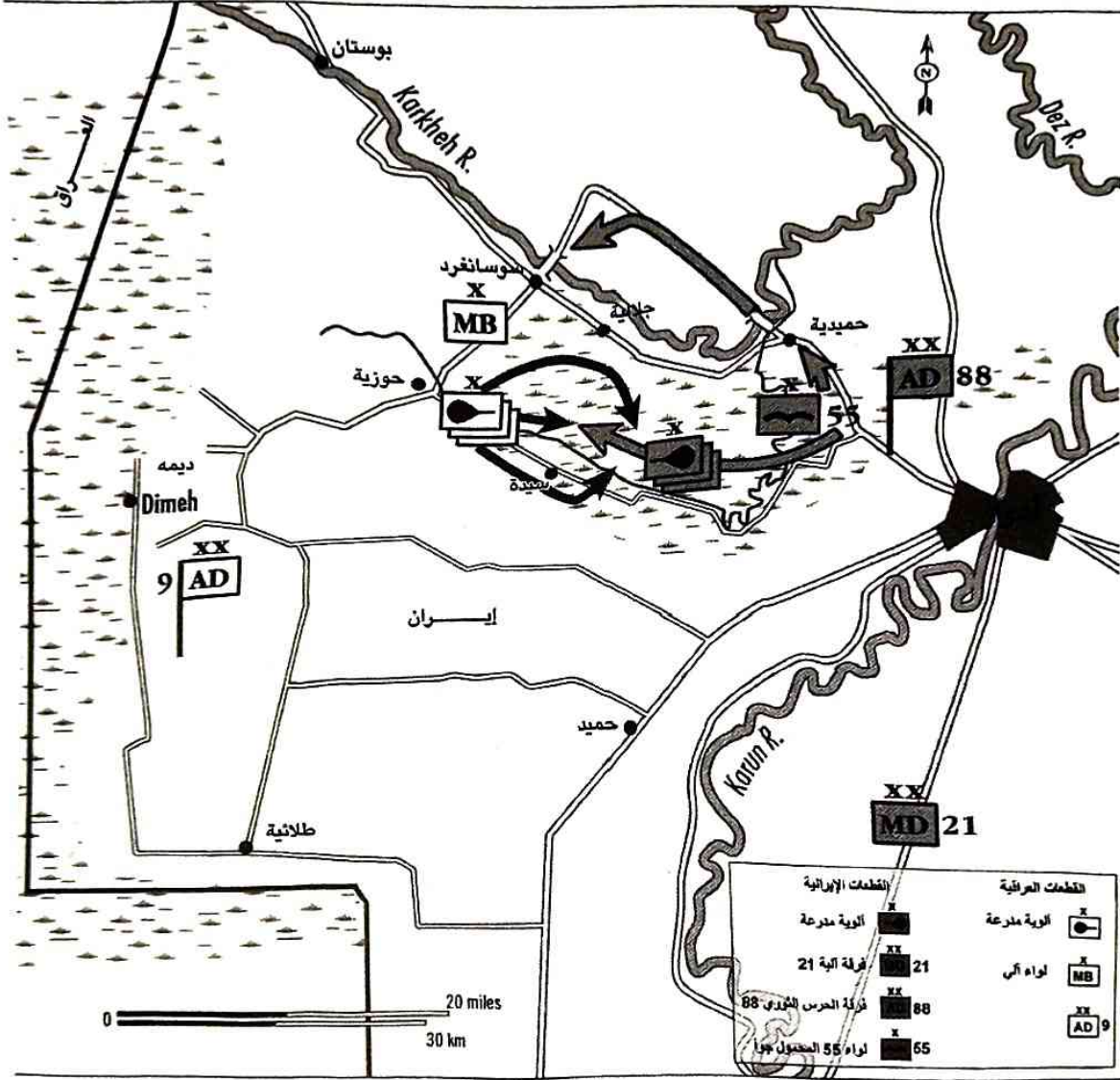
فشل أول هجوم معاكس إيراني

خطت القيادة العسكرية العليا بشكل طارئ لعملية "الحويزة"، سُميت باسم مدينة صغيرة كانت هدف الهجوم المعاكس، وتقع على حافات الأهوار التي تشكل الحدود العراقية الإيرانية في خوزستان. جمعت القيادة العسكرية وبسرعة القوات الضرورية للهجوم الذي سيشنُّ من الحميدية. ومن أجل ضمان دبابات كافية، أمر الجنرال فلاح اللواء 88 ليتحوّل إلى فرقة مدرعة من خلال إمكاناته الخاصّة به. ضمت الفرقة المدرعة الجديدة الكتائب المبعثرة من الفرقة 92 التي دُمّرت كثيرًا في قتال فصل الشتاء الماضي، وبذلك تمّ تجميع ما مجموعه 280 دبابة Chieften. ومع ذلك كانت هذه الفرقة تفتقر إلى قوات استطلاع، وكتائب آلية وحتى إلى المدفعية. وكُلِّفت هذه الفرقة بقيادة الهجوم على الحويزة وبدعم من اللواء المظلي 55 الذي سيوفر الإسناد بالمشاة بينما تبقى الفرقة المدرعة 16 في المؤخرة على أهبة الاستعداد للتحرك. وحالما يتم الاستيلاء على الحويزة، يحتاج الإيرانيون أكبر عدد ممكن من الدبابات للضغط جنوبًا باتجاه الكارون وتطوير الوحدات العراقية المنتشرة على ضفاف النهر وعزل الفرقة الآلية الخامسة التي تطوّق آنذاك مدينة عبادان. كان الإيرانيون يأملون من عملهم هذا إجبار الفرقة على التراجع عبر النهر ويسمح لهم السيطرة على طريق أهواز - عبادان. بينما يقوم المظليون بمهاجمة العراقيين من الخلف الذين ما زالوا يحاصرون سوسنكرد. وستدخل الفرقتان الآليتان 21 و 77 الميدان فقط عند تمشيط الطريق على نهر الكارون والمساعدة في كسر الحصار على عبادان. وعلى هوامش هذه المبادرة المركزية، كانت القيادة الإيرانية تخطّط لعمليتين أخريين محدودتين في الجبهة الوسطى بهدف إنهاء الدفاعات العراقية وإعادة الاستيلاء على جزء من أراضيهم التي خسروها.

انتهزت القيادة العسكرية الإيرانية العليا فرصة حلول الجو المناسب في يوم 5 كانون الثاني 1981 البدء بشنّ عملية الحويزة التي فشلت منذ بدايتها. فقد أجبر الإيرانيون على التحرك ببطء، والالتصاق بالطرق المحددة في محاولة لعدم الوقوع في المستنقعات التي سبق وأن أحدثوها قبل شهرين بإغراقهم الأراضي الزراعية الممتدة بين نهري الكرون والكرخة. وكان الطقس البارد والوحل يعملان ضدّهم، وعلى الألوية الثلاثة التي تشكل الفرقة المدرعة 88 أن تتقدّم في رتلٍ واحدٍ، ويتبعها اللواء المظلي 55. كان هذا الرتل الكبير الذي يمتد نحو عشرة أميال (نحو 15 كم) محمياً بست عشرة طائرة هليكوبتر كوبرا. وهذا كل ما يتوفر للإيرانيين في هذا القاطع من الجبهة. وبالمقابل، كان لدى العراقيين الفرقة المدرعة التاسعة التي تمّ دعمها للتوّ بلواء الدبابات T-62 الذي ألحق بها من الفرقة الثالثة القريبة من خورمشهر، وتحت تصرفهم الآن 240 دبابة ونحو ستين ناقلةً مدرعةً أخرى.

شعر العراقيون بوجود الإيرانيين من طريق طائرات الهليكوبتر، ورصد الرتل المدرع مباشرة. صدرت الأوامر للجنرال الدوري قائد الفرقة التاسعة بإيقافهم. وأرسل على الفور لواء الدبابات الأول لمواجهة العدو على طول الطريق الممتدّ من جليلة إلى سيدة، وإجبار الإيرانيين على المناورة في أراضٍ وحلة في غير صالحهم. اشتبك الطرفان في وقت مبكر من عصر يوم 6 كانون الثاني، حيث أوشكت على البدء أكبر معركة للدبابات منذ حرب حزيران 1967 (حرب يوم كيبور). وحالما شاهد العراقيون الحرس الإيراني المتقدم تظاهرت طواقم الدبابات العراقية بالتراجع وأطلقت قليلاً من قذائفها لإبطاء العدو ولتحديد مواقعهم. وتطبيقاً للأوامر المستلمة، خسروا نحو نصف ميل (كيلومتر واحد) تقريباً، وأعادوا بناء مواقعهم على خط دفاع جديد الممسوك من أغلبية لوائهم في كمين خلف المرسى بناء المهندسون العسكريون في ساعات قليلة. ولاعتقاد الإيرانيين أنّهم يتعاملون مع رتل للاستطلاع فقط، أمر قائد الفرقة المدرعة اللواء المتقدم بمطاردة الدبابات العراقية، وهذا ما أوقعهم في المصيدة فوراً، حيث تعرضت طواقمهم إلى نيران دبابات العدو الكثيفة التي كانت تختبئ بعناية خلف المرسى. وفي محاولة لتطويق العراقيين فإنّ عدة آليات إيرانية غاصت في الوحل وأصبحت هدفاً سهلاً. وما تبقى من القوة الإيرانية قصفتها دبابات

اللواءين العراقيين اللذين وصلا لتوَّهما إلى ميدان المعركة. ووضعتهم هذه التعزيزات بشكل متعامد مع خطَّ الهجوم الإيراني؛ من أجل مهاجمتهم من الخلف.



خارطة عمليات الحوزة (5-8 كانون الثاني 1981)

وسرعان ما تم تدمير عَشْر الدبابات الإيرانية دون رحمة وعلى التعاقب؛ لأنَّها لم تُدعم من المدفعية ولا من المشاة وفي مواجهة في المقدمة ومن الأجنحة. وعند حلول الليل هرب القلة من بقي منهم على قيد الحياة. خسرت الفرقة 88 ما يعادل لواء دبابات كامل. ولكن القائد الإيراني كان مصمماً على اختراق صفوف العدو، وأنزل إلى المعركة لواء الدبابات

الثاني الذي شنَّ هجوماً شرساً على مواقع العدو في فجر يوم 7 كانون الثاني، لكنه تعرَّض مباشرةً لقصف مدفعي أمطر المنطقة بالقذائف ولسحب الدبابات الإيرانية إلى شبكة مصيدة شكلتها الألوية العراقية الثلاثة. ومع ذلك، تمكنت طواقم الدبابات Chieften المنهكة المناورة والاشتباك مع الدبابات T-55 و T-62 في قتال غالباً ما ينتهي عند نقطة لا معنى لها. فخلال اليوم كانت الدبابات الإيرانية والعراقية تطارد الواحدة للأخرى في قتال جهنمي، يتعثر بين الدبابات الغاطسة في المستنقع وحطامها، والتوقف فجأةً لإطلاق وابل من القذائف على دبابة مقابلة والقصف العشوائي لضرب الطواقم التي تحاول العودة إلى خطوطها بحالة يائسة بعد تركهم ألياتهم المتضررة أو المدمرة، وغوص أقدامهم في الوحل في البرد القارص. وفضلاً عن هذه الفوضى العارمة، كانت طائرات الهليكوبتر الكوبرا والغزال تهدر بمحركاتها التوربينية فوق أرض المعركة وتطلق صواريخها بصورة عشوائية. وتوقفت الاشتباكات في الليل بعد أن خسر كلُّ طرف ما يقرب من ثلاث كتائب من الدبابات. وبدلاً من أن ينسحب بحذر لتجميع قواته وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أصرَّ قائد اللواء 88؛ لأنه كان مقتنعاً أنَّ العراقيين على شفا الاستسلام وقرر إنزال آخر لواء لديه إلى المعركة. ففي صباح يوم 8 كانون الثاني شنت طواقم الدبابات الإيرانية هجومها الثالث ودون أن يحققوا أي نجاح يذكر أكبر من اليوم السابق، على الرغم من أنَّهم قللوا من خسائرهم بالتعلم من جولات فشلهم السابقة. وفي عصر ذلك اليوم، لم يبقَ خيار لمن تبقي من الفرقة المدرعة 88 سوى التراجع. كانت الهزيمة قاسيةً للإيرانيين الذين فقدوا 214 دبابةً وثمانية طائرات هليكوبتر كوبرا مقابل خسارة العراقيين مئة دبابة T-55 و T-62. كان من الطبيعي أن يتباهى العراقيون، حيث جلبوا مراسلي الحرب إلى ميدان المعركة ليصوِّروا حطام الدبابات الإيرانية الغاطسة بالوحل، وحطام طائرات الهليكوبتر المحترقة.

وفي غضون ذلك، غيَّر اللواء مظلي 55 من تكتيكاته، ولعدم قدرته على مهاجمة حامية سوسنكرد العسكرية من الخلف، تحوَّلوا لتعزيز قوات الباسدران المحاصرة في المدينة بالتوجه شمالاً في طريق ثانوي يبدأ من الحميدية. هذا الطريق المتهالك يتبع سلسلة من الكثبان الرملية الواقعة على الضفة المقابلة لنهر الكرخة، ممَّا يعطي للطيارين العراقيين

مدى قصف مثاليًا. ولذلك؛ اضطرَّ رتل ناقلات اللواء السير في الليل. وفي يوم 10 كانون الثاني أصبح المظليون على خطوط الجبهة المدافعة عن سوسنكرد، وقدموا النجدة للحرس الثوري الذي كان تحت حصار لا يرحم لمدة ثلاثة أشهر. وبذلك، وضعت صواريخ المظليين الإيرانيين المضادة للدبابات، وصواريخ سام-7، والهاونات، العراقيين في موقف محرج.

كان الإيرانيون أكثر نجاحًا في القاطع الأوسط من الجبهة. ففي ليلة يوم 5-6 كانون الثاني 1981 تمكنت قوات النخبة من اللواء الجبلي 15 من التسلل إلى الخطوط العراقية حول جيلان زارب في قاطع قصر شيرين. واستخدموا عنصر المفاجأة للسيطرة على عدة تلال وتطوير المدينة وتغلبوا على الدفاعات المكلفة بتطوير القرية. وبعد ساعات قليلة، استسلم 450 جندي مشاة كانوا يتخذون هناك، وأرسلوا مباشرة إلى طهران لعرضهم على الإعلام لأغراض دعائية. ومع ذلك قام العراقيون بهجوم معاكس، وتحرك لواء مشاة من الفرقة الثامنة في يوم 7 كانون الثاني، مدعومًا بلواء دبابت لمهاجمة جيلان زارب مرة أخرى والاستيلاء عليها بعد قتال عنيف ترك 400 قتيل من كلا الطرفين. ترك الإيرانيون مواقعهم واتخذوا من التلال المجاورة ملجأ لهم التي تعزل جيلان زارب جزئيًا. وإلى الجنوب قليلًا في قاطع مهران، أنزلت الفرقة المدرعة 81 جنودها من المشاة واستولت على أركفاز. كان العراقيون يفتقرون إلى المعدات الكافية لمواجهة البرد القارص في المناطق المرتفعة ولم يقاوموا الإيرانيين إلا بصورة شكلية، ثم اختاروا الفرار. وأحضر قائدهم أمام مجلس عسكري حكم عليه بالإعدام.

لا يمكن لهذه النجاحات المحلية التغطية على حقيقة أن عملية الحويزة كانت تمثل فشلًا ذريعًا. فقد بقيت أهواز تحت نيران المدفعية العراقية، وعبادان تحت الحصار. هناك نتيجتان لفشل الهجوم المعاكس ابتداءً: الأولى سياسية والأخرى عسكرية. فرجال الدين يرون فيها فرصة للتخلص من الرئيس الذي أتهم بالعجز، ومن السلطات العلمانية التي استمرت في معارضتها إقامة نظام ثيوقراطي حقيقي في إيران. وبالمقابل، لم توجه الانتقادات نفسها التي وُجّهت للرئيس بني صدر إلى القيادة العسكرية العليا التي لا يزال رجال الدين يخافونهم اختطاف السلطة. وعلى الرغم من تنامي قوة الباسدران، فإنها ليس بقوة كبيرة قادرة على معارضة الجيش النظامي.

أمّا على المستوى العسكري، أدّى فشل عملية الحويزة إلى تأجيل هجوم الربيع، فأغلب المعدات التي كانت ستُستخدم في الهجوم قد فقدت في العملية الخرقاء. ولم تعد رئاسة الأركان الإيرانية قادرةً من الناحية المادية على شنّ هجومٍ واسعٍ قبل فصل الصيف. وانتهزت فرصة الراحة لإعادة تنظيم قواها العسكرية، فالدبابات التي ما زالت قادرة على القتال وُزعت بين الفرقتين 81 و92. وضمّت الفرقة المدرعة 16 كلاً الدبابات من طراز M-60. وأُعيد تجميع الفرقة 88 التي دُمّرت عملياً في الهجوم المعاكس لشهر كانون الثاني، وضمنها دبابات T-55 التي سُحنت من ليبيا وبلغاريا. وحوّل اللواء 84 إلى فرقة آلية جُهزت بمعدات سوفيتية الصنع التي تم الاستيلاء عليها من الجيش العراقي. ولم يتم إعادة تشكيل اللواء 37 الذي دُمّر في معارك خورمشهر وعبادان، واختفى من خارطة العمليات العسكرية الإيرانية.

أمّا بالنسبة إلى الحرس الثوري؛ فقد كان يملك بين صفوفه نحو 140 ألف مقاتل حافظوا على بنيته الذاتية، وفي الوقت نفسه شكّلوا ثلاث فرق كبيرة أخرى للمشاة - بضمنها فرقة النخبة "رسول الله" - التي شكلت قواتهم في الميدان بشكل خاص. ومن هذا الوقت ولاحقاً، ستشارك قوات الميدان للحرس الثوري في كلّ هجوم مع الجيش النظامي وبشكل منظم. وبعد التراجع المذلّ للقوات النظامية، أصدر مجلس الدفاع الأعلى الذي يسيطر عليه رجال الدين قراراً سيكون الباسدران بموجبه مشاركاً في كلّ عملية عسكرية تخطط لها القيادة العسكرية العليا. ولم يتمكن الرئيس بني صدر ولا وزير دفاعه معارضة هذا القرار. كذلك شكلت قيادة الحرس الثوري ألوية مشاة ستحوّل لاحقاً إلى فرق على وفق الحاجة وما يتوافر من قوات والتي ستكون بمنزلة قوات الصدمة للنظام.

فتح جبهة جديدة في كردستان

خطت السلطات العراقية في منتصف شهر كانون الثاني لاسترجاع المبادرة، ولا سيّما أنّهم أدركوا أنّهم لا يمكنهم اختراق الجبهة في خوزستان، أو التقدّم في قاطع قصر شيرين ومهران، وقرروا فتح جبهة جديدة في كردستان لإجبار إيران على إرسال تعزيزات إلى هناك وتخفيف الضغط على الجبهات الأخرى.

كانت بغداد تُعجل بإمكانية القيام بهجوم في كردستان. في أواخر عام 1980 أمر النظام العراقي الجنرال أمين قائد الفيلق الأول اتخاذ الإجراءات اللازمة لتطويق المنطقة وتأمين ممرات للفرقتين الإيرانييتين 64 و28 المرابطتين في سنندج ومهراباد على التوالي لاحتمالية التسلل إلى خطوطهم. عبرت الفرقة الرابعة مشاة الحدود في يوم 24 كانون الأول 1980 واستولت على جيب أرضي يمكنها من السيطرة على ممرٍ رشاه Rashah وإغلاقه بوجه أي عمل إيراني محتمل باتجاه السليمانية. ولم تستمر بالتقدم نحو مارفان؛ لأن المدينة محمية بحامية عسكرية كبيرة. بينما قامت الفرقة المشاة الجبلية 11 التي كانت تنتشر على طول الحدود بإرسال أحد ألويتها إلى حلبجة؛ لحماية سد دربندخان الذي يجهز بغداد بالكهرباء. وقد انتشرت إحدى كتائبها في قاطع موات لتأمين سد دوكان الذي يجهز مدينة النفط كركوك بالكهرباء أيضًا. وقام أحد ألويتها باحتلال ممرٍ رايات لمنع الإيرانيين من الوصول إليه، في حين ركزت فرقة المشاة السابعة على الدفاع عن قاطع كركوك.

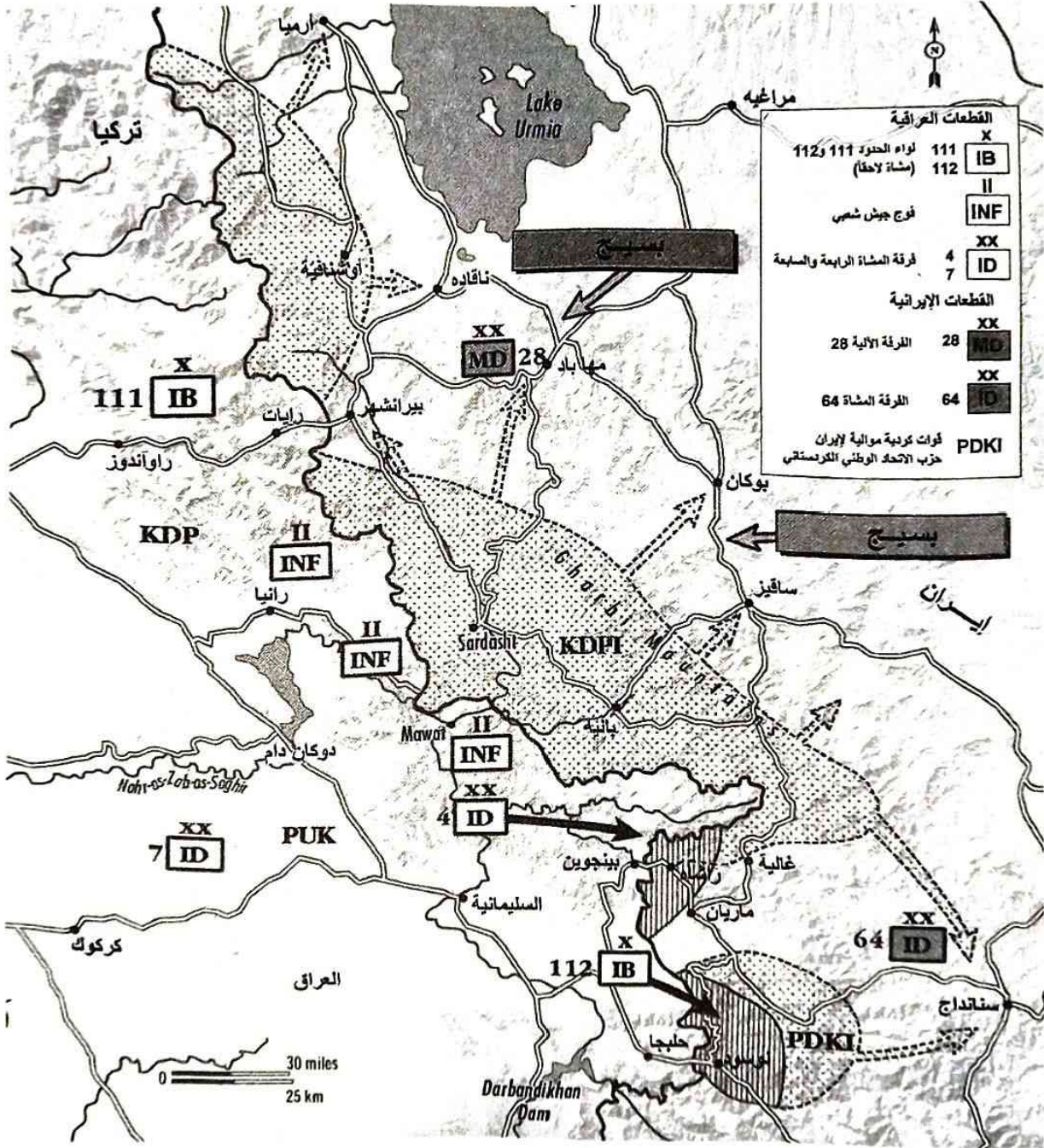
في يوم 15 كانون الثاني 1981 عبر اللواء المنتشر بالقرب من حلبجة الممر المكسور بالثلج وخطط الحدود مع إيران وسيطر على وادي نوسود Nosud المغمور بالطمي في أيام قليلة. أصبح العراقيون يملكون الآن موقعي رأس جسر في كردستان إيران. وهنا مرة أخرى، لم يكن الهدف شن هجوم واسع للسيطرة على مدن إيرانية، ولكن لتأمين مواقع تمكنهم من الدفاع بصورة أفضل عن أراضيهم. ومما سهّل من مهمتهم أن التضاريس الصخرية لجبال غربيي Gharbi تمتد على طول الحدود تمثل خط دفاع طبيعي للمقاتلين. وكان العراقيون يعتمدون على ضمانة أخرى تمنع الإيرانيين من التغلغل في أراضيهم: أن حزب عبد الرحمن قاسمليو الديمقراطي في كردستان إيران يسيطر على هذه المنطقة الجبلية المعقدة ويدين بالفضل للنظام العراقي الذي يسانده ماليًا ويجهزه بالأسلحة. كان ما يقلق بغداد هو الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي تسانده طهران الذي بقي نشطًا في شمال العراق، على الرغم من أن الأخوين برزاني يتخذون من إيران ملجأ لهم آنذاك ويتنظرون الفرصة المناسبة للعودة إلى العراق. كانت السلطات العراقية تعدّ نفسها في موقف أفضل في منطقة كركوك التي كانت تحت نفوذ حزب جلال طالباني، الاتحاد الوطني الكردستاني. انتهز صدام حسين

الفرصة ودعا عبد الرحمن قاسم لقيامه مقراته في نوسود، الجيب الإيراني الواقع تحت سيطرة الجيش العراقي. هذا الوادي الذي يؤدي إلى بغداد من خلال طرق آمنة سيصبح قاعدة للحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني.

كانت قساوة فصل الشتاء تمنع الإيرانيين من شن هجوم معاكس، ولا سيما أن المنطقة مغطاة بالجليد، وظروف الجو القاسية جدًا لم تكن مناسبة لأية عمليات عسكرية. واستغل البيشمركة التابعة للحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني الفرصة إلى حد كبير لتعزيز مواقعهم بعد تسلّمهم السلاح من العراق. وتمكنوا من توسيع نفوذهم نحو المدن الواقعة تحت السلطات الإيرانية التي كانت تنتظر بصبر فترة ذوبان الجليد وحلول فصل الربيع للقيام بعملياتها. وفي غضون ذلك، كانت أيدي الجيش والحرس الثوري قد انتهت من قمعها الكامل لانتفاضة أخرى في محافظة آذربيجان. في شهر شباط قاد مجاهدو الشعب وبيكار Pekar انتفاضة شعبية في تبريز والمدن المحيطة بها، مهددين القاعدة الجوية التي تأوي الجناح المقاتل الثاني. ولذلك؛ أجبر مجلس الدفاع الأعلى على إرسال تعزيزات كبيرة من بينها لواءان من الفرقة الآلية 28 التي لم يبقَ لديها لواء واحد للسيطرة على المنطقة المحيطة بمهاباد التي تعدّ "عاصمة" كردستان. كانت هذه رسالة إلهية للبيشمركة التي كانت تحضر أسلحتها للعمليات العسكرية القادمة.

وبانتهاء آخر فترة لذوبان الثلوج في الأسبوع الأول من شهر نيسان 1981، أعلنت المقاومة الكردية بقيادة عبد الرحمن قاسم تمردًا العام الذي يضم كلّ قوات الفصائل الكردية هناك التي يبلغ عددها نحو أربعين ألف مقاتل. أمّا السلطات الإيرانية؛ كان لديها أربعة ألوية فقط من الجيش النظامي لمواجهةهم (واحد من الفرقة 28، والثلاثة البقية من الفرقة 64)، واثنتي عشرة كتيبة من الباسدران مجموعها عشرون ألف مقاتل. وبالتحالف مع الناشطين من حركة كوملا الكردية تسلل فدائيو الشعب إلى المدن الرئيسة وجرّدوا بعض عناصر الباسدران من السلاح الذين انخرطوا لقتال العراقيين وليس إخوانهم الإيرانيين. وهذه هي الحالة في بيرانشهر، المدينة الاستراتيجية التي تسيطر على الطرق القليلة المؤدية إلى كردستان إيران. في غضون ذلك سيطرت البيشمركة التابعة للحزب الديمقراطي

الكرديستاني الإيراني على الطرق الرئيسية، وهرعت إلى المدن لمساعدة رفاقهم والاشتباك في قتال شرس مع القوات التي بقيت موالية للنظام. ولم يشترك الجيش العراقي بالتمرد مباشرة، لكنه استمرّ بتزويد المقاتلين بالذخيرة.



خارطة الجبهة الكردية في ربيع عام 1981

سيطر الكرد على أورمية وناكده ومهاباد وبوكان وساكر لمدة ستة أسابيع، وعززوا أيضًا ترسانتهم من السلاح بالدبابات والمدفعية والسلاح الثقيل الذي استولوا عليه. ولم تقاوم هجومهم سوى مدن سنندج وماريفان فقط. وفي أواخر شهر مايس، قرّر عبد الرحمن قاسملي تركيز جهوده على سنندج، وكان يأمل أن سقوطها سيقنع حامية ماريفان بالاستسلام. وبعد تطويقهم المدينة، شنّ مقاتلوه سلسلة من الهجمات المميّنة والتقدّم ببطءٍ من حيّ لآخر. أظهر المدافعون الإيرانيون عنادًا كما هو في خورمشهر وقاوموا لمدة شهر قبل إجبارهم على الاستسلام لنفاد ذخيرتهم. خسرت الحكومة الإيرانية في معركة سنندج ألف مقاتل في حين خسر الكرد ألفين. وفي أواخر شهر حزيران 1981، يمكن لعبد الرحمن قاسملي أن يتباهى بأنّه حرّر كلّ كردستان إيران تقريبًا، عدا ماريفان التي رفضت الاستسلام على الرغم من موقعها المعزول؛ لأنّ قوات البيشمركة المنهكة لم تعد تملك الوسائل للاستيلاء على المدينة.

لم تكن السلطات الإيرانية قادرةً على استعادة السيطرة على هذه المنطقة المتمردة. ففي طهران هُمّش الرئيس بني صدر تمامًا الآن، ويحاول جاهدًا إنقاذ سفينته من الغرق. فعليه قتال الثورات في محافظات آذربيجان وكردستان في آنٍ واحدٍ، وكبح العراقيين على الجبهة، وأن يصمد أمام النقد المتزايد والقاسي من أولئك الذين يريدون إسقاطه. فهو لم يعد يملك القوات الكافية اللازمة لإخماد التمرد الكردي. كانت أولوياته المباشرة تتمثل في استعادة السيطرة على محافظة آذربيجان (ربع سكان إيران من أصول أذرية) ومنع المدن الكبيرة التي تدعمه سياسيًا من القيام بالاحتجاجات. وحتى الجبهة العراقية أصبحت ثانوية. ونتيجة لضغط المرشد الأعلى، عزّز أبو الحسن بني صدر علاقاته مع مسعود رجوي القائد الملهم لمجاهدي الشعب والذي لديه نفوذ هائل بين الطبقات الحضرية الوسطى. انتهز أعداء بني صدر الفرصة لتشويه هذا التحالف غير الطبيعي وتوجيه الانتقادات للرئيس، ولا سيّما أنّهم يأملون في السرّ أن تدهور الأوضاع سيؤدي إلى سقوطه.

انتهز العراقيون فرصة ضعف الإيرانيين المؤقت والمحاولة مرةً أخرى تقليص نتوء سوسنكرد الدفاعي. ولكن تم صدّ كلّ محاولاتهم الفظة. ولتعلّمهم الدرس من هزائمهم،

عادت القيادة العسكرية العراقية إلى استراتيجية المضايقات وإعادة بناء تنظيمهم العسكري، وشكّلت الفيلق الرابع الذي أصبح مسؤولاً عن القاطع الواقع بين دهلران وسوسنكرد، واتخذ من العمارة مقرّاً له. أصبح الجنرال الفخري قائداً له الذي تميّز خلال الصفحة الأولى من الحرب. أمّا في الشمال؛ بقي الفيلق الأول مسؤولاً عن كردستان، بينما ركز الفيلق الثاني على الدفاع عن القاطع الواقع بين قصر شيرين ومهران، وكذلك تقع عليه المسؤولية الثقيلة وهي حماية بغداد. أمّا في الجنوب؛ استمرّ الفيلق الثالث في احتلال جنوب خوزستان. وفي هذه الأثناء أمرت القيادة العسكرية العليا تشكيل ثلاث فرق جديدة للمشاة (الفرق 14، 15، 16، لأنّ العراقيين يتشائمون من الرقم 13)، وثلاثة ألوية للتدريب مسؤولة عن التدريب السريع للمجندين الجدد الذين سيلتحقون بالوحدات الجديدة. وشكّلت أيضاً عشرين لواء لحماية الحدود لحراسة الحدود العراقية مع تركيا، سوريا، الأردن، السعودية، والكويت؛ لأنّ كلّ الوحدات العسكرية المرابطة هناك سُحبت وأُرسلت إلى الجبهة. أصبح الآن لدى العراق خمس عشرة فرقة تواجه اثنتي عشرة فرقة حشدتها إيران (تسع من الجيش النظامي، وثلاث من الباسدران).

وأعاد العراقيون تنظيم دفاعاتهم الجوية، وجمعوا بطاريات صواريخ Crotale و Roland المضادة للطائرات التي تم تسلّمها حديثاً من فرنسا حول بغداد، وكذلك وحدات صواريخ سام-9 المحمولة التي كانت تحمي الفرق المدرعة في السابق. وهذه الموارد الموثوقة والمتكاملة جدّاً سمحت للعراقيين تشكيل مظلة حماية أكثر فعالية على العاصمة العراقية. وصرّح صدّام حسين أنّه لا يسمح لأية مقاتلة واحدة أن تزعج حياة العراقيين اليومية. فقد نُصبت منظومة صواريخ سام-6 حول الأماكن الاستراتيجية والجسور والقواعد الجوية. وُعِدّت صواريخ سام-2 وسام-3 قديمةً وعفا عليها الزمن، والآن هي للعرض فقط، ولم يعتمد عليها العراقيون لصدّ الطائرات الإيرانية. واعتمدت رئاسة الأركان في الدفاع عن الوحدات المرابطة في الجبهة على أنظمة ZSU-23 × 4 شيلكا ذاتية الدفع (التي برهنت على فعاليتها خلال الصفحة الأولى من الحرب)، والصواريخ المحمولة سام-7-المجهّزة من الكتلة الشيوعية، ومنظومة الدفاع S-60 حجم 57 ملم والموجّهة بالرادار التي

تمَّ الحصول عليها من هنغاريا. ولكنهم قبل كلِّ شيء اعتمدوا على طائراتهم المقاتلة. أخيراً تسلَّم العراق أولى طائرات الميراج F-1EQ في شباط 1981، وبعد ستَّ سنوات من شرائها من فرنسا انضمت هذه الطائرات إلى السرب 79 المنتشر في قاعدة صدام التي أكملت مؤخراً من الفنيين الفرنسيين في شمال البلاد بالقرب من الموصل. إنَّ وصول هذه المقاتلات المتفوقة جويّاً والمجهزة بصواريخ جو-جو Super-530 التي تمثّل قفزةً تكنولوجيةً ربما تُغير من نظام العمليّات. والفضل يعود إلى صواريخ الطائرات الموجهة بالرادار، فطيار الميراج العراقي بإمكانه أن يشتبك مع عدوّه من كلّ الاتجاهات ويمكنه تجنّب الاقتراب من المشتبكين معه من الخلف كما كان ضرورياً في الجيل السابق من الصواريخ الموجهة بالأشعة تحت الحمراء. وهكذا أصبح الطيارون العراقيون يناورون بالمستوى نفسه مع طياري الفانتوم. وتم اختيار الطيارين الأكثر كفاءةً للتدريب بطائرات الميراج وبعد فترة تدريب في فرنسا. وسيدكرون ارتياحهم لاحقاً لتحليقتهم بهذه الطائرات المريحة، والمجهزة جيداً التي ستكون أكثر سهولةً في التحليق من الطائرات السوفيتية القديمة التي تتكوّن منها أسراب المقاتلات الأخرى.

الغارة على محطة H-3

كانت القيادة العسكرية الإيرانية العليا في مطلع فصل الربيع تتلّيف لاستعادة يدها العليا ومحو فشلها الأخير من الذاكرة الإيرانية. كانت القوات البرية لا تزال تعاني من الصدمة وغير مستعدة لشنِّ عملية واسعة النطاق. وكان الطيارون يدركون أنّ مصداقيتهم تبقى هشةً في أعين السلطات، وأنّهم مستعدون بالمخاطرة بحياتهم للبرهنة على ولائهم للنظام. لذلك؛ اقترحوا غارةً مثيرةً تهدف إلى جعل العراقيين يدركون أنّ القوة الجوية الإيرانية قادرة على قصف أيِّ مكان في أراضيهم. اقترح قائد السرب عباس دوران - وهو من المخططين البارعين - مهاجمة مهبط الطيران في قاعدة H-3 التي تبعد نحو ثلاثين ميلاً (50 كم) عن الحدود الأردنية. لم تكن هذه القاعدة من بين الأهداف التي يجب مهاجمتها؛ لأنّها عدت

مجرد مهبط طيران مساند يقع بعيداً جداً عن الجبهة لإيواء المقاتلات - القاصفة. على أية حال، تقع هذه القاعدة خارج مديات القصف لطائرات الفانتوم، ولكن العراقيين أعادوا تنشيط القاعدة في الأشهر القليلة الماضية واستخدموها مستودعا جويا لحماية طائراتهم التوبولوف القاصفة (التي لم يترددوا في إرسالها إلى الأجواء الإيرانية)، وكذلك لإيواء الطائرات العسكرية التي بحاجة إلى صيانة كثيفة، وتخدم بوصفها قاعدة ترحيل لطائرات الميراج-1 المشحونة من فرنسا من طريق الأردن.

كانت القاعدة تأوي أغلبية الفنيين الأردنيين والمصريين الذين يتولون صيانة طائرات الميراج والميغ والسيخوي لاعتقادهم أنها آمنة. والفضل يعود للصور الفوتوغرافية الإسرائيلية التي جعلت الإيرانيين يدركون أن قاعدة H-3 من الأهداف المهمة، حيث تنتشر فيها أكثر من خمسين طائرة من كل الأصناف وبشكل مفتوح ودون أية حماية عدا مدفعية مضادة للطائرات وصواريخ أرض - جو قديمة. ولذلك؛ الفرصة مؤاتية لتنفيذ عملية ما. بالنسبة إلى الاستراتيجيين الإيرانيين كان التحدي هو الاحتفاظ بعنصر المفاجأة. ومن أجل تنفيذ الخطة، اختاروا ممراً جويًا يمرُّ عبر تركيا وسوريا الذي يسمح لهم بمهاجمة العراقيين من الخلف. طلبت السلطات الإيرانية من الرئيس حافظ الأسد ليغض النظر لساعات قليلة. كان الرئيس السوري سعيداً جداً لتقديم هذا الطلب للإيرانيين؛ لإدراكه أن ذلك سيؤذي منافسه بالعراق.

وقبل الفجر بقليل من يوم 4 نيسان 1981، أقلعت عشر طائرات فانتوم من قاعدة همدان متوجهة إلى الشمال الغربي نحو الحدود التركية مزودة بخليط من القنابل المعوقة، والقنابل الانشطارية وصواريخ جو - جو نوع Sparrow، ونظام مضاد للذبذبات إلكتروني ثمين زوّدهم به الإسرائيليون، فضلاً عن ثلاثة خزانات وقود خارجية. تبعد المسافة عن الهدف 750 ميلاً (1200 كم) وهذه تتطلب تزويدًا بالوقود في الجو. والإيرانيون لن ينفذوا مثل هذه الضربة البعيدة أبداً. وحلقت آخر طائرتين فانتوم للدعم فقط واستبدال الطائرات التي قد تتعرض للأعطال الفنية. ونُسقت هذه المهمة مع طائرة بوينغ 747 التي ستكون بمنزلة مركز قيادة طائر. وحالما يحلق الطيارون عاليًا سيتم تزويدهم بالوقود للمرة الأولى بالقرب من الحدود مع تركيا من طائرتي بوينغ 707 قادمتين من طهران. سارت هذه الصفحة

الأولى من المهمة من دون مشاكل، وعادت طائرتا الدعم الفانتوم إلى قواعدهما، بينما توجه التشكيل في المقدمة بقيادة الميجر فرج الله براتبور غرباً نحو الحدود التركية العراقية بتحليق منخفض لتفادي رصد الرادار⁽¹⁾.

وحلقت أربع طائرات Tomcat واتخذت وضعا على الحدود الإيرانية بالقرب من كردستان مستعدة للتدخل مع أية مقاتلة عراقية تقترب من طائرات المهمة في أثناء إعادة تزويدها بالوقود في الجو بالقرب من الحدود التركية. بينما حلقت تشكيلان من طائرات Tiger وتسلا إلى الأجواء العراقية بتباه باتجاه كركوك؛ لكي تحول انتباه الدفاعات الجوية العراقية. أما طائرات المهمة الثمانية؛ فقد حلقت على ارتفاعات منخفضة جداً فوق المنطقة الجبلية التركية، وأسكتوا ذبذبات الراديو بطائراتهم، ثم توجهوا إلى الجنوب الغربي للدخول في الأجواء السورية. وهناك حلقت تحليقاً منخفضاً فوق الصحراء الفاصلة بين العراق وسوريا والوصول إلى نقطة التقاء مع طائرتي التزود بالوقود في الجو القادمتين من إستانبول واللتين تم تسجيلهما بوصفهما رحلات تجارية بين إستانبول وطهران. وبعد وصول الطائرات فوق هضبة الأناضول، ترك الطائرتان بوينغ 707 مسارهما ويتحولان في طيران منخفض نحو نقطة الالتقاء فوق الصحراء السورية التي حدد موقعها على بعد 60 ميلاً (نحو 100 كم) شمال غربي دير الزور. وفي الوقت المحدد، تقوم طائرتا البوينغ 707 بالالتحام مع طائرات الفانتوم لتزويدها بالوقود على ارتفاع منخفض فوق الصحراء للمحافظة على سرية المهمة كلما أمكن ذلك. ثم تعود طائرتا الوقود إلى منطقة الانتظار الواقعة إلى أقصى الشمال تقريباً في الأجواء السورية.

وبعد ذلك، حلقت طائرات الفانتوم بأقصى سرعة ممكنة باتجاه الجنوب الغربي، وعبور الحدود السورية العراقية على ارتفاع نحو 200 قدم فوق الأرض متوجهين نحو قاعدة H-3. وعند الاقتراب من الهدف، توزعت في ثلاثة تشكيلات وللظهور في ثلاثة اتجاهات

1- من المؤكد أن السلطات التركية رصدت وجود المقاتلات الإيرانية في أجوائها، لكن بسبب وجودها القصير جداً (نحو خمس عشرة دقيقة) فمن المحتمل فضل الأتراك غض النظر لتجنب أية حادثة دبلوماسية قد تؤدي إلى تخريب العلاقات التجارية بين البلدين. واستناداً إلى رواية أحد الدبلوماسيين الأتراك السابقين فإن أنقرة أبلغت طهران أن الحكومة التركية لم تعد تحتل أي خرق ولو كان طفيفاً لمجالها الجوي.

مختلفة لخداع الدفاعات المضادة للجو. في الساعة الثامنة والرابع صباحًا ظهرت الطائرات فوق قاعدة H-3 مما فاجأ الدفاعات الجوية بالدهشة التامة. وُجِّهت الضربة الأولى إلى مدارج الطائرات؛ لكي تعيق تحليق زوجين من طائرات الميغ-23 على أهبة الاستعداد للطيران. والضربة الثانية وُجِّهت نحو الدفاعات المضادة للجو، وأغلبيتها بقيت صامتة؛ لأن طواقهما لم يكونوا في أماكنهم. أمَّا المقاتلات الباقية؛ قامت بقصف الطائرات المنتشرة في القاعدة دون رحمة. وخلافًا لتكتيكاتهم الاعتيادية، لم يقصروا طياروا الفانتوم هجومهم بجولة واحدة، فقد ضربوا في أربع جولات محدثين حالة من الفزع، ودمروا ثماني طائرات ميغ-23، وخمس Su-20، وأربع ميغ-21، وطائرتي ميراج F-1، وقاصفة TU-16، وثلاث طائرات نقل A-12، وأربع طائرات هلكوتير Mi-8. وإلحاق الأضرار الكبيرة بخمس عشرة طائرة أخرى من بينها طائرتان مقاتلتان نوع TU-16 وثلاث TU-22. وقُتِل نحو 30 فنيًا بضمنهم أربعة من المصريين والأردنيين. وعند الثامنة والنصف صباحًا أنهت طائرات الفانتوم مهمتها بصورة مفاجئة وعادت إلى قواعدھا بالمسار نفسه الذي اتبعته عند بدء مهمتها. فقد تم تزويدها بالوقود مرتين: الأولى فوق شمال سوريا، والثانية في الأجواء الإيرانية. وفي الساعة العاشرة والنصف صباحًا هبط الطيارون المتعبون جسديًا وعاطفيًا في قاعدتهم بهمدان بعد أربع ساعات وأربعين دقيقة منذ بدء مهمتهم. ففي هجوم واحد نجحوا في إخراج أكثر من أربعين طائرة عراقية خارج الخدمة، وبضمنها نصف أسطول الطائرات القاصفة ودون خسارة طائرة واحدة. هنا آية الله الخميني شخصيًا الطيارين على نجاحهم غير المسبوق منذ بداية الحرب. وفي اليوم نفسه، أسقطت طائرتا F-14 طائرتي ميغ-23 فوق خوزستان، وبذلك أضافت الثلج على الكعكة.

لم يختلف المزاج في بغداد عن الإجراءات السابقة. طلب صدام حسين شرحًا والمتهمين، اعتُقل ستة ضباط وبضمنهم العقيد فخري حسين جبار المسؤول عن الدفاعات الجوية لقاعدة H-3 وأُعدموا جميعًا، وسُجن وأُعدم عشرون آخرون. بعد عشرة أيام ثار العراقيون قليلًا حينما نجحت طائرتا ميغ-23 بإسقاط أول طائرة إيرانية مقاتلة فوق جزيرة خرج، على الرغم من اعتراف الإيرانيين بخسارتهم لطائرة F-14 بقيادة الكابتن

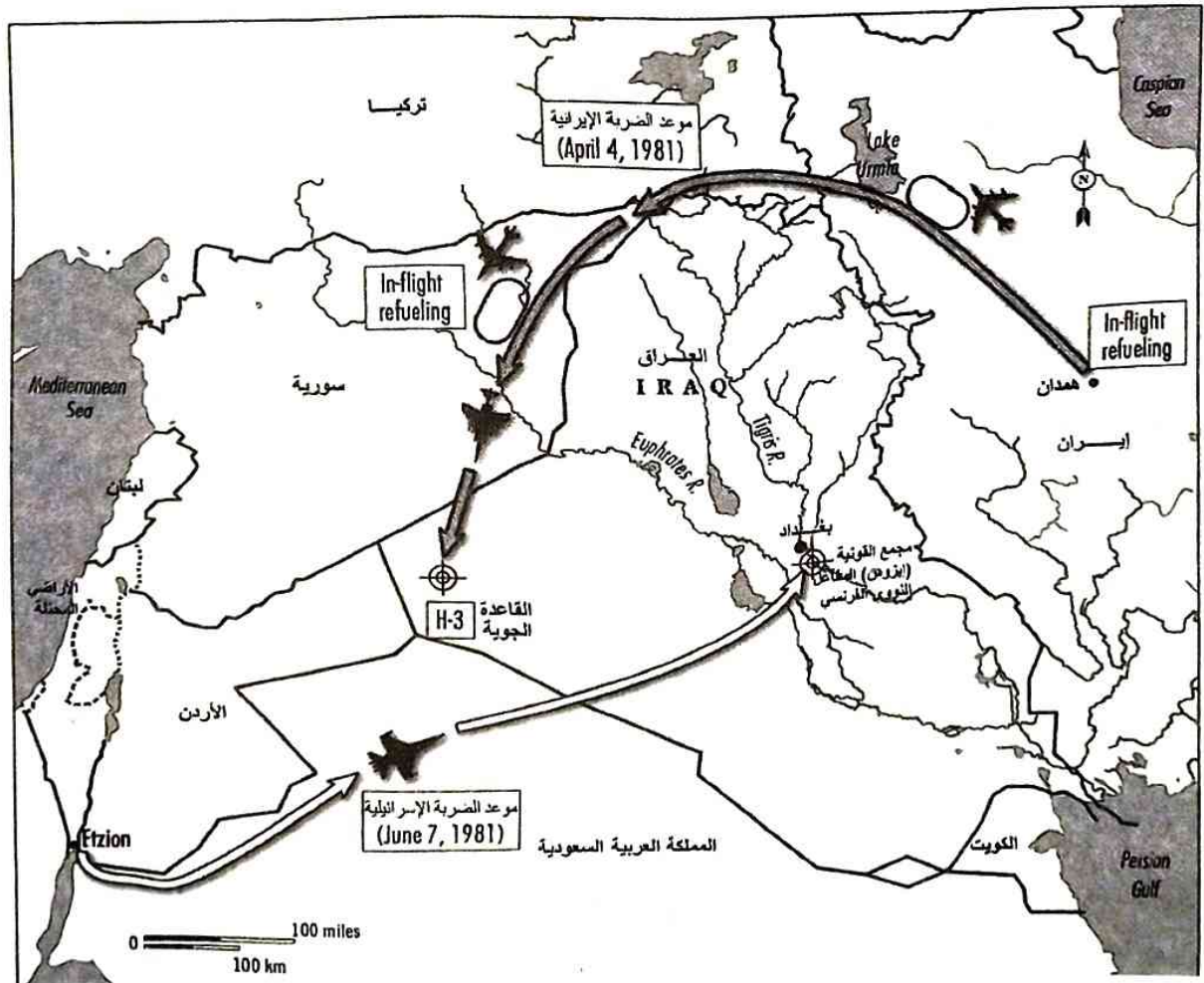
جعفر مارديني، فإنهم عزوا سقوطها إلى نيران صديقة من دفاعاتهم الجوية. وبعد أسبوع، دارت معركة جوية اتسمت بالمرادفة والمطاردة تستحق أن تُصوّر في فلم "أفضل بندقية" انتهت بتدمير طائرة ميغ-23، وإلحاق الأضرار بطائرة Tomcat التي هبطت اضطرارياً ومحركاتها تحترق. كذلك أسقط طيارو الفانتوم طائرتي ميغ-21، وطائرة ميغ-23 دون خسارة أية طائرة. وتميّز طيار هلكوبتر كوبرا الإيراني بإسقاطه طائرة هلكوبتر Mi-24 بصاروخ تاو المضاد للدبابات. كل ذلك والقوات على الأرض ما زالت تنتظر.

أوزيراك خارج الخدمة

في يوم 3 حزيران 1981، وبعد أخذٍ وردٍّ لعدة أشهر، أمرت الحكومة الإسرائيلية بتدمير المفاعل النووي أوزيراك الذي كان من المخطط له أن يعمل في شهر تشرين الثاني اللاحق. ويعتقد الإسرائيليون أنه لأمر حيوي أن يعيقوا تقدّم برنامج العراق النووي. والفضل يعود إلى الفنيين الفرنسيين في الموقع الذين يعرفون أن الوقود الذري لم يتم إدخاله إلى المفاعل حتى الآن. ولذلك؛ لا يوجد خطر انتشار الإشعاعات في حالة تفجيره. وبعد الاتفاق مع رئيس الوزراء مناحيم بيغن قرّر الجيش الإسرائيلي شنّ عملية "أوبرا". ولمدة ستة أشهر كان الطيارون الإسرائيليون يعيدون تنقية خططهم، لاستفادة أفضل من المعلومات الواردة إليهم من المهندسين الفرنسيين العاملين في الموقع، وكذلك من المعلومات التي أرسلتها السلطات الإيرانية بعد إغارتهم على الهدف نفسه قبل ستة أشهر.

ولقيادة هذه المهمة الحسّاسة، استدعت القيادة العسكرية الإسرائيلية العليا أمهر طيارها وأعطتهم أفضل طائراتها المتوفرة لديها: ثماني طائرات فانتوم F-16، وخمس F-15، تسلّمها مؤخراً من واشنطن. كانت التشكيلة الهجومية بقيادة المقدم زائف راز الطيار الأكثر كفاءة لطائرات F-16. وأُعطي الدور الخطر جدّاً للطيار المتمرس في قوة تزحال والذي أسقط أربع عشرة طائرة العقيد أفتاخ سبكتر وهو الطيران في ذيل التشكيل. وكان العضو الأكثر شباباً في الفريق الملازم الأول إيلان رامون، طيار استثنائي الذي سيصبح

في ما بعد أول رائد فضاء إسرائيلي (توفي في انفجار مكوك الفضاء كولومبيا عام 2003). يدرك كلُّ الطيارين الإسرائيليين خطورة المهمة، فالهدف محصن بعدة دفاعات بطاريات صواريخ سام-6، والكثير من المدفعية المضادة للطائرات، وسرب من طائرات الميغ-23، ناهيك عن خطر الطيران على ارتفاعات منخفضة فوق الصحراء. ومع ذلك، كانوا يأملون أن ينشغل العراقيون بالجبهة مع إيران. وكانت ضمانتهم الكبيرة هي عنصر المباغته. وأنجزت القيادة العسكرية الإسرائيلية العليا نظامًا استثنائيًا لإنقاذ الطيارين الذين يجبرون على القذف من طائراتهم. ولذلك؛ اختبأت طائرة نقل C-130 وطائرة هليكوبتر نوع CH-53 مع طواقهما من الكوماندوز في قلب الصحراء الأردنية وفي الأراضي السعودية على استعداد للتدخل مباشرة في حالة الضرورة لإنقاذ الطيارين الذين قد يتم إسقاط طائراتهم.



خارطة الضربات الجوية الإيرانية والإسرائيلية على قاعدة H-3 والمفاعل النووي أوزيراك

وفي الساعة الرابعة من يوم 7 حزيران 1981، أقلعت ثماني طائرات مقاتلة - قاصفة نوع F-16 ترافقها ست طائرات F-15 من القاعدة الجوية عتسيون الواقعة بالقرب من صحراء سيناء عند إيلات⁽¹⁾. وكلُّ طائرة F-16 زُوِّدت بخزاني وقود إضافيين، وصواريخ جو - جو على الجوانب، وبطارية كاملة إلكترونية مضادّة للذبذبات، وقنبلتين أمريكيتين زنة الواحدة 2000 باوند (907 كغم) نوع Mk-84. وبدلاً من اختيار قذيفة موجّهة ومعقدة، اختار قائد المهمة استخدام قنابل حديدية لتقليل خطر عدم عملها والمحافظة على المهمة بأبسط صورها. يملك قائد المهمة ثقةً كبيرةً بمهارات طياريه. وتتطلب المهمة قطع مسافة 1240 ميلاً (2000 كم) في الذهاب والإياب من دون إعادة التزود بالوقود في الجو. وهنا مرةً أخرى، عمل قائد القوة الجوية ببساطة واختار تجنب العملية المعقدة بالتزود بالوقود بالجو فوق أراضي العدو. عبرت الأربع عشرة طائرة خليج العقبة، وسارت بسرعة بمحاذاة الحدود الأردنية، ثم دخلت الأجواء السعودية متوجهةً نحو العراق والبقاء قرب الحدود الأردنية لكي تتجنب الرادارات السعودية. حلّق التشكيل وبإسكات كامل للإشارات الراديوية على ارتفاع 330 قدمًا (100م). وبمجرد عبور الحدود العراقية تخلّص الطيارون من خزانات الوقود الخارجية وانطلقوا بالسرعة القصوى التي تسمح بها حمولاتهم الثقيلة. وعلى بعد 40 ميلاً من الهدف توزع التشكيل على مجموعتين. استمرت طائرات F-16 في التحليق على ارتفاع منخفض وعلى مسار انحناء مباشر نحو الهدف، في الوقت الذي تسلّق طائرات F-15 إلى ارتفاع 26,250 قدمًا (8000م) وفي دقائق قليلة لحماية طائرات F-16 وعلى هذا الارتفاع يمكنها رصد أية طائرة معادية تهدد المقاتلات - القاصفات الإسرائيلية.

وبمجرد عبورهم نهر الفرات يعرف طيارو F-16 أنّ الهدف أصبح على مقربة دقائق قليلة منهم، فحملوا قنابلهم وحلّقوا عند 5000 قدم (1500م) للحصول على رؤية أوضح للهدف. وفي هذا الوقت تم رصدتهم، ولكن الوقت متأخر جدًّا. ظهر المفاعل النووي العراقي لقائد التشكيل، وقام بالدوران حول الهدف، حيث كان الوقت الخامسة والنصف بعد الظهر، وتكون الشمس في عين العراقيين عند توجيههم نحو المهاجم. قام المقدم راز

1 - أعيدت هذه القاعدة إلى المصريين بعد أشهر قليلة من توقيع اتفاقية كامب ديفيد.

بإطلاق قنبلتيه زنة 2000 باوند لكل واحدة (907 كغم) على القبة الحاوية للمفاعل، والدوران بطائرتة فجأة نحو اليسار، والتسلق عاليًا والتوجه غربًا نحو إسرائيل. وتبعته بعد ذلك الطائرات F-16 الباقية حيث ألقت كلُّ واحدة قنابلها وأصابت القنابل الأربع عشرة القبة الحاوية للمفاعل مباشرة مدمرةً المفاعل نفسه تمامًا، والقبة الحاوية، ومختبر البحث تحت الأرض⁽¹⁾. لم يستغرق الهجوم أكثر من دقيقتين. ولم يكن الوقت كافيًا للدفاعات الجوية العراقية للعمل. وفي الوقت الذي تهيأت الدفاعات المضادة للطائرات لإطلاق قذائفها المضادة، كانت الطائرات الإسرائيلية قد غادرت الأجواء العراقية.

كانت العودة سهلةً ونحو الغرب مباشرة عبر الأجواء الأردنية إلى إسرائيل. وتوزع الطيارون الإسرائيليون في سبع تشكيلات بشكل عشوائي، كل تشكيل يتكوّن من طائرة F-16 وF-15 واختار كلُّ واحد منهم مسارًا وارتفاعًا مختلفين إلى حدِّ ما؛ لتخفيف الضغط. وهذا كان مجرد احتراز غير ضروري؛ لأنَّ الطيارين العراقيين أخذوا على حين غرة ولم يكن لديهم الوقت لردة الفعل. وفي غضون ذلك، أقلعت عدة طائرات إسرائيلية طراز F-15 تمسّط بتباهٍ الأجواء على طول نهر الأردن لرصد أية مقاتلات أردنية ربما تحاول التدخل. وهذا الإجراء يبدو أيضًا غير ضروري؛ لأنَّ الملك الأردني حسين تم إبلاغه أنّ أجواءه قد اخترقت من طائرات إسرائيلية "تائهة"، وأبلغ مقاتلاته بعدم الإقلاع. وبعد الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة عادت الطائرات الإسرائيلية الأربع عشرة إلى قاعدتها في عيتسون سالمةً وصحيحةً.

وفي صباح اليوم التالي، أصدرت الحكومة الإسرائيلية بيانًا ادّعت فيه أنّها دمّرت المفاعل النووي العراقي. غضب صدام حسين غضبًا شديدًا حينما عرف حجم الدمار الذي ألحق بالمفاعل، وهدّد بإعدام كل الضباط المسؤولين عن الكارثة. وطُرد مباشرة كلُّ من الجنرال أسامة ياور رئيس الدفاع الجوي، وقائد لواء الصواريخ سام-6 المضادة للطائرات المسؤول عن حماية المفاعل. واعتُقلَ الجنرال شاكر محمود نائب القائد العام للدفاع الجوي وأُرسل إلى فرقة الإعدام. فضلًا عن توجيه اللوم القاسي للطيارين. فبعد الصفعة في

1- قُتل عشرات الفنين في ذلك الهجوم ومن بينهم فرنسي، حيث تم دفع تعويض عائلته من الحكومة الإسرائيلية سرًا.

الوجه التي تلاقاها قادة القوة الجوية العراقية من الإيرانيين في H-3، جاءت هذه الهزيمة الجديدة المهينة بشدة. ولعدة أسابيع أعطيت الأولوية إلى المهمات التي تتفوق في الجوّ على حساب مهام الدعم الناري.

أمّا بالنسبة إلى دكتاتور العراق؛ فإنّ تدمير أوزيراك كان بمنزلة الكارثة له، ناهيك عن ذكر المليارات من الدولارات التي استثمرت في بنائه. وجرّده أيضًا من مكانة البلد النووي التي قد تسمح له إقناع إيران من الاستمرار بالحرب وفرض نفسه زعيمًا طبيعيًا للعالم العربي، ولا يجرؤ أيُّ أحد على مهاجمة النظام العراقي، حتى وإن كانت إسرائيل، إذا ما نجح في تجهيز نفسه بالطاقة النووية، ثمّ بالقنبلة الذرية. أدرك صدام حسين أنّه من دون الحصول على أسلحة متطورة في المدى القريب أو المتوسط لن يستطيع إجبار النظام الإيراني على وضع نهاية للحرب. وأدرك أيضًا أنّ الحرب ستكون طويلة. ونتيجة لذلك، عمل على تسريع جهود الحشد الشعبي وأمر باستمرار البرنامج النووي حتى وإن كانت معدّاته مبعثرة الآن⁽¹⁾. ولسوء حظّه، لم يتفق معه أيُّ من شركائه في هذا المشروع، حتى فرنسا والاتحاد السوفيتي. أمر صدام حسين بعدم القيام بأيّ غارةٍ للثأر من الإسرائيليين، وبذلك كان بعيد النظر؛ لأنّه يدرك أنّه لا يملك الترف بفتح جبهة جديدة وعليه حشد كلّ إمكاناته ضد إيران. وقام أيضًا بزيادة مسانדתه لحركة الاستقلال الفلسطينية وكل أولئك المستعدين للقيام بالأعمال الإرهابية ضدّ المصالح الإسرائيلية حول العالم.

وعلى النقيض من ذلك، تدمير مفاعل أوزيراك خدّم النظام العراقي، على الرغم من أنّه ربما لم يدرك ذلك. وحالما أصبح واضحًا أنّ العراق فقد الأمل بالحصول على الطاقة الذرية، وبذلك تقلّص خطر انتشارها في المنطقة؛ أعادت موسكو وواشنطن النظر في علاقاتها مع بغداد. فالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يتفقان دائمًا على تجنب انتشار الأسلحة النووية؛ لكي يحافظوا على تفوقهم في ميدان الأسلحة الذرية. أبلغت واشنطن بغداد من خلال الملك الأردني حسين أنّ الولايات المتحدة ترغب في إقامة علاقات وثيقة

1 - وهذا يمكن سماعه من التسجيل الصوتي المؤرخ في أواسط شهر حزيران 1981 الذي تم الاستيلاء عليه بعد عام 2003.

مع العراق. أما بالنسبة إلى الكرملين؛ أطلق إشارة حسن نية بقبوله تسليم العراق أولى طائرات الميغ-25 الأربعين التي طلب العراق شراءها منذ سنتين لكنها بقيت تحت الحصار منذ ذلك الوقت. وهذه الطائرات الاستثنائية بإمكانها الطيران بسرعة عالية جداً (ماخ 3) وعلى ارتفاعات شاهقة جداً (82 ألف قدم / 25 ألف متر) والوحيدة القادرة على تنفيذ مهمات استطلاعية في عمق أراضي العدو ورصد طائرات Tomcat الإيرانية بفعالية. كانت أولى طائرات الميغ-25 التي تسلّمها العراق ستوضع في الخدمة مع سرب 87 في شتاء عام 1981.

وإنّ إعاقة البرنامج النووي العراقي طمأن الحكومات الأوروبية التي لم تعد تملك الهواجس في إمداد العراق بالأسلحة. أمّا الحكومة الإيرانية؛ فلم تملك الفرصة للفرح بتدمير مفاعل أوزيراك، أو لشنّ عمليات عسكرية جديدة؛ لأنّها كانت منهمكة عميقاً في معركة داخلية حول مستقبل الجمهورية الإسلامية.

الفصل الحادي عشر

سيطرة الممالي على السلطة

كان الرئيس بني صدر يكافح في شهر حزيران 1981 ولعدة أسابيع من أجل مستقبله السياسي. كان آية الله بهشتي من أكثر العناصر بين رجال الدين تصميمًا على إنهاء ولاية بني صدر. ففي مطلع شهر حزيران اتهموه علانيةً بتهمة الخيانة مشيرين إلى علاقاته المزعومة مع بعض مدراء المخابرات الأمريكية. كشف جواد منصورى - من الحزب الجمهورى الإسلامى - عن وثيقة كتبت في أيلول 1979 من فيرنون كاسين، وكيل محطة المخابرات الأمريكية في طهران، التي عُثر عليها خلال الاستيلاء على السفارة الأمريكية بطهران، وتقول إنَّ المخابرات الأمريكية كانت تحاول تجنيد أبى الحسن بنى صدر. وبينما كان الجاسوس الأمريكى يشير إلى بنى صدر بالرمز "SD /Lurei"، فإنَّ تفصيلات التقرير جعلت السلطات الإيرانية تشخصه بسهولة. ولم ينكر الرئيس باتصال أحد الأفراد الذى عرض عليه مبلغ خمسة آلاف دولار شهرياً مقابل الحصول على معلومات بانتظام، ولكنه أصرَّ على رفض العرض مباشرة⁽¹⁾. قرَّر بنى صدر الاعتماد على قرار آية الله الخمينى فى تحديد مصيره لثقتة بالنوايا الصادقة للمرشد الأعلى الذى أدرك أنَّ الوقت قد حان لرحيل صنيعته الذى لم يعد

1 - أكد مدير مكتب المخابرات المركزية الأمريكية بطهران ذلك الوقت جورج كيف George Cave رواية بنى صدر فى مقابلة مع المؤلف، فقد اعترف أنه حاول تجنيد بنى صدر من دون الشك؛ لأنه سيُنتخب رئيساً للجمهورية بعد أربعة أشهر.

قائدًا فعّالًا. وفي 11 حزيران سحب آية الله الخميني ثقته من بني صدر وجردّه من موقعه قائدًا عامًا للجيش. وفي يوم 20 من الشهر نفسه، وبعد جلسة صاخبة للبرلمان تم طرد بني صدر من الرئاسة، وأمر المرشد الأعلى وضعه في الحجز المؤقت.

استئصال العلمانيين

أدرك أبو الحسن بني صدر ماذا حدث، وخوفًا من اغتياله قرّر مباشرة الاختفاء. وهرب من منزله قبل دقائق من وصول رجال النظام لاعتقاله، وانضمّ إلى بعض أصدقائه الموثوقين الذين أخفوه لأسابيع متعددة. وفي اليوم التالي تُوفي وزير الدفاع مصطفى كامران في ظروف غامضة نتيجة انفجار طائره بينما كان يقوم بجولة تفتيشية في الجبهة. ووافق رئيس الوزراء ورئيس البرلمان والسكرتير العام للحزب الإسلامي على تشكيل لجنة ثلاثية لحكم البلاد حتى يتم عقد انتخابات رئاسية. وانتهزوا الفرصة للتخلص من مسعود رجوي الذي اشترك مع بني صدر في اختفائه. ومع ذلك، كانت حركته "مجاهدو الشعب" مصممة على الثأر التي انتفضت وشنت حملة من الهجومات الدموية والإرهابية في مدن البلاد الكبرى.

وفي يوم 28 حزيران 1981، دمر انفجار غاشم مقرّ الحزب الجمهوري الإسلامي، وأنهم بذلك مجاهدو الشعب⁽¹⁾. كان من بين الضحايا الأربعة والسبعين آية الله بهشتي، السكرتير العام للحزب، ورئيس مجلس أمناء الثورة، وهو الرجل الثاني في النظام الذي لم يتمتع بالوقت الكافي بانتصاره على أبي الحسن بني صدر. لقد تم قطع رأس حكومته لمقتل أربعة عشر وزيرًا ووزيرًا مفوضًا الذين كانوا من بين الحضور في ذلك الاجتماع الذي كان يرأسه في أثناء وقوع الانفجار. إن موت آية الله بهشتي فتح الطريق أمام الملايكي الشباب

1 - أشار أعداء أكبر هاشمي رفسنجاني إلى أنه غادر مقرّ الحزب الجمهوري الإسلامي بارتياح قبل خمس عشرة دقيقة من الانفجار. ولم يتردّد بعضهم في القول إنه هو المسؤول عن الانفجار الذي قتل أغلبية منافسيه. ويفترض آخرون عدم توجيه اللوم له بسبب الهجوم ولكن تم إخباره بذلك وقرر الإفادة منه. ولا ترى جماعة أخرى أنه مذنب، وتمنّت له حظًا متغطرًا.

الذين كانوا يخططون منذ سنتين لوضع أنفسهم في السباق نحو السلطة العليا: أكبر هاشمي رفسنجاني، وهو الأكبر سنًا بين الاثنين، وعلي خامنئي.

كان أكبر هاشمي رفسنجاني البالغ من العمر ستًا وأربعين سنةً نتاج تربية متميزة للطبقة التجارية، مرحًا براغماتيًا، مرهف الذوق، ولكن قبل كل ذلك لديه طموح هائل. فقد انتُخب عضوًا في البرلمان في الدورة الأولى بعد الثورة الإسلامية، وولد لعائلة تجارية ثرية جدًا، يدرك جيدًا أنّ السلطة الحقيقية تكمن بأيدي أولئك الذين يسيطرون على المال. وهذه القناعة هي التي تحكمت بقراره للمناورة بحكمة ليصبح الناطق باسم البرلمان الذي سيسمح له بفتح ميزانية الدولة، وينسب أموال الرشا على الغرف الخلفية للنظام الجديد بما يناسبه. وعلى الرغم من شكله القصير الممتلئ ومظهره الحقيقي، كان أكبر هاشمي رفسنجاني متمردًا في قلبه. فقد عاش متخفيًا خلال الأشهر الأخيرة من حكم الشاه لتجنب الإذلال بالسجن. لكنّه كان مقاتلًا واستراتيجيًا له مصلحة في القضايا العسكرية، ولم يتردد في قضاء عدة أسابيع في الجبهة ممثلًا للمرشد الأعلى في مجلس الدفاع الأعلى. كان يطمح لإقامة نظام ثيوقراطي يحفظ مكاسب الثورة جنبًا إلى جنب مع اقتصاد السوق.

غذى هذا الطموح من عداوته إلى الجماعات الماركسية الممزقة مثل مجاهدي الشعب. كانت رغبته العميقة الوصول إلى أعلى موقع في السلطة لإعادة بناء وتحديث إيران بشكل يتناغم مع عقائد الإسلام الشيعي ووضع اسمه في كتب التاريخ. كان رفسنجاني مستعدًا لعمل أيّ تحالف للوصول إلى هدفه، وإن كان مع قوى خارجية ما دام أنّها لم تستدع أي إشكالية تتعلق باستقلال الجمهورية الإسلامية وسيادتها. وعلى عكس مواقف بعض الملالي الذين لم يغادروا إيران أبدًا ويشككون بالعالم الخارجي، فإنّه لم يكن متخوفًا من البلدان الأخرى، فهو يعرف الدول الغربية ويدرك جيدًا أنّ بإمكانه المناورة مع قادتها للوصول إلى أهدافه، فشبكة علاقاته وتحالفه التي بناها مع كل مستويات المجتمع بوصفه ناطقًا باسم البرلمان وضعت في موضع مركزي الذي أصبح بموجبه ليس ممثلًا جيدًا للبرجوازية المحلية، بل لاعبًا أساسيًا في السياسة الإيرانية. وبكلّ الاعتبارات تذكرنا شخصيته بدانتون في الثورة الفرنسية.

كان علي خامنئي يشبه روبسبير إلى حدٍ كبير. هذه الشخصية البالغة من العمر إحدى وأربعين سنة، المقتصدة، والأنيقة، والعنيدة، والمثقفة عقائديًا، يمثل جماعة النظام الأكثر "يعقوبية". وبوصفه ابنًا وحفيدًا لآيات الله كان علي خامنئي متشبعًا منذ سنواته المبكرة بالعقائد الأكثر صرامة في الإسلام الشيعي. وجعل من موقع المرشد الأعلى موقرًا برئاسة رجل دين، وكان مقتنعًا أن قيام الجمهورية الإسلامية سيُعجل من ظهور الإمام المنتظر. وهذه الشخصية الذكية والأيدولوجية، والتكتيكي الماهر يطمح لخلافة آية الله الخميني ويحافظ على تركته الثورية ورؤيته الإسلامية التي تتجنب أيّ نفوذ أجنبي. وبذلك، فهو مصمّم على أن يكون في معسكر الانعزاليين الذي جذب أولئك الذين يدحضون حاجة إيران للانفتاح على العالم الخارجي ويفترض أن بمقدور البلاد التطور على وفق أنموذج وطني يقوم على الاكتفاء الذاتي وبمجرد الاعتماد على الموارد البشرية والطبيعية والروحية لإيران. وكما هو الحال مع أستاذه، كان علي خامنئي فخورًا وصلبًا في القضايا المبدئية. ومع ذلك، فهو لم يكن رجل عمل. وبينما هو القائد الرسمي للباسدران، فإن سلطته أخلاقية وروحية قبل كل شيء، ويقوم بمهام المفوض السياسي أكثر منه زعيم حرب. وفي رئاسته للقوات المسلحة، فإنه يعتمد على حفنة من الضباط الشباب الذين برزوا من بين صفوف الجيش.

يدرك كل من أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي أن المستقبل لهم ما دام أحدهما يدعم الآخر ويشتركان في السلطة بذكاء. وبينما ينتظران وفاة المرشد الأعلى البالغ من العمر تسعًا وسبعين سنة، فإنهما اتفقا على واجهة ظاهرية من الوحدة بهدف إسكات المنتقسين من رجال الدين الأصوليين. وعلى الرغم من تنافسهم، فقد تطوّرت بينهم نوعٌ من الصداقة الحميمة، واجتازوا صعوبات الثورة جنبًا إلى جنب، وقرّروا العمل معًا؛ للتخلص من كل المنافسين الأقوياء، وبدؤوا بآية الله منتظري الذي عينه المرشد الأعلى وريثًا شرعيًا له بعد وفاة آية الله بهشتي. ولا يوجد من رجال الدين من يملك الشخصية والقدرات والطموح لخلافة المرشد الأعلى، فالمقيمون في مدينة قم يفضلون التركيز على شؤون علماء الدين لا غير. ومع ذلك كان أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي يفكّرون بمهدي كروبي البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا، ومحمد خاتمي وعمره ثمانٍ وثلاثون سنة، وهما من جيل

الملاي نفسه الذين سيحاولون توجيه سيرتهم وطموحاتهم في الاتجاه نفسه. أمّا رجال الدين الشباب مثل حسن روحاني؛ سيتعيّن عليهم انتظار الفرصة الملائمة. وفي مطلع شهر تموز سُنت حملة شرسة ضدّ ناشطي مجاهدي الشعب وبيكار. كان الملاي مصممين على الثأر لقتلاهم وتأكيد سلطتهم. ففي صيف العام 1981 شهدت إيران الصفحة الثانية والراديكالية من الثورة الإسلامية، ففي أسابيع قليلة اعتُقل أكثر من ألفين من مقاتلي المقاومة الذين تمت محاكمتهم صورياً ثمّ إعدامهم. ولذلك؛ ولم تملك الحكومة المؤقتة الوقت الكافي آنذاك لإشغال نفسها بالجبهة مع العراق، وركزت كلّ جهودها على الجبهة الداخلية. ومن دون وجود خطة مركزية أو هدف محدد، لم تكن القيادة العسكرية العليا قادرةً على شنّ هجومٍ شاملٍ في الصيف كما يتوقّع الكثير. ولذلك؛ اقتصر القتال مع العراقيين على رشقات المدفعية وعمليات المضايقة المحدودة التي لم تؤدّ إلى مكاسب تذكر. وبما إنّ آية الله الخميني مصمّمٌ على طريقة إدارته للحرب فقد رفض مرة أخرى مقترح صدام حسين لعقد هدنة ما.

ظهور التوتربين باريس وطهران

وبمساندة من آية الله الخميني، تم انتخاب علي رجوي بدلاً من بني صدر رئيساً للجمهورية في 28 تموز 1981. وأصرّ المرشد الأعلى على تعيين محمد جواد بهانور رئيساً للوزراء؛ وذلك للحفاظ على حالة السلطة المشتركة بين نفوذ مختلف شرائح المجتمع. كان بهانور البالغ من العمر سبعةً وأربعين عاماً من العمر واسع المعرفة ولكنه يفتقر للطموح السياسي، وكان اهتمامه الأساسي أن يمثل مصالح رجال الدين. وتم تشكيل الحكومة التي ضمت العدد القليل من العلمانيين ومن بينهم وزير الدفاع العقيد نامجو، ووزير الشؤون الخارجية مير حسين موسوي، ولكنهم من المقربين للدوائر الدينية. أدرك أبو الحسن بني صدر ومسعود رجوي وبعد إعدام الكثير من جماعتهم أنّ من الأفضل لهما أن يذهبا للمنفى والاستمرار في الكفاح من الخارج. ولا سيّما أنّ الرئيس السابق يمكنه الاعتماد على شبكة آمنة للهروب بفضل علاقاته الواسعة مع القوة الجوية وبعد إطلاق سراح الكثير من الطيارين من السجن.

وفي يوم 29 تموز دخل الرجلان إلى قاعدة مهراباد الجوية متتكرين بزني جنود نظاميين وبهويات مزورة. وصعدوا إلى طائرة بوينغ 707 المخصصة للتزود بالوقود في الجو وفي مهمة تدريبية. وحالما أصبحوا في الجو، ادعى الطيار وجود خلل فني كحجة للهروب إلى تركيا بتحليق على ارتفاع منخفض، رفضت أنقرة منح بني صدر اللجوء السياسي. لذلك؛ استمرت الطائرة في رحلتها إلى فرنسا، حيث كان الرئيس السابق يملك علاقات متينة مع الكثير من الأصدقاء في الحكومة الاشتراكية. قبلت السلطات الفرنسية منح الرجلين اللجوء السياسي شريطة عدم القيام بأي نشاط سياسي يتناقض ووضعهم بصفة لاجئين. وعلى الرغم من الرؤى المختلفة للرجلين فإنهما يشتركان في عدائهم للنظام الإيراني مما جعلهما صديقين. وفي الواقع، سيتزوج مسعود رجوي بعد أشهر قليلة الابنة الكبرى لبني صدر.

سبب لجوء بني صدر ومسعود رجوي بفرنسا تدهورًا مفاجئًا في العلاقات بين باريس وطهران المتأزمة أصلاً. فقد أشار آية الله الخميني إلى فرنسا ونعتها "بالشيطان الأصغر". إن الترحيب الحار الذي رافق آية الله الخميني في فرنسا خلال إقامته في نوفيل لي شاتو أصبح شيئًا من الماضي. فقد دعت حكومة بيير ماوري جميع المواطنين الفرنسيين المقيمين بإيران إلى العودة لفرنسا. أجابت طهران باحتجاز اثنين وستين مواطنًا فرنسيًا بإيران، ومُلوَّحة بتهديد أزمة رهائن في الأفق تشبه تلك التي عرفها الدبلوماسيون الأمريكيون قبل سنتين استمرت لأكثر من أسبوع. وفي محاولة لتخفيف غضب الحكومة الإيرانية قامت باريس بشحن القوارب الثلاثة المقاتلة الحاملة للصواريخ إلى طهران، والمتبقية لديها منذ سقوط الشاه نتيجة للحظر المفروض على إيران. ولكن اللقاء الودي وبشكل خاص بين طارق عزيز وفرانسوا ميتران في ذلك الوقت أعطي تغطية إعلامية كثيفة ولم يمرّ دون مراقبة المخابرات الإيرانية.

اغتيال لويس ديلا مير السفير الفرنسي في بيروت في يوم 4 أيلول 1981، وادّعت الفصائل المسلحة لحركة أمل الشيعية مسؤوليتها عن العملية، لكن السلطات الفرنسية كانت مقتنعة أن تلك الفصائل عملت بناء على توجيهات من طهران⁽¹⁾. فالعلاقات بين

1- Maurice Vaisse, *La Puissance ou L'influence? La France dans le monde depuis 1958*(Paris: Fayard,2009), 389.

الفصائل الشيعية اللبنانية ورجال الدين معروفة ونظام الملاهي يهدد دوما فرنسا. كما تم اغتيال عميل المخابرات الفرنسية الخارجية جاي كافالوت Guy Cavallot وزوجته والذي كانت تحقيقاته حول الشبكات الإيرانية في لبنان قد اقتربت قليلاً من نتائجها. بدلت باريس مباشرة وبصورة راديكالية سياستها تجاه طهران وزادت من شحنات السلاح للعراق، ووقعت صفقة "البركان" مع بغداد التي تعهدت فرنسا بموجبها تسليم بغداد 81 مدفعية ذاتية الدفع متطورة جداً ذات 155 ملم نوع GCT و AUF1 القادرة على إطلاق رشقات كثيفة من القذائف على الموجات الهجومية الإيرانية. هذه الهدية الضخمة من شركة GIAT الصناعية التي سبق وأن اشترى العراق منها مئة ناقلة للمشاة ومقاتلة نوع AMX-10p وعشر دبابات قتالية نوع AMX-30. كانت صفقة الدبابات هذه تنطوي على صفقة أخرى أكبر، لكن رئاسة الأركان لم تستمر في الصفقة؛ بسبب تجميد المعارك، وفضلت شراء قطع المدفعية والصواريخ بدلاً منها. وباعت شركة Snias العراقيين عشر طائرات هليكوبتر Pumas وأربعين طائرة هليكوبتر غزال مع تجهيزاتها من صواريخ Hot المضادة للدبابات. وتعهّدت باريس بتزويد العراق بأربع عشرة منظومة صواريخ نوع رولاند مضادة للطائرات التي تسمح بمواجهة أفضل ضد غارات المقاتلات الإيرانية. وتم إرسال المستشارين العسكريين الفرنسيين العاملين بتلك الشركات إلى العراق لمساعدة العسكريين العراقيين في المواقع العسكرية ذات الصلة. ولإظهار شكرها جدّدت بغداد معاهدة التعاون النفطي الخاصة مع فرنسا.

رفسنجاني وخامنئي يتشاركان في السلطة

في مطلع شهر آب استخدمت الحكومة الإيرانية مشاركة القوة الجوية في قضية هروب مسعود رجوي وبني صدر كتبرير لحملتها لتطهير القوة الجوية مرة أخرى. فكلّ جهود الجنرال فاكوري لكسب ثقة السلطات ذهبت سدى. فأغلب المهمات الجوية تم إلغاؤها وعدم السماح للطيارين بالتحليق وخضعوا للاستجواب المطول. والطيارون الذين سُمح لهم بالطيران زودوا بأقل كمية من الوقود لضمان عدم محاولتهم الهروب للبلدان

المجاورة. ومن الآن ولاحقًا، كلُّ مهمة جوية يجب أن تحصل على موافقة المفوض السياسي في القاعدة. وتم تقليص كمية السلاح المجهز لمنع الطيارين من مهاجمة رموز النظام. ومن الطبيعي أنَّ هذه الإجراءات القاسية قد أثرت في قدرات القوة الجوية للقيام بالعملياتِ ممَّا جعلها تقريبًا بعيدةً تمامًا عن الجبهة لعدة أشهر. لذلك؛ انتهز العراقيون الفرصة لزيادة طلعاتهم الجوية لقصف القوات الإيرانية ومنشآت النفط. بينما استمرت في الوقت نفسه الهجمات الإرهابية في طهران وتبريز وشيراز وأصفهان.

وفي 30 آب 1981، هزَّ انفجارٌ مقرات الحكومة حينما كان مجلس الوزراء على وشك الانتهاء برئاسة علي رجائي الذي قُتل مع رئيس وزرائه وعدة وزراء آخرين. ادَّعت حركة مجاهدي الشعب مسؤوليتها عن الانفجار للثأر من إعدام رفاقهم. وهكذا بعد شهرين تم تدمير السلطة التنفيذية مرة أخرى. قرر آية الله الخميني أنَّه قد حان الوقت لوضع السلطة كاملة بأيدي رجال الدين، وتمَّ لجم المعارضة التقدمية، وكسح أنصار الشاه السابقين نهائيًا. ومن المؤكد بقاء عناصر مجاهدي الشعب والمقاتلين؛ من أجل الاستقلال هنا وهناك ولكن تعرضوا لحملة قمع شرسة. وبالاتفاق مع الجماعة المتضررة من الانفجار، ورَّع المرشد الأعلى المسؤوليات وأبقى أكبر هاشمي رفسنجاني ناطقًا باسم البرلمان والمسؤول عن المالية، وانتخاب علي خامنئي رئيسًا للجمهورية. وأجبر آية الله منتظري على قبول هذا الاتفاق؛ لأنه لم يطع مؤخرًا المرشد الأعلى الذي انتقد وبقسوة موقفه من مجاهدي الشعب. كان منتظري يرى أنَّ هؤلاء الرجال الذين عرفهم في سجن الشاه ربما كانوا معادين للنظام لكنهم بقوا من المسلمين الشيعة الأصلاء، ولا بدَّ من معاملتهم بإنسانية أكثر، فمنتظري يعدُّ نفسه رجلًا حرًا، وليس مدبرًا لمكائد، فهو يقول ما يجول بخاطره.

ابتهج كثيرًا كلُّ من أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي بوصولهم إلى أعلى موقعين حكوميين، وكل منافسيهم الخطيرين إمَّا تم قتلهم أو جرى تهميشهم. وشكّلوا حكومة من التقنوقراط المخلصين لرجال الدين. كان علي لاريجاني من بين الشباب الذين تمت ترقيتهم، فهو مهندس يبلغ من العمر أربعًا وعشرين سنة وابنُ لآية الله الذي سيشغل منصب وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية خلال فترة الحرب، ويكون وزيرًا للإعلام لاحقًا، وسكرتيرًا لمجلس الأمن القومي، ثمَّ رئيس المفاوضين النوويين الإيرانيين. وخاض انتخابات الرئاسة

عام 2005 ولم ينجح، وبعد ذلك أصبح الناطق باسم البرلمان. وبذلك، فرض نفسه بوصفه واحدًا من اللاعبين الأساسيين في الحياة السياسية الإيرانية.

كان أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي يدركون أنه من أجل مصلحتهم يجب تجنب أيّ نزاع بينهما للمحافظة على مصداقيتهم وعلى السلطة. واتفقوا على تعيين رئيس وزراء غير متحيز ويعمل بلا كلل أو ملل ومخلص لرجال الدين، والذي سيكون عازلاً بين شخصيتيهما المتناقضتين. ولذلك؛ اختاروا مير حسين موسوي البالغ أربعين سنة من العمر ووزير الشؤون الخارجية السابق ومن الأصول الأذرية، ويتميّز أنه لا ينتمي إلى أية عشيرة معينة أو لمدرسة فكرية محددة، فهو ابنٌ لآية الله ومهندسٌ معماري وفنانٌ في أوقاته الحرة، واشتراكي ومسلم مخلص، ولا يفكر بأية طموحات كبيرة. لقد مدحه آية الله الخميني بوصفه متفانيًا ونزيهاً ومثاليًا ومتواضعًا. ومثل هذه الشخصية تمثل مرشحًا وسطًا بين الطرفين مسؤولًا عن إدارة الأعمال اليومية ويدبر الموارد المالية. كانت مهمته الأولى إنعاش إنتاج النفط؛ من أجل زيادة موارد الدولة المالية، وإنجاز نظام البطاقة التموينية. لقد فرض مير حسين موسوي نفسه مديرًا جيدًا، وقریبًا من الناس، ويقدره أسياده ومواطنوه.

لقد أصرَّ أكبر هاشمي رفسنجاني أن يتولى طبيب الأطفال علي أكبر ولايتي البالغ من العمر ستًا وثلاثين سنة وزارة الشؤون الخارجية، وكان يأمل أن يكون هذا التعيين يسمح له السيطرة على القضايا الدولية. وتم الإبقاء على العقيد نامجو ذي الاثنتين وأربعين عامًا وزيرًا للدفاع، ولكن بقي دوره ثانويًا مديرًا للقوات المسلحة فقط ولا قول له في قرارات الحرب. واتفق أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي على مراقبة محمد خاتمي وذلك بتعيينه وزيرًا للإعلام والثقافة. وكان هذا الشاب المتدين الذمّ والطموح فيلسوفًا أشرف على تحرير جريدة الحزب الجمهوري الإسلامي منذ المناداة بالجمهورية الإسلامية. وأصبح الآن المسؤول عن حلقة إعلام الحرب للنظام. سيتم انتخاب محمد خاتمي رئيسًا للجمهورية في العام 1997 عن الإصلاحيين والذي وعد بتحسين مكانة المرأة وتوسيع حقوق الشباب. وأعيد انتخابه في العام 2001 وأُجبر على الانسحاب في نهاية فترته الثانية - استنادًا إلى الدستور الإيراني - فاتحًا الطريق أمام محمود أحمددي نجاد للرئاسة. ومنذ ذلك الوقت كان من النشطين في المعسكر الإصلاحي يدعو إلى انفتاح إيران على العالم الخارجي في الوقت الذي نحافظ على تقدم الجمهورية الإسلامية.

وتم أيضًا تعيين مهدي كروبي رئيسًا لمؤسسة الشهداء التي أنشأها مؤخرًا آية الله الخميني لمساعدة عوائل الجنود الشهداء والجرحى. وسبق كروبي من العمال الاجتماعيين البارز في النظام والوسيط بين الحكومة والسكان خلال فترة الحرب. وهو الشخصية الوحيدة التي تسلّم مباشرة شكاوى السكان وطلباتهم والتماساتهم للمساعدة. وهذه المسؤولية تتناسب مع رجل الدين هذا الواعد والمجسّد للتحالف بين رجال الدين وعالم التجارة في البازار. وبعد أن ارتقى السلم في داخل مجلس تشخيص مصلحة النظام أصبح مهدي كروبي الناطق باسم البرلمان للفترة 1989-1992، ثم للفترة 2000-2004. وتبنّى قضية الإصلاحيين في العام 2005 وصار معارضًا مباشرة لسياسات أحمددي نجاد المحافظة.

ومنذ بداية صيف عام 1981 تولّى جيلٌ من الشباب في الأربعينات من العمر - عدا المرشد الأعلى - السلطة في طهران. لكن المؤسسات الأكثر نفوذًا بقيت بأيدي رجال الدين ويضمونها رئاسة الجمهورية، والبرلمان، ومجلس الخبراء، ومجلس مصلحة تشخيص النظام، ومجلس أمناء الثورة.

قائد جديد، عقيدة جديدة

ومن أجل وضع اللمسات الجديدة على التحول في السلطة، عين آية الله الخميني أكبر هاشمي رفسنجاني قائدًا جديدًا للقوات المسلحة. وبذلك أصبح رفسنجاني الآن مسؤولًا بالتزامن عن رئاسة البرلمان وإدارة مالية النظام، وقائدًا للمجهود الحربي. فقد تعلم المرشد الأعلى من فشل بني صدر ضرورة توفر الكفاءة المباشرة في العمليات. وأراد تجنب الرئيس وحماية منزلته في حالة الهزائم العسكرية. وربما أراد حماية علي خامنئي، ولا سيّما أنّه أدرك أنّه ليس الشخص المناسب للمهمة الصعبة لرئاسة الجيوش، المهمة التي تتطلب شخصية عسكرية، وممارسة حقيقية للعمليات، وطريقة واضحة في العمل والقيادة. يبدو أنّ أكبر هاشمي رفسنجاني يملك كلّ هذه السجايا، ولكن المرشد الأعلى لم يكن مثيله في علاقاته الغامضة مع عالم التجارة والأعمال ومزاجه المختلف للمال.

أدرك الناطق باسم البرلمان مباشرة أن مهمته الأولى ستكون كسب الحرب ضد العراق. كان ذلك يمثل نيته لفرض نفسه رئيسًا للنظام في المستقبل أو ربما مرشدًا أعلى للجمهورية الإسلامية. مستحضرًا مواهبه خبيرًا استراتيجيًا، فقد وضع نفسه بالكامل في إدارة الحرب، فهو لم يتردد في قضاء عدة أسابيع في الجبهة لتشجيع قواته ومتابعة وتوضيح العمليات من قرب، وكلما أمكن ذلك. كانت أولوياته كبح جماح رئاسة الأركان ومنح الباسدران سلطات أكثر. ووجد في القيادة العسكرية العليا وبضمنها الكثير من الأفراد من يميل إلى الرئيس السابق بني صدر. وفي يوم 29 أيلول 1981، سقطت طائرة C-130 في وسط إيران وهي تقلُّ رئيس الأركان عند عودته من جولة تفتيشية في الجبهة. انفجرت طائرة النقل هذه وذات الأربع محركات في الجو واصطدمت بالأرض. وكان من بين الضحايا الثمانية والثلاثين الجنرال ولي الله فلاحي رئيس أركان القوات المسلحة والجنرال نامجو وزير الدفاع، والجنرال فاكوري قائد القوة الجوية. وظروف هذه الحادثة الغريبة لم توضح أبدًا. والكثير من يعتقد أنها من عمل مخبرات النظام السرية⁽¹⁾. وفي كل الأحوال، فقد تم إلغاء منصب رئاسة الأركان. انتهز أكبر هاشمي رفسنجاني الفرصة وقام بترقية ضباط جدد قريين من رجال الدين. أصبح الجنرال قاسم علي زهر نجاد قائدًا للقوات المسلحة بدلًا من الجنرال فلاحي، بينما أسند منصبه السابق إلى الجنرال علي شيرازي ليكون قائدًا للقوات البرية. وتولى العقيد حسن موجان بور - وهو من المتدينين المتعصبين المعروفين - قيادة القوة الجوية، وتعيين الجنرال محمد سليمي وزيرًا للدفاع. وتمت ترقية الكثير من الجنرالات لقيادة عدد من الأقسام العسكرية الأخرى. وكسب فيلق الحرس الثوري الإيراني رؤية ووضوحًا أكبر. أصبح محسن رضائي البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا رئيسًا له، وهو من أنصار آية الله الخميني الذي تميَّز في جبهة القتال ضدَّ العراقيين خلال الصفحة الأولى من الحرب. وعلى الرغم من أنه لم يكن معقدًا إلى حدِّ ما، فإنَّ شخصيته عملت العجائب في ميدان القتال. كان الرجل الثاني بعد علي شمخاني المهندس الزراعي البالغ من العمر ستة

1 - ومن الملاحظ Tom Cooper و Farzad Bishop في كتابهم

"Iran-Iraq War in the Air, 1980-1988 (Atglen, PA: Schiffer Publishing, 2000), 127-128.

وعشرين عامًا والمعروف جدًا بين الفلاحين والذي شكل كتائب كبيرة من وحدات الباسدران. لقد برهن شمعاني أنه قائدٌ استثنائيٌّ في القتال بخوزستان. ومنح هذين الرجلين سلطات هائلة، والاتصال برفسنجاني حصرًا وبتجاوز كل التراتبية العسكرية التقليدية تمامًا. ومن أجل تشديد قبضتهم على القوّات المسلحة، عين الملامي "مديرًا للفكر السياسي" لكل الضباط الذين سيخدمون بصفة مفوضين سياسيين. احتفظ أكبر هاشمي رفسنجاني برئاسة مجلس الدفاع الأعلى، ولكنه اتبع سياسة غير رسمية لسلسلة موازية في القيادة كانت أكثر مرونةً ومتفاعلةً وأعطته سلطةً على كلٍّ من الباسدران ورياسة القوات المسلحة، وتمكنه الآن من فرض رؤاه على كلٍّ وحدات القيادة. وبالاتفاق مع رئاسة أركان القوات المسلحة والناطق القوي باسم البرلمان بدأ بالترويج الشعبي لمفهوم الجهاد (الحرب المقدسة) الذي من المفترض أن يقود كل مقاتل إيراني الآن لاستعادة الأراضي المحتلة في حرب دينية شاملة. ومن أجل إخضاع المقاتلين، طلب من رئاسة الأركان تسمية كل العمليات التالية بأحداث من تاريخ الإسلام الشيعي.

وبالمعنى العسكري لمفهوم الجهاد، فإنه يستند إلى ثلاثة مبادئ: الأول يشير إلى ولاية الفقيه: وبما إن آية الله الخميني يفسر قواعد الشريعة فإن أوامره يجب أن تطاع حرفياً ودون أي نقاش. والثاني يقوم على الكفاءة الذاتية: لم يعد الجيش يعتمد على الأمم الأجنبية في معداته وذخيرته كما كان في الماضي، ويجب بذل كل الجهود للسماح لصناعة الأسلحة المحلية بالنهوض، ولحدوث ذلك، لا بد من البحث عن بدائل للتجهيز. والثالث يركز على البساطة: زيادة فرص النجاح، وتقليل مخاطر النزاع بين الجيش النظامي والباسدران. ويجب على الضباط المسؤولون عن العمليات وضع الأولويات للخطط المنفذة ببساطة وتقليص غير الموزونة منها. هذه العقيدة العسكرية الجديدة تتضمن ملاذاً مناسباً إلى الموارد الرخيصة فقط التي تملك الجمهورية كميات كبيرة منها، ومنها قواتها. فالملامي مستعدون للتضحية بأعداد تُعدُّ ولا تحصى من جنودهم لتعويض النقص المادي ومعاقبة أعدائهم. وبما إنهم ربحوا الحرب الأولى - غزوهم للسلطة - فإنهم يجب أن يربحوا الحرب الثانية القادمة ضد أعدائهم في الداخل وضد العراقيين.

الفصل الثاني عشر

الانتصارات الأولى

شنت القيادة الإيرانية في مطلع شهر أيلول 1981 هجوماً لإعادة الاستيلاء على جزء من الأراضي التي خسروها في السنة الماضية. ففي خوزستان خاضت عدة ألوية من الباسدران وبدعم من الفرقة الآلية 84 نهر الكرخة بالقرب من الشوش وشتت سلسلة من الهجمات ضد المخافر العراقية. لم تكن أهدافهم اختراق خطوط العدو، بل لإنهاك أعدائهم وجعلهم يخسرون الأرض وتضليلهم بمكان الهجوم الرئيس. وخلال ثلاثة أسابيع كان جنود المشاة يقضون الأرض ويرجعون العراقيين لمسافة ستة أميال (عشرة كيلومترات) التي سمحت لهم بإقامة موطئ رأس جسر قوي إلى الغرب من نهر الكرخة، فضلاً عن توسيع نتوء سوسنكرد. توقع العراقيون أن تبدأ الألوية المدرعة بالعمل، وليس قطعان من المقاتلين، كانت دباباتهم مرابطة على خط الجبهة خلف المرسى فقط ولا تملك دعمًا من الجنود المشاة القادرين على إيقاف ألوية المشاة الإيرانية التي غمرت مواقعهم، مما أجبرهم على التراجع لتجنب الخسارة.

وفي غضون ذلك، أعاد الإيرانيون ترتيب معداتهم وحركوا تعزيزاتهم سرًا إلى الجنوب من أهواز، ونشروا الفرقة الآلية 21 على طول منطقة الأهوار بين سوسنكرد وعبادان. وشقت فرقة من الباسدران طريقها بهدوء عبر الأهوار إلى رأس الجسر الذي تمسكه الفرقة

الخامسة العراقية. وللمرة الأولى شكلت القيادة العسكرية العليا الإيرانية وحدات قتالية مختلطة من القوات النظامية والحرس الثوري.

إنقاذ عبادان

في ليلة 26-27 أيلول 1981 شنّ الإيرانيون هجوم "ثامن الأئمة"؛ بهدف كسر الحصار على عبادان وتحرير الضفة الشرقية من نهر الكارون. كان عنصر المفاجأة كاملاً، حيث دكت المدفعية الإيرانية مقرات قيادة الفرقة الخامسة العراقية في دارخوفين. ولم يتمكن الضباط العراقيون المربكون من تنظيم هجوم معاكس. وبصيحة "الله أكبر" جماعية تمكن الإيرانيون من التسلل إلى خطوط العدو إلى أبعد ما يمكن، حاملين صواريخ تاو المضادة للدبابات، وسدّدوا ضربة قاتلة للدبابات العراقية التي حاولت الرد في حالة من الارتباك التام. وفي غضون ذلك، تقدّم الباسدران تحت نيران المدفعية المتواصلة وبانفتاح دبابات الجيش النظامي من الجانبين التي ضربت ما يقابلها من دبابات معادية وكل وكر للمقاومة. لقد تعلّم الإيرانيون من أخطائهم السابقة وأعادوا اكتشاف فعالية الاندفاع بقوة ماحقة على العدو. ولم تعد الدبابات تفر مذعورة! وانضم إلى الهجوم لواءان من الباسدران توجّهوا من عبادان، ولا سيّما أنّ كفة القتال كانت تميل إلى جانبهم. ومن أجل أن يهزّ قواته، أعلن آية الله الخميني "يجب كسر الحصار على عبادان"⁽¹⁾. وساد الميدان نوعٌ من الغموض؛ لأنّ اللواء 88 مزود بالدبابات T-55 وهي نفسها التي يستخدمها العراقيون. ولذلك؛ في خضم هذا الارتباك انهزم العراقيون وتراجعوا إلى دارخوفين وحاولوا عبور نهر الكارون على جسر عائم كان يتعرض باستمرار إلى ضربات القوة الجوية الإيرانية. ترك العراقيون نحو 55 دبابة و200 آلية مدرعة، وكل مدفيعتهم الثقيلة على الضفة الشرقية من النهر.

وفي يوم 29 أيلول تمكن الإيرانيون من السيطرة على كامل الضفة الشرقية لنهر الكارون وأعادوا فتح الطريق بين أهواز وعبادان. أمّا الخمسة عشر ألف مقاتل الذين كانوا

1 - صحيفة كيهان، يوم 27 أيلول 1981.

تحت الحصار لمدة عام تقريباً؛ فقد اخترقوا الحواجز الماسكة لهم ودفعوا طليعة القوات العراقية إلى الجانب الآخر من النهر. وأعاد العراقيون تموضعهم في خور مشهر، والآلاف منهم يدور حول نفسه غضباً ومحبطاً يحاول إيجاد طريق لاستعادة خطوط قتالهم، ولكن تم القبض عليهم بسرعة من الباسدران الذي عرضهم على الإعلام الدولي لتصويرهم. كانت الرسالة واضحة بجلاء: أن الإيرانيين استرجعوا المبادرة، وأنهم مضممون على استرجاع أراضيهم بالقوة. وعلى الرغم من انتصارهم فإن هجوم ثامن الأئمة قد أنهكهم، إذ سقط منهم ألفا قتيل في كسر الحصار على عبادان، وأكثر من خمسة آلاف جريح. في بغداد استشاط صدام حسين غضباً وطرّد قائد الفرقة الخامسة، وترك الفرقتين المدرعتين الثالثة والتاسعة تدافعان عن الضفة الغربية لنهر الكارون. وأرسلت القيادة العسكرية العليا التعزيزات من كردستان لمسك قاطع البستان والعبور من خلال نتوء سوسنكرد. وأرسلت الفرقة الرابعة عشر إلى المنطقة لتشكيل خطٍ ثانٍ في حالة خرق العدو للمواقع العراقية.

وفي غضون ذلك، ركزت السلطات الإيرانية اهتمامها على كردستان، وقد جندت ستين ألف مقاتل، نصفهم من الباسدران لإعادة السيطرة على المحافظات المتمردة. أنزل عبد الرحمن قاسملو خمسة عشر ألفاً من مقاتليه لصدّهم. كان هدف الإيرانيين الاستيلاء على سنندج التي ركز فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني أفضل قواته، والاستيلاء على سنندج سيسمح لهم بإرسال التجهيزات للفرقة 64 المحاصرة في ماريقان.

شنت القيادة العسكرية العليا الإيرانية هجومها لاستعادة سنندج. هجمت الفرقة المدرعة 16 التي وصلت من دزفول على المخافر الكردية، وطوقت المدينة وأعدت الاتصال مع الفرقة 64. وقدمت فرقة ذو الفقار من الباسدران دعمها. وبعد قتالٍ شرسٍ استمر ثلاثة أسابيع وبإسناد من المدفعية استُعيدت المدينة. فالهدوء الخادع الذي ساد الإقليم في الأشهر القليلة السابقة قد خدع البيشمركة وحذرهما. فهم الآن معزولون، وأقامت السلطات الإيرانية سلطتها ومقراتها مباشرة بعد استعادة المدينة، واستمرت في هجومها نحو الشمال. وخلال ستة أسابيع استولت القوات الإيرانية على سقز، بوكان، مهاباد، بيرانشهر، نكده، وأورمية، بعد اتصالها مع الفرقة 28. كان تقدمهم يترافق مع حملة اضطهاد وحشية.

لقد تميز الكابتن أحمد كاظمي الذي انضم إلى الحرس الثوري وعمره ثلاث وعشرون سنة في أنه على رأس وحدة غير نظامية تتكوّن من نحو خمسين مقاتلاً والمسؤولة عن نشر الرعب في خلفيات خطوط العدو. وتميز أيضًا أنه مناور مثير للإعجاب، وقاتل دون رحمة، تشكّل من خلال تجربته في الحرب الأهلية اللبنانية إلى جانب حركة أمل الشيعية طوال الفترة 1975-1979 قبل عودته إلى إيران قبيل وقوع الثورة. فقد تميز هذا المقاتل النخبة في الكثير من المعارك، وجرح عدة مرات، تمت ترقيته إلى رتبة جنرال وتولى قيادة فرقة أشرف حتى نهاية الحرب، ثم أصبح مستشارًا عسكريًا للرئيس رفسنجاني، وأخيرًا قائدًا للقوات البرية للباسدران. وقف خلف الرئيس أحمددي نجاد في العام 2005، لكنه توفّي في ظروف غامضة بانفجار طائرته العسكرية في يوم 9 كانون الثاني 2006. وعند مناقشة وفاته، الكثير من الخبراء يعزو السبب إلى حسد الرئيس أحمددي نجاد وتخوفه من شخصيته الجذابة، وان كانت شائكة. اضطرت البيشمركة إلى الانسحاب في وجه صيحات واندفاع القوات الحكومية، وأسرعوا إلى شنّ هجومٍ معاكسٍ باتجاه بيرانشهر لإعادة فتح الطريق للحصول على الإمدادات من العراق، لكن العملية فشلت. وفي أواخر شهر تشرين الثاني، والمنطقة الآن مغطاة بالثلج، تمكنت القوات الحكومية من السيطرة على الطريق الرئيس الرابط بين سنندج وأورمية. اتخذ البيشمركة من مواقعهم الجبلية المحصنة ملجأ، والآن يسيطرون فقط على المدن الصغيرة، مثل أوشنافية، سردشت، غافيله، ونوسود، فضلًا عن بانه التي تشكل قاعدةً مهمةً. كان عبد الرحمن قاسملي واقعيًا وعليه أن يتحمل هذا الوقت، ولا سيّما خلال فصل الشتاء والانتظار أن يبدأ القتال من جديد في فصل الربيع. وفي طهران قرّر رئيس الأركان الجديد أن الوقت مناسب جدًا للتحوّل نحو خوزستان، حيث يكون الجوُّ أقلّ قساوة.

في الطريق إلى القدس

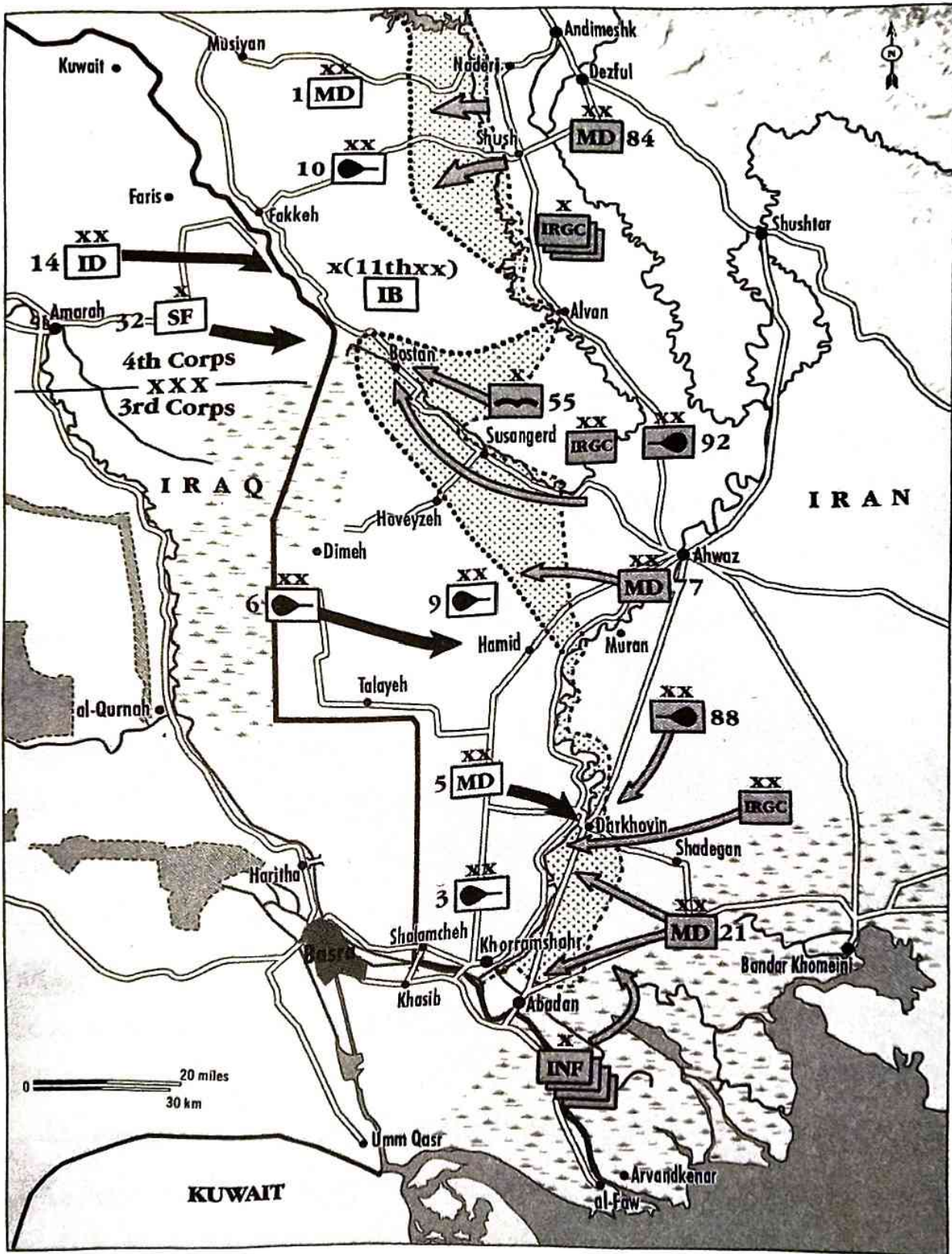
شنّ الجنرال نجاد في يوم 29 تشرين الثاني 1981 عملية "طريق القدس" في قاطع سوسنكرد، حيث حشد لها اللواء المظلي 55، وفرقة من الباسدران، ولواءي دبابات من

الفرقة المدرعة 92. بلغ مجموع القوة المقاتلة عشرين ألف جندي وستين دبابةً توجهت نحو البستان والتحرك على وفق سير الجند المشاة وتحت رشقات المطر. كان هدف الإيرانيين الاستيلاء على المدينة، ثم التوجه نحو الحدود العراقية القريبة لكي يدعو بانتصار رمزي قبل نهاية السنة. لقد وعد أكبر هاشمي رفسنجاني البرلمانين الإيرانيين أنه سيدفع الغزاة إلى الحدود في أقرب وقت ممكن. تقدمت قوات الباسدران برتلين، كلُّ واحد منهم على إحدى ضفاف نهر الكرخة، لكن الوحل الذي يغطي المنطقة أعاق عمل المدفعية. وانتشرت الدبابات على الأجنحة للاشتباك مع قوات العدو ومحاولة تطويق الرتلين وحمايتهما.

ولم يتوقع العراقيون هذا الهجوم؛ بسبب رداءة الظروف الجوية. تمكن الإيرانيون من كسب الأرض، وخلال ثلاثة أيام وصلوا إلى خارج البستان. حاول الباسدران استعادة المدينة خلال ليلة 2-3 كانون الأول وتحت الأمطار الغزيرة. كانت قوات الباسدران تواقّة لتبرهن لقادتها كفاءتها، وكذلك لرفاقهم في القوات النظامية الذين كانوا يظنون أنهم جبناء. كانت محاولتهم مضللة، فقد دُحر الباسدران بعنف بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة؛ لأنَّ العراقيين مصممون على الإمساك بهذا الموقع لمنع الإيرانيين من التوغل في الأراضي العراقية. وخلال ثلاثة أيام استطاع العراقيون المتخندقون في البستان الصمود بوجه الهجومات الإيرانية المتكررة. استخدم الإيرانيون ولأول مرة في الحرب تكتيكًا جديدًا للتغلب على العدو، من خلال الهجوم بموجات بشرية غالبًا ما تنتهي بالقتال بالأيدي. ولكن عناد الإيرانيين وإصرارهم أنتج نصرًا في النهاية، ففي يوم 6 كانون الأول سيطروا على البستان، بينما انسحب العراقيون إلى موقع يبعد عنها عدة أميال وتحت الأمطار المتجمدة. كانت الخسائر جسيمةً لكلا الطرفين. خسر العراقيون ألفًا وخمسمئة قتيل، ونحو مئة دبابة، وتسع عشرة قطعة مدفعية، وكميات كبيرة من الذخيرة. وأُسرَ أربعمئة جندي عراقي. بينما ادَّعى الإيرانيون خسارة ألف جريح قتلهم العراقيون في الميدان⁽¹⁾.

1- Edgar O'balance, The Gulf War(London: Brassey's, 1988),69.

سيقود هذا المشهد إلى نقاشات حادة بين سلطات البلدين وجمعية الهلال الأحمر الدولية.



خارطة الهجوم الإيراني المعاكس في خوزستان في شتاء 1981

أمّا في الجانب الإيراني، فقد ذكرت التقارير أنهم خسروا ألفين وخمسمئة قتيل، وضعف هذا العدد من الجرحى. أحرز أحد ألوية المشاة الراجلة مباشرة الجزء الأكبر من هذا الانتصار، من خلال دخوله الأراضي العراقية وتصويره أمام لوحة الحدود الفاصلة بين البلدين. وتمكن رفسنجاني من النفخ في هذا الانتصار الرمزي على الرغم من إجبار الكتيبة الإيرانية على التراجع أمام التعزيزات العراقية التي أرسلت إلى الحدود. أمرت القيادة العسكرية العراقية العليا فرقة المشاة 14 ولواء قوات خاصة 32 بالانتشار خارج البستان لإيقاف القوات الإيرانية. وفي غضون ذلك سحب العراقيون الفرقة المدرعة السادسة من قاطع قصر شيرين وأرسلوها إلى منطقة حميد لدعم الفرقة التاسعة وما تبقى من الفرقة الخامسة للإمساك بهذا القاطع من الجبهة. ونُشرت بدلاً من الفرقة السادسة المدرعة 17 التي تم تشكيلها قبل عدة أسابيع بتجميع دبابات Scorpion و Chieftain و Patton في وحدة عسكرية منفردة، التي تم الاستيلاء عليها من الإيرانيين سابقاً.

في يوم 12 كانون الأول 1981، شنت القيادة العسكرية الإيرانية العليا هجوماً جديداً أطلقت عليه تسمية "مطلع الفجر" في قاطع قصر شيرين. ففي ظروف جوية قاسية، هجم لواء المشاة الجبلي الخامس عشر وبدعم من ثلاثة ألوية من الباسدران، وأربعة ألوية دبابات ألحقت من الفرقتين 16 و 81 بالهجوم ليلاً على جيلان زارب، وسريل زهاب. تفاجأ العراقيون بالهجوم وأجبروا على التراجع ومغادرة المدينتين، مع أنه كان من المهم جداً لهم الاحتفاظ بسيطرتهم على الجبهة. منع المطر وظروف الطريق القاسية الفرقتين المدرعتين 12 و 17 من القيام بالهجوم المعاكس. وقد تُرك الأمر للفرقتين الرابعة والثامنة للمشاة الجبليتين محاولة إعادة الاستيلاء على المدينتين لفترة خمسة أيام، ولكن دون جدوى. وأعاقت الظروف المناخية القوة الجوية العراقية من التدخل، مما سهّل عمل الإيرانيين. وبعد أن تكبّد العراقيون خسائر جسيمة، اضطروا إلى الانسحاب.

وبينما حصل الإيرانيون على بعض المكاسب الأرضية في خوزستان، تقدمت الفرقة الآلية 77 وبدعم من آخر لواء من الفرقة المدرعة 92، نحو اثني عشر ميلاً (نحو 20 كم) باتجاه حميد والحويزة، لكن الأرض مليئة بالوحد العميق ولا يمكنهم التقدم كثيراً خوفاً من

المخاطرة في الغطس فيه. ولذلك؛ أوقفوا تقدمهم في يوم 16 كانون الأول خارج مدينة حميد، واتخذوا وضعًا دفاعيًا بانتظار انتهاء موسم الأمطار تحت حماية دباباتهم ومدفيعتهم. وفي اليوم التالي فشل العراقيون في شنّ هجوم معاكس في قاطع الشوش. وبنهاية عام 1981 وبعد أربعة أشهرٍ من الهجمات المتواصلة، وخمسة عشر شهرًا من الحرب، تمكن الإيرانيون من الادّعاء أنّهم استعادوا نحو 40٪ من أراضيهم التي استولى عليها العراقيون.

المهندسون العراقيون يعملون بجدّ

انتهز الجيش العراقي فرصة هدنة الشتاء لتعزيز وتقوية مواضعه. ففي الجوّ البارد والرطب يشغل المهندسون الجنود ببناء المعرقلات الدفاعية، وتحسين البنية التحتية للطرق، وفتح طرق جديدة في مناطق الأهوار والمستنقعات، وإصلاح الجسور العائمة، أو بناء جسور جديدة أينما يكون ذلك ضروريًا، وبالأخص قرب خور مشهر. كان المهندسون العراقيون يشيدون أو يكسون الطرق القديمة بالاسفلت في خوزستان بانتظام لاستخدامها في نقل التجهيزات والتعزيزات للحؤول دون تعرضها للفيضان أو تصبح مغمورة بالمياه وصعبة الاجتياز في موسم تساقط الأمطار. وبدؤوا بتعريض الطريق المحاذي لنهر الفرات بين بغداد والبصرة لتخفيف زحمة المرور على الطريق الرئيس المحاذي لنهر دجلة الذي كان أكثر حساسيةً لخطر اختراق الإيرانيين له. فقد جفّفوا كثيرًا من مناطق الأهوار والمستنقعات التي ربما يمكن الاحتياج لها لنشر الدبابات لاحقًا. وبنوا الكثير من المستودعات، وطمروا أعدادًا لا تصدق من الألغام المضادة للدبابات والأشخاص. حفرت الجرافات الخنادق للمشاة، وهيؤوا أعدادًا لا حصر لها من مواقع إطلاق النار للدبابات والمدفعية. وبما إنّ موارد الهندسة العسكرية لم تكن كافيةً لضخامة حجم المهمة، صادَرَ الجيش جرافات شقّ الطرق وآلات رفع الأوساخ لتنفيذ المهمة. والكثير من الشركات المدنية أسهمت في المجهود الحربي، وفي بعض الأحيان تحت القصف المدفعي الإيراني.

أنشأ فيلق المهندسين في شتاء 1981-1982 واحدًا من أكبر إنجازاته وهو "سور فارس" الحقيقي، كما يشير إليه النظام البعثي لحماية خورمشهر. كان العراقيون مقتنعين تمامًا أن الإيرانيين سيحاولون تحرير هذا الرمز لوجود العرب على الأرض الفارسية. لم يدخر العراقيون أيَّ جهد لتعزيز دفاعات المدينة وتحويلها إلى قلعة حضرية لا يمكن مهاجمتها. فقد بنى المهندسون سورًا بارتفاع عشرة أقدام (ثلاثة أمتار)، وبعرض ثلاثين قدمًا (عشرة أمتار) من الطين المضغوط والمتاريس الرملية التي تغطي نحو ستة أميال (10 كم) على طول الحافة الشمالية الشرقية للمدينة. وحُصِّنَ هذا الساتر بخط دفاعي معقد يتكوّن من الألغام الأرضية، والأسلاك الشائكة، وكماثن متنوعة وكثيرة، وخنادق ضد الدبابات؛ بهدف وقف موجات الهجوم الإيرانية. ونُشرت الدبابات بدقة فوق الساتر، التي غطّت السهل الصحراوي الممتد بين نهايات المدينة. كانت هذه الدبابات محميةً بالمدفعية الآلية والهاونات لدحر أيّ أحدٍ يحاول تسلق الساتر أو يلتف حوله.

ورابطت سرايا من المشاة الراجلة بعيدًا وعلى استعداد لمواجهة أيّ هجوم معاكس تقوم به قوات المشاة الذين نجحوا في اختراق خطوط العدو. ومُلئت المناطق المفتوحة بالأوتاد المعدنية لمنع العدو من القيام من شنّ أيّ هجوم مجوقل على المدينة. هدمت الجرافات المباني وجرفت البساتين التي تعيق مدى البصر، وتنظيف ما يمكن تنظيفه من خطوط النار الكثيرة. وبُنيت أيضًا الغرف الصغيرة الاسمنتية المحصنة على المحاور الاستراتيجية. والألوية الثلاثة التي تسير فوق نهر الكارون باتجاه عبادان كانت محصنة وعقلانية. وتجمعت المدفعية الثقيلة على الضفة الغربية من شط العرب وهي محمية بساتر ترابي آخر بناه المهندسون على بعد مسافة كاملة لتغطية مقتربات خورمشهر. ونُصبت المدفعية بدقة خارج المدينة لتشكّل حائط صد ناريًا حقيقيًا.

وانهمكت قوة المهندسين ببناء مشروع ضخيم لحماية منطقة البصرة. فوزير الدفاع عدنان خير الله الذي يعمل بحكمة كان يدرس كل الخيارات، وكان يدرك أن ميزان القوة قد تحوّل إلى جانب الإيرانيين. وقد توصل إلى قناعة أن الإيرانيين قد يحاولون في النهاية شنّ عملية كبيرة ضد البصرة. كان يدرك أن النظام البعثي لا يمكنه تحمل خسارة هذا الموقع

الاستراتيجي والرمزي، ولا سيَّما أنَّ هذه المدينة المأهولة بالسكان الشيعة هي واحدة من المصادر المالية المهمة والمنفذ الوحيد للعراق على الخليج. وطلب من قائد قوة المهندسين اقتراح أفضل الوسائل لتطوير المدينة، واستشار ذلك القائد خبراءه ودرس طبيعة الأرض بدقة، واقترح حفر قناة مياه بعمق ثلاثة عشر قدمًا (أربعة أمتار) خارج البصرة على الضفة الشرقية لشط العرب وبطول ثمانية عشر ميلًا (30 كم) وبعرض 1,2 ميل (كيلومترين) وتتزود بالمياه من بحيرة كبيرة تعرف باسم "بحيرة الأسماك" مع ثلاث قنوات متفرعة من شط العرب، وبذلك تصبح هذه القناة الدفاعية خندقًا صعب الاجتياز للدبابات. وخلف هذا العائق الاصطناعي المائي يُبنى ساترٌ محصنٌ على غرار "السور الفارسي" يمتدُّ أربعين ميلًا تقريبًا (نحو 60 كم) الذي سيكون بمنزلة خطِّ دفاعيٍّ متقدمٍ عن البصرة. وهذا العمل الجبار سيُشغل عددًا كبيرًا من شركات الهندسة المدنية ليل نهار لمدة ثلاث سنوات.

انتهزت بغداد فرصة هدنة الشتاء لزيادة قواتها البرية التي ارتفع عددها إلى 450 ألف رجل (300 ألف في القوات النظامية، و150 ألفًا في الجيش الشعبي)، وهو حجم القوات الإيرانية نفسه. واستحدثت القيادة العسكرية العليا ثلاث فرق مشاة جديدة (الفرق 18، 19، 20) التي ستُشر على طول الحدود لتشكّل أسس خطِّ الدفاع الثاني.

وخلال الاستعراض العسكري في يوم الجيش في السادس من كانون الثاني 1982، قيل إنَّ صدام حسين صرَّح أنَّه على الرغم من أنَّ بعض الوحدات العسكرية قد عانت خلال الحرب، لكن العراق لم يكن في صعوبة حتى إذا استمرت الحرب لسنتين أو ثلاث، وأضاف أنَّ البلاد بإمكانها حشد مليوني مقاتل إذا دعت الضرورة⁽¹⁾. فحالة التفاؤل التي سادت الأيام الأولى للحرب أصبحت مجرد ذكرى من الماضي. وفي المناقشات الخاصة، كان الدكتاتور يفكر باستخدام الأسلحة الكيميائية لاحتواء تقدم القوات الإيرانية، وطلب من جنرالاته التسريع في تصنيع هذه "الذخيرة الخاصة". وهنا مرة أخرى، تُعدُّ التسجيلات الصوتية التي تم الاستيلاء عليها بعد عام 2003 خير شاهد على نوايا صدام آنذاك.

1 - تم الاقتباس من المرجع في الفقرة 2.

وعلى الرغم من الأمطار والوحل الذي خلفته الظروف المناخية لشهري كانون الثاني وشباط سنَّ العراقيون سلسلةً من الهجمات المعاكسة لاستعادة السيطرة على البستان. ولأجل تقليل خسائرهم، عزَّز العراقيون قاطع العمليات بالفرقة 11 التي تم تحريكها من كردستان، وأرسل عدة ألوية من الجيش الشعبي لتعزيز الحامية العسكرية في خورمشهر في إجراء احتياطي.

كذلك قوّت طهرانُ تنظيماتها العسكرية، وشكَّلت القيادة العسكرية العليا الإيرانية فرقتين للمشاة وفرقة آلية (الأربعين)؛ من أجل استيعاب الأعداد الكبيرة من المنخرطين في الجيش. زُوِّدت الفرقة الآلية بالدبابات التي تم تسلُّمها من ليبيا والمعدات التي تم الاستيلاء عليها من الجيش العراقي. وتم تحويل لواء الهاونات 30 إلى فرقة مدرعة جُهزت بالدبابات T-55 التي أرسلتها الصين. ووضعت هذه الفرق الأربع تحت إمرة الباسدران الذي زاد من قوتها الضاربة إلى حدٍّ كبير، الأمر الذي أربع حتى جنرالات القوات النظامية.

ضربة قاسية لبغداد

ولأجل زيادة الضغط على بغداد، قررت طهران تقليص الطاقة التصديرية للنفط العراقي بشكل جذري. كانت الهجمات المتفرقة على البنية النفطية العراقية غير كافية لتشكّل ضربةً حاسمةً للاقتصاد العراقي الذي تأثر أصلاً بقوة نتيجة تدمير المنصات النفطية في مرفأَي ميناء البكر وخور العُمية. إنَّ ضرب الخط الناقل للنفط بين كركوك ودورتبول التركية الذي من خلاله يرسل صدام حسين قسماً من نفطه إلى الغرب لم يكن ضمن الأهداف الإيرانية آنذاك؛ لأنَّ تركيا ربما ترى فيه سبباً للحرب عليها، حيث لا تملك إيران خياراً سوى التعامل معها بقفازات الأطفال، وهذا ترك معارضة سوريا. وفي الأسابيع الأولى من عام 1982، فاتحت السلطات الإيرانية الرئيس الأسد مرات متعددة لإقناعه بضرورة غلق أنبوب كركوك - بانياس الناقل للنفط الذي سيسمح للعراق تصدير نحو 550 ألف برميل نفط يومياً - نصفه يستخرج من شمال العراق - عبر سوريا. أشار الرئيس السوري مباشرة إلى الموارد

المالية التي سيخسرهما نتيجة إغلاقه، وستحصل سوريا على قسم من النفط العراقي لحاجاتها الخاصة وتسلّم الضرائب على الباقي. طمأنه الإيرانيون وبسهولة أنهم مستعدون لتعويضه لأي نقص بالنفط وتوقيع اتفاقية لتجهيز النفط بكرم للسوريين.

بدأت المفاوضات بسرعة، وتوصّل الطرفان إلى تفاهم مشترك في منتصف شهر آذار، حيث وافقت إيران على تسليم سوريا تسعة ملايين طن من النفط سنوياً، 80% بسعر تفضيلي كبير و20% ستكون مجاناً. وتعهدت طهران بشراء كميات كبيرة من المنتجات السورية، ولا سيّما أن سوريا تواجه مشاكل في نقلها. وستوفر هذه الاتفاقية نحو مليار دولار سنوياً، وهو المبلغ نفسه الذي تعطيه العربية السعودية إلى سوريا سنوياً في كفاحها ضد إسرائيل. وافق الرئيس الأسد فوراً على الاتفاق؛ لإدراكه أنه مشروع جيد لسوريا. ومن أجل تبرير قراره افتعل الرئيس الأسد بعض الحوادث الحدودية مع العراق، واخترقت المقاتلات السورية الأجواء العراقية عدة مرات، وفي إحداها أسقطت طائرة ميغ-23 عراقية مقاتلة سورية. ونتيجة لذلك، اتخذ صدام حسين موقفاً عدائياً؛ بسبب غضبه من هذه الاستفزازات السورية.

أوفى الرئيس حافظ الأسد بوعده لإيران وأغلق خط نفط كركوك - بانياس في يوم 8 نيسان 1982. وأغلق الحدود السورية مع العراق لمنع التجارة غير الرسمية بين البلدين. يمثل ذلك ضربة قاصمة للنظام العراقي الذي خسر فجأة منفذاً حاسماً لتصدير نفطه، ثم جزءاً كبيراً من موارده المالية. ولكن لحسن الحظ، كانت أسعار النفط لا تزال مرتفعة وتؤمن للعراق مورداً مهماً (عشرة مليارات دولار سنوياً في العام 1982، مقابل 26 مليار دولار عام 1980) - ولكن ليست كافية لتغطية تكاليف الحرب. وما دام لم يتم استعادة الموارد المالية إلى طبيعتها، فليس هناك أمل في شن هجوم على نطاق واسع. ولذلك؛ غضب صدام حسين كثيراً واشتكى لدى محكمة استئناف منظمة أوبك في 9 نيسان، وأمر بسلسلة من الإجراءات لتقليص الضرر. وتمت الاتصالات مباشرة مع تركيا لزيادة طاقة خط كركوك - دورتيول، والبدء ببناء خط جديد ثانٍ مواز للخط السابق بطاقة 400 ألف برميل يومياً. كانت استجابة الحكومة التركية بالموافقة ووجدت في هذه الخطوة مناسبة لتحسين مواردها المالية واقتصادها الضعيف. بدأت عملية البناء في مطلع فصل الصيف وانتهت بعد سنتين. وفي

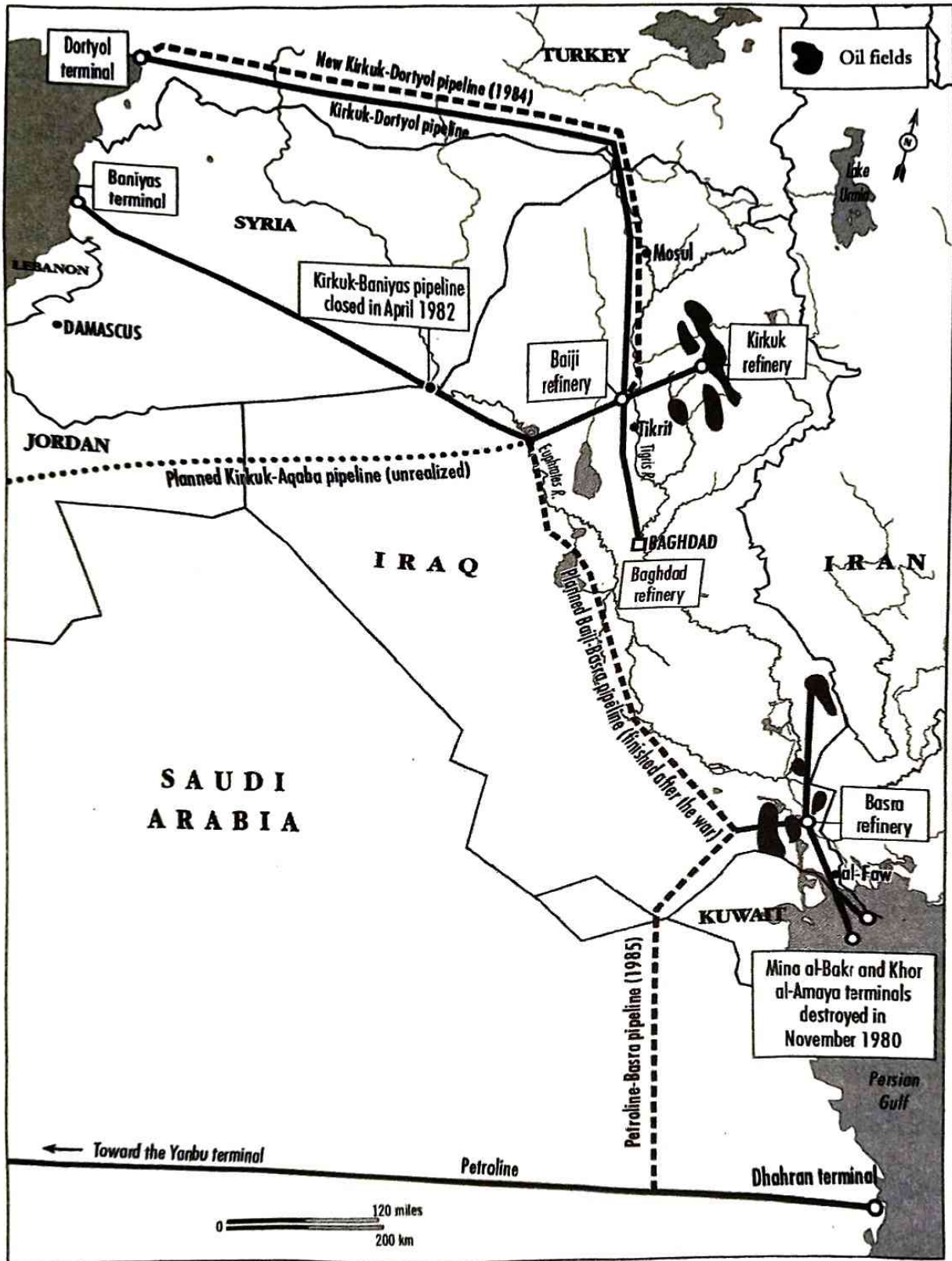
غضون ذلك، تم استغلال الأنبوب القديم إلى طاقته القصوى وهي تصدير 650 ألف برميل يوميًا، واستحداث خط نقل بوساطة الناقلات بين كركوك ودورتبول، بإضافة 25 ألف برميل يوميًا للتصدير عبر تركيا. ولكن أصبح على القيادة العسكرية العراقية العليا تخصيص 30 ألف جندي لحماية هذا الخط الحيوي، وهؤلاء ستم خسارتهم على مضض من جبهات القتال.

وفي غضون ذلك لعب العراقيون الورقة الأردنية، وضاعفوا عدد الشاحنات الناقلة للنفط من كركوك وبغداد إلى ميناء العقبة على البحر الأحمر، وسمح للعراق بتصدير 25 ألف برميل من النفط يوميًا والوصول إلى طاقة تصديرية تبلغ 700 ألف برميل يوميًا. ولكن لا تزال هذه الكمية قليلة مقارنة بتصدير خمسة ملايين برميل يوميًا في الفترة ما قبل الحرب. واتصلت السلطات العراقية بالحكومة الأردنية لبناء أنبوب لنقل النفط بين كركوك والعقبة والذي ستموله بغداد فقط. وجد الملك حسين هذا العرض مغريًا ولكن يجب استشارة حلفائه قبل الإجابة. لم يكن السعوديون مرتاحين، ولكن لم يكونوا في ضمير مرتاح لمعارضته. وكان الأمريكيون مع هذا المشروع في البداية الذي سيقوي حليفهم الأردني، ويسهل من التقارب مع النظام العراقي، ولكنهم أجبروا على نقضه حالما عرف الإسرائيليون به وأعلنوا عداؤهم للمشروع، وهددوا بمهاجمة الأنبوب في حالة بنائه⁽¹⁾. كانت السلطات الإسرائيلية مصممة على معارضة أي شيء يسهم في تقوية العراق، ولذلك ذهب الخيار الأردني أدراج الرياح.

وكملاذ أخير، أجبر صدام حسين على اللجوء إلى العربية السعودية للمساعدة مرة أخرى. أثبتت هذه الفرصة أنها استثنائية للحصول على فضل جيد من الملك فهد الذي خلف مؤخرًا أخاه المتوفى الملك خالد. كان العاهل السعودي الجديد أكثر انفتاحًا من الملك السابق، ورأى في ذلك فرصة مناسبة لتعزيز نفوذه في العراق. كان الملك فهد سعيدًا بشكل خاص للاستجابة لعرض صدام ومساعدته، ولا سيما أن الوضع العسكري الآن قد تحول لصالح إيران، مما أحدث قلقًا وتهديدًا أكبر لأمن الخليج. وتشجع أكثر لتغير الموقف في الولايات المتحدة التي لم تعد معادية للعراق. اقترح الملك فهد البدء ببناء أنبوب لنقل

1- كما أكدت ذلك مصادر موثوقة للمؤلف.

النفط بسرعة ليربط حقول النفط العراقي في الجنوب بمجمع بترولايين السعودي، الذي يمكنه نقل كميات هائلة من النفط إلى ميناء الظهران على الخليج، ولكن الأكثر أهمية لميناء ينبع على البحر الأحمر. تمت عملية البناء بعد أشهر قليلة، وتم افتتاح الجزء الأولي منه في شتاء العام 1985 الذي سيسمح بنقل 500 ألف برميل من النفط العراقي يوميًا. واستمر "خادم الحرمين الشريفين" - كما يحب الملك فهد أن يُلقب - باستخراج 300 ألف برميل يوميًا من حقول نفط منطقة الحياض لفائدة العراق فقط. ونظّم كذلك طريقًا للنقل البحري؛ من أجل نقل عدة عشرات آلاف البراميل من النفط الذي تنتجه الصناعة النفطية العراقية وتستطيع نقله برًا إلى الموانئ السعودية والكويتية. وأخيرًا، زاد الملك فهد من حجم قروضه المصرفية لبغداد. وحتى يوضع أنبوبا نقل النفط العراقي عبر تركيا والعربية السعودية في الخدمة، أصبح النظام العراقي قادرًا الآن - ولو نظريًا - على تصدير مليون برميل يوميًا. ومع ذلك لم يكن قادرًا على الوصول إلى ذلك المستوى من التصدير؛ لأنّ إنتاجه في تراجع، وقسم كبير يتم استهلاكه في الحرب. بينما تمكنت إيران من استخراج أكثر بقليل من مليوني برميل يوميًا - ضعف إنتاج العراق - وتصدر أربعة أخماسه، فأدى ذلك إلى ملء خزائنها وسمح لظهران بتسريع عملياتها العسكرية في فصل الربيع، حيث عادت قواتها المسلحة للقتال لتحرير أراضيها التي ما زالت محتلة من العدو.



خارطة شبكة خطوط نقل النفط العراقي

انتصار مُشجّع

كان كلُّ من الجنرال نجاد رئيس أركان القوات المسلحة الإيرانية والجنرال شيرازي يدرسون تبني أفضل استراتيجية ممكنة منذ الشتاء الماضي. وما عدا بعض الجيوب الصغيرة في راشاه ونوسود في كردستان، تبقى ثلاثة قواطع حدودية تحت السيطرة العراقية. الأول يمتدُّ من قصر شيرين حتى مهران إلى الشمال من التصرف العسكري، والثاني يتمركز حول الفكة التي تواجه الشوش ودزفول، والثالث يتضمن كلَّ ما تبقى إلى الجنوب من خوزستان من الحويزة إلى خورمشهر. القاطع الأول لا يمثل أولوية؛ لأنَّ العراقيين لا يهددون أيَّ أهداف حيوية في تلك المناطق الجبلية التي يدافع عنها جنودٌ متخذون بقوة حول الممرات الجبلية فيه. ولكن القاطع الثالث الأكثر أهمية ورمزية، وإن لم يكن من الزاوية العسكرية الأكثر ضرورةً لإعادة الاستيلاء عليه. ولذلك؛ قرَّر الاستراتيجيون الإيرانيون تركيز جهودهم على قاطع الشوش. ويبدو أنَّ اختيارهم منطقيًا لعدة اعتبارات. إنَّ مهاجمة وسط خطوط العدو سيُمكن الإيرانيين من مهاجمة مركز الثقل العراقي في منطقة العمارة الواقعة على الطريق الرئيس بين بغداد والبصرة. ويعملهم هذا سيقسمون الجيش العراقي على عدة قواطع. فإذا ما تمكنوا من تثبيت أنفسهم في وسط الخطوط العراقية فإنَّهم سيحركون قواتهم وبسهولة نحو هذا القاطع أو ذاك على وفق الضرورة. ومن الصعب جدًّا للعراقيين القيام بمناورات مشابهة. والسلطات الإيرانية تريد تحقيق مكاسب سريعة بالسيطرة على المنشآت النفطية في القاطع. فمنذ سنة كان العراقيون يضخون النفط المتدفق من حقول دهلران وموسيان والفكة، مستفيدين من مدخولاتها لملء خزائن بغداد.

أطلقت رئاسة الأركان الإيرانية على هذا الهجوم الكبير اسم "الفتح" وحشدت له 120 ألف مقاتل يشكلون أربع فرق في الجيش النظامي (الفرق 21، 77، 84، و92)، وثلاث فرق من الباسدران، ولواءي مدفعية، ولواء طائرات هليكوبتر، ولواء 55 المظلي. وجمعوا أيضًا دفاعات مضادة للطائرات كبيرة قريبة من خطِّ الجبهة لصدِّ الطائرات العراقية.

ومقابل ذلك، كان لدى الجنرالات العراقيين 40 ألف مقاتل مع بضع مئات من الدبابات، ولا يزالون يعتمدون على دباباتهم لإيقاف قوات المشاة. والفرقة الآلية الأولى والفرقة المدرعة العاشرة ترابطان بقوة في خط القتال هناك، ومستعدتان لتحمل نتائج أي هجوم. وشكّلت فرق المشاة 11، 14، و16 خط الدفاع الثاني القريب من الحدود. أمّا لواء الكوماندوز 32؛ فقد رابط خارج البستان. ولكن بغداد كانت تعوّل أولاً على قوتها الجوية لصد أي هجوم ضخم يحاول اختراق هذا القاطع الممسوك من الفيلق الرابع.

وفي يوم 17 آذار 1982 شنّ الإيرانيون عملية "فاطمة" باتجاه الحويزة وحמיד. كان هذا الهجوم مضللاً لحرف أنظار العدو عن أهدافهم الحقيقية. نجحت هذه الخدعة الحربية، فأمرت القيادة العراقية الفرقة 14 بترك محور عمارة - الفكة والتوجه بسرعة نحو الحويزة. وفي ليلة 21-22 آذار وجّه الجنرال نجاد والجنرال شيرازي هجومهم العام نحو الفكة. ونقلت طائرات الشينوك الهليكوبتر اللواء المظلي 55 إلى خلفيات العدو. وتسلمت عدة كتائب من المظليين وهاجمت مواقع المدفعية العراقية المرابطة على بعد ستة أميال (نحو 10 كيلومترات) خلف الجبهة. انصعق رجال المدفعية العراقيون لرؤية قوة إيرانية مقاتلة مسلحة بكثافة، ولم يتمكنوا من الرد. دمر المظليون الإيرانيون نحو 40 مدفع هاوتزر 130 ملم، وألقوا القبض على ستة ضباط، وركبوا طائراتهم وعادوا إلى خطوط قتالهم. وفي الوقت نفسه، نقلت طائرات الهليكوبتر كتيبة من اللواء المظلي 55 إلى محيط مدينة عين خوش وسيطروا عليها من دون أية مقاومة. وبما إن عين خوش تقع عند مدخل ممرات ضيقة تسيطر على الجزء الشمالي من ميدان المعركة، فإنّ انتصار الإيرانيين نجح في عزل الفرقة الآلية الأولى العراقية.

وفي غضون ذلك، شنت فرقنا الباسدران المنتشرتان خارج الشوش ونادري هجوماً على خطوط الجبهة العراقية؛ لوقف الأعداء ومنعهم من المناورة. كانت الموجات الهجومية الإيرانية واحدة تلو الأخرى في حالة محمومة، وأصبح رجال المشاة الإيرانيون قريبين جداً من السواتر واختراق أكثر الدفاعات العراقية مع كل هجوم. كانت المدفعية الإيرانية تدكّ خطّ الدفاع العراقي بين الهجوميين الضارين. ولم تكن تلك الدفاعات قادرة على الثأر

بفعالية لكونها جزئياً مقهورة. وخلال ثمانين وأربعين ساعة كانت الموجات البشرية قد كسرت قدمات الدفاعات العراقية التي بدأت تترنح وتعاني نقصاً في الذخيرة. ولأول مرة في وقت الحرب قاتل عدة آلاف من الباسيج إلى جانب الباسدران. وسافر أكبر هاشمي رفسنجاني من طهران لتحفيزهم بغفران ما سبق من ذنوبهم والوعد بأن من يموت سيكون شهيداً يذهب مباشرة إلى الجنة. وفي الجبهة قرأ لهم رسالة من آية الله الخميني تحثهم فيها على القتال إلى آخر نفس؛ من أجل تمجيد الله، والثورة الإسلامية، والأمة الإيرانية. وبإثارة تعصبهم، عاد المشاة الإيرانيون دون كلل أو ملل للهجوم غير مبالين بخسائرهم. وأرسلت عدة كتائب من الدبابات من الفرقة 92 لمساندة الباسدران وأجبرت الدبابات العراقية على البقاء في مواقعها. وفي ليلة 23-24 آذار شنَّ الجنرالات الإيرانيون الصفحة الثانية من هجومهم. اخترقت الفرقتان 21 و84 الآليات خطوط العدو من خلال طريق وعر وممرات محروثة وصعبة السير على الدبابات ومحركاتها. وقد فكَّر العراقيون بطبيعة المنطقة ولكن تركوها غير محتلة؛ لأنهم كانوا يظنون أن العدو لا يمكنه التقدُّم من خلال هذه الأراضي الوعرة. وبينما تحطَّمت نحو مئة آلية إيرانية نجحت الدبابات الإيرانية في تطوير الفرقتين العراقيتين الأولى والعاشرية من خلال المناورة على الأجنحة. وفي غضون ذلك، كافح لواءان من الحرس الثوري الذي كان يتشر إلى الشمال من المواقع العراقية بالتقدُّم مشياً على الأقدام عبر أرضية تشبه الهلال وتتعبق الكثبان الرملية والتلال الصخرية التي من المفترض أن تحمي الجناح الأيسر للفرقة الآلية الأولى العراقية. وفي الفجر اندفع الباسدران وبعثف من خلف الفرقة والتغلب على المدافعين من خلفهم.

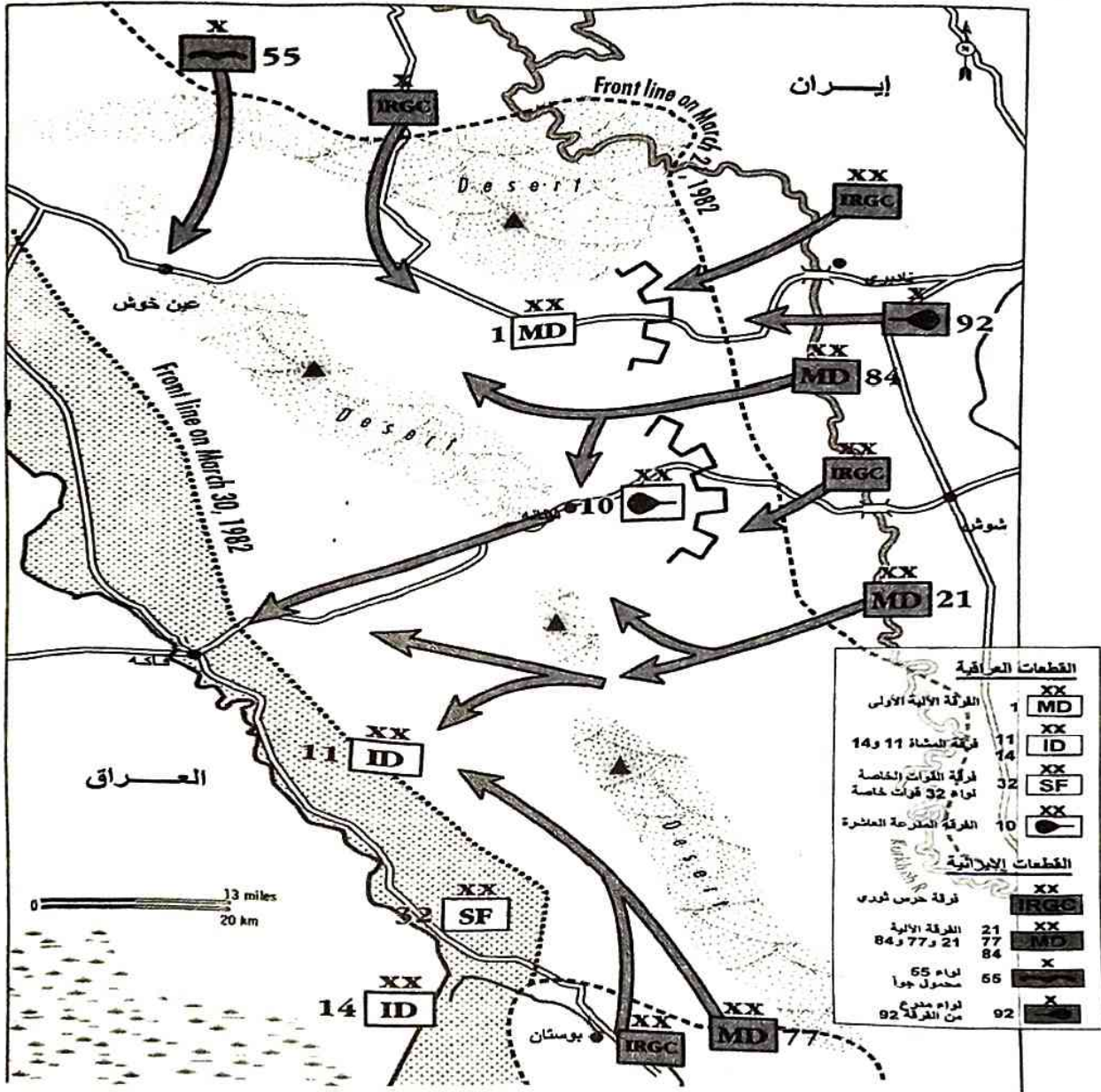
وتطور الوضع في الجنوب بسرعة، فحالما ظهرت في الأفق عاصفة من الغبار بسبب حركة الفرق الآلية الإيرانية، استدعت دبابات الفرقة المدرعة العاشرة القوة الجوية لإنقاذها؛ لأنَّ أيديها مشغولة بصدِّ الهجمات الأمامية للباسدران. فظهرت بسرعة فوق ميدان المعركة نحو عشرين طائرة سيخوي وميغ وضربت الأرتال الإيرانية. وبينما أصابوا أهدافهم مباشرة، واجه العراقيون تحدياً قاسياً من بطاريات صواريخ هوك المنتشرة بالقرب منهم؛ ولذلك أرسلت طائرتا فانتوم وTomcat اللتان تحميان التعزيزات على الفور إلى المنطقة. وفي

دقائق قليلة أسقطت ست طائرات مقاتلة، وألحقت الأضرار بست أخريات. وتمكن طيارو الميراج-1 العراقية من إسقاط ثلاث طائرات فانتوم. وفي يوم 25 آذار طوّق الإيرانيون الخنادق العراقية، وحاولت كتائب المشاة الراجلة القيام بهجوم معاكس لدفع المهاجمين، ولكن تم التغلب عليهم بسرعة. ولتفادي خطر التطويق، طلب قائدا الفرقتين العراقيتين السماح لهم بالتراجع. ولكن السماح لهم تأخر لإعطاء الوقت لرئاسة الأركان الذهاب إلى العمارة لتقييم خطورة الوضع. انتهز الإيرانيون الفرصة وطوّقوا الفرقتين وشقوا قواتهما. أمّا طليعة لواء الفرقة 84 المتجحفل مع لواءي الباسدران؛ تمكن من اتخاذ مواقع له خلف الفرقة الأولى العراقية. وفي غضون ذلك، تجمّع لواءان إيرانيان بالقرب من "تشنانه"؛ للاستيلاء على تقاطع الطرق الاستراتيجي هناك في حركة كماشة.

وفي فجر يوم 26 آذار أمر قائدا الفرقتين العراقيتين بالتراجع، وجاء قرارهم في اللحظة المناسبة؛ لأنّ الفرقتين الآليتين الإيرانيتين قد بدأت بالقتال. وخلال اليوم تطورت معركة اتسمت بالغموض بالدبابات حول "تشنانه". طاردت الدبابات Chieftain و T-59 الإيرانية الدبابات العراقية T-55 و T-62 في محاولة لفتح الطريق نحو الممر الضيق الذي يؤدي إلى الفكّة، وسحقت كل الجنود المشاة الذين حاولوا إيقافهم. وتمكنت بعض الكتائب الآلية العراقية من فتح ممر بين الخطوط الإيرانية، ولكن كل القوات الأخرى تم سحقها من غير رحمة. وفي المساء تم تدمير الفرقة الآلية الأولى، واختار قائدها الجنرال داخل علي هلال الاستسلام بدلاً من مواجهة حنق صدّام حسين. وخسرت الفرقة المدرعة العاشرة كلّ مدفعيتها وثلاثي عدد دباباتها، لكنها تمكنت من إنقاذ أحد ألويتها الذي سيسبق طريقه بصعوبة بالغة نحو الفكّة في اليوم التالي.

انتهزت القيادة العسكرية الإيرانية في يوم 27 آذار الفرصة والاستفادة من الفوضى بين صفوف القوات العراقية، وشنت الصفحة الثالثة من هجومها الذي أطلقت عليه تسمية "الفتح المبين" في غمرة من الحماس. تركت الفرقة الآلية 77 الإيرانية قاطع البستان وبدعم كثيف من الباسدران في عمل عسكري مشترك، وطوّقت اللواء 32 العراقي وللضغط نحو

الفكة. وكانت تأمل السيطرة على تقاطع الطرق الاستراتيجي هذا الذي يؤدي إلى طريق العمارة على نهر دجلة، ومن هناك يمكنها اختراق تراجع الوحدات المتراجعة من "تشانه" في الطريق نفسه. لكنها واجهت بسرعة لواءي المشاة من الفرقة 11 اللذين حاولا جاهدين إبطاء تقدم القوات الإيرانية. قاتل رجال المشاة العراقيون ببسالة لإيقاف تقدم الإيرانيين، مما سمح لمن تبقى من الفرقة المدرعة العاشرة الوصول إلى الفكة واتخاذها ملجأ لهم. ولكن عليهم دفع الثمن باهظاً بخسارتهم الأرض بعد أن فقدوا لواءين من قواتهم.



خارطة هجوم الانتصار الإيراني الممتاز (21-30 آذار 1982)

وفي مواجهة هذه الجولة من الأحداث، سمح الرئيس العراقي لوحدات الفيلق الرابع بالانسحاب، في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وكما أوضح الجنرال مكّي قائد الفيلق الثالث المجاور "ربما يكون صدّام عنيداً، أو يملك إرادة صلبة، لكنه ليس أحمق"⁽¹⁾. في يوم 29 آذار، أعادت القوات العراقية انتشارها على بعد ستة أميال (نحو 10 كيلومترات) من الحدود مستفيدين من طبيعة الأرض لإعادة بناء خط دفاع متماسك. أمّا الإيرانيون؛ كانوا ينوون الاستفادة من أقصى فائدة ممكنة وحشد عدة ألوية مدرعة في "شزره" وإرسالها للهجوم على الفكة. ولكن الإيرانيين أخذهم الحماس وارتكبوا خطأً جسيماً. اندفعت دبابتهم بسرعة عبر ممرٍ صخري مقفر والانحدار بسهولة نحو الحدود العراقية دون ملاحظة أنّهم تركوا المنطقة المحمية تحت تغطية بطاريات صواريخ هوك المنتشرة بالقرب من الشوش. ولذلك؛ انتهزت القيادة العراقية الفرصة مباشرة وشنّت هجوماً جويّاً على الأرتال الإيرانية المدرعة. وخلال ستّ وثلاثين ساعةً حلقت الطائرات العراقية فوق السهل الشاسع وفي سرعة متتالية لإيقاف الخرق الإيراني. ودمّروا ما يقرب من مئة دبابة وأجبروا الإيرانيين على التراجع. لقد تعلّم صدّام حسين درساً بليغاً من هذه الحادثة: حينما يتم استخدام القوة الجوية بحكمة، فيمكنها إيقاف خروق العدو. ولهذا يجب استخدامها باعتدال. وأمر - من الآن ولاحقاً - يجب إعطاء مهمات الدعم الناري لمهاجمة طائرات الهليكوبتر؛ من أجل الاحتفاظ بالطائرات المقاتلة كلما أمكن ذلك، كاحتياط للضربات الطائرة جدّاً أو في المهمات مضمونة السلامة نسبياً.

وفي غضون ذلك، أعادت القيادة العسكرية العليا الإيرانية تنظيم استعداداتها العسكرية واستكملت مخازن ذخيرتها، وحركت مدفعيتها بالقرب من خط الجبهة الجديد. وتمكنت قواتها وهي في الطريق السيطرة على موسيان. وعلى الرغم من الخسائر التي انزلتها القوة الجوية العراقية بهم، لكنّ الجنرالات الإيرانيين يدركون أنّهم أحرزوا أول انتصار كبير. فخلال أسبوع واحد تقدموا نحو أربعين ميلاً (نحو 60 كيلومتراً)، وقلّصوا من أكبر تواجد

1- Kevin Wood, ed., *Saddam's Generals: Perspectives of the Iran-Iraq War* (Alexandria, VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington, 2011), 124.

عسكري، واستعادوا عدة حقول للنفط، وتكبيد العدو خسائر جسيمة: 400 دبابة وناقلة مسلحة، و150 قطعة مدفعية إما تم تدميرها أو تم الاستيلاء عليها، ومقتل ثمانية آلاف جندي عراقي، وأسر عشرة آلاف، وتدمير ثلاث فرق - ثلثي الفيلق الرابع. لقد عالج الإيرانيون بأنفسهم بطارية استولوا عليها سليمة من صواريخ سام -6 المضادة للجو والمميتة التي سيقومون بدراساتها وتطوير مضادات لها. كان ثمن هذا الانتصار أربعة آلاف قتيل، وأغليبتهم من الباسدران، و12 ألف جريح، ولكن هذه الخسائر سرعان ما تم تعويضها. فتدمير متي دبابة والكثير من ناقلات الأفراد كانت قضية مزعجة، ولكنها سيتم تعويضها جزئياً من المعدات التي تم الاستيلاء عليها من العدو. وبالمجمل، هذه المناورة الباهرة كانت ثمرة التنسيق المسلح المشترك الذي يعدُّ من الحالات التي تدرس في المعاهد العسكرية الإيرانية كمادة دراسية، وينظر إليها بأنها أنموذج للعمليات القادمة في الحرب.

نظم الجنرالات الإيرانيون المبتهجون بنصرهم رحلات طيران فوق ميدان المعارك ليرى مراسلو الصحافة حجم هزيمة الجيش العراقي. فقد صرح الجنرال شيرازي ويحماس: "سنقوم بكتابة كتبنا العسكرية الخاصة بنا من الآن ولاحقاً وبأساليب جديدة وبكل ما تعني الكلمة من معنى، ويمكن للأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين تدريسها في معاهدهم"⁽¹⁾. كان الكثير من الضباط الإيرانيون يدركون أن هذا الانتصار هو نصرهم، ورفعوا رؤوسهم عاليًا مرة أخرى، وأصبحوا أكثر حريةً للحديث بتعليقات مسيئة حول الباسدران الذين أدركوا أنهم استخدموا طعاماً للمدافع ليسمح لإخوانهم في السلاح بالنجاح. واشتكوا إلى قائدهم محسن رضائي الذي أبلغ رفسنجاني بذلك.

وفي يوم 9 نيسان أعلنت الحكومة الإيرانية أنها اعتقلت صادق قطب زاده وزير الشؤون الخارجية الأسبق في عهد الرئيس بني صدر بتهمة التآمر لاغتيال آية الله الخميني مع بعض الضباط الخونة الذين بقوا موالين للنظام القديم. لقد تخلى قطب زاده عن موقعه وأصبح رجل أعمال ولفترة طويلة قبل ذهاب بني صدر إلى المنفى. وقد أنكر تلك التهمة بشدة، ووضع نفسه بأيدي آية الله الخميني الذي ساندته بحماسة حينما رافقه في منفاه بفرنسا

1- O'Bilance , The Gulf War, 82.

وخدمه بإخلاص منذ الأيام الأولى للثورة حينما أصبح رئيسًا لإدارة الراديو والتلفزيون الإيراني. وبناءً على أوامر أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي تم إيداعه سجن إيفن السيخ الصيت، حيث تعرض للتعذيب. وبعد أيام قليلة ظهرت اعترافات مصوّرة من على التلفزيون يعترف فيها قطب زاده أنّه أراد الإطاحة بالنظام. وأدانت اعترافاته الكثير من الضباط الذين تم اعتقالهم على الفور. وتدخلت محاكم الثورة عنوةً على الوحدات العسكرية، وولدت جوّاً من الإرهاب بين كبار ضباط الجيش الذين كانوا يخافون كثيراً النظام أكثر من أعدائهم العراقيين. ورأى رئيس الجمهورية والناطق باسم البرلمان في ذلك فرصةً رائعةً للقيام بحملة تطهير بين صفوف القوات النظامية مرةً أخرى، ومذكرين ضباطها بمكامن القوة الحقيقية. إنَّهم يدركون أنّ الحرس الثوري الآن قوة عسكرية وسياسية لا بدّ من أخذها بالحسبان. ومن الطبيعي أن يتسمم الوضع، ولا سيّما في العلاقات الصعبة أصلاً بين الجيش النظامي والباسدران، والذي أدى إلى توقف العمليات مؤقتاً على الجبهة. استخدمت القيادة العسكرية هذه الفرصة لإعادة انتشار أربع فرق في سوسنكرد وأهواز، والتحضير لهجوم في المستقبل.

في يوم 8 نيسان، وهو يوم الاحتفال بالقوات المسلحة، ألقى آية الله الخميني كلمة تهدئة دعا فيها إلى الترضية وإصلاح ذات البين بين الجيش النظامي والحرس الثوري، ومذكراً أنّ كل الأجهزة العسكرية، ومهما كان انتماءؤها، يجب أن تسترشد بالإرادة نفسها لحماية الأمة والثورة الإسلامية. ومع ذلك، لم يعفوا عن صادق قطب زاده الذي كان قيد الاحتجاز، ولا يمكن الاتصال به، ولا السبعين ضابطاً المشاركين في المؤامرة الذين أُعدموا سرّاً في الصيف التالي. وممّا لا يمكن إنكاره أنّ ضباط القوات النظامية قد تسلّموا الرسالة ولم يعد بإمكانهم تحدي النظام والباسدران. وأفادَ ضباط الباسدران من هذا الوضع لفرض أنفسهم واحتكار المواقع الرئيسية في السلطة وتحمل التغيير الدائم في تركيبة القوات المسلحة.

الفصل الثالث عشر

وساطة جديدة

حاولت منظمة التعاون الإسلامي في أواخر شهر نيسان 1982 التوسط بين العراق وإيران بقيادة التونسي حبيب الشطي. يمكن تلخيص خطته في أربع نقاط: 1- انسحاب العراق من كل الأراضي التي احتلها منذ شهر أيلول 1980. 2- تشكيل قوة عازلة من أعضاء منظمة التعاون الإسلامي. 3- تشكيل قوة دولية للتحكيم في النزاع في شط العرب. 4- تكوين لجنة لتقييم الأضرار التي تحملتها إيران.

ومن أجل دعم مقترحات منظمة التعاون الإسلامي وإعطائها وزناً أكبر، أعلن مجلس التعاون الخليجي أنه مستعدٌ لإنشاء صندوق للتعويضات يختص بإيران. وبما تبحت الخروج من عزلتها، استجابت طهران بالموافقة على هذا العرض، وصرَّح الجنرال شيرازي علانيةً أنَّ السلطات الإيرانية تعلن أنَّ الجيش الإيراني هو دفاعي في طبيعته، وأنَّ تكوينه ليس لاستمرار الحرب ولا لغزو الجيران حالما يتم تحرير أراضيه. ومع ذلك، بقي آية الله الخميني متصلباً في ثلاث نقاط: 1- يجب رحيل صدام حسين. 2- واعتراف العراق بمسؤوليته عن اندلاع الحرب. 3- ويجب على العراق إعادة المبعدين الشيعة العراقيين في عام 1980 إلى وطنهم. ومن الطبيعي رفض دكتاتور العراق هذه الشروط من طريق مجلس التعاون الخليجي.

ولجعل الأمور أكثر تعقيدًا، أحبطت الحكومة الجزائرية بهدوء خطة منظمة التعاون الإسلامي للسلام، وتفتخر أنها يمكنها إقناع الإيرانيين لقبول الهدنة. ونظرًا لغضبه من غرور السلطات الجزائرية واتهام صدام حسين للجزائر بانحيازها للجانب الإيراني، قرّر تلقينهم درسًا. وفي يوم 3 مايس 1982، أمر صدام حسين بإسقاط الطائرة التي كانت تقلّ وزير الخارجية الجزائري محمد صادق بن يحيى وعددًا من مساعديه في رحلة تجارية إلى طهران؛ لإقناع السلطات الإيرانية لقبول الوساطة الجزائرية والتنسيق لموقف متبادل في لقاء منظمة أوبك القادم. تمكنت بغداد من الوصول بسهولة إلى تفصيلات هذه الرحلة التجارية المنتظمة. وعند اقتراب طائرة شركة "تيار الخليج" الحدود بين تركيا وإيران والعراق أسقطت بنيران صاروخ طويل المدى أطلقتها طائرة ميغ-25 ومن دون إطلاق أية تحذيرات⁽¹⁾. ولم ينبجُ أيُّ أحد من ركابها. أطلقت السلطات الجزائرية العنان لغضبها على طرفي القتال، ولا تعلم من تلوم بالضبط لهذا الهجوم الغادر ما دام كلٌّ من العراق وإيران يتهم أحدهما الآخر في إسقاط الطائرة⁽²⁾. وبذلك، كانت الرسالة واضحة بجلاء للسلطات الجزائرية، ومنذ الآن ولاحقًا لا تتدخلوا في النزاع.

المجتمع الدولي مرتبك

فشلت الأمم المتحدة في إقناع طرفي النزاع لوضع نهاية لقتالهم، فبعد خمسة أيام فقط من اندلاع الحرب تبنى مجلس الأمن الدولي بالإجماع قرار رقم 479 وطلب من الطرفين عدم اللجوء إلى القوة، ودعا المجتمع الدولي إلى عمل كل ما بوسعه لتجنب عدم توسع النزاع. وفي هذه المناسبة، وضعت كل من واشنطن وموسكو تنافسهما جانبًا ودعمتا هذا القرار مباشرةً ومن دون مراوغة، وهذا مؤشر واضح لقلقهما من الوضع. ومنذ ذلك الوقت بذل السكرتير العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم كل جهوده لإقناع كلٍّ من بغداد وطهران لإلقاء

1- Tom Cooper and Farzad Bishop, Iran-Iraq War in the Air 1980-1988 (Atglen, PA: Schiffer Publishing, 2000), 134.

2- إن تقرير منظمة السلامة الجوية الموثوق جدًا لا يترك شكًا أن العراق هو المسؤول عن ذلك.

سلاحهم جانبًا. أعلن صدام حسين ولمرات متعددة أنه مستعدٌ للاتفاق على "سلام الشجعان" مع الحكومة الإيرانية إذا اعترفت بالحدود التي أقرتها المعاهدات الدولية. بعبارة أخرى، إنَّ الرئيس العراقي مستعدٌ لوضع نهاية للحرب إذا تخلى الإيرانيون عن ادعاءاتهم بشط العرب. كان أكبر هاشمي رفسنجاني يجيب عن كل اقتراح باستجابة قاسية جدًا، ويقول: "إنَّ من يريد السلام يجب عليه أولاً أن يسحب قواته خلف حدوده". ونظرًا لخيبة أمله من هذا الحوار الأصم تحول أولف بالما ممثل الأمين العام للأمم المتحدة إلى الشرق الأوسط، ليركز على مفاوضات تبادل الأسرى بين الطرفين، والعمل بقوة مع جمعية الصليب الأحمر الدولية. وفي غضون ذلك، قامت حركة عدم الانحياز بقيادة كلٍّ من الهند وكوبا بجولات مكوكية بين بغداد وطهران ومحاولتها إيجاد صيغة متفق عليها لوضع نهاية للنزاع. ولم يكونوا أكثر نجاحًا من الأمم المتحدة، أو منظمة التعاون الإسلامي، أو من جامعة الدول العربية. وقد أدانت رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي بوصفها رئيسة لحركة عدم الانحياز استخدام العنف ورفضت الوقوف إلى جانب أيٍّ من طرفي النزاع. ومع ذلك، عززت أنديرا غاندي علاقات الهند الاقتصادية مع إيران، مستفيدةً من عزلة طهران لفرض شروط تجارية في صالح نيودلهي كثيرًا. ومقابل شراء النفط بسعر تفضيلي، أمدت الهند إيران بالمنسوجات والسلع الاستهلاكية لاستكمال ما تصدره تركيا لإيران. وحتى الآن رفضت السلطات الهندية بداية شحن أية أسلحة لطهران. ومنذ عام 1985، كان راجيف غاندي رئيس الوزراء الهندي أقل قلقًا بكثير من والدته، وخضع للضغط التجاري الإيراني ووافق على إرسال معدات عسكرية "دفاعية" (في البداية قوارب خفيفة، وذخيرة من النماذج السوفيتية والهندية الصنع لتسليح القوارب المسلحة).

لا مبالاة حذرة في بقية أنحاء العالم

فشل الرئيس الباكستاني ضياء الحق وفي مرات متعددة للتوسط بين العراق وإيران. وعلى الرغم من إعلانه الحياد، فإنَّه انتهز فرصة قرب الجغرافي وعزلة إيران لزيادة حجم التبادل التجاري مع إيران إلى عشرة أضعاف خلال سنوات قليلة، حيث بلغت قيمة ذلك

التبادل 400 مليون دولار في العام 1985 مقابل 40 مليون دولار في 1980. ومع ذلك، رفض إرسال الأسلحة لطهران للاحتفاظ بموقفه بصفته محكمًا في القضايا الإسلامية ولعلاقته المربحة مع العربية السعودية المعادية لإيران. ولكن ذلك لم يوقف الكثير من التجار غير الشرعيين الباكستانيين من تزويد آيات الله سرًا بالأسلحة الخفيفة وقطع الغيار للأسلحة الصينية، وبمجرد ان بدأت تلك الأسلحة بالوصول إلى الجبهة بكميات كبيرة، قام الجيش الباكستاني من جانبه بتدريب الطيارين الإيرانيين المسؤولين عن إعادة المقاتلات F-6 و F-7 إلى الخدمة والمرسلة من الصين، التي تتطابق مع الطائرات المستخدمة من القوة الجوية الباكستانية.

أمّا بقية بلدان آسيا؛ فقد اتخذت موقفًا أكثر حذرًا للتعامل مع النزاع. فاليابان لا تخاطر بازدهارها الصناعي الاستثنائي بإعلانها أيّ موقفٍ يدعو إلى إزعاج بلدان الشرق الأوسط التي تجهزها بالنفط. أمّا أقطار جنوب شرق آسيا الأخرى "التنين" (كوريا الجنوبية، تايوان، وسنغافورة)؛ فقد أعلنت حيادها أيضًا، ولكن جهزت سرًا للأسلحة وقطع الغيار للإيرانيين الذين يدفعون أعلى الأسعار بالدولار ونقدًا. في إفريقيا وأمريكا اللاتينية انهمكت البرازيل وجنوب إفريقيا مع طرفي النزاع، وذلك بتأمين منافذ بيع لصناعاتها الحربية المتطورة، على الرغم من واجهة الحياد التي يختبؤون خلفها.

وفي الخليج، كان لتصلب طرفي القتال أنعش المشاريع الأمنية لمجلس التعاون الخليجي. وتم التوصل إلى معاهدة أمنية داخلية بين خمس بلدان من الأعضاء الست، والسماح لقواتهم الأمنية التدخل في أراضي الأعضاء الآخرين؛ لمواجهة أية جهود تدار من الخارج لزعزعة استقرارها. وهذه الاتفاقية أرفقت بمعاهدات ثنائية تربط العربية السعودية مع البلدان الأعضاء التي تسمح للرياض بزيادة تعاونها العسكري مع جيرانها. وفي العام 1983 أقنعت سلسلة من الهجمات على الأراضي الكويتية والسعودية قادة مجلس التعاون لإقامة مؤسسة عامة للقوات المسلحة. هذه الوحدة التي سُميت "درع الجزيرة" تتكوّن من ألوية توفرها خمسة أعضاء من البلدان الستة؛ لأنّ الكويت رفضت المشاركة فيها. انتشرت هذه القوة الرمزية التي ترأسها العربية السعودية في "حفر الباطن" بالقرب من

الحدود العراقية والكويتية. ونفذت تمارين تجريبية لأول مرة في تشرين الأول 1983 لتكشف عن إمكاناتها المتواضعة التي لم تدخل أي قتال حتى خلال حرب الخليج الثانية 1990-1991 (هذه القوة تدخلت لإخماد التمرد الشيعي في البحرين في ربيع 2011). الكويت فقط رفضت المشاركة في هذه القوة، واستمرت في رفض أي تواجد أجنبي على أراضيها. وعلى الرغم من هذا الوضع المتأزم، تمكن الجنرالات السعوديون من إقناع شركائهم الآخرين أن من فائدتهم تطوير أنظمة دفاعات جوية مشتركة وبدعم من التكنولوجيا الأمريكية. وهكذا أصبح بإمكان واشنطن تنسيق الدفاع عن سواحل الخليج الفارسي الجنوبية والاحتفاظ بالمراقبة الدقيقة للنشاط الجوي لطرفي القتال.

واشنطن بدأت التقارب مع بغداد

أنجز وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز في أواخر ربيع عام 1982 سياسة إقليمية جديدة تهدف إلى تحسين مصداقية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وحاول الابتعاد عن سياسة سلفه الكساندر هيغ الذي كان يتهم بتجاهله للعرب. كانت أولويات شولتز الاثنان في المنطقة: تسريع عملية التسوية للقضية الفلسطينية - حتى إذا أدت إلى ممارسة الضغط على إسرائيل - ومساندة العراق؛ لكي يقلل من الضغط الذي تفرضه إيران على مشيخات الخليج. ولم يندم شولتز حول إمكانية عقد تحالف قوي مع صدام حسين؛ من أجل احتواء أفضل لإيران؛ لأن العراقيين في وضع سيء الآن. وبالنسبة إلى محلي البنتاغون فإن الجيش العراقي ربما ل يتحمل لفترة طويلة صد هجمات القوات الإيرانية المتكررة، وإن انهيار العراق سيعود بالفائدة على الإيرانيين، وطبيعياً على السوفيت أيضاً إذا انتهزوا الفرصة وقاموا بالتدخل العسكري. وبذلك، فإن الإيرانيين، وربما السوفيت وفرقهم العسكرية ستكون في وضع يمكنها وبسرعة وبصورة استثنائية من مهاجمة مشيخات النفط المجاورة. ولا يوجد ضمان أن قوة الانتشار السريع الأمريكية المتأهبة للتوجه إلى الخليج ستكون كافية لثنيهم، خاصة إذا استمر الكويتيون والسعوديون في رفضهم تواجد القوات

الأمريكية على أراضيهم. ولكل هذه الأسباب، لا بدّ من الاحتفاظ بالدرع العراقي في مكانه، ويجب على واشنطن المساعدة، وإن كان في السر؛ لتجنّب إلقاء الشكّ على حيادها. وقد أوجز برنت شوآركوف - وهو أحد مستشاري الحزب الجمهوري الأكثر نفوذًا - موقف الإدارة الأمريكية بقوله: "إنّ الميل نحو بغداد خلال النزاع بين العراق وإيران لم يكن بدافع تفضيل أحد النظامين البغيضين على الآخر، ولكن لا نريد أيًا منهما أن يربح الحرب، وأننا قلقون من أن يكون العراق هو الأضعف"⁽¹⁾.

ومنذ السنة الماضية، وقعت عدة أحداث أسهمت في تخفيف تحفظات واشنطن على بغداد، وكان إحداها تدمير المفاعل النووي العراقي أوزيراك الذي يعني ضمناً وضع نهاية لبرنامج العراق السري للحصول على الطاقة الذرية، ولم يعد العراق يشكل تهديدًا حيويًا لإسرائيل. فضلاً عن صعود رجال الدين إلى السلطة في طهران الذي دفن الأمل بالتقارب بين إيران والولايات المتحدة. وأخيراً، توّسل الملك الأردني حسين والرئيس المصري حسني مبارك مرآة لإقناع رونالد ريغان بضرورة دعمه للعراق.

ولذلك، سمح الرئيس الأمريكي لجهاز المخابرات الأمريكية تزويد العراق سرّاً بالمعدات العسكرية، شريطة ألا تكون أمريكية الصنع⁽²⁾. وتم شراء كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة السوفييتية الصنع من السوق السوداء وأرسلت إلى العراق. ولإقناع العراقيين أنّ مقترحاته مجرد عربون، حيث أرسل رونالد ريغان رجل المخابرات المخضرم توم تويتن Tom Twetten إلى العراق لتسليم العراقيين صور الأقمار الصناعية للجبهة. وبعد أسابيع قليلة، أقنع ريغان الكونغرس لإزالة العراق من قائمة الدول الراحية للإرهاب، وهذا القرار جعل من الممكن إعادة بناء العلاقات التجارية الثنائية، والقروض التجارية، والاستثمارات الأمريكية في العراق. فضلاً عن أنّها تعبد الطريق لاستئناف العلاقات الدبلوماسية.

1- Brent Scowcroft and George Bush, A World Transformed(New Yourk:Vintage,1999),305.

2- انظر شهادة هاورد تيشتر Howard Teicher عضوة مجلس الدفاع الوطني في الولايات المتحدة الأمريكية نسخة (1995 Carlos Cardeon) التي يمكن الرجوع إليها في الأرشيف الأمني الوطني بواشنطن D.C. في سلسلة "العراق: الوثائق غير السرية عن مساندة الولايات المتحدة لصدّام حسين".

وفي الواقع، لم تنتظر واشنطن حتى حلول الربيع عام 1980 لبدء تقاريرها مع بغداد. في يوم 12 نيسان 1981، سافر موريس دريبر وهو دبلوماسي رفيع المستوى إلى العاصمة العراقية؛ لإقامة أولى الاتصالات غير الرسمية. وعلى الرغم من استقباله البارد، لم تسفر زيارته عن أي شيء محدد، لكنَّ الاتصالات قد أُعيد إقامتها. ولم تكن الزيارة غير مراقبة من المخابرات الإيرانية. وكما يبدو أنَّها صدفة، قامت البحرية الإيرانية بالإنزال على ظهر السفينة الأمريكية (البحر الغربي) Western Sea العابرة للمحيطات وفتيشها بحجة الشكِّ بأنَّها تقوم بمهمة تجسسية حينما دخلت المياه الإقليمية الإيرانية لفترة قصيرة منذ أيام قليلة. وفي الوقت الذي ما زالت أزمة الرهائن عالقة في الذهن، فإنَّ تلك الحادثة أدت إلى تصاعد التوتر، وطلبت واشنطن إطلاق سراح الطاقم التسعة عشر بحارًا مباشرة. أطلقت إيران سراح البحارة الأمريكيين بعد احتجازهم في السجن لعدة أيام، مع تذكير حكومة الولايات المتحدة أنَّها تعهدت أن تبقى على الحياد بين طرفي النزاع. كانت الرسالة واضحةً بجلاء: إذا ذهبت الولايات المتحدة قريبًا جدًّا من العراق، فعليها تحمل النتائج.

ولم تكن الولايات المتحدة لوحدها من أعاد تنقيح موقفه من طرفي النزاع، ففي موسكو واجه الكرملين ورطة صعبة، من جانب كانوا ميالين للإبقاء على نظام صدام حسين تحت الحصار في محاولة لتسريع نهاية للحرب. ومن ناحية أخرى لا يرغبون بانهيار العراق. إنَّ الهزيمة المنكرة للعراق ستكون قاتلةً لمصداقية السوفييت في المنطقة. بدأ المستشارون السوفييت الآن يرسلون تقارير تحذيرية يؤكدون عدم قدرة العراقيين على مواجهة إصرار المقاتلين الإيرانيين. ومع ذلك، لم يبقَ للقادة السوفييت أدنى شكٍّ حول الطبيعة الثيوقراطية للنظام الإيراني الذي برهن على عدائته كل يوم نحو الاتحاد السوفييتي، وأخذ يسلح علانية المجاهدين الأفغان. لقد أصبح واضحًا لكلِّ شخص في موسكو أنَّ الفكرة الطموح بالانفتاح على إيران قد انتهت وحن الوقت للانتقال إلى مكان آخر. وحتى الآن، كان شيوخ المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي مشلولين بمقاربة تحول السلطة في الكرملين. فقد تُوفي مفكر الحزب ميخائيل سوسلوف قبل أشهر قليلة، وليونيد بريجنيف على عتبة الموت أيضًا. ولا يجازف أحد باتخاذ قرار ربما يستخدم ضده حينما يحين الوقت لتعيين سكرتير

عام جديد للحزب. وفي ردّ فعله على هذا الجمود، تمكن المارشال أوستينوف - الذي لا يزال من أكثر الموالين للعراق - من إقناع أقرانه لقبول إرسال الأسلحة الثقيلة إلى بغداد بصورة طارئة. وقد ذكرهم بأنّ العراق اقترح هذونات في مناسبات كثيرة، وكلها رُفضت من الملالي في إيران. ونظرًا لمواجهتها تصلب إيران، أصبح على موسكو أن تفي بمعاهدتها الدفاعية مع بغداد. وقبل كل شيء، أبدى صدام حسين حسن نيته تجاه الكرملين بإطلاق سراح 280 شيوعيًا عراقيًا من السجون العراقية خلال الشهر الماضي. لا بأس أرسل هؤلاء النشطاء الشيوعيون مباشرة إلى الجبهة لقتال الغازي الإيراني. بدأ الجيش العراقي في الحال تسلّم دبابات T-72، و BMP-1، وصواريخ مضادة للدبابات نوع Spigot AT-4، سام-6 وسام-9 مضاد للطائرات، وثلاثين طائرة ميغ-21، وأربعة قوارب Osa II مسلحة لاستبدال تلك القوارب التي تم إغراقها في بداية الحرب. ولكن كان على العراقيين الانتظار لبعض الوقت لرؤية الجيل الأخير من الأسلحة.

كردستان الإيرانية

في مطلع نيسان 1982، شنّ عبد الرحمن قاسملي قائد الكرد الإيرانيين هجومًا في محاولة لاستعادة المدن التي خسروها في الشتاء السابق. ونجح في تجميع 30 ألفًا من البيشمركة وبدعم من الدبابات والمدفعية التي استولوا عليها السنة السابقة. وبفضل كرم بغداد، فمقاتلوه الآن يملكون عددًا كبيرًا من المدفعية الآلية، ومنصات الصواريخ المضادة للدبابات، والمدفعية الثابتة⁽¹⁾. وبدعم من قسم من السكان، فقد تمكن من الاستيلاء على مدن سنندج، سقز، بوكان، ومهاباد، وكل هذه المدن تبادل الكرد وطهران السيطرة عليها للمرة الثالثة في أقل من عام. ومع ذلك فإنّ قواته لم تذهب أبعد من بيرانشهر التي يمسك بها أحد ألوية الجيش النظامي بقوة. وإلى الجنوب، لم يحاول قائد الحزب الديمقراطي

1 - كان النظام العراقي حذرًا جدًا في تجنّب تسليم الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني الأسلحة الثقيلة؛ لأنه يدرك ليس بعيدًا أنّها ستستخدم ضدّ قواته هو.

الكرديستاني الإيراني الاستيلاء على حامية ماريفان التي لا يمكن مهاجمتها؛ بسبب التعزيزات العسكرية فيها منذ الشتاء. وفي أعقاب هذا النجاح اتصل قاسم بنو بني صدر وعرض عليه العودة إلى إيران وإقامة حكومة موازية تكرر جهودها لإسقاط الإمام الخميني انطلاقاً من جبال كردستان. رفض الرئيس السابق العرض بحذر، وفضل البقاء في منفاه الباريسي، المكان المثالي لكتابة مذكراته. كان بنو صدر يدرك جيداً أنه إذا ارتكب مثل هذا الخطأ بالانخراط علانية في التنافس مع الملالي، فإنه سيخسر وللأبد حسن نية المرشد الأعلى، وسيصبح مباشرة هدفاً لمقاتلي السافاما، الشرطة السياسية لآيات الله. أدان آية الله الخميني علانية بنو صدر، ولم يستمر بتوفير الحماية له حينما كان يتعاطف معه بصدق بوصفه مرافقاً له في منفاه.

شنت السلطات الإيرانية هجوماً مضاداً، ورأس الجنرال شيرازي العملية التي ضمت 80 ألف جندي وبدعم من 300 دبابة، 150 مدفعاً، و50 طائرة هليكوبتر. واستطاع الإيرانيون استرجاع المدن الأربع خلال ثلاثة أشهر، ودفعوا البيشمركة إلى معاقلهم الجبلية، وهم يدركون جيداً أن لا مهمة لهم في الصيف؛ لأنهم بحاجة إلى إبقاء في قراهم ومدنهم للمشاركة في أعمال مجتمعاتهم المدنية. أمّا البيشمركة ما زالوا يجدون ملجأً في قراهم الجبلية؛ لأن القوات الإيرانية ليس لديها القوات الكافية لسحقهم. ومع ذلك، تشدد الجنود الإيرانيون بقوة في معاقبة أولئك الذين ساندوا المتمردين. وقد حصل الجنرال شيرازي على لقب "الرجل الحديدي"، وعلى شكر النظام لمشاركته شخصياً في العمليات.

الفصل الرابع عشر

استعادة الإيرانيين لأراضيهم

شنَّ الإيرانيون في يوم 30 نيسان 1982 هجومهم "بيت المقدس" لاستعادة خورمشهر وإخراج العراقيين من خوزستان وإلى الأبد. لقد حشد الجنرالان نجاد وشيرازي لهذه العملية كل ما يتوافر لديهم من المقاتلين: اثنتا عشرة فرقة ترابط بين موسيان وعبادان، أكثر من نصفها يديرها الباسدران، فضلاً عن أحد عشر لواء مستقلاً⁽¹⁾. ولم يترددوا في استدعاء الكتائب المرابطة على الحدود الأفغانية والسوفييتية والاكستانية، ووفروا كل طائرات البوينغ في القوة الجوية لنقلهم إلى خطوط الجبهة. وحشدوا 200 ألف جندي، ألف دبابة، 600 مدفع، وقرابة مئة هلكوبتر⁽²⁾.

كانت نقطة ضعفهم أنَّهم لا يملكون قوةً ضاربةً، فالقوة الجوية تواجه مشاكل لوجستية كبيرة، ذخيرتها وقطع غيارها اختفت في الهواء الطلق، وتسليم المعدات آنذاك لم يكن كافياً لاستبدالها، ولم يتمكن مهندسوها من حلِّ رموزها لتشخيصها والتمكن من التعامل مع قطع الغيار المبعثرة في مخازن القواعد الجوية.

1- كانت الفرق التسعة التي اشتركت مباشرة في الهجوم هي 30،88،92 المدرعة؛ و21،40،77 الآلية؛ و25،58 مشاة.

2- لدى السرب الثاني هلكوبتر، وستّ وعشرون طائرة Cobra، و34 AB-212 / 214، و22 AB-206،

و16 CH-47 ..

فضلاً عن ذلك، كان النظام لا يزال يشكُّ في ولاء الطيارين، وأجاز أقل عددٍ ممكنٍ من الطلعات الجوية، وكان يفضّل المهمات الاستطلاعية والاعتراضية، وهي الطلعات التي لا تؤدي إلى أيّ تهديد ما دامت الطائرات التي يستخدمونها لا تحمل أيّ قنابل قوية قد تؤدي إلى تدمير المستودعات الحكومية. كانت القيادة العسكرية الإيرانية العليا تعتمد على بطاريات الصواريخ نوع هوك المضادة للطائرات، والتي تم نصبها بالقرب من الجبهة؛ لمنع الطيران العراقي من التحليق فوق ميدان القتال. وطُلب من المقاتلات الإيرانية عدم التحليق فوق الجبهة لتفادي النيران الصديقة، ولا سيّما بعد إبلاغ رجال المشاة للاشتباك بصورة منتظمة مع أية طائرة تحلق فوق المنطقة. وبالمقابل، كان لدى العراقيين خمس فرق (الثالثة، الخامسة، السادسة، التاسعة، والرابعة عشر)، فضلاً عن عشرة ألوية مستقلة تضم 65 ألف مقاتل، و500 دبابة، والكثير من المدفعية. تنتشر نصف قواتهم في منطقة خورمشهر، والنصف الآخر يترنح في المنطقة المحصورة بين العمارة وحميد. ومع ذلك، كانت قيادة الفيلق الثالث تعول كثيراً على الدعم الجوي المهم.

تحرير خورمشهر

بعد الفجر بوقت قصير، تم إنزال الكتيبة المظلية على الضفة الغربية لنهر الكارون بالقرب من دارخوفين؛ لإقامة رأس جسر هناك. وبدأ المهندسون العسكريون عملهم مباشرة لبناء جسور عائمة.

وعند ظهور أول خيوط النهار، اندفعت موجات من الحرس الثوري إلى الضفة الأخرى من النهر، متشجعين بنداءات "الله أكبر" من خلال عدة دوزينات من مكبرات الصوت. واعتقد العراقيون المسؤولون عن القاطع أنهم أمام هجوم من عدة فرق عسكرية إيرانية، ممّا جعلهم يلوذون بالفرار. عبرت الفرقة المدرعة 88 الإيرانية الكارون، ووسّعت من مساحة رأس الجسر إلى منطقة الحسينية، ولكن تجنبت بحذر من الاستيلاء على المدينة لمنع حالة الذعر بين العراقيين. كانت خطة الإيرانيين تقوم على ترك العراقيين يتخبطون في معرفة الجهة التي يأتي منها الهجوم الكبير، وأين سيحدث لكي لا يقوموا بجمع قواتهم في ذلك المكان.

وفي غضون ذلك، شنت الفرقة 84 هجومًا التفافياً حول الفكة في شمال خوزستان، وتحركت الفرقتان 30 و77 في وسط قاطع سوسنكرد ودفعت الفرقة التاسعة العراقية إلى الحويزة. وبالقرب من أهواز أجبرت الفرقتان 21 و40 الفرقتين العراقيتين الخامسة والسادسة على التراجع نحو حميد. كان الجنرال القاضي قائد الفيلق الثالث مترددًا حول كيفية الاستجابة وأين يمكنه تركيز جهده لاحتواء الهجوم الإيراني. كانت زيارة رئيس الأركان الجنرال عبد الجبار شنشل للقاطع وفرت له فرصة لطلب نصيحته، أجاب الجنرال وبطريقة جبانة: "أنا لا أعرف. أنت قائد الفيلق، أنت من يقرر"⁽¹⁾. أخيرًا قرر قائد الفيلق اختيار الدفاع المرن بما تبقى معه من القوات الآلية والمدرعة. انتهب الإيرانيون فرصة مماثلة العراقيين لتوجيه اللواء قوات خاصة مظلي 23، وفرقتي المشاة 25 و58 اللتين ترابطان في المؤخرة للقيام بدور التعزيزات.

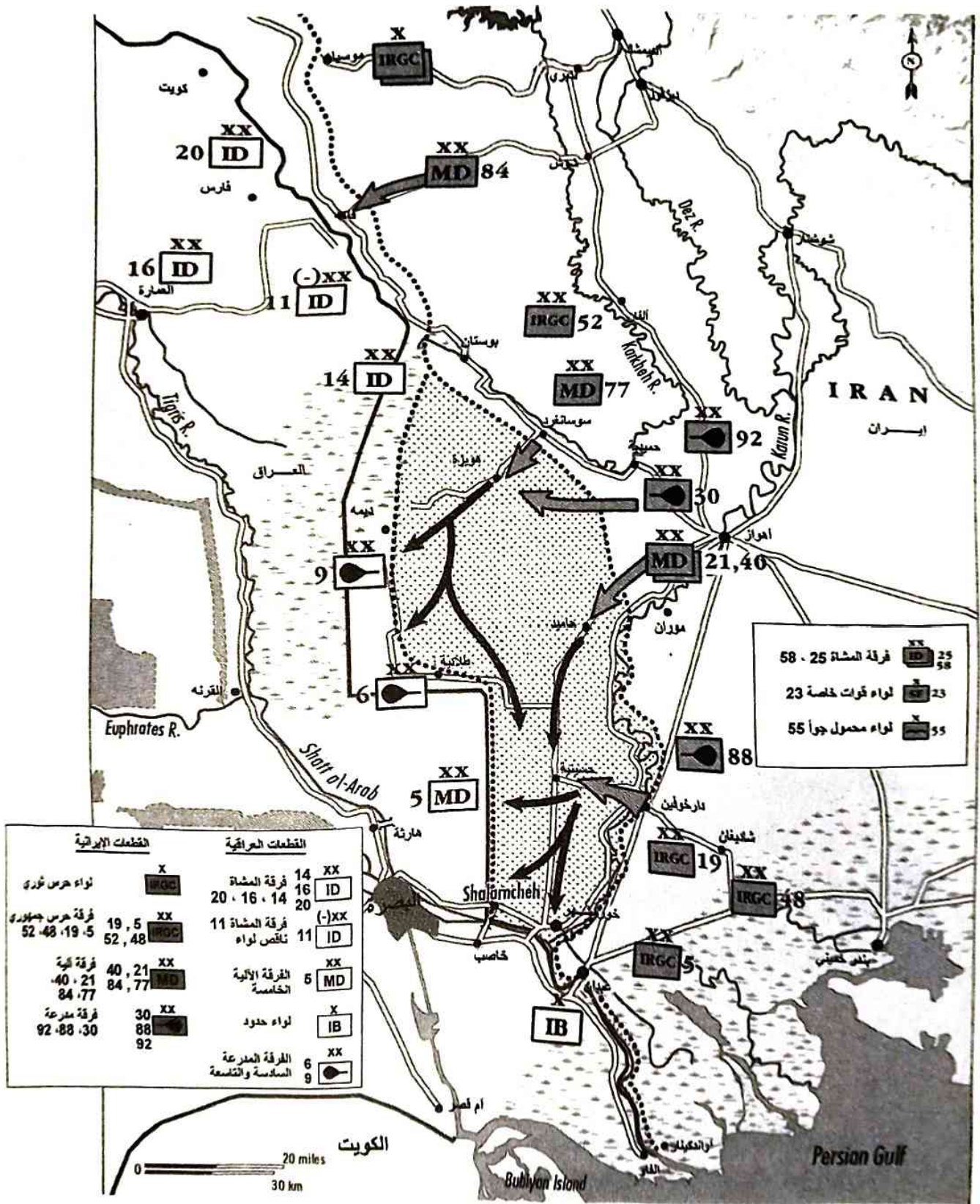
وفي ليلة 7-8 ميس، شنَّ الإيرانيون الصفحة الثانية من هجومهم. وبعد قصفٍ مدفعي وحشي تمكنت الفرق الإيرانية من الانتشار بين سوسنكرد وموران، وبعد التغلب على الفرقة العراقية السادسة والفرقة المدرعة التاسعة ومطاردتهم حتى الحدود العراقية، تم تفكيك الفرقة التاسعة - نظرًا لآدائها البائس - وأزيلت من قائمة الفرق العراقية التي تشترك في المعارك. بعد ثلاثة أيام، تدخل صدام لإنقاذ قائدها الجنرال طالع الدوري، من الأنصار الذين لا يشكُّ في ولائهم وشجاعتهم، وتعيينه في قيادة أخرى⁽²⁾، وفي اللحظات الأخيرة عينَ الجنرال كمال لطيف بدلًا منه، الذي لم يهتم به، وتم تحميله مسؤولية الهزيمة ثم إعدامه. والحادثة توضح عقلية القيادة العسكرية العليا العراقية في ذلك الوقت، وتفسر ضعف شخصية بعض الجنرالات المعنيين.

1- كان الجنرال مكي شاهدًا مباشرًا على الحادثة ووصفها في كتاب

Kevin Woods, ed., Saddam's Generals: Perspectives of the Iran-Iraq War (Alexandria, VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington, 2011), 114.

2- كان الجنرال الدوري مكروها من أقرانه الذي وُصف بغير الكفاءة ولكن تم تعيينه لاحقًا قائدًا للفيلقين الثالث والخامس في الجيش. واتهمه الجنرال الحمداني لاحقًا أنه هو المسؤول عن الخسارة الثالثة للجيش العراقي خلال الحرب (Woods, Saddam's Generals, 16).

الحرب العراقية - الإيرانية

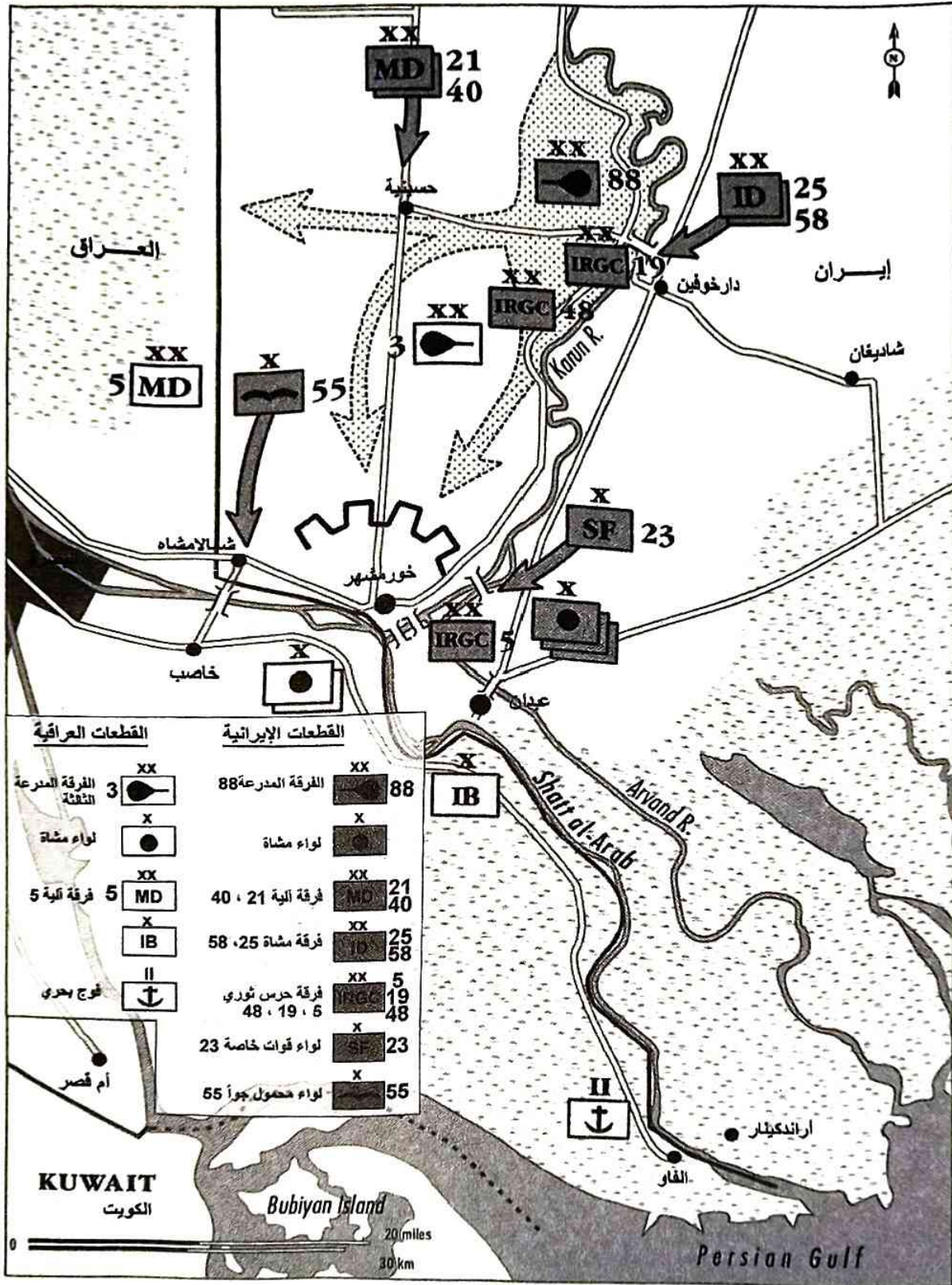


خارطة هجوم بيت المقدس (30 نيسان - 24 مايس 1982)

وإلى الجنوب قليلاً، هرعت الفرقة المدرعة 88 نحو الحدود العراقية وتمكنت من السيطرة على الحسينية، ولم يكن أمام صدام حسين سوى التراجع نحو خورمشهر. ويتم الدفاع عن هذا القاطع بقوات يبلغ عددها 35 ألف مقاتل ونحو مئة دبابة.

وفي يوم 12 مايس أنشأ الإيرانيون معسكراً لهم خارج المدينة، ولكنهم أجّلوا هجومهم بانتظار وصول عدة فرق من الباسدران. كان أكبر هاشمي رفسنجاني واضحاً تماماً: يجب تحرير خورمشهر من الحرس الثوري؛ لأنّهم كانوا ينتظرون شهراً متعددة لهذا الاستحقاق الرمزي للنصر، الذي سيسمح لهم بفرض أنفسهم عنصرًا محرّكًا للقوات المسلحة الإيرانية. انتهزت رئاسة الأركان فرصة الهدنة لإعادة تجهيز مخازنها بالذخيرة وكذلك المياه الصالحة للشرب؛ لأنّ الجوّ أصبح شديد الحرارة. وتم استئجار الكثير من الباصات لنقل آلاف المتطوعين الشباب الذين أرسلوا فوراً إلى الجبهة. وأخيراً، تمكن الإيرانيون من جمع 80 ألف مقاتل لمهاجمة 35 ألفاً من العراقيين المتخندقين على "الساتر الفارسي" وفي داخل خورمشهر.

وخلال ليلة 19-20 مايس، بدأت المدفعية الإيرانية بقصفها وأجبرت العراقيين على الاستعداد في مواضعهم. وفي غضون ذلك، استطاع اللواء المظلي 55 الذي حملته طائرات الهليكوبتر إلى أطراف الشلامجة السيطرة عليها وتدمير الجسر العائم على شط العرب، وعزل بذلك حامية خورمشهر العراقية. وشنّ الإيرانيون هجومهم على المدينة عند الفجر. ولمدة ثمانٍ وأربعين ساعة تم سحق دوزينات من موجات الباسدران على الساتر الفارسي، وأشرف محسن رضائي وعلي شمعخاني على العمليات، وعلى خطوط القتال قرأوا على القوات رسالة من آية الله الخميني تحثُّ المقاتلين على الاستشهاد، واستدعوا لهذه المعركة الحاسمة أفضل جنرالاتهم الذين سيقاتلون كالأسود: رحيم صفوي، حسين حرازي، محمد باقر قاليباف، وكلّهم تبلغ أعمارهم أقل من خمس وعشرين سنة، وكلُّ واحد منهم تولى قيادة فرقة. ولاندهاشهم بضراوة القتال، الإصرار على التضحية بالنفس من المهاجمين؛ وجد المدافعون عن المدينة أنفسهم كما لو أنّهم نقلوا إلى مشهد من العصور المظلمة. ففي يوم 22 مايس بدؤوا بالفتور، وأصبح هؤلاء المقاتلون المنهكون أصلاً من دون ذخيرة تقريباً، وكلّما قتلوا من العدو حلّ محلّهم أكثر.



خارطة تحرير خورموشهر (8-24 مايس 1982)

وفي الليلة التالية، نجحت ثلاث فرق إيرانية في اختراق الساتر الفارسي الذي انهار في عدة أماكن؛ نتيجة لضربات المدفعية ونيران الدبابات المتكررة. وعند الفجر انتشر المقاتلون الإيرانيون في داخل المدينة، بينما قامت ثلاث فرق أخرى بتطويقها لتقطع الطريق على أي من المدافعين العراقيين للتراجع. حاول الطيارون العراقيون كسر زخم القوات الإيرانية بقصفهم الأرغال المشاة الإيرانية بقسوة، لكنهم فشلوا في إيقافهم مع خسارتهم الفادحة (نحو 30 طائرة). أمّا على الأرض؛ تحوّل الوضع إلى هزيمة منكرة، العراقيون المضطربون تركوا ناقلاتهم وحاولوا الوصول إلى شطّ العرب لعبوره بالزوارق الصغيرة والألواح الخشبية الطافية أو حتى سباحة، ونحو 40٪ منهم وصل إلى الضفة الأخرى من النهر، والبقية إمّا قُتلوا أو أُلقي القبض عليهم. والوحدات القليلة التي حاولت بشجاعة إبطاء التقدم الإيراني، فقد تم سحقها دون رحمة. كانت قوات الباسدران المتحمسة مستعدة لتقديم أي تضحية لإعطاء قادتها النصر، ولم يوقفهم أحد. وعند حلول الليل تمكن الإيرانيون من أسر 12 ألف عراقي. في يوم 24 مايس أعلن الإيرانيون تحزير خورمشهر، المدينة التي تعرضت للاستشهاد مرتين. ألهمت هذه القصة البطولية مخرج الأفلام الإيراني خسرو سيناى لإخراج فلمه "در خوشي عشق"، أي "زقاق العشق"، وهو رواية جميلة وحميمة لأحداث المعركة تفوق على الصيغة الإعلامية الاعتيادية لتحرير المدينة. تعدّ خسارة خورمشهر هزيمة منكرة للعراقيين الذين تكبدوا ثمانية آلاف قتيل و19 ألف أسير (بضمنهم الجنود في القواطع الأخرى)، وأكثر من 15 ألف جريح، فضلاً عن تدمير أو السيطرة على المعدات: 250 دبابة، 300 ناقلة مدرعة، 100 قطعة مدفع. وعلى الرغم من إحرازهم انتصارًا يتبجحون به، فإنّ الإيرانيين تكبدوا خسارة ثقيلة: بين 12-15 ألف قتيل، 25 ألف جريح، وتدمير 400 دبابة.

الانسحاب الاستراتيجي

يعدّ سقوط خورمشهر نهايةً فعليةً لحملة الرئيس العراقي صدام حسين، وعليه الاعتراف - بمرارة ولكن بوضوح جلي - بفشل مسعاه. وأن يجد طريقًا لإنهاء الحرب

والتضحية ببعض أكباش الفداء لإنقاذ ماء وجهه. وكان يخاف أن الجيش والحزب ربّما يحتملانه حجم الخسائر الفادحة: 30 ألف قتيل، 35 ألف أسير، وضعف هذا العدد من الجرحى، ونصف القوات البرية التي خصصت لغزو إيران أصبحت الآن خارج الخدمة. وخسر الجيش العراقي 20% من مدفعيته، و40% من طائراته، و60% من أسطول الدبابات. وكلُّ هذا من أجل لا شيء الآن؛ لأنَّ الجيش الإيراني استعاد تسعة أعشار أراضيه التي تعرّضت للغزو. وأقام الإيرانيون معسكرًا لهم على طول شطّ العرب ويهدّدون البصرة الآن. وفي 28 ميس سنوا هجومين منسّقين على قصر شيرين وسومر، حيث كانوا يأملون أن العراقيين المنهارة معنوياتهم سيسلّمون المدينتين دون مقاومة، لكن الجنرالات الإيرانيين كانوا على خطأ، إذ تمسّكت القوات العراقية بمواضعها بقوة؛ لأنّهم يدركون أن سقوط هاتين المدينتين سيفتح لعدوّهم الطريق إلى بغداد.

انتَهز صدّام حسين فرصة هذا النجاح الذي جاء في وقته لاستعادة السيطرة، وهنأ الجنرال عزيز قائد قاطعي قصر شيرين وسومر، وقضى على الضبّاط الذين عدّهم مسؤولين عن هزيمة خورمشهر ليُدكّر الآخرين بولائهم وواجباتهم. وبناءً على أوامره أزيح نحو عشرين ضابطاً بمراتب كبيرة عن مواقعهم، وأقيمت محاكمة عسكرية مباشرة في البصرة لمحاكمتهم. وجدت المحكمة عشرة منهم مذنبين وأعدموا، من بينهم الجنرالات القاضي قائد الفيلق الثالث، والعميد الركن جواد اسعد شتته قائد الفرقة الثالثة، ولطيف قائد الفرقة التاسعة. والكثير من أعضاء القيادة العسكرية العليا، إمّا طُردوا أو هُمّشوا، ومن بينهم الجنرال عبد الجبار شنشل القائد العام للقيادة العسكرية العليا (وقائد القوات البرية)، حيث عُيّنَ عبد الجواد ذنون الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية بدلاً منه، وعُيّنَ أيضًا الجنرال الكعبي قائدًا للقوة البحرية - الذي كان نائبًا لقائدها - بدلاً من الجنرال الجنابي.

وفي غضون ذلك، تقرب الرئيس العراقي من الأقليات في البلاد، وعيّن الكردي طه معروف نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة. وعلى الرغم من أنَّ المنصب فخريًا فإنَّ هذا التعيين أعاد طمأنة السكان الكرد. وتمت ترقية بعض الضباط برتبة عقيد من أصول كردية أو شيعية

إلى رتبة جنرال. كذلك رمّم النظام الأضرحة الشيعية في النجف و كربلاء. وأخيراً، بدأ صدام برنامج القرض الداخلي لتسريع استكمال بناء عددٍ من مشاريع الإعمار الكبيرة، ولا سيّما في المناطق الكردية، وتأسيس مؤسسة لتعويض ضحايا الحرب الذين منحت عوائلهم مزايا اجتماعية متعدّدة. ولم يتردد صدام في وضع صورته بابتسامته المعروفة على كلِّ سند خزينة وطني ليطمئن السكان ويقنعهم بالاستثمار بكثافة في هذا القرض.

وفي يوم 6 حزيران 1982 أمرت الحكومة الإسرائيلية بقيادة مناحيم بيغن بغزو جنوب لبنان لملاحقة قوات الفصائل الفلسطينية التي أخذت تلك المناطق ملجأً لها منذ أكثر من قرن من الزمان. وقد أعلن بيغن أنّ مبرر هجومه الأخير كان اغتيال سفيره في لندن الذي تم تحميل مسؤوليته لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكن في الواقع نفذته مجموعة أبو نضال الفلسطيني المولد الذي يعمل دائماً لكلِّ من يدفع أعلى ثمن لعملياته. أمسك صدام حسين بهذا الوضع مباشرة الذي خلق تحولاً في الوقت المناسب، إذ صرّح أمام جمهورٍ من الصحفيين الدوليين أنّه مستعدّ لوضع نهاية للقتال مع إيران، وإعادة القوات إلى العراق؛ من أجل إرسالها لقتال المعتدي الإسرائيلي. لقد اندهش أكبر هاشمي رفسنجاني من سداجة صدام، واستخدم كلامه عينه أمام الإعلام، وطلب منه السماح للجيش الإيراني بالمرور عبر العراق والتوجه نحو لبنان؛ بهدف حصر الدكتاتور العراقي في الزاوية.

أعلن صدام حسين في يوم 10 حزيران هدنةً من طرف واحد وقبل بالشروط الرئيسة التي أعلنتها طهران: الانسحاب من كل الأراضي التي غزاها العراق، ودفع التعويضات من خلال التبرعات التطوعية من الدول العربية التي تساند بغداد، وأعلن صراحةً قبول الحدود التي رسمتها اتفاقية الجزائر عام 1975، ويتحمل مسؤولية بدء الحرب - على الرغم من أنّه أشار إلى الحرب المفروضة - وأنّه سيسمح بمرور القوات الإيرانية بالتوجه إلى لبنان إذا أرادت، ويضمن ذلك. ولكنّه رفض جملةً وتفصيلاً مطلبين إيرانيين هما: تنازله عن السلطة، وإعادة توطين مئة ألف شيعي أبعدهوا إلى إيران قبل اندلاع المعارك. قام صدام بالمقامرة على عقلانية الإيرانيين وانتهاز الفرصة لوضع نهاية للحرب، ولا سيما أنّ أراضيهم قد تحررت وتم تلبية أغلبية مطالبهم. وإذا رفضوا ذلك، فإنّه سيعتمد على التضامن النشط لحلفائه

العرب الذين سيسمحون له بمواصلة حرب الاستنزاف؛ لأنه كان يتصور أن الإيرانيين لم يعودوا لشنّ عمليات واسعة ضدّ العراق. وكما هو حال العراقيين، فقد أُنهك الإيرانيون وتكبّدوا خسائر فادحة منذ اندلاع الحرب (50 ألف قتيل، وخمسة آلاف أسير). وأغلب مشهد محتمل بالنسبة إلى رئاسة أركان صدّام هو واقع ما قبل الحرب المتمثل برشقات من قذائف المدفعية ومناوشات حدودية متكررة.

يبقى السؤال الذي لا إجابة عنه حتى اليوم: هل صدّام حسين من أعطى الأمر بالتخلص من شلومو أرغوف السفير الإسرائيلي في لندن، ليشعل حرباً أخرى في الشرق الأوسط وليعطى سبباً سهلاً ليبرر الهدنة ومن دون خسارة ماء وجهه؟ إنّه مجرد احتمال إذا اعتقدنا الفرضية المقنعة لباتريك سيل الصحفي الاستقصائي المختص بشؤون الشرق الأوسط ومؤلف السيرة الذاتية لأبي نضال وكذلك المؤرخين مارتن فان كريفلد Martin Van Creveld و روب جونسون Rob Johnson، الذين يرون أنّ لا ليبيا، ولا إيران، ولا منظمة التحرير الفلسطينية، ولا سوريا؛ لهم مصلحة لإشعال حرب أخرى مع إسرائيل في ذلك الوقت، وعلى عكس الرئيس العراقي الذي ستتوافر له حجة مناسبة لوضع نهاية للحرب مع طهران، ووسيلة لمعاقة إسرائيل على تدميرها لمفاعل أوزيراك النووي⁽¹⁾. وحتى الآن لا يوجد دليل في التسجيلات الصوتية لصدّام التي تم الاستيلاء عليها بعد عام 2003 أو في وثائق استجوابه ما يؤيد هذا الرأي.

على أية حال، ساند الملك السعودي فهد مقترح الهدنة بقوة، وأعلن استعداده لدفع 50 مليار دولار نقدًا لإقناع الحكومة الإيرانية بقبول العرض العراقي. ويُفترض في هذا المبلغ الضخم أن يغطّي كلّ ما عانته إيران من أضرار منذ اندلاع الحرب. ولكن كان الإيرانيون مفاوضين أشداء وطالبوا بمبلغ 150 مليار دولار، وربما أرادوا الحصول على مئة مليار دولار. شعر الملك فهد بالغضب وسحب عرضه وأعلن اصطفافه مع العراق. ولأول مرة

1- Patrick Seale, Abu Nidal: Agun for Hire (New York: Random House, 1992) 224-227; Martin Van Creveld, Tsahal- Histoire critique de la force de defense Israelienne (Monaco: Edition du Rocher, 1998), 423; Rob Johnson, The Iran-Iraq War (London: Palgrave Macmillan, 2011), 67068.

منذ اندلاع المعارك - وبمباركة من واشنطن - أرسل مباشرة إلى العراق ذخائر أمريكية الصنع الموجهة بدقة ليسمح للعراق بزيادة قدراته في القصف.

وعلى الرغم من رفض إيران المطلق، أمر صدام حسين في يوم 20 حزيران 1982 قواته بالانسحاب من الأراضي الإيرانية المحتلة وإعادة تموضعها على الحدود الدولية، وبذلك تحمّل المخاطرة بفتح الأراضي السهلية العراقية والطريق إلى بغداد أمام الإيرانيين. تم تنفيذ هذا الانسحاب الاستراتيجي بعد تسعة أيام، وبذلك وضع نهايةً للصفحة الثانية من الحرب. وعقد الرئيس العراقي أيضًا المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث وحصوله على الموافقة التامة لإدارته الحرب، في وقتٍ بدأت الانتقادات له تجد طريقها للسماع. ولكي يقطع التمرد من أصله، قرّر التخلص من عدد من منتقبيه، ومنهم على سبيل المثال إبراهيم حسين وزير الصحة الذي اقترح تنازل صدام عن السلطة فورًا، والذي أرسل إلى غرفة الإعدام بعد محاكمة مضحكة. انتهز صدام حسين هذه الفرصة للقيام بحملةٍ جديدةٍ للتطهير وفرض قيادةٍ صارمةٍ على الحزب، وجعل مجلس قيادة الثورة مقتصرًا على حلقتة المقرّبة: عدنان خير الله ابن خاله ووزير الدفاع، وعلي حسن المجيد ابن عمه ورئيس جهاز المخابرات، وشقيقه برزان إبراهيم التكريتي المشرف على الأمن السري، وصهره حسين كامل، وطارق عزيز وزير الخارجية، وطه ياسين رمضان قائد الجيش الشعبي، وعزت إبراهيم الدوري نائب وزير الدفاع، وسبعوي إبراهيم الحسن التكريتي رئيس جهاز الأمن. وقد أخبرهم أنّه بالعودة إلى أوضاع ما قبل 22 أيلول 1980 فإنّه جرد النظام الإيراني من أية مبررات أخلاقية لاستمرار الحرب، وبذلك مسؤولية استمرارها تقع على طهران. وإنّ الطموحات التوسعية لطهران ستقود ودون شكّ القوى الكبرى للوقوف مع صدام. وفي هذا المجال برهن على رؤية واضحة. وكما ذكر أحد الملحقين العسكريين في بغداد آنذاك: "من الناحية النفسية، العراق خسر الحرب، فالهزيمة في خورمشهر تدل على عجز إمكانية بغداد في المضي قدمًا في وضع نهاية إجبارية لتصدير الثورة الإسلامية الإيرانية"⁽¹⁾.

1 - مقابلة مع المؤلف، مصدر مجهول.

اتفاق رفسنجاني وخامني على استمرار الحرب

إن إعلان الهدنة والانسحاب العراقي على الفور أدى إلى نقاش راسخ في طهران. فهل يجب أن تستمر الحرب وتُنقل إلى قلب الأراضي العراقية؟ كان آية الله الخميني مخلصاً لدوره كحكّم، وفي البداية رفض إعطاء رأيه، وفضّل بدلاً من ذلك الإصغاء إلى جدال الطرفين. ساند آية الله منتظري أغلبية رجال الدين؛ لأنّه كان ضدّ استمرار الحرب ويرى أنّ بعد عشرين شهرًا من النزاع المميت فإنّ الناس يميلون إلى السلام. وكان علي خامنئي ضدّ الحرب، ودائمًا يعطي الأولوية للجبهة الداخلية، ويريد تركيز كلّ جهوده على الكفاح ضدّ خصوم النظام، ولا سيّما أنّ مجاهدي الشعب ما زالوا ينفذون هجماتهم الإرهابية في المدن الكبيرة على الرغم من مقتل زعيمهم العمليّ مسعود رجوي قبل عدة أسابيع. فضلًا عن أنّ مقاتلي الحزب الشيوعي تودة الذين يعيشون بسرية يمكن أن يحملوا السلاح. أمّا اليشمركة في مناطق كردستان الذين تم دفعهم إلى المناطق الجبلية، ولكن لم يتم سحقهم. وتم قمع مقاتلي الحركات الاستقلالية في محافظات آذربيجان وبلوچستان، ولكن ذلك مجرد إخماد مؤقتٍ للتمرد في كلّ مكان، ويمكن أن ينهض من جديد. كان خامنئي أكثر واقعية ويتخوّف من استمرار الحرب ضدّ بغداد؛ لأنّها قد تسمح لمنافسه رفسنجاني بتراكم أمجاده وزيادة فرصه لفرض نفسه مرشدًا أعلى قادمًا. ولم يكن لرئيس الوزراء موسوي، ولا لوزير الدفاع سليمي أي رأي في تلك القضايا، وأنهما مجرد تابعين مسؤولين عن تنفيذ ما يقرره الملالي. كان لقيادة الجيش تحفظات جدية أيضًا ومؤكدين حجم الخسائر التي تكبدوها، ولا سيّما أنّ الفرق المدمرة لا يمكن إعادة تشكيلها، على الرغم من التيار الكبير من المجندين.

كان رفسنجاني ولوحده فقط يصرُّ على استمرار الحرب. وبوصفه خبيرًا نفسيًا ماهرًا، ومناورًا كبيرًا وضع مقولة آية الله الخميني الحاسمة لسمعها الجميع: يجب معاقبة صدّام حسين والإطاحة به؛ لكي تعطى الفرصة لشبيعة العراق للوصول إلى السلطة وتحويل العراق إلى جمهورية إسلامية على وفق الأنموذج الإيراني. ويجب بذل الجهود لإذلال

الدكتاتور العراقي وتوفير الظروف المناسبة لإسقاط نظام البعث. أمّا كلفة الوصول إلى هذا الهدف الاستراتيجي كانت مسألة ثانوية. ألقى الناطق باسم البرلمان الشكّ على نوايا صدّام الصادقة وراهن على أنّ جيشه لم ينسحب من كلّ الأراضي التي احتلّها. والأحداث أثبتت صحة أقوال رفسنجاني، فقد احتفظت القوات العراقية بالسيطرة على بعض التلال الصخرية القريبة من الحدود العراقية والواقعة بين قصر شيرين والفكة لحماية الطريق إلى بغداد. ولذلك؛ استمرار القتال يبدو منطقيًا لرفسنجاني، وبشكل خاصّ أنّه يؤدي إلى حشد الحماسة الثورية وتوحيد السكان حول الملالي بينما يستمر التدمير لبنية النظام الاجتماعي القديم. كما ذكر رفسنجاني المرشد الأعلى أنّ الجيش الإيراني الذي صدّ أفضل القوات العراقية يجب ألاّ يواجه صعوبات كبيرة لإحضارهم على ركبتيهم. وبالهجوم مباشرة، فالنظام قد يحول الانسحاب العراقي إلى انتصار إيراني كبير.

وبمساعدة من مدير الإعلام الشاب محمد خاتمي، دعم أكبر هاشمي رفسنجاني تحليله بإغراق المرشد الأعلى بإحصائيات تبين أنّ إيران تملك موارد مالية وبشرية كافية لكي توجّه ضربةً قاضيةً للنظام العراقي وإسقاطه. ومن أجل حشد الدعم لاستمرار القتال، كان الناطق باسم البرلمان في الواقع يناور لتعزيز السلطة التي استمدّها من مكانته زعيم حرب، التي أعطته سلطةً وسيطرةً على كلّ مرافق الدولة وكذلك على اقتصاد البلاد. فإطالة مجهود الحرب سيسمح له بزيادة ثروته الشخصية، والانتصار على العراق سيسمح له فرض نفسه قائدًا أوحدًا للبلاد من غير منافس بعد موت المرشد الأعلى. ومن جانب آخر، فإنّ نهاية الحرب ربما تؤدي إلى خسارة قبضته وستعود بالفائدة على علي خامنئي. ومرة أخرى، كان جوهر السياسة الإيرانية مُحكمًا بالكفاح العنيد للقبض على السلطة العليا. ويساند رفسنجاني كلّ من محسن رضائي وعلي شمخاني قادة الباسدران؛ لأنّهما يدركان أنّ استمرار الحرب سيوفر لهم درجة من السلطة لا يمكنهما تحقيقها فيما لو توقف القتال.

قرّر آية الله الخميني الوقوف إلى جانب رفسنجاني، ودعا القادة الإيرانيين الآخرين إلى مساندة قراره. وأعلن الجنرال شيرازي دعمه للناطق باسم البرلمان، وصرّح في يوم 22 حزيران 1982 "أنّ الحرب ستستمر حتى إسقاط صدّام حسين لكي تتمكن من الذهاب

إلى الصلاة في النجف و كربلاء والقدس". وروّج رفسنجاني هذه النقطة في الداخل بتصريحه علانية "أنّ الطريق إلى القدس يمرُّ عبر كربلاء، واستئصال النظام البعثي بالعراق"⁽¹⁾. ولإعطاء هذا القرار وزناً أكبر جعلت الحكومة الإيرانية السكان يعتقدون أنّ الجيش العراقي لا يزال يحتلُّ جزءاً مهماً من إيران، وبذلك تبرر استمرار الحرب.

بدأت القيادة العسكرية الإيرانية العليا مباشرة الاستعداد لشنّ هجوم واسع ضد العراق. وتقوم الخطة على اختراق استعدادات العدو في نقطتين مختلفتين: خنق الاقتصاد العراقي من خلال عزل البصرة و كركوك، وتدفق الوحدات المهاجمة نحو بغداد لتشجيع المجتمع الشيعي على الانتفاض. وإذا لا يمكن الوصول إلى العاصمة العراقية كما يبدو، فإنّهم سيتحولون إلى البصرة وينصبون حكومة إسلامية تتحالف مع طهران، ثمّ الاستيلاء على حقول النفط على الحدود كتعويضات حرب. واستناداً إلى المحللين الاستراتيجيين الإيرانيين هذا التزامن في الأحداث سيؤدي إلى سقوط صدّام حسين. ولتنفيذ هذه الخطة، ركز الجنرال نجاد والجنرال شيرازي أفضل وحداتهم العسكرية في مناطق مختارة من أجل اختراق صفوف العدو. وفي مطلع شهر تموز تجمّعت ثماني فرق (بضمنها فرقتان مدرعتان) إلى الشمال من البصرة، وأربع فرق أخرى (بضمنها فرقة واحدة مدرعة) انتشرت بين قصر شيرين وسومر لتكون في وضع لمهاجمة خانقين ومندلي. هذه الفرق الاثنتا عشرة، كل واحدة تتكوّن من 12 ألف مقاتل، وبدعم من 800 دبابة، و600 قطعة مدفع. وتنتشر الفرق العسكرية الست الباقية على طول خط الجبهة.

وبمواجهتهم، يملك العراقيون ثماني عشرة فرقة تدعمها ألف دبابة و900 قطعة مدفع، ولكن الفرق العراقية تتكوّن من أكثر من ثمانية آلاف جندي بقليل لكل فرقة. وبينما تكون نسبة القوة القتالية إلى صالح الإيرانيين عددياً، ولكن إلى صالح العراقيين من حيث المعدات، وهذا يوضح واحدة من قضايا الحرب الرئيسة: يمكن للملاي الاعتماد على القوة البشرية الإيرانية، بينما يعتمد صدّام على الدبابات والمدفعية والهلوكوبتر والطائرات الأخرى لدعم مواقعه.

1- Paul Balta, Iran-Irak War: Un guerre de 5000 ans (Paris: Anthropos-Economica, 1988), 162.

تبنى مجلس الأمن الدولي بالإجماع في يوم 12 تموز 1982 قرار 514 يدعو فيه طرفي القتال إلى وضع نهاية فورية للقتال. كان المجلس قلقاً من استمرار الحرب، ولذلك توصل الأعضاء الخمسة الدائمين إلى اتفاق وبقيادة خبير بيرث دي كويار من البيرو لإصدار بيان توفيقى يدعو إلى "إرسال فريق من الأمم المتحدة للاطلاع والتأكيد والإشراف على هدنة وانسحاب... القوات إلى الحدود الدولية المعترف بها"⁽¹⁾. قبل صدّام حسين مباشرة بينود هذا القرار، في حين رفضه آية الله الخميني ودعا الشعب العراقي إلى الانتفاض ضد النظام. أمّا في إيران كان التلفزيون والراديو الإيرانيان يعلنان بغرور أنّ معركة حاسمة على وشك الاندلاع ضدّ العراق.

1 - قرار مجلس الأمن الدولي بالأمم المتحدة رقم 514 (1982).

الفصل الخامس عشر

هجوم رمضان كريم

في يوم 13 تموز 1982 الموافق منتصف شهر رمضان شنت طهران هجوماها "رمضان كريم" وهي تسمية لاستيعاب حماسة المقاتلين. تمثل هذه العملية الصفحة الثالثة من الحرب. كان هذا الهجوم في البداية موجهاً نحو قاطع البصرة، حيث يتشر الفيلق الثالث الذي يتكوّن من خمس فرق (الثالثة، الخامسة، السادسة، الحادية عشرة، السادسة عشرة). وقبل منتصف الليل بقليل، اندفعت الفرقتان المدرعتان 30 و88 وبدعم من ثلاث فرق آلية (21، 40، 77) نحو شط العرب لعبوره من جسر الهارثة الواقع على بعد عشرة أميال (15 كيلومتراً) شمال البصرة. تقدمت الدبابات الإيرانية نحو عشرة أميال قبل أن يتم إيقافها عند انبلاج النهار بهجوم معاكس شرس من الدبابات العراقية. دارت رحى معارك طاحنة خلال اليوم تحت أشعة الشمس الحارقة على طول الضفة الشرقية لشط العرب. استدعى الجنرالات العراقيون القوة الجوية التي قصفت أرتال العدو دون رحمة، ممّا أجبر الإيرانيين في النهاية على التراجع إلى مواضعهم السابقة. وعلى الرغم من سحقهم بقسوة، فإن فرقتهم المدرعة والآلية أعيد انتشارها إلى الشمال بقليل للمشاركة في الصفحة الثانية من الهجوم. وفي ليلة يوم 16-17 شنّ الإيرانيون هجوماً آخر هذه المرة باتجاه القرنة، وهي المدينة الواقعة

عند ملتقى نهري دجلة والفرات التي توفر للإيرانيين موطئ قدم مثاليًا لقطع الطريقين بين بغداد والبصرة، وبذلك يتم عزل المدينة النهرية، البصرة.

القوات الإيرانية تدخل العراق

انسحب العراقيون قليلاً لجذب العدو إلى منطقة مستنقعات لجعل آلياتهم تغوص في وحلها، وفعلاً وقع الإيرانيون في المصيدة بعد أن ظنوا المنطقة قد جفت في فصل الصيف ولا تعيق تقدمهم. وفي الواقع، هم لم يدركوا أن القائد العسكري للمنطقة قرر قبل أسبوعين إغراقها بفتح القنوات الإروائية المتفرعة من شطّ العرب. ولذلك؛ تحركت طليعة الجيش الإيراني ووقعت في المصيدة تمامًا، وهُوجمت على الفور من ثلاثة اتجاهات. ونتيجة لإعاقتها بحلول الظلام، أجبرت الدبابات الإيرانية لتصبح على مسافة قريبة جدًا لدعم تقدم جنود المشاة، وبذلك أصبحوا هدفًا سهلاً لطواقم الدبابات وقوات الكوماندوز العراقيين. كان العراقيون متسلحين بمنصات صواريخ مضادة للدبابات ومزودة بناوثير ليلية تم شراؤها من فرنسا بأسعار غالية. وبعد ستّ وثلاثين ساعةً من المعارك الملحمية، تراجعت الفرق الإيرانية إلى خطوطها. وعلى الرغم من تراجعها، تحركت القيادة العسكرية العليا الإيرانية قدمًا في خطتها والسماح للباسدران للسيطرة على البصرة.

وفي يوم 17 تموز وهو يوم ذكرى انقلاب حزب البعث عام 1968، أصدر صدام حسين أوامره لجيشه بإعادة الاستيلاء على قصر شيرين. وقد واجهت قواته البنية الدفاعية التي سبق وأن قامت الوحدات الهندسية العراقية ببنائها في السنة الماضية وتركها رجال المشاة قبل ثلاثة أسابيع. لكن تراجعت القوات العراقية بعد فشل هجومين على المدينة وتكبدها خسائر فادحة. في هذا الوقت جاء الملك حسين لإنقاذ الموقف وأرسل فرقةً من الجنود الأردنيين.

كذلك شنّ الإيرانيون هجومًا آخر على قاطع البصرة. وفي هذه المرة اعتمدوا على رجال المشاة لاختراق خطوط الدفاع العراقية، والسيطرة على الجسور اللازمة لتحقيق

أهدافهم. ولكن أبطأ الإيرانيون تقدمهم؛ بسبب حقول الألغام والخنادق المملوءة بالمياه، ومزقتهم المدفعية، وفي النهاية تم صدّهم بالدبابات المتخذة خلف سد خارج البصرة. أدرك الإيرانيون في يوم 23 تموز أنّهم لا يستطيعون تحقيق خرق في هذا القاطع، ومن ثمّ لا توجد لديهم قوات كافية للهجوم باتجاه كركوك. ولذلك؛ قرروا تغيير استراتيجيتهم. وبدلاً من الوصول إلى النهر، استقروا على شريط بعرض ميلين على الحدود البرية مقابل البصرة والهارثة. ومن أجل أن يبرهنوا للنظام البعثي أنّ الحرب لم تنته بعد، فجّروا سيارة مفخخة في بغداد أدى إلى مقتل عشرين عراقياً. أعلنت حركة المجاهدين العراقية مسؤوليتها عن الهجوم، ولكن كان من عمل المخابرات السرية الإيرانية. وفي غضون ذلك، وصل العراقيون إلى نتيجة أنّه بإمكانهم احتواء العدو من خلال قواتهم المخبرانية المشتركة.

وفي يوم 31 تموز أجّلت القيادة الإيرانية هجومها طويلاً لإعادة تنظيم ذخيرتها والمياه الصالحة للشرب؛ لأنّ قواتها تستهلك كميات أكبر من المياه ممّا كانت تحتاجه قبل أسبوعين. واحتاج الجنرالات شرح هذه الهزيمة اللاذعة لأكبر هاشمي رفسنجاني، حيث كلفهم هذا الهجوم الفاشل 12 ألف قتيل و300 دبابة، ولم يحصلوا على أي شيء، على الرغم من أنّ العراقيين خسروا 150 دبابة وخمسة آلاف قتيل (بضمنهم ألف أسير). وأسباب هذه الهزيمة بسيطة، فالإيرانيون قلّوا من الروح القتالية للجنود العراقيين وحماستهم، ولا سيّما أنّهم يدافعون الآن لحماية أراضيهم، وكان التنسيق بين القوات النظامية والباسدران كارثياً. أمّا العسكريون الذين كانوا يكافحون بمعنويات متدنية بسبب التطهير الدموي بعد قضية قطب زاده، والإذلال المتواصل الذي يتعرّضون له من الحرس الثوري، لم يُظهروا أي اندفاع كبير. أما الجنرال نجاد الذي كان غاضباً؛ لأنّه أجبر على قيادة هجوم رآه يُنفذ في ظروف غير مؤاتية، حتى إنّّه أعلن أنّه مستعدّ للاستقالة إذا استمرّ تدخل بعض القادة السياسيين في التخطيط للعمليات. كانت انتقاداته موجهة بوضوح إلى رفسنجاني، وكان بإمكان نجاد الطعن بالذات "الرفسنجانية"؛ لأنّه يدرك أنّه يتمنّع بحماية آية الله الخميني وعلي خامنئي؛ لأنّهما يدركان أن النظام بحاجة إلى جنرالات يحملون صفاته الشخصية والقدرة على تخطيط عمليات معقدة. وتعزز موقعه بالحقيقة الصارخة

والواضحة بأن الحرس الثوري تعوزه الاحترافية والتدريب اللازمين، وأن تكتيكة المعتمد على الموجات البشرية لم يعد كافيًا.

ولم ينتظر أكبر هاشمي رفسنجاني طويلًا للرد. ولأنه لا يستطيع طرد الجنرال نجاد ولا يمكنه تجريد الجيش النظامي من المعدات اللازمة لتعزيز قوات الحرس الثوري، لذلك؛ قرّر تزويده بالإمكانات لتجهيز نفسه وتدريب قواته ذاتيًا ودون الاعتماد على مساندة الجيش. وفي منتصف شهر آب أعلن تأسيس وزارة الباسدران (تم التصويت على إنشائها رسميًا في البرلمان في 7 تشرين الثاني 1982)، وعيّن وزيرًا لها صديقه محسن رفيق دوست. ومثل رفسنجاني، كانت خلفية رفيق دوست من بين تجار البازار، فهو علماني، منفتح، مرح، ودود، يفهم جيدًا كل شيء يراد بيعه ما دمت مستعدًا لإنفاق ما لديك من المال. احتج خصومه أنه منخرط في التجارة غير الشرعية، لكن لا يمكنهم إنكار قدرته الفطرية على التفاوض. كانت اتصالاته المتعددة ولا سيما مع الغرب، من المفترض أن تسهل من قدراته على التفاوض لشراء المعدات الثقيلة (دبابات، مدفعية، صواريخ، معدات لعبور الأنهار) لتعزيز مستودعات أسلحة وحدات الباسدران الضعيفة. اختار رفسنجاني رفيق دوست للعناية بالتسهيلات السوقية وتجهيز الأسلحة للحرس الثوري، ومن الواضح السماح له أن يصبح ثريًا كما يرغب. وتم تثبيت كل من محسن رضائي قائدًا للباسدران وعلي شمخاني نائبًا له، واللذين كانا على مستوى التوقعات. ويساعدهما في مهامهما كل من رحيم صفوي ومحمد كاتبي اللذين تميّزا في صفحة إعادة الاستيلاء على الأراضي الإيرانية وأنيط الأول بدائرة العمليات والثاني بالمخابرات. وأصبح الباسيخ مهيبًا تمامًا ليصبح وزارة والذي تم بناؤه على عشر قوات عسكرية إقليمية، وثمانية أقسام إدارية مركزية⁽¹⁾.

وهكذا أعطي الباسدران أولوية في تخصيصات كل المعدات التي تم الاستيلاء عليها أو التي يتم شراؤها من الخارج. وطلب الناطق باسم البرلمان أن يتبنى أعضاؤه سلسلة من

1- أنشأت القادات الإقليمية العشرة في مدن طهران، أصفهان، رشت، مشهد، تبريز، بندر عباس، كرمنشاه، شيراز، وإقليمي خوزستان وكرديستان. أما الأقسام الإدارية الثمانية؛ كانت مسؤولة عن الشؤون الشخصية والتخطيط، ونقل الملكية، العمليات، الاستخبارات، نظام القضاء العسكري، الأمن، والإعمار.

الإجراءات توفر فوائد متنوعة وكثيرة لأولئك الشباب المجندين الذين اختاروا الخدمة في الباسدران وليس في الجيش النظامي: رواتب عالية، إجازات أطول، ترقية باقصر فترة، مجانية التعلم بالجامعات، والكثير من الخدمات العامة. وفي أعقاب وفاة المجند في الباسدران أو إصابته بالمرض، فإن مؤسسة الشهداء تتولى رعاية عائلته. ونتيجة لذلك، اختار اثنان من كل ثلاثة من الشباب الخدمة في الباسدران، وبشكل خاص حينما قيل إن التدريب في فترة أقصر وأقل صعوبة مما هو عليه في الجيش النظامي. ولذلك اختار أبناء العائلات المتميزة وأولئك الذين تتمتع عوائلهم بعلاقات بارزة مع رجال الدين أو مع البازار هذا الطريق، وهم يدركون أن العمل في الأعمال الخلفية في الباسدران مثلاً في رئاسة الأركان، أو في الوحدات اللوجستية سيكون أكثر هيبةً وشهرةً وأقل خطراً من العمل في جبهات القتال مع فرق القوات النظامية. ومع ذلك، ما زال القادة الإيرانيون يستخدمون أسلوب الموجات البشرية للتغلب على الجيش العراقي. وإن مواردهم المالية المحدودة تمنعهم من إتباع العراق في السباق المحموم لشراء الأسلحة. ويدركون، ولو بسخرية، أن خسارة مئة مقاتل ربما تكون أرخص من ثمن دبابة أو طائرة.

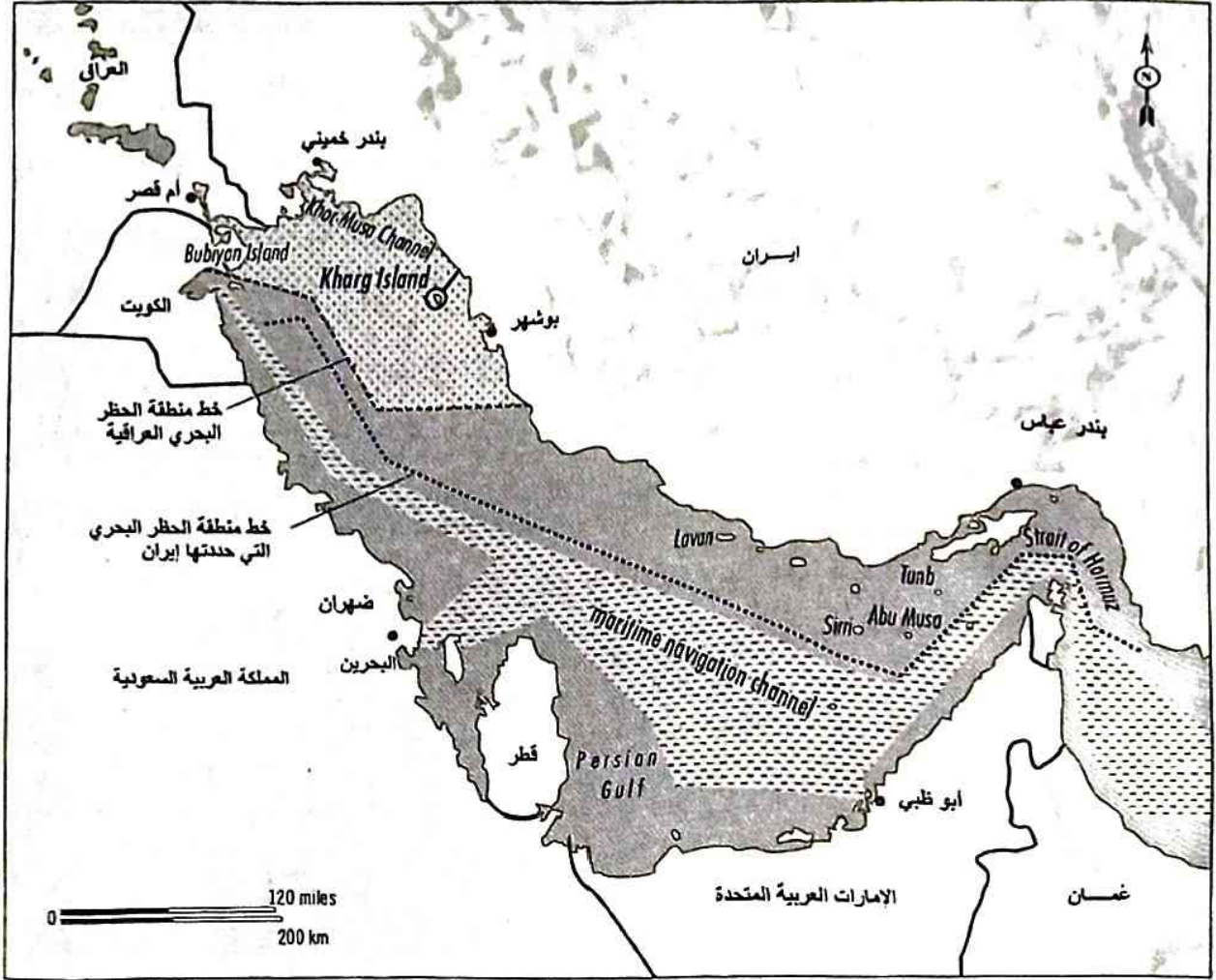
وبالعودة إلى التنظيم العسكري، أنشأ أكبر هاشمي رفسنجاني قيادة عسكرية عليا خاصة ومسؤولة عن الإشراف على العمليات في الجبهة العراقية. وتتكون هذه القيادة من ممثلين دائمين لقيادة القوات البرية، والباسدران، والبحرية، والقوة الجوية، والشرطة العسكرية. وكانت المهمة الرئيسة لهذه القيادة تجنّب الجنرال نجاد الذي كان في مرمى الناطق باسم البرلمان منذ انتقاده له بفظاظة. أشرفت هذه القيادة المشتركة على أربع قيادات قطاعية، كل واحدة منها مسؤولة عن قطاع واحد من الجبهة: خوزستان، الفكة، قصر شيرين، وكردستان. وهذه المناطق تقابل قطاعات الفياق العراقية الأربعة على الجهة المقابلة من الحدود.

واندفع رفسنجاني لتشكيل فرع عسكري "لحزب الله" الإيراني يُدعى "قوة القدس"، وهو القوة التي تكون مسؤولة عن العمليات الخاصة التي لا يُعهد بها إلى الباسدران، ويكون أعضاؤها من الحرس الثوري. وأُرسل بعضهم إلى لبنان للاختلاط مع المجتمع

الشيخي هناك وللإشراف على إنجازات حزب الله بלבنا، وهو المسؤول عن مقاتلة الوجود العسكري الإسرائيلي هناك، وحماية السكان المحليين الشيعة، وكذلك تنفيذ بعض العمليات الخاصة لإيران.

الحظر على النفط

انتقم صدام حسين ردًا على الهجوم الإيراني على الأراضي العراقية وأقام في يوم 12 آب 1982 منطقة حظر بحري في الجزء الشمالي من الخليج. وتمتد هذه المنطقة نحو خمسين ميلًا بحريًا من جزيرة خارج حتى قاعدة بوشهر البحرية، وتحولت إلى منطقة حربية فعلاً وأغلقت أمام التجارة البحرية. كان لدى الرئيس العراقي ثلاثة أهداف من وراء ذلك. كان يأمل بمهاجمة ناقلات النفط ممارسة ضغط على إيران وإجبارها على قبول الهدنة. وأراد تخويف شركات الشحن التي تزود طهران بالبنازين المصفي مقابل تسلمها النفط الخام. هذه الاستراتيجية أنتجت الهدف المرجو منها: قامت شركة لويد البريطانية للتأمين التي تؤمن على أغلبية التجارة البحرية العالمية بزيادة أسعار التأمين على السفن العاملة في منطقة الحظر العراقية إلى ثلاثة أضعاف عمّا كان سابقًا. وأخيرًا، كان صدام يخطط لإجبار إيران على ارتكاب الخطأ بإغلاق مضيق هرمز أمام التجارة البحرية، ممّا يؤدي إلى قيام الدول الكبرى باتخاذ إجراء ما ضدّ طهران. لكن طهران لم تقع في المصيدة، وأعلنت أنّها لم تغلق مضيق هرمز، وأقامت منطقة حظر بحرية خاصّة بها تمتدّ لنحو مئتين ميلًا بحريًا على طول ساحلها بالكامل. وإنّ أية سفينة تدخل هذه المنطقة ومن دون إذن من السلطات الإيرانية سيتم مهاجمتها. وهذا أدّى إلى تحوّل التجارة البحرية جنوبًا نحو قناة يبلغ عرضها نحو عشرين ميلًا بحريًا وتسير بمحاذاة منطقة الحظر العراقية. وبعد عام هادئ نسبيًا هوجمت فيه ستُّ سفن تجارية فقط، أصبح الخليج الفارسي مرةً أخرى منطقةً عالية الخطورة للتجارة البحرية.



خارطة مناطق الحظر المعلنة من طرفي القتال

ومنذ بداية يوم 15 آب، عهدت بغداد إلى طائراتها الميغ-23 و Su-22 المرابطة في قاعدتي البصرة والناصرية مهاجمة ناقلات النفط الداخلة والخارجة من قناة خور موسى والمتوجهة إلى بندر خميني. وأغرقوا بسرعة باخرة بضائع يونانية، وسفينة شحن كورية جنوبية على التعاقب، وبدعم من طائرتي هليكوبتر Super Frelon مسلحتين بصواريخ Exocet المضادة للسفن والتي كانت صواريخ فعّالة في حرب الفوكلاند قبل عدة أشهر. حلقت طائرات الهليكوبتر Super Frelon فجراً على ارتفاعات منخفضة من أم قصر وبحماية من طائرات مقاتلة والوصول إلى منطقة تبعد 75 ميلاً (120 كيلومتراً) عن قاعدتهم، بالقرب من قناة خور موسى، وهنا حاولوا البحث عن أهداف بواسطة راداراتها المحمولة جواً، فإن

وجدوا هدفًا ما سرعان ما يطلقون صواريخهم عليه ويعودون إلى قواعدهم لتقليل فرص الاعتراض من مقاتلات العدو. وفي يوم 4 أيلول حوّلوا سفينة الشحن التركية Mar Transporter إلى حطام طاف فوق مياه الخليج بعد إصابتها بصاروخ Exocet انفجر في غرفة المحركات، ما أدى إلى اندلاع النيران على ظهرها. تم سحب السفينة إلى أقرب ميناء، ثم أرسلت إلى أحواض السكراب من دون ضجة تُذكر. وبعد أسابيع قليلة، كرّرت طائرات الهليكوبتر Super Frelon غاراتها على سفينة بضائع هندية Archana وناقلة نفط يونانية Scapmount. وحتى الآن، كانت قدرات العراق على المهاجمة محدودة لافتقارها إلى طائرات للمراقبة البحرية، لمحدودية مدى طائرات الهليكوبتر Super Frelon، والأكثر دراماتيكية، إنّ طياري الميغ 23- والسيخوي لم يتدربوا على مهاجمة الأهداف البحرية. ومع ذلك، تمكنوا من ضرب ثماني ناقلات عند نهاية عام 1982، اثنتين منها دُمّرتا تدميرًا شديدًا، بينما الستة الأخرى تعرضت إلى إصابات خفيفة. لكن السلطات العراقية ادّعت معدل نجاحات أكثر إعجابًا؛ لكي تجعل طواقم السفن، وملاكي السفن، وشركات التأمين يعدلون عن إبحار سفنهم قرب منصات النفط الإيرانية.

وأسهمت البحرية العراقية في تشديد الحظر النفطي بصورة أكبر، واقتصرت عملياتها في الليل لتجنب رصد القوة الجوية الإيرانية. وقد أثبت الجنرال الكعبي القائد الجديد للقوة البحرية أنّه أكثر إثارة وإبداعًا من القائد السابق. فهو لم يتردّد من تنظيم غارات لمضايقة الإيرانيين بالقرب من سواحلهم. ففي يوم 3 أيلول نفذ قاربان مسلحان بالصواريخ Osa II هجومًا على رتلٍ من 25 ناقلة نفط ترافقها فرقاطتان إيرانيتان لحمايته، ونجحوا في إغراق إحدى تلك الناقلات والعودة سالمين إلى قاعدتهما في أم قصر. وخلال ليلة 10-11 أيلول أبحر قاربان مسلحان بالصواريخ من النوع أعلاه وبتباهٍ بالقرب من ميناء بوشهر الإيراني بهدف جذب بعض السفن الحربية الراسية هناك إلى المياه المفتوحة، ونجحت المصيدة. أسرع طرادين نوع PF-130 إلى خارج القاعدة البحرية لمطاردة القاربين العراقيين المسلحين. وسرعان ما تم رصدتهما بالنواظير البحرية الليلية المزدوجة التي زودت بها طائرات الهليكوبتر Super Frelon التي وصلت سرًا إلى موقع العملية قبل دقائق. كانت هذه الطائرات تحلق

وجدوا هدفًا ما سرعان ما يطلقون صواريخهم عليه ويعودون إلى قواعدهم لتقليل فرص الاعتراض من مقاتلات العدو. وفي يوم 4 أيلول حوّلوا سفينة الشحن التركية Mar Transporter إلى حطام طاف فوق مياه الخليج بعد إصابتها بصاروخ Exocet انفجر في غرفة المحركات، ما أدى إلى اندلاع النيران على ظهرها. تم سحب السفينة إلى أقرب ميناء، ثم أرسلت إلى أحواض السكراب من دون ضجة تُذكر. وبعد أسابيع قليلة، كرّرت طائرات الهليكوبتر Super Frelon غاراتها على سفينة بضائع هندية Archana وناقلة نفط يونانية Scapmount. وحتى الآن، كانت قدرات العراق على المهاجمة محدودة لافتقارها إلى طائرات للمراقبة البحرية، لمحدودية مدى طائرات الهليكوبتر Super Frelon، والأكثر دراماتيكية، إنّ طياري الميغ 23- والسيخوي لم يتدربوا على مهاجمة الأهداف البحرية. ومع ذلك، تمكنوا من ضرب ثماني ناقلات عند نهاية عام 1982، اثنتين منها دُمّرتا تدميرًا شديدًا، بينما الستة الأخريات تعرضت إلى إصابات خفيفة. لكن السلطات العراقية ادّعت معدل نجاحات أكثر إعجابًا؛ لكي تجعل طواقم السفن، وملاكي السفن، وشركات التأمين يعدلون عن إبحار سفنهم قرب منصات النفط الإيرانية.

وأسهمت البحرية العراقية في تشديد الحظر النفطي بصورة أكبر، واقتصرت عملياتها في الليل لتجنب رصد القوة الجوية الإيرانية. وقد أثبت الجنرال الكعبي القائد الجديد للقوة البحرية أنّه أكثر إثارةً وإبداعًا من القائد السابق. فهو لم يتردّد من تنظيم غارات لمضايقة الإيرانيين بالقرب من سواحلهم. ففي يوم 3 أيلول نفذ قاربان مسلحان بالصواريخ Osa II هجومًا على رتلٍ من 25 ناقلة نفط ترافقها فرقاطتان إيرانيتان لحمايته، ونجحا في إغراق إحدى تلك الناقلات والعودة سالمين إلى قاعدتهما في أم قصر. وخلال ليلة 10-11 أيلول أبحر قاربان مسلحان بالصواريخ من النوع أعلاه وبتباهٍ بالقرب من ميناء بوشهر الإيراني بهدف جذب بعض السفن الحربية الراسية هناك إلى المياه المفتوحة، ونجحت المصيدة. أسرع طرادين نوع PF-130 إلى خارج القاعدة البحرية لمطاردة القارين المسلحين. وسرعان ما تم رصد هما بالنواظير البحرية الليلية المزدوجة التي زودت بها طائرات الهليكوبتر Super Frelon التي وصلت سرًا إلى موقع العملية قبل دقائق. كانت هذه الطائرات تحلق

على ارتفاع منخفض وعلى بعد عشرة أميال بحرية من بوشهر، واتخذت وضعًا قتاليًا، حيث ارتفعت قليلاً وضربت الطرادين الإيرانيين بصواريخ Exocet، حيث أصابت أحد الطرادين وأغرقته وقتل من على ظهره البالغ عددهم عشرين بحارًا، وعاد الطراد الآخر مباشرة إلى القاعدة. ومن أجل حماية أنفسهم من الأساليب العدوانية للبحرية العراقية، نشر الإيرانيون عدة قوارب مسلحة بالصواريخ في المنطقة، وعززوا القوة المرافقة للبواخر التجارية المتوجهة نحو جزيرة خرج وبندر خميني. وبعد اثني عشر يومًا تمكنت طائرة Super Frelon هلكوبتر من الاشتباك مع الطراد PF-130 الذي اشترك في العملية السابقة وأصيب بأضرار بالغة، لكن أحد صواريخ Exocet لم ينفجر، مما مكن بحارة الطراد من السباحة والوصول إلى الساحل.

كان لدى البحرية العراقية خطة أخرى لاستخدامها عند الحاجة. تمكنت بطارتان مضادتان للصواريخ البحرية نوع CSSC-2 سلكورم من ضرب هدفين بحريين بمدى 50 ميلًا بحريًا (80 كيلومترًا) عن الساحل. وهذا السلاح أرسلته الصين للعراق في مطلع عام 1982. كانت البطارتان تتموضعان بالقرب من شبه جزيرة الفاو للتغطية على المنطقة المحيطة بقناة خور موسى. وفي الأشهر الأخيرة من عام 1982 أُطلقت ثمانية صواريخ ولكن لم تصب أهدافها. عدّل الفنيون العراقيون نظام التوجيه وبمساعدة من المهندسين السوفيت لجعلها أكثر دقة.

وبينما كانت بغداد تضايق التجارة البحرية، نفذت الكثير من الهجمات على المنشآت النفطية الإيرانية. ففي الفترة الممتدة بين 15 آب و 14 تشرين الأول 1982 قصفت القوة الجوية العراقية منصة النفط الضخمة في جزيرة خرج سبع مرات. وفي الليل ضربت قوارب Osa المسلحة وطائرات الهلكوبتر Super Frelon بصواريخها Styx و Exocet ناقلات النفط العملاقة المنتشرة حول جزيرة خرج، فضلًا عن قصف النظام العراقي تلك المنصة النفطية بثلاثة صواريخ Scud-B بدفعة واحدة. وبينما كانت الأضرار كبيرة فإنَّ حكمة الشاه السابق منعت طاقة إيران التصديرية أن تتأثر كثيرًا، ولا سيَّما أنَّه طلب أن تكون الطاقة التصديرية لمنصة خرج ستة ملايين برميل يوميًا، أي ضعف طاقتها الإنتاجية من النفط في

ذلك الوقت؛ لأنه كان يتوقع مضاعفة إنتاج النفط في السنوات المقبلة. لقد قللت الطاقة التصديرية الكبيرة من تأثير الضربات العراقية، وقصرت من فترات التحميل. ومع ذلك، أرسل الإيرانيون الكثير من بطاريات صواريخ الهوك والصواريخ المضادة للطائرات إلى جزيرة خرج. ووضعت طائرات Tomcat الخمس عشرة التي لا تزال في الخدمة في دوريات مستمرة لتوفر حماية عملياتية فوق منصة النفط هناك. ولذلك؛ صدَّ أحد قوارب الحراسة غارةً عراقيةً وأسقط طائرة ميغ-23 وطائرة Su-22 فوق مياه الخليج. ودمرت مضادات الدفاع الجوي صواريخ Styx قبل أن تصل إلى أهدافها.

ومنذ أن أصبحت جزيرة خرج من أصعب الأهداف لقصفها، تحولت القوتان الجوية والبحرية العراقيتان نحو منصات النفط في نوروز، بهارنجشير، أردشير، وسوروش الواقعة في أقصى شمال الخليج، وأوقعت في منشآتها الساحلية خسائر فادحة أدت إلى تسرب النفط بكميات كبيرة قُدرت بخمسة عشر ألف طن يومياً من النفط الخام إلى مياه الخليج، وظهور بقعة كبيرة من النفط على سطح المياه، بينما حاول الإيرانيون غلق منشآتهم عدة أسابيع. وأصاب القلق الدول المجاورة؛ لأنَّ محطات تحلية المياه الغالية الثمن ربما يتسرب إليها التلوث، وأجرت مجموعة Red Adair في محاولة لاحتواء تدفق النفط ولكنها فشلت في ذلك⁽¹⁾. وفي النهاية تم ذوبان النفط الخام في مياه البحر وقلَّ من التأثير البيئي في سواحل الخليج. وبعد منصات النفط على الساحل، استهدف طيارو الميغ-23 والسيخوي مصفى النفط في بندر خميني يومياً. ولعدم قدرة إيران على وضع حدٍّ لتلك الغارات، اضطرت إلى إغلاق المصفى وأوقفت بناء مجمع جديد للبتر وكيمياويات هناك ويتمويل من اليابان. وللثأر من تلك الغارات، قصفت المدفعية الإيرانية مصفى البصرة، ممَّا اضطر العراقيين إلى إغلاقه أيضًا.

وفي غضون ذلك، استمرت القوة الجوية الإيرانية في هجماتها المتفرقة على العراق مستهدفةً حقول النفط، المنشآت النفطية، ومحطات الطاقة، وصدَّت أغلب تلك الغارات من

1 - سبصبح "Adair" الأحمر معروفاً للرأي العام بعد سنوات قليلة عند إخماد - بصورة رائعة - نيران حقول النفط الكويتية التي أشعلها الجيش العراقي في حرب الخليج الثانية عام 1991.

الدفاعات الجوية المتزايدة الفعالية، وقبل أن تصل تلك الغارات إلى أهدافها. حاول الطيارون الإيرانيون التغلب على تلك الدفاعات بالطيران على ارتفاعات عالية، مما أدى إلى أن يكون قصفهم غير دقيق. وكذلك حاولوا التصدي لتفوق المقاتلات العراقية التي كانت تنتظرهم بلهفة وأسقطت الكثير من طائرات الفانتوم والنسر الإيرانية. ولم يسمح الإيرانيون لأنفسهم بالهزيمة، فقاموا بالثأر فوراً، ففي يوم 16 أيلول أسقطت طائرات Tomcat الإيرانية طائرة ميغ-25 فوق مياه الخليج بصواريخ فينوكس الطويلة المدى والفعالة ولأول مرة، التي كانت تزود بها طائرات F-14. كان أول اشتباكين لهاتين الطائرتين الاعتراضيتين في يوم 15 شباط 1982 الذي انتهى بالانسحاب بعد أن تكبد كل منهما أضراراً بليغة، ولكنهما لم تسقطا. ولكن طياري Tomcat حسّنوا من أرقامهم بإسقاط طائرتي ميغ-25 في اليوم الأول والرابع من كانون الأول 1982.

وخلافاً لما توقعه صدام حسين، لم يكن للحظر النفطي العراقي سوى تأثير هامشي في إيران، وفي الواقع لم تتأثر سوى 2٪ من ناقلات النفط العاملة في منصات النفط الإيرانية. ولذلك؛ اتخذت طهران إجراءات احترازية لحماية جزيرة خرج وتقليل تأثير الحظر العراقي كلما أمكن ذلك، ولا سيما أن منصة النفط في بندر خميني حسّاسة أكثر في موقعها، وتم جلب أغلب تجارة النفط إلى جزيرة خرج التي أصبحت المحطة النهائية لناقلات النفط العملاقة المتوجهة إلى إيران. ونُشر أيضاً لواء مشاة بحري على الجزيرة لصد أية محاولة للعدو للإنزال على الجزيرة. ورسى بالقرب من منصة تصدير النفط نحو ثلاثين زورقاً بخارياً وسفنًا تجارية قديمةً مجهزةً بعاكسات لتضخيم الإشارات الرادارية العابرة من العراق. استخدمت هذه السفن المتصدئة للتمويه على صواريخ القوتين البحرية والجوية العراقيتين. وفي هذه الأثناء، تم زيادة الطاقة التصديرية لمنصة لافان النفطية الواقعة على جزيرة صغيرة على بعد 250 ميلاً (400 كيلومتراً) إلى الجنوب الشرقي من جزيرة خرج، وخارج مديات القوة الجوية العراقية، إلى عشرة أضعاف، أي إلى 250 ألف برميل يومياً. ونتيجة لذلك، تعرضت فقط ثماني سفن تجارية متوجهة إلى إيران للقصف خلال عام 1983. وهاجمت القوارب العراقية OsaII بعض الناقلات التي كانت تفرغ بندر خميني من آخر ناقلة هناك.

وتمكنت القوارب المسلحة الإيرانية من إغراق قاربين عراقيين Osall في يومي 12 نيسان و20 أيار عام 1983.

حاول صدام حسين التفاوض لفتح قواعد له في الصومال وشمال اليمن وجيبوتي؛ لمهاجمة التجارة البحرية الإيرانية من الخلف، وأراد مرابطة الفرقاطات الأربع وطرادات الصواريخ المسلحة الست التي اشتراها من إيطاليا في تلك القواعد، وغلق التجارة البحرية الإيرانية من خلال عمليات بحريته من المحيط الهندي. وبذلك، أصبح الرئيس العراقي في مواجهة الدول الغربية التي ضغطت على الدول الثلاث أعلاه لرفض طلبه؛ لأنّ الأمريكيين والأوروبيين في الوقت الذي يريدون مساعدة بغداد لمواجهة الإسلام الراديكالي الإيراني، فإنّهم لا يتوون الترويج لتوسع الأيديولوجية البعثية.

هجمات فصل الخريف

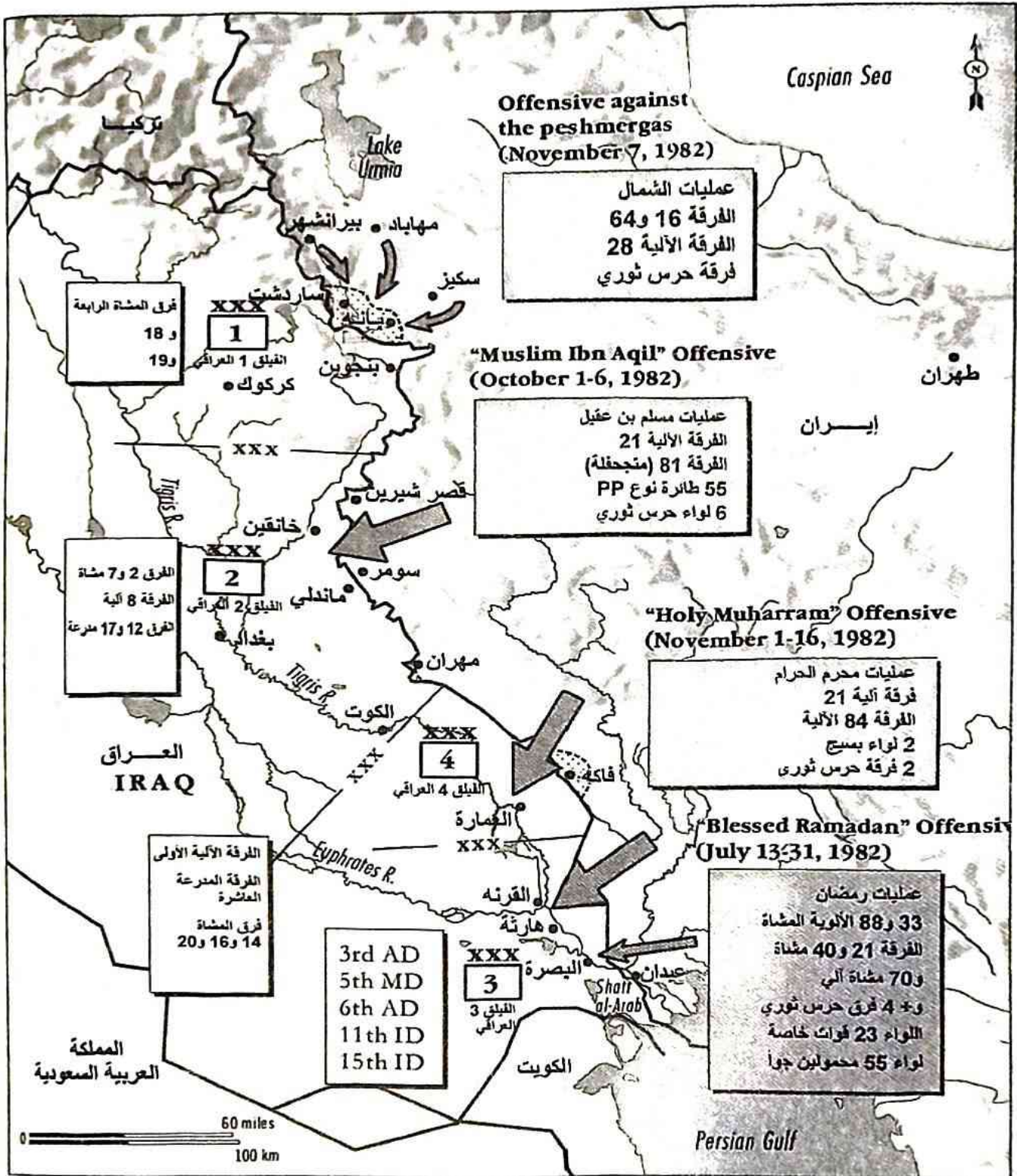
شنت القيادة العسكرية الإيرانية العليا في اليوم الأول من تشرين الأول 1982 هجومها "مسلم بن عقيل" (وهو ابن عم الإمام الحسين الذي ترك أثراً مهماً في تاريخ الإسلام الشيعي) على طول 25 ميلاً (40 كيلومتراً) من الجبهة الواقعة بين قصر شيرين وسومر، وهو بالضبط المكان نفسه حينما تم التخطيط للصفحة الثانية من هجوم رمضان كريم الكبير. كان الهدف بسيطاً: خرق خطوط العدو بالتزامن في خانقين ومندلي والتقدم نحو بعقوبة ثم تهديد بغداد. ووضع الجنرالات الإيرانيون لذلك الهجوم فرقتين (الآلية 21 والمدرعة 81)، اللواء المظلي 55، وستة ألوية من الباسدران، بلغ مجموعها 60 ألف مقاتل، و300 دبابة، مع عدد كبير من المدفعية. أمّا قوتهم الجوية؛ فقد بقيت على الأرض؛ لأنّها عديمة الفائدة في ذلك القاطع من الجبهة.

أمّا بالنسبة إلى العراقيين؛ فقد وضعوا أربع فرق (السابعة والثامنة مشاة، والثانية عشرة والسابعة عشرة المدرعة) وبدعم من مدفعية الفيلق الثاني، وبلغ مجموع المقاتلين 36 ألفاً، و400 دبابة، وكثيراً من قطع المدفعية. وكانوا يعولون كثيراً على قوتهم الجوية وضربات طائرات الهلوكوبتر. كانت القيادة العسكرية الإيرانية العليا واثقة من إمكاناتها للوصول إلى

بغداد، وكانت تأمل الحصول على المكاسب الأرضية وإجبار العدو على إعادة نشر قواته حول العاصمة، مما يسهل عليهم اختراقها من أي مكان.

وعند الفجر اندفع المقاتلون الإيرانيون نحو الدفاعات العراقية على طول التلال الحدودية الفاصلة بين البلدين، وتقدموا نحو ستة أميال (نحو 10 كيلومترات) خلال ذلك اليوم، ولكن واجهوا هجومًا معاكسًا عنيفًا في العصر من تشكيلات مدرعة من الدبابات ورجال المشاة الراجلة. لم يتمكن رجال المشاة الإيرانيون من الوقوف بوجه هجوم العدو؛ لافتقارهم الدعم من دباباتهم التي بقيت في الخلف. وخلال ستين من الحرب، فإنهم استهلكوا صواريخهم نوع تاو، ويمكنهم الآن الاعتماد فقط على الأسلحة المضادة للدبابات السوفيتية الصنع التي هي أقل فعالية. ولذلك؛ انسحبوا تحت جناح الظلام وأعادوا تجميعهم. وشنوا هجومًا آخر في اليوم التالي ولكنهم لم يحققوا أي نجاح يذكر. ولأول مرة في الحرب استخدم العراقيون غاز CS الخانق لصدّ الموجات البشرية الإيرانية، ولكن استخدموا الذخيرة الاعتيادية لإخفاء العلامات الناتجة من استخدام ذلك الغاز. ويمكن للنظام العراقي إيصال كميات من غاز CS بسرعة إلى الجبهة؛ لأنه يخزن كميات كبيرة منه في بغداد التي تبعد فقط ستين ميلًا (نحو مئة كيلومتر) من الجبهة.

أدرك صدام حسين أنه سيكون مهددًا مباشرة إذا خسر جنوده بعض الأرض، ولذلك سافر إلى الجبهة ليحاضر بين جنوده ويشير حماسهم للتشبث بالأرض ومهما كانت التضحيات. وأطلق العنان لقوته الجوية التي ضربت خطوط العدو، وإن تعرّضت لخسارة طفيفة (أربع طائرات ميغ-23، وطائرتي سيخوي، وطائرتي هلكوبتر غيزال). ولم تتمكن طائرات هلكوبتر الكوبرا الإيرانية القليلة التي غامرت بالتحليق فوق الجبهة من عكس الاتجاه. كذلك سافر أكبر هاشمي رفسنجاني - الذي يدرك أهمية هذه المعركة الحساسة - إلى المناطق القريبة من الجبهة لإثارة حماس الباسدران. ولكنه كان يجادل من أجل استمرار هذه الحرب، فيجب عليه الادّعاء بنجاح العمليات حتى وإن كان النجاح رمزيًا فقط. لقد وقف ضد نصيحة القيادة العسكرية العليا لإعطاء الأوامر بدعوة ما يتوافر من قوات الاحتياط للقيام بسلسلة من الهجمات النهائية وجعل العدو يرفع راية الاستسلام.



خارطة الهجومات الإيرانية للفترة تموز - تشرين الثاني 1982

وفي غضون ذلك، تبنى مجلس الأمن في الأمم المتحدة قرارًا جديدًا (رقم 522) يقترح إرسال مراقبين محايدين للإشراف على الهدنة التي لم تعد الآن أكثر من مجرد خيال من الماضي. وكما كان قبل ثلاثة أشهر، قيل النظام العراقي القرار مباشرة، لكن الوفد الإيراني رفضه قطعياً. وبما إنَّ القرار يستند إلى الفصل السادس من إعلان الأمم المتحدة - وليس الفصل السابع الذي يركن إلى استخدام القوة - فلم يكن للرفض أي أثر أكثر من إثارة مشاعر المجتمع الدولي ضدَّ إيران. وبما إنَّ الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن منخرطون بمنطق الحرب الباردة، فإنَّهم رفضوا أيَّ قرار يسمح بإمكانية استخدام القوة لإنهاء النزاع بين الطرفين.

شَنَّ ثلاثون ألف جندي إيراني في ليلة 5-6 تشرين الأول هجوماً آخر على مندلي؛ كان القتال وحشيًّا، ولم يتمكن المهاجمون من إحراز أيِّ نجاح للسيطرة على المدينة كما هو الحال في الأيام السابقة. استمرَّ القتال طوال اليوم تحت درجة حرارة عالية جدًّا ووابل من رشقات المدفعية وغاز CS الذي كان ينهمر على رؤوس الإيرانيين، فضلًا عن ضربات طائرات الهليكوبتر الغيزال وMi-24s القاسية على الموجات البشرية الإيرانية وإضعاف المشاة تدريجيًّا. وفي أواخر عصر ذلك اليوم أدركت القيادة الإيرانية أنَّها لا تستطيع تحقيق أيِّ خرقٍ لخطوط العدو، وأمرت بوضع نهاية لهذه المذبحة والانسحاب تكتيكيًّا إلى الشرق من التلال المشرفة على مندلي. ومن أجلَّ ألاَّ يقعوا في المصيدة، انسحب العراقيون إلى الغرب من تلك التلال، وبذلك أصبح وادي مندلي الضيق أرضًا لا يسيطر عليها أيُّ أحد، التي سيبقى طرفا النزاع يتقاتلون عليها لما تبقى من أيام الحرب.

وعلى الرغم من نجاح المقاتلين الإيرانيين في الاستيلاء على شريط ضيق من الأرض بطول 1,8 ميل (ثلاثة كيلومترات) فإنَّ فشلهم كان واضحًا، ولم يتمكنوا من الاستيلاء على خانقين ولا على مندلي، وفشلوا أيضًا في اختراق خطِّ الدفاع العراقي وتكبَّدوا خسائر فادحة: ستة آلاف قتيل، و15 ألف جريح (مقابل ألفي قتيل وتدمير نحو خمسين دبابةً على الجانب العراقي). وبذلك، أصبح ثلثا القوة المقاتلة الإيرانية خارج الخدمة. كانت هذه النتيجة المخيبة للآمال بعمق أدت وعلى الفور إلى أزمة قيادة بين رفسنجاني وجنرالاته. وفي أعقاب انتقادات

الجنرال نجاد قبل شهرين، على الناطق باسم البرلمان مواجهة هجوم من القيادة العسكرية العليا التي تلومه على تدخله في مسارات العمليات. شعر كلٌّ من آية الله الخميني وعلي خامنئي بالارتياح لتذكير رفسنجاني أنّ عليه ألا يأخذ كامل حرّيته، ونزلوا للدفاع عن العسكريين. ويبدو أنّ محسن رضائي بدأ يساوره الشكُّ، وأكد الخسائر الجسيمة التي يتعرض لها الباسدران. أدرك رفسنجاني أنّه يجب ألا يركب رأسه، وأعلن أنّه سيمضي، وأنّ من الحكمة تبني استراتيجية الاستنزاف التي تقوم على العمليات ذات الأثر الكبير والموجهة ضدّ العدو. ولذلك؛ دعا إلى وقف أسلوب هجمات الموجات البشرية حتى يتم تجهيز الباسدران بمعدات مناسبة وأكثر فعالية.

وفي خضم تلك المناقشات، أقنع الناطق باسم البرلمان آية الله الخميني بإصدار الأمر لاستئناف البرنامج النووي؛ لأنّه يشعر أنّ الصراع مع العراق ربما يستمرّ طويلاً وأكثر حساسية عمّا كان يتصوره. فإذا ما استمرت الحرب فمن الأفضل لإيران أن تملك مفاعلاً للطاقة النووية الذي سيوفر لإيران كهرباء رخيصة، ولكن يوفر لها مواد قابلة للانشطار كافية لبناء قنبلة ذرية أو أكثر. كان رفسنجاني مقتنعاً أنّ إيران بحاجة لكي تصبح قوة نووية لأسباب تتعلق بالهبة، واستقلالية الطاقة، ومنع الأعداء من توجيه أية ضربة لها. كان الشاه يدرك ذلك كثيراً. وإنّ هجوماً كما قام العراق به لن يكون مسموحاً بحدوثه مرةً أخرى أبداً. ومع وجود القنبلة الذرية، فيمكن لإيران بسهولة إجبار بغداد على وضع نهاية للحرب.

هذه المناقشات مقنعة، ولا سيّما بعد أن أغرق رفسنجاني المرشد الأعلى بإحصائيات توضح له أنّ أسعار النفط آنذاك قادرة على تمويل مثل ذلك البرنامج. وسيكون الوضع على نحو أفضل بعد اكتشاف مستودعات لليورانيوم في إيران، ممّا يوفر اكتفاءً ذاتياً نسبياً في التجهيز والإمداد.

كان لدى علي خامنئي بعض الشكوك الأيديولوجية المتعلقة بمدى انسجام إنتاج تلك الأسلحة للدمار الشامل مع التعاليم الإسلامية، ولكنه يدرك تماماً كيف يمكن الاستفادة منها إذا تمكّن من خلافة المرشد الأعلى. في 19 تشرين الأول 1982، أنعش أكبر هاشمي

رفسنجاني البرنامج النووي الإيراني مع مباركة آية الله الخميني⁽¹⁾. أُعيد تأسيس فرق البحث والمهندسين، وخصّصت أموال ضخمة للبرنامج النووي، واستؤنف العمل بمفاعل بوشهر. كان التحدي الرئيس للإيرانيين إيجاد شركاء مستعدين لدعم مشروع إعادة البناء. ولم يكن من الدول الكبرى المتخصصة بالطاقة الذرية السلمية تريد مساعدة طهران بهذا الاتجاه مقدّمًا، وبضمنها الاتحاد السوفيتي الذي لم يعد له عداً مع الملايبي بإيران. أمّا فرنسا التي كان لها باع طويل مع إيران خلال نزاع Eurodif من الطبيعي أن ترفض استئناف العمل في ذلك المفاعل. وتم الاتصال بألمانيا التي رفضت التعاون علانية، ولكنها لم تعارض سفر بعض مهندسيها إلى إيران لإمدادها بالخبرات. الفنية اللازمة⁽²⁾. ومع ذلك، بقيت ألمانيا الشريك التجاري الرئيس لإيران في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من هذه المساعدة السرية، استمرت أعمال البناء في مفاعل بوشهر وتقدّمت ببطء نتيجة نقص في المعدات والخبراء المتخصصين. ولم يخدع رفسنجاني نفسه: إنّ إمكانات إيران النووية ما زالت بعيدة جدًا. وهذا سبب آخر لعدم هدر كثير من الوقت.

أمّا صدام حسين؛ فقد كان مصمّمًا على معاقبة النظام الإيراني لعناده في استمرار الحرب، ولا سيّما أنّ جيشه ليس في وضعٍ يمكنه من شنّ هجوم واسع النطاق، وأمر بقصف المدن الإيرانية بكثافة.

في يوم 27 تشرين الأول ضربت مدينة دزفول برشقة من ثلاث صواريخ Scud-B. كان ذلك أول استخدام للصواريخ الباليستية من النظام العراقي، التي تهدف اعتياديًا إلى الانتقام القاسي. كانت الرسالة واضحة أنّ العراق مستعدٌّ لاتباع إيران في التصعيد نحو حرب شاملة. وفي غضون ذلك، شنت طهران هجومًا جديدًا أطلقت عليه اسم "محرم الحرام"، في إشارة إلى شهر محرم الذي يحيي فيه الشيعة مقتل الإمام الحسين. كان هدف هذا الهجوم صدّ العراقيين في قاطع العمارة في وسط الجبهة، والسيطرة على حقول النفط الواقعة على طول الحدود. واستنادًا إلى التوجيهات الجديدة، لم يعد الجنرالات الإيرانيون يعتمدون

1- Edgar O'balance, The Gulf War(London:Brassey's Defence Publishers,1988),90.

2- Jane's Defence Weekly, June 24, 1984.

على الموجات البشرية لمواجهة العدو، بل استخدموا أسلوب التسلل الذي من شأنه أن يسمح لهم بتشتيت خطوط العدو. هاجمت فرقة من الباسدران في اليوم الأول من تشرين الثاني 1982 معرزة بعدة كتائب من المشاة خطوط العدو، وسيطروا على خمسة عشر معقلاً عراقياً. وفي اليوم التالي هاجموا المواقع العراقية المحصنة من الخلف في الوقت الذي كانت مدفعيتهم ودباباتهم تقصف المعازل نفسها. وحينما أصبح الوضع لا يمكن الدفاع عنه، تخلّى العراقيون عن مواضعهم وأعادوا بناء خطوطهم الدفاعية على الجانب الآخر من الحدود. انتهز الإيرانيون الفرصة وسيطروا على بعض التلال المطلّة على السهل العراقي. وعادت السيطرة على الطريق الذي يربط موسيان بدهلران إلى الإيرانيين، ولكنهم ما زالوا بعيدين عن الفكة التي يحتفظ بها العراقيون، وإن كان تحت نيران المدفعية المعادية. وإذا ارتكب الإيرانيون الخطأ بسيطرتهم على الفكة، فإنهم سيسحقون دون رحمة تحت وابل من النيران العراقية.

هجمت بعض الوحدات الإيرانية مرةً أخرى في يوم 6 تشرين الثاني وتغلّغت في الأراضي العراقية وسيطرت على بعض الطرق الحدودية. واستمروا أيضاً بالسيطرة على المنشآت النفطية في أبي شريب وبيات، اللتين تنتجان أكثر بقليل من 30 ألف برميل يومياً. شنت الفرقتان الأولى والعاشره هجوماً معاكساً لاستعادة السيطرة على هذه المنشآت النفطية، لكنها فشلت وخسرت سبعين دبابة ونحو أربعين مدفعاً ذاتي الحركة في تلك المحاولة. وحينما بدأ موسم الأمطار وأصبحت الطرق صعبة المسير عندئذ وصل الهجوم الإيراني إلى نهايته. كانت نتائجه أفضل من تلك في العمليات السابقة. وعلى الرغم من خسارة الإيرانيين أربعة آلاف قتيل، فإنهم قتلوا ثلاثة آلاف عراقي وأسروا ثلاثة آلاف وخمسمئة، ودفعوا العراقيين إلى الجانب الآخر من الحدود، وسمحوا لأنفسهم بإقامة مواقع لهم في أراضي العدو. وهذا ما مكّن رفسنجاني أن يرفع رأسه مرةً أخرى، ولا سيما أنّ الوضع في كردستان قد تحسّن أيضاً.

وفي منتصف شهر أيلول شنت السلطات الإيرانية هجوماً جديداً في محافظة كردستان لإعادة السيطرة على الطريق الحدودي الرابط بين سقز وبيران شهر وهو في قلب معقل الحزب

الديمقراطي الكردستاني الإيراني. هذا الطريق الذي يخترق جبال غربي يمثل العمود الفقري للعمليات السوقية للبيشمركة، كما هو الحال في انتشار الفيتكونغ بقيادة هو شي منه في فيتنام. فالبيشمركة يستخدمون هذا الطريق لتسلّم أغلبية أسلحتهم ومعداتهم، الذي يمرّ عبر ممرات تربط الحدود العراقية بمدن سردشت وبانه. حشد الجنرال شيرازي 80 ألف مقاتل موزعين على ثلاث فرق نظامية (المدرعة 16، 28 الآلية، 64 مشاة). وامتدّ قتال شرس لأسابيع متعددة ترك وراءه ألفين وخمسمئة قتيل بين صفوف الباسدران، وضعف ذلك العدد بين القوات الحكومية. لقد تمكنت قوات الباسدران والقوات النظامية من السيطرة على عدة قطاعات من هذا الطريق الاستراتيجي، ولكنها لم تتمكن من السيطرة على سرادشت وبانه، اللتين بقيتا تحت سيطرة البيشمركة حينما بدأ تساقط الثلوج على المنطقة في أواخر شهر تشرين الثاني، ممّا وضع نهايةً للهجوم الإيراني.

وفي غضون ذلك، تراجع عبد الرحمن قاسملي نحو قاطع بنجوين بالعراق. ومنح صدام حسين عفوًا عامًا عن الموقفين الكرد وضاعف من الإجراءات التي تفيد السكان المحليين؛ لكي يتجنب مواجهة تمرد عام في كردستان يجعل من الوضع فيها أكثر خطورة. كانت الجبهة مستقرة طوال شتاء عام 1982-1983. وكلٌّ من طرفي القتال تمكن من تحسين مواقعه الدفاعية لمنع العدو من اختراق خطوطه والتسلسل خلفها. ومن الجانب العراقي، حفرَ فيلق المهندسين شبكةً من الخنادق تحيط بالجبهة على غرار تلك التي تم حفرها على الجانب الغربي من الجبهة خلال الحرب العالمية الأولى. وبُنيت غرفٌ صغيرة مزودةٌ ببنادق آلية، والهاونات، والمدفعية الثابتة على نقاط تبعد الواحدة عن الأخرى 985 قدمًا (300 متر) لتوفير الدعم اللازم للجنود المشاة. أمّا مواقع نيران الدبابات؛ فكانت محميةً بتلال ترابية ومهيأة في فترات منتظمة على طول الجبهة. وحفرت أيضًا خنادق صغيرة للمضادات المقاومة للدبابات على طول الجبهة ومحمية حقول واسعة من الألغام الأرضية ومصائد متنوعة. وأضيف إلى ذلك أيضًا معدات مراقبة إلكترونية، وكاميرات، وحساسات حرارية إلى النظام الشامل للمراقبة لرصد أيّ محاولة للتسلل إلى خلف الخطوط. وحفرت أيضًا أنفاقًا جانبيةً لتجهيز التعزيزات والتجهيزات والذخيرة، وكذلك السماح للمشاة التنقل

بين طرفي الخطوط تحت غطاء من الحماية. وتم أيضًا بناء المستودعات السوقية على بعد أقل من ثلاثة أميال (أقل من 5 كيلومترات) من خطوط الجبهة مما يُمكن تجهيز الوحدات بسرعة أكبر. وإلى الخلف من خطوط الدفاع تم بناء مواضع لتجميع المدفعية والمضادات الجوية لوقف العدو وبوابل من النيران. مُدَّت أيضًا شبكة من الطرق المعبَّدة لربط خطوط الجبهة بالطريق الرئيس المحاذي لنهر دجلة.

وانتهز المهندسون العسكريون العراقيون فرصة هدوء الشتاء للإسراع في بناء مجمع دفاعي لحماية محيط البصرة على الضفة الشرقية لشط العرب، فتم حفر قناة بطول عشرين ميلًا (30 كيلومترًا) ليكون جزءًا من حاجز دفاعي مُلَمَّع بالمياه ورُبط بشط العرب وبحيرة الأسماك. وفي غضون ذلك، أُسرعت القيادة العسكرية العليا من تدريب المجندين وتشكيل وحدات جديدة لتعويض الضحايا وتعزيز الجبهة بأربع فرق (21، 22، 23، 24)، ولواءي حرس جمهوري (واحد مشاة مزود بالناقلات، والآخر مدرع مجهز بدبابات T-72) لمواجهة الضغط المتزايد على شبه جزيرة الفاو. ولذلك؛ تم تشكيل الفيلق الخامس بقيادة الجنرال الجبوري لقيادة قاطع جنوب البصرة. وضع العراقيون مسؤولية قيادة العمليات بيد قادة الفيالق وليس بإمرة قادة الفرق.

وعلى الجانب الإيراني، كان بناء التحصينات أقل إثارة واقتصر على الخنادق المبعثرة مع مسقفات تستخدم لحماية الدبابات والمدفعية. ولا يرى الجنرالات الإيرانيون الحاجة لإضاعة الوقت والجهد لبناء دفاعات بينما هم في وضع هجومي ويتأهبون للتقدم في عمق أراضي العدو. وبنيت وحدات المهندسين مواضع قيادة جديدة قريبة جدًا من الجبهة، وقاموا بالتمرينات على عبور نهري شط العرب ودجلة. ومن أجل زيادة قدراتهم الهجومية، شكلت القيادة الإيرانية فرقتين جديدتين لقوات الصدمة، وحولت لواء الكومانندو 23 إلى فرقة للقوات الخاصة تحت الإشراف الإداري للباسدران.

موسكو وبكين تحددان استراتيجيتهما

غيّر الاتحاد السوفيتي موقفه جذرياً من النزاع خلال شتاء عام 1982-1983. وهذه العودة جاءت نتيجة عدة أحداث: الأول تعيين فريق جديد على رأس الكرملين، ففي يوم 10 تشرين الثاني 1982 تُوفي ليونيد بريجنيف بعد معاناة طويلة من المرض وصار بيوري أندروبوف بدلاً منه الذي شغل الرئيس السابق لجهاز المخابرات الروسي KGB، وأصبح يواجه التوتّر المتزايد؛ بسبب أزمة الصواريخ الأوروبية. ولذلك؛ قرّر إعادة توجيه سياسات الاتحاد السوفيتي على وفق الخط التقليدي الذي يساند حلفاء الاتحاد السوفيتي بصورة غير مشروطة وبضمنهم العراق. ومرةً أخرى، كانت مواقف القوى الكبرى محكومة بسياسات الحرب الباردة. وتوضح هذا التغير في توجه الاتحاد السوفيتي بتعيين سفير جديد في بغداد فيكتور مينيني المساند القوي لآراء العراق. ولكنّ العامل الأكثر أهميةً في دفع الكرملين لتشديد روابطه مع بغداد موقف طهران المتزايد والمعادي لموسكو. لقد شنّ النظام الإيراني الشيوعي مطاردة عنيفة ضد ناشطي حزب تودة الشيوعي الإيراني. ومنع الحزب من العمل السياسي في كانون الثاني 1983 وأصبح أعضاؤه خارج القانون. وفي مطلع شهر شباط وُجّه الاتهام لخمسة وأربعين عضواً من حزب تودة بالتجنّس لحساب الاتحاد السوفيتي، وتم اعتقالهم ومحاكمتهم ثمّ إعدامهم. وتمّ بعد ذلك فوراً إبعاد ليونيد شبارشين مسؤول محطة طهران لجهاز المخابرات السوفيتية KGB وسبعة عشر من وكلائه الذين كانوا يعملون في السفارة تحت غطاء دبلوماسي. كيف وصلت الأمور إلى ذلك؟

وقبل عدة أشهر قليلة، قرّر فالدمير كوزشكين وكيل جهاز المخابرات الروسي KGB في بغداد الهروب من النظام الشيوعي من طريق تركيا بجواز سفر مزوّر زوّدته به المخابرات السرية البريطانية. وحينما أصبح بأيدي جهاز MI-6 البريطاني، أبلغ السلطات البريطانية بهويّات وكلاء المخابرات السوفيتية والمخبرين الرئيسيين في طهران. ونقل البريطانيون هذه المعلومات الثمينة إلى المخابرات الأمريكية CIA التي قررت إرسالها إلى الإيرانيين

ولتوجه ضربة قاسية للوجود السوفييتي بإيران⁽¹⁾. ما زالت السلطات الأمريكية لم تتخلَّ عن أملها بإعادة علاقاتها الدبلوماسية من جديد مع طهران، وحينما يحين الوقت فهذا النوع من الإيماءات الصغيرة ربما تُحدث وضعًا مختلفًا. طرد النظام الإيراني الجواسيس السوفييت مباشرة، وزاد من دعمه لمقاتلي الحرية الأفغان ولكن لم يقطع علاقاته الدبلوماسية مع موسكو. وهكذا فالعلاقات بين موسكو وطهران وصلت إلى أوطأ نقطة منذ سقوط الشاه. ومن الطبيعي، لم يذهب هذا التدهور من غير متابعة من الأمريكيين والصينيين والقادة العراقيين. وكلُّهم لديهم من الأسباب ما يجعلهم مسرورين لما حدث.

إنَّ الوصول إلى خلاصة منطقية لهذه التطورات لا بدَّ أن يؤدي إلى قطع المساعدة العسكرية لطهران، وتم إيقاف شحنات الأسلحة والذخيرة من بلغاريا، وتلك من سوريا تمَّ تخفيضها بشكل كبير. وفي غضون ذلك، فتح القادة السوفييت مسرب دعم عسكري نشط مع بغداد. تسلَّم الجيش العراقي 140 طائرة مقاتلة - قاصفة ميغ-23 و SU-22، وخمسين هليكوبتر MI-17 و mi-24، وعدة مئات من دبابات 72 وناقلات مدرعة BMP-1، ومئة مدفع ذاتي الدفع 2s1 و 2s3، وعشر طائرات نقل IL-76 التي نقلت بعض تلك المعدات مع كميات كبيرة من قطع الغيار والذخيرة. كان السوفييت كرماء بصورة خاصَّة في توفير المساعدة؛ لأنَّها توفر لهم موارد مالية كبيرة، وكانت تهدف إلى إقناع العراقيين أنَّ الأسلحة السوفييتية تقف على قدم المساواة وبسهولة مع الأسلحة الغربية الصنع⁽²⁾. ومن الناحية السياسية، ما زال الاتحاد السوفييتي يدَّعي الحياد، وأعلن "أنَّ الحرب بين العراق وإيران عبثية، وغير عقلاني من يريد إطالة أمدها"⁽³⁾. ومع ذلك، فهي تدافع عن الموضع العراقي من أجنحتها، وفي الوقت نفسه تعزل الحكومة الإيرانية. كانت الحكومة السوفييتية مقتنعة أنَّ السلطات الإيرانية ستدرك عاجلاً أو آجلاً أنَّ من مصلحتها إعادة نوعٍ من العلاقات مع

1- John Parker, *Persian Dreams: Moscow and Tehransince the Fallof the Shah* (Washington, DC: Botomac Books, 2009), 16-17.

2- في مقالة تم نشرها في 24 مايس 2003 في المجلة العسكرية السوفييتية Krasnaaia Zvezda حَمَّن الجنرال Mokrous 65 Nik'h; a; gj hbsgpm Ifduhj lk من واردات صادرات السلاح السوفييتي.

3- صحيفة برافدا يوم 17 حزيران 1983.

الاتحاد السوفيتي. وحينما يحين الوقت لذلك، كانت موسكو مصممةً على ألا تقدم أية مساعدة للإيرانيين.

إنَّ قطع العلاقات بين موسكو وطهران أدَّى بالحكومة الصينية إلى إعادة النظر في موقفها أيضًا. وعلى عكس الصورة الآن، بكين الآن نشطة في التودُّد لطهران. ومرةً أخرى كان موقف الصين يتكوَّن من الذهاب ضد المصالح السوفيتية، وذلك بتبني الموقف المعارض للكرملين في الوقت الذي تحاول فيه غزو أسواق جديدة. إنَّ النظام الإيراني المعزول إلى حدٍّ كبيرٍ الآن يبدو منفتحًا لعروض بكين الآن. وافق الإيرانيون على دفع أثمان عالية بالدولار مقابل المنتجات الصينية الصنع (ارتفع التبادل التجاري بين البلدين خمسة أضعاف خلال الثلاث سنوات المقبلة) ولا سيَّما الأسلحة والذخيرة. ومن أجل الاحتفاظ بموقفها المحايد ظاهريًا، دعت السلطات الصينية كوريا الشمالية للتوسُّط بين بكين وطهران. فأغلبية الأسلحة التي أرسلت إلى طهران جهَّزتها رسمياً كوريا الشمالية، ولكن في الواقع تم صنعها في الصين. ولم يكن كيم إيل سونغ في بيونغ يانغ نادماً في مساعدته دينغ أكسيونغ الزعيم الصيني، ولا سيَّما أنَّ الصين تبقى حاميته الأولى، وبذلك كان نظامه أصلاً يُرسل الأسلحة لإيران منذ سنتين. ففي الأشهر الأولى من العام 1981 سافر وفدٌ كوريٌّ شماليٌّ كبيرٌ إلى طهران للعرض على النظام الإيراني بيعه الأسلحة والذخيرة. وسارت الصفقة بهدوء وتسلمَّ العسكريون الإيرانيون دبابات T-69 ومدافع ذات 59 ملم، ومنصات صواريخ، وهاونات، وصواريخ سام-7 المضادة للطائرات، وحتى القوارب الخفيفة التي تسمح للباسدران تشكيل نواة قوة بحرية خاصَّة به. وأرسلت الصين بوقت متزامن كميات كبيرة من قطع الغيار وكذلك 20 طائرة مقاتلة F-6 (نسخة من طائرة ميغ-19) التي تُستخدم لتدريب الطيارين. وبالمقابل تدفع إيران أثمان ذلك نقدًا وتسمح للخبراء الصينيين بتفتيش الأسلحة السوفيتية الصنع التي تمَّ الاستيلاء عليها من القوات العراقية والسماح للصينيين استنساخ تقنياتها⁽¹⁾.

وحتى الآن، استمرت الصين في تنفيذ تعهداتها مع العراق بينما تقوم بتجهيز إيران بالسلاح والمعدات العسكرية. ففي ربيع عام 1983، سلَّمت للقوة الجوية العراقية نحو 30

1- كما كشفته صحيفة هراولد تريبون الدولية في يوم 4 نيسان 1984.

طائرة F-7 المقاتلة (نسخة من ميغ -21) التي ستسمح بتعويض خسائرها في هذا المجال. وهذه المقاربة "المتوازنة" سمحت للقادة الصينيين الظهور بمظهر المحافظ على الحياد، بينما تقوم بتنشيط علاقاتها مع طرفي القتال. كان كلٌّ من الصين وكوريا الشمالية يدركان جنبًا إلى جنب أنَّ ليس في مصلحة أيِّ أحدٍ أن يستمرَّ النزاع لفترة طويلة، ولا سيَّما أنه يضع كلاً من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة في موقف دقيق بينما يسمح لهما الحصول على موارد مالية قيمة. ومن الآن ولاحقًا، ستقوم بكين وبيونغ يانغ بتزويد الطرفين بالمعدات وباستمرار، والموازنة بدقة في إرسال الأسلحة للمحافظة على الوضع الراهن آنذاك.

الفصل السادس عشر

هجمات الفجر الدامية

نشرت الحكومة الإيرانية على الإعلام خارطة مفصلة للجبهة أظهرت فيها سبعة جيوب من الأراضي الإيرانية تؤكد أنها تحت سيطرة الجيش العراقي، وأنها ألمحت أنها قد توافق على إجراء محادثات مع بغداد إذا وافقت على إخلائها والاعتراف بالسيادة الإيرانية على هذه المئات القليلة من الأميال المربعة. وبعض هذه الجيوب اأرضية عراقية بالأصل، ولكن طهران تدعي بها منذ بداية القرن العشرين المنصرم. وفي يوم 27 كانون الثاني رفض صدام حسين المقترح، ولكنه أعلن أنه مستعد للذهاب إلى طهران؛ لمناقشة بنود هدنة شخصياً مع آية الله الخميني. وقد نُوقش عرضه بحرارة في طهران. كان المرشد الأعلى يميل لقبول المقترح، لكن رفسنجاني - الآن بدعم من خامنئي الذي أتى للتو لمنصبه - أصر على رفضه، وأفتى أنه من المذلل التفاهم مع دكتاتور العراق الذي يستحق العقاب بدلاً من ذلك. أقنع الناطق باسم البرلمان أقرانه بشن هجوم جديد يُدعى "المستهل" الذي سيوجه ضربة قاصمة لمعنويات العدو ويعطي للنظام إيراني نجاحاً رمزياً، وقبل أيام من الاحتفال السنوي الرابع بقيام الثورة الإسلامية. وفي 31 كانون الثاني أصدرت الحكومة الإيرانية بياناً أعلنت فيه رفضها المقترح العراقي. ومن أجل أن تكون الصورة واضحة، أضاف علي خامنئي مؤكداً "لم يعد انسحاب القوات العراقية الشرط الرئيس لإنهاء العمليات العسكرية،

والمسألة الآن معاقبة القادة العراقيين"⁽¹⁾. وصدرت الأوامر للقيادة العسكرية العليا بالاستعداد للهجوم والاستيلاء على الفكة، ثمّ التوجّه نحو العمارة لقطع الطريق الرئيس الذي يربط بغداد بالبصرة. ومع ذلك، وإن كانت الأجواء غير مناسبة، فإنّ التوجّه كان نحو شنّ هجوم والضغط على صدام.

حرب الاستنزاف

في ليلة 6-7 شباط 1983 وتحت وابل من المطر الغزير الذي كان ينهمر، هاجمت فرقتان من الباسدران خطوط الجبهة العراقية على جانبي الفكة لتضليل العراقيين، للاعتقاد أنّهم يشنون هجوم كماشة على العمارة، وهي خدعة تهدف لجعل العراقيين يحركون قوّاتهم إلى الخلف، وهذا يسمح بتوفير ظروف مناسبة للهجوم الرئيس على الفكة. ولكنّ الجنرال الفخري المسؤول عن القاطع بصفة قائد للفيلق الرابع لم تنطّل عليه هذه الخدعة، فقد تمكّن من صدّ الهجوم الإيراني معتمداً على خطّ دفاعه المتماسك وصلابة جنوده، وكذلك شبكة الخنادق التي تم حفرها منذ فصل الخريف التي أثبتت فعاليتها. وتم إبطاء تقدم موجات المشاة الإيرانية بشبكة الأسلاك الشائكة وابل النيران، ممّا جعلهم يغوصون في الوحل الذي غدر بهم؛ لأنّه مليء بالألغام الأرضية ومصائد المغفلين التي أنهكت الموجة الأولى من المهاجمين، وإجبار الإيرانيين الذين كانوا يرتجفون بعد أن انتقعوا بالمياه وتفاجؤوا بمستوى المقاومة العراقية على وضع نهاية للهجوم الالتفافي.

وفي الفجر شنّوا هجومهم الرئيس على الفكة. وخلال ثلاثة أيّام حاول 30 ألفاً من المشاة الاستيلاء على المدينة. نجحوا في التسلل إلى أشلاء مدينة صغيرة مدمّرة في كلّ محاولة، ولكنهم وقعوا تحت نيران المدفعية والدبابات المتخذقة في التلال المجاورة التي دمرتهم بوابل قذائفها. ولعجزهم عن الاحتفاظ بمواقعهم، اضطرّ الإيرانيون إلى الانسحاب

1- Paul Balta "Le conflit Irak-Iran, 1979-1989, notes et etudes documentaires , no. 4889 (La Documentation francaise, 1989),61.

بعد تكبدهم خسائر فادحة. وحاولوا في اليوم التالي مهاجمة الخنادق العراقية لإخماد دباباتهم ومدافعهم، لكن النتيجة أسوأ من قبل: تمزيق الإيرانيين بوابل من النيران العراقية ودون هواده من التلال الترابية التي تحمي خطوط الدفاع العراقية. وفي الغسق من يوم 9 شباط قرّر الإيرانيون أن يلعبوا آخر ورقة لديهم، واستدعوا الفرقة المدرّعة 92 التي سبق وأن احتفظوا بها بوصفها قوة احتياطية. كان الإيرانيون يأملون أن الدبابات العراقية ستكون أقل فاعلية في الليل، وأكثر سهولة في اختراق خطوط العدو. هاجم لواء دبابات تلك التلال التي تتخذ على قممها الدبابات العراقية وخسروا في محاولتهم دوزينات قليلة من ناقلاتهم. وتمكّنت الدبابات الإيرانية من التغلّب على الخنادق العراقية في قاطع ضيق بعرض نحو نصف ميل (نحو كيلومتر واحد) ثمّ ضغطوا نحو أراضي العدو عند الفجر. تقدّم هذا العملاق الصلب ببطء؛ لكي يتجنّب الوقوع في الوحل وكذلك الاقتصاد في الوقود، ولا سيّما أنّهم الآن بعيدون عن مصدر التجهيز. وبما إنهم يفتقرون لأوامر محدّدة، فقد استقرّت طواقم الدبابات على سحق بؤر المقاومة.

كان رد فعل الجنرال فخري مباشرة استدعاء قواته الاحتياطية المتمثلة بأربعة كتائب مدرّعة بالدبابات T-72 المعروفة بتفوّقها على الدبابات الإيرانية Chieften و T-59s. وطلب دعمًا من المدفعية وطائرات الهليكوبتر التي حلّقت فوق ميدان المعركة لاصطياد دبابات العدو. قامت الدبابات العراقية بالمناورة وتشكيل شبكة من المصائد حول طليعة القوات الإيرانية ثمّ مهاجمتها من عدة اتجاهات في وقت واحد. وفي غضون ذلك، أغلقت عدة ألوية مشاة الثغرات في الخنادق العراقية. أمّا طواقم الدبابات الإيرانية المعزولين؛ فقد دافعوا عن أنفسهم بقوة تعبّر عن اليأس وتراجعوا إلى خطوطهم لتجنّب سحقهم. وفي يوم 11 شباط انقضت عملية "المستهل"، حيث تكبّد الإيرانيون هزيمة قاسية وخسارة أكثر من مئة دبابة، وخمسة آلاف قتيل، واثنى عشر ألف جريح (بينما خسر العراقيون ألفي قتيل، وستين دبابة). والأسوأ من ذلك، الهجوم الذي كان يهدف لضرب القوة المعنوية للعدوّ جاء بنتائج عكسية، فهذا النصر غير المتوقع شجّع الجنود العراقيين. وافتخر النظام العراقي بعرض ألف أسير إيراني، وحطام أكثر من ثلاثين دبابة استولى عليها من العدو في شوارع بغداد.

واستنادًا إلى هذه الهزيمة، تحوّلت القيادة العسكرية العليا إلى استراتيجية الاستنزاف والإنهاك التي تقوم على المشاة والمدفعية، واختبأت الدبابات في المؤخرة، ولم تعد تستخدم إلا لتقديم الدعم للمشاة. وإنّ الهجوم الآلي الواسع النطاق وصل إلى نهايته. واستمرّت الإشارة إلى بعض الاشتباكات التي تحدث بين فترة وأخرى على أنّها "هجوم" لأسباب دعائية، وقد أرفقت بالأرقام للاحتفاظ بخدعة القتال الدائم. كانت السلطات تأمل من وراء ذلك الاحتفاظ بالروح القتالية للجنود. وقد أعلن رفسنجاني في خطبة عصماء "أنّ الحرب ستستمرّ ومهما كانت الأحداث"⁽¹⁾! وفي ذلك الوقت، قامت الفرق الإيرانية بالحفر على طول الجبهة وبشكل عام على بعد نصف ميل (كيلومتر واحد) عن الخنادق العراقية وخارج مديات بنادق العدو تقريباً. ولأشهر متعدّدة اتبع القتال أسلوباً مماثلاً لقتال الحرب العالمية الأولى: رشقات المدفعية المتعاقبة، هجوم الصدمة، وفترات انتظار طويلة. وقد استخدم الإيرانيون هذه الفترة لفحص أساليب جديدة من المضايقات. أرسلوا عناصر من الباسدران لمهاجمة خطوط العدو من على دراجات نارية تم شراؤها من اليابان. وخلال مرحلة الاقتراب، يقوم كلُّ سائق دراجة نارية بحركات متعرجة بنحو 330 قدمًا (نحو مئة متر) عن الخنادق العراقية مثيرًا الغبار لإخفاء تقدّمهم. ثمّ التوقف فجأة لكي يتمكن المقاتل من الركوب معه حتى يتمكن من إطلاق صاروخ RPG-7 على معقل العدو. أمّا الطواقم التي تخلّصت من ردّ العدو بالثأر؛ فقد تسابقت في العودة إلى خطوطها.

وفي بداية شهر شباط 1983 دعا الرئيس العراقي المجتمع الدولي إلى الضغط على الحكومة الإيرانية للقبول بوضع نهاية للحرب. ومرةً أخرى، وقفت الأمم المتحدة ومنظمة التعاون الإسلامي وحركة عدم الانحياز ضدّ التصلّب الإيراني. وأدانت منظمة الصليب الأحمر الدولية علانيةً خرق لائحة حقوق الإنسان الدولية - معاهدتي جنيف ولاهاي المشهورتين - من طرفي النزاع ومعاملتهم السيئة لأسرى الحرب.

ومن أجل أن يُظهر الملك الأردني حسين دعمه القوي "لصديقه الكبير صدام"، قام بجولة في الجبهة برفقة الرئيس العراقي لتفتيش القوة العسكرية الأردنية المنتشرة هناك. وأخذت له صورته المشهورة وهو يطلق قذائف المدفعية على المواقع الإيرانية. وأرسلت

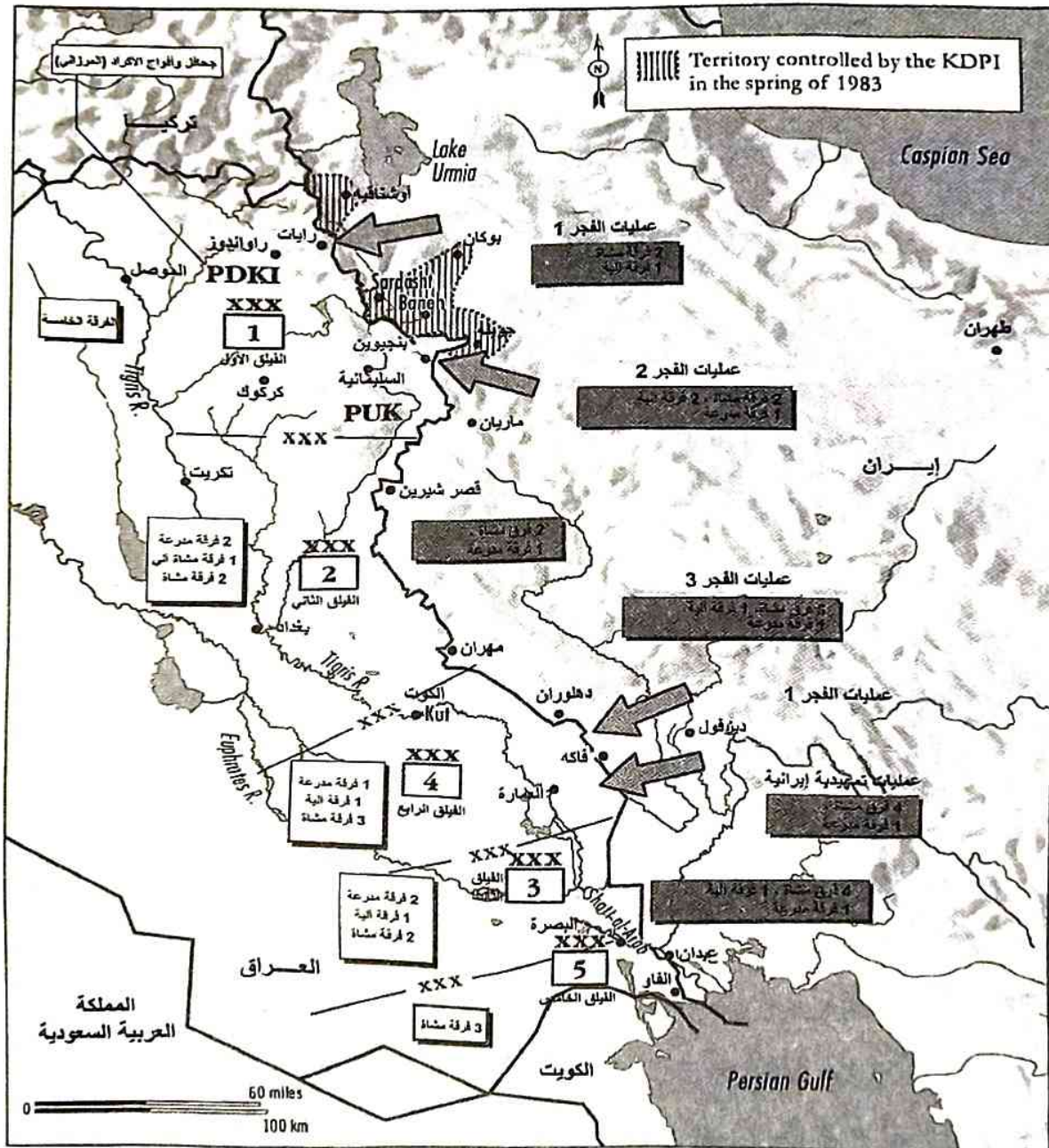
هذه الصورة إلى كل العواصم في الشرق الأوسط؛ لحثّ القادة العرب على التعهّد بصورة فعّالة في دعم العراق. وفي الوقت نفسه، دعا الخميني بهدوء دول الخليج لوقف دعمها لبغداد. ومن جانبه، أمر الجنرال عدنان خير الله ببناء ثكنات عسكرية، ومساجد، وغرف استراحة مزوّدة بأجهزة التلفزيون، وغرف مريحة جدًّا لتحسين راحة 400 ألف جندي محتشدين في الخنادق القريبة، وتمّ أيضًا تحسين خدمات البريد، وتنفيذ نظام المناوبة، فكل وحدة عسكرية تتدرب لمدة ستة أسابيع في الخلف، وتُمسك مواقعها لمدة أربعة أشهر في الجبهة، ثمّ تتمتع بإجازة لمدة ثلاثة أسابيع. وبهذا النظام، أدرك الجنود العراقيون أنّ لهم فرصة واحدة من أصل ثلاث فرص؛ لتجنب هجوم العدو.

هجوم الفجر الأول

بدأ الهجوم الإيراني الكبير لفصل الربيع عام 1983 في العاشر من نيسان حينما شنتّ إيران عملياتها "الفجر الأول" في قاطع الفكة، والهدف إعادة السيطرة على مفترق الطرق الاستراتيجي. وحشدوا كلّ شيء، وخصّصوا ثلاث فرق مشاة للمعركة التي ستستمر لمدة أسبوع واحد. تمكنوا من الاستيلاء على عدة تلال تطلُّ على الفكة، والفضل في ذلك يعود إلى مدفيعتهم التي أمطرت الخنادق العراقية بوابل قذائفها. وقام رجال المشاة بإعادة السيطرة على المدينة والتخلّص من القناصين أينما وجدوهم. تمثّل العملية نجاحًا للقيادة العسكرية الإيرانية. وافتخر الجنرالات الإيرانيون بعرض 390 أسيرًا عراقيًّا للإعلام، ولكنهم يتجنّبون بحذرٍ أيّ ذكر لستة آلاف قتيل من جنودهم.

وعلى الجانب العراقي، اختار الجنرال فخري أن يخسر بعض الأرض لتقليل خسائره، وأعاد بناء خطوطه على بعد ثلاثة أميال (5 كيلومترات)؛ لأنّه يدرك أنّ الفكة ما زالت ضمن مديات مدفيعته، ممّا يسمح له بمضايقة الأرتال اللوجستية التي تسير بمحاذاة الحدود. ثارت بغداد بقصف مدن دزفول وأندمشك والشوش بصليات صواريخ فروك وسكود، ممّا أدّى إلى مقتل عدة مئات من السكان. وبعد استعراض القوة هذا، عرض طارق عزيز في 25 مايس 1983 التفاوض لإبرام معاهدة بإشراف الأمم المتحدة. يتضمن المقترح الموافقة على وقف قصف

السكان المدنيين، ولكن المقترح رُفض على الإطلاق. واقترح صدام حسين في يوم 7 حزيران هدنة لمدة شهر بمناسبة حلول شهر رمضان. ولم يأمل العراق من عرضه هذا إقناع طهران بالقبول، بل أراد أن يوضّح لحلفائه العرب الذين يساعدونه ماليًا أنه يحترم العقائد الإسلامية، ولا سيّما توقيتات شهر رمضان الكريم. ولا نفاًجاً برفض الملاي الإيرانيين بازدراء هذا العرض، ورفعوا صوتهم عاليًا أنهم يرغبون بالصلاة قريبًا في الأضرحة "المحرّرة" بكربلاء والنجف.



خارطة الهجومات الإيرانية لعام 1983

العودة إلى كردستان

وفي محاولة لكسر هذا الجمود، أعاد الإيرانيون تركيز كل جهودهم على كردستان العراق بهدف أن تنهض في تمرّد عامّ ضدّ النظام البعثي. وقبل أن يتسلّلوا إلى المنطقة، فعليهم أن يؤمنوا أولاً سيطرتهم على محافظاتهم الكردية والتغلّب على البيشمركة المتخندقين في المثلث بين سردشت وبانه وبوكان. شنّ الجنرال شيرازي في مطلع فصل الربيع هجومًا يهدف إلى توجيه ضربة قاضية للحركة الانفصالية الكردية. وحشد لذلك الهجوم 120 ألف جندي وبدعم من 400 دبابة و300 مدفع. وبعد سحقهم بنيران القوات الحكومية، أجبر 20 ألف من البيشمركة الذين حشدتهم عبد الرحمن قاسملي على ترك القرى والوديان مرةً أخرى، واللجوء إلى المناطق الجبلية. وخلال أسابيع قليلة لاحقة، اتخذ الحرس الثوري إجراءات صارمة ووحشية في المنطقة تركت وراءها خمسة آلاف ضحية. ومع ذلك، لم يسلموا هم أيضًا، فقد قُتل الجنرال محمد برجوردي البالغ من العمر 28 عامًا بانفجار لغم أرضي مضاد للأشخاص خلال عملية بحث وتنظيف بالقرب من مهاباد. وقد شارك في كلّ هجومات الباسدران الكبيرة خلال الأشهر الثمانية الماضية، وتميّز في قتاله الشرس للمتمردين الكرد وتغطيته للوحشية التي اقترفها بعض أتباعه هناك. وفي نهاية شهر حزيران، وصل الجنرال شيرازي إلى هدفه وسيطر تقريبًا على كلّ كردستان الإيرانية، وأحمد انتفاضة البيشمركة الذين من الآن ولاحقًا أصبح بإمكانهم تنفيذ غارات متفرقة وللمضايقة فقط. الآن، يمكن لشيرازي الدخول إلى كردستان العراق.

أمّا بالنسبة إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني الذي يسيطر فقط على بانه والمدن الصغيرة أوشفانيه وجافيله؛ كانت القوات الكردية موزعة الآن بين عدة جيوب معزولة للمقاومة. ولجأ عبد الرحمن قاسملي إلى العراق ليتحرّك بين حلبجة وبنجوين وجافيله. كان قاسملي الواصل من نفسه أكثر ممّا يجب قد ارتكب خطأ بدمجه بين أنموذجين من العمليات غير متجانسين أساسًا: دفاع جامد لحماية قواعده، وأساليب حربية متحركة

لفصائله المسلحة لمضايقة العدو. ولم يؤت أيّ منهما ثماره في الواقع. وبدأ الكثير من حلفائه السابقين ينازعونه على القيادة، وتم اغتيال الكثير من ضباطه بظروف ضبابية، وهو نفسه نجا بالكاد من هجوم استهدفه. إنَّ الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني المعزول والمحصور على الحدود مع العراق أصبح الآن يقاتل من أجل البقاء.

كان النظام الإيراني ينوي استغلال الفرصة تمامًا، حيث شنَّ في يوم 2 تموز 1983 هجوم "الفجر 2" باتجاه وادي راوندوز في شمال كردستان العراق. وبينما استولت فرقة من الباسدران على أوشفاه التي لجأت إليها مجموعات من البيشمركة، تحرك اللواء الآلي 28 من بيرانشهر وبدعم من فرقة الباسدران وتقدّم باتجاه الممر الذي يشكل الحدود الإيرانية مع العراق، وانضم إلى رجال المشاة الإيرانيين 800 من مقاتلي الأخوين برزاني. كان الهدف بسيطًا: السيطرة على قرية حاج عمران الواقعة على الجانب الآخر من الحدود وأحد المقرات العملياتية للحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني. كانت طهران تهدف من وراء القضاء على هذا المعقل السماح لحزب الأخوين برزاني (الديمقراطي الكردستاني العراقي) الذي تدعمه بقوة باستخدام نفوذه وإقناع سكان الإقليم بالشروع في تمردٍ عامٍّ ضدَّ النظام العراقي. بقيت الاستراتيجية الإيرانية ثابتة لمدة عقدين من الزمن واستخدام الأساليب نفسها لممارسة الضغط على بغداد، وإذا سار كلُّ شيء على وفق ما مخطَّط له، فإنَّ الإيرانيين سيستمرّون في التحرك نحو راوندوز، ثمَّ تهديد مناطق النفط في الموصل.

عبرت القوات الإيرانية ممرَّ بيرانشهر في يوم 22 تموز 1983 وتغلّبت على لواء المشاة الذي يحرسه، وتغلّغت نحو عشرة أميال (15 كيلومترًا) داخل الأراضي العراقية والاستيلاء على عمران ورايات وجبل كرمان التي تتحكّم في الوادي وتوفّر نقطةً مثاليةً للأطلاق وتوجيه نيران المدفعية مباشرة. قاتلت البيشمركة الإيرانية بحالة يائسة ولم يتمكنوا من احتواء الهجوم. وتمكّن بعض قادة البيشمركة من الهرب، ولكن أغلبية البيشمركة إمّا قُتلوا أو تم القبض عليهم وإيداع عوائلهم معسكرات الاعتقال في جنوب إيران. وأسهم أنصار الأخوين برزاني في عمليات العنف وزيادة الكراهية بين العشائر الكردية. تم إبلاغ رئاسة أركان الجيش العراقي مباشرة الذي أرسل تعزيزات إلى المنطقة، حيث نقلت عدة كتائب كوماندوز

بطائرات الهليكوبتر إلى رايات لإيقاف الخرق الإيراني، بينما توجهت الفرقتان 23 و24 للمشاة من طريق البر إلى هناك. وفي يوم 24 تموز توجه صدّام حسين والجنرال عدنان خير الله شخصياً إلى الجبهة لتقييم قتامة الوضع. أخذ وزير الدفاع الأمر بيديه وتولّى إدارة العمليات، وشنّ هجومًا مضادًا شرسًا وبدعمٍ شاملٍ من القوة الجوية. عملت طائرات Mi-24s التي تُسلّمت مؤخرًا من الاتحاد السوفييتي الأعاجيب في اصطيادها لجنود المشاة الذين انتشروا في المنحدرات الجافة للجبال المحيطة بالمنطقة. أسقطت مقاتلة إيرانية طائرة Mi-24 واحدة. وتدخلت مجموعة قليلة من طائرات الهليكوبتر الكوبرا لإبطاء الهجوم المضاد العراقي. وحققت كوبرا واحدة إنجازًا غير عادي باستخدامها بنادقها لإسقاط طائرة ميغ-21 كانت تحلق ببطءٍ فوق ميدان المعركة على ارتفاع منخفض.

وبعد ثلاثة أيام من القتال الشرس الذي ترك عدة آلاف من القتلى، تمكّن عدنان خير الله من تهدئة الجبهة واستعادة السيطرة على رايات وجبل کرمان. وأمر مباشرةً ببناء دفاعات وخنادق مشابهة لتلك التي تحمي بقية مناطق الجبهة. بينما احتفظ الإيرانيون بعمران وعشرة قرى أخرى وعهدوا بإدارتها إلى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الشيعي (الأعضاء السابقين والمنفيين من حزب الدعوة) الذين سيعاقبون السكان المحليين ثم إثارة الاستياء الإثني والمذهبي. كان الإيرانيون وعلى الرغم من فشلهم مصمّمين على الاستمرار بالحرب وانتهاز فرصة الصيف ومضايقه النظام العراقي والعمل على إسقاطه. في يوم 30 تموز 1983 شنوا هجوم "الفجر 3" على القاطع الأوسط وفي عرض الجبهة الممتدة لنحو ستين ميلاً (نحو 100 كيلومتر) من مهران إلى دهلران، والهدف كان تأمين الطريق الحدودي الذي يربط المدينتين والاستيلاء على خنادق العدو التي تتحكم فيه. وحين يُحقّق هذا الهدف الأولي ستحاول القوات الإيرانية خرق خطوط العدو باتجاه نهر دجلة وقطع طريق بغداد - بصرة المحاذي للنهر ويبعد عن الحدود أقلّ من عشرين ميلاً (30 كيلومترًا). ولأجل هذا الهجوم حشدت طهران 60 ألف مقاتل ضمن خمس فرق (المشاة 7، 25، 58، والمدرعة 30، والآلية 40) وعدة ألوية مستقلة. وبالمقابل كان لدى العراقيين خمس فرق أيضًا (الآلية الأولى، العاشرة المدرعة، 2، 14، 20 مشاة). رصد العراقيون الاستعدادات الإيرانية وبدؤوا بالعمليات.

وبهجوم وقائي، مزق رتلان من الدبابات العراقية تشكيلات العدو من المشاة إلى قطع متناثرة، ثم انسحبت الدبابات على الفور وتحت نيران العدو الكثيفة. والآن جاء دور الإيرانيين في الهجوم، فلمدة ثلاثة أيام، وبدعم من دبابات T-59 و T-62 تعاقبت ألوية مشاتهم في مهاجمة خطوط الجبهة العراقية تحت الشمس الحارقة ونيران المدفعية.

كان الكوماندوز الإيرانيون يتسللون في كل ليلة إلى الخطوط العراقية ويسيطرون على المخافر العراقية. وحلقت طائرات الهليكوبتر Chinook وبكل إنارتها لإنزال المظليين خلف خنادق العدو؛ لكي يهاجموا من الخلف. في يوم 2 آب خسّر العراقيون بعض الأرض وغادروا خنادقهم على مسافة خمسة عشر ميلاً (نحو 20 كيلومتراً) إلى الجنوب من مهران وإقامة مواقعهم على عمق ثلاثة أميال (5 كيلومترات) داخل الأراضي العراقية. قام الجنرال سلطان أحمد بهجوم مضاد بما تبقى لديه من دبابات، وكافح من أجل احتواء الاندفاع الإيراني، ونجح أخيراً بفضل التدخل الجوي الكثيف، ووصول الفرقة المدرعة الثانية عشرة من القوات المنتشرة مع الفيلق الثاني المجاور.

أدرك الإيرانيون أنّهم لم يتمكنوا من اختراق الخطوط العراقية ولا الوصول إلى نهر دجلة، وبدلاً من ذلك اختاروا تحصين مواقعهم حول مهران. في 6 آب سيطروا على ثلاثة تلال تطل على هذه المدينة الحدودية التي تحوّلت إلى مجرد ركام نتيجة ثلاث سنوات من الحرب. وبعد أربعة أيام سيطروا عليها بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة. انتهى هجوم الفجر الثالث في يوم 10 آب بنتائج مختلطة، فقد نجح الإيرانيون في إخراج العراقيين من المرتفعات التي تطل على طريق مهران - دهلران والاستيلاء على شريط حدودي صغير، ودفع العراقيين إلى عدة أميال، وقتلوا ستة آلاف عراقي وأسروا ستمئة آخرين، فضلاً عن تدمير ستين دبابة، والاستيلاء على 13 ألف بندقية خفيفة في ميدان المعركة. وعلى الجانب الآخر، يُعتقد أنّ الإيرانيين خسروا سبعة آلاف قتيل وخمسة عشر ألف جريح. وبهذا المعدل من الخسائر، فإنّ الغزو المفترض لبغداد كان ثمنه باهظاً جداً، ولم يعد بعض القادة الإيرانيين مقتنعين أو راغبين لدفع ذلك الثمن. ومع ذلك، رفعت هذه المكاسب المحدودة من الروح المعنوية للقوات الإيرانية التي انهارت نتيجة الخسائر السابقة.

ثار العراقيون بقصف المدن الإيرانية بوابل من صواريخ سكود، وردَّ الإيرانيون بقصف البصرة بمدفيعتهم البعيدة المدى. وحين لم يتنفض شيعة العراق ضد نظام صدام، لم تعد طهران نادمةً على قصفهم، على الرغم من أن آية الله الخميني رفض ذلك في السابق. وتبنى مجلس الأمن قرارًا جديدًا برقم 540 الذي يطلب فيه الوقف الفوري للعمليات العسكرية والقصف باتجاه السكان المدنيين. ومرةً أخرى قبلت بغداد القرار ورفضته إيران. وفي مطلع فصل الشتاء عاد مركز الثقل للعمليات إلى كردستان إيران، حيث شنَّ الإيرانيون هجوم الفجر الرابع في قاطع ماريفان، وكان هدف هذا الهجوم الاستيلاء على وادي بنجوين الذي اتخذهُ عبد الرحمن قاسملي ملجأً له. وكان هذا الوادي يُستخدم طريقًا لإمداد معاقل الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني بالأسلحة والذخيرة. ويأمل الإيرانيون أن باستيلائهم على هذا الوادي سيقطعون سلسلة تجهيز البيشمركة بالأسلحة ويضعون نهايةً لتمرد كردستان. وفي ليلة 19-20 تشرين الأول 1983 هاجمت عدة كتائب من الباسدران ممرَّ رشاه Rashah من الخلف وعبر الجبال المطلة، ثم تغلبوا على الجنود الذين يحرسونه، وانضمَّ إليهم عند الفجر طليعة فرق المشاة 29 و 64 التي تركت ماريفان خلال الليل وتم دعمها بلواء دبابات وفرقتين آليتين (21 و 28). كان تقدُّمهم بطيئًا؛ بسبب ضيق الطريق الذي اكتظَّ فجأةً برتلٍ كبيرٍ من الناقلات. تقدَّمت الفرق بوتيرة تقدُّم رجال المشاة الذين تسلَّقوا قمم الجبال المطلة على الوادي، واستولوا على خمس عشرة قرية في أثناء تقدمهم.

وبحلول ليلة 22 تشرين الأول وصلت طلائع الإيرانيين إلى أطراف بنجوين، ولكنها واجهت مقاومةً عنيفةً من فرقة المشاة الرابعة العراقية التي تم إشعارها سابقًا بالهجوم الإيراني، وكان لديها الوقت لاتخاذ خطوات تعزيز دفاعاتها المحيطة بها. كانت القيادة العسكرية العليا العراقية تتوقَّع الهجوم الإيراني في هذا القاطع، حيث حشدَ الجنرال ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق الأول الفرقتين 18 و 19 مشاة، والمدفعية، وعدة ألوية مدرَّعة وآلية حول مدينة السليمانية. سمحت هذه القوة الكبيرة بشنِّ هجوم مضادٍّ على الفور. كان الجنرال ماهر يقاتل في مقدمة قواته، وقاد معركةً متحركةً ممَّا جعل العدو يتوقف بمكانه، ثمَّ الالتفاف

على قوات العدو. ونتيجة لدفع الإيرانيين إلى ممر شاه، فقد حصل على لقب "رومل العراق". واستُديعت طائرات الميغ والسيخوي؛ للتعزيز المتعرج بين الجبال وقصفت دون هوادة أرتال الناقلات الإيرانية مخلفةً في الطريق عددًا كبيرًا من حطام الناقلات المحترقة. وفي غضون ذلك، طوّقت فرق الباسدران قرية جافيله التي كانت تُستخدم ملجأً لواحدة من مجموعات البيشمركة للحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني. هاجم الحرس الثوري القرية في الليل وقتل من في حاميتها التي كانت تقاوم سلطات الحكومة لفترة أكثر من سنتين. تمكّن حفنة من المقاتلين البيشمركة من الهروب واتخذوا من الطرق الجبلية الخطرة ممرًا لطلب اللجوء في العراق.

شنّ الإيرانيون هجومًا آخر في يوم 6 تشرين الثاني 1983 على الخطوط العراقية، وخصّصوا فرقتين جديدتين من الباسدران، مستفيدين من الطقس السيئ الذي أجبر طائرات القوة الجوية على عدم التحليق، وسيطروا على بنجوين وعلى النتوءات الجبلية الملاصقة للأراضي الإيرانية الواقعة بين ماريقان وبانه، ثمّ استمرّوا في مسيرهم نحو السليمانية. أمّا الجنرال ماهر عبد الرشيد - الذي هو من عشيرة صدّام حسين وعدنان خير الله نفسها - اتصل مباشرة بهم وأرسلوا له لواءي الصدمة من الحرس الجمهوري، حيث أنزلتهم طائرات الهليكوبتر أمام طلائع القوات الإيرانية وبحوزتهم ذخيرة من الأسلحة الكيماوية. لا يزال العراقيون لم يستخدموا عناصر غاز الأعصاب السامة، ولكن قذائف مدفيعتهم تقوم بنشر غاز الخردل الذي سبق وأن استخدم في الحرب العالمية الأولى. تفاجأ الباسدران بالغاز الذي أجبرهم على التراجع بصورة عشوائية وبخسارة نحو مئة قتيل في الميدان. تابعتهم القوات العراقية بحذر، وسمحت لهم بالتخندق في بنجوين. هذه المرة الأولى التي يستخدم فيها العراق الأسلحة الكيماوية منذ اندلاع المعارك. وباستخدام هذه الأسلحة، أرسل صدّام تحذيرًا للنظام الإيراني أنّ كردستان تمثّل خطأ فاصلاً، وأنّ عبوره سيؤدي إلى تصعيد النزاع، وأنّ بغداد لن تسمح بتهديد الإقليم الغني بثرواته النفطية، ولا سيّما أنّها الآن تشكّل المصدر الوحيد لموارده المالية. والحكومة العراقية أيضًا لا تحتل حدوث تمرد عام يحاول الإيرانيون إحداثه من خلال الحصول على موطنٍ قدم هناك. انتهز جلال طالباني رئيس

حزب الاتحاد الوطني الكردستاني الفرصة وتفاوض مع بغداد للتوصل إلى اتفاقية جديدة أكثر ملاءمة للكرد من الاتفاق السابق. لكنّه كان حكيماً بما يكفي ألا يذهب بعيداً مع صدام حسين، ولا سيّما أنّ حزب الاتحاد الوطني الكردستاني كان محايداً.

أدّى تساقط الثلوج في منتصف شهر تشرين الثاني إلى وضع نهاية لهجوم الفجر الرابع الذي كانت نتائجه متبادلةً بين الطرفين. فمن المؤكد أنّ الإيرانيين نجحوا في الاستيلاء على ممرٍ استراتيجيٍّ وحصلوا على أرض مساحتها 180 ميلاً مربعاً (مئات قليلة من الكيلومترات المربعة) ولكن بثمن باهظ. فقد خسروا خمسة آلاف قتيل من جنودهم، وخمسة عشر ألف جريح. وفي المعسكر المقابل، خسر العراقيون 2800 قتيل فقط، وستين دبابةً، وعشرين قطعة مدفعية. وأفادوا من حلول فصل الشتاء؛ لتعزيز دفاعاتهم وتحويل السليمانية وحليجة إلى معقل محصنة. أصبح لدى الفيلق الأول الآن خمس فرق مشاة، فضلاً عن الفرقة السابعة التي استبدلت الفرقة الرابعة التي تمّ تدميرها في المعركة. واعتمد العراقيون على ألف من البيشمركة من الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني الذين خدموا جنوداً مساندين للعراق في الوقت الذي ينتظرون أن يتمكنوا من العودة إلى إيران.

وبينما تمكّن الإيرانيون من تحسين مواضعهم، فإنّهم لم ينجحوا في إضعاف عدوّهم بشكل خطير. ولعدم توافر العمليّات السوقية بشكل كافٍ، والافتقار إلى دعم بالنيران، ولا سيّما الدعم الجوي، وندرة الأسلحة المعقّدة (ولا سيّما الصواريخ) أدّى إلى تقليص فعالية هجومهم. وإنّ الانشاقات والمنافسة بين الباسدران والجيش النظامي قوّض من التنسيق العمليّاتي. وقد أثبتت القيادة العسكرية الإيرانية أنّها غير قادرة على إدارة أكثر من هجوم كبير واحد ممّا أعطى للجيش العراقي الفرصة لتجميع قواه، وأنّها فشلت في خلق ظروف للمفاجأة الاستراتيجية التي تسمح بخرق الجبهة ودحر العدو.

الفصل السابع عشر

ورقة صدام الرابعة

كان الإيرانيون في ظلام تامّ حول ما بقي للنظام العراقي واحداً من أكثر أسراره احتفاظاً خلال الحرب: كانت بغداد قادرةً على حلّ شفرة الرسائل الإيرانية، وبذلك تستعدُّ مقدماً لأغلبية هجومات العدو. والفضل يعود إلى خدمات فكّ الشفرة التي مكّنت الجيش العراقي في أغلب الأحيان يكون في وضع أفضل لاحتواء القوّة الساحقة الإيرانية. فالعراقيون لا يعرفون تفصيلات الخطط الإيرانية بصورة منتظمة - وإن حدث ذلك في بعض المناسبات - ولكنهم يعرفون بالتأكيد الاتجاه العام للعمليات العسكرية الإيرانية، وأين تنتشر وحداتهم العسكرية الرئيسة. وبمعنى آخر، بإمكانهم رؤية أوراق خصومهم. وليس باستطاعتهم تحييد أفضل تلك الأوراق، ولكن بإمكانهم الاستعداد لإيقاف تأثيرها. وكما اعترف الفريق مزهر راشد الطرفة مؤخرًا، الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية العراقية الذي بقي طوال أيام الحرب يفحص الاستعدادات العسكرية الإيرانية، ويقول: "إننا على قدم المساواة مع الجيش العراقي والحرس الجمهوري بسبب عملنا في التقاط الإشارات الاستخبارية... ونحن في حلبة ملاكمة الإيرانيون فيها معصوبو العينين بينما قواتنا غير ذلك. نحن نخلق المصلحة فيما يتعلّق بالإيرانيين"⁽¹⁾.

1 - الجنرال مزهر راشد الطرفة، انظر:

Kevin Woods, Saddam's Generals: Perspectives of the Iran-Iraq War (Alexandria, VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington, 2011), 102.

كانت استخبارات الجيش العراقي، وبشكل خاص الفرع التقني، المفتاح لتلك الإنجازات، وإن لم يتميّز هذا الفرع التخصصي خلال الأشهر الأولى للحرب. وفي ذلك الوقت، كان الخبراء العراقيون يعتمدون على مكائن الشفرة-54 التي حصلوا عليها في السنوات السابقة من شركة الشفرات السويسرية. وتقدم هذه المكائن فك التشفير المجرأ بشدة فقط للرسائل الإيرانية التي يتم التقاطها من خلال "الإذن الكبيرة" التي دخلت الخدمة بمساعدة بعض المستشارين العسكريين السوفييت الذين أبقاهم الكرملين في العراق بعد اندلاع القتال بين الطرفين، على الرغم من رغبة السوفييت معاقبة صدام. ومن الطبيعي، بل ومن المناسب أيضًا للاستراتيجيين السوفييت تنقية معرفتهم عن القوات المسلحة الإيرانية من خلال مساعدة العراق.

العراقي يساوي لغزا

في شتاء عام 1981 سمحت ضربة حظ للعراقيين لعمل قفزة هائلة للأمام، حيث قام أحد الضباط الإيرانيين المنسوب الى أركان الفرقة 64 بالهروب من الخدمة واستحوذ على معلومات حربية قيمة سمحت له التفاوض على هروبه إلى بغداد. كانت أدوات صفقته ماكنة-52 لتشفير الرسائل التي صنعتها الشركة السويسرية المذكورة آنفًا، التي تستخدمها القيادة العسكرية الإيرانية العليا في اتصالاتها مع قواتها. كان العراقيون يستخدمون الماكنة-52 لأكثر من سنتين لفكّ تشفير عددٍ كبيرٍ من رسائل العدو. وبالنسبة إلى صدام حسين فإنّ هذه الماكنة تمثل قيمة أساسية كما هي ماكنة "اللغز" عند ونستون تشرشل خلال الحرب العالمية الثانية.

وأصبحت عملية التقاط الرسائل أكثر سهولة؛ لأنّ الإيرانيين يفتقرون إلى الانضباط في عملية التشفير ولم يغيّروا من شفرتهم إلّا ما ندر. ومع ذلك، كان النموذج العراقي ذا مسار واحد، ولا سيّما أنّ الباسدران رفض استخدام التلفون أو وسائل الاتصال المعقّدة التي تستخدمها القيادة العسكرية العليا. ولذلك؛ لم يتم التقاط رسائلهم ولا فكّ شفرتها. كان

الحرس الثوري ولاهتمامه جداً بالسرية يعتمد بصورة كاملة على المراسلين المستقلين لنقل أوامرهم التي كانت على الدوام مكتوبةً باليد. ولذلك؛ كان العراقيون يحصلون على ما كان يخطّطه الجيش النظامي، ولكن كان من المستحيل معرفة ما كان يخطّطه الباسدران. ولم يكن ذلك مشكلة كبيرة لهم ما دام الجيش النظامي هو من يخطّط للهجمات الكبيرة، ولكن حالما يبدأ الباسدران هجومه الخاص به ودون مساندة الجيش فإنّ العراقيين يُصابون بالعمى والطرش مرةً أخرى ويفقدون قدرتهم على تحديد تحركات العدو.

حصل الإيرانيون في العام 1983 على أجهزة جديدة لشفرة T-450 التي حلّت تدريجياً محلّ أجهزةهم القديمة نوع T-52s. يمثلّ جهاز T-450s أنموذجاً حديثاً إلكتروني التشفير تماماً. كان ردّ العراقيين الفوري شراء كومبيوتر ياباني الصنع كفوء جداً للمساعدة في فكّ شفرة الرسائل التي يبعثها جهاز T-450s. واستدعى العراقيون أفضل الخبراء من جهاز المخابرات السوفيتية KGB لفكّ شفرة جهاز T-450's. وبالمقابل سلّمت بغداد الاتحاد السوفيتي طائرة فانثوم سليمة تقريباً التي هبطت على بطنها في العراق بعد أن تعرّضت لإصابة خفيفة بالدفاعات الجوية العراقية⁽¹⁾. وتسلمها المهندسون السوفيت لفكّ أسرار أنظمتها التسليحية والإلكترونية.

كيّف الإيرانيون أجهزةهم T-450 في عدة مناسبات. وفي كل وقت، ينتظر العراقيون أسابيع قليلة لتكييف واختراق شفرات العدو باستعانتهم بالخبراء السوفيت واليوغسلاف الذين تم استقدامهم برواتب عالية. وقد عُرِفَت هذه العملية لالتقاط شفرة الاتصالات الإيرانية وفكّها باسم "مشروع 858" الذي استخدم نحو 2500 من المحللين واللغويين والفنيين حتى نهاية الحرب. كان العامل الوحيد الذي حدّ من استخدام هذه المعلومات الهائلة قلة اللغويين والمحللين الذين يجيدون اللغة الفارسية. ففي بداية الحرب لم يكن في الجيش العراقي سوى ثلاثة أشخاص فقط يجيدون اللغة الفارسية بصورة جيدة واستغلال نتائج تجسسهم، وكل الثلاثة تم نقلهم إلى دائرة "إيران" في الاستخبارات العسكرية التي كان عدد العاملين فيها ستة أشخاص فقط. في العام 1983 تم تحويل هذه الدائرة إلى قسمٍ

1- Kevin Woods, Saddam's Generals , P.95.

يضمُّ أكثر من ثلاثين ضابطاً الذين درسوا فصلاً سريعاً باللغة الفارسية. وقد غرق هؤلاء الضباط في أكوام من الوثائق التي في الغالب يلقون عليها نظرة خاطفة؛ من أجل مواكبة التقارير الاستخبارية التي تصل إليهم. كانوا يعملون ثماني عشرة ساعة يومياً، وسبعة أيام في الأسبوع لمتابعة المعلومات التي قد تكون ذات أثر حساسٍ على مجريات الحرب. وعلى الرغم من ذلك، بقيت الكثير من الرسائل غير مستغلَّة لضيق الوقت وقلة المختصين باللغة الفارسية.

وبعد ثلاث سنوات أُقيمت بدلاً من قسم "إيران" في الاستخبارات العسكرية مديريةٌ يعمل فيها ثمانون مختصاً وبإشراف عدة آلاف من اللغويين وبرئاسة الجنرال وفيق السامرائي الذي سيؤدِّي دوراً مهماً في المجهود الحربي العراقي. ومثل رجاله العاملين معه، فهو لم يكافئ ولم يُعرف طيلة أيام الحرب لكي يتم تجنب الكشف عن هذه العملية المعروفة فقط لعدد محدود من حلقة مغلقة من العاملين. وكل المعلومات يتم تركيزها من الجنرال السامرائي ثم يتم رفعها إلى رئاسة الأركان للقوات المسلحة وإلى صدام حسين مباشرة. ولم يكن الضباط الكبار في رئاسة الأركان ولا الجنرالات الآخرون في هذه الحلقة طوعية. ومع لمسة من الملاحظة التي لا يمكن إنكارها أطلق الرئيس العراقي على هذه الحلقة تسمية "محمد"، مثلما تسلَّم النبي الكلمة الإلهية، تمكن الرئيس العراقي من قراءة الخطط الإيرانية من خلال فكِّ شفرة اتصالاتهم. وأنه يستطيع التأثير في جنرالاته من خلال التوضيح لهم أنه يستطيع قراءة أفكار العدو والتنبؤ بردود أفعالهم على الرغم من افتقاره إلى الخلفية العسكرية. وبفعله هذا تمكَّن من زرع الخوف فيهم وتشديد قبضته على الجيش. كان الضباط يتخوفون أنه إذا تمكن صدام الحصول على نزع استثنائية من الحرس فسيسمح له بطي خطط العدو، وربما باستطاعته أن يقرأ ما يجول بخاطر الناس ويشخص المنافقين والخونة في معسكره الخاص به. وبعد سقوط الدكتاتور في العام 2003 أوضح الضباط العراقيون الذين استجوبهم الأمريكيون أنهم مقتنعون أن صداماً يملك قوى خارجة عن الإدراك الحسي العادي التي تسمح له بقراءة عقول جنرالاته كأنما يقرأ في كتاب مفتوح⁽¹⁾.

1 - رشيد الحمداني في كتاب Wood, Saddam's Generals, P. 60.

تسارع التدريب

وبينما يحاول صدام حسين التأثير في جنرالاته، بدأ بتطوير اهتماماته الحقيقية بالقضايا العسكرية. كان مقتنعاً أنه بحاجة إلى فهم أفضل لإتقان معايير الحرب التي بدورها تسمح له بتقييم ملاءمة الخطط التي يقترحها. طلب من ابن خاله ووزير دفاعه عدنان خير الله مساعدته في فهم التفكير العسكري بسرعة. وفي كل يوم كان عدنان خير الله يشاركه في بعض خبرته العسكرية. وطلب الرئيس العراقي من كل شخص تحدث عن غزارة التفاصيل المتعلقة بتنظيم العمليات وإدارتها، ألا يتردد في حملها مع أسئلة أساسية تسمح له بالتعلم "عن العمل". وكما تم سماعه من التسجيلات التي استولى عليها الأمريكان في بغداد عام 2003، فإن السؤال "لماذا" أصبح فكرةً مهيمنةً في مناقشاته مع رئاسة الأركان. وخلال شهر تعلم صدام وبدأ يدرك فهمًا عميقًا في الشؤون العسكرية، ويشعر بعدم الندم في تصحيح جنرالاته وتعديل خططهم وطبعها بختمه. وعلى الرغم من أنه لم يكن قادرًا على فرض نفسه مخططًا استراتيجيًا، لكنه أثبت في بعض الأوقات أنه تكتيكي أصيل.

أدرك صدام حسين في هذه الفترة أنه بحاجة إلى الاعتماد مجموعة من الضباط المحترفين الذين يديرون مسار العمليات. ولذلك؛ قام بترقية الضباط الشباب الموهوبين والضباط الكبار الذين أثبتوا جدارتهم في الحرب إلى مواقع القيادة، ولم يكن من بينهم أعضاء في حزب البعث⁽¹⁾. وعيّن عددًا من الجنرالات الذين يتمتعون بمكانة متميزة في المؤسسة العسكرية في المواقع الحساسة: أصبح ماهر عبد الرشيد قائدًا للفيلق الثالث بعد أن أبدى قتالًا جيدًا في كردستان، ومسؤولاً عن قاطع البصرة الحساس، وأصبح خالد داود نادر قائدًا لفيلق المهندسين وتولّى مسؤولية تعزيز الدفاعات العراقية، وتعيين علاء الدين

1- والملاحظ أن العقيد رشيد الحمداني من أوائل الضباط الذين أسندت إليهم قيادة الحرس الجمهوري ولم يكن عضوًا في حزب البعث. وتمت ترفيقه إلى رتبة عقيد عند نهاية الحرب، ثم سيقود فرقة حمورابي المدرعة. وأصبح أيضًا من المستشارين العسكريين القلائل الذين يرغب صدام حسين بالإصغاء إليهم.

خماس للإشراف على تدريب القوات وتطوير عقيدة قتالية جديدة للجيش العراقي. وعيّن أيضًا الجنرالات من الصف الأول مثل: سلطان هاشم، إياد فتيح الراوي، إياد خليل زكي، سالم علي، في قيادات الفرق المدرعة والآلية. ومع ذلك، احتفظ ببعض الجنرالات الذين أثبتوا اعتدالهم وتفانوا في إخلاصهم له. والشخصية الأكثر تمثيلًا لهذه المجموعة طالع الدوري الذي كان من أسوأ الجنرالات في الجيش العراقي كله - وبالتأكيد واحداً من أكثر المتعاطشين للدماء وغير الكفوئين - ولكنه بقي واحداً من أكثر أصحاب صدّام وفاءً له.

وامتدّد تدخل الدكتاتور إلى شؤون عائلته أيضًا، أراد ابنه الأكبر عدي الدخول إلى أكاديمية القوة الجوية ليصبح طيارًا مقاتلاً. وعلى الرغم من أنّ عدي صدام حسين معروف أنّه مريضٌ نفسيًا غير لائق للخدمة الجوية، تدخّل والده للسماح له بالتسجيل في فصل التدريب ليصبح طيارًا على طائرات الهليكوبتر الهجومية في الحرس الجمهوري. وتحليقه على طائرة ميغ-23 مثل سياقة سياراته في السباق، أربع عدي رفاقه حيث رفض الكثير منهم الطيران معه. وتدخّل قائد القوة الجوية شخصيًا لإقناعه بالتخلي عن هذه المهمة. وكجائزة ترضية له، سمح لعدي أن يكون أحد الرماة المؤقتين من طائرة الهليكوبتر وأسهم في بعض المهمّات الأقل خطورة في نهاية الحرب بضرب بعض أرتال الباسدران الهاربين.

الاستخبارات الشخصية

كان لدى الاستخبارات في الجيش العراقي وسائل غير الأنظمة الإلكترونية لجمع المعلومات حول العدو، بل استخدمت العدد المتزايد من اللاجئيين والهاربين من الخدمة العسكرية الإيرانيين. فقد أجبر الاضطهاد الوحشي بعض الكرد و"العرب" الإيرانيين على اللجوء إلى العراق. رأى هؤلاء الكثير. ويجيدون اللغة الفارسية، وباستطاعتهم ترجمة الصحافة الفارسية وخطب الجمعة. ويمثّل هؤلاء مصادر مفتوحة وتوفر معلومات حيوية، فالصحافة الإيرانية مليئة بأخبار المعارك التي تثير الحماسة الوطنية. كان أحد المصادر الكبرى للاستخبارات العسكرية العراقية تجنيد أحد الضباط

الإيرانيين الكبار في القوّة الجوية الذي يصطاف في تركيا. سمحت المعلومات التي كان يسربها للعراقيين أن يواجهوا بصورة أكثر فعالية تفوق المقاتلات الإيرانية⁽¹⁾. واحتفظ العراقيون بسرية هويّته لحماية عائلته من الانتقام.

وكان يعتمد رجال الجنرال السامرائي على 400 من قواتهم المنتمية إلى الوحدة 888 المسؤولين عن جمع المعلومات والمهمات خلف خطوط العدو⁽²⁾. هؤلاء النخبة من الجنود الذين تدربوا على الاختباء في البقع الأكثر إزعاجاً ولأيام متعدّدة لاستيعاب تحركات العدو، وتنفيذ مهمات تخريبية، وفي أغلب الأحيان ضد المنشآت النفطية. أسهمت عملياتهم في تمزيق القنوات السوقية، وتقليص الحماية على حقول النفط البعيدة عن الجبهة. ومن أجل تحسين معرفتهم بالاستعدادات العسكرية الإيرانية، استخدم المحللون العراقيون الصور التي تلتقطها طائرات الميغ-25 للمراقبة التي تحلّق فوق الجبهة على ارتفاعات عالية، وصور الأقمار الصناعية التي يُقتر الكرملين في تسليمها للعراق. وفي بداية صيف عام 1986 بدؤوا يتسلّمون الصور المرسلة من الأقمار الصناعية التجارية الفرنسية المعروفة باسم Spot، ويبدو بالاتفاق مع المديرية العامّة للأمن الخارجي الفرنسية التي سمحت للعراقيين تحديث خرائطهم للمسح الجيولوجي⁽³⁾.

والإيرانيون لديهم وسائل محدّدة الاتجاهات على العراقيين، ولا سيّما من خلال أنظمة التنصّت الإلكتروني التي سبق وأن نصبها للشاه وكالات المخابرات الأمريكية والاستخبارات الدفاعية للتجسس على العراق. وهذه الأنظمة تعتمد على محطتين أرضيتين في كردستان وجبال زاكروس، حيث بإمكانهما تسلّم التردّدات العسكرية من فوق الحدود العراقية ومن ثلاث طائرات C-130 تم تطويرها لالتقاط الإشارات الإلكترونية. استخدمت هذه الطائرات نوع هيراكلس كاميرات مائلة قوية لمراقبة الأراضي العراقية بينما تبقى في

1 - مقابلة مع الجنرال الطرفة . Wood, Saddam's Generals, P.98.

2 - تغيير اسم الوحدة إلى الوحدة 999 في ربيع عام 1984.

3 - استناداً إلى التسجيل الصوتي 076-SH-GIMD-D-000، المؤرخ في 17 حزيران 1986:

الأجواء الإيرانية⁽¹⁾. ومع ذلك، أغلب الفنيين المستخدمين في إدارة المحطات الأرضية والطائرات الثلاث إمّا هاجروا أو سجنوا بعد الثورة. وعند اندلاع المعارك أطلق النظام الإيراني سراح بعض الفنيين ودربَ عددًا قليلًا منهم، ولكن لم يكن ذلك كافيًا، كان جهاز الرصد الإيراني عالقًا في الحياد خلال فترة الحرب. وفشل الإيرانيون في اختراق شفرات الجيش العراقي، وأرسلوا طائرات الفانتوم في مهمّات استطلاع خطيرة فوق أراضي العدو في محاولة لجمع معلومات أكثر، ممّا أدّى إلى فقد ستّ طائرات على الأقل في مثل هذه المهمات. وعلى خلاف العراقيين، أرسل الإيرانيون قوةً صغيرةً لتسلل خلف خطوط العدو؛ بسبب كثافة شبكة الدفاعات العراقية، وبسبب أنّ نموذج عملياتهم لا يتطلّب هذا النوع من الإجراءات. فالمخابرات الإيرانية لديها ما يكفي من المصادر من بين المناوئين لنظام بغداد، ولا سيّما من الكرد والشيعية والهاربين من الخدمة العسكرية، وكذلك أسرى الحرب الذين تمّ تعذيبهم وإرعايبهم دون رحمة؛ من أجل الحصول على المعلومات الحسّاسة. وقد أعطي السجناء الذين تعاونوا إمكانية الزواج من النساء الإيرانيات، والراغبون منهم انخرط في فيلق بدر الذي تشكّل من المبعدين العراقيين، والذين أرسلوا إلى الجبهة في بعض الهجومات الكبيرة والمحددة، والقليل من نجا منهم.

ورقة مساومة

كان الجيش العراقي في كانون الثاني 1984 بالكامل يتحصّن على الجبهة في موقف دفاعي على طول جبهة تبلغ 745 ميلًا (1200 كيلومتر). ويضمُّ هذا الخط السيطرة على دوزينة من الأميال المربعة من الأراضي الإيرانية، وبصورة رئيسة حول قصر شيرين. ومن جانب آخر، يسيطر الإيرانيون على عدة مواطن قدم في كردستان العراق، وكذلك في قاطعي مهران والفكة. يحاول الاستراتيجيون الإيرانيون الآن تقرير أين سيهاجمون لإخضاع نظام

1- تم إخبار المؤلف في واشنطن في يوم 27 تشرين الأول 2011 من قبل جورج كيف George Cave مدير محطة المخابرات المركزية الأمريكية بطهران في وقت اندلاع الثورة الإيرانية.

صدّام حسين وإركاعه. كان أمامهم أربعة خيارات: الأول شنُّ هجوم شامل في كردستان العراق بهدف الاستيلاء على حقول النفط وقطع أنبوب كركوك - دورتيول للنفط وتجفيف الموارد المالية للعراق. ويواجه هذا الخيار صعوبتين كبيرتين: الأولى عدم امتلاك الجيش الإيراني الوسائل لاقتحام هذه المنطقة الجبلية التي يمكن الدفاع عنها بسهولة، والثانية إنَّ أيَّ تهديد للأنبوب العراقي - التركي يعني بالضرورة الحرب على أنقرة التي هي بحاجة ماسّة إلى عوائده لإنعاش اقتصادها، فضلاً عن أنَّ إيران تعتمد اقتصادياً على تركيا ولا تستطيع المخاطرة بالابتعاد عنها.

والخيار الثاني يكون بضرب النظام العراقي في عرينه، والهجوم باتجاه بغداد، وهذا يستدعي أن يكون هجوماً بالآليات بالضرورة، ويمكن اعتماده إذا توافر الغطاء الجوي الضخم، والعدد الكبير من الدبابات، والمدفعية الذاتية الدفع، وصواريخ متنوعة، وهذا كلُّه ما تفتقر إليه القوات الإيرانية الآن. ومن دون توفر هذه الموارد فإنَّ تصوُّر أيِّ عملية ستحوّل إلى كارثة، وعلى طهران أن تضع هذه الخطة على الرفِّ في هذا الوقت.

أمَّا الخيار الثالث؛ فيدور حول السيطرة على البصرة التي حولها العراقيون إلى قلعة، وتبدو آنذاك بعيدة عن الوصول؛ لأنَّ الجيش الإيراني يمكنه الوصول إليها إذا استطاع عبور شطِّ العرب ومهاجمة المدينة من الخلف، ولكنّه لا يملك إمكانيات هندسية كافية لإرسال قوات كافية لعبور الشط.

بقي حلٌّ واحدٌ: الحصول على مكاسب أرضية حيوية كافية لتبرير استمرار الحرب وإجبار العراق على التفاوض. وما الذي أفضل من الحقول النفطية؟ وحتى الآن هناك حاجة للوصول إليها. بالطبع ليس من ضمنها حقول كردستان، ولا تلك الواقعة في جنوب غرب البصرة بالقرب من الحدود مع الكويت. إنَّ الحقول المنتشرة بالقرب من الأهوار في شمال البصرة تمثل أهدافاً مثالية. ولذلك؛ قرّرت القيادة العسكرية الإيرانية العليا في أواخر شهر كانون الثاني الاستيلاء عليها. ومن أجل الوصول إليها حشدت ثلثي قواتها المسلحة، أي 400 ألف جندي في خمس عشرة فرقة، ووضع خطة معقّدة لتضليل العدو عن الهدف النهائي للهجوم.

شنت إيران في 12 شباط 1984 عملياتها العسكرية "تحرير القدس" في كردستان العراق في قاطع نوسود لتضليل الجنرالات العراقيين وجعلهم يرسلون تعزيزاتهم إلى الشمال. وفي خضم عاصفة ثلجية عبرت فرقة من الباسدران مدربة على القتال في المناطق الجبلية بصورة خاصة ممر نوسود وتغلبت على القوات العراقية قليلة الخبرة بظروف الشتاء الباردة، وأقامت موطن قدم جديد لها على الأراضي العراقية. وبدعم من كتيبة بيشمركة تابعة للأخوين برزاني تقدمت الفرقة نحو تسعة أميال (15 كيلومتراً) باتجاه حلبجة وسد دربندخان الذي يمدُّ منطقة بغداد بالطاقة. ولكنها أوقفت بسرعة نتيجة هجوم عراقي شرس مضاد الذي منعها من الاستيلاء على أهدافها الاثنين. ومع ذلك، الإيرانيون يسيطرون الآن على ممرات رئيسة ثلاثة تسمح لهم بالتوغُّل في كردستان العراق. وشدّدوا من قبضتهم على محافظاتهم الكردية، حيث تمّ التضيق على عبد الرحمن قاسم للقيام بعمليات مضايقة فقط. كان ردُّ الفعل العراقي حذراً، وكانت قراراتهم يتمُّ إبلاغها من خلال اختراقاتهم لاتصالات العدو، واختاروا ألا يرسلوا أية تعزيزات إضافية؛ لأنهم كانوا مقتنعين أنهم سيواجهون هجوماً كبيراً في مكان ما.

شنت القيادة العسكرية العليا الإيرانية هجوماً التفافياً في منتصف شهر شباط، وهذه المرة في القاطع الأوسط من الجبهة، حيث شاركت ثلاث فرق من المشاة في يوم 16 شباط في هجوم الفجر الخامس باتجاه مدينة الكوت. كان العراقيون متحصنين جيداً في مواضعهم وتمكّنوا من صدِّ كلِّ الموجات المهاجمة المتعاقبة ولمدة خمسة أيام. وفي يوم 21 من الشهر حاولت فرقتان آليتان إيرانيتان شنَّ هجوم الفجر السادس باتجاه مدينة علي الغربي الواقعة على نهر دجلة، التي تبعد خمسة عشر ميلاً (25 كيلومتراً) فقط عن الحدود. كان العراقيون على استعدادٍ لهم. مرةً أخرى توقّف رجال المشاة الإيرانيون أمام مواضعهم في الجبهة؛ بسبب نيران المدفعية الآلية المفاجئ والعنيف، وضربات الهاون والدبابات الدقيقة التي أوقفتهم كالموتى. كانت الخسائر في المعسكر الإيراني فادحةً إن لم تكن مميتة، وأصرت القيادة العسكرية العليا العراقية على عدم إرسال أية تعزيزات من القطاعات الأخرى، لم يكن لدى طهران أية فكرة أن مروغتها قد فشلت.

وشنت القيادة العسكرية الإيرانية العليا في يوم 22 شباط 1984 هجومها "خيبر"، وهو اسم الحصن العربي الذي فتحه النبي محمد قبل سنة من دخوله منتصراً بمكة. كان الهدف الرئيس من هجوم خيبر السيطرة على حقول النفط في جزيرة مجنون، فضلاً عن قطع طريق بغداد - بصرة في المنطقة بين العمارة والقرنة. كانت أهوار الحويزة ميدان هذه العملية العسكرية وتمتدُّ من الحدود حتى الوصول إلى نهر دجلة. يقطن هذه المنطقة سكان الأهوار العرب المعدمون، والعشائر العربية المحاذية للأهوار من صيادي الأسماك المنسيين من النظام. وهؤلاء الشيعة المحليون مهذدون قبل كل شيء من الصناعة النفطية التي تحشد لتجفيف الأهوار. وحتى ذلك الوقت، كان التجفيف ينحصر في شريط ضيق ولأميال قليلة (بضعة كيلومترات) تسمح للدبابات بالدوران على طول الضفة الشرقية لنهر دجلة. أغرقت القوات العسكرية بقية المنطقة لوقف أي خرق إيراني كبير في المنطقة المحصورة بين الهارثة والعمارة، حيث احتفظت بدفاعات محدودة في هذا القاطع الذي لا يمكن اجتيازه. ولذلك؛ اختار الاستراتيجيون الإيرانيون لمهاجمة هذه المنطقة بالذات، وعلى أمل استغلال واحدة من أضعف النقاط في الدفاعات العراقية. يبدو أن اختيارهم كان حكيمًا؛ لأنَّ هذه المنطقة تقع بين منطقتي انتشار الفيلقين الثالث والرابع، ويأمل الإيرانيون أنَّ قائدي الفيلقين سيضيعان الوقت الثمين بتحميل مسؤولية المواجهة بين أحدهم للآخر. وبالنظر للمخاطر في الميدان، حشد الإيرانيون ست فرق مشاة، واحتفظوا بثلاث أخرى احتياطًا.

رأس الجنرال علي جلالی نائب قائد القوات البرية الإيرانية عملية خيبر شخصيًا، وباركه آية الله الخميني وشجَّعه رفسنجاني، وأوضح قاطعًا أنَّه لا يتحمَّل الفشل. ولأجل تنفيذ العملية، قسَّم الجنرال جلالی قواته إلى ثلاث مجموعات، كلُّ مجموعة تتكوَّن من فرقتين، وكلُّ فرقة منهما تم تكليفها بالاستيلاء على هدف وسط. والفرقتان الأوليتان ستغلل في العراق إلى الشمال والجنوب من الأهوار ليسمحا للفرقة الثالثة الاستيلاء بسهولة على المنشآت النفطية الواقعة في وسط الجزيرة، بقي العراقيون متحيرين حول الأهداف الحقيقية والتكتيكات الإيرانية ذات العلاقة، على الرغم من أنَّ الرسائل الإيرانية تم فكُّ شفرتها،

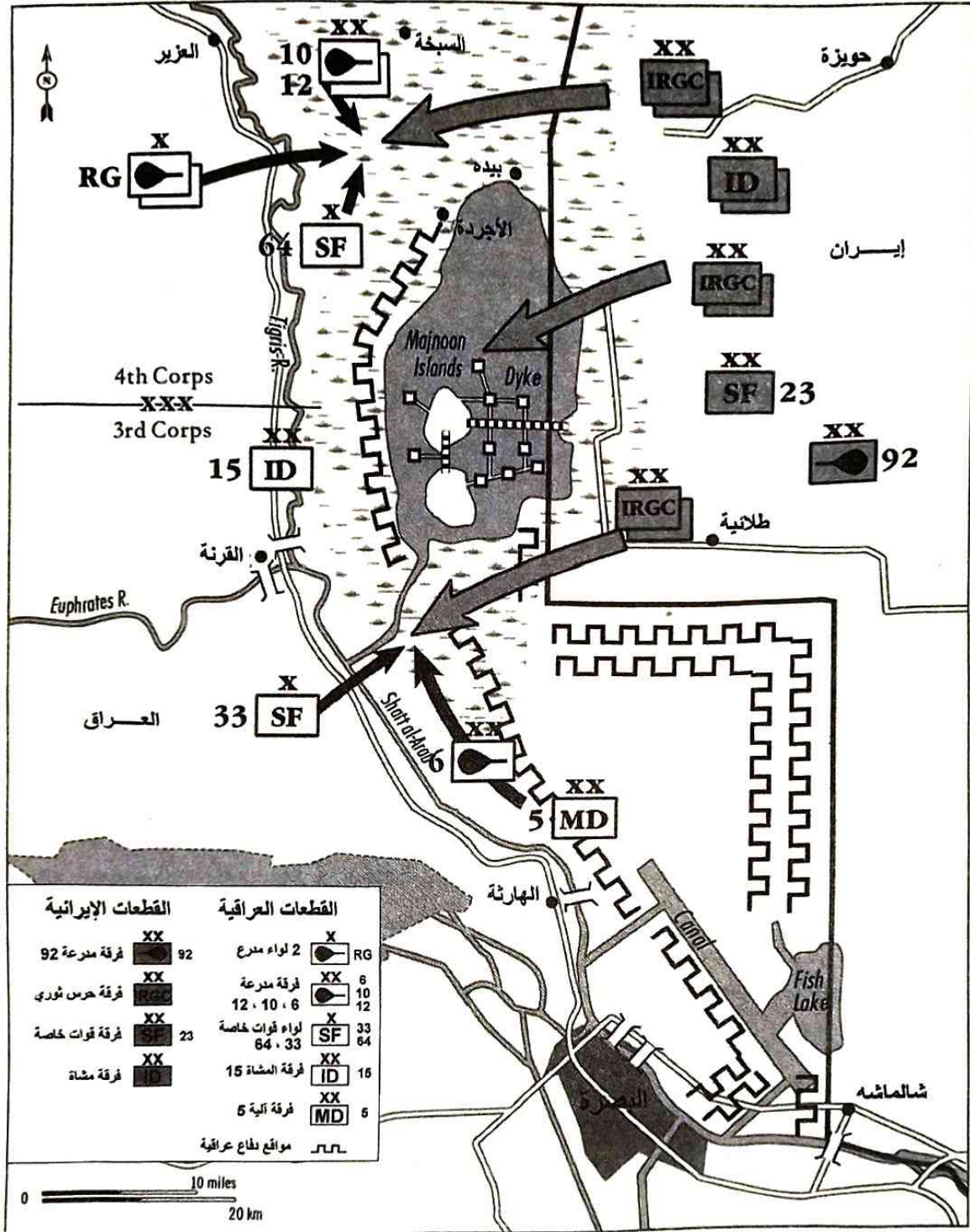
ولا سيَّما أنَّ أربعة أحماس القوات المخصَّصة للعملية كانت من الباسدران التي لم تستخدم أيًا من وسائل اتصالات رئاسة الأركان.

الإيرانيون يستولون على جزر مجنون

هجم الإيرانيون في ليلة 22-23 شباط 1984 مستفيدين من نزول الضباب الكثيف الذي أخفى تقدمهم والمطر الغزير الذي أبقى أغلب القوات العراقية في مواضعها. وباستخدامهم مجاميع من القوارب المعدنية، كلُّ قارب يحمل مئة مقاتل عبرت مجموعات المناورة الشمالية من الفرقتين الحدودَ إلى الغرب من الحويزة وسيطرت على القرى المحاذية للأهوار، وهما البيضاء، والسبخة، والجرءاء التي تركها العراقيون من دون حماية. واستمرُّوا في تقدمهم ويارشاد من بعض السكان المحليين عبر الطرق الترابية التي تربط جزر الصيد الصغيرة. وخلال ستِّ وثلاثين ساعةً وصلت طلائع الفرقتين إلى حافات الأهوار على بعد ميلين إلى الشرق من نهر دجلة في المنطقة الواقعة بين القرنة والعزير. أقام الباسدران موطئ قدم مباشرة في هذه المنطقة الرملية بمساحة ميلين مربعين، ثمَّ أرسل قوة استطلاع باتجاه النهر لقطع المرور على طريق بغداد - بصرة. وفي هذه الحالة، كان ينقصهم الدعم، وكانت أسلحتهم الثقيلة عبارة عن مجرد بنادق آلية وهاونات يحملونها على ظهورهم أو في قواربهم. إنَّ قذائفهم RPG-7 تستطيع إبطاء هجوم الدبابات المضاد، ولكن لا توقفه.

أمَّا مجموعتا مناورة الجنوب من فرقتي المشاة؛ فقد تغلغلت في الأراضي العراقية من طريق الأهوار وتوجَّهت نحو شطِّ العرب وتحت غطاء من الضباب الكثيف، وأصبحوا في الحال أمام خطوط الدفاع التي بناها فيلق المهندسين العسكريين العراقي لحماية منطقة المثلث الواقعة بين الحدود الدولية وبحيرة الأسماك وجزر مجنون المحمية من فرقتي مشاة متحصَّنة بقوة خلف خنادق المدفعية المضادة للدبابات والتلال المجهزة بأحدث معدات الرصد. ولعدَّة أيَّام تمكَّن جنود المشاة العراقيين في هذا القاطع من صدِّ هجمات الموجات البشرية المتعاقبة. وأخيرًا، تمكَّن الباسدران من إحداث خرق بطول ميلين (3 كيلومترات)

في الخطوط العراقية في جنوب جزر مجنون والوصول إلى نهر المياه العذبة التي تربط الجزر بنهر الفرات.



خارطة معركة الأهوار الأولى (22 شباط - 12 آذار)

وفي غضون ذلك، استطاعت مجموعة "الوسط" من فرقتي المناورة الجنوبية اجتياز حافّات الأهوار، وعبرت الهور على متن أسطول من القوارب الصغيرة، واستولت على جزر مجنون دون أن تطلق رصاصة واحدة. وهاتان الجزيرتان الرمليتان تضمّان المنشآت النفطية الرئيسية لشركة برازيلية كانت تستغلّ تلك الحقول لعدة سنوات سابقة، تبلغ مساحة كلّ جزيرة نحو عشرة أميال، وتم معرفتها من خلال أبراج استخراج النفط المعدنية، وهذه الجزر محاطة بسدود ترابية متعدّدة، وجزر ترابية صغيرة تُستخدمُ قاعدةً لحفر آبار النفط. تحرس هذه المنشآت هناك حامية عسكرية اسمية بعد توقف الإنتاج؛ بسبب تدمير منصتي التصدير الساحليتين في ميناء البكر والعُمية اللتين ترتبطان بمستودعات النفط في الجزر. تخندق الباسدران بقوة هناك مستفيدين من الكثير من الممرّات المائية التي تربط الجزيرتين بالجزر الصغيرة التي تضمّ الآبار النفطية، واستعدوا لصدّ أيّة هجمات مضادة عراقية.

وبعد لحظات من الارتباك، أمر الجنرالات العراقيون إرسال كلّ ما يتوافر لديهم من تعزيزات إلى الأهوار. وفي البصرة أرسل رئيس أركان الفيلق الثالث الجنرال فوزي حميد العلي قوة استطلاع تتكوّن من لواء الدبابات T-62 وبمرافقة كتيبتين آليتين إلى المنطقة لتقييم حجم الخرق الإيراني هناك، ومحاولة احتوائه. ونشّر الفيلق الرابع أحد ألويته المدرعة لتأمين الطريق بين العمارة والقرنة. وفي الساعات الأخيرة من العصر اشتبكت هذه الوحدات مع طليعة القوات الإيرانية، حيث دارت معارك شرسة حول موطئ القدم الإيراني. انتشرت الدبابات العراقية T-62 في كلّ الاتجاهات وسحقت كلّ مواضع الباسدران التي حفروها في الرمال، ثمّ نزل الجنود المشاة لمطاردة من تبقى وإجبارهم على العودة إلى الأهوار. وتابعتهم نحو 30 دبابة، ولكن سرعان ما غاصت بين القصب ممّا جعلها أهدافاً سهلةً للتعزيزات الإيرانية التي كانت تصل بموجات مستمرة ومتعاقبة. وصدرت الأوامر لطواقم الدبابات بتخريبها والانضمام إلى رفاقهم الذين اتخذوا مواقعهم على حافّات الأهوار. وفي اليوم التالي، انضموا مع لواء المغاوير، ثمّ مع طلائع الفرقة المدرعة العاشرة التي أرسلت كتعزيزات.

وإلى الجنوب، شنت مدفعية BMP-1s من الفرقة الخامسة الآلية ودبابات T-62 من الفرقة المدرعة السادسة هجومًا مضادًا شرسًا وبدعم من مدفعية وطائرات Mi-24s والغيزال

التي حلقت فوق ميدان المعارك، حيث قصفت بقوة أرتال الباسدران. ونقلت طائرات الهليكوبتر لواء المغاوير لمناطق قريبة لتعزيز الفرقتين الخامسة والسادسة. ولكن كتائب المشاة المتخذقة على جزر مجنون تخلّصت من بطاريات المدافع العراقية، وانتهزت هذه الفرصة لتعزيز مواضعهم، وبدؤوا ببناء متاريس من المواد المتوافرة في المناطق القريبة بواسطة القوارب والهليكوبتر. وبنوا جسراً عائماً يمتد لمسافة ستة أميال (نحو 10 كيلومترات) بين جزر مجنون والأراضي الإيرانية؛ لتسهيل وصول الإمدادات. أصبح هذا الجسر العائم هدفاً للمدفعية العراقية، وكلُّ جزء يُدمر يستبدلونه بصورة منتظمة، ممّا يسمح باستمرار وصول الإمدادات إلى فرقتي المشاة المتخذقتين على الجزر.

وفي يوم 29 شباط 1984 قرّرت القيادة العسكرية الإيرانية العليا حشد كلِّ قواتها الاحتياطية، في محاولة للاحتفاظ بالمواقع التي استولت عليها. فقد وصلت الفرق الثلاث التي حُشدت لعملية خبير (وبضمنها فرقة القوات الخاصة 23) إلى المنطقة ويدعم من دبابات الفرقة المدرعة 92 لتعزيز جبهة الأهوار الممتدة لمسافة ثلاثين ميلاً (50 كيلومتراً). فوجئ العراقيون بالموقف، حيث خسروا بعض الأرض قبل أن يمسك بالوضع. فتشّ الجنرال عدنان خير الله الجبهة واتخذ ثلاث قرارات. يجب إرسال الحرس الجمهوري إلى الجبهة لتحفيز القوات التي تهزُّ عزيمة الإيرانيين، أي الأسلحة الكيماوية التي تُستخدم لصدِّ العدو، وأن يتم تشغيل خط الكهرباء العالي التوتر الذي يلي نهر دجلة وتحويله إلى الأهوار؛ لصعق المقاتلين الإيرانيين بالكهرباء، ولا سيّما أولئك الذين يشقون طريقهم عبر وحل المياه العميقة. وفي بداية عصر ذلك اليوم، حلقت طائرات تدريب PC-7 التي تمّ تسلّمها مؤخراً من سويسرا فوق ميدان المعركة على ارتفاع منخفض، ويشبهان الطائرات الخاصة المنتظمة ويرشّان غاز الأعصاب نوع Tabun فوق المواضع الإيرانية⁽¹⁾. وقصفت المدفعية العراقية الأهوار بالأسلحة الكيماوية المشتقة من غاز الخردل المعروف باستخدامه خلال الحرب العالمية الأولى. وبوقت متزامنٍ أطلق العراقيون موجات كهربائية بقوة 200 ألف

1- تم تجميع هذه الطائرات في السرب 107، وأضيفت إليها خزانات وقود إضافية ومجهزة بنظام تطبيق جوي يطابق النظام المستخدم في الطائرات الزراعية.

فولت في الأهوار بالقرب من موطن القدم الإيراني. وهذه الإجراءات المختلطة زرعت الارتباك بين صفوف الإيرانيين. وخلال ساعات قليلة، آلاف من الإيرانيين إما تم صعقهم بالكهرباء أو الاختناق والغرق في الأهوار. تمكنت الدبابات العراقية من مطاردة أولئك الذين حاولوا الهرب من المنطقة. كان الجنرال محمد إبراهيم حمات أحد الضحايا الذي تميَّز بقتاله مع حزب الله بلبنان. وبعد يومين حينما اعتقد العراقيون أنَّ الأسلحة الكيماوية تبددت في الجو قام العراقيون بهجومهم المضاد باتجاه الحدود وهم يضعون الأقنعة المضادة للغازات على وجوههم، وتمكنوا من استئصال آخر جيوب المقاومة وهم يشقون طريقهم بين آلاف الجثث الطافية على سطح الماء.

كان الجنرال ماهر عبد الرشيد يسيطر على الوضع في الجنوب أيضًا، حيث تمكنت الفرقتان الخامسة والسادسة من صدِّ الباسدران الذين اخترقوا خطوط القوات العراقية باستخدامه الأسلحة الكيماوية. وعلى الرغم من عدم ملاءمة اتجاه الرياح التي قللت من تأثير تلك الأسلحة، لكنَّ رجال المشاة الإيرانيين لم يمتلكوا بعد أقنعة حماية ويهربون حالما يرون غيوم الغاز، والكثير منهم من تعرَّض للقتل من وحدات الأمن الإيرانية في الخلف التي تمنع تراجعهم. وآخرون حاولوا الهرب باتجاه الأهوار، ولكنهم لا قوا المصير نفسه من إخوانهم في الدين.

وخلال عشرة أيام تمكن العراقيون وبشكل ممنهج من استعادة أغلب الأراضي التي خسروها في البداية وبدعم من المدفعية التي كانت تطلق قذائفها الفسفورية التي تحرق أجسام العدو بشكل مرعب. بقيت جزر مجنون فقط بيد الإيرانيين، حيث تتخندق قواتهم هناك بشكل محكم. ففي كلِّ ليلة كانت طائرات الشينوك تنقل التعزيزات من الباسدران إلى الجزر، وتُخلي جرحى اليوم. والعراقيون لا يمتلكون القوارب ولا الوسائط البرمائية لاستعادة الجزر. وحاولوا أيضًا استخدام طائرات الهليكوبتر في الهجوم، ولكن تحوَّلت تلك المحاولة إلى كارثة حينما تمكنت الدفاعات الإيرانية المنصوبة على القوارب حول الجزر من إسقاط كلِّ طائرات الهليكوبتر Mi-8s الثماني التي تمَّ تخصيصها للعملية.

لم يملك العراقيون في هذا الوقت خيارًا سوى تمديد خطّ دفاعاتهم على حافات الأهوار وعلى طول ضفة نهر دجلة. وأصبح الدفاع عن الجزر قضيةً وطنيةً للنظام الإيراني الذي أرسل أفضل قواته من كتائب المشاة، وآخر صواريخه سام-7 المحمولة، والمدفعية الخفيفة، والأكثر أهمية القليل من الأقنعة المضادة للغازات، والبذلات الواقية من الأسلحة الكيميائية المتوافرة لديه. وسافر رئيس الجمهورية محمد خاتمي إلى الساحل الإيراني من الأهوار لتشجيع المقاتلين المسؤولين عن الدفاع عن خمسين بئر نفط هناك يسيطر عليها الباسدران.

وفي 12 آذار 1984، أدركت القيادة العسكرية العليا العراقية أنّها لا تستطيع إبعاد الإيرانيين من جزر مجنون، وأدعت انتهاء "معركة الأهوار الأولى". وإجمالاً، كانت نتائج المعارك في صالحهم: من المحتمل تم قتل 20 ألف إيراني بالغازات السامة أو بالصعقات الكهربائية، و30 ألف جريح تقريباً، وأسر ما يقرب من ألف. أمّا على الجانب العراقي؛ فقد خسر ثلاثة آلاف قتيل، وتسعة آلاف جريح، وتدمير ستين دبابة. وفوق ذلك فإنّهم خسروا مجرد سدس احتياطهم النفطي. ولحسن الحظ، الزيادة في طاقة خط كركوك - دورتيول، والتقدم السريع في بناء الأنبوب الناقل للنفط الذي يربط حقول النفط بجنوب العراق بخطّ بترولابن السعودي عوّض بصورة عامة تلك الخسارة وسمح لبغداد زيادة طاقتها التصديرية بنسبة 20٪ (إلى 850 ألف برميل يومياً) مقابل تصدير إيران من النفط 1,9 ألف برميل يومياً. وفي طهران وجّه مساندو الجيش النظامي النقد لاستخدام الموجات البشرية الذي يعدّونه أسلوباً أحرق وعديم الفائدة وخطراً. ويرون أنّ القيام بهجوم جديد يعدّ انتحاراً ما دام إيران لم تجد سبلاً لتأمين أسلحة معقدة مضادة للدبابات وللصواريخ التي تفتقدها بقوة. أمّا بالنسبة إلى الباسدران؛ فقد ندموا؛ لأنّهم رفضوا منحهم دباباتهم ومدفيعتهم للجيش النظامي. وانتقدوا الطيارين الإيرانيين الذين لم يغطّوا انسحابهم. وفي محاولة منه لاحتواء الجدل، مدح رفسنجاني تصريحات الباسدران، وصرّح مؤكداً "أنّ السيطرة على حقول نفط جزر مجنون يضمن لنا احتياطات نفط كافية لتعويض أضرار الحرب التي سببها العدو"⁽¹⁾.

1 - صحيفة لوموند في 30 آذار 1984.

ولذلك؛ أصرَّ على الاستمرار بالهجمات؛ لأنه مقتنعٌ أنَّ النظام العراقي على وشك الانهيار، وأنَّه يترنح أمام الضربة القاضية. ولم يؤيده في ذلك مجلس الدفاع الأعلى في الحال، بل وافق على وضع نهاية للهجمات الكبيرة والعودة إلى حرب الخنادق بأربعة أخماس القوات، وإلغاء كلِّ الهجمات الواسعة النطاق المخططة لفصلي الربيع والصيف.

وفي غضون ذلك، رفض صدام حسين القيام بأيِّ هجوم يمكن أن يُظهر العراق أكثر من ضحية للأصولية الإيرانية. ولذلك، بقيت الجبهة طوال السنة التالية هادئة نسبياً تتخللها بعض رشقات المدفعية من وقت لآخر فقط، وبعض الاشتباكات بين قوات الاستطلاع (بصورة رئيسة في كردستان العراق)، وعملية منفردة ومحدودة (الفجر 7 خلال الفترة 18-22 تشرين الأول 1984) شملت فرقتين من الجيش النظامي في قاطع مهران. ومرةً أخرى، إذا يتمكَّن العراقيون من فكِّ شفرة الرسائل الإيرانية سيتمكنون من صدِّ هجماتهم بسهولة.

وانتهز كلا الطرفين هذا الهدوء لتعزيز ترتيبات المعركة. شكَّل العراقيون فيلقين عسكريين جديدين، السادس بقيادة الجنرال فخري ومهمته الدفاع عن قاطع جزر مجنون، والسابع بقيادة الجنرال شوكت الذي استبدل الفيلق الخامس بقيادة الجنرال الجبوري الذي ينتشر الآن في وادي راوندوز في شمال كردستان العراق ليتولَّى مسؤولية الدفاع عن شبه جزيرة الفاو⁽¹⁾. وأعلنت القيادة العسكرية العراقية العليا تشكيل خمسة عشر لواءً جديداً للمشاة (25-39) التي من المفضل أن تكون دفاعيةً وتعتمد على دعم مدفعي محدود (الهاونات والمدفعية الثابتة). وشكَّلت لواءين بحريين للمشاة (440-441) مسؤولين عن الدفاع عن ميناء الفاو وقاعدة أم قصر البحرية، وكذلك لواء المغاوير السادس (660). وجمعت كلُّ وحدات الحرس الجمهوري في فرقة مدرعة واحدة سُمِّيت "حمورابي" تخليداً للملك البابلي بهذا الاسم. هذه الفرقة النخبة التي أوكلت قيادتها إلى الجنرال حسين رشيد

1- رابط الفيلق الأول (بقيادة الجنرال نزار الخزرجي) في كركوك وبقي مسؤولاً عن كردستان. أمَّا الفيلق الثاني (بقيادة الجنرال إبراهيم)؛ بقي مسؤولاً عن القاطع الأوسط. وبقي الفيلق الثالث (بقيادة الجنرال الرشيد) مسؤولاً عن البصرة، بينما كان الفيلق الرابع (بقيادة الجنرال أحمد) يدافع عن الجزء الواقع بين العمارة والكوت.

تُخصّص لها أغلبية دبابات T-72 ومدفعية الهاوتزر GCT-AUF1 ذات الـ 155 ملم التي تسلّموها للتوّ من فرنسا. أصبحت للعراق قوة ضاربة هائلة بلغ مجموعها 600 ألف مقاتل على الجبهة، موزّعة على 38 فرقة (ست مدرعات، ثلاث آليات، 29 من المشاة).

أمّا الإيرانيون؛ شكّلوا ست فرق من الباسدران، ومن بينها الفرقة الآلية 14 التي جُهّزت بدبابات T-59 التي تسلّموها من كوريا الشمالية، ووحدتي نخبة تُخصّصت للحرس الثوري: لواء الصدمة للمشاة العاشر "سيد الشهداء"، واللواء المدرع العشرين "رمضان" الذي جُهّز بدبابات T-69 التي تسلّموها من الصين. وحولوا اللواء المظلي 55 إلى فرقة كاملة، ولواءي المدفعية 11 و22 إلى فرقي وزودت بأغلبية مدفعية الهاوتزر ذاتية الدفع الأمريكية الصنع. وأصبح الباسدران يشكّل 55٪ من القوات البرية الإيرانية البالغ عددها 750 ألف مقاتل وموزّعة على 31 فرقة (5 مدرعة، 6 آلية، 18 مشاة، 2 مدفعية). ومع ذلك، تتكوّن كلُّ فرقة مشاة إيرانية من عدد يبلغ ضعف عدد مثيلتها العراقية ممّا يعطي طهران قوةً ضاربةً أكبر.

وقد أعاد الجنرالان شيرازي وجلالي تنظيم خطوط جبهتهم، فقد وُضعت فرق المشاة دروعاً على طول الجبهة، بينما وُضعت الفرق الآلية كقوات احتياط على استعداد للتحرك إلى موقع أي هجوم. بقيت المدفعية على بعد ستة أميال (10 كيلومترات) خلف المواضع لتشكّل ستاراً نارياً أمام رجال المشاة. وانتشرت الوحدات المدرعة خلف الخطوط على بعد عشرين ميلاً (30 كيلومتراً) من الجبهة وعلى استعدادٍ للقيام بهجوم مضاد. وخصّصت موارد بشرية أخرى لجزر مجنون، حيث أقامت سداً ثانياً لربط الجزيرتين بالأراضي الإيرانية. وأنشأت قيادة إقليمية جديدة لإدارة القاطع. وفي غضون ذلك، حول القادة الإيرانيون اهتمامهم إلى لبنان الذي أصبح منذ صيف 1982 ساحة معركة بين الجمهورية الإسلامية وكل القوى الغربية التي تدعم العراق وتريد تعميق سقوط نظام الملالي. وهذا يتطلب التوقف لبعض الوقت لفهم هذه الجبهة الموازية.

الفصل الثامن عشر

أزمة الرهائن في لبنان

بعد ستة أسابيع من الغزو الإسرائيلي للبنان، وفي الوقت الذي كانت واشنطن تبدي تقارباً مع بغداد، تم اختطاف ديفد دوج رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت في يوم 19 تموز 1982. كان هذا الاختطاف الأول في سلسلة طويلة من الاختطافات التي تهدف إلى التأثير في السياسة الغربية في الشرق الأوسط⁽¹⁾. كان مطلب خاطفي ديفد دوج أن تقوم الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل بسحب جيشها من بيروت. رفضت واشنطن الخضوع للمساومة. وفي يوم 25 آب 1982 نزلت قوة أمنية متعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحدة في العاصمة اللبنانية. كانت مهمتها تهدئة الوضع وأن تسمح لياسر عرفات قائد منظمة التحرير الفلسطينية بإخلاء مواضعه. وفي هذا الوقت تم تسليم ديفد دوج إلى حزب الله الذي نقله إلى إيران، حيث بقي معتقلاً في سجن إيفين الرهيب الواقع في ضواحي طهران لعدة أسابيع. أصبح ديفد دوج ورقة مساومة حساسة للنظام الإيراني، ولا سيما أن الكتائب المسيحية اللبنانية سبق وأن اختطفت أربعة إيرانيين في بيروت، ومن بينهم أحمد موفازليان قائد الحرس الثوري في قاطع بعلبك.

1 - تم اختطاف 96 رهينة غربية في لبنان في الفترة 1982-1989 وبضمنهم 25 مواطناً أمريكياً، 16 فرنسياً، 12 بريطانياً، 7 سويسريين، 7 ألمان، و8 تم قتلهم أو توفوا؛ لعدم توافر الرعاية الطبية خلال فترة احتجازهم. تم إطلاق سراح البقية بعد فترات مختلفة، لكن Terry Anderson مراسل الأسوشيتد برس بالشرق الأوسط تم احتجازه لفترة طويلة تقارب الست سنوات والنصف.

أطلق سراح ديفد دوج في دمشق بعد سنة ويوم واحد من اختطافه (21 تموز 1983). واستنادًا إلى الصحفي البريطاني كون كوغلين Con Coughlin فإن إطلاق سراحه غير المتوقع كان بسبب تدخل الرئيس السوري حافظ الأسد، الذي يقال إنّه توسّط لدى الحكومة الإيرانية لضمان إطلاق سراح ديفد دوج؛ لكي يُبدي لواشنطن حُسن نِيَّاته⁽¹⁾. كان الأمريكيون مقتنعين أنّ السلطات السورية كانت مزدوجة الموقف بخصوص عملية الاختطاف، ويقال إنّها هدّدت دمشق بالثأر عسكريًا إذا لم يعد الرهينة بسرعة وبصحة جيّدة. لكن هذا الإمهال أثبت فشله. في يوم 29 آب 1983 انتشرت قوة أمريكية في بيروت، لكنّها جُوبهت بموجة أولية من الهجمات الإرهابية. وباستمرار الهجمات في الأوقات اللاحقة، ادّعت حركة الجهاد الإسلامي مسؤوليتها عن تلك الضربات، وهي فصيل من حزب الله الشيعي بقيادة إيران. وبما إنّ الجبهة العسكرية بين إيران والعراق تبدو جامدة، فإنّ الملاي قرروا فتح جبهة جديدة في لبنان من خلالها يمكنهم إضعاف العدو العراقي بصورة غير مباشرة.

فرنسا في مرمى إيران

أصبح الوجود الفرنسي في لبنان ضمن القوة الأمنية المتعددة الجنسيات نقطة خلاف جديدة تؤلّب باريس ضد طهران ودمشق. كان السوريون والإيرانيون غاضبين من وجود الجنود الفرنسيين في بلدٍ يعدّونه حديقتهم الخلفية، ولا سيّما أنّ الفرنسيين عارضوا إيران في عدة قضايا شائكة وتساند العراق علانية. في يوم 4 كانون الثاني توجّه طارق عزيز إلى باريس وتفاوض على جدول جديد للدفعات المالية للذّين العراقي الذي بلغ الآن نحو خمسة مليارات دولار. وعلى الرغم من الصعوبات المالية للعراق، أعلن نائب رئيس الوزراء العراقي أنّ العراق مستعدّ لشراء عشرين طائرة سوبر Etendards مجهزة بصواريخ Exocet المشهورة، وهي مركبة مترادفة برهنت على تأثيرها المدمر في حرب جزر الفوكلاند قبل

1- Con Coughlin, Hostages: The Complete Story of the Lebanon Captives(London: Little Brown,1992),36.

أشهر متعددة. تدخلت شركة Dassault Corporation مباشرة، وإن توقف خط إنتاجها لطائرات Etendards فإنها عرضت على العراقيين بيع نوع جديد من طائرات ميراج F-1s (نسخة EQ5) التي تم تكييفها لتسمح لكل طائرة أن تحمل صاروخاً واحداً من نوع Exocet. وقد قدّرت شركة Dassault أنها بحاجة إلى ستين لتنفيذ التعديلات المطلوبة. وقد أغلقت الصفقة؛ لأنها لم تلّب الحاجة الفورية للقيادة العسكرية العليا العراقية التي كانت تبحث عن حلول بديلة، بينما تنتظر وصول طائرات الميراج الجديدة والمؤمل تسلمها في مطلع العام 1985. وجدت شركة Dassault حلاً سريعاً بالضغط على الحكومة الفرنسية بسحب بعض طائرات الهلكوبتر سوبر Frelon المجهّزة بصواريخ Exocet من البحرية الفرنسية و"إيجارها" للقوة الجوية العراقية مع عددٍ قليلٍ من طائرات سوبر Etendards العاملة مع طيران البحرية الفرنسية.

أثار هذا الاقتراح هياجاً في البحرية الفرنسية الذي وجد صداه بين صفوف الحكومة الفرنسية الذين يرون أنّ فرنسا قد انخرطت كثيراً مع العراق وعليها في النهاية أن تتحمل النتائج. في 26 مايس 1983 قرّر فرانسوا ميتران إلى جانب تسليم بغداد ست طائرات سوبر Frelon وعرض عليها "تأجير" خمس سفن Etendards لمدة ستين. تم سحب خمس طائرات سوبر Etendards مباشرة من الوحدات البحرية الفرنسية وأعيدت إلى شركة Dassault. وصل ستة طيارين عراقيين مع ثلاثين فنيّاً إلى قاعدة Landivisiau للتعرف والإلمام بطائراتهم المستقبلية. ولم يذهب وجودهم من غير متابعة، فقد تساءلت الصحافة علانيةً عمّا يعمل هؤلاء في القاعدة الفرنسية الأولى المخصصة لطيران البحرية.

حاولت واشنطن خلال فصل الصيف الضغط بهدوء على باريس بالألّا تسلّم بغداد طائرات السوبر Etendards، لكن محاولاتها باءت بالفشل. وأرسلت الحكومة الإيرانية إشارة تبلغها أنّ تسليم طائرات السوبر Etendards لبغداد سيخلّ بالتوازن العسكري الدقيق وسيتم تفسيره من أسباب الحرب. كذلك هدّد عدة ملالٍ فرنسا بهجمات إرهابية. في أواخر شهر آب تم اختطاف طائرة الخطوط الجوية الفرنسية والتوجّه بها إلى مطار طهران، ولكن تم تسوية الوضع سلمياً بعد أسبوع من

المفاوضات. وفي يوم 21 أيلول تم قصف مقر السفارة الفرنسية ببيروت المعروف باسم Pin Residence، ما أدى إلى مقتل خمسة أشخاص.

هل كانت عمليات القصف والاختطاف تمثل التحذيرات النهائية لطهران؟

في اليوم التالي دمّرت ستُّ طائرات سوبر Etendards وبرفقة اثنين من حاملات الطائرات بطارية مدفعية سورية في جبال الشوف (عملية ساندر).
في يوم 7 تشرين الأول 1983 شنت الحكومة الفرنسية عملية Sucre. وفي وقت متأخر من صباح ذلك اليوم، أقلعت خمس طائرات سوبر Etendards المؤجرة للعراق مع طيارها الذين يحملون جوازات سفر مزورة ويعملون رسمياً لحساب شركة Dassault من قاعدة Landivisiau متوجهة نحو المحيط الأطلسي. وحالما أصبحت في الجو غيّرت من اتجاهها وتوقفت في Cazaux، ثم في Solenzara بجزيرة كورسيكا، حيث وصلت مع حلول الليل. ثم توجّهت عند الفجر نحو شرق البحر الأبيض المتوسط وهبطت على ظهر حامله الطائرات كليمنصو التي كانت تبخر جنوب جزيرة قبرص بوصفها جزءاً من عملية Olifant المكّسة لمراقبة الساحل اللبناني. وتم إخلاء ظهر حامله الطائرات من العاملين عليها ونزلوا إلى المرافق السفلى من الحاملة والبقاء فيها. وبعد تزوّدها بالوقود أقلعت الطائرات مرةً أخرى وتوجّهت نحو الاسكندرونة بتركيا متبعةً طائرة Falcon-50 مسجلة لدى شركة Dassault التي سبقتهم بالتحليق قبل دقائق قليلة. اقتربت الطائرات من السواحل التركية بحلول الليل وعلى ارتفاع منخفض جداً؛ للتهدّب من تغطية الرادارات السورية. حلّقت الطائرات على طول الحدود السورية التركية، ثم دخلت الأجواء العراقية للهبوط في النهاية في قاعدة القيارة بالشمال الغربي من العراق⁽¹⁾.

1 - استناداً إلى مقابلات المؤلف مع طياري طائرات Super Etendard الذين اختاروا أن تبقى أسماؤهم مخفية. أجريت المقابلات في باريس في شهر حزيران 2007.

وفي صباح اليوم التالي خرجت الصحافة العراقية بعناوين المدح وهي تتبجح بوصول طائرات السوبر Etendards، وكتبت أن هذه الطائرات وبالتأكيد ستنزل ضربات مميتة بتجارة النفط الإيرانية. ولذلك؛ هدّدت إيران فرنسا علانية. أمّا السلطات الفرنسية؛ فقد أرادت أن تبقى متحفظةً كلّما أمكن ذلك بخصوص هذه القضية، لكنّها غضبت كثيرًا في النهاية. عاد الطيارون الفرنسيون مباشرةً إلى فرنسا على طائرة Falcon-50 المرافقة لهم، لكن طواقم شركة Dassault الفنية بقيت في قاعدة القيادة بانتظار وصول الطواقم العراقية التي تتدرّب في Landivisiau. واستنادًا إلى بعض المصادر الخاصة، قيل إن السلطات العراقية أقنعت لاحقًا أحد طياري السوبر Etendards الفرنسيين بالعودة إلى العراق للمساعدة، وقصف الأهداف الإيرانية بالصواريخ المضادة للرادارات نوع Armat AS-57. ويقال إن هذا الطيار سرعان ما ترك الخدمة في الجيش الفرنسي وأصبح من تجّار السلاح الأثرياء⁽¹⁾.

وفي يوم 23 تشرين الثاني 1983، أي بعد أسبوعين من وصول طائرات السوبر Etendards إلى العراق، اصطدمت سيارة لوري مفخخة ببنية دراكار Drakkar التي تُستخدم لإقامة قسم من القوة العسكرية الفرنسية المنتشرة في بيروت. وتمكنت فرق الإنقاذ من انتشال ثمانٍ وخمسين ضحيةً من المظليين الفرنسيين من تحت أنقاض البناية. وتزامن ذلك مع عملية انتحارية دمرت مقرات جنود المارينز المنتشرين في العاصمة اللبنانية، وأدّت إلى مقتل 242 أمريكيًا. وبذلك قام المهاجمون بمهاجمة اثنين من رموز الوجود العسكري الغربي بلبنان، وكلاهما يعود لبلدين يساندان العراق. وقد تم تحميل مسؤولية التفجيرين حركة الجهاد الإسلامي وفصائل حزب الله الشيعية التي تأتمر بأوامر إيران كما تعتقد كلّ من المخابرات الفرنسية والأمريكية، وكلاهما لا يشكُّ أن إيران وراء كلّ من الهجومين. وفي نهاية زيارة صاحبة للعاصمة اللبنانية، أعلن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران موقفًا تصالحيًا: "نحن ليس أعداء لإيران."

1- Jean Guisnel, Armes de corruption massive- Secrets et combines des marchands de canon (Paris:Édition La Decouverte,2011),155; Philippe Vasset , Journal intimed'un marchand de canons(Paris:Fayard,2008),29-34.

ولم تتخذ فرنسا جانباً في الحرب، ولكن صادف أنها كانت صديقة للعراق، وهذا لا يعني أنها تريد صنع أعداء لها"⁽¹⁾. كان وزير الدفاع الفرنسي شارل أورنو أكثر حقدًا حينما صرّح أن الهجوم لن يمرّ دون عقاب. بعد أيام قلائل، تم اكتشاف سيارة جيب فرنسية مفخخة بألف ومئة باوند (500 كيلو غرام) من المتفجرات متوقفة حول الحائط الخارجي للسفارة الإيرانية ببيروت، وتم تفكيكها بنجاح. أجيّزت هذه العملية المرعبة من فرانسوا ميتران، لكنها فشلت نتيجة نقص كفاءة المختصين المسؤولين عن تركيب المتفجرات، ففي خضمّ اللحظات الساخنة آنذاك، نسي مفخّخ السيارة بالمتفجرات أن يوقّت صاعق المتفجرات⁽²⁾. ومع ذلك، فقد تسلّم الإيرانيون الرسالة. في يوم 9 تشرين الثاني، خطب رفسنجاني خطبةً عنيفةً ضدّ "الشیطان الأصغر الفرنسي".

الغارة على بعلبك

أقنع وزير الدفاع شارل أورنو والجيش في باريس الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بالتأثر ورفض رأي وزير الشؤون الخارجية كلود شيسون الذي أراد أن يكون أكثر حكمةً في معالجة قضية الفصائل اللبنانية. ولعدة أيام كانت القيادة العسكرية العليا الفرنسية تحضر لعملية Brochet التي أعدت لضرب هدف أو عدة أهداف لحزب الله. في البداية حددت القيادة العسكرية العليا الفرنسية فندق "تدمر" هدفًا لها، حيث يسكن فيه أبرز قادة الفصائل، لكن تراجعت عنه لاحتمال وقوع أضرار جانبية، واختارت بدلاً منه ثكنات الشيخ عبد الله بالقرب من بعلبك التي تُستخدم معسكر تدريب لحزب الله. وبعد عدة أيام من الأخذ والردّ حول تشكيل قوة أمريكية - فرنسية مشتركة، قررت فرنسا العمل وحدها.

وفي وقت متأخر من عصر يوم 17 تشرين الثاني 1983، انطلقت ثماني طائرات سوبر Etendards بقيادة الرائد البحري هيوبرت روزجينول من على ظهر حاملة الطائرات كليمنصو

1 - وكالة الصحافة الفرنسية، 26 تشرين الأول 1983.

2 - وهذا ما أكده للمؤلف الأدميرال بير لاکوست (Pierre Lacost) الذي كان يشغل المدير العام للمخابرات الخارجية آنذاك.

التي كانت تبخر بالقرب من السواحل اللبنانية وترافقها من قرب اثنتان من المقاتلات الفرنسية فضلاً عن طائرتين F-14 أمريكيتين أخريين للمراقبة من بعد، من حاملة الطائرات USS آيزنهاور التي كانت تبخر بالقرب من حاملة الطائرات الفرنسية. وكانت طائرة EA-6B Prowler المتخصصة بالحرب الإلكترونية من مجموعة البحرية الأمريكية تساندها بسرية من خلال اختراق أنظمة الرصد السورية واللبنانية. عبر الطيارون الفرنسيون فوق الساحل اللبناني شمال بيروت على ارتفاع منخفض جداً وتركوا المقاتلات المرافقة لهم فوق المياه الدولية على استعداد للاستجابة لأية ظرف طارئ. عبرت الطائرات من فوق وديان الجبال اللبنانية العاصفة لتظهر فجأة فوق بعلبك. ظهرت ثكنات الشيخ عبد الله واضحة لهم، ولكن بدلاً من أن يباغتوا تلك الثكنات فجأة كما توقعوا، وجد الطيارون الفرنسيون في المصيدة، حيث واجهتهم الدفاعات الجوية والصواريخ المضادة من كل جانب مما جعلهم يقذفون قنابلهم على الثكنات الخالية والقيام بسلسلة من المناورات المرواغة لتجنب نيران العدو.

هبطت طائرات السوبر Etendards الثمان كلها سالمة وبأعجوبة على ظهر حاملة الطائرات كليمنصو في أثناء الليل. التقطت الصحافة الفرنسية تلك العملية وانتقدتها لفشلها الذريع، مما جعل الأدميرال برنارد كلوتز الذي قاد عملية Olifant سابقاً من على ظهر كليمنصو يذوق المرارة القاسية. ويقال إنه بعد عدة أشهر عرف من خلال جنرال لبناني واحد قادة فصائل أمل الشيعية (حسين يتيم) أن أحد المساعدين لكلود شيسون ومن موظفي وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية قد جذر موظف اتصال سوري بغارة فرنسية وشيكة على بعلبك⁽¹⁾. وبعد أن تم تحذيرها، أخلت الفصائل الشيعية ثكنات الشيخ عبد الله ونصبت الدفاعات الجوية حول ذلك الهدف. وزعموا أيضاً أن تلك المكالمات الهاتفية قد تم رصدها من خلال وكالات التسجيل السلوكية اللبنانية والأمريكية⁽²⁾. ويبقى الاستنتاج غير معروف،

1- Jean Pierre Otelli, *Pilotes dans tourmente- Raid sur Baalbek* (Levallois-Perret: Edition Altopresse, 2005), 74. .

وهذه التصريحات تم تأكيدها للمؤلف من عدة مصادر موثوقة.

2- وأكد ذلك للمؤلف الرئيس السابق لجهاز المخابرات الإلكترونية اللبنانية بشرط عدم ذكر اسمه.

هل الموظف الكبير في الخارجية الفرنسية المتقاعد الآن قد عمل من ذاته أو بناءً على أوامر من وزيره المعروف علانيةً بقربه من الدوائر اللبنانية والسورية؟ لا توجد أية أدلة مادية للإجابة عن هذه الأسئلة حتى الوقت الحاضر. وتبقى الحقيقة أن هذا الدبلوماسي لم يتم إيقافه عن العمل بعد الغارة، بل تم تعيينه سفيراً فرنسياً في إسبانيا وبدعم من كلود شيسون⁽¹⁾. ولكن ترشحه بين صفوف جوقة وسام الشرف الفرنسية تمت إعاقة دائماً من خلال طلب الأدميرال كلوتز إلى المستشار الأكبر المسؤول عن وسام جوقة الشرف⁽²⁾.

الانتقام الأمريكي

لم تدخر الولايات المتحدة وقتاً للإجابة عن تفجير يوم 23 تشرين الأول، حيث انطلقت في يوم 4 كانون الأول 1983 عشرون طائرة مخصصة للقرصنة والتسلل من على حاملتي الطائرات جون كيندي و"الاستقلال" بقصف عدة بطاريات صواريخ سورية مضادة للطائرات، فضلاً عن مواقع لحزب الله حول بيروت. وعلى الرغم من تلك الغارات العنيفة فقد تم إسقاط طائرتين أمريكيتين والقبض على الملازم الأول بوب جودمان أحد الملاحين الجويين الذي قُذِف بمظلته من الفصائل الشيعية، وتم نقله مباشرة إلى دمشق، حيث أُطلق سراحه بعد أسابيع قليلة بوساطة رجل الدين جيسي جاكسن المنافس الديمقراطي للرئيس رونالد ريغان وبحضور الصحافة الأجنبية. وبعد أن شعر ريغان بالإذلال، صرّح علانيةً أنه سينتقم ودون رحمة ضد أية استفزازات سورية أو إيرانية أخرى.

ولم يدخر الإيرانيون وقتاً طويلاً للإجابة. في يوم 12 كانون الثاني 1983 دمّر قصفٌ إرهابيٌ بقسوة السفارة الأمريكية في الكويت. وتم ضرب خمسة أهداف غربية في العاصمة الكويتية في اليوم نفسه، ومن ضمنها السفارة الفرنسية. ادّعت منظمة شيعية كويتية وبإسناد من إيران مسؤوليتها عن الهجمات الستة. كان الرئيس ريغان مقتنعاً أنه يجب أن يستعرض

1- Otehl, Pilotes, P.99.

2- هذه المعلومات أكدها الأدميرال بير لاکوست

عزمه الذي لا يلين وأمر بالتأثر. في يوم 14 كانون الأول 1983 فتح الأسطول الأمريكي النار على مواقع حزب الله والجهاد الإسلامي الواقعة على طول الساحل اللبناني. وقصفت البارجة المخضرمة منذ الحرب العالمية الثانية نيو جرسى المواقع المحصنة والحاميات العسكرية الشيعية عدة ساعات، كانت النتائج فادحة. وفي هذا الأثناء وضعت الإدارة الأمريكية موضع التنفيذ العملية *Staunch* التي تهدف لإقناع الحلفاء بالعدول عن تجهيز إيران بالأسلحة والذخيرة والتهديد بالنتائج الاقتصادية والمالية القاسية.

وفتحت البارجة نيو جرسى النار مرة أخرى في يومي 8 و26 شباط 1983 على مواقع حزب الله المنتشرة في وادي البقاع وسحققتها بقذائفها. كان ذلك يمثل موقف الأمريكيين الأخير. كان الرئيس ريغان يعي أنه لا يكسب شيئاً من حلقة العنف والانتقام مع إيران وسوريا هذه، وأمر القوة الأمريكية بالانسحاب من بيروت وبالاتفاق مع السلطات الفرنسية التي قامت بتقييم قدرة النظام الإيراني على إلحاق الأذى بها، وقررت الانسحاب أيضاً، ولا سيما أن الهجومات على القوة الفرنسية ضمن القوة الأمنية المتعددة الجنسيات قد تضاعفت منذ الغارة على بعلبك. وفي يوم 21 كانون الأول أمهلت الجهاد الإسلامي فرنسا عشرة أيام لمغادرة لبنان. بعد يومين انتقلت باريس باستبعاد ستة دبلوماسيين إيرانيين تشك في أنهم يحضرون لهجمات إرهابية بفرنسا. في ليلة يوم 31 كانون الأول 1983، وبينما كان الفرنسيون يحتفلون بأعياد رأس السنة الجديدة وبحضور وزير الدفاع أورنو لتكريم القوات الفرنسية في لبنان، انفجرت قنبلتان في محطة قطار سانت - شارل في مرسيليا وفي القطار فائق السرعة لتقتل خمسة أشخاص. وبعد ثلاثة أيام تم اغتيال سائق القنصل الفرنسي ببيروت. وهكذا بدأ عام 1984 بهذا المشهد المنذر بالشؤم، لكن الرئيس فرانسوا ميتران تنفس الصعداء باتباعه خطوات نظيره الأمريكي، وأمر بسحب القوة الفرنسية من بيروت. وتوصل الملاي في طهران إلى خلاصة أن الضغط على الغرب كان تكتيكاً فعّالاً ومؤثراً. ومع ذلك، كانوا يدركون أنه يجب عليهم أن يكونوا أكثر حذراً مع السوفييت؛ لأنّ الوضع في موسكو قد تغير.

لقد توفي يوري اندروبوف وتولى كونستنتين تشيرنينكو مكانه في الكرملين. وهذه الشخصية الأيديولوجية التي جاءت إلى السلطة بالكرملين لم تتبنّ موقفاً جديداً حول

الحرب العراقية-الإيرانية. أمّا أندريه غروميكو الذي بقي وزيراً للشؤون الخارجية؛ كان يتعاطف كثيراً مع سوريا ويحاول إقناع حافظ الأسد لإعادة افتتاح خطّ كركوك - بانياس، والسماح لصدّام حسين بجني موارد مالية أكبر (ولدفع ديونه المتراكمة للاتحاد السوفيتي). رفض الرئيس السوري بإصرار أية مرونة يمكن تفسيرها أنّها مؤشر ضعف مقابل منافسه العراقي الأكبر. وكان مقتنعاً أنّ الوقت غير مناسب لذلك. سافر طارق عزيز إلى موسكو وأخبر وزير الشؤون الخارجية السوفيتي نية صدّام حسين استعادة علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة. وعرض طارق عزيز على نظيره السوفيتي الصفقة التالية: أنّ العراق قد يتخلّى عن تقاربه مع واشنطن إذا وافقت موسكو رسمياً دعم بغداد وتعفو عن جزء من دينها على العراق. طمأن أندريه غروميكو طارق عزيز أنّ موسكو تلتزم باستمرار شحنات السلاح للعراق وتضمن له قرضاً بقيمة ملياري دولار لتمويل استكمال أعمال البنى التحتية بالعراق. ومع ذلك، فقد ذكّر طارق عزيز أنّ الكتلة الشيوعية بحاجة إلى النقد وأنّها غير قادرة على توفير القروض للعراق إلى ما لا نهاية. والأكثر أهميةً من ذلك، عبر له أنّ الكرملين لا يمكنه دعم بغداد بصورة رسمية؛ لأنّه يرغب ببقاء الباب مفتوحاً للتفاوض مع طهران.

كانت الرسالة واضحةً، موسكو ترغب بالاحتفاظ "بقضيبي الحديد" في النار؛ لكي تحتفظ بنفوذها في الإقليم. عاد طارق عزيز إلى بغداد ليطلع صدّام حسين على مناقشاته مع غروميكو. قرّر الرئيس العراقي وبحالة من الاحتياج المناورة بالورقة الأمريكية ووافق على إعادة علاقاته رسمياً مع واشنطن. وقبل أشهر قليلة، اتخذ البيت الأبيض الخطوة الأولى بمصادقة الرئيس رونالد ريغان على قرار الأمن القومي رقم 114 (26 تشرين الثاني 1984) الذي يأمر بخطة إجراءات للدفاع عن المصالح الأمريكية في الخليج ومنع الانهيار العسكري للعراق بكلّ الوسائل القانونية وبضمنها إعادة العلاقات الدبلوماسية بين بغداد وواشنطن إن كان ذلك ضرورياً⁽¹⁾.

1- Joyce Battle, ed., *Shaking Hands with Saddam Hussein: The U.S. Tilts toward Iraq, 1980-1984*, National Security Archive Electronic Briefing Book No.82(Washington,DC: NSA,February 25,2003), <http://nsarchive.gwu.edu/NSAEBB82/>.

طهران تعاقب واشنطن

أصبح الملايبي بإيران مصممين بشكل مطلق على معاينة الأمريكيين، ليس لقصفهم الأخير لمواقع حزب الله اللبناني فقط، بل لتغيير موقفهم المفاجئ المساند للنظام العراقي أيضًا. في يوم 16 آذار 1984 تم اختطاف الجهاد الإسلامي في مشهد مشير وليم بيكلي مدير محطة الاستخبارات الأمريكية ببيروت، وتم نقله بسرعة إلى طهران، حيث تم استجوابه وتعذيبه. وبعد أشهر من الصمت كشفت الجهاد الإسلامي أنه تم "إعدامه". واستنادًا إلى رواية بعض الرهائن الغربيين المحتجزين في السجون الإيرانية أنهم يعتقدون أن وليم بيكلي تُوفي بالسكتة القلبية نتيجة الاستجواب الإجباري المفرط في شهر حزيران 1985⁽¹⁾. أقع اختطاف وليم بيكلي الحكومة الأمريكية أنها يجب عليها أن تلعب الورقة العراقية بصورة شاملة؛ من أجل قتال النظام الإيراني بفعالية أوسع؛ لأنه يمثل الآن شرًا مطلقًا كما يرى المحافظون الجدد الذين تركزوا في البيت الأبيض. ولذلك؛ كلف الرئيس رونالد ريغان صديقه الحميم دونالد رامسفيلد بالسفر إلى بغداد للقاء صدام حسين وإبلاغه بتيّاته بما فيها عرضه استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

كان دونالد رامسفيلد من المخضرمين في السياسة الدولية، وخدم وزيرًا للدفاع في عهد الرئيس جيرالد فورد، ومنذ ذلك الوقت تحوّل للعمل في القطاع الخاص. ولم يأتِ إلى بغداد خالي اليدين، جاء مبعوث البيت الأبيض بوعده بمنح العراق قرضًا بقيمة مليار دولار وبضمان من بنك الحكومة الأمريكية، لكن واشنطن لم تخطط لإرسال الأسلحة الأمريكية للنظام العراقي، لكنّها مستعدة لتمويل حربه مع إيران. كان اللقاء وديًا، ونشرت وسائل الإعلام بصورة واسعة المصافحة بين الرجلين. اتفقوا من حيث المبدأ على استئناف العلاقات بين البلدين (سيتم إعادة افتتاح السفارتين كليهما في يوم 26 تشرين الثاني 1984).

1 - لم يتم إعادة جثمان William Buckley من أسريه. ولكن تم العثور عليه صدفة في عام 1991 بسبب أعمال الطرق في منطقة شعبية بالقرب من مطار بيروت.

وحتى الآن، كان كلا الرجلين من حيث الجوهر مقتنع أن هناك أسبابًا أخرى قادتهم لقبول هذا التقارب. كان صدام حسين يشكك بالأمريكيين على الدوام، لكنه يحتاج مساندتهم لممارسة الضغط على حكّام الخليج من جانب، والتوضيح للسوفييت أنه لا يضع بيضه كله في سلة واحدة من جانب آخر. أمّا بالنسبة إلى رامسفيلد؛ فإنّه لا يثق قيد أنملة بصدام حسين لكنه يدرك أنّه لا يزال أفضل حاجز أمام الإيرانيين، فضلًا عن كونه العدوّ الراسخ ضدّ النظام السوري. كذلك احتفى الدكتاتور العراقي بضيفه بإعطائه تسجيلًا مصورًا للجنديات سوريات وهنّ يقطعن رؤوس الأفاعي بأسنانهن، كانت الرسالة الضمنية واضحة: السوريون حلفاء الإيرانيين هم من البرابرة، والولايات المتحدة على صواب في مساندتها للعراق. سيلتقي صدام حسين بدونالد رامسفيلد عدة مرات لختم الاتفاقية بين بلديهما.

وفرت الحكومة الأمريكية كلّ دعمها الدبلوماسي للعراق. والأكثر أهميةً من ذلك أنّها زوّدته بمساعدة قيمة في مجال الاستخبارات، وأعطت العراقيين صور الأقمار الصناعية الجوية التي تلتقطها أقمارها للمراقبة فضلًا عن المعلومات التي تحصل عليها طائرات التحذير والتحكم الجوي (أواكس)، وطائرات المراقبة الإلكترونية المرابطة فوق منطقة الخليج. أمّا في واشنطن؛ كان ستون ضابطًا من وكالة استخبارات الدفاع يعملون يوميًا لتزويد العراق بالمعلومات، وإعادة ترتيب أوامر المعارك، وتقييم القوة الدفاعية للوحدات العسكرية الإيرانية، في الوقت الذي يفهرسون تواجيعهم الإلكترونية وترددات الراديو لديهم⁽¹⁾. وسافر الكثير من ضباط المخابرات الأمريكية إلى بغداد ليحاولوا تبادل المعلومات مع المخابرات العراقية، ولكن لم تثمر جهودهم عن شيء إلى حدّ كبير؛ لأنّ الأجهزة السرية العراقية رفضت إعطاءهم أية معلومات ربما تُستخدم ضدهم في وقت لاحق. وكما اعترف في وقت لاحق شارل كوجان مدير قسم عمليات الشرق الأدنى وجنوب شرق آسيا في المخابرات الأمريكية: "لم يكن ذلك التعاون صريحًا أبدًا وليس جيدًا بشكل خاص، ولكنه استمرّ حتى نهاية الحرب؛ لأنّه يجب احتواء إيران وحماية مشيخات الخليج"⁽²⁾.

1- Larry Everest, "Iran-Iraq: Helping Both Sides Lose the War", Press for Conversion 51 (May 2003):30.

2- مقابلة مع المؤلف في روما بتاريخ 5 آذار 2009.

أمّا في مجال المساعدة المادية، وقّع الرئيس ريغان قرارين جديدين يجيز فيهما نقل القنابل العنقودية للعراقيين. ومع ذلك، أرادت الإدارة الأمريكية الاحتفاظ بمستوى منخفض فيما يتعلق بتجهيزات السلاح لبلد يسانده الاتحاد السوفيتي لتجنب إثارة الكونغرس. ولذلك؛ رفضت بيع العراق الدبابات وقطع المدفعية والطائرات المقاتلة. لكن الإدارة أجازت بيع العراق ستّ طائرات لوكهيد L-100s، وهما النسخة المدنية من طائرات C-130 للنقل العسكري المعروفة، والتي ستسمح للقوة الجوية العراقية بزيادة طاقتها النقلية وتعزيز وسائلها اللوجستية. انتهز العراقيون الفرصة لفتح المفاوضات التجارية مع شركة هيوز الأمريكية، ولشحن ستّ وثمانين طائرة هلكوبتر للعراق التي يمكن تحويلها بسهولة إلى طائرات هجومية. وأرسل العراق طياريه لاحقًا للتدريب في الولايات المتحدة ويجوزات سفر أردنية.

وفي أثناء ذلك، لا يستطيع القادة الإيرانيون مهاجمة السفن الأمريكية في الخليج الفارسي لتخوفهم من الرد العسكري، ولذلك تحوّلوا مرةً أخرى إلى الجبهة اللبنانية؛ للضغط على واشنطن. وخلال أسابيع قليلة تم اختطاف أربعة مواطنين أمريكيين في بيروت: فرانك ريجير، وهو أستاذ بالجامعة الأمريكية ببيروت؛ وبيتر كليرن، مستخدم جامعي؛ جيرمي ليفن، مراسل قناة CNN؛ وجيرمي وير، رجل دين من طائفة Presbyterian. أعلنت الحكومة الإيرانية أنّ لا علاقة لها بالخاطفين، ولكنها في موقع يمكنها تقديم المساعدة لإطلاق سراح الرهائن. وبعبارة أخرى، إطلاق سراحهم بحاجة إلى التفاوض مع طهران. كانت شروط رفسنجاني أن تضغط الولايات المتحدة على الكنائس اللبنانية لإطلاق سراح أربعة إيرانيين تحتجزهم تلك الكنائس، وإقناع الكويتيين بالعتو عن الناشطين الشيعة المحكومين؛ بسبب الهجمات الإرهابية التي وقعت في شهر كانون الأول 1983، وأن تضع نهاية لتقاربها مع العراق، وتعيد كلّ ممتلكات الشاه بالولايات المتحدة إلى إيران. رفضت الإدارة الأمريكية تمامًا كلّ شروط النظام الإيراني، وأعلنت أنّها تحضّر لتدخل عسكري؛ لتجنب أيّ نصر إيراني قد يقود لإقامة حكومة شيعة في بغداد.

في يوم 24 أيلول 1984، تعرضت السفارة الأمريكية إلى هجوم بسيارة مفخخة أدت إلى مقتل 24 شخصًا وجرح العشرات وبضمنهم السفير الأمريكي. وبذلك، عدّت الولايات

المتحدة نفسها في حرب مع إيران. وأجاز الرئيس ريغان المخابرات الأمريكية للعمل بسرية لإلحاق الضرر بالنظام الإيراني، وأمر البحرية الأمريكية بتقوية وجودها في مضيق هرمز. في مطلع شهر كانون الثاني تم اختطاف الأب لورنس جنكو رئيس وكالة الإغاثة الكاثوليكية ببيروت. وفي 8 آذار 1985 انفجرت سيارة لوري مفخخة في العاصمة اللبنانية بيروت لتقتل أكثر من ثمانين شخصًا، ولم يكن الهدف غريبًا هذه المرة، ولكن بناية يُظنُّ أنَّ القائد الروحي لحزب الله الشيخ محمد فضل الله كان فيها والمتهم المفترض بعدة هجمات معادية للأمريكيين. والكثير ومنهم روبرت فسك اعتقدوا أنَّ أيدي المخابرات الأمريكية كانت وراء ذلك⁽¹⁾. كان الملايبي إيران أول من شكَّ بدور المخابرات الأمريكية بذلك الهجوم. كان ردُّهم سريعًا. في 16 آذار تم اختطاف الصحفي الأمريكي تيري أندرسون مراسل وكالة الآسوشيتد برس ببيروت. وبعد ثلاثة أشهر تم اختطاف ديفيد جاكوبسن وتوماس سذرلاند، وهما من الأعيان الأمريكيين المحليين. وهناك نحو عشرين غريبًا سينضمون إليهم في سجون حزب الله. وهكذا أصبحت طهران في وضع مريح بما لديها من احتياطي من الرهائن يمكنها التفاوض من موقع مريح مع واشنطن، باريس، لندن، وبرلين. بقيت مطالبها ثابتة. أدت المفاوضات إلى وضع أكثر تعقيدًا؛ لأنَّ كلَّ بلد تبنَّى استراتيجية مختلفة جذريًا. البعض مثل ألمانيا ستوافق، في حين ترفض المملكة المتحدة بشكل منهجي الخضوع للمساومة ومهما يحدث لرهائنهما. ولذلك؛ تم إعدام ثلاثة مواطنين بريطانيين (أليس كولت، جون دوغلاس، فيليب بادفيلد) من أسريهم.

فرنسا تغير مسارها

أصبحت فرنسا في ربيع عام 1984 تدرك بازدياد أنَّ العراق حليف متعب، ولا سيَّما أنَّ النظام العراقي يبدو أنه لم يعد قادرًا على الإيفاء بديونه، ويواجه اتهامات من المجتمع الدولي لاستخدامه الأسلحة الكيميائية. وصل ليونيل جوسبن السكرتير الأول للحزب

1- Robert Fisk, Pity the Nation The Abduction of Lebanon (New York Atheneum, 1990), 581.

الاشتراكي الفرنسي إلى قناعة أنه لا بدّ لفرنسا من استعادة التوازن لسياستها تجاه طرفي الحرب. وللمرة الأولى رفض الإليزيه استقبال طارق عزيز في واحدة من زيارته المتعددة إلى باريس. وتباطأ حجم شحنات السلاح الفرنسي إلى العراق، لكن العقود المبرمة تم الإيفاء بها، واستمرت شركات الأسلحة بإرسال الذخيرة وقطع الغيار، ولكن لم تعقد أية صفقات جديدة.

اتصل الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بالسلطات السورية لطمأنتها أن باريس تريد أن تضع نهايةً لطبيعة المواجهة التي طبعت العلاقات الفرنسية مع دمشق وطهران. أرسلت هذه الرسالة إلى الحكومة الإيرانية. في يوم 31 تموز 1984 احتجز الباسدران طائرة الخطوط الجوية الفرنسية في أثناء توقفها في طهران، وأخذ ستين رهينة وهدّد بإعدامهم إذا لم تطلق فرنسا أنيس النقاش وشركاءه المسجونين كلهم فيها. تم تشكيل خلية أزمة مباشرة في باريس، وكلف رئيس الوزراء الجديد لورانت فابوس وزير الشؤون الخارجية رونالد داموس بقيادة المفاوضات مع طهران، واتصل مباشرةً مع وزير الشؤون الخارجية الإيراني لبدء المفاوضات. اكتشف أن قضية الرهائن كانت مجرد حجة لبدء مفاوضات أولية جادة بين العاصمتين وعلى أمل تطبيع العلاقات في النهاية. وضع علي أكبر ولايتي كلّ القضايا البارزة على الطاولة، سرد مظالم إيران تجاه فرنسا لدمشق: النزاع حول قرض Eurodif، منح اللجوء السياسي لبني صدر ومسعود رجوي، بيع الأسلحة للعراق، وسجن أنيس النقاش⁽¹⁾.

وفي مطلع شهر آب تم إطلاق سراح رهائن الإيرباص، ويبدو أن الحوار تمت إعادته بين باريس وطهران. توضح هذه الأزمة غير المتوقعة ذلك الصراع المحتدم بين أنصار التطبيع مع الغرب والملتزمين الذين يرفضون كل انفتاح على الأمم الأجنبية. فبالنسبة إلى أنصار التطبيع فإنّ الهجومات على فرنسا مجرد وسيلة لإجبار باريس على التفاوض، بينما يراه الآخرون عقوبةً "للشيطان الأصغر".

وذهبت السلطات الإيرانية إلى أبعد من ذلك حينما صرّحت أنّها مستعدةٌ لشراء كميات كبيرة من الأسلحة الفرنسية إذا كانت فرنسا ترغب في إرسالها. وفي نهاية عام 1984

1- Roland Dumas, Affaires etrangeres(1981-1988)(Paris: Fayard, 2007), 349-357.

تجاوز المهندس رينيه - بيير أودران Rene-Pierre Audran الرئيس الفرنسي ورئيس وزرائه وأرسل نائبه الإيرانيين. كان أودران يشرف على بيع الأسلحة للعراق لعدة سنوات في المفوضية العامة للتسليح الفرنسية ربما شعر أنه منخرط أيضًا في الشأن العراقي، مما جعله يخاطر شخصيًا بالسفر إلى العاصمة الإيرانية. وحينما أعلن مبادرته، أوقفتها السلطات الفرنسية مباشرة، وأخبرت طهران أنها لا تنوي شحن الأسلحة لإيران إلا إذا تم التطبيع للعلاقات بين البلدين. في 25 كانون الثاني 1985 تم اغتيال أودران أمام منزله في La-Celle-Saint-Cloud ونفذت ذلك مجموعة "العمل المباشر" الإرهابية. كانت الوكالات الفرنسية الخاصة على ثقة أن الهجوم قد تم التخطيط له من الحرس الثوري في طهران الذي كان غاضبًا جدًا من خسارة تسلّم كميات كبيرة من الأسلحة وأراد معاقبة الشخص الذي يتصورونه رمزًا للمساعدة الفرنسية العسكرية للعراق⁽¹⁾. وربما تمّ تجنيد جماعة "العمل المباشر" من الجهاد الإسلامي (المعروفة بعلاقاتها الوثيقة بإيران)، ولكن يقال إنَّها تعمل "مُقدِّم خدمة" ومتبعا للممارسة الراسخة المعروفة "المصالح المتبادلة" بين الحركات الإرهابية اليسارية الأوروبية المتطرفة والجماعات الإرهابية في الشرق الأوسط⁽²⁾. وبينما لا يوجد دليلٌ محدّدٌ على هذه الفرضية، لكن ما يشير إلى أنَّها لا تزال قائمة على الأرجح حتى الآن.

وفي هذه الأثناء، عُيِّن رونالد داموس بدلًا من كلود شيسون وزيرًا للشؤون الخارجية الفرنسية، وتولّى معالجة القضية الإيرانية. وأوكل فرانسوا ميران إليه تسوية النزاع حول قرض Eurodif وتلّين العلاقات مع طهران. أراد ميران أن تتولّى فرنسا الاتصال بطرفي الحرب. ولأول مرة قاومت الحكومة الفرنسية الحملة الإعلامية التي شنّها لوبي الصناعات العسكرية الذي يكره تغيير السياسة الفرنسية، ويزعم بخطورة ذلك القرار ومحاولة فرنسا التقرب من طهران. لكن الأليزيه ووزارة الشؤون الخارجية أصروا على مسارهم وأبطؤوا من

1- Pierre Pean, La Menace (Paris: Fayard,1987), 133:

إنّ تحليلات Pean أكدنها عدة مصادر موثوقة.

2- وهذه الاتفاقيات تم توثيقها بصورة مقننة في كتاب باتريك سيل Patrik Seal الرائع

Abu Nidal: A Gun for Hire(New York:Random House,1992).

إرسال الأسلحة إلى العراق، ولكنهم لم يعملوا شيئاً ملموساً لإصلاح علاقاتهم مع طهران. اتصل رونالد داموس ولعدة مرات بمختلف المسؤولين الإيرانيين الذين اشتكوا من عدم التقدم في حل قضية قرض Eurodif.

اختطفت حركة الجهاد الإسلامي في يوم 22 آذار 1985 ثلاثة دبلوماسيين فرنسيين في بيروت: نائب القنصل مارسيل فونتين، مارسيل كارتون مدير البروتوكول في السفارة الفرنسية، وابنته دومنيك بيرز السكرتير مع قسم الخدمات الثقافية الفرنسية. قابل القائم بالأعمال الفرنسي في طهران رفسنجاني مباشرة، الذي أخبره "أن الحكومة الإيرانية لا يمكنها عمل أي شيء باختطاف الرهائن، ولكنها تفهم وتعرف وتستطيع التأثير في الخاطفين"⁽¹⁾. وللبرهنة على أنه جدي، أخبره رفسنجاني أن دومنيك بيرز هي المرأة الوحيدة بين المخطوفين وسيطلق سراحها. وتم إثبات ما ذكره بعد أسبوع واحد فقط. كانت الرسالة واضحة بجلاء: أن إطلاق سراح الرهائن يمر من طريق طهران. وبعد أيام قلائل ذكرت البحرية الفرنسية الفرنسية أن موقفها حرج في الخليج من خلال النزول على ظهرها وتفتيش سفينة الحاويات Vill de Bordeaux عند عبورها مضيق هرمز. أجابت باريس مباشرة بإصدار أوامرها إلى أحد قواربها لحمل الرسائل المبحر في المحيط الهندي بمرافقة السفن التجارية الفرنسية التي تبحر في مياه الخليج، وعرفت تلك المهمة باسم "Fil d'Ariane".

وفي يوم 22 مايس 1985، أي بعد أكثر من شهرين من عملية الاختطاف الأولى للرهائن، تم اختطاف جان بول كوفمان الصحفي مع L'Evenement du Jeudi "حدث الخميس"، وميشيل سورات من المركز القومي للبحث العلمي في بيروت، ما أدى إلى إصابة الحكومة الفرنسية بالصدمة العميقة وعهدت إلى جين - لوي بيانكو السكرتير العام في قصر الأليزيه، وهيوبرت فدرين المستشار الدبلوماسي للرئيس الفرنسي، وجين - كلود كوسيران من جهاز الأمن الداخلي لتولي مهمة حل أزمة الرهائن. فشل الرجال الثلاثة في استكشاف الخيار السوري، بينما واصل رونالد داموس وزير الشؤون الخارجية مفاوضاته المباشرة مع طهران حول قرض Eurodif. وفي غضون ذلك، كان الأمن السري الفرنسي مقتنعاً أن حزب

1- Pean, La Menace, 135.

الله هو المسؤول عن اختطاف المواطنين الفرنسيين. ولذلك؛ أوجد حلقة اتصال بين الفصيل الشيعي اللبناني والجمهورية الإسلامية. ومع ذلك، قطعت DGSE "الإدارة العامة للأمن الخارجي" فجأة حلقة الاتصال بعد أن تم الكشف عن غرق سفينة جماعة Greenpeace المسماة Rainbow Warrior من قبل المخابرات الفرنسية في شهر تموز.

ومنذ ذلك الوقت ولاحقًا، ضاعفت باريس عدد وسائطها ابتداءً من اللبناني - الفرنسي الدكتور رضا رعد وعلاقاته الواسعة والغامضة إلى إيريك رولو الصحفي السابق والخبير بشؤون الشرق الأوسط الذي تم تعيينه سفيرًا لفرنسا بتونس وبمساعدة من متيران. لكن وجود هؤلاء جعل عملية إطلاق سراح الرهائن أكثر تعقيدًا. وأرسلت باريس وفدًا برلمانيًا إلى طهران في محاولة لتشخيص محاورين جدد - وهذا خطأ مثير للدهشة؛ لأنّ الدبلوماسيين الفرنسيين بطهران يؤكدون دائمًا على العلاقة الواضحة بين أزمة الرهائن والنزاع حول قرض Eurodif، ويكررون القول إنّ أكبر هاشمي رفسنجاني، وعلي أكبر ولايتي، ومحسن رضائي، يمثلون السلطات الثلاثة الأكثر مصداقية التي يمكن التفاوض معها⁽¹⁾. وفي أثناء ذلك، كرّرت طهران وبضجر مطالبها: تسوية النزاع حول قرض Eurodif، وطرد بني صدر ومسعود رجوي، وتقليص إرساليات السلاح للعراق، وإطلاق سراح أنيس النقاش. وكرّرت الحكومة الإيرانية عرضها بشراء الأسلحة من فرنسا. في يوم 7 كانون الأول 1985، هزّ انفجاران كاليري لافايت وقسم Printemps التجاري بباريس، ما أدّى إلى إصابة واحد وأربعين شخصًا بجروح طفيفة، وهي رسالة تُذكر الحكومة الفرنسية بالضرورة الملحة لتسريع المفاوضات.

باريس تتفاوض مع طهران

وفي الشهر التالي، عرضت باريس على طهران الفقرات التالية من أجل إطلاق سراح الرهائن وتطبيع العلاقات الثنائية: سيبدأ الفرنسيون إجراءات تسوية قرض Eurodif وتعويض الدفعة الأولى منه، وسيحصل أنيس النقاش على عفوّ رئاسي، وسيُمنع اللاجئون

1- Dumas, Affaires etrangeres, 349-357.

الإيرانيون بفرنسا من المشاركة بأي نشاط سياسي. أبلغت طهران القائم بالأعمال الفرنسي بطهران أن العرض غير كافٍ.

في الأيام 3، 4، 5 من شهر شباط 1986 هزّت العاصمة الفرنسية ثلاثة انفجارات (Galerie du Claridge , Gibert Bookshop , Forum des Halles) ما أدى إلى إصابة خمسة وثلاثين شخصًا ولكن من دون قتلى. ويبدو أن المتفجرات لم تكن مصممةً للقتل، وتبنت مسؤولية تلك الانفجارات "لجنة التضامن مع السجناء السياسيين العرب ومن الشرق الأوسط"، وهي حركة غير معروفة سابقًا تطالب بإطلاق سراح أنيس النقاش ورفاقه. أما السلطات الفرنسية التي أعاق عملها ذلك التنافس بين "إدارة المخابرات الداخلية" وبين "إدارة المخابرات العامة"، و"الإدارة العامة للمخابرات الخارجية" اللواتي كانت في حيرة لمن تلوم، هل تلوم الإيرانيين، أم السوريين، أم الليبيين؟ (كانت فرنسا في حرب مع ليبيا في تشاد في ذلك الوقت). تزايد الضغط على الحكومة الفرنسية بقرب الانتخابات التشريعية التي ستجري في الشهر المقبل.

وما جعل القضية أكثر تعقيدًا هو تعيين أكثر من وسيط من "التجمع من أجل الجمهورية" حزب المعارضة الرئيس آنذاك، الذي هرع إلى لبنان وإيران منذ أسابيع مبكرة للتفاوض لإطلاق سراح الرهائن ومن دون استشارة السلطات الفرنسية. واستنادًا إلى رونالد داموس، هناك زعم أن جاك شيراك أرسل مبعوثًا يعارض طلب الحكومة الاشتراكية وطلب من الإيرانيين تأجيل المفاوضات حتى إعلان نتائج الانتخابات التشريعية⁽¹⁾. أمّا أريك رولو المبعوث الخاص للرئيس فرانسوا ميتران إلى طهران؛ فقد أرسل إليه برقية يقول فيها: "المعارضة لديها اتصالات منتظمة مع الحكومة الإيرانية منذ ثلاثة أشهر... وأوعدتهم بتسوية أكثر سخاء مما عرضته الحكومة الحالية. ويقال إن المعارضة قد حذرت الإيرانيين أنها ضد أي اتفاق يمكنه مساعدة الأغلبية الحالية، ولا سيما في عيون الرأي العام الفرنسي عشية الانتخابات"⁽²⁾. لقد اعترف جاك شيراك لاحقًا لراديو أوروبا الأول (6 كانون الثاني 1987)

1 - المرجع نفسه، 353.

2 - برقية دبلوماسية من طهران رقم 217 بتاريخ 13 آذار 1986. انظر

أنه حاول تقديم مساهمة متواضعة لحل مشكلة الرهائن قبل أن يصبح جزءاً من الحكومة. وقد حاول رفسنجاني أن يقدم القضية للدخل الإيراني في بيان لصحيفة *Jeune Afrique* (19 تموز 1987) "أنا أوكد أن جناح اليمين أرسل شخصية مهمة إلى طهران للتفاوض معنا قبل الانتخابات الفرنسية في آذار 1986".

جعل هذا التنافر في "النعمة" من الصعب تسهيل عملية إطلاق سراح الرهائن. فمن الطبيعي أن الحكومة الإيرانية أفادت من هذا الجو المشحون لرفع مطالبها. وقبل أيام قلائل من إجراء الانتخابات التشريعية الفرنسية في شهر آذار 1986، تم اختطاف في قلب بيروت طاقم تلفزيون *Antenne 2* المكون من: الصحفيين فيليب روشوت، جورج هانسن، أورل كورنيا، وجين لوي نورماندي. وانضم إليهم في الحال مواطنان فرنسيان اثنان (مارسيل كوداري وكاميه سونتاج) في زنانات حزب الله. وفي الفترة نفسها أعلنت الجهاد الإسلامي إعدام ميشيل سورات الذي تم اختطافه السنة الماضية في بيروت. وسيظهر لاحقاً أن الحركة المسلحة الشيوعية حاولت إخفاء حقيقة أن هذا الباحث الفرنسي الضعيف البنية والمريض ربما لم يتحمل ظروف الاحتجاز وتوفي لأسباب طبيعية. وقد عُثر على جثته أثناء الأعمال التنقيبية في ضواحي بيروت الجنوبية في عام 2005. على أية حال، كان هناك تسعة رهائن فرنسيين معتقلين في لبنان خلال هذه الفترة، وتكررت أسماؤهم يومياً في نشرة أخبار تلفزيون *Antenne 2* الساعة الثامنة مساء لحشد الرأي العام حول مأزقهم.

كانت سلسلة الاختطافات هذه قد تصاحبت مع هجومي إرهابيين آخرين في فرنسا. في يوم 17 آذار 1986، أي بعد يوم واحد من فوز جاك شيراك في الانتخابات التشريعية انفجرت قنبلة في مطار باريس - ليون ذي السرعة العالية، ما أدى إلى جرح تسعة أشخاص. وبعد ثلاثة أيام تم استهداف *Piont Show* في *Champs - Elysees* وسط باريس، مخلفاً وراءه قتيلين وتسعة وعشرين جريحاً. لقد تم تحذير الحكومة الجديدة أنها إذا أرادت أن تنهي عمليات الاختطاف والتفجيرات فعليها التفاوض. هذا يفسر لماذا اختارت السلطات عدم اعتقال عماد مغنية قائد عمليات حزب الله المتورط بعدة هجمات على المصالح

الفرنسية في لبنان، الذي كان وجوده في منطقة باريس الكبرى وتم كشفه من قبل "إدارة المخابرات الفرنسية الخارجية" وبوساطة من المخابرات اللبنانية⁽¹⁾.

يبدو أن الرسالة وصلت مباشرة إلى جاك شيراك الذي عُيِّنَ فريقًا مصغّرًا برئاسة رئيس وزرائه موريس أوليرخ للتفاوض مباشرة مع طهران. وجلب رئيس الوزراء معه صديقه هوفويت بوانيي Houphouet-Boigny رئيس دولة ساحل العاج الذي يتمتع بعلاقات ممتازة مع الطائفة الشيعية في أبيدجان، الذي بدوره له على علاقات جيدة مع طهران. أظهر شيراك لطهران حسن نواياه بالموافقة على إبعاد مسعود رجوي، لكنه أكد استمرار بني صدر بالتمتع بالحماية الفرنسية. وهكذا بدأ الدفء يدبُّ في العلاقات الثنائية بين البلدين. في يوم 22 مايس رحّب جاك شيراك رسميًا بالرئيس الإيراني مير-حسين موسوي في باريس. واستمرت المفاوضات من دون انقطاع. أعلنت فرنسا أنها مستعدة لتعويض الدفعة الأولى من قرض Eurodif، ومناقشة الفقرات التعويضية لبقية القرض، وستعمل قصارى جهدها لإطلاق سراح أنيس النقاش ورفاقه، وإيقاف مناقشة صفقات السلاح مع العراق، وأن توازن علاقاتها بين طرفي القتال.

في يوم 20 حزيران 1986 أُطلق سراح فيليب روشو وجورج هانسن في بيروت. واستمرت المفاوضات حتى فصل الصيف، ولكنها تعقّدت لوجود وسطاء إضافيين في الجانب الفرنسي ومن بينهم شارل ماركيانى المستشار المقرب من وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكو، وفيليب روندو الوكيل السابق لإدارة المخابرات الفرنسية الخارجية، الذي أُعيد تعيينه في إدارة DST (إدارة المخابرات الداخلية)، والإسكندر دي مارينشييه الرئيس الأسبق للمخابرات السرية الفرنسية. ومرةً أخرى، لم يكن التنسيق في الجانب الفرنسي متناسقًا جدًّا، ممّا أعطى الإيرانيين الانطباع أن الفرنسيين يتفاوضون على وفق أجندات مختلفة. ولم تكن أولويات ميتينون وزير الشؤون الخارجية هي نفسها عند وزير الداخلية، ولم يتفقوا على مدى الثقة بالإيرانيين، ولهذا على الطرق والوسائل للوصول إلى نتائج

1- هذه أكدها للمؤلف المدير السابق لجهاز المخابرات الإلكترونية اللبنانية بشرط عدم ذكر اسمه. تم اغتيال عماد مغنية

في دمشق من الموساد في 12 شباط 2008.

ناجحة. ولذلك؛ ظهر الخلاف مرةً أخرى بين باريس وطهران، وعادت المشاكل بين الطرفين حول الاتفاق على المبلغ الدقيق لدين Eurodif⁽¹⁾.

ادّعت الحكومة الإيرانية مرةً أخرى حقها للوصول إلى اليورانيوم المخصب، وأشارت إلى حصصها في كونسورتيوم Eurodif. والأسوأ من ذلك، رفض فرانسوا ميتران منح أنيس النقاش العفو الرئاسي، وأبدى ارتياحه من الاتفاقية التي تم التفاوض عليها في الشهرين الماضيين. كان الرفض الرئاسي وسيلةً للانتقام من رئيس الوزراء لتأجيله المفاوضات التي منعت الاتفاق بين فرنسا وإيران قبل الانتخابات التشريعية. وبذلك، دفع الرهائن الفرنسيون ثمن تعايش الحكومة حتى وصلت المفاوضات في مطلع شهر أيلول إلى نهاية مسدودة. ولذلك؛ هاجمت قواربُ الباسدران المسلحة في الخليج ولأول مرة ناقلات النفط الفرنسية Chaumont، Brissac، D'Artagnan، كما لو أراد الإيرانيون تذكير السلطات الفرنسية بوجودهم.

في يوم 8 أيلول 1986 انفجرت قنبلة في دائرة بريد مبنى الحكومة المحلية لباريس لتقتل شخصاً واحداً وتجرح واحداً وعشرين آخرين. كان الهدف رمزاً مناسباً، ولا سيّماً أنّ جاك شيراك كان محافظاً ورئيس وزراء للعاصمة الفرنسية من فترة لأخرى. وسيكون من الصعب تجاهل حقيقة أنّ الهجوم مجرد إشارة واضحة، ولا سيّماً أنّ CSPPA (لجنة التضامن مع السجناء السياسيين العرب والشرق الأوسط) ادّعت مسؤوليتها عن الهجوم، والتي استمرت بالمطالبة لإطلاق سراح أنيس النقاش. وبعد أربعة أيام انفجرت قنبلة في المخزن التجاري Quatre-Temps في موقع La Defence، ما أدى إلى جرح أربعة وخمسين شخصاً. وبعد يومين، وقع انفجارٌ في بار رينو في Champs-Elysees وقُتل شخصان فقط. وبعد يوم واحد، انفجرت قنبلة في قلب مقرات الشرطة بباريس، ما أدى إلى مقتل شخص واحد وجرح ستة وخمسين شخصاً. وأخيراً، وقع هجوم إرهابي في شارع de Rennes في يوم 17 أيلول. وذكر عمّال الإغاثة سبعة قتلى وخمسة وخمسين جريحاً. وبذلك بلغ مجموع الضحايا في سلسلة الهجمات التي ادعت لجنة التضامن مع السجناء السياسيين العرب

1 - خمن الفرنسيون في ذلك الوقت الدين "الصافي" بسبعمئة وخمسين مليون دولار (بعد أن خصموا جزءاً من المبلغ عن دين طهران نتيجة إلغاء بناء محطة للمفاعل النووي السلمي) في حين كان يطالب الإيرانيون بملياري دولار.

والشرق الأوسط مسؤوليتها ثلاثة عشر قتيلاً وثلاثمئة جريح، والكثير منهم من تعرّض للتشويه والإعاقة. وفي اليوم التالي، تم اغتيال الملحق العسكري الفرنسي بلبنان كريستيان جوتير Christian Gouttiere في بيروت.

كانت السلطات الفرنسية تكافح من أجل فهم مغزى سلسلة الهجمات هذه، فهل تهدف إلى الضغط عليهم ليكونوا أكثر مرونة في المفاوضات؟ أم كانت من جماعة متطرفة تريد إحباط المناقشات وإضعاف موقف أولئك في طهران الذين يؤيدون الحوار مع الغرب؟ وبغض النظر عن الجواب، اتصل علي أكبر ولايتي بوزير الشؤون الخارجية الفرنسي جان برنارد ريمون Jean-Bernard Raimond في يوم 22 أيلول وعرض لقاءه والاستمرار بالمفاوضات. تسارعت المفاوضات واتفق الطرفان في يوم 27 تشرين الأول على تحديد مبلغ قرض Eurodif، وتعهد جاك شيراك ببذل كل ما يستطيع لإطلاق سراح أنيس النقاش. ومع ذلك، رفض رئيس الوزراء قبول الطلب الإيراني بالحصول على اليورانيوم المخصب. ولذلك؛ سافر جان كلود تريشييه Jean-Claude Trichet الذي كان وزير الدولة بوزارة المالية وسيصبح مديرًا للبنك المركزي الأوروبي - إلى طهران؛ بهدف إجراءات تحديد مبلغ الدفعة الأولى من قرض Eurodif.

في يوم 11 تشرين الثاني 1986 تم إطلاق سراح اثنين من الرهائن الفرنسيين (مارسيل كوادري وكاميله سنوتاج) بلبنان. وبعد ستة أيام تم اغتيال المدير المفوض لشركة رينو جورج بيس Georges Besse أمام منزله، وادّعت منظمة العمل المباشر مسؤوليتها عن الهجوم. واستنادًا إلى مصادر صحفية مؤكدة، وقسم من المخابرات السرية الفرنسية أنّ الاغتيال تم إعداده من إيران انتقامًا لعدم حصولها على اليورانيوم المخصب الذي تعتقد أنّ من حقها الحصول عليه⁽¹⁾. كان جورج بيس العمود الفقري لمشروع قرض Eurodif وهو

1- انظر كتاب:

Dominique Lorntez, Secret atomique, ou la veritable histoire des Otages francais au Liban(Paris:LR Arenes,2002),32-33; Roger Faligot and Jean Guisnel, Histoire secret de la Ve Republique (Paris:La Decouverte,2006),252;

والفلم الوثائقي الذي أنتجه David Carr-Brown بعنوان "الجمهورية النووية" الذي عرض على قناة Arte في 14 تشرين الثاني 2001.

الذي ناقش فقرات مشاركة إيران في الكونسورتيوم. ومنذ قيام الجمهورية الإسلامية كان من المناوئين علانيةً لاستئناف التعاون النووي مع إيران. واستنادًا إلى أولئك الذين يساندون هذه النظرية فإن منظمة العمل المباشر وافقت على أن تأخذ على مسؤوليتها الادعاء بالاغتيال مقابل المساندة اللوجستية من الحركات الإرهابية العاملة من طهران. إذا كانت الحكومة الإيرانية وراء حادثة الاغتيال ستكون الأجواء متقلبة بين الحرارة والبرودة مرةً أخرى. ومع ذلك، دفعت باريس في يوم 22 تشرين الثاني 1986 لطهران مبلغ 330 مليون دولار عن الدفعة الأولى من قرض Eurodif⁽¹⁾. وفي الشهر التالي استقبلت باريس وفدًا إيرانيًا وتزامن ذلك مع إطلاق سراح الصحافي الفرنسي أوريل Aurel Cornea في بيروت. يوجد الآن أربعة رهائن فرنسيين في لبنان مع ثلاثين آخرين غربيين تستخدمهم طهران ورقة مساومات حينما لا يكون الدافع المادي كافيًا لإقناع الممثلين الأجانب بدعم القوة العسكرية الإيرانية وتعزيزها.

1 - صحيفة Le Matin في 24 تشرين الثاني 1986؛

الفصل التاسع عشر

المال لا رائحة له

انتَهز كلٌّ من العراق وإيران سكون الجبهة وهدوءها في ربيع عام 1984 لإعادة تجهيز الذخيرة والحصول على أسلحة جديدة، فضلاً عن قطع الغيار والآليات المختلفة، ولا سيّما أنّ سوق الأدوات الاحتياطية والآليات أصبح مربحاً؛ بسبب ظروف الجو القاسية وطبيعة الأرض التي أدت إلى أعطال لا حصر لها. وبقاء أسعار النفط مرتفعة جداً أعطى كل من الإيرانيين والعراقيين فرصة مؤاتية للمناورة، على الرغم من أنّ مواردهم المالية تتضاءل وإجبارهم على الذهاب إلى خيارات متطرفة.

لم يواجه العراق صعوبات كثيرة في الحصول على الإمدادات، ولا سيّما أنّ نحو ثلاثين بلداً يرغب ببيعه مباشرة ما يحتاجه من معدات عسكرية. وهذه الدول مستعدة لبيع السلاح للعراق علانية وبارتياح؛ لأنّه قد تم تقديمه لها كضحية لجمهورية إيران المثيرة للحرب والتطرف منذ صيف عام 1982. وثلاث من هذه الدول هي: الاتحاد السوفيتي، وفرنسا، والصين كانت تجهز 85% من احتياجات العراق. وفي البداية، كان النظام العراقي مهتماً بجعل البلدان المجهزة تتنافس بينها لمنح العراق أفضل الأسعار. وحينما بدأت موارده المالية بالتضاؤل، أصبحت أولويته الاحتفاظ بمصداقيته المالية، فقد ضاعف طارق عزيز من جولاته الدبلوماسية؛ من أجل إقناع دائني العراق لتنظيم دفعات الدين العراقي. ولم ينجح

على الدوام، فبعض الدول مثل إسبانيا والبرتغال سرعان ما تحولت نحو إيران حينما لم يعد العراق قادرًا على الإيفاء بديونه في الحال. ولحسن الحظ، تمكنت بغداد من الاعتماد على الدعم المالي من دول مجلس التعاون الخليجي. وهذا سمح للنظام البعثي تجنب شراء السلاح من سوق السلاح الموازي وغير الرسمي.

كانت إيران من جانب آخر في وضع أكثر دقة، على الرغم من أن البلد لم يكن معرضًا لحظر الأمم المتحدة رسميًا، لكنه كان تحت الحظر من الولايات المتحدة التي كانت تهدد أية دولة تعمل على شحن المعدات الحربية لطهران بالعقوبات الاقتصادية. ولكن هناك بعض البلدان التي تريد أن تكسب بعض الصفقات وتعلم أن لا شيء يمنعها من الخوف أو تتوقع من واشنطن علانية خرق حظرها. وهذه البلدان يمكن عدها على عدد أصابع اليد مثل: سوريا، ليبيا، الصين، وكوريا الشمالية. وهذه البلدان مجتمعة توفر لإيران ثلث احتياجاتها العسكرية فقط. وأجبرت طهران على ابتداء طرق للبحث عن الثلثين الباقين. تمكن القادة الإيرانيون من خلال الإغراءات المتبادلة، والمكافآت، والتهديدات المبطنة من إقناع خمس وعشرين دولة لتجهيزهم بالمعدات العسكرية، أو إذا فشلت تلك الدول في تلبية ذلك، فعليها أن تغمض عينيها عن نشاطات بعض شركائها⁽¹⁾. وفي عدة حالات اضطرت إيران إلى شراء التجهيزات العسكرية من السوق الموازي وبأسعار عالية جدا، وهذا ما يضعهم في تجارة مع متاجرين موثوق بهم بشكل أو بآخر، فضلا عن عدد قليل من المحتالين الذين يحلقون عاليًا في خدعهم وبوقاحة. كان بنهام نوجومي Benham Nodjoui من الأمثلة على هؤلاء الذي تمكن من بيع الإيرانيين أربعة وثلاثين قفصًا ممتلئًا بسكراب الحديد، وعلى أنها تحتوي على صواريخ تاو المضادة للدبابات. اختار نوجومي - الذي يسكن في لندن - تسليم نفسه للسلطات البريطانية وقضاء فترة طويلة بالسجن، أفضل له من مواجهة وكلاء إيران لاغتياله في أثناء محاكمته.

كانت الحكومة الإيرانية بأمس الحاجة إلى الذخيرة وقطع الغيار، فضلًا عن الأسلحة الخفيفة لتسليح الأعداد الكبيرة من المجندين الجدد من المشاة. وقد بنى الإيرانيون الطرق

٦- الملحق رقم 6 من قائمة مفصلة عن الدول التي سلّحت إيران والعراق.

السابقة نفسها للحصول على التجهيزات، وبغض النظر عن المتعاملين معهم. كان مجلس الدفاع الأعلى ينعقد أسبوعياً لفحص العروض المتسلّمة. وكان التمثيل الأكبر في المجلس للباسدران؛ لأنّهم يعلمون أنّ أغلب تلك المعدات ستنتهي بأيديهم، وكانت القرارات تؤخذ بالإجماع. وحينما يجيز المجلس أحد العروض يكلف المكتب الأقرب إلى جهة العرض بدء المفاوضات مع البائع أو الوسيط، ويتم إخبار إيران بتقدم المفاوضات، والحكم في حالات عدم الاتفاق. كانت التجارة مع أوروبا تتم من طريق الباطن من خلال الغرف الخلفية لطهران في لندن وفرانكفورت، وبمعرفة أنّ السلطات البريطانية والألمانية ستساهل مع إيران؛ من أجل مصالحهم التجارية الخاصة بهم.

في هذا السوق الظل، أصبحت لندن محور بيع السلاح لإيران. وقررت إيران أيضاً أن تكون لندن قاعدة لفرع مهم لشركة النفط الوطنية الإيرانية التي كانت تُستخدم واجهة لدفع أثمان مشتريات السلاح من أوروبا. كان النظام الإيراني يعمل من خلال غطاء شركتين وكلاهما مؤسسة جيدة في لندن وهما: JSC الدولية والمسجلة في إحدى جزر البحر الكاريبي، وMetro الدولية التي تمتلك إيران نسبة 51٪ من رأسمالها، في حين يملك رجال المال من الباكستانيين والعرب نسبة 49٪ الباقية. ويدير أنظمة العمل ثلاثة أفراد وهم: عزيز نزاقتخاه المقرب من آية الله الخميني ويعمل ملحّقاً تجارياً في السفارة الإيرانية في بريطانيا، وكان يُعرف "بالسيد 10٪"، وصادق طباطبائي وهو نسيب المرشد الأعلى والصدّيق المقرب من أحمد خميني والذي يتنقل بين لندن وطهران، وهو شائع ليفي وهو رجل أعمال إيراني ذو علاقات واسعة النطاق⁽¹⁾. وفي الولايات المتحدة اعتمد الإيرانيون على بلانيان هاشمي، وهو رجل أعمال ثري جداً هرب من إيران بعد سقوط الشاه، ويحاول الآن تبرئة نفسه من خلال خدمة النظام الجديد والتوسط له.

أمّا بالنسبة إلى سوق السلاح؛ لم يتوقف النظام الإيراني عن دفع الرشوة لأيّ شخص يجلب صفقة مهمة. وكان يعتمد على جشع الكثير من الوسطاء المستعدين لتجاهل التحريم

1 - هذه المعلومات كلّها أكدتها روايات الدبلوماسيين الإيرانيين السابقين، وأخذناها من كتاب

Walter de Bock and Jean-Charles Deniau, Des armes pour L' Iran (Paris:Gallimard,1988).

الخاص ببيع الأسلحة الذي تفرضه حكوماتهم. مارست شخصيتان دورًا محوريًا في تجهيز إيران مخالفين علانية سياسات بلدانهم وهما: السعودي عدنان خاشقجي، والأمريكي فرانك كاردوك. وهناك أمريكي آخر شغل عناوين الصحافة في تهوره في صفقات مشابهة وهو مارك برومان، وهو مدير دائرة التعاون العسكري بالسفارة الأمريكية بباريس. عرض بومان بيع الإيرانيين ثلاثين طائرة فانتوم مقاتلة تعمل بالقوة الجوية المصرية، على الرغم من أن المصريين يقفون إلى جانب العراق في الحرب. كانت خطته تقوم على إقناع المصريين بشراء عددٍ مماثلٍ من طائرات F-16 مقابل شراء طائراتهم الفانتوم بصورة وهمية من قبل البارغواي، حيث يملك هذا الدبلوماسي الأمريكي المرثشي هناك أصدقاء متعددين مستعدين دائمًا لتكليف أية قواعد؛ من أجل مهمة يسيل لها اللعاب. لكن الصفقة انكشفت وألغيت، وتم اعتقال المحرّض عليها، حيث حكمت عليه محكمة أمريكية بالأحكام الثقيلة.

التجارة تعني التجارة

كانت الأمور أكثر بساطة عند تعامل طهران مع ممثلين لدول معروفة بحياديّتها ومحترمة سياسيًا. في أوروبا تعدُّ النمسا والسويد وسويسرا من الشركاء المحترمين التي تملك ذوقًا جيدًا ولا تهتمُّ كثيرًا بالبترول الذي يدخل في خزائنها. باعت النمسا إيران 140 مدفع هاوتزر نوع GHN-45 مع كمية ممتازة من الذخيرة. وأرسلت سويسرا 15 طائرة للأغراض العملية نوع PC-6 Turbo Porter، و47 طائرة تدريب نوع PC-7 Turbo، ومعدات تشفير، فضلًا عن كميات كبيرة من الذخيرة وقطع غيار رادار إلكترونية. وعلى الرغم من أن السويد قد أقرت منع تصدير الأسلحة لدول في حالة حرب، فإنّها زوّدت إيران بمصنع ذخيرة جاهزة للاستخدام، و300 صاروخ أرض - جو نوع RBS-70، و40 قاربًا مسلحًا خفيف الحركة مخصّصًا للقوة البحرية لباسدران. كانت هذه الموجة من الطلبات منّة من السماء لمجموعة Karlskoga للصناعة العسكرية، وكذلك بالنسبة إلى شركة Bofors التي باعت دون تمييز لطرفي القتال كميات هائلة من الذخيرة، ولا سيّما القذائف المضادة للطائرات.

أثار هذا البيع غير القانوني للأسلحة عمليات بحثٍ وتحريٍّ واسعة أدت في العام 1987 إلى اتهام شركتين سويديتين هما CEOs Mats Lundberg & Karl-Erik Schmitz لقيامهما بخدمات بصفة وسطاء في سوق السلاح الأوروبي الموازي. وخلال سير التحقيق اكتشفت الكمارك السويدية إرسال ذلك الكارتل ثلاثين طنًّا من البارود والمتفجرات لطهران، ما سمح لها بتصنيع جبال من الذخيرة في المصنع الذي جهّزته السويد به. كان لهذا الكارتل فروع في المملكة المتحدة، فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، هولندا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال، اليونان، النمسا، سويسرا، فنلندا، والنرويج⁽¹⁾ كما خدمت شبكة من الموانئ الأوروبية لتوريد المتفجرات لطهران مثل زيبروج في بلجيكا، ستوبال في البرتغال، وسانتاندير في إسبانيا، وجنوا وتلامون بإيطاليا، وبيرايوس باليونان. واستخدم ممثلو هذا الكارتل عدة شركات شحن واستأجروا شركتي طيران هما: Scanco التي يرأسها كارل أريك شمديت Karl-Erik Schmitz، وسانتا لويسا Santa Lucia للطيران المسجلة في جزر البحر الكاريبي. كانت اليونان إحدى القنوات الرئيسة لإرسال الشحنات إلى إيران. والانفجار الضخم الذي دمر أحد المعامل في ضواحي أثينا في شهر مايس 1987 ربّما لم يكن صدفةً؛ لأنّ المعمل كان ينتج ذخيرةً لإيران. والكثير من يشكُّ أنّ المخبرات العراقية كانت وراء ذلك الانفجار. ولذلك؛ أغلق القضاء اليوناني القضية بسرعة.

ومن أجل بيع مثل تلك الكميات الضخمة من المتفجرات بسرية تامة، كان الكارتل بحاجة إلى وجود مشترٍ قانوني يوافق على التخلي عنها لطرف ثالث. ولذلك؛ حصل الكارتل على شهادة المستخدم النهائي؛ لكي يتمكن من الحصول على إجازة التصدير. تولّى اليوغسلاف تلك المهمة مقابل حصولهم على عمولة بنسبة 3% لكلِّ صفقة⁽²⁾. وتزامن ذلك مع شحن اليوغسلاف ووبرود فرقاطة تدريب للعراق، وثلاث كاسحات ألغام، ومئة بندقية نوع D-30، و300 هاون، عشرات الآلاف من الأسلحة الخفيفة، وملايين القذائف والإطلاقات، وبمبلغ قدره أكثر من مليار دولار. وهكذا حصل اليوغسلاف الأفضل من كلا الطرفين.

1- de Bock and Deniau, Des armes pour L'Iran, 73ff.

2- Ibid.P.113.

حتى بلجيكا سمحت لنفسها بالإغراء حينما عرضت إيران الدفع بسخاء لشراء خمسين طائرة اعتراضية F-104 Star fighter كانت القوة الجوية البلجيكية تريد تفريغها. وعلى الرغم من تدخل البرلمانين الاشتراكيين لمنع بيعها في اللحظات الأخيرة، فإن الحكومة تمسكت بأبدان تلك الطائرات وباعت للإيرانيين المحركات فقط التي زود بها الإيرانيون طائراتهم الفانتوم (طائرات F-4 و F-104 تستخدم المحركات نفسها). وعلى الرغم من فشل الإيرانيين في الحصول على الطائرات F-104 البلجيكية، فإنهم حصلوا على اثنتي عشرة طائرة فانتوم (F-4Ds) من كوريا الجنوبية، واثنتي عشرة أخرى نوع Tiger من الحكومة الإثيوبية التي كانت على استعداد لعمل أي شيء؛ للحصول على القليل من ملايين الدولارات.

انتشر المشترون الإيرانيون في كل مكان للحصول على الأسلحة وشرائها، سواء في أوروبا، أم الشرق الأوسط، أم آسيا، وحتى إفريقيا وأمريكا الجنوبية. وأصبحت كل من جنوب إفريقيا والبرازيل من الميالين للانضمام إلى شركاء إيران في توريد السلاح. باعت جنوب إفريقيا لطهران نحو ثلاثين مدفع هاوتزر متطوراً جداً ذا 155 ملم (G5) مع كل ما تحتاجه من ذخيرتها. وجهزت البرازيل طهران بخمسة آلية مدرعة نوع Cascaval و Urutu وكميات كبيرة من القذائف.

وبالمجموع، أسهمت نحو أربعين دولة في المجهود الحربي للعراق وإيران. وفي وقت ما، جهّز نصف تلك الدول الدعم المادي لكل من البلدين المتحاربين، ومن بينها الأعضاء الخمسة الدائمين بمجلس الأمن بالأمم المتحدة. في أوروبا، كانت أيرلندا فقط حافظت على يدها نظيفة في هذا النزاع. وكل الدول الأخرى تورطت بدرجة أو بأخرى في بيع المعدات الحربية لواحد من طرفي الصراع، وفي الغالب لكليهما. لقد تطلب الأمر الكشف عن الفضائح السياسية والمالية لإجبار بعض البلدان، ومن بينها فرنسا، لوضع قضاياها بشكل منتظم.

في 28 شباط 1986 وقبل وقت قصير من الانتخابات التشريعية الحاسمة التي أدت إلى قيام أول حكومة متعايشة في الجمهورية الخامسة، كشفت صحيفة La Press de la Manche الإقليمية أن شركة لوشير كانت تُهرَّبُ الذخيرة لإيران منذ عدة سنوات، حيث غادرت الآن

ثلاث سفن شحن من ميناء شيربورغ وعلى متنها أعتدة حربية متوجهة إلى ميناء بندر عباس بإيران. وقبل أشهر قليلة سلّطت صحيفة *Le Canard enchaîné* الضوء على القضية نفسها تقريبًا. لكن رونالد دوماس المحامي السابق لمجلة نيوزويكلي الساخرة أقنع المحرر كلود انجلي الامتناع عن نشر ذلك؛ لأنّ الكشف عن تلك الفضيحة سيعقّد قضية إطلاق الرهائن الفرنسيين المختطفين بלבنا⁽¹⁾.

وفي مطلع ربيع عام 1984 أبلغ الأدميرال بيير لاکوست مدير الإدارة العامة للمخابرات الخارجية (DGSE) والجنرال آرمند ووترن مدير الأمن العسكري وزير الدفاع الفرنسي شارل أورنو حول نشاطات شركة لوشير⁽²⁾. كانت شركة لوشير تدار من دانيال ديوافرين Daniel Dewavrin وهو ابن الكولونيل باسي Passy مؤسس أجهزة مخابرات فرنسا الحرة خلال الحرب العالمية الثانية. كان ديوفرن يعتقد أنّ سمعة والده ستوفر له الحماية من أيّ إجراءات قانونية، ولا سيّما أنّه لا يوجد حظر رسمي على بيع المعدات العسكرية لإيران. ورفض جان فرانسوا دوبوس Jean-Francois Dubos المستشار المقرب من وزير الدفاع وأحد أعضاء حلقة الوزراء المصغرة أيّ طلبٍ للتحقيق في القضية وفي مناسبات متعددة، على الرغم من التحذيرات المتكرّرة من الضابطين الكبارين في أعلاه. يبدو أنّ موقفه مثير للاستغراب، ولا سيّما أنّه قبل عدة سنوات نشر كتابًا يُدين فيه السياسة الفرنسية حول بيع الأسلحة⁽³⁾. وفي يوم 21 ميس 1984 أبلغ الأدميرال لاکوست الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران حول حجم تلك التجارة غير القانونية المتضمنة عدة مئات آلاف من القذائف الحربية. تفادى الرئيس الفرنسي القضية مقترحًا أنّ مدير المخابرات تحدث مباشرة مع شارل أورنو وهو مراوغ بارع، وتحجّج بتغيير المسار الذي شرعه الرئيس لتبرير انغماس مجلس وزرائه في هذه القضية. أجبر شارل أورنو على التنحي من منصبه؛ بسبب فضيحة *Rainbow Warrior*، واستمرت الحكومة في غمض عينيها عن نشاطات شركة لوشير.

1- Ibid.P.205.

2- أكد ذلك للمؤلف الأدميرال Pierre Lacost.

3- Jean Francois Dubos, Vent d'armes : Une politique(Paris Gallimard, 1974).

في 16 آذار 1986 وقبل ثلاثة أيام من الانتخابات التشريعية الفرنسية، وجّه بول كويلز Paul Quiles خليفة شارل أورنو كوزير للدفاع الاتهامات لشركة لوشير لخرقها التشريعات المتعلقة ببيع الأسلحة وجعلها وسيلةً للتحريض على الطبقة السياسية الفرنسية، وعلى أمل أن تخفف من النتائج السلبية للانتخابات. لم تكن لجهوده تلك أهمية كبيرة، حيث خسر الاشتراكيون الانتخابات، وعاد اليمين إلى السلطة، وأمر أندريه جيرو Andre Giraud وزير الدفاع الجديد التوقف الفوري عن إرسال الذخيرة إلى إيران. وطلب من جان فرانسوا باربا Jean-Francois Barba المراقب العام للجيش التحقيق السريع والمفصل والوصول إلى عمق فضيحة لوشير. كان لدى باربا كارتٌ أبيضٌ لتدقيق حسابات الشركة والاطلاع على كل الوثائق، والتحقيق مع كل شخص متورط في القضية. وبعد شهرين قدم تقريره إلى وزير الدفاع. كانت خلاصاته كارثية بالنسبة إلى شارل أورنو، جين - فرانسوا دوبوس، والمدير التنفيذي للشركة دانييل ديوفرن. وظهر أن شركة لوشير شحنت لإيران ما يقرب من خمسمئة ألف قذيفة 155 ملم و203 ملم مستخدمة شهادات مزورة تشير إلى أن وجهة تلك الشحنات كانت البيرو، البرازيل، تايوان، اليونان، ويوغسلافيا. وظهر أن شارل أورنو كان يغطي تلك التجارة غير القانونية، وكان جين - فرانسوا دوبوس - وهو من أقرب مستشاريه - يبلغه بالتفاصيل، في حين كان المستشارون الآخرون ينظرون باتجاه آخر⁽¹⁾.

لقد منح الكثير من كبار الموظفين الكبار بوزارة الدفاع دانيال ديوفرن من خلال رخص التصدير مصداقية إضافية بمساعدته في تقديمهم إلى اللجنة القطاعية للوزارات لفحص المواد الحربية المعدة للتصدير (CIEEMG). ويقال إنه تم دفع أكثر من مئة مليون فرنك فرنسي لوسطاء مختلفين "نفقات تجارية خارجية" كما وصفتها بتواضع شركات السلاح. وأخيراً، ادّعى باربا أنه تم دفع ثلاثة ملايين فرنك - كما يقال - إلى اثنين من أعضاء حلقة أورنو الأساسيين، وهما: أندريه فالكوز Andre Falcoz وفرانسوا دياز Francois Diaz وكلاهما من المقربين جداً للاشتراكيين⁽²⁾. ومع ذلك توصل مراقب الحسابات باربا إلى

1- لإلقاء نظرة شاملة على هذه الشخصيات المتورطة في هذه القضية وبعضهم سيشتغل مناصب مهمة، انظر تقرير Barba

الذي تم نشره كاملاً في كتاب de Bock and Jean-Charles Deniau في الملحق إلى Des armes pour L'Iran.

2- Jean Guisnel, Charles Hernu ou la Republique au Coeur (Paris Fayard, 1993), 493-496.

نتيجة بعدم وجود أموال دفعت مباشرة إلى الحزب الاشتراكي، لكن في أحد هوامش التقرير ذكر الأدميرال بيير لاكوست أنه يعلم أن عمولة بنسبة 3٪ على بعض الصفقات التي وقعتها شركة لوشير مع إيران كانت من المفترض أن تذهب إلى الحزب الاشتراكي⁽¹⁾. وصرح الجنرال آرموند أنه متأكد أن تجارة السلاح غير القانونية كانت تمويل الحزب الاشتراكي، على الرغم من تراجعها لاحقاً عن تصريحه هذا، ومن دون إعطاء سبب مقنع لذلك التراجع. قررت الحكومة وهي محرجة المحافظة على هدوئها حول الوضع، حتى نشرت صحيفة نيوزويكلي L'Express تقرير باربا في عددها بتاريخ 16 كانون الثاني 1987 لجلب انتباه القضاء للفضيحة. في 17 تشرين الأول طلب مدير التدقيق ميشيل ليجراند Michel Legrand من وزارة الدفاع إرسال التقرير. في شهر كانون الأول أشار إلى دانيال ديوفرن وجين - فرانسوا دوبوس بالفساد باستخدامهم وثائق مزورة وخرق التشريعات المتعلقة بتجارة السلاح. ولم يتم التحقيق بعد مع شارل أورنو، حيث ظهر بسرعة أنه شخصياً لم يحصل على أي شيء من الناحية المالية. ومع ذلك، أوضحت القضية علاقته الغامضة مع شركات صناعة السلاح. بدأ التحقيق في شهر كانون الثاني 1988 واستغرق سبعة عشر شهراً، خلالها فشل القاضي Legard في رفع الصفة السرية عن بعض الوثائق الأساسية، والبرهنة على أن الحزب الاشتراكي تسلّم بعض تلك العمولات. لقد أدرك في الحال أن الكشف عن الكثير من الاختلالات الوظيفية قد يمنعه من الحكم على دانيال ديوفرن وجين - فرانسوا دوبوس دون إلحاق الضرر الجدي بمصداقية وزارة الدفاع⁽²⁾. وفي يوم 16 حزيران 1989 حينما عاد الحزب الاشتراكي إلى الحكومة، لم ير القاضي بدءاً من غلق القضية.

لماذا تعاملت الحكومة الفرنسية مع قضية لوشير بهذا الحذر المتطرف؟ ربما بسبب أن أحزاباً سياسية أخرى تمتعت برشاوى مشابهة. أو ربما بسبب كان على الحكومة أن تمضي قدماً بحذر مع إيران؛ لأنها من المعروف على نطاق واسع تملك مفتاح إطلاق سراح

1- تقرير Barba في كتاب de Bock and Deniau, Des armes pour L'Iran, 253. وأكد ذلك للمؤلف الأدميرال Pierre Lacost.

2- Gilles Geatner, "L'affaire Luchaire," L'Express, 30 March, 1995.

الرهائن الفرنسيين المختطفين في بيروت. وأخيرًا، ربما الحكومات الفرنسية التي تعاقبت الواحدة بعد الأخرى للمدة 1984-1989 تعلم أن الشركات الفرنسية متورطة بتهريب المعدات العسكرية إلى إيران. على سبيل المثال، كانت الشركة الوطنية للبارود والمتفجرات التي تحمل الدولة أسهمها الرئيسة قد أرسلت 250 طنًا من البارود إلى إيران للمدة 1983-1985؛ لكي تُنتج ذخائرها بنفسها. ويقال إن الشركة أرسلت إلى إيران بارودًا ومتفجرات أكثر من ذلك من طريق الكارتل الأوروبي بقيادة المدير التنفيذي للشركة الفرنسية أعلاه غاي شوفالييه Guy Chevallier والسكرتير العام للكارتل بالوقت نفسه⁽¹⁾. وفي العام 1987 طرد وزير الدفاع الفرنسي المدير العام للشركة الفرنسية أعلاه؛ بسبب استمراره في بيع البارود لإيران بعد أن أمرته الحكومة بوقف كلّ تعاونه مع الجمهورية الإسلامية.

واستمرت شركات أخرى - ولو على خجل - باللعب بالورقة الإيرانية، على الرغم من التحذيرات الحكومية، حيث أرسلت شركة Manhurin إلى طهران كميات كبيرة من الاسطوانات الصغيرة الفارغة لإطلاقات البنادق الخفيفة، ويقال إنها خطّطت لبناء مصنع لإنتاج الذخائر في إيران. وباعت شركة Matra لإيران رادارًا فضلًا عن ألفي جهاز لتدمير القنابل المقذوفة من الجو. وعلى الرغم من أن شركة Thomson-CSF منخرطة بقوة في بيع السلاح للعراق، لكنّها أرسلت إلى إيران 200 كاميرا حرارية ليلية لتكبيها على طائرات القوة الجوية الإيرانية. ويقال إنّه حتى الإدارة العامة للمخابرات الخارجية (DGSE) شحنت إلى إيران صواريخ مضادة للدبابات نوع "ميلان" من طريق شبكات المقاومة الأفغانية لتسهيل إطلاق سراح الرهائن الفرنسيين في لبنان⁽²⁾. وأخيرًا، يقال إنّ وكالة الفضاء SNIAS كانت على وشك أن تباع الجيش الإيراني طائرات نقل نوع ATR-42 لاستخدامهما للنقل التكتيكي. وقد انسحبت في اللحظات الأخيرة بعد أن تسلّمت نصيحة حكومية بوقف كلّ اتصالاتها مع إيران، وكان ذلك في أثناء ظهور فضيحة شركة لوشير للعلن. ربما كانت فضيحة لوشير في الواقع الشجرة التي تخفي وراءها غابة؟

1- كل هذه المعلومات في هذه الفقرة أخذت من كتاب

de Bock and Deniau , Des armes pour L'Iran.

2- Roger Fallgot and Jean Guisnel, Histoire secrete de la Ve Republique (Paris: la Decouverte,2006),254; Jean Christophe Notin, La Guerre de L'ombre des francals en Afghanistan: 1979-2011(Paris Fayard,2011).

أسلحة كيميائية تحت الفحص

إنَّ دافع الربح شجّع بعض الشركات على مساعدة العراق للحصول على كميات كبيرة من الأسلحة الكيميائية. فمنذ بداية الحرب مع إيران سعى النظام العراقي إلى الحصول على برامج "لأسلحة خاصة"، لاستخدامها حصراً في الدفاع عن الأرض العراقية وفي الحالات الاضطرارية الطارئة. واستخدم هذا الاسم الخفي واجهةً للأسلحة الكيميائية المحرمة الاستخدام دولياً بموجب بروتوكول جنيف لعام 1925⁽¹⁾. ونتيجة للآثار المرعبة التي تركتها استخدامات الغازات في الحرب العالمية الثانية، اتفق المجتمع الدولي على تحريم استخدامها في ميدان المعركة. ومنذ ذلك الوقت، استخدمتها إيطاليا فقط في أثناء استعمارها لإثيوبيا، وبخلاف ذلك كانت نظرية الردع فعّالةً. وحتى في ذروة الحرب العالمية الثانية قاومت كلُّ أطراف الحرب أن تستدرج واللجوء إلى استخدام خزينها من الأسلحة الكيميائية.

تسارع العمل ببرنامج الأسلحة الكيميائية العراقي منذ صيف عام 1982 حينما دخلت القوات الإيرانية الأراضي العراقية. في ذلك الوقت شحن الاتحاد السوفيتي لبغداد عناصر الغازات المثيرة للقرح والبثور، والتي هي مجرد نسخة محسنة من غاز الخردل السيء السمعة الذي استخدم في الحرب العالمية الأولى⁽²⁾. وباعت إسبانيا للعراق حاويات مكيّفة لنشر المنتج الكيميائي في الجو، وباعت مصر له كميات كبيرة من القذائف الفارغة التي ملئت في معمل بسامراء شمال بغداد، وفي معمل آخر في عكاشات بالقرب من الرطبة عند الحدود الأردنية. واستناداً إلى روايات الجنرالات العراقيين السابقين فإنَّ الشركات الألمانية والبلجيكية والدنماركية وحتى اللبنانية زوّدت العراق بالعناصر الكيميائية الضرورية لبناء هذا البرنامج السري، وبشكل خاص تطوير العناصر السامة والقاتلة؛ لأنَّه من الصعب كشفها أو الوقاية منها.

1- لم توفّق إيران ولا العراق على البروتوكول الصادر بجنيف في يوم 17 حزيران 1925 الذي لم يحرم إنتاج الأسلحة الكيميائية والحصول عليها أو تخزينها، ولكن في عام 1991 أقيمت بدلاً منه معاهدة دولية تحرم امتلاك تلك الأسلحة واستخدامها.

2- Derek Wood, "Gulf Chemicals Could Be Soviet," Jane's Defence Weekly, March 31, 1984.

كان الجيش العراقي يملك في شتاء عام 1983 مخزونات كبيرة من الغازات المثيرة للقروح والبثور وعجينة أولية من عناصر الغازات السامة. ووافق الرئيس العراقي على مذكرة القيادة العسكرية للجوء إلى الأسلحة الكيماوية والاستعداد لتهيئة الظروف لاستخدامها. وقد صدرت الأوامر لإجراء تجربة "بالحجم الطبيعي" لاختبار فعالية غاز التابون على كتيبة عراقية تم التضحية بها؛ من أجل هذه التجربة الاولية⁽¹⁾. وتزامن ذلك مع إطلاق وزير الدفاع برنامجًا للحصول على معدات وقاية من الأسلحة الكيماوية، وبذلك أضاف فصلاً إضافياً للمناورة في المناطق الملوثة والالتزام بقوة العقيدة القتالية. وبعد ذلك سيأتي في الحال أول استخدام للأسلحة الكيماوية ضد الإيرانيين.

وبما إنَّ إيران غير قادرة على فرض نفسها في ميدان المعركة، حاولت حكومتها عزل النظام العراقي وتشويه موقفه بخرقه الصريح لبروتوكول جنيف لعام 1925، ولا سيما أن أية دولة لم تستخدم الغازات السامة في نزاع واسع منذ الحرب العالمية الأولى. وفي محاولة لتبرير موقفها، أدانت طهران بغداد واتهامها بخرقها الوحشي للقواعد الدولية المتعلقة بحماية أسرى الحرب. وأصدرت منظمة الصليب الأحمر الدولية بياناً إلى جانب العراق وذكرت تعرض الأسرى العراقيين الذين زارتهم إلى الخوف والتعذيب والمهملين في معسكرات الاعتقال عند سفوح الجبال المطلة على بحر قزوين.

ألحَّت إيران وأحالت القضية إلى مجلس الأمن بالأمم المتحدة، وطالبت بفرض العقوبات على العراق لاستخدامه الأسلحة المحرمة دولياً وقتله أكثر من ألف جندي إيراني. ومن أجل حشد الدعم لطلبها، أرسلت طهران عدة عشرات من الجرحى الذين تعرضوا لغازات الخردل والتابون إلى المستشفيات الأوروبية. أجمع الأطباء في تشخيصهم أنَّ الإيرانيين تعرضوا للأسلحة الكيماوية. وتوجَّه أيضًا وفدٌ من الأمم المتحدة مباشرة إلى جبهات القتال العراقية - الإيرانية، وزار المستشفيات الميدانية، وأكد أنَّ بغداد استخدمت الغازات السامة. أنكرت السلطات العراقية، ولو بصوت خافت، تلك الاتهامات، ثم تبنت

1- تأكَّد ذلك من خلال تسجيل صوتي أطلقه Williamson Murray بمناسبة سمينار مدرسة الاقتصاد بجامعة لندن بتاريخ 23-24 أيلول 2010.

الصمت المطبق أمام الأدلة الصارخة. أخيراً اعترف الجنرال عدنان خير الله وزير الدفاع ضمناً بالحقائق قائلاً: إنَّ العراق يحتفظ بحقه في استخدام هذا النوع من السلاح للدفاع عن أراضيه. وفي محاولة لتخفيف النقد الحادِّ الموجَّه لبغداد، صرَّح قائلاً: "إنَّ نوايا العراق لاستخدام هذه "الأسلحة الخاصة" في ميدان القتال فقط، ولا ننوي استخدامها في مهاجمة الأهداف المدنية. وأشرف بنفسه وبدقة على استخدامها لتجنُّب الأخطاء. وأجاز قيادات القوة الجوية والحرس الجمهوري وحدها استخدامها وفي حالات الضرورة القصوى وبعد التشاور مع القيادة العسكرية العليا وتسلم موافقة صدَّام الشخصية⁽¹⁾. ومع ذلك، تضررت سمعة العراق بصورة سيئة من التغطية الإعلامية لاستخدام الأسلحة الكيماوية، بل تدهورت مصداقيته على المسرح الدولي.

في 30 آذار 1984 أوقفت الحكومتان الأمريكية والسوفيتية قراراً لمجلس الأمن يدين استخدام العراق للغازات السامة على القوات الإيرانية. أرادت واشنطن البرهنة على موقفها التوفيقى مع النظام العراقي، بينما هي تستعدُّ لاستئناف العلاقات الدبلوماسية معه. وأرادت موسكو أيضاً تجنب استحداث سابقة في وقت كانت تُتهم باستخدام الجيش الروسي الأسلحة الكيماوية سرّاً في الجبهة الأفغانية. ومع ذلك، انزعج البيت الأبيض من ضغط عدد متزايد من أعضاء مجلس النواب الذين صُدموا من موقف العراق وتقبل طلبات جماعات الضغط المؤيدة لإسرائيل من الحكومة وضع نهاية للتقارب مع صدَّام. وازداد الجدل حينما تم الكشف أنَّ الشركات الأمريكية زوِّدت بغداد بالعناصر المستخدمة في صناعة الأسلحة الكيماوية⁽²⁾. استجابت الإدارة الأمريكية وأدانت استخدام الأسلحة الكيماوية، وأعلنت حظرها الصريح لبيع أية عناصر كيماوية ذات العلاقة بالأسلحة ولطرفي النزاع، وطلبت من المجتمع الدولي أن يحذو حذوها⁽³⁾. وفي ذلك الوقت، كانت عدة شركات غربية ألمانية بصورة رئيسة والمعروف شركة (Karl Kolb GmbH) قد زوِّدت ثلاثة

1 - مقابلة الجنرال الخزرجي مع صحيفة الحياة، بيروت في 28 كانون الأول 2002.

2- Seymour Hersh, "US Aides Say Iraqis May Use of a Nerve Gas," New York Times, March 30 1984.

3- "الأسلحة الكيماوية والحرب العراقية الإيرانية" في

Department of State Bulletin no.2085, Washington, April 1984,65-66.

مصانع عراقية تقوم بتجميع الأسلحة الكيميائية بحجة أن برنامجها تصنيع المواد المبيدة للحشرات⁽¹⁾. وبعد ستة أشهر استجابت الحكومة الألمانية لضغط واشنطن وتعهدت بتعزيز أجهزة التفتيش على الصادرات، بينما اعترفت أنها لا تستطيع قانونياً منع شركتين ألمانيتين من المتاجرة مع العراق. ومن أجل إراحة ضميرها، باعت ألمانيا لإيران معدات للوقاية من الأسلحة الكيميائية. وبعد أن فقدت الحكومة العراقية علاقاتها التجارية مع عدة شركات غربية، تحولت نحو ألمانيا الشرقية التي وافقت على التعاون كما تشير مذكرتا تفاهم بينهما موقعتان في يومي 27 أيلول 1985، و10 آذار 1986⁽²⁾.

أمّا إيران؛ كانت لا تريد استخدام الأسلحة الكيميائية من جانبها. فمن حيث المبدأ كان الملاهي ضد استخدام هذا النوع من الأسلحة؛ لأنها تتعارض مع تعاليم القرآن، وبذلك لم تُضمّن ضمن العقيدة القتالية للحرس الثوري التي كانت تفضل استخدام المشاة، ولم تضع أية فقرات لمناورات القوات الآلية في المناطق الملوثة. وعلى أية حال، كانت طهران تملك مخزوناً صغيراً جداً من الذخائر الكيميائية التي حصلت عليها أيام الشاه، ولم تنو استخدامها لتجنب تزايد عزلتها على المسرح الدولي وإعطاء العراقيين العذر الشرعي للتخلص من أسلحتهم الكيميائية. ومع ذلك، أجاز أكبر هاشمي رفسنجاني بناء مصنع للأسلحة الكيميائية في بوشهر لإنتاج كميات محدودة من الغاز المثير للقروح والبثور في إجراء احتياطي. وخصص الأموال لشراء المعدات للوقاية من تأثيرات الأسلحة الكيميائية بشرائها من الشركات البريطانية والألمانية والهولندية. في مطلع العام 1985 تم تزويد أغلب الوحدات العسكرية الإيرانية على خط الجبهة بالأقنعة المضادة للغازات، بقلنسوة مضادة للماء، وعدة أدوات مضادة للتلوث، وحقن الاتروين المضادة للتشنج. كانت صور الجنود الإيرانيين المرابطين في خنادقهم والأقنعة المضادة للغازات على وجوههم تنتشر حول العالم، وتذكر بتلك الصور من الحرب العالمية الأولى.

1 - صحيفة نيوز ويك في 27 آب 1984.

2 - هذه المذكرات محفوظة في أرشيف Stasi بمركز Woodrow Wilson بواشنطن تحت رمز BsTu-ZA-HA-I-13558.

الفصل العشرون

الحرب الشاملة

ما دام كلٌّ من معسكري القتال يبدو غير قادر على الإفادة من الناحية العسكرية، لذا قرّر النظام العراقي أن يلعب ورقة جديدة لكسر الجمود في الجبهات وإقناع الملاي لوضع نهاية للحرب. وقصف المناطق السكنية بإيران قد يؤدي إلى تدهور الروح المعنوية وإجبار الشعب الإيراني للضغط على حكومته قبول التفاوض مع بغداد. ولم يتردد النظام العراقي كثيرًا في استهداف السكان المدنيين، ولا سيّما بعد انفجار سيارة لوري مفخخة في بغداد في يوم 27 تشرين الثاني 1983 التي أدت إلى مقتل نحو مئة قتيل. وجّه العراقيون الاتهام إلى المخابرات الخاصة الإيرانية وأقسموا أن يأخذوا الثأر. ومع ذلك، قرار القادة العراقيين بقصف المدنيين يعني أنّهم يعيدون الخطأ الذي ارتكبه الألمان والأمريكيون والبريطانيون خلال الحرب العالمية الثانية. أدت حملات القصف إلى التصاق السكان الإيرانيين بقادتهم ونفخت في إصرارهم على قتال العدوّ الشيطاني حتى النهاية المهلكة. ومنحت القوى الإيرانية المسلحة استراحةً ثمينةً ما دام المجهود العراقي المخصص لقصف المدنيين لم يكن مكرّسًا لمهاجمة أهداف عسكرية.

أعلنت الحكومة العراقية صراحةً في اليوم الأول من شباط 1984 عن نيتها قصف إحدى عشرة مدينة إيرانية تقع بالقرب من جبهات القتال، وإعطاء السكان مهلة أيام قليلة

لإخلائها. أجابت طهران بتهديدها قصف المدن العراقية الواقعة ضمن مديات المدفعية الإيرانية. كان هذا كافيًا جدًا لإثارة إعجاب صدام الذي بدأ في يوم 12 شباط "حرب المدن" بإصداره الأوامر بقصف مدينة دزفول بدفعة من صواريخ سكود في عملية أولية، ما أدى إلى مقتل أربعين شخصًا ونحو مئتي جريح.

حرب المدن

أجاب الإيرانيون بقصف البصرة، الفاو، القرنة، مندلي، و خانقين. أثارت الحكومة العراقية بإطلاقها دفعةً من الصواريخ على عبادان، أهواز، سوسنكرد، آندمشك، أيلام، وكرمنشاه. لم يتمكن العراقيون من استخدام مدفيعتهم؛ لأنَّ أغلبية المدن الإيرانية تقع خارج مدياتها، وأنَّ المدن القريبة من الجبهة قد أُخليت من سكانها. وبدلاً من ذلك، قرّر النظام استخدام قوته الجوية، واستثنى مدن طهران وشيراز وأصفهان من القصف لوقوعها خارج مديات الصواريخ والطائرات العراقية المقاتلة. أمّا إيران؛ لم تملك صواريخ باليستية تحت تصرفها آنئذٍ، وبإمكانها الاعتماد على مدفيعتها فقط وعشرات قليلة من طائرات الفانتوم للردِّ بقصف المدن العراقية. كان طياروها يحلقون على ارتفاعات منخفضة جدًا فوق أراضي العدو، وكانوا حذرين في تجنّب قاطع بغداد، حيث ركز عدوهم دفاعاته الجوية الضخمة هناك.

اقترح صدام حسين في أواخر شهر شباط هدنةً رفضتها طهران. لذلك؛ قرّر وهو في حالة من اليأس القيام بضربة رمزية للعاصمة الإيرانية وأصفهان ومدينة قم. كانت طائراته التوبولوف توفر المدى الضروري للوصول إلى هذه الأهداف. ولمّا كانت طائرات Tu-16s غير محصنة جدًا لمثل هذه المهمة، خصصت طائرات Tu-22 Blinder بدلاً منها. وتتذكر قيادة القوة الجوية العليا الأداء المتواضع لهذه الطائرات القاصفة في بداية الحرب، ولم تكن راغبةً بالمخاطرة في إرسالها بعيدًا عن قواعدها. ومع ذلك، فقد فعلت ما قيل لها. في مطلع شهر آذار نفذت تلك الطائرات Tu-22s عدة غارات ليلية ضدَّ المدن الإيرانية الثلاث، وتم

إسقاط ثلاث منها بصواريخ فينكس التي أطلقتها طائرات Tomcat التي كانت تحلق طوال أربع وعشرين ساعة في الأجواء الإيرانية. لم يبقَ للعراق من هذه الطائرات سوى أربع في الخدمة، ما أجبر قيادة القوة الجوية العراقية على إلغاء هجماتها. وبذلك، أصبح على الرئيس العراقي البحث عن طرق لإنهاء حملة القصف هذه التي تحولت إلى وبالٍ عليه.

ومن أجل كسر هذا الانسداد، دعا صدام حسين قيادته العليا إلى لقاء مع مستشاريه البارزين وجنرالاته للبحث في إيجاد استراتيجية بديلة التي اتخذت شكلها بسرعة. فبعد فشل صدام حسين في استهداف القوة العسكرية لعدوه، ثم اتباعها بمهاجمة قاعدته الصناعية والسكان المدنيين، قرر الدكتاتور مهاجمة الاقتصاد هذه المرة. كانت استراتيجيته بسيطة، تتكوّن من مهاجمة ناقلات النفط التي تتوجه للتحميل من إيران، وإن كان يخاطر بإثارة السعوديين والكويتيين الذين يتخوفون من أن هذه الاستراتيجية ربما تعطي إيران الحجة لمهاجمة الناقلات المتوجهة لموانئهم. كان دكتاتور العراق يعلم أن هذه الحملة ربما ستتجاوز الخط المحرم، وأنه سينزلق بسرعة نحو منطق الحرب الشاملة التي ستعرض صناعة النفط العراقية إلى عمليات الانتقام الإيرانية. ومع ذلك، لا يزال مقتنعاً أنه يمكنه إجبار إيران على الاستسلام من خلال تقليص مواردها المالية النفطية إلى حدٍّ كبير؛ لأنها بحاجة لأموال النفط لتمويل حربها مع العراق. كان صدام يأمل أيضاً أن الهجمات على التجارة النفطية ستؤدي إلى تحولٍ يدفع الإيرانيين إلى التوقف عن قصف المدن والتركيز على هذا التهديد الجديد.

إنَّ نقص الموارد المالية قد حدّد في السابق عدد الهجمات على تجارة النفط؛ لأنَّ طائرات Super Frelons العراقية لا تملك مديات قصف أبعد من جزيرة خارج، ولا طائرات التوبولوف القاصفة تملك الصواريخ ولا أنظمة للقصف تسمح بتوجيه هجمات دقيقة على أهداف بحرية. ومع ذلك، حصل العراق خلال الأسابيع القليلة السابقة على مجموعة مثالية من الأسلحة التي تمكّنه بسهولة من ضرب الأهداف البحرية، ولا سيّما أن فرنسا أجّرت خمس طائرات مقاتلة - قاصفة Super Etendard التي بإمكانها إطلاق صواريخ Exocet مضادّة للسفن نوع AM-39-200 التي اشتراها العراق بأسعار عالية من شركة Aerospatiale.

كانت طائرات Super Etendard في ذلك الوقت من الطائرات القليلة المقاتلة القادرة على التحليق على مستوى سطح البحر وإطلاق صواريخ Exocet على بعد عشرين ميلاً (30 كيلومتراً)، مما يوفر لها حماية كافية تقريباً من المقاتلات المعادية ومن الدفاعات الجوية المضادة. تم ضمُّ هذه الطائرات الخمس إلى السرب 81 المرابط في قاعدة الناصرية وبدأت في عملياتها في يوم 27 شباط 1984. إنَّ انضمام هذه الطائرات إلى الأسطول الجوي العراقي سمح للعراقيين بتوسيع مديات القصف إلى 200 ميل (300 كيلومتر) إلى الجنوب من جزيرة خارج. وحينما تم تسلُّم طائرات Super Etendard لم تعد طائرات الهلوكوبتر Super Frelon تطلق صواريخ Exocet وأعيد نشرها لزرع ألغام صوتية إيطالية الصنع، وبصورة رئيسة حول جزيرة خارج وفي قناة خور موسى.

غارة على بوشهر

كان النظام العراقي يدرك أنَّ قوته الضاربة الجديدة قد وفَّرت له الفرصة لتنفيذ ما كان يخطط له من القيام بغارة كان يرغب في شتِّها منذ ثمانية عشر شهراً: الهجوم على مفاعل بوشهر النووي. لقد أظهرت صور الأقمار الصناعية التي زودته بها واشنطن تقدم عمليات البناء ببطء ولكنها مؤكدة. وإنَّ الموقع محمياً ببطارية صواريخ هوك ودفاعات مضادة للجو مركزة بصورة مرعبة. وإنَّ أية غارة تقليدية سيكون حظها ضئيلاً من النجاح، فضلاً عن أنَّ صواريخ سكود لن تكون مضمونة الوصول إلى هذا النوع من الأهداف. ولذلك؛ كانت طائرات Super Etendard وحدها قادرة على ضرب بوشهر بفضل صواريخها Exocet الدقيقة والتي يمكن إطلاقها من مسافات آمنة. وبعد حلول ليلة 24 آذار 1984 أقلعت أربع طائرات Super Etendard باتجاه بوشهر، كانت صواريخها قد وجهت بدقة نحو هدف ثابت بحجم الأبنية نفسها التي تحمي اثنين من المفاعلات النووية المستقبلية لإيران. حلقت تلك الطائرات فوق الخليج الفارسي ودارت حول جزيرة خارج متوجهة مباشرة نحو المفاعلات النووية. وعند وصولها على بعد عشرين ميلاً (30 كيلومتراً)، وجهت راداراتها لالتقاط

الهدف ثم أطلقت صواريخها. عادت الطائرات إلى قاعدتها وليس لديها أية فكرة حول نجاح الغارة.

بعد أيام قليلة سيتم الكشف عن نتائج هذه الغارة من خلال صور المراقبة من الأقمار الصناعية والمرسلة من وكالات المخابرات الأمريكية. كانت الأخبار محبطة - تدمير بعض المباني الثانوية فقط. كانت الضريبة النفسية للقادة الإيرانيين واقعية تمامًا، وقادتهم إلى إدراك أن عليهم مضاعفة جهودهم لحماية هذه المفاعلات الحساسة. حولت وكالة الطاقة الذرية الدولية اهتمامها مباشرة نحو هذه القضية، ولا سيما أنها تشك أن إيران تريد الحصول على القنبلة الذرية في خرق لمعاهدة حظر انتشار الأسلحة الذرية التي وقعت عليها طهران. كذلك التقطت وسائل الإعلام هذه القضية واتهمت الملالي في محاولتهم الحصول على القنبلة الذرية. أما بالنسبة إلى الأهمية الاستراتيجية لمفاعل بوشهر النووي؛ فقد هاجمته القوة الجوية العراقية ست مرات (مرتان في 1985، واحدة في 1986، مرتان في 1987، واحدة في 1988). كانت الضربة الأكثر نجاحًا في تشرين الثاني 1986 حينما دمرت طائرة ميراج F-1s بقسوة القبة التي تحمي أحد المفاعلات بصواريخ AS-30L. كان تأثير هذه الغارات المزدوجة قد أنتج أضرارًا تُقدر بأربعة مليارات دولار من الخسائر، وأدت إلى توقف مؤقت في عمليات البناء.

حرب الناقلات

في يوم 27 آذار 1984 أفلعت طائرتان Super Etendard في أول مهمة للبحث عن ناقلات النفط ومهاجمتها. كانت الضربة الأولى مجرد خطأ حينما هُوجمت ناقلة النفط اليونانية Filikon L وهي محملة بالنفط الكويتي. كانت الناقلة تبخر على حافة المنطقة البحرية المحرمة، وفي وقت كان الطيارون العراقيون لا يملكون معدات تستطيع تشخيص أهدافهم بدقة. كانت أجهزة رادارهم توضح على شاشاتها مجرد نقاط مضيئة يتباين حجمها باختلاف حجم السفن المستهدفة. ولما كان العراق لا يملك طائرات بحرية للمراقبة

والإرشاد للطريق، كانت طائرات Super Etendard تحلق وهي عمياء، وتتبع الأوامر للاشتباك مع أية سفينة تبحر في المنطقة البحرية المحرمة. أمّا الضربة الثانية؛ فقد مثلت نجاحًا على الرغم من أنها لم تتضمن مهاجمة ناقلة نفط، ولكن ضرب سفينة شحن كورية جنوبية تُدعى Heyang Ilho التي غرقت وهي تحمل تجهيزات لمنصة نفطية إيرانية. وهكذا توالت الطلعات الواحدة بعد الأخرى، في يوم 18 نيسان ضربت طائرة Super Etendad ناقلة نفط بنمية تُدعى Robert Star. وفي يوم 25 نيسان أضرمت النار في الناقلة السعودية العملاقة "سفينة العرب" نتيجة لتفجيرها بصاروخ Exocet بعد أن تم تحميلها تمامًا بالنفط الخام الإيراني من منصة جزيرة خارج. وعلى الرغم من أن السعوديين وجهوا اللوم للإيرانيين، فإنهم استمروا في أعمالهم التجارية معهم. وتم تدمير الناقلة الليبيرية Sea Eagle بقوة في يوم 27 نيسان، ثم تبعتها ناقلة سعودية "العهد" في يوم 7 مايس. وفي يوم 13 مايس تم ضرب الناقلة الإيرانية "تبريز" أيضًا.

ودُمّرت أيضًا أربع ناقلات نفط أخرى بصواريخ Exocet خلال المدة المتبقية من شهر مايس. كانت طبيعة المهمات على الدوام متطابقة، ففي كل يوم تقريبًا تقلع طائرة أو طائرتان قبيل الفجر من قاعدة الناصرية للبحث عن ناقلات قد تصل إلى تحميل النفط الإيراني من منصة جزيرة خارج خلال الليل. كانت طائرات Super Etendard تحلق فوق الخليج على ارتفاعات معتدلة وترافقها طائرتا ميراج F-1s، وتصل إلى منطقة العمليات خلال نصف ساعة، ثم تبدأ بالبحث عن هدف يظهر على رادارها، وعند عثورها على الهدف تُوجه له ضربة بصاروخ Exocet منفرد، ويصلون من أجل تحقيق ضربة مباشرة. ومع ذلك، كان الطيارون يعودون إلى قاعدتهم دون أن يحققوا نجاحًا ما، بعد أن يفشلوا في العثور على هدف محدد. وللضرب أبعد من ذلك، كيّف العراقيون عدة طائرات SU-22 المقاتلة للعمل كطائرات لتجهيز الوقود في الجو، وهذا ضاعف من مديات القصف لطائرات Super Etendard وجميعها مجهزة بمجسات للزود بالوقود في الجو.

ثارت طهران في مطلع شهر مايس بمهاجمتها عدة ناقلات سعودية وكويتية في مياه البحرين الشمالية، ومن أبرزها ناقلة النفط العملاقة "عجب ينبع" التي تنقل 300 ألف طن

من النفط الخام. نفذت طائرات الفانتوم هذه الغارات الثأرية في ذلك الوقت وهي مجهزة بالصواريخ وقذائف 20 ملم التي تسبب أضرارًا أخفَّ كثيرًا ممَّا تسببه الصواريخ العراقية. وإنَّ الوسائل العملياتية للطيارين الإيرانيين تختلف جذريًا عن تلك التي عند أعدائهم، فهم يبدؤون بتحليق طائرات المراقبة البحرية نوع Orion على المنطقة، وإذا وجدوا هدفًا يتفق مع معاييرهم المطلوبة، تقلع طائرات الفانتوم من قواعد بوشهر أو بندر عباس متجهة مباشرة نحو الهدف وهي تحلق على ارتفاع منخفض. تحوم الطائرات حول الهدف للتحقق من هويته مرتين أو ثلاث مرات، ثم ضربه بصواريخهم وإفراغ مخازن قذائفهم عليه. وفي هذه المرحلة من النزاع، لم يكن الهدف إغراق السفن، ولكن إرسال رسالة إلى مشايخ الخليج: اسحبوا كل دعم للعراق، أو تسارع الهجمات. في يوم 16 مايس 1984، كان أكبر هاشمي رفسنجاني أكثر وضوحًا في تصريحه للصحافة الدولية: "لا نتحمل أية صعوبة في عدم تصدير نفطنا من جزيرة خارج، بينما يستمر الآخرون في تصدير نفطهم بسهولة... سيكون الخليج الفارسي إما مفتوحًا للجميع، أو لا يكون".

خط فهد

استجابت المملكة العربية السعودية مباشرة. وبمساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية حددت منطقة "محرمة على الطيران" تمتد بعيدًا خارج مياها الإقليمية، وحددت خطًا عُرف باسم "خط فهد" يمتد على طول المنطقة المحرمة التي أقامتها إيران. يحمي هذا الخط الافتراضي كلاً من المنشآت السعودية، وبضمنها تلك المنشآت على الساحل، والقناة البحرية التي تربطها بمضيق هرمز. ونُقلت أيضًا رسالة شفوية إلى النظام الإيراني وإبلاغ قادته أنَّه من غير الحكمة عبورهم هذا الخط. ومن أجل تعزيز الموقف الثابت للملك فهد، أعلنت الولايات المتحدة وبصوت عالٍ أنَّها سترسل مجموعة بحرية وجوية إلى خليج عمان تتمركز حول حامله الطائرات Midway. لكن قررت الحكومة الإيرانية اختبار القرار السعودي قبل وصول Midway.

في يوم 5 حزيران 1984 عبرت طائرات المراقبة Orion خطَّ الملك فهد ورصدت ناقلتي نفط عملاقتين سعوديتين غادرتا لتوهما منصة التحميل في الظهران في العربية السعودية. أقلعت طائرتا فانتوم إيرانيتان من قاعدتها في بوشهر في الحال وتوجهتا نحو الناقلتين العملاقتين وبنية واضحة لمهاجمتهما. ولكن تم رصدهما مباشرة من طائرة الأواكس التي أرسلت فوراً طائرتين F-15s سعوديتين باتجاههما. وبعد أن تسلّمت التأكيد على الأوامر بالاشتباك أطلقت الطائرات المتفوقة جواً صاروخي Sparrow على طائرات الفانتوم الإيرانية، ما أدى إلى تدمير إحداها، بينما تعرّضت الأخرى إلى أضرار بليغة مما أجبرها على وقف الاشتباك والكفاح؛ من أجل العودة إلى القاعدة⁽¹⁾. لذلك؛ قرّر الإيرانيون الوصول إلى حالة ما قبل الحادثة، فبعد نصف ساعة أقلعت ست طائرات فانتوم من قاعدتها في بوشهر متوجهة إلى الساحل السعودي، لكن رصدها طائرة الأواكس التي وجهت بوضوح تشكياً سعودياً يتكوّن من أربع طائرات F-15s وطائرتي Tiger F-5؛ لثنيهما عن عبور خطَّ الملك فهد. استجاب الإيرانيون بإرسال ست طائرات فانتوم أخرى، وست طائرات Tomcat، واللواتي جُوبهت بإرسال ثماني طائرات إضافية F-15s وثمان طائرات Tigers سعودية أقلعت جميعها من قاعدتها في الظهران. وخلال ساعة واحدة أصبح هناك أربعون طائرة مقاتلة سعودية وإيرانية تناور بشكل عدائي قرب خط الملك فهد تهدف إلى بثّ الخوف من دون أن تطلق قذيفة واحدة في الواقع. وفي النهاية، عانت الطائرات الإيرانية من نقص الوقود وأجبرت على العودة إلى قواعدها. كان الملك فهد مبتهجاً لذلك. لكن الرسالة كانت واضحة وجليّة، حيث ثأر الإيرانيون بعد خمسة أيام وهاجموا ناقلة نفط كويتية عملاقة بالقرب من سواحل الإمارات العربية المتحدة تقع خارج نطاق مديات تحليق المقاتلات السعودية.

وعلى الرغم من الضمانات الأمنية من البيت الأبيض، لا تزال مشيخات النفط ترفض السماح للقوات الأمريكية بالنزول على أراضيها، ما أدى إلى شعور البنتاغون بالضيق؛ لأنّه

1- إنَّ نجاح الاعتراض يعود إلى حدّ كبير إلى الكابتن Bill Tippin ضابط التبادل في القوة الجوية الأمريكية الذي كان يخلق في موضع المؤخرة لإحدى الطائرات السعودية F-15 في ذلك اليوم والذي أصبح بحكم الوقع قائداً للعملية.

كان يفكر أن من السهولة حماية العربية السعودية والكويت حينما تكون قواتهم في مواقعها هناك مسبقًا. لكن واشنطن تعلم أنه لا فائدة من إثارة القادة في الخليج؛ لأنَّ مصداقية الإدارة الأمريكية لم تكن صلبةً بعد في الإقليم. وإنَّ الولايات المتحدة تحتاج إلى ممارسة دور أكثر دقةً لتخفيف حساسيات الشيوخ المحليين لتحسين صورتها. ومن أجل تهدئة الوضع، أبلغ الرئيس رونالد ريغان الملك فهد أنَّ القوات المسلحة الأمريكية على الأراضي السعودية سوف لا تتدخل مباشرةً إلا إذا طلبت المملكة منها القيام بذلك. ومن أجل ضمان أمن حلفائها، وقَّعت الحكومة الأمريكية صفقة سلاح كبيرة مع العربية السعودية وتجهيزها بدبابات M-1، وطائرات هليكوبتر بلاك هوك، ومجموعة جديدة من مقاتلات F-15، و400 صاروخ Stinger المحمولة والمضادة للطائرات.

القوة الجوية على خط الجبهة

وفي غضون ذلك تم تعيين ضابط جديد لقيادة القوة الجوية العراقية وهو حميد شعبان المعروف بصورة واسعة بمواهبه الاستراتيجية وإداريًا أكثر منه طيارًا. وعلى خلاف القائد السابق لم يكن شخصية شعبية. كان مقتنعًا أنَّ القوة الجوية ستؤدي دورًا حاسمًا في استنزاف إيران. وبوصفه مؤمنًا راسخًا بالقوة الجوية فقد طوّر استراتيجية متماسكةً لاستخدام القوة الجوية وإعادة بنائها لتتلاءم مع مهمات العراق الجوية قدر تعلق الأمر بالدعم الناري والقصف في العمق الإيراني. وهو بحاجة إلى طيارين مؤهلين لتحسين مهاراتهم في القصف من الجو. وبوصفه قائدًا حاليًا حشد شعبان لعدد معين من المشاريع الغربية التي كانت تواجه بالكثير من السخرية. كانت ضمانته الرئيسة قدرته على إحاطة نفسه بالعناصر الكفوءة والمسؤولة، وطرده الكثير من جنوده وجاء - بدلًا منهم - بأفراد أثبتوا كفاءتهم.

أعاد ترتيب سياسة مشتريات القوة الجوية وأعطى الأولوية لشراء طائرات مهاجمة (Mirag F-1EQ5s, SU-25s, Su-22Ms, Mig-23Ns). أمر بتكليف طائرات الميراج-1 التي سبق وأن تسلّمها العراق والمخصّصة بدقة لمهمات التفوق الجوي إلى طائرات هجومية

في العمق. فقد سمع عن أهمية طائرة ميراج F-1 من ابنه طيار الميراج الضليع أنها تبقى مستقرة عند تحليقها على ارتفاع منخفض وتملك منصة ممتازة لإطلاق القذائف. طلب الجنرال شعبان من فنييه العمل مع الفنيين الفرنسيين لتكييف ستين طائرة ميراج العاملة بالخدمة؛ لكي تحمل أكثر الذخيرة القاصفة تطوراً. وعلى الرغم من أنه لم يدرك ذلك، أقنع الجنرال شعبان القوة الجوية الفرنسية لاتباع خطواته لتجهز نفسها بطائرات الميراج F-1CTs المفضلة في مهاجمة الأهداف الأرضية (التي كانت مدهشة في تأثيرها في عمليات الميدان التشادي)⁽¹⁾. وأصرَّ الجنرال شعبان على ضرورة تجهيز طائرات الميراج F-1s الجديدة التي تم طلبها من فرنسا بمعدات إلكترونية موثوقة، وخزانات وقود واسعة، وصواريخ Exocet الأكثر تطوراً. شجعت هذه المبادرات الطيارين العراقيين ليكونوا أكثر عدائية في مواجهة خصومهم الذين أظهروا بعض عضلاتهم مرة أخرى بعد فترة طويلة من السبات الإجباري.

وحصلت القوة الجوية الإيرانية على قائد أكثر حيوية من سابقه وهو العقيد هوشانج صديق. كان القائد السابق العقيد موجون بور قد دفع ثمن حذره الكبير، ولكن بشكل خاص لسلسلة من هروب عشرات الطيارين الذين طلبوا اللجوء في تركيا والبحرين وعمان وحتى في العراق. يتمتع القائد الجديد بعلاقات وثيقة مع رجال الدين وبثقة النظام، وأقنع السلطات الإيرانية بالسماح للطيارين بالعودة إلى جدول التدريب الاعتيادي. وبدأ المجتدون الجدد تدريبهم الأولي في ألمانيا الشرقية والباكستان، ثم إتمام مهاراتهم في التحليق على عشرين طائرة F-6 المقاتلة التي تم تسلمها من الصين، وهي نسخة من طائرات الميغ-19 التي تسمح للطيارين الشباب بالاعتیاد على استخدام الطائرات المقاتلة وليس الطائرات التي عفا عليها الزمن ولا يمكن زجها بالعمليات. ونجح العقيد صديق في رفع الحظر عن التقييدات على العمليات التي أعاققت فعالية أسرابه المقاتلة. وبعد تعيينه مباشرة، أعاد طياروه إثبات قوتهم بإسقاطهم أربع طائرات SU-22، طائرتي ميغ-23، وطائرتي ميراج F-1، وطائرة واحدة ميغ-23 في الجبهة. ثار العراق، ولو بتواضع، باستدراج عدة طائرات معادية إلى

1 - مقابلة مع يفون جوتكس Yvon Goutx الجنرال السابق في القوة الجوية الفرنسية، باريس في 10 أيلول 2012.

الاشتباك وإسقاطهم طائرة فانتوم وأخرى Tomcat، وأخذهم صاروخ Phoenix ثمين من حطام طائرة Tomcat وإرساله إلى موسكو ليدرسه المهندسون السوفييت⁽¹⁾. ولكن كان العقيد صديق يجني في الغالب فوائده خليط محظوظ من الظروف. فقد تمكن مهندسوه من فك شفرة أنظمة الكمبيوتر المتعلقة بقطع غيار القوة الجوية الذي أقفله الأمريكيون حينما أبعدهوا من إيران. والفضل يعود إلى هذا النظام الذي مكّنهم من الوصول إلى المخزون الاحتياطي الهائل لمئات الآلاف من قطع الغيار التي تسمح لهم ببقاء نصف أسطولهم من طائرات الفانتوم و Tomcat و Tigers التي كانت في الخدمة خلال أربع سنوات من الحرب أن تستمرّ بالعمل لمدة سنتين آخرين. فضلاً عن حصول "المشترين" الإيرانيين على كميات كبيرة من قطع الغيار والذخيرة من السوق الموازي. ويفضل هذه العوامل المختلفة، أصبح لدى القوة الجوية الإيرانية 140 طائرة مقاتلة عاملة بحلول ربيع عام 1984 (30 طائرة Tomcat، 60 طائرة فانتوم، و 50 طائرة Tiger)، أي ضعف ما كان عليه أسطولها قبل عام تقريباً.

أصبحت الهجمات على المدن أقلّ كثافة عند اندلاع حرب الناقلات. ونجحت الأمم المتحدة في فرض تعليق لعمليات قصف السكان المدنيين الذي أصبح نافذاً عند يوم 12 حزيران 1984. استأنف العراق غاراته في يوم 24 حزيران على منصة النفط بجزيرة خارج التي يُصدّر من خلالها 90٪ من النفط الخام الإيراني. تسارعت هذه الهجمات في فصل الصيف، وأسقطت المقاتلات الإيرانية طائرة Super Etendard في يوم 27 تموز 1984⁽²⁾. ثأز العراقيون لتلك الغارة بمضاعفة الهجمات على ناقلات النفط القادمة للتحميل من الكويت وقطر والإمارات المتحدة، فضلاً عن أنّ طائراتهم الفانتوم المزوّدة الآن بصواريخ مافريك الموجهة تسبّب ضرراً واسعاً وإلى حدّ كبير.

1- Tom Cooper and Farzad Bishop , Hran-Iraq War in the Air1980-1988(Atglen PA:Schiffer Publishing,2000),156.

2- ادّعى أحد طيّاري طائرات الفانتوم أو Tomcat تدمير طائرة Super Etendard رقم "67" من مجموعة الطيران البحري الفرنسي، على الرغم من أنه ليس ممكناً القول من بين الاثنين في الواقع من هو أسقط الطائرة ؟

الألغام في البحر الأحمر

وخلال هذه الفترة دُمّرت نحو عشر سفن تجارية في البحر الأحمر بالألغام نشرتها سرًا سفينة ليبية "مدنية". كان ذلك ثمرة التزام العقيد القذافي بالمساهمة في المجهود الحربي الإيراني بتخريب التجارة البحرية المتجهة نحو منصة النفط بميناء ينبع الواقع على الساحل الغربي من العربية السعودية⁽¹⁾. كان الدكتاتور الليبي الصعب المراس يحاول إضعاف الحكومة المصرية اقتصاديًا التي كانت علاقاته عاصفية معها. أدت أولى الألغام العائمة في البحر الأحمر إلى انخفاض حاد في التجارة البحرية المارة من خلال قناة السويس التي تعتمد مصر على إيراداتها المهمة في ميزانيتها التشغيلية. ومن أجل طمأنة الرئيس المصري مبارك، قامت واشنطن بمناورات عسكرية شاملة عُرفت باسم "النجم الساطع" في مصر بالقرب من الحدود الليبية كوسيلة لثني العقيد القذافي من الاستمرار بمحاولاته لزعة أمن البلاد. وبناءً على طلب من القاهرة والرياض، أرسلت فرنسا أربع كاسحات ألغام إلى البحر الأحمر (عمليات Grondin and Muge)، التي تمكنت من تأمين الملاحة البحرية لمدة شهرين بالقرب من منصة ينبع النفطية وتحييد الألغام العائمة هناك.

استمرت الهجمات على التجارة النفطية في الخليج خلال فصل الشتاء. ضربت القوة الجوية العراقية في أواخر عام 1984 خمسًا وأربعين سفينة تجارية، نصفها ناقلات نفط، وأربع عشرة منها إما غرقت أو أرسلت إلى مرآب السكراب؛ لإصابتها بأضرار لا يمكن إصلاحها. أطلق الطيارون العراقيون خمسةً وثمانين صاروخ Exocet خلال تلك السنة (مقابل 32 صاروخًا في عام 1983) ضرب عدة منها الهدف نفسه. واستنادًا إلى التقييمات العراقية، فإنها تزعم أن ثلثي الصواريخ التي أطلقت أصابت أهدافها، ولكن 10٪ منها لم تنفجر. إن النفط الخام المحمل في مخازن الناقلات أدى إلى تخفيف تأثير القذائف المنفجرة إلى حد كبير والتي ليست كافية لضمان تدمير ناقلات النفط العملاقة.

1- Paul Balta, Iran-Irak: Unduerre de 5000 ans (Paris:Anthropos-Economica, 1988), 170.

وفي غضون ذلك، أغرقت القوة الجوية الإيرانية سفينة واحدة، وأصابت ثلاث عشرة سفينة أخرى بأضرار كبيرة. ومع ذلك، يبقى تأثير تلك الهجمات على المدى الطويل محدودًا إذا أخذنا بالحسبان أن كلاً من العراق وإيران قادران على تصدير كامل حصصهما من النفط المحددة من أوبك في عام 1984. (1,2 و 2,3 مليون برميل يوميًا على التوالي). تمكنت بغداد من زيادة صادراتها النفطية بنسبة 18٪ خلال عام 1983، في حين انخفضت صادرات إيران بنسبة 10٪. وانخفض هامش أرباح الحكومة الإيرانية إلى النصف؛ لأنه كان على الإيرانيين تخفيض سعر برميل النفط الخام إلى حد كبير للبقاء في المنافسة بوجه ارتفاع أسعار نسب التأمين على شركات النفط التي ترسل ناقلاتها إلى منصة النفط بجزيرة خارج. ولتعويض هذه الخسائر وتقليل المخاطر على السفن الأجنبية، أنشأت السلطات الإيرانية خطأً لنقل النفط الخام بالناقلات البرية بين خارج ولافان الواقعة على مضيق هرمز.

الحفاظ على معنويات القوات

اهتزت القوى المعنوية للمدنيين والقوات المسلحة نتيجة قصف المدن والدمار الشامل والنقص في الخدمات، وتزايد الضحايا باستمرار، مع العجز في التوصل لنهاية موزونة في الأفق. فكل طرف في الحرب يستخدم استراتيجية مختلفة لقلب الوضع على الطرف الآخر⁽¹⁾. حاول النظام في العراق طمأنة السكان من خلال تعزيز الإعجاب الشخصي بما يحيط بصدام حسين. فقد نُصبت على حيطان المدن الكبرى اللوحات الجصية التي تصوّر الدكتاتور في مشاهد تمجّد تاريخ العراق القديم مستمدة من بابل والخلافة أو من حروب الفرنجة. وتم تصوير صدام كنبوخذنصر، وحمورابي، أو صلاح الدين، بنظرة منتصرة وابتسامة مفترسة تصدّ الأسد الفارسي وهو على عربة يسحبها حصان أبيض لامع.

1 - ولأجل التحليل الاجتماعي المفصل، انظر الفصل الخامس والسادس من كتاب Chubin and Charles Tripp
الرائع بعنوان:

Iran and Iraq at War(London: I.B.Tauris,1988).

كذلك رُسمت صورٌ تُظهر الدكتاتور مع الفلاحين والعمّال والجنود، ومع رؤساء الدول الأجنبية، وُضعت في أنحاء البلاد كلّها. وفي النهاية، كان العراقيون يسخرون من أن نفوس العراق ستة وعشرين مليوناً، ثلاثة عشر مليون شخص، وثلاث عشرة صورة لصدّام.

أغرقت وسائل الإعلام السكان بمشاهد مبهجة لرئيس مفرط بالنشاط، تراه بسهولة في كل مكان، سواء مع جنرالاته في خنادقهم أو مع وزرائه بمكتبه. ومع ذلك، لم تخجل وسائل الإعلام في سردها للصعوبات الحاصلة بالجبهة - ولو بوتائر بسيطة - لإيصال رسالة إلى السكان أن العراق يقاتل؛ من أجل البقاء ويجب عمل كل شيء ممكن لصدّ الغازي. وتم تشجيع الوزراء والموظّفين الكبار على ارتداء البدلات التي يرتديها العسكريون نفسها؛ لإظهار أن الأمة كلّها في تعبئة. وما عدا الجنود، تم الطلب من الرجال التبرّع بالدم بصورة منتظمة وبأجر يوم واحد من رواتبهم الشهرية لدعم المجهود الحربي للدولة. ودُعيت النساء إلى التبرّع ببعض مجوهراتهنّ. ففي سنة واحدة جمعت الدولة أربعة أطنان من الذهب، أي ما قيمته 500 مليون دولار.

ودُعي السكّان المتطوعون للمساعدة في تجفيف الأهوار لتسهيل بناء الدفاعات على طول الجبهة. ومجّدت كتب الأطفال التي تُوزّع بالمدارس بإفراط شجاعة الجندي العراقي وبطولته وتضحيته بنفسه؛ من أجل الوطن. كانت مقاطع من أفلام الجنود القتلى الإيرانيين يُعاد عرضها لمرات متعدّدة على التلفزيون العراقي. ولتعويض الأعداد الكبيرة من القتلى رُوّج النظام لسياسة تهدف إلى زيادة معدلات الولادة وحث كلّ عائلة على امتلاكها خمسة أطفال على الأقل. وشجّع الشباب بأعمار 15-17 سنةً للانخراط في التدريبات العسكرية الأساسية، ثمّ تسجيلهم قبل خضوعهم للقرعة. ويمنح المواطنون المستحقون كارت "أصدقاء لصدّام". وهذه الوثيقة الثمينة تمهّد الطريق لهم للحصول على الكثير من المزايا المادية: رعاية طبية مجانية، القبول أتماتيكيّاً في الدراسات العليا للأبناء، والحصول على قروض بنكية بفائدة تفضيلية، وكانت الجائزة النهائية "لأصدقاء صدّام" الدعوة للقاء الرئيس سنويّاً وإعطائهم بدلةً جديدةً بالمناسبة.

ولأجل تأكيد شرعيته في الحكم، نظّم صدّام انتخابات عامّة في 20 تشرين الأول 1984، ومن الطبيعي أن يفوز حزب البعث فيها. كان صدّام يدرك أنّه لكي يتجنّب الوقوع في الفخّ

الطائفي الذي طالما وصمته طهران به، خصَّص 40% من مقاعد البرلمان للنواب الشيعة، مذكِّراً الآخرين أنَّه بإقرار ذلك يريد إثبات أنَّ العراق هو قلب التشيُّع وليس إيران. أغضب هذا الاستفزاز طهران التي كثيراً ما أصدرت الكثير من البيانات العاطفية التي تدعو فيها إلى استمرار الحرب حتى تحرير كربلاء والنجف. وفي النهاية، أصبح تطرُّف الملاي ضمانةً كبيرةً للنظام العراقي الذي طالما قدَّم نفسه ضحية الحرب، على الرغم من أنَّ العراق في الواقع هو من بدأها.

وقف الشعب العراقي وراء رئيسه في وقت الشدة، ويمكن تحقيق الدعم لصدِّام بفضل جهوده في الترويج لطبيعة الحياة الاعتيادية اليومية للعراقيين على الرغم من الحرب، لمَّا صارت القوَّة الجوية الإيرانية كما يبدو غير قادرة على قصف بغداد التي تم رفع حالة منع التجول فيها. وخصَّصت نسبة كبيرة من خزانة الدولة لشراء المتوجات الصناعية والسلع الاستهلاكية، ومُلأت المحالَّ التجارية بشكل يبعث على الثقة، على الرغم من أنَّ حجم الاستيراد في الواقع انخفض إلى النصف في العام 1984 عمَّا كان عليه في العام 1982. كذلك خُصِّصت الزراعة لتحسين التجهيزات الغذائية، وتم إحياء إنتاج الشركات وصناعة النفط بوجود مليون فني آسيوي وفلسطيني ومصري، وكذلك إحلال النساء في العمل محلَّ الرجال الذين توجَّهوا للجبهة. وشهدت ضواحي العاصمة تطورات جديدة، حيث بُنيت المساكن لإيواء موجات النازحين من مناطق القتال. واستمرَّت مشاريع البنى التحتية بالعمل على الرغم من تباطؤ وتيرتها؛ بسبب النقص في التمويل، ممَّا أجبر الحكومة على تخفيض قيمة عملتها وتخفيض رواتب موظَّفي الخدمة المدنية. يعيش العراق الآن على الائتمان والدعم الذي توفره مشيخات النفط بالخليج والولايات المتحدة وكل البلدان التي وافقت على تأجيل ديونها.

واعتنى صدِّام حسين بالعسكريين بصورة جيدة، ورفع المستوى المعيشي للجنود من خلال عدة امتيازات، واتباعه النموذج السوفييتي في ذلك بمنح الأوسمة والنياشين لهم بشكل سخّي. ومنح من يستحق من الضبَّاط سيارة واحدة أو أكثر، وفي بعض الأحيان شقة أو فيلا. وحصل الضبَّاط الكبار برتبة عقيد فما فوق سيارة مرسيدس. وبعد سنوات متعدِّدة

كان بعضهم يفتخر بأصوات مرتجفة أن صدّامًا أعطاهم سيارة مرسيدس واحدة، واثنين، وربما ثلاث سيارات مكافأة لمآثرهم الرائعة⁽¹⁾. وحصلت عوائل القتلى والمعاقين بسبب الحرب على رواتب تقاعدية، وقطعة أرض، وقرض دون فائدة لبناء بيت لهم. ومع ذلك، كان الرئيس قاسيًا جدًا مع الهاربين من الخدمة والمتأمرين وتعرض عوائلهم إلى عقوبات قاسية. على سبيل المثال، أمر صدّام بإعدام خمسين ضابطًا أرادوا اغتياله في حفلة استقبال بنادي الضباط ببغداد في يوم 7 تموز 1984.

واعتمد النظام الإيراني على رمزية الشهيد، وبنى "نافورة الدم" في الساحة المركزية بطهران لتذكير كل شخص بتضحية المقاتلين الذين سقطوا في الجبهة. وأعيد تسمية الشوارع والمدارس والساحات بأسماء الشهداء الذين ماتوا ميتة الأبطال في المعركة، وزُيّنت الجدران بصورهم، فضلًا عن الصحافة التي أفاضت في روايات تضحياتهم. كانت النغمة العامّة تهدف إلى جعل السكان يشعرون بالذنب لكي تحثّ أكثر ما يمكن من المقاتلين لمحاكاة أولئك الذين سقطوا في الجبهات. كان التلفزيون الإيراني يذيع على الدوام مقاطع أخبار تظهر المقاتلين الإيرانيين الشجعان يتخذون مواقعهم أمام جثث الجنود العراقيين. وانتشرت صور مواكب الباسدران الملتحين وهم يدوسون الأعلام الأمريكية والإسرائيلية المرسومة على الشوارع الرئيسة بالعاصمة. ووُزعت الكتيبات المزينة بروايات مآثر الشهداء الذين سقطوا في الجبهة على المدارس والمباني العامة. وأغلقت الجامعات وتم تسجيل الطلاب في القوَّات المسلّحة.

وتم عمل كل شيء لتشجيع التقشف. وجعلت قواعد اللباس سوداء علامة على الحزن، وهو اللون العام لكل السكان. وواعد القادة مواطنيهم الدم والدموع، مذكّرين أن هذه الحرب فُرِضت عليهم ويجب الاستمرار فيها حتى النصر. ومن أجل حثّ القوات كانوا يدعون أن هجوماً وشيكاً سيكون الأخير يسمح لإيران بتحرير أراضيها والأماكن الشيعية المقدّسة. وابتداءً من العام 1985 كانت طهران تدّعي مع كل بداية سنة جديدة أنها ستكون "عام الحسم"

1 - شهد المؤلف ذلك عند مقابله لعدة ضباط. والأكثر تشاؤماً من بينهم أشار إلى أن هذه السيارات التي من المؤكد أنها مجهزة بنظام صوتي دقيق لتسجيل المحادثات أنها كانت لمنة أكثر منها رحمة.

التي ستكون نهاية الحرب فيها. وفي صلاة أيام الجمع يذكر الخطباء تضحيات الأئمة والعلماء الشيعة والتبجُّح بفضائل استشهادهم. وكانوا يؤكدون أن أولئك الذين يقتلون في الجبهة سيذهبون مباشرة إلى الجنة، حيث الخلود الأبدي وحوار العين، كل واحدة أجمل من سابقتها. وبالنسبة إلى الجنود البسطاء غير الضليعين في كثير من الأحيان والذين لا يعرفون سوى تعاليم القرآن، فإن تلك الوعود تجد طريقها إلى القلوب. وعلى خلاف صدام، استخدم آية الله الخميني الطائفية الدينية، وتصوير استمرار المعارك ضد العراق بوصفها حملة شرعية للتشيع مقابل السنة. ولم يتردد في استخدام ورقة الوطنية الإيرانية التي أثبتت أنها عامل قوي في الوحدة الوطنية. وزادت المعاشات الواطئة. وأعطيت الأولوية في التعيين لأولئك الذين يتعرضون للإعاقة في الجبهة. ومن أجل تشجيع الشعور الوطني، أصدر المرشد الأعلى فتوى تجيز للقاصرين الانخراط في الباسيج دون موافقة آبائهم، مؤكداً أن القتال من أجل الإسلام هو واجب أخلاقي أكبر من أهمية العمل أو التعليم. ووسعت مؤسسة الشهداء من خدماتها لتشمل الشباب من الباسيج، والعائلات الفقيرة تعرف أنه إذا قتل أحد أو أكثر من أبنائها في القتال، فإن وضعها المادي سيتحسن إلى حد كبير، والكثير من الشباب من ضحى بنفسه ليس من أجل تمجيد النظام، بل لمنح عائلاتهم مستقبل أفضل.

وفرض النظام مراقبة صارمة للالتزام بتعاليم الإسلام، وأعطى للشرطة الدينية صلاحيات تامة لكل من يخرقها. وتم تقليص حقوق المرأة أكثر، على الرغم من تشجيعهن على العمل محل الرجال في المصانع، والمحال، والإدارة العامة، والشركات الخاصة، وهن يلبسن الحجاب على الدوام. وكما هو الحال في العراق، فقد تمت دعوتهن إلى التبرع ببعض مجوهراتهن لدعم المجهود الحربي، ونشرت أسماؤهن في الصحافة المحلية للحث على التبرع العام، وتم الطلب من العمال العمل لعدة أيام خلال الشهر مجاناً، وحث موظفي الخدمة المدنية من البالغين على الذهاب إلى الجبهة أو دفع جزء من رواتبهم للدولة، وطلب من الفلاحين التبرع بالمواد العينية مهما كانت متواضعة، وشجعت المقايضة لتجنب الاعتماد على التبادل بالنقد، وقطعت الكهرباء لعدة ساعات يومياً، وأعيد تبويب ميزانيات الإدارة العامة وتخفيضها إلى حد كبير.

وتم تقنين المواد الغذائية بصورة مشددة على الرغم من إغماض المسؤولين عيونهم عن توسع السوق السوداء. أمّا الملاي - ورفسنجاني بصورة خاصّة - يدركون أنّهم يجب أن يتعاملوا بمرونة مع البازار الذي يمولهم ويدعمهم. ومن أجل منع أيّ تمرد شعبي، قامت الحكومة بدعم أسعار المنتوجات الرئيسية. سمحت هذه الجهود كلّها لمراقبة ترشيد الإنفاق؛ لكي يمكن الحكومة من تخصيص ثلث الإنتاج القومي للمجهود الحربي، ولا سيّما أنّها تدرك أنّهم لا يمكنهم الاعتماد على المساعدة الخارجية. لذلك؛ احتفظت الحكومة باحتياط نقدي يُقدّر بسبع مليارات دولار تقريباً للإنفاق على الحاجات الطارئة. ومن أجل أن تظهر الحكومة أنّها تهتمّ بالسكان، أمرت الحكومة ببناء عدد كبير من الملاجئ تحت الأرض؛ لحمايتهم من التأثيرات المدمرة للغارات العراقية.

ومع ذلك، تعرّض الحزب الجمهوري الإسلامي إلى خسائر في الانتخابات التشريعية التي جرت في يوم 15 نيسان ويوم 17 مايس 1984، وعلى عكس التوقعات، على الرغم من دعم آية الله الخميني له. وهذه إشارة واضحة على وعي الإيرانيين لمجريات الحرب وآثارها المدمرة. وعلى الرغم من أنّ الحزب الجمهوري الإسلامي نال بعض الأصوات، لكنّ مجموعة المرشحين المستقلين الذين تجمّعوا من نواب الأحزاب الأخرى حقّقوا الأغلبية المطلقة وطالبوا بمناقشة استمرار الحرب. وأعيد انتخاب أكبر هاشمي رفسنجاني ناطقاً باسم المجلس، ولكن يجب عليه الآن التفاوض مع المجموعات السياسية الأخرى التي تعارض وجود محمد سلامي وزيراً للدفاع. كانت هذه الوسيلة البرلمانية للتعبير عن حالة الجزع من الحرب التي أخذت بالانتشار بين العسكريين كما تعكسه الأرقام المتصاعدة للهاربين من الخدمة العسكرية. في 29 آب 1984 لجأ طياران إيرانيان مع طائرتهم الفانتوم إلى العراق. سلّم العراقيون الطائرة للسوفييت للشكر على مساعداتهم العسكرية.

ولمواجهة هذا التملل، أجبر الناطق باسم البرلمان على تعيين وزير دفاع جديد (حسين جلاي) وأخبر النواب أنّ السبب وراء ذلك هو متابعة شؤون الحرب. وحصل على الدعم لذلك بعد جلسة صاخبة، وبفضل المساندة الحاسمة لآية الله الخميني وحسن روحاني رئيس لجنة الدفاع البرلمانية. وبدعمه تعيين جلاي فرض روحاني، رجل الدين

الطموح البالغ من العمر ستة وثلاثين عامًا مستقبه السياسي على رفسنجاني الذي سيسرع حقًا في مسيرته المهنية. فبعد انتهاء الحرب أصبح روحاني نائبًا لرئيس البرلمان، والسكرتير العام لمجلس الأمن القومي الأعلى وقبل الانضمام إلى جمعية الخبراء، ثم تعيينه رئيس المفوضين للتكنولوجيا الذرية في إيران. في يوم 14 حزيران 2013 انتُخب روحاني رئيسًا للجمهورية الإسلامية خلفًا لأحمد أحمددي نجاد. ومقابل منحه دعمه، أجبر المرشد الأعلى رفسنجاني قبول الجنرال نجاد ممثله الشخصي في مجلس الدفاع الأعلى، مع إدراكه التام أن الرجلين يكره أحدهما الآخر. وهذا التعيين يهدف إلى جعل رفسنجاني يفهم أنه لم يعد بإمكانه عمل ما يريد، وأنه لا يستطيع كسب الحرب دون مساندة الجيش النظامي. ومن أجل أن تكون الرسالة أكثر وضوحًا، التقط آية الله الخميني صورة مع الجنرال نجاد، وتم تعيين الجنرال إسماعيل سوهرابي رئيسًا لأركان القوات المسلحة.

وفي غضون ذلك، أفاد علي خامنئي من فرصة الوضع وحاول فرض رئيس وزراء جديد، ولكنه فشل في الأخذ بالحسبان مشاكسة رفسنجاني الذي أقنع المرشد الأعلى الحفاظ على مير - حسين موسوي بمكانه لإحباط النفوذ الكبير لمنافسيه. شعر علي خامنئي بعدم الارتياح من موقف المرشد الأعلى، وشدّد في خطابه الراديكالي أكثر، ورفض من حيث المبدأ أية إشارة على انفتاح إيران على العالم الخارجي. وهذا المشهد أدى إلى تفاقم امتعاض علي خامنئي من مير - حسين موسوي الإصلاحية المعارض الذي تتوج باعتقاله بعد نتائج الانتخابات الرئاسية لعام 2009.

حركة الاستقلال الكردية تجبر تركيا على التقارب مع العراق

أمّا بالنسبة إلى أنقرة؛ فقد تغيّرت المعادلة بشكل جذري منذ أن نجحت إيران في نقل القتال إلى شمال العراق بالقرب من الحدود التركية. ولذلك؛ أجبرت الحكومة التركية على تقديم الضرورات الأمنية على المصالح التجارية التي أدت إلى قيام علاقات وثيقة مع بغداد

والابتعاد عن طهران. أفاد الناشطون الكرد بتركيا من الوضع، وأقاموا قواعد خلفية لهم في الأراضي العراقية. فمنذ العام 1978 كانت تركيا تكافح نشاط حزب العمال الكردستاني، وهو تنظيم ماركسي أسسه عبد الله أوجلان. وبعد انقلاب العام 1980 بتركيا، مُنع حزب العمال الكردستاني من العمل وتعرض للقمع بقوة من قادة الجيش. في 15 آب 1984 تحوّل عبد الله أوجلان وحزبه إلى الحرب الشعبية وشجعه في ذلك نجاحات الكرد في العراق وإيران. وبعد مضايقة الكثير من الحاميات العسكرية التركية اتخذت جماعته من البيشمركة ملجأً لها في شمال العراق.

وبما إن النظام العراقي غارق في حربه مع إيران وغير قادر على اتخاذ أي عمل ضدّ حزب العمال الكردستاني، تولّى الجيش التركي الأمر بيده، وشنّ عدة غارات في الأراضي العراقية في محاولة لسحق قواعد حزب العمال الكردستاني، ولكن دون نجاح واضح. وقد تم إبلاغ الحكومة العراقية بذلك، لكنّها أقرّت بعجزها تحديد مواقع تلك المخابىء وتدميرها. ومع إدراك صدام بعدم قدرته على طرد المتمردين، وافق على التفاوض لإبرام اتفاق للتعاون المشترك مع أنقرة يهدف إلى قتال حزب العمال الكردستاني. واستناداً إلى بنود الاتفاق الموقع في 15 تشرين الأول 1984 بين الطرفين، فقد تم السماح لأيّ منهما الدخول إلى شريط في أراضي أيّ منهما بعمق ثلاثة أميال (5 كيلومترات) للقيام بعمل عسكري ودون إبلاغ سابق. ومن أجل المحافظة على التوازن، حاولت تركيا التفاوض مع إيران لإبرام اتفاق مشابه، لكنّ هذا المقترح تم رفضه باحترام، ولكن بموقف صارم من الرئيس علي خامنئي الذي لا يريد أن يسلم أية ذرة من سيادته لنظام علماني متحالف مع الأمريكيين.

الفصل الحادي والعشرون

سنة الطيار

وبعد أكثر من سنتين من الحفاظ على موقف دفاعي على الأرض، ذهب العراق في يوم 27 كانون الثاني 1985 إلى هجومٍ في محاولة لاستعادة جزر مجنون وحقولها النفطية الثمينة. كانت العملية بقيادة الجنرال ماهر عبد الرشيد، قائد الفيلق الثالث، والجنرال (صباح) الفخري قائد الفيلق السادس. وعهدوا تلك العملية لأفضل أربع فرق ولواءي مغاوير لديهم. وبينما تشنُّ الفرق العسكرية هجومًا واسعًا في عملية تنظيف لشمال وجنوب جزر مجنون لطرد المقاتلين الإيرانيين الذين يخترقون الخطوط العراقية دائمًا، تقوم القوات الخاصّة بمهاجمة الجزيرتين بعد تهيئة كثيفة من القصف بالمدفعية. اندفع الكوماندوز بقواربهم خلال الأهوار، وانطلقوا بحثًا عن أهدافهم، متفادين الرشقات النارية من المدافع المضادة للطائرات المثبتة على القوارب العائمة. لكنهم جُوبهوا بهجوم مضادّ من الباسدران حالما نزلوا إلى الأرض. كان القتال ضارياً إلى حدّ كبير وانتهى بالقتال بالأيدي من طرفين متنافسين بعناد. أرسل الإيرانيون تعزيزات خلال السدود ثم التغلب على القوات المهاجمة. وفي النهاية، كان على قوات الكوماندوز العراقية ترك الجزيرة الشمالية، لكنّها احتفظت بموطئ قدم في الجزيرة الجنوبية وهي الأقرب إلى خطوطها، وتمكنوا أيضًا من استعادة عشرة آبار نفط وبدؤوا مباشرة ببناء سدودهم؛ لكي يتمكنوا من جلب تعزيزات مهمّة إلى هناك.

شنت القوات العراقية في يوم 31 كانون الثاني هجوماً آخر في قاطع قصر شيرين بهدف إعادة الاستيلاء على خط المرتفعات المسيطرة على مدينة سومر. استولى العراقيون على المنطقة ولكنهم أجبروا على التراجع في اليوم التالي بهجوم مضاد عنيف كلف الإيرانيين عدة كتائب. وفي 12 شباط شنَّ العراقيون هجوماً ثانياً باتجاه مهران هذه المرة، وعلى الرغم من فشلهم في السيطرة على هذه المدينة المنكوبة، فإنهم تمكنوا من التقدم مسافة أربعة أميال (7 كيلومترات) في الأراضي الإيرانية. إنَّ كلَّ واحدة من هذه المحاولات تشير إلى أنَّ إعادة تسليح وحرفية ضبَّاط الفيالق العراقيين قد أتت ثمارها. وعلى الرغم من أنَّ الإيرانيين ما زالوا يملكون رجالاً أكثر في الجبهة، فإنَّ العراقيين يتفوقون الآن نارياً وفي الحركة. فضلاً عن أنَّهم يملكون دبابة واحدة لكلِّ مئة جندي، في حين تكون النسبة عند الإيرانيين واحداً إلى خمسمئة.

معركة الأهوار الثانية

كانت القوى في طهران قد صمَّمت على استعادة المبادرة، واتفقوا على هجوم كبير أطلقوا عليه تسمية "بدر" في إشارة إلى انتصار النبي محمد في تلك المعركة التي مهدت الطريق له لفتح مكة. كانت العملية تهدف إلى مضايقة النظام العراقي، وأقنع أكبر هاشمي رفسنجاني أقرانه أن تكون العملية بالمكان نفسه الذي تم به هجوم السنة الماضية - قلب أهوار الحويزة - وذلك لقطع طريق بغداد وعزل مدينة البصرة. وكان يرى أنَّه لا بدَّ أن يكون الهجوم على العراقيين مفاجئاً. وأعلن الناطق باسم البرلمان مقولة أخرى: إنَّ القوة النارية للعدو في الأهوار ستتقلص إلى حدِّ كبير، وإنَّ دباباتهم عديمة الفائدة هناك، وهذا يعطي جنود المشاة الإيرانيين فرصة أفضل وتكون لهم اليد العليا. وافق آية الله الخميني على العملية شرط أن يتولى الجيش النظامي والباسدران قيادتها.

قامت القيادة العسكرية العليا بضبط خططها بعد الاستفادة من فشلها السابق، وتم تجهيز جنود المشاة الآن وبضمنهم قوات الباسدران بالأقنعة الواقية من الغازات، وحقن

الأتروبيين، وأغطية الرأس لحماية أنفسهم من تأثيرات الأسلحة الكيماوية. وأسلحتهم أفضل تجهيزاً. كلُّ جندي لديه الآن خوذة، بندقية للهجوم، ورمانات أكثر، وصواريخ مضادة للدبابات. ويتمتعون الآن بتدريب أفضل، ووافق النظام على إجراءات محددة لتحسين التنسيق بين الجيش النظامي والباسدران. تم تجميع معظم معداتهم الخاصة بعبور القنوات المائية بالقرب من قاطع الهجوم. ومن أجل خداع العدو، أمرت القيادة الإيرانية بإجراء سلسلة من التمارين في المناطق الواقعة بين الفيلقين الثالث والرابع، بينما يقع الهجوم في منطقة الأهوار التي تحت قيادة الفيلق السادس. وهنا حشد الإيرانيون إحدى عشرة فرقة للقيام بموجات متعاقبة من الهجومات على خطوط العدو الممسوكة من ثلاث فرق مشاة عراقية⁽¹⁾.

ويحلول ليلة 11 آذار 1985، تسللت بهدوء فرقتا مشاة من الباسدران مع ثلاثة فرق آلية في الأهوار وتوجّهت مباشرة نحو نهر دجلة. تمكنوا من التغلّب عند الفجر على فرقة المشاة العراقية حيث تفاجأ المدافعون بأعداد الإيرانيين الكبيرة، وافتقارهم إلى دعم المدفعية ممّا اضطرهم إلى التراجع بالقرب من النهر، ووقوع الكثير منهم في الأسر. في اليوم التالي وصل الباسدران إلى نهر دجلة وبدأ ببناء ثلاثة جسور عائمة على بعد اثني عشر ميلاً (نحو 20 كيلومتراً) إلى الجنوب من العزير. وعند منتصف العصر، عبرت كتيبة آلية النهر ووصلت إلى طريق بغداد - بصرة وتوجّهت جنوباً نحو القرنة. وأقامت الكتيبة موقعاً لها عند مدخل العزير وتولت السيطرة على الجسر على نهر الفرات مما أغلق الطريق أمام وصول أية تعزيزات مهمة من البصرة. وإلى الجنوب، غادرت فرقتا باسدران جزر مجنون وعبرت الهور بوساطة طوافات وهاجمت فرقة المشاة العراقية الرابعة وبدعم من المدفعية المنصوبة على القوارب. قاوم جنود المشاة العراقيون لساعات قليلة، ولكن تغلب الإيرانيون عليهم في النهاية، حيث علق بعضهم في مواضعه واستسلم، بينما تراجع آخرون نحو نهر دجلة بانتظار التعزيزات.

1 - كانت هذه القوة المكونة من 200 ألف جندي مقسّمة بين أربع فرق للمشاة (21، 28، 35، 77)، وست فرق باسدران (8، 14، 17، 23، 38، 31)، وتولّت الفرقة المدرعة 92 مهمة الدفاع بالعمق من الخطوط الإيرانية.

قام الجنرال ذنون رئيس أركان الجيش بتنسيق الهجوم المضاد حيث غادرت الفرقة الآلية الخامسة البصرة وسارت مع ضفة شط العرب الغربية وأعدت الاستيلاء على القرنة، بينما غادرت الفرقة المدرعة السادسة على الضفة الأخرى شمالاً لتعزيز فرقة المشاة الرابعة. وإلى الشمال من القرنة سحقت الفرق المدرعة العاشرة والثانية عشرة الوحدات الإيرانية التي عبرت النهر. وغادرت فرقة من الحرس الجمهوري بغداد وهرعت إلى منطقة القتال. وفي غضون ذلك، حلق طيران الجيش فوق الأهوار بطائرات الهليكوبتر ودمر الآليات التي تنقل التعزيزات للإيرانيين، وقصفت طائرات التوبولوف من ارتفاعات عالية وحدات الباسدران المرابطة على الضفة الشرقية من هور الحويزة.

وفي 13 آذار تم نقل لواء مغاوير عراقي جواً إلى قلب الأهوار لقطع الطريق على تراجع الإيرانيين. وانضم إليه لواء قوات خاصة وصلوا بالقرب منه بالناقلات. وفي اليوم التالي تقدم الهجوم المضاد العراقي في كل محور وبدعم من المدفعية التي أطلقت كميات كبيرة من الأسلحة الكيماوية. وعلى الرغم من أن تأثيرها كان أقل فاعليةً من المرة السابقة، فإنها أسهمت في تشويش المقاتلين الإيرانيين الذين لم يعتادوا على القتال في حركات مقيدة الرؤية التي فرضتها أغطية الرأس المضادة للمياه والأقنعة المضادة للغازات على وجوههم. أمّا القوات العراقية الأفضل تدريباً والمناورة في بيئة ملوثة؛ تمكّنوا من دفعهم نحو الأهوار. ومع ذلك، وقع لواء الدبابات العراقي 37 في كمين قاتل. خرج المقاتلون الإيرانيون في اللحظات الأخيرة من مخابئهم وأطلقوا قذائفهم RBG-7 على مسافة قريبة جداً وأعطبوا الدبابات العراقية الواحدة بعد الأخرى. وهؤلاء المشاة الإيرانيون واجهوا البنادق الآلية العراقية ونيران المدفعية بشراسة في هجومهم على الدبابات T-62s.

في يوم 16 آذار وصل الحرس الجمهوري وانضم إلى المعركة، حيث اشتبكت دباباته T-72 وطرده الكثير من المشاة الإيرانيين الذين كانوا يحاولون بيأس وقف تقدم ذلك الحرس. أمّا المغاوير العراقيون الذين تسللوا إلى الأهوار؛ حاصروا الإيرانيين وقطعوا كل طرق الهروب، وأسروا ألفي إيراني خلال ثمان وأربعين ساعة. وتحت الضغط من رفسنجاني، دفعت القيادة العسكرية الإيرانية بالقوات الاحتياطية على أمل عكس مسار المعركة، ولكن

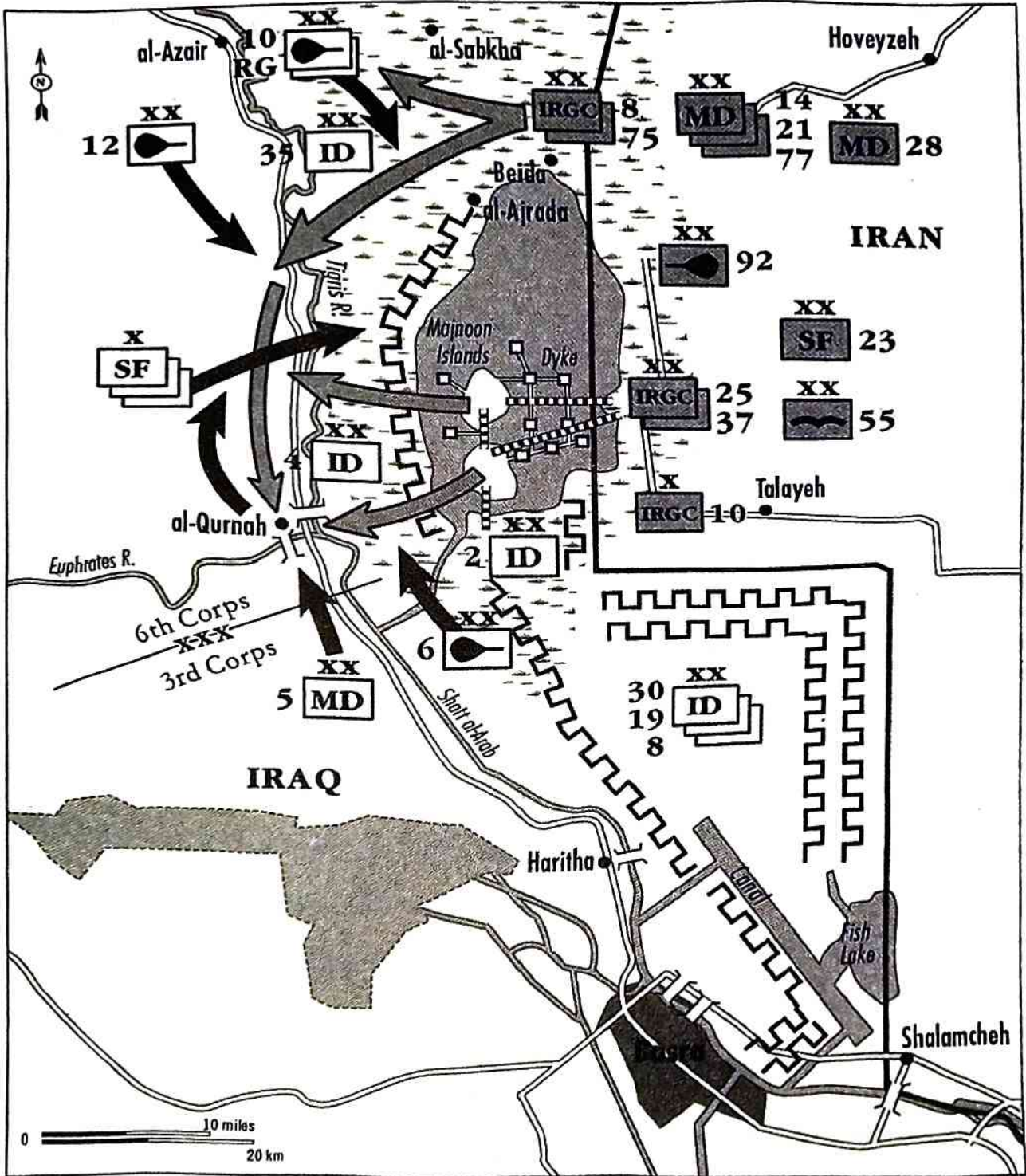
كان الوقت متأخر جدًا. تقدمت القوات العراقية في كل اتجاه وحررت الجردة، السبخة، والبيضاء. وتعاملوا مع السكان القرويين بقسوة، واتهموهم بالتعاون مع العدو.

سافر الرئيس المصري حسني مبارك في يوم 18 آذار إلى بغداد؛ لإظهار دعمه للقضية العراقية وتشجيع المشيخات الخليجية على زيادة مشاركتها المالية في المجهود الحربي العراقي. كانت تلك الزيارة الأولى لرئيس مصري لبغداد منذ وصول صدام حسين إلى السلطة. لقد ثمن صدام هذه الالتفاتة وطمأن الرئيس بأنه سيساند التزامه بإعادة مقر الجامعة العربية بسرعة إلى القاهرة.

وفي يوم 22 آذار أعاد العراقيون الاستيلاء على كل الأراضي التي خسروها في بداية الهجوم، وكبدوا خصومهم خسائر فادحة: عشرة آلاف قتيل، وضعف هذا الرقم من الجرحى، ألفا أسير، وتدمير نحو ألف ناقلة مدرعة، وإسقاط نحو اثنتي عشرة طائرة هليكوبتر. وهذا يعني تدمير ثلاث فرق مشاة إيرانية تدميرًا تامًا، وهزيمة نكراء لأربع فرق أخرى. وتكبد الجانب العراقي ألفي جندي قتيل، وأسر ثلاثة آلاف، وستة آلاف جريح. وانحصرت الخسائر المادية بمئة دبابة، وإحدى عشرة طائرة هليكوبتر، وأربع طائرات خفيفة PC-7 (تستخدم لنشر الأسلحة الكيماوية) أسقطت بالدفاعات الجوية الإيرانية. نفخ صدام حسين في هذه الانتصارات من خلال إعلامه، وإهداء جنرالاته سيارات المرسيدس. أصبحت معنويات الجيش العراقي في ذروتها الآن.

أما في طهران؛ كان المزاج كئيبيًا، ووجهت الانتقادات للناطق باسم البرلمان من كل حذب وصوب، والكثير من حمّله مسؤولية فشل الهجوم الذي أضعف كلاً من الجيش النظامي والباسدران معًا. ولم يتردد علي خامنئي مع خصمه، ورأى أنه من الأفضل وضع نهاية للحرب؛ لكي يتم القضاء على خصوم النظام بصورة واضحة الذين استمروا في تنظيم الهجمات الإرهابية في المدن الكبرى ومضايقة القوى الأمنية في تلك المحافظات المطالبة بالاستقلال. كان مجاهدو الشعب نشطين مرة أخرى وبشكل خاص في تنفيذ هجمات متميزة في العاصمة الإيرانية. كانت ردّة فعل رفسنجاني أن أصدر أمرًا بوقف مؤقت لكل الهجمات الكبرى والعودة إلى حرب الاستنزاف. كذلك قدّم تنازلات للجيش النظامي الذي

طلب عدة أشهر لوضع نهاية لأسلوب الموجات البشرية والعودة إلى الأسلوب التقليدي للقتال بالآليات.



خارطة هجوم بدر الإيراني (11 - 22 آذار 1985)

ومع ذلك، استمرّ رفسنجاني في استخدام مصطلح "الهجوم الحاسم" في خطبه الذي سيقود النظام العراقي إلى الركوع على قدميه. ولما أخذ الجيش بالتباطؤ اعتمد على الباسدران، واستدعى كلاً من الوزير محسن رفيق دوست وقائده محسن رضائي وطلب منهم التهيئة سرّاً لهجوم واسع النطاق بقيادة الباسدران والباسيج حصراً. ولتعويض غياب الجيش النظامي، تعهّد رفسنجاني بتزويدهم بكل وسائل الدعم الضروري الذي طلبوه سابقاً. وحصل أيضاً على موافقة المرشد الأعلى على تأسيس قيادة مدفعية للحرس الثوري ونواة لقوة بحرية أيضاً. وأصدر أوامره لإقامة فرقة مهندسين مسؤولة عن توفير الوسائل اللازمة لعبور شطّ العرب بسرعة. ودعا إلى تحويل لواء مدفعية من الجيش النظامي إلى فريق كامل ثم ألحقت بالباسدران. وأوصى أيضاً بتشكيل فرق مشاة جديدة متخصصة بالهجوم البرمائي.

وأخيراً، عهد بفرع بحرية الباسدران إلى العقيد علي آراكي حمداني وخصّص له ثلاثة ألوية مغاوير أخذها من كتائب مشاة لبحرية. وزوّد بمئة قارب حراسة، وقوارب بخارية عالية السرعة اشترت من الصين وكوريا الشمالية وكندا. جُهّزت هذه القوارب الصغيرة بمدفع وبنادقية آلية ومنصة لإطلاق الصواريخ لاستخدامها في مضايقة التجارة البحرية في مضيق هرمز، ودعم هجوم الباسدران القادم في مصبّ شطّ العرب. كان جنرالات الجيش النظامي غاضبين جداً من هذه الإجراءات، لكن لا يمكنهم مناقشتها؛ لأنّ آية الله الخميني وافق عليها والذي سيقى الداعم الأكثر قيمة لهم. وأصبحت مساحتهم للمناورة أكثر تقييداً، ولا سيّما أنّهم يطالبون منذ عدة أشهر بمعدّات حديثة، ولا سيّما صواريخ تاو الضرورية المضادة للدبابات، التي تسمح لهم مواجهة الدبابات العراقية.

جولتا أخرى من حرب المدن

وحالما بدأت عملية بدر كان ردّ فعل القوة الجوية العراقية على الهجوم الإيراني شنّ حملة قصف جديدة تستهدف البنية التحتية الصناعية الإيرانية. وبما إنّ صدّاماً تعلّم من خبرته السابقة فإنّه يفضّل استهداف القوة الاقتصادية لإيران أكثر من استهدافه للسكان المدنيين.

لكنَّ الحكومة الإيرانية لا تتبع القواعد نفسها، فقد شنت بشراسة في يوم 14 آذار 1985 هجوماً مضاداً وقصفت بغداد بصواريخ سكود - ب. وهذه المرة الأولى تستخدم إيران هذا النوع من الصواريخ التي تسلّمها للتو من ليبيا⁽¹⁾. سبّب هذا الهجوم الأولي المذهل دماراً كبيراً لمركز مدينة بغداد. كان صفعاً كبيرةً بوجه صدام الذي كان يُخبر مواطنيه دائماً أنَّ العاصمة العراقية آمنة من ضربات العدو. كان الدكتاتور غاضباً تماماً؛ لأنَّ صواريخه نوع سكود لا تمتلك المدى للوصول إلى طهران. ومع ذلك، أمر بإطلاق صواريخ سكود وFrog على عدة مدن إيرانية، وطلب من الجنرال شعبان قائد القوة الجوية إيجاد السبل لقصف طهران بانتظام. لم تكن طائرات توبولوف هي الحل كما يبدو، منذ فشلها خلال الصفحة الأولى من حرب المدن. وبدأ خيار فريد بالتشكل، وهو استخدام طائرات الميغ-25 المعترضة شريطة تعديلها لمهام القصف. كانت هذه الطائرات المقاتلة الوحيدة في الخدمة بالقوة الجوية ذات المدى الكافي لتنفيذ المهمة من دون الحاجة إلى التزوّد بالوقود في الجو. ومن الناحية النظرية، طيرانها المرتفع وسرعتها الفائقة يجعلها بعيدة الوصول من الطائرات الإيرانية المتفوقة من الناحية القتالية.

تبدو هذه الخطة معقولة؛ لأنَّ السوفييت صمّموا نظام إطلاق أوتوماتيكياً يسمح لطائرة الميغ-25 إطلاق قبلة ذرية تكتيكية تزن اثني عشر كيلو - طن. طوّر المهندسون السوفييت مؤخراً عملية الإطلاق التقليدية لتحمل وتطلق قبلة تزن 1,100 باوند (500 كيلوغرام). اتصلت السلطات العراقية على الفور بالكرملين للتفاوض على تسليم عدد من أنظمة الإطلاق المعقدة هذه، فضلاً عن خزين من القنابل المناسبة. وخلال أيام قليلة أصبح لدى القوة الجوية العراقية أربع طائرات ميغ-25 تمّ نشرها في قاعدة كركوك الجوية وهي الأقرب إلى العاصمة الإيرانية. وبدأت المهمّات على الفور، في كلّ ليلة تقلع طائرة ميغ-25 وهي تحمل أربع قنابل وخزاني وقود إضافيين من كركوك متجهة نحو الشرق وهي تحلق فوق الجبال لتجتاز الحدود الإيرانية بعد خمس دقائق، ثمّ تتخلّص من

1 - إنَّ عربات المنصات الست و26 صاروخ Scud-B التي سلّمها ليبيا تم تجميعها في لواء المدفعية 35 الذي تمّ وضعه تحت سيطرة الباسدران.

خزانات الوقود الخارجية لتحلق على ارتفاع 60 ألف قدم (18 ألف متر) وبسرعة تفوق سرعة الصوت بمرتين.

تستغرق تلك الطائرة بهذه السرعة والتحليق المرتفع ليس أكثر من عشرين دقيقة للوصول إلى نقطة إطلاق تبعد 25 ميلاً (40 كيلومتراً) عن طهران. إنَّ جهاز الحاسوب ونظام الملاحة الثابت يشغل أوتوماتيكياً منصّة إطلاق القنابل، ويسمح للطيار بحرية الملاحة لطائره. غطت المقذوفات آخر خمسة وعشرين ميلاً (40 كيلومتراً) وعلى طول مسار صاروخ بالستي، بينما يدور الطيار بطائره للعودة إلى قاعدته. استغرقت هذه المهمة كاملةً أقلّ من ساعة. وبما إنَّ القصف من ارتفاع عالٍ جداً لم يكن دقيقاً (تسقط القنابل على الأغلب على بعد ميل إلى ميلين عن الهدف)، لكنّه يقلّل إلى حدّ كبير من خطر الاعتراض من طائرات أخرى. وإنَّ عدم الدقة لم يعد مشكلة حينما يكون الهدف السكان المدنيين فقط. وفي هذا الوقت، أصدر صدام حسين قراراً بمنع الطيران فوق الأراضي الإيرانية، ما أدّى إلى عرقلة الطيران التجاري إلى طهران.

ولمدة أربعة أسابيع كانت طائرات الميغ-25 العراقية تقصف طهران يومياً. وتعرّضت مدن تبريز وأصفهان وشيراز وحتى مدينة قم إلى القصف، وحتى آية الله الخميني الذي كان يزور المدينة المقدّسة أسرع بالعودة إلى مقرّه في ضواحي طهران. لم يتم إسقاط أيّ من الطائرات المنفذة للمهمة. وفي غضون ذلك، قصفت طائرات الميغ-23، وsu-22، وF-1 المقرات الرئاسية في المدن القريبة من الجبهة. وخلال هذه الهجمات أسقطت المقاتلات الإيرانية طائرتي ميغ-23. ولتشجيع طياريه، أصدر الرئيس العراقي أمراً لافتاً عدّه فيه 1985 "عاماً للطيار" العراقي.

كان الجنرالات الإيرانيون يطالبون بإلحاح الحصول على صواريخ هوك المضادة للجوّ؛ في محاولة لصدّ غارات الميغ-25 العراقية. وكان أغلبية سكان المدينة يقضون ليلتهم في الملاجئ تحت الأرض، بينما يقوم البعض من المتهورين بالصعود إلى أسطح مبانيهم لمراقبة خطوط المضادات الجوية المرسومة في السماء. ثارت القوّة الجوية الإيرانية بقصف بغداد، العمارة، الكوت، الناصرية، الموصل، بعقوبة، وحتى تكريت مسقط رأس صدام.

خسرت طائرتي فانتوم فوق بغداد. لم يغامر الإيرانيون بقصف البصرة؛ لأنها تقع ضمن مديات مدفعيتهم، وتتمركز فيها دفاعات كبيرة جداً من الصواريخ المضادة للجو. وحتى الآن، تجنّبوا المدن المقدّسة في النجف وكربلاء، وكذلك المدن الكردية؛ من أجل البقاء على علاقة طيّبة مع حلفائهم التقليديين.

دعا صدام حسين الإيرانيين مرةً أخرى في 21 نيسان 1985 لوضع نهاية للنزاع. ومن أجل الوصول إلى هدنة، اقترح نهايةً لقصف السكان المدنيين، انسحاب كلا الجيشين إلى الحدود، وتبادل كل أسرى الحرب، وإجراء مفاوضات مباشرة بين البلدين، وتحديد مبالغ التعويضات. ولم يتطرق إلى مسألة شط العرب. كان الدكتاتور العراقي في سرعة من أمره لوضع نهاية للحرب التي طالت أكثر ممّا يجب، قد تخلّى ضمناً عن ادّعاءاته في شط العرب. لم يكن ذلك كافياً لطمأنة القادة الإيرانيين الذين أعادوا التذكير بشرطيهم الأساسيين: رحيل صدام حسين، وإعادة اللاجئين العراقيين الشيعة بإيران إلى بلدهم، على أمل أن يُضعفوا النظام البعثي حال عودتهم إلى العراق. ولتوجيه القضية نحو الداخل، تم إطلاق رشقة من صواريخ سكود على بغداد. أجاب الرئيس العراقي بقصف كاسح على طهران الذي خلف 78 قتيلاً و325 جريحاً في ليلة واحدة. نُفذت هذه الضربة المرعبة بطائرات TU-16 القاصفة بشكل استثنائي لكونها الطائرة الوحيدة القادرة على حمل عدد كبير من القذائف. وهي مجهزة بأجهزة تشويش ضدّ الرادارات مخصّصة لمثل هذه المهمة وتحلق ليلاً، وعادت جميعها إلى قاعدتها "تموز" سليمة.

بدأ مخزون الصواريخ في شهر مايس بالنضوب، وأصبحت الضربات في مطلع شهر حزيران قليلة. أدرك كل طرف أنّه غير قادر على جعل الآخر يستسلم، وأنّه يحتاج إلى الاحتفاظ ببعض صواريخ سكود للحالات الطارئة. ورعى مجلس الأمن بالأمم المتحدة في يوم 15 حزيران 1985 هدنةً جديدةً في حرب المدن ووضع نهايةً لقصف أدّى إلى مقتل ألفي قتيل في إيران و600 في العراق. ومع ذلك لم تؤدّ هذه الهدنة إلى نهاية للحرب. واستناداً إلى تعليمات الحكومة الإيرانية خطّطت القيادة العسكرية العليا سلسلةً من العمليات البرية تهدف إلى الحفاظ على الضغط على بغداد، كان هدفها بسيطاً: تحطيم النظام العراقي بإجباره على الاحتفاظ بجيشه المتضخم بجنده على الجبهة.

شنَّ الجنرالات الإيرانيون في المدة 14-28 1985 عملية "القدس 1" في الشمال من جزر مجنون. ولم يكن هذا هجومًا بمعنى الكلمة، بل غارات متعاقبة لاختراق مواضع العدو. نجحت إحدى هذه الغارات بقيادة لواء كوماندوز في الوصول إلى ضفاف نهر دجلة. ومع ذلك، كانت النيران العراقية تصدُّ كلَّ غارة وترجعها. ولعدة أشهر تذكَّرنا الاشتباكات في هذا القاطع بالاشتباكات والقتال في حقول الرز في حروب الهند الصينية وفيتنام، حيث تتعقَّب مجموعةٌ صغيرةٌ من الجنود العراقيين في كلِّ ليلة المقاتلين الإيرانيين الذين يحاولون التسلُّل إلى الخطوط العراقية من طريق الأهوار والاختباء بقواربهم الصغيرة بين قصب البردي.

ولمفاجأة العدو بتنفيذ أفضل الأساليب المناسبة في الهجوم في أماكن مختلفة، هاجم الإيرانيون في يوم 19 حزيران قاطع قصر شيرين في عملية "القدس 2" التي نفَّذها لواء مشاة أدت إلى تدمير عدد قليل من المواضع المحصنة وأسر خمسين جنديًا عراقيًا. وفي اليوم التالي، شنَّ الإيرانيون عملية "الفتح" في قاطع البصرة لاختبار قوة الخطوط العراقية هناك، لكنَّ الجميع أدرك وبسرعة أنَّ تلك الخطوط تبقى صلبةً وأنَّ الهجمات في هذا القاطع سيكون مكلفًا.

استمرَّت عمليَّات المضايقة هذه خلال فصل الصيف، ففي المدة 26 تموز - 7 آب قاد الجنرالات الإيرانيون عملية "القدس 4" في قاطع مندلي. وشنُّوا خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر أيلول عملية "القدس 6" بين مهران وسومر. وفي شهر تشرين الأول تعدَّدت الاشتباكات في قاطع قصر شيرين، ثمَّ تحوَّلت المعركة إلى أهوار الحويزة مرةً أخرى، لكنَّ حلول موسم الأمطار وضع نهايةً لمحاولاتهم، حتى نهاية السنة على الأقل.

حرب العصابات في كردستان العراق

شهد كردستان العراق في العام 1985 ولادة نشاط جديد. أدان جلال طالباني زعيم حزب الاتحاد الوطني الكردستاني اتفاقية الحياد مع النظام العراقي، وانتقد تعامل بغداد مع أنقرة الذي سمح لتركيا ملاحقة قوَّات حزب العمَّال الكردستاني داخل العراق. كان طالباني

يحتاج إلى دعم عبد الله أوجلان؛ لمواجهة منافسه الرئيس الأخوين برزاني وحزبهم الديمقراطي الكردستاني، فضلاً عن تعهده بالدفاع عن القضية الكردية. ولم يعد رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني قادراً على البقاء محايداً حينما تهاجم بغداد عبد الله أوجلان. وكان جلال طالباني يملك فهماً براغماتياً في الوقوف إلى جانب الإيرانيين الذين أقاموا قاعدة لهم في كردستان العراق، وربما يسيطر الإيرانيون على الإقليم كله، وبذلك يصبح الطرف الوحيد الذي بإمكانه التأثير في عشيرة برزاني.

ونظراً لتخوفه من تمردٍ شعبيٍّ في المحافظات الكردية، اقترح صدام حسين عفواً عاماً عن البيشمركة التابعة لحزب الاتحاد الوطني الكردستاني شرط إلقاء سلاحهم. رفض جلال طالباني العرض وذهب إلى العمل السري، وأمر قواته بمهاجمة رموز السلطة في مدن كركوك، أربيل، والسليمانية. كانت البيشمركة التابعة له البالغ عددها عشرة آلاف تقاتل الجيش الشعبي العراقي ومقاتلي الأخوين برزاني، الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني المتحالف مع بغداد في وقتٍ واحدٍ. وهكذا تدهور الوضع إلى حالة من الفوضى، فكل جماعةٍ تقاتل الأخرى، بينما الجميع يقاتلون النظام البعثي. ولذلك؛ تخلت الحكومة العراقية تدريجياً عن عبد الرحمن قاسمليو زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني الذي أصبح هامشياً إلى حدٍ كبير، كما يبدو.

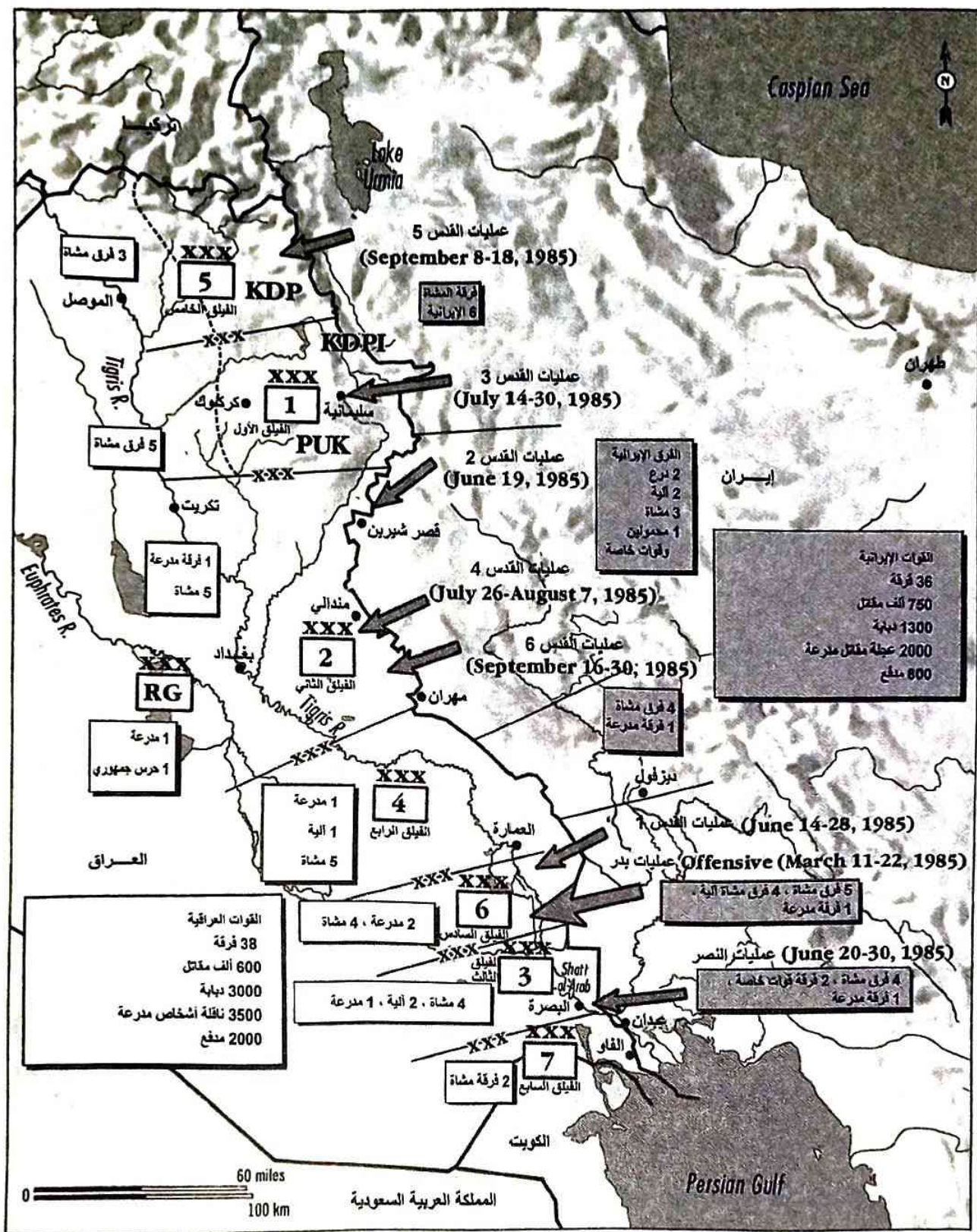
وفي شهر آذار، وبعد أن رأى الأمور تخرج عن السيطرة، قطع قاسمليو علاقاته مع بغداد، وبدأ بتقارب متأنٍّ مع طهران. أمّا الحكومة الإيرانية؛ أرادت من خلال تحالفاتها هذه تحييد الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني وتضع نهاية محكمة للتمرد الكردي. كانت المفاوضات تُدار في الخارج، وتعرقلت دون التوصل إلى اتفاق رسمي. ومع ذلك، سمحوا للحكومة الإيرانية بتقليص وجودها العسكري في المنطقة، ممّا يمكّنها من إرسال فرق إضافية إلى كردستان العراق. في تموز 1988 اغتالت قوة خاصة إيرانية عبد الرحمن قاسمليو، وفي أجنحة جلسات المفاوضات اللاحقة توصلت طهران مع خليفته إلى اتفاقية نهائية.

يقاتل النظام العراقي الآن كلَّ شخص من الجماعات الكردية. ولحسن حظِّ بغداد، بقيت تلك الجماعات منقسمةً ولم تتبع في الواقع تعليمات طهران. كان القتال خلال فصل

الربيع محدودًا على شكل عمليات عصابات للسيطرة على الممرات الجبلية، الوديان المغمورة، والقرى المعزولة، ولا سيما أن البيشمركة لا تملك المعدات لمواجهة الجيش العراقي في الأراضي المفتوحة والمدن الكبيرة. وهذه المعارك تتم في الغالب عند نزول الضباب في المرتفعات العالية كما صوّرها المخرج الإيراني عزيز الله حميد نجاد في فلمه الوثائقي المثير للمشاعر "العيش في الغيوم".

شنّ الإيرانيون في مطلع شهر تموز 1985 عملية "القدس 3" باتجاه السليمانية. قامت البيشمركة التابعة لجلال الطالباني بعملية إلتفاف واستولت على قلعة حسن بك في الشمال من كركوك. ولكن تمت مطاردتهم بعد أيام قليلة من قبل المظللين العراقيين. في يوم 14 تموز غادرت فرقة المشاة 30 الإيرانية بنجوين وتغلبت على القوات العراقية المنتشرة خارجها وتقدمت نحو عشرين ميلاً (نحو 30 كيلومتراً) على طول وادي ضيق قبل أن يتم إيقافها بوابلٍ من النيران وتدخل القوة الجوية. وإلى الجنوب قليلاً حاولت فرقة المشاة 35 التقدم نحو حلبجة للسيطرة عليها، لكنّها فشلت في ذلك. هذه المدينة التي تتحكّم في الطرق الموصلة إلى سدّ دربندخان قد أغلقت بعدة ألوية مشاة التي لم تتخلّ عن إنج واحدٍ من ترابها. كان الجيش العراقي ولمدة أسبوعين يقوم بهجومات مضادة ممّا أجبر الإيرانيين على التراجع ستة أميال (نحو 10 كيلومترات).

انتهز الطرفان حلول شهر آب لإعادة تنظيم خطوطهم. في يوم 8 أيلول أخذ الإيرانيون زمام المبادرة وشنّوا عملية "القدس 5" في شمال كردستان. وبإسنادٍ من لواء مدرع، والمدفعية، وعددٍ قليلٍ من الهليكوبتر المسلحة تمكنت فرقة المشاة الإيرانية من الاستيلاء على رايات واستمرت بالتقدّم نحو راوندوز. لكن تم إيقافها من فرقة المشاة 23 التي تقوم بحماية هذه المدينة الجبلية الصغيرة. وفي منتصف أيلول شنّ الجيش العراقي هجوماً مضاداً في هذا القاطع وبتعزيزٍ من الفرقتين 24 و33 وبدعمٍ من لوائي دبابات، ولواء مظلي. اضطرّ الإيرانيون عند مواجهتهم هذه القوة العراقية الكبيرة إلى التراجع، وفي يوم 18 أيلول استقرّت خطوط الجبهة على بعد عشرين ميلاً (30 كيلومتراً) إلى الشرق من راوندوز عند سفوح سلسلة جبلية يبلغ ارتفاعها 11,800 قدم (3,600 متر). ولإدراكهم أنّهم يفتقرون إلى القوّات الكافية،



خارطة الجبهة العراقية - الإيرانية في عام 1985

لم يشنَّ الإيرانيون أية عمليات أخرى في فصل الشتاء بکردستان العراق. ومع ذلك، حاولوا أن يجمعوا بين الحزبين الاتحاد الوطني والديمقراطي الكردستانيين، وإن كانوا مهتمين أولاً بقضاياهم الداخلية.

الانتخابات الرئاسية في إيران

اقترح هاشمي رفسنجاني خلال فصل الصيف تأجيل الانتخابات الرئاسية المخطَّط إقامتها في منتصف شهر آب بحجة أن العمليات العسكرية لم تنته بعد وهذا ما يعيق تنفيذها. عارض آية الله الخميني هذا المقترح، وأصرَّ على أن تجري الانتخابات في التاريخ المحدد لها. ويعتقد آية الله يجب ألا يعيق المسار الديمقراطي أيُّ عائق، وأنَّ الجمهورية الإسلامية بحاجة إلى إظهارها أنموذجًا للديمقراطية في داخل البلاد وخارجها. وهذا ليس مهمًّا لصورتها فقط بل للحفاظ على شرعيَّتها الشعبية ودعم حماتها. جلبت السلطات الإيرانية صناديق الاقتراع إلى جبهات القتال ونظمت جدولًا للاقتراع يتيح لكلِّ مقاتل الإدلاء بصوته وأداء واجبه الوطني. وسافرت اللجان الانتخابية إلى ميادين المستشفيات لتأمين أصوات الجنود الجرحى والمعاقين. في 16 آب 1985 أُعيد انتخاب علي خامنئي رئيسًا للجمهورية الإسلامية بنسبة 88% من الأصوات، على الرغم من بعض المشاكل العائلية: هروب أخت خامنئي قبل أسابيع قليلة من الانتخابات إلى العراق مع أولادها وزوجها، ممَّا جعل آية الله علي طهراني يدين النظام "الدكتاتوري" في طهران. ارتدى علي خامنئي بدلته القتالية والشفقة العسكرية وتوجَّه إلى الجبهة في جولة تفتيشية، وتحدث إلى الكثير من قادة الوحدات العسكرية مستنداً في ذلك إلى إعادة انتخابه. أدرك رفسنجاني أنه يجب عليه السير بدقة مع منافسه الذي تتنامى شعبيَّته على الدوام في بلد دمرته الحرب لمدة خمس سنوات.

الفصل الثاني والعشرون

الماكنة الحربية والنفط

شعر قادة الخليج بخطر الحرب المتزايد الذي أخذ يطوّق الجميع. وأدركوا أنّ العراق ربّما لن يفوز بالحرب، وربما لا تخسرّها إيران، وأنّ الطريق الوحيد لوضع نهاية للنزاع هو التفاوض مع طهران، ولا سيّما أنّها بدأت تكلف كلّ شخص كثيرا جدًّا. دعا قادة مجلس التعاون الخليجي طرفي القتال لإبداء المرونة واستقبلوا علانية المبعوثين الإيرانيين في قصورهم، ممّا أثار غضب صدّام حسين الذي اتهمهم بالتضحية بالقضية العربية مقابل تأمين مصالحهم التجارية. لم يكن صدّام مخطئا تماما؛ لأنّ الشيخ زايد رئيس الإمارات العربية المتحدة كان يميل إلى زيادة تجارته مع إيران.

ومن أجل أن يقوّي مكانته الدولية، قرّر الملك السعودي فهد التدخل لفرض نفسه وسيطاً مقبولاً لكلا الطرفين. لقد نال ثقة صدّام حسين سابقاً، لكن يجب عليه أن ينال ثقة الملالي. في 18 مايس 1985 ضيّف الملك فهد وزير الطاقة الإيراني حسن غفوري - فرد بالرياض، وأرسل وزير الشؤون الخارجية الأمير فيصل إلى طهران لمناقشة احتمالية التقارب بين البلدين. ومن الطبيعي، لا يوجد نقص في القضايا المطروحة للنقاش: الحرب بين العراق وإيران، ضمانات الأمن الإقليمي، ومنظمة أوبك. أخبر المبعوث السعودي الإيرانيين أنّ الملك فهد مستعدّ لإيقاف كلّ الدعم

للعراق إذا قبلت إيران الهدنة. وذكرهم أيضًا بثمان السلام. فكم حجم المال الذي يتوقعه الإيرانيون مقابل وضع نهاية للحرب؟ كان السعوديون مستعدين لدفع مبالغ كبيرة لشراء حالة العودة إلى الهدوء في الإقليم، ولا سيّما أنّهم بإمكانهم الاعتماد على التمويل المشترك الذي بدأ مجلس التعاون الخليجي تهيئته لهذا الغرض. وفي الوقت نفسه، وكإشارة حسن نية، أعطى السعوديون الإيرانيين البنزين المحسن الذي كانوا بأمسّ الحاجة له منذ أن دمرت القوة الجوية العراقية عدة مصافي لهم. ثمّنت طهران ذلك الموقف وعبرت عن شكرها لسخاء الملك السعودي.

وإن كانت ضربة حظ، التقط حزب الله الفرصة وأطلق سراح حسين فراش القنصل السعودي المختطف في بيروت قبل عدة أشهر. ولذلك؛ ربما تمضي المناقشات في ظروف أفضل الآن. وفي جهوده للتسوية، اقترح رفسنجاني خطة بموجبها يوقف ملوك وشيوخ الخليج كلّ دعمهم للعراق، وأن يسهموا في تنحية صدام حسين مقابل أن تتعهد إيران بالابتعاد عن الترويج للإسلام الراديكالي في الصعود إلى السلطة بالعراق والتوصّل إلى سلام مع الحكومة الجديدة بغضّ النظر عن تركيبها ومعتقداتها. وبكلّ الأحوال، إيران لا تتساهل في نقطة واحدة: إسقاط صدام حسين. كانت هذه المشكلة بعينها، كان قادة الخليج يخافون الدكتاتور العراقي ويعرفون كم هي وحشيته، ولا يريدون أن يتبنّوا التعهد بمهمة خطيرة وغير مسبوقه إلى حدّ كبير لهذه الاستئصال المُخطّط له. ومع ذلك، بعث الملك فهد بالمقترح إلى واشنطن. أجاب الأمريكيون بصورة واضحة أنّ الإدارة لا تملك خطة ذات مصداقية لاستبدال صدام، ورفضت التضحية به، وأوصت بالعمل على تكثيف جهودهم للتوصّل لتقارب مع العراق. وبما إنّ العاهل السعودي مقتنع بأهمية تحالفه الحيوي مع واشنطن ولا يمكنه تجاهل رأي الأمريكيين، وجب عليه الآن أن يخبر السلطات الإيرانية أنّ مبادرته قد فشلت.

اتفاق واشنطن والرياض على سياسة نفط جديدة

ولمّا لم يتمكن الملك فهد من الوصول إلى اتفاق مع طهران، كانت الضرورة ملحة لوضع نهاية للحرب التي أصبحت مكلفةً يومياً ومؤذيةً لأمن الخليج، فقرّر تغيير استراتيجيته وقبل بمقترح مدير المخابرات الأمريكية وليم كيسي الذي اقترحه عليه قبل سنتين. كانت الخطة ترمي ليس لخنق إيران اقتصادياً فحسب، بل خنق الاتحاد السوفيتي أيضاً، وهما البلدان اللذان أكثر ما يخافهما الملك السعودي. كيف يتم الخنق؟ ببساطة فتح آبار النفط السعودية لإغراق السوق، ثم انخفاض أسعاره، وهذه الفرضية لا تقبل الجدل، فمبيعات النفط تشكل أربعة أحماس دخل إيران، وإذا انهارت مبيعات النفط لم تعد إيران قادرةً على تمويل مجهودها الحربي، ولا سيّما أنّ الجمهورية الإسلامية قد همّشت نفسها في النظام الدولي المصرفي، وأنّها غير قادرة على الاعتماد على أية دولة للحصول على الدعم المالي. ولا توجد دولة تمدُّ إيران بالسلاح مجاناً، حتى سوريا وليبيا. وإنّ انعكاسات تدهور أسعار النفط على العراق يمكن مداراتها ما دام بغداد قد اعتمدت على الاستدانة منذ بدئها الحرب وعلى القروض من مشيخات النفط بالخليج ومن البنوك الكبيرة بضمانات أمريكية. وإنّ فكرة أنّ العراق سيعتمد على داعميه الماليين لم تكن بعيدةً عن موافقة خادم الحرمين، وباستطاعة الرياض التعايش مع انخفاض أسعار النفط في حالة زيادة الإنتاج. وبما إنّ السعودية تملك أكبر احتياطي للنفط في المنطقة، فهي تملك طاقةً استخراجيةً تصل إلى أكثر من عشرة ملايين برميل يومياً، في حين تستغل اليوم خمس طاقتها الإنتاجية فقط.

كانت العائلة المالكة منقسمةً بقوة حول المقترح الأمريكي، وكان عدد من الأمراء يخاف إن لعب دور الله سيجعل الرياض تسبب دوامة من هبوط الأسعار، ما يؤدي إلى إضعاف المملكة بشدة. لكن الملك فهد تمكن من تغيير قناعة أعضاء مجلس العائلة المالكة، موضّحاً أنّ هذه الاستراتيجية ستسمح لهم بردع أعضاء أوبك، ولا سيّما إيران التي لم تحترم الأسعار المتفق عليها وتعرض خصومات غير متفق عليها لجذب الزبائن، وكذلك يُرهق

منتجتي النفط الأوروبيين الذين يبيعون نفط الشمال بأسعار أقل بكثير من أسعار أوبك. وفي النهاية تمكن الملك من إقناع الجميع بفضل دعم الأمير تركي الفيصل رئيس جهاز المخابرات السعودي ومن أقرب الأصدقاء لمدير المخابرات الأمريكية. كانت هذه أخبارًا ممتازة لوليم كيسي ورونالد ريغان اللذين فسّرا ذلك بوصفه إدراكًا واقعيًا لنجاح خطتهم بخنق الاتحاد السوفيتي وإيران معًا. ولأجل إعادة طمأنة الملك فهد، كررت السلطات الأمريكية العليا تعهدها للدفاع عن النظام الملكي السعودي ومهما كانت الظروف، مكررةً التعهد الذي قطعه الرئيس روزفلت للملك ابن سعود على ظهر حاملة الطائرات Quincy قبل أربعين سنةً.

أشارت تقارير مختلفة منذ عام 1982 إلى إنهاك الاقتصاد السوفيتي الذي أعاقه النظام البيروقراطي، والزيادة في أسعار المواد الخام، والتضخم في الميزانية العسكرية؛ نظرًا للكلفة الهائلة لتدخله في أفغانستان، ولا سيّما السباق في التسلّح الذي سحبه إليه بذكاء البيت الأبيض (برنامج "حرب النجوم" الشهير). وأظهرت هذه التقارير أن موسكو تموّل إمبراطوريتها المترنحة من خلال عمليات تصدير النفط الهائلة. كان الاتحاد السوفيتي يعمل بصفة حلقة مغلقة، ولم يملك أية موارد مالية مهمة عدا مبيعاته من الذهب التي تخدم بوصفه مؤشرًا واقعيًا على المشاكل الاقتصادية. فمنذ عام 1980 حتى عام 1984 ضاعف الكرملين مبيعاته من الذهب إلى أربعة أضعاف، وهذا مؤشرٌ واضحٌ على حالته المالية الكارثية.

كانت الإدارة الأمريكية مقتنعةً أن أفضل السبل لتركيع الاتحاد السوفيتي هو العمل على انهيار أسعار النفط. وأظهر الكثير من محلّليه أن الاتحاد السوفيتي سيخسر مليار دولار عن انخفاض دولار واحد في سعر كلّ برميلٍ من النفط. قام الاستراتيجون الأمريكيون بحساب الأرقام، وتوصّلوا إلى أنّه يجب إقناع القادة السعوديين باتباعهم في هذا المسعى الذي سيخدم المصالح السعودية، ولا سيّما أنّ الملك فهد يعدُّ السوفيت "كفارًا حقيقيين"⁽¹⁾.

1- انظر الوصف في دراسة

Eric Laurent, La Face cachee du petrole(Paris: Plon,2006),183-195.

وهذه التحليلات أكدتها للمؤلف مصادر معتمدة أمريكية وأخرى عراقية وسعودية.

وهذه الاستراتيجية ستسمح لهم بتجفيف الاستثمارات السوفيتية في إنتاج الغاز الطبيعي. يبدو أن التوقيت كان صائبًا بشكل خاص؛ لأن الولايات المتحدة قد قلّصت من اعتمادها في الطاقة على الخليج، وإن واشنطن كانت بحاجة إلى تنشيط الصناعة الأمريكية من خلال تعزيز الإنفاق الاستهلاكي من خلال توفير النفط بأسعار معقولة. ومن أجل تعميق تأثيرات هذه الاستراتيجية، سمحت الحكومة الأمريكية بتدهور عملتها أكثر في محاولة لانهاية الموارد المالية المتأتية من النفط التي تُقيم بالدولار، وتسهل من عمليات التصدير الخاصة بها (سيخسر الدولار 37٪ من قيمته خلال ثمانية عشر شهرًا). كانت الحجة الإيرانية مجرد رأس جبل الجليد، لكنها الوحيدة التي تُقنع السعوديين.

وكما هو متفق، أمر الملك فهد بفتح أنابيب النفط كما كانت عليه في شهر تموز 1985. تدفّق النفط حتى وصل الإنتاج إلى ستة ملايين برميل يوميًا في نهاية فصل الصيف، وإلى تسعة ملايين برميل بنهاية فصل الشتاء، وإلى عشرة ملايين برميل في شهر كانون الثاني 1986. وبعد أن وصل سعر البرميل ذروته عند 35 دولارًا في أواخر 1982، لكنّه استقرّ عند 29 دولارًا طوال الثلاث سنوات التالية، ثم بدأ سعر البرميل الواحد ينزل إلى أقلّ من عشرة دولارات. وفي ربيع عام 1986، انتبه نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش إلى وضع شركات النفط الأمريكية واتفق مع الملك فهد على زيادة معتدلة للأسعار حتى استقرّت عند 15 دولارًا للبرميل الواحد.

قُوّلت هذه التطورات بفرع بالغ في إيران والعراق والاتحاد السوفيتي. أدرك رفسنجاني الذي بيده محفظة المال بطهران وبسرعة حجم الكارثة. فقد تدهورت الموارد المالية بنسبة الثلثين خلال أشهر قليلة، ولا سيّما أن الحكومة تستعدّ لشنّ سلسلة أخرى من الهجمات على الجبهة العراقية. وهذه الهجمات ستعتمد فقط على شجاعة الباسدران وتضحياتهم؛ لأنّ الدعم الجوي والآلي أصبح مكلفًا جدًا. وابتدع رئيس الوزراء موسوي وسائل مبتكرة لمعالجة النقص المتزايد في السلع الاستهلاكية اليومية. أمّا في بغداد؛ جعل صدّام السفراء السعوديين والأمريكيين يدركون مدى غضبه الكبير. ومع ذلك، كان لديه فهم عملي أنّ تجفيف موارد النفط ستؤثر إلى حدّ بعيد على عدوّه أكثر من تأثيرها فيه. وكان يعي

أيضاً أن الجزء من أنبوب النفط الذي يربط البصرة بخط أنبوب البترولالين الذي أفتح مؤخرًا بالسعودية سيمكنه من زيادة كبيرة في حجم صادراته النفطية. والأكثر أهمية من ذلك، أعطي صدام وعودًا بقروض وتسهيلات مصرفية جديدة، مما يسمح له بمواصلة الحرب ضد آية الله الخميني ولو بالاستدانة. كذلك أقنع الأمريكيين بإعطاء العراقيين بدعم مخبراتي أكثر. وفي موسكو أسرف السوفييت في تبذير احتياطياتهم من الذهب لتعويض خسائرهم في موارد النفط. مما لا شك فيه، أسهم هذا المشهد في إقناعهم لتغيير سياساتهم.

أبدل السوفييت أساليبهم مرة أخرى

إن مجيء ميخائيل غورباشوف إلى السلطة بعد وفاة قسطنطين تشيرننكو في شهر آذار 1985 يؤشر نقطة تحول أخرى في موقف الاتحاد السوفيتي من طرفي النزاع. فالقائد الجديد للكرملين سرعان ما تخلص من قادة الحرس القديم ووضع إدارة شابة محلهم التي ستطبق تدريجياً سياسة الغلاسنوست (الشفافية) والبروسترويكا (إعادة الهيكلة). في مطلع صيف 1985 تمت تنحية أندريه غروميكو وجعل أدوارد شيفرنادزه بدلاً منه، السكرتير السابق للحزب الشيوعي في جورجيا، ومن المخلصين لمبادئ الإصلاح. كان كل من غورباشوف وشيفرنادزه يدركان بعمق أن الاقتصاد السوفيتي كان على وشك الانهيار، ولذلك ركّزا على إعادة توجيه السياسة السوفيتية لتقوم على ثلاث أولويات: انسحاب الجيش السوفيتي من أفغانستان، تنفيس التوتر المتصاعد مع الغرب، وإعادة تعريف العلاقات الودية مع العالم الثالث.

إن الروابط بين هذه الأهداف قادتهم إلى إعادة تقييم علاقاتهم مع بلدان الشرق الأوسط. فلم تعد موسكو تضع التحديات الأيديولوجية في المقام الأول من سياساتها، بل تفضل المصالح المشتركة الطويلة المدى بالاستناد إلى شراكات مثمرة مع دول الشرق الأوسط. كان الاتحاد السوفيتي على وشك الإفلاس: عليه الانفتاح على أسواق جديدة وبضمنها تلك التي خارج أسواق السلاح التقليدية؛ من أجل الحصول على العملة الصعبة

التي بأمس الحاجة لها. تتطلب سياسة الاتحاد السوفيتي الجديدة إعادة إقامة علاقات جيدة مع مصر. وتتضمن تحركاً نحو مشيخات الخليج الثرية. والأكثر أهمية، تتطلب من السوفييت العودة إلى علاقات ودية مع إيران وسوقها الأكثر جاذبية من العراق. فضلاً عن أنها من جيران الاتحاد السوفيتي المباشرين، ممّا يسهل من عمليات التبادل الاقتصادي وإرسال الوقود الإيراني إلى الأقاليم السوفيتية المعزولة في آسيا الوسطى. ولربما الأكثر أهمية من ذلك، يمكن لإيران التأثير في حركة "المقاومة" الأفغانية، ولا سيما أن موسكو تحاول الانسحاب من أفغانستان⁽¹⁾. إنَّ التقارب بين موسكو وطهران تبدو وثيقة الصلة بشكل خاص، ولا سيما أن أكبر هاشمي رفسنجاني كان يحاول بناء شراكات اقتصادية لكسر عزلة إيران. وكجزء من هذه المبادرة، سافر بعض التكنوقراط الإيرانيين إلى موسكو في السنة الماضية للتأكيد للكرملين أن إيران تريد إبرام روابط تجارية بين البلدين، على الرغم من الاختلافات الأيديولوجية المتعارضة بين البلدين.

ومع ذلك، هناك فجوة بين النظرية والتطبيق، وإنَّ العلاقات بين موسكو وبغداد وطهران استمرت تتصف بوزن اعتيادي وانعدام الثقة المتبادلة. وكلٌّ من العراقيين والإيرانيين أرادوا اختبار التوجه السوفيتي الجديد، وكلٌّ بحسب طريقته. وحالما تم انتخاب غورباشوف، اصطحب طارق عزيز طاقمه للحج والطيران نحو موسكو، أخبر السلطات السوفيتية أن صداماً يريد لقاء رجل الكرمليين القوي الجديد للعمل على بداية جديدة لتعزيز العلاقات الثنائية والحصول على كثير من السلاح. كان الجنرالات العراقيون تواقين للحصول على جوهره الصناعة السوفيتية: طائرات ميغ-29 و Su-27 المقاتلة، ودبابات T-80، وناقلات المشاة المقاتلة BMP-2، وصواريخ SS-23 البالستية، والجيل الأخير من أنظمة الدفاع المضاد للجو (SA-11 /12 /13 /14). في 16 كانون الثاني 1985 وصل صدام حسين إلى موسكو في زيارة رسمية كان يأمل أن تكون حاسمة، ولا سيما أنه لم تظاً قدمه العاصمة السوفيتية منذ عام 1978 حينما كان لا يزال يمثل مجرد الرقم 2 في النظام.

1- إنَّ مبدأ الانسحاب السوفيتي من أفغانستان قد اتخذ رسمياً من المكتب السياسي في شهر تشرين الأول 1985 (وتم تنفيذه في 15 مايس 1988).

وعلى الرغم من الأبهة والبساط الأحمر كان الاستقبال باردًا، ولم تلتقط أية صورة رسمية واحدة للاحتفاء بهذا اللقاء وتوثيقه الذي وصف "بالودي والصريح" من الصحافة المحلية. وبأقل من البنود الدبلوماسية، هذا الموقف يمثل شاهدًا على لقاء عاصف تمسك خلاله رؤساء الدولتين وبعناد على مواقفهم. ونظرًا لانزعاج غورباشوف من وقاحة صدام ووبخه؛ لأنه لم يأخذ بالحسبان المصالح السوفييتية، وأخبره أن الاتحاد السوفييتي بحاجة إلى ضمانات نقدية ولم يعد بإمكانه تقديم ديون أكثر. وذكره أيضًا أن بغداد عليها ألا تتوقع التمتع بدعم موسكو غير المشروط بعد إعادة علاقاتها الودية مع واشنطن. وفوق كل ذلك، أبلغ القائد السوفييتي أن العراق لم يعد أحد أولوياته. وبعد فشل هذا اللقاء لم يلتق الرجلان مرة أخرى أبدًا. وبقيت النقطة الواحدة اللتان اتفقا عليهما، الحاجة الملحة لهدنة ماء والاستمرار بالمساندة العسكرية السوفييتية. وفي النتيجة الأخيرة، لم يعد صدام إلى العراق خالي اليدين، فقد حصل على وعدٍ بشحن أربع وخمسين طائرة هجومية طراز SU-25، وكمية من الدبابات "القاتلة" المعروفة بأدائها في الجبهة الأفغانية، وعلى 300 صاروخ باليستي من الجيل القديم قصير المدى للوصول إلى طهران، لكن هذه الصواريخ تم تعديل مدياتها من المهندسين العراقيين لضرب العاصمة الإيرانية بمساعدة الفنيين السوفييت، وأعيد تسميتها باسم صواريخ "الحسين". أمّا بالنسبة إلى البقية؛ فعلى العراقيين الانتظار.

تبنى الإيرانيون استراتيجية التقارب غير المباشر، فحالما وصل غورباشوف إلى السلطة، صرح رفسنجاني في تصريح توافقي موجه إلى الاتحاد السوفييتي قائلاً: "نحن نميل إلى علاقات جيدة مع الاتحاد السوفييتي"⁽¹⁾. ونظرًا لتأخر السوفييت في الاستجابة، قرّر القادة الإيرانيون الضرب على نغمة مختلفة. في يوم 30 أيلول 1985 اختطف أربعة دبلوماسيين سوفييت في بيروت (آركادي كاتكوف، أوليغ سبيرين، فاليري ميركوف، ونيكولاي سيفريسكي). وكما حدث مع الرهائن الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين، ادّعت الجهاد الإسلامي مسؤوليتها عن العملية، وهي فصيل من حزب الله المرتبط بإيران.

1- John Parker, *Persian Dreams : Moscow and Tehran since the Fall of the Shah*(Washington, DC: Potomac Books,2009),20.

وبعد أسبوعٍ عُثر على جثة آرКАДي كاتكوف مشوّهة بالقرب من السفارة السوفيتية. كانت الرسالة واضحةً بجلاء: إيران تريد الدخول في المفاوضات مع الاتحاد السوفيتي، ولكنها ليست خائفةً من السوفييت. ولم ترغب موسكو أن تظهر خضوعها للابتزاز، وخلال ساعات قليلة نشرت عدة فرق آلية على طول الحدود الإيرانية، بينما ضاعفت القوة الجوية السوفيتية من طلعاتها الجوية على طول الحدود الإيرانية ومخرقة الأجواء الإيرانية لمرات متعددة. ثم أسقطت الطائرات الاعتراضية الإيرانية طائرتي ميغ-27 سوفيتيتين.

وعلى الرغم من انشغاله في أفغانستان، يبقى الجيش السوفيتي قادرًا على تهديد إيران على طول حدودها الشمالية التي بقيت غير محمية؛ بسبب التركيز على الجبهة العراقية. ولكن الطرفين في النهاية وضعاً قيودًا لتجنب التصعيد في النزاع. وفي لبنان ذهبت المخابرات السوفيتية KGB وGRU للعمل على تحديد مكان الرهائن السوفييت. وحينما نجحوا في تحديد المكان وصل فريق من جنود Spetsnaz - نخبة من الكوماندوز المعروفين بشراستهم - إلى بيروت لقيادة عملية إطلاق سراحهم⁽¹⁾. وتم اغتيال عدة مسؤولين في حزب الله بصورة غامضة خلال أيام معدودة. ويقال إن رأس أحد الضحايا سُلم إلى السفارة الإيرانية. أدت هذه الطريقة العسكرية الصارمة إلى نتيجة: طلبت السلطات الإيرانية التفاوض مع الكرملين، حيث سافر رئيس الوزراء موسوي إلى موسكو في محاولةٍ لوضع نهاية لهذه الأزمة. وبسرعة تم التوصل إلى تسوية عامة، وأطلق سراح الدبلوماسيين الثلاثة الباقين.

وبعد شهرين جاء جورجي كورنينكو وكيل وزير الخارجية وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى طهران؛ للقاء أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي، وهما القادة الأكثر نفوذًا بعد آية الله الخميني. كانت هذه المرة الأولى يسافر وفد سوفيتي عالي المستوى إلى إيران منذ إعلان الجمهورية الإسلامية. كان الإيرانيون يدركون تمامًا أهمية هذه الزيارة، ولذلك عاملوا ضيفهم باحترام كبير. أبلغهم أن ميخائيل غورباشوف وادوارد

1 - هذه المعلومات التي أشار إليها William Burgess في كتابه

"Inside Spetsnaz-Soviet Special Operations: A Critical Analysis(Novato,CA:Presidio Press,1989),

أكدها للمؤلف وكيلا المخابرات السريان الأمريكي والفرنسي السابقان بيروت آنذاك.

شيفرنادزه يرغبون بإعادة العلاقات الودية الثنائية. وكعلامة حسن نية، ألغت طهران محاكمات أعضاء الحزب الشيوعي الإيراني "توده". والآن كلُّ طرف لديه الفرصة لاختبار تصميم الآخر، تقدّمت المناقشات على أسس ثابتة وتم التركيز على القضايا الاقتصادية. واتفقت الحكومتان على بناء سكة حديد جديدة تربط البلدين، وإعادة الطيران التجاري إلى العمل بين العاصمتين. وعلى المستوى الدبلوماسي، اقترحت موسكو أن تصبح سرّاً المدافع عن إيران في مجلس الأمن بالأمم المتحدة. وكانت السلطات السوفيتية مستعدة للعمل وسيطاً لتسهيل التوصل لهدنة بين طرفي القتال.

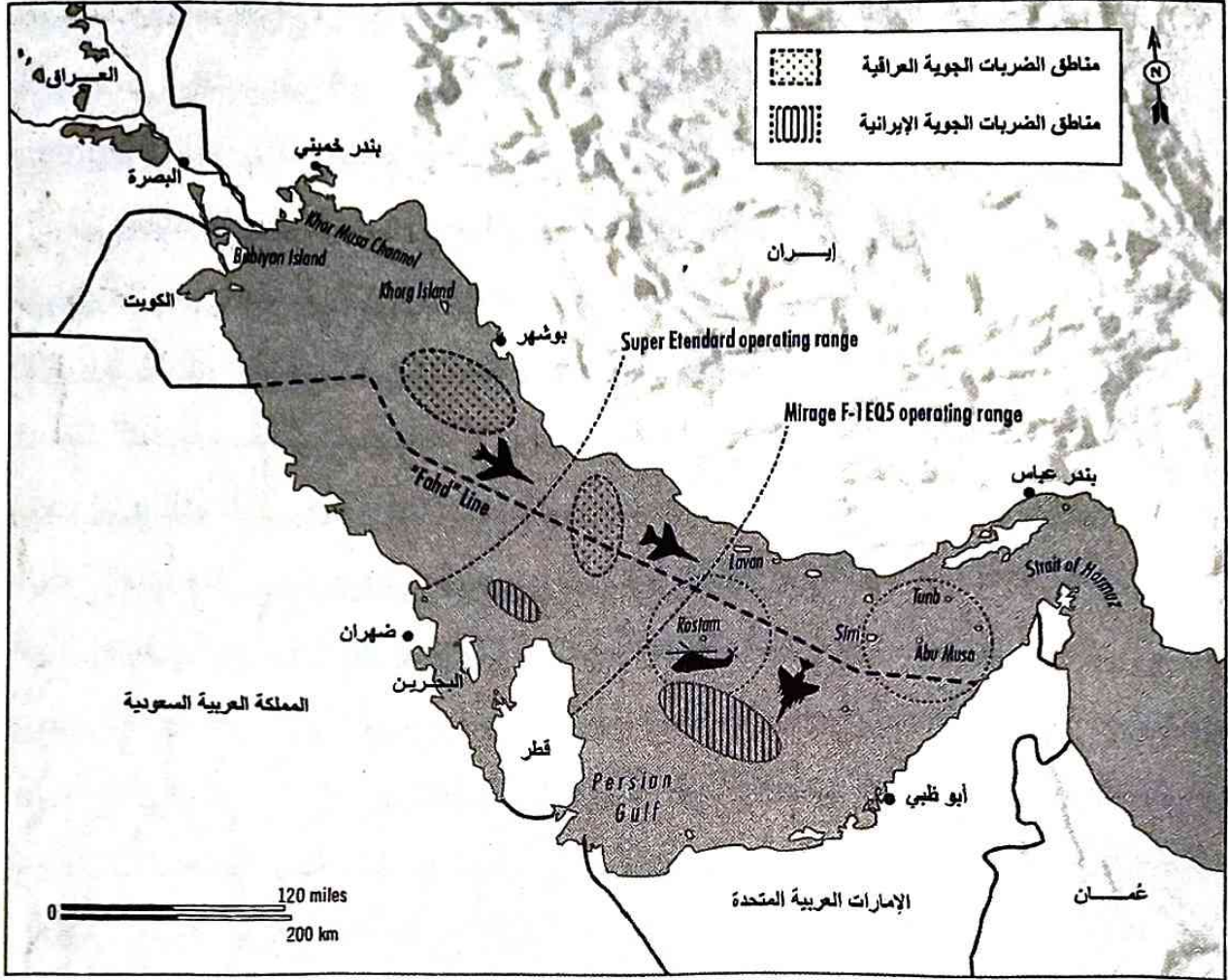
بقيت تحليلات السوفييت ثابتة؛ لأنَّ استمرارية الحرب كانت عقيمةً بالنسبة إليهم. كان هذا المنطق وراء الرفض السوفيتي بإرسال الأسلحة لطهران، ما دامت الحرب تؤدي إلى شقاء الطرفين. ومع ذلك، فقد أغرى الكرملين الحكومة الإيرانية بأن عرض عليها تزويدها بالأسلحة المعقدة والتعاون معهم في مجال الطاقة النووية حالما تنتهي الحرب. كان المقترح يستحق الإعجاب، لكنَّ آية الله الخميني رفض قبوله؛ لأنَّه لا يستطيع التصور بإقرار الواقع الراهن آنذاك لصالح صدّام حسين. يجب إذلال الدكتاتور العراقي ومعاقبته مهما كانت كلفة ذلك. وعلى الرغم من محاولة أنصار الانفتاح بقيادة رفسنجاني إخبار المرشد الأعلى أنَّ هذه فرصة نادرة لتقوية الجمهورية الإسلامية على المدى الطويل، لكنه رفض الترحيح عن موقفه، بل تجرأ بإرسال شكر إلى ميخائيل غورباشوف، مقترحاً عليه التحول إلى الإسلام.

الهدف خارج

استمرت الغارات على التجارة النفطية بشكل متواصل طوال عام 1985. وتسارعت حينما وضع العراق في الخدمة عند بداية شهر شباط طائرات F-1EQ5 المجهزة بصواريخ Exocet إلى جانب ثلاث طائرات Super Etendard (الرابعة مُنعت من التحليق؛ بسبب الأضرار لانفجار صاروخ جو - جو عليها). كانت طائرات الميراج مؤثرةً بشكل كبير بيد طياري صدّام الذين تدرّبوا الآن جيّدًا وبما يكفي لإطلاق صواريخهم في ظروف مثالية.

انضمت هذه الطائرات إلى السرب 81 الذي أعيد انتشاره في القاعدة المتقدمة "الوحدة" بالقرب من البصرة. في 14 شباط 1985 أغرقت طائرة الميراج F-1EQ5 ناقلة النفط الليبيرية Neptunia بالقرب من ساحل بوشهر. كان هذا النجاح الأولي بداية لعدة نجاحات قادمة. والفضل يعود لخزاني الوقود الخارجيين الإضافيين لطائرات الميراج F-1EQ5 التي وفرت مديات أكبر من مديات طائرات Super Etendard وسمحت لها بالوصول إلى أهداف تبعد 400 ميل (600 كيلومتر) عن قاعدتها، ومهاجمة ناقلات نفط تبعد شمال دولة قطر. ومن الناحية النظرية، يمكن لمجسات التزود بالوقود في الجو السماح للطائرة بالتحليق لمسافة أبعد، لكن العدد المحدود لطائرات الميراج F-1EQ5 منع الجنرال شعبان من تجهيزها بأنظمة إعادة التزود بالوقود في الجو من على متن طائرة مرافقة لها؛ لأن ذلك يتطلب حمل خزان إضافي لتزويد طائرة أخرى بالوقود في أثناء الطيران.

كان رد فعل الإيرانيين نشر أعداد كبيرة جدًا من الأجسام المخادعة والوهمية حول جزيرة خارج تتراوح من سفن الشحن المتهرئة التي تنتظر إرسالها إلى ساحات السكراب إلى زوارق مجهزة بمكبرات رادارية لإيهام رؤوس صواريخ Exocet المصنوعة محليًا. والأكثر أهمية من ذلك، افتتح الإيرانيون منصة نفط عائمة بديلة تبعد 400 ميل (600 كيلومتر) إلى الجنوب الشرقي من جزيرة خارج بالقرب من جزيرة سيدي وليست بعيدة عن مضيق هرمز، ومن الناحية النظرية، تقع خارج مديات القوة الجوية العراقية. تتكوّن هذه المنصة العائمة من ثلاث ناقلات عملاقة سعة كلّ واحدة منها 400 ألف طن وتؤمن الواحدة للأخرى حمولاتها ومهيئة لخزن النفط الخام. وبذلك تستطيع ناقلات النفط الأجنبية تحميل ذلك النفط دون المجازفة والذهاب بعيدًا في مياه الخليج، وتجنب المنطقة الحربية وبوليصة التأمين الإضافية التي تفرضها شركات التأمين. لقد أنجز الإيرانيون رحلات مكوكية لناقلات النفط بين خارج وسيدي لملء هذه الخزانات العائمة. كانت ناقلات النفط الثمانية المخصصة لهذه المهمة الخطيرة وغير المشكورة تبعد وهي ترفع العلم الإيراني وتطفئ جهاز راديو الإشارة.



خارطة حرب الناقلات (1985-1984)

يتم نقل النفط الواصل إلى منصة خارج بواست الأنابيب إلى الناقلات العملاقة الراسية بعيداً عن جزيرة سيري. وهذه الخدعة تسمح لإيران تجنب منح خصم لأسعار نفطها الخام المحمل من سيري. كانت الجمهورية الإسلامية بحاجة إلى ناقلات النفط القديمة لجعلها بدلاً من تلك التي قد تتعرض للغرق؛ لأن الرحلات المكوكية تتطلب موقفاً فورياً للمعالجة بين المنصتين. لقد عمل الإيرانيون على تأمين ناقلاتهم العملاقة على حساب سفنهم القديمة التي كانت تُستخدم مضلات حماية ضد انفجارات الصواريخ بدلاً من إرسالها إلى ساحات السكراب. وليس مهماً أن تتعرض هذه السفن إلى الغرق أو الاحتراق ما دام أنها تحمي الناقلات وتبقيها آمنة. وخلال خمسة أشهر أطلق العراقيون اثنين وستين

صاروخ Exocet، لكنهم أصابوا ثماني عشرة ناقلة، وغالبية الصواريخ الأخرى ضربت إما أجسام سفن وهمية أو سفناً قديمةً خارجةً عن الخدمة.

تأثر الإيرانيون لهذه الهجمات التي تداخلت مع غارات على التجارة النفطية، كانوا يستهدفون السفن المبحرة إلى الشرق من قطر، أي خارج مدى الطائرات الاعتراضية السعودية، وكانت تتوخى الحذر من الهجوم على السفن التجارية التي تعود إلى الدول الأعضاء بمجلس الأمن الدولي. كانت هذه الهجمات نادرة؛ لأن أولوية القوة الجوية الإيرانية كانت قصف المدن العراقية والبنى التحتية الصناعية. وإن مخزوناتهما من الذخيرة أخذت بالنفاد. وعملياً، نفذت صواريخ مافريك، واستأنف طيارو الفانتوم الهجمات بالقذائف الصاروخية ولم يترددوا بإطلاق صواريخ Sidewinder جو - جو الموجهة بالأشعة تحت الحمراء. هذه الصواريخ الصغيرة تتبع حرارة الغاز المحترق من مراحل الناقلات، وتنفجر عند مستوى مدخن العادم، مما يؤدي إلى تدمير جسر السفينة وبدء الاشتعال فيها في بعض الأحيان.

كانت طائرات الهليكوبتر البحرية تدعم طائرات الفانتوم التي أعيد انتشارها بالقرب من جزيرة أبو موسى ومنصات النفط الإيرانية القريبة من ساحل الإمارات العربية المتحدة. هذه الطائرات الهليكوبتر الثلاثة عشر كانت تضايق الناقلات المارة بالقرب منها (ثلاثة هليكوبتر SH-3 Sea King مسلحة بصواريخ مافريك ومن النوع نفسه الذي تطلقه طائرة الفانتوم، وعشر طائرات AB-212s مجهزة AS-12 بصواريخ موجهة بالأسلاك المرسلة من فرنسا منذ أواخر حكم الشاه). كانت طريقة عملها بسيطة: حينما يلتقط رادار المراقبة في جزيرة أبو موسى أو في منصة نفط رستم هدفاً ثميناً تهرع الهليكوبتر إلى تشخيصه، وإذا قررت السلطات الإيرانية مهاجمته تقوم هليكوبتر أخرى بالإقلاع مسلحةً بالصواريخ أو بقذائف صاروخية وتتوجه لضرب ذلك الهدف. ومع ذلك، كانت هذه الهجمات محددة بمدى رادار المراقبة البالغ ستين ميلاً (نحو 100 كيلومتر).

ركزت بقية البحرية الإيرانية نشاطاتها على بقاء مضيق هرمز تحت المراقبة، ومرافقة عدد قليل من ناقلات النفط المستمرة بتحميل النفط من منصة خارج⁽¹⁾. كانت هذه الناقلات حذرةً بشكل خاص؛ لأنَّ العراقيين تمكنوا من فكِّ شفرة رسائل البحرية الإيرانية ويعرفون أين يضربون لتحقيق أفضل ضربة مثالية. وما عدا هذه المهمات للمرافقة، نادرًا ما تبحر السفن الحربية الإيرانية بعيدًا عن سواحلها. وبعد اعتقال وإعدام الكابتن بهرام أفصلي الذي اتهم بالتواطؤ مع حزب "توده"، تم تشويه سمعة البحرية وتعرضت إلى التطهير الذي لم يدفع قادتها القيام بأيِّ مبادرة. كان تعيين الكابتن محمد حسين ملكزاديكان كقائد للبحرية في صيف عام 1985 ينعش من جديد تلك المؤسسة التي تدرك أنَّها في تنافس مع فرع البحرية التابع للباسدران. كان الأدميرال الجديد قبل كل شيء بحارًا جريئًا وخبيرًا ومحترمًا من أقرانه، على الرغم من قربه من رجال الدين، ومستعدًا للمخاطرة بفرض نفسه، والبرهنة على أهمية البحرية عند السلطات السياسية في البلاد.

وفي غضون ذلك، تطوّرت استراتيجية العراق، أُعيدت طائرات Super Etendards المتبقية سرًا إلى فرنسا في حزيران 1985 بعد أن تمَّ جعلت طائرات ميراج F-1EQs بدلاً منها. وإنَّ الرحلات المكوكية بين جزيرتي خارج وسيري وتزايد أعداد الأجسام الوهمية العائمة جعل هذه الطائرات لا تتبأ بدقة بهجومها على ناقلات النفط. قرر الجنرال شعبان وبموافقة القيادة العسكرية العليا شنَّ هجوم مباشر على منصة خارج النفطية، ولا سيَّما أنه يملك الآن طائرات هجومية أكثر، وأنظمة مضادة أكثر فاعلية في تعطيل صواريخ الدفاعات الجوية الإيرانية المنتشرة حول الجزيرة. وكان يدرك أيضًا أنَّ صواريخ هوك بدأت تنفذ تقريبًا لدى الإيرانيين؛ لأنَّهم نادرًا ما يطلقونها الآن. ولأجل تنفيذ خطته، بنى الجنرال شعبان نسخةً مطابقةً لمنصة خارج النفطية بعيدًا عن تطفل العيون في جزيرة وسط بحيرة تقع في الشمال الغربية من العراق. وهناك يهاجمُ الطيارون الهدفَ من كلِّ زاوية وجانب. في 14 آب 1985 شنَّ هجومه على جزيرة خارج، وقرر أن يبدأ الهجوم في الساعة الثالثة بعد الظهر؛ لأنَّه يعرف أنه في هذا الوقت من فصل الصيف القائض أغلب بطاريات الصواريخ المضادة للجو

1 - فتشَّت البحرية الإيرانية أكثر من ثلاثمئة سفينة في عام 1985 يشتبه بها أنها تحمل أسلحة للعراق.

وطواقم إطلاق الصواريخ سيكونون في حالة من الاسترخاء، وحرارة الجو في مثل هذا الوقت يجعل من طائرات المراقبة الدورية تربض على الأرض. في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر أقلعت ستُّ طائرات SU-22Ms من قاعدتها بالبصرة وتبعتها طائرتا ميراج F-1، وبعد مهاجمة الجزيرة من جنوبها، اندفعت الطائرات الثمانية المقاتلة في الجو حول هدفها وعلى ارتفاع منخفض وبسرعتها القصوى. وبعد أن أطلقت بالونات حرارية مخادعة، توزعت في ثلاث مجموعات، كلُّ مجموعة تهاجم مرسى أو منصة مختلفة، وأطلقت قنابلها بالمظلات زنة 550 باونداً (250 كغم)، ثم تعود مباشرة إلى القاعدة، بينما أُصيب الإيرانيون بالصدمة لبلادتهم وإطلاقهم صواريخ سام-7 المضادة عشوائياً.

وبعد دقائق قليلة، حلقت طائرات المراقبة الميخ-25 فوق الجزيرة على ارتفاعات عالية لتقييم الأضرار. كانت النتائج مخيبة، على الرغم من أن عدداً من الناقلات كانت تحترق، وأحد المراسي قد تضرر، لكن يبدو أن عمليات تحميل النفط لم تتأثر كثيراً. ومرةً أخرى، بعد نظرة الشاه أتت ثمارها الآن، والمنشآت الزائدة هناك أثبتت وزنها بالذهب. أصرَّ الجنرال شعبان على استمرار الغارات على جزيرة خارج بهدف تدمير أكثر ما يمكن من منشآت النفط وتقليص الطاقة التصديرية لإيران. وكان مصمماً بشكل خاص، ولا سيما أنَّ صدام حسين كان يراقب برزانة أسعار النفط وهي تواصل الانخفاض التدريجي، وأمره بتكثيف حملة القصف؛ من أجل تجفيف المنابع المالية للاقتصاد الإيراني.

في 20 أيلول 1985، أجاب علي خامنئي من طهران مهدداً بإغلاق مضيق هرمز. ومع ذلك، لم يكن لتحذيره أي تأثير ملموس؛ لأنَّ الإيرانيين يفتقرون إلى إمكانيات قوية تمنع الملاحة في المضيق. فمن الطبيعي، يمكنهم تخريب التجارة البحرية من خلال نشر الألغام البحرية، أو شنَّ غارات للمضايقة، لكنهم يدركون أنَّ تلك الأعمال ستؤدي في النهاية إلى تدخل القوى الغربية. ولذلك؛ خففوا من هجماتهم على التجارة النفطية. في العام 1985 هاجمت إيران اثنتي عشرة ناقلة نفط فقط، لكنها أغرقت واحدة منها.

خلال أربعة أشهر من عام 1985 شنت القوة الجوية العراقية نحو ستين غارةً على جزيرة خارج، أي بمعدل غارة واحدة كلَّ يومين. وفي كلِّ محاولة لمفاجأة العدو، يظهر

الطيارون فوق أهدافهم في أوقات مختلفة من اليوم ومن مختلف الاتجاهات. يطلق الإيرانيون صواريخ هوك بندرة متزايدة، ويحاولون الحصول عليها بشغف من السوق الموازية. ومع ذلك، كانت طائراتهم Tomcat أكثر فعالية وأسقطت ثلاث طائرات ميراج-F-1، وطائرة واحدة SU-22. وعلى الرغم من أن هذه الغارات قد قلصت من طاقة عمليات منصة خارج بنسبة 40٪، فإن 60٪ المتبقية كانت كافية لمعالجة وتصدير أغلبية إنتاج إيران من النفط. كذلك لم تؤدِّ الهجمات على ناقلات النفط إلى حالة حرجية. في العام 1985، أصابت القوة الجوية العراقية ثلاثين ناقلة فقط (باستثناء الكثير من الأجسام الوهمية)، أو بالكاد 3٪ من تلك التي وصلت لتحميل النفط من إيران - وأغرقت إحدى عشرة ناقلة فقط من تلك التي أُصيبت أو أرسلت إلى ساحات السكراب؛ لأنَّ الكثير من الشركات كانت ترسل سفنها القديمة إلى الخليج، وقيمتها الواطئة قد لا تساوي كلفة إصلاحها. وعلى الرغم من هاتين العمليتين، نجح العراقيون في تقليص كميات النفط الإيراني المُصدَّر بنسبة 12٪ في سنة واحدة. وهذه النسبة ليست كافيةً لتحطيم الاقتصاد الإيراني. ولكن كان الانهيار المشترك لسعر برمبيل النفط وانخفاض قيمة الدولار قد أدى إلى انخفاض موارد إيران المالية بنسبة الثلث خلال أشهر قليلة، وهو ما أثر كثيرًا في المجهود الحربي الإيراني وأكثر من تأثير الهجمات العراقية على التجارة النفطية. برهنت الحرب الاقتصادية على فعاليتها وستكون حاسمةً في السنة المقبلة.

الفصل الثالث والعشرون

مذبحة الجنود الأطفال

إنَّ الصور التي كانت تُرى حول العالم بخصوص أولئك الشباب المراهقين الإيرانيين الذين يستعدون لاقتحام الخطوط العراقية وهم يرتدون الملابس العسكرية الفضفاضة جدًا وشريطًا أحمرَ مشدودًا على الرأس مكتوبًا عليه "الله أكبر"؛ لقد جاؤوا ليمثلوا رعب الحرب العراقية الإيرانية وحماتها، وليؤكدوا مأساة استخدام الأطفال جنودًا في الحروب المعاصرة. وبينما جَنَدَ النظام العراقي الشبان بأعمار 16-17 سنةً لتعويض خسائره في الجيش الشعبي، ولا سيَّما في مراحل الحرب النهائية، فإنه لم يفعل ذلك بصورة منتظمة. كان استخدام الجنود الأطفال يمثل صدمةً في إيران؛ بسبب الحجم الواسع لتجنيدهم. وفي الواقع كان الشبان من ذوي الأعمار اثنتي عشرة سنةً فما فوق يُستخدمون مجرد طعم للمدافع، وفي الغالب يُرسلون في المهام الانتحارية لفتح الطرق أمام باقي الجيش. ومنذ بداية ربيع عام 1982 سحب الباسدران من احتياطي الباسيج لتعويض خسائره ولزيادة حجم كتائبه. في ذلك الوقت، كانت قوة الباسيج تتكوَّن من 150 ألف فرد، ثلثهم فقط من البالغين وفي عمر العسكرية، وبقية الثلثين من المراهقين الراغبين في خدمة بلدهم. كُلف البالغون بحراسة المناطق الحسَّاسة، أو انضموا إلى فرق التبليغ للباسدران ووحدات التجهيز. وتم أيضًا توجيه شباب الباسيج إلى الوحدات القتالية.

تضحيات شباب الباسيج

كانت البداية مع المدارس الابتدائية، أخذ "المربون" الذين جنّدهم النظام يُعلمون الأطفال فضيلة التضحية، فالدفاع عن الأمة كان يُقدّم بوصفه قضية مقدّسة. وكُنّفت الحملات الدعائية في المدارس المتوسطة، فقد تمت دعوة الشباب من عمر 12 سنةً للانضمام إلى الباسيج، ومُنح المتطوعون مخصصات التدريب العسكري الأساسية لمدة أسبوعين، ثم أُرسِلوا إلى الجبهة لمدة شهر أو شهرين، وهي بشكل عام مدة كافية للمشاركة في هجوم ما. وفي بداية عام 1985 تم تمديد مدة التدريب إلى ثلاثة أسابيع؛ لكي تزداد فرص النجاة للمجنّدين. وحالما يكونوا في الجبهة سيكون هناك إمام لإرشادهم، وممارسة تدريب أكثر. وأغليبتهم مزوّدون بالرمانات اليدوية، والكبار منهم وذوو المهارات حصلوا على مسدس وبندقية آلية. وعند موعد الهجوم يقوم الأولاد بوشم أيديهم بالحناء للرمز إلى الرحيل إلى الله في حالة استشهادهم المحتملة. ومن أجل دعم شجاعتهم يعطي قائدهم كلّ واحد منهم مفتاحًا بلاستيكيًا ذهبيّ اللون لفتح باب الجنة. ولذلك؛ هرع النظام بطلب أكثر من مليون مفتاح من صانعي ألعاب الأطفال. وبما إن وقتهم في الجبهة قصير جدًا، لم يزوّد الشباب - الباسيج بهوية تعريفية لتشخيص جثثهم في حال تعرضهم للقتل.

يُفترض أن تكون حملة الباسيج هذه أنموذجًا لبقية الجنود، فبعد هذه المدة الأولية في الجبهة يعودون إلى المدارس المتوسطة لدراسة دروسهم النظامية حتى موعد الهجوم الكبير القادم، أو التمتع بالعطلة، وخلالها يُرسِلون مرةً أخرى إلى الجبهة لأسابيع قليلة. ويتكرر هذا الأسلوب حتى يتعرض الأولاد إمّا للقتل أو أن يصبحوا كبارًا، ممّا يؤهلهم للانضمام إلى فرق الباسدران الحربية. وأولئك الذين يريدون ترك العمل يمكنهم فعل ذلك، لكنّ الضغط الاجتماعي كان كبيرًا جدًا، ولم يقدّم بذلك إلا القليل، وبعضهم اكتسب فنون القتال. وأصبح هدف المدارس الابتدائية ليس التعليم، بل حشد التلاميذ للمشاركة بالمجهود الحربي، وكل شيء تركّز حول هذا الهدف، ويُعاقب المعلمون الذين يعارضون هذه السياسة.

تكثفت عمليات حشد التلاميذ مع حلول موعد الهجمات الكبيرة للعام 1984-1985، وأصبح الباسيج يشكل 20% من القوات المخصصة للعمليات، وربما تتصاعد النسبة كثيرًا. فعلى سبيل المثال، اعترف وزير الباسدران أن 57% من المقاتلين الذي اشتركوا في استرداد جزر مجنون كانوا من الأطفال⁽¹⁾. وقيل إن نحو عشرة آلاف إمّا قُتلوا أو جُرحوا في تلك المعركة. وقد أذيعت مآثرهم من خلال التلفزيون، ودعا أكبر هاشمي رفسنجاني بوقار كل الشباب من أعمار اثنتي عشرة سنة فما فوق للاشتراك في الحرب المقدسة. والتقى آية الله الخميني مع ممثلهم بانتظام، ولم ينكر المخاطر المحتملة، ولكن نفخ فيهم روح الشجاعة وذكرهم أن الشهادة ستضمن لهم مكانًا بارزًا في الجنة، وتمتع بالتقاط الصور معهم، والتحدث إليهم، والإصغاء لملاحظاتهم، فالمخرج الإيراني مرتضى أفيني في فلمه الوثائقي "الحب المفتون" الذي وصف العلاقة المعقدة بين الباسيج والمرشد الأعلى أظهر براعة أن ما يحدث ليس خياليًا بمعنى الكلمة، بل علاقة أبوية وروحية.

وفي بداية عام 1986 كان هناك 300 ألف من الباسيج اكتسب خبرة في المعارك، وأكثر من مليون شخص من امتلك تدريبًا عسكريًا. وإن تناوب القوات الجديدة وقر للقيادة العسكرية العليا الإيرانية 150 ألف مقاتل يمكن إضافتهم إلى 500 ألف من الباسدران والجنود الآخرين المرابطين على الجبهة. وفي أي هجوم معين، يمكن للقيادة العسكرية حشد حتى 200 ألف من الباسيج، أو 30% من مجموع القوة المسلحة. وفي قاطع البصرة لم يهاجم الباسدران ولا جنود الجيش النظامي المواقع العراقية حتى يسبقهم في الهجوم على الأقل ثلاث موجات من المتطوعين الشباب.

وخلافًا للانطباع العام، لم يكن هؤلاء الشباب الباسيج من أبناء الفلاحين الأميين، لقد اكتشف علماء الاجتماع البريطانيون والإيرانيون الذين قابلوا الشباب الباسيج في معسكرات الاعتقال العراقية أو في إيران بعد الحرب أنهم من خلفيات اجتماعية مختلفة وبدوافع مختلفة⁽²⁾.

1- Sepehr Zabih, *The Iranian Military in Revolution and War* (New York: Routledge, 1988), 220.

2- Farhad Khosrokhavar, *L'Islamisme et la mort: Le martyr révolutionnaire en Iran* (Paris: L'Harmattan, 1995); Ian Brown, *Khomeini's Forgotten Sons: The Story of Iran's Boy Soldiers* (London: Grey Seal Books), 1990.

فقد ضم الباسيج شباناً من أبناء الطبقات الوسطى والعاملة، وأغلبهم من التحق بالمدارس، وواحد من كل ثلاثة شبان في المدارس المتوسطة انخرط في الباسيج، وفي الأعم الأغلب بعمر الرابعة عشرة من العمر. كما تم تسهيل عملية الانخراط بعدم طلب موافقة الآباء في ذلك.

لقد تجاهل الشبان المخاطر، وانخرطوا لأربعة أسباب مبدئية: الأول الإخلاص الروحي والباطني الذي جعل من الشهادة تبدو وكأنها خيار طبيعي متوج بالبطولة والرومانسية، ولم يُدرك المراهقون جميعاً المخاطر ويتصورون أنهم يمكنهم الهروب من الموت، وإذا ما فشلوا في ذلك فقد يكون الموت مثاليًا، كما وصفه الجندي الفتى علي الذي قابله إيان براون "إن لم نكن نحن هنا (في معسكر الاعتقال العراقي)، فلربما نكون من الشهداء، وهذا أفضل شيء لنا، ولكن لم نحصل على الفرصة للشهادة، ولذلك سنبقى هنا... فمن الأفضل لي البقاء في العراق لأنني قريب من الأئمة". وتوسّع الجندي الشاب السابق في شرح الفكرة قائلاً: "نحن المسلمون الشيعة، وليس أهل السنة. والشيعة يمثلون نسبة صغيرة فقط من المسلمين، ولكن مذهبنا يمثل الإيمان الحقيقي. فمنذ بداية ظهور الإسلام نحن نقاتل ونموت من أجل حقوقنا. فقد أصبح الإمام علي قائدًا للمسلمين، ولكنه استشهد بينما كان يقرأ القرآن. نحن لا نخاف أن نكون شهداء الإسلام... مثل الإمام الحسين"⁽¹⁾. فهذا الإخلاص الديني الممتزج بالإخلاص للعائلة، إذ إن العديد من الباسيج يدركون أن الدولة ستعتني بآبائهم وإخوانهم وأخواتهم إذا ما هلكوا. إنهم مستعدون للتضحية بحياتهم؛ من أجل مستقبل أفضل لعوائلهم.

والوطنية هي السبب الآخر للانخراط في الباسيج، فهو لاء الفتیان المتشبعون بقصص التبجح بعظمة بلاد فارس الأبدية منذ عصور مبكرة، والكثير منهم يحلمون أن يكونوا من بين محرري بلدهم، وهذه حالة الشاب أحمد، قائلاً: "أنا لست متدينًا جدًّا، ولا أعرف كثيرًا عن موضوع الشهادة، حقيقة أن الشهادة مهمة للشيعة - كلنا يعرف الأئمة وكيف تُوفوا - ولكنني لم أذهب للحرب للموت في سبيل الإسلام. أنا ذهبت للدفاع عن إيران، وأعتقد أن أغلبية

1- Brown, Khomeini's Forgotten Sons, 46 and 86.

أصدقائي ذهبوا للسبب نفسه ... ولا يوجد أحد أثر في قراري، إني أبلغ من العمر أربع عشرة سنة، وأنا أقرر الأشياء لنفسي، أنا أردت الذهاب للحرب، ولذلك ذهبت"⁽¹⁾.

كان الضغط الاجتماعي العامل الثالث الفعال، ففي مجتمع أبوي محافظ يقوم على فضيلة التقدم بالسنّ وتبجيل الكبار، هدف الكثير من المراهقين إلى أن ينالوا إعجاب والديهم ومعلميهم، بل حتى خطيباتهم. كانوا ينظرون إلى الحرب بوصفها مغامرة، وتقريباً لعبة تسمح لهم بتحقيق المجد. وتنورنا أكثر قصة الشاب سمير، يذكر "الأولاد الذين يهاجمون العراق كانوا سلاحاً مهماً بالنسبة إلى الجيش؛ لأنهم لا يخافون، فقد استولينا على عدة مواقع من العراقيين؛ لأنهم أصبحوا يخافون حينما يرون الشباب يركضون نحوهم يصيحون ويصرخون. تخيل كيف تشعر. والكثير من الأولاد من قُتل، ولكن في تلك الحالة عليك أن تركض ولا تستطيع الوقوف، وعليك الاستمرار، فإمّا أن يقتلك الرصاص أو تصل إلى الخطوط". وشاب آخر واضح جداً في تقييمه للوضع، قائلاً: "أنا صغير جداً لكي أقاتل. كنت فتى صغيراً أريد أن ألعب بالبنادق. وحينما أعطوني بندقية حقيقية لم أكن سعيداً أبداً. ولكن حينما ذهبت للقتال وإطلاق الرصاص على الناس أصبحت متحجراً"⁽²⁾.

وأخيراً، انضمّ بعض الفتيان إلى الفصائل المسلحة بسبب الانتهازية، إمّا للحصول على مكانة اجتماعية وامتیازات قليلة، أو وصول سهل للدراسات العليا، ثم إيجاد عمل في الإدارة والحصول على أجور مهمة في هذا الطريق. فالشاب ذو السادسة عشرة من عمره من الباسيج ومتزوج (السن الشرعي للزواج خمس عشرة سنة) يتسلّم راتباً شهرياً قدره سبعة آلاف تومان، أي يساوي أجر الموظف في الخدمة المدنية تقريباً. التقط المخرج الإيراني مهراّن تامادون هذه البواعث المتنوعة تماماً في فلمه "الباسيجي" (عام 2009) الذي يوضّح قصة ملحمة لهؤلاء الفتيان خلال الحرب، والخوض في نفوذهم المُلح على المجتمع الإيراني.

استخدم النظام بدهاء هذه الدوافع المتنوعة لتوجيه الشبان الباسيج نحو نوع من المهمات المحددة. تم اختيار الشبان المتحمسين دينياً وباطنياً للمهمات الانتحارية،

1- Efraim Karsh, The Iran-Iraq War (Oxford: Osprey, 2002), 64.

2- Brown, Khomeini's Forgotten Sons, 90-91.

ولا سيّما تلك التي تحتاج فتياً للسير ليلاً، غير مسلحين، يحملون مفاتيح الجنة ونسخة من القرآن وهم يعبرون حقول الألغام العراقية لتفجيرها وفتح الطريق للباسدران. أمّا المؤمنون بالوطن؛ يُستخدمون لمهمات أكثر تعقيداً كالتسلل واختراق خطوط العدو. أمّا الآخرون؛ يستخدمون قوات مشاة خفيفة لمفاجأة العدو ومضايقته. صُنع الجنود العراقيون لمنظر الشبان وهم يهرعون نحو خطوطهم على الدراجات الهوائية، ونصفهم مختفٍ بالغبار الذي تبعثه تلك الدراجات، ثم يقومون برمي الرمات باتجاه القوات العراقية. وصف أحد الضباط العراقيين هذه المشاهد الصادمة بقوله: "ينادون الله أكبر، ويستمرون في تقدمهم، ونواصل إطلاق النار عليهم، يكتسحون بنادقنا الرشاشة عيار 50 ملم مثل المناجل. يبلغ رجالي 18-19 سنة من العمر، أي أكبر من هؤلاء الأطفال بسنوات قليلة. رأيتهم يكون، وفي بعض الأحيان كان على الضباط ركلهم بينادقهم. حالما نرى الأطفال الإيرانيين على دراجاتهم الهوائية يتقدمون نحونا ينفجر رجالي بالضحك، ثم حينما يقومون بقذف رماناتهم اليدوية نتوقف عن الضحك ونبدأ إطلاق النار"⁽¹⁾.

كانت حصيلة موت المراهقين عاليةً إلى حدّ كبير. ونظرًا لعدم وجود سجلات واقعية - لأنّ الجنود الأطفال يعدّون قوات مؤقتة فقط - فإنّ الأعداد الدقيقة للضححايا تبقى غير معروفة حتى اليوم. واستنادًا إلى أكثر التخمينات واقعيةً، فقد قُتل على الأقل 80 ألفًا من الجنود الأطفال، وتعرض الكثير منهم إلى الإعاقة والبتير أيضًا.

الإيرانيون يحتلون شبه جزيرة الفاو

كان أكبر هاشمي رفسنجاني في بداية العام 1986 مصممًا على شنّ هجوم حاسم لإسكات الانتقادات من كلّ أولئك في طهران الساخطين؛ بسبب جمود الحرب التي دخلت الآن سنتها السادسة. وتدهور الوضع بعد أن استعاد العراقيون جزيرة مجنون الجنوبية

1- Karsh, The Iran-Iraq War,62.

أمّا البنادق؛ لم تكن ذات 50 ملم، بل 12.7 ملم.

بالكامل في منتصف شهر كانون الثاني. وبعد شعوره بالضغط من كل جانب، خَمَّنَ الناطق باسم المجلس الظروف بصورة واقعية، فالقوتان البحرية والجوية في حالة دفاعية، والطيارون العراقيون يمكنهم مهاجمة أيّ مكان يريدون، والغرب أصبح عصيباً بازدياد، ويهدد بالتدخل في منطقة الخليج إذا تدهور الوضع. وبقيت الوفرة في القوة البرية تمثل الضمانة الوحيدة للنظام الإيراني بسبب تفوقها العددي، على الرغم من افتقارها للدبابات والمعدات اللازمة، والجيش يمكنه الانتصار من وقت لآخر على العدو. ولكن يجب عليه أن يضرب بسرعة؛ لأنّ الموارد المالية أخذت بالنضوب. وبهدف الاحتفال بالذكرى السابعة للثورة الإسلامية ارتدى رفسنجاني زيّ قائد الحرب ودعا ضباطه للاستعداد لشنّ هجومٍ واسعٍ في شهر شباط. كان الهدف بسيطاً: عبور شطّ العرب والاستيلاء على شبه جزيرة الفاو، ثم قطع تجهيزات العراق الواردة عبر الخليج، ومنع العراق من تصدير نفطه إلى الكويت والعربية السعودية، وتمركز القوات الإيرانية لمهاجمة البصرة من الخلف. وندعو الله أن يُمكن الإيرانيين للسيطرة على المدينة من خلال حركة كماشة. وحتى إذا فشلوا فإنهم على الأقل سيجعلون العراقيين عالقين في مكانهم، ويضعفونهم، موقعين بهم أكبر خسائر مادية وبشرية ممكنة.

ولم يدخر النظام الإيراني جهداً لتنفيذ هذه الخطة الطموح، وحشد كلّ رجل متوافر لديه. والفضل يعود لعملية التجنيد الاستثنائية لمُتّي ألفٍ من فتيان الباسيج، مما جعل القوة الإيرانية تبلغ نحو مليون جندي في الجبهة، الثلثان منهم مقاتلون. وفي الاستعداد لهذا الهجوم الدقيق في تفاصيله، أرسل خمس القوات إلى خطوط القتال بالقرب من الفاو. وخلال الأشهر اللاحقة جُلبت كميات كبيرة من معدات عبور النهر سراً إلى الضفة الشرقية من شط العرب. وأبرز تلك المعدات أجزاء من الجسور العائمة ومراكب العبور الذاتية الدفع التي تم شراؤها مؤخراً من الصين، وتم تخزينها في المدن المطلّة على النهر مثل خورمشهر وعبادان. وبعيداً إلى الجنوب، تم التمويه في الأهوار بمئات من الزوارق والقوارب التي تحمل نحو ثلاثين مقاتلاً لكل زورق. قامت الفرقة 41 الهجومية المختصة بالعبور والحديثة التكوين بتدريبات قاسية للعبور على نهر آرفند أحد روافد نهر الكارون حول شبه جزيرة عبادان والذي يصبُّ في الخليج. وتم أيضاً نشر الفرقة المدفعية 33 على

طول ضفة النهر لتوفر دعمًا ناريًا للنقاط الرئيسة للعبور. أمّا الفرقتان الآليتان 21 و 77 اللتان تم تحويلهما إلى فرقتي مشاة، كانتا تتدربان بالنزول على سواحل بحر قزوين. وتم أيضًا تحريك أربع فرق مشاة أخرى بالقرب من الجبهة على استعداد لتنفيذ هجمات التفافية، ثم تعزز رأس الجسر. وُضعت هذه الفرق الثمانية تحت قيادة محسن رضائي قائد باسدران الذي عهد إليه بالمهمة الثقيلة وهي الإشراف على الصفحة الأولى من الهجوم. ومن الجهة الأخرى، كان الفيلق السابع العراقي لديه 15 ألف رجل موزعين بين الفرقتين المشاة 15 و 26، وكلاهما من فرق الدرجة الثانية، واللواء بحري 44 المسؤول عن حراسة دمار وخراب ميناء الفاو.

ولم تكن الاستعدادات الإيرانية غائبةً عن "الأذان الكبيرة" للعراقيين، قواتهم الاستطلاعية التي أرسلت تقاريرها التحذيرية إلى القيادة العسكرية العليا. ولكن رئاسة الأركان تجاهلتها، وافترضت أن الإيرانيين يقومون بالتمويه وأن هجومهم القادم سيكون إمّا على البصرة أو في قاطع جزر مجنون لاستعادة ما فقدوه من الأرض هناك. كان الجنرال محمود شاهين مدير الاستخبارات العسكرية مقتنعًا تمامًا بتلك الفرضية: أظهر التنصت على الاتصالات الإيرانية زيادة كبيرة في النشاط الإيراني في جنوب جزر مجنون، فقد حشد الإيرانيون ستًا من أقوى فرقهم هناك، وبضمنها الفرقتان المدرعتان 30 و 92، وبدؤوا بالتدريبات وأرسلوا كميات كبيرة من الذخيرة إلى القاطع. وبعد اطلاعه على تلك الأدلة، قرّر رئيس الأركان الجنرال ذنون وضع الفيالقين الثالث والسادس في حالة الإنذار القصوى. وطبيعيًا، لم يدرك الجنرال ذنون هذه الحركة المدروسة بدقة، وأن هذا الضجيج الذي صُمم بدهاء لخداعه بنوايا الإيرانيين الحقيقية. أمّا قائد الفيلق السابع الجنرال شوكت؛ فليس لديه أية معلومة مطلقًا أنه هو المقصود. كان يعدُّ نفسه محميًا بشطّ العرب الذي يبلغ عرضه في قاطعه نحو نصف ميل (نحو كيلومتر واحد). وإن المناخ الموسمي العاصف لا يشجعه على زيادة عدد الحراسات على طول ضفتي النهر.

وعند حلول ليلة التاسع من شباط 1986، شنّ الإيرانيون هجومهم "الفجر الثامن" الذي سُمي بالفجر؛ تذكيرًا بنجاحات هجمات الفجر السابقة. بدأت فرقة المشاة 12 بالعمل تحت هطول الأمطار في هجوم التفافي ضدّ المواقع العراقية الواقعة إلى الجنوب من بحيرة

الأسماء. وخلال عدة ساعات اندفع فتیان الباسیج المتحمسون نحو دفاعات العدو وبدعم ناريٍّ من قذائف المدفعية المتواصلة. وبدعمٍ من لواء المهندسين، اندفع لواء مشاة من الفرقة 12 واستولى على جزيرة أم الرصاص التي تقسم شط العرب على قسمين عند خور مشهر. وخلال ساعات قليلة بنى المهندسون العسكريون الإيرانيون جسرًا عائمًا بين ضفة النهر وهذه الجزيرة البالغ طولها ثلاثة أميال (بطول عدة كيلومترات). وصلت التعزيزات عبر الجسر إلى الجزيرة. وفي الساعة العاشرة مساءً، بدأ الإيرانيون عبور النهر في نقطتين منفصلتين: الأولى بالقرب من السيبة التي تبعد 1,8 ميل (ثلاثة كيلومترات) إلى الجنوب الشرقي من عبادان وعبر ضفة رملية عريضة سهلت العمليات، والثانية إلى الجنوب أكثر وتبعد تسعة أميال (15 كيلومترًا) من الفاو حول منعطف ضيق نسبيًا بالنهر (1,300 قدم [400 متر]). سرعان ما نزل رجال الضفادع إلى النهر لتأمين رأسي الجسر، اللذين تم تعزيزهما بالآلاف من الباسدران الذين عبروا النهر بوساطة زوارق التجديف المطاطية التي تم تسلّمها من الهند قبل أسابيع قليلة. وفي غضون ذلك، نزل اللواء البحري الثالث على جنوب شبه جزيرة الفاو من كلا الجانبين وبدعمٍ ناريٍّ متواصلٍ من نحو اثني عشر قاربًا مسلحًا للباسدران كانت توزع نيرانها على المعاقل العراقية التي تحرس القاطع.

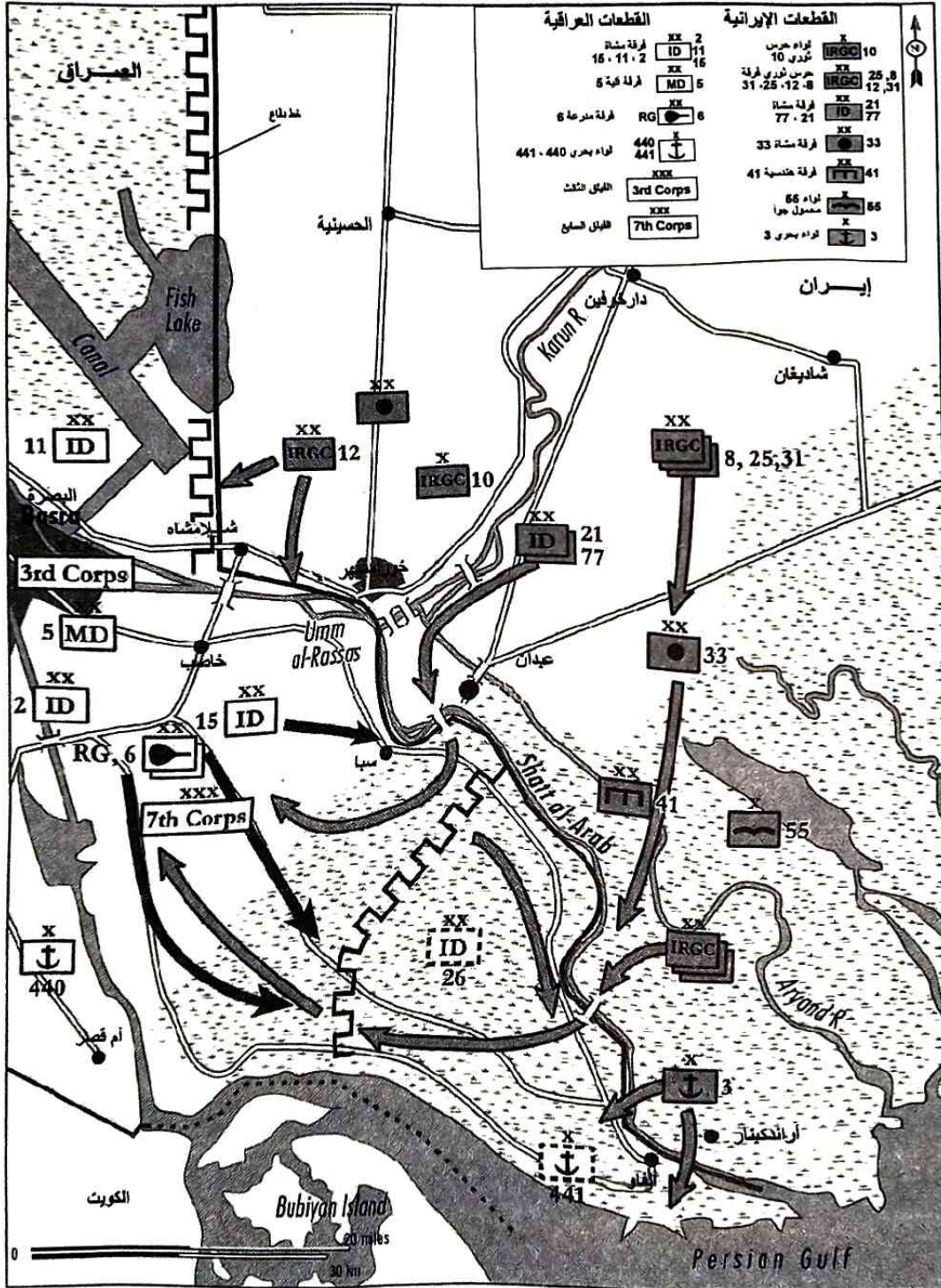
كانت عملية العبور عند السيبة الأكثر إبداعًا، وعن انتهاء الليلة كان الجسر العائم جاهزًا للعمل، مما سمح للوحدات الآلية للفرقتين 21 و77 بعبور النهر والتوجه بسرعة نحو أهدافها. وقليلًا من المسافة إلى الجنوب، بنى المهندسون العسكريون جسرًا مبتكرًا يتكوّن من كتل كبيرة من البولسترين (نوع من المطاط) التي تسند الفضائات الحديدية، مما جعل الجسر قويًا متماسكًا كافيًا لعبور الفرقة المدفعية للباسدران، والناقلات اللوجستية الأخرى. وخلال النهار تفكّكت قواطع الجسر العائم ويتم إخفاؤها في ضفتي النهر لحمايتها من مدفعية العدو وهجماته الجوية. وعند الفجر يُعاد تجميعها للسماح باستئناف عمليات عبور النهر. وخلال أسابيع، كان المهندسون العسكريون وفي جوٍّ من البرد المتجمد وبالملابس المبللة يكدحون ومن دون تعبٍ أو مللٍ في تجميع أو إعادة تجميع الجسر الذي نجحوا في المحافظة عليه من الهجمات العراقية.

ونظرًا لعجزها عن اختراق اتصالات الباسدران، صُدمت القيادة العسكرية العليا في بغداد بتلك المفاجأة. وقد تم طمأنة الجنرال ذنون بتقارير قائد الفيلق السابع المهدثة، وأمر فرقة المشاة 15 باستعادة السيطرة على جزيرة أم الرصاص وبدعم من لواء المغاوير. تمكّن العراقيون من استعادة الجزيرة بعد ستّ وثلاثين ساعةً من القتال الشرس. وإلى الشمال قليلًا، صمدت الفرقة 11 العراقية ومسكت الأرض بقوة، وصدّت كلّ هجمات الفرقة 12 الإيرانية. وفي غضون ذلك، أمر الجنرال ذنون الفرقة المدرعة من الحرس الجمهوري بمغادرة بغداد والتوجه للبصرة وإخراج الإيرانيين من ضفة شطّ العرب العراقية. وأرسل أيضًا كلّ ما يتوافر من المهندسين؛ لإسناد قاطع البصرة ولمسافة اثني عشر ميلًا (20 كيلومترًا) إلى الجنوب من المدينة لبناء خطّ دفاعي أولي تحرسه الفرقة الآلية الخامسة. أمّا القوة الجوية؛ فقد توقفت بسبب استمرار الأحوال الجوية السيئة.

أفادَ الإيرانيون من هذين اليومين في توسيع رأسي الجسر، فبعد الاستيلاء على السبية توجّهت الفرقة 77 نحو البصرة، وأصبحت في مواجهة مباشرة مع مقدمات الفرقتين العراقيتين الخامسة والخامسة عشرة، بينما أرسلت كتيبة سيارة باتجاه القاعدة البحرية بأم قصر، لكن اللواء البحري 440 تمكن من صدّها. تابعت الفرقة الإيرانية 21 طريقها المحاذي لشطّ العرب باتجاه الفاو، وطهرت كلّ نقاط المقاومة العراقية بسرعة متتالية. وعلى الرغم من الأحوال الجوية السيئة نُقلَ المظليون جواً عبر شبه جزيرة الفاو بالهليكوبتر لتطويق القوات العراقية المتراجعة. وفي غضون ذلك، دمر مغاوير لواء المشاة البحري الثالث جهاز الرادار بالرأس الجنوبي من شبه الجزيرة، مما أعاق جزئيًا مهمات الزوارق البحرية المجهّزة بالصواريخ والمقاتلات العراقية. نشر الإيرانيون في شبه الجزيرة بطاريات صواريخ طراز Silkworm التي تم تسلّمها من الصين مؤخرًا (وبطارتين أخريين نُصبتا بالقرب من مضيق هرمز). هذه الصواريخ ستمنع خروج أية سفن عراقية، وتشكل تهديدًا دائمًا للتجارة البحرية المتجهة نحو الكويت المجاورة.

في يوم 12 شباط، انتهز الجنرال ذنون فرصة الجو المشمس القصيرة وأرسل طائرة الاستطلاع؛ لكي يتمكن من معرفة عمق الخرق الذي حققه العدو. وحصل أيضًا على موافقة

عدنان خير الله وصدّام حسين لاستعمال الأسلحة الكيماوية. وفي أول هدوء للجو أقلعت طائرتا PC-7 Turbo Trainers الخفيفة من البصرة وحلقت على ارتفاع منخفض فوق



خارطة استيلاء الإيرانيين على الفاو (9 شباط - 11 آذار)

شبه جزيرة الفاو وبدأت برش غيوم من غاز الخردل على خطوط العدو. وفي غضون ذلك، تعهد قائد الفيلق السابع بنشر فرقتين للتعزيز (المشاة الثانية، والمدرعة السادسة) للإمساك بالخط الدفاعي الذي تم بناؤه إلى الجنوب الشرقي من البصرة. وانهارت أيضًا الفرقة 26 وطلبت التعزيزات الضرورية الطارئة. وحاولت مجموعات من الجنود الذين جزعوا القتال وبملايس ممزقة الهروب عبر الأهوار؛ للتخلص من ضغوطات القتال. وبعد أربعة أيام من الهجمات، أثبت هجوم الفجر الثامن نجاحه، فقد سيطر الإيرانيون على شبه جزيرة الفاو بعد أن تكبدوا 600 قتيل وألفي جريح، مقابل 5000 بين قتيل وجريح على الجانب العراقي، وأسز 1,500 آخرين.

الهجوم العراقي المضاد

في يوم 14 شباط وصل موسم الأمطار إلى نهايته وفتح الأجواء إلى أيام من الشمس الساطعة. انتهز العراقيون فرصة تحسن الجو لقيام طائرات القوة الجوية بقصف عنيف على شبه جزيرة الفاو. وبينما كانت الطائرات العراقية تضرب المواضع الإيرانية قصفت طائراتهم الهجومية الجسر العائم على شط العرب ودمرت الجزء القريب من عبادان. كان على المهندسين العسكريين الإيرانيين أن يعملوا بإبداع وبشكل شيطاني، وأن يجهدوا أنفسهم حتى النخاع من أجل وضع الجسر في الخدمة مرة أخرى. وأيضًا دمرت طائرات التوبولوف القاصفة العراقية تجمعات المشاة الإيرانية وسوتها بالأرض. أجابت الطائرات الاعتراضية الإيرانية بأن أسقطت قاذفة عراقية TU-22 وطائرة هلكوبتر Super Frelon وست طائرات مقاتلة، من بينها طائرتا ميراج-Vs مصريتان أرسلتا لتعزيز الجبهة العراقية. كانت الدفاعات الجوية الإيرانية ناجحة أيضًا بتدميرها طائرة قاذفة ثقيلة طراز Tu-16 بصواريخ هوك أطلقت من عبادان. وفي 16 شباط، ما زالت أجهزة المخابرات العراقية مقتنعة أن عبور شط العرب مجرد هجوم مضلل⁽¹⁾. ولذلك؛ رفض الجنرال ذنون تخصيص تعزيزات إضافية لجنوب البصرة،

1 - انظر رواية الجنرال الحمداني في كتاب:

Kevin Wood,ed.,Saddam's Generals:Perspectives of the Iran-Iraq War(Alexandria,VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington,2011).70.

وكان على الجنرال شوكت أن يكتفي بالقوات الموجودة أصلاً في الميدان هناك. وقصفت مدفعيته خطوط العدو في الجبهة بعنف، بدلاً من استخدام القذائف الكيماوية والتقليدية. ومن جانب آخر، تخلّصت ثلاث فرق إيرانية (الثامنة، الخامسة والعشرون، الحادية والثلاثون) من قوة الباسدران المدمرة.

في يوم 18 شباط قبلت القيادة العسكرية العراقية العليا أخيراً أن الهجوم الإيراني الرئيس هو الذي تواجهه في شبه جزيرة الفاو. ونظرًا لخطورة الوضع سافر صدام حسين إلى البصرة مع عدنان خير الله؛ لتحديد المسؤوليات. وبينما كان وزير الدفاع ينسق العمليات تولى نائب رئيس الأركان الجنرال الجبوري قيادة رتل لاستعادة السيطرة على الطريق الساحلي المؤدي إلى الخليج. وأُعطى الجنرال شوكت قيادة الرتل المخصص للتقدم على طول شط العرب. وعهد صدام إلى ماهر عبد الرشيد المهمة الأكثر دقة، كان يحبُّ الجنرال ويثق أنَّ مقاربتة للأحداث ربما تغيّر الوضع بالكامل. ومنحه قيادة الحرس الجمهوري الذي خصص له اتباع الطريق الرئيس، وهو الطريق الذي سيمرُّ من خلال البرك الملحية ويساتين النخيل للوصول إلى الفاو. وكلّما أسرع الحرس في تقدّمه ساعد في دعم الرتلين الآخرين. كان صدام يدرك صعوبة المهمة، فقد أجاز للجنرال عبد الرشيد استخدام الأسلحة الكيماوية دون الرجوع إليه، ووعدّه أيضًا أن ابنه الشاب قصي سيتزوج ابنته إذا عاد متصراً⁽¹⁾. سافر الجنرال ماهر عبد الرشيد مباشرةً إلى نقطة تجمع الحرس الجمهوري وهو متحفز بالارتباط العائلي المأمول، والامتيازات المادية المصحوبة، وألقى خطبةً رنانةً بجنوده، وهرع نحو عدوّه كزعيم قبيلة بدوية أغوته غنائمه.

في 21 شباط تقدمت الأرتال الثلاثة بصورة موازية على طول الطرق الثلاثة المتجهة نحو الفاو. وإلى الشمال، وصل الجنرال شوكت إلى السبية. تخندق الإيرانيون في المدينة وقاوموا بكلّ قوتهم؛ لأنّهم يدركون أنّ استسلام هذا الموضع يعني خسارة رأس الجسر الذي يربطهم مع عبادان. والجنرال شوكت يدرك أيضًا الأهمية الاستراتيجية للسبية. لذلك؛ فرض الحصار عليها وأمر مدفعيته بقصف حاميتها بقسوة. وفي الطريق الأوسط، تقدّم

1 - سيتزوج قصي صدام حسين من ابنة الجنرال ماهر عبد الرشيد بعد أشهر قليلة.

الجنرال عبد الرشيد بوتيرة أبطأ مما كان يأمل، ولا سيّما أنّ الأمطار بدأت بالهطول مرة أخرى وحوّلت البرك الملحية إلى ورطة حقيرة، فالدبابات غطست في الوحل، ورجال المشاة غطسوا في الوحل حتى ركبهم، وتقدّمهم أصبح أكثر صعوبة؛ لأنهم وضعوا الأقنعة المضادة للغازات على وجوههم، ممّا جعلهم يتنفسون ببطء، بينما البخار الكثيف المتشكل على الأقنعة جعلهم لا يبصرون. كان عليهم القتال بالأيدي لتدمير نقاط المقاومة في الطريق. في مثل هذه الظروف تقدّموا ميلين إلى ثلاثة أميال يوميًا (4 إلى 5 كيلومترات)، ولا سيّما أنّ تدريب جنود الحرس الجمهوري كان على القتال بالآليات وليس على حرب الخنادق. ومع ذلك، تقدّم الجنرال عبد الرشيد تدريجيًا. وإلى الجنوب، تقدّم الجنرال الجبوري على طول الطريق الساحلي بسرعة أكبر، وتغلب على المشاة الإيرانيين والتفّ حولهم وأجبرهم على التراجع إلى الفاو. ولكن في يوم 23 شباط تمكّن من الفرار مدعورًا بصواريخ صواريخ التاو التي أدهشت طواقم الدبابات العراقية؛ لأنّ قادتهم قد طمأنوهم أنّ الإيرانيين ل يملكون الكثير من تلك الصواريخ. ومن الواضح أنّهم تمكنوا من إعادة بناء خزينهم منها.

وبعد أربعة أيام نجح العراقيون في دفع خطوط الجبهة إلى اثني عشر ميلًا شرقًا (20 كيلومترًا)، وهي مسافة تمتد من السبية إلى الساحل الجنوبي من شبه جزيرة الفاو، وأصبحوا قبالة جزيرة بوبيان الكويتية. أمّا في طهران؛ خفّف أكبر هاشمي رفسنجاني من طموحاته، معلنًا أنّه يجب على إيران أن تحتفظ بشبه جزيرة الفاو، ولكنه شطب أية إشارة للاستيلاء على البصرة. ومع ذلك، حذّر السلطات الكويتية بإبعاد جزيرة بوبيان عن العراق. فقوات صدّام يمكنها بسهولة التسلل إلى هذه الجزيرة الصحراوية التي تبعد أربعة عشر ميلًا عن قاعدة أم قصر البحرية. وحينما يكون العراقيون على هذه الجزيرة يمكنهم الوصول إلى شبه جزيرة الفاو ومن دون جهد؛ لأنّها لا تبعد سوى أقلّ من ثلاثة أميال (5 كيلومترات) ومهاجمة المواقع الإيرانية من الخلف.

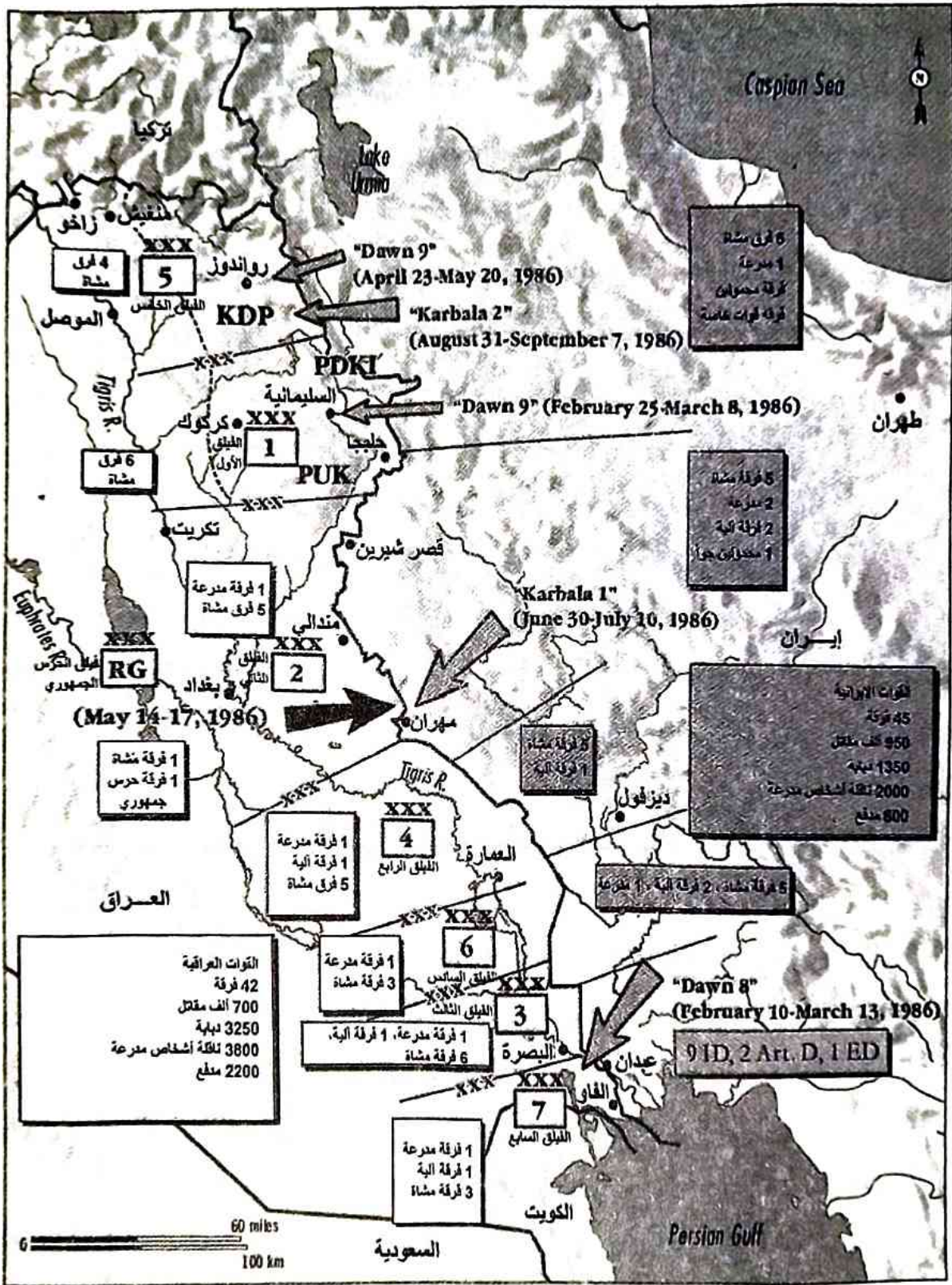
وبعد أن أدرك أمير الكويت تمامًا المخاطر الكبيرة التي يواجهها أصبح عليه مواجهة تحديات تناقضاته الخاصة به. وبعد أن كان يعترض دائمًا على وجود قوات أجنبية على الأرض الكويتية، ولكن ليس لديه أحد يعتمد عليه لحمايته. ولذلك؛ أذعن لمطلب

رفسنجاني، وجعل صدّام يدرك أنّ جزيرة بوييان خطٌّ لا يمكن عبوره. وإذا تجاهل صدّام هذا التحذير فإنّ الكويت ستُعلّق مباشرةً كلّ دعمها المالي والمادي لبغداد. كذلك أعاد الملك السعودي فهد هذا التحذير نيابةً عن أمير الكويت وجعله أكثر إقناعاً. لكنّ الرئيس العراقي الذي شعر بالإذلال لم ينسَ هذا الموقف بعد أربع سنوات. وبينما أصدر أوامره بعدم استخدام جزيرة بوييان لتوجيه ضربات هجومية، سمح لقواته الخاصة بالتسلل إليها ومراقبة النشاطات الإيرانية سرّاً حول الفاو. وسمح لقوته الجوية أيضًا بالتحليق فوق الجزيرة؛ لتجنّب الدفاعات الجوية الإيرانية، هنا نظر الكويتيون بطريقة أخرى.

تبنى مجلس الأمن الدولي بالأمن المتحدة في 24 شباط 1986 قرارًا برقم (582) يدعو إلى تنفيذ مباشر لبنود الهدنة، يتبعها وساطة دولية للنظر بكل أوجه النزاع. وباستثناء الصين، بدأ الأعضاء الدائمون بالمجلس يقلقون جدًّا من مجريات النزاع. وفسّر الخبراء في الهيئات الدولية والكرملين استيلاء إيران على الفاو بأنّه مؤشرٌ على هزيمة العراق، وهذا سيؤدي إلى نتائج كارثية على التوازن الجيوسياسي في منطقة الخليج، ويُجبر القوى الكبرى على التدخل بشكل مباشر. وكالعادة، قبلت بغداد ببند هذا القرار المهم، ورفضته إيران.

انتقال النزاع إلى كردستان العراق

وفي 25 شباط 1986، شنت إيران هجوم "الفجر 9" على قاطع بنجوين في كردستان العراق. كان هدف هذا الهجوم إجبار بغداد على إرسال تعزيزات كبيرة إلى هذا القاطع من الجبهة الذي ضعفت حراسته من الجيش العراقي، وتخفيف الضغط العراقي في منطقة الفاو. اعتمدت الحكومة الإيرانية مرةً أخرى على الباسدران للمحافظة على عنصر الصدمة. وفي وسط عاصفة ثلجية غادرت فرقة المشاة 30 وبدعمٍ من عدة مجموعات من البيشمركة مواضعها وتوجهت نحو السليمانية عبر طريق جبلي ووصلت إلى بنجوين. اعتمد قائد الهجوم على الضباب والجليد لإخفاء تقدمه كلّما أمكن ذلك؛ لمنع تدخل العدو جويًا. قليلًا إلى الجنوب، تحرّكت فرقة المشاة 35 عبر ممر نوسود في الوقت نفسه لمهاجمة حلبجة.



خارطة الجبهة العراقية - الإيرانية في عام 1986

تمكن الباسدران خلال الأيام الثلاثة الأولى من إزاحة الجنود العراقيين المتجمدين المسؤولين عن حراسة الطريق في ذلك الوادي السحيق المؤدي إلى السليمانية. تمكنوا من الاستيلاء على قرية جوارتا التي تتحكم في الوصول إلى السليمانية وكذلك إلى قمم الجبال التي يمكن منها توجيه نيران المدفعية. في 28 شباط أصبحت القوات الإيرانية في مواجهة الدفاعات العراقية بالسليمانية التي كانت محميةً جيدًا بالفرقة 27 العراقية. وفي غضون ذلك، كان الباسدران يهدف للاستيلاء على حلبجة، لكنه أُحبط من القوات الجبلية هناك. هجم العراقيون هجومًا مضادًا بالتعاون مع مقاتلي البيشمركة المتحالفة مع النظام. ومرةً أخرى، سادت الفوضى والمنافسة ضمن صفوف المقاومة الكردية.

تحسّن الجوُّ في مطلع شهر آذار، وأشرق الشمس على المنطقة كلها. انتهب الجنرال شعبان قائد القوة الجوية العراقية ليضع موضع التنفيذ واحدة من أفكاره: تحويل طائرات النقل ذات الأربع محركات طراز اليوشن - 76 إلى طائرات قاذفة. حلقت هذه الطائرات خلال عدة أسابيع فوق الجبهة الكردية وشبه جزيرة الفاو على ارتفاع 20 ألف قدم (سنة آلاف متر)، أي خارج الدفاعات الجوية الإيرانية الخفيفة المتمثلة بصواريخ سام - 7، تقصف خطوط العدوِّ بعشرات الحشوات المكونة من خمسين غالونًا (200 لتر) من النابالم لكل حشوة ترتبط بصاعق ينفجر على ارتفاع 330 قدمًا (100 متر) فوق سطح الأرض. وعلى الرغم من بدائية هذا الأسلوب، فإنه أدّى إلى خسائر كبيرة بين المقاتلين العراقيين المرتبكين؛ بسبب انتشار النيران.

تمكّن الجنرال الخزرجي قائد الفيلق الأول العراقي من استعادة بعض الأراضي التي خسرها في قاطعي السليمانية وحلبجة. لقد كان عند سمعته كمراوغ ممتاز لا يرحم نفسه، ولا عدوّه، ولا جنده. أمّا الإيرانيون؛ فقد أوقفوا هجومهم في كردستان العراق؛ بسبب إنهاكهم وذخيرتهم الآيلة للنفاذ.

وفي أثناء ذلك، إلى الجنوب من البصرة استمرّ الهجوم العراقي المضاد باتجاه الفاو. فالأرتال الآلية الثلاثة تتباطأ في تقدمها، تسبقها نيران المدفعية المتواصلة. فقد جمع العراقيون مدفيعتهم ومنصات الإطلاق الأكثر حداثة - المشتراة من النمسا، جنوب إفريقيا،

فرنسا، والبرازيل - لدكّ المواضع الإيرانية. فكلّ قطعة مدفعية تطلق 600 قذيفةً يوميًا، أي قذيفة واحدة كلّ دقيقتين لمدة أربع وعشرين ساعة. وحينما يكسب العراقيون أميالًا قليلةً من الأرض، سرعان ما يُواجهون بهجوم معاكس بالموجات البشرية من الفتيان المتحمسين الباسيج الذين يحاولون استعادة الأرض التي خسروها. ومع ذلك تمكّن الجنرال شوكت من استعادة السبية، ثم رأس الجسر المجاور، ودمّر الجسر العائم بالقرب من عبادان. ولكن قتل في هذه المعركة الجنرال علي جاسم الحياني قائد الفرقة الآلية الخامسة، حيث توقفت فرقته على بعد ثلاثة أميال (5 كيلومترات) من المواضع المحصنة الواقعة على جانب الطريق.

وفي 13 آذار التقت الأرتال الثلاثة المنهكة في وسط البرك المالحة. إنّ طبيعة الأرض المقسّمة بصورة دراماتيكية تلائم الوضع الدفاعي للإيرانيين، ولا سيّما أنّ الجبهة مستقرّة هنا. بدأت فرق المهندسين العراقية التهيئة مباشرةً لشبكة من الخنادق والمواضع المحصنة وبناء خطّ جديد للجبهة. ادّعى كلّ من الطرفين الانتصار، وانتهز فرصة الهدنة لإعادة بناء قواته. كان عدد الضحايا رهيبًا. بلغ مجموع ما خسره الإيرانيون عشرة آلاف قتيل و25 ألف جريح، ثلثهم تم قتله بالغاز⁽¹⁾. أمّا العراقيون؛ خسروا ثلاثة آلاف قتيل وتسعة آلاف جريح، فضلًا عن ألف وخمسمئة أسير تم أسرهم في بداية الهجوم. وخسروا أيضًا ستين دبابةً، وخمسين ناقلةً مدرعةً أخرى، وأربعين قطعة مدفوع، وعشرين طائرةً.

ما زال الإيرانيون يسيطرون على موطن موطى قدم تبلغ مساحته 150 ميلًا مربعًا (400 كيلومتر) مما يسمح لهم بإنهاك عدوّهم، على الرغم من أنّ عليهم في الواقع الاعتراف بتوجيه عملياتهم اللوجستية عبر جسرهم العائم الوحيد الواقع على بعد ستة أميال (10 كيلومترات) إلى الشمال من الفاو، وعلى الرغم من أنّ العراقيين كانوا يهاجمون الجسر بانتظام، فإنّ كتل البولسترين البلاستيكية كانت صلبةً جدًّا على الغرق. فكلّ جزء يتعرّض للتدمير من القوة الجوية العراقية يتم استبداله على الفور. كذلك بنى الباسدران جسرين عائمين أقلّ طاقةً بالقرب من الجسر الكبير؛ لنقل القوات والذخيرة إلى الجبهة، فضلًا عن نقل القتلى

1 - وعلى الرغم من العدد الكبير للجنود الذين تأثروا بالغازات؛ فإنّ عدد الوقيّات التي ارتبطت بالأسلحة الكيميائية (700) يبقى رقمًا قليلًا نسبيًا، وهذا شاهد على عدة قيود على تنفيذها، ولا سيّما المتعلقة بالظروف المناخية.

والجرحى. وإذا أخذنا سلسلة الطاقة اللوجستية المحدودة هذه بالحسبان، قلص القائد الإيراني قواته المرابطة عند موطن القدم إلى فرقتي مشاة وبدعم من فرقة مدفعية وفرقة مهندسين؛ لمواكبة مستويات الجند المرابطين هناك على مدار السنة.

وفي المعسكر العراقي كانت القيادة العسكرية العليا تشعر بالاطمئنان أنها تمكنت من احتواء الهجوم الإيراني، وصدته جزئياً، وبذلك أنقذت البصرة، أم قصر، والأنبوب الثمين الناقل للنفط العراقي إلى العربية السعودية. هنا صدّام حسين الجنرال عبد الرشيد، والجنرال الجبوري، ولكن وجّه اللوم للجنرال شوكت لمفاجأته بالهجوم الإيراني، لكن أداءه في الهجوم المعاكس أنقذ حياته. ومع ذلك، عُيّن الجنرال الجبوري قائداً للفيلق السابع بدلاً من الجنرال شوكت. وعاقب الرئيس العراقي أيضاً الجنرال شاهين مدير الاستخبارات العسكرية وجعل الجنرال صابر الدوري موضع ثقته المطلقة بدلاً منه.

استمرّ القتال في شبه جزيرة الفاو بوتائر منخفضة طوال الفترة المتبقية من السنة، وتحول إلى حرب الخنادق؛ بهدف إنهاء العدو. احتفظ العراقيون بخمس فرق هناك - بضمنها فرقة مدرعة واحدة - لاحتواء 40 ألف مقاتل إيراني يتشرون في القاطع.

انتهزت إيران فرصة اعتدال الجوّ وذوبان الجليد في أواخر شهر نيسان لشنّ الصفحة الثانية من عملية "الفجر 9" في كردستان العراق، ومحاولة تقليل الضغط العراقي في الجبهة الجنوبية. في 23 نيسان تغلّبت فرقة المشاة 64، وفرقة القوات الخاصة 23، والفرقة المظلية 55 على الكتائب العراقية التي تحرس قاطع راوندوز. وتسارع انهيار القوات العراقية نتيجة الهجوم من خلف القوات من مجموعات البيشمركة الذين نزلوا بقوة من الجبال. حاول الأخوان برزاني استخدام هذا الهجوم لرسم حدود أراضيهم وفرض أنفسهم أبطالاً للقضية الكردية، في الوقت الذي تحاول فيه طهران مصالحتهم مع منافسهم الكبير جلال طالباني. وخلال خمسة أيام تقدّمت القوات الإيرانية نحو راوندوز على الرغم من التدخل المتقطع لطائرات الميراج F-1 من قاعدتها بالموصل. في 29 نيسان تم إيقافهم على بعد ثلاثة أميال (كيلومترات قليلة) من المدينة بهجوم معاكسٍ عراقيٍّ قويٍّ. وفي مطلع شهر مايس أرسل الإيرانيون فرقة المشاة الثانية التي تعدّ من أفضل الفرق في الجيش الإيراني إلى المنطقة.

وفي هذه المرة، راهنوا على النوعية وليس الكمية من الجند، بتحريك رجال المشاة النخبة لهذا الهجوم، الذي صُمم لفتح الطريق نحو حقول نفط الموصل، مما أجبر العراقيين على إرسال فرقتين إضافيتين إلى هناك.

وفي يوم 15 مايس، تمكّن ألف من البيشمركة المدعومين بالمظليين الإيرانيين الذين تسللوا إلى خلف الخطوط العراقية من السيطرة على مدينة مانكيش الواقعة إلى الشمال من الموصل وعلى بعد نحو عشرين ميلاً (نحو 30 كيلومتراً) من الحدود التركية. وبذلك تم تهديد خط كركوك - دورتيول لنقل النفط القريب من تلك المدينة مباشرة. أرسلت بغداد مباشرة لواءً مدرعاً وآخر جبلياً، ولواء قوات خاصة مدعوماً بطائرات هليكوبتر هجومية، قاتلت هذه الألوية الثلاثة بشراسة حتى تمكنت من استعادة مانكيش في النهاية بمساعدة المناصرين الكرد المواليين للنظام العراقي. كانت السلطات العراقية تعي الحاجة إلى زيادة الحماية لهذا الأنبوب الحساس، ولذلك ضاعفت أعداد قوات الجيش الشعبي في المنطقة، وسلّحت المتطوعين من المزارعين العرب هناك لحراسة الأنبوب. وفي الوقت نفسه، شنت القوة الجوية الإيرانية غارةً على جسر زاخو على الحدود العراقية - التركية الذي تستخدمه الناقلات العراقية لنقل النفط إلى تركيا. كان التحذير واضحاً: إيران لم تتأخر كثيراً في مهاجمة التجارة النفطية بين العراق وتركيا. في 20 مايس لا يزال الإيرانيون لا يعرفون أين يذهبون خارج راوندوز. ولذلك؛ أنهوا الهجوم "الفجر 9" للتركيز على عمليات جديدة.

الفصل الرابع والعشرون

الطريق المغلق

إنَّ استيلاء الإيرانيين على شبه جزيرة الفاو أجبر الرئيس السوري حافظ الأسد على التوصل إلى إدراكٍ مزعجٍ ومقلقٍ، ووجد نفسه فجأةً معنيًا بالأمر؛ لأنَّ حلفاءه الإيرانيين سيربحون الحرب. إنَّ الانتصار الإيراني ربما يقود إلى نظام شيعي راديكالي في بغداد غير مقبول للرئيس السوري كما هو الحال بالنسبة إلى جيرانه العرب. أرسل الأسد رسالةً حازمةً لـطهران مذكِّراً القادة الإيرانيين أنَّ "أرض العراق عربية ونحن لا نسمح لأيِّ أحدٍ باحتلالها"⁽¹⁾. تراكم سوء الفهم بين العاصمتين خلال الأشهر القليلة الماضية، مما أسهم في طبيعة رسالة الأسد الحازمة. وإنَّ تكرار طهران انتقاداتها للاتحاد السوفيتي وضع سوريا في موقفٍ محرجٍ مع موسكو. والأكثر إزعاجًا، تحدى الإيرانيون طموحات الهيمنة السورية في لبنان منذ الانسحاب الإسرائيلي عام 1985 بشنِّ حملةٍ سريةٍ لزيادة نفوذهم هناك. إنَّ الوقت قد حان لإخبار النظام الإيراني عدم القفز على بعض الخطوط المحددة. ولأجل أن تكون رسالته واضحةً، أمر الرئيس السوري حافظ الأسد بالتعليق الفوري لكلِّ شحنات المعدات العسكرية لـطهران، وطلب من السفن أن تعود بشحنات الأسلحة والذخيرة إلى

1- Charles Caret, "L'alliance contre nature de la Syrie baassiste et de la Republique islamique d'Iran,"
Politique etrangere 2 (summer 1987):385.

سوريا. شعر الإيرانيون أنه يجب الرد، وأوقفوا على الفور إرسال النفط إلى سوريا وأجبروا سوريا على شراء النفط بسعر السوق السائد. وكما يبدو أنها مصادفة أن كثف حزب الله من عملياته ضد الفصائل الموالية لسوريا في لبنان.

حافظ الأسد يرفع الرهان

ونتيجة لإحباطه من الموقف الإيراني، أعلن الرئيس الأسد غضبه علانية، وأرسل مقترحاته مرارًا إلى عمان والرياض. انتهز الملك الأردني حسين الفرصة وحاول مباشرة الترويج للتقارب بين سوريا والعراق، والذي سيفيد كل الدول العربية. إن دعم سوريا للقضية العربية لا يؤدي بالضرورة إلى تغيير الوضع من الناحية العسكرية، ولكنه سيؤدي إلى عزل إيران أكثر على المسرح الدولي، ويسمح للعراق استخدام خط كركوك - بانياس لنقل النفط مرة أخرى، ثم زيادة موارده المالية. أجرى الملك الأردني في 12 نيسان 1986 جولة وساطة التقى خلالها بالرئيسين العراقي والسوري، وسانده الملك فهد في هذا المسعى، وعرض على سوريا إرسال 2,5 مليون طن من النفط سنويًا ومجانًا، أي ضعف ما كانت إيران تعطيه لسوريا مقابل الانضمام إلى االجماع العربي. إنّه عرض مغرٍ، لكن حافظ الأسد أراد أن يرفع الثمن، واستأنف الاتصالات سرًا مع طهران واقترح عليها إرسال مبعوث إلى دمشق؛ للبحث عن أرضية مشتركة. وفي الوقت نفسه، اقترح إمكانية التفاهم مع صدام حسين، على الرغم من أنه لا تزال لديه اختلافات أساسية مع منافسه العربي.

سافر وكيل وزارة الخارجية الإيراني علي محمد بشارتي في أواخر شهر نيسان إلى العاصمة السورية، وتفاوض على صيغة تفاهم جديدة مع نائب الرئيس السوري عبد الحلیم خدام. لكن تعقدت النقاشات لتدخل الكرملين الذي أراد أن تبقى سوريا بعيدة عن إيران. وبعد عدة جلسات عاصفة، توصل الوفدان السوري والإيراني في النهاية إلى بنود اتفاقية جديدة. ومقابل أن تحتفظ سوريا بتحالفها مع طهران تعهدت طهران بعرض أفضل من العرض السعودي، وأن تضع نهاية لكل الأعمال المناهضة لمصالح سوريا في لبنان.

وعرضت طهران أول مكافأة عبارة عن 2,5 مليون طن من النفط في أواخر فصل الصيف، ثم استئناف الإرساليات المنتظمة للنفط بشروط أكثر ملائمة لدمشق⁽¹⁾. وتعهد أكبر هاشمي رفسنجاني للرئيس السوري خطياً بأنه إذا ما أطيح بصدّام حسين في إيران سوف لا تعمل على إقامة نظام إسلامي في بغداد، وأنّها ستترك الشعب العراقي يقرّر مستقبله بنفسه.

الآن وبعد أن تمت طمأننة الرئيس الأسد مرة أخرى، أكد تحالفه مع الجمهورية الإسلامية واستأنف إرسال شحنات السلاح إلى طهران. ومع ذلك، ومن أجل الاحتفاظ بعلاقاته مع العربية السعودية، ضيّفَ وفدًا عراقيًا وصل للتفاوض على احتمالية إعادة فتح خط كركوك - بانياس لنقل النفط، ممّا ولّد اعتقادًا عند الملك حسين والملك فهد أنّ الرئيس الأسد مستعدٌّ للتصالح مع صدّام حسين إذا قام صدّام بالخطوة الأولى. ولكن الدكتاتور العراقي لم يكن أحمق للتصديق بالنوايا الحقيقية لحافظ الأسد. وهو ليس مستعدًا لإذلال نفسه أمام منافسه، وأخبر الملكين الأردني والسعودي أنّ الظروف غير ناضجة بعد للتصالح بين سوريا والعراق.

في 13 حزيران، أسقطت جميع الذرائع، وأعلن الرئيس الأسد أنّ "سوريا وإيران قرّرتا الحفاظ على مصالحيهما الاستراتيجية المشتركة"، وأضاف أنّ الخطّ السوري - العراقي لنقل النفط لم يُعدّ فتحه، وتم تأجيل اللقاء بين حافظ الأسد وصدّام حسين. أخيرًا، تم عقد لقاء سريع بينهما على الحدود السورية - العراقية في يوم 26 نيسان 1987 ولكن لم يُسفر عن أية نتائج ملموسة.

وفي غضون ذلك تسارعت الأحداث، في نيسان 1986 طلب صدّام حسين من رئيس أركان قواته خطةً عمليةً تضمن استيلاء العراق على أراضي إيرانية والتي يمكن مبادلتها بشبه جزيرة الفاو لاحقًا. شرّع الجنرالات العراقيون مباشرةً بالعمل. وبما إنّ القوات الإيرانية قد تركزت في الشمال والجنوب من الجبهة، قرّر العراقيون شنّ هجوم على الوسط. وبعد دراسة المعلومات التي وفرتها وكالات المخابرات بتأنّ، شخصّوا نقطةً ضعيفةً في الخطوط

1 - بموجب هذه الاتفاقية سيكون 30% من النفط الإيراني المرسل إلى سوريا مجانًا، و70% سيكون بسعر تفضيلي جدًا (مقابل 20% و80% في السابق).

الإيرانية تقع عند سنّ مهراّن الصخري. ويحرس هذه المدينة المدمرة وما حولها لواء من الفرقة 84 الآلية، وكتيبة من فرقة المشاة 25، أي أقل من خمسة آلاف مقاتل. ولأجل الاشتباك معهم، نشر العراقيون فرقتين (السابعة عشر المدرعة، و37 المشاة) وبدعم من لواء مغاوير، ولواء دبابات T-72 حرس جمهوري، وبذلك جمع العراقيون 25 ألف مقاتل، 250 دبابة، ونحو مئة مدفع، أو تفوق بنسبة واحد إلى خمسة، وهذا يكفي لكسب المعركة.

وفي يوم 14 مايس 1986 شنت قوات الجنرال إبراهيم (من الفيلق الثاني) هجومها على مهراّن. وتقدّم رجال المشاة بانتظام وبدعم من المدفعية والدبابات. تراجع الإيرانيون إلى جبال زاكروس المجاورة. سيطر الجنرال إبراهيم في يوم 17 مايس على المنطقة. وبنة على توجيهات من صدّام، وسّع الجنرال إبراهيم من موطن قدمه إلى نحو اثني عشر ميلاً (نحو 20 كيلومتراً) حول مهراّن؛ من أجل الاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة لمبادلتها بجيب الفاو. بعد ذلك، أمر الجنرال إبراهيم قواته الإمساك بالأرض بقوة، وأرجع اللواء المدرع حرس جمهوري إلى بغداد وجعل بدلاً منه لواء مشاة وصلّاً للتعزيز.

في الطريق إلى كربلاء

وخلافاً لكلّ التوقعات، كان الهجوم المعاكس الإيراني بطيئاً في التحرك. في طهران اشتبك القادة حول الجواب الأنسب لعرض صدّام بتبادل الأراضي. لكنّ السبب الرئيس لإحياء الخصومات الفتوية كان تدهور صحة المرشد الأعلى، الذي بلغ الآن السابعة والثمانين من العمر وكان مريضاً جداً. واقترح أطبائه تدخلاً جراحياً خطراً، وعدّوه الوسيلة الوحيدة لإنقاذ حياته. وبينما كان مرافقوه يؤيدون العملية الجراحية، كان كلٌّ من علي خامنئي وأكبر هاشمي رفسنجاني وعلي منتظري ضدها، موضحين أنّ موت المرشد الأعلى المبكر سيثير انتباه العراقيين، فضلاً عن أنّ وراثته ستثير أغلبية الإيرانيين الذين أنهكتهم الحرب وقبول التفاهم مع صدّام حسين. وفوق كلّ ذلك، كان الرجال الثلاثة بحاجة إلى أن يحكّم المرشد الأعلى في خلافاتهم ويُعيّن خليفة له. ولهذا، وافق الثلاثة على تأجيل العملية الجراحية.

وبعد حسم قضية العملية الجراحية، تحوّلوا إلى مقترح صدّام. كان آية الله منتظري مؤيداً إلى حدّ ما؛ لأنّه يريد تفادي إزهاق الأرواح غير الضروري، لكنّ منافسيه شكّلوا تحالفاً للوقوف في طريقه، وأعلنوا أنّهم يريدون مواصلة الحرب حتى الإطاحة بالدكتاتور العراقي، وواصلوا طريقهم بعد أن أقنعوا آية الله الخميني بدعمهم. ولكن واصل رفسنجاني وخامنهي خلافهما حول قضية أنّ إيران بحاجة للانفتاح على العالم الخارجي والخروج من عزلتها والفوز بالحرب، وهذا ما يؤيده رفسنجاني، بينما يعتقد خامنهي أنّ الشعب الإيراني سينتصر فقط حينما يعتمد على إيمانه بالله وعلى مبادئ الثورة الإسلامية التي فرضت رفضها التسوية مع القوى الأجنبية. وبعد خمس وعشرين سنة، بقي هذا الجدل السياسي - الديني غير محسوم، ما أدّى إلى تكرار الأزمات بين طهران والمجتمع الدولي.

وأخيراً، رفض الناطق باسم البرلمان ورئيس الجمهورية مقترح صدّام وأمروا جنرالاتهم بتهيئة سلسلة من الهجمات "الحاسمة"؛ لسحق الجيش العراقي وإلى الأبد. سُميت هذه الهجمات بـ "كربلاء"؛ لأنّها صُمّمت لتؤدي إلى تحرير المدينة الشيعية المقدسة، وبعدها إسقاط النظام البعثي.

في 30 حزيران 1986، شنت طهران هجومها كربلاء 1 في قاطع مهران؛ لإعادة الاستيلاء على الأراضي التي استولى عليها العراقيون مؤخراً. فقد حشد رئيس أركان القوات المسلحة الجنرال سوهرايبي مئة ألف مقاتل موزعين على ثمانين فرق. وخلال ثمانين وأربعين ساعة اندفعت موجات الفتیان الباسيج تتبعهم فرق "كربلاء"، و"الإمام علي"، و"رسول الله" في قتالٍ شرسٍ مع القوات العراقية، وحينما ضعفت تلك القوات بشكل كافٍ، انضمت الفرقتان الأليتان 40 و84 وبدعمٍ من فرقتي الدبابات المدرعتين 81 و88. في النهاية تغلبت هذه القوات المشتركة على المدافعين الذين تراجعوا مشتتين إلى الحدود العراقية. سافر رفسنجاني في يوم 3 تموز إلى الجبهة؛ لرفع معنويات القوات وإعلان تحرير مهران. لكن القيادة العسكرية العليا العراقية حشدت مباشرةً لهجوم معاكس، لكنه توقف بتدخل عنيد من ثلاثين طائرة هليكوبتر كوبرا. لم يستطع الإيرانيون خلال ثلاث سنوات جمع طائرات هليكوبتر أكثر لمعركة منفردة كما في هذه المعركة، وأغلب الظن أنّ ذلك بفضل

الحصول على قطع الغيار والصواريخ التي كانت تنزل من دون رحمة على أعتاب منازلهم. (انظر الفصل 25).

وتم تدمير عدة عشرات من دبابات T-62 و T-72 وبسرعة. انتهب الجنرال سوهرابي الفرصة ودفع بلواءي النخبة من الباسدران "سيد الشهداء" والمشاة العاشر، وهما من قوات الاحتياط الاستراتيجية، وفرقة "رمضان" المدرعة 20 وفي وقت مؤاتٍ تمامًا للتدخل، مما أجبر الجنرال إبراهيم على إعطائه الأمر بالانسحاب، وهذا الأمر أدى إلى استدعائه لبغداد وتجريده من رتبته ومحاكمته صورياً وإعدامه لجبنه بوجه العدو. كان صدام حسين يفضل من وقت لآخر تقديم ضحية للحفاظ على جوّ الرعب بين صفوف الجيش. وعلى الرغم من كل شيء، هذا هو الرجل الذي أخبر جنرالاته "حينما لم يعد الجنود يقاتلون من أجل حبهم لقائدهم، فيجب عليهم القتال بالخوف منه"⁽¹⁾. وأخيراً، كان عدنان خير الله شاهداً على حقيقة أن الضباط العراقيين كانوا يخافون من صدام أكثر مما يخافون العدو"⁽²⁾.

وبحلول اليوم العاشر من تموز، أعاد الإيرانيون الاستيلاء على كل الأراضي التي خسروها قبل عدة أسابيع، بل وحسّنوا مواضعهم. وبالطبع، كانت الكلفة عالية (ثلاثة آلاف قتيل، وتسعة آلاف جريح)، ولكن هذه الخسائر أقل بكثير مما تحملوه في الهجمات السابقة. أمّا العراقيون؛ تكبدوا ألف قتيل، ثلاثة آلاف جريح، وألفاً وخمسمئة أسير، وتدمير ثمانين دبابة، وإسقاط ستّ طائرات هليكوبتر. وإذا جمعنا ضحايا العراقيين في هجومي الفجر 8 و9 بلغ عددهم ثلاثين ألف مقاتل منذ بداية هذه السنة. وبذلك، فإنّ بغداد بهذه الوتيرة من الخسائر لا تستطيع الحفاظ على خطوط جبهتها لفترة طويلة. تعلّم صدام حسين الدرس: لم يعد يغامر بالدخول إلى الأراضي الإيرانية حتى يتأكد أنه قادر على تحمّل خسائره المحتملة من القتلى. وفي يوم 16 تموز أُعيد انتخاب صدام أميناً عاماً لحزب البعث، ورئيساً لمجلس قيادة الثورة. كان الهدف إبراز مساندة الشعب العراقي "لقائدهم المحبوب"؛ من أجل إقناع

1 - انظر إلى ما قاله الجنرال الحمداني في كتاب:

Kevin Woods, ed., *Saddam's Generals: Perspectives of Iran-Iraq War* (Alexandria, VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington, 2011), 51.

2 - علاء الدين مكي في كتاب *Woods, Saddam's Generals*, 115

طهران أنّ العراقيين مصممون على رفض الغزو الفارسي وإلى الأبد. وبعد أسبوع أرسل الرئيس العراقي رسالة إلى القادة الإيرانيين عارضاً عليهم سلاماً مشرفاً. ومرةً أخرى، كان ردهم مريزاً. وفي الوقت نفسه، أدانت واشنطن علانيةً ولأول مرة استخدام العراق للأسلحة الكيميائية.

وبشعور رفسنجاني التحول في التيار، أجاب بطرق متناقضة، فمن جهة صرّح أنّ "نظاماً عراقياً جديداً ربما لا يمكنه دفع تعويضات الأضرار التي تعرضت لها إيران"، ومن جهة أخرى، أنّ 650 ألف إيراني قد تجمّعوا على الجبهة وأيديهم على الزناد، جاهزون لهجوم الحسم"⁽¹⁾. وفي الواقع، قرّر نقل مركز العمليات إلى كردستان العراق؛ لمساندة التمرد الكردي، ولا سيما لمواجهة تركيا في الإقليم الاستراتيجي.

تصاعد التوترين طهران وأنقرة

ويحلول فصل الربيع انتهز حزب العمّال الكردستاني ضعف الجيش العراقي وشنّ حملة من الاشتباكات الجديدة على المواضع التركية من شمال العراق. في 13 آب 1986 دمرت بيشمركة عبد الله أوجلان نقطةً عسكريةً في الجنوب الشرقي من الأناضول، ما أدّى إلى مقتل اثنس عشر جندياً تركيا. وبعد يومين انتقلت تركيا بشنّ غارة شاملة على الحدود أدّت إلى قتل 165 مقاتلاً من حزب العمّال الكردستاني. في 23 آب دخل ألف جندي تركي إلى الأراضي العراقية لملاحقة مقاتلي ذلك الحزب والاشتباك مع أربعين مقاتلاً كردياً بعضهم تساندتهم طهران، ما أدّى إلى إشعال أزمة بين إيران وتركيا. اعتقدت السلطات الإيرانية أنّ الحكومة التركية قد خرقت الخطّ وتدخلت عسكرياً في العراق. ولم تكن القضية الكردية السبب الوحيد وراء الإحباط الإيراني من تركيا. كان ما يزعج إيران انتهاز تركيا الفرصة بشكل صريح تبادلها التجاري والتنوعية المتواضعة للسلع الاستهلاكية التركية المبيعة لإيران بأسعار عالية وبالدولار. إنّ الإيرانيين وثورتهم التي تطمح، ولو جزئياً، إلى

1 - صحيفة واشنطن بوست، 27 آب 1986؛ صحيفة كيهان، 30 آب 1986.

التخلص من نفوذ القوى الأجنبية، أُصيبوا بالإحباط وهم يرون أنفسهم يعتمدون اقتصادياً على تركيا. ومع ذلك، انتقد آية الله الخميني علانية النظام التركي، وأعلن أن أتاتورك طاغية ظالم، وهذا في نظر الأتراك عمل من أعمال تدنيس المقدسات الكبرى. ردت الحكومة التركية بأن زادت من مساعداتها المادية للعراق، ولكن لم تشحن الأسلحة لبغداد. وحشدت 30 ألف مقاتل على حدودها مع العراق، و20 ألفاً على حدودها مع إيران.

وانتقد علي خامنئي نظيره التركي محذراً إياه ضد أية طموحات أرضية واتهامه بعدم احترام القيم الإسلامية. ردّ الرئيس التركي كنعان إيفرن مباشرة بخطبة أعلن فيها أن الأصولية الإسلامية تمثل تهديداً كبيراً كالشيوعية. ومع ذلك، كان إيفرن يدرك أن عليه الحذر؛ لأنّ حكومته تزداد قلقاً يومياً حول نشوء أزمة قوية ربما تؤثر في استقرار البلاد إذا أخذنا بالحسبان وجود مليون ونصف لاجئ إيراني يعيشون في تركيا. أمّا السلطات الأمنية التركية التي تخشى ظهور الأصولية الإسلامية كانت تخمّن أن الأجهزة السرية الإيرانية قد أرسلت عشرة آلاف من المحرضين إلى تركيا، وكلهم ينتظرون الأوامر للبدء بعملية لزعة الاستقرار في البلاد. أعلن منوشهر متقي، السفير الإيراني بأنقرة، وبنبرة تهديدية أن أنبوب دورتيول - كركوك لنقل النفط سيصبح هدفاً شرعياً وعسكرياً لإيران إذا استمرت العمليات العسكرية التركية في العراق. ولإعطاء تصريحه وزناً، شنت القيادة العسكرية الإيرانية العليا هجوم "كربلاء 2" باتجاه راوندوز في 13 آب 1986. إن أيّ اختراق في راوندوز سيفتح الطريق إلى أربيل ثم إلى الموصل وأنبوب نفطها الثمين. تقدمت ثلاث فرق (الآلية 28، المظليون 55، والمشاة 64) وبدعم من عدة فرق من الباسدران، على طول الطريق نحو راوندوز. استولت على عدة جسور في الطريق، ولكن تم إيقاف الهجوم من دفاعات المدينة. وتمكنت الفرقتان 23 و33 العراقيتان وبدعم من مدفعية الفيلق الخامس من صدّ كلّ موجات الباسدران البشرية. كان لتدخل الطيران ووصول عدة كتائب كتعزيزات بطائرات الهليكوبتر أدى إلى تراجع الإيرانيين إلى مسافة ستة أميال (10 كيلومترات).

وفي غضون ذلك، وفي النهاية الأخرى من الجبهة، شنّ الإيرانيون عملية مغاوير سُميت "كربلاء 3". وبحلول ليلة الأول من شهر أيلول غادرت عدة سرايا من الباسدران

الفاو على ظهر طائرات الهليكوبتر والبرمائيات؛ للهجوم على أرصفة ميناء خور العمية. كانت منصة تصدير النفط في هذا الميناء خارج العمل منذ بداية الحرب، ولكن تستخدم بوصفها مقرًا للحامية عسكرية مسؤولة عن محطة رادار للإنذار المبكر، مما جعل التجاريتين البحرية والجوية عند مصب شط العرب تحت المراقبة. سيطرت قوات الباسدران على الموقع خلال ساعات قليلة، ودمروا محطة الرادار، وحرمت البحرية العراقية من متابعة حركة السفن الإيرانية المسؤولة عن تجهيز موطئ القدم في الفاو على الدوام. بعد أيام قلائل، نزلت قوات المغاوير العراقية بوساطة الهليكوبتر على منصة خور العمية وأعدت الاستيلاء عليها بعد معركة دامية مع الإيرانيين.

في يوم 7 أيلول دعت القيادة العسكرية العليا الإيرانية إلى توقف هجوم "كربلاء 2"؛ لأنها افترضت أن أنقرة قد فهمت نوايا طهران، لكنها استمرت في دعمها لحرب العصابات الكردية. كذلك هاجمت سرية باسدران وحدة معالجة المياه، وساحة للتجمعات بالقرب من كركوك وبالترادف مع بيشمركة جلال طالباني الذي تحالف الآن مع طهران. وهاجمت أيضًا سرية مظليين سدّ دوكان، مما ترك كركوك من دون كهرباء لعدة أيام. وأخيرًا، قامت مجموعة مغاوير وياشراف من بيشمركة الأخوين بارزاني بالتسلل إلى العراق والوصول إلى جسر زاخو على الحدود مع تركيا. واستخدموا الهاونات لتدمير سيارتين ناقلتين للنفط، وإغلاق هذا الطريق الاستراتيجي لمدة ثمان وأربعين ساعة. أجبرت هذه العمليات بغداد على نشر وحدات من الحرس الجمهوري في كردستان، على الرغم من الحاجة لهم في الجبهة.

أجرى النظام الإيراني في يوم 22 أيلول استعراضًا عسكريًا مبهرًا في طهران للاحتفال بالذكرى السادسة لاندلاع الحرب، حيث أوجد مناسبة لاستعراض قوّته وإظهار العزم للصحفيين الذين تمت دعوتهم لتغطية تلك المناسبة من كل أنحاء العالم. فقد جمع الجنرالات عدة مئات من الدبابات، ومدافع الهاوتزر ذاتية الحركة، وما بقي لديهم من صواريخ سكود، وسيارات جديدة لمكافحة التلوث الذي تسببه الأسلحة الكيماوية التي تم تسلمها من ألمانيا. وحلقت أيضًا اثنتا عشرة طائرة Tomcat، وعشرون طائرة Tiger،

وثلاثون طائرة فانتوم فوق الآلاف من الجنود الذين تم نقلهم للاستعراض بالعاصمة. فاجأ استعراض القوة هذا الخبراء العسكريين الذين قللوا من القوى المادية المتبقية من القوة العسكرية الإيرانية. قامت إيران بالشتاء ببعض الهجمات القليلة حول قصر شيرين وأهوار الحويزة؛ لتخمين قوة دفاعات العدو، واستغلال نقاط الضعف المحلية المحتملة. وكلُّ هذه المحاولات تم صدُّها بسهولة من القوات العراقية، لكنها ضغطت على بغداد، وجعلت النظام يتابع دراسة المكان الذي سيكون مسرح العملية الإيرانية المقبلة. وفي غضون ذلك، وصلت الحرب إلى حالة من الجمود سواء في البرِّ أم الجوّ.

بدء موسم المطاردة

خلال الأشهر الأولى من عام 1986، كانت القوة الجوية العراقية مشغولةً بالدفاع عن شبه جزيرة الفاو وجبال كردستان، وأبطأت من وتيرة هجماتها في منطقة الخليج. وحينما بدأت دفاعات منصة نفط جزيرة خارج المضادة للجوّ بإطلاق صواريخ هوك مرةً أخرى، أنهت القوة الجوية العراقية حملة القصف على الجزيرة، عدا سرب الميراج - F-1EQ5 الذي واصل مهماته دون كلل في متابعة الرحلات المكوكية بين جزيرة خارج ومنصات نفط جزيرة سيدي. لقد غادر هؤلاء الطيارون من دون توجيهٍ من الرادار وفي مهمة تفوق في الأجواء المفتوحة باتجاه مناطق من المفترض أن تبحر فيها ناقلات نفط العدو. وتحمل هذه الطائرات نماذج من صواريخ Exocet المُطوّرة بشكل كبير والتي تزيد من فعالية هجماتها. ففي عام 1986 ضربت هذه الطائرات سبعةً وعشرين ناقلة نفط، أغرقت ثمانية منها. وبعد انتهاء معركة الفاو، انضمت إليها طائرات Su-22 وميغ-23 وضربت عشرين ناقلة نفط أخرى. وبمرور الوقت، أصبح الطيارون العراقيون يمكن التوقع بهم. تغطي مهمة الاجتياح الخاصة بهم قاطعاً بيضويّاً يمتد بين بوشهر وخطّ فهد. ويظهرون هناك بصورة عامة عند الفجر أو عند الشفق ويتبعون على الدوام المسار نفسه تقريباً. وهذا الروتين جعل من السهل اعتراضهم. وخلال أسابيع قليلة حسّنت طائرات Tomcat من حصيلتها من الطائرات

العراقية التي أسقطتها في المنطقة: ميراج - F-1EQ5، ثلاث S-22، وأربع ميغ-23. والكثير من الطيارين من أحرز أكثر من خمس انتصارات التي أهلتهم للقب "متفوقين"، ومن أشهر حاملي هذا السجل: فضل الله جوادنيا، جليل زندي، فريدون علي مازندراني⁽¹⁾. وخلافاً للتقليد بمثل هذه الإنجازات، لم يُعط هؤلاء الطيارون أية تغطية إعلامية خاصة، أو يُسمح لهم برسم رموز لانتصاراتهم على طائراتهم؛ لأنّ الدعاية الرسمية تريد التقليل من استغلال الجيش النظامي لذلك على حساب الباسدران.

وبالنسبة إلى القوة الجوية كانت الدعاية هادئةً بشكل خاص؛ لأنّ النظام بقي يشكك بالطيارين. وفي المخيال الشعبي أنّ الحرب يجب أن يربحها حراس الثورة وليس أتباع الشاه السابقين. فالكثير من الطائرات العراقية تم إسقاطها من مقاتلي الجو المتفوقين الإيرانيين، ولكن زعم الباسدران أنّها أسقطت بصواريخ سام-7 المحمولة، أو بالبنادق الثقيلة، أو حتى بالكلاشنكوف. وطلب من الطيارين المقاتلين بأدبٍ عدم الإساءة، وأن يأخذوا مآثرهم وبطولاتهم لأنفسهم، إلا إذا دعا النظام خلاف ذلك الذي نادراً جداً أن يفعل ذلك ما دام الإعلام الإيراني يفضّل احترام الموتى وليس الأحياء. وأولئك الذين يخالفون هذه القواعد إمّا يتم منعهم من الطيران أو حتى سجنهم لعدة أسابيع. كانت البطولة الأولى والموثقة تم الكشف عنها في زمن الرئيس خاتمي، أي بعد اثنتي عشرة سنة، وفي صيغة أشرف عليها النظام بدقة. لقد شعر الكثير من المؤرخين الإيرانيين بالغضب على السلطات عند روايتها لهذه الإنجازات، وكذلك لموقفها من إعادة بناء دور القوة الجوية والجيش النظامي في المعارك التي صورت أنّ الباسدران وحده من خاضها. وحتى اليوم، لا نملك سجلاً رسمياً للانتصارات التي حقّقها مقاتلو الجو المتفوقين. وتم "محو" أسماء الكثير من هؤلاء "المتفوقين" من الذاكرة الجمعية للإيرانيين؛ بسبب عدم رضا السلطات. ففي شتاء عام 2012 تم وقف سلسلة أفلام وثائقية مخصّصة لمآثر طياري طائرات Tomcat بسبب الضغط من الحرس الثوري، على الرغم من أنّ تلك السلسلة أنتجها التلفزيون الإيراني.

1 - عند نهاية الحرب مُنح هؤلاء الطيارون الثلاثة 12 و11، 9 انتصارات على التوالي.

وعلى الجانب الآخر، يمكن للطيارين العراقيين المبالغة بمآثرهم للأغراض الدعائية ودون إثارة حنق رؤسائهم. فالكابتن مخلد عبد الكريم تفاخر برسم أربع عشرة شارة إيرانية مميزة على جانب طائرته مدعيًا الكثير من المآثر الوهمية، بينما أكدت السلطات الرسمية لاحقًا اثنين من انتصاراته فقط. وهذا التباهي كلفه خسارة منصب قائد قاعدة جوية والترقية إلى رتبة جنرال. ومع ذلك، كانت صور طائرته الميراج F-1 العالم يراها وأسهمت في الترويج لنجومية الطائرة وصواريخها، مما أبهج كثيرًا الشركات المصنعة Dassault & Matra. وأفادت القوة الجوية العراقية بعض المكاسب من ادّعاءات مخلد عبد الكريم وعززت من سمعتها وبخلاف ما عرفته من إحصائيات متواصلة فقيرة بالإنجازات. فقد أسقط الطيارون الإيرانيون المتفوقون في الجو أكثر بقليل من 150 طائرة عراقية منذ بداية الحرب، بينما دمر المقاتلون العراقيون خمسين طائرة إيرانية فقط. وفي الواقع، شهد الكثير من الجنرالات العراقيين بعدم وجود طيار عراقي "متفوق" رسميًا أنجز الانتصارات الخمس التي تؤهله لحمل لقب "الطيار المتفوق". ومع ذلك، هناك ثلاثة طيارين حقق كل منهم أربعة انتصارات اعترف بها رسميًا، وهم: سمير عبد الرزاق (طيار الميغ-21)، علي صباح (طيار ميراج F-1)، محمد ريان (طيار ميغ-23).

وعلى الرغم من خسائرهم، واصل الطيارون العراقيون هجماتهم على التجارة النفطية، بما أجبر طهران على زيادة طاقة منصة لافان وإضافة ناقلتي نפט عملاقتين كخزانين جديدين إلى منصة نפט سيربي العائمة. وأنشأت إيران محطة ضخ في جنافه Genaveh على طول ساحلها ترتبط بمنصة جزيرة خارج بانبوبٍ مرٍ يمكنه نقل الوقود المصفى الذي تستورده إيران لسد حاجتها من الاستهلاك المحلي. وأعلن الإيرانيون بانتظام نيتهم لفتح منصتين جديدين لتصدير النفط، الأولى بالقرب من القاعدة البحرية في بندر عباس، والثانية في ميناء جاسك بخليج عمان. وهذه المنصات تهدف إلى منع دخول ناقلات النفط إلى الخليج الفارسي، ولكن ذلك يتطلب بناء أنبوب لنقل النفط في الجزء الجنوبي من إيران لنقل النفط المستخرج من خوزستان. وتم إكمال بناء هذا المشروع المُكلف إلا بعد انتهاء الحرب.

وفي أوائل شهر مايس سنّ الجنرال شعبان الذي تحت إمرته 340 (1) طائرة مقاتلة موجةً أخرى من الهجمات على البنية التحتية للنفط الإيراني، وحدّد مصافي النفط أهدافاً لها الأولوية. نجح في إشعال النيران بمصفي طهران الذي أصبح من أكبر المصافي الإيرانية بعد مصفى عبادان الذي تم تدميره منذ بدء الحرب. وأصاب أيضاً محطة ضخّ جنافه بالأضرار، ودمّر جزءاً من مخازن النفط في أهواز. وقصف معامل الحديد في أصفهان أيضاً، وعدة وحدات للطاقة الكهربائية والحرارية، ووحدة صناعة الذخيرة في بارشين جنوب شرق طهران. ردّت الحكومة الإيرانية بقصف بغداد بأربعة صواريخ سكود، وضرب العمارة والبصرة بتسعة عشر صاروخ Oghab. ويعدّ صاروخ أرض - أرض أوغاب الأول من نوعه الذي يتم تجميعه محلياً في المصانع الإيرانية وبمساعدة المهندسين من كوريا الشمالية. فممنذ بداية السنة، ساعدت كوريا الشمالية إيران بتجميع 300 صاروخ أوغاب (وهو نسخة من صاروخ Frog-7 السوفيتي الذي يبلغ مداه خمسين ميلاً [70 كيلومتراً]). وبناءً على نصيحة من عدنان خير الله والجنرال شعبان لم ينخدع صدّام حسين بحرب مدن أخرى. وبدلاً من ذلك، استمرّ في هجماته التي تستهدف الإضرار بالاقتصاد الإيراني. ولذلك؛ هاجمت القوة الجوية المطارات الإيرانية من وقتٍ لآخر، ودمرت طائرة بوينغ 737، وطائرتي بوينغ 747 لإعادة التزوّد بالوقود في ميناء شيراز.

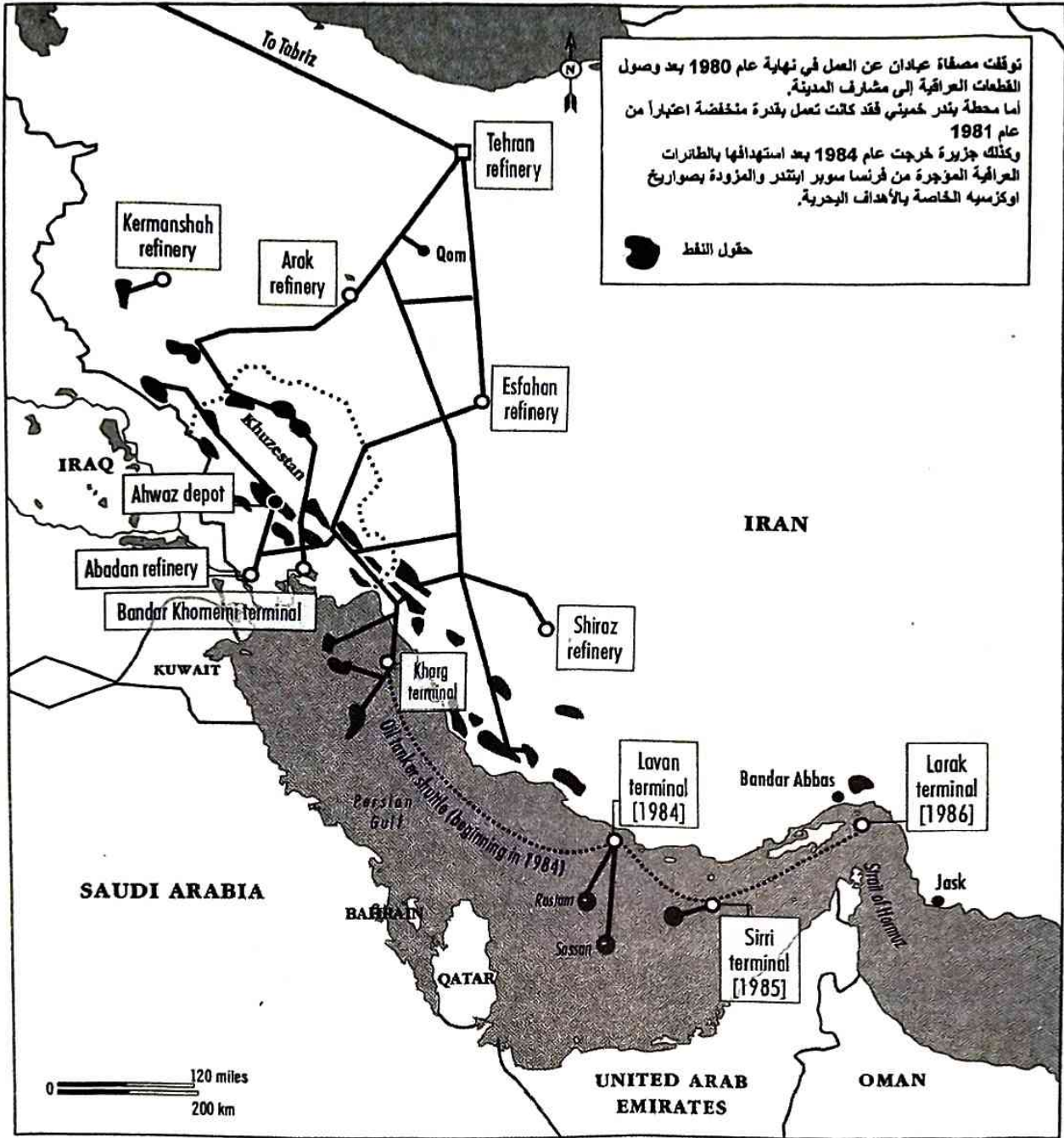
طائرات الميراج تقصف في الخليج

كان الجنرال شعبان ومنذ عدة أسابيع يخطط بدقة لضربات مدمرة بعيدة عن الخليج. ولأجل خداع العدو، أمر بشنّ عدة ضربات على منصة نفط خارج في وقت مبكر من الصيف. وفي 12 آب 1986 صعدّ من نشاطاته وشنّ غارةً لافتةً للنظر على منصة نفط جزيرة سييري العائمة. أقلعت ستُّ طائرات ميراج F-1EQS من قاعدتها "الوحدة" عند الفجر متجهةً نحو الجنوب الشرقي بمحاذاة الطرف الشمالي لقطر. تم تحميل الطائرتين الأوليتين بقنابل تزن

1 - نحو 100 طائرة ميغ-21، 80 ميغ-23، 60 ميراج F-1، Su-20/22، 30 ميغ-25، و6 قاذفات توبولوف.

900 باوند (400 كيلوغرام) والمكلفتين بمهاجمة الهدف بينما تقوم الطائرات الأربع الباقية بتزويدهن بالوقود في الجو. وقد غصت السيطرة الجوية السعودية النظر عن العملية سرًا، ولربما تم إخبارها سابقًا. وبعد إعادة التزوّد بالوقود بالقرب من الساحل الكويتي، ثم بالقرب من البحرين، هبط الطياران المسؤولان عن العملية مباشرةً فوق مياه الخليج وبالسّعة القصوى. وتوجّها مباشرةً نحو هدفهما الذي يبعد 500 ميل (800 كيلومتر) من نقطة انطلاقهما. وظهرتا في الجوّ فوق سيري، وأغرقتا الناقلّة Azerpod وأصبحتا ناقلتا نفط أخريان بأضرار. ثمّ عادا إلى قاعدتهما من دون أيّ اعتراض من مقاتلي الجو "المتفوّقين" الإيرانيين بعد أن تزوّدا بالوقود في الجوّ مرةً أخرى فوق ساحل قطر. وفي 29 آب أعاد الطيارون العراقيون المهمة مرةً أخرى لمهاجمة منصة نفط لافان. ولأجل تنفيذ هذه العملية، أفلعت هذه المرة اثنتا عشرة طائرة ميراج من قاعدة الوحدة: اثنتان منها تحمل معدات حربية إلكترونية للتشويش على الرادارات الإيرانية، أربع طائرات حُمّلت بالقنابل، وستُّ طائرات حُمّلت بالوقود لتزويد الطائرات بالوقود في الجو. واتبع التشكيل مسار الطيران نفسه الذي اتخذته المهمة السابقة مع بعض التوقف قبل ذلك بقليل. أسكت المهاجمون نيران الدفاعات الجوية الإيرانية غير الدقيقة بسهولة، وقصفوا المنصة وأغرقتا الناقلّة موكران.

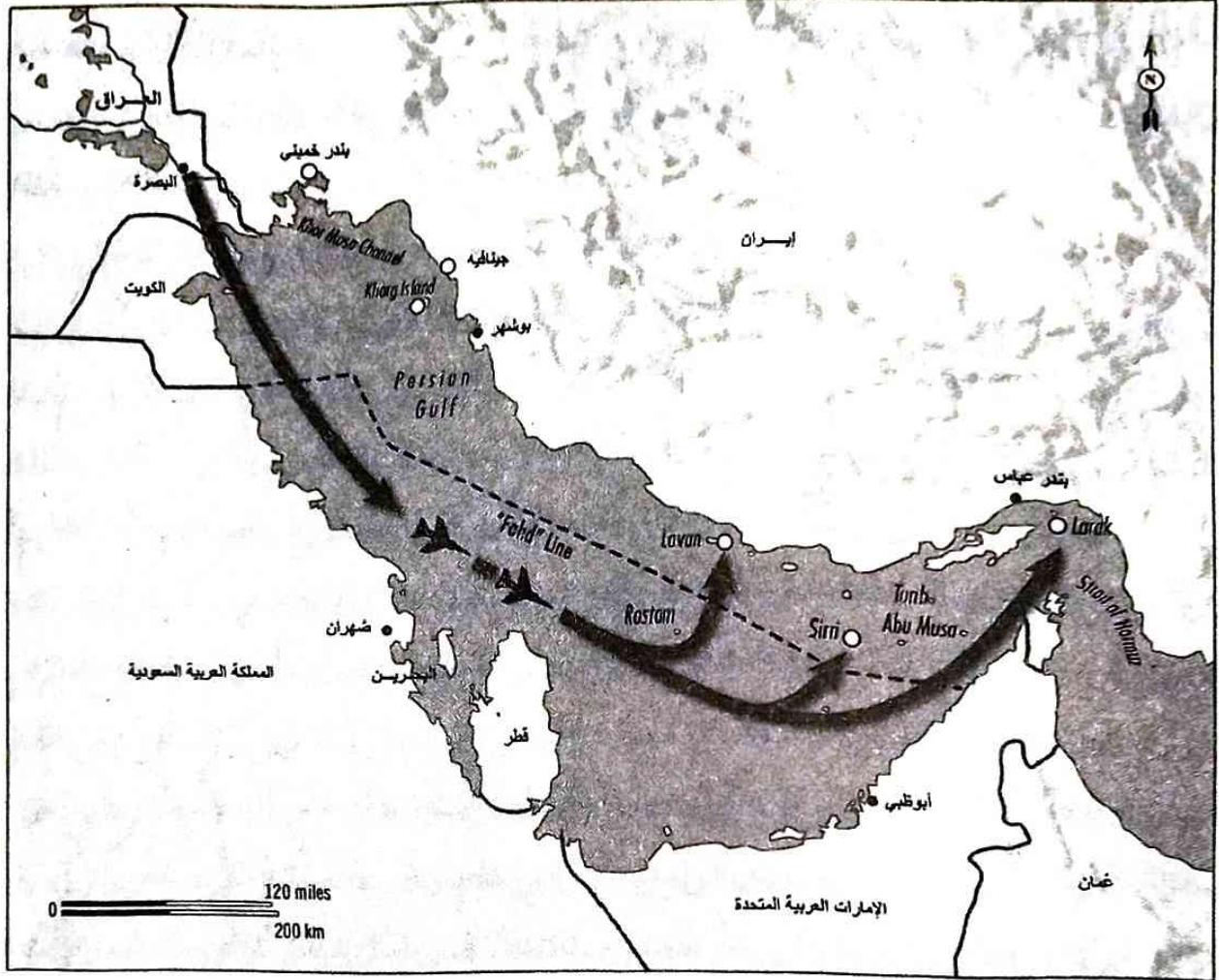
أقنع توسع الضربات العراقية طهران بتمديد خطّ رحلاتها المكوكية إلى لاراك، وهي جزيرة صغيرة تقع قبالة بندر عباس عند مدخل مضيق هرمز. وهنا أرسى الإيرانيون عدة ناقلات نفط عملاقة الواحدة جنب الأخرى، وبضمنهن الناقلّة Seawise Giant وهي أكبر سفينة في العالم آنذاك يبلغ طولها 1500 قدم (460 مترًا) ووزنها 700 ألف طن، ويخزن فيها النفط المنقول من جزيرة خارج. هذه المنصة العائمة الجديدة من المفترض أنها خارج مدى ضربات الطيارين العراقيين، وتهدف لزيادة صادرات النفط الإيراني وطمأنة شركات التأمين البحري القلقة من تصاعد العنف في مياه الخليج.



خارطة شبكة النفط الإيرانية

وخلال المدة بين شهري تشرين الأول وتشرين الثاني استأنف الجنرال شعبان قصف جزيرة خارج بينما يخطط لغارات جديدة. في يومي 6 و 7 تشرين الأول اعترضت طائرتا Tomcat في أثناء دوريتهم للمراقبة طائرات عراقية بالقرب من منصة نفط جزيرة خارج

سفيتي شحن أسلحة إضافيتين بينادقهم ذي 30 ملم. بعدها عادوا إلى قاعدتهم من دون أية حادثة بعد أن قضوا أربع ساعات طيران⁽¹⁾.



خارطة ضربات طائرات الميراج F-1 البعيدة المدى في الخليج الفارسي (آب- تشرين الثاني 1986)

أصبح الإيرانيون في غضب شديد؛ لأنهم سمحوا لأنفسهم أن يؤخذوا فجأة، وأرسلوا دفاعات مضادة للجو كبيرة لحماية منصة لارك، وأمروا طائرات الفانتوم في قاعدة بندر عباس بمراقبة القاطع بصورة دائمة. وردوا على الغارات العراقية بإطلاق آخر أربعة صواريخ سكود لديهم على بغداد، وكثفوا من هجماتهم على التجارة البحرية في الجزء الشرقي من

1- انظر الرواية المفصلة للجنرال علوان العبوسي في كتاب 201-Woods, Saddam's Generals, 202.

الخليج. ونظرًا لقلة عدد طائراتهم المقاتلة العاملة (مئة في الغالب)، ثلاثة عشر فانтом جاهزة للعمل في الخليج (سبع في بوشهر، وست في بندر عباس) يجب عليها تنفيذ واجب الإنذار المبكر، ولم تعد قادرة على تخريب التجارة البحرية. وخلال السنة هاجموا عشر ناقلات نفط فقط، وإغراق اثنين منها. كذلك التقطت مروحيات Sea Kings, AB-212 في قاعدة أبو موسى وأرصفت النفط في رستم وساسان فرصة الركود هذه وألحقت الأضرار بعشرين ناقلة، وثلاثة تم تصنيفهن بعد الهجوم عليهن.

وحتى البحرية الإيرانية قامت بمهّمات ليلية قليلة لمضايقة الناقلات، ففي شهري تشرين الأول والثاني غادرت فرقاطتان نوع Vosper-class قاعدتهما في بندر عباس بحلول الليل واندست سرًا مع المرور الكثيف للسفن في مضيق هرمز وأطلقت صواريخها Sea Killer على أربع ناقلات نفط عملاقة قادمة من الكويت والإمارات العربية. عادت الفرقاطتان عند الفجر إلى قاعدتهما. وخلال النهار قامت سفنٌ أخرى بعدة مهام تفتيش من خلال قوارب تقوم بنقلها إلى المضيق في محاولةٍ لاعتراض شحنات السلاح إلى العراق. وإذا نجح بحثهم، يصادرون الشحنة. على سبيل المثال، صادروا شحنة دبابات T-69 وقطع مدفعية من سفينة شحن صينية.

ولم يتخلّف الباسدران، وشنّ أول غارة بحرية له، في يوم 16 أيلول أطلقت عدة زوارق سريعة من قاعدتهما في جزر طمب وأبو موسى الرصاص وعدة صليات من القذائف الصاروخية على ناقلة النفط الكويتية "الفنطاس"، ممّا أجبر السفينة على التوجّه إلى أقرب ميناء لإصلاحها.

عانت البنى التحتية النفطية لطرفي النزاع بشكل سيئ خلال عام 1986، فقد تعرّضت أغلبية المصافي ومحطّات الضخ إلى القصف، ومهاجمة 69 سفينة تجارية، ثلاثة أرباعها كانت ناقلات نفط، وست عشرة ناقلة تم إغراقها أو ذهبت إلى السكراب. واستنادًا إلى شركة لويد ثلاث وتسعون سفينة اضطرت إلى التوقف عن الإبحار؛ لأنّ مالكيها لا يريدون المغامرة بالإبحار علانية. كانت هذه الخلاصة لطرفي النزاع. سجلت الحكومة الإيرانية انخفاضًا بنسبة 5% في إنتاجها النفطي، و8% في صادراتها من النفط الخام، على الرغم من أنّها قد

قنّت من صناعتها النفطية وضاعفت من الرحلات المكوكية بين منصّات التحميل. والآن، كان ناقوس الموت الحقيقي للاقتصاد الإيراني هو انهيار أسعار النفط بالتزامن مع انخفاض قيمة الدولار، والخصومات التي تدفع للزبائن. في أقلّ من سنة، خسرت طهران أكثر من نصف مواردها النفطية. أمّا العراق؛ فقد عوضت الحكومة العراقية خسائرها المالية بالمساعدة المالية من دول الخليج، و15٪ زيادة في إنتاج النفط، و30٪ زيادة في الصادرات النفطية.

وللمرة الأولى منذ العام 1981، كان الإنتاج القومي العام الإيراني يفوق بقليل قرينه العراقي، على الرغم أنّ عدد سكانها ثلاثة أضعاف سكان العراق. ولذلك؛ كان يجب تكثيف التقنين للاستهلاك المحلي. ووجدت القوّات المسلّحة الإيرانية صعوبةً متزايدةً في جذب مجندين جدد، وإعادة تأسيس الفرق المدمرة. وللمرة الأولى تم تدريب النساء - في الغالب أرامل الحرب - على استخدام السلاح لجعلهنّ بدلاً من مقاتلي الفصائل الذين أرسلوا لحماية المنشآت الحسّاسة في المناطق الحضرية. ونشرت صور النساء حول العالم وهنّ يرتدين العباءة السوداء وخمار الوجه ويطلقن النار من المسدسات والكلاشنكوف. وأصبح على النظام استخدام الإجراءات القسرية؛ لإجبار المجندين الجدد للانخراط في القوى العسكرية. وتمّ تدريب الموظفين المدنيين وأساتذة الجامعات تدريباً أساسياً لأسابيع قليلة؛ لكي يتمكّنوا شغل مواقع إدارية ولوجستية في الجبهة. فضلاً عن تمديد فترة الخدمة العسكرية من سنتين إلى ثلاث سنوات. ومع ذلك، تسارع الهروب من الخدمة العسكرية، وحتى من بين البطانة المقربة من أكبر هاشمي رفسنجاني. في يوم 12 آب 1986، قام طيار وملاح طائرة Falcon-50 للخدمات العسكرية ومخصصة للاستخدام الشخصي للناطق باسم البرلمان بالهروب من النظام والهبوط في بغداد. وهكذا، أصبح قلق رجل المالية الأوّل يتسارع؛ نتيجة لفقدان الأمل بالحصول على مساعدات مالية من الخارج، وخسارته للقناة الثمينة لتمويل الحرب.

الفصل الخامس والعشرون

قضية إيران - كونترا

كشفت مجلة الشراع اللبنانية في 3 تشرين الثاني 1986 أن الحكومة الأمريكية كانت تشحن السلاح سرًا إلى إيران؛ من أجل تسهيل عملية تحرير الرهائن الأمريكيين في لبنان. أثارت هذه الأخبار الصخب في الولايات المتحدة التي تفاخرت حكومتها أنها لن تتفاوض أبدًا مع الخاطفين. طلب الكونغرس مباشرةً من البيت الأبيض توضيح ذلك، مؤكدًا الحظر المفروض على بيع المعدات العسكرية لإيران. ولمواجهة الضغط من جهات واسعة ومختلفة، اضطرَّ الرئيس رونالد ريغان إلى تبرير خطوته في خطابٍ متلفزٍ، قائلاً: "إنَّ هدفي... إرسال إشارة إن الولايات المتحدة مستعدةٌ لاستبدال العداوة بين البلدين (الولايات المتحدة وإيران) بعلاقات جديدة... إنَّ الخطوة الأكثر أهمية التي يجب على إيران أن تأخذها، كما أشرنا، استخدام نفوذها في لبنان لضمان إطلاق سراح كل الرهائن هناك"⁽¹⁾. لم يكن هذا الشرح كافيًا لتهدئة المشاعر في الكونغرس الذي دعا إلى تشكيل لجنة تحقيقية برئاسة السناتور جون تاور. حققت اللجنة في الزوايا المظلمة للسلطة لمدة ثلاثة أشهر، وقابلت المئات من الأفراد. كشف تقريرها المؤلف من 500 صفحة جزءًا من النقاب عن القضية التي هزّت سلطة ريغان.

1 - كلمة موجَّهة إلى ممثلي الصحافة الأمريكية في 13 تشرين الثاني 1986،

NBC, News, November 24, 1986.

بدأت القضية في العام 1984 بعد أسابيع قليلة من فوز ريغان في إعادة انتخابه. تم الاتصال في ألمانيا بوكيل المخابرات الأمريكية السابق ثيودور شيكلي من مانوشهر غوربانفر، الإيراني المعروف لوكالات المخابرات الغربية بتورطه بتجارة السلاح في الأسواق الموازية لطهران. فقد ادّعى غوربانفر بقربه من رئيس الوزراء الإيراني، وأخبر شيكلي أن الجناح "المعتدل" يريد استئناف الحوار مع الولايات المتحدة لإنقاذ إيران من عزلتها الدبلوماسية. وفي الواقع، هو لم يتحدّث بصورة شاملة عن المعتدلين، ولكن مع كل شخص في طهران الذي يتفق مع قناعات رفسنجاني ومير حسين موسوي أن الجمهورية الإسلامية لا تكسب أي شيء في الإصرار على عزلتها. وبخلاف ذلك، يعتقد هؤلاء الأفراد أن إيران تحتاج إلى إعادة علاقاتها مع الغرب ولكن دون أية تنازلات أيديولوجية. ولأجل لفت انتباه شيكلي، اقترح غوربانفر أن إيران ترغب بالاتجار بالمعدات السوفيتية الصنع، ولا سيّما دبابات T-72 المشهورة التي كانت تقلق القيادات العسكرية الغربية آنذاك، مقابل المعدات المضادة للدبابات والصواريخ المضادة للجوّ التي إيران بأمر الحاجة إليها. وكعربون لذلك، الملاي يمكنهم التخلّ مع حزب الله لتسهيل عملية إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين. جذبت هذه الفكرة الانتباه في Langley (مكان مقرّ المخابرات الأمريكية) إلى الحدّ الذي كتبت مذكرة إلى البيت الأبيض تدعوه لتغيير سياسته تجاه إيران، واقترحت وكالة المخابرات الأمريكية استئناف العلاقات البتّاءة بين واشنطن وطهران والاستعداد للمستقبل، ولا سيّما بعد توقعها بوفاة آية الله الخميني.

صلة إسرائيل بالقضية

وفي غضون ذلك أخبر ميشال ليدن مساعد مستشار الأمن القومي روبرت ماكفارلين في حكومة الرئيس ريغان مسؤوله بمقترح يزعم أنه تسلّمه من رئيس الوزراء الإسرائيلي خلال زيارته إلى القدس في يوم 5 مايس 1985⁽¹⁾. أبلغ شمعون بيرس ليدن حديثاً فحواه أن

1 - أنشأ Michel Leeden قبل ثلاث سنوات "المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي" بواشنطن وهو مجموعة مساندة تهدف لترويج المصالح الإسرائيلية في الكونغرس.

عرضاً إيرانياً لشراء كميات كبيرة من صواريخ تاو المضادة للدبابات وصواريخ هوك المضادة للجو. واقترحت إسرائيل أن تقوم بدور الوسيط مع إيران باستخدام شبكة تجارتها الموازية للسلاح، لكنها تريد الضوء الأخضر من السلطات العليا الأمريكية. فإذا وافقوا، تقول الحكومة الإسرائيلية إنها مستعدة لتحويل الأموال التي تدفعها إيران لشراء السلاح إلى الولايات المتحدة. وبالمقابل، تتعهد الولايات المتحدة بشحن أعداد مساوية من أحدث صواريخها إلى الجيش الإسرائيلي ومن دون أية تكلفة. يرى الإسرائيليون في هذه العملية وسيلة لتحديث أسلحة ترحال (التسمية العبرية للجيش) دون إنفاق شيكل واحد، وإعادة النشاط للشبكة الإيرانية التي أوقفها مناحيم بيغن وإيرل شارون بعد هجمات حزب الله المدهشة ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي في لبنان. ومنذ ذلك الوقت، انسحب ترحال من أغلبية الأراضي اللبنانية، وحاولت الحكومة الإسرائيلية استئناف الحوار مع طهران للتفاوض على تهجير يهود إيرانيين أكثر إلى إسرائيل. وحتى يمكن لإسرائيل أن تتهز الفرصة، ولو بقليل من الحظ، لزيادة شحناتها من السلاح إلى إيران وتجنبي أموالاً إضافية، كانت القدس ستكسب كل شيء من إقناعها واشنطن للموافقة على هذا الاتفاق.

إنّ التقاء هذه العناصر المختلفة أقنعت روبرت ماكفارلن لفتح المفاوضات مع الإيرانيين بهدف عتق الرهائن مقابل السلاح، ولا سيّما أنّ ترتيبات مشابهة قادت إلى حلّ أول أزمة للرهائن في شتاء 1980. ممّا لا شكّ فيه، كان روبرت ماكفالين يفكر أنّ رونالد ريغان ووليم كيسبي مدير المخابرات المركزية سيقبلون مثل هذه الفكرة للتبادل منذ وافقوا على مخطّط مشابه قبل خمس سنوات. وفي شهر حزيران، أقنع ماكفارلن وليم كيسبي بهدوء لدعم خطته هذه. وفي منتصف شهر تموز زار ماكفارلن مستشفى Bethesda حيث كان ريغان يخضع لعملية لعلاج سرطان القولون. أعطى الرئيس الذي تشافى لتوّه من المرض موافقته لاقتناعه أنّه يعمل لحماية مواطنيه الذين اختطفوا بغير حقّ. لكنّ وزير الخارجية جورج شولتز، ووزير الدفاع كاسبابار واينبرغر عارضوا بشدّة هذه العملية السرية التي عدّوها مضرّة بالمصالح الأمريكية، ولكن لا خيار لهم سوى اتباع قرار الرئيس.

أبلغ مستشار الأمن القومي الحكومة الإسرائيلية بعد أن شعر بالثقة أن السلطات الأمريكية العليا وافقت على شحن المعدات العسكرية لإيران. وكما هو متفق عليه، ستأخذ إسرائيل الأسلحة مباشرة من مخازنها وترسلها إلى طهران بالطائرات والسفن. وهذه الشحنات ستكمل الشحنات التي أبرمتها بشكل خاص. والولايات المتحدة ستملأ المخازن الإسرائيلية ثانية حالما تتسلم الأثمان المحولة. يجب أن تبقى هذه العملية كلها سرية تمامًا. في إسرائيل، كان ديفد كمخي المدير العام بوزارة الدفاع، وأميرام نير المستشار الخاص لرئيس الوزراء، والمتواجد في كل مكان يعقوب نمرودي الملحق العسكري السابق في طهران خلال حكم الشاه، عملوا وسطاء بين الحكومة الأمريكية والسلطات الإيرانية ومن خلال تاجر السلاح منوشهر غوربانفر، وهو الرجل نفسه الذي اتصل بالأمريكيين مباشرة قبل أشهر قليلة، ولديه علاقات وثيقة في كل من إيران وإسرائيل. وقد أكمل تاجر السلاح السعودي عدنان خاشقجي هذه الحلقة.

السلاح مقابل الرهائن

وصلت أول دفعة من السلاح في 20 آب 1985 وهي عبارة عن مئة صاروخ تاو إلى إيران. وتبعتها بعد ثلاثة أسابيع دفعة إضافية تتكوّن من 400 صاروخ. في يوم 15 أيلول أطلقت حركة الجهاد الإسلامي سراح باستور بنجامين واير في بيروت. وفي منتصف تشرين الثاني شحنت إسرائيل ثمانية عشر صاروخ هوك وبمباركة من البيت الأبيض، ولكن الصواريخ لم تكن النموذج المطلوب من النظام الإيراني الذي رفض إطلاق سراح أي من الرهائن إن لم تكن الصواريخ المطلوبة تلبي المتطلبات الإيرانية. ومما عقد المسألة أكثر فرض منوشهر غوربانفر زيادة نسبة 40% على الأسعار إذا تم تسليم الصواريخ. غضب الإيرانيون وهددوا بإيقاف العملية. شعر روبرت ماكفارلن بالإحباط، وازدادت الانتقادات له من حلقات السلطة، ما أدى إلى استقالته في يوم 5 كانون الأول لأسباب عائلية كما ذكر رسميًا. وجعل الأدميرال جون بوندكستر بدلًا منه، الذي عُرف بالخطّة عند تسلّمه المنصب. وقرّر الاستمرار بعملية

سلفه، لكنه اقترح عمل ذلك دون خدمة غوربانفر، والتعامل مباشرة مع الإيرانيين. في هذه المرحلة تدخل واحد من أهم الشخصيات في القضية وهو المقدم أوليفر نورث وهو بحري مسؤول عن جهود مكافحة التخريب في مجلس الأمن القومي الأمريكي. اقترح نورث استخدام الأموال التي تدفعها إيران لتمويل جماعة الكونترا، وهي فصائل مسلحة مناهضة للشيوعية تقاتل نظام الساندنستا في نيكاراغوا. وكسب إلى جانبه الأدميرال بوندكستر ووليم كيسي الذين تم السماح لهم بتجاوز الكونغرس وزعزعة الدكتاتورية الماركسية هناك وتهديد حديقتهم الخلفية نيكاراغوا من دون أن يكلف ذلك دافع الضريبة الأمريكي ستاً واحداً.

وخلال الأسابيع القليلة التي استقر فيها فريق العمل الجديد انهارت المفاوضات بين واشنطن والقدس وطهران. في 12 كانون الثاني 1986، وللمرة الأولى منذ اندلاع الحرب العراقية الإيرانية نزل الباسدران على ظهر السفينة "الرئيس تايلر" التي تحمل العلم الأمريكي وفتشها في مضيق هرمز. وبعد تفتيشها تماماً، تم السماح للسفينة بمواصلة سيرها، ولكن تم تحذير السلطات الأمريكية: سوف لا تتردد طهران في مهاجمة المصالح الأمريكية في الخليج إذا علقت الولايات المتحدة إرسال الأسلحة. فهتمت واشنطن الرسالة واستأنفت شحنات الأسلحة، ولا سيما أنها تعمل الآن من دون وسطاء. في شهر شباط وصل إلى طهران ألف صاروخ تاو وكميات كبيرة من المعدات وقطع الغيار لصواريخ هوك برحلات جوية مؤجّرة مباشرة من المخابرات المركزية الأمريكية. ومع ذلك، رفع الإيرانيون رهانهم لانزعاجهم من تأجيل الأمريكيين للشحنات ورفضوا إطلاق سراح رهائن آخرين، وطالبوا بإرسال صواريخ أكثر، وإطلاق سراح السجناء الشيعة في الكويت وخمسين مقاتلاً لحزب الله تحتجزهم إسرائيل في جنوب لبنان. شعرت السلطات الإسرائيلية بالارتياح بهذه الفرصة للعودة إلى المفاوضات وإعادة فرض نفسها وسيطاً لشحن الأسلحة. وطلب الإيرانيون من الأمريكيين تزويدهم بمعلومات عن خطوط القتال العراقية.

ولكن تعقدت المناقشات نتيجة للغارة الأمريكية على ليبيا حليفة إيران. في 15 نيسان 1986 قصفت خمسون طائرة من القوة الجوية الأمريكية وطائرات البحرية عدة أهداف رمزية للنظام الليبي (عملية وادي الدورادو) بعد أن أمرت ليبيا بتفجير نادٍ ليلي في برلين حيث قُتل

عددٌ من العسكريين الأمريكيين. بعد يومين، تم إعدام الرهينة الأمريكي بيتر كليبرن والرهينتين البريطانيتين جون دوغلاس وفيليب بادفيلد في لبنان. ومن أجل تخفيف التوتر، سافر نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش إلى الكويت؛ للضغط على السلطات لإطلاق سراح بعض السجناء الشيعة المحكومين بالإعدام؛ بسبب الهجمات الإرهابية في كانون الأول 1983. وأقنع أمير الكويت بالموافقة على عدم إعدامهم، ولكن ذلك لم يكن كافيًا لإقناع الإيرانيين العودة إلى طاولة المفاوضات. أمّا الأدميرال بوندكستر؛ فقد بذل كلَّ جهوده للسماح بإرسال 500 صاروخ تاو إلى طهران، وهذه المرة من خلال شبكة السلاح الإسرائيلية. وشكّل فريقًا مصغرًا من الخبراء الأمريكيين وأرسلهم إلى العاصمة الإيرانية؛ للتفاوض مباشرةً لإطلاق سراح الرهائن خارج قبضة منوشهر غوربانفر. ومنح الفرصة للمستشار الذي سبقه روبرت ماكفارلن للعودة إلى القضية بتعيينه رئيسًا لفريق التفاوض.

كان هؤلاء أوائل ممثلي الحكومة الأمريكية الذين سافروا إلى إيران منذ قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. في 25 مايس 1986، التقى فريق الخبراء المصغر مع ممثلي الحكومة الإيرانية في طهران ممّا أصاب الإيرانيين بالدهشة؛ لأنّهم لم يتوقعوا رؤية الوفد الأمريكي يظهر في بلدهم. تجمّدت المفاوضات بينما كان الإيرانيون المعاندون يحيلون كلَّ مقترح أمريكي إلى رؤوسائهم. ونظرًا لانزعاجه من ضياع الوقت، حشر مستشار الأمن القومي السابق الإيرانيين في الزاوية: إمّا إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين مباشرةً كعلامة حسن نية أو مغادرة الوفد الآن. برهنت الحكومة الإيرانية على عدم قدرتها على إطلاق سراح الرهائن في ساعات قليلة، وعاد الوفد الأمريكي إلى واشنطن خالي اليدين⁽¹⁾.

ومع ذلك، لم ينقطع الحوار، واستمرّت المفاوضات بوتيرةٍ أسرع. في 26 تموز تم إطلاق سراح الأب جنكو في بيروت. وبعد أسبوع أرسلت الحكومة الأمريكية دفعةً من قطع الغيار المطلوبة التي مكّنت الجيش الإيراني من إعادة قرابة مئة صاروخ هوك إلى الخدمة من

1 - أوضح جورج كيف George Cave في مقاله الرائعة المعنونة

" Why Secret US-Iran Arms for Hostages Negotiations Failed," Washington Report on Middle East Affairs (Sept-Oct. 1994),

وهو أحد أعضاء الوفد المفاوض معلومات مفصلة عن المناقشات التي جرت في طهران من يوم 25 حتى يوم 28 مايس 1986.

جديد. وفي أواسط أيلول سافر وفدٌ إيرانيٌّ سرًّا إلى واشنطن؛ لإجراء مناقشات أخرى استمرت لاحقًا بألمانيا في شهر تشرين الأول. بعدها أرسلت الولايات المتحدة دفعةً أخرى عبارة عن 500 صاروخ تاو إلى إيران في 28 تشرين الأول، ما أدى إلى إطلاق سراح ديفيد جاكوبسن في بيروت بتاريخ 2 كانون الأول بعد قضائه سنةً ونصف السنة في الأسر، وكان آخر الرهائن الذين أُطلق سراحهم خلال الحرب، ففي اليوم التالي أصبحت فضيحة إيران - كونترا خبرًا عالميًا، ممَّا وضع الإدارة الأمريكية في وضعٍ حرجٍ إلى حدٍّ كبير. فخلال خمسة عشر شهرًا تمكَّنت الولايات المتحدة من تحرير ثلاثة رهائن (من أصل خمسة) مقابل إرسال 2,500 صاروخ تاو، وما يساوي 300 صاروخ هوك.

تضارب المصالح في طهران

لماذا شغلت القضية عناوين الأخبار في لحظة تبدو فيها المفاوضات تصل إلى حلٍّ مناسب، والجيش الإيراني في النهاية حصل على ما يريد من الصواريخ التي كان يحاول الحصول عليها لعدة لسنوات؟ ببساطة، هناك أفراد مشخَّصون في طهران قد عملوا تسريبات لإفشال المفاوضات. إنَّ التقارب بين إيران والولايات المتحدة أثار قلق أعضاء الجماعة الإيرانية التي تدعو إلى الاعتماد على النفس والاكفاء الذاتي. وكانوا غير مرتاحين وهم يرون الجمهورية الإسلامية تقترب أكثر من سلطة الوصاية السابقة. كانت هذه الجماعة بقيادة علي خامنئي وآية الله منتظري، وآخرين قلائل. وكان أيضًا يلاحظ أنَّ هذا التقارب عزَّز من مكانة رفسنجاني ووضعته في فرصة في السباق إلى خلافة المرشد الأعلى. فمن جانبهم، من المهم جدًا لهذا لوأد هذا الفتح مع الولايات المتحدة. هل كانت مجرد صدفة محضة أن يتم تشخيص مهدي هاشمي، نسيب آية الله منتظري لاحقًا كمصدر للتسريبات التي سمحت لمجلة "الشراع" نشر هذا السبق الصحفي؟ ولذلك؛ اعتقل هاشمي بناءً على اتهامات سطحية، وحُكِم سرًّا، وأُعدم بجريمة الخيانة العظمى التي همَّشت منتظري لاحقًا، وجعلته خارج السباق لخلافة آية الله الخميني. ومن الطبيعي، كان آية الله يعرف تمامًا مبادلة "السلاح مقابل الرهائن" وشملها بسلطته المعنوية.

وبالنسبة إلى الفضيحة نفسها، لم يكن للبيت الأبيض من خيار سوى وضع نهاية لمحاولة التقارب مع إيران، وإعطاء الأمر لإسرائيل باتباعه. وسُلط الضوء أيضًا على دور الحكومة الإسرائيلية بصفقتها وسيطًا، مما عقّد الوضع الجيوسياسي لواشنطن. لقد باع الإسرائيليون لإيران ولحسابهم الخاص ألف صاروخ تاو، وانزعجوا لخسارتهم احتمال بيعهم صواريخ غابرييل المضادة للسفن ومئة طائرة مقاتلة - قاصفة طراز Skyhawk القديمة أرادت التخلص منها. إذن، وحالما أصبح الأمريكيون تحت الضغط، فما على الإسرائيليين إلا الطاعة، ولا سيّما أنهم كانوا يحاولون التحرك للتخلص من قضية الجاسوس بولارد التي سممت العلاقة مع الولايات المتحدة. فقبل أشهر قليلة تم الإمساك بالمحلّل اليهودي جونثان بولارد الذي يعمل لحساب وكالة المخابرات البحرية الأمريكية وهو متلبس بنقل معلومات عالية السرية إلى وكالة المخابرات الإسرائيلية⁽¹⁾. أعلن إسحاق شامير "القائد" الذي انتُخب مؤخرًا رئيس وزراء لإسرائيل "أنّ الحرب بين العراق وإيران ليس أقلّ من حماقة... وأنّ العراق وإيران كلاهما أعداء أشداء لبلدنا. إنّنا نساند بقوة جهود أمريكا لمنع هذه الحرب القبيحة من الامتداد"⁽²⁾. أمّا في واشنطن؛ تم نقل مسؤولية المفاوضات المتعلقة بالرهائن من مجلس الأمن القومي والبيت الأبيض وأعيدت إلى وزارة الخارجية. أخيرًا، حصل جورج شولتز على ثأره، على الرغم من أنّه لم ينجح في تحرير الرهائن.

أمّا الإيرانيون؛ كانوا غاضبين جدًّا، وخلال أسابيع قليلة تم اختطاف أمريكيين آخرين في بيروت، ممّا رفع عدد الأمريكيين المختطفين إلى ثمانية وجعل الحكومة الأمريكية تشعر بالمرارة؛ لأنّها خدعت. إنَّهم عادوا إلى المربّع الأول. لقد توصلّ الرئيس ومستشاروه إلى خلاصة أنّه من الآن فصاعدًا عليهم أن يكونوا أكثر تصلُّبًا، وكلّما أمكن ذلك مع إيران، وليس التراجع عن المواجهة معها، وبضمنها المواجهة العسكرية إذا دعت الضرورة لذلك.

1 - فقد حُكّم على جونثان بولارد بالسجن مدى الحياة لاتهامه بالخيانة العظمى، ولا يزال يقضي تلك العقوبة بالسجن. بقيت قضية مصدر نوثر بين واشنطن والقدس.

2- Joseph Alpher, "Isreal and the Iran-Iraq War," in Afraim Karsh, ed., The Iran-Iraq War, 161.

حصيلة كارثية لواشنطن

في بغداد تفجّر صدام حسين غضبًا ضدّ الأمريكيين متهمًا إيّاهم بمزدوجي التعامل. ونادى رونالد ريغان ودونالد رامسفيلد بكلّ اسم تحت الشمس، كما نسمع من تسجيلاته المسجّلة بشكل منتظم لكلّ محادثاته. وفي نهاية العام 1985 أصبح أكثر غضبًا حينما عرف أنّ واشنطن سلّمت طهران صورًا للأقمار الصناعية توضّح الانتشار المفصّل للقوات العراقية على طول الجبهة، ممّا ساعد إيران على الاستيلاء على شبه جزيرة الفاو. ومع ذلك، بقي الرئيس العراقي براغماتيًا. فقد أدرك أنّ عليه أن يغزل مع البيت الأبيض في هذا الوقت بهدوء ما دام الكرملين قد أدار ظهره له، وأنّ الأوروبيين يعارضون بيع الأسلحة له مستخدمين عدم قدرة البلد على الإيفاء بديونه ذريعةً لذلك. وبوصفه سياسيًا داهية قرّر أن يُشعر محاوريه الأمريكيين بالذنب وطلب منهم زيادة مساعداتهم المالية وتعاونهم التقني. أعطى الأمريكيون المرتبكون أصلًا للعراقيين معلومات استخبارية أكثر ممّا مكنهم من تنقية تصورهم عن خطوط الجبهة الإيرانية. وأغمضوا عينيهم عن استعمال العراق بكثافة للأسلحة الكيماوية. وأخيرًا، فقد اعترف والتر لانغ - الضابط السابق في وكالة استخبارات الدفاع الأمريكية - أنّ هذه الوكالة ترى أنّ "استخدام الأسلحة الكيماوية ضدّ أهداف عسكرية ينظر إليها أمرًا حتميًا لكفاح العراق من أجل البقاء"⁽¹⁾. أصبح الاعتقاد السائد في واشنطن أنّ فضيحة إيران - كونترا قد استنفدت مدياتها، فقد تمكّن رونالد ريغان من إنقاذ نفسه وتجنّب إجراءات الإقالة. ومع ذلك، وجّهت لجنة تاور الانتقاد له؛ لأنّه لم يمارس سيطرة كافية على نشاطات مستشاره للأمن القومي. ولم يتخوّف أيضًا الأدميرال بوندكستر ولا كاسبار واينبرغر وزير الدفاع؛ لأنّهم أُجبروا على الاستقالة. أمّا روبرت ماكفارلن؛ فهو العقل المخطّط لهذه القضية، الذي حاول الانتحار، ولكن عُوقب بوضعه تحت المراقبة لمدة سنتين لإساءته استخدام السلطة. وحينما انتخب جورج بوش الأب الذي كان نائبًا للرئيس في أثناء فضيحة إيران - كونترا، أعاد تأهيل الرجال

1- Patrick Tyler, "Officers Say US Aided Iraq in War Despite Use of Gas," New York Times, August 18, 2002.

الثلاثة، بل وعيّن جون بوندكستر للعمل معه. أمّا وليم كيسي؛ فقد تخلّص من النقمة العامة عليه بموته بمرض السرطان في يوم 6 مايس 1987، أي قبل عدة أيام من ظهوره المخطط أمام الكونغرس، وجُعل بوليم وبستر بدلاً منه مديراً للمخابرات المركزية الأمريكية. وأدين أوليفر نورث بثلاث جنایات للكذب على الكونغرس وإعاقة العدالة، وحُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ، لكنّ التهم أُلغيت بعد سنتين، وتحرّر منها ليحاول تجريب حظه بوصفه أحد السياسيين المحافظين الجدد، ثمّ أصبح من المؤلفين الأفضل تسويقاً.

وعلى هامش هذه القضية، سلّط القضاء الأمريكي الضوء على شبكات التهريب المربحة المرتبطة بطهران، وإحداها تتخذ من حاملة الطائرات الأمريكية Kitty Hawk المرابطة في الخليج مقراً لها، حيث نظم أحد المتابعين شبكة تقوم باختلاس قطع غيار طائرات Tomcat والمعدات الإلكترونية وإرسالها إلى إيران من طريق شركة استيراد وتصدير في نيويورك، وشركة لتجارة القذائف في لندن⁽¹⁾. وهذه المعدات التي تُقدّر قيمتها سبع ملايين دولار تم نقلها من حاملة الطائرات أعلاه في أثناء توقفها في نيويورك، وبيعت بصورة وهمية إلى شركة استيراد وتصدير التي قامت بشحنها إلى لندن، ومن هناك إلى طهران بوثائق مزورة. وقد وجد أن أعضاء هذه الشبكة مذنبون وتم الحكم عليهم بالسجن المؤبد.

أمّا بالنسبة إلى الرهائن الأمريكيين؛ فما زالوا أسرى في لبنان⁽²⁾، وانتظروا تحريرهم حتى العام 1991 حينما تم إطلاق سراح المحتجزين الشيعة الذين تورّطوا بالهجمات "الإرهابية" في الكويت وأوروبا، وضدّ الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان، وانتهاء الحرب الأهلية اللبنانية، وإعادة هبة الشيعة، وتشجيع الرئيس الإيراني رفسنجاني علانية إعادة الاستثمارات الغربية في بلده.

1- Tom Cooper and Farzad Bishop, Iran-Iraq War in the Air, 1980-1988 (Atglen, PA: Schiffer Publishing, 2000), 225.

2- الرهائن المتبقون هم: إدوارد تريسي، وفرانك ريد، وجيسي تورنر، وجوزف سيسبيو، وتوماس ساذرلاند، وآلان ستين، وروبرت بوهيل، وتيري أندرسون.

أمّا الرهينة الأمريكي الثامن William Higgins وهو مقدم في فيلق البحرية ويخدم كمراقب عسكري في منظمة مراقبة الهدنة التابعة للأمم المتحدة في جنوب لبنان (UNTSO) في وقت وقوعه في الأسر؛ فقد نُفذ أسره حكم الإعدام به أثناء فترة أسره.

الفصل السادس والعشرون

الهجمات الشاملة

في أواخر عام 1986 هبّ الإيرانيون هجوماً آخر يهدف لإرْكَاع صَدَّام حسين على قدميه. استهدف الإيرانيون البصرة؛ لأنَّ بغداد بقيت خارج مدى أسلحتهم آنذاك. كان القادة الإيرانيون يعتقدون أنَّ النظام البعثي لا يتحمَّل خسارة ثاني أكبر مدن العراق، ويأملوا أنَّ سقوط البصرة سيكون إيذاناً بحدوث تمردٍ شيعيٍّ في جنوب العراق. حشدوا 360 ألف جنديٍّ بالقرب منها موزَّعين على ثلاث عشرة فرقة (عشر للمشاة، واحدة للمغاوير، واحدة مدرعة، وأخرى للمدفعية)، فضلاً عن 40 ألف منتشرين في جيب الفاو. لقد تأجَّل الهجوم لعدَّة مرات؛ بسبب الجدال بين الجيش النظامي والباسدران حول طريقة الهجوم. اقترح الجنرال شيرازي عملية مناورة واسعة المدى لتطويق المدينة التي يعدُّها آمنَّةً وأقلَّ كلفةً، على الرغم من أنَّها من المؤكَّد تستغرق وقتاً. أمَّا محسن رضائي الناطق باسم الباسدران؛ فقد اقترح هجوماً مباشراً على البصرة من الجبهة، وعلى الرغم من أنَّه مكلف لكنَّه أسرع.

كان عامل الوقت حسَّاساً؛ لأنَّ آية الله الخميني أصدر مؤخراً فتوى طلب من القوى المسلَّحة هزيمة العراق قبل 21 آذار 1987، أي قبل عيد نوروز الذي يمثل رأس السنة الفارسية. هذه الخطوة غير المعتادة من المرشد الأعلى تهدف بوضوح إلى حثِّ القوات، ولكن أيضاً للضغط على رفسنجاني إمَّا أن يكسب الحرب أو التفاوض، ولا سيَّما أنَّ الحرب

قد طالت كثيرًا، وأنَّ تمديدها سيصبح غير نافع. لقد ترسّخت سلطة الملالي بقوة الآن على مجتمع مفكّك، ولكن لم يعد يملك الوسائل لمنافسة قبضة رجال الدين على الشؤون العامّة. وتمّ قمع أحزاب المعارضة وكتبها، والحركات الانفصالية الكردية والأذرية والبلوشية قد تم إسكاتها كذلك. والسلطات بحاجة إلى الأموال لتلبية حاجات السكان ولضمان السلم الأهلي. واستمرار الحرب أفقر إيران، لذلك من الضروري إسقاط صدام الآن.

الهجوم على البصرة

بعد لقاءٍ ساخنٍ لمجلس الدفاع الأعلى، فرض رفسنجاني فكرة هجوم مباشر من الجبهة على البصرة. وسيكون الهجوم على مرحلتين: تعبر القوات شطّ العرب من خور مشهر لمهاجمة المدينة من الخلف، ثم تزحف من الجنوب، بينما يكون الهجوم الرئيس يأتي من الشلامجة والحسينية على طول الضفة الشرقية للنهر. في ليلة 24 و25 كانون الأول 1986 بدأ رفسنجاني عملية "كربلاء 4". عبرت الفرقة مشاة 21 - التي أُعيدت تسميتها باسم "النبى محمد" - النهر ونزلت في جزيرة أم الرصاص وعلى الجزرات الصغيرة البريم، طويلة، وفياض. كان قائد الفرقة الجنرال محمد خوساري وبدعم من فرقة الهندسة الـ 41. اندفع رجال مشاته مباشرةً ضدّ القوات العراقية التي حصدهم دون رحمة ببنادقها الآليّة والهاونات. وعند الفجر وجد الإيرانيون صعوبةً في التقدّم، لكنّ الجنرال خوساري كان يدرك أهمية المهمّة وأمر بنشر تعزيزات إضافية. وخلال ستّ وثلاثين ساعةً نزل أكثر من ستّة وثلاثين ألفًا من الباسدران على موطئ القدم الإيراني. لم تدّخر القيادة العسكرية العراقية العليا وسعًا وأمرت قوتها الجوية بتدمير الجسر الذي أُقيم على شطّ العرب. وعهدت بالهجوم المعاكس إلى الفيلق السابع الذي كان آنذاك يدافع عن جبهة الفاو. أمّا الجنرال ماهر عبد الرشيد حليف عائلة صدام حسين الآن؛ كان في قلب المهمّة. قاد الفرقة المدرعة السادسة في مناورة التفافية واسعة، ما أدّى إلى سحق الجنود الإيرانيين المنتشرين على ضفة النهر، بينما تركت بعض فرق الفيلق السابع مواضعها لمسافة 12 ميلًا (20 كيلومترًا) لتفجير موطئ القدم الإيراني.

دار قتالٍ شرسٍ خلال ثمانين وأربعين ساعةً، ولا سيَّما أنَّ العراقيين يدركون أنَّ مصير البصرة بأيديهم، ويبدو أنَّ لا شيء يمكن إيقافهم. في يوم 27 كانون الأول كان الجنرال عبد الرشيد لا يزال يسيطر بشكلٍ كاملٍ على المنطقة، حيث تمكَّن مقاتلوه من سحق الجيوب المتبقية من المقاومة واستعادوا السيطرة على جزيرة أم الرصاص والجزرات الثلاث الصغيرة المجاورة. وخلال اثنتين وسبعين ساعةً تمكَّنوا من قتل ثمانية آلاف إيراني وأسرتين فقط. أمَّا الآخرون؛ هرعوا عائدين لعبور النهر. وبالمقارنة، كانت خسائر العراقيين قليلة: ثمانمئة قتيل وألفا جريح. كان الجنرال عبد الرشيد المتوقد بالفخر بهذا الانتصار المدهش يتبجَّح أمام منافسيه الذين غالبًا ما انتقدوه لتجاوزه القيادة العسكرية العليا، ويحصل مباشرةً على دعم صدام. ولذلك؛ لم يكن الدكتاتور في موضع للشكوى؛ لأنَّ ماهر عبد الرشيد سلَّمه للتو نصرًا مؤزرًا الذي بدأ على الفور الإشارة إليه "بمعركة اليوم العظيم".

ومن جانب آخر في طهران، أخذت الانتقادات تنهال على رفسنجاني من كلِّ الجهات، ومن بينهم علي خامنئي، آية الله منتظري، والجنرال نجاد رئيس أركان القوات المسلَّحة السابق. وحتى آية الله الخميني أخذ يفكر بإزاحة رفسنجاني بوصفه قائدًا للقوات المسلَّحة، ثمَّ التفكير بأفضل منه. كان آية الله الخميني المعتل الصحة بحاجة إلى رجل يعتمد عليه كرجل دين يستطيع الاستمرار بالمسيرة في السراء والضراء، وعلى الأقل طوال استمرار الحرب. وأنَّه يدرك أيضًا أنَّ الباسدران (الحرس الثوري) لا يتسامح إذا ما أبعده رفسنجاني عنه، ولا سيَّما أنَّ الباسدران القوة الأكبر تأثيرًا في البلاد. ولذلك؛ كان الناطق باسم البرلمان قادرًا على متابعة خطته الأولية للهجوم على البصرة. ولوحده وعلى خلاف بقية عناصر النظام، خاطر بحشد كلِّ ما يتوافر لديه من مقاتلين للتوجُّه للمعركة. كان يدرك أنَّ مستقبله السياسي يعتمد عليها، وأنَّ القتال سيكون شاملًا ودون رحمة. وسادت العبارة الوحيدة: هزيمة العدو مهما كان الثمن. وبينما كانت معركة خورمشهر في العام 1982 غالبًا ما تُقارن بمعركة ستالينغراد فإنَّ معركة البصرة في مطلع العام 1987 يمكن ربطها بسهولة مع معركة فردان: لاستمرارها لشهور عدة، ولأنَّ طرفي القتال يتبعون من خلال المواجهة الجهنمية أفضل ما في بلدانهم وأكثرها تألقًا إلى الخنادق الموحلة.

معركة "أم المعارك"

في يوم 8 كانون الثاني 1987 شنَّ أكبر هاشمي رفسنجاني هجوم "كربلاء 5" في قاطع شرق البصرة، وعبر بحيرة الأسماك والقناة الصناعية. فمُنذ العام 1984 وسَّع العراقيون خطوطهم العسكرية هناك إلى حدِّ كبير. وما عدا حقول الألغام المتتالية، والخنادق المضادَّة للدبابات، والأسلاك الشائكة، والتمارين، والغرف المحصنة تحت الأرض، والخنادق؛ تمكَّن المهندسون العسكريون من بناء جسرٍ منحنيٍّ حول الجسور التي تربط البصرة بالضفة الشرقية لشطِّ العرب عند مدينة التنومة. واستكملت هذه الإجراءات بنظام إنذار إلكتروني مبكَّر قادر على تشخيص المهاجمين. كان طالع الدوري قائد الفيلق الثالث يملك ثلاث فرق في هذا القاطع: فرقة المشاة الثامنة إلى الشمال من بحيرة الأسماك؛ والحادية عشرة مشاة ما بين الرأس الجنوبي لبحيرة الأسماك وشط العرب، والآلية الخامسة بالقرب من التنومة. أمَّا فرق المشاة الأربع الباقية والفرقة المدرعة الثالثة؛ تنتشر إلى الشمال قليلاً على الجانب الآخر من القناة الاصطناعية. في حين كانت عدة فرق من الحرس الجمهوري قوات خاصَّة، وعدة ألوية من الجيش الشعبي تحمي مدينة البصرة والضفة الشرقية لقناة البصرة - أم قصر.

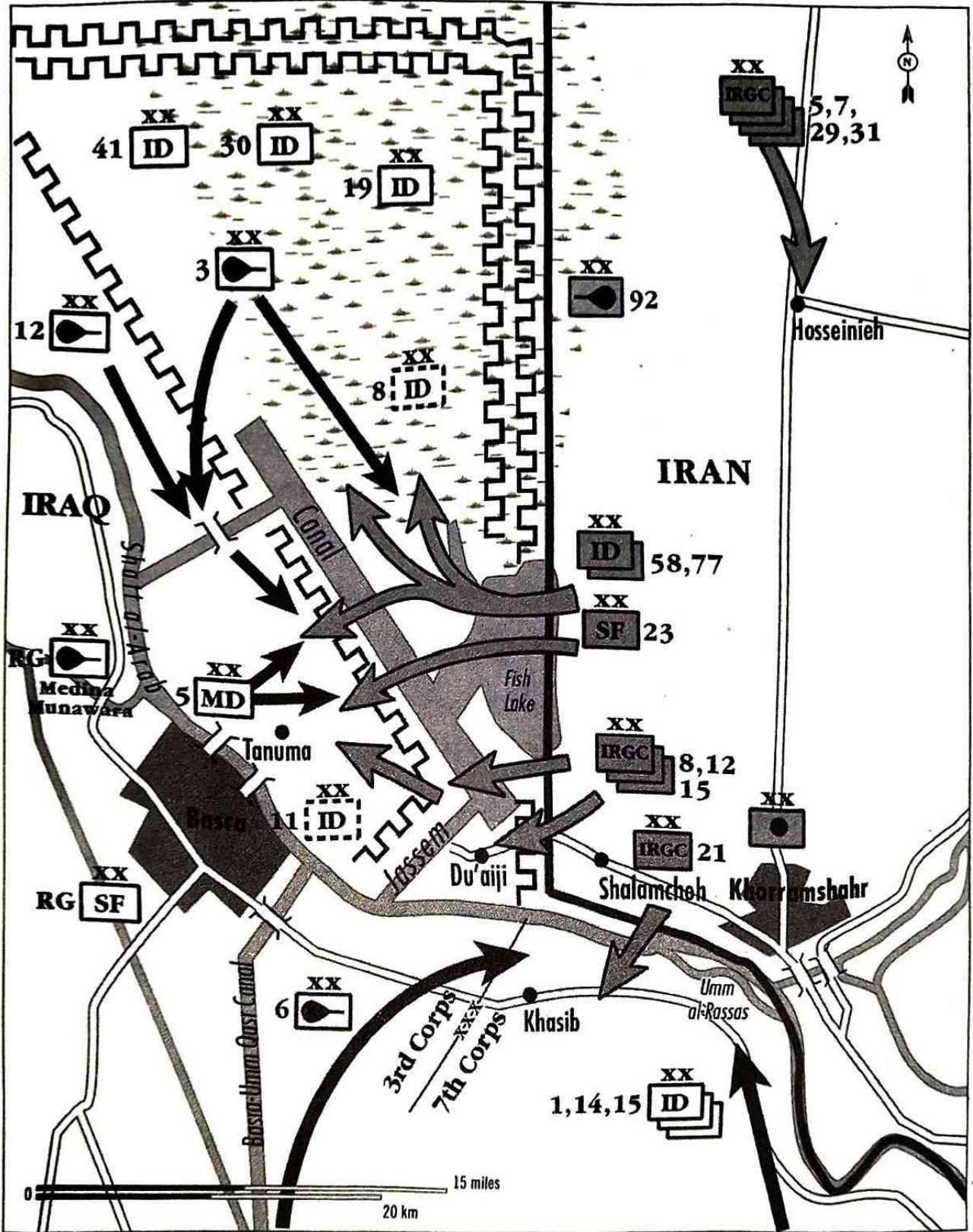
وعند الغسق اشتبكت الفرقة المدرعة 92 الإيرانية مع الفرقة الثامنة العراقية؛ بهدف دكِّها في مكانها على الحدود. وبحلول الليل عبرت الفرقتان 58 و77 بأسدران بحيرة الأسماك بوساطة القوارب المسطَّحة القاع ونزلوا على الضفة الأخرى وفي وسط الأهوار؛ بهدف مهاجمة الفرقة الثامنة من الخلف، ومن هناك استمروا نحو القناة الاصطناعية. وحينما أنجزت هذه المناورة، بنى الباسدران جسرًا مطاطيًا عبر القناة وتثبيت موطع قدم بعرض نصف ميل (كيلومتر واحد) على الضفة المقابلة إلى الشمال من التنومة. وبالتزامن عبرت الفرقة 23 قوات خاصة بحيرة الأسماك وأقامت موطع قدم ثانيًا مقابل التنومة، وبذلك، أصبحت هدف الهجوم العراقي المعاكس بقيادة الفرقة الآلية الخامسة.

وفي غضون ذلك، وإلى الجنوب هرعت ثلاث فرق من الباسدران لمهاجمة منطقة مربعة وصغيرة تبلغ خمسة أميال مربعة (12 كيلومتراً مربعاً) بمحاذاة شط العرب إلى الجنوب من بحيرة الأسماك ونهر جاسم على بعد 12 ميلاً (20 كيلومتراً) إلى الشرق من البصرة. وعلى الرغم من أن العراقيين كانوا يتوقعون ذلك الهجوم وتهيئوا له فإنهم تفاجؤوا بأعداد جنود العدو: 40 ألف مقاتل، وأغليبتهم لم يبلغ سنّ الرشد وسحقوا دفاعاتهم. عند الفجر تراجعت الفرقة الحادية عشرة إلى خطّها الدفاعي الثاني المقام على بعد 1,8 ميل (3 كيلومترات) إلى الخلف بالقرب من قرية الدعيجي. وحشد قائد الفرقة الجنرال عبد الواحد شنان قواته هناك ونشر آخر لواء لديه.

وخلال ثمان وأربعين ساعة شنّ العراقيون هجومهم المضادّ وبمعداتهم المحدودة تحت تصرفهم. وأجبرت الغيوم الكثيفة قوتهم الجوية على الطيران على ارتفاع منخفض، وأصبحت عرضة للدفاعات الإيرانية المضادة وإسقاط خمس طائرات مقاتلة، بينما تم تدمير طائرة Tu-16 فوق الشلامجة بصاروخ هوك. تقدّم الباسدران في كلّ الاتجاهات، ففي الشمال تم تطويق الفرقة الثامنة ثمّ انهيارها وأسر قائدها الجنرال إبراهيم إسماعيل. وفي الجنوب تمكّن الإيرانيون من التغلب على خطّ الدفاع العراقي الثاني والاستيلاء على الدعيجي.

وفي 11 كانون الثاني سمح الجنرال الدوري بسحب الفرقة 11 إلى ما وراء نهر جاسم الذي يربط بحيرة الأسماك بشطّ العرب. ويشكل هذا النهر خطّاً دفاعياً طبيعياً الذي أجبر الباسيج على التوقف. وبذلك، أصبحت مقدمات القوات الإيرانية الآن على بعد عشرة أميال (16 كيلومتراً) من البصرة، أي بمدى المدفعية الإيرانية. أمّا صدّام حسين المنفعل جدّاً لأنّ الجنرال الدوري؛ أمر بالانسحاب من دون أن يسمح له ممّا أدّى إلى تجريده من قيادة الفيلق الثالث. وعلى الرغم من أنّ الدكتاتور سامح الدوري كثيراً لأخطائه السابقة فإنّه بحاجة الآن إلى شخصية كفوءة بحق؛ للإشراف على دفاعات البصرة. ولذلك؛ عين الجنرال الشيعي ضياء الدين جمال بدلاً منه الذي كسب ثقته، وأقسم أنّه يفضّل الموت على أن يجعل مدينته تسقط بأيدي الإيرانيين.

وأعطى صدّام حسين أوامره العملية للجنرال جمال ودون حضور الجنرال ذنون الذي أغاضه هذا الموقف وإلى توتر الوضع، ممّا أدّى بصدّام إلى إقالة رئيس الأركان للقوات



خارطة معركة البصرة (25 كانون الأول 1986 - 11 نيسان 1987)

المسلحة وطلب من بطانته ترشيح شخص لاستبداله. في هذه الظروف، لا يوجد ضابط يرغب بالمنصب، ولم يتطوع أي من أعضاء القيادة العسكرية العليا أيضًا. في النهاية اختار صدام غيبيًا الجنرال صلاح الدين عزيز الجنرال المتقاعد الذي نصحه مستشاروه بتعيينه. كان الجنرال عزيز عقلاً وناال تدريبه العسكري ببريطانيا. وقد أثبت كفاءة في موقفه من الكرد في مطلع سبعينيات القرن الماضي وترك الحياة العسكرية قبل أشهر من اندلاع الحرب بين العراق وإيران. وحينما أُعيدَ إلى الخدمة فقد استُقبلَ مباشرةً من الرئيس الذي رَقاه إلى منصبه الجديد. وفي اليوم التالي سافر صدام حسين وعدنان خير الله والجنرال عزيز شخصيًا إلى البصرة لتقييم الوضع. أجاز الدكتاتور العراقي استخدام الأسلحة الكيماوية، وقرَّر إرسال فرقة الحرس الجمهوري المدرَّعة "المدينة المنورة" للاشتراك في المعركة. ولتوقُّعه سقوط البصرة، أمر بإخلاء سكانها وطلب من جنرالاته بناءً خطَّ دفاعي ثانٍ على نهر الفرات لمنع الإيرانيين من التقدم نحو بغداد.

وفضلاً عن ذلك، أعاد الرئيس العراقي في 12 كانون الثاني إشعال "حرب المدن" في محاولة غير عادية لمعاينة الحكومة الإيرانية، وعدم تشجيعها على الاستمرار في هجومها على البصرة. وتم توجيه القوة الجوية العراقية لترك مهمات الدعم في المعركة ومهاجمة التجارة النفطية في الخليج لقصف ثلاثين مدينة إيرانية بضمنها طهران، قم، وأصفهان. وعلى الرغم من بُعد هذه المدن عن الجبهة، تعرَّضت هذه المدن الثلاث إلى الغارات لعدة أسابيع بطائرات الميغ-25 المحوَّرة لمثل هذه المهمات. أسقطت طائرة ميغ-25 فوق أصفهان في 15 شباط 1987. وأطلق العراقيون عدة صليات من صواريخ سكود على دزفول، أصفهان، وكرمنشاه. ردَّ الإيرانيون على الفور بإطلاق صواريخ أوغاب على المدن القريبة من الجبهة، وصواريخ سكود على بغداد⁽¹⁾. أرسلت كوريا الشمالية مؤخرًا عشرين صاروخ سكود إلى إيران، وكانت تهيأً لشحن ثمانين آخرين بحلول الشتاء. وردَّ الإيرانيون بمدفيعتهم البعيدة المدى بقصف مدن البصرة ومندلي

1 - خلال الفترة الأخيرة من حرب المدن أطلق العراقيون 27 صاروخًا Scud-B، بينما أطلق الإيرانيون 13 صاروخ Scud-B، و81 صاروخ Frog-7 (Oghab).

وخانقين والسليمانية. وكما هو الحال في المشاهد السابقة، حرب المدن ولا سيما حملة القصف الأخيرة لم تهزَّ عزيمة طرفي النزاع.

وفي ليلة 13-14 كانون الثاني 1987 شنَّ الإيرانيون الهجوم "كربلاء 6" في قاطع سومر، وكان الهدف الاستيلاء على مدينة مندلي العائق الاستراتيجي الذي يسيطر على الطريق نحو بغداد، ولكن لإجبار العراقيين على نشر تعزيزاتهم في هذا الاتجاه بشكلٍ خاص، وجعل البصرة أكثر احتمالاً للسقوط، قاد الجنرال شيرازي شخصياً هذا الهجوم، وحشد مئة ألف مقاتل وستمئة دبابة موزَّعة على سبع فرق (الحادية عشرة مدفعية، وفرقتا مشاة 25 و35، والفرقتان الآليتان 40 و84، والفرقتان المدرعتان 81 و88) لهذه المعركة المظلمة. ولأول مرة، استخدمت رئاسة الأركان أيضاً طائرات مسيرة صغيرة "درون" للتخليق فوق خطوط العدو، مما سمح للإيرانيين الحفاظ على طائراتهم للمراقبة الغالية الثمن⁽¹⁾.

أمَّا العراقيون؛ كان لديهم ثلاث فرق للمشاة فقط تواجه خصومهم، والجنرال المسؤول عن القاطع لديه أيضاً ثلاث فرق أخرى ترابط على الحدود ولكن لا يمكنها التحرك من مواضعها دون أن تترك ثغرة واسعة في خطوط الدفاع العراقية. وكانت قواته الاحتياطية العملية تتمثل بفرقة الدبابات العاشرة، وفرقة الحرس الجمهوري المدرعة المعروفة باسم "حمورابي". وخلال خمسة أيام تمكَّن الإيرانيون من التغلب على الدفاعات العراقية والسيطرة على عدة تلال تطلُّ على مدينة مندلي المهجورة، ولكنهم لم يحققوا خرقاً واضحاً. شنَّ العراقيون هجوماً معاكساً بالفرقتين المدرعتين، وللمرة الأولى في أربع سنوات اشتبك طرفا النزاع في معركة حقيقية بالدبابات. وكان للعراقيون اليد العليا على أعدائهم، فالدبابات الإيرانية T-59 و T-69 لا تضاهي دبابات T-72 العراقية، ولا سيما أنَّ طواقم الدبابات الإيرانية كانوا يعانون بمرارة من نقص في التدريب والدوافع، حتى إنَّ بعضهم ربما لم يعرف إطلاق قذيفة من قبل؛ بسبب ما أصبح يُعرف بتقنين السلع النادرة بإيران. ولكن

1 - هذه الطائرات المسيرة "مهاجر" تشبه الطائرات المسيرة التي استخدمتها إسرائيل بنجاح في الحرب اللبنانية 1982-1985، وهي تشبه لعبة أطفال كبيرة مسيطر عليها عن بعد ومزوَّدة بكاميرات قوية. قامت الدفاعات الجوية العراقية بتدمير الكثير منها.

طواقم الدبابات العراقية لم يتمكنوا من الاستمرار في تحقيق النجاح، وتم ضربهم بصواريخ هوك المضادة للدبابات. وفي النهاية، كانت النتيجة خسارة كل طرف منهم مئتي دبابة.

وفي 17 كانون الثاني، دعا صدام حسين جنرالاته الكبار للمجيء إلى بغداد؛ لتنظيم هجوم معاكس الذي بدأ في اليوم التالي في قاطع البصرة. توجهت الفرقة المدرعة الثالثة نحو الأهوار؛ لإعادة السيطرة على الضفة الشرقية من القناة الاصطناعية وعزل رجال المشاة الإيرانيين المتخندقين في الضفة الأخرى عبر البصرة. وفي غضون ذلك، تقوم الفرقة الآلية الخامسة، والفرقة المدرعة الثانية عشرة، وفرقة "المدينة المنورة" للدبابات بتدمير مواطئ قدم العدو التي أقامهما على جانبي التلوة ودفع الإيرانيين وإرجاعهم إلى المياه، حيث إن أغلبيتهم لا يعرف السباحة ليواجهوا الغرق.

في 21 كانون الثاني، حينما بدت الجبهة مستقرّة، خاطب الرئيس العراقي الشعب الإيراني في رسالة رزينة عبر الراديو أعلن فيها التخلي عن ادّعاءاته الأرضية واقترح خطة شاملة للسلام للعراق وإيران. تقوم الخطة على أربعة مبادئ: الانسحاب المتقابل للقوات المسلحة إلى الحدود المعترف بها دولياً، وتبادل الأسرى، والتوقيع سريعاً على اتفاق عدم اعتداء، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكلا البلدين. سافر طارق عزيز إلى موسكو، وطه ياسين رمضان إلى بكين للطلب من السلطات السوفيتية والصينية للضغط على طهران لقبول خطة السلام هذه. وفي هذه المرحلة يبدو أن السوفيت والصين وحدهما القادران على ممارسة النفوذ على النظام الإيراني، ولكن أثبت الإيرانيون أنهم غير مرنين. ودارت أيضاً مفاوضات أخرى تبنتها منظمة التعاون الإسلامي وبلدان عدم الانحياز لكنها كانت دون جدوى أيضاً.

أعلن خامنئي في يوم 23 كانون الثاني أن إيران ترفض أية مفاوضات ما دام صدام حسين باقياً في السلطة. وذهب رفسنجاني إلى أبعده من ذلك حينما صرح أنه مستعدّ لشراء الأسلحة من الولايات المتحدة لدقّ إسفين في العلاقات المعقّدة بين بغداد وواشنطن. وبينما هو في هذه الحالة، زار الجبهة الجنوبية لتفتيش القوات وتشجيعهم على استئناف القتال، وطلب منهم الحسم النهائي للمعارك. وفي خطبة حماسية وصف هذا الهجوم

"أم المعارك كلها"⁽¹⁾. واستدعى أربع فرق باسدران أخرى، وبذلك أصبح لدى الإيرانيين الآن 150 ألف مقاتل جاهزين لعبور نهر جاسم والقناة الاصطناعية للضغط على البصرة. أمّا الجنرال جمال؛ كان يملك 40 ألف مقاتل لمواجهة الخطر الإيراني، ويدعمهم 600 دبابة، و400 مدفع.

وفي 29 كانون الثاني 1987، عبر الإيرانيون المتحمسين جدًا نهر جاسم وسحقوا مواضع العدو أمامهم. كان قائدهم محسن رضائي ينتقل من موقع لآخر لتشجيع قواته، وخلال اثنتين وسبعين ساعة استمرت الموجات البشرية بالتعاقب دون توقف لرمي دفاعات العدو في الماء. كانت الخسائر هائلة، ولكن يبدو أن لا عائق يقف بوجه الإيرانيين. كان الجنود العراقيون يشاهدون الجثث تتراكم أمام بنادقهم الآلية، وتمكّن الإيرانيين من شقّ طريقهم إلى مقدمات الخنادق العراقية باتخاذ جثث جنودهم حائطًا للتغطية على زحفهم، ثم رمي رماناتهم. بعد ذلك واصل الإيرانيون سيرهم وتجاوزوا عائق جثث جنودهم، وأفرغوا مخازن بنادقهم على عدوّهم ودفعهم تدريجيًا عن مواضعهم.

اندفع الإيرانيون في اليوم الأول من شباط نحو نهر جاسم وأجبروا العراقيين على الانسحاب إلى آخر خطّ من دفاعاتهم، وأصبح الإيرانيون الآن على بعد سبعة أميال (اثني عشر كيلومترًا) عن البصرة ويمكنهم رؤية أطرافها وبعض مبانيها. أمّا في طهران؛ كان رفسنجاني مرشحًا لنجاح قواته ويضغط على جنرالاته لنزج كلّ قواته الاحتياطية في المعركة. وحتى الآن لم تكن القوات العراقية محصورة بشدة في المعركة؛ لأنّ القوات المقاتلة توقفت؛ بسبب دفعات من نيران المدفعية العراقية التي ربما تسقط على جنودها. كانت القوة القتالية كثيفةً لدرجة أنّ الميدان الذي يتعرّض للقصف يتغيّر على الدوام. فبعد خمس وعشرين سنةً ما زالت الصور الجوية تكشف عن منطقة مليئة بالحفر. ومن أجل إيقاف الهجوم الإيراني لجأ العراقيون إلى معركة بالغاز السام واستدعوا طائرات اليوشن الثقيلة ذات المحركات الأربعة للتحليق عاليًا فوق ميدان المعركة لرمي علب النابالم المرعبة لحرق

7- سيستخدم صدام حسين التعبير نفسه بعد أربع سنوات للإشارة إلى المعركة بين جيشه وقوات التحالف الدولي التي نشكّلت لتحرير الكويت.

الجنود الإيرانيين. وعلى الجانب الإيراني ومع تضائل الإمكانيات اللوجستية ومحدودية المخزون من القذائف؛ أصبح الباسدران يعتمد فقط على أعدادهم لتحقيق نصرٍ ما.

على أبواب البصرة

وفي الذكرى الثامنة لقيام الجمهورية الإسلامية، خرج آية الله الخميني عن صمته في يوم 11 شباط 1987 وقرن الحرب في خطبة عامة "بالحرب المقدسة التي يجب أن تستمر حتى النصر النهائي ورحيل طاغية بغداد". ودعا الشباب الإيراني للانخراط في الجيش، والتوجه للجبهة دون تأخير؛ لأنَّ العراقيين يصدُّون الهجوم تلو الآخر. وأرسلت التعزيزات الإضافية لمحسن رضائي لتعويض خسائره. ومن الجانب الآخر، أرسلت للجنرال جمال فرقتا مشاة من الفيلقين السادس والسابع؛ لإنعاش رجال مشاته المنهكين.

في 19 شباط كان قائد الباسدران التواق للقيام بهجوم حشد كلِّ قواته من أجل ذلك. ومرةً أخرى كان القتال جهنمياً. ففي البداية نجحت النيران العراقية في إيقاف العدو، ولكن الباسدران والباسيج المتحمسين تمكَّنوا من إحداث خرق في الكثير من الدفاعات العراقية. ولتجنُّب تطويقها، أُجبرت القوات العراقية على الانسحاب إلى آخر خطوطها الدفاعية على بعد خمسة أميال (8 كيلومترات) من البصرة ولحمايتها. وفي بغداد تردَّد الجنرال عزيز حول الخطة التي يجب اتباعها. كان قلقاً من تطوُّر الأحداث، وأثبت أنه غير قادر على التكيُّف مع الحقائق الجديدة التي كشفتها الحرب. ففي الميدان، سافر الجنرال جمال إلى خطوط القتال، وعدَّل فيها وبمساعدة من عدنان خير الله. وبذلك، رفع من معنويات جنوده، وأسرع في إخلاء المدنيين⁽¹⁾. ومخازن ذخيرة الجنرال جمال كانت مليئةً جيداً، ويعتقد أنَّ خطوط دفاعاته غير قابلة للاختراق. وفي 23 شباط أمر محسن رضائي قواته بشنِّ هجومهم على آخر خطوط الدفاع العراقية، لكنَّ العراقيين المتحمسين تمكَّنوا من صدِّ الموجات البشرية الواحدة بعد الأخرى.

1 - خلال شهرين انخفض سكان البصرة من مليون نسمة إلى 150 ألفاً فقط. توجه اللاجئون نحو بغداد وشمال العراق من الطريق المحاذي لنهر الفرات، بينما وصلت التعزيزات العسكرية عبر الطريق المحاذي لنهر دجلة.

كانت دباباتهم كلها وضعت للعمل في صفٍّ متراص لتمزيق المشاة الإيرانيين الذين هاجموا مواضعهم. وفي يوم 26 شباط كان الإيرانيون منهكين ونفذت ذخيرتهم، وأعلنوا انتهاء هجومهم كربلاء 5. تركت طهران قواتها تلتقط أنفاسها لأسابيع قليلة، لكنها كانت كافية لإعادة التنظيم والتعزيز. وأدى هذا التوقف في العمليّات إلى نهاية لقصف المدن الذي راح ضحيته ثلاثة آلاف من الإيرانيين، وألف من العراقيين خلال ستة أسابيع. انتهب صدام حسين فرصة الهدوء المؤقت لتغيير الجنرال عزيز وجعل الجنرال نزار الخزرجي الذي شغل سابقاً منصب قائد الفيلق الأول بدلاً منه. وهذا الضابط اللامع والمتواضع والمحترف جيداً، لكنه صارم تمامًا عند الضرورة. وكان عدنان خير الله الذي عمل على تعيينه يقدر استقامته وموهبته. لقد كان خير الله مقتنعاً أنّ وجود الخزرجي على رأس القوّات المسلّحة سيسمح للعراق بتغيير مسار العمليّات واستعادة المبادرة.

ولأجل استمرار الضغط على العراق، شنت إيران في يوم 3 آذار هجومها "كربلاء 7" في كردستان العراق. وبالتزامن مع ذلك الهجوم، شنّ الجيش التركي عمليةً كبيرةً ضدّ حزب العمال الكردستاني في الأراضي التركية. وأبلغت الحكومة التركية نظيرتها الإيرانية مباشرة أنّها لم تسمح بالاستيلاء على كركوك والموصل. كان رفسنجاني يلعب على الوقت، ويدرك تمامًا أنّ ميزان القوى ليس في صالحه على المستويين العسكري والاقتصادي. ويعلم أنّ تركيا أغضت عينيها عن شحنات الأسلحة التي ما زالت ليبيا وسوريا ترسلها إلى إيران عبر الأراضي التركية. ولذلك؛ سافر إلى أنقرة؛ لتخفيف التوتر ودعا الرئيس إيفرن لزيارة طهران بأسرع ما يمكن. وفي غضون ذلك، تقدّمت الفرقتان الإيرانيتان 28 و46 لمسافة عشرة أميال (15 كيلومتراً) باتجاه راوندوز عبر الأراضي المغطاة بالثلوج، وبالتعاون مع بيشمركة الحزب الديمقراطي الكردستاني. وفي 9 آذار صدرت لهم الأوامر بالتوقّف وهم على مشارف المدينة؛ لأنّ النظام الإيراني لا يريد استفزاز الحكومة التركية دون جدوى، ولا سيّما أنّ البلدين يعملان بجديّة على تجنب الصدام بينهما منذ القرن السابع عشر، وحتى خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومن الحماسة الخروج عن هذه السياسة من أجل فوائد ما زالت موضع جدل كبير.

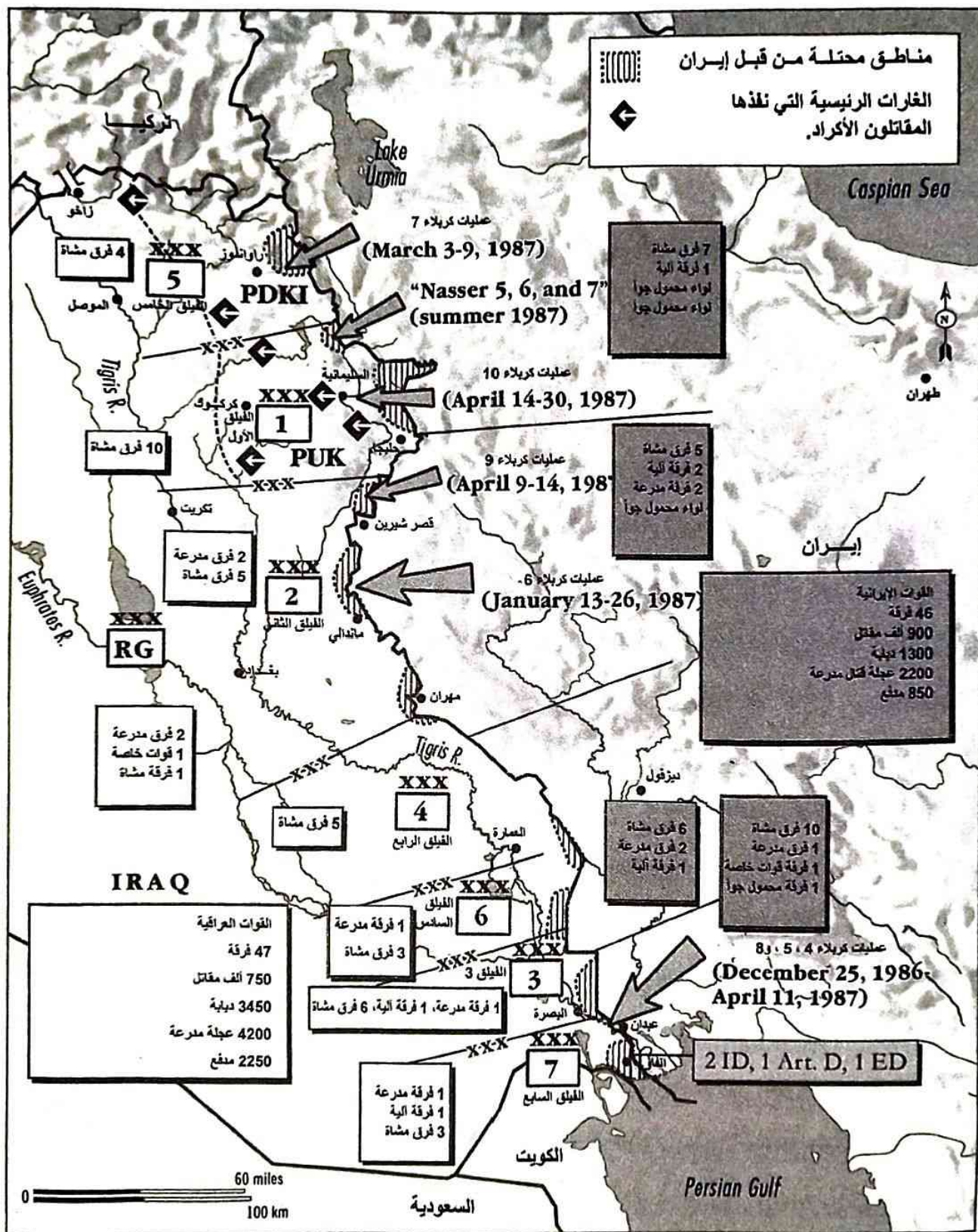
وخلال شهر آذار كانت القوّات الإيرانية تحافظ على حصارها للبصرة وتهيئاً لهجوم الخندق الأخير. كانت تسهيلاتهم اللوجستية تكافح؛ من أجل إيصال تجهيزات الطعام والماء الصالح للشرب والذخيرة للمقاتلين. أمّا العراقيون؛ كانوا يدكّون خطوط العدو بالمدفعية وتعزيز دفاعاتهم. كان صدّام يلمّح بالأسوأ وأعاد طمأنة جنرالاته، قائلاً: "وكقائد أعلى للدولة العراقية، أستطيع القول لكم وبجلاء إنّه حتى إذا سقطت البصرة فإنّ ذلك لم يكن نهاية العالم... سنستمر بالقتال، حتى إن وصلوا إلى أبواب القصر الجمهوري ببغداد، سنبقى نقاتلهم حتى نعيدهم إلى ما وراء الحدود. إنهم منهكون، ما زلنا أقوياء، وسنريح الحرب"⁽¹⁾.

أخيراً، شنت القيادة الإيرانية هجومها "كربلاء 8" في ليلة 6-7 نيسان، حيث حشدت 40 ألف مقاتل باسدران في محاولة لاختراق آخر خطّ دفاعيّ يحمي البصرة. وعلى الرغم من إصرارهم وشجاعتهم فإنّهم فشلوا في ذلك. فالعراقيون خبروا القتال في حالة الدفاع، ولديهم قوة نارية مرعبة تحت تصرفهم. فمضت صواريخ الكاتيوشا والمدفعية الحديثة جدّاً أعاق المهاجمين بعزيمة لا تلين. ففي كلّ مرّة، كان رجال المشاة يتخلون عن مساحة صغيرة من الأرض، تقوم طواقم الدبّابات باسترجاع ما خسروه. واستمرّ سفك الدماء هذا لأربعة أيام. وفي يومي 9 و12 نيسان خرج النظام الإيراني - وعلى عكس مبادئه - واستخدم الأسلحة الكيماوية للمرة الأولى؛ من أجل كسب المعركة. وبحلول الليل، نشرت المدفعية الإيرانية غاز الفوسجين على قاطع قوّات الفيلق الثالث العراقي. لكنّ ذلك أدّى إلى خسائر عراقية محدودة (20 قتيلًا و200 جريح) ولم يكن ذلك كافياً لتحقيق اختراق في خطوط الدفاعات العراقية حول البصرة، ولكن نبهت المخابرات العراقية التي أبلغت صدّام حسين أن إيران طوّرت مفاعلاً لإنتاج غاز التابون في مارفدشت بالقرب من شيراز وبمساعدة من الفنين الكوريين الشماليين⁽²⁾. ردّ العراقيون بنشر غاز الخردل على المهاجمين.

1- من التسجيل الصوتي 634-SH-SHTP-A-000 بتاريخ 28 آذار 1987،

Conflict Records Research Center(CRRC)Project(Washington,DC:National Defence University/Institute for National Strategic Studies).

2- ويمكن أيضًا سماعه من التسجيل 125-SH-GIMD-D-001، بتاريخ 14 نيسان 1987، CRRC Project.



خارطة الجبهة العراقية - الإيرانية في عام 1987

وفي غضون ذلك، شنت طهران هجوماً مضللاً آخر "كربلاء 9" في قاطع قصر شيرين. ولمدة أربعة أيام، قاتلت الفرقتان 25 و84 الفرقة العراقية 21 وسيطرت على أربع تلال استراتيجية تتحكّم بالطريق إلى بغداد. لكن لم تنطلج هذه المصيدة على العراقيين، ومجرد أعادوا تنظيم دفاعاتهم بما يتوافر لديهم من قوات، ودون نشر تعزيزات إضافية.

وفي منتصف شهر نيسان أنهت القوات الإيرانية المرهقة وبمعدنويات متدنية هجومها، ووضعت حدّاً لمعركة البصرة التي استمرت لأكثر بقليل من ثلاثة أشهر، وكبّدتهم خسائر مرعبة: 40 ألف قتيل على الأقل، وضعف هذا العدد من الجرحى⁽¹⁾. وتأثرت قوات الباسدران كثيراً وبشكلٍ خاصّ. فربح ضباطها المتمرسين بالقتال قد قُتلوا في هذه المعركة وبضمنهم الجنرال حسين خرازي الذي تقطّع جسده بانفجار قذيفة عراقية، ممّا أثار الفوضى بين صفوفهم والتراجع إلى مواقعهم والبقاء على حصارهم لمدينة البصرة. حاولت الحكومة الإيرانية التقليل من حجم هذه الخسائر المرعبة بإعلانها أنّها أسرت 1750 مقاتلاً عراقياً (بضمنهم جنرالان وبعض العقدا)، والاستيلاء على 27 ميلاً مربعاً (70 كيلومتراً مربعاً) من الأرض، والمبالغة بحجم الخسائر العراقية: عشرة آلاف قتيل، فضلاً عن تدمير 150 دبابة، وإسقاط عشر طائرات بالدفاعات الجوية الإيرانية (طائرات الهليكوبتر بصورة رئيسة). وعلى الرغم من هذه الخسائر كان صدّام حسين مرتاحاً؛ لأنّ البصرة التي كانت على وشك السقوط قد تم إنقاذها، وهنأ جنرالاته لهذا "الانتصار الناجز" وأسماه "الحصاد الأكبر" للعدد الكبير من القتلى الإيرانيين.

وفي حالة من التطلع للثأر، شنّ الإيرانيون هجومهم "كربلاء 10" في كردستان العراق في 14 نيسان. وأرادوا أن يُظهروا للعراقيين أنّ جيشهم ما زال قادراً على زعزعتهم. ولكن قلبهم لم يعد مع الجيش. وخلال أسبوعين تمكّنت ثلاث من فرقهم وبدعم من آلاف قليلة من بيشمركة حزب الاتحاد الوطني الكردستاني أن يكسبوا بضعة أميال مربّعة من الأرض في

1- خمّنت المصادر الأمريكية المعتمدة على صور الأقمار الصناعية لميدان المعركة عدد القتلى بخمسين ألفاً، والذي يُعدّ مرتفعاً إلى حد ما، ولا سيّما إذا أدركنا صعوبة التمييز بين القتيل والجريح. وإنّ تدني نسبة الجرحى إلى القتلى سببه عدم توافر المصادر الطبية الكافية التي لم تستطع إخلاء الكثير من الجرحى؛ بسبب الطريقة التي كانت تشبك بها القوات وطبيعة ميدان المعركة.

قاطعي السليمانية وحلبجة، ولكن دون الاندفاع أكثر للسيطرة على المدينتين. وفي الواقع، لا يمكن تجاهل الحقائق، لم يعد الجيش الإيراني المنهك أصلاً يملك الموارد الضرورية للحفاظ على هذه الهجمات الشاملة والمكلفة. وربما لم يكن الجيش العراقي مستعداً لشن هجوم مضادّ هنا، لكنّه كان قوياً جداً لمقاومة أيّ ضغط عسكري إيراني. كان جمود المعارك على الجبهة شاملاً ويمثّل ضربةً لأكبر هاشمي رفسنجاني الذي تعهّد علانيةً بهزيمة العراق في نهاية شهر آذار 1987، وأجبره وهو يشعر بالمرارة والإحباط على تبني استراتيجية جديدة.

الفصل السابع والعشرون

إيران تُغير استراتيجيتها

انعقد مجلس الدفاع الأعلى بطهران في نيسان 1987 برئاسة رفسنجاني؛ لتحديد استراتيجية جديدة. كانت المهمة طارئة: للمرة الأولى منذ اندلاع الحرب يتظاهر الباسدران في شوارع العاصمة للمطالبة بوضع نهاية للنزاع. وحتى أفادت وكالات المخابرات الإيرانية أنه في أكثر قطاعات الجبهة هدوءًا هناك نوع من التآخي بين المتحاربين يحدث عبر خطوط القتال. ويحظى الباسدران بدعم من آية الله منتظري الذي يقف إلى جانبهم. ومن أجل تخفيف التوتر رقت الحكومة اثني عشر عنصرًا من الباسدران إلى رتبة جنرال، وأعلنت زيادة في رواتب التقاعد لعوائل الشهداء الذين سقطوا في ميدان المعارك. وبعد مناقشات مشحونة وافقت الحكومة والعسكريون على العودة إلى حرب الاستنزاف وتصعيد الضربات الجوية والبحرية على التجارة النفطية، حيث يعتقد الاستراتيجيون الإيرانيون أن ذلك سيُجبر المشيخات النفطية على تخفيض دعمها المالي لبغداد. ويأملون أيضًا أن القوى الكبرى ستضغط على صدام حسين لتعليق هجماته على تجارة النفط التي ستسمح لإيران التوسع في الاقتصاد والجانب العسكري. وفي الجبهة، تتطلب الاستراتيجية الجديدة الحفاظ على حصار البصرة، وتكوين جيبٍ كردي؛ لاستنزاف الجيش العراقي وإجباره على توزيع قواته في النهايات المتقابلة من الجبهة.

وكان القادة الإيرانيون يدركون أن الحرب سترهقهم على المدى الطويل، وأن تكاليفها البشرية والمالية تحتاج إلى تقليص؛ لجعلها مقبولة للسكان. وفي بغداد، توصل صدام حسين ومستشاروه أيضًا إلى نتائج ضرورية من معركة البصرة، وأن الوقت قد حان لتكون يدهم العليا وفرض السلام الذي يروونه على الإيرانيين. اتفقوا على زيادة هجماتهم على التجارة النفطية؛ من أجل خنق الاقتصاد الإيراني، ومنع طهران من إعادة بناء ترسانتها من السلاح والذخيرة. ويأملون أيضًا أن يدفعوا الملاي إلى ارتكاب خطأ بتحفيزهم لغلق مضيق هرمز الذي يؤدي إلى تدخل القوى الكبرى مباشرة. واتفقوا على إقامة قوة قتالية قوية ومتحركة قادرة على أن تكون رأس حربة لأي هجوم معاكس يهدف إلى استرجاع الأراضي العراقية (تسيطر إيران على دوزينة جيوب أرضية على الحدود في داخل العراق تبلغ مساحتها أكثر من 775 ميلًا مربعًا [أكثر من 2000 كيلومتر مربع]).

المناورات العسكرية والدبلوماسية والتجارية

نشرت إيران في أواخر شهر نيسان وبشكل واضح بطاريتي صواريخ سلكورم المضادة للسفن في جزيرة قشم بمضيق هرمز بالقرب من قاعدة بندر عباس البحرية⁽¹⁾. وأعلن الحرس الثوري إقامة منطقة "خاصة" للتدخل البحري تسيطر على المضيق بقيادة الباسدران. وفي غضون ذلك، زادت البحرية من مراقبتها لمنع أية غارة على منطقة الحظر البحري التي تولت مسؤولية فرضها. ففي كل يوم تبحر فرقاطة في مدخل المضيق تسأل السفن التجارية عن وجهتها وحمولتها، إذا كان هناك شك يفتشونها أو حتى يطلقون النار عليها من فرقاطة ثانية جاهزة للمهاجمة. كانت السلطات الإيرانية تهدف إلى التوضيح للمجتمع الدولي أنها في موضع يمكنها غلق المضيق إذا دعت الضرورة لذلك.

كثف النظام العراقي من هجماته على التجارة النفطية. وهناك يوم ميداني لطائرات الميراج F-1EQ5 حيث أطلقت اثنين وأربعين صاروخ Exocet في شهرين، ثلاثون منها

1- في ذلك الوقت كانت إيران تملك منصة إطلاق صواريخ سلكورم واحدة و28 صاروخًا مخزونًا لديها.

أحدثت إصابات مباشرة. لم تُغرق أية سفينة، ولكن ثلاثين منها أُصيبت بأضرار بالغة، ما أدى إلى إرسالها إلى أحواض السكراب، وتقليص صادرات النفط الإيرانية بنسبة 20٪ في تلك الفترة، وإجبار إيران على الحصول على خمس عشرة ناقلة نفط جديدة. كانت طائرات SU-22M المقاتلة والمجهزة بصواريخ Kh-29 Kedge المضادة للسفن التي تم تسليمها مؤخرًا من الاتحاد السوفيتي تدعم طائرات الميراج. كانت هذه الطائرات تستخدم بشكل خاص طائرتي نقل II-76s لإعادة التزود بالوقود في الجو. وأفاد العراقيون من تمديد مداها القتالي لضرب منصات النفط الإيرانية الواقعة مقابل السواحل القطرية والإماراتية.

أمّا الإيرانيون؛ فقد دمروا عشرين ناقلة نفط. في أغلب الأحيان، يتم مهاجمة السفن من زوارق مسلحة تتبع إجراءات متفقا عليها. تظهر الزوارق من خلف الناقلات في الظلام، تقوم بالاندفاع والدوران حول الناقلة بسرعة تامة، ثم تطلق عليها صلية من الرصاص لمدة عشر دقائق وقذائف فوق سطح الماء. وبعد إعادة التوضع خلف الناقلة يركزون نيرانهم على غرفة المحركات وأماكن القيادة بهدف إشعال النيران فيها. وينسحبون حالما تنفذ ذخيرتهم. ولذلك؛ لم يستخدم الإيرانيون الآن قوتهم الجوية لمهاجمة ناقلات النفط. وإنّ الأولوية لما تبقى من طائرات الفانتوم العاملة لديهم هي للمهام الجوية الأعظم قيمة. على أية حال، نفذت صواريخ مافريك في المخازن الإيرانية، وفشل المهندسون الإيرانيون في تحوير صواريخهم أرض - جو القياسية لمدمراتهم إلى صواريخ مضادة للسفن. ولذلك؛ تولّت طائرات البحرية الإيرانية الهليكوبتر القليلة والمسلحة بصواريخ A-12 بعض مهام مهاجمة ناقلات النفط، ولكن كانت تلك المهام نادرة الحدوث.

وبينما حافظ الباسدران والبحرية على استراتيجية المضايقة والإنهاك في مضيق هرمز، سافر وزير الشؤون الخارجية علي أكبر ولايتي إلى موسكو لإعادة طمأنة أدوارد شيفرنادزه على الأهمية الجديدة للاتحاد السوفيتي بعيون طهران. وبينما كان اللقاء وديًا، فإنّه لم يؤدّ إلى نتائج صلبة. فقد انتقد وزير الشؤون الخارجية السوفيتي نظيره الإيراني لتزايد الهجمات على ناقلات النفط في الخليج مما يؤيد ترسيخ نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة، وأدان كذلك مساندة إيران للمجاهدين الأفغان. وعلى الرغم من إعلانها النوايا

الحسنة، فإنَّ الجمهورية الإسلامية أزعجت موسكو باستمرارها بدعم المقاتلين الأفغان. وفي غضون ذلك، أرسل السوفييت إشارات واثقة إلى مشيخات الخليج، حيث سافر وكيل وزارة الشؤون الخارجية إلى المنطقة وأدان تصلب إيران. ففي الكويت عرض على الأمير جابر إمداد الكويت بالمعدات العسكرية وبأسعار جيدة⁽¹⁾. ووافق أيضًا على استخدام الكويت لثلاث ناقلات سوفيتية متوافرة لنقل قسم من النفط الكويتي؛ لأنَّ الكرملين كان مقتنعًا أنَّ الملاهي لن يجروا على مهاجمة السفن السوفيتية؛ لأنَّهم يخافون الانتقام الاقتصادي والعسكري.

ولإدراك الإيرانيين أنَّ الكرملين ليس مستعدًا للتحالف معهم، ذهب أكبر هاشمي رفسنجاني مرةً أخرى إلى الولايات المتحدة عارضًا عليها استئناف العلاقات الدبلوماسية إذا ما وافقت الإدارة الأمريكية تعديل سياستها تجاه طهران. لكن وزير الدفاع غاسبار واينبرغر الذي بقي غاضبًا بسبب أزمة الرهائن أحبط آمال رفسنجاني لاعتقاده أنَّ ذلك مجرد محاولة مزعومة للتضليل بإقامة علاقات مع أجنحة معتدلة بإيران. وأعلن إرسال تعزيزات للوجود البحري الأمريكي في المنطقة، وحذّر القادة الإيرانيين أنَّ الولايات المتحدة سترد على أية استفزازات إيرانية. وأعلنت الحكومة البريطانية أنَّها أرسلت ثلاث سفن بحرية إضافية إلى الخليج لحماية السفن التجارية. وهذه السفن الثلاث عززت بسفينة Armilla Flotilla الموجودة أصلًا في الخليج للمراقبة منذ صيف 1982. ومع وجود مدمرة واحدة حاملة للصواريخ، وفرقاطتين: الأولى لإعادة تزويد السفن بالوقود، والأخرى للمساعدة، كانت لندن تأمل من هذا الانتشار العمل في الوقت نفسه للترويج لسياسة بيع الأسلحة البريطانية. وهذه المناورة أتت أكلها: فالعربية السعودية كانت غير واثقة من واقعية واشنطن ولا تريد أن تضع كلَّ بيضها في السلة الأمريكية، طلبت شراء ثمان وأربعين طائرة Tornado مقاتلة من المملكة المتحدة.

وفي غضون ذلك، توجّه طارق عزيز إلى الكرملين لتقييم مدى التقارب بين موسكو وطهران، وانتهاز فرصة وجوده وطلب من السوفييت إرسال معدات عسكرية متطورة جدًّا

1 - اشترت الكويت فورًا 150 دبابة T-84 و120 عربة مدرعة BMP-2 / 3 من الاتحاد السوفيتي.

كان الجنرالات العراقيون ينتظرونها بفارغ الصبر. كانت السلطات السوفيتية تملك نوعين من الأفكار، فمن جهة تريد نهاية سريعة للحرب ولا ترغب بإرسال إشارات سلبية لطهران وبشكل صريح، ومن جهة أخرى كانت بأمرس الحاجة إلى الأموال، وتفكر أنها إذا ما أعطت الجيش العراقي المعدات لتحسين أوضاعه في الميدان قد يجعل الحكومة الإيرانية تقتنع أن من الأفضل لمصالحها قبول هدنة طالما سعى إليها السوفييت منذ وقت طويل. وبعد مفاوضات مكثفة، سمح الكرملين ببيع العراق خمس عشرة طائرة ميغ - 29 الاعراضية، وثلاثين طائرة Su-25 قاصفة، وأربعين منظومة صواريخ سام-13 أرض - جو، وعدة مئات من صواريخ Spigot المضادة للدبابات. واتخذت موسكو قرارًا حساسًا يزود بغداد بدفعات متواصلة من الذخيرة وقطع الغيار. ووافق طارق عزيز ونظيره السوفيتي على تجديد معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين الموقعة في عام 1972.

أما الصين؛ فقد تعهدت من جانبها تسليم العراق أربع طائرات H-6D قاصفة طويلة المدى، وهي في الواقع نسخة من طائرة توبولوف - 16 مزودة بصواريخ C-601 المضادة للسفن، وهو نسخة من صواريخ سلكورم المشهورة التي تُطلق من الجو. والفضل يعود لهذه الطائرات التي مكنت القوة الجوية العراقية من الوصول والقصف بالقرب من مضيق هرمز وتبقى في الوقت نفسه في مدى آمن. وخلال الوقت نفسه زوّدت بكين إيران بستين طائرة مقاتلة طراز F-7 (النسخة المحلية من طائرة ميغ-21) وعشر بطاريات صواريخ أرض - جو مطورة من صواريخ سام-2 و سام-3، وكلها أرسلت من طريق كوريا الشمالية. ما زالت السلطات الصينية تضع التجارة أولاً، وتؤمن للقادة العراقيين والإيرانيين أفضل ما يرغبون. ولكونها مصممة لإيجاد حركة استراتيجية للأمام، توصل الصينيون إلى اتفاق مع الملك فهد، مقابل ضمان الوصول إلى النفط السعودي تعهدوا ببيع الرياض صواريخ C-SS2 Dongfng-3 البالستية التقليدية التي تسمح للملكة السعودية بزيادة قوة الردع في مواجهة إيران⁽¹⁾. ومع أن هذه الصواريخ تفتقر إلى الدقة في إصابة أهدافها فإنها قادرة على الوصول إلى طهران بمدىها البالغ 1500 ميل (2500 كيلومتر)، وبصواعقها المزدوجة التفجير الكافية لإحداث تدمير

1 - نسّلت العربية السعودية تسع منصات وثلاثين صاروخًا في شهر كانون الثاني 1988.

كبير للأهداف الحضرية. كان الملك فهد مقتنعاً أن إضافة هذا النوع من الصواريخ إلى ترسانة سلاحه سيمنع طرفي النزاع من إطلاق صواريخهم على الأراضي السعودية. وفي مايس 1987 هُوجمت سفينة الشحن Ivan Korotoyev من زوارق الباسدران بمجرد عبورها مضيق هرمز، على الرغم من رفعها العلم السوفيتي. أزعج هذا الهجوم المدبر الكرملين الذي رفع من الرهان وأعلن أنه سيرسل اثنتي عشرة سفينة حربية إلى منطقة الخليج⁽¹⁾. وفي الأسبوع التالي، تم تدمير ناقلة النفط السوفيتية Marshall Chuikov، بانجراف لغم بحري بالقرب من منطقة الحظر المعلنة من إيران، وهي واحدة من ثلاث ناقلات سوفيتية "مؤجرة" للكويت. أفسح انزعاج موسكو المجال لزيادة غضبها، وأبلغت السلطات السوفيتية النظام الإيراني أن أي هجوم آخر ضد السفن السوفيتية يعني عملاً عدوانياً وسيؤدي إلى انتقام قاسٍ لإيران. لم تهاجم أية سفن أخرى هناك. ومع ذلك، ازداد عدد ناقلات النفط التي هُوجمت خاصة الكويتية، مما جعل السلطات الكويتية تشعر بالقلق، ولا سيما أن إيران أطلقت في مطلع هذه السنة وبوقاحة صاروخي سلكورم على الكويت من شبه جزيرة الفاو لإشعارها أنها قادرة على ضربها إذا دعت الحاجة لذلك. وإن قوع عدة هجمات إرهابية كانت تمثل صدى لتلك التهديدات، وخيمت بظلالها على الإمارات أيضاً. ونظرًا لقلقه من هذه الأحداث طلب الأمير جابر من الأعضاء الخمسة الدائمين بمجلس الأمن بالأمم المتحدة أن يضطلعوا بأمر أسطول ناقلات النفط الكويتي. رفض الطلب كلٌّ من فرنسا والمملكة المتحدة والصين، لكن السوفيت قبلوا العرض، أما الولايات المتحدة التي أخذت على حين غرة، ردت مباشرةً حينما أعلن روبرت ميرفي وكيل وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا بتعهد الولايات المتحدة بتسجيل إحدى عشرة ناقلة نفط كويتية كسفن ترفع العلم الأمريكي، مما أدى إلى إشعال جدل في الكونغرس الذي عارض هذه المبادرة. وعلى الرغم من الاتصالات الأولية التي جرت في أسابيع سابقة، أُجّلت واشنطن إجابتها الرسمية؛ لأنها تعتقد أن التشريعات الأمريكية تمنع

1- ضمّ الأسطول سفينة قيادة واحدة، فرقاطة واحدة حاملة للصواريخ Krivak-class، مدمرتين Sovremeny-class، وسفينة برمائية هجومية، ثلاث كاسحات ألغام، وثلاث سفن لتزويد الوقود.

سفنها من مرافقة السفن الأجنبية. طمأنت الإدارة الأمريكية الأمير جابر بإجابتها أن رفع العلم الأمريكي على الناقلات الكويتية مجرد مسألة وقت وأنه يتطلب أسابيع قليلة للتنفيذ.

الهجوم على السفينة الأمريكية USS Stark

بحلول ليلة يوم 17 مايس 1987 رصدت طائرة الأواكس التي كانت تراقب السواحل السعودية لمنع أية غارات إيرانية، طائرة عراقية تقترب من جزيرة البحرين. أخبرت مباشرة السفن الأمريكية في الجزء الجنوبي من الخليج لتكون على أهبة الاستعداد. فمذ بداية هذه السنة هاجمت القوة الجوية العراقية اثني عشرة سفينة كانت تبحر على حافة منطقة الحظر التي أعلنتها إيران. وقبل ثلاثة أيام اقتربت طائرة F-1 بعد إقلاعها من قاعدة الوحدة من مدى نيران المدمرة Coontz ربما بسبب الاشتباه بها بأنها ناقلة نفط إيرانية. وبعد أن عرفت المدمرة عن نفسها بعد أن وجهت أشعة رادارها نحو طائرة F-1 التي سرعان ما تركت الأجواء. وفي اليوم التالي تعرضت المدمرة الأمريكية David Rey إلى هجوم وهمي في المنطقة نفسها، وهذه المرة من طائرة مقاتلة إيرانية.

وفي الساعة 8:50 مساءً طلبت طائرة الأواكس من طائرة عراقية تعريف نفسها والعودة؛ لأنها متوجهة بخط مستقيم نحو الفرقاطة USS Stark (حاملة 4200 طن) التي كانت تبحر إلى الشمال الشرقي من البحرين. ونظرًا لعدم استجابة الطائرة العراقية، كرّر المراقبون الجويون الأمريكيون تحذيرهم ووجهوا طائرة سعودية طراز F-15s لمعالجة الطائرة العراقية. تفاجأ المراقبون الجويون؛ لأن طائرات الميراج العراقية F-1s تتجاوب مع أوامر الأواكس. كانت هذه الطائرة التي تقترب وتحلق ببطء ولكن على ارتفاع أعلى بكثير من تحليق الميراج. وفي البداية لم يكن قائد الفرقاطة ستارك الكابتن Glenn Brindel قلقًا ما دامت أنظمة الإنذار المبكر الإلكترونية لم تلتقط إشارة توحى أن سفينته أصبحت هدفًا من السيطرة النارية للعدو، ولم يضع طاقم سفينته بحالة الإنذار، وأوقف أية إجراءات مضادة ومحددة. وفي الساعة 9:09 مساءً أرسل مراقب الراديو على السفينة ستارك إشارة إلى

الطائرة العراقية يبلغه فيها أنه توغّل ضمن مدى الوقاية للسفينة البالغ عشرين ميلاً بحرياً حول السفينة وطلب منها التعريف عن نفسها، ولكنه فشل، وهذا من شأنه أن تنشط السفينة ستارك أنظمة اعتراضها، ولكن دون جدوى. في هذا الوقت أطلق الطيار العراقي صواريخه Exocet الاثنتين على الهدف الذي كان قد أطبق عليه للتوّ، ثم عاد إلى قاعدته. كشف نظام السفن الأمريكية عن رادار حيازة الصواريخ بعد دقيقة واحدة. دعا ضابط الصف الرئيس للسفينة مباشرة طواقم الحركة إلى الردّ، وبدأ بتهيئة الإجراءات المضادة لذلك، ولكن الوقت كان متأخراً. في الساعة 9:12 مساءً تعرّضت الفرقاطة ستارك إلى ضربة على الجانب المقابل للميناء بصاروخي Exocet بسرعة متتالية. ومزّق الصاروخان بدن السفينة الملامس للماء، حيث أحدث انفجار أحدهما تدميراً في وسط سطح السفينة، بينما أشعل الصاروخ الآخر النار فيها، ممّا تطلّب من الطاقم أكثر من أربع وعشرين ساعة لإخمادها. ومن أجل إنقاذ السفينة من الغرق، لم يكن لقائدها الكابتن Brindel من خيار سوى ملء جزء من الميمنة بالماء لجعلها تميل إلى اليمين ومنع دخول مياه كثيرة إلى جانبها الآخر. ولحسن الحظ، كانت محركات السفينة تعمل، وكافحت السفينة؛ من أجل الوصول إلى مقرات قوة المهمّات الخاصّة بالشرق الأوسط بالقاعدة البحرية في البحرين. قتل هذا الهجوم سبعة وثلاثين من أعضاء الطاقم، وأصاب واحدًا وعشرين بجروح بليغة.

وللمرة الأولى منذ اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية تتعرّض سفينة حربية أمريكية للقصف بصواريخ مضادة للسفن، وطلبت واشنطن مباشرة تفسيراً لذلك من بغداد. ووجه الكونغرس اللوم وبغضب للبيت الأبيض وشكّل لجنة تحقيقية بذلك. وعارض بعض أعضاء الكونغرس سياسة التقارب مع العراق، بل ولمح أنّ هذا الهجوم كان ردّاً صدام حسين على فضيحة إيران - كونترا، وأشاروا إلى تشابه حادثة سفينة USS Liberty قبل عشرين عامًا⁽¹⁾. تمت محاكمة قائد السفينة Stark عسكرياً، ووجد مذنباً بالإهمال المتعمد وطُرد من رتبته.

1- في يوم 8 حزيران 1967 وخلال حرب الأيام الستة هاجمت القوات الجوية والبحرية الإسرائيلية سفينة التجسس

USS Liberty عمداً قبالة العريش. وللإطلاع على الحادثة كاملة، انظر كتابي:

Tsahal:nouvelle histoire de l'armee isrealienne (Paris:Tumpus Perrin,2008),240-242.

ادّعى النظام العراقي فوراً أنّ الهجوم كان خطأ واعتذر بتواضع، وكتب صدام حسين بنفسه إلى الرئيس الأمريكي رونالد ريغان لطمأنته أنّ الحادث كان خطأً مأساوياً وأنّ الطيار العراقي كان يعتقد بإخلاص أنّه يطلق النار على سفينة معادية كانت تعبر منطقة الحظر دون حساب للخطر. وتعهّدت بغداد بتعويض الضحايا بسخاء. قبل البيت الأبيض الاعتذار وقرّر التحرك. ومع ذلك، ولأجل أن يفهم حقيقة ما حدث، أرسل البيت الأبيض فريقاً من المفتشين إلى بغداد لتفكيك الأحداث، وتعاون العراقيون مع الوفد إلى حدّ كبير، ولكن استثنوا مسألتين: رفضوا معاينة المحققين الأمريكيين للطائرة المتورطة بالهجوم، وعدم السماح لهم باستجواب الطيار الذي قام بالمهمة. كان الخبراء الأمريكيون مقتنعين أنّ الطائرة هي ميراج F-1EQ5 (لم يعرفوا أنّ هذا النوع من طائرات الميراج لا يمكنه حمل صاروخين Exocet)، وأنّ الطيار قد تمت معاقبته، أو تم التخلص منه.

ولم يعطِ العراقيون أية معلومات تتناقض مع هذه القناعات، وتوصلوا إلى اتفاق مع السلطات العسكرية الأمريكية إلى تنفيذ إجراءات تعريف صارمة؛ من أجل تجنّب هذا النوع من الأخطاء مرة أخرى⁽¹⁾ وشدّدت البحرية الأمريكية من قواعد اشتباكها، وسمحت بإطلاق النار على أية طائرة معادية مفترضة تدخل ضمن المنطقة الآمنة للسفينة. كان بعض البحارة الأمريكيون على وشك الإصابة بالجنون، ويتخوّفون من الهجمات الانتحارية التي يقوم بها الباسدران، ولا سيّما في مضيق هرمز. وكإجراء احترازي، علّق العراقيون غاراتهم في منطقة الخليج لبعض الوقت.

وبعد عشرين عاماً تحدث المؤرخون والصحفيون أنّ الفرقاة Stark قد تمت مهاجمتها بطائرة ميراج F-1. ولم تظهر الحقيقة إلا بعد سقوط صدام حسين، وبفضل المقابلات مع بعض الجنرالات العراقيين في المنفى، ومن خلال التسجيلات الصوتية للقاءات التي يحضرها الدكتاتور العراقي. ومرةً أخرى توضّح التسجيلات التصوير المتهور

1- وعلى الرغم من هذا الإجراء فقد تم بالكاد تجنّب حادثتين مشابھتين في يومي 28 كانون الثاني و13 شباط 1988. والهجمات التي تم تحاشيها هما حينما كانت السفينة الهجومية Portland والمدمرة Chandler ترسوآن قبالة سواحل البحرين وقطر على التوالي.

لقائد القوة الجوية العراقية. ففي صيف عام 1986 حصل الجنرال شعبان على هدية لم يكن يتوقعها: طائرة Falcon-50 جلبها اثنان من الطيارين الإيرانيين الهاربين الذين كانوا يطيرون مع رفسنجاني في زيارته الرسمية. اقترح الجنرال شعبان تحويل هذه الطائرة ذات الثلاث محركات إلى طائرة قاصفة ولمديات بعيدة. اتصل الفنيون العراقيون بشركة Dassault التي تنتج هذا النوع من الطائرات، وكانت أكثر استعدادًا للتعاون مع العراق، زبونها الأجنبي الأول. طلب العراق من صانعي الطائرات الفرنسيين أن يجهّزوا طائرة Falcon 50 برادار هجومي مستخدم في طائرة ميراج F-1EQ5، وخزانات وقود إضافية خارجية، والتدابير الإلكترونية المضادة، والأكثر أهمية تزويدها بنقطتين صلبتين تحت الأجنحة لحمل وإطلاق صواريخ Exsocet.

وهذه التعديلات على الطائرة يجب أن تنفذ في العراق وبالسرية الممكنة من فريق من الفنيين الفرنسيين. والطائرة يجب أن تكون جاهزة في مطلع فصل الربيع لعام 1987. وتم الاحتفاظ بهيكلها الأصلي لخداع الطيارين الإيرانيين الذين ربما يطلعوا عليها. وتدرّب طيارون ذوو خبرة عالية بالنقل على أنظمة التسليح لتلك الطائرة، وبدؤوا مباشرة بمهام الطيران الهجومي على منصة نفط لاراك. يسمح مدى الطيران للطائرة Falcon50 بالوصول مباشرة إلى الهدف دون التزوّد بالوقود في الجو، وتستخدم المجال الجوي المخصّص للرحلات التجارية للطيران بسرية. وحالما تقترب من الهدف تهبط إلى ارتفاع منخفض وتطلق صاروخها الاثنين في مدى المواجهة، ثم تهرب من المقاتلات الإيرانية المتفوقة جواً⁽¹⁾. وحينما لا تهاجم منصة نفط لاراك، كان طاقم طائرة Falcon50 يؤدون مهام المضايقة للتجارة النفطية في منطقة مهام طائرات الميراج F-1. وقعت حادثة USS Stark في أثناء واحدة من هذه المهمات.

هذه هي الحقائق المعروفة: في 17 مايس 1987 أقلعت طائرة Falcon 50 في الساعة الثامنة مساءً من قاعدتها في الكويت - ليس من الوحدة، القاعدة التي تربض فيها طائرات الميراج EQs. توجّه الطيارون في مهمة جارفة في منطقة أجواء طائرة الفالكون الاعتيادية

1 - انظر الرواية المفصّلة في كتاب

Ahmed Sadik and Tom Cooper "Un Falcon 50 lance-missiles," Le Fanade l'Aviation 470(Jan.2009) :41-45.

مقابل ساحل البحرين، وتجاهلت رسالة طائرة الأوكس التحذيرية. في الساعة التاسعة مساءً رأى الطيار صدى على راداره، وأطلق صاروخه الأول بمدى عشرين ميلاً بحرياً عن الهدف، وأطلق الصاروخ الثاني على مدى خمسة عشر ميلاً بحرياً، ثم قام بدورة وعاد مباشرة إلى القاعدة دون أن ينتظر رؤية نتيجة الضربة⁽¹⁾. لم يعاقبه مسؤولوه؛ لأنهم يدركون أن خطوات مثل هذه المهمة تتضمن احتمالية الخطأ. واعتماداً على الجنرال العبوسي، نفذ طيار الفالكون-50 المدرب تدريباً عالياً مهمات متعددة بهذه الطائرة. وهذا الطيار الذي يرتبط بعلاقات وثيقة بالنظام السابق احتفظ بهويته سرية؛ خوفاً من انتقام الإدارة الشيعية الموجودة في الحكم في الوقت الحاضر.

وبينما تشير الأدلة كلها إلى أن الهجوم على الفرقاطة ستارك كان خطأً، ولكن يبقى من غير الواضح هل الحادثة كانت مقصودة أو صدفة. وبينما كان بالتأكيد لدى صدام حسين أسباب متعددة للغضب على الإدارة الأمريكية، ولكن كل محادثاته المسجلة مع جنرالاته لا تشير إلى أية مؤامرة⁽²⁾. بل على العكس، تفاجأ القادة العراقيون حينما علموا أن الهجوم كان على فرقاطة أمريكية، وأصيب بعضهم بالقلق من انتقام الولايات المتحدة عسكرياً. أصرَّ طارق عزيز على أن يتصل صدام حسين مباشرة بالرئيس رونالد ريغان للاعتذار وإزالة أيِّ شكٍّ حول هذه "الحادثة" المؤسفة. وكلُّ ضابط تم سؤاله بعد سقوط الدكتاتور أكد أن الهجوم كان مجرد حادثة، على الرغم من أن اتهام صدام بعد موته لا يكلف شيئاً يذكر. وإذا كان صدام قد أمرَ فعلاً بهذا الهجوم المدير على سفينة أمريكية، فإنه أثبت أنه ممثل من الدرجة الأولى لم يخبر جنرالاته أبداً، على الرغم من محادثاته الطويلة معهم حول مختلف تفاصيل العمليات العسكرية في ذلك الوقت.

1- انظر رواية الجنرال علوان العبوسي في كتاب:

Kevin Woods, ed., *Saddam's Generals: Perspectives of Iran-Iraq War* (Alexandria, VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington, 2011), 205-206.

2- كما نسمع من التسجيل الصوتي المسجل في يوم 27 آذار 1987

(SHSHTP-A-000958) (Conflict Records Research Center (CRRC) Project (Washington, DC: National Defence University/Institute for National Strategic Studies).

واعتمادًا على الجنرال صادق والجنرال العبوسي فإنَّ طيار الفالكون 50 كان يعتقد أنه تعامل مع ناقلة نفط متوجهة إلى إيران للتحميل. ربما استعجل في إطلاق صواريخه لتجنب العودة إلى القاعدة خالي اليدين، وإثبات كفاءته لطيار الميراج F-1 الذين شكلوا طبقة متميزة في القاعدة الجوية. لم يملك نظام IFF (هوية تعريف بوصفه صديقًا أو خصمًا) ليقرر هل الهدف صديق أو خصم. وحينما استهدفت السفينة كانت في الواقع خارج حافات منطقة الحظر الإيرانية، ولم تعمل أجهزة طائرة الفالكون آنذاك بصورة صحيحة في ذلك اليوم، وأوضحت أنَّ الهدف داخل منطقة الحظر، مما جعل السفينة هدفًا مشروعًا. واستنادًا إلى هذين الضابطين، أخفت القيادة العراقية هوية الطيار عن لجنة التحقيق؛ لتجنب الكشف عن وجود طائرة الفالكون 50 التي يعدُّها النظام قضيةً سريةً. وأخيرًا، كلُّ شيء يشير إلى نظرية أنَّ الحظ السيئ لطاقم الفرقاطة ستارك هو الذي أوجدتهم في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ وتحت قيادة كابتن مهمل⁽¹⁾.

الألغام البحرية في الخليج

في أواخر عام 1987 كانت أربع ناقلات نفط تبخر في قناة ضيقة تؤدي إلى منصة الأحمدية الكويتية، وأغلبها كويتية، تم تدميرها بالألغام بحرية بسرعة متتالية. أُجبرت هذه الناقلات وهي محمَّلة بالنفط للإبحار في قناة لتجنب المياه الضحلة، واستدعي فريق من الغواصين الأمريكيين للتعزير، وأدى تفتيشهم للمنطقة عن وجود ألغام حقيقية. ولم تكن هذه الألغام عائمة، بل ألغامًا راسيةً ومغمورةً بعمق مناسب ليتم تفجيرها حصراً بوساطة ناقلات النفط المحمَّلة بالكامل. وقد زرعتها قبل أيام قليلة طائرات الهليكوبتر Sea Stallion الإيرانية العاملة في شبه جزيرة الفاو. والعملية ربما لم تستغرق أكثر من ساعتين، وهدفها ببساطة مواصلة الضغط على الكويت التي تعدُّ الحلقة الأضعف بين دول مجلس التعاون الخليجي، ولإقناع الأمير جابر لاتخاذ موقفٍ أكثر تشدُّدًا من النظام العراقي. فالإيرانيون

1 - علوان العبوسي في كتاب 206-Woods, Saddam's Generals, 204.

الذين يمتلكون عدة آلاف من الألغام (بضمنها 600 لغم إيطالي يتم نشرها في العمق ويتم تفجيرها إلكترونياً) يريدون التوضيح لشيوخ مجلس التعاون الخليجي، أنهم لا يترددون إشعال الخليج كله إذا استمرت دوله بدعم بغداد.

ومرة أخرى، دعا الأمير جابر الغرب إلى المساعدة وطلب من واشنطن الإسراع في تسجيل ناقلاتها النفطية سفناً ترفع العلم الأمريكي. ردت كل من لندن وباريس فوراً ووعدت بإرسال عدة كاسحات ألغام إلى الخليج. أزعج هذا الطلب الأدميرالات الأمريكيين الذين يعدون حرب الألغام مجرد مهمة ثانوية تركوها لحلفائهم بحلف الأطلسي منذ نهاية حرب فيتنام. وبينما وافقوا على إرسال ست كاسحات ألغام متبقية لديهم، لكن نقلها إلى المنطقة يستغرق عدة أسابيع. وفي الوقت نفسه، أرسلوا طائرات الشحن العسكري طراز Galaxy لنقل ثماني طائرات هليكوبتر Sea Stallion مجهزة بمعدات أشعة عالية الحساسية إلى قاعدتهم Diego Garcia. ثم تم تحميل على السفينة البرمائية Raleigh الراسية في القاعدة والتي على وشك المغادرة إلى منطقة الخليج.

استأنف العراق في بداية يوم 20 حزيران غاراته الجوية على رحلات سفن النفط في الخليج لمدة أسبوعين. ففي مطلع شهر تموز أعلنت بغداد تعليقاً من طرف واحد لهجماتها في الخليج لتشجيع إيران قبول خطة السلام التي اقترحتها الدول الخمس الدائمة بمجلس الأمن في 23 حزيران. وتستند الخطة إلى البنود التي وضعها صدام حسين قبل خمسة أشهر (وقف فوري للمعارك، انسحاب القوات المسلحة إلى الحدود المعترف بها دولياً، وتبادل كل أسرى الحرب)، ولكنها دعت إلى توسط السكرتير العام للأمم المتحدة، وأضافت فقرتين إلى جانب إيران: تشكيل لجنة محايدة مسؤولة عن التحقيق في الظروف التي أدت إلى اندلاع المعارك، والاعتراف بحق إيران في الحصول على تعويضات عن الأضرار التي ألتمت بها. وفي هذا الوقت ساندت الصين والاتحاد السوفيتي دون تحفظ على الاتفاق وحاولتا إقناع طهران بقبوله.

في 20 تموز 1987 تبني مجلس الأمن بالإجماع القرار رقم 598 الذي تضمن مقترحات خطة السلام الجديدة بكاملها، وأمر بإرسال فريق من المراقبين المحايدين تماماً

إلى المنطقة؛ للإشراف على هدنة في الوقت الذي يقبل فيه طرفا القتال القرار. وعلى خلاف إجاباته لمقترحات السلام السابقة، لم يرفض النظام الإيراني رسمياً الخطة؛ لإدراكه ضرورة إبقاء الباب مفتوحاً لخروج مُشرفٍ إذا لم تؤتِ استراتيجيته الجديدة النتائج المتوقعة. وتم أيضاً تعزيز الوجود البحري الأجنبي فوراً في الخليج، مما قلص مجال المناورات البحرية الإيرانية. أدرك رفسنجاني أن سياساته المتصلبة مهددة الآن وربما تقود إلى التدخل العسكري الغربي ضدّ إيران. ونظراً لإدراك الاتحاد السوفيتي تصاعد التوتر، أرسل سفيره في الأمم المتحدة يولي فورونتسوف Vorontsov إلى طرفي النزاع لإقناعهما بقبول الهدنة ولمنع انقراض السفن الغربية على الخليج. وعلى الرغم من أن ميخائيل غورباشوف وأدوارد شيفرنادزه من الإصلاحيين الصادقين فإنهم ظلوا أسارى لمفاهيم الحرب الباردة التي بقيت تؤثر في سياسات القوى الكبرى في الشرق الأوسط. كان العراقيون منفتحين على المبادرة السوفيتية؛ لأنهم مقتنعون أن السوفييت كانوا ينتظرون الوقت المناسب لإجراء التغيير في تحالفاتهم؛ لكي تبدو أكثر وضوحاً يوماً بعد آخر. رفض فورونتسوف الاجتماع بصدّام حسين، وأراد عقد اجتماع غير رسمي مع طارق عزيز. ذهب هذا الدبلوماسي الذي يناقش مطوّلاً إلى طهران، حيث استقبل بحرارة وعلى خلاف التوقعات. وبما إن الأخبار تنتقل بسرعة، لقد فهم الإيرانيون أن العلاقة بين موسكو وبغداد قد تصدّعت، وأنهم يجب أن يتهزوا الفرصة. أبلغوا فورونتسوف تحفظاتهم الشديدة المتعلقة بقرار مجلس الأمن؛ لأنهم لا يريدون الظهور وكأنهم يستسلمون للضغط المشترك من المنظمات الغربية والعربية، وطمانونه أن السلطات الإيرانية تريد بناء علاقات وثيقة مع الكرملين.

حملة الأنفال

وبينما كان التوتر يتصاعد في الخليج، استمرت العمليات البرية في كردستان العراق، واتخذ الوضع منعطفاً جديداً منذ فصل الربيع حينما نجحت الحكومة الإيرانية في التوسط بين جلال طالباني (الاتحاد الوطني الكردستاني) وبين مسعود برزاني رئيس الحزب

الديمقراطي الكردستاني الوحيد الآن بعد وفاة أخيه إدريس بالسكتة القلبية في شهر كانون الثاني 1987. وللمرة الأولى منذ اندلاع الحرب أصبحت المعارضة الكردية لنظام البعث موحدةً برعاية القيادة الإيرانية. كانت تملك 30 ألف مقاتل من البيشمركة، نحو خمسين دبابة، ومئة قطعة مدفعية خفيفة، وألف بندقية. شنَّ الحزب الديمقراطي الكردستاني عدة غارات على مدن أربيل، السليمانية، كركوك، والموصل. (عمليات فتح 4، 5، 6، 7)، بينما شارك حزب الاتحاد الوطني بعمليات كربلاء 7، واشتبك مع الحاميات العراقية على الحدود الشمالية بالقرب من راوندوز، حاج عمران، وزاخو. واتفق الحزبان الاتحاد الوطني والديمقراطي الكردستاني مع الحزب الديمقراطي الاشتراكي الكردستاني بقيادة محمود عثمان الذي تسانده دمشق، وينشط مقاتلوه على الحدود التركية السورية. ومع ذلك، تبقى هذه التحالفات هشّة.

وللمرة الأولى منذ اندلاع النزاع، واجهت الحكومة العراقية جبهةً موحدةً منعتها من استخدام سياستها الاعتيادية باستخدام فصيلٍ ضدَّ آخر. والأكثر قلقاً لبغداد المفاوضات الحقيقية بين كرد العراق وحزب الدعوة الشيعي الذي بقي نشطاً جداً في بقية أنحاء البلاد. وأصبح أعضاؤه عيون المعارضة العراقية وآذانها، ونظّموا هجمات دموية على النظام. في 9 نيسان نجحت عملية الهجوم على موكب رئاسي بالقرب من الموصل في قلب كردستان. خرج صدّام حسين سالمًا من هذا الهجوم، لكن تم قتل سائقه وعشرة من حرسه الشخصي. هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. حتى هذا الوقت، كان دكتاتور العراق يعتقد أنّ بإمكانه كسب ودّ الشعب الكردي بالعزف على الوطنية العراقية. ترك الآن هذه المقاربة، وتبنّى سياسة الاضطهاد المفرغة والأرض المحروقة، وأطلق عملية "الأنفال" المعروفة، إشارةً إلى السورة الثامنة في القرآن التي تبيح للمقاتلين في سبيل الله نزع ملكية أراضي الأعداء.

كان صدّام يأمل أنّ هذه المقاربة تمكنه من استئصال المعارضة الكردية وإلى الأبد، وعيّن رئيس جهاز مخابراته وابن عمّه علي حسن المجيد حاكمًا إداريًا لمحافظة كردستان العراقية وبصلاحيات كاملة؛ لمعاينة السكان وسحق التمرد هناك. ومن أجل مساعدة المجيد هناك منحه الصلاحية الكاملة على الفيلق الأول والخامس للجيش العراقي المنتشرين في

المنطقة. أقامت الفرق العراقية مباشرةً طوقاً وقائياً يمتدُّ بين حلبجة والسليمانية، كركوك، أربيل، الموصل، وراوندوز، الذي يمثل منطقةً عازلةً لاحتواء هجمات البيشمركة والباسدران. ولم يسمح للكرد بالسكن خلف هذا الطوق الوقائي، أي بالقرب من الحدود. وفي التوجيه العسكري رقم SF/4800 في 20 حزيران 1987 ذهب علي حسن المجيد إلى أبعد من ذلك، وأمر "بأن كلَّ رجل يبلغ من العمر بين 15 و70 عامًا سيُعدَّم بعد استجوابه من الأمن لمحاولته تسريب معلومات ذات قيمة". ومن أجل تطبيق استراتيجية الرعب هذه، حشدت القيادة العسكرية العليا تعزيزات هائلة تم سحبها من قطاعات الجبهة الأخرى: أربع عشرة فرقة مشاة تولّت مسؤولية مراقبة الإقليم وقمع البيشمركة، وبدعم من فرقتي الحرس الجمهوري وعدة ألوية مغاوير. تمركز الآن في كردستان ثلث الجيش العراقي، أي نحو 250 ألف مقاتل.

وخلال عدة أسابيع دمرت الحكومة العراقية عدة مئات من القرى، وهجرت سكانها في الأراضي السبخة القذرة في جنوب البلاد بين نهري دجلة والفرات. وكلُّ كردي لم يكن له نسب عراقي ويمتلك سلاحاً يُعدُّ متمرّداً ويُعدم. تعرضت بعض القرى إلى القصف بالمدفعية ومن الجوّ قبل أن يتم إخلاؤها. وتم أيضاً تنفيذ عمليات استطلاع وحملة عقابية في مدن الإقليم الرئيسة. ومنعت سياسة التعريب الإجبارية تعليم اللغة الكردية في المدارس ومعاقبة أي مواطن بقسوة يُمسك وهو يتحدث بالكردية. ومقابل أيّ جندي عراقي قتل أو أصيب بعمل إرهابي يتم إعدام دوزينة رهائن من السكان. واستُهدف أنصار جلال طالباني بشكل خاص واضطُهدوا، وأدت تلك الحملات إلى موت الآلاف بحلول ربيع عام 1987. ومما لا ينكر أن سياسة الأرض المحروقة زادت من إمكانية القوات الحكومية في المناورة بكردستان، لكنها عززت من نزعة الشعب الكردي للاستقلال وتصميمه على حمل السلاح وقاتل النظام البعثي، كما صوّره بقوة فلم المخرج Fariborz Kamkari "زهور كركوك" في عام 2010.

وفي غضون ذلك، استمرّ الجيش التركي بتدخلاته في شمال العراق لمطاردة عناصر حزب العمال الكردستاني. وفي مطلع شهر حزيران سافر الرئيس التركي كنعان إيفرن إلى طهران للقاء القادة الإيرانيين ومحاولة تخفيف التوتر الذي عرقل العلاقات الثنائية بين

البلدين لقرابة ستين. وتوصلوا إلى اتفاق من خمس نقاط، يتعهد فيه الطرفان: 1- عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكلا البلدين، 2- رفض اتخاذ أي موقف رسمي يحتمل أن يكون مؤذيًا للطرف الآخر، 3- والتعهد بعدم إذاعة أية برامج تلفزيونية أو بالراديو معادية للطرف الآخر، 4- تعزيز التعاون على الحدود المشتركة في مجال الأمن، 5- التعهد بقتال المجموعات الكردية وبقوة والتي تعمل في أراضي الطرف الآخر.

انتهم الإيرانيون فرصة خوض الجيش العراقي عملية الأنفال لتحسين مواضعهم على الجبهة الشمالية. ففي فصل الصيف استولوا على موات وشنوا عدة غارات "عملية نصر" باتجاه سدّ دوكان. وبعد انتهاء فصل الصيف بقيت الجبهة البرية هادئةً طوال بقية عام 1987، باستثناء بعض الغارات المفاجئة من فترة لأخرى لإبقاء العدو تحت المراقبة.

قضية كورجي أجبرت فرنسا على التدخل في الخليج

في 13 كانون الثاني 1987 اختطف الصحفي الفرنسي Roger Auque في العاصمة اللبنانية، ما أدى إلى إعادة تشكيل حاسمة للسياسة الفرنسية تجاه إيران. فكلّ من حكومة جاك شيراك والرأي العام الفرنسي لم يعد قادرًا على تحمل العقلانية في عقد مفاوضات مع خاطفي الرهائن. وتكمن جذور الفكرة في أنّ هذا الوضع سيكون بلا نهاية، فكلّ خطوة نحو تطبيع العلاقات يتبعها هجوم إرهابي آخر، أو اختطاف رهائن. كان الإحباط في ذروته. وهنا أيضًا، تباينت الآراء بين أولئك الذين انتقدوا المصالح الذاتية للسلطات الإيرانية، وأولئك الذين يرون أنّ ذلك مجرد دليل على الصراع الشديد بين فصائل النظام المختلفة. ومع ذلك، كان جاك شيراك قادرًا على فرض سياسة متشددة تجاه إيران. ومن أجل حماية نفسه من أية حملات إرهابية جديدة، تبنى وزير الداخلية تنفيذ إجراءات استثنائية لحماية الفرنسيين. وانتقل ملف إدارة الوضع الإيراني من السلك الدبلوماسي إلى الشرطة.

في 17 شباط 1987 اتصل أحد الإسلاميين التونسيين التائبين بالمخابرات الفرنسية، وبين استعداداته للإبلاغ عن الشبكة الإرهابية المسؤولة عن الهجمات الإرهابية في العاصمة

الفرنسية في عام 1987. لقد تمكّن الإيرانيون من تجنيد هذا المُخبر حينما كان يدرس في جامعة قم، ويدّعي أنّه محبب من إغماض آية الله الخميني لعينيه، وأنّه يريد وضع نهاية للهجمات المؤدية لإراقة الدم الفرنسي من دون طائل. لقد شَخَّصَ الشبكة الإرهابية كاملة بقيادة التونسي فؤاد علي صالح الذي التقاه في مدينة قم. يدّعي صالح أنّه من المقربين من آية الله منتظري، وتم تجنيده من شبكات الأصوليين الإسلاميين التي تديرها طهران. ومقابل هذه المعلومات الثمينة، مُنح هذا المُخبر الجنسية الفرنسية وحياة جديدة في أمريكا الشمالية⁽¹⁾. كشفت هذه المعلومات عن الدور المركزي الذي تلعبه السفارة الإيرانية في تنظيم هذه الهجمات. وشخصوا وحيد كورجي - رسمياً يعمل مترجماً بالسفارة - منسقاً للهجمات الإرهابية التي تم تنفيذها في سنة 1986. واستناداً إلى هذا المُخبر فإنّ كورجي في الواقع وكيل المخابرات السرية الإيرانية بباريس منذ مطلع عقد الثمانينات⁽²⁾.

وبديهياً ربما يتساءل المرء ما الدافع الحقيقي الذي دفع هذا الإسلامي الأصولي التونسي المقرب من النظام الإيراني إلى الكشف عن هوية رفاقه السابقين للسلطات الفرنسية، هل يمكن تصور ذلك بأنّه حالة للاستفزاز وتصفية حسابات بين الاجنحة الإيرانية المتصارعة؟ تبقى كلُّ فرضية محتملة. أُحيلت القضية إلى قاضي محكمة مكافحة الإرهاب جيل بولوك Gilles Boulouque. ولمدة ثلاثة أشهر بحثت المخابرات الفرنسية، وألقي القبض على المشتبه بهم. وفي 3 حزيران 1987 اعتقلت الشرطة سبعة وخمسين شخصاً نصفهم تم إبعادهم على وفق إجراءات الطوارئ. وفي الدقائق الأخيرة التجأ وحيد كورجي إلى السفارة الإيرانية وتخلّص من حملة المتابعة. ويُزعم أنّه تم تحذيره أنّ الاعتقالات كانت وشيكة من دبلوماسي فرنسي مسؤول عن الملف الإيراني في وزارة الخارجية الفرنسية⁽³⁾.

1- Pierre Pean, La Menace, (Paris:Fayard,1987),237-244.

2- طلب قائد الشرطة في عام 1985 إبعاد وحيد كورجي ونحو عشرة إيرانيين آخرين ودون طلب الرخصة من الحكومة التي كانت ناعمة في غزلها مع طهران في ذلك الوقت . . 244-Pean,La Menace, 237.

3- Aujourd'hui le Maroc, Jan.25,2005 ""France:ies demons de L'Islamisme;

أنظر أيضا

<http://fr.wikipedia.org/wiki/Wahid-Gordji>.

كانت وزارتا الداخلية والشؤون الخارجية في أسوأ خلافات بينهما، وعلى خلاف تام حول قضية كيفية التعامل مع الوضع الإيراني. ونظرًا لهذا السياق من العداوة والإضرار بين الوزيرين جان برنارد ريمون Jean-Bernard Raimond وتشارلز باسكوا Charles Pasqua، ليس من المحتمل أن يكون ذلك قد خُطِّط له للتسريب أن الفرنسيين يريدون تجنب إذلال التمثيل الدبلوماسي الإيراني بفرنسا، والإضرار بالعلاقات الثنائية. لا تؤيد السلطات القضائية هذا التصور، وقررت وضع السفارة الإيرانية تحت المراقبة الواضحة لمنع هروب وحيد كورجي. وبذلك، انتصر الوزير تشارلز باسكوا.

وفي أواخر شهر حزيران، أرسل جاك شيراك إنذارًا إلى طهران موضحًا أنه إذا لم يقدم وحيد كورجي نفسه أمام قاضي التحقيق جيل بولوك، سيتم إبعاد الدبلوماسيين الإيرانيين من فرنسا بحلول يوم 16 تموز. تراجع شيراك بصورة جذرية عن تصريحاته التصالحية السابقة التي أدلى بها قبل أشهر قليلة. ومع ذلك، أضاف رئيس الوزراء أنه مستعد لاستبدال وحيد كورجي مقابل كلِّ الرهائن الفرنسيين بלבنا. وفي مطلع شهر تموز ردَّت إيران بالتهديد باختطاف الدبلوماسيين الفرنسيين الاثني عشر بطهران. أجابت الشرطة الفرنسية فورًا بمحاصرة السفارة الإيرانية. وفي 13 تموز، أطلقت الزوارق المسلحة الإيرانية في الخليج النار على سفينة الحاويات الفرنسية لمهاجمة المصالح الفرنسية. في اليوم التالي وبينما كان الاحتفال بيوم الباستيل في ذروته بالحدائق خارج قصر الإليزيه، حاصر الباسدران السفارة الفرنسية بطهران. وبذلك أصبحت ذكرى أزمة الرهائن الأمريكيين فجأة على ذهن كلِّ فرنسي. استمرت "حرب السفارات" مدة أربعة أشهر. أصبح الرأي العام الفرنسي منفعلًا ومنتقدًا بقوة لنظام الملالي. حتى الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكار ديستان خرج عن صمته وصرح أنه "يجب على فرنسا عدم إعادة علاقاتها إلى طبيعتها مع إيران وهي بقضية الحماسة والعاطفة الدينية"⁽¹⁾.

1- Antenne 2,8 p.m. Nighty News , July 24,1987, INA Video.

عملية برومثيوس

أعلنت فرنسا في 17 تموز 1987 قطع علاقاتها الدبلوماسية رسمياً مع إيران. وشنَّ رئيس الجمهورية عملية برومثيوس بنشر قوة المهمات البحرية الفرنسية للرسوِّ مقابل الساحل الإيراني. وهناك مهمتان للقوة البحرية الفرنسية: فمن جهة ممارسة الضغط على إيران لإطلاق سراح الدبلوماسيين الفرنسيين ووضع نهاية "لحرب السفارات"، ومن جهة أخرى حماية السفن التجارية الفرنسية في الخليج. وفي 30 تموز أبحرت حاملة الطائرات كليمنصو وعلى ظهرها أربعين طائرة مسلحة، والفرقاطتان Suffren و Duquesne والناقلة Meuse من طولون نحو المحيط الهندي. وأبحرت هذه المجموعة في أعقاب الفرقاطة Leygues التي انطلقت على عجل إلى المنطقة قبل أسبوع، ثم تبعت جميع السفن كاسحات الألغام Cantho، Garigliano، و Vinh-Long، وسفينة الإسناد Garonne بعد أيام قليلة. وصلت جميع السفن إلى المنطقة خلال الأسبوعين الأولين من شهر آب، وانضمت إلى الناقلة Marne والطرادات Protet, Bory, Doudart de Lagree, Schoelher. وهذه السفن الأربعة عشرة شكلت قوة المهمة 623، بقيادة الناقلة Marne والأدميرال جاك لانكساد Jacques Lanxade ويساعده الأدميرال هيرفيه لوبيشون Herve Le Pichon من على ظهر حاملة الطائرات كليمنصو. انقسمت قوة المهمة 623 على ثلاث مجموعات مهمة فرعية: 1-TG623 تتألف من الفرقاطة George Leygues وأربعة طرادات لمراقبة الخليج ومرافقة السفن التجارية التي ترفع العلم الفرنسي، و 2-TG632 وتتألف من حاملة الطائرات كليمنصو والفرقاطتين Suffren و Duquesne والناقلات Meuse و Marne وانتشرت في خليج عمان لتمثل قوة ردع ضدَّ إيران، و 3-DG623 وتتكوّن من كاسحات الألغام الثلاثة وسفينة الإسناد Garonne ومهمتها إبطال الألغام التي تزرعها إيران بالقرب من مضيق هرمز. وتدعم هذه القوة الضاربة طائرة المراقبة البحرية "أتلانتك" المرابطة في جيبوتي. وتعمل الطواقم البحرية على وفق قواعد اشتباك مرنة تسمح لهم بإطلاق النار بمجرد الشكِّ بأهداف

معادية، على الرغم من أنه كان عليهم أولاً تحديد هدفهم المحتمل بشكل إيجابي. وفي غضون ذلك، خطط قائد عملية برومبيوس للقيام بحملة جوية تستهدف القواعد الإيرانية والمنشآت النفطية، ولا سيما منصة نفط خارج. وكان طيارو البحرية الفرنسية على أهبة الاستعداد للهجوم. وبذلك أصبح الإيرانيون يدركون جيدًا هذا الواقع.

يبدو أن الوجود العسكري الفرنسي أثبت جدارته بما يكفي لمنع حدوث أية حوادث إرهابية في فرنسا أو على السفن التجارية المبحرة في الخليج⁽¹⁾. والأحداث الجدية الوحيدة كانت بسبب اعتراض طائرة فرنسية لطائرات المراقبة البحرية الإيرانية التي تقترب من قوة المهمة البحرية، فالطائرات الإيرانية Orions P-3 - سرعان ما تراجع لمنع الطائرات الفرنسية من اللجوء إلى استخدام أسلحتها.

وفي الوقت نفسه، حاولت الحكومة الفرنسية التفاوض مع المبعوثين الإيرانيين لإيجاد نهاية مشرفة للأزمة. وضع وزير الشؤون الخارجية شارل باسكوا قضية الرهائن الفرنسيين بلبنان على بساط البحث، وعرض مرة أخرى قضية وحيد كورجي ورقة مساومة. كان الإيرانيون يؤيدون الفكرة، ولكنهم طلبوا تنفيذ الدفعة الثانية من فرض Eurodif، وطلبوا أيضًا إطلاق سراح أنيس النقاش وجماعته. وافق جاك شيراك على تبادل السجناء، ومن حيث المبدأ على تسوية مالية أخرى، وذهب إلى أبعد من ذلك بمنح أنيس النقاش عفوًا رئاسيًا إذا تم انتخابه رئيسًا للجمهورية في الربيع المقبل. واعتمادًا على الصحفيين بير فافير Pierre Favier و ميشيل مارتن رولاند Michel Martin-Roland وجان تشارلز مارشيانى Jean-Charles Marchiani فإن مبعوث رئيس الوزراء أخبر السلطات الإيرانية - كما يزعم - أن قضية إطلاق سراح أنيس النقاش قد تم الاتفاق عليها شفويًا بين طهران وحكومة جاك شيراك⁽²⁾. جيان لويس نورماندين وروجر أوكي.

1 - للاطلاع على نشاطات البحرية الفرنسية المفصلة في الخليج، انظر:

Dominique Guillemin, "L'action de la Marine nationale pendant la guerre Iran-Iraq," in *Le Pétrole et la Guerre*(Brussels: Peter Lang, 2012), 335-362.

2- Pierre Favier and Michel Martin-Roland, *La Decennie Mitterrand*, vol.3 of *Les Defis*(Paris: Le Seuil, 1996), 432-433.

في 27 تشرين الثاني 1987 تم إطلاق سراح الصحفيين جان لويس نورماندين - Jaen Louis Normandin و روجور أوكي Roger Auque في بيروت. وفي اليوم التالي رفعت الشرطة الفرنسية حصارها عن السفارة الإيرانية بباريس، واستسلم وحيد كورجي مباشرةً للسلطات الفرنسية وتم استجوابه من القاضي بولوك الذي لم يوجّه إليه أية اتهامات، ثم وُضع على الطائرة وأُبعد إلى إيران. وبذلك انتهت حرب السفارات. وخلال أيام قليلة دفعت باريس إلى طهران مبلغ 330 مليون دولار تمثل الدفعة الثانية من قرض Eurodif⁽¹⁾. استمرت المفاوضات، ويبدو أن جاك شيراك الذي يخوض آنذاك الانتخابات الرئاسية قد وعد إيران أنه سيعيد اشتراك طهران في مشروع Eurodif، ويُمكنها من الوصول إلى مفاعل Tricastin لليورانيوم المخصب إذا أطلقت سراح الرهائن الفرنسيين بלבنا عند إجراء الجولة الثانية من انتخابات الرئاسة الفرنسية⁽²⁾. إنّه عرضٌ مغرٍ جدًا للحكومة الإيرانية التي أعادت نشاط برنامجها النووي وتحاول بإلحاح الحصول على اليورانيوم المخصب.

وبينما تم إطلاق سراح آخر ثلاثة رهائن فرنسيين مارسيل فونتين Marcel Fontain ومارسيل كارتون Marcel Carton جان بول كوفمان Jean-Paul Kauffmann في 4 مايس 1988، بين جولتي الانتخابات الرئاسية والمنافسة بين جاك شيراك وفرانسوا ميتران، لكن ذلك لم يكن كافيًا لضمان فوز شيراك، وهزيمته من ميتران تضع نهايةً لأول تعايش بين الاشتراكيين والحزب الجمهوري. وظهرت للسطح قضية كورجي مرةً أخرى في النقاش التلفزيوني بين رئيس الوزراء والرئيس بعد الجولة الأولى من الانتخابات. وبعد أن صرّح جاك شيراك أن إطلاق سراح وحيد كورجي كان بقرار قضائي فقط اعترض فرانسوا ميتران على ذلك، وادّعى أن القاضي بولوك تسلّم تعليمات بذلك من الحكومة. وحينما سأله رئيس الوزراء: "هل يمكنك حقًا أن تنظر في عيني وتعارض روايتي للحقائق؟" أجاب فرانسوا ميتران: "أنظر في عينيك وأعارض روايتك". وبعد سنتين انتحر القاضي بولوك لشعوره بالإهانة والاشمئزاز من الاستغلال السياسي لهذه القضية.

1- Dominique Lorentz, Secret atomique, ou la veritable histoire des otages francais au Liban.(Les Arenes, 2002); <http://fr.wikipedia.org/wiki/Eurodif>; <http://www.Iran-resist.org/article167>.

2- Ibid.

الفصل الثامن والعشرون

اشتعال النيران في الخليج

في ذروة حرب السفارات بين باريس وطهران أعدت واشنطن "العملية الإرادة الجادة" لمرافقة السفن التي ترفع العلم الأمريكي وتبحر في الخليج. بدأت تلك العملية في يوم 21 تموز 1987، وكانت أكبر عملية مرافقة بحرية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث رفعت إحدى عشرة سفينة ذات العلاقة بهذه العملية (ثمانى ناقلات نفط، وثلاث ناقلات للغاز الطبيعي السائل) العلم الأمريكي وتمت إعادة تسميتها، وكلُّ واحدة وُضعت تحت قيادة قائد أمريكي وبدعمٍ من عدد قليل من الجنود الاحتياط من البحرية الأمريكية. ومن الناحية السياسية، كانت الفكرة إظهار أن مشيخات الخليج يمكنها الاعتماد على الولايات المتحدة لضمان أمنها. وعلى خلاف أعماله في لبنان قبل ثلاث سنين، فإنَّ البيت الأبيض لن يتراجع وسيبقى في المنطقة مهما كانت الأحداث. اختارت البحرية الأمريكية الاعتماد على أفضل طرق إدارة قوافل السفن، حيث سيرافق طرادٌ ومدمرة وفرقاطتان تلك القوافل من ناقلات النفط وناقلات الغاز المسال من الكويت إلى نقطة خروجها من مضيق هرمز في خليج عمان. غادرت أول قافلة منصة كويتي - الأحمدى في مساء يوم 21 تموز. كان طول الطريق في منطقة الحظر المعلنة من إيران تبلغ 800 ميل (1300 كيلومتر) ويمرُّ بالقرب من الجزر الصغيرة وأرصفة النفط التي حولها الباسدزان إلى حصون وقلاع.

كان الأدميرال Harold Bernsen قائد قوة المهمة في الشرق الأوسط يعتقد أن وجود السفن الحربية الأمريكية الرادع الكافي لتجنب أية مواجهة مع إيران. ويدرك أن ليس باستطاعة الإيرانيين مهاجمة هذه القوافل مباشرة، ولكنهم اعتمدوا على استراتيجية العمل غير المباشر. في يوم 24 تموز ارتطمت الناقلّة العملاقة "الرقّة" وأعيد تسميتها Bridgetown بلغم بحري أدى إلى أضرار بليغة وأجبر السفينة على العودة. واصلت قافلة السفن طريقها مع المراقبة الدقيقة لسطح المياه لرصد أية ألغام أخرى. وقعت الحادثة بالقرب من ساحل العربية السعودية على بعد ثمانية عشر ميلاً (30 كيلومتراً) من جزيرة الفارسي التي تسيطر عليها إيران. وفي الواقع دخلت القافلة في حقل ألغام حقيقي لم يكن موجوداً قبل أيام قليلة. وعلى الرغم من نكران إيران بشدة علاقاتها بالحادث، لا أحد يقتنع بذلك. هذه مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة ولجسّ نبضها استخدمتها إيران مع أول قافلة ناقلات نفط وغاز ترافقها السفن الأمريكية.

الولايات المتحدة تتخذ عمل مباشرًا

كانت الولايات المتحدة مقتنعةً أن إيران يجب أن تُلقن درسًا عاجلاً أو آجلاً، وأسرع البتاغون بشحن معدات إزالة الألغام إلى الخليج، ونشر تعزيزات بحرية مهمة في المنطقة. أرسل واحدة من مجموعاته البحرية بقيادة حاملة طائرات الهلوكوبتر Gaudalcanal إلى المنطقة والرسو مقابل سواحل الإمارات العربية المتحدة. أما حاملة الطائرات Constellation التي من المفترض أن تعود إلى الولايات المتحدة صدرت لها الأوامر بالبقاء في خليج عمان مع حاملة الطائرات Ranger. بلغت القوة الجوية على ظهر هاتين الحاملتين 170 طائرة، أكثر مما يمكن لإيران حشده من كلّ قواعدها مشتركة. أما سفينة القتال "ميسوري"؛ وقفت على استعداد لعبور مضيق هرمز واستخدام قوتها النارية المدمرة في الخليج البالغة اثنين وثلاثين صاروخًا بحريًا توماهوك وتسعة مدافع ذات 406 ملم وبمدى ثمانية عشر ميلاً (30 كيلومتراً). هذه السفينة الحربية التي تم تحديثها (على ظهرها وقّعت اليابان استسلامها

رسمياً في أيلول 1945) تستطيع تدمير أية منشآت ساحلية. وأخيراً، حصل الأدميرال Bernsen على ضمان بنشر خمسة زوارق حاملة للصواريخ التي يعدّها مثالية لمواجهة القوارب الإيرانية القتالية السريعة الهجوم من طراز II-class.

تملك البحرية الأمريكية الآن خمسين سفينة حربية في المنطقة مع ثلاث وعشرين سفينة بريطانية وفرنسية إضافية هناك. أمّا إيران؛ لديها أربع فرقاطات، وطراد واحد، وعدد قليل من سفن الإسناد، وعشرة قوارب حاملة للصواريخ لمواجهة تلك القوة، ولم تعد مدمراتها الثلاث المهيبة لها قيمة عسكرية؛ لأنّ أنظمتها التسليحية كانت خارج الخدمة آنذاك، وسفنها الحربية الأخرى إمّا أغرقت أو دُمّت خلال المعارك. ولدى قائد البحرية الإيرانية العميد البحري ملك صادقيان خمس سفن برمائية هجومية؛ لتجهيز الحاميات العسكرية المنتشرة على الخليج، ولكن تقوم بزرع الألغام بصورة سرية. والدعم الجوي الوحيد الذي يمكنه الاعتماد عليه محدود باثنتي عشرة طائرة فانطوم مقاتلة، وست طائرات اعتراض Tomcat، وثلاث طائرات Orion للمراقبة البحرية. أمّا حسن علي قائد فرع الباسدران البحري؛ كان لديه ستين زورقاً بخارياً مسلحاً التي تبدو كبعوضة أمام السفن البحرية الغربية. وهو أيضاً يقود عددًا قليلاً من طائرات الهليكوبتر، فضلاً عن عشرين طائرة تدريب Pilatus PC-7 المُتسلّمة من سويسرا، التي هدّد بتحويلها إلى طائرات انتحارية محشوة بالمتفجرات. وظهر مرةً أخرى شبح Kamikazes في تفكير الأدميرال الأمريكي فجأة الذي سهّل قواعد الاشتباك لسفنه، وسمح لهم بإطلاق النار على أية طائرة معادية إذا دخلت مجالهم الأمني البالغ 20 ميلاً بحرياً. وفي إجراء احترازي، خطّط الأدميرال Dennis Brooks - الذي يشرف على العملية بالكامل من السفينة الحربية Long Beach من بحر عمان - لحملة قصف جوي تهدف إلى تدمير القواعد الجوية والبحرية الإيرانية، وكذلك بطاريات صواريخ سلكورم.

ومع ذلك وقبل الوصول إلى هذه الأهداف القصوى، كانت الولايات المتحدة مصمّمة على الردّ وقهر إيران على وفق شروطها. في أواخر شهر تموز وبالاتفاق مع المخابرات الأمريكية والبيت الأبيض شنّ البتاغون عملية Prime Chance. ولمّا كانت كل

من الكويت والمملكة العربية السعودية ترفضان وجود قواعد عسكرية على أراضيها، أقامت الولايات المتحدة سرًا قاعدتين عائميتين متحركتين في الخليج، ومنهما يمكن لقواتها الخاصة رصد أنشطة الباسدران البحرية، والرد على هجماته على التجارة البحرية هناك. وتم وضع زورقين "مدنيين" في المياه الدولية بالخليج، تم تأجيرهما قانونيًا من الكويت، وتهدف رسميًا لصيانة منصات النفط. أطلق على الأول تسمية "هرقل" ورسى في الجزء الشمالي من الخليج بين جزيرة فارسي العائدة لإيران والساحل السعودي. والثاني الذي تم تسجيله تحت اسم Wimbrown7 رابط إلى الجنوب من الخليج بالقرب من الساحل الإماراتي وعلى بعد نحو ثمانية عشر ميلًا (30 كيلومترًا) من جزيرتي سيرى وأبو موسى.

وبينما هذان الزورقان يبدوان مجردين من السلاح تمامًا من الخارج، فإنهما في الواقع قلاع حقيقية يرتقيان إلى أفلام جيمس بوند. يوجد في كل زورق سقيفة مموهة تأوي طائرة نقل هليكوبتر بلاك هوك، وطائرتي هليكوبتر هجوميتين AH-6 Cayuse. وعلى ظهر كل زورق زورقلن مُخزنان للحراسة يمكنهما حمل قوتين هجوميتين بحريتين نوع SEAL⁽¹⁾، وعلى متن كل زورق جهاز رادار وأنظمة الحرب الإلكترونية. ويتم الدفاع عنهما بصواريخ أرض - جو Stinger المحمولة ومدفعية Phalanx الموجهة بالرادار وبطاقة نيران عالية جدًا يمكنها تدير طائرة، وزورق مسلح، وقاشدات بحرية. وفي أسوأ الأحوال، لدى هذه الزوارق من الذخيرة والسلاح ما يكفي لمقاومة تأثيرات الصواريخ والقنابل. وكانت ترافقهم قاطرة تحمل ساترًا دخانيًا لحجب الرؤية عن العدو، وتقوم بتحريكهما باستمرار. ففي النهار يقومون بأعمال الصيانة والمحافظة على الظهور بمظهر المجرد من السلاح، ولكنهما يظهران للعيان في الليل، حيث تقوم القوة البحرية بإنزال قوارب الحراسة من على متن الزورق إلى المياه، وتقلع طائرات الهليكوبتر Cayuse في مهمات الحراسة. وانتشارهما على متن الزوارق يشبه فيلمًا للتجسس. ويتذكر دونالد إيسبل Donald Isbell أحد طياري الهليكوبتر Cayuse، قائلاً: كنا مع كتيبة العمليات الجوية الخاصة رقم 160 التابعة للجيش الأمريكي،

1 - يشير الاسم البحري SEAL إلى الحروف الأولى للطرق العملية لرجال الضفادع في البحرية الأمريكية

"Sea, Air, and Land" ولذلك كانت الكنية "seal".

وكلنا مؤهلون كمغاوير نُعرف باسم المتسللون الليليون Night Stalkers. وكنا من أوائل الطيارين المُجهَّزين دائماً بمناظير الرؤية الليلية؛ لأننا لا نحلق إلا في الليل. غادرنا قاعدتنا Fort Campbell بولاية كنتاكي Kentucky على متن طائرة ضخمة C-5 Galaxy التي كانت تنقل معها طائرات هليكوبتر وتجهيزات أخرى. وقبل أن نغادر يجب أن أتناول جرعةً من الحبوب تكفي للنوم طوال مدة الرحلة. خلدت للنوم بمجرد الإقلاع ولم أستيقظ إلا بعد خمس عشرة ساعة، وبوقت قصير من الهبوط ليلاً في قاعدة Thumrait بسلطنة عمان. ولم أكن بالضبط نشطاً بقوة، ولكن بحالة جيِّدة تكفي لمساعدة الميكانيكيين بإنزال طائرات الهليكوبتر من الطائرة وجعلهن جاهزات للطيران. وبعد ساعتين من هبوطنا، أقلعنا بطائرتنا الهليكوبتر لنهبط على متن فرقاطة كانت على وشك عبور مضيق هرمز. وفي الأيام التي سبقت تحويلنا نقحنا خطط طيراننا. وبعد يومين، أقلعنا في الليل والهبوط على زورقنا وبدأنا بمهمتنا. كنا نُظهر الهليكوبتر ونحلق على الدوام في الليل حينما نتأكد عدم وجود أقمار صناعية سوفيتية فوق رؤوسنا. وهناك فريقٌ من المراقبين الجويين في زوارقنا يرشدنا. وتم تكييف طائرتنا الهليكوبتر لكي يمكنها التحرك بهدوء كلما أمكن ذلك وتقوم بقشط مياه البحر. كان بإمكاننا الحوم على بعد 500 متر تقريباً (1600 قدم) من منصبة نفطٍ إيرانيةٍ وأضوائنا مطفئة ومن دون أن يرصدنا أحد. ولدينا سارية مراقبة فوق الدوّار تمكنا من فحص هدفنا بصور مكبرة بالأشعة تحت الحمراء. وفي بعض الأحيان نتسلّم أوامر بمهاجمة وإغراق الزوارق المسلحة الإيرانية التي هاجمت لتوها إحدى ناقلاتنا للنفط، وكان هذا من السهل القيام به؛ لأننا نملك مدفع 30 ملم، ومنصتين لإطلاق القذائف، أي من الناحية العملية لا يمكن أن نُقهر. وهناك خطران رئيسان هما الحوادث المحتملة دائماً نظراً لظروف الطيران الصارمة، وصواريخ الباسدران نوع Stinger⁽¹⁾.

وفي أغلب الأحيان، لم تتدخل طائرة الهليكوبتر المسلحة مباشرة، ولكن تُسلّم المهمة إلى فريق SEAL البحري الذي يقوم بالعمل خلسة⁽²⁾. لم يكن الهدف الرئيس تحييد

1 - مقابلة مع المؤلف في روما في 13 مايس 2008. أُقيمت الطائرات OH-58 بدلا من طائرات الهليكوبتر AH-6 في بداية شهر كانون الثاني 1988.

2 - انظر الرواية المضبوطة للقائد Gray Stubblefield في:

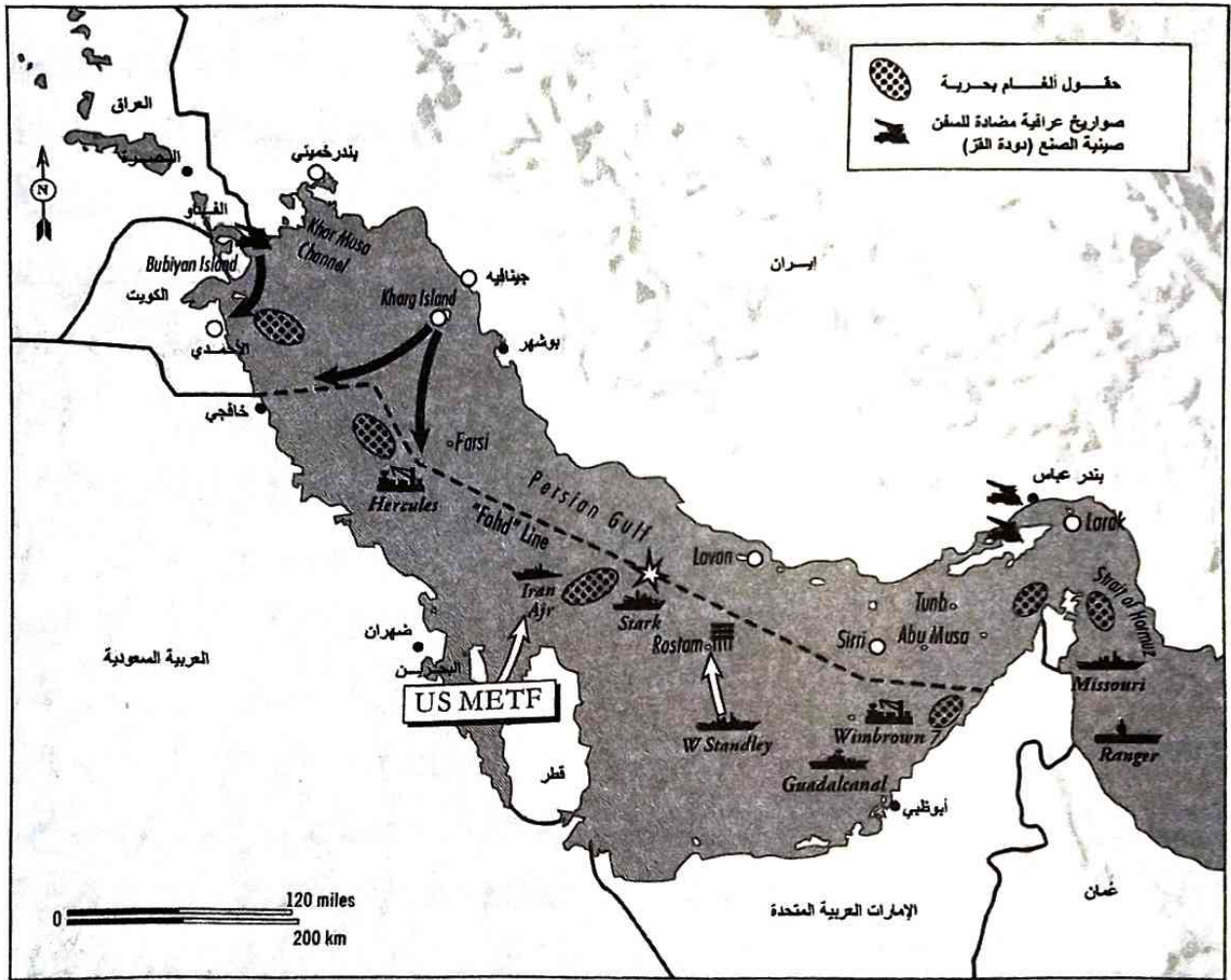
Inside the Us Navy SEALs(Osceola,WI:MBI Publishing,1995),154-170.

الباسدران، ولكن رصد أنشطتهم لمعرفة هجومهم المفاجئ والإمساك بهم وهم يزرعون الألغام البحرية. ومن أجل متابعة هذه الأهداف تبقى طائرات الهليكوبتر رابضةً على متن الزورقين "هرقل" و Wimbrown7 وفي بعض الأوقات تُنشرُ على متن فرقاطة لتبقى على أهبة الاستعداد وأن توسع من مدى عمليّاتها.

أجرت طهران في يوم 4 آب وبوضوح مناوراتٍ جويةٍ وبحريةٍ في مضيق هرمز لعرقلة قوافل السفن ومحاولة السخريّة من يرافقها. استخدم الإيرانيون هذه المناورات؛ للكشف عن الغوّاصات الصغيرة التي تسلّمها مؤخراً من كوريا الشمالية، وكذلك عن الزوارق الموجّهة بالراديو والمحمّلة بالمتفجرات بصورة تامّة التي يمكن تفجيرها ذاتياً على السفن الحربية الغربية وهي في ذروة سرعتها. ردّ الأدميرال بروكس Brooks بإرسال عدّة مدمّرات لمراقبة المنطقة في المضيق وعلى حافات منطقة الحظر الإيرانية. أرسلت الحكومة الإيرانية وبصورة غير مبالية طائرة فانطوم باتجاه حاملّة الطائرات Constellation، لكن اعترضتها طائرة المراقبة Tomcat مباشرة وأطلقت صاروخين باتجاهها ممّا أجبرها على الفرار. وفي 10 آب ألحقت الأضرار بناقلة نفط عملاقة مملوكة لشركة Texaco في بحر عمان خارج منطقة الخليج نتيجة لانفجار لغم بحري عليها. وفي اليوم نفسه تم رصد عدة عشرات من الألغام البحرية في مضيق هرمز، ما أدّى إلى إبطاء حركة المرور البحرية هناك.

تصاعدت التوترات مع طهران قليلاً، وتفاقت نتيجة حادثة مكة بعد أسبوع حينما قام بعض الحجاج الشيعة - ربما بتوجيه من المخابرات السرية الإيرانية - بحركة استفزازية دموية في أثناء موسم الحجّ بمكّة، ما أدّى إلى 400 قتيل و700 جريح. ردّ الملك السعودي مباشرةً وطلب من الولايات المتحدة تزويده بمساعدة أكبر لتمكنه من سيطرة أفضل "لخطّ فهد" الذي تم تمديد مظلّته الدفاعية لتشمل المشيخات المجاورة. زاد البتاغون وبشكل واسع وهو تحت الضغط من عدد مهمّات أقمار المراقبة الجوية لوضع خطوط الدفاع الإيرانية تحت المراقبة الشديدة ومحاولة رصد حقول الألغام الجديدة. وغادرت طائرات التجسس المشهورة U-2 و SR-71 قاعدة أنجرلك بتركيا و Kadena باليابان للتحليق فوق الخليج ليل نهار وعلى ارتفاعات عالية لتكون خارج مديات الدفاعات الجوية الإيرانية. وفي

غضون ذلك، كانت كاسحات الألغام في البحرية الأمريكية مستعدة الآن لبدء مهمتها، وبدأت بعمليات التخلص من الألغام البحرية في مضيق هرمز وبمساعدة السفن الفرنسية والبريطانية، وخمس من الدولفينات المُدرَّبة على رصد الألغام البحرية الغاطسة التي تم جلبها من الولايات المتحدة بمبالغ كبيرة.



خارطة عدم الاستقرار في الخليج عام 1987

إيران تتحدى البحرية الأمريكية

استأنفت القوة الجوية العراقية في 30 آب 1987 هجماتها في الخليج بعد توقُّف استغرق ثلاثة أسابيع. لقد فشلت الوساطة السوفيتية وتوصَّل النظام العراقي إلى خلاصة أنه يجب ضرب الاقتصاد الإيراني بقوة أكبر لإجبار إيران على الإذعان. وعادت طائراته الميراج F-1 و SU-22 لمهاجمة ناقلات النفط المتوجِّهة للتحميل من إيران. وخلال أيام متعدِّدة، ألحقت أضراؤُ بعشر سفنٍ وبالمنشآت النفطية في خارج، لافان، سيرى، ولاراك. وأسقطت طائرات Tomcat التي تحمي منصات النفط الإيرانية طائرة ميراج وأخرى SU-22 عراقيتين. وصلت حرب الناقلات ذروتها في شهر أيلول حينما شنَّ العراقيون واحدًا وأربعين هجومًا، بينما شنَّ الإيرانيون سبعة عشر. وأجبرت شركة لويد للتأمين على رفع نسب التأمين إلى 50٪ على السفن التي تعبر الخليج.

ردَّت إيران بزيادة وتيرة هجماتها إلى واحدة أو اثنين يوميًا، وإطلاق دفعات من صواريخ سلكورم من شبه جزيرة الفاو باتجاه الأراضي الكويتية. سقط أحد الصواريخ في خليج مدينة الكويت وعلى مرمى حجر من المدينة ومرأى من السكان الذين أُصيبوا بالذهول. وزرع الإيرانيون ألغامًا أكثر في الخليج. ارتطمت سفيتان بألغامٍ منجرفةٍ بالقرب من جزيرة فارسي، وغرقت إحداهن وهي مسجلة في بنما كما يفرق الحجر. في 7 أيلول أعلنت حكومتا بلجيكا وهولندا أنَّهما سترسلان أسطولًا ثنائيًا يتكوَّن من أربع كاسحات ألغام إلى مضيق هرمز، وأنَّ البريطانيين أعطوهم ضمانًا بالمساعدة اللوجستية. وفي اليوم التالي أعلنت إيطاليا أنَّها سترسل قوةً بحريةً إلى الخليج (ثلاث فرقاطات، ثلاث كاسحات ألغام، وسفينة للتزوُّد بالوقود)؛ ردًّا على مهاجمة زورقٍ مسلَّحٍ للباسدران سفينة حاويات إيطالية قبل خمسة أيام. أمَّا ألمانيا وعلى الرغم من مهاجمة الباسدران لعدد من ناقلاتها فإنَّها وضعت حماية اتفاقياتها التجارية مع إيران أولًا، وأعلنت أنَّ بنود دستورها تمنعها من القيام بأية عمليَّات حربية في الخارج. وكان امتيازها الوحيد تعزيز وجودها البحري في البحر

الأبيض المتوسط كجزء من مهمة حلف الأطلسي لاستبدال الأسطول الأمريكي السادس الذي أعاد انتشاره الآن في منطقة الخليج.

وفي الوقت نفسه، قام الأمين العام للأمم المتحدة خبير بيرث دي كويار بمهمة وساطة بين بغداد وطهران؛ لشعوره أن الأحداث اتخذت منعطفًا خطيرًا. صرّح علي خامنئي وأكبر هاشمي رفسنجاني أنّهما مستعدّان لقبول قرار الأمم المتحدة رقم 598 بشرط أن تعلن اللجنة الدولية رسميًا تحميل العراق مسؤولية بدء الحرب، لكنّ باريس وواشنطن كانتا تعارضان هذا المقترح؛ لأنّ كلتا الحكومتين تريد معاقبة إيران ولأسباب مختلفة. ولتبرير قرارها، نشر البيت الأبيض تفصيلات لمواجهة بين البحرية الأمريكية وسفينة هجوم برمائية إيرانية "إيران أجر" لبيان ازدواجية إيران.

وفي 21 أيلول 1987، غادرت "إيران أجر" قاعدتها في بندر عباس سرًا، مبحرة بين الساحل الإيراني وجزيرة قشم باتجاه منصّة جزيرة سيّري. تمّ رصدها مباشرة من البحرية الأمريكية، ويعود الفضل في ذلك إلى غوّاصة الهجوم النووية التي كانت في مهمة مراقبة بالقرب من القاعدة الإيرانية. ثمّ تمت متابعتها بالأقمار الاصطناعية. وبمجرّد حلول الليل حوّلت "إيران أجر" مسارها نحو المياه الدولية. رصدت طائرات الهليكوبتر Cayuse للزورق البحري Wimbrown7 للمراقبة وبدأ بالمتابعة. وعند منتصف الليل، وبعد إعادة التزوّد بالوقود على متن الفرقاطة Jarrett تمكّن الطيارون الأمريكيون من الإمساك "بإيران أجر" تزرع الألغام في قلب القناة الملاحية الدولية على بعد خمسين ميلًا (80 كيلومترًا) إلى الشمال الشرقي من البحرين. استخدم الطيارون وهم يتحرّكون بسرعة بطيئة كاميراتهم بالأشعة تحت الحمراء لتصوير "إيران أجر" لعدة دقائق. وحالما عدّ المسؤولون الأدلة كافية للإدانة أمرّوا طائرات الهليكوبتر بالهجوم، حيث أطلقت الطائرتان Cayuses دفعة من قذائفها نحو غرفة المحركات لمنع السفينة من الحركة، ثم أطلقت الرصاص على متن السفينة لمنع الطاقم من الخروج إلى السطح. تمّ نقل فريقي SEAL بحريين بالهليكوبتر من سفينة الهجوم Guadalcanal والسيطرة على السفينة الإيرانية في أقلّ من نصف ساعة، وقتل خمسة بحّارة إيرانيين في الهجوم، وأخذ الستة والعشرين الباقين سجناء. فسّس رجال الضفادع الأمريكيون

السفينة ووجدوا دوزينة من الألغام جاهزة للزرع، وحصلوا على وثائق قيمة تتعلق بالبحرية الإيرانية. تم ترحيل السجناء والقتلى إلى مقرات قوة المهّمات في الشرق الأوسط بالبحرين، بينما تم إغراق السفينة في المياه الدولية. وتم نشر صور طاقم الإيرانيين المرتبكين لسفينة "إيران أجر" وهم يزرعون الألغام على العالم ممّا يعرض إيران لتحمل مسؤولية زرع الألغام في الخليج. يمثل هذا ضربةً للملاي. حتى الصين أجبرت على إدانة موقف إيران؛ من أجل ضمان إمدادات نفطها من العربية السعودية. وممّا جعل الأمور أكثر سوءاً، هاجم الباسدران ناقلة نفط بريطانية Gentle Breeze في اليوم نفسه، ما أدّى برئيسة الوزراء مارغريت تاتشر إلى إغلاق "مكتب" لندن الإيراني مباشرة المسؤول عن المفاوضات السريّة لشراء السلاح والذخيرة من أوروبا.

وفي غضون ذلك، صعّدت القوّة الجوية العراقية من هجماتها على منصات النفط الإيرانية. وخلال غارة على لارك عند نهاية الخليج دمرت الناقلّة العملاقة الأكبر في العالم Seawise Giant التي كانت تستخدمها إيران مستودعاً عائماً للنفط الخام. في 29 أيلول تم إسقاط طائرة ميراج F-1EQ5 فوق لافان بصاروخ Stinger الأمريكي الصنع حصل عليه الإيرانيون من المجاهدين الأفغان. تمكّن الطيّار من القذف بنفسه وأنقذته طائرة هليكوبتر أمريكية بعد ستّ وثلاثين ساعة، ثم نُقل إلى السفينة Guadalcanal وأعادته إلى العراق. عاد هذا الطيّار إلى القتال مباشرةً على متن واحدة من طائرات الميراج F-1EQ6s التي تم تسلّمها مؤخّراً من فرنسا. هذه الطائرة نسخة مطوّرة من طائرة ميراج F-1EQ5 ومزوّدة بأداء إلكتروني أكثر تطوّراً وبمدى عمليّاتي أكبر، ممّا يسمح لها باشتباك أفضل مع طائرات الفانتوم و Tomcat الإيرانية التي تقوم بعمليات المراقبة فوق الخليج.

وفي أواخر شهر أيلول اتخذت موسكو خطوةً حاسمةً أخرى في التقارب مع طهران، فعند افتتاح جلسة الجمعية العامّة للأمم المتحدة في نيويورك تحدّث أدوارد شيفرنادزه عن التهدئة وانتقد سياسات واشنطن وباريس الطائشة، فتنفّس القادة الإيرانيون وأغضب صدام حسين. عاد طارق عزيز الذي لا يعرف التعب إلى موسكو في محاولةٍ للقاء نظيره السوفييتي والخضوع وإبلاغه موقف رئيسه، لكنّه اصطدم بحائط من البرود. فالكرملين لم ينسَ الطريقة التي تعامل بها صدام حسين مع يولي فوروننتسوف قبل شهرين. حاول رجل اليد اليمنى

لصدّام استخدام مسيحيّته لتليين شيفرنادزه، مذكّرًا إيّاه بالدور التاريخي للكرملين بوصفه حامياً للمسيحية بالشرق الأوسط، لكنّ جهوده باءت بالفشل. وفي الوقت نفسه، فشل الدبلوماسيون السوفييت في إقناع النظام الإيراني ليكون أكثر مرونةً، على الرغم من التهديد بتشريع حظرٍ على إيران. لم ينخدع الإيرانيون بسهولة؛ لأنّهم يدركون تمامًا أنّ الحرب جعلت شركات متعدّدة ومحترمة تجني أرباحًا كبيرةً من جراء التجارة معهم. كانوا يشعرون أنّ العقوبات الاقتصادية ما زالت بعيدة الاحتمال نسبيًا، ممّا يبقي فسحةً لهم للمناورة في الخليج. اكتشفت السفن الحربية الفرنسية في 2 تشرين الأول 1987 حقلًا آخر للألغام مقابل إمارة الفجيرة الصغيرة تم زرعها بوساطة "الدهو" وهو مركبٌ شراعيٌّ معروف بالجزيرة العربية يُستخدم للتجارة غير القانونية بين السواحل الإماراتية والإيرانية. في اليوم التالي، حشّدت إيران خمسين زورقًا مسلّحًا للباسدران بالقرب من جزيرة خارج في النهاية الأخرى من الخليج، وأرسلتهم إلى الخفجي، الميناء السعودي الصغير الواقع بالقرب من الحدود الكويتية. لم يكن الهدف غزو العربية السعودية، بل لاختبار عزيمة الملك فهد عند تنفيذ غارة على سواحله. سرعان ما رصدت هذه القوة البحرية طائرة الأوكس مباشرة التي حذرت القيادة العسكرية السعودية العليا وقوة المهمات الأمريكية في الشرق الأوسط ومقراتها بالبحرين. وجّه الأدميرال برنسن Bernsen على الفور إحدى سفنه لاعتراض تلك القوة الإيرانية، بينما أرسلت البحرية السعودية فرقاطةً وأربعة زوارق مسلّحة بالصواريخ إلى المنطقة. وبما إنّ السفن الكبيرة ربما تصل متأخرة بعض الوقت أمر الأمير سلطان وزير الدفاع عشرين طائرة F-1 المقاتلة وأول طائرة تورنادو تم تسلّمها من المملكة المتحدة للتحليق فوق الزوارق الإيرانية المسلّحة. أمّا الملك من جانبه؛ اتصل بطهران وحذّر الإيرانيين أنّ طائراته وسفنه ستطلق النار دون أيّ تحذير على أيّ زورق بخاري يعبر خطّ الملك فهد. كانت سرعة السعودية التهديد بالردّ، وحجم القوات التي استعدّت للمواجهة، أقنعت السلطات الإيرانية لإلغاء العملية وإعادة قوتها البحرية من هناك.

وحيثما رأى الإيرانيون أنّهم لا يستطيعون مهاجمة الأراضي السعودية غيرًا من خططهم. في ليلة 8 تشرين الأول أرسلوا ثلاثة زوارق مسلّحة وبمرافقة آخر طراد لديهم نوع

PF-103 لمهاجمة الزورق الأمريكي "هرقل". وفي اللحظة التي رصد طاقم الزورق القوة البحرية المهاجمة أمر قائد الزورق الأجهزة بالعمل. أقلعت طائرات الهلوكوبتر الثلاث من على متن الزورق، وأنزلت قوارب الحراسة الاثني عشر إلى الماء. أسرع الطيارون الأمريكيون تجاه القوة المهاجمة في محاولة لإخافتهم، لكنَّ أحد قوارب الباسدران المسلَّحة أطلق النار على إحدى طائرات الهلوكوبتر، ما أدَّى إلى إطلاق النار على القارب من طائرتي الهلوكوبتر الآخرين وإغراقه، وإصابة القارين الآخرين بأضرار بليغة. أمَّا الطراد الإيراني الذي بقي في المؤخرة؛ فقد نجا من القصف. لم يشتبك الإيرانيون وعادوا إلى جزيرة فارسي.

استخفَّت الفرقاطة الإيرانية "البرز" بالقوة البحرية الأمريكية مرةً أخرى، وأطلقت نيران مدفعتها في يوم 13 تشرين الأول على ناقلة النفط الليبيرية Atlantic Peace التي كانت تبخر بمجرد ميل بحري واحد عن المدمرة Kidd. وبما إنَّ السفن الأمريكية متدبة لحماية السفن التجارية التي ترفع العلم الأمريكي لم يُسمح للمدمرة Kidd بالردِّ. وبعد يومين أُطلق صاروخ سلكورم من شبه جزيرة الفاو على ناقلة النفط العملاقة Sangari الليبيرية وهي تقوم بتحميل النفط من منصة الأحمدى. وفي اليوم التالي هاجم الإيرانيون مرةً أخرى وأطلقوا صاروخ سلكورم آخر على المنصة نفسها. وهذه المرة ضرب الصاروخ مباشرة ناقلة النفط العملاقة Sea Isle City التي أُعيد تسجيلها مؤخرًا تحت العلم الأمريكي. أدَّت تلك الضربة إلى جرح قائد الناقلة وعدة بحارة بجروح بليغة، وكلَّهم من الأمريكيين. وحالما أبلغ الرئيس رونالد ريغان بالوضع أمر بالردِّ والانتقام.

البحرية الأمريكية ترد بالانتقام

شنت البحرية الأمريكية عملية الرامي الرشيق Nimble Archer في 19 تشرين الأول 1987. ففي الساعات الأولى من عصر ذلك اليوم أرسلت إنذارًا نهائيًا بالراديو إلى قوات الباسدران المتخذة في مرفأى النفط في قلب حقل نفط رستم على بعد ثلاثة وأربعين ميلًا (70 كيلومترًا) إلى الجنوب من منصَّة لافان (التي ترتبط بالمرفأين بخط أنابيب تحت الماء)،

وأعطتهم عشرين دقيقة للإخلاء. وقد صرَّح لاحقًا كولن باول نائب مستشار الأمن القومي الأمريكي آنذاك أن البحرية لم تقصف مباشرة بطاريات صواريخ سلكورم في رأس شبه جزيرة الفاو؛ لكي تتجنَّب إعطاء انطباع مباشر أنَّ الولايات المتحدة متحالفة مع العراق. ولم يعد هذان المرفآن في الخدمة بعد أن دمرتَهما القوة الجوية العراقية، لكنهما أصبحا معلمين للزوارق المسلَّحة وطائرات الهليكوبتر الإيرانية لمضايقة التجارة البحرية. وفي الساعة الثانية بعد الظهر بالضبط، وبعد إهمال انتهاء فترة الإنذار فتحت المدمرات Kidd, Hole, Leftwich, John Young اللواتي كنَّ يبحرن على بعد أميال بحرية قليلة النار على أهدافهما الاثنين. وكانت كلُّ من السفينة الحربية William Standly وطائرتي Tomcat تتولَّى حماية تلك المدمرات من أية غارة جوية معادية. وخلال ساعة ونصف أطلقت المدمرات أكثر من ألف إطلاقاً كبيرة دمرت المنشأتين هناك. أرسل الإيرانيون طائرة فانطوم إيرانية للإنقاذ لكن طيارها سرعان ما عاد حينما رأى حجم القوة الأمريكية. وبعد انتهاء إطلاق القذائف، نزل على إحدى منصتي النفط فريق SEAL البحري ودمرها بالمتفجرات. انتهت العملية في منتصف عصر ذلك اليوم؛ لكي تكون على عناوين الأخبار الرئيسة بواشنطن في الصباح التالي. أقامت الحكومة الإيرانية الشكوى أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي تطلب الحكم باعتبار تدمير البحرية الأمريكية لمنصة النفط في مرفأ رستم وإغراق البرمائية "إيران أجر" عملاً من أعمال القرصنة⁽¹⁾.

وفي 22 تشرين الأول، كان الإيرانيون يشعرون بالغضب من إذلالهم، وأطلقوا صاروخ سلكورم على منصة نفط كويتي الأحمدي. أدى الانفجار إلى تدمير الرصيف الرئيس تدميرًا كبيرًا. وقصفت المدفعية الإيرانية جزيرة بوبيان الكويتية في الوقت الذي كان الباسدران يقوم بالغارة على الجزيرة. أدرك الأمير جابر أنه لا بدَّ أن يضع قدميه على الأرض وينصح إيران بعدم مواصلة استراتيجيتها للتخويف، وقبل مساعدة الولايات المتحدة التي نقلت عدة كتائب عسكرية إلى جزيرة بوبيان لمنع إيران من الاستيلاء عليها. وسمح الأمير جابر للبحرية الأمريكية بإعادة انتشار قاعدتها البحرية العائمة Wimbrown7 في المياه

1- وبعد مناقشات مطولة أعلن ICJ في يوم 6 تشرين الثاني 2003 أنه لم يستطع تسوية النزاع وحمل المسؤولية لكلا البلدين.

الكويتية ما دام موقعها في الجزء الجنوبي من الخليج لم تعد الحاجة ضرورية له بعد تدمير منصة نفط رستم. وأخيراً وافق على نصب المستشارين "المدنيين" بطارية صواريخ هوك على أراضيها، ونشر زورقين حربيين بطواقم أمريكية على طول سواحلها لحماية منصة الأحمدية. وهذه الزوارق مجهزة بمكبرات رادار باستطاعتها تضليل صواريخ سلكورم التي تطلق على مجتمعاتها النفطية. إنَّ الأساليب الإبداعية التي ابتكرها الإيرانيون لحماية منصة خارج تحوّلت الآن ضدّهم.

وفي غضون ذلك، لم ينسحب العراق من توجيه لكماته بهجماته على إيران. ففي أواخر شهر تشرين الأول قصفت طائراته بشدة مصافي النفط الإيرانية في طهران وتبريز وبندر خميني. وعلى الرغم من التفوّق الجوي للطائرات المقاتلة الإيرانية التي تمكّنت من إسقاط أربع طائرات ميغ 23- وطائرتي SU-22 شاركت في الهجمات، لكنّ ذلك القصف وجّه ضربةً قاصمةً للاقتصاد الإيراني وخسارته للطاقة الضرورية لتصفية الوقود اللازم للقوّات المسلّحة. وجد رئيس الوزراء موسوي نفسه مجبراً على استيراد الغاز، ناهيك عن تقليص الاحتياطات المالية الإيرانية. ثارت الحكومة الإيرانية بإطلاق خمسة صواريخ سكود على بغداد، لكن النظام العراقي لم يقع بالمصيدة، وواصل ضرباته على مكامن القوّة الاقتصادية من دون رادع.

ومنذ يوم 28 تشرين الأول حتى اليوم الأول من تشرين الثاني قام فورونتسوف بجولة نهائية للتوسّط ومحاولة تحريك الوضع للأمام. وهذه المرة استقبله صدام حسين ليسمعه شكواه من قادة الكرملين ورفضه بعنف أية تفسيرات زائفة لقرار مجلس الأمن رقم 598. ولجعل الجرعة أقلّ مرارة، طمأن الدبلوماسي السوفييتي صداماً أنّ السوفييت سيواصلون إمداد الجيش العراقي بالمساعدات العسكرية. أمّا في طهران؛ فقد تم استقبال فورونتسوف بودية من السلطات الإيرانية التي عبّرت عن استعدادها لمناقشة وسائل تطبيق القرار، لكنها لم تتزحزح إنجاً واحداً عن صلب القرار. وفي نظرهم، يجب على صدام أن يدفع ثمن اعتدائه، وأن يوصم بالمعتدي الذي يتحمّل المسؤولية عن هذه الحرب المرعبة التي دمّرت الخليج الفارسي لمدة سبع سنوات. أدرك السفير السوفييتي المتعب فشل وساطته،

على الرغم من أنَّ جهوده أثمرت عن فرض الاتحاد السوفييتي نفسه وسيطاً مقبولاً لكلا الطرفين. كان ذلك بحدِّ ذاته نجاحاً لكلِّ من ميخائيل غورباشوف وأدوارد شيفرنادزه؛ لأنَّ ذلك سيفيد توجُّهاتهم وتأكيداً لأفكارهم أنَّهم يعملون جيداً في تنفيذ سياستهم بانفتاح الاتحاد السوفييتي على الشرق الأوسط والعالم الثالث. وبعد عشرة أيام رأت الحكومة الإيرانية أن تظهر أنَّها باقية في سيطرتها على أراضيها وإسقاطها بوقاحة طائرة ميغ-25 كانت في مهمة مراقبة فوق إيران.

واصل طرفا النزاع خلال الشهرين الأخيرين من عام 1987 هجماتهما في الخليج وممارسة لعبة التخفي والبحث مع وجود ثلاثين سفينة حربية سوفييتية وغربية تبحر بين الأحمدي ومضيق هرمز، على الرغم من تراجع وتيرة الهجمات الإيرانية. ويبدو أن الموقف الأمريكي الصارم قد أتى أكله. وزوارق الباسدران الحربية التي كانت مسؤولةً عن أغلبية الهجمات تهاجم الآن ويحذر السفن غير المحمية بقوة مرافقة لها. في 7 كانون الثاني أطلقت طهران تاسع وآخر صاروخ سلكورم لديها على الأحمدي، لكن تم تضليل الصاروخ من أحد الزوارق الراسية أمام منصة النفط هناك. واستمرت كاسحات الألغام المنتشرة بالخليج في مهماتها لتنظيف المياه من الألغام البحرية، وفجَّرت أكثر من ثمانين لغماً بحرياً. ويتطلع إلى القدر، بدأ هؤلاء المتورطون بالحرب يسألون أنفسهم كم من الوقت ستستغرق هذه الحرب السخيفة!

الفصل التاسع والعشرون

مذبحة حلبجة

منذ مطلع عام 1988 ومع دخول الحرب عامها الثامن، كان نقص الموارد المادية والمالية قد دفع الإيرانيين إلى الامتناع عن شن هجماتهم الاعتيادية في فصل الشتاء. فخزينة الدولة الآن شبه فارغة تقريباً، والانتخابات التشريعية على الأبواب، ولا يريد أكبر هاشمي رفسنجاني إحداث حمام دم آخر ربما يُضرب بقوة صورته في البرلمان. ولذلك؛ بقيت الجبهة هادئة نسبياً، عدا بعض عمليات المضايقة من الباسدران في كردستان العراق بصورة رئيسة⁽¹⁾. ومع ذلك، اضطرت الحكومة إلى تمديد فترة الخدمة العسكرية الإجبارية لتعويض الخسائر الهائلة التي تعرّضت لها في السنوات السابقة، وتزايد أعداد الهاربين من الخدمة، وأعداد المرضى الحقيقيين وغير الحقيقيين من المبراطيين في الخنادق. ولذلك؛ اقترح آية الله منتظري دمج الجيش النظامي مع الحرس الثوري ليكون على الاستعداد الدائم لإرسال الموجات البشرية، فسبّب ذلك غضب كلا الجيشين. فكلٌّ من التنظيمين ملتزم بخصوصيته ومكانته، وهذا الواقع أفادت منه الحكومة بجعل أحدهما ينافس الآخر، ومن ثمّ ضمنت أنّ أيّاً منهما سوف لا يقوم بأية محاولة للانقلاب على النظام. وعارض حسن روحاني رئيس

1- تشمل هذه العمليات "النصر 5 و6"، وبعد ذلك "المدينة المقدسة 2" اللواتي حدثن في الفترة 12 كانون الثاني

و26 شباط 1988.

مجلس الدفاع الأعلى مقترح منتظري، واستمرَّ في التهيئة لعملية عسكرية واسعة النطاق، التي ستنتقل في كردستان العراق عند ذوبان الثلوج.

الجيش العراقي ينهض من جديد

انتهز الجيش العراقي فرصة الهدنة لتعزيز قواه وصقل تدريباته من خلال جهود الجنرال علاء الدين حسن مكي خماس، الذي أدخل عقيدةً قتاليةً جديدةً بالأسلحة المشتركة. وأضيفت فرقتان من الحرس الجمهوري (نبوخذنصر والفاو) إلى هيكل المعركة؛ لتوفير قوات صدمة احتياطية أكبر. وخلال فصل الشتاء كانت القوات العراقية تجري تدريباتٍ متواصلةً في مناطق تشبه طبيعة الأهوار الواقعة بين نهري دجلة والفرات، وأنشأ المهندسون العسكريون أرضًا تشبه الطبيعة الجغرافية لشبه جزيرة الفاو، حيث تتعاقب الوحدات العسكرية العراقية الواحدة بعد الأخرى في الأهوار؛ لتطوير أفضل السبل لعزل خطوط العدو ثمَّ اختراقها. كانت الأسلحة العراقية حديثةً وكافيةً وتتلاءم مع القتال بالآليات. وفي أفضل الوحدات تسليحًا تم تغيير الأسلحة القديمة بدبابات حديثة، وعربات مدرعة، وبالمدفعية. لقد أصبح الحرس الجمهوري جهازًا مستعدًا للقتال بشكل كامل ويتكوّن من ستّ فرق من النخبة قادرًا على المناورة بسرعة وإنزال صدمة مرعبة في أيّ قاطعٍ من الجبهة⁽¹⁾. فلديه أحسن المعدات، وعدد كبير من العربات، وبدعم ناري خاص به (مدفعية وطائرات هليكوبتر). وبإمكانه الاعتماد على حركة لوجستية لا تتوقف. وهذه الطفرة النوعية أثرت أيضًا في هيكل القيادة فيه، ولا سيّما أنّ السيرة الاحترافية للضباط كانت تؤتي ثمارها. ومن الطبيعي أنّ القيادة العسكرية العليا لا تزال تضم بعض الضباط الشيوخ من النمط القديم، ولكنّ العقدهاء والجنرالات من القادة بصورة عامة كانوا كفؤين ومتحمسين لواجباتهم. فالجنرال الخزرجي رئيس أركان القوات المسلحة يرأس الآن قوات فاعلة أكبر

1- كانت الفرق المدرعة "حمورابي" و"المدينة المنورة" هي المعنية بتلك المعارك فضلًا عن الفرقة الميكانيكية "نبوخذنصر"، وفرقة القوات الخاصة "توكلنا"، وفرق المشاة "بغداد" و"الفاو".

مِمَّا كان لدى رئيس الأركان السابق. وجيش عام 1988 لديه القليل من نقاط الالتقاء مع جيش عام 1980. ولأول مرة منذ اندلاع الحرب، أصبح لدى العراق قوات على الجبهة تساوي تقريبًا ما لدى إيران، أي أكثر بقليل من ثمانمئة ألف مقاتل، موزعين على ثمانية فيالق تحتوي على خمسين فرقة (سبع مدرعات، ثلاث آليات، وأربعين مشاة). وأكمل العراق بناء طرق جديدة التي حسّنت من وصول الإمدادات للقوات، والأكثر أهمية إنجاز الطريق السريع ذي الست مسارات الذي يربط بغداد بالبصرة، والذي ينحدر بمحاذاة نهر الفرات وسمح للقوات العراقية الانتقال من الشمال إلى الجبهة الجنوبية بأقل من ثمان وأربعين ساعة باستخدامها ثلاثة آلاف ناقلة للدبابات في وقت واحد. كان صدام حسين وجنرالاته مقتنعين أن الوقت قد حان للتوجه والهجوم لتحرير الأراضي التي احتلتها إيران. ولأجل القيام بذلك، كانوا بحاجة إلى تركيز قواتهم بسرعة ودون إعطاء المجال والوقت للعدو للوقوف على قدميه مرة أخرى. وفي أثناء ذلك، استمر العراق بمهاجمة البنى التحتية النفطية الإيرانية وناقلات النفط العملاقة المتوجهة لتحميل النفط من منصات لافان وسيري ولاراك.

طهران تبدأ حرب العواصم

هاجم الطيران العراقي خلال الشهرين الأولين من السنة عشرين سفينة وقصف جزيرة خارج التي ما زالت تعمل موزعًا للرحلات "المكوكية" لناقلات النفط التي تجهز منصة لاراك العائمة. وتم إسقاط الطائرات العراقية بين فترة وأخرى في الاشتباكات نتيجة تفوق المقاتلات الإيرانية. في 9 شباط أسقط الكابتن الإيراني حسين خليلي ثلاث طائرات ميراج F-1 بطائره Tomcat، وأسقط زملاؤه أربع طائرات أخريات خلال الأسبوعين اللاحقين، في حين لم تسجل القوة الجوية الإيرانية أية خسائر تُذكر. وفي 15 شباط أنجز الكابتن إسماعيل عملاً بطولياً رائعاً بالقرب من مضيق هرمز باستخدامه آخر ما لديه من صواريخ فينكس لتدمير واحدة من أربع طائرات Tu-16 القاصفة الثقيلة التي أرسلها الصينيون إلى العراق. وحينما يكون الطيارون العراقيون بعيدين عن قاعدتهم، فإنهم

يحاولون الهرب بالطيران على ارتفاع منخفض ويعتمدون بصورة كاملة على ما لديهم من أجهزة تشويش مضادة.

دمرت القوة الجوية العراقية في 27 شباط 1988 مصفى النفط بطهران. وردت السلطات الإيرانية بقصف بغداد لتحقيق هدفين: الأول التوضيح للحكومة العراقية أن طهران يمكنها الضرب في قلب بغداد، والثاني على أمل جرّ بغداد إلى حرب مدن أخرى، ما يؤدي إلى التخفيف من قصف المنشآت النفطية. وأرادوا أيضًا أن يجعلوا العراقيين يعرفون أن لديهم خزينًا جديدًا من الصواريخ هدية من كوريا الشمالية. في 28 شباط ضربت العاصمة العراقية ثلاثة صواريخ سكود - BS، والرابع ضرب تكريت مسقط رأس صدّام حسين في عمل استفزازي صريح. تعهّد الدكتاتور بالتحدي، وأمر بإطلاق نوع جديد من الصواريخ على طهران في اليوم التالي. وبهذه صليات الصواريخ الخمسة المرعبة أظهر صدّام للإيرانيين وبقية العالم أنه حصل على صواريخ قادرة على ضرب طهران أو إسرائيل أو أيّ بلد في المنطقة إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك. ولمدة سنتين ونصف عمل المهندسون العراقيون على برنامج 144 بالتعاون مع الفنيين السوفييت؛ لتطوير صواريخ سكود - Bs التي أرسلتها موسكو للمدة 1985-1988 لمضاعفة مداها (400 ميل / 650 كيلومترًا)، وذلك بتقليص وزن رؤوسها الحربية إلى النصف (1100 باوند/ 500 كيلوغرام)⁽¹⁾.

أطلقت تسمية "الحسين" على هذه الصواريخ تشریفًا لإمام الشيعة "الحسين بن علي"، وسمحت لصدّام حسين تركيز ضربات قوته الجوية على البنى التحتية النفطية الإيرانية؛ من أجل زيادة الضغط على خصمه. ووجد صدّام أن الوقت مناسب، ولا سيّما أن الإيرانيين يستعدّون لانتخاب برلمان جديد، على أمل أن حملة الرعب الجديد هذه تدعم الأطراف المؤيدة لإنهاء النزاع. وقرّر صدّام تخصيص آخر ما لديه من طائرات توبولوف-22، والعدد القليل من طائرات الميغ - 25 المطوّرة للقصف من ارتفاعات عالية، في مهمة تعد المشهد النهائي من حرب المدن. شنت هذه الطائرات ثماني وأربعين غارة على مدن قم،

1 - سلمت موسكو 300 صاروخ Scud-B لبغداد في الفترة 1985-1987، ثم 118 صاروخًا في 1988. وكل صاروخي

Scud يساويان صاروخ "الحسين".

طهران، شيراز، وأصفهان، ولكن تمكنت المقاتلات الإيرانية المتفوقة من إسقاط طائرتي Tu-22، وثلاث طائرات ميغ-25. حشد الإيرانيون عددًا قليلاً من طائرات الفانتوم، حيث تميز طياروها بالشجاعة بتفادي الدفاعات المضادة للجو المحيطة بالعاصمة العراقية وقصفوا بغداد وضواحيها.

وخلال اثنين وخمسين يوماً كان العراق يطلق ما بين صاروخين إلى ثلاثة صواريخ "الحسين" يومياً، وليل نهار على طهران. أصيب سكان طهران بالصدمة من وحشية الصواريخ العراقية المنتظمة السقوط كما ظهر في الفلم المفعم بالحيوية والرائع "برسيولس" الذي أخرجه مرجانه ستاربي عام 2007. وخرجت أعداد غير محددة من سكان المدن لتخوفهم من الأسلحة الكيماوية إلى المناطق الريفية؛ بحثاً عن ملجأ، ما أدى إلى تعطيل النشاط الاقتصادي في البلد والخدمات العامة. وخلال أسابيع قليلة هرب ثلث سكان طهران. وفي إجراء احتياطي، نُقل آية الله الخميني إلى إحدى العيادات الطبية في المحافظات. ردّ الإيرانيون بإطلاق صاروخ أو صاروخين على بغداد يومياً. وتوقّف القصف نهائياً حينما بدأت الذخيرة بالنفاد. في 20 نيسان 1988 أوقف طرفا النزاع القصف بعد اتفاق بوساطة من سكرتير الأمم المتحدة، حيث لم يبقَ لدى إيران سوى خمس صواريخ سكود، وللعراق عشرة صواريخ "الحسين". وبالمجموع، يُعتقد أنّ العراقيين أطلقوا 193 صاروخاً (189 صاروخ الحسين، وأربعة صواريخ سكود - Bs) على المدن الإيرانية الرئيسة، ثلاثة أرباعها سقطت على طهران. ويُقال إنّ الإيرانيين أطلقوا 77 صاروخ سكود - Bs على المدن العراقية، ومئة قذيفة أوغاب أو أكثر على القرى القريبة من الحدود⁽¹⁾. ما أدى إلى مقتل 1500 مدني إيراني، مقابل 300 عراقي.

في نيويورك بذل الأعضاء الدائمون بمجلس الأمن جهوداً؛ لأجل إقناع طرفي النزاع لقبول قرار 598. اقترحت كلٌّ من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا في يوم 5 آذار حظراً على بيع الأسلحة لكلٍّ من العراق وإيران، لكن الاتحاد السوفيتي والصين

1- ضربت طهران بمئة وواحد وأربعين صاروخاً، وسقط على مدينة قم 23، و22 على أصفهان، 4 على تبريز، 3 على شيراز؛ و62 على بغداد، و9 على الموصل، و5 على كركوك، وصاروخ واحد على تكريت.

نقضوا الاقتراح. وبعد أربعة أيام قدمت السلطات السوفيتية قرارًا يدعو إلى وقف فوري للقتال. هذا الاقتراح الذي يؤكد مسؤولية بغداد في اندلاع الحرب لم يلق تأييدًا من بقية أعضاء المجلس؛ لأن واشنطن وباريس وبكين لا يريدون أن يكون النظام العراقي منبوذًا.

قصف الكرد بالغازات

شنَّ الجنرالات الإيرانيون سوهرابي وشيرازي في يوم 13 آذار 1988 هجومًا واسع النطاق في كردستان العراق. وأُطلق على قاطعي الهجوم "النصر7" و"المدينة المقدسة3". كان هدف عمليات القاطع الأول الاستيلاء على سدّ دوكان الواقع على بعد عشرين ميلًا (30 كيلومترًا) عن مدينة السليمانية. وهدفت عمليات المدينة المقدسة3 للسيطرة على حلبجة التي تمنع الوصول إلى سدّ دربندخان الذي يبعد قليلًا إلى الجنوب منها. كان الإيرانيون يأملون زيادة الضغط على النظام البعثي بالسيطرة على أكبر محطتين هايدرو كهرومائيتين في البلاد وحرمان العراق من نسبة كبيرة من الطاقة الكهربائية. ومرةً أخرى، استخدم النظام الإيراني استراتيجيةً متناسقةً. ولمّا لم تتمكن طهران من تقليص صادرات النفط العراقية بنسبة كبيرة، هاجمت مصادر الطاقة الكهربائية التي تحتاجها الصناعة النفطية للعمل بطاقتها القصوى. ولأجل تحقيق أهدافهم حشد الإيرانيون تسع عشرة فرقة (أربعة عشرة للمشاة، وفرقتين آليتين، وثلاث فرق مدفعية) على الجبهة الشمالية، أي نصف عدد قواتهم المسلحة. وجمعوا أيضًا أفضل قوات الصدمة عندهم، ولا سيّما فرقة المغاوير 23، وفرقة المظليين 55 في الشمال، وتركوا بقية الجبهة بيد جماعة من المشاة وبدعمٍ من خمس فرق مدرعة و1200 دبابة الباقية لديهم. ويقابلهم من العراقيين الفيلقان الأول والخامس اللذان يضمنان خمس عشرة فرقة مشاة بقيادة كامل ساجد وطالع الدوري على التوالي.

في 14 آذار تمكنت الفرق 55 المظلية و84 الآلية من التغلب على النيران العراقية الهائلة وسحق الفرقة 34 العراقية واختراق خطّ الجبهة والاستيلاء على حلبجة. اندفعت

القوات الإيرانية نحو سدّ دريندخان، لكنّها أُجبرت على التوقف نتيجة تدخل الطيران العراقي الكثيف ومن قوات الاحتياط. وفي غضون ذلك، وقليلًا إلى الشمال انتشرت فرقنا باسدران بالقرب من موات وتغلّبت على الدفاعات العراقية واستولت على سدّ دوكان. انسحب لواء المغاوير 66 الذي يحمي السدّ أمام الهجوم الإيراني الكاسح ودون تسلّم الأوامر بذلك. استُدعي العقيد جعفر صادق قائد اللواء مباشرةً إلى بغداد؛ لاستجوابه، وعلى الرغم من معرفة صدّام بالعقيد صادق وتقدير شجاعته، فإنّه أثبت صرامته وأمر بإعدامه، وتبعه إلى القبر الضباط الآخرون الذين اشتركوا في معركة حلبجة. والآن وهو يستعدُّ لشنّ هجومٍ آخر في قاطع الفاو، كان النظام العراقي ينوي تحفيز قواته حتى من خلال التخويف.

لذلك؛ قرّر صدّام حسين إظهار مشهد معاقبة أولئك الذين عدّهم مسؤولين عن التراجع في كردستان، والبدء مع سكان حلبجة من الكرد الذين اتهمهم بالتواطؤ مع العدو لتسهيل عملية الاستيلاء على هذه المدينة الهضبية الصغيرة الواقعة على بعد عشرة أميال (كيلومترات قليلة) عن الحدود. وأمر ابن عمّه علي حسن المجيد الحاكم الإداري للمحافظات الكردية تكثيف حملة الأنفال ومحو حلبجة باستخدام الأسلحة الكيماوية وبقصف من المدفعية؛ لأنّ صدّامًا أراد ضرب عصفورين بحجر واحد والتخلّص من أكبر عدد ممكن من المتمردين الكرد ومن الجنود الإيرانيين المتخندقين في حلبجة. وبالنسبة إلى بقية السكان فالوضع سيئ أيضًا. أثبتت التسجيلات الصوتية مسؤولية صدّام حسين عن المذبحة من غير شك⁽¹⁾. ففي منتصف اللقاء نسمع صدّام يفقد صوابه ويكرر "اقتلوهم جميعًا!" وبذلك، توفر مذبحة حلبجة خلفيةً كافيةً لإدانته بالإعدام. ولم ينكر صدّام إعطاءه الأمر بذلك خلال محاكمته في عام 2004، وبدلًا من ذلك، فسّر الأمر أنّه "إجراء دفاعي ضدّ العدوان الإيراني". أما بالنسبة إلى علي حسن المجيد؛ فقد حصل على اللقب المروع "علي كيمياوي" لدوره في المذبحة⁽²⁾.

1 - انظر: التسجيل الصوتي بشكل خاص المسجل في يوم 15 آذار 1988، ويحمل التصنيف 468-SH-GMID-D-000.
2 - حكمت السلطات العراقية على حسن المجيد بالإعدام في عام 2007 لتورطه بتلك المذبحة فضلًا عن دوره الرئيس في عملية الأنفال.

وفي مطلع صباح يوم 16 آذار 1988 حُلقت عشر طائرات ميغ-23 فوق حلبجة وعلى ارتفاع منخفض وألقت حاويات من النابالم التي أشعلت النيران في جزء من المدينة وإحاطتها بساتر هائل من النيران. وظهرت في الحال غيوم فوق المدينة تنشر خليطاً من العناصر الكيميائية القاتلة تحتوي على غازات الأعصاب كالخردل والفوسجين والتابون والساارين. وأنهت المدفعية المجزرة بقصف المدينة لعدة ساعات. وفي أواخر عصر ذلك اليوم، دخل الصحفيون الإيرانيون الذين كانوا قريبين من المدينة لتغطية عملية الاستيلاء عليها واكتشفوا مقبرة مفتوحة. وصوّروا أجسام الضحايا الملتوية من الألم للنساء والأطفال، وسرعان ما شاهدها العالم، مما زاد من عزلة النظام العراقي. أقنعت هذه الصور المجتمع الدولي بضرورة وضع نهاية لهذا النزاع. عدت أجهزة الطوارئ الإيرانية أكثر من ثلاثة آلاف ضحية، ولكن من المستحيل معرفة النسبة الدقيقة من المدنيين؛ لأن الكثير منهم من تُوفي لاحقاً. والحصيلة النهائية للمذبحة تبقى عرضة للنقاش حتى اليوم، وإن قُدّرت ما بين ثلاثة إلى خمسة آلاف ضحية وعشرة آلاف من الجرحى. حاول العراقيون تبرئة أنفسهم بالادّعاء أنّ الإيرانيين أطلقوا قذائف كيميائية أيضاً على حلبجة عند محاولتهم الاستيلاء على المدينة. كررت هذه المزاعم الصحافة الأنكلو - سكسونية في ذلك الوقت، وأكدها الجنرالات العراقيون بعد عدة سنوات، وأسهمت في الجدل الدائم بخصوص إلقاء اللوم على الطرف الذي سبّب هذه المذبحة المأساوية⁽¹⁾. والشيء الذي لا يمكن نكرانه أنّ ضرب حلبجة بالغازات السامة أدى بالهجوم الإيراني إلى التوقف المفاجئ، فالأعداد الكبيرة من الضحايا العسكريين أقنعت طهران بالآثار المميتة للهجمات الكيميائية التالية. وإن الجيش النظامي والباسدران الذين استولوا على 230 ميلاً مربعاً (600 كيلومتر مربع) في ثلاثة أيام وعزّزوا قبضتهم على السليمانية، صمدوا في مواقعهم الجديدة بانتظار الهجوم العراقي المضاد.

1- Washington Post , March 24, 1988, and The Economist, Apri

م 1988, 2. وتبقى دراسة Joost Hilterman المستفيضة والأكثر إنصافاً، بعنوان:

"A Polonous Affairs: America, Iraq and the Gassing of Halabja (New York: Cambridge University Press,2007).

وخلافًا لكلِّ التوقعات، كان الأتراك من تفاعل لاحقًا، أعلنت أنقرة وهددت بغلق حدودها مع إيران إذا استمرت طهران بهجومها في كردستان العراق. إنَّ إغلاق الحدود سيحرم النظام الإيراني واحدًا من أهم خطوط حياته الرئيسة ويسارع في تدهوره الاقتصادي. ومع ذلك، لم تدع الحكومة الإيرانية نفسها تخضع للتخويف بهذا التهديد، وفي الواقع أنَّها في فترة ما قبل الانتخابات، وعليها أن تتخذ موقفًا صلبًا مع جارتها. في 27 آذار قصفت القوة الجوية الإيرانية النقطة الحدودية Habur التي تخدم بوصفها نقطة عبور بين تركيا وإيران، وهذا أول هجوم إيراني على أرضٍ تركيةٍ منذ بداية الحرب. أرسلت تركيا مباشرةً عدة فرق عسكرية إلى المنطقة وضاعفت من عدد طلعاتها للمراقبة الجوية، وهددت بالتدخل العسكري، ولكن لقي تحذيرها أذانًا مصغيةً في طهران، فالحركة التجارية الحيوية لإيران لم تتوقف، ولم تواجه الحكومة التركية أية استنزافات أخرى.

الجيش العراقي يعيد الاستيلاء على شبه جزيرة الفاو

إنَّ النجاح النسبي للهجوم الإيراني ترك الحكومة العراقية تواجه مأزقًا يتعلق بأفضل استخدامٍ ممكنٍ لمعركة بالآليات والتي كانت تعيد بناءها بصيرٍ خلال السنة والنصف الماضية. وهل يجب شنُّ هجومٍ مضادٍّ في كردستان العراق لتقليص الوجود الإيراني هناك وإعادة السيطرة على سدِّ دوكان كما يتوقَّع الإيرانيون؟ أو هل من الأفضل الهجوم في مكان آخر حيث لم يكن الخصم بالضرورة مستعدًّا جدًّا لتحمل نتائج الهجوم الشامل؟ وبعد لقاء طويل، اختار صدام حسين ونسيبه حسين كامل، وعدنان خير الله، والجنرال الخزرجي، الخيار الأخير. فطبيعة الأرض بكردستان لا تتلاءم مع المناورة بالمدركات، والهضاب والجبال التي تبلغ مساحتها 3860 ميلًا مربعًا (10 آلاف كيلومتر مربع) التي يسيطر عليها المتمردون الكردي تجعل من الصعب تنسيق هجوم واسع النطاق فيها. لذلك؛ قرَّرت الحكومة العراقية التوقف في الجبهة الشمالية، وتركيز كلِّ جهودها على الجبهة الجنوبية؛ لاستعادة شبه جزيرة الفاو التي تمثل أضعف نقطة في الخطوط الإيرانية. وباستعادة السيطرة على الفاو

سيمكن العراق من زيادة صادراته النفطية باستخدام جزء من أنبوب النفط الجديد الذي يربط البصرة بالقاعدة البحرية في أمّ قصر التي يمكنها استقبال الناقلات المتوسطة الطاقة التحميلية.

ابتدعت الحكومة العراقية خطة خداع محكمة؛ لرفع فرصها إلى الحدّ الأقصى؛ من أجل مباغته الإيرانيين. فقد حركت بوضوح عدة فرق من الجبهة الوسطى وأرسلتها باتجاه كركوك والسليمانية. وزادت أيضًا من عدد تمارينها وراكت من أنشطتها الإذاعية في ذلك القاطع. وسافر وزير الدفاع إلى المنطقة لتفتيش القوات ولم يتناقض مع مراسلي الحرب الذين يصاحبونه حينما تنبؤوا أنّ الهجوم وشيك في كردستان. وأمر قاداته بتكثيف مهمات المراقبة في ذلك القاطع. وفي أثناء ذلك، نشر عدنان خير الله خمس فرق من الحرس الجمهوري بصورة سرية في جنوب البصرة. وانضمت إليها ثلاث فرق من الفيلقين الثالث والرابع. وكانت تحركات القوات كلّها تجري في الليل وبإسكات الإشارات الراديوية. وخلال أسبوعين تمكنت القيادة العسكرية العليا من حشد 100 ألف مقاتل على أطراف شبه جزيرة الفاو، و2500 عربة مدرعة (بضمنها 1200 دبابة)، و1400 مدفع، و100 طائرة هليكوبتر هجومية. وهذه القوة موزعة على اثنتي عشرة فرقة (ثلاثة مدرعة، فرقتين آليتين، ست فرق مشاة، وفرقة قوات خاصة) كلها مسلحة تسليحًا جيدًا ومدربة تدريبًا كافيًا.

كان لدى الإيرانيين فرقتا مشاة متعبتان فقط لمواجهة العراقيين، ويدعمهما فرقة مدفعية وعدد قليل من كتائب المهندسين العسكريين. ومجموع قواتهم في المنطقة تبلغ بالكاد 20 ألف مقاتل، و100 دبابة، و150 مدفعًا متوسطًا. ولذلك؛ كان ميزان التسليح إلى جانب العراقيين بشكل كبير. ولأجل تكريس الاحتمالات أكثر إلى صالحهم، قرّر العراقيون الهجوم في اليوم الأول من رمضان وانتهاز فرصة أنّ المقاتلين الإيرانيين متعبون؛ بسبب كونهم منهمكين بصومهم وصلاتهم. ويعرفون أنّ القادة الإيرانيين ينظّمون إجازات وبصورة تقليدية لجنودهم في الجبهة لزيارة عوائلهم في بداية الشهر المقدس. وإنّ بدء القتال في فترة ذهاب المقاتلين لزيارة عوائلهم، يأمل العراقيون أن يباغتوا الإيرانيين وهم في أدنى عدد من القوات وقبل حلول فترة الاستبدال. ومن الطبيعي، أطلق العراقيون على الهجوم تسمية

"رمضان المبارك"، ولم ينتبه الإيرانيون للاستعدادات العراقية؛ لأنهم مقتنعون أن الهجوم المضاد سيكون في كردستان، ولم يتوقعوا أي تهديد للجبهة الجنوبية، بل أعطوا الجنود المرابطين هناك يوم استراحة خاصة بمناسبة بداية شهر الصوم.

وفي الساعة 4:30 فجرًا من يوم 17 نيسان 1988، وبعد أذان الفجر لأول يوم من رمضان بدأت القوات العراقية باتجاه خطوط الدفاع الإيرانية. كانت خطتهم بسيطة: حركة التفاف تقليدية تهدف إلى خرق خطوط العدو في الأطراف؛ لكي تتمكن القوات من الاندفاع نحو الوسط (الفاو) وتطويق الوحدات المحاصرة. قاد هذه العملية كلها فضلًا عن الجناح الأيمن منها الجنرال إياد فتيح الراوي، قائد الحرس الجمهوري. كانت فرق الحرس الجمهوري الخمسة المسؤولة عن السيطرة على الطريق الساحلي الذي يمر إلى الجنوب من شبه جزيرة الفاو تحت إمرة الجنرال الراوي. وإلى الشمال، كان الجناح الأيسر بإمرة الجنرال ماهر عبد الرشيد ويقود أربع فرق من الفيلق السابع تولت مسؤولية التقدم على طول شط العرب باتجاه الفاو⁽¹⁾. وقد عهدت للجنرال عبد الرشيد المهمة الأكثر دقة؛ لأن الإيرانيين متخذون بقوة على ضفة النهر. ومرة أخرى، دفع ماهر عبد الرشيد ثمن عناده والطموح الأكبر منه، وهو موقف صعب لا يودُّ أقرانه رؤيته فيه.

وخلال ساعات قليلة اخترقت القوات الأمامية خطوط القوات الإيرانية التي واجهت قوةً ناريةً هائلةً. ولأجل تشتيت العدو، أمر الجنرال الراوي بضربة كيميائية ضد مواقع العدو، ولكن تغير اتجاه الرياح فجأةً وبصورة غير متوقعة دفعت الغيوم السامة باتجاه الخطوط العراقية. وهذا التحول غير المتوقع في الأحداث أدّى إلى مقتل نحو مئتي جندي وإصابة عدة مئات بجروح بليغة⁽²⁾. وفي غضون ذلك، دمرت القوة الجوية العراقية ثلاثة جسور

1- كانت الفرق الأولى ميكانيكية، المدرعة السادسة، والمشاة الثانية والسابعة بإمرة الجنرال ماهر عبد الرشيد لتنفيذ مناوورته. وبقيت ثلاث فرق مشاة (14، 15، 26) تحت الاستعداد المباشر للمعركة لمنع الفرق الإيرانية من الحركة في الميدان والعمل على تطويقها.

2- وهذا ما أكده الطبيب الجراح علي العامري في مقابلة له مع المؤلف في واشنطن في يوم 27 تشرين الأول 2011 الذي كان يؤدي خدمته العسكرية في مستشفى ميداني بالقرب من البصرة، وعالج الكثير من الجنود العراقيين الذين تعرضوا بشدة للغازات.

عائمة على شط العرب، ما أدى إلى عزل القوات الإيرانية في شبه جزيرة الفاو. وقد نفذ الطيارون أساليب القصف الجديدة على الوجه الأكمل التي برهنت على أنها أكثر فعالية، فقد أطلقت طائرات SU-22Ms صواريخ Kedge الموجّهة بأشعة الليزر المنبعثة من طائرات الميراج F-1s المجهّزة بأجهزة الاستهداف ATLAS. كانت النتائج باهرة، فقد غرقت أجزاء الجسور بسرعة متعاقبة، فضلاً عن تدمير الطيارين العراقيين جسرين آخرين على نهر الكارون في خور مشهر، ومنع الإيرانيين من إرسال تعزيزات إلى الفاو.

وأسهمت البحرية في استعادة شبه جزيرة الفاو: سبح مئتان من رجال الضفادع في شط العرب لتنفيذ هجمات مضللة، بينما نزلت عدة كتائب مشاة بحرية على طول الطريق الساحلي لدعم تقدّم قوات الحرس الجمهوري. وتم دعمها بنيران كثيفة من سفيتين برمائيتين هجوميتين طراز Polnocny-class تم تحويلهما إلى سفن لإطلاق القذائف. خسر الإيرانيون السيطرة على الأرض في كلّ موقع وانسحبوا نحو الفاو. حلّقت طائرات الهليكوبتر فوق أرتال القوات المنسحبة وأطلقت نيران مدفعتها عليهم دون رحمة، وحوّلت انسحابهم إلى هزيمة منكرة. لعب الابن الأكبر لصدّام عدي دورًا في ذلك حينما أفرغ بندقيته من على ظهر واحدة من طائرات الهليكوبتر.

تقدّم العراقيون في مساء يوم 17 نيسان نحو عشرين ميلاً (30 كيلومترًا) وتخطوا كلّ أهدافهم لذلك اليوم. واستعادوا الفاو في اليوم التالي، حيث كان النصر ناجزًا. حتى إنّ القيادة العسكرية العليا تفاجأت بحجم نجاحها، فخلال ستّ وثلاثين ساعةً تمكنت قوات النخبة من استعادة موطن القدم الذي طالما قاومهم مدة سنتين. وقتلوا نحو خمسة آلاف إيراني، وأخذوا نحو عشرة آلاف أسير، واستولوا على كلّ الدبابات والمدفعية الإيرانية التي تم تركها في ميدان المعركة. واستولت القوات العراقية أيضًا على بطارية صواريخ سلكورم الثمينة التي طالما ضايقّت منصة نفط كويتي - الأحمدية لأكثر من سنة. وعلى الرغم من هذه النتيجة المذهلة، خسر العراقيون ثمانمئة مقاتل وعشرين عربيّة مدرعة. ورزّع صدّام حسين المزهو بالنصر سيارات المرسيدس على ضباطه، حتى إنّّه قام بزيارة حجّ لمكة في اليوم التالي لشكر الله علانيةً على منحه مثل هذا الانتصار العظيم، لكنه استخدم هذه الزيارة

حجة لشكر الملك فهد لدعمه المالي المتواصل، في الوقت الذي أراد أن يظهر أنه "مسلم جيد"، ويخرس كل أولئك الذين يتتقدونه بسوء لقلة إيمانه.

كان لنجاح العراقيين تأثير مباشر في إيران التي لم تعد قادرة على إطلاق صواريخ سلكورم على الأراضي الكويتية. في يوم 20 نيسان أمر الملاي بإطلاق صاروخ سكود على منصة نبط الأحمدى لإبلاغ الأمير جابر أنهم لا يزالون قادرين على الوصول إليها إذا اقتضت الضرورة، حتى إذا كان ذلك يعني صب الزيت على النار⁽¹⁾. وفي غضون ذلك، اشتعلت النيران في الخليج الفارسي مرة أخرى.

1- وعلى خلاف صواريخ سلكورم، كان مدى صواريخ Scud يسمح بوصولها إلى منصة الأحمدى الكويتية انطلاقاً من الأراضي الإيرانية.

الفصل الثلاثون

تدمير رحلة الطيران الإيرانية رقم 655

في 14 نيسان 1988 ارتطمت الفرقاطة USS Samuel Roberts بلغم بحريّ عند حافات قناة الملاحة البحرية بينما كانت ترافق ناقلات نفط قبالة البحرين. أحدث الانفجار فتحةً بعرض 26 قدمًا (ثمانية أمتار) بالقرب من قيادة السفينة، مما أدى إلى ضررٍ جسيمٍ وأشعل نيرانًا تطلّب إخمادها عدة ساعات. ولحسن الحظّ، لم يقتل أو يُصب أيُّ أحد. استجاب قبطان السفينة Samuel Robert بهدوء وأوقف المحركات وعمل على توازن السفينة؛ لكي يعزل الخرق فيها. أرسل على الفور فريقًا من غطاسي تفكيك الألغام إلى المنطقة ورصدوا عددًا من الألغام حول الفرقاطة المتضررة. كانت السفينة تبحر في مصيدة للألغام تمتدّ لخمس وعشرين ميلًا (نحو 40 كيلومترًا) عن جزيرة فارسي التي ما زالت محتلةً من حامية لقوات الباسدران. وبينما كان الغطاسون يزيلون الألغام البحرية لاحظوا أنّها تحمل الرقم التسلسلي نفسه لتلك الألغام التي صُودرت من سفينة "إيران أجر". تم قَطْر السفينة Samuel إلى البحرين، ثم أرسلت إلى الولايات المتحدة على ظهر حاملةٍ للسفن الثقيلة.

قرّر البيت الأبيض الردّ فورًا على هذا الاستفزاز. اقترح الجنرال كولن باول الذي عُيّن مؤخرًا مستشارًا للأمن القومي الهجوم في يوم 16 نيسان على منصتين للنفط الإيرانيين تعملان كقواعد للباسدران، وتولّى البتاغون تدقيق هذه الخطة. ومرةً أخرى، اختار الجنرال

باول عدم مهاجمة الأراضي الإيرانية؛ لكي يتجنب التصعيد العسكري الذي لم يتمكن من السيطرة عليه تمامًا⁽¹⁾. كان حذرًا بشكل خاص؛ لإدراكه أنه أول جنرال من أصل إفريقي يصل إلى هذا المستوى من المسؤولية، ولم يكن من المسموح له أن يرتكب أية أخطاء. في اليوم التالي وافق الرئيس ريغان على خطته وأبلغ مباشرة أعضاء الكونغرس بها.

المعركة البحرية والجوية في الخليج

في 18 نيسان 1988 شنَّ الأدميرال أنتوني لايس Anthony Less قائد البحرية الأمريكية عملية فرس النبي (Praying Manti) من مقره الجديد من على ظهر السفينة Coronado الراسية قبالة أبوظبي. وكالحشرة النهممة، بدأت البحرية الأمريكية في اختيار فريستها بدقة، فقبل عدة أسابيع قليلة كان الأدميرال Less يرأس القوات البحرية المرابطة في الخليج وقوات المهمة الخاصة في الشرق الأوسط في الوقت نفسه ومقرها البحرين. وهو يقود خمس عشرة سفينةً حربيةً موزعةً على أربع قوات مهمات: الأولى بقيادة حاملة الطائرات Enterprise المبحرة في بحر عمان بالقرب من مضيق هرمز، ومهمتها توفير الحماية الجوية للعملية، والثانية بقيادة السفينة البرمائية Trenton وعليها أن تهاجم إحدى منصتي النفط الإيرانيين، بينما الثالثة بقيادة السفينة Wainwright تهاجم منصة النفط الأخرى، وتتكوّن المهمة الرابعة من مدمرتين وفرقاطة تصدُّ أية قوة بحرية تخرج من القاعدة البحرية في بندر عباس. وكلُّ قوة مهمة عليها دعم القوات الأخرى وتكون على أهبة الاستعداد للاستجابة لأيِّ عمل عدائي. ولمواجهة هذه القوات، يمكن للعميد البحري ملك زاديغان الاعتماد فقط على أربع فرقاطات حاملة للصواريخ، وسفينة للهجوم السريع Combattante II-class، وعدد محدود من الزوارق المسلحة، وثلاث طائرات Orion للمراقبة البحرية. أما بقية السفن؛ إمَّا خارج الخدمة أو خارج المديات البحرية.

1- دخل كولن باول كتب التاريخ لاحقًا بوصفه رئيسًا لهيئة الأركان المشتركة في حرب الخليج الثانية 1991، وعيَّنه وزيرًا للخارجية الرئيس جورج بوش الذي قام بمناوراته المعروفة للتأثير في بوش لشنِّ حربه ضدَّ صدام حسين في عام 2003.

وفي الساعة التاسعة صباحًا وصلت السفينة البرمائية Trenton قبالة منصة ساسان على بعد خمسين ميلًا (80 كيلومترًا) إلى الجنوب من مرفأ لافان، وبمرافقة المدمرتين Merrill وMcCormick. أرسل الطاقم إشارةً إلى المرفأ؛ لإخلاء الباسدران المرابطين هناك خلال عشرين دقيقةً. وبما إنهم يتذكرون تدمير مرفأ ومنصة رستم قبل سبعة أشهر أذعن الباسدران وهربوا على ظهر قاطرة يستخدمونها سفينةً مؤونةً. في الساعة 9:20 صباحًا فتحت السفن الأمريكية النار من مدفيعتها. وبعد ساعة، نقلت طائرات الهليكوبتر من على ظهر Trenton قوةً من المارينز ونزلوا على المرفأ المشتعل؛ للبحث عن وثائق تركها الباسدران خلفهم، ثم فجروا المنشآت المتبقية هناك.

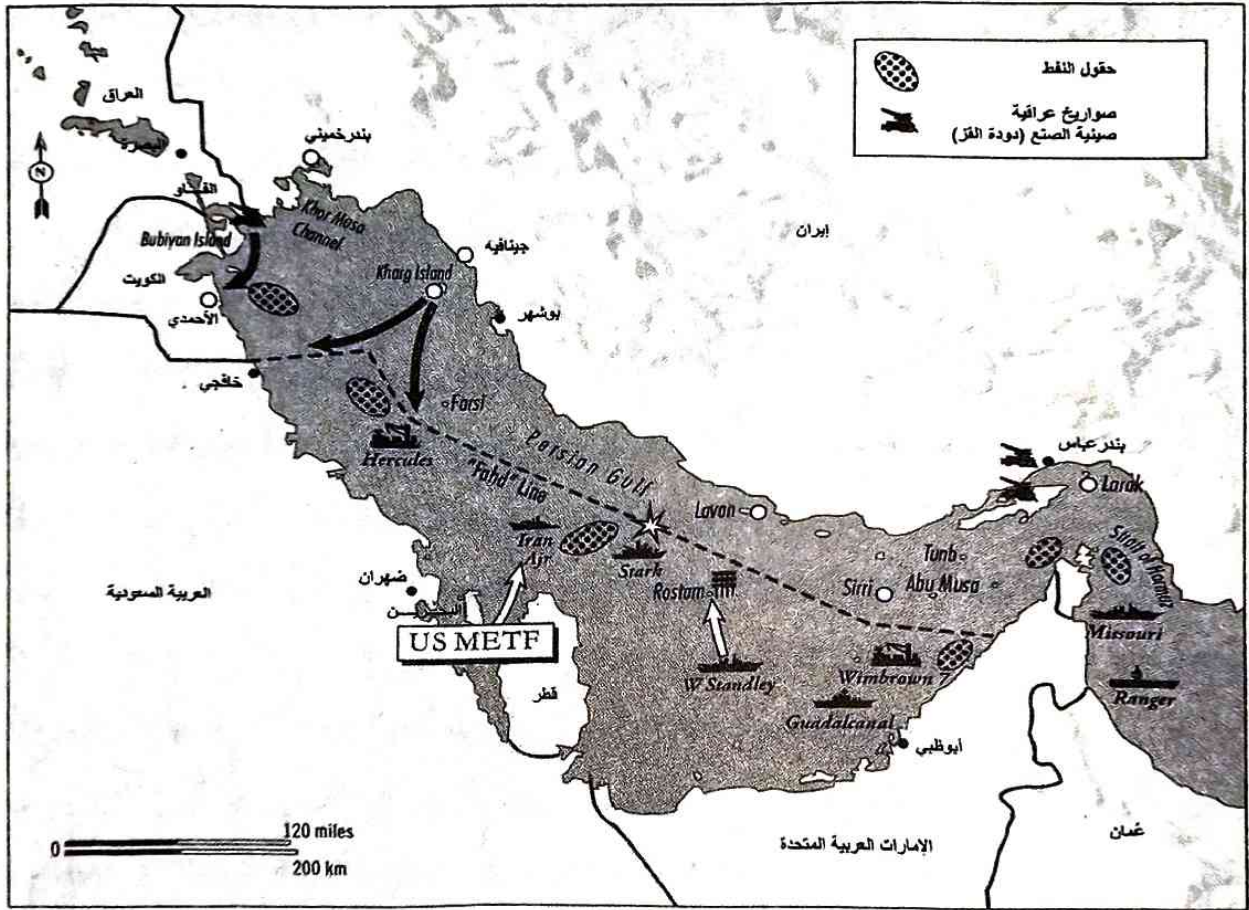
وفي الساعة 9:30 صباحًا بدأت السفينة Wainwright وبمرافقة الفرقاطين Bagley وSimpson بالإجراءات نفسها لمهاجمة مرفأ "ناصر" الذي يقع على بعد أربعين ميلًا بحريًا بالقرب من المنصة العائمة في جزيرة سيرى. ومع ذلك، فقد وقعت الأحداث بصورة مختلفة قليلًا. وبما إنَّ الإيرانيين أخذوا درسًا من الهجوم السابق على منصة ساسان، لم تؤخذ قوات الباسدران على بغتة وكان لديها الوقت للاستعداد. وبينما تولَّى قسمٌ من الثكنة العسكرية إخلاء المرفأ خلال فترة الإنذار، بقيت مجموعة من المقاتلين الذين اختاروا التضحية بأنفسهم في المرفأ، على أمل أن يُنزلوا أكبر ضرر ممكن بالأمريكيين. ولأكثر من ساعة كان المرفأ يتعرَّض للقصف الكثيف الذي ألحق أضرارًا كبيرةً بالبنية الفوقية، وقتل بعض المقاتلين الذين تخلَّفوا هناك. وحينما اقتربت السفن الأمريكية لإنزال الفريق البحري SEAL أسرع من تبقى من الإيرانيين إلى ما تبقى من بطاريات مدافعهم ذات 23 ملم وأطلقوا نيرانهم على السفن وطائرات الهليكوبتر الواقعة ضمن مدياتهم. تراجعت السفن الأمريكية فورًا، ثم فتحت نيرانها مرةً أخرى من مدفيعتها. وتم استدعاء طائرات الهليكوبتر Sea Cobra من على السفينة Trenton لقصف البطاريات الإيرانية بالقاذفات ومدفعية Vulcan. وكانت من نتائج هجومهم الرائع أن وضعوا نهايةً سريعةً للمقاومة الإيرانية، ولكن ليس قبل أن يتم إسقاط إحدى طائرات الهليكوبتر Sea Cobra. كانت هذه الخسارة الأمريكية الوحيدة لذلك اليوم. انسحبت السفن الأمريكية بحذر تاركَةً مرفأ "ناصر" وهو يشتعل، ولكن لم تحاول السيطرة عليه.

كان الإيرانيون مصممين على الانتقام، وأمر عميد البحرية ملكزادغيان وحداته البحرية بمهاجمة أقرب السفن الأمريكية سواء كانت مدنية أم عسكرية. وبعد تسلّمه الضوء الأخضر من طهران أمر الفرقاطتين "سهند" و"سبلان" بمغادرة بندر عباس والاشتباك بمعركة مع سفن العدو. ومع إدراكهم عدم التناسب بالقوة في الميدان، فإنّ البحّارة الإيرانيين لا تنقصهم الشجاعة والبراعة. إنهم مستعدون لملاقاة قدرهم، ويأملون أن يجدوا أيّ شيء حتى لو كان شرخاً في الصفائح المدرعة بسفن البحرية الأمريكية مما يسمح لهم بإنزال أضرار بليغة بها. وطلب ملكزادغيان الدعم الجوي ووضع بطاريات سلكورم بالإنداز.

وبحلول العصر غادرت ثلاث زوارق مسلحة من جزيرة أبو موسى وأسرعت نحو سفينة المهمة الخاصة Wainwright. أطلق الباسدران صاروخ ستنجر على إحدى طائرات الهليكوبتر من الفرقاطة Simpson التي كانت تحوم فوق الزوارق. أطلق الطيار النار المخادعة لتجنب الصاروخ، وأرسل تحذيراً لحاملة الطائرات Enterprise التي هيأت مباشرة سرباً من الطائرات المقاتلة - القاصفة للتعامل مع التهديد. وفي غضون ذلك، هاجمت ثلاثة زوارق مسلحة للباسدران ناقلة النفط العملاقة البريطانية York Marine بعد أن لم تجد هدفاً كبيراً آخر، ثم توجّهت نحو حقل نفط مبارك قبالة أبوظبي؛ لمهاجمة منصة نفط خليج Scan الذي يعود لشركة نفط أمريكية. كانت كلمة السر لباسدران "العين بالعين والسن بالسن".

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر اتخذت عملية فرس النبي منحى مختلفاً. فقارب الصواريخ الإيراني Joshan الذي كان يبحر بالقرب من منصة نفط لافان، وصل في أثناء رؤية مرفأ "ناصر"، ورصد على راداره سفينة المهمة الخاصة Wainwright الذي تجاهل إنذاره وأطلق عليها صاروخ Harpoon الذي أخطأها بقليل. ردت السفينة والفرقاطتان المرافقتان لها فوراً بإطلاقها أربعة صواريخ Harpoon دفعةً واحدة. أصابت ثلاثة منها الزورق الإيراني إصابةً مباشرة. هذا أول اشتباك للبحرية الأمريكية يستخدم الصواريخ المضادة للسفن. تم تدمير الزورق المسلح الإيراني Joshan ولكن حطامه بقي يطفو فوق الماء. اقتربت الفرقاطتان Simpson، Bagley لانتشال الناجين القلائل، وإغراق الزورق Joshan بقذائفهم. وفي الوقت نفسه، أقلعت خمس طائرات فانطوم من بندر عباس وتوجهت

نحو السفينة Enterprise والسفن المرافقة لها اللواتي كنَّ يبحرن في بحر عمان. تم رصد تلك الطائرات مباشرةً من طائرة المراقبة Hawkeye التي وجهت طائرة النسر Tomcat نحوهم. لم يكن الطيارون الإيرانيون في قرارة أنفسهم يريدون الانتحار، واختاروا التراجع بحذر؛ لأنَّهم يدركون أنَّهم لم يتمكنوا أبدًا من التقرب كثيرًا من حاملة الطائرات وإطلاق صواريخهم.



خارطة عملية فرس النبي (18 نيسان 1988)

وفي وقت مبكر من عصر ذلك اليوم رصد سرب الطائرات المهاجمة من السفينة Enterprise الزوارق الحربية لبا سدران بالقرب من منصة خليج Scan. طلب أمر السرب الرائد البحري جيمس إنجلر James Engler مباشرة السماح له بفتح النار، لكن التوقيت الفعلي للقوات المسلحة الأمريكية على شبكة الاتصالات أدى إلى بعض التأخير، تم ترحيل

الطلب إلى القيادة المركزية Centcom في Tampa بولاية فلوريدا، ثم إلى وزير الدفاع ورئيس الأركان في البنتاغون، وأخيرًا إلى مستشار الأمن القومي والرئيس الأمريكي. وبعد ثلاث دقائق من طلبه تسلّم الرائد البحري إنجلر تأكيدًا مباشرًا لطلبه من الرئيس ريغان الذي يتابع العمليات مباشرة من غرفة الأزمات بالبيت الأبيض. ذهبت طائرات الاقتحام الثمانية مباشرة إلى الهجوم، وأخذت عشرين دقيقةً التالية لاصطياد الزوارق المسلحة الإيرانية، ولكن صغر حجمها وقدرتها على المناورة جعل منها أهدافًا مُحيرةً. وفي النهاية تمكّن الطيارون الأمريكيون من إغراق ثلاثة زوارق مسلحة بينما عادت الزوارق الأخرى إلى قاعدتها في جزيرة أبو موسى من دون ضجة.

وفي غضون ذلك، رصدت السفينة Wainwright طائرتي فانطوم إيرانيتين إلى الغرب منها وتقتربان منها بسرعة وقد أغلقت رادار التحكم بالنيران فيهن. وأرسلت الإشارة لهن بالعودة، ولكن لعدم الإجابة من الطائرتين، أطلقت السفينة صواريخ Standerd عليهن بصورة سريعة ومتعاقبة. انسحبت واحدة من المقاتلات مباشرةً ونجحت في التخلص من الصاروخ الذي أطلق عليها.

أمّا المقاتلة الأخرى؛ فقد حاولت المناورة، لكنها أصيبت بأضرار بليغة؛ بسبب انفجار الصاروخ الثاني. كافح طيارها بالعودة إلى بندر عباس وهبط بمحرك واحد، وذيل طائرتة وذنباتها في مؤخرتها تحوّلت إلى أشلاء.

وحتى الآن، لم تنتهِ المعركة. في الساعة الرابعة عصرًا دخلت الفرقاطة الإيرانية المسلحة Sahand إلى مضيق هرمز، وتوجّهت مباشرةً نحو المدمرة Joseph Strauss والفرقاطة Jack Williams متجاهلةً الأوامر بالانسحاب. حلّقت أربع طائرات اقتحام مباشرة أرسلتها السفينة Enterprise فوق Sahand وحاولت تخويفها والعودة إلى قاعدتها. لكن الفرقاطة الإيرانية أطلقت ثلاثة صواريخ أرض - جو على الطائرات الهجومية، ثم إطلاق صاروخي Sea Killer على السفن البحرية الأمريكية هناك، لكنها أطلقت قذائفها المضللة وتفادت الصواريخ الإيرانية، وبدأت بالردّ مباشرةً. كذلك أطلقت المدمرة Josph Strauss صاروخ Harpoon الذي أصاب الفرقاطة الإيرانية مباشرةً، بينما أسقطت طائرات

الاقترام أربع قنابل Skipper الموجهة بالليزر. مزقت هذه القنابل الفرقاطة الإيرانية إلى أشلاء وتحويلها إلى حطام عائم، فقد دمرت بعد ساعة ونصف بعد أن تم ضربها بصاروخين Harpoon آخرين، وبقنبلتين Walleye كهروضوئية موجهة أطلقتها الأقسام الأخرى من طائرات الاقترام التي استُدعيت كتعزيزات، وإغراق الفرقاطة Sahand المنكوبة خلال دقائق معدودة.

ولم يُدلِ الإيرانيون بكلمتهم الأخيرة. وردوا بإطلاق صاروخ سلكورم من جزيرة قشم. ممّا أجبر الفرقاطة Jack William والمدمرة Josph Strauss على تفعيل نظام سلاح Phalanx Close-In لتجنّب دفعة من خمس صواريخ سلكورم. أمّا الفرقاطة Gray المرابطة على الجانب الآخر من مضيق هرمز كرادار مراقبة؛ فقد راوغت صاروخي سلكورم. وعند الغروب برزت الفرقاطة الإيرانية Sabalan إلى العيان أمام المدمرات الأمريكية ومستعدة للاشتباك. وأطلقت مباشرةً صاروخ Sea Killer على الفرقاطة Jack Williams - الذي ظهر فجأة على رادارها - وصاروخ Sea Cat على تشكيل الطائرات الاعتراضية المتجهة إليها. فالأسباب نفسها أنتجت النتائج نفسها، أُصيبت Sabalan حالاً بقنبلتين Skipper الموجهتين بالليزر: الأولى انفجرت في غرفة المحركات وأشعلت نيراناً مرعبةً فيها، بينما مزقت الأخرى غرفة القيادة. الآن وبعد تعرضها إلى عدم الحركة، أوشكت Sabalan على الغرق. طلب طيارو البحرية الأمريكية من واشنطن السماح لهم بالإجهاز عليها. ولكن لم يُسمح لهم بتصفيتها. أمّا وزير الدفاع فرانك كارلوتشي Frank Carlucci الذي تشاور مع الرئيس ريغان والجنرال باول؛ فقد أظهروا الرأفة لتجنب أيّ استفزاز لتصعيد العنف ربما لا يمكن السيطرة عليه. على أية حال، لا يمكن الآن نكران نتيجة هذه العملية. ففي يوم واحد فقط تمكنت البحرية الأمريكية من تدمير مرفأين كان الباسدران يستخدمهما قاعدةً له، وإغراق فرقاطة وزورق مسلح بالصواريخ، وثلاثة زوارق مزودة بمحركات، وإصابة فرقاطة ثانية وطائرة فانتوم اعتراضية بأضرار بليغة. وتم أيضًا قتل سبعة وخمسين بحارًا إيرانيًا وعشرين من الباسدران. وبذلك يبقى هذا الاشتباك يمثل المعركة البحرية الأكثر أهميةً للبحرية الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي الساعة 8:30 صباحًا أبلغ الأدميرال

Less الإيرانيين أن بإمكانهم قطر الفرقاطة Sabalan إلى قاعدتها في بندر عباس، حيث بقيت هناك لإصلاحها لمدة ثلاث سنوات، ثم عادت إلى الخدمة في العام 1991.

في اليوم التالي، أخبر أكبر هاشمي رفسنجاني الصحافة الإيرانية أن "الوقت ليس في صالح إيران الآن"⁽¹⁾، فهل يجب تفسير كلامه بأنه إعلان وشيك لنهاية النزاع؟ ربما إذا أخذنا بالحسبان الموقف السياسي في طهران في ذلك الوقت. فقبل عشرة أيام تركت الانتخابات التشريعية رئيس البرلمان متأخرًا في جولة الإعادة المقبلة مقابل مهدي خروبي السكرتير العام لرابطة جال الدين المقاتلين (يسار الحزب الشعبي الديني) الذي حصل على شعبية كبيرة كونه رئيسًا لمؤسسة الشهداء. كرّس خروبي جهده لوضع نهاية سريعة للحرب وتصدير الثورة الإسلامية إلى بقية المؤمنين، وبذلك اتبع الخط الأيديولوجي للمهمّش آية الله منتظري.

لم يستطع آية الله الخميني التدخل في المعركة الانتخابية؛ بسبب مرضه وضعف قواه البدنية. كان محمد خاتمي لا يزال يشغل منصب حقيبة الدعاية، وشعر أن التيار بدأ بالتحوّل وانضمّ إلى رابطة رجال الدين المقاتلين التي ينتمي إليها كلٌّ من رفسنجاني وخاتمي. وبسبب عزلتهم، قرّر رفسنجاني وخاتمي تشكيل تحالف لمواجهة صعود الشباب من الحرس. وأدركوا أنه يجب عليهم الآن إيجاد طريق لوضع نهاية للحرب التي سمحت لهم بالسيطرة على السلطة ولكن استغرقت وقتًا طويلًا جدًّا. وقد شكّلت خسارة شبه جزيرة الفاو ضربة قاسية لمعنويات الإيرانيين. وعلى الرغم من عدم وجود دليل دامغ يدعم الرأي القائل إنّه يمكننا التصور أن رفسنجاني ضحّى ويتعمد بقسم من البحرية الإيرانية للبرهنة على عدم التناسب بالقوى في الميدان لكي يبرر القبول بالهدنة المحتملة، واستنادًا إلى خطبه أن إيران يمكنها الاستمرار بالحرب مع العراق إلى ما لا نهاية، ولكن لا يمكنها القتال مع الولايات المتحدة في الوقت نفسه؛ أعلنت الحكومة الأمريكية في 19 نيسان أنّها وسّعت من حمايتها لحركة التجارة البحرية في الخليج. وفي حالة الضرورة المطلقة، فقد حصلت السفن الحربية الأمريكية على السماح لها باستخدام القوة لحماية السفن لكلّ الدول إذا كانت معرّضة

- 1 - صحيفة كيهان في 19 نيسان 1988.

للهجوم من القوات الإيرانية. ولذلك؛ وضعت إيران مباشرة نهاية لمضايقاتها للتجارة البحرية؛ لتجنب تكرار الصفعة التي تلقتها في عملية فرس النبي، وفي مطلع شهر مايس نشرت القيادة البحرية الإيرانية ثلاث مدمرات لافتة للنظر: Babr, Plang, Damavand في مضيق هرمز. لكن أنظمة التسليح على هذه السفن لم تعد عاملة. ولذلك؛ لا يمكن لهذه المناورة أن تستغل أي أحد: فالإمبراطور ليس لديه الملابس، وكل واحد يعرف ذلك سواء في طهران أم بغداد.

العراقيون يستعيدون بقية أراضيهم التي خسروها

في الجولة الثانية من الانتخابات التشريعية التي جرت في 13 مارس 1988 حصلت رابطة رجال الدين المقاتلين بقيادة مهدي خروبي على 60% من مقاعد البرلمان، وهذا يمثل ضربة قاسية لأكبر هاشمي رفسنجاني الذي أصبح عليه المساومة مع رابطة رجال الدين المقاتلين من جانب، ومع البرلمانيين المستقلين المعادين لاستمرار الحرب من جانب آخر؛ لكي يتمكن من الاحتفاظ برئاسة البرلمان وإعادة تشكيل حكومته. وكتب مهدي بزركان أحد أعضاء المعارضة ورئيس الوزراء السابق لحكومة بني صدر رسالة مفتوحة لآية الله الخميني ينتقد فيها رفسنجاني؛ لأنه أخفق في التفاوض في الوقت المناسب واتهامه بأنه المسؤول الوحيد عن استمرار الحرب التي تخالف مبادئ الإسلام، كما يرى بزركان. وبينما تم اعتقال أربعين من أنصاره، بقي بزركان لم يمسه أحد لحمايته من آية الله منتظري. وبعد أن تعرّض للنقد اللاذع، بقي المرشد الأعلى المعتل الصحة يميل مرة أخرى إلى جانب رفسنجاني وتأكيد علالته إعادة الثقة به وتجديد تعيينه قائداً للقوات المسلحة للقوات العسكرية الإيرانية. ولما كانت الحاجة لكبش فداء مطلوبة الآن لتفسير الهزيمتين المذلتين اللتين تعرض لهما الجيش الإيراني في البر والبحر، طرد رفسنجاني الجنرال سوهرابي من منصبه رئيساً لأركان القوات المسلحة الإيرانية، وعين محله الجنرال علي شاهبازي. وبينما لم يكن شاهبازي من العسكريين اللامعين، فإنه كان من المقربين من

الباسدران وقضى آخر سنتين من خدمته في مكتب المرشد الأعلى ليقدم استشاراته لآية الله الخميني وابنه أحمد في الأمور العسكرية. وبالنسبة إلى الملاي فإنه يملك مزية كونه مطمئنًا من الناحية الأيديولوجية. وبالنسبة إلى رفسنجاني فإنه عسكري متواضع لا يرفض تحمل مسؤولية أية هزيمة حينما يحين الوقت للإيرانيين تهيئة أنفسهم لقبول الهدنة.

وبعد أيام قلائل، بدأ الجيش السوفييتي الانسحاب من أفغانستان الذي سارع من التقارب بين موسكو وطهران. فالنظام الإيراني الذي اطمأن مرة أخرى وهو يرى الجيش السوفييتي يترك بلدًا مسلمًا وجارًا لإيران التي لم تعد تعارض تطبيع العلاقات مع الاتحاد السوفييتي. حاول الكرملين إقناع القادة الإيرانيين أن من الضروري إعلان هدنة لاستقرار المنطقة وتجنب مواجهة أخرى بين القوات الأمريكية والإيرانية، التي ستحكم قبضة الولايات المتحدة على الخليج. كان رفسنجاني وخامنهئي وخروبي ورضائي وموسوي مقتنعين أن الكرملين على صواب، ولكن بعد النظر ووضوح الرؤية عند آية الله الخميني بدأت بالخمول بمرور الأيام، وما زال يعارض الهدنة.

وبينما استمر القتال على أرض الجبهة، والتوتر عاليًا وخطيرًا في منطقة الخليج؛ استقبل ميخائيل غورباتشوف الرئيس رونالد ريغان في موسكو في 29 مايس 1988 لقمة تستمر أربعة أيام ناقش فيها الرئيسان عدة قضايا، وبضمنها المتعلقة بإقامة علاقات متبادلة لتعزيز الثقة بين القوتين العظميين. ويقال إن الزعيم السوفييتي عرض الضغط على إيران لوضع نهاية للحرب مع العراق إذا ضغطت واشنطن على باكستان والعربية السعودية لتسهيل الانسحاب السوفييتي من أفغانستان. ويقال أيضًا إن الرجلين وافقا على مقترح غورباتشوف وبالتصافح بالأيدي. وللمرة الأولى يبدو أن مقترح "رابح - رابح" هو الذي سيسود، ويشر بنهاية للحرب الباردة.

وفي غضون ذلك، قرّر صدام حسين الضرب على الحديد وهو ساخن. شنت قواته المنتصرة عملية ضد الإيرانيين في قاطع بحيرة الأسماك إلى الشرق من البصرة. كان للعملية هدف مزدوج: استئصال أي تهديد للمدينة النهرية (البصرة)، وإجبار الإيرانيين على قبول اتفاق للهدنة، وذلك بإنزال ضربة حاسمة أخرى بمعنوياتهم.

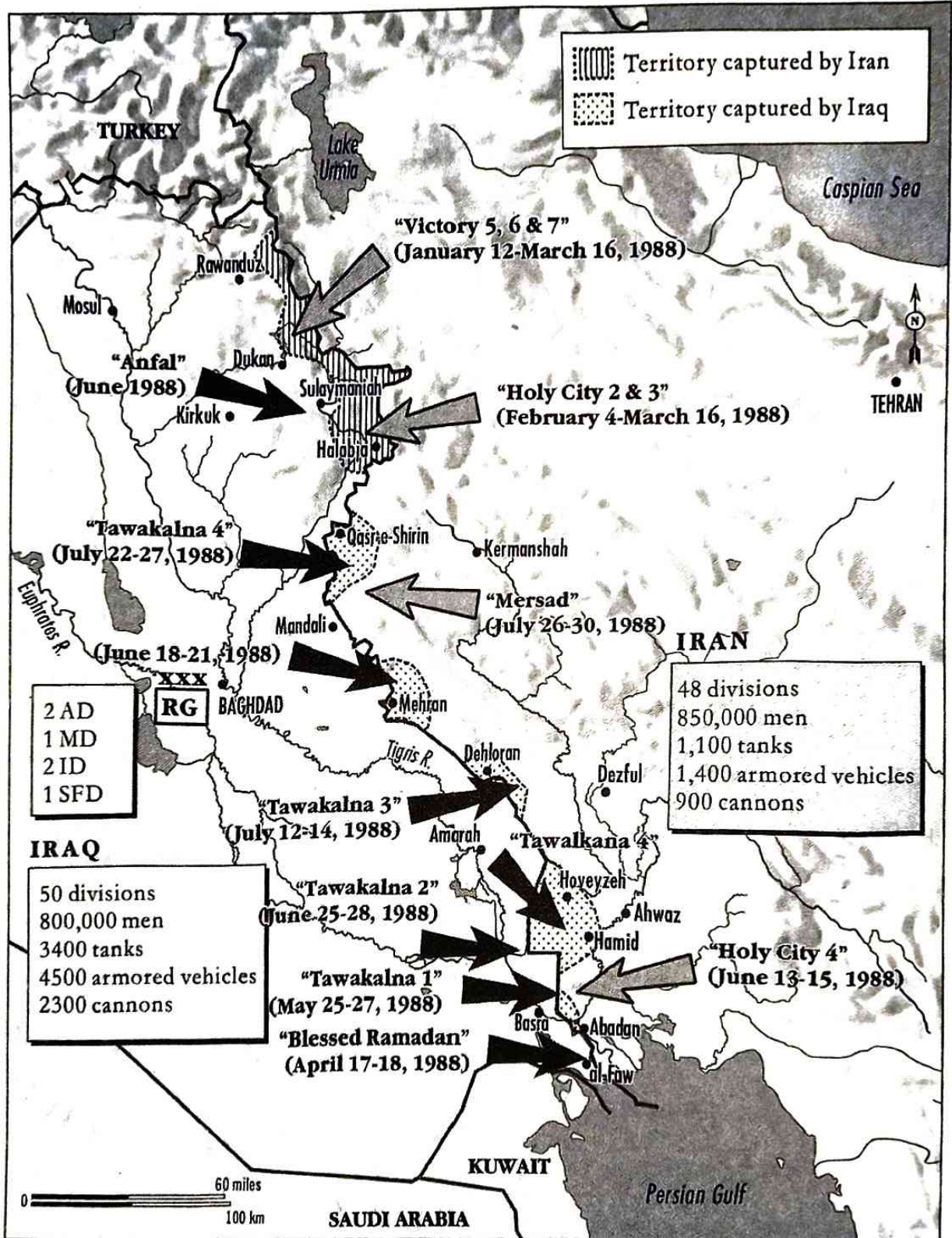
وفي 25 مايس 1988 شنت القيادة العسكرية العراقية العليا عملية "توكلنا على الله" التي حشدت 150 ألف مقاتل، وأربع عشرة فرقة، وبدعم من ثلاثة آلاف آلية مدرعة و1500 مدفع⁽¹⁾. ومنذ سفره إلى مكة قرّر صدّام حسين أن يسمي معاركه بتسميات دينية لزيادة المساندة الشعبية وإقناع مشيخات النفط بالخليج باستمرار الدعم له. أما الإيرانيون؛ كان لديهم 50 ألف مقاتل في 5 فرق للمشاة، و90 دبابة، و150 مدفع في المنطقة. وعند الفجر بدأت القوات العراقية بالتقدم نحو الخطوط الإيرانية وبدعم من الجو. وبعد مفاجأتهم، قاوم الباسدران بعناد واستدعوا طائراتهم الاعتراضية للمساعدة وإنقاذهم. تراجعت الطائرات الإيرانية حينما رأوا طائرات الميغ-29 العراقية الجديدة التي تسلّموها من موسكو مؤخرًا. تم إسقاط إحدى هذه الطائرات بطريق الخطأ بصاروخ أرض - جو من الدفاعات العراقية خلال العملية، وهذه الطائرة الوحيدة من الميغ-29 خسرها العراق خلال مدة الحرب. وفي نهاية اليوم، حصل الجنرال كمال (من الفيلق الثالث) على الإذن باستخدام الأسلحة الكيميائية لمهاجمة مواقع العدو. استخدم غازات الأعصاب السامة بصورة مكثفة، التي تتميز بكونها تتفاعل بشكل طفيف، ومن ثمّ كادت أن تبطئ تقدم قواته أيضًا، وإن كانت ترتدي البدلات الواقية من الأسلحة الكيميائية. لم يملك الباسدران سوى الأقنعة التي لا فائدة منها في حالة نشر المدفعية العراقية لغاز VX والتابون. ولذلك، قتل الكثير وهم على مدافعهم وبنادقهم بأيديهم.

وفي نهاية ذلك اليوم، سحق العراقيون المواقع الإيرانية وأجبروا العدو على التراجع نحو ستة أميال (10 كيلومترات). وفي اليوم التالي تغلبوا على الإيرانيين ودفعوهم إلى الحدود. كان لدبابات الحرس الجمهوري دورٌ في إنزال الرعب بين الباسدران الذين هربوا بصورة غير منتظمة بعد أن تركوا معداتهم. وفي غضون ذلك دفعت القوات العراقية الباسدران خارج منطقة الأهوار إلى مسافة ثلاثين ميلًا (50 كيلومترًا) شمالًا. كان نجاح

1- القوات تم توزيعها على أربع فرق مدرعة (الثالثة، السادسة، "حمورابي" و"المدينة المنورة")؛ وفرقتين ميكانيكيتين (الخامسة و"نوخدنصر")؛ وسبع فرق مشاة ("الفاو"، 8، 11، 19، 30، 41، 42)؛ وفرقة القوات الخاصة "توكلنا".

العراقيين كاملاً، فخلال ستين ساعةً تمكنوا من استعادة جيب حسّاس من الأرض، وقتل أكثر من ستة آلاف إيراني، والاستيلاء على كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة.

في 27 مايس 1988 تم رفع العلم العراقي على مدينة الشلامجة الإيرانية الواقعة على بعد ستة أميال (10 كيلومترات) إلى الغرب من خورمشهر، وللمرة الأولى منذ ست سنوات. أوقف الجنود العراقيون تقدمهم لانتظارهم الأوامر. وفي عصر اليوم السابق، كان صدّام حسين يعقد اجتماعاً مع ضباطه الكبار للتوصل لقرار حول ما تبقى من العملية. وعلى الرغم من الانتصارات الباهرة في شبه جزيرة الفاو والشلامجة كان الرئيس العراقي يدرك أنّ الحرب طويلة، وربما تستمر حتى وفاة آية الله الخميني. وأعطى لنفسه مدة ثمانية عشر شهراً لإخراج الإيرانيين من الأراضي العراقية. كانت تحليلاته عقلانية وتستند إلى عوامل ملموسة، فقد تعلّم الكثير خلال السنوات الثمانية، وقد أتقن الآن التوفيق بين الكثير من المتغيرات، فجنرالاته حذرون جداً ويريدون تجنب أيّ تحجيم لتخميناتهم بطاقة العدو في الهجوم المضاد. كان نزار الخزرجي الذي كثيراً ما شغل طويلاً منصب قائد للجبهة الشمالية وقبل أن يصبح رئيساً لأركان القوات المسلحة، يرى شنّ هجوم في كردستان العراق لاستئصال أيّ تهديد لمناطق إنتاج النفط في كركوك والموصل. في حين كان عدنان خير الله يرى ضرورة شنّ هجوم في القاطع الأوسط لضمان أمن العاصمة. أمّا صدّام حسين؛ فقد كان يميل إلى البدء بعملية في جزر مجنون لاستعادة حقول النفط هناك لزيادة الموارد المالية. وبعد نقاشات مكثفة من مؤيد ومعارض، اتفق القادة الثلاثة على تركيز جهودهم الرئيسة على الجبهات الوسطى والجنوبية، وفي الوقت نفسه إعادة تنظيم القوات في الجبهة الشمالية لشنّ الهجوم المناسب في ذلك القاطع. وأمروا ببناء طرق جديدة لتجاوز معازل الفصائل الكردية؛ من أجل تسهيل حركة الوحدات المدرعة نحو المناطق الجبلية. كان مبدؤهم الرئيس توفير المرونة في الحركة. ووضع كل فيلق بالإنذار، وأمروا بالتهيئة للتوجه نحو هجوم سريع عند الضرورة.



خارطة الجبهة العراقية الإيرانية في عام 1988

وعلى الجانب الآخر، لم تعد قلوب الإيرانيين مرتاحة، لقد تم تدمير معنويات القوات الإيرانية إلى حد كبير. ومع ذلك، تمكن الجنرالان شاهبازي وشيرازي من حشد قوة هجومية كافية لاستعادة الشلامجة في يوم 13 حزيران. فخلال يومين تمكنت ثلاثة ألوية بإسدران وبدعم مئة دبابة من القيام بعدة هجمات بالجبهة وتمكنوا من اختراق الخطوط العراقية. شنَّ الحرس الجمهوري مباشرةً هجومًا مضادًا واستعاد السيطرة على المدينة الحدودية. وفي اليوم نفسه شنت القيادة العسكرية العليا العراقية عدة غارات في كردستان؛ للسيطرة على أهداف مختلفة وضمنها السيطرة على بعض الممرات الجبلية. لم يعر الجنرال الخزرجي اهتمامًا كبيرًا للجنرال ساجد قائد الفيلق الأول، لذلك قاد العمليات شخصيًا، واستعاد العراقيون سدَّ دوكان، لكن بقيت القوات الإيرانية تمسك بحلبجة حيث تخندقت فرقة من الباسدران بين حطام المدينة المحترق وبين جثث الموتى. واستنادًا إلى الجنرال الحمداني، توصل النظام العراقي في الوقت نفسه إلى هدنة متزامنة مع جلال طالباني ومسعود برزاني⁽¹⁾. وبموجب الاتفاق تقوم بغداد باستهداف القوات الإيرانية المنتشرة في كردستان العراق وبصورة شاملة، مقابل أن تتوقف الفصائل الكردية عن التمدد خارج مناطق وجودها آنذاك. برهن صدام حسين مرةً أخرى على براغماتيته؛ لتحقيق هدفه الرئيس: إخراج الإيرانيين من العراق.

وفي 18 حزيران شنَّ الجيش العراقي هجومًا على مهران في القاطع الأوسط وبالتنسيق مع منظمة مجاهدي الشعب بقيادة مسعود رجوي. ومنذ إجباره على مغادرة فرنسا، اتخذ قائد المعارضة المسلحة ضد نظام الملالي ملجأً له في العراق وأسَّس جيش التحرير الوطني الإيراني الذي جهَّزه بغداد بالمعدات. وهذه القوات الاحتياطية والمتحمسة كثيرًا تتكوَّن من 20 ألف مقاتل مجهزين بالعربات المدرعة والمدفعية الخفيفة. انتهزت الحكومة العراقية التي لم تكن مرتاحة لوجود هذه القوات على أراضيها الفرصة لإرسالهم إلى القتال داخل إيران. تمكنت قوات مجاهدي الشعب وبدعم من فرقة مدرعة عراقية من السيطرة على

1 - مقابلة مع رعد مجيد الحمداني في كتاب:

مهران خلال أربعة أيام وسحق فرقة باسدران كانت ترابط هناك، وإقامة موطن قدم بعمق اثني عشر ميلاً (20 كيلومتراً) في داخل الأراضي الإيرانية. أما بالنسبة إلى بغداد؛ كان ذلك مجرد مناورة مضللة؛ من أجل سحب أكبر عدد ممكن من الإيرانيين إلى هذا القاطع، ولتخفيف دفاعاتهم في بقية قواطع الجبهة الأخرى. نجحت هذه الحيلة وأقنعت الجنرال شيرازي بإرسال عدة فرق إلى قاطع مهران، وانتهز صدام الفرصة للعب ورقة أخرى.

وفي فجر يوم 25 حزيران، شنَّ الرئيس العراقي عملية "توكلنا على الله 2" باتجاه جزر مجنون وأهوار الحويزة التي يربط فيها 40 ألف مقاتل وأربع فرق للمشاة للدفاع عنها. حشد صدام 160 ألف مقاتل موزعين على أربع عشرة فرقة وبدعم من ألف مدفع خفيف⁽¹⁾، وأربع فرق مدرعة مستعدة للاندفاع نحو الاختراقات التي يُحدثها جنود المشاة في شمال وجنوب جزر مجنون، وتطوير الخنادق الإيرانية في الأهوار. ومرةً أخرى، بدأ الهجوم العراقي بقصف مدفعي كثيف، ويتبعه هجوم بالأسلحة الكيماوية، ثم بضربات جوية بطائرات Su-25s "القاتلة للدبابات". ونتيجة لتدني معنويات القوات الإيرانية بسبب الخسائر السابقة، فقد تراجعت قبل أن يبدأ القصف العنيف. وخلال ثماني ساعات تمكنت القوات الخاصة العراقية التي كانت تستخدم العربات البرمائية المدرعة من السيطرة على جزر مجنون الجنوبية التي قاومت العراقيين لمدة ثلاث سنوات، وهروب الجنود الإيرانيين إلى الحدود بصورة غير منظمة.

اندهش الجنرالات العراقيون لنجاحاتهم. ومن أجل تطويق الإيرانيين بالكامل تم نقل اللواء المظلي 42 جواً إلى مناطق خلف خطوط العدو. وفي 28 حزيران، تمت السيطرة على كامل المنطقة، وسيطروا على موطن قدم داخل الأراضي الإيرانية، وقتل ثلاثة آلاف، وجرح ثمانية آلاف من الباسدران، وأسر أربعة آلاف، وكل الآخرين الذين اختفوا في الهواء الطلق يبحثون عن وحداتهم أو سلكوا طريقهم للعودة إلى بيوتهم. رسخت هذه الهزيمة الإضافية من انهيار المعنويات في الجانب الإيراني. وبينما كانت إيران تدعي سيطرتها على

1 - قسمت تلك القوات الى أربع فرق مدرعة (الثالثة والثانية عشر حمورابي والمدنية والمنورة)؛ وستة فرق للمشاة (الفاو25، 31، 35، 41، 42) وثلاثة فرق ميكانيكة (الأول والخامس) (نبوخذ نصر - نزار) وفرقة "توكلنا" للقوات الخاصة.

بعض الجيوب في الأراضي العراقية، ولا سيما في كردستان، لكن قواتها المسلحة فقدت الروح القتالية. وحتى الباسدران فقد طلبوا من الحكومة وضع نهاية للنزاع. وبعد أن بلغ الهروب من الخدمة العسكرية معدلات عالية، أمر علي خامنئي جميع المقاتلين بأداء واجهم الوطني وتوجه مباشرة إلى الجبهة. وانتقد رفسنجاني أولئك، ومن غير تسميتهم، الذين أسهموا في عزلة إيران وعارضوا انفتاحها التي طالما دعا إليها خلال سنوات. وهكذا أصبح الجو في دوائر السلطة مسممًا، وكلُّ لاعب يحاول تبرئة نفسه من مسؤولية تراكم الهزائم. أما في بغداد؛ كان التفاؤل سيد الموقف في تلك الأيام، إذ أعلن صدام حسين المبتهج بنصره "أن معركة اليوم هي الأخيرة في سلسلة طويلة من المواجهات الصعبة، وأن النصر النهائي قريب جدًا إن شاء الله"⁽¹⁾. إن أية مأساة غير متوقعة في النهاية الأخرى من الخليج ربما ستبرهن أنه على صواب.

تدمير طائرة إيرباص إيرانية:

عند بزوغ فجر يوم 3 تموز كان الطراد USS Vincennes يبحر بالقرب من جزيرة أبو موسى متوجهًا نحو مضيق هرمز وبمرافقة الفرقاطتين Sides و Montgomery لاصطحاب رتل آخر من ناقلات النفط المتوجهة نحو الكويت. كان الطراد Vincennes حديثًا ومزودًا بصواريخ موجهة من طراز Ticonderoga (بطول 567 قدمًا / 173 مترًا، ووزنه 10 آلاف طن) الذي وصل لتوّه إلى الخليج وهو مجهز بنظام Aegis القتالي والجديد تمامًا. إن جوهر هذا النظام الآلي بالكامل عبارة عن رادار قوي جدًا ثلاثي الأبعاد وممسوح ضوئيًا وإلكترونيًا ويمكنه متابعة عشرات الأهداف في وقت واحد بفضل زوج من الأبراج الموجهة بالرادار الذي يبلغ قطرها 127 ملم، وبطارتي مدفعية قادرة على إطلاق ستين صاروخ أرض - جو Standard بسرعة على بدن السفينة. هذه جوهر التكنولوجيا المعروفة لطواقمها باسم "Robocrusier" الذي صُمم أصلاً لاعتراض القاذفات السوفيتية التي تحاول اختراق

1 - وكالة الصحافة الفرنسية في 27 حزيران 1988.

الدفاعات البحرية الأمريكية. كان الكابتن ويليام روجرز William Rogers قائد هذا الطراد فخورًا في إدارة دفعة واحد من أكثر السفن حداثةً في هذا القاطع. ومن المؤكد أن طاقمه كان يفتقر إلى التدريب، وتخرج معظم ضباطه مؤخرًا من الأكاديمية البحرية، ولكن حصلوا على أعلى الدرجات وأظهروا الكثير من مؤهلات القيادة. وكل واحد منهم متلهف لفرصة ما لإثبات نفسه.

ولا يمكن المقارنة عند إبحار الطراد Vincennes إلى جانب الفرقاطة USS Montgomery التي هي أقدم منها بخمس عشرة سنة، التي تبدو شاحبة بجوارها. ومع ذلك، كانت Montgomery هي التي رصدت تجمُّع ثلاثة عشر زورقًا مسلحًا في الساعة 6:30 صباحًا، وقررت أن تلك الزوارق تناور لمهاجمة مجموعة ناقلات تبحر على بعد خمسين ميلًا بحريًا من موقع السفن الأمريكية. أمر كابتن الطراد Vincennes مواقع العمل بالاستعداد، وزاد من سرعة سفينته، واتخذ المبادرة بالاشتباك مع الزوارق الإيرانية، إذا ما اعترضت سير السفن المرافقة بطريقة تثير مزاجه العدائي. كان الكابتن روجرز يحلم بالاشتباك بمعركة تمنحه نفس الأوسمة التي حصل عليها زملاؤه الذين عملوا في عملية فرس النبي قبل شهرين. ولمدة ساعتين أبحر الطراد نحو الشمال الشرقي بأقصى سرعة ممكنة تحتملها محركات الطراد في محاولة لاعتراض الزوارق الإيرانية التي لم يتمكن من رصدها ولا الفرقاطتان المرافقتان له. ومع ذلك، فإن خطأ سيره اقترب كثيرًا من منطقة الحظر المعلنة من إيران. وفي الساعة 8:40 صباحًا كانت الطراد Vincennes تبحر على بعد أربعين ميلًا بحريًا إلى الشمال من موقعها المخصص لها.

ودعا ضابط قوة المهمات في الشرق الأوسط بالبحرين ذلك الطراد وطلب منه استئناف إبحاره النظامي. أجاب الكابتن روجرز، وهو يلعب بالوقت، أنه أرسل طائرة الطراد الهليكوبتر في مهمة استطلاعية ولا يمكنها العودة من دون الحصول على معلومات. وبعد دقائق قليلة، تعرضت الهليكوبتر للإصابة بنيران الأسلحة الاتوماتيكية عند تحليقها فوق الزوارق الإيرانية. أعطى قائد السفينة مباشرة الحق لنفسه بالدفاع وطلب السماح له بتعقب الزوارق المسلحة التي توجهت شمالًا باتجاه المياه الإقليمية الإيرانية. وحينما كان ضابط

قوة المهمات بالشرق الأوسط يواجه صعوبةً في تقييم الوضع في الميدان، فقد ترك الكابتن ليعمل ما يراه مناسباً. وخلال خمسين دقيقةً أصبح الطراد Vincennes ضمن مدى نيران الزوارق المسلحة التي كانت تحاول الهروب بصورة غير منتظمة. وفي الساعة 9:39 صباحاً فتحت نيران مدفعتها الخفيفة عليها. وبعد دقيقتين دخل الطراد المياه الإقليمية الإيرانية ولكن طاقمها انغمس في المطاردة حتى إنه لم ينتبه لموقعه. كذلك تاجه الطراد تحذيرات الفرقاطتين المرافقتين له. وعلى الرغم من أن الطاقم كان يدرك أن الكابتن روجرز قد قفز على الأوامر، وشعر قادة الفرقاطتين من المراتب الدنيا أن ليس لديهم الحق القانوني في السير وراء كابتن يرونة أحد الأشخاص الكابوبي الذي لم يصغ لأيٍّ أحد⁽¹⁾.

وخلال نصف الساعة التالية، اجتمع الكابتن وضباطه في غرفة عمليات الطراد وهم مستغرقون تماماً بمعركتهم مع الزوارق المسلحة الإيرانية. كان التوتر ملموساً، وحتى تلك اللحظة لم تكن الضربة مباشرةً بعد؛ لأن الزوارق السريعة وسهلة المناورة كانت تبخر بصورة متعرجة لتجنب القذائف المتساقطة حولها. تسلّم الإيرانيون الأوامر بالتراجع وعدم القيام بهجوم معاكس. أما على ظهر الطراد Vincennes؛ فقد صار القلق فجأةً بديلاً من الاحتياج والرغبة في القتال. لقد أدرك الكابتن أنه بدخوله المياه الإقليمية للعدو سيعرض الطراد إلى هجوم كبير وقانوني. وذكّر ضابط الاستخبارات على ظهر الطراد الكابتن أن الاستخبارات البحرية ورّعت مذكرة قبل أيام قليلة تحذر من احتمال أن الإيرانيين سيقومون بعمل كبير في الرابع من تموز؛ للانتقام من الإذلال الذي تعرّضوا له قبل شهرين.

بدأ الضباط يتساءلون فيما إذا استدرج الطراد Vincennes إلى مصيدة ما. وبما إن الكابتن شعر بعدم الاطمئنان، أمر طاقمه بوقف إطلاق النار؛ لكي تتمكن طائرة الهليكوبتر من الهبوط ويستطيع الطراد بالعودة إلى المياه الدولية. وعند هذه النقطة، كان الطراد على بعد ستين ميلاً بحرياً من خط سيره النظامي بالقرب من جزيرة قشم التي هي مقر بطارية صواريخ سلكورم. لكن البطارية لم تشتبك بقتال، وذلك للأوامر الصادرة لها من طهران لتجنب أيّ استفزاز عديم الجدوى للبحرية الأمريكية. كان الملاحي على الرغم من قعقة سيوفهم

1 - خلال عملية فرس النبي ذهبت البحرية الأمريكية إلى الحدود القصوى لتجنب الدخول في المياه الإقليمية الإيرانية.

يدركون جيداً عدم التوازن الهائل في القوى. ويعرف رفسنجاني جيداً أنه لا يكسب أي شيء من إشعال مواجهة كبيرة مع الولايات المتحدة.

وعلى بعد خمسين ميلاً (80 كيلومتراً)، أقلعت طائرة الإيرباص A-300 التي تقوم برحلة يومية إلى دبي من بندر عباس في الساعة 10:17 صباحاً، وعلى متنها 290 راكباً (274 مسافراً و16 من طاقمها). تم رصدها مباشرةً من رادار الطراد Vincennes الذي أرسل إشارة أوليةً أنها "تلامس مدني". وبعد دقيقتين، أساء عدد من العاملين على ظهر الطراد Vincennes تفسير إشارات الرادار - من المحتمل بسبب النقص في التدريب أو ضغط العمل على ظهر الطراد - وقرروا أن الطائرة كانت تهبط وهي تكتسب سرعة، وهو الوضع الاعتيادي لطائرة تريد الهجوم على السفينة. كانت طائرة الإيرباص تحلق بدقة وتتبع المسار الجوي للملاحة التجارية، وما زالت تهبط في الواقع لتصل إلى ارتفاعٍ للعبور 14750 قدمًا (4500 متر) لرحلة تعبر مضيق هرمز وتستغرق نصف ساعة.

وبينما كان الطراد Vincennes يناور للاشتباك مع الزوارق المسلحة لباسدران، فقد اتخذ الطراد موضعاً في مسار رحلة الطائرة الإيرانية رقم 655 التي لم تكن في العادة مواجهتها. استفهم الضابط الشاب المسؤول عن نظام الاعتراض من المستجيب مرةً أخرى: هل الاتصال "عسكري أم مدني"، فأضاف حالةً من الغموض العام⁽¹⁾. انفجرت الأصوات القلقة في غرفة العمليات التي تركت في حيرة لتسهيل مهمة العاملين، فالبعض اقترح أن الطائرة ربما فانثوم أو Tomcat وتتخذ صفة رحلة تجارية، ولا سيّما أن مطار بندر عباس يُستخدم قاعدةً عسكريةً للقوة الجوية، وتربض فيها نحو عشر مقاتلات من هذا النوع. إن منظر الهجوم على الطراد USS Stark يتردد كثيراً على تفكير كل واحد. في الساعة 10:20 صباحاً أرسل العامل على ظهر الطراد Vincennes إشارةً تحذيريةً بالراديو إلى الطائرة التي تقترب من الطراد وعلى نظام الترددات الطارئة (العسكرية 243.0 والترددات المدنية 121.5)،

1 - في ذلك الجو المتوتر قام الضابط بتغيير المؤشر إلى الوضع "العسكري"، ونسي أن أغلب رحلات الطيران التجارية والطائرات العسكرية مجهزة بمؤشر ثنائي ممّا يسمح لهن بإجابة المراقبين الجويين المدنيين والعسكريين. إن أي مراقب جوي لديه الخبرة لا يمكنه اقراراف مثل هذا الخطأ.

ولكن لم يتسلّم أيّ جواب. ونظرًا لكون الرحلة قصيرة المسافة فمن المحتمل أنّ طاقم الطائرة قد بقي على ترددات بندر عباس ودبي ودون الاشتراك بالترددات الطارئة. وفي غضون ذلك، ساد الغموض غرفة العمليات على ظهر الطراد Vincennes. وأعاد عدة خبراء فحص معلومات الرادار وتوصّلوا إلى أنّ الاتصال المقلق بدأ في الواقع يكتسب قبولًا، وليس تركه. وراجع الضابط البحري آنذاك أيضًا جدول الرحلات التجارية ولم يجد رحلة في ذلك الوقت، فالرحلة IR655 كانت على الجدول ولكن بعد ثلاثين دقيقة. ولم يتوقف أحد ليفكر بفرق الوقت بين البحرين (الوقت المعتمد لسفن البحرية الأمريكية) وإيران (التي أقلعت منها الطائرة الإيرباص)⁽¹⁾. وفي الساعة 10:22 صباحًا أرسل الطراد Vincennes إشارة أخرى على ترددات الطوارئ يطلب من الطائرة المقتربة تعريف نفسها، ومحذّرًا بإسقاطها إذا دخلت منطقة الأمان على بعد عشرين ميلًا بحريًا من الطراد الذي ما زال يبحر في المياه الإيرانية. بلغ التوتر ذروته مرة أخرى على ظهر الطراد، وشدّ الأمريكيون من عزيمتهم حتى وإن ضربوا بصاروخ أو عدة صواريخ، وتطايرت الوثائق في غرفة العمليات في كلّ اتجاه، وانشغل الطاقم وهو مهتاج ودون أن يأخذ وقته للتفكير. وحتى الكابتن روجرز لم يدقّق بمعلومات رادار السفن المرافقة. كيف لقائد السفينة الأكثر حداثة في الأسطول يتنازل عن طلب مساعدتهم؟ وفي الساعة 10:23 صباحًا أرسل الطراد إشارة تحذيرية نهائية، وبعد دقيقة لم يتسلّم أية استجابة، أمر الكابتن بحارته بإطلاق النار. أما ضابط السيطرة على إطلاق النار الشاب كان تحت ضغط كبير جدًّا، حتى إنّه ضغط بعصبية على زر الإطلاق الخطأ عدة مرات، حتى إنّ ضابط الصنف أشار عليه بضغط الزر الصحيح، فاندفع صاروخان SM-2 بقوة نحو طائرة الإيرباص بسرعة أكثر بثلاثة ونصف سرعة الصوت، ما أدى إلى تمزيق الطائرة إلى أشلاء واختفائها من على شاشات الرادار في الساعة 10:25 صباحًا، أي بعد ثماني دقائق من إقلاعها من بندر عباس وبينما كانت على بعد ثمانية أميال بحرية من الطراد Vincennes. ففي تلك المسافة لو كانت طائرة فانتوم ربما أطلقت بالفعل صواريخها أصلًا. كانت طواقم

1- التوقيت القياسي في البحرين هو التوقيت المتفق عليه عالميًا (UTC) زائد ثلاث ساعات، في حين كان التوقيت القياسي في إيران هو (UTC) زائد ثلاث ساعات ونصف.

الفرقاطتين Sides و Montgomery المرافقتين للطراد منذهلةً، فقادتاهما اللذان عرفا إشارات رادارهما بوضوح بأن الرحلة تجارية، اندهشا وهما يشهدان رؤية انطلاق الصواريخ غير المتوقعة، وخلال سبع دقائق التي استغرقتها عملية الاشتباك، فالكابتن وليم روجرز لم يستشرهما ولم يحذرهما. كان هذا الخطأ المأساوي نتيجة لتراكم الأخطاء البشرية، مقترنة بعلاقة غير ناضجة بين الإنسان والآلة التي بين يديه⁽¹⁾. إنّه بالتأكيد لم يكن هجوماً دولياً أو استفزازاً أمريكياً كما بقيت السلطات الإيرانية تدّعي ذلك.

انتقام على الطريقة الإيرانية

ردّت طهران مباشرةً باتهامها واشنطن بارتكابها جريمة حرب. وبعد أيام قلائل، تقدّم وزير الشؤون الخارجية الإيراني بشكوى أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي وطلب إدانة ما وصفه "بالعمل البربري الذي أودى بحياة 300 إنسان بريء". عبّر الرئيس رونالد ريغان عن أسفه العميق لهذه المأساة الإنسانية المحزنة، لكنه رفض الاعتذار وصرّح أنّ كابتن Vincennes اتخذ "الإجراءات الدفاعية المناسبة"، وأكد أنّ هذه المأساة ربما لم تحدث لو إنّ إيران وافقت على تطبيق قرار مجلس الأمن ذي الرقم 598. هذا التصريح الذي نال شجب وإدانة الملالي، سيعطي الفرصة للشكّ بنظرية مؤامرة تتضمن إسقاط طائرة الإيرباص عمداً من الولايات المتحدة؛ من أجل تسريع نهاية للحرب العراقية الإيرانية. ويشير مساندو هذه النظرية إلى حقيقة عدم معاقبة الكابتن روجرز أبداً، وبدلاً من ذلك مُنح "وسام الاستحقاق" بعد فترة خدمته. وقد فُسر ذلك على أنّه مؤشر أنّ روجرز كان ينفذ الأوامر⁽²⁾.

1- وأكد ذلك للمؤلف في روما بتاريخ 15 شباط 2012 المراقب الجوي السابق العقيد المتقاعد ساندي جويتيل Sandy

Guptill المسؤول عن استخلاص الدروس من حادثة Vincennes. انظر ايضاً:

Johan Barry and Roger Charles, "Sea of Lies," News Week, July 13, 1992; Richard Saltus, "A Tragic Error Led to New Insights on Behavior Crisis," Bostn Glap, February 28, 1994; "The Other Lockerble," BBC News, April 17, 2000; "Air Emergency :Mistaken Identity," National Geographic Channel, season 3, episode3, July 28, 2006.

2- Ibid.

إنَّ هذه النظرية لا تصمد أمام الفطرة السليمة، ناهيك عن الدقة في فحص الحقائق، فكلُّ رواية تم جمعها بعد الحادث تؤكد سلوك الكابتن روجرز المرّضي، ونقص التدريب للطواقم، والضغط المحيط بهم، والغموض في غرفة العمليات، وما تبعه من حظٍّ سيِّئٍ لخطأ بشري، كلُّ ذلك أدى إلى إصدار الأمر بإطلاق النار. وقد تم نبذ وليم روجرز من أقرانه ثم تهميشه حالما انتهت مدة قيادته للطراد. وقد اعترف الكثير من البحّارة الأمريكيين أنَّ منحه وسام الاستحقاق مجرد محاولة لكي لا تخسر الولايات المتحدة ماء وجهها. وتم تكليف لجنة تقضي برئاسة العميد البحري المتقاعد وليام فوغارتي William Fogarty لفحص ظروف الحادث وتوصّل إلى أنَّه خطأ كما يسميه العسكريون "الارتباك في الحرب"، ولاحظت أنَّ الكابتن كان يعمل للدفاع عن سفينته⁽¹⁾. والكثير من ملاحظات التقرير كانت تنتقد بقوة وليم روجرز وتؤكد قائمةً طويلةً من الأخطاء التي قادته إلى القرار القاتل بفتح النار. وتحدّث الفقرة الأخيرة من التقرير ضد نظرية التعمد بفتح النار؛ لأنَّ إسقاط طائرة الإيرباص الإيرانية ربما يقود إلى الاستفزاز بسهولة والتصعيد بين واشنطن وطهران.

وبينما لم تقم الحكومة الإيرانية بالردِّ علانيةً لتدمير طائرة الإيرباص، لم تتردد في تحذير السلطات الأمريكية من أنَّها لم تتحمل حوادث أخرى من هذا النوع، وذكرتهم بحقّ الدفاع عن النفس الذي ينص عليه ميثاق الأمم المتحدة. وبعد خمسة أشهر، أي في 21 كانون الأول 1988 انفجرت طائرة البوينغ - 747 التابعة للخطوط الجوية الأمريكية Pan Am (رحلة رقم 103) فوف لوكربي باسكوتلندا وقُتل 270 مسافرًا. وبعد ثلاث سنوات من التحقيق توصّل جهاز FBI إلى أنَّ الطائرة كانت هدفًا لعمل إرهابي بناءً على أمر من النظام الليبي بقيادة العقيد القذافي الذي ربما كان يريد الانتقام للغارة الأمريكية على طرابلس في العام 1986. وفي العام 2003 اعترف الدكتاتور الليبي أنَّ مخابرات نظامه كانت مسؤولةً عن هذا الهجوم ودفع تعويضات لعوائل الضحايا مقابل رفع العقوبات الدولية على ليبيا وإعادتها إلى مقعدها بالأمم المتحدة⁽²⁾.

1- William Fogarty, "Formal Investigation into the Circumstances Surrounding the Downing of Iran Air Flight 655 on 3 July 1988" (Washington, DC: U.S. Dept. of Defence, July 28, 1988).

2- Benjamin Barthe, "L'Libyen AL-Megrahi disparait avec ses secrets," Le Monde, May 21, 2012.

ومع ذلك، وبعد سقوط العقيد القذافي في العام 2011، برزت نظرية جديدة بصورة علنية، فقد صرَّح أحد ضباط المخابرات السرية الليبية الكبار الذي انضم إلى المعارضة الليبية أنَّه في الواقع بينما أمر العقيد القذافي بتفجير الطائرة الأمريكية في رحلتها التجارية كان النظام الإيراني المحرض الحقيقي على تفجيرها؛ لأنه كان يريد الانتقام لطائرته الإرباص. واستناداً إلى هذه النظرية كانت إيران تدرك أنَّ بإمكانها التأثير في القذافي وممارسة أنواع متعدّدة من الضغوط عليه. ومن الطبيعي حماية حياة هذا المصدر، فقد بقيت هويته سريةً من النظام الليبي الجديد وكلُّ أولئك الذين تمكّنوا من الوصول إليه. ومنذ ذلك الحين، خفّضت الوكالة السرية الأمريكية للدفاع تصنيف هذا التقرير ووضعت تحت قانون حرية المعلومات. كانت كتابة تقريره شباط 1991 بينما كانت تحقيقات FBI تأخذ مجراها، وقد صيغت بعناية؛ للحفاظ على سرية مصادر المعلومات. وقد ذكرت التحقيقات أنَّ النظام الإيراني أمر بتفجير لوكربي، وذكرت الصفحات 49 و 50 أنَّ علي محتشمي بور الموظف في المخابرات السرية الإيرانية والمقرَّب من رفسنجاني هو الشخصية التي دفعت للسلطات الليبية عشرة ملايين دولار لتنفيذ ذلك الهجوم⁽¹⁾، إذا كان هذا التقرير دقيقاً (الذي لا يمكن التصريح بدقته المطلقة) فلماذا لم تستخدمه واشنطن لتحميل طهران رسمياً مسؤولية التفجير؟ يبدو هنالك عدة أجوبة: الأول يبدو أنَّ الإدارة الأمريكية لا تملك أدلة كافية في ذلك الوقت لمساندة مثل هذا الاتهام بصلافة. ربما يأتي ذكر الفرضية الإيرانية قد يضعف من الدور الليبي، ويعني كلاهما أمرً بالتفجير، وكلاهما نفذ العملية لتجنب المسؤولية القانونية، ثم إلحاق الضرر بقضية الضحايا. مما لا شك فيه، ان التنافس بين الوكالات الأمريكية لم يكن في صالح التحقيق. وبينما كان البيت الأبيض يريد تسهيل تسوية لقضية لوكربي أمام محكمة العدل الدولية، ربما حاول أيضاً تجنُّب وصم النظام الإيراني بشيء، في وقت يبدو أنَّه يفتح قليلاً بعد وفاة آية الله الخميني. ومن دون شك، إنَّه يريد أن يحمي مصادر معلوماته ذات المواقع الجيدة. وفي نهاية المطاف، اتخذت الإدارة الأمريكية مقاربة واقعية وعملية، وهي الاحتفاظ بالقضية بوصفها ورقةً بديلةً ربما تساعد في التفاوض مع طهران لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في لبنان.

1- Pan Am Flight 103 Investigation-DOI 910200.

ومع ذلك، لم يتوقف الإيرانيون عن المطالبة بالثأر عند هذا الحد، ففي 10 آذار 1989 تخلّصت زوجة وليم روجرز بأعجوبة من تفجير سيارة مفخخة بالقرب من القاعدة البحرية الأمريكية في سان دييغو، بينما كان زوجها لا يزال في قيادة الطراد Vincennes. كان هذا الهجوم الأول من نوعه على الأراضي الأمريكية، وقبل فترة طويلة من تلك التي حظيت بتغطية إخبارية شاملة. وبعد هذه الحادثة، دخلت الإدارة الأمريكية في فترة طويلة من المفاوضات مع النظام الإيراني للوصول إلى تسوية لقضية الطراد Vincennes. دفعت الولايات المتحدة في العام 1996 للحكومة الإيرانية 131.8 مليون دولار لتعويض عوائل الضحايا، مقابل إسقاط إيران دعواها من أمام محكمة العدل الدولية⁽¹⁾. وإذا نظرنا إلى الماضي، يبدو أن شيئاً واحداً مؤكّداً، وهو أنّ تدمير طائرة الإيرباص الإيرانية العرضي أقنع النظام الإيراني أنّّه لا يمكنه قتال الولايات المتحدة والعراق في آنٍ واحدٍ، كذلك أقنع ذلك صدام حسين أنّ الوقت قد حان لتوجيه ضربة حاسمة لجعل طهران ترضخ.

1- International Court of Justice ruling of February 9, 1996.

الفصل الحادي والثلاثون

نهاية اللعبة

وبعد أسبوع من التحضيرات المكثفة شنَّ صدام حسين في 12 تموز 1988 عملية "توكّلنا على الله 3" باتجاه دهلران في القاطع الأوسط. كانت القوة تتكوّن من 140 ألف مقاتل وبدعم من ألف دبابة وألف مدفع، حيث هاجم الفيلق الرابع والحرس الجمهوري المواقع الإيرانية في قاطع يبلغ عرضه ستين ميلاً (100 كيلومتر)⁽¹⁾. تمكّن العراقيون في يوم واحد من استعادة حقولهم النفطية الحدودية التي كان الإيرانيون يحتلونها لمدة خمس سنوات. وفي اليوم التالي تمكنوا من اختراق خطوط العدو في عدة نقاط في عمق الأراضي الإيرانية ودون مواجهة أية مقاومة ملحوظة. وبحلول الليل سيطروا على دهلران، ممّا أعطاهم سيطرةً على موطن قدم أكبر من كلّ الجيوب الأرضية العراقية للمقاومة في كردستان العراق. وفي 14 تموز طاردت القوات العراقية الوحدات العسكرية الإيرانية ووسّعت من قبضتها على أراضي العدو، ممّا جعل صدام حسين يهدّد طهران بأنّه سيهاجم الجنوب باتجاه الأهواز؛ للسيطرة على حقول النفط الإيرانية هناك إذا لم ينسحب الجيش الإيراني من

1 - كان التشكيل العراقي للمعركة يتكون من فرقتين مدرعتين "حمورابي" و"المدينة المنورة"؛ وثلاث فرق ميكانيكية (الأولى والخامسة و"نبوخذ نصر")؛ وست فرق مشاة (2، 18، 20، 29، 32، و"الفاو")، وفرقة القوات الخاصة "توكّلنا". في حين يبلغ حجم القوات الإيرانية الحاضرة 40 ألف مقاتل موزعين على أربع فرق (اثنين ميكانيكيين، واثنين مشاة).

كردستان العراق. أمّا الإيرانيون الذين كانوا يواجهون كارثةً بين صفوفهم؛ فيجب عليهم أن يأخذوا هذا الإنذار بجديّة. فخلال ثلاثة أيّام تم سحق ثلاث فرق مشاة لهم، وترك جنود مشاتهم 570 عربيّة مدرّعة و230 مدفعا، وعشرة آلاف ما بين قتيل وجريح، وأسر خمسة آلاف، والآخرون تبخّروا في الهواء. أمّا في خوزستان؛ لم يبقَ لدى الجنرالات الإيرانيين سوى مئتي دبابة مقابل ألف يمكن للجيش العراقي إنزالها إلى المعركة في كلّ هجوم.

آية الله الخميني يوافق على نهاية للنزاع

في ليلة 14-15 تموز اجتمع القادة الإيرانيون في لقاء طارئٍ بطهران لتقييم الوضع. وقد أصبح واضحاً أنّ إيران تتجه نحو كارثة إذا واصلت إيران الحرب بقلقٍ شديدٍ إذا ما تحوّلت في غير صالحها. ولم يحضر آية الله الخميني المعتل الصحة ذلك اللقاء، ولكنّه أراد من الأربعين شخصيّة التي حضرت اللقاء أن تعرف أنّه يريد تحكيم عقلهم وتركيز شامل على مصالح الجمهورية الإسلامية. وذكرهم مرةً أخرى أنّ المبادئ الدينية في بعض الأحيان تحتاج إلى تعليق لحماية النظام. ويقول هذا أعطى الملاي والعسكريين حرية العمل وتقييم الوضع الذي يزداد سوءاً كلّ يوم بموضوعية. لقد اندفعت الحكومة أكثر ممّا ينبغي، وأنّ الشعب لم يعد خلفها. إنّ الخسائر كبيرة جدّاً، والأموال الإيرانية تنضب، وإنّ التراجعات الأخيرة أوضحت عدم كفاءة القوات المسلحة. ولم تعد القوات الجوية والبحرية قادرةً على مواجهة التداخلات الغربية في الجوّ والبحر. وخفّف شبح استئناف حرب العواصم حتى من أكثر الأرواح عدوانية. ولكن الأكثر أهمية يجب على إيران أن تخرج من عزلتها؛ لإنعاش اقتصادها وإعادة تسليحها، وهذا المسار سيستغرق عدة سنوات. وخلال ثماني ساعات من اللقاء توصل القادة الإيرانيون إلى قرارين كبيرين: قبلوا بمقترحات صدّام حسين ووافقوا على وضع نهاية للحرب، مع علمهم أنّه يجب عليهم إقناع المرشد الأعلى بتحمّل مسؤولية هذه القرارات.

أعلن أكبر هاشمي رفسنجاني في يوم 15 تموز علانيةً انسحاب القوات الإيرانية من كردستان العراق. وفي اليوم التالي بدأت الفرق الإيرانية المنتشرة في المنطقة بالانسحاب

العاجل ابتداءً من حلبجة، ثم بنجوين وحاج عمران ورايات. وفي يوم 17 تموز - الذكرى العشرون لوصول حزب البعث إلى السلطة - أدرج صدام حسين خمسة شروط لقبول سلام شاملٍ وعادلٍ:

1. المفاوضات المباشرة بين الطرفين
2. بدء الأمم المتحدة مباشرة بتنظيف شط العرب
3. ضمان حرية الملاحة البحرية للعراق في الخليج
4. وضع نهاية للهجمات الإيرانية على الملاحة البحرية هناك
5. وتبادل للأسرى.

ولأجل إظهار حسن النية وحفظ ماء وجه الحكومة الإيرانية أمر الرئيس العراقي قواته بالانسحاب إلى الحدود الدولية ومغادرة الأراضي الإيرانية التي تمَّ غزوها مؤخرًا. أمّا من جانبه، زار رفسنجاني آية الله الخميني لشرح الوضع وطلب منه قبول الهدنة. كان رفسنجاني يدرك أنه يقامر بمستقبله السياسي. واعتذر للمرشد الأعلى عدم إمكانية هزيمة الشيطان الأكبر (صدام حسين والولايات المتحدة)، وقدمَّ شعوره بالندم، وأنه يضع مصيره بأيدي الخميني، وأعلن أنه مستعدٌّ لمغادرة كلِّ مناصبه إذا تطلَّب ذلك. وعلى الرغم من ضعفه، كان آية الله الخميني بعيد النظر، وشكر رفسنجاني لصراحته وطمأنه أن الجمهورية الإسلامية ما زالت بحاجة له - لحيويته، ورؤاه وعلاقاته - لوضع البلاد على طريق صلب والحفاظ على النظام. كان المرشد الأعلى يدرك أن أيامه باتت معدودةً، أخبر رفسنجاني أنه سيتحمَّل لوحده المسؤولية لفشل الحرب ولكي يحميه وزميله الآخر علي خامنئي.

وفي اليوم نفسه، بدأ السفير السوفيتي بالأمم المتحدة يولي فورونتسوف جولته النهائية للتوسط في الشرق الأوسط، وبعد يوم، بينما لا يزال فورونتسوف في بغداد، أرسل علي خامنئي رسالةً إلى الأمين العام للأمم المتحدة لإبلاغه أن إيران قرّرت قبول - ودون شروط - بنود قرار 598 الذي تبناه مجلس الأمن قبل عام. كانت الحكومة الإيرانية تنوي التقليل من دور الدبلوماسية السوفيتية، وذلك بقبولها الهدنة، وقبل وصول الممثل السوفيتي إلى طهران. وبما إنَّ الحرب وصلت إلى نهايتها، كان الإيرانيون يدركون أنهم سيكونون

قادرين على التعامل مع موسكو، حيث كانت صفقات السلاح والطاقة النووية أصلاً في الأفق. ولذلك، كان من الجوهرى للإيرانيين أن لا يظهروا وكأنهم مدينون للسوفييت. نعم إنهم هُزموا في أرض المعركة، لكنهم بقوا مفاوضين من الطراز الأول.

رحب طارق عزيز في 19 تموز بإعلان الإيرانيين نيابةً عن النظام العراقي، ولكن صرّح أن العمليات العسكرية ستستمر حتى يتم التأكد من النوايا الإيرانية. وبعد ساعات قليلة، اشتبكت اثنتا عشرة طائرة ميغ-29 وطائرات الميراج F-1 المقاتلة مع الطائرات الإيرانية فوق منصة نفط جزيرة خارج، ما أدّى إلى إسقاط طائرة فانتوم من طيار الميراج علي صباح الذي حقّق رابع انتصار له معترف به رسمياً. هذا الاشتباك أضع العقيد منصور ساتري قائد القوّة الجوية الإيرانية بوضع نهاية للعمليات الجوية والحفاظ على ما لديه من بقية لأسطوله الجوي. فالطائرات المؤهلة للتخليق قد تقلّصت إلى عدد قليل من طائرات Tomcat، ونحو عشرين طائرة فانتوم، وعدد من طائرات Tiger-II. وفي اليوم التالي وجّه آية الله الخميني خطابه الأخير للصحافة الدولية وأعلن قبوله الهدنة: "إنّ اتخاذ هذا القرار كان أكثر إيلاّمًا وقاتلاً لي من تجرّع كوب من السم. إنّ إيماني بالله وتجرّع كوب السم تلبيةً لإرادة الله لوقف حمام الدم هذا ... فقد أقسمت أن أقاتل حتى آخر رفق ... وسيكون ذلك أكثر تخملاً لي من قبول الموت أو الشهادة، ولكن يجب عليّ أن أقبل بالرأي المتنور لكلّ الخبراء العسكريين"⁽¹⁾.

المناوشات الأخيرة

دعا السكرتير للأمم المتحدة خبير بيرث دي كويار مباشرة وزيرى الشؤون الخارجية لكلّ من إيران والعراق إلى الاجتماع في نيويورك؛ لبدء مفاوضات تطبيق بنود الهدنة. أبلغه الوفد الإيراني رفضه المفاوضات المباشرة مع الممثلين العراقيين؛ لأنّ طهران تعتقد بعدم شرعية نظام صدام حسين.

1 - روتزرفي 20 تموز 1988.

ولمّا كان الملاي في حالة من التردّد، عاد صدام حسين ليشنّ هجومًا في يوم 22 تموز أطلق عليه اسم "عملية توكلنا على الله 4" في قواطع قصر شيرين في القسم الأوسط من الجبهة، وفي قاطع الحويزة في الجبهة الجنوبية. تهدف هذه العملية ذات التأثير الكبير إلى توجيه ضغط على طهران بالاستيلاء على أراضي إيرانية جديدة. أرسل صدام كلّ فرقه المدرّعة والآلية وقوات الحرس الجمهوري كلها، في حين لم يكن لدى الإيرانيين الكثير من القوات لمواجهة الاثنتي عشرة فرقة عراقية التي تضمّ 2000 دبابة و3000 عربة مدرّعة أخرى. ومرةً أخرى تمت هزيمة الإيرانيين، ففي أربعة أيّام تقدّم العراقيون نحو ثلاثين ميلًا (نحو 50 كيلومترًا) في الأراضي الإيرانية وأسروا ثمانية آلاف. وفي القاطع الأوسط استولوا على قصر شيرين وتقدّموا للسيطرة على سربيل زهاب وكيلان غرب وفتح الطريق نحو كرمشاه. وفي خوزستان سيطر العراقيون على الحويزة وتوجّهوا نحو حميد حتى وصلوا إلى ضفة نهر الكارون على بعد نحو 25 ميلًا (40 كيلومترًا) من أهواز.

كانت تلك العملية مضمون أولى اللقاءات الفردية لطارق عزيز وعلي أكبر ولايتي مع خبير بيرث دي كويار في نيويورك في 26 تموز. تمحورت النقاشات بسرعة؛ للتغلب على ثلاثة عوائق: القبول بالمفاوضات المباشرة، الاعتراف باتفاقية الجزائر لعام 1975، وتبادل الأسرى، مع الأخذ بالحسبان رفض الأسرى من كلا الطرفين العودة إلى بلدانهم الأصلية إمّا لأسباب أيديولوجية أو الخوف من الانتقام. ولأجل زيادة الضغط على طهران، لعب صدام آخر أوراقه بشنّ عملية "الضوء الأبدي" واستخدام مجاهدي الشعب بقيادة مسعود رجوي على طول الطريق الذي تم فتحه مؤخرًا نحو كرمشاه. وبعمله هذا أراد أن يضرب عصفورين بحجرٍ واحد: إشعال ثورة في إيران والتخلّص من NLAI (منظمة التحرير الوطنية الإيرانية) المزعجة، بل وحاول صدام حسين سحق هذه المنظمة بتعمد في الداخل الإيراني لإزاحة نقطة التوتر البارزة هذه مع طهران ولتعييد الطريق لتطبيع العلاقات في المستقبل.

وخلال الساعات الأربعة والعشرين الأولى تقدّم مجاهدو الشعب نحو ستين ميلًا (نحو 100 كيلومتر) ودون مواجهة أية مقاومة كبيرة. ولتخوف الحكومة الإيرانية من عودة التمرد إلى الوجود، شنّت هجومًا مضادًا شرسًا "عملية مرصاد" التي كانت عقيدتها عدم أخذ

أيّ أسير. وخلال ثلاثة أيام زجَّ الجنرال شهابزي والجنرال شيرازي آخر ما لديهم من قوات مدرعة وآلية لمواجهة رتل المجاهدين. وحاولت منظمة التحرير الوطني الإيرانية الاستعانة بالقوة الجوية العراقية ولكن دون جدوى. تمكّن الإيرانيون من قتل عدة آلاف من المجاهدين وإعادة من تبقى منهم نحو الخطوط العراقية. أدّى هذا المشهد إلى تطوّرات سياسية غير متوقّعة في طهران. وبعد أن عُرف بوجود الكثير من المجاهدين في السجون منذ عقد من الزمن، احتجّ آية الله منتظري علانيةً على المذبحة وانتقد بقوة آية الله الخميني لفشله ومعارضته للتخلّص منهم. لقد نجح منتظري في إثارة غضب المرشد الأعلى وتهكّم الملاي، وفي النهاية أدّى ذلك إلى تهميشه حتمًا. كان علي خامنئي وأكبر هاشمي رفسنجاني مبتهجين بذلك، وعلى الرغم من خسارتهم الحرب فإنّهم أراحوا على الدوام منافسيهم في كفاحهم من أجل خلافة المرشد الأعلى.

وفي الأيام الأخيرة من شهر تموز شنت بغداد سلسلة غارات على منشآت النفط الإيرانية ومحطّة بوشهر النووية التي ما زالت تحت الإنشاء. وفي 6 آب استجاب الإيرانيون للضغط العسكري والدبلوماسي وقبول المفاوضات المباشرة. وفي ذلك اليوم ألقى صدّام حسين خطابًا مطوّلًا "إلى الشعب العراقي، والأمة العربية وللعالم" الذي ابتهج فيه "بنصره العظيم جدًّا"، وأعطى موافقته على وضع الهدنة موضع التنفيذ ما دامت طهران عبّرت عن اعترافها بكلّ بنود اتفاق الجزائر واستعادت بغداد حقوقها التي تتمتع بها في شطّ العرب في الفترة لما قبل اندلاع الحرب. وبإعلانه هذا اعترف صدّام ضمنيًا بسريان هذه الاتفاقية، وبذلك وضع نهايةً لحرب دموية غبية ومروعة كان بإمكانه تجنبها.

وفي اليوم التالي أكدت الحكومة الإيرانية بنود الهدنة وقبلت بالمفاوضات المباشرة واعترفت بحقّ حرية المرور في شطّ العرب. عندها توقّف القتال مباشرةً بعد هذا الإعلان، وانسحب العراقيون تدريجيًا من الأراضي الإيرانية التي احتلوها مؤخرًا. وفي فجر يوم 22 آب أصبحت الهدنة رسميًا نافذةً على طول الجبهة التي بالأساس تسير مع الحدود الدولية. وانتهت الحرب بعد سبع سنوات وأحد عشر شهرًا، وانتشرت مباشرة قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة على خطوط الهدنة والمؤلّفة من 350 مراقبًا؛ لمراقبة السلام

وإرسال التقارير عن الحوادث التي قد تحدث خلال الأشهر اللاحقة. ومجموعة المراقبة العسكرية هذه تمت إقامتها بموجب قرار مجلس الأمن الدولي رقم 619 (9 آب 1988) برئاسة السويدي جان الياسون الذي كان يشغل ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة واللواء اليوغسلافي سلافكو يوفيتش Slavko Jovic. وضمت هذه المجموعة أيضًا مراقبين من ست وعشرين دولة واستثناء الدول العربية والأعضاء الدائمين بمجلس الأمن منها. وألغيت في شباط 1991 عند بدء حرب الخليج الثانية.

إنَّ نهاية النزاع لا يعني نهاية المشاكل؛ لتورط الكثير من البلدان بقوة في هذا النزاع، وبضمنهم أولئك الذين بقوا على علاقات متحفظة ومؤلمة مع النظام الإيراني الذي لا يزال يحتفظ ببعض الرهائن الغربيين. كانت هذه القضية بوضوح تهمة الولايات المتحدة التي استعرضت قوتها العسكرية في الخليج وكذلك فرنسا.

باريس وطهران تسويان حساباتهما

في صيف عام 1988 توصل فرانسوا ميتران إلى خلاصة أن عليه تسوية القضية الإيرانية. وكلف رونالد دوماس الذي عاد إلى وزارة الشؤون الخارجية لتسوية نزاع Eurodif نهائيًا ومهما كان الثمن. قررت الحكومة الفرنسية - وبعد اتباع نصيحة دوماس - إعادة علاقاتها الدبلوماسية مع طهران، وأعلنت بصورة واسعة أنها ستعيد إلى الوطن المجموعة البحرية والجوية (التي بقيادة الأدميرال جاي لا بويري Guy Labouerie) التي قضت حتى الآن أكثر من سنة في شمال المحيط الهندي. فهل كان وجودها الرادع كافيًا لإقناع الحكومة الإيرانية أن تكون أكثر اعتدالًا في تعاملها مع فرنسا؟ أو كان تأثيرها هامشيًا لترك أكثر الأعمال؛ لكي تنجز من طريق المفاوضات؟ ربّما يكون الجواب بين الاثنين إلى حدّ ما.

لقد تنفست السلطات الفرنسية بعد رؤية نهاية للحرب العراقية - الإيرانية. فالديون العراقية لفرنسا ارتفعت إلى أكثر من أربعة مليارات دولار، ومع ذلك بقيت بغداد شريكًا تجاريًا مقبولًا وإن رفضت الحكومة الفرنسية الموافقة على صفقة سلاح كان صدام حسين

راغبًا بشرائها. وفي النهاية، يجب تعويض صناعيي الأسلحة الفرنسيين بسبعة عشر مليار دولار تراكمت لديهم خلال فترة النزاع، ناهيك عن ذكر خمسة مليارات دولار استطاعوا جمعها خلال فترة السبعينيات من القرن الماضي، والأرباح الهائلة من تجارة النفط، والمنشآت وشركات الطاقة الذرية التي جنوها من التعامل مع العراق. فهذا الرخاء الاقتصادي يجب ألا يلقي بظلاله على العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع طرفي النزاع أو أن يكون ثمنًا لها: فهناك ثلاثة عشر فرنسيًا أخذوا رهائن، ونحو مئة فرنسي تم اغتياله (بضمنهم دبلوماسيون وكوادر عسكرية قُتلوا في لبنان) ونحو 500 فرنسيٍّ إمَّا جُرحوا أو تعرَّضوا لبتراء أجزاء من أجسامهم في هجمات إرهابية. وباستعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها، كان هذا الموقف الغامض رمزًا لبعض ممارسات الاحتيال من الصناعيين عديمي الضمير، وتسلب الحكومة إلى النظام القضائي، والطريقة الغامضة للأحزاب السياسية؛ للحصول على التمويل المالي في ذلك الوقت.

في أيلول 1989 وبعد أشهرٍ قليلةٍ من سفر رونالد دوماس إلى طهران؛ للمشاركة في الذكرى العاشرة للثورة الإسلامية، اتفقت فرنسا وطهران على فقرات تسوية نهائية لنزاع قرض Eurodif. وفي تموز 1990 أعلن فرانسوا ميتران عفوًا رئاسيًا عن أنيس نقاش ورفاقه الذي كان يعارضه في السابق. وفي 29 كانون الأول 1991 وقَّع البلدان اتفاقًا نهائيًا، وأن تدفع فرنسا مبلغ عدة مئات الملايين من الدولارات في تسويةٍ شاملةٍ لقرض Eurodif⁽¹⁾. وأعيد موقع إيران رسميًا مساهمًا في الشركة بعد أن تم تعويض باريس بإلغاء لجنة الطاقة النووية في إطار ذري. واستنادًا إلى هذه الاتفاقية، لا يحقُّ لإيران امتلاك اليورانيوم المخصَّب المنتج في معمل Eurodif، ولكن يحق لها تسلُّم حصتها من الواردات الناتجة من مساهمتها في الكونسورتيوم الدولي⁽²⁾. وفي 23 كانون الأول 2006 وضعت أرباح إيران لدى طرف ثالث بعد إصدار قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1737 الذي جمد حصص منظمة الطاقة الذرية

1 - يقال إن فرنسا دفعت أكثر من مليار دولار لتسوية قرض

Eurodif: (Dominique Lorntz, *Secrete atomique* (Paris: Lea Arenes, 2002), 141; and Xavier Perl,

"L'Iran detient 10% du Tricastin: le contentieux Eurodif," *Le Dauphine libere*, March 5, 2008).

2 - راجع المعلومات المتعلقة بقرض Eurodif التي جمعها موقع www.iranwatch.org الذي تديره المعارضة الإيرانية.

الإيرانية كجزء من حملة دولية لمنع إيران من الحصول على القنبلة الذرية سرًا. وأصبح النزاع الآن صفرًا وفارغًا؛ بسبب حل Eurodif في العام 2012 وبعد إغلاق معمل Georg-Besse في Tricastin بصورة دائمة.

اتخذت العلاقات الفرنسية - الإيرانية انعطافاً نحو الأسوأ في 7 آب 1991 حينما اغتالت مجموعة إيرانية شابور بختيار، رئيس الوزراء الإيراني الأسبق الذي اتخذ من فرنسا ملجأً له. كان علي وكيللي راد أحد أفراد تلك المجموعة الذي اعتقلته فرنسا وحاكمته وسجنته، في حين هرب شريكاه في الجريمة إلى إيران. وأدت هذه القضية إلى تسميم العلاقات الإيرانية - الفرنسية حتى شهر مايس 2010 حينما صدر العفو عن علي وكيللي راد وإبعاده إلى إيران، وبعد يومين أطلقت الحكومة الإيرانية سراح كلوتيلد ريس Clotilde Reiss الأكاديمية الفرنسية الشابة التي اعتقلت بشكل اعتباطي في طهران خلال مظاهرة ضد مناقشة إعادة انتخاب محمود أحمددي نجاد في شهر حزيران 2009. وقبل ثمانية أيام من إطلاق سراح ريس، أطلقت السلطات الفرنسية بهدوء سراح ماجد كاكافند، المهندس الإيراني المعتقل في فرنسا في العام 2009 والمشتبه بكونه أحد أعضاء البرنامج النووي الإيراني الذي يواجه طلب تسليمه إلى الولايات المتحدة، ولكن تم السماح له بالعودة إلى طهران.

حرب رهيباً ومميتاً

كانت الخسائر البشرية والمادية لجانبى الحرب العراقية - الإيرانية مرعبةً. ومع ذلك، فقد تم تضخيم تلك الخسائر؛ لأن من مصلحة الطرفين المبالغة في عدد الضحايا ولأسباب مختلفة. بالنسبة إلى بغداد، كانت تريد البرهنة لمشايخ الخليج أن العراق مارس دوره ببسالة بوصفه درعاً ضدّ النزعة التوسعية الثورية الشيعية وإقناعهم بالتخلي عن ادعاءاتهم المالية للعراق مقابل دماء أبنائه التي سالت. وكان العراق بحاجة إلى إثارة ضمير الغرب والسوفييت ولتشجيعهم على إرسال أسلحة أكثر إلى النظام وبأسعار مناسبة. أمّا بالنسبة إلى طهران؛ كانت القضية تعزز التركيز العام على معاناة إيران لتبرير نهاية الحرب، وزيادة الشعور أن

الشيعة كانوا ضحية السنة وشيطنة العراق، وإلقاء اللوم عليه في القمع الداخلي الوحشي جداً، الذي نفذته إيران أيضاً خلال فترة الحرب.

وحالما وضعت الحرب أوزارها أطلق كلا الطرفين إحصائيات غير موثوقة في محاولةٍ كثيفةٍ لابتزاز هذا الطرف للآخر. ادّعى العراق أنّ خسائره تجاوزت 350 ألف قتيل، بينما فُجعت إيران بقتل 600 ألفٍ على الأقل. وقد كرّر الصحفيون والمحللون العسكريون هذه الأرقام بسرعة، وتقريبها إلى مليون ضحية. "فمليون واحد" رقم تقريبي لطيف! وبعد عدة سنوات من البحث المضني من خلال مقارنة الخسائر في كل معركة مع الدراسات الميدانية والروايات العامة تقلص هذا العدد بنسبة الثلث. وفي مقابلة مع صحيفة الحياة في الأول من كانون الأول 2002 أكد الجنرال الخزرجي - الذي كان رئيساً لأركان القوات المسلحة للمدة 1987-1988 ولجأ إلى لبنان بعد انشقاقه عن صدام حسين - أنّ الجيش العراقي خسر "فقط" 125 ألف مقاتل خلال فترة الحرب، بدلاً من 325 ألفاً ادّعى بها النظام. بلغ مجموع خسائر الحرب البشرية 650 ألفاً بين قتيل ومفقود (180 ألف عراقي و500 ألف إيراني)، وأكثر من 1,5 مليون جريح ومشوّه. تبقى الحرب العراقية - الإيرانية الحرب الأكثر قتلاً في تاريخ الشرق الأوسط، وإنّ الفكرة السائدة بشكل عام هي المغالاة في نسبة الضحايا المدنيين التي تم استنتاجها نتيجة للصور عن المدن المدمرة، وهي زائفة أيضاً: فأغلبية القتلى كانوا من الجنود (أكثر من ثلاثة أضعاف ونصف من الإيرانيين بالمقارنة مع العراقيين). وإنّ عدد القتلى المدنيين نتيجة للقصف لا يشكّلون سوى نسبة 3٪ من مجموع القتلى الكلي في الحرب. وما تبقى من نسبة 12٪ من الخسائر المدنية كانوا من قتلى الكرد الذين قُتلوا من قبل العراقيين والإيرانيين. ويقال إنّ 115 ألف جندي أُخذوا أسرى (70 ألفاً عراقيون، و45 ألفاً إيرانيون)، وإنّ العدد الدقيق لهم يبقى من المستحيل معرفته؛ بسبب موت عدة آلاف خلال فترة الأسر، بينما تمّ تبادل آخرين خلال فترة الحرب، أو غيروا من مواقفهم ورفضوا العودة إلى أوطانهم⁽¹⁾.

1 - انظر تقرير ICRC لعام 1989؛ وانظر كذلك:

Los Angeles Times, December 26, 1989.

وهناك سبب آخر لتفويض هذا المجموع من القتلى والضحايا خلال فترة الحرب، وهو بينما كانت الهجمات قاتلة إلى حدٍ كبير، كانت هناك أيضًا فترات هدوء أكثر من فترات القتال الفعلي. وخلال السنوات الثمانية من الحرب تقريبًا، فربح عدد الجنود فقط من شارك فعليًا في القتال بينما الثلاثة أرباع كانوا ينتظرون أو يستعدون للهجمات التالية. ولذلك؛ كان النزاع أقل قتلاً نسبيًا مما كان عليه في الحرب العالمية الأولى التي يمكن المقارنة بينهما في الغالب. فالأطراف الرئيسية في الحرب العالمية الأولى خسرت ما نسبته 3٪ من مجموع سكانها خلال أربع سنوات الحرب، بينما خسرت إيران والعراق ما نسبته 13٪ من مجموع سكانها خلال ثماني سنوات.

وكانت الخسائر المادية هائلةً، وبصورة عامة تساوي ما خسرتة الجيوش العربية والإسرائيلية خلال حرب الأيام الستة وحرب تشرين (يوم كيور) معًا. ومع ذلك، تتوزع هذه الخسائر على ثماني سنواتٍ تقريبًا وليس توزيعها شهريًا، مما أدى إلى خلق انطباعٍ لحربٍ لا نهاية لها من الاستنزاف. وبالمجموع، فإن تسعة آلاف عربة مدرعة، بضمنها 2,600 دبابة، (ألفان ونصف تعود إلى العراق وألفان ومئة إلى إيران) تم تدميرها، فضلًا عن تدمير 1650 قطعة مدفوع، و950 طائرة (بضمنها 450 طائرة مقاتلة: 305 تعود إلى العراق و180 إلى إيران)، فضلًا عن ثلاثين سفينةً حربيةً، و72 سفينةً تجاريةً كانت تبحر في الخليج.

وبعد التحليل المضني والدقيق لكثافة الخسائر البشرية والمادية تكشف لنا أن نمط العمليات العسكرية تتبع إلى حدٍ ما أسعار النفط (كثيفة حينما تكون الأسعار عالية، ومعتدلة حينما تكون الأسعار منخفضة). يقدم هذا الاستنتاج تأكيدًا عند النظر بالوقائع الأهمية الاستراتيجية للحرب الاقتصادية، وأية استراتيجية تعطي الأولوية لاستهداف النفط الذي يشكّل المورد المالي الرئيس لطرفي النزاع.

لم يكن هذا التقييم كاملاً دون النظر إلى كلفة الحرب المالية التي تم تخمينها بألفٍ ومئة مليار دولار تقريبًا (قيمة الدولار في العام 1988 تساوي ضعف قيمته الحالية)، أنفقت بغداد 40٪ من ذلك المبلغ، في حين أنفقت طهران 60٪. ونظرًا لعزلة إيران، وعدم وجود دعم مالي خارجي، لذلك ركز رفسنجاني على اقتصاد الحرب وأدار الحرب "كرجل العائلة

الطيب"، وفي المجال المالي على الأقل. وفي النهاية، لم يعانِ النظام الإيراني من التأثيرات المتشابكة نتيجة انهيار أسعار النفط وقلة توافر الدولار أكثر من معاناته من الهجمات على منصات نفطه وناقلاته. كان رفسنجاني ليبرالياً إلى حدٍ كبيرٍ مع المصدر الرخيص والوحيد المتوافر لديه، وهو حياة جنوده. وعلى خلاف رفسنجاني كان صدام حسين يشنُّ حربه بالاعتماد على القروض من مشيخات الخليج النفطية، والتسهيلات المصرفية من الولايات المتحدة، وسماح السوفييت والغرب تأجيل سداد ديونه. وبرهن أنَّه أكثر حرصاً على حياة جنوده؛ لأنَّه يدرك أنَّهم يقون الدرع الأفضل لحماية سلطته. لقد أبطأت هذه النفقات الهائلة من التطوُّر الاقتصادي والاجتماعي في كلا البلدين الذي بقي ضعيفاً إلى حدٍ كبيرٍ؛ بسبب الحرب المرعبة، ممَّا جعل صدام حسين يستمر بالتأكيد أنَّ ذلك كان مبرراً تماماً خلال استجواب مكتب التحقيقات الفدرالية. فقد صرَّح:

"ماذا تفعل حينما يعذب جيرانك أبقارك، ويدمر مزرعتك، ويخرّب نظام الري لديك؟ خرقت إيران اتفاقية الجزائر وتدخلت في أبجدية السياسة العراقية ... كان خميني متعصباً دينياً ومقتنعاً أنَّ كلَّ قائد يشبه شاه إيران من السهل إسقاطه، وأنَّه يعتقد بإمكانه عمل الشيء نفسه في العراق... لا خيار للعراق سوى البدء بالحرب لكي يضع نهاية لتدخلات إيران. يجب الاصرار على هذه النقطة لأنها جوهرية ... وكل ما تم فعله هو من أجل الناس والإنسانية. فالشعوب تحبُّ الرجال لأفعالهم، كما تحب الرموز أيضاً، وأنا رمز إذا نظرنا إلى صوري التي نجدها في بيوت العراقيين في عموم البلاد ... ما هو مهم ليس ما يقوله أو يفكر به الشعب اليوم، إنَّما ما سيفكِّرون به في الخمسمئة أو الألف سنة القادمة"⁽¹⁾.

1- La Chute, Interrogatories de Saddam Hussein par le FBI, preface and commentary by Pierre-Jean Luizard (Paris: Editions inculte/Actes Sud. Tempsreel collection, 2010), 27-36.

الخلاصة

في اللحظة التي وضعت الهدنة موضع التنفيذ أعلن صدام حسين النصر. وأعلن بناء قوس نصر مهيب في بغداد يمثل كفين فولاذيين يمسكان بسيفين يتقاطعان من الأعلى. وأطلق على هذا القوس اسم "سيفي القادسية" ليمثل هزيمته للعدو الأبدي. ولم يتردد دكتاتور العراق بالادعاء أنه "واثق أن شعبنا سيتذكر هذا النصر التاريخي على عدونا طوال ألف سنة"⁽¹⁾. إن هذا التبجح بالشجاعة له ما وراءه، كان صدام يدرك تمامًا أنه ربح هذا "الانتصار البيروسي" الذي انتزع بثمن باهض. وكان يعرف أن المالية العراقية في حالة كارثية. وفي الواقع أنه كان يواجه وضعًا لا رابح فيه: بإمكانه تسريح الجيش وإعادة دمج عدد كبير من الجنود السابقين في الحياة المدنية، لا سيما أن الكثير منهم من تأثر بالحرب وسيذهب للانضمام إلى صفوف العاطلين عن العمل، أو الاحتفاظ بالجيش كما في السابق، مع إدراكه أن هذا يتطلب منه إيجاد طريق لجعل العسكر منشغلين بينما يبحث عن موارد مالية جديدة لإدامته. فقد تضاعف حجم القوات المسلحة أربعة مرات خلال السنوات الثمانية الأخيرة، ولكن موارد النفط انخفضت أيضًا بنسبة خمسين بالمئة.

بدأ طارق عزيز وعلي أكبر ولايتي في 24 آب 1988 مفاوضات السلام المباشرة في فيينا. وفي غضون ذلك، انتهز الجيش العراقي فرصة نهاية الحرب والتوجه ضد الفصائل المسلحة الكردية، وسحق دون رحمة البيشمركة التابعة للأحزاب الكردية الديمقراطية

1- انظر مخطوطة التسجيل الصوتي:

SH-SHTP-A-001-631 (late 1988), Conflict Records Research Center (CRRC) Project
(Washington,DC:National Defence University/ Institute for Natonal Strategic Studies).

والاتحاد الوطني والاشتراكي، ممّا أثار موجةً من الغضب حول العالم. وفي 3 أيلول أعلن "علي كيمياوي" بفخرٍ نهاية عملية الأنفال والتحرير الكامل للأراضي العراقية، مدّعياً استئصال التمرد الكردي. إنَّ القتال في نهاية شهر آب والذي قتل خلاله 400 جندي عراقي، أدى إلى نزوحٍ شاملٍ للبيشمركة وعوائلهم (أكثر من مئة ألف شخص) إلى تركيا وسوريا وإيران. سحبت إيران في 22 أيلول قوات الباسدران من جزر فارسي وأبو موسى وطنب الصغرى والكبرى وشاركت في عمليّات تفكيك الألغام البحرية بمضيق هرمز. وأنهت الولايات المتحدة عملية الرتل البحري Earnest Will وأعلنت أنّها قلّصت من وجودها البحري في الخليج⁽¹⁾. وأعدت إيران في اليوم الأوّل من تشرين الأول علاقاتها الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين، فضلاً عن أغلبية الدول الأوربية ومن بينها المملكة المتحدة التي سحبت مباشرة قواتها من Armilla Patrol الحامية البحرية البريطانية في المنطقة. وبعد ثلاثة أسابيع أنهت طهران خطّ ناقلات النفط المكوكي، وأعلنت أنّ منصّة نفط خارج أعيد فتحها أمام الملاحة البحرية. وزادت بغداد من الطاقة التصديرية لميناء أم قصر بينما كانت تنتظر إعادة بناء كلّ من أرصفة ميناء البكر وخور- العمية. وتبعث شركة لويد للتأمين البحري بتخفيض نسب تأميناتها على السفن المبحرة في الخليج إلى المعدّلات المعمول بها في الفترة ما قبل الحرب. كما بدأ العراقيون والإيرانيون بإعادة بناء مصافي عبادان والبصرة. وفي نهاية العام ارتفع إنتاج النفط في العراق وإيران إلى مليوني برميل من النفط الخام يومياً لكلّ منهما؛ لتمويل عمليات إعادة الإعمار لبناهم التحتية المدمرة.

واستبعد أكبر هاشمي رفسنجاني في كلمة له أمام البرلمان الإيراني في 19 تشرين الثاني احتمالية تجدد الأعمال العدائية. وبعد خمسة أيّام تبادلت بغداد وطهران الأسرى من الجرحى، وفتح الطريق أمام التبادل التام لجميع أسرى الحرب بينهما الذي سيستغرق فترة واحد وعشرين شهراً. واتفقت الحكومتان في 29 كانون الأوّل على تشكيل لجنة عسكرية

1- بحلول كانون الثاني 1989 كان لدى البحرية الأمريكية 14 سفينة حربية في منطقة الخليج ومن بينها طراد واحد وست مدمرات وفرقاطة واحدة وعدم وجود حامله طائرات.

مشتركة؛ لتعزيز تنفيذ الهدنة وتجنب الحوادث التي قد تشعل النزاع مرةً أخرى. وعادت القوات المسلحة لكلا الطرفين إلى مواقعها لما قبل الحرب.

ونشر آية الله الخميني في 14 شباط 1989 فتوى بتكفير وقتل الكاتب البريطاني سلمان رشدي واتهامه بالتجديف بعد نشره روايته المشهورة "آيات شيطانية". ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ المرشد الأعلى أراد صرف النظر عن هزيمة العراق لإيران، وتحويل الانتباه عن المشاكل الداخلية وتأكيد قوَّة الإسلام الشيعي؛ لكي يقدم نفسه قائداً للعالم الإسلامي. ويعمله هذا أجبر جميع الطبقة السياسية الإيرانية لتثوير نفسها مرةً أخرى، ووضع توقفاً مفاجئاً لكلِّ مقترحات الانفتاح على الغرب. وحتى النهاية المرة، سيثبت الأسد القديم أنَّه لا هوادة مع كلِّ أولئك الذين اتهمهم بالتصرُّف مع الأنظمة الإسلامية العلمانية والاستبدادية الأمريكية وعادت بالضرر على إيران.

وفي 5 مايس 1989 قُتل وزير الدفاع العراقي ذو الشخصية الجذَّابة عدنان خير الله في انفجار طائرته الهليكوبتر خلال جولة تفتيشية في كردستان، وأدى موته مباشرةً إلى ظهور عدد وفير من الإشاعات، ومنها من أَلقت اللوم على صدام حسين وترى أنَّه أراد التخلص من ابن خاله؛ لأنَّ شعبيته المتزايدة أَلقت بظلالها على شعبيته هو. واليوم أغلب الروايات وبضمنها من أولئك الجنرالات السابقين من أَلقت اللوم على ابن صدام وأحد أنسابه⁽¹⁾، وترعم أنَّ (عدي وقصي وحسين كامل) اتفقوا على التخلص من رجل يرونه المنافس الرئيس لهم في خلافة الدكتاتور. وخطَّط الرجال الثلاثة أنَّه عند موت صدام يشكِّلون لجنة تنفيذيةً شابةً لتحلَّ محلَّ والدهم ووالد أختهم زوجة حسين كامل. فقدَّ العراق بخسارة عدنان خير الله واحداً من أفضل جنرالاته، وواحداً من الأشخاص القلائل القادرين على

1- انظر: رواية الجنرال الحمداني المضيفة في كتاب:

Kevin Woods, ed., *Saddams Generals: Perspectives of the Iran-Iraq War* (Alexandria, VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington, 2011), 42.

وعدة صحفيين مختصين بالأعماق المظلمة من السياسة العراقية وصلوا إلى الخلاصة نفسها. انظر:

Sandra Mackey, *Iraq and the Legacy of Saddam Hussein* (New York: W.W. Norton, 2002), 322;

Andrew and Patrick Cockburn, *Out of the Ashes: The Resurrection of Saddam Hussein* (New York: Harper, 1999), 155-156.

إقناع صدام حسين. وصاحب مقتله تهميش الجنرال ماهر عبد الرشيد الذي يُشكُّ فيه أنه يحمل طموحات مفرطة.

وفي 3 حزيران 1989 تُوفي آية الله الخميني نتيجة نزف داخلي عن عمر ناهز الـ 86 عامًا. ابتهج صدام حسين لهذه الأخبار وعلى أمل أن يسارع موت الخميني من عملية عودة العلاقات إلى طبيعتها مع إيران والسماح له بالتحرك نحو مشاريع جديدة. تقول الأسطورة إنَّ المرشد الأعلى دعا أكبر هاشمي رفسنجاني وعلي خامنئي إلى سرير وفاته؛ ليتتهز فرصة اللحظات الأخيرة من حياته ليصرهم بأدوارهم المستقبلية. وظهر أنَّ الحقيقة كانت أكثر واقعية، فحينما دخل الرجلان إلى سرير موت الخميني لم يعد قادرًا على الكلام، وهذا أعطاهم دقائق قليلة لتقاسم السلطة بينهما. وفي تلك اللحظة ارتكب رفسنجاني الخطأ الوحيد طوال حياته السياسية حينما سمح لآية الله الخامنئي بخلافة الخميني مرشدًا أعلى، على الرغم من حقيقة أنَّ لديه الحجج الممتازة بادِّعاء الموقع لنفسه: فهو الأكبر سنًا (يبلغ من العمر آنذاك أربعة وخمسين عامًا في حين يبلغ علي خامنئي تسعة وأربعين عامًا)، وأكثر تأهيلًا وجاذبية، ولديه علاقات واسعة أكثر من منافسه. كانت هذه المؤهلات بدقة من أفنعتة أنَّه سيتمتع بسلطات أكبر بوصفه رئيسًا للجمهورية الإسلامية. وكان واثقًا أنَّه ستكون يده العليا باستخدامه هذه الشبكة، وثروته، والمؤسسات، وافتقار علي خامنئي للشخصية الجذابة للوصول إلى نفوذ آية الله الخميني وسطوته. والبقية تعود إلى التاريخ، فكلتا الرجلين يملكُ مرتبة آية الله. وبعد الانتظار لفترة طويلة وصلا في النهاية إلى أعلى درجة في السلطة بإيران، وسيقتسمانها لسنوات متعدِّدة، فقد عيَّن مجلسُ الخبراء عليًا خامنئي مرشدًا جديدًا أعلى، بينما انتخب وأعيد انتخاب رفسنجاني رئيسًا للجمهورية، وقبل أن يُعيَّنَ رئيسًا لمجلس تشخيص النظام، ثمَّ رئيسًا لجمعية الخبراء.

والآن لم يعودوا بحاجة إلى مير حسين موسوي، والرجلان عدلًا الدستور للتعامل مع منصب رئيس الوزراء. لقد ذهب موسوي إلى الاختفاء لمدة عشرين عامًا إلى أن عاد إلى عالم السياسة على رأس حركة المعارضة في انتخابات الرئاسة لعام 2009. وفي الوقت الذي بقي فيه أكبر هاشمي رفسنجاني الشخصية الأكثر نفوذًا بالنظام، بقيت الكلمة الأخيرة

دائمًا لعلّي خامنئي في القضايا المصيرية. وتحوّلت المنافسة إلى الكراهية وبقيت سائدة مدة ستة وعشرين عامًا. وعلى الرغم من تهمة رفسنجاني من المرشد الأعلى وفقد بعض بريقه، فإن ذلك لم يمنعه من الاستمرار باستخدام نفوذه في السرّ. ولم تنته المبارزة إلا بموت أحدهم، وعدنئذ سيتم تغييرهم بالقادة الشباب.

وحالما انتخب أكبر هاشمي رفسنجاني رئيسًا، ركز على استعادة الاقتصاد الإيراني لحيويته، وذلك بإعطاء مواطنيه كلمة السر وهي: "كونوا أغنياء!"⁽¹⁾. أمّا من جانبه؛ فقد ناضل صدام حسين مع جيرانه العرب؛ من أجل رفع أسعار النفط وزيادة حصته الإنتاجية في منظمة أوبك؛ لكي يُموّل أجهزته العسكرية التي أصبحت أكثر كلفةً بمرور الأيام. وهدّد علانيةً أمير الكويت جابر الذي أصرّ على الحفاظ على أسعار النفط منخفضةً ورفض التنازل عن ديون الكويت التي تراكت على العراق خلال فترة الحرب، بينما كان الملك فهد حكيماً بما يكفي لإعفاء الديون من جميع النواحي. في 20 آب 1990 سحب العراق قواته من جميع الأراضي التي احتلّها في إيران، ووضع نهايةً حتميةً للحرب بين البلدين. ولكنّ صدامًا غزا قبل ثمانية عشر يومًا الكويت وأعلن انطلاق "أمّ المعارك"، وتلك قصةٌ أخرى.

وضع جيوسياسي جديد

دعونا نعود إلى الحرب العراقية الإيرانية، ففي نهاية صيف عام 1988 برز نظام البعث بالعراق القوة العسكرية الأكبر في منطقة الخليج، فقد امتلكت بغداد دبابات وعربات مدرعة أربعة أضعاف، ومن الطائرات القتالية ستة أضعاف ما لدى طهران. فبعد مذابح هجمات الصيف أصبح الجيش العراقي يضمُّ آنذاك خمسين فرقةً، وبذلك يتفوّق على الجيش الإيراني في عدد القوات. وهذا ما جعل الجنرالات الإيرانيين يعلنون أنّهم بحاجة إلى عشر سنوات لاستعادة التوازن الاستراتيجي مع العراق الذي يتطلّب حصولهم على 2500 دبابة،

1 - كما أشار Bernard Hourcade في الجزء الرابع من

Geopolitiquede L'Iran(Paris:Armand Colin,2010),139.

و200 قطعة مدفوع، وعدة مئات من الطائرات المقاتلة⁽¹⁾. وأصبح الجيش العراقي أقوى بثلاث مرّات من جيوش مجلس التعاون الخليجي مجتمعة كلها. ولشعور صدام حسين بالحصانة، كان مطمئناً أنه أصبح زعيماً إقليمياً في المنطقة. ولذلك؛ توصل مشايخ النفط إلى خلاصة أنهم بحاجة إلى شراء أسلحة أكثر والقبول ببقاء القوات الغربية على أراضيهم؛ لحماية أنفسهم من تطّلع إيران بالانتقام وشره العراق وطمعه.

ومن الناحية النفسية كانت الحرب عاملاً محفّزاً لصدام حسين، فقد اكتشف الدكتاتور اهتماماته بالقضايا العسكرية والتعلّم كما يريد، والذي سيقوده لاحقاً لتجاوز رئاسة أركانه، بل اعتقد أنه كفوء بما يكفي للعمل دون نصيحة من جنرالاته، وهكذا سيتخذ قراره الكارثي بغزوه الكويت. فقد كان مقتنعاً أن تصميمه القوي هو الذي قاده إلى الانتصار على إيران، وكان على صواب بعدم الاستسلام. ورأى أن الولايات المتحدة لم تكن صادقة، وأظهر ضعفها وتقلبها، واعتقد أكثر أن مشيخات الخليج لم تتجرأ على منافسته في الزعامة.

أمّا في طهران؛ فقد تركت الهدنة شعوراً بالمرارة، وشعر الملالي بالإذلال؛ لأنهم أُجبروا على الاعتراف بالواقع، وأن ثمانى سنوات من الحرب أنتجت فشلاً لهزيمة دولة أصغر بثلاث مرات من بلدهم. ومع ذلك، فقد نجح النظام في تحقيق من أهدافه الرئيسة: إنه أدام استمرارية وجوده بإيران.

وعلى النقيض من ذلك، برزت تركيا الطرف الرئيس الذي أفاد من الحرب، فالنزاع سمح لها بإصلاح اقتصادها (حصلت على أحد عشر مليار دولار من مبيعاتها لطرفي النزاع سلعا استهلاكية فضلاً عن العمولات على مرور الأسلحة عبر أراضيها)، وتخزين النفط الرخيص احتياطياً، وإقامة مكانة إقليمية لها، وتدعيم علاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية. كذلك عقدت شركاتها للبناء والإعمار عقوداً متنوّعة لإعادة الإعمار في كل من العراق وإيران. كانت الغيمة الوحيدة في الأفق أن الحرب عزّزت من القومية الكردية ودفعت الأحزاب الكردية لشنّ حرب شعبية كلفت 35 ألف شخص خلال ثلاثين سنة.

1- Jan's Defence Weekly, February 4, 1989.

وكان الملك السعودي فهد المستفيد الآخر من الحرب الذي سمح لمملكته البروز بصفتها ثالث قوة خليجية بعد العراق وإيران، فقبل الحرب كان يُنظر إلى العربية السعودية بصفتها مجرد احتياطي هائل للنفط والدولار. أمّا الآن؛ فقد تم الاعتراف بها قوة إقليمية ولاعباً أساسياً في المنطقة. تمكّن خادم الحرمين الشريفين من المناورة بدهاء لاحتواء إيران من دون مواجهتها مباشرة، والحصول على الشاء الجميل من العراق، بينما جعل العراق يعتمد عليه، وأن يعزّز من تحالفه الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، والانفتاح على الصين والاتحاد السوفيتي.

أمّا الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة؛ أدركت أنّها بحاجة إلى إقامة - في حال إعادت بريطانيا وجودها - وجود عسكري في الخليج؛ لضمان أمن مصادر الطاقة. وبتفاق الولايات المتحدة مع العربية السعودية لتخفيض أسعار النفط بصورة جذرية فإنّها هدّدت الاقتصاد السوفيتي بالانهيار، وديمومة إضعاف إيران⁽¹⁾. ولم يأت الأمريكان والفرنسيون والبريطانيون إلى الخليج للنزهة، بل جنوا فوائدهم بوجودهم بعقد صفقات كبيرة في مجالات الطاقة والسلاح. وبقيت شبكة المحالفات التي تشكّلت في هذا الوقت سائدة في التعامل في أزمات العراق وإيران لاحقاً.

كانت نتائج الحرب مختلطةً على الاتحاد السوفيتي، فمبيعات الأسلحة لطرفي النزاع وفّرت للسوفيت جني أربعين مليار دولار ساعدتهم في سداد حاجاتهم الاقتصادية المباشرة، لكنّ الضرر الذي تعدّر إصلاحه في العلاقات بين موسكو وبغداد أصبح يعني أنّ الكرملين خسر حليفاً كبيراً في الإقليم. وعلى الرغم من جهود يوفغيني بريماكوف المدافع بشدّة عن العلاقات الروسية - العربية لإعادة الأمور إلى طبيعتها، فقد أدرك صدام حسين أنّه لم يعد في الواقع بإمكانه الاعتماد على الكرملين، على الرغم من استمراره بالالتزام بعقوده المبرمة. لقد دفع صدام ثمناً باهظاً عن تدهور علاقاته مع موسكو حينما أسقطته كلياً من حساباتها خلال أزمة الكويت. ومن جانب آخر تمكّن الروس من أن يصبحوا من المقربين لإيران. وكشاهد على دفء العلاقات المتميزة بين موسكو وطهران قبل وفدٍ إيرانيٍّ كبيرٍ دعوة

1- وتأثرت دول أخرى أيضاً مثل الجزائر حيث أدى الإنفلاس إلى حرب أهلية.

الكرملين لزيارة الاتحاد السوفيتي للمدة 20-23 حزيران 1989. وشملت الرحلة لقاءً وجهاً لوجه بين رفسنجاني وميخائيل غورباشوف الذي تم مباشرةً بينهما. وبعد مناقشة تعزيز العلاقات التجارية والطاقة بين البلدين⁽¹⁾، اتفقا على توقيع صفقة سلاح هائلة تعهد فيها الاتحاد السوفيتي على تزويد إيران بكميات كبيرة من أحدث المعدات العسكرية⁽²⁾، واتفق غورباشوف مع رفسنجاني في مطلع التسعينيات من القرن الماضي أيضًا على أن يتولى الاتحاد السوفيتي بناء المفاعل النووي الإيراني في بوشهر.

ومع أن الروس حصلوا على شريك تجاري كبير، لكنهم لم يجدوا حليفًا بدلًا من العراق، فقد استمرّ الإيرانيون بشكوكهم بالسوفييت، وأنهم لم ينسوا أن جزءًا من بلادهم بقي تحت الحكم الروسي ثم السوفيتي لنحو قرنٍ من الزمن. كان الملاهي مصممين على عدم الارتقاء تحت سيطرة الكرملين، وحدّروا نظراءهم الروس بانتظام من عدم التطفل والتدخل في الشؤون الداخلية لإيران. وعلى المستوى الإقليمي، كانت موسكو تفتخر أنّها وسّعت من نفوذها من خلال فتح حوار مع الأنظمة الملكية العربية وإن بقيت تلك الاتصالات سرية. ومع ذلك، فقد توصلت الكويت والعربية السعودية وقطر والإمارات العربية المتحدة إلى تفاهات أفضل مع الاتحاد السوفيتي، ولا سيّما أنّهم أدركوا أنّ السوفييت في الواقع لا يهدفون بالضرورة إلى زعزعة استقرار المنطقة، وأنّ من الأفضل لمصالحهم العمل على استقرارها. وفي الواقع، كانت موسكو قلقةً من بزوغ عمليات التحريض في الجمهوريات الإسلامية وبحثت في كيفية تجنب انتشار الاحتجاجات هناك. وهذا التحول في الموقف جعل كلاً من الكويت والإمارات العربية المتحدة وعمان تقيم علاقات دبلوماسية مع موسكو.

1- تضاعف التبادل التجاري بين العراق والاتحاد السوفيتي إلى ثلاثة أضعاف في الفترة 1989-1990 حيث تزايد من 500 مليون إلى 1,5 مليار دولار.

2- استنادًا إلى بنود الاتفاقية الموقعة في 20 حزيران 1989، شحن الاتحاد السوفيتي إلى إيران 54 طائرة ميغ-29 اعتراضية، و24 Su-24 مقاتلة فاذة، 480 دبابة T-72، 400 عربة قتالية مشاة BMP-2، 210 قطعة مدفع هاوتزر ذاتي الحركة، 200 نظام مضاد للطائرات S-200، 700 صاروخ أرض-جو SA-15، وعدة آلاف من قذائف RPG-29 وصواريخ مضادة للدبابات Spigot AT-4.

ومثل الروس، انتهزت الصين وكوريا الشمالية فرصة الحرب؛ لإقامة علاقات تجارية جيدة مع العراق وإيران (جني اثني عشر مليار دولار من مبيعات الأسلحة والذخيرة لطرفي النزاع)، وتعزيز وجودهم التجاري في الخليج. وفرضت بكين أيضًا نفسها تدريجيًا بصفقتها واحدة من العواصم القليلة التي يمكنها ممارسة الضغط على طهران لشرائها كميات كبيرة من النفط الإيراني.

ونتيجةً للتخلص من تهديد العراق لسنوات قليلة، سمح لإسرائيل بمطاردة منظمة التحرير الفلسطينية خارج لبنان، ولكن بأيّ ثمن؟ ففي العالم العربي عززت هزيمة إيران موقف المعسكر الحديث ضدّ الأصولية الإسلامية ووضعت المكابح على الإسلام السياسي الذي حاولت إيران نشره. وإنّ الاسلام السياسي سيعود إلى الصدارة فقط في البلدان الأكثر قومية مع صعود حزب العدالة والتنمية إلى السلطة بتركيا وانتشار ثورات الربيع العربي عام 2011.

ما الدرس العسكري الذي يمكن تذكره؟

كانت الحرب العراقية الإيرانية آخر حرب شاملة في القرن العشرين، التي نعني بها حربًا بين دولتين يقاتل أحدهما الآخر دون قيود، وزج كلّ قواهما البشرية والمادية والاقتصادية والسياسية فيها. وحشّدت لهذه المواجهة الجهنمية في وقت واحد نحو مليوني جندي، عشرة آلاف عربة مسلّحة (ونصفها من الدبابات)، أربعة آلاف قطعة مدفع، وألف طائرة. ويُمكن النظر إليها على أنّها خلاصةً لحروب القرن العشرين، وبالمظاهر الباقية من الحرب العالمية الأولى (حرب الخنادق، الموجات البشرية، والهجمات بالغازات السامة)، ومن الحرب العالمية الثانية (استخدام العربات المدرّعة، قصف المدن، الحرب الاقتصادية)، ومن النزاع العربي - الإسرائيلي (معارك بالطائرات فوق الصحراء، الاستخدام الكثيف للصواريخ)، ومن حروب "التمرّدات" كما في الجزائر وفيتنام (الاشتباكات عند التلال الصخرية، والتسلّل خلال الأهوار). واستخدمت أيضًا الأساليب الاعتيادية في القتال جنبًا إلى جنب مع الأكثرها تعقيدًا.

وأوضحت الحرب أن النوعية لا تعوض دائماً عن الكمية، والعكس بالعكس. وتظهر الحرب مرة أخرى أن من المستحيل أن تربح دون وضع أهداف واضحة للتحقيق، واستراتيجية متماسكة تقوم على تبني عقيدة مناسبة للقوات، وتخدم كخارطة للتذكير بأهمية الاستخبارات العسكرية، تدريب القوات وتحفيزها، والمرونة في سلسلة القيادة، ومعرفة البيئة لكل من طبيعة المناخ والأرض. فالإيرانيون والعراقيون لا يقاتلون بالطريقة نفسها سواء في الصيف أم في الشتاء، أم في المدن أم في الجبال، أم في المناطق الصحراوية أم في الأهوار. وإن الحرب أكدت الدور الحاسم لفيلق المهندسين (الأبنية الدفاعية، العبور في أهوار الحويزة أو في شطّ العرب) في الشؤون السوقية. ولولا تنشيط سلسلة إجراءات التجهيز والتموين المتطورة جداً، والتخزين الهائل للذخيرة؛ فإن الجيش العراقي ربما لم يتمكن من الإمساك بالجبهة طوال فترة الحرب. لقد فشلت الهجمات الإيرانية؛ لأنّ الذخيرة نضبت لدى الباسدران في اللحظات الحاسمة، وحينما كان خصمهم يمرُّ بحالةٍ من الضعف.

وتميّزت الحرب العراقية - الإيرانية باستخدام الأسلحة الكيماوية والصواريخ البالستية بوصفها حالة طبيعية (تم إطلاق 480 صاروخ سكود من طرفي النزاع)، وكان لها تأثير كبير من الناحية النفسية، على الرغم من أنّها في الواقع كانت غير دقيقة نسبياً وأقلّ تدميراً عشر مرّات من المدفعية النظامية. ومع ذلك، أقيمت مخاطر انتشار الأسلحة الكيماوية الأمم المتحدة بتبني معاهدة دولية تُحرّم استخدامها وتصنيعها وتخزينها. تم تبني هذه المعاهدة في 13 كانون الثاني 1993، ما أدّى إلى تدمير مخزوناتها وتنفيذ تدابير شديدة للتدخل، وتطبيق من الناحية العملية من جميع الدول وبضمنها الأعضاء الدائميون الخمسة بمجلس الأمن. وفي النهاية، لم يَجنِ العراقيون ولا الإيرانيون أية فوائد حاسمة من خروقاتهم الكبيرة لقانون الحرب وقانون حقوق الإنسان الدولي.

وعلى الأرض، أثبت الإيرانيون أنّهم أكثر براعةً من العراقيين في تطوير أساليب إبداعية، ولا سيّما في مجال تحريك المشاة الخفيفة، لكن ذلك لم يمنع من خسارتهم الحرب. فالتنافس والافتقار إلى التنسيق بين الباسدران والجيش النظامي مسؤولان في الكثير من الفشل في عملياتهم، وإثبات أنّ وحدة القيادة تبقى من المبادئ الأساسية في الحرب.

وفي الجو، أظهر العراقيون خيالاً جامعاً في تطوير أساليب إبداعية، ولديهم الاستعداد لتحويل طائرات المراقبة والنقل إلى طائرات ذات مهمات قتالية. حاول الإيرانيون استخدام الطائرات المسيرة والموجهة، لكنهم لم يتمكنوا من متابعة هذا المشروع؛ بسبب النقص في التمويل. وخلافاً للاعتقادات السائدة، فقد استمرت النشاطات الجوية طوال فترة النزاع كلها، لكن الطيارين الإيرانيين قللوا من طلعاتهم القتالية تدريجياً؛ بسبب النقص في الذخيرة وطع الغيار⁽¹⁾. ولعبت الحرب الإلكترونية والتزود بالوقود في الجو دوراً حاسماً. وتبرز كثافة القتال الجوي خلال فترة النزاع في تدمير نحو تسعمئة طائرة، أكثر من ثلثها كان من الطائرات المتفوقة جواً. لقد سيطر الطيارون الإيرانيون في الجو وأحرزوا 244 انتصاراً جويًا مقابل سبعين فقط للطرف الخصم. وبينما نحو ثلاثة أرباع الطائرات العراقية المدمرة تم إسقاطها من الطائرات الإيرانية المتفوقة جويًا، لكن 60٪ من خسائر الإيرانيين بالطائرات كانت بسبب الدفاعات الأرضية العراقية. ومن غير الممكن تجنب النيران الصديقة التي كلفت كل واحد من طرفي النزاع دوزينة من الطائرات.

أما في الميدان البحري، أكد القتال الأثر المروع للصواريخ من طراز Exocet و Harpoon التي تتسابق باتجاه أهدافها على طول خطوطها البحرية. استخدم العراقيون هذا السلاح بشكلٍ مفرطٍ حيث أطلقوا 500 صاروخ Exocet خلال فترة النزاع. ومن جانبٍ آخر أثبتت صواريخ سلكورم أنها كبيرة جدًا، وبطيئة جدًا، ومن السهل حرقها، وبصورة عامة لا تتناسب مع القتال البحري والجوي. وقد أوضحت الاشتباكات التي وقعت في الخليج خلال سنتي 1987 و 1988 أن من المستحيل منع الملاحة في مضيق هرمز بصورة دائمة، ومهما كانت الجهود التي تضغط بها إيران. وخلال هذا التعادل في الأوضاع أعاد البحارة الغربيون اكتشاف حرب الألغام البحرية والأرتال المرافقة التي لم يتم الانتباه لها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. تبقى هذه الدروس نسبيةً وعمق في وقتٍ حينما تهدد إيران مرةً أخرى بغلق هذا المضيق الاستراتيجي في حالة التدخل العسكري في أراضيها.

1- وعلى الرغم من عدم وجود إحصائيات متوفرة، يخمن الخبراء أن القوة الجوية العراقية نفذت 500 ألف طلعة جوية قتالية على الأقل خلال فترة الحرب مقابل 100 ألف إيرانية.

وأخيراً، كانت الحرب العراقية - الإيرانية بمنزلة مختبرٍ لصنّاع السلاح لاختبار نتائج تقنياتهم الحديثة. فالخطوات الواسعة في حقول الصواريخ والحرب الإلكترونية كانت الأكثر أهميةً وتقدُّماً خلال سنوات الحرب الثمانية. إنَّ استخدامها في الظروف الحقيقية أظهرت لصنّاعها أنَّ نظام الأسلحة المعقَّدة بحاجة أيضاً إلى ترجمة وبساطة في التشغيل، فالسلاح شديد الهشاشة أو المعقَّد جداً في التطبيق لا خير فيه. ففي حالات عدة، تُعدُّ البساطة في السلاح الصديق الأفضل للمقاتلين في النهاية. إنَّ الاستخدام الكثيف لصواريخ سكود أقنعت بعض المنتجين لها بالبدء بتصميم أنظمة مضادَّة للصواريخ. في العام 1991 كانت القوات الأمريكية في الخليج محمية في البداية بصواريخ باتريوت التي كانت مصمَّمة لمواجهة صواريخ سكود العراقية الحسين والعباس في الجو.

هل الدروس السياسية ممكنة التطبيق اليوم؟

تبقى نتائج الحرب العراقية الإيرانية محسوسةً حتى اليوم، سواء في تطرف النظام الإيراني وإحياء برنامجهِ النووي أو في تهميش العراق. ففي إيران استُخدمت الحرب إطاراً وذريعةً للصراع على السلطة بصورة وحشية، الذي استمرَّ بالاحتدام لمدة ربع قرن لاحقاً، وسمح لأكثر رجال الدين تطرفاً بالتخلُّص تدريجياً من الجماعة الثورية وغير الدينية (بزرگان، بني صدر)، والحركة الدينية المثالية (منتظري)، والمعارضة المتطرفة (بيكاره مجاهدي الشعب، الحزب الشيوعي)، وحركات العصيان المسلَّح المطالبة بالاستقلال للمحافظات الكردية والبلوشية والأذرية. وهكذا سمحت الحرب لرجال الدين بالوصول إلى السلطة في العام 1981 والاستمرار بالقبض عليها حتى الوقت الحاضر. وإنَّ المخضرمين - ولا سيَّما من الباسدران - شكَّلوا منذ ذلك الوقت قوة ضغط بشكل متزايد، وأخذوا يبحثون عن المزيد من السلطة السياسية والاقتصادية بادِّعائهم المتواصل بحصَّتْهم من الكعكة، وانتقادهم لرجال الدين وسماسة السلطة في البازار في تفاديهم القتال، وأصبحوا أثرياء من خلف ظهورهم خلال فترة

الحرب. استخدم محمود أحمددي نجاد هذا البرنامج السياسي لانتخابه رئيسًا للجمهورية في حزيران عام 2005.

وفي مواجهة الفوضى الداخلية، والفقر المنتشر بسبب العقوبات الاقتصادية، وفشل المعارضة الإصلاحية في التغلب على جدلها البيزنطي وتقديم بديل موثوق ودائم؛ أخذت جماعة من الشخصيات الجذابة من الباسدران الذين برزوا خلال فترة الحرب بالاستسلام لإغراء النزعة البونابارتية، ولا سيّما في حالة وفاة المرشد الأعلى الحالي علي خامنئي. وهذا الفصيل المسلّح من الطبيعي أن يحصل على دعم الحرس الثوري الذي يبدو - أكثر من أيّ وقت مضى - الوسيط والحكم الحقيقي في السياسة الإيرانية. يبدو أنّ أغلبية الإيرانيين اليوم ينتظرون حكومة قوية و متماسكة وعملية تحمي البلد من التدخّلات الخارجية، وتعيد رجال الدين إلى المساجد (لكي يتوقّفوا من ترؤس الشؤون الدنيوية وتفصيلات الحياة اليومية)، وإعادة فتح إيران على العالم الخارجي والسماح لها بتطوير البلد اقتصاديًا الذي ظلّ يعيش بحالة قريبة من الاكتفاء الذاتي لمدة أكثر من ثلاثين عامًا.

ربما سمح النظام الحالي بانتخاب رئيس للجمهورية أكثر قبولًا خارجيًا من محمود أحمددي نجاد؛ لتجنّب مثل هذه القوّة ووضع أرضية لحوار أكثر إيجابية مع الغرب، الذي قد يؤدي في النهاية إلى رفع العقوبات الاقتصادية وإعادة العلاقات الدبلوماسية الطبيعية مع واشنطن. يبدو أنّ هذا الاتجاه يناسب الرئيس باراك أوباما والقادة الأوروبيين. وحتى الآن، وبينما كان حسن روحاني يقود حملة منذ وقت طويل تدعو إلى فتح إيران على العالم الخارجي، لكنّه يبقى نتاجًا للنظام الديني الإيراني الذي ينتمي إليه شكلاً ومضمونًا. فهو لن يتردّد مثل معلّمه رفسنجاني في استخدام أساليب الكلام المزدوج وغير المتماثل إذا دعت الضرورة إلى ذلك. مرّة أخرى، يجب على المرء ألاّ يخلط بين "الروح الإصلاحية" مع "الحاجة للانفتاح". مع ذلك، عودة العلاقات الإيرانية مع الغرب ستخفّف من التوترات في منطقة الخليج والسماح بتنوّع استراتيجيات الطاقة هناك، فضلًا عن حلّ الكثير من القضايا الشائكة في سوريا ولبنان بشكلٍ خاصّ. هناك ثلاث عوائق كبيرة أمام عودة العلاقات إلى طبيعتها: الأولى هيجان الإيرانيين في حالة الأحداث غير المتوقعة (مثل وفاة المرشد الأعلى،

احتجاجات جديدة، تنافس الباسدران على السلطة... الخ.)، والثانية إعاقة الكونغرس الأمريكي المنخرط في حملة منظمة لتشويه مبادرات الرئيس أوباما، وأخيرًا المعارضة العلنية لكل من العربية السعودية وإسرائيل اللذين يتخوفان من إضعاف موقعيهما بالمنطقة. ومهما يكن من تنتهي إليه السلطة العليا في إيران، فإنَّ أية دراسة دقيقة للحرب العراقية الإيرانية ستوفر لنا مفاتيح فكِّ شفرة سلوك النظام حاليًا وفي المستقبل. أولًا: على الرغم من قعقتها المعهودة فإنَّ القيادة الإيرانية عقلانية تمامًا وبرجماتية وتفهم بشكلٍ شاملٍ مفاهيم حجم القوى ووسائل الردع، فهي تناور بانتظام مع التوتُّرات الخارجية لتحقيق أهداف داخلية، حشد قواؤها، وتعزيز نفوذ هذا الفريق على الآخر. إنَّ التنافس بين رفسنجاني، وخامني، ومنتظري مهَّد الطريق لصراعات سياسية بين القادة الشباب (خاتمي، روحاني، علي لاريجاني، وقاليباف)، ولكن يبقى منطق الاستيلاء على السلطة كما هو. إنَّ أيَّ تدخُّلٍ عسكريٍّ ضدَّ إيران سيؤدِّي إلى تعزيز النظام فقط وتوحيد الشعب خلفه وليس إضعافه. وبقيت الحكومة الإيرانية حذرةً في أموالها، فهي تدرك أنَّ الكثير من الدول على استعدادٍ لشراء نفطها، بل حتى بيعها السلاح، ولكن لا أحد مستعدٌّ لإقراضها الأموال. وبمعنى آخر، إنَّ الحرب الاقتصادية - التي يُشار إليها بالعقوبات الاقتصادية الآن - تعمل لصالح طهران. وبالطبع، طالما كان لدى الطرف المحرض الوقت الكافي لكي تصبح العقوبات سارية المفعول، وتجفيف منابع الأموال الإيرانية بصورة حقيقية، فإنَّه يخاطر بجعل الشعب من يدفع ثمن ذلك.

ومن المهمُّ أن نتذكَّر أيضًا أنَّ أساليب الحكومة الإيرانية الحربية غير المتناسقة، وعدم تردها في الضرب أولًا لإصابة خصمه بالصدمة، فإنَّ إيران لديها القدرة الحقيقية على إلحاق الأذى بالآخر. ففي فترة الحرب، كانت على استعداد لاستخدام الدول الأخرى والفصائل فيها لتنفيذ عمليَّات اختطاف وهجمات إرهابية، ومهاجمة منشآت نفطية، وزرع الألغام البحرية وإطلاق الصواريخ في منطقة الخليج. ويمكن أن تقوم إيران باتخاذ أية أعمالٍ مشابهة الآن أو في المستقبل إذا اعتقدت أنَّ ذلك في مصلحتها، أو تشعر أنَّها مجبرة على فعل ذلك. أخيرًا، وهذه ربَّما النقطة الحسَّاسة أنَّ الحرب أظهرت أنَّ الحكومة الإيرانية تلبين

فقط حينما تقتنع أن خصمها على شفا تكبيدها ضررًا كبيرًا، إمّا عسكريًا أو اقتصاديًا. أظهرت التجارب أنّه قبل الاشتباك في مواجهة مباشرة أو غير مباشرة مع النظام الإيراني سواء في سوريا، لبنان، العراق وإيران (ضرب مفاعلها النووي على سبيل المثال)، أو في أيّ مكان آخر، فيجب على تلك الدولة أن تحلّل بإمعان تأثير عملها ذلك لاسيما نتائجها المدمرة. وهذا لا يعني انه من الخطأ التصرف فقط، ويجب على المرء أن يكون مدركًا لجميع التداعيات المحتملة لذلك التصرف، وأن تكون مستعدّة للردّ عليه بالموارد المناسبة. لا يجب الاستخفاف بأيّ حالٍ من الأحوال بأية مواجهة مع القوّة الإيرانية والدخول فيها باندفاع أو بالمقامرة. ومثل هذا القرار يجب أن يستند إلى استراتيجية مدروسة بشمولية وتهدف إلى تحقيق أهدافٍ حقيقية وحاسمة.

لنعدّ إلى العراق، إنّ الانسحاب الأمريكي في العام 2011 سارع من عملية الصراع على السلطة الذي عاد بعد تفكيك حزب البعث في العام 2003. كان الشيعة والسنة والكردي يتقاتلون؛ من أجل السيطرة على البلد وثوراته. وبعد احتكار السلطة في زمن صدام، أصبح السُنّة الآن الطرف الخاسر، وأنّ حقول النفط تقع بصورةٍ رئيسية في المحافظات الجنوبية والكردية. وليس من المستغرب أن نرى الكثير من السُنّة يفقدون الأمل، وأصبحوا متطرفين وتحولوا إلى الإرهاب، ولا سيّما أنّهم حصلوا على مساندة الدول العربية القلقة من الظهور القوي للهِلال الشيعي بين طهران والبحر الأبيض المتوسط. فالأزمة العراقية ربّما تطول؛ لأنّ كلّ دولة من جيران العراق هدف مصلحي لبقاء الدولة العراقية ضعيفة، وفي الوقت نفسه ضمان الحد الأدنى لها من الاستقرار. فالعراق القوي مخيف، ولكن بالنسبة لجيرانه ان فكرة فشل وتفكك العراق اكثر إزعاجا لهم. وفي هذا الجو الخطر والمؤذي، كانت القيادة العراقية، وبأي شكل كانت، تحاول إعادة بناء الوحدة الوطنية على أساس ثلاث قضايا متناثرة طالما استخدمتها بغداد في المناورة مع الشعب العراقي: "إعادة غزو المحافظات الكردية، والكويت (التي ما زالت تدعى بهدوء المحافظة التاسعة عشرة)، وقضية شطّ العرب الذي يحلم بعض العراقيين إعادة الاستيلاء عليه كاملاً. أمّا المسألتان الأولى والثانية؛ فإنّهما لا يمكن الوصول إليهما في الوقت الحاضر. لقد ضمنت تركيا أمن الكرد العراقيين الذين

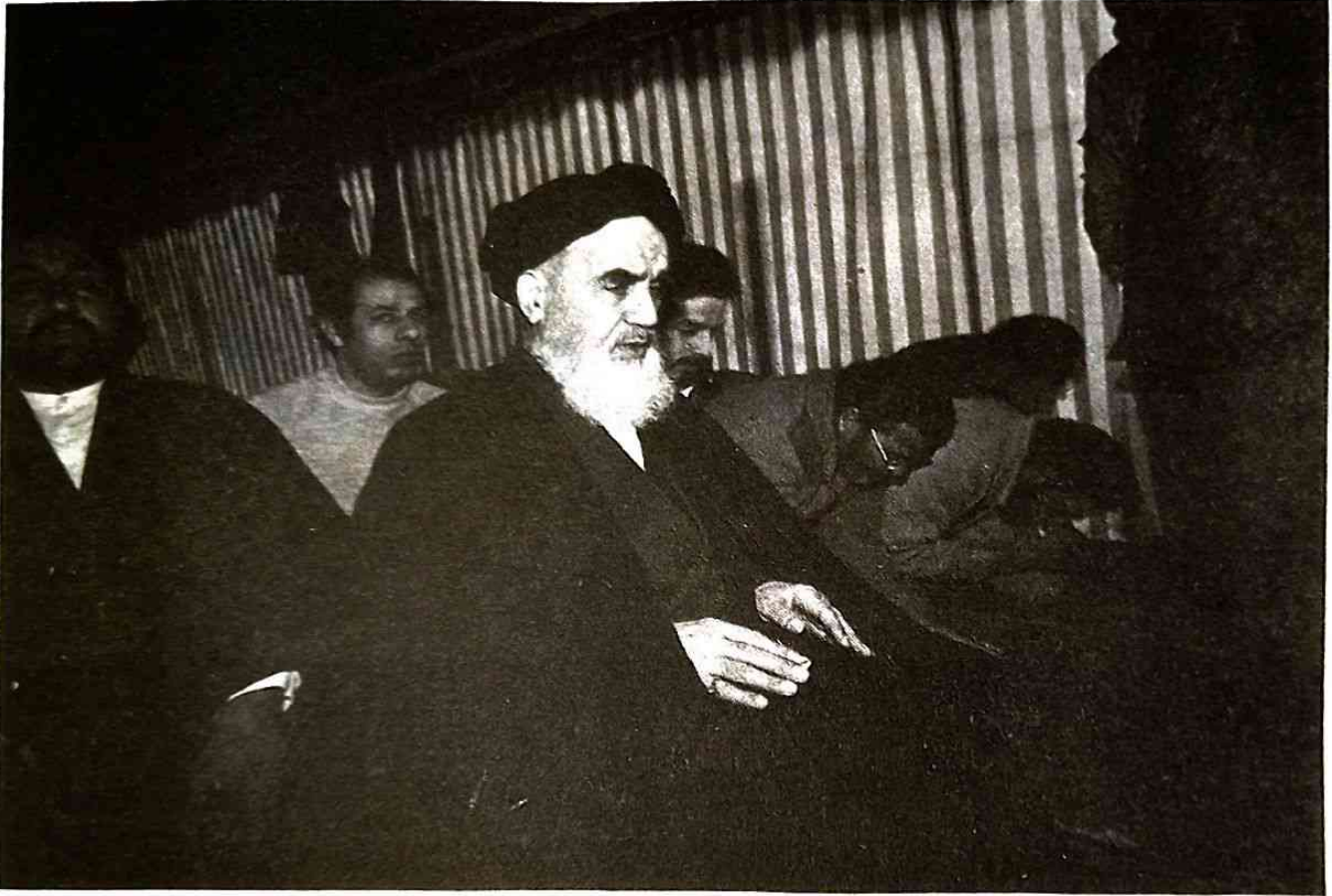
عقدت معهم اتفاقات تجارية وبنفطية تعدُّ حيويةً للاقتصاد التركي. ومن خلال اتفاقية بعيدة المدى وقَّعتها تركيا مع عبد الله أوجلان في شهر آذار 2013 تعهَّدت تركيا بحماية الكرد مقابل تخلي حزب العمال الكردستاني عن السلاح. أمَّا الكويت؛ فقد ضمنت الولايات المتحدة أمنها، وصارت مستعدةً للذهاب إلى الحرب؛ لحماية هذه الإمارة الغنية بالنفط، التي تشكّل موطئ قدمٍ مهمًّا لها في منطقة الخليج.

ترك هذا الوضع مسألة شطِّ العرب أن توضع دائمًا على طاولة المناقشات من الصحافة الشعبية العراقية. وإنَّ محاولة طهران الحصول على القنبلة الذرية، أو على الأقلَّ "التقنية الذرية" ربَّما تُفسَّر لتجنُّب أن يعيد التاريخ نفسه. وعلى الرغم من إنكارها بصورة متكررة فإنَّ الحكومة الإيرانية مقتنعة أنَّها يجب عليها عمل كلِّ شيء ممكن؛ من أجل تجنُّب مأساة أخرى مثل الحرب مع العراق. وهذا يفسَّر سبب تطوير البرنامج النووي بوصفه واحدًا من الموضوعات النادرة المتفق عليها لدى الطبقة السياسية الإيرانية الشديدة الانقسام. إذا كانت القنبلة الذرية قد تم اختراعها بعد الحرب العالمية الأولى، قد لا نندهش من سعي الدول الأوروبية الأكثر تضرُّرًا للحصول عليها فورًا.

الملاحق

ملحق رقم (1) صور القيادات السياسية والعسكرية المشاركة بالحرب

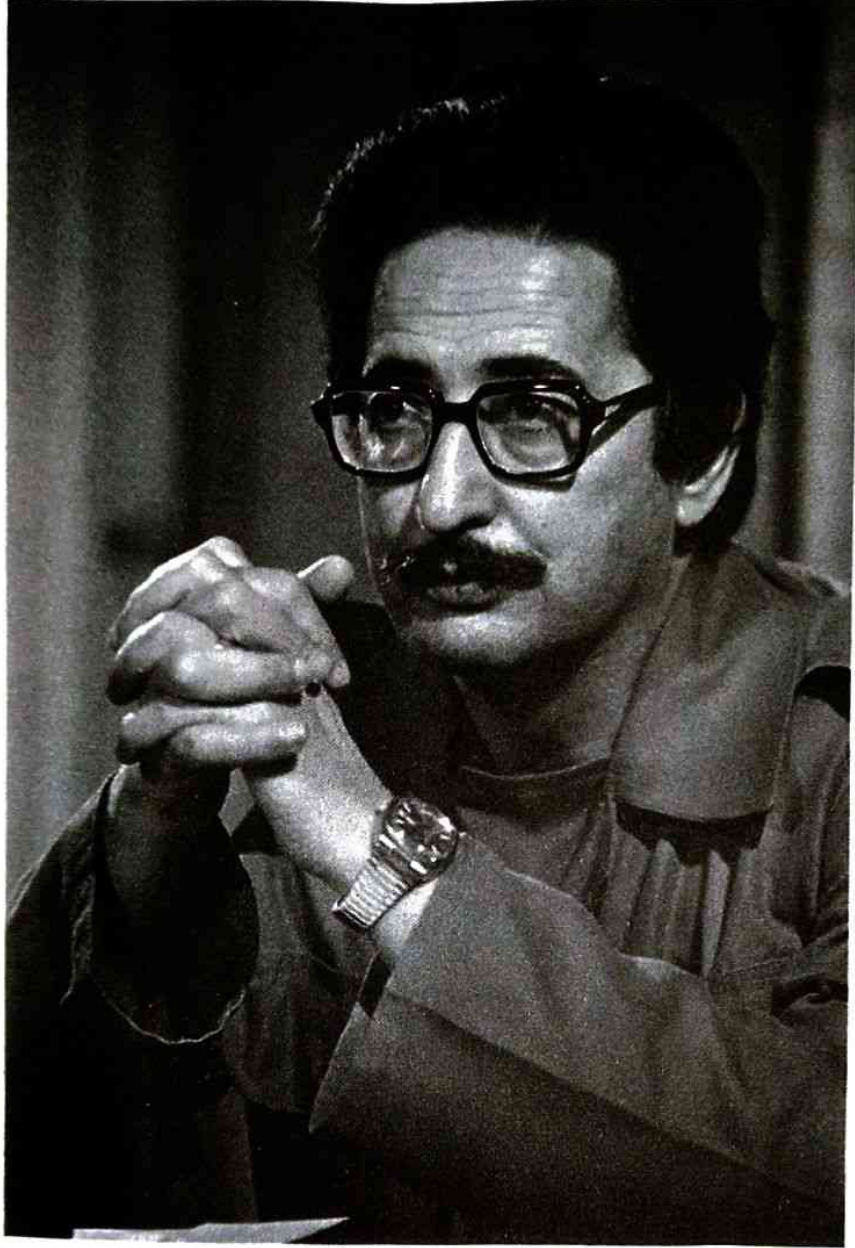
صورة رقم 1: آية الله الخميني



عند عودته من المنفى في شباط 1979 أصبح آية الله روح الله الخميني تجسيداً للمقاومة الإيرانية ضدّ النفوذ الأجنبي. وحربه ضدّ صدام حسين سمحت له بتعزيز الثورة الإسلامية وتركيز سلطة رجال الدين الإيرانيين.

Credit : c Bettmann/Corbis

صورة رقم 2:



الرئيس أبو الحسن بنى صدر الذي أُزيح من منصبه في 18 حزيران 1981، كان عليه أن يقاتل
الغازي العراقي ورجال الدين الشيعة الذين يريدون تأسيس نظام ديني بإيران.

Crdit: c Mahmuodreza/Sygma/Corbis

صورة رقم 3: أكبر هاشمي رفسنجاني



من خلال واجباته بصفته رئيسًا للحزب الإيرانية، والناطق باسم البرلمان، ورجل المالية الأعلى في النظام، كان يكافح؛ من أجل تعزيز سلطته وتهميش منافسيه، ولا سيما علي خامنئي، ومحاولته سحب إيران من عزلتها الدبلوماسية.

Credit: c Mahmoudreza/Syigma/Corbis

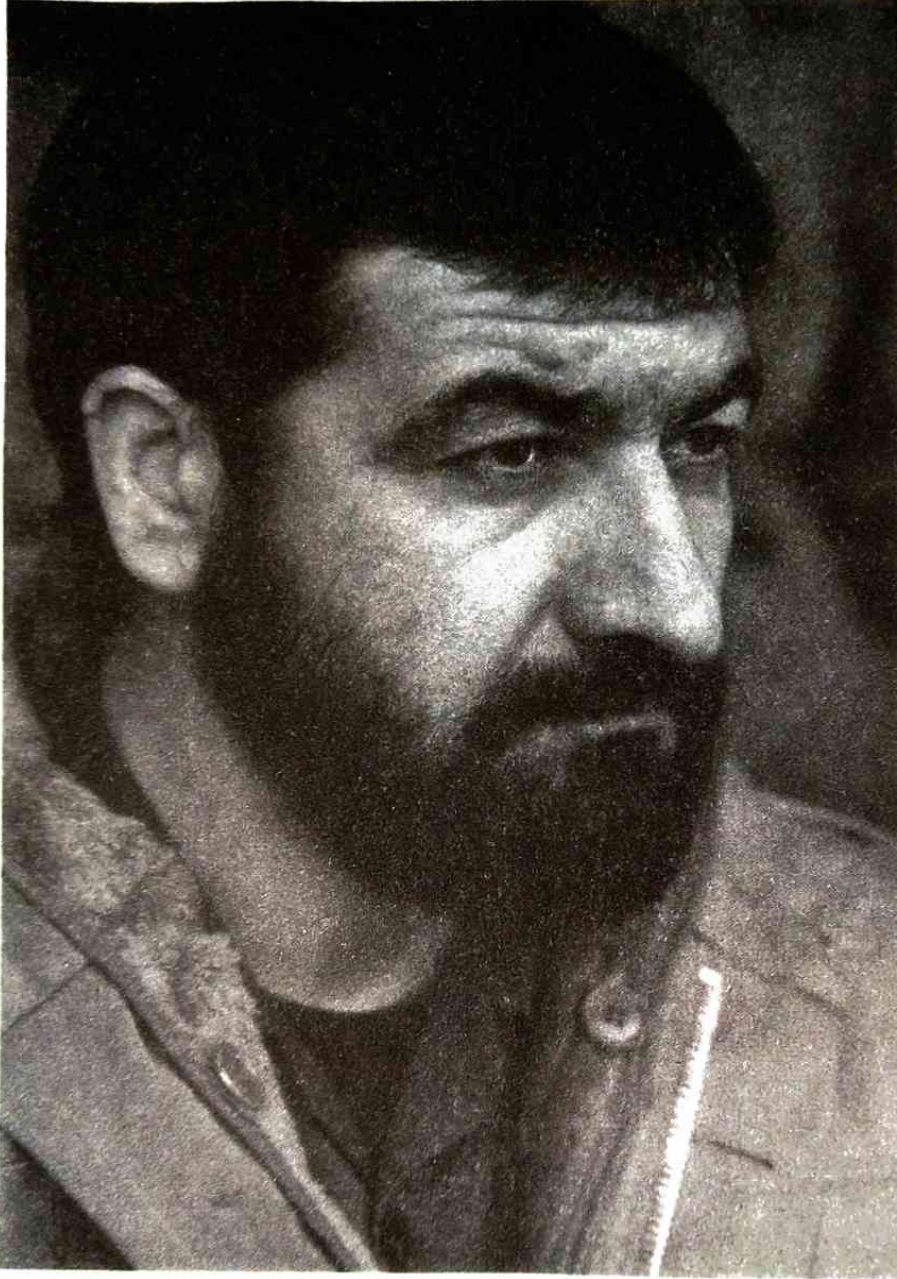
صورة رقم 4: علي خامنئي



علي خامنئي (بالعمامة واللحية) يفتش الجبهة العسكرية ليجعل منافسه رفسنجاني يحسب له الحساب. رجل الدين الصلب هذا انتُخبَ رئيسًا للجمهورية في تشرين الأول 1981، ويهدف إلى الحفاظ على الجمهورية من النفوذ الأجنبي.

Credit: c Suprem Leader Ayatollah Ali Khamenei Office/Handout Corbis

صورة رقم 5: محسن رضائي



ومن خلال شجاعته، وشخصيته الجذابة وجرأته فرض محسن رضائي نفسه كقائد "طبيعي" للباسدران في خريف عام 1981، فيلق الحرس الجمهوري الثوري الإيراني المشهور. واصل سيرته السياسية بعد نهاية الحرب العراقية-الإيرانية.

Credit:c Kaveh Kazemi/ Hulton Archive/Getty Image

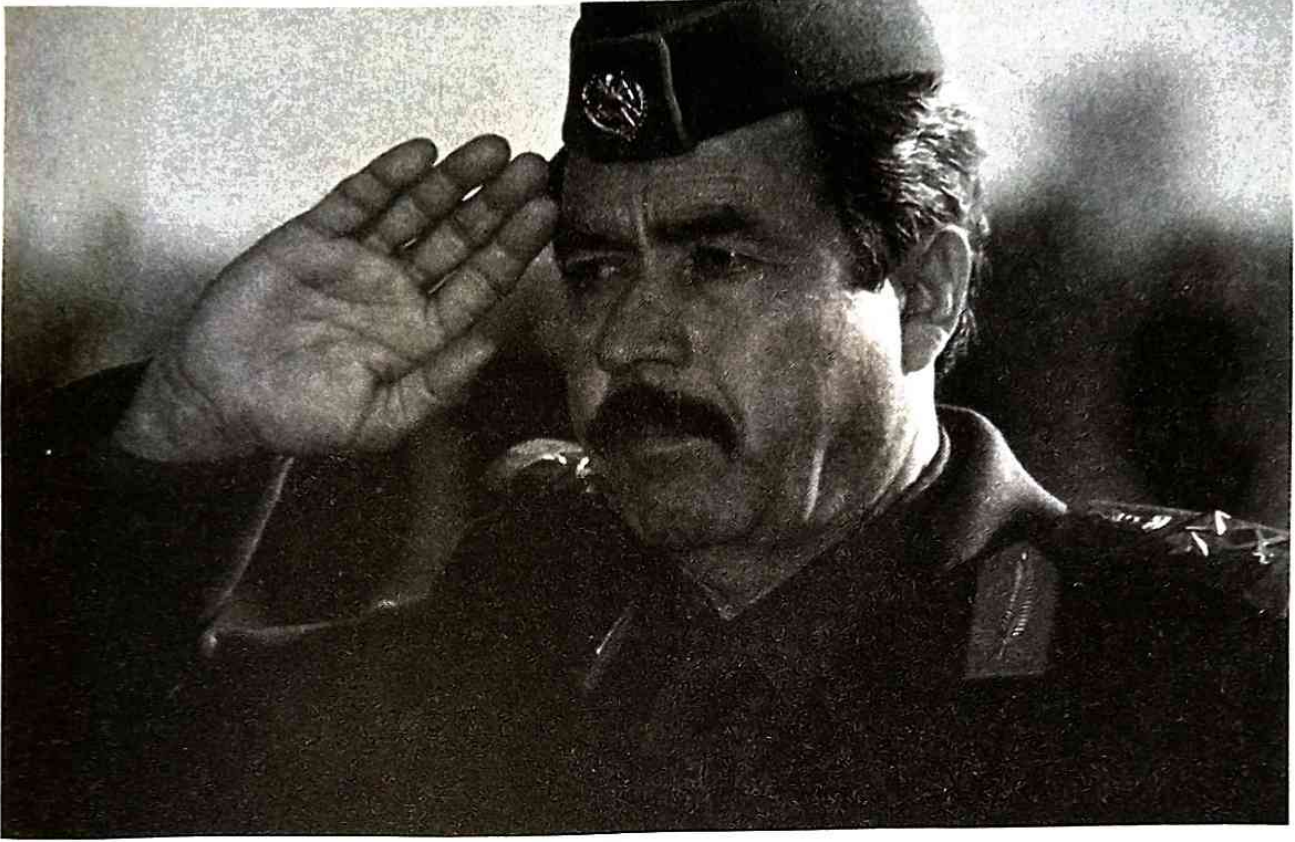
صورة رقم 6: صدام حسين



دكتاتور لا يعرف الرحمة ومراوغ بارع، ولكن في النهاية برهن على أنه استراتيجي بائس. كان يعد نفسه "ستالين الشرق الأوسط". وكل زيارة للجبهة كانت تُستخدم لأغراض دعائية.

Credit: Keystone-France/Gamma-Keyston/ Getty Image

صورة رقم 7: علي حسن المجيد



رئيس جهاز المخابرات السرية، كان الوحيد الذي يجرؤ على قول الحقيقة لابن عمه صدام حسين - الذي كان يشبهه من كتب - في كل مرة حينما يرى ضرورة لذلك. وقد أعطي لقب مميت "علي كيمياوي" بعد أن قاد عمليات قمع البشمركة الكردية بالعراق في الفترة 1987-1988.

Credit: Robert Nickelsberg/The Life Image Collection/ Getty Image

صورة رقم 8: الجنرال عدنان خير الله



كان عدنان خير الله من الضباط المحترمين جدًا في القوّات المسلّحة العراقية ووزير الدفاع خلال فترة الحرب العراقية - الإيرانية. كان صدام حسين يعدّه أخًا له، وجعله من أقرب مستشاريه. قُتل في حادث سقوط طائرة هليكوبتر غامض في مايس 1989، وربما بتحريض من أبناء صدام الذين يرونه منافسًا لهم.

Credit: Thomas Hartwell/ The Life Image Collection/ Getty Image

صورة رقم 9:



جندي إيراني يراقب حريقاً في مصافي عبادان للنفط في شهر أيلول 1980، وبعد أيام قلائل من اندلاع الحرب مع العراق. كان الهجوم العراقي يستهدف محافظة خوزستان الغنية بالنفط. كان يكابد؛ من أجل وقف حصار عبادان في تشرين الثاني 1980.

Credit: c HenriBureau/ Sycma/Corbis

صورة رقم 10:



أخذت هذه الصورة في أثناء انتصار الهجوم الإيراني المضاد في ربيع عام 1982 وهي توضّح دعم الدبابات الإيرانية لرجال المشاة (في هذه الحالة T-55 و T-62 المُتسلّمة من كتلة البلدان الشرقية). وبدلاً من أن تكون في أطراف الجبهة تراجعت الدبابات وحمايتها بتلال ترابية.

Credit:AFB/ Getty Image

صورة رقم 11:



في بداية شهر تشرين الثاني 1982 لم يفكر النظام الإيراني لمرتين حول التضحية بمئات الآلاف من الجنود الأطفال في هجمات انتحارية؛ بهدف إنهاء الجيش العراقي، ولا سيّما في معركة الأهوار، ثمّ في معركة البصرة.

Credit: AP Photo/Ron Edmonds/cThe Associated Press

صورة رقم 12:



أغلب الهجمات الإيرانية في العراق ولا سيّما في منطقة الأهوار قد تم صدّها بجهد مشترك من الطيران والمدفعية والدبابات كما في عملية خيبر في شباط 1984. ولم يتردّد القادة العراقيون في استخدام الأسلحة الكيماوية لصدّ الهجمات الإيرانية.

Credit: c Jacque Pavalovsky/Syigma/Cobris

صورة رقم 13:



تعدُّ المنطقة الجبلية بكرستان العراق وإيران مثاليةً للجبهة العسكرية خلال فترة الحرب بين البلدين، ففي بداية ربيع عام 1983 بدأت فصائل البيشمركة للحزبين الديمقراطي الكرستاني والاتحاد الوطني الكرستاني بتحدي الجيش العراقي وبدعمٍ من إيران.

Credit: c Jaques pavlovsky/Syigma/Corbis

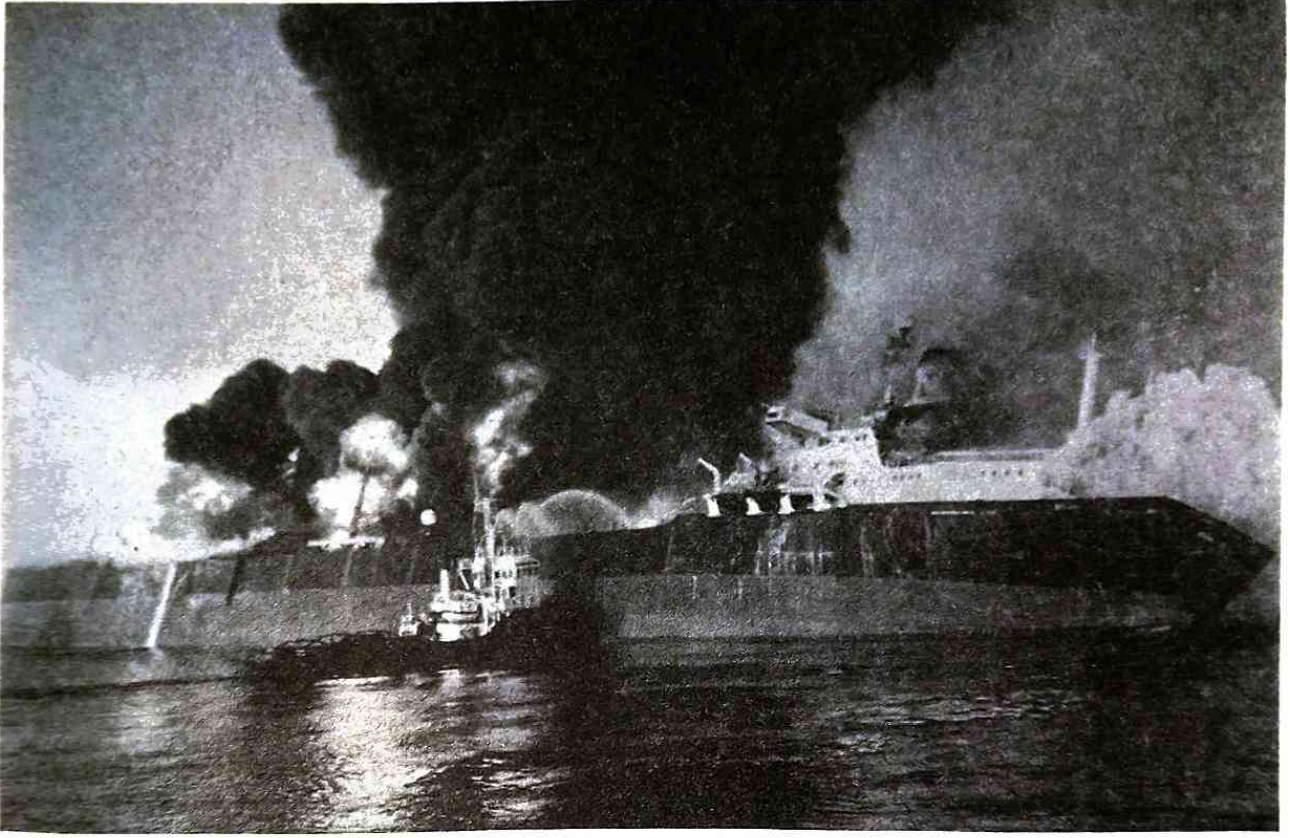
صورة رقم 14:



في شهر آذار 1983 احتفل مقاتلو الحرس الثوري بانتصارهم بعد الاستيلاء على شبه جزيرة الفاو.
وبعد سنة انتهت معركة البصرة بهزيمة قاسية للقوات الإيرانية.

AP Photo/c The Associated Press .

صورة رقم 15:



أصبحت "حرب الناقلات" رمزًا آخر للحرب العراقية - الإيرانية كما يمكننا ملاحظة ذلك من خلال الهجوم على الناقلة العملاقة Norman Atlantic في كانون الأول 1987. وفي فترة آذار 1984 - تموز 1988 هاجم طرفا الحرب 430 سفينة تجارية، وأغرقوا اثنتين وسبعين منها.

Credit: AP Photo /c Associated Press

صورة رقم 16:



تعرّض الجنود الإيرانيون في مطلع العام 1988 للغازات السامة بميدان المعركة، وأرسلوا إلى العلاج بالمستشفيات الأوروبية، وللبرهنة للمجتمع الدولي على استخدام العراق للأسلحة الكيماوية بكثافة. وفي 16 آذار 1988 هاجم الجيش العراقي مدينة حلبجة بالأسلحة الكيماوية وبكثافة؛ بهدف إيقاف الهجوم الإيراني ودون تمييز، ممّا أدى إلى مقتل المدنيين والجنود معاً.

Credit:AP Photo/ Greg English/c The Associated Press

صورة رقم 17:



بدأت إيران في العام 1986 حشد النساء وتدريبهنَّ على استخدام السلاح؛ لحماية المنشآت الحسَّاسة، ولإستبدال الرجال الذين أرسلوا إلى الجبهة. أمَّا "جيش التحرير لمجاهدي الشعب" الذي يعارض النظام؛ أتبع مثل تلك الخطوة كما هو موضح في الصورة أعلاه التي التقطت في معسكرٍ للتدريب بالعراق في ربيع العام 1988.

Credit: Jaques Pavlovsky//Sygma/Corbis

صورة رقم 18:



أسرى الحرب العراقيون يستعدون للعودة إلى العراق في شهر تشرين الثاني 1988 بعد أن أصبحت الهدنة في 20 آب نافذة المفعول. رفض بعض أسرى الحرب السبعين ألفاً من العراقيين وكذلك من الخمسة والأربعين ألفاً من الإيرانيين العودة إلى أوطانهم؛ وذلك لتخوفهم من الانتقام منهم.

Credit: c Reuters/ Corbis

ملحق رقم 2 جدول زمني بالأحداث

- 636 هزيمة العرب للفرس في معركة القادسية بالقرب من النجف بالعراق، وامتدت الخلافة العربية الآن على الإقليم كله.
- 680 هزيمة الإمام الشيعي الحسين في معركة كربلاء بالعراق، وانتصار الخليفة السني وسيطرته على العراق حتى الغزو المغولي (القرنين الثالث عشر والرابع عشر).
- 1503 أصبح الإسلام الشيعي الديانة الرسمية لبلاد فارس خلال حكم الشاه إسماعيل الأول، الذي جعل من مدينتي قم ومشهد تنافسان مدينتي النجف وكربلاء بالعراق. بدأت الحرب بين الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية.
- 1555 توقيع اتفاقية آماسيا: رفضت بلاد فارس أية ادّعاءات للعراق بشط العرب.
- 1639 أكدت معاهدة قصر شيرين بنود اتفاقية آماسيا. اشتباك الفرس والعثمانيين حول السيطرة على محافظة خوزستان - عربستان.
- 1746 أكدت معاهدة القسطنطينية المعاهدات السابقة: العراق وشط العرب يعودان إلى الإمبراطورية العثمانية. وأصبحت عربستان محمية عثمانية.
- 1837 أنشا الأمير جابر بن مرداؤ إمارة المحمّرة (خورمشهر) التي تضم أغلبية عربستان.
- 1847 ثبتت معاهدة ارضروم الأولى الموقعة في 31 مايس من هذا العام تحديداً دقيقاً للحدود بين الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية التي احتفظت بالسيطرة على العراق وشط العرب.
- حصلت الإمبراطورية الفارسية على خوزستان وحق حرية الملاحة في شط العرب. واعترف شاه فارس بالحكم الذاتي لإمارة المحمّرة.
- 1913 أنشا بروتوكول القسطنطينية الموقّع في 4 تشرين الثاني من هذا العام الحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية. كان الاختلاف البارز والوحيد بين هذا البروتوكول والمعاهدات السابقة أن أصبحت الجزر الصغيرة في شط العرب تحت السيطرة الفارسية.

- 1920 بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية في شهر كانون الأول من هذا العام منحت عصبة الأمم بريطانيا سلطة الانتداب على العراق. ونهار حكم الأسرة القاجارية في حكم الإمبراطورية الفارسية. وعلقت لندن دعمها لإمارة المحمرة. احتلال روسيا لشمال بلاد فارس.
- 1924 استولى رضا خان على السلطة وأعلن نفسه شاهًا لإيران. وفي السنة التالية غزا إمارة المحمرة التي أصبحت جزءًا من محافظة خوزستان.
- 1930 حصل العراق على استقلاله في 30 حزيران من هذه السنة وأصبح مملكة هاشمية تحت حكم الملك فيصل. تطور الوطنية العراقية من خلال الجيش العراقي. وتزايد التوتر بين العراق وإيران.
- 1937 18 تموز: أكدت اتفاقية طهران بروتوكول القسطنطينية 1913، لكن أوضحت أن الحدود بين العراق وإيران تسير على وفق خطّ التالوك عند الممرّ الضيق لشطّ العرب، الممتدّ بين خورمشهر (المحمرة) وعبادان.
- 1941 نيسان - مايس: أخذ الجيش البريطاني انقلابًا عسكريًا مواليا لألمانيا. أيلول: احتلّ الاتحاد السوفيتي والمملكة المتحدة إيران وأطاحوا بالشاه وجعلوا ابنه محمد رضا بهلوي بدلًا منه، الذي أصبح الشاه الجديد لإيران. تركت قوات الاحتلال إيران في عام 1946.
- 1958 14 تموز: أطاح الجنرال عبد الكريم قاسم بنظام الحكم الملكي وأقام علاقات وثيقة مع السوفييت. وأطاحه عبد السلام عارف في (1963) الذي تم اغتياله قبل أن يصبح أخوه عبد الرحمن بدلًا منه في العام (1966).
- وقوع اشتباكات عنيفة مع الكرد العراقيين وظهور بوادر توترات بين العراق وإيران.
- 1967 حزيران: قطعت بغداد علاقاتها مع واشنطن عند نهاية حرب الأيام الستة.
- 1968 17 تموز: استيلاء حزب البعث على السلطة في العراق، وأصبح الجنرال البكر رئيسًا للجمهورية، وقد ساندته صدام حسين الذي تم تعيينه نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة.
- 1969 19 نيسان: أعلن شاه إيران إلغاء اتفاقية طهران (1937) وأدعى المشاركة بالسيادة على شطّ العرب ودعم الفصائل الكردية بقوة في العراق.

- 1970 11 آذار: منحت الحكومة العراقية الحكم الذاتي للكورد الذين كانوا يتمتعون بالدعم المادي من الشاه. وأصبح صدام حسين نائباً لرئيس الجمهورية. وحدثت القطيعة النهائية بين فرعي حزب البعث في العراق وسوريا بعد صعود حافظ الأسد إلى السلطة في دمشق.
- 1971 كانون الأول: أكملت المملكة المتحدة انسحابها من منطقة الخليج، وأعلنت عُمان وقطر والإمارات العربية المتحدة والبحرين استقلالهما.
- استولت إيران على ثلاث جزر صغيرة بالقرب من مضيق هرمز وتدّعي بهما الإمارات المتحدة (أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى). وعهدت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة إلى إيران لتصبح شرطي الخليج.
- بدأت شحنات الأسلحة الأمريكية والبريطانية بالتدفق على إيران.
- 1972 9 نيسان: التوقيع على اتفاقية التعاون بين العراق والاتحاد السوفيتي. أرسلت موسكو الأسلحة الحديثة إلى بغداد. بدأت الحكومة العراقية إقامة علاقات خاصة مع فرنسا؛ لكي تنوع من مصادر تسليحها.
- الأول من حزيران: تم تأمين الصناعة النفطية في العراق. بدأ نظام البعث برنامجاً طموحاً لتحديث المجتمع العراقي.
- 18 حزيران: سافر صدام حسين إلى باريس لضمان توقيع اتفاقية عراقية - فرنسية للنفط.
- 1973 25-6 تشرين الأول: شارك العراق في الحرب العربية - الإسرائيلية (حرب يوم كيפור، "نكسة حزيران")، وبناء علاقات وثيقة مع ملكيات الخليج.
- 1974 آذار: أعلن الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مصطفى البرزاني (بدعم من إيران، الولايات المتحدة، وإسرائيل) استقلال كردستان العراق. اندلع قتال شرس بين الجيش العراقي والمتمردين الكرد. كذلك قاتل آلاف من الجنود المشاة الإيرانيين مع البيشمركة الكردية.
- 27 حزيران: توقيع اتفاقية للتعاون النووي المدني بين فرنسا وإيران.
- كانون الأول: وافقت فرنسا على إرسال الأسلحة المعقدة إلى العراق. وقبلت فرنسا في الوقت نفسه قرصاً بمليار دولار من الشاه لبناء مفاعل Eurodif للتخصيب النووي.

- 1975 6 آذار: توقيع اتفاقية الجزائر بين الشاه وصدّام حسين. اعترف العراق بالمشاركة بالملاحة في شطّ العرب. وإنّ الحدود النهرية بين البلدين ستكون موضوع بروتوكول يتم التفاوض عليه في بغداد لاحقاً بموجب اتفاقية العلاقات المجاورة التي وُقعت في بغداد في 13 حزيران. وبعد أن خسر التمرد الكردي الآن أيّ دعم خارجي أدّى ذلك إلى انهياره. انتهب جلال طالباني الفرصة لتأسيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني المنافس للحزب الديمقراطي الكردستاني بقيادة مصطفى البرزاني.
- 24 حزيران: توقيع اتفاقية صيدا التي بموجبها اعترفت الطائفة الشيعية بלבnan بولاية آية الله الخميني الذي كان منفياً في العراق منذ 1964.
- 18 تشرين الثاني: وقّع العراق وفرنسا اتفاقيةً للتعاون النووي المدني.
- 1978 5 تشرين الأول: مغادرة آية الله الخميني العراق واللجوء إلى فرنسا في نوفيل - لي - شاتو. كانون الأول: وصول الاحتجاجات إلى ذروتها ضدّ نظام الشاه.
- 1979 16 كانون الثاني: مغادرة محمد رضا بهلوي إيران. تخلّي شابور بختيار عن منصبه رئيس وزراء مؤقتاً.
- 1 شباط: عودة آية الله الخميني لإيران منتصراً. هذه بداية الثورة الإسلامية في إيران. تسارع البرنامج النووي العراقي.
- 2 نيسان: إعلان الجمهورية الإسلامية بإيران. وأصبحت عمليات التطهير ضدّ العناصر الموالية للغرب عنيفة بازدياد. أصبحت عدة فصائل إقليمية كردية وعربية وأذرية وبلوشية كحركات انفصالية.
- 9 نيسان: ألغت إيران اتفاقية التعاون النووي مع فرنسا وطالبت بإعادة القرض الذي الذي منحه الشاه. وهذه بداية نزاع Eurodif الذي سيُعرق العلاقات الفرنسية الإيرانية لعقود من الزمن. زادت فرنسا من مساعدتها العسكرية للعراق.
- 5 مايس: إعلان تشكيل فيالق الحرس الثوري الإيراني.
- 16 تموز: استيلاء صدّام حسين على السلطة في بغداد وسنّه حملة تطهير كبيرة بين صفوف الجيش وحزب البعث.
- 28 تموز: إدانة صدّام حسين لمؤامرة سورية لإسقاطه. فشل الوحدة المقترحة بين العراق وسوريا ممّا دفعها للتحالف مع إيران.

- آب - أيلول: هناك محاولات غير رسمية للتقارب بين واشنطن وطهران.
- 22 تشرين الأول: منحت الولايات المتحدة حقَّ اللجوء للشاه.
- 30 تشرين الأول: أعاد صدام حسين قضية شطِّ العرب إلى طاولة النقاش.
- 4 تشرين الثاني: الهجوم على السفارة الأمريكية بطهران، وأخذ نحو أربعين أمريكيًّا رهائنَ لمدة أكثر من أربعة عشر شهرًا.
- 7 تشرين الثاني: تشكيل فيلق الباسيج في إيران. وتعيين محمد علي رجائي القريب من رجال الدين رئيسًا للحكومة بدلًا من مهدي بزرگان (علماني).
- 20 تشرين الثاني: الاختطاف الدموي للرهائن بمكة، وظهور توتر كبير بين الطائفتين الشيعية والسنية.
- 3 كانون الأول: تبني الدستور الإيراني الجديد وإقامة الجمهورية الإسلامية، وإقامة نوع من التوازن بين المؤسسات الدينية والمدنية. انتعاش التوتر بين العراق وإيران.
- 26 كانون الأول: الاتحاد السوفييتي يغزو أفغانستان.
- 23 كانون الثاني: إعلان "مبدأ كارتر" لضمان أمن الشرق الأوسط.
- 25 كانون الثاني: انتخاب بني صدر رئيسًا للجمهورية بإيران. تصاعد الصراعات بين التقدميين والحزب الإسلامي للسيطرة على السلطة الفعلية بإيران.
- 1 نيسان: فشل محاولة اغتيال طارق عزيز ببغداد واتهام شيعة العراق بذلك. إعدام آية الله محمد باقر الصدر زعيم الطائفة الشيعية بالعراق، وتصاعد التوتر بين العراق وإيران.
- 7 نيسان: قطعت الولايات المتحدة الأمريكية علاقاتها الدبلوماسية بإيران.
- 24 نيسان: فشل محاولة عملية "مخلب النسر" لتحرير الرهائن الأمريكيين بطهران.
- 9-10 تموز: فشل مؤامرة عسكرية بإيران أدت إلى عملية تطهير دموية بين صفوف الجيش. وتصاعد القتال ضد التمرد الكردي والعربي والبلوشي والأذري.
- 16 تموز: طلب صدام حسين من رئيس أركان قواته المسلحة الاستعداد للحرب.
- 18 تموز: اعتقال أنيس نقاش قائد وحدة كوماندو إيرانية لاغتيال شابور بختيار اللاجئ بفرنسا.
- 5-6 آب: سافر صدام حسين إلى العربية السعودية لإبلاغ الملك خالد قراره بشنِّ حملة عسكرية "ضدَّ إيران".

1980

- 4 أيلول: قصفت المدفعية الإيرانية المواقع الحدودية مع العراق. كانت هذه بداية حرب الاستنزاف التي استمرت حتى اندلاع المعارك بين الطرفين.
- 17 أيلول: الغاء صدام حسين لاتفاقية الجزائر الموقعة في 6 آذار 1975.
- 22 أيلول: بدء الحرب العراقية - الإيرانية. شنَّ الجيش العراقي حملة غارات جوية وتغلغل نحو عشرين ميلاً (نحو 30 كيلومتراً) داخل الأراضي الإيرانية. هناك ارتباك في ردود أفعال المشهد الدولي.
- 28 أيلول: تبنى مجلس الأمن بالأمم المتحدة القرار رقم 479 الذي يدعو طرفي القتال لوضع نهاية للنزاع. أعلن صدام حسين أنه مستعدُّ لوضع نهاية لهجومه إذا قبلت إيران المفاوضات الشاملة.
- 30 أيلول: أعلنت الولايات المتحدة إرسال طراد وأربع طائرات أواكس إلى الخليج. قصفت الطائرات الإيرانية المفاعل النووي العراقي أوزيراك. القوات العراقية تقاتل خارج خورمشهر، أهواز، وديزفول.
- 1 تشرين الأول: أعلن صدام حسين هدنةً لأسبوع واحد ومن طرف واحد. أعلنت إيران فرض حصار بحري على العراق.
- 12 تشرين الأول: أنشأت الحكومة الإيرانية مجلس الدفاع الأعلى للإشراف من قرب على أنشطة الجيش وتعزيز سلطة فيلق الحرس الثوري الإيراني.
- 14 تشرين الأول: بدء حصار الجيش العراقي لعبادان.
- 24 تشرين الأول: سيطرة الجيش العراقي على خورمشهر.
- 18 تشرين الثاني: بدء مهمة وساطة برئاسة أولف بالمه، الممثل الخاص بالأمم المتحدة لطرفي النزاع.
- 27-29 تشرين الثاني: عزز الإيرانيون من حصارهم البحري لانتصارهم في المعركة الجوية والبحرية في مصبِّ شطِّ العرب. أصبحت البحرية العراقية خارج الخدمة.
- 10 كانون الأول: العراقيون في حالة الدفاع الآن. ونهاية الصفحة الأولى من الحرب.
- 24 كانون الأول: قصف العراقيون منصة نفط جزيرة خارج بكثافة، وفتحوا جبهةً جديدةً في كردستان إيران.

- 5-8 كانون الثاني: فشل أول هجوم إيراني مضاد.
- 15 كانون الثاني: الجيش العراقي يتغلغل في كردستان الإيرانية.
- 19 كانون الثاني: اتفاق واشنطن وطهران بالجزائر على إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين. وإطلاق سراحهم في اليوم التالي بينما كان الرئيس ريغان يؤدي اليمين في البيت الأبيض.
- 1 نيسان: حدوث عصيان عام في كردستان الإيرانية وبدعم من بغداد.
- 4 نيسان: نجاح باهر لغارة جوية إيرانية على قاعدة محطة H-3 العراقية.
- 12 نيسان: أولى المناقشات التي عُقدت في بغداد بين العراقيين والأمريكيين.
- 25 نيسان: تشكيل مجلس التعاون الخليجي.
- 7 حزيران: تدمير القوة الجوية الإسرائيلية مفاعل أوزيراك النووي العراقي.
- 20 حزيران: إزاحة الرئيس بني صدر من السلطة بإيران. وبعد شهر هرب مع مسعود رجوي رئيس مجاهدي الشعب إلى فرنسا.
- 21 حزيران: مقتل وزير الدفاع الإيراني في حادث سقوط طائرته.
- 28 حزيران: مقتل قادة حزب الحزب الإسلامي الإيراني بهجوم إرهابي عُزي إلى مجاهدي الشعب. كان ردُّ فعل رجال الدين بالاستيلاء على السلطة في طهران.
- 3 تموز: اقتراح صدام حسين هدنةً أخرى.
- 28 تموز: انتخاب محمد علي رجائي رئيسًا للجمهورية لإيران. تم قتله ورئيس وزرائه في حادث إرهابي بعد شهر.
- 4 أيلول: اغتيال السفير الفرنسي ببيروت لويس ديلايير. وهذه بداية لسلسلة من الهجمات الإرهابية ضدَّ المصالح الفرنسية في لبنان.
- 26-30 أيلول: وقوع هجوم "ثامن الأئمة" الإيراني في خوزستان. رفع العراقيون حصارهم عن عبادان والانسحاب إلى الضفة الغربية من نهر الكارون.
- 2 تشرين الأول: انتخاب علي خامنئي رئيسًا للجمهورية في إيران. انتخاب أكبر هاشمي رفسنجاني ناطقًا باسم البرلمان. تعيين مير حسين موسوي رئيسًا للوزراء الذي شغل المنصب طوال فترة الحرب.
- تشرين الأول - تشرين الثاني: انطلاق الهجوم الإيراني الواسع النطاق ضدَّ البشمركة الكردية.

29 تشرين الثاني - 7 كانون الثاني: وقوع هجوم "الطريق إلى القدس" الإيراني في قاطع

سوسنكرد. تحرير الإيرانيين للستان والتقدم نحو مدينة حميد.

15 كانون الأول: صدّام حسين يقترح "سلام الشجعان".

16 كانون الأول: فشل العصيان الشيعي في البحرين.

12-24 كانون الأول: انطلاق الهجوم الإيراني "طلوع الفجر" في قاطع قصر شيرين.

الإيرانيون يحررون كيلان زارب وسريل زهاب.

21-30 آذار: ادّعى الإيرانيون انتصارهم الكبير على العراقيين في قاطع الفكة (عملية

1982

النصر المؤرّر).

8 نيسان: أغلقت سوريا خطّ نفط كركوك - بانياس وحدودها مع العراق. وقّعت بغداد

وأنقرة اتفاقاً لمضاعفة الطاقة التصديرية لخطّ نفط كركوك - دورتيول.

9 نيسان: اعتقال صادق قطب زاده وزير خارجية بني صدر السابق بإيران. إركاع الجيش

النظامي الإيراني.

3 ميس: إسقاط العراق للطائرة التي كانت تقلّ وزير الشؤون الخارجية الجزائري وهو

في طريقه إلى إيران.

30 نيسان - 24 ميس: أعاد الإيرانيون السيطرة على خورمشهر خلال هجوم "المدينة

المقدّسة".

6 حزيران: غزت إسرائيل لبنان (عملية سلام الجليل).

10-20 حزيران: أعلن صدّام حسين هدنةً من طرف واحد، ودعا الإيرانيين إلى انضمام

قواتهم إلى قوّاته لقتال إسرائيل في لبنان. رفض الإيرانيون تلك الهدنة. ومع ذلك، أمر

صدّام حسين قواته بالانسحاب إلى الحدود الدولية. نهاية الصفحة الثانية من الحرب.

22 حزيران: أعلنت إيران أنّها ستستمر بالحرب حتى سقوط النظام العراقي.

25-27 حزيران: انتهز الرئيس العراقي فرصة انعقاد المؤتمر التاسع لحزب البعث لتطهير

الحزب وإعادة تنظيم قيادة الجيش.

تموز: بدأت الولايات المتحدة تقارباً حذرًا مع بغداد، وأزالت العراق من قائمة الدول

الراعية للإرهاب. بدء عمليات اختطاف الرهائن بلبنان. استأنف الاتحاد السوفيتي

إرسال الأسلحة إلى العراق.

12 تموز: تبني مجلس الأمن بالأمم المتحدة قرار 514 الذي يدعو طرفي النزاع إلى احترام الهدنة. بغداد قبلت، ورفضت إيران.

13-31 تموز: بدء هجوم "رمضان كريم" الإيراني في قاطع البصرة.

12 آب: إعلان صدام حسين فرض الحصار على النفط الإيراني، وإقامة المنطقة البحرية المحرمة حول جزيرة خارج. ردّت إيران بإعلان منطقة الحظر العائدة لها في الخليج.

18 آب: تشكيل وزارة الحرس الثوري الإيراني (7 تشرين الثاني الفعّال).

25 آب: تدخل القوة المتعدّدة الجنسيات في بيروت.

أيلول: اندلاع قتال عنيف في كردستان إيران بين الجيش الإيراني والبيشمركة الكردية الإيرانية.

11 أيلول: وقوع اشتباك بحري خارج قاعدة بوشهر البحرية.

1-6 تشرين الأول: بدء الهجوم الإيراني مسلم بن عقيل في قاطع مندلي.

4 تشرين الأول: تبني مجلس الأمن بالأمم المتحدة قرار 522. (فشله)

19 تشرين الأول: استئناف العمل بالبرنامج النووي الإيراني.

1-16 تشرين الثاني: شنّ الهجوم الإيراني "محرم الحرام" في قاطع العمارة.

كانون الأول: يوري اندربوف يخلف ليونيد بريجينيف في الكرملين. الاتحاد السوفيتي يغيّر موقفه. التنكّر لإيران ودعم العراق بقوة. الآن الصين تدعم إيران علانية.

4 كانون الثاني: طارق عزيز يتفاوض لشراء أسلحة فرنسية جديدة والاتفاق مع باريس على جدولة جديدة للديون العراقية. 1983

6-11 شباط: بعد هجوم "الفتح" الإيراني في قاطع الفكة، فضّلت إيران استراتيجية حرب الاستنزاف.

15 شباط: إبعاد مسؤول المخابرات الروسية في طهران. وصول العلاقات بين إيران والاتحاد السوفيتي إلى مرحلة جديدة من التددّي.

نيسان: شنت طهران هجومًا واسع النطاق ضدّ البيشمركة بكردستان الإيرانية.

10-17 نيسان: شنت إيران هجوم الفجر الأول في قاطع الفكة.

12-15 نيسان: وقوع اشتباك بحري بين زوارق الحراسة العراقية والإيرانية.

25 مايس: بغداد تقترح تعليق قصف المناطق المدنية.

- 7 حزيران: صدام حسين يقترح هدنة لمدة شهر تزامناً مع حلول شهر رمضان.
- 20-30 حزيران: شنّ الإيرانيون هجوم الفجر 2 باتجاه كردستان العراق.
- 30 تموز 10- آب: شنّ الإيرانيون هجوم الفجر 3 في قاطع مهران.
- 29 آب: وقوع أول هجوم إرهابي على القوات الغربية المنتشرة بלבنا.
- 22 أيلول: قصف الطيران البحري الفرنسي المواقع السورية بلبنا (عملية Sandre انتقاماً لقصف مقرّ البعثة الدبلوماسية الفرنسية في بيروت).
- 9 تشرين الأول: أجرت فرنسا خمس طائرات Super Etendard تصل للعراق وكلّها مجهزة بصواريخ Exocet. ترى إيران أنّ فرنسا قد تجاوزت الخطّ.
- 15 تشرين الأول: انطلاق أول تدريبات عسكرية لمجلس التعاون الخليجي.
- 20 تشرين الأول 19- تشرين الثاني: شنّت إيران هجوم الفجر 4 باتجاه كردستان العراق، استخدام الجيش العراقي للأسلحة الكيماوية لأول مرة.
- 23 تشرين الأول: تنفيذ هجوم إرهابي على القوات الفرنسية (داركار) والأمريكية المرابطة في بيروت. (300 قتيل)
- 31 تشرين الأول: تبني مجلس الأمن بالأمم المتحدة قرار 540 (فشله).
- 9 تشرين الثاني: رفسنجاني يوجّه اتهاماً عنيفاً لفرنسا.
- 17 تشرين الثاني: قصف الطيران الحربي الفرنسي لشكنات حزب الله في بعلبك بلبنا (عملية Brochet) ثمّ تبعتها سلسلة من الهجمات الإرهابية بفرنسا.
- 4 كانون الأول: دمرّ الطيران البحري الأمريكي عدة بطاريات لصواريخ أرض - جو سورية في لبنان.
- 12 كانون الأول: تنفيذ هجمات على السفارات الأمريكية والفرنسية في الكويت.
- 14 كانون الأول: بدأت البحرية الأمريكية بقصف مواقع حزب الله في لبنان. (القصف الأخير في 26 شباط 1984).
- 20 كانون الأول: لقاء دونالد رامسفيلد بصدام حسين في بغداد والاتفاق على مبادئ عودة العلاقات الدبلوماسية بين العراق والولايات المتحدة.
- 1-2 شباط: عقد لقاءً ثانٍ بين دونالد رامسفيلد وصدام حسين في بغداد.
- 12-15 شباط: شنّ الإيرانيون هجوم "تحرير القدس" في كردستان العراق. ردّ بدء "حرب المدن" (حتى 12 حزيران).

- 16-22 شباط: اندلاع هجمات الفجر 5 و6 بين الكوت والعمارة.
- 22 شباط 12- آذار: شنّ الإيرانيون هجوم "خيبر" في قاطع جزر مجنون. استخدم العراقيون غاز الأعصاب لأول مرة.
- 28 شباط: قرّرت فرنسا تعديل سياستها مع طرفي النزاع وتبني موقف أكثر توازنًا وبضمنه تخفيض لإرسال الأسلحة إلى العراق.
- 16 آذار: اختطاف مدير محطة المخابرات الأمريكية ببيروت.
- 24 آذار: رونالد رامسفيلد يقوم بثالث زيارة له لبغداد. القوة الجوية العراقية تقصف المفاعل النووي الإيراني تحت الإنشاء في بوشهر ولأول مرة.
- 27 آذار: وقوع أول هجوم عراقي بطائرات Super Etendards على التجارة النفطية الإيرانية. بدء حرب الناقلات.
- 17 ميس: رفسنجاني يفوز بالدورة الثانية بالانتخابات التشريعية بإيران.
- 1 حزيران: تبني مجلس الأمن بالأمم المتحدة قرار 522. (فشله)
- 5 حزيران: إسقاط طائرة فانتوم إيرانية من المقاتلات السعودية المتفوقة جواً.
- إعلان السعودية لمنطقة حظر جوي وبحري لها (خط فهد).
- إعلان الولايات المتحدة إرسال مجموعة بحرية وجوية إلى خليج عمان.
- 9 تموز 20- أيلول: ليبيا تزرع الألغام البحرية في البحر الأحمر.
- 31 تموز: اختطاف طائرة إيرباص فرنسية من جنود الحرس الثوري الإيراني وبدء المفاوضات المباشرة بين فرنسا وإيران وتضمّنت قرض Eurodif، وإبعاد مسعود رجوي، وإطلاق سراح أنيس نقاش، وتعليق بيع الأسلحة الفرنسية للعراق، وبيع كميات كبيرة من الأسلحة لإيران.
- 5 آب: بدأ حزب العمّال الكردستاني حرب العصابات في تركيا.
- 20 أيلول: تنفيذ هجوم دمويّ على السفارة الأمريكية ببيروت.
- 15 تشرين الأول: اتفاق العراق وتركيا بالسماح للجيش التركي بملاحقة عناصر حزب العمّال الكردستاني داخل العراق. بدء حرب الفصائل المسلحة الكردية ضدّ النظام العراقي.
- 18-22 تشرين الأول: شنّ الإيرانيون هجوم الفجر 7 في قاطع مهران.
- 26 تشرين الثاني: إعادة العلاقات الدبلوماسية بين بغداد وواشنطن.

11-22 آذار: نهاية هجوم "بدر" الإيراني في قاطع جزر مجنون الذي انتهى بنصر عراقي بفضل الاستخدام الكثيف للأسلحة الكيماوية.

11 آذار 15- حزيران: اندلاع الصفحة الثانية من "حرب المدن".

22 آذار: وقوع سلسلة من عمليات الاختطاف لأشخاص فرنسيين بלבنا بعد انهيار المفاوضات الفرنسية - الإيرانية.

21 نيسان: صدّام حسين يقترح خارطة طريق لإنهاء الحرب.

شهر حزيران: اتفاق الولايات المتحدة والعربية السعودية على استراتيجية نفطية جديدة لخلق إيران والاتحاد السوفيتي. زادت الرياض من إنتاج النفط ممّا أدى إلى انهيار أسعار النفط.

14-28 حزيران: اندلاع العملية العسكرية الإيرانية "القدس 1" في جزر مجنون.

19 حزيران: بدء العملية العسكرية الإيرانية "القدس 2" حول قصر شيرين.

20-30 حزيران: بدء العملية العسكرية الإيرانية "النصر" في قاطع البصرة.

14-30 تموز: بدء العملية العسكرية "القدس 3" في كردستان العراق.

26 تموز - 7 آب: بدء العملية العسكرية "القدس 4" في قاطع مندلي.

14 آب: بدء القوة الجوية العراقية حملة قصف لمنصة جزيرة خارج لمدة أربعة أشهر.

16 آب: إعادة انتخاب علي خامنئي رئيساً للجمهورية.

20 آب: إرسال أول دفعة من الصواريخ الأمريكية لإيران كجزء من قضية إيران - كونترا.

أيلول: تصاعد التوتر بين موسكو وطهران بعد اختطاف أربعة دبلوماسيين سوفيت في

بيروت (30 أيلول). قرّر ميخائيل غورباشوف البدء بعلاقات حذرة ووثيقة مع إيران.

8-18 أيلول: شنت إيران العملية العسكرية "القدس 5" في كردستان العراق.

16-30 أيلول: شنت إيران العملية العسكرية "القدس 6" في قاطع سومر ومهران.

23 تشرين الأول 7- تشرين الثاني: بدء العملية العسكرية الإيرانية "عاشوراء" في أهوار

الحويزة.

24 تشرين الأول: افتتاح خط أنبوب النفط بين العراق والعربية السعودية.

16 كانون الأول: لقاء صدّام حسين بميخائيل غورباشوف بموسكو.

- 6-14 كانون الأول: يستعيد العراقيون السيطرة على جزء من جزر مجنون.
- 12 كانون الأول: تعرض البحرية الإيرانية لسفينة أمريكية في مضيق هرمز لأول مرة.
- 9 شباط - 13 آذار: سيطرة الإيرانيين على شبه جزيرة الفاو (الفجر 8).
- 24 شباط: تبني مجلس الأمن بالأمم المتحدة قرار 582. (فشله)
- 25 شباط - 8 آذار: بدء الصفحة الأولى من هجوم "الفجر 9" بکردستان العراق.
- 28 شباط: تسليط الضوء على قضية "لوشير" (بيع الذخيرة الفرنسية لإيران) بفرنسا.
- 15 نيسان: الغارة الجوية الأمريكية على ليبيا.
- 23 نيسان - 20 مايس: بدء الصفحة الثانية من هجوم "الفجر 9" في كردستان العراق.
- مايس: إعلان فرنسا استعدادها لدفع مبلغ قرض Eurodif لإيران. إبعاد مسعود رجوي الذي لجأ للعراق. إطلاق سراح اثنين من المختطفين الفرنسيين ببيروت. تدهور صحة آية الله الخميني تثير أزمةً سياسيةً في طهران.
- 14-17 مايس: استيلاء العراق على جيب أرضي إيراني حول مهران واقتراحهم مقايضته بشبه جزيرة الفاو.
- 25 مايس: سفر وفد أمريكي سرّاً إلى طهران لتسريع مفاوضات "السلاح مقابل الرهائن" بوصف ذلك جزءاً من قضية إيران-كوترا.
- 30 حزيران 10- تموز: الإيرانيون يحررون جيب مهران بعد هجوم "كربلاء 1".
- 12 آب: تنفيذ أول غارة على منصة النفط العائمة في جزيرة سيدي.
- 23 آب: قيام الجيش التركي بغارات في كردستان العراق.
- 29 آب: تنفيذ أول غارة عراقية على منصة نفط لافان.
- 31 آب - 7 أيلول: بدء الهجوم الإيراني "كربلاء 2" في كردستان العراق. شنت إيران غارات على الحدود العراقية - التركية.
- 1-2 أيلول: بدء الهجوم "كربلاء 3" باتجاه منصة خور العُمية.
- 3 تشرين الثاني: الكشف عن فضيحة إيران - كوترا.
- 22 تشرين الثاني: دفعت لإيران الدفعة الأولى من قرض Eurodif بعد سلسلة العمليات الإرهابية في باريس. إطلاق سراح رهينة فرنسية بلبنان.
- 25 تشرين الثاني: تنفيذ العراق أول غارة على منصة نفط لاراك العائمة.
- 24-27 كانون الأول: بدء هجوم "كربلاء 4" في قاطع البصرة.

8 كانون الثاني - 26 شباط: شنت إيران هجوما "كربلاء5" على البصرة. حدوث أزمة قيادة في رئاسة الأركان العراقية. بدء صفحة جديدة من "حرب المدن".

13-26 كانون الثاني: بدء هجوم "كربلاء6" في قاطع مندلي.

21 كانون الثاني: صدّام حسين يقترح خطةً جديدةً للسلام. ردّت إيران بإطلاق صواريخين سلكورم على الكويت.

13 شباط: زيارة وزير الشؤون الخارجية الإيراني إلى موسكو تؤشر خطوةً أخرى نحو التقارب بين الاتحاد السوفيتي وإيران.

3-9 آذار: بدء هجوم "كربلاء7" في كردستان العراق. غارة عسكرية تركية ضدّ حزب العمال الكردستاني داخل العراق. اتفاق جلال طالباني (الاتحاد الوطني الكردستاني) ومسعود بارزاني (الاتحاد الديمقراطي الكردستاني)، ومحمود عثمان (الحزب الاشتراكي الكردستاني) على توحيد المقاومة الكردية ضدّ النظام العراقي. شنّ صدّام حسين "عملية الأنفال" ضدّ التمرد الكردي.

2 نيسان: تعهّدت واشنطن بإعادة تسجيل إحدى عشرة ناقلة نفط كويتية لرفع العلم الأمريكي. أعلنت لندن تعزيز قوة المراقبة البحرية Armilla في الخليج.

6-11 نيسان: بدء هجوم "كربلاء8"، آخر هجوم على البصرة.

9-14 نيسان: بدء هجوم "كربلاء9" في قاطع قصر شيرين. تجديد العراق والاتحاد السوفيتي لمعاهدة الصداقة والتعاون.

14-30 نيسان: بدء هجوم "كربلاء10" في كردستان العراق. أنهت إيران كلّ هجماتها المعروفة وعادت إلى حرب الاستنزاف. نهاية الصفحة الثالثة من الحرب.

15 نيسان: أعاد الاتحاد السوفيتي تسجيل ثلاث ناقلات نفط كويتية لترفع العلم الروسي. 8 مايس: إعلان الكرملين إرسال قوة بحرية سوفيتية إلى الخليج.

6-20 مايس: إصابة أول ناقلة نفط بأضرار نتيجة اصطدامها بلغم بحري إيراني.

17 مايس: هجوم الطائرة العراقية فالكون50 على الفرقاطة الأمريكية USS Stark.

حزيران-تموز: اندلاع قضية كورجي بفرنسا. وبدء "حرب السفارات" بين باريس وطهران. قطعت فرنسا علاقاتها الدبلوماسية مع إيران في 17 تموز ونشرت قواتها البحرية والجوية في الخليج (عملية Promethee).

- 20 تموز: اتفاق الأعضاء الخمسة الدائمين بمجلس الأمن بالأمم المتحدة على خطة سلامٍ شاملةٍ لوضع نهاية للحرب العراقية الإيرانية. (قرار 598)
- 21 تموز: أعلنت الولايات المتحدة إرسال تعزيزات بحرية كبيرة إلى الخليج، وبدء عمليات Earnst Will (مرافقة السفن الأمريكية)، و Prime Chance (مراقبة أنشطة الحرس الثوري البحرية). وقوع حوادث متنوعة بين البحرية الأمريكية والقوى البحرية والجوية الإيرانية.
- آب- أيلول: بدء الهجمات الإيرانية "نصر 5،6،7" في كردستان العراق.
- 2-5 أيلول: قيام الأمين العام للأمم المتحدة بمهمة وساطة بين العراق وإيران. إطلاق إيران ثلاثة صواريخ سلكورم على الكويت.
- 7-8 أيلول: أعلنت كل من هولندا وبلجيكا وإيطاليا إرسال سفن حربية إلى الخليج.
- 21 أيلول: أمسكت البحرية الأمريكية السفينة الإيرانية Iran Ajr وهي تزرع الألغام البحرية قبالة سواحل البحرين.
- 3 تشرين الأول: صدّت البحرّيتان السعودية والأمريكية قوةً بحريةً إيرانيةً للحرس الثوري على الخفجي بالسعودية.
- 15-16 تشرين الأول: أطلقت إيران صاروخين سلكورم آخرين على الكويت. تعرّضت الناقلة الأمريكية Sea Isle City إلى أضرار شديدة.
- 19 تشرين الأول: شنّت الولايات المتحدة عملية Nimble Archer (تدمير منصة رستم النفطية الإيرانية المطلّة على الخليج).
- 22 تشرين الأول: أطلقت إيران صاروخ سلكورم آخر على الكويت التي قبلت عرضاً من الولايات المتحدة بالمساعدة الأمريكية.
- 28 تشرين الأول- 1 تشرين الثاني: حاول الاتحاد السوفيتي مرةً أخرى التوسط بين بغداد وطهران.
- 27-28 تشرين الثاني: انتهاء "حرب السفارات" بين باريس وطهران. سمحت فرنسا لوليد كورجي بالعودة لإيران. رفعت إيران الحصار عن السفارة الفرنسية بطهران.
- إطلاق سراح اثنين من الرهائن الفرنسيين ببيروت. دفعت فرنسا الدفعة الثانية من قرض Eurodif.

- 27 - 28 كانون الأول: أطلقت إيران صاروخ سلكورم على الكويت.
- 12 كانون الثاني - 26 شباط: اندلاع هجمات "نصر 5 و6" و"المدينة المقدسة 2" الإيرانية في كردستان العراق. كثف العراقيون عملية الأنفال.
- 28 شباط: أطلقت إيران صليبةً من صواريخ سكود على بغداد. ردَّ العراق بإطلاق صواريخ "الحسين" على طهران. بدأت "حرب العواصم" التي ستستمر حتى 20 نيسان.
- 13-16 آذار: استيلاء الإيرانيون على حلبجة وسد دوكان بكردستان العراق في هجماتها "نصر 7" و"المدينة المقدسة 3".
- 16 آذار: شنَّ العراق ضربةً بالأسلحة الكيميائية على مدينة حلبجة.
- 14 نيسان: تعرَّض الفرقاطة USS Samuel Robert إلى أضرار بليغة بلغم بحري في الخليج.
- 17-18 نيسان: العراقيون يحررون شبه جزيرة الفاو (عملية رمضان كريم).
- 18 نيسان: أغرقت البحرية الأمريكية خلال معركة جوية وبحرية في الخليج عدة سفن للبحرية الإيرانية ودمرت منصتين على الساحل يستخدمهما الحرس الثوري الإيراني. (عملية Praying Mantis).
- 20 نيسان: أطلقت إيران صاروخ سكود على الكويت.
- 4 مايس: إطلاق سراح آخر الرهائن الفرنسيين بلبنان خلال الفترة بين جولتي الانتخابات الرئاسية الفرنسية. وبعد إعادة انتخابه، أعلن فرانسوا ميتران عفوًا عن أنيس نقاش وتسوية النزاع على قرض Eurodif وإلى الأبد. (دفعت فرنسا المبالغ النهائية للقرض في 29 كانون الأول 1991).
- 13 مايس: فاز يسار المعارضة الدينية المحافظة في الجولة الثانية من الانتخابات التشريعية، ووضع رفسنجاني في موقف صعب.
- 15 مايس: بدأ الجيش السوفيتي الانسحاب من أفغانستان.
- 25-27 مايس: بدء الهجوم العراقي "توكلنا 1" في قاطع البصرة.
- 29 مايس - 2 حزيران: لقاء الرئيسين السوفيتي والأمريكي بموسكو لمناقشة الأزمة في الخليج.
- 13-15 حزيران: فشل الهجوم الإيراني المعاكس في قاطع البصرة.

- 15-30 حزيران: استعادة الجيش العراقي الأرض في كردستان العراق.
- 18-21 حزيران: استيلاء مجاهدي الشعب على مهران.
- 25-28 حزيران: العراقيون يستعيدون جزر مجنون (توكلنا 2).
- 3 تموز: أسقط الطراد USS Vincennes طائرة إيرباص الإيرانية في الخليج.
- 12-14 تموز: بدء الهجوم العراقي "توكلنا 3" في قاطع دهلران.
- 15 تموز: قرّرت الحكومة الإيرانية وضع نهاية للحرب.
- 17 تموز: وضع صدام حسين قائمة شروطه لقبول وقف إطلاق النار.
- 18 تموز: قبلت إيران بنود قرار مجلس الأمن بالأمم المتحدة رقم 598.
- 20 تموز: أعلن آية الله الخميني علانية قبول الهدنة، مصرحاً أن اتخاذ مثل هذا القرار كمن "يتجرّع كوباً من السم".
- 22-27 تموز: الجيش العراقي يهاجم في وسط الجبهة وجنوبها لزيادة الضغط على طهران. (هجوم توكلنا 4).
- 26-30 تموز: سحق الجيش الإيراني الهجوم الأخير لمجاهدي الشعب باتجاه كرمشاه. (عملية مرصاد).
- 6 آب: قبول إيران الهدنة من دون شروط.
- 20 آب: أصبحت الهدنة نافذة المفعول، وتتم مراقبتها من قوة المراقبين التابعين للأمم المتحدة. نهاية الحرب العراقية - الإيرانية.
- 24 آب: بدء المفاوضات المباشرة بين العراق وإيران في جنيف.
- 3 أيلول: أعلن الجيش العراقي استعادة كل الأراضي العراقية التي سبق أن كانت بأيدي المتمردين الكرد.
- 25 أيلول: انتهاء العملية الأمريكية Earnest والعملية الفرنسية Promethee في الخليج.
- 25 تشرين الأول: إعادة فتح منصة نفط خارج وعودة التجارة النفطية في الخليج إلى طبيعتها.
- 19 تشرين الثاني: أعلنت السلطات الإيرانية استحالة تجدد القتال.
- 24 تشرين الثاني: بدء عمليات تبادل الأسرى.
- 29 كانون الأول: تشكيل لجنة عراقية - إيرانية مشتركة لمراقبة تنفيذ الهدنة.

- 1989 14 شباط: أصدر آية الله الخميني فتوى بتكفير سلمان رشدي لتحويل الأنظار عن هزيمة إيران.
- 5 مايس: وفاة عدنان خير الله وزير الدفاع العراقي ممّا عزّز مكانة أبناء صدّام ضمن العائلة.
- 3 حزيران: وفاة آية الله الخميني. أصبح علي خامنئي المرشد الأعلى (4 حزيران)، بينما تم انتخاب أكبر هاشمي رفسنجاني رئيساً للجمهورية (28 تموز). تسارع المفاوضات للوصول الى صيغة نهائية للاتفاق.
- 1990 20 آب: بعد ثمانية عشر يوماً من غزو العراق للكويت انسحب الجيش العراقي من كلّ الأراضي التي احتلّها في الأيام الأخيرة من الحرب. وكلا الطرفين واصل عمليات تبادل الأسرى.
- 1991 شباط: مغادرة قوة المراقبة الدولية للأمم المتحدة لمتابعة وقف إطلاق النار.

ملحق رقم 3

جدول رقم 1 مقارنة بين العراق وإيران في العام 1980

المقومات	العراق	إيران
الحجم	348000 كم مربع / 166,000 ميل مربع	1,648,000 كم مربع / 636,300 ميل مربع
طبيعة الأرض	سهول وأهوار	جبال وهضاب عالية
المناخ	شبه صحراوي	جاف
السكان (1980)	13 مليون شخص	39 مليون شخص
اللغة	العربية	الفارسية
الجماعات العرقية	العرب 80% الكرد 18% التركمان 2%	الفرس 55% الأذريون 25% الكرد 10%، العرب 2% البلوش 3%
الديانة الرئيسية	المسلمون الشيعة 54% المسلمون السنة 43% المسيحيون الكلدان 3%	المسلمون الشعية 85% المسلمون السنة 13% آخرون 2%
النظام الدستوري	جمهورية رئاسية	جمهورية إسلامية
عدد المحافظات	18	30
العملة الوطنية	الدينار العراقي	ريال
الناتج القومي	(1980) 45 بليون \$ 6,5% من الناتج القومي	110 بلايين \$ 4% من الناتج القومي
ميزانية الدفاع	2.8 بليون \$	4,5 بلايين \$
حجم القوة العسكرية (1980)	250 ألف قوات (1,9% من السكان)	290 ألف قوات (0,7% من السكان)
الخدمة العسكرية	24 شهراً	18 شهراً
معدل قوة الاحتياط	135000 رجل / سنوياً	420000 رجل / سنوياً

ملاحظة: يشترك العراق وإيران بحدود يبلغ طولها 905 ميلاً (1458 كم).

ملحق رقم 4 القيادة العسكرية العليا

القيادة العليا العراقية

الرئيس والقائد العام للقوات المسلحة: صدام حسين.
وزير الدفاع: عدنان خير الله.

مدير جهاز المخابرات (الحاكم العام لكردستان العراق منذ 1987): علي حسن المجيد.
رئاسة الأركان: عبد الجبار خليل شنشل (1982-1980)، محمد عبد الجواد ذنون (1986-1982)،
صلاح الدين عزيز (كانون الثاني - شباط 1987)، نزار عبد الكريم الخزرجي (1987-1988).
قائد العمليات: عبد الجبار الأسدي (1982-1980)، عبد الجواد ذنون (1986-1982)،
نزار عبد الكريم الخزرجي (1986-1987)، حسين رشيد محمد (1987-1988).

قائد الجيش الشعبي: طه ياسين رمضان.
مدير الاستخبارات العسكرية: عبد الجواد ذنون (1982-1980)، محمود شاهين (1986-1982)،
صبار الدوري (1986-1988).

قائد القوة الجوية: محمد جسام الجبوري (1984-1980)، حميد شعبان (1984-1988).
قائد البحرية: علاء الدين حماد الجنابي (1982-1980)، عبد محمد الكعبي (1982-1988).
قائد الفيلق الأول بالجيش: محمد فتحي أمين (1982-1980)، ماهر عبد الرشيد (1982-1984)،
نزار الخزرجي (1984-1986)، كامل ساجد عزيز (1987-1988).

قائد الفيلق الثاني بالجيش: عبد الله عبد اللطيف (1981-1980)، مصطفى عزيز (1981-1982)،
محمد فتحي أمين (1982-1983)، ضياء توفيق إبراهيم (1983-1986)، عبد الستار المعيني
(1986-1988).

- قائد الفيلق الثالث بالجيش: سعدي توما الجبوري (1980-1981)، صلاح القاضي (1981-1982)،
سعدي الجبوري (1982-1984)، ماهر عبد الرشيد (1984-1986)، طالع الدوري
(1986)، ضياء الدين جمال (1987-1988).
قائد الفيلق الرابع بالجيش: هشام صباح الفخري (1981-1983)، ثابت سلطان أحمد
(1983-1987).
قائد الفيلق الخامس بالجيش: سعدي الجبوري (1984-1985)، ضياء الدين جمال (1985-
1986)، طالع الدوري (1986-1988).
قائد الفيلق السادس بالجيش: هشام صباح الفخري (1984-1986)، سلطان هاشم أحمد
(1986-1988).
قائد الفيلق السابع بالجيش: شوكت (1985-1986)، سعدي الجبوري (1986)، ماهر عبد
الرشيد (1986-1988).
قائد الحرس الجمهوري: حسين رشيد محمد (1985-1987)، إياد فتيح الراوي (1987-1988).

القيادة العليا الإيرانية

القائد الأعلى: آية الله الخميني.

- رئيس الجمهورية وقائد القوات المسلحة (نظريا): أبو الحسن بني صدر (1980-1981)،
محمد علي رجائي (1981)، علي خامنئي (1981-1988).
الناطق باسم البرلمان والرئيس الفعلي للقوات المسلحة: أكبر هاشمي رفسنجاني.
وزير الدفاع: مصطفى كامران (1980-1981)، محمد سلامي (1981-1984)، حسين
جلال (1984-1988).

- وزير فيلق الحرس الثوري الإسلامي: محسن رفيق دوست منذ عام 1982.
رئيس أركان القوات المسلحة: حسين شاکر (1980)، فيض الله فلاحي (1980-1981)،
قاسم علي زاهر نجاد (1981-1984)، إسماعيل سوهرايبي (1984-1988)، علي شاهبازي
(1988).

- قائد القوة البرية: فيض الله فلاحى (1980)، قاسم على زاهر نجاد (1980-1981)، علي شيرازي (1981-1988).
- قائد القوة الجوية: جواد فاكوري (1980-1981)، محمد حسن موجنبور (1981-1983)، هوشانج صديق (1983-1986)، منصور ساتري (1986-1988).
- قائد البحرية: بهرام أفضلي (1980-1983)، اسفنديار حسيني (1983-1985)، محمد حسين ملكزاديغان (1985-1988).
- قائد فيلق الحرس الثوري الإسلامي: علي خامنئي (1980-1981)، محسن رضائي (1981-1988).
- نائب قائد فيلق الحرس الثوري الإسلامي: علي شمشخاني (1981-1988).
- قائد عمليات الحرس الثوري الإيراني: رحيم صفوي (1981-1988).
- قائد الفرع البحري للحرس الثوري الإيراني: علي أراكي همداني (1985-1988).
- قائد الباسيج: حسن رحمانى.
- الضباط البارزون الآخرون الذين رأسوا أقسام الحرس الثوري الإيراني: حسين خرازي، محمد باقر قاليباف، أحمد كاظمي، محمد بوجوردي، محمد إبراهيم همت، أحمد كوسري.

ملحق رقم 5 القوات العسكرية

جدول D-1

القوات عند اندلاع النزاع

التشكيلات المقاتلة	العراق	إيران
مجموع القوات	250000	290000
القوات البرية	210000 12 فرقة ستة ألوية مستقلة 7 ألوية مستقلة 1750 دبابة 2350 عربة مدرعة 1350 قطعة مدفع	215000 7 فرق 1710 دبابات 1100 قطعة مدفع
القوات الجوية	25000 قوات، 18 سربرا 295 طائرة مقاتلة 300 هلكوبتر وبضمنها 58 هلكوبترا هجومية	50000 قوات، 23 سربرا 421 طائرة قتالية (200) 835 هلكوبترا (240) وبضمنها 200 هلكوبتر قتالية (80)
الدفاعات الجوية المضادة	مجموع القوات: 10000 9 ألوية، منصة إطلاق صواريخ سام 260 2000 مدفع مضاد للطائرات	جزء من القوات البرية 16 كتيبة 230 منصة إطلاق صواريخ سام 600 مدفع مضاد للطائرات
القوى البحرية	مجموع القوات: 5000 17 سفينة بحرية 14 زورق مسلح بالصواريخ 3 سفن برمائية الهجوم	25000 25 سفينة بحرية 4 فرقاطات 3 مدمرات 4 طراد 9 زوارق حاملة للصواريخ 5 سفن برمائية هجومية

ملاحظة: تؤشر الأرقام بين قوسين العدد التقريبي للعبوات المدرعة الإيرانية أو الطائرات العاملة فعلاً عند بداية الحرب.

العراق

الجيش

تتوزع مجموع القوات 180000 على 12 فرقة، 41 لواءً مقاتلاً، 14 لواء مدفعية (لواء لكل فرقة، ولواء صواريخ أرض - جو مستقلان). أما الفرق الاثنتا عشرة؛ فهي موزعة على خمس فرق مدرعة (3، 6، 9، 10، 12)، وفرقتين آليتين (1، 5)، وخمس فرق مشاة (2، 4، 7، 8، 11). وتنقسم الألوية المقاتلة على:

- 15 لواء مشاة: الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، الثامن عشر، الثاني والعشرون، الثالث والعشرون، الثامن والعشرون، التاسع والعشرون، السادس والثلاثون، التاسع والثلاثون، الأربعون، المئة والحادي عشر، المئة والثاني عشر، المئة والثالث عشر.

- 8 ألوية آلية: الأول، الثامن، الرابع عشر، الخامس عشر، العشرون، الثالث والعشرون، الرابع والعشرون، والسابع والعشرون.

- 14 لواءً مدرّعاً: السادس، التاسع، العاشر، الثاني عشر، السادس عشر، السابع عشر، الخامس والعشرون، السادس والعشرون، الثالثون، الرابع والثلاثون، الخامس والثلاثون، السابع والثلاثون، الثالث والأربعون، الخامس والأربعون.

- 3 ألوية خاصة: الواحد وثلاثون، الثاني والثلاثون، الثالث والثلاثون.

- 1 لواء مغاوير: الثاني والأربعون.

كلُّ فرقة مدرعة (270 دبابة) يتم دعمها بلواء دفاع أرض - جو متنقل، ولواء مدفعية (مجهز في الميدان 40 مدفعا ذاتي الحركة ونحو 30 منصة إطلاق متعددة الصواريخ)، وكتيبة استطلاع.

وكلُّ فرقة آلية (180 دبابة) وتُدعم بلواء مدفعية يضمُّ نحو 60 قطعة مدفع.

وكلُّ فرقة مشاة يتم دعمها بلواء مدفعية يضم 60 قطعة مدفع، وكتيبة دبابات تتكوّن من

30 دبابة T-54.

وكلُّ لواء آلي يتكوّن من مئة عربة مدرّعة للأشخاص ونحو 30 دبابة T-55.
وكلُّ لواء مدرع يتكوّن من مئة دبابة ونحو 40 عربة مدرّعة لقتال المشاة.

المعدات:

- 1750 : 100 دبابة T-72، T-62 800، T-55 400، T-54 450.
- 550 عربة استطلاع مدرّعة خفيفة: PT-76 150، PT-90، PT-200EE-9، AML-90 / 60.
- 1800 عربة حاملة للأشخاص: BMP-1 200، OT-64 500، OT-62 450، BTR-60 200 و BTR-152 450.
- 1350 قطعة مدفع: 530 مدفعًا ميدانيًا مقطورًا (15-203 ملم، B-4s؛ 40-152 ملم، D-20s؛ 130-250 ملم، M-46S؛ 122-205 ملم، D-30s؛ 105-20؛ 160 ملم، M-101s، مدفع ذاتي الحركة (SU-100s 120 و SU-152s 40)؛ 60 BM-21 منصة إطلاق صواريخ متعددة الأغراض، و 600-120 ملم هاون ثقيل.
- القدرة المضادة للدبابات: AT-3 Sagger، SS-11، Milan، and Hot missiles.
- القوة الصاروخية: 26 منصة إطلاق صواريخ Frog-7، و 18 منصة إطلاق صواريخ Scud-B (الخزين: Frog-7 160، Scud-B 120 صاروخا).

الانتشار:

في الشمال لمواجهة كردستان: الفيلق الأول (مقره في كركوك).
قاطع بنجوين: الفرقة السابعة مشاة: تضم ألوية المشاة 28، 39، 40.
قاطع كركوك: فرقة المشاة الجبلية 11: تضم ألوية المشاة 111، 112، 113.
في الوسط بين قصر شيرين و دزفول: الفيلق الثاني (مقره في بغداد و خانقين).

في مواجهة قصر شيرين:

- الفرقة المدرعة السادسة: وتضم ألوية الدبابات T-62: 16، 25، 30.
- الفرقة الثامنة مشاة: وتضم ألوية المشاة: 3، 22، 23.

في مواجهة سومر:

- الفرقة الرابعة مشاة: تضم ألوية المشاة: 5، 18، 29.
- الفرقة المدرعة الثانية عشرة: تضم اللواء المدرع 15، لواء الدبابات 9 (T-55).
- لواء دبابات الحرس الجمهوري العاشر (T-72).

في مواجهة مهران:

- فرقة المشاة الثانية: تضم ألوية المشاة: 2، 4، 36.
- لواء الدبابات 37 (T-55) ملحق من الفرقة 12 المدرعة.

في الجنوب لمواجهة خوزستان:

- الفيلق الثالث (مقره البصرة).

في مواجهة دزفول:

- الفرقة المدرعة العاشرة: تضم اللواء الآلي 24، وألوية الدبابات 17 و45 (T-52 / T-55)

في مواجهة الشوس:

- الفرقة الآلية الأولى: اللواءان الآليان الأول و27، لواء الدبابات 34 (T-55).

مواجهة أهواز:

- الفرقة المدرعة التاسعة: تضم اللواء الآلي 14، ألوية الدبابات 35 (T-62)، و43 (T-55).

- الفرقة الآلية الخامسة: الألوية الآلية: 20 و23.

في مواجهة خورمشهر:

- الفرقة المدرعة الثالثة: اللواء الآلي 8، ألوية الدبابات 6 و12 (T-62).
- لواء الدبابات 26 (T-55) ملحق من الفرقة الآلية الخامسة.

تعزيزات عامة:

- ألوية القوات الخاصة: 31، 32، 33 في بغداد.
 - لواء المغاوير: 42 المنتشر بين بغداد والكوت.
 - لواء المدفعية 147 المجهز بصواريخ Scud-B البالستية.
 - لواء المدفعية 148 المجهز بصواريخ أرض - جو Frog.
- الجيش الشعبي: تتكوّن قواته من 60 ألف مقاتل وكلّهم من أعضاء حزب البعث، وموزعون على وحدات صغيرة بحجم كتيبة أو سرية ومسلحون بصورة عامة بأسلحة خفيفة. كانت مهمتهم الرئيسة حماية النظام، وحراسة بعض المنشآت العامة، والاحتفاظ بوجود عسكري في البلاد، ومراقبة الجيش النظامي، وتعزيزه في حالة الحرب.
- القوة الجوية: وتتكون من 25 ألف عسكري وبضمنهم كوادر طيران الجيش الملحق بالقوة الجوية. تتوزع القوة الجوية على إحدى عشرة قاعدة جوية، وهي: المطار الدولي ببغداد، 135 ميغ 21 الرشيد (بغداد)، المثنى (بغداد)، الوحدة (البصرة)، الحرية (كركوك)، الوليد (H-3)، أبو عيندة (الكوت)، فرناس (الموصل)، علي بن أبي طالب (الناصرية)، تموز وتكريت (أكاديمية القوة الجوية)، القاعدة الثانية عشرة صدام (شمال العراق بالقرب من الموصل)، والقاعدة الثالثة عشرة البكر (أنشئت إلى الشمال من بغداد بين سامراء وبلد، ودخلت الخدمة في عام 1984).

المعدات:

- 295 طائرة مقاتلة: 54 ميغ-23، 21-ميغ، ميغ-21Rs، 68 SU-20 / 22، 16 SU-7، TU-16 12، TU-16 6، TU-16. هذه المقاتلات مجهزة بصواريخ جو-جو: AA-2 Atoll(all)، AA-8 Aphid(M-23)، Matra R-550 Mig-1 (Mig-21sMF)
- طائرة نقل: 1 AN-26، 2 AN-24، 9 AN-12، 10 AN-12، 3 Falcon 20، TU-124، II-76s (أكثر من 10 AN-2s احتياطي).

- 180 طائرة تدريب: 9 ميغ-23Us، 24 ميغ-21Us، 7 SU-7Us، 2 TU-22Us، 8 Jett Provots، 50L-29 Delphins، 40 Zlins (منتشرة بين بغداد وتكريت بصورة رئيسة).
- 60 طائرة مقاتلة مخزنة في المستودعات: 20 Hunter، 27 ميغ-21، ميغ-17، و 8 IL-28s.

طيران الجيش (ملحق بالقوة الجوية): الأصول:

- 300 هليكوبتر: 42 Alouette IIIs، 39 Gazelles، 10 Super Frelons، 3 Pumas، 18 Mi-24s، 144 Mi-8s (وبضمنها نحو 30 ملحقة بالقواعد الجوية للمهمات لاستعادة الطيارين الذين يهبطون بالمظلة بعد سقوط طائراتهم)، 12 Mi-6s، 32 Mi-4s. نحو 60 من هذه طائرات الهليكوبتر (Alouette III، Gazelle، و Mi-24) تم تجهيزها بقذائف ضد الدبابات.

الدفاعات المضادة للطائرات:

يبلغ مجموع القوة 10 آلاف مقاتل موزعة على تسعة ألوية صواريخ أرض - جو، و26 رادار مراقبة سوفيتي الصنع، ويتم التنسيق مع نظام الجيل الجديد المصنوع من شركة Thomson /CSF الفرنسية.

جدول D-2 انتشار وحدات القتال الجوي العراقية

الموقع	المهمة	الطائرات	السرب
كركوك	هجومية	16 Su-20s	الأول
الموصل	هجومية	18 Su-22s	الخامس
بغداد	التفوق جواً	18 Mig-21F/Ps	السابع
الكوت	هجومية	16 Su-7,7Su-7s*	الثامن
الموصل	التفوق الجوي	18 MiG-21MFs	التاسع
تموز	قاصفة	12 Tu-22s,6Tu-16s,2Tu 22Us	العاشر
بغداد	التفوق جواً	20 MiG-21MFs	الحادي عشر
كوت والبصرة	التفوق جواً	16 MiG-21bis	الرابع عشر
تكريت	التدريب المتقدم	7 MiG-21 Fs,12 Mig-21Us	السابع عشر
بغداد	التدريب المتقدم	12 MiG-21Ps + 12 MiG-21Us + 8 Mi -23Us	السابع والعشرون
الكوت	هجومية	18 MiG-23 BNs	التاسع والعشرون
كركوك	التفوق جواً	16 MiG-21bis	السابع والثلاثون
تموز	اعتراضية	18 MiG-23BNs	التاسع والثلاثون
كركوك	هجومية	16 SU-22s	الرابع والأربعون
كركوك	التفوق جواً	16 MiG-21bis	السابع والأربعون
الناصرية	هجومية	18 MiG-23BNs	التاسع والأربعون
بغداد	التفوق جواً المراقبة	12 MiG-21MFs + 4 MiG- 21 Rs	السبعون
بصرة	هجومية	18 Su-22s	المئة وتسعة

- تم حلُّ السربان الثامن والرابع عشر في عام 1984 وتم إرسال طائرتيهما إلى السكواب.

جدول D-3

انتشار وحدات طائرات النقل للقوة الجوية العراقية (ثلاثة أسراب)

الموقع	الطائرات	السرب
بغداد	1 TU-124, 3 Falcon20s	الثالث
بغداد	10 An-12s, 9An-24s, 2An-26s	الثالث والعشرون
بغداد	6 IL-76s	الثالث والثلاثون

جدول D-4

انتشار طائرات الهليكوبتر المسلحة (ثلاثة أفواج)

الموقع	الطائرات	الوحدة
موصل وكركوك	ALOUETTE III, Gazelle	الفوج الأول
بصرة ورميلة	=====	الفوج الثاني
بغداد	Mi- 24	الفوج الرابع

أصول قوة أرض - جو:

- 5 ألوية ثابتة تغطي قواطع بغداد (145)، تموز (146)، بصرة (148)، أم قصر (149)، وكركوك (195). وتحتوي هذه الألوية على 40 بطارية صواريخ أرض - جو، وهذه تتكوّن من 120 منصة إطلاق صواريخ سام-2، و80 منصة إطلاق صواريخ سام-3.
- 4 ألوية متحركة (155، 175، 162، 185) وتتولّى مسؤولية حماية الفرق المدرعة، وبعض الأماكن الحسّاسة، وتتكوّن من 24 منصة ثلاثية لإطلاق صواريخ سام-6، و36 منصة لإطلاق صواريخ سام-9، و40 أنظمة أسلحة ذاتية الحركة نوع ZSU-23 x4 تحمل برجاً مع رادار موجه بندقية رباعية ذي 23 ملم.
- نحو مئة منصة إطلاق صواريخ سام-7 محمولة و2000 بندقية مقاومة للطائرات للدفاع القريب من القواعد والأهداف الحسّاسة وتتراوح بين 23 إلى 100 ملم (2 x ZSU-23، ZSU-57 x2، M53، Bofors -40، S-60، KS-18، و KS-19).

- البحرية: مجموع القوة: 5000 بحري (بضمنها مشاة البحرية) موزعة على ثلاث قواعد بحرية: بصرة، أم قصر، الفاو.
- الأصول (45 سفينة خفيفة تحمل 5000 طن و1500 قوات بحرية):
- 14 قارباً حاملاً للصواريخ (6 Osa Is، مسجلة R-12 إلى R-17 و Osa IIs - مسجلة R-18 - R-25).
 - 5 Polnocny-class سفن برمائية هجومية (Atika, Ganda, Nouh) كل واحدة قادرة على حمل ثماني عربات مدرّعة خفيفة و350 مشاة بحرياً.
 - 10 P-6 زورق طوربيد.
 - 13 زورق حراسة (4 Kraljevika، 3 So-1s، 4 Zhuks، و 2 Poluchats).
 - 5 كاسحات ألغام (2 T-43S، 3 Evguenias).
 - 4 كتائب مشاة بحرية مسؤولة عن حماية القواعد البحرية.
 - مجموعة ضفادع بحرية واحدة.

الانتشار:

- البصرة: 6 زوارق طوربيد، 3 زوارق مراقبة خفيفة، 3 كاسحات ألغام، كتيبة مشاة بحرية واحدة.
- أم قصر: 14 زورقاً حاملاً للصواريخ، 7 زوارق مراقبة خفيفة، 4 سفن برمائية هجومية، كتيبتا مشاة بحرية، مجموعة ضفادع بحرية واحدة، وكل طائرات الهليكوبتر Super Frelon المجهزة بصواريخ Exocet.
- الفاو: 4 زوارق طوربيد، 3 زوارق مراقبة خفيفة، 2 كاسحات ألغام، كتيبة مشاة بحرية واحدة.

إيران

فيلق الحرس الثوري الاسلامي

مجموع القوّات: 30000 مقاتل موزعين على شكل كتائب وسرايا مجهزة بصورة عامة بأسلحة خفيفة تتولّى مهمات القتال ضدّ الأنشطة المعادية للثورة، ودعم الوجود العسكري في عموم البلاد، ومراقبة الجيش النظامي وتعزيزه في حالة تعرض الأراضي الإيرانية للاعتداء. ويدعم الحرس الثوري مكتبان سياسي وآخر اقتصادي، وينقسم على أربعة فروع مستقلة، هي:

- القيادة المركزية: (حماية طهران)

- قيادات المحافظات.

- مراقبة الحدود.

- التدريب.

الجيش

مجموع القوات: 185000 مقاتل موزع على سبع فرق، 29 لواءً قتاليًا، 5 ألوية مدفعية (11، 22، 33، 44، 55)، 3 أفواج مراقبة واستطلاع. الفرق السبعة تنقسم على ثلاث فرق مدرعة (16، 81، 92)، وثلاث فرق آلية (21، 28، 77)، وفرقة مشاة مجوقلة (64). وتنقسم الألوية القتالية على 13 لواءً مدرّعًا، 9 ألوية آلية، 4 مشاة مجوقلة، لواء مشاة جبلي، لواء قوات خاصة، وآخر مظلي.

تضم كلُّ فرقة مدرعة 360 دبابة مدعومة بلواء مدفعية يحتوي على مئة مدفع ذاتي

الحركة، وفوج استطلاع مزوّد بدبابات Scorpion الخفيفة.

ويضمُّ كلُّ لواء مدرع 120 دبابة ونحو 40 عربة ناقلّة للأشخاص.

ويضمُّ كلُّ لواء آلي نحو 150 عربة مدرّعة ناقلّة للأشخاص.

المعدات:

- 1710 دبابة للقتال الرئيس: Chieftains 850، M-60A1s 460، M-47 400 / (repair tanks 175 + Pattons 48).
- 250 عربة استطلاع مدرّعة خفيفة Scorpion .
- 1650 ناقلة أشخاص مدرّعة: 650 BTR-60s ، M-113s ، و 400 BTR-50s.
- 1100 قطعة مدفع: 454 مدفعًا مقطورًا ميدانيًا (25 ذو 203 ملم M-115s، 150 ذو 155 ملم M-114s، و 370 ذو 105 ملم 485، (M-101s مدفعًا ذاتي الحركة (25 ذو 203 ملم M-110S، 60 ذو 175 ملم M107s، و 400 ذو 155 ملم M-109s)، 70 122 ملم BM-21 منصة صواريخ متعدّدة الأغراض.
- القوّة المضادة للدبابات: صواريخ TOW و Dragon .

الانتشار:

في طهران:

- الفرقة الآلية 21: الألوية الآلية 1، 2، 3، 4، (BTR-60).
- اللواء الجبلي للمشاة 15.
- لواء قوات خاصة 23.

في قزوين:

- الفرقة المدرعة 16.

في شيراز:

- لواء الدبابات (M-48) 15.
- اللواء المظلي 55.

في قاطع كردستان: لمواجهة العراق وتركيا:

- الفرقة الآلية 28: لواء الدبابات (M-48) الأول، اللواءان الثاني والثالث الآليان (M-113).

- فرقة المشاة الجوقلة: ألوية المشاة الأول والثاني والثالث.
في قاطع كرمنشاه: لمواجهة العراق:
- الفرقة المدرعة 81: ألوية الدبابات الأول والثاني والثالث Chieftain في كرمنشاه.
- اللواء الآلي 84: (M-113) في خورم آباد.
- لواء الطيران المسلح الأول (كوبرا) في كرمنشاه.
- كتيبة آلية واحدة (ملحقة من الفرقة الآلية 77) في مهران.
في محافظة خوزستان:
- الفرقة المدرعة 22: ألوية الدبابات الأول والثاني والثالث Chieftain.
- الكتائب الآلية للمشاة 138 و 141 وملحقة من الفرقة الآلية 21.
- كتيبة التحصينات للدفاع عن مدينة خورمشهر، يتم تعزيزها بكتيبة المشاة البحرية.
- كتيبتان للدبابات ملحقة من لواءي الدبابات 37 و 88.
- لواء المدفعية 22 و 55.
- كتيبة من لواء الطيران المسلح في شيراز (كوبرا).
- في الشمال الشرقي لمواجهة الاتحاد السوفيتي وأفغانستان:
- الفرقة الآلية 77: لواء الدبابات الأول (M-47)، الألوية الآلية الثاني والثالث (BTR-50).
- لواء المشاة المجوقل (BTR-60).
- في زاهدان: لمواجهة أفغانستان وباكستان:
- لواء الدبابات 88 (Chieftain).
- الدفاعات المضادة للطائرات (ملحقة من الجيش)
- القدرة على الرصد: شبكة رادار للمراقبة والالتقاط حديثة أمريكية الصنع طراز Westinhouse AN /TPS-43، وأخرى بريطانية الصنع طراز Marconi S-330 و S-404 تدار من مركز العمليات الجوية بطهران.

قوة الصواريخ أرض - جو:

- 16 كتيبة للدفاع مضادة للطائرات ذات بطارية رباعية تضم:
- 37 بطارية صواريخ هوك (طويلة المدى)، كل واحدة تحتوي على منصة ثلاثية (12 صاروخًا لكل بطارية) [مجموعها 1800 صاروخ هوك].
- 20 بطارية متحركة لصواريخ Rapier (قصيرة المدى) كلُّ واحدة ثلاث منصات رباعية (12 صاروخًا لكل بطارية) [مجموعها 800 صاروخ Rapier].
- 7 بطاريات ثابتة لصواريخ Tigercat (قصيرة المدى)، كل واحدة تحتوي على ثلاث منصات إطلاق ثلاثية (أي تسع صواريخ لكل بطارية) [المجموع 400 صاروخ Tigercat].
- 600 مدفع ثابت ومتحرك مضاد للطائرات: (ZSU23×2، ZSU23 ×4، Oerlikon-35×2، Bofors-40، ZSU-57 × 2).

طيران الجيش (ملحق بالجيش)

الاصول:

- 56 طائرة: Cessna 185 Skywagon 40، Cessna O-2 Skymasters 10، و Cessna 310s 6.
- 730 طائرة هليكوبتر: 200 طائرة كوبرا AH-1 للقتال المضاد للدبابات، 142 طائرة AB-205s 44، AB-206s 44، Bell-214s 260، CH-47 84.

Chinooks

هذه الطائرات موزعة بين لواءي طيران الجيش الأول والثاني المنتشرين في كرمشاه وشيراز وفي عدة كتائب مستقلة ترابط مع الحاميات العسكرية الرئيسة. كان ربع طائرات CH-47 Chinook وثلث طائرات الهليكوبتر الأخرى في الخدمة فعلاً عند اندلاع النزاع (240 طائرة تقريباً).

القوة الجوية

مجموع القوات: 50000 مقاتل (مقابل 750 ألفاً في زمن الشاه) موزعة على تسع قواعد جوية: طهران (مهراباد)، تبريز، همدان (نوجه)، دزفول (وحدتي)، بوشهر، شيراز، أصفهان، بندر عباس، وشاه بهار. القاعدة العاشرة (اوميدية) الواقعة بالقرب من بندر خميني والقريبة من الحدود العراقية دخلت الخدمة في العام 1981؛ لكي تأوي الجناح الخامس. وهناك سبعة مهابط بطول 9800 قدم (3000م) لكل منها يمكنها استقبال بعض الكتائب الجوية، وهي: عبادان، أهواز، جاسك، كرمشاه، منذرية، مشهد، زاهدان.

المعدات:

- 421 طائرة قتالية: 77 F-14A Tomcat، 178 F-4 D /E Phantoms، 140 Orions P-3 6، RF-4Es 20، F-5th /F Tiger ILs .. كان نصف عدد هذه الطائرات في الخدمة عند اندلاع النزاع. كانت الطائرات المقاتلة مجهزة بصواريخ جو - جو نوع AIM-9 E /J Sidewinder، AIM-7E Sparrow، AIM-54 Phoenix، وثلاثا هذه الصواريخ كانت في المستودعات.
- 105 طائرة نقل: C-130E /Hs 56 (أربع منها فقط مؤهلة للحرب الإلكترونية) Boeing 707s 14، Fokker F-27s 18 (ثمان من نوع KC-135 تقوم بمهام إعادة التزود بالوقود بالجو، واثنان لمهام الحرب الإلكترونية)، Boeing 11-747s (ثلاث منها تقوم بمهام إعادة التزود بالوقود في الجو)، Falcon-20s 3، Falcon-50 1، Jet Stars 2.
- 70 طائرة هليكوبتر: AB-205s 18، AB-206s 10، CH-47 Chinooks 2 و Bell-214s 40 مخصصة في القواعد الجوية للطيارين الذين يقومون بمهام الإنقاذ.
- 48 طائرة تدريب (Beech Bonanza F-33).
- 24 طائرة قتالية في المستودعات (F-5A /B).

البحرية

- مجموع القوات: 25000 (بضمنها مشاة البحرية) تتوزع على أربع قواعد بحرية: بندر عباس، بوشهر، خارج، وخورمشهر. والقاعدة الخامسة تقع على بحر قزوين (رشت) تُستخدم أكاديمية بحرية ولا تأوي أية سفن قتالية. أمّا القاعدة السادسة (بندر شابهار)؛ فقد بُنيت على خليج عمان ولا تبعد كثيرًا عن الحدود مع باكستان.
- الأصول: (61 سفينة يبلغ مجموع حمولتها 55 ألف طن، ولديها 35 طائرة هليكوبتر).
- 3 مدمرات (Battle 1، Allen Summer 2): Babr, Palang, Damavand
 - 4 فرقاطات حاملة للصواريخ Vosper Mk-5: الوند، البرز، سابلان، سهند.
 - 4 طرادات PF-103: Bayandor, Naghdi, Milanian, Kahnnavie .
 - 9 زوارق حاملة للصواريخ Combattante II: Kaman, Zoubin, Khadang,
 - Paykan, Joshan, Falakhan, Shamshir, Gorz, Gardouneh
 - 5 سفن برمائية هجومية (LST) كلٌ واحدة قادرة على حمل عشر عربات مدرعة و180 جندي مشاة. وهي: Iran Ajr, Hengham, Tomb, Larak, Lavan.
 - 14 طائرة مائية (SRN-7s K 8، و BH-7s 6) كلٌ واحدة تستطيع حمل 60 جندي مشاة.
 - 7 زوارق مراقبة (4Capes و PGM-71s 3).
 - 5 كاسحات ألغام.
 - 4 سفن للشحن.
 - 3 محطات لتجديد الزيوت: بندر عباس، بوشهر، وخارج.
 - 3 سفن للوسائل السوقية: Delvar, Charak , Chiroo.
 - 35 طائرة هليكوبتر: SH-3 Sea King 14، AB-212s 14، 7RH-53 Sea Stallion
 - مضادة للغواصات (وترابط في بندر عباس بصورة رئيسة).
 - 3 كتائب مشاة بحرية (1500 قوات بحرية).

جدول D-5
انتشار الطائرات المقاتلة للقوة الجوية الإيرانية (23 جناحًا)

المهمة	الطائرات	السرب
		الجناح الأول (طهران-مهراباد)
استطلاع	RF-4Es, 14 RF-5As 8	الحادي عشر
تفوق جوي / قاصفة	F-4Es 24	الثاني عشر
تفوق جوي / قاصفة	F-4Es 24	الثالث عشر
		الجناح الثاني (تبريز)
دعم تكتيكي	F-5E/Fs 20	الحادي والعشرون
دعم تكتيكي	F-5E/Fs 20	الثاني والعشرون
دعم تكتيكي	F-5E/Fs 20	الثالث والعشرون
		الجناح الثالث (همدان-نوجه)
تفوق جوي / استطلاع	F-4Es, 8RF-4Es 16	الواحد والثلاثون
تفوق جوي / قاصفة	F-4Es, 8RF-4Es 16	الثاني والثلاثون
تفوق جوي / قاصفة	F-4Es, 8RF-4Es 16	الثالث والثلاثون
		الجناح الرابع (دزفول-وحدتي)
دعم تكتيكي	F-5E/Fs 20	الواحد والأربعون
دعم تكتيكي	F-5E/Fs 20	الثاني والأربعون
إسناد / تدريب	F-5E/Fs 24	الثالث والأربعون
		الجناح السادس (بوشهر)
تفوق جوي / قاصفة	F-4Es 20	الواحد والستون
تفوق جوي / قاصفة	20F-4Es, RF-4Es	الثاني والستون
		الجناح السابع (شيراز)
الهجوم في العمق	F-4Ds 16	الواحد والسبعون
اعتراضية	F-14 As 19	الثاني والسبعون
اعتراضية	F-14 As 19	الثالث والسبعون

المهمة	الطائرات	السرب
		الجناح الثامن (أصفهان)
اعتراضية	F-14As 20	الواحد والثمانون
اعتراضية	F-14As 19	الثاني والثمانون
		الجناح التاسع (بندر عباس)
التفوق الجوي / قاصفة	F-4 Es 12	الواحد والتسعون
القتال المضاد للسفن	P-3F Orions 6	الثاني والتسعون
		الجناح العاشر (شاه بهار كانجان)
التفوق الجوي / التدريب	F-4Ds 14	المئة وواحد
إسناد تكتيكي	F-5E/ Fs 16	المائة واثنان

جدول D-6

انتشار طائرات النقل للقوة الجوية الإيرانية (سبعة أسراب)

الموقع	الطائرات	السرب
طهران	C-130s 12	الحادي عشر
طهران	C-130 s 16	الثاني عشر
طهران	Boeing 707s, 8KC135s, 11Boeing 747s 6	الثالث عشر
طهران	(1Falcon 50s, 3Falcon20s, 2 Jet Stars (VIP	الرابع عشر
طهران	Fokker F-27s 18	الخامس عشر
شيراز	C-130s 14	الواحد والسبعون
شيراز	C-130s 14	الثاني والسبعون

الانتشار:

بندر عباس: 3 مدمرات (Babr, Palang, Damavand)، 4 فرقاطات حاملة للصواريخ

(Alvand, Alborz, Sabalan, Sahand)، 5 سفن برمائية (Iran Ajr, Hengham, Tomb,)

(Larak, Lavan)، 5 كاسحات ألغام، زورقا مراقبة، 4 سفن شحن، 3 ناقلات نפט، سفيتان للعمليات اللوجستية، وكتيبة مشاة بحريتان.

بوشهر: 4 طرادات (Bayandor, Naghdi, Milanian, Kahnāmviē)، 6 زوارق حاملة للصواريخ (Kaman, Khadang, Falakon, Shamsir, Gorz, Gardouneh)، زورقا مراقبة، 8 طائرات بحرية، سفينة واحدة للعمليات اللوجستية.

خارج: 3 زوارق حاملة للصواريخ، (Zoubin, Paykan, Joshan)، زورق مراقبة، 3 طائرات بحرية، وكتيبة مشاة بحرية.

خورمشهر: زورقا مراقبة، 3 طائرات بحرية، وكتيبة مشاة بحرية واحدة.

التعزيزات لدى طرفي النزاع (1981-1988)

العراق

الجيش

القوة العسكرية: ازدادت القوات من 180 ألفاً في العام 1981 إلى 540 ألفاً في العام 1988، أي بمعدل يبلغ 45 ألفاً كل سنة. وتتضمن هذه القوات مجموعات من المتطوعين الأجانب وعددهم نحو 25 ألف متطوع (12 ألف مصري، 8 آلاف أردني، 5 آلاف من مواطني دول عربية أخرى). أمّا الجيش النظامي؛ فقد تم تعزيزه بالجيش الشعبي الذي ازداد عدده من 60 ألفاً في العام 1980 إلى 650 ألفاً في العام 1988، أي بزيادة قدرها 75 ألفاً في السنة. وثلاث الجيش الشعبي أرسل إلى الجبهة بصورة دائمة ودورية، وبشكل رئيس مع فرق المشاة التي تشكل القاعدة الأساسية للقوات، وألوية الحراسة الحدودية، وألوية التدريب. وبصورة عامة فإن الجيش النظامي والجيش الشعبي يمكنهما حشد 750 ألف مقاتل كحد أقصى على الجبهة في العام 1988.

الوحدات:

5 فيالق عسكرية وأربعون فرقة: 34 نظامية (33 مشاة وواحدة مدرعة)، وست فرق للحرس الجمهوري (فرقتان مدرعتان، فرقة ميكانيكية واحدة، ثلاث فرق مشاة آلية).

- 1981: الفيلق الرابع (مقره في العمارة): يضم فرق المشاة 14، 15، 16؛ ثلاثة ألوية تدريب 20 لواء حرس حدود (من الرقم 101 إلى 120، وينتشرون على الحدود المواجهة مع العربية السعودية والكويت وسوريا وتركيا وكردستان الإيرانية).
- 1982: الفرقة السابعة عشرة المدرعة المجهزة بدبابات Chieftain Scorpion Patton التي تم الاستيلاء عليها من الجيش الإيراني؛ فرق المشاة 18، 19، 20؛ لواء القوات الخاصة 64. حل الفرقة التاسعة المدرعة (بعد معركة خورمشهر).
- 1983: الفيلق الخامس (مقره في جنوب البصرة): يضم فرق المشاة 21، 22، 23، 24؛ اللواء الأول الآلي مشاة حرس جمهوري؛ اللواء الثاني المدرع حرس جمهوري؛ اللواء قوات خاصة 65؛ وثلاثة ألوية تدريب إضافية.
- 1984: الفيلق السادس (مقره في شمال البصرة): يضم فرق المشاة 25، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 32. تشكيل الفرقة المدرعة حرس جمهوري "حمورابي" المجهزة بدبابات T-72، ومدافع الهاوتزر ذاتي الدفع AUF-1، وتجميع ألوية المشاة الآلي الأول مع اللوائين الثاني والعاشر المدرعين حرس جمهوري. وجمع الكتائب البحرية للمشاة في لوائين بحريين للمشاة (440 و 441). لواء قوات خاصة 66.
- 1985: تجميع ثلاثة ألوية المغاوير في فرقة آلية قوات خاصة حرس جمهوري. فرق المشاة 33-39؛ تجهيز لواء المدفعية 224 بصواريخ Scud-B البالستية، ثم بصواريخ الحسين البالستية في العام 1988.
- 1986: تشكيل مقر لفيلق الحرس الجمهوري في بغداد للسيطرة على فرق الحرس فضلاً عن السيطرة على ألوية صواريخ أرض - أرض 147 و 148 و 224. كما يضم فرق المشاة 40-44.
- 1987: الفرقة المدرعة "المدينة المنورة" للدبابات (T-72) حرس الجمهوري. فرقة "بغداد" للمشاة حرس جمهوري (في العاصمة)، وفرق المشاة 45، 46، و 50.
- 1988: الفرقة الميكانيكية "نبوخذ نصر" حرس جمهوري.

المعدات: 3250 دبابة معركة: T-72s 500 تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي؛
T-55s 500 و T-62s 500 تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي وبولندا ورومانيا؛ T-59s 1000
(T-55) و T-69s 500 (T-62) تم تسلمها من الصين؛ T-55s 250 تم تسلمها من مصر؛
وعدد قليل دبابات AMX-30s تم تسلمها من فرنسا.

- 500 عربة خفيفة مدرعة للمراقبة والاستطلاع: OT-65s 150 (BRDM-1)
تم تسلمها من هنغاريا، BRDM-2s 100 تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي،
Panhard UTM 100، "Hot" 800 تم تسلمها من فرنسا، SK-105 100
Kurassiers تم تسلمها من النمسا، و EE-3 Jararacas 50 تم تسلمها من
البرازيل.

- 3000 عربة مدرعة ناقلة للأشخاص: EE-11 Urutus 1600 تم تسلمها من
البرازيل؛ BMP-1s 800 تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي ورومانيا؛ 400
OT-62s و OT-64s تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي وتشسلوفاكيا؛
100AMX-10Ps تم تسلمها من فرنسا؛ 100 MOWAG Rolands تم تسلمها
من سويسرا.

- 1500 قطعة مدفوع: 900 مدفع ميداني مسحوب (300 ذات 120 ملم D-30s تم
تسلمها من الاتحاد السوفيتي، بولندا، رومانيا، ويوغسلافيا؛ 300 ذات 130 ملم
نوع 59s - نسخة من M-46 تم تسلمها من الصين؛ 100 ذات 155 ملم G-58
تم تسلمها من جنوب إفريقيا؛ و 200 ذات 155 ملم GHN-45s تم تسلمها من
كندا والنمسا)، 180 مدفعا ذاتي الحركة (80 ذات 155 ملم GCT-AUF1s تم
تسلمها من فرنسا، 70 122 ملم 2S1s و 30 ذات 152 ملم 2S3s تم تسلمها من
الاتحاد السوفيتي)، 120 منصة صواريخ متعددة الأغراض (60 ذات 127 ملم
30 ASTROS IIs ذات 180 ملم ASTROS SS-40s، و 30 ذات 300 ملم
ASTROS-60s التي تم تسلمها من البرازيل) و 300 ذات 120 ملم و 160 ملم
مدفع ثقيل تم تسلمها من يوغسلافيا.

- القوة المضادة للدبابات: تسلم عدة آلاف من صواريخ Sagger & Spigot من الاتحاد السوفيتي. وتسلم عدة آلاف من صواريخ Milan & Hot من فرنسا.
- القوة الصاروخية: تسلم 18 منصة إطلاق صواريخ Scud-B البالستية، و400 صاروخ من الاتحاد السوفيتي منذ بداية عام 1985 (ونصفها حولها العراقيون إلى صواريخ الحسين بمديات أطول ولكن بأحمال خفيفة).

القوة الجوية

- مجموع القوة: ازداد عددها من 25 ألفاً في عام 1980 إلى 40 ألفاً في 1988.
- الوحدات: (15 سرباً قتالياً جديداً وثلاثة أجنحة هلكوبتر جديدة):
- 1981: السرب 79 المقاتل تم تجهيزه بطائرات ميراج F-1EQs. السرب 87 المتفوق جواً تم تجهيزه بطائرات ميغ-25 Ps.
- 1982: السرب 79 للمراقبة والاستطلاع تم تجهيزه بطائرات ميغ-25 Rs. جناح الهلكوبتر الثالث تم تجهيزه بطائرات BO-105s, "Hot", Gazelles, Puma.
- 1983: السرب الهجومى 91 المجهز بطائرات ميراج F-1EQs. السرب الهجومى المجهز بطائرات ميغ-23 BNs.
- 1984: السرب المقاتل 63 المجهز بطائرات ميغ-23 MLs. السرب الهجومى 69 المجهز بطائرات SU-22Ms. السرب الهجومى 81 المجهز بطائرات Super Etendard ثم ميراج F-1EQs. السرب 107 المجهز بطائرات Turbo Trainer PC-7 والمخصصة للحرب الكيماوية. الجناح الرابع هلكوبتر المجهز بطائرات BO-105s, Mi-24s, Mi-17s.
- 1985: السرب المقاتل 73 المجهز بطائرات ميغ-23 MLs.
- 1986: السرب 96 للطائرات المتفوقة جواً المجهز بطائرات ميغ-25 Ps. السرب الهجومى 115 المجهز بطائرات SU-25s.
- 1987: السرب الهجومى 116 المجهز بطائرات SU-25s. الجناح الخامس لطائرات الهلكوبتر BO-105s و Hughes 300 / 500 / 530s.

1988: السرب الهجومي 114 المجهز بطائرات SU-25s. السرب السادس المقاتل

المجهز بطائرات ميغ-29.

المعدات:

- 40 طائرة مقاتلة: 97 ميراج 15B (F-1EQs معدة للتدريب)، و 24 ميراج F-1EQs (مجهزة لإطلاق صواريخ Exocet) التي تم تسلمها من فرنسا؛ Super Etendard 5 مؤجرة من فرنسا للمدة 1983-1985؛ 30 ميغ-21bis، 86 ميغ-23 (18BN منجزة للهجوم الأرضي و 68 MF/ML اعتراضية)، 40 ميغ-25 (24 نوع P لاعتراض الطائرات، و 16 R للمراقبة والاستطلاع)، 54 SU-22Ms، 54 SU-25s، 15 ميغ-29 تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي؛ 30 F-7s (ميغ-21) و 4 H-6Ds (النسخة الصينية من طائرة TU-16 المجهزة لإطلاق الصواريخ المضادة للسفن نوع C-601) تم تسلمها من الصين من طريق مصر). وأغلبية هذه الطائرات مسلحة بجيل جديد من صواريخ جو-جو: AA-6 Acrid، (ميراج F-1)، Matra Super 530، R-550 Magic-1 (ميراج-25)، AA-7 Apex (ميغ-23)، AA-11 Archer (ميغ-29).
- 260 طائرة هليكوبتر: 40 "Hot Gazelles"، 10 Pumas، 6 Super "Exocet"، Frelons تم تسلمها من فرنسا، 18 Mi-17s، و 40 Mi-24/25s تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي، 60BO-105s تم تسلمها من ألمانيا من طريق إسبانيا، 30 Hughes-300 و 30Hughes500/530 تم تسلمها من الولايات المتحدة الأمريكية.
- 162 طائرة. تدريب: 16 MBB-223 Flamingos تم تسلمها من ألمانيا، 48 AS-202s تم تسلمها من إيطاليا، 24L-29s تم تسلمها من تشكسلوفاكيا، 50 PC-7 Turbo Trainers تم تسلمها من سويسرا، 24 EMB-312 Tucanos تم تسلمها من البرازيل.

- 19 طائرة نقل: 2 TU-124s ، 10IL-76s تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي، Lockheed L-100s 6 (وهي نسخة مدنية من C-130) تم تسلمها من الولايات المتحدة الأمريكية، طائرة واحدة Falcon-50 (سابقا إيرانية).

الدفاعات الجوية المضادة

- مجموع القوة: ازدادت من 10 آلاف في عام 1980 إلى 15 ألفاً في عام 1988.
- المعدات: تسلم 400 مدفع مضاد للطائرات ذي 57 ملم نوع S-60 من هنغاريا. إعادة تجهيز صواريخ SAM-2 /3 /6 /7 /9 من الاتحاد السوفيتي وبلدان الكتلة الشرقية.
- و60 نظام "Ronland" و20 نظام "CROTALE" من فرنسا.
- تسلم صواريخ SAM-13 /14s من الاتحاد السوفيتي بدءاً من عام 1988.

البحرية

- مجموع القوة: 5000 مقاتل على الدوام.
- السفن (11 سفينة خفيفة):
- 1981: 3 كاسحات ألغام Nestin تم تسلمها من يوغسلافيا.
- 1982: فرقاطة تدريب واحدة (ابن ماجد) تم تسلمها من يوغسلافيا.
- 1982-1984: 4 زوارق حاملة للصواريخ OSA II، زورقاً طوربيد P-6، سفينة برمائية هجومية Polnocny-class LSM تم تسلمها من الاتحاد السوفيتي.
- 11 سفينة حربية تم شراؤها من البحرية العراقية من إيطاليا عند بداية الحرب ولكن تم التحفظ عليها في الموانئ الإيطالية؛ بسبب الحظر المفروض على العراق خلال فترة الحرب.
- 4 فرقاطات حاملة للصواريخ نوع Lupu (حطين، ذي قار، القادسية، واليرموك).
- 4 طرادات حاملة للصواريخ نوع Assad (موسى بن نصير، طارق بن زياد، عبد الله بن ابي سرح، خالد بن الوليد، سعد بن أبي وقاص، صلاح الدين الأيوبي).

- سفينة التزود بالوقود (أجنادين).
- الدفاع الساحلي: تسلّم بطاريات صواريخ سلكورم CSSC-2 مضادّة للسفن من الصين ابتداءً من عام 1982.

إيران

الجيش (وبضمنه طيران الجيش والدفاعات المضادة للطائرات) مجموع القوة: ازدادت من 185 ألف مقاتل في عام 1980 إلى 280 ألفاً في عام 1988، أي أكثر بقليل من 10 آلاف في السنة، ومن سبع فرق إلى 16 فرقة. الوحدات:

1981: تحويل اللواء المدرع 88 إلى الفرقة المدرعة 88 مجهزة بدبابات Chieften ثم T-55, T-62 تم تسلّمها من ليبيا.

- تحويل اللواء الميكانيكي 84 إلى الفرقة الميكانيكية 84 المزودة بالمعدات السوفيتية التي تم الاستيلاء عليها من الجيش العراقي.

1982: تشكيل أربعة مقرات مسؤولة عن قواطع الجبهة في مناطق كردستان، خوزستان، قصر شيرين ومهران.

- تشكيل ثلاث فرق مشاة 30، 40، 58.

- تحويل اللواء الآلي مشاة 30 إلى الفرقة المدرعة 30 التي جُهّزت بدبابات T-59 التي تم تسلّمها من كوريا الشمالية (تحت إشراف الحرس الثوري الإسلامي).

1983: تحويل اللواء قوات خاصة 23 إلى فرقة المغاوير رقم 30.

1984: تحويل لواء المدفعية 11 إلى الفرقة المدفعية بالرقم نفسه.

1985: تحويل اللواء المظلي 55 إلى الفرقة المظلية بالرقم نفسه.

- تحويل لواء المدفعية 22 إلى الفرقة المدفعية بالرقم نفسه.

1986: تحويل لواء المدفعية 33 إلى الفرقة المدفعية بالرقم نفسه. (تحت إشراف

الحرس الثوري الإسلامي).

1987: تحويل لواء المدفعية 44 إلى الفرقة المدفعية بالرقم نفسه (تحت إشراف الحرس الثوري الإسلامي).

1988: تحويل لواء المدفعية 55 إلى الفرقة المدفعية بالرقم نفسه. (تحت إشراف الحرس الثوري الإسلامي).

ونظرًا لعدم توافر أرقام دقيقة عن عدد الدبابات والعربات المدرعة، فقد تم تحويل عدة فرق ميكانيكية إلى فرق مشاة.

المعدات: انظر الفقرات التالية المتعلقة بالحرس الثوري الإسلامي؛ لأنَّ أغلبية المعدات المجهزة قد تم تسلمها من قبل ذلك الحرس.

فيلق الحرس الثوري الإسلامي

مجموع القوة: ازدادت هذه القوة من 30 ألفًا في عام 1980 إلى 700 ألف في عام 1988، ثم انخفضت بشكل طفيف في عام 1988 إلى 600 ألف، أي أكثر من مئة ألف بقليل كلَّ عام. كان نصف قوة الباسدران الذي يخدم في الجبهة (وبالتناوب) ضمن وحدات ملحقة بالحرس الثوري الإسلامي. وكان يتم تعزيز قوات الحرس الثوري الإسلامي بفصائل الباسيج (الحشد) التي كانت تجند الشباب بأعمار تتراوح بين اثنتي عشرة وسبع عشرة سنة وبالغين من دون تكليفهم واجبات عسكرية. كان لدى هذه الفصائل مقاتلون شباب بلغ عددهم 600 ألف عند بدء عام 1986 ثلثهم كحدِّ أقصى كان ضمن فرق الحرس الثوري الإسلامي يخدم وبالتناوب لفترة قصيرة (شهرين إلى ثلاثة أشهر)؛ للمشاركة في الهجمات الكبيرة.

الوحدات: (32 فرقة، بضمنها ثلاثة مدفعية):

1981: 4 فرق مشاة (5،7،8،9).

1982: تشكيل وزارة الحرس الثوري الإسلامي.

- 9 فرق مشاة (11، 12، 15، 17، 18، 19، 25، 27، 29)

- الفرقة المدرعة 30 المجهزة بدبابات T-50 (من الجيش النظامي).

1983: 4 فرق مشاة (31، 34، 36، 37).

- 1984: 4 فرق مشاة (48،52،57،59).
- اللواء الهجومى المشاة العاشر "سيد الشهداء".
 - 1985: الفرقة الميكانيكية 14 المجهزة بدبابات T-69.
 - فرقتا مشاة (66، 71).
 - لواء "رمضان" المدرع 20 المجهز بدبابات T-69.
 - لواء المدفعية 35 المجهز بصواريخ Scud-B البالستية (تم تسلّمها من ليبيا ثم كوريا الشمالية).
 - تشكيل قيادة بحرية وقوة مدفعية ضمن الحرس الثوري الإسلامي.
 - 1986: فرقتان للمشاة (75، 82).
 - الفرقة الممهدة الهجومية 41 مع لواءين مدرعين (38، 72).
 - الفرقة المدفعية 33 (الملحقة من الجيش النظامي).
 - 3 ألوية مشاة بحرية (1-3) تم تشكيلها من تحويل ثلاث كتائب بحرية مشاة (ملحقة من البحرية).
 - لواء الصواريخ سلكورم المضاد للسفن.
 - 1987: لواء المشاة 91.
 - الفرقة المدفعية 44 (ملحقة من الجيش النظامي).
 - 1988: الفرقة المدفعية 55 (ملحقة من الجيش النظامي).
- فرق مشاة الحرس الثوري الإسلامي 27 سُميت بالأسماء والأرقام: 5 نصر، 7 والعصر، 8 نجف، 9 بدر، 11 مؤمنين، 12 قائم، 14 حسين، 15 حسن، 17 أبو طالب، 18 غدیر، 19 فجر، 25 كربلاء، 27 رسول الله، 29 أكرم، 31 عاشوراء، 34 سجاد، 36 أنصار، 37 نور، 48 فتح، 52 القدس، 57 أبو الفضل، عقيل 59، ولي الأمر 66، روح الله 71، جعفر 82، صاحب الأمر وبقية الله 92. ومنذ بداية عام 1984 تم تجميع هذه الفرق تدريجياً في فيلق الجيش التاسع تحت أسماء: "بدر، نجف، كربلاء، رمضان، القدس، فتح، حمزة، نور، جعفر".

المعدات:

- 850 دبابة معارك رئيسة: T-55 100، T-62 100، T-72 100 تم تسلمها من ليبيا، T-62 100، T-55 تم تسلمها من بلغاريا؛ و300 T-59s (T-55) و150 T-69 (T-62) تم تسلمها من الصين وكوريا الشمالية.
- EE-9 Cascaval 180 حربة مدرعة خفيفة للمراقبة والاستطلاع تم تسلمها من البرازيل.
- 630 حربة مدرعة للأشخاص: BTR-60s 50 تم تسلمها من بلغاريا، BTR-60s 100 و BMP-1s 180 تم تسلمها من ليبيا، و EE-11 Urutus 300 تم تسلمها من البرازيل.
- 470 قطعة مدفع: 410 مدفعا مقطورا (40 ذات 105 ملم Oto Melaras - بترخيص من شركة NORENCO الصينية و150 ذات 130 ملم Type-59s وهو نسخة صينية من M-46 تم تسلمها من كوريا الشمالية، 50 ذات 155 ملم Soltam M-71s تم تسلمها من إسرائيل، 30 ذات 155 ملم G-5s تم تسلمها من جنوب إفريقيا، و140 ذات 155 ملم GHN-45s تم تسلمها من النمسا، 60 منصة إطلاق صواريخ متنوعة الأغراض (20 ذات 107 ملم Typt-63s و 40 ذات 122 ملم BM-11s) تم تسلمها من كوريا الشمالية.
- 3000 هاون ذات 107 و120 ملم تم تسلمها من الصين وكوريا الشمالية.
- 100 زورق مراقبة خفيف بُنيت في إيران (MIG-G/S 30) تم تسلمها من الصين (CAT-14s 10)، كوريا الشمالية (18s /IPS-16 20)، ومن السويد (BOG-hamas 40). كل هذه الزوارق مسلحة إما بمدفع خفيف أو ببندقية آلية، 2 طوربيدو أنبوبي، ومنصة واحدة لإطلاق الصواريخ.
- القوة المضادة للدبابات: تسلم صواريخ RPG-7 و AT-3 Sagger من ليبيا وسوريا وبلغاريا. إعادة تجهيز صواريخ TOW من إسرائيل وكوريا الجنوبية والولايات المتحدة.

- القوة المضادة للطائرات: إعادة تجهيز صواريخ Hawk من إسرائيل، كوريا الجنوبية، والولايات المتحدة. تسلم صواريخ SAM-2/3s من الصين، وصواريخ SAM-7s المحمولة من الاتحاد السوفيتي، بلغاريا، كوريا الشمالية، سوريا وليبيا. تسلم 300 صاروخ RBS-70 أرض-جو محمول من السويد.
- القوة الصاروخية الباليستية: تسلم 6 منصات لإطلاق صواريخ أرض-أرض Scud-B من ليبيا، مع تجهيز 26 صاروخاً في عام 1985. وصنعت إيران 300 صاروخ (Frog-7) (Ogab) وبمساعدة كوريا الشمالية في عام 1986. تسلم 100 صاروخ (Scud-B) (Hwasong-5) من كوريا الشمالية في عام 1987.
- القوة المضادة للسفن: تسلم بطاريات صواريخ سلكورم CSSC-2 المضادة للسفن من الصين في بداية عام 1986.

القوة الجوية

- مجموع القوة: تقلصت من 50 ألفاً في عام 1980 إلى 35 ألفاً في عام 1988.
- الوحدات: الجناح الخامس ويضم الأسراب 51-53 في قاعدة Omidiyeh ومجهز بالطائرات F-5A/B المخزونة منذ عام 1981، ثم F-6 منذ بدء عام 1983، وبمقاتلات F-7 منذ بداية عام 1987 التي لم تشتبك بالقتال.

المعدات:

- 104 طائرة قتالية: 12 F-4Ds تم تسلمها من كوريا الجنوبية، 12 F-5A/Es تم تسلمها من أثيوبيا، 20 F-6s (Mig-19)، و 60 F-7s (MIG-21) تم تسلمها من الصين.
- 24 طائرة CH-47 شينوك هلكوبتر تم تسلمها من إيطاليا.
- 15 طائرة PC-6 Turbo Porter للخدمات تم تسلمها من سويسرا.
- 45 طائرة PC-7 Trainer للتدريب تم تسلمها من سويسرا.

البحرية

- مجموع القوة: تقلصت من 25 ألفاً في عام 1980 إلى 15 ألفاً في عام 1988.

الوحدات:

تحويل ثلاث كتائب مشاة بحرية في بداية عام 1986 إلى ثلاث ألوية مشاة بحرية التي وُضعت تحت إشراف الحرس الثوري الإسلامي.

السفن (8 سفن خفيفة و4 سفن للعمليات اللوجستية):

1981: 5 زوارق قتالية Combattente II تنتظر تسلمها من فرنسا عند اندلاع الثورة

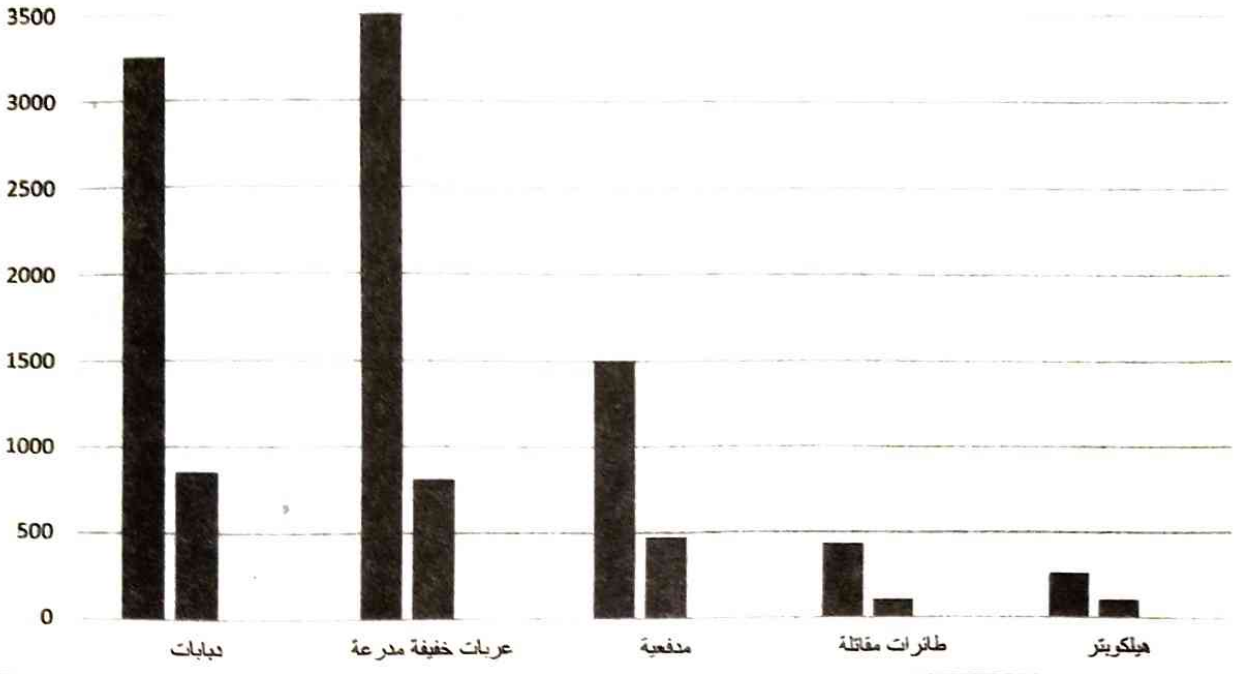
الإسلامية (Khanjar, Neyzeh, Tabarzin, Derafsh, Kalat)، وسفینتان للأعمال اللوجستية تم تسلمها من باكستان (Souru, SILIM).

1982: سفینتان للأعمال اللوجستية تم تسلمها من باكستان (Sirjan, Dayer).

1988: 3 طائرات بحرية تم تسلمها من كوريا الجنوبية.

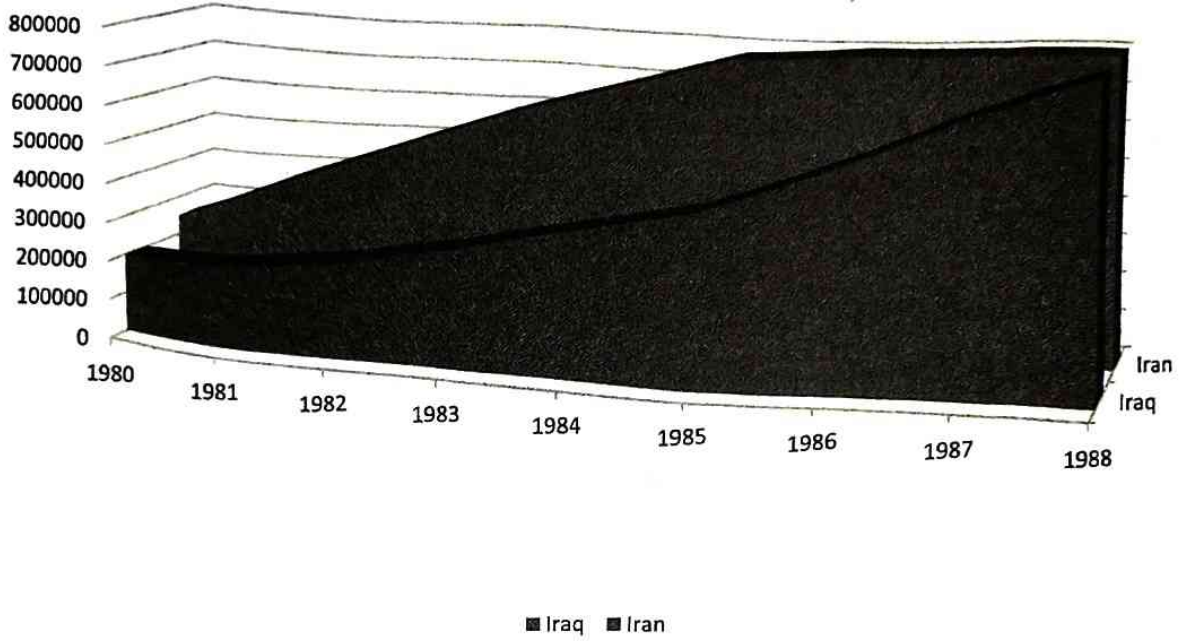
مخطط D-1: المعدات الحربية تم تسلمها من قبل العراق.

معدات حربية مستلمة من قبل العراق



أمّا ما يتعلق بالمدفعية؛ يجب أن نلاحظ أنّ إيران قد تسلمت 3000 هاون.

مخطط D-2 زيادة القوى العاملة في إيران.



توازن القوة في نيسان 1988

العراق

الجيش

- 7 فرق مدرعة (3،6،10،12،17، حمورابي، المدينة المنورة).
- 3 فرق ميكانيكية (1، 5، نبوخذنصر).
- 41 فرقة مشاة: ثلاث حرس جمهوري (الفاو، بغداد، توكلنا)، ثمان فرق من الدرجة الأولى (2، 11، 8، 7، 4، 14، 16، 15)؛ 15 درجة ثانية (18-32)؛ 15 درجة ثالثة (33-46، 50).
- الانتشار: الفيلق الخامس (راوندوز): فرق المشاة 23، 33، 38، 45.
- الفيلق الأول (كركوك): فرق المشاة 4، 7، 24، 27، 34، 36، 39، 43، 44، 50، 46.

8 جدول D-7

توازن القوى في نيسان 1988

العراق	إيران
800000 مجموع القوات	850000 مجموع القوات
51 فرقة	48 فرقة (الجيش 16، 32 حرس ثوري)
3400 دبابة	1100 دبابة
4500 عربة مدرعة أخرى	1400 عربة مدرعة أخرى
2300 قطعة مدفع	900 قطعة مدفعية + 3000 هاون
360 طائرة مقاتلة موزعة على 30 سربا	60 طائرة مقاتلة + (100 خارج الخدمة) موزعة على 18 سربا
140 طائرة هليكوبتر قتالية	40 طائرة هليكوبتر قتالية (+50 خارج الخدمة)

الفيلق الثاني (بغداد): فرق المشاة 16، 21، 22، 28.
 الفيلق الرابع (العمارة): فرق المشاة 2، 18، 20، 29، 32.
 الفيلق السادس (مجنون): فرق المشاة 25، 31، 35.
 الفيلق الثالث (البصرة): فرق المشاة 8، 11، 19، 30، 41، 42.
 الفيلق السابع (الفاو): فرق المشاة 14، 15، 26، 37، 40.
 الفيلق الميكانيكي الميداني: الفرق المدرعة 3، 6، 10، 12، 17؛ والحرس الجمهوري
 الفرقة الأولى والخامسة ميكانيكية.

أسراب القوة الجوية

- 4 ميراج F-1، الأسراب (79، 81، 89، 91).
- 7 ميغ-21، الأسراب (7، 9، 11، 27، 37، 47، 70).
- 6 ميغ-23، الأسراب (29، 39، 49، 59، 63، 73).
- 1 ميغ-29، السرب (6).
- SU-20 1، السرب (الأول).

الحرب العراقية - الإيرانية |

- 4SU-22 ، الأسراب (5، 44، 69، 109).
- SU-25 3 ، الأسراب (11، 115، 116).
- TU-16 1 و TU-22 السرب (10).

إيران

الجيش

- 5 فرق مدرعة (16، 30، 81، 88، 92).
- 4 فرق ميكانيكية (14، 28، 77، 84).
- 32 فرق مشاة (5، 7، 8، 9، 11، 12، 15، 17، 18، 19، 21، 23، 25، 25، 27).
- 29، 30، 31، 34، 36، 37، 40، 48، 52، 57، 58، 59، 64، 66، 71، 75، 82، 91).
- فرقة مظليين واحدة.
- فرقة الهجوم التمهيدي.
- 5 فرق مدفعية (11، 22، 33، 44، 55).

جدول D-8

استخدام الصواريخ البالستية

السنة	عدد الصواريخ التي أطلقها العراق على أهداف إيرانية	عدد الصواريخ التي أطلقتها إيران على أهداف عراقية
1980	10 (كلها Frog-7s)	
1981	54 (كلها Frog-7s)	
1982	26 (3 ScudBs, Frog-7s 23)	
1983	37 (4 Scud-Bs, 33 Frog-7s)	
1984	63 (38 Scud-B, 25 Frog-7s)	
1985	113 (82 Scud-BS, 31 Frog-7s)	18 (كلها Scud-B)
1986		27 (19 Oghabs, 8 Scud-Bs)
1987	27 (كلها Scud-Bs)	99 (81 Oghabs, 18 Scud-Bs)
1988	193 (4 ScudBs, 189 الحسين)	181 (104 Oghab, 77 Scud-B)

المجموع 532 (Frog-7s 160، Scud-B 174، Scud-B 325) (Oghabs 204، Scud-B 121) (189 الحسين)

ملاحظة: تذكر بعض المصادر أرقامًا أعلى لصواريخ Scud-B التي أطلقها العراق، حيث تضمنت تلك الأرقام خطأ بعض صواريخ Frog-7 من ضمنها في إحصائياتها. كانت هذه الصواريخ تستهدف المدن بصورة واسعة مما أدى إلى قتل 4000 مدني (إيرانيين وعراقيين)، وجرح 12000. واستهدف عدد قليل من الصواريخ بعض الأهداف العسكرية (قواعد جوية، مقرات، منصات نفط). وخلال هذه الفترة أطلقت إيران تسعة صواريخ سلكورم، وصاروخ Scud-B واحد على الكويت.

أسراب القوة الجوية

- 3 أسراب F-14 Tomcat (7، 8، 82)
- 7 أسراب فانتوم (11، 12، 31، 61، 71، 91، 101)
- 5 أسراب Tiger F-5 (21، 22، 41، 42، 102)
- سرب واحد F-6.
- سربين F-7 (52، 53)

ملحق رقم 5 المعارضة المسلحة

معارضة النظام العراقي

الحزب الديمقراطي الكردستاني (KDP)

القائد: مسعود برزاني (مدعوم من إيران).

القوة القصوى: (من 1986 إلى 1988): 45 ألف بيشمركة (ثلثهم في الخدمة بصورة دائمة) مع عدد قليل من الدبابات، ومدفعية خفيفة، بنادق ارتدادية، بنادق ميكانيكية، صواريخ مضادة للدبابات، وصواريخ سام-7.
منطقة العمليات: القسم الشمالي من كردستان العراق.

الاتحاد الوطني الكردستاني (PUK)

القائد: جلال طالباني (مدعوم من إيران وسوريا).

القوة القصوى: (من 1986 إلى 1988): 12 ألفا من البيشمركة، مع عدد قليل من الدبابات، وقطع مدفعية خفيفة، بنادق ارتدادية، بنادق ميكانيكية، صواريخ مضادة للدبابات، صواريخ سام-7.
منطقة العمليات: الأجزاء الجنوبية من كردستان العراق.

الحزب الديمقراطي الاشتراكي الكردستاني

القائد: محمود عثمان (مدعوم من سوريا)

القوة القصوى: (من 1986 إلى 1988): 1500 بيشمركة مجهزون بأسلحة خفيفة.
منطقة العمليات: الموصل والمناطق المحاذية لسوريا.

المعارضة ضد النظام الإيراني

مجاهدو الشعب بإيران (مجاهدو خلق)

القائد: مسعود رجوي (منفي في فرنسا للفترة 1981-1986، ثم في بغداد).
القوة القصوى: (من الفترة 1981-1983 إلى الفترة 1987-1988): 15000 مقاتل مع عدد قليل من الدبابات، وعدة عشرات من قطع المدفعية الخفيفة، بنادق ارتدادية، بنادق ميكانيكية، وصواريخ ضد الدبابات، وصواريخ سام-7.
منطقة العمليات: طهران، شيراز، تبريز، وفي محافظات آذربيجان حتى الفترة 1983-1984، ثم في المناطق الحدودية مع العراق بدءاً من عام 1987.

بيكار (الجناح الماركسي المنشق من مجاهدي الشعب)

القائد: حسين روحاني (تم الاعتقال في عام 1982).
القوة القصوى: (للفترة 1980-1982): 3000 مقاتل مجهزون بأسلحة خفيفة.
منطقة العمليات: طهران والمحافظات المطلة على بحر قزوين وآذربيجان الإيرانية.

فدائيو الشعب (فدائيو خلق)

لا يوجد لديهم قائد رئيس، وهي حركة لا مركزية إلى حد كبير.
القوة القصوى: (من 1981-1983): 5000 مقاتل مجهزون بأسلحة خفيفة.
منطقة العمليات: كردستان الإيرانية وبلوچستان.

الحزب الديمقراطي لكردستان الإيرانية (PDKI).

القائد: عبد الرحمن قاسملي (تم اغتياله في عام 1988).
القوة القصوى (من 1980 إلى 1983): 30 ألفاً من الالف بيشمركة مع عدد قليل من الدبابات المستولى عليها، قطع من المدفعية الخفيفة، بنادق ارتدادية وميكانيكية.
منطقة العمليات: كردستان إيران.

منظمة الكادحين الثوريين لكرديستان إيران "كوملة"

القادة: جعفر Chafyih ونيشروان مصطفى.

القوة القصوى: (من 1980 إلى 1983): 5000 بيشمرکه مجهزون بأسلحة خفيفة.

منطقة العمليات: كردستان الإيرانية.

الجبهة العربية لتحرير الأهواز (مدعومة من العراق)

القوة القصوى: عدة مئات قليلة من الفصائل المسلحة تم إخمادها بسرعة بعد الغزو العراقي.

منطقة العمليات: خوزستان.

ملحق رقم 6 المساعدات العسكرية الأجنبية

العراق

القيمة التقريبية لكل إرساليات المعدات الحربية إلى العراق: 80 مليار دولار (عام 1988).

الاتحاد السوفييتي (القيمة التقريبية: 30-45 مليار دولار).

تدريب الكوادر العراقية في جميع الحقول. وجود "المستشارين العسكريين" السوفيت في العراق. اتفاقية لإصلاح معدات الحرب السوفيتية الصنع وتجديدها. ومنذ بداية عام 1982 تسليم 280 طائرة مقاتلة إلى العراق نوع (ميغ-21، ميغ-23، ميغ-25، ميغ-29، SU-25، SU-22)؛ 58 طائرة هليكوبتر MI-24، Mi-17 / 25 ؛ 12 طائرة TU-124؛ و IL-76 طائرة نقل (بضمنها واحدة تم تحويلها لتكون طائرة مراقبة واستطلاع)؛ 1000 دبابة (T-55, T-62, T-72)؛ 500 عربة نقل مدرعة نوع BMP-1 ؛ 100 عربة مراقبة مدرعة BRDM-2؛ 150 مدفعا ثنائيا D-30؛ 100 مدفع ذاتي الحركة 2S1, 2S3؛ 18 منصة لإطلاق صواريخ Scud-B و 300 صاروخ أرض - أرض؛ 4 صواريخ زوارق Osa II؛ برمائية هجومية واحدة Polnocny؛ عدة مئات الآلاف من القذائف والذخيرة، عدة آلاف أطنان الأسلحة الخفيفة؛ عدة آلاف من اللوريات والعربات الخفيفة؛ عدة آلاف من الصواريخ المضادة للدبابات AT-3 / 4؛ صواريخ أرض - جو SAM-2 / 3 / 6 / 7 / 9 / 13 / 14؛ صواريخ جو-جو AA-2 / 6 / 7 / 8 / 11.

فرنسا (القيمة التقريبية: 17 مليار دولار)

تدريب الطيارين والفنيين العراقيين على التحليق بالطائرات الفرنسية. وجود الفنيين الفرنسيين بالعراق. استئجار خمس طائرات Super Etendard مجهزة بصواريخ Exocet

للفترة (1983-1985). وخلال فترة الحرب أرسلت فرنسا للعراق 121 طائرة ميراج- F-1EQ مقاتلة (بضمنها 24 مجهزة بصواريخ Exocet)؛ 60 طائرة هليكوبتر Gazelle، 10 Puma، "Hot"، و 6 "Exocet" Super Frelon، 10 دبابات AMX-30، 100 عربة خفيفة مدرعة للمراقبة UTM-800 Panhard "Hot"، 100 عربة خفيفة AMX-10P، 80 مدفعا خفيفا GCT-AUF1، 60 نظام لصواريخ أرض-جو نوع Roland، عدة بطاريات صواريخ أرض-جو (من طريق العربية السعودية)، معدات حربية إلكترونية، عدة ملايين من القذائف والمعدات الحربية المتنوعة، عدة آلاف من الصواريخ المضادة للدبابات نوع HOT, Milan، عدة مئات صواريخ أرض - بحر Exocet، صواريخ أرض -جو Roland، صواريخ جو- أرض AS-30L، صواريخ جو-جو (2/1 Magic، Super 530).

الصين (القيمة التقديرية: 6 مليارات دولار)

تسليم 1500 دبابة T-59 / T-69 و 300 مدفع ميداني مقطور Type-59 (منذ عام 1981)، و بطاريات صواريخ سلكورم CSSC-2 المضادة للدبابات (منذ عام 1982)، 30 طائرة مقاتلة F-7 (للفترة 1983-1985)، 4 طائرات قاصفة H-6 (1988)، فضلا عن عدة آلاف أطنان من الأسلحة الخفيفة، و عدة ملايين من القذائف والذخيرة.

إيطاليا (القيمة التقديرية: 3.6 مليارات دولار)

التدريب الأساسي للكثير من الطيارين العراقيين. عدم تسليم 11 سفينة حربية (4 فرقاطات 6 طرادات، 1 سفينة تجهيزات)، تسليم 48 طائرة تدريب AS-202 (للفترة 1981-1983)، عدة ملايين من الألغام (من طريق سنغافورة)، وكميات كبيرة من القذائف والذخيرة المتنوعة.

مصر (القيمة التقديرية: 3 مليارات دولار)

أرسلت نحو 50 طيارًا مصريًا، و عدة مئات من الفنيين، و عدة آلاف من "المتطوعين" إلى الجبهة العراقية. و أرسلت السرب 71 للطائرات المقاتلة المجهزة بصواريخ MiragVs

إلى الجبهة العراقية (منذ بداية عام 1986). تجهيز كميات كبيرة من قطع الغيار للمعدات السوفيتية الصنع. تسليم 250 دبابة T-55، ذخيرة متنوعة وبكميات كبيرة، صواريخ AA-2, SAM-7, AT-3 منذ بداية عام 1982. تسليم 30 طائرة SU-7 مقاتلة وقديمة (لاستخدامها للتمويه في القواعد العراقية).

البرازيل (القيمة التقديرية: 1.7 مليار دولار)

تسليم 24 طائرة Tucano للتدريب من أصل 60 طلبها العراق في الفترة 1986-1988، 50 عربة مدرعة خفيفة للمراقبة والاستطلاع نوع Jararaca EE-3، 1600 عربة مدرعة Urutu (بدءاً من عام 1981)، عدة مئات من اللوريات نوع E-25, E-50، منصات إطلاق صواريخ متنوعة (ASEROS II, ASTROS SS-40, SS-60) بدءاً من عام 1985، و قطع غيار للعربات المدرعة الخفيفة EE-9 Cascavel.

يوغسلافيا (القيمة التقديرية: 1.2 مليار دولار)

تدريب عدد من البحارة العراقيين. إرسال فرقاطة تدريب بدءاً من عام 1981، 3 كاسحات ألغام، 100 مدفع مقطور D-30، 300 هاون ثقيل، عدة مئات الآف من الذخيرة والقذائف المتنوعة، عدة عشرات الآف من الأسلحة الخفيفة.

رومانيا (القيمة التقديرية: مليار دولار)

تسليم 300 دبابة T-55, T-62 بدءاً من عام 1981، 200 عربة مدرعة BMP-1، 100 مدفع ميداني مقطور D-30، عدة آلاف أطنان من الأسلحة الخفيفة، عدة مئات من اللوريات والعربات الخفيفة فضلاً عن كميات كبيرة من الذخيرة والقذائف المتنوعة وصواريخ AA 2 و SAM-7.

بولندا (القيمة التقديرية: 900 مليون دولار)

تسليم 200 دبابة T-62 , T-55 بدءاً من عام 1981، 100 عربة مدرعة BMP-1،
200 عربة مدرعة ناقلة للأشخاص 100 ، OT-64, OT-62، مدفوع ميداني مقطور D-30،
عدة عشرات آلاف الأطنان من الأسلحة الخفيفة، عدة مئات من اللوريات والعربات الخفيفة
فضلاً عن كميات كبيرة من القذائف والذخيرة المتنوعة وصواريخ AT-3, AA-2, SAM-7.

تشيسلوفاكيا (القيمة التقديرية: 800 مليون دولار)

تسليم 24 طائرة تدريب L-39 , L-29 بدءاً من عام 1981، 200 عربة مدرعة OT-62،
OT-64، أسلحة خفيفة، فضلاً عن كميات كبيرة من الذخيرة والقذائف وصواريخ AA-2،
AT-3، و SAM-7.

النمسا (القيمة التقديرية: 350 مليون دولار)

تسليم 100 عربة مراقبة واستطلاع مدرعة نوع SK-105 Kurassier في عام 1981،
200 مدفوع ميداني مقطور نوع GHN-45 بدءاً من عام 1984 من طريق شركة Bull's الكندية.

هنغاريا (القيمة التقديرية: 300 مليون دولار)

تسليم 150 عربة مدرعة خفيفة BRDM-1، و 400 مدفوع مضاد للجو S-60.

الولايات المتحدة (القيمة التقديرية: 250 مليون دولار)

التعاون في حقل الاستخبارات العسكرية، وبشكل خاص في مجال الفضاء والصور
الرادارية ومعلومات ELIENT - SIGINT. إرسال 6 طائرات نقل L-100 في عام 1985،
و 86 طائرة هليكوبتر Hughes 300 / 500 / 530 بدءاً من عام 1986، وكميات كبيرة من القنابل
الانشطارية.

جنوب إفريقيا (القيمة التقديرية: 200 مليون دولار)

تسليم 100 مدفع ميداني مقطور G-5 والقذائف اللازمة لها بدءاً من عام 1986.

ألمانيا (القيمة التقديرية: 150 مليون دولار)

تدريب الأطباء العسكريين العراقيين. تسليم عدة مئات من ناقلات الدبابات ولوريات مرسيدس. وإرسال 60 طائرة هليكوبتر BO-105 بدءاً من عام 1982 مجهزة بصواريخ مضادة للدبابات Hot من طريق اسبانيا.

اسبانيا (القيمة التقديرية: 150 مليون دولار)

تسليم طائرات هليكوبتر BO-105 نيابةً عن ألمانيا، عدة آلاف أطنان من الأسلحة الخفيفة، عدة مئات من المدفعية ذات الحد الأدنى من الارتداد و106 ملم، وعدة مئات سيارات Jeep Land Rover Santana فضلاً عن كميات كبيرة من الذخيرة.

سويسرا (القيمة التقديرية: 100 مليون دولار)

تسليم 100 ناقلة للأشخاص مدرعة نوع MOWAG Roland بدءاً من عام 1981، 50 طائرة تدريب Pilatus PC-7 Turbo Trainer للفترة 1982-1985. ذخائر مختلفة العيارات، ومعدات الكتابة بالشفرة.

المملكة المتحدة (القيمة التقديرية: 60 مليوناً)

تسجيل الطلاب العسكريين العراقيين في الأكاديميات العسكرية. التدريب الأساسي لعدد من الطيارين العراقيين. تسليم 300 سيارة Land Rover، أنظمة رادار موجهة للمدفعية، قطع غيار لدبابات Chieften , Scorpion التي تم الاستيلاء عليها من الجيش الإيراني.

السويد (القيمة التقديرية: 50 مليوناً)

تسليم كميات كبيرة من الذخيرة اللازمة للمدفعية المضادة للطائرات Bofors.

بلجيكا (القيمة التقديرية: 40 مليون دولار)

تسليم الأسلحة الخفيفة والذخيرة ذات العيارات الصغيرة.

سنغافورة

تجهيز الألغام البحرية على وفق النماذج الإيطالية.

كندا

استضافة الطلاب العسكريين العراقيين. التعاون في حقل المدفعية.

شيلي

تجهيز القنابل الانشطارية.

الأردن

اتفاقية لنقل وتسليم الأسلحة المرسله من الأقطار الأخرى. اتفاقية للإيواء المؤقت للطائرات العراقية المقاتلة على الأراضي الأردنية. إرسال صواريخ جو-جو Magic & AIM-9 Slidwinder. إقراض العراق نحو 10 طائرات مقاتلة ميراج-F-1. نشر عدة آلاف من "المتطوعين" الأردنيين، ولواء ميكانيكي على الجبهة العراقية. وإلحاق نحو 15 طياراً أردنياً، ونحو 50 فنياً بالقوة الجوية العراقية.

جمهورية ألمانيا الديمقراطية

تدريب الطيارين.

العربية السعودية والكويت

اتفاقية لنقل وتسليم الأسلحة المرسله من البلدان الأخرى. اتفاقية للإيواء المؤقت للطائرات العراقية المقاتلة في الأراضي السعودية والكويتية. تسليم الذخيرة والقنابل الأمريكية الصنع. المساعدات المالية الكبيرة.

المغرب وشمال اليمن

نشر "المتطوعين" على الجبهة العراقية. إلحاق عدد قليل من الطيارين المغاربة لطائرات ميراج F-1 بالجيوش العراقي كمرشدين.

تركيا

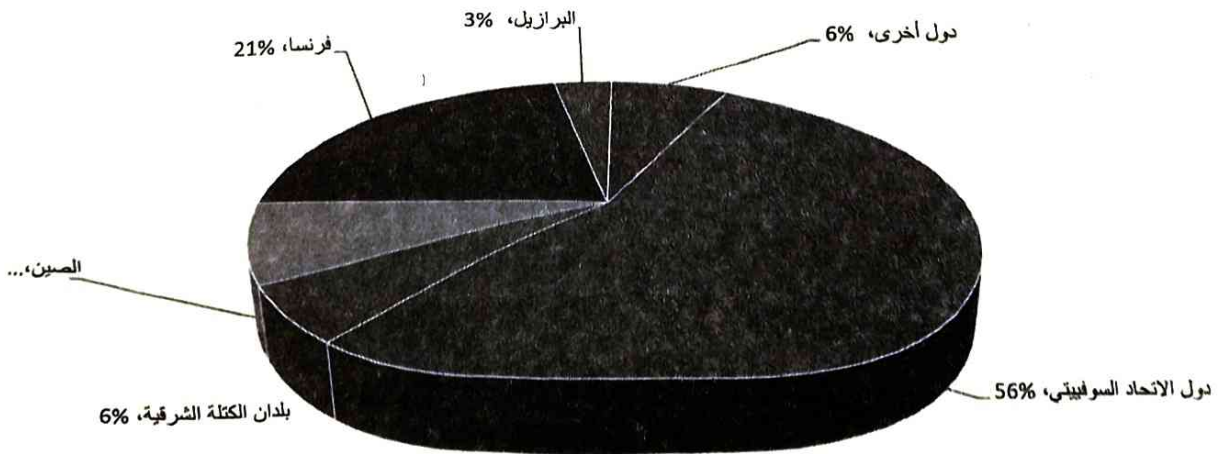
اتفاقية لنقل وتسليم الأسلحة المرسله من البلدان الأخرى. اتفاقية للتعاون العسكري لمقاتلة المعارضة الكردية المسلحة. تسجيل الكوادر العسكرية العراقية في الأكاديميات العسكرية التركية.

اليابان

تجهيز معدات إلكترونية مشفرة لاعتراض الطائرات.

مخطط F-1

المجهزون الرئيسيون للعراق



إيران

القيمة التقديرية لكل معدات الحرب المرسلة إلى إيران من البلدان الأخرى: 24 مليار دولار (بالقيمة لعام 1988).

الصين (القيمة التقديرية: 3 مليارات دولار)

تسليم 200 دبابة T-59 / T69، و 80 طائرة مقاتلة F-6 / F-7 بدءًا من عام 1983؛ بطاريات صواريخ سلكورم CSSC-2 المضادة للسفن منذ عام 1986؛ بطاريات صواريخ SAM-2 / SAM-3 منذ عام 1987؛ 10 زوارق حراسة خفيفة CAT-14؛ 1000 هاون؛ ملايين القذائف المتنوعة، ألغام وذخيرة فضلاً عن عدة عشرات الآلاف من الأسلحة الخفيفة.

كوريا الشمالية (القيمة التقديرية: 3 مليارات دولار)

وجود "المستشارين العسكريين" لكوريا الشمالية في إيران. معاهدة التعاون لتصنيع صواريخ FROG-7 أرض-أرض. اتفاقية لإعادة تحويل المعدات السوفيتية الصنع التي تم الاستيلاء عليها من الجيش العراقي. تسليم 250 دبابة T-59 منذ بداية عام 1981؛ و 190 مدفعا مقطورا (Type-59, Oto Malera / Norengo)؛ 60 منصة صواريخ متعددة الأغراض (Type -63 / BM-11)؛ 2000 هاون؛ 20 زورق حراسة خفيف IPS-16 / 18؛ غواصة صغيرة، عدة مئات صواريخ SAM-7 أرض-أرض، بنادق متنوعة؛ 100 صاروخ Scud-B أرض-أرض بدءا من عام 1987؛ ملايين القذائف المتنوعة، ألغام، وذخيرة وكميات كبيرة من الأسلحة الخفيفة.

ليبيا (القيمة التقديرية: 2.5 مليار دولار)

تجهيز قطع غيار للمعدات السوفيتية الصنع التي تم الاستيلاء عليها من الجيش العراقي. تسليم 300 دبابة T-55, T-62, T-72 للفترة 1981-1984؛ و 240 عربة مدرعة

6 منصات صواريخ Scud-B أرض-أرض في عام 1985 مع BTR-60, BMP-1؛ 26 صاروخ؛ عدة آلاف من قذائف الدبابات وRPG-7؛ وعدة مئات من صواريخ AT-3, SAM-7.

إسرائيل (القيمة التقديرية: 2 مليار دولار)

تجهيز قطع غيار لصواريخ متنوعة طيلة الفترة 1980-1986، دبابات، M-48, M-60، وللطائرات المقاتلة، وللطائرات الهليكوبتر Bell-212, AH-1, F-4. تسليم أجهزة تشويش ومعدات إلكترونية للتشويش، 2000 صواريخ TOW المضادة للدبابات، عدة مئات صواريخ جو-جو Sidewinder، 68 صاروخ Hawk أرض-جو، 50 مدفع Soltam-71، 150 مدفع M-40 مضاد للدبابات، عدة مئات سيارات جيب، عدة آلاف من الأسلحة الخفيفة، وعدة مئات آلاف من قذائف الدبابات والمدفعية.

الاتحاد السوفييتي: (القيمة التقديرية: 1.5 مليار دولار)

اتفاقية لنقل إرساليات السلاح القادمة من البلدان الأخرى وبشكل خاص من طريق ميناء بندر إنزلي الواقع على بحر قزوين. وجود "المستشارين العسكريين" السوفييت في إيران. تدريب الكوادر العسكرية الإيرانية على استخدام العربات المدرعة وقطع المدفعية السوفييتية الصنع. اتفاقية لتأهيل المعدات السوفييتية الصنع التي تم الاستيلاء عليها من الجيش العراقي. تسليم صواريخ SAM-7 أرض-جو بدءاً من عام 1981، مئات اللوريات والعربات الخفيفة، عشرات آلاف من الأسلحة الخفيفة، كميات كبيرة من الذخيرة للعربات المدرعة وقطع المدفعية التي تم الاستيلاء عليها من الجيش العراقي.

كوريا الجنوبية (القيمة التقديرية: 1.2 مليار دولار)

تجهيز كميات كبيرة من قطع الغيار لدبابات M-4, M-60، ومقاتلات F-4, M-5، وطائرات الهليكوبتر AH-1 بدءاً من عام 1981. تسليم 12 طائرة مقاتلة F-4D في عام 1983،

عدة آلاف من الأسلحة الخفيفة، عدة مئات من صواريخ TOW المضادة للدبابات، صواريخ Hawk أرض-جو، وصواريخ جو-جو AIM-7E /F Sparrow, AIM-9J /L Sidewinder.

بلغاريا (القيمة التقديرية: 840 مليون دولار)

تجهيز قطع غيار لكل المعدات السوفيتية الصنع. تسليم 100 دبابة T-55, T-62، 50 عربة مدرعة BTR-60، وكميات كبيرة من الأسلحة الخفيفة والقذائف والصواريخ، وكل أنواع الذخيرة، وبشكل خاص SAM-7, AT-3, RPG-7.

سوريا (القيمة التقديرية: 800 مليون دولار)

اتفاقية للسماح لقراية 2000 مقاتل إيراني بالانضمام إلى صفوف حزب الله بجنوب لبنان لمواجهة إسرائيل. تجهيز قطع غيار لكل المعدات السوفيتية الصنع. وتسليم كميات كبيرة من الأسلحة الخفيفة وأنواع الذخيرة بدءاً من عام 1981، ولا سيما صواريخ RPG-7, AT-3, SAM-7.

البرتغال (القيمة التقديرية: 760 مليون دولار)

تسليم كميات كبيرة من القذائف وكل أنواع الذخيرة.

اسبانيا (القيمة التقديرية: 730 مليون دولار)

تجهيز قطع غيار للطائرات المقاتلة F-4, F-5. تسليم سيارات مدرعة خفيفة نوع Land Rover المصنعة في اسبانيا، وكميات كبيرة من الذخيرة للقوة الجوية بشكل خاص.

الولايات المتحدة (القيمة التقديرية: 650 مليون دولار)

تسليم قطع غيار بدءاً من عام 1981 لطائرات الهليكوبتر، والطائرات المقاتلة F-4, F-5, F-14، وصواريخ AIM-54 Phoenix. تسليم 2500 صاروخ TOW المضادة

للدبابات (من طريق إسرائيل)، 18 صاروخ Hawk أرض-جو، وقطع غيار تُستخدم لتحديث 300 صاروخ Hawk، وتزويدها بصور الأقمار الصناعية عن الجبهة.

المملكة المتحدة (القيمة التقديرية: 600 مليون دولار)

اتفاقية لتحديث شبكة الرصد الجوي. تجهيز قطع الغيار ومحركات لدبابات Chieften, Scorpion، وقطع إلكترونية لصواريخ Rapier أرض-جو، وأنظمة تشويش إلكترونية.

السويد (القيمة التقديرية: 600 مليون دولار)

تسليم معمل ذخائر جاهز للاستخدام، 300 صاروخ أرض-جو RBS-70 محمول بدءاً من عام 1986، 40 زورق مراقبة ذو سرعة عالية نوع Boghamma، كميات كبيرة من قذائف لمدفعية Bofors، 1300 طن من البارود والمتفجرات لصناعة الذخيرة والقذائف.

إيطاليا (القيمة التقديرية: 500 مليون دولار)

تسليم 24 طائرة هليكوبتر CH-47 Chinook بدءاً من عام 1981، قطع غيار لطائرات الهليكوبتر، 13 راداراً ساحلياً، أنظمة إلكترونية حربية، كميات كبيرة من البارود (5,300 طن على الأقل) لتصنيع الذخيرة. 7 زوارق مراقبة (لم تسلم).

فرنسا (القيمة التقديرية: 480 مليون دولار)

تسليم 500 ألف قذيفة مدفعية 155 و203 ملم (Luchoire) خلال الفترة 1982-1986، 2000 نظام لكبح القنابل نوع (Marta)، 200 كاميرا حرارية لرصد الطائرات نوع (Thomson-CSF)، ذخيرة ذات قطر صغير (Manhurin)، وكميات كبيرة من البارود (SNPE) لتصنيع الذخيرة.

النمسا (القيمة التقديرية: 480 مليون دولار)

تسليم 140 مدفعًا ميدانيًا مقطورًا نوع GHN-45 (Noricum) والذخائر اللازمة له من طريق ليبيا بدءًا من عام 1987.

البرازيل (القيمة التقديرية: 450 مليون دولار)

تسليم 180 سيارات مدرعة نوع Cascaval طوال الفترة 1982-1986، 300 عربية مدرعة EE-11 Urutu، عدة آلاف من أطنان قذائف المدفعية.

سويسرا (القيمة التقديرية: 430 مليون دولار)

تسليم 15 طائرة استخدام نوع Pilatus PC-6 Turbo Porter في عام 1983، 45 طائرة تدريب نوع Pilatus PC-7 Turbo Trainer بدءًا من عام 1984، وقطع غيار لمعدات الرادار، مدفعية مضادة للطائرات، معدات تشفير، كميات كبيرة من الذخائر الصغيرة الحجم.

اليونان (القيمة التقديرية: 350 مليون دولار)

تجهيز كميات كبيرة من للطائرات المقاتلة قطع الغيار F-4, F-5 و لطائرات الهليكوبتر AB-205 /206. تسليم كميات من الذخيرة والبارود لتصنيع القذائف.

جنوب إفريقيا (القيمة التقديرية: 100 مليون دولار)

تسليم 30 مدفعًا ميدانيًا مقطورًا نوع G-5 والقذائف اللازمة له بدءًا من عام 1987.

إثيوبيا (القيمة التقديرية: 70 مليون دولار)

تسليم 12 طائرة مقاتلة F-5A /E في عام 1986.

بلجيكا (القيمة التقديرية: 50 مليون دولار)

تسليم بارود و متفجرات ومحركات للطائرات المقاتلة.

الأرجنتين:

تسليم عدة آلاف من الأسلحة الخفيفة.

ألمانيا

تسليم عدة مئات سيارات لوري مرسيدس من طريق سويسرا، وكميات كبيرة من الذخيرة الصغيرة الحجم (Werner). ومفاوضات لتسليم صفقة ضخمة من طائرات نقل Transall و6 غواصات TYPE 209.

جمهورية ألمانيا الديمقراطية:

تدريب الطيارين على الطائرات المقاتلة.

تايوان:

تجهيز قطع غيار لطائرات F-5 المقاتلة ودبابات M-48 بدءاً من عام 1981.

سنغافورة:

تجهيز ذخيرة وأسلحة خفيفة.

الهند:

تجهيز 2000 زورق قابل للنفخ لحساب فيلق المهندسين الإيرانيين و200 طوربيد للزوارق المسلحة للحرس الثوري الإسلامي الإيراني.

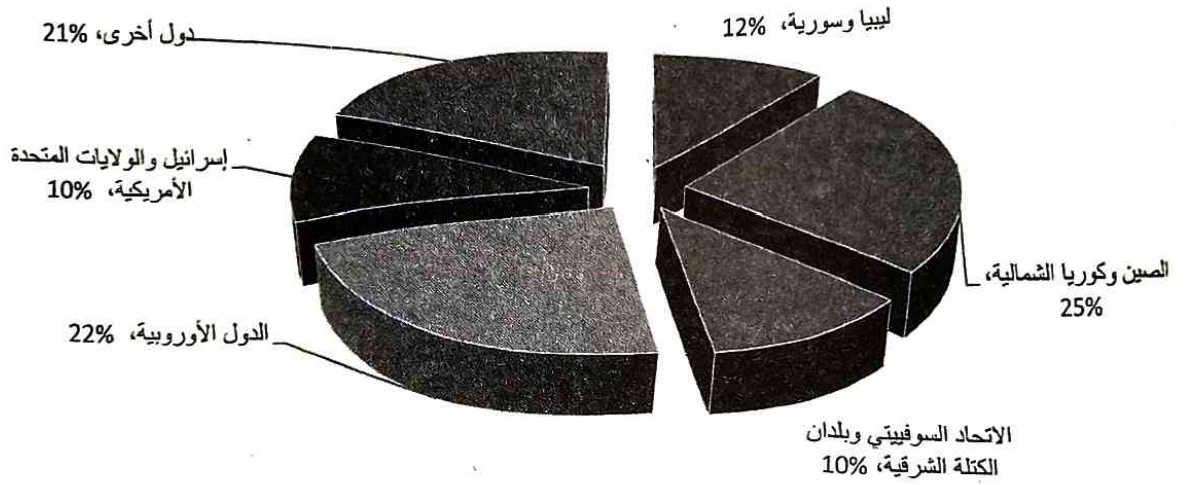
باكستان:

تدريب المرشدين الإيرانيين لطائرات F-6 و F-7.

تركيا:

اتفاقية للنقل وتسليم الأسلحة القادمة من البلدان الأخرى. تسليم قطع غيار لطائرات F-4, F-5 المقاتلة.

مخطط F-2 مجهزو إيران الرئيسيون



ملحق رقم 7

النفط

العراق

قبل اندلاع الحرب

- حصته من إنتاج أوبك: 3.2 ملايين برميل يوميا.
- الطاقة الإنتاجية من الناحية النظرية: 4 ملايين برميل يوميا.
- الحقول النفطية حول البصرة: 60% من مجموع الإنتاج.
- الحقول النفطية حول كركوك - الموصل: 40% من مجموع الإنتاج.

طاقة المصافي النفطية: 310 ألف برميل يوميا.

- مصفى البصرة: 140 ألف برميل يوميا.
- مصفى الدورة (بغداد): 80 ألف برميل يوميا.
- مصفى بيجي: 60 ألف برميل يوميا.
- مصفى كركوك: 30 ألف برميل يوميا.
- الطاقة التصديرية من الناحية النظرية: 5.2 ملايين برميل يوميا.
- منصة ميناء البكر الساحلية: 2.2 برميل يوميا (تم تدميره في تشرين الثاني 1980).
- منصة خور العُمية الساحلية: 1.8 برميل يوميا (تم تدميره في تشرين الثاني 1980).
- خط الأنابيب كركوك - دورتيول (من طريق تركيا): 650 ألف برميل يوميا.
- خط الأنابيب كركوك - بايناس (من طريق سوريا): 550 ألف برميل يوميا (تم تدميره بعد شهر نيسان 1982).

القنوات التصديرية التي وضعت في الخدمة خلال فترة الحرب:
1982 : البدء بتسيير أسطول بري لنقل النفط بالناقلات إلى ميناء العقبة (الأردن) ودورتبول بتركيا لنقل 50 ألف برميل يوميا.
1984: خط جديد لنقل النفط بين كركوك ودورتبول التركية لنقل 400 ألف برميل يوميا (بدأ العمل به في عام 1982 - أصبحت طاقته التصديرية 600 ألف برميل يوميا في عام 1988).
1985: مد أنبوب لنقل نفط الحقول الجنوبية بالعراق إلى ميناء ينبع بالعربية السعودية من خلال ربطه بالأنبوب السعودي "بترولاين" لنقل 500 ألف برميل يوميا. بدأ العمل به في عام 1983 - بلغت الطاقة التصديرية مليون برميل يوميا في عام 1988.
1987 : البدء ببناء أنبوب بيجي - بصرة لنقل النفط (بطاقة قدرها 500 ألف برميل يوميا) وربط حقول النفط العراقية الجنوبية بالحقول الشمالية. لم يدخل هذا الأنبوب الخدمة إلا بعد انتهاء الحرب.

إيران

قبل اندلاع الحرب

- حصتها من إنتاج أوبك: 4.4 ملايين برميل يوميا.
- الطاقة الإنتاجية من الناحية النظرية: 6 ملايين برميل يوميا.
- حقول نفط خوزستان: 65% من مجموع الإنتاج.
- حقول النفط في بقية البلاد: 20% من مجموع الإنتاج.
- حقول النفط الساحلية: 15% من مجموع الإنتاج.
- الطاقة الإنتاجية لمصافي النفط: 1.2 مليون برميل يوميا.
- مصفى عبادان: 600 ألف برميل يوميا (تم تدميره في تشرين الثاني 1980).
- مصفى طهران: 200 ألف برميل يوميا (تعرض لتدمير كبير في عام 1988).
- مصفى بندر خميني: 140 ألف برميل يوميا.

- مصفى أصفهان: 80 ألف برميل يوميا.
- مصفى تبريز: 80 ألف برميل يوميا.
- مصفى شيراز: 40 ألف برميل يوميا.
- مصفى آراك: 40 ألف برميل يوميا.
- مصفى كرمنشاه: 20 ألف برميل يوميا.
- الطاقة التصديرية (نظريا): 7.525 برميل يوميا.
- منصة خارج: 6 ملايين برميل يوميا (تقلصت الطاقة بعد عام 1984).
- منصة بندر خميني: 1.5 مليون برميل يوميا (تقلصت الطاقة إلى النصف بعد عام 1981
- وخارج الخدمة بعد عام 1983.
- منصة لافان: 25 ألف برميل يوميا.

جدول G-1

واردات النفط للسنة 1978-1988

1988	1987	1986	1985	1984	1983	1982	1981	1980	1979	1978
معدل سعر برميل النفط										
18\$	17\$	14\$	27\$	29\$	30\$	35\$	34\$	36\$	18\$	15\$
العراق : معدل الإنتاج (مليون برميل يوميا):										
2.4	2	1.5	1.3	1.2	1.1	1	0.9	2.6	3.5	2.6
: معدل الكميات المصدرة (مليون برميل يوميا):										
2	1.5	1.3	1	0.85	0.7	0.8	0.7	2	3	2.4
: الدخل السنوي من النفط المصدر (مليار دولار):										
31	9	6.5	9.5	8.5	7	10	8.5	26	19.5	13
إيران : معدل الإنتاج (مليون برميل يوميا):										
2.3	2.2	2	2.1	2.3	2.3	2	1.3	1.5	3.2	5.2
: معدل الكميات المصدرة (مليون برميل يوميا):										
1.6	1.35	1.5	1.6	1.8	2	1.6	0.9	0.8	2.7	4.6
: الدخل السنوي من النفط المصدر (مليار دولار):										
10	8	7.5	15.5	19	21.5	20	11.5	10.5	17.5	25

القنوات التصديرية الجديدة التي أنشأت في فترة الحرب:

1984: إنجاز خطّ مكوكي لنقل النفط بالناقلات إلى منصة لافان التي ازدادت طاقتها

التصديرية إلى 25 ألفاً، ثم إلى مليون برميل يومياً.

1985: منصة جزيرة سيرى العائمة: (1.5 مليون برميل يومياً): تم ربطها بمنصة جزيرة

خارج للنفط من خلال خطّ مكوكي بالناقلات.

1986: منصة لاراك العائمة: (مليوناً برميل يومياً): تم ربطها بمنصة جزيرة خارج من

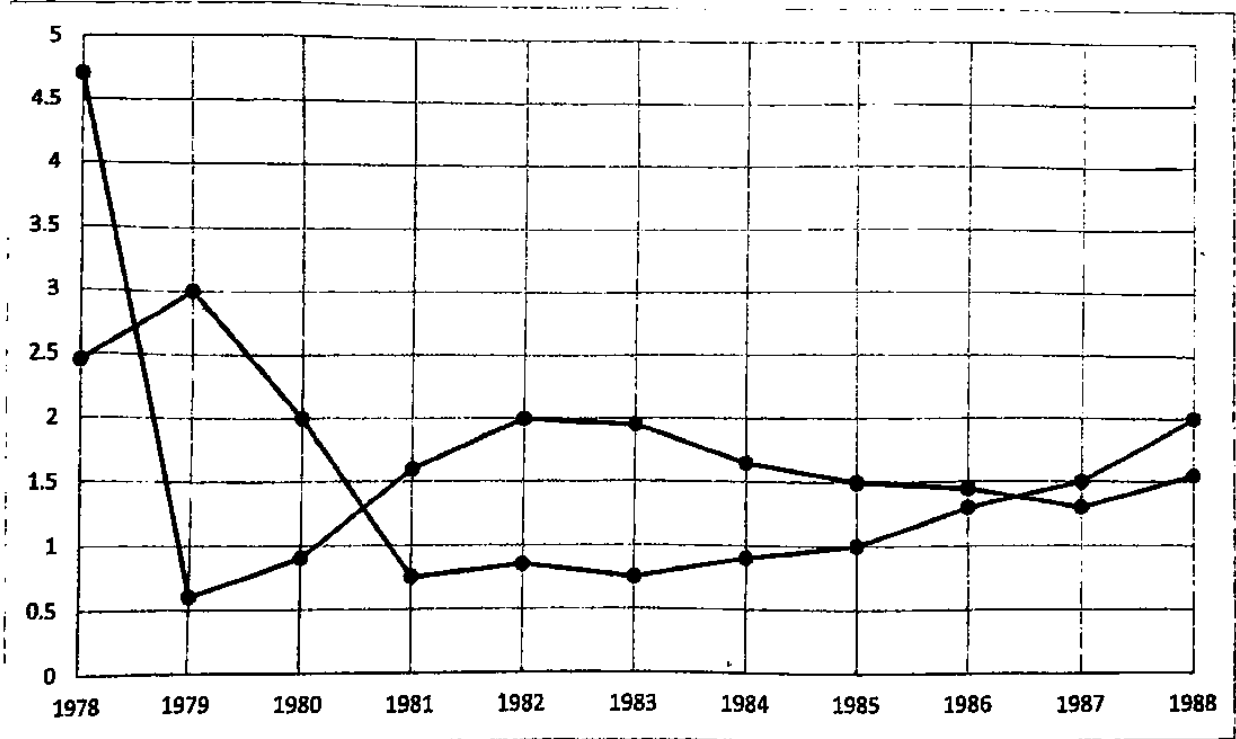
خلال خطّ مكوكي بالناقلات.

1987: البدء بإنشاء منصتي بندر عباس وجاسك للنفط اللتين لم تدخلا الخدمة إلا

بعد نهاية الحرب.

مخطّط رقم G-1

صادرات النفط العراقية والإيرانية خلال فترة الحرب

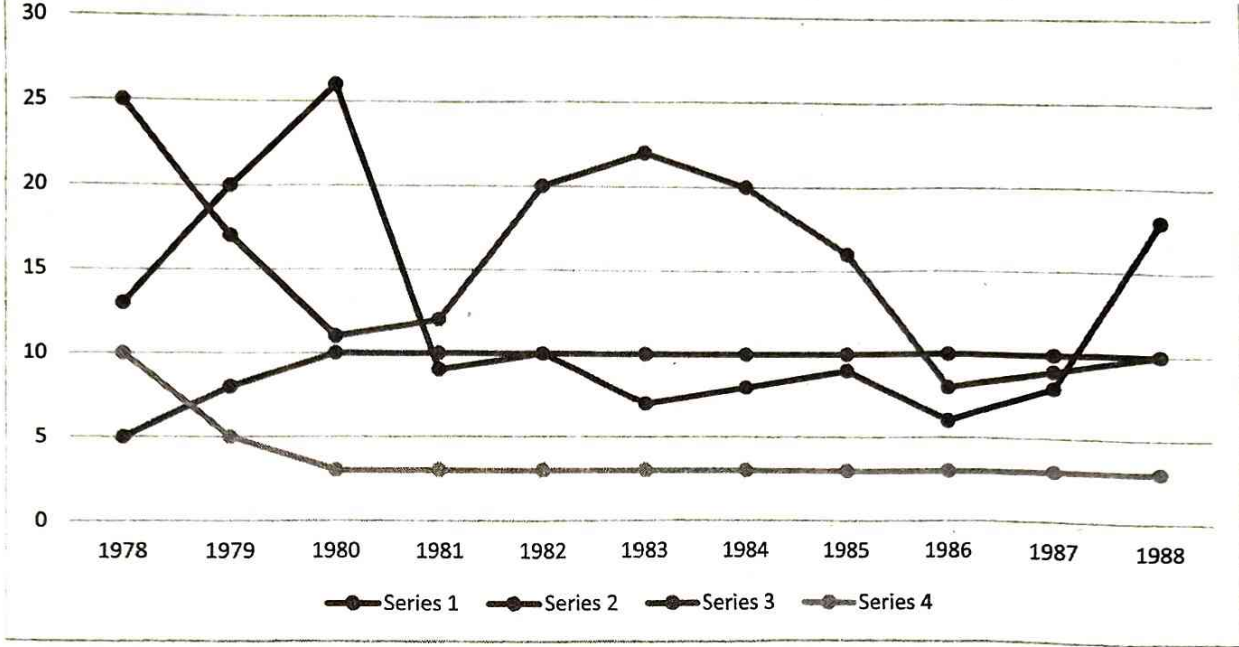


اللون الأزرق: معدّل كميات النفط المصدرة من العراق (مليون برميل يومياً)

اللون الأحمر: = = = = = إيران (= = =)

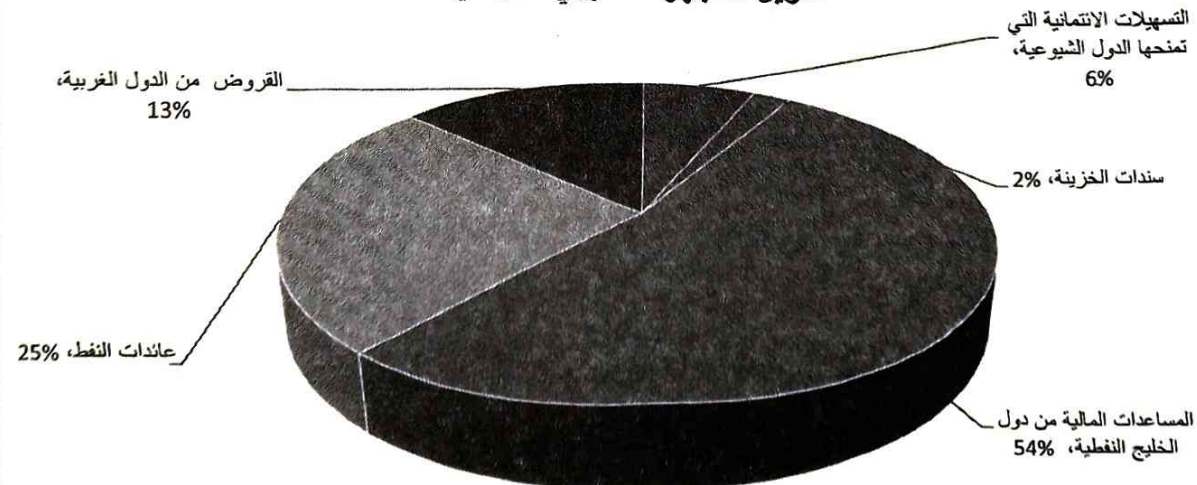
مخطط رقم 2

الموارد المالية للعراق وإيران من صادرات النفط خلال فترة الحرب

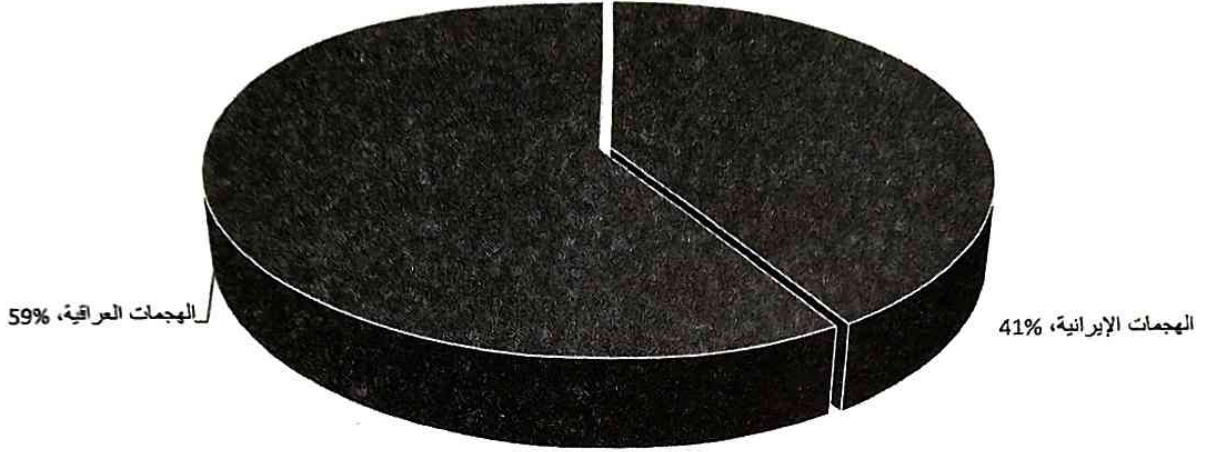


- معدل الدخل السنوي من صادرات النفط العراقية (مليار دولار).
- معدل الكلفة السنوي لمعدات الحرب المشتراة من العراق (مليار دولار).
- معدل الدخل السنوي من صادرات النفط الإيرانية (مليار دولار).
- معدل الكلفة السنوي لمعدات الحرب المشتراة من إيران (مليار دولار).

مخطط رقم G-3
تمويل المجهود الحربي العراقي



مخطط رقم G-4 ناقلات النفط التي هُوجمت في الخليج



جدول G-2

تمويل المجهود الحربي للعراق

80 مليار دولار	قروض مضمونة من مشيخات الخليج*
= = 38	واردات النفط العراقية**
= = 20	قروض مؤجلة مقدمة من الدول الغربية
= = 9	تسهيلات ائتمانية مقدمة من الدول الشيوعية المختلفة
= = 3	سندات خزينة صادرة من البنك المركزي العراقي
= = 150	المجموع

* العربية السعودية: 60 مليار \$؛ الكويت: 15 مليار \$؛ الإمارات المتحدة وقطر: 5 مليار \$.

** خلال الفترة من أيلول حتى تموز 1982، 30% من واردات النفط حُصّصت للمجهود الحربي للبلاد. وازدادت هذه النسبة إلى 40% للمدة من شهر آب 1982 حتى شهر شباط 1986، وإلى 50% من شهر آذار 1986 حتى نهاية الحرب.

- تميزت مرحلة الهجمات الإيرانية (1982-1986) بإيرادات كبيرة لصالح إيران.
- تميزت الصفحة النهائية من الهجمات المضادة العراقية (1988) بإيرادات كبيرة وواضحة لصالح العراق.

أطلق العراقيون أكثر من 500 صاروخ Exocet خلال فترة الحرب. وثلاثا السفن التي هُوجمت كانت من ناقلات النفط فقط. وأكثر من نصف الهجمات على التجارة البحرية حدثت في عام 1987 و1988. هذه الهجمات قتلت 420 بحارًا وجرحت بجروح بليغة 425 آخرين. كانت البلدان الأكثر تأثرًا بالهجمات: ليبيريا (60)، إيران (48)، بنما (46)، قبرص (43)، اليونان (32)، والكويت (16). أمّا الدول الخمس الأعضاء الدائميون بمجلس الأمن الدولي؛ تعرّضت سفنها لهجمات محدودة: المملكة المتحدة (6)، فرنسا (5)، الولايات المتحدة (3)، الاتحاد السوفيتي (2)، الصين (1). أمّا الحمولة بالأطنان؛ فإن طرفي الحرب حَيّدوا ما يساوي ربع عدد سفن الشحن التي غرقت خلال معركة الأطلسي في الحرب العالمية الثانية.

جدول G-3

حصيلة حرب الناقلات

السنة	عدد السفن التي هُوجمت		عدد السفن التي أغرقت أو تضررت ولا يمكن إصلاحها
	من قبل العراق	من قبل إيران	
1981	5	0	1
1982	14	0	6
1983	8	0	5
1984	25	14	8 (1 من قبل إيران).
1985	31	13	12 (= = = 1).
1986	57	41	16 (= = = 5).
1987	83	79	19 (= = = 9).
1988	29	31	5 (= = = 2).
المجموع	252	178	
المجموع	*430	72 (54 من قبل العراق و18 من قبل إيران).	

* نشر بنك لويد البريطاني لاحقًا حصيلة أكبر بشكل طفيف (543)؛ لأنَّ حصيلته تضمّنت السفن التجارية التي تم تدميرها أو تضررت في شط العرب عند بداية الحرب، فضلًا عن السفن التي تعرضت لسلوك عدائي من طرفي الحرب ومن بينها تلك الحوادث التي لم تؤدّ إلى أضرار. فمن الطبيعي أن يحاول بنك لويد تبرير زيادة نسبه على التأمين إلى عشرة أضعاف.

ملحق رقم 8 الوجود البحري الدولي في الخليج

شتاء 1987 - صيف 1988

الوجود الأمريكي

كان العميد البحري Dennis Brooks (الذي تم تغييره بالعميد البحري Anthony Less في شهر شباط 1988) يشرف على القوة البحرية الأمريكية البحرية والجوية من على ظهر الطراد Long Beach والمؤلفة من 54 سفينة حربية (بضمنها حاملتا طائرات، حاملتا طائرات هليكوبتر واحدة، سفينة قتالية واحدة، 5 طرادات، 6 مدمرات، 12 فرقاطة)، 160 طائرة مقاتلة، و70 طائرة هليكوبتر.

- قوة المهمات الخاصة في الشرق الأوسط: ومقرها البحرين في الخليج - بقيادة العميد البحري Harold Bernsen وتتكوّن من: سفينة قيادة (Lassalle التي صارت السفينة Coronado بدلاً منها في عام 1988)، حاملتا طائرات هليكوبتر (Guadalcanal التي صارت السفينة Okinawa بدلاً منها في عام 1988)، طراد واحد (Standley الذي صار الطراد Wainwright بدلاً منه في عام 1988)، مدمرة واحدة (Kidd التي صارت المدمرة O'Brien والمدمرة McCormick بدلاً منها في عام 1988)، 6 فرقاطة (Flatley, Hawes, Jarret, Klakring, Rentz, Stark, Stark)، وصارت بدلاً منها في العام 1988 الفرقاطات (Bagley, Halyburten, Jack Williams, Samuel Roberts, Simpson, Stump ويرمائية هجومية واحدة (LPD Raleigh) ثم صارت السفينتان (LPD Trenton, LSD Portland بدلاً منها في عام 1988، 4 سفن لتجهيز الوقود (Acadia, Enhance)، 6 كاسحات ألغام بحرية (Kilavea, Navasota, St.Luis

مجموعة السفن المقاتلة: المنتشرة في خليج عمان: حاملة طائرات واحدة (Enterprise, Fearless, Illusive, Inflict, Grapple)، 5 قوارب حاملة للصواريخ (Hercules, Taurus, Aquila, Aires, Gemini).

- مجموعة السفن المقاتلة: المنتشرة في خليج عمان: حاملة طائرات واحدة (Ranger) التي صارت الحاملة Enterprise بدلاً منها في عام 1988، طراد حامل للصواريخ (Gridley) الذي صار الطراد Truxtun بدلاً منه في شباط 1988، ثم الطراد Vincennes في مايس 1988، 3 مدمرات (Leftwich, John)، ثم الطراد Young, Auchanan التي صارت المدمرات (Chandler, Merrill, Joseph) بدلاً منها في عام 1988، فرقاطتا (Peary, Holt) وجُعل بدلاً منهما الفرقاطتان (Gary, Sides) في عام 1988، سفينتان لتجهيز الوقود (Shasta, Roanoke)، وسفينة مساعدة واحدة (Camden).

- مجموعة السفن المقاتلة USS Constellation في شمال بحر العرب ثم تمت إعادتها إلى الولايات المتحدة في تشرين الثاني 1987 وتتكوّن من: حاملة طائرات واحدة Constellation، وطراد واحد (Reeves)، مدمرة واحدة (Cochrane)، طرادين (Crommelin, Cook)، سفينتا لتجهيز بالوقود، وسفينة مساعدة واحدة.

- مجموعة السفن القتالية: المنتشرة في خليج عمان، ثم تمت إعادتها إلى الولايات المتحدة في شباط 1988 وتتكوّن من: سفينة قتالية واحدة (Missouri) التي جُعلت السفينة Iowa بدلاً منها في كانون الأول 1987، قاربان حاملان للصواريخ (Long Beach, Bunker Hill)، مدمرة واحدة (Hoel) التي جُعلت المدمرة Montgomery بدلاً منها في كانون الأول 1987، فرقاطتان (Schofield, Curts)، وثلاث سفن لتجهيز الوقود (Hassayampa, Kansas, City, Wichita)، وسفينة مساعدة واحدة (Niagara Falls).

الوجود الفرنسي

قاد الأدميرال Jacques Lanxade قوة المهمة 623 (العملية Promethee) من سفينة التجهيز بالوقود Marne. تتكوّن القوة من 14 سفينة حربية (وبضمنها حاملة طائرات واحدة وثلاث فرقاطات حاملة للصواريخ)، 38 طائرة مقاتلة، 8 طائرات هليكوبتر.

- مجموعة المهمة 623-1 المنتشرة في الخليج: فرقاطة حاملة للصواريخ (Georges Leygues)، 4 سفن استطلاع وإرشاد (Protet, Bory, De Lagree, Victor Schoelcher).

- قوة المهمة 623-2 (مجموعة السفن المقاتلة) المنتشرة في خليج عمان: حاملة طائرات واحدة (Clemenceau بقيادة الأدميرال Le Pichon)، فرقاطتان حاملتان للصواريخ (Suffren, Duquesne)، سفينتا تجهيز (Marne, Muse).

- قوة المهمة 623-3 المنتشرة في خليج هرمز: 3 كاسحات ألغام بحرية (Garigliano Cantho, Vinh-Long)، وسفينة مساعدة واحدة (Garonne).

الوجود السوفييتي

سرب المحيط الهندي - 11 سفينة حربية منتشرة في الخليج: سفينة القيادة (Dauriya)، مدمرتان حاملتان للصواريخ (Boevoy, Stoyky)، فرقاطة واحدة (Grisha)، برمائية قتالية واحدة (LST Tortsev)، 3 كاسحات ألغام بحرية (Natya-class-nos. 737,913,91)، 3 سفن تجهيز بالوقود.

الوجود البريطاني

مجموعة سفن Armilla للمراقبة: 9 سفن حربية منتشرة في الخليج ومضيق هرمز: مدمرة واحدة حاملة للصواريخ (Edinburgh)، فرقاطتان (Andromeda, Brazen)، 4 كاسحات ألغام بحرية (Bicester, Brecon, Brocklesby, Hurworth)، سفينة (واحدة) لتجهيز الوقود (Brambleleaf)، سفينة مساعدة واحدة (Abdiel).

الوجود الإيطالي

سبع سفن حربية منتشرة في الخليج ومضيق هرمز: 3 فرقاطات (Grecale, Perseo)، 3 كاسحات ألغام بحرية (Milazzo, Sapri, Vieste)، وسفينة واحدة لتجهيز الوقود (Vesuvio).

الوجود البلجيكي والهولندي

خمس سفن حربية منتشرة في خليج هرمز: 4 كاسحات ألغام حربية (Breydel)، و (Bovesse, Hellevoetsluis, Maassluis)، وسفينة مساعدة واحدة (Zinnia).

المجموع

100 سفينة حربية (بضمنها 3 حاملات طائرات، حاملة طائرات هليكوبتر واحدة، سفينة قتالية واحدة، خمس طرادات، عشر مدمرات، 20 فرقاطة، و23 كاسحة ألغام بحرية)، 200 طائرة مقاتلة، ونحو 100 هليكوبتر محمولة على ظهر السفن.

القوات البحرية والجوية المنتشرة

خلال عملية فرس النبي Praying Mantis (18 نيسان 1988)

الأمريكية

وهي بقيادة العميد البحري Anthony Less من سفينة القيادة Coronado مع سبع عشرة سفينة حربية (بضمنها حاملة طائرات، وطرادان، خمس مدمرات، وخمس فرقاطات)، 86 طائرة مقاتلة، و31 طائرة هليكوبتر.

- مجموعة المهمة ألفا: المنتشرة في خليج عمان وتضم: حاملة الطائرات التي تعمل بالطاقة النووية، 4EA-6، 12 A-6، 28 A-7، 28 F-14، Enterprise (10S-3، 4 E-2، 6 SH-3)، طراد حامل للصواريخ Truxton، مدمرة

- بالوقود، سفينة مساعدة واحدة.
 - مجموعة المهمة Bravo: المنتشرة في خليج عمان قبالة سواحل الإمارات العربية المتحدة: سفينة برمائية هجومية (4AH-1s, UH-1s, 4CH-46s) LDP Trenton، مدمرة واحدة (2SH-60s) Merrill, McCormick.
 - مجموعة المهمة Charlie: المنتشرة في الخليج بالقرب من منصة جزيرة سيدي وتضم: طرادا حاملا للصواريخ Wainwright، والفرقاطتين Bagley, Simpson (SH-2, 2SH-60s 1).
 - قوة المهمة دلتا: المنتشرة في الخليج بالقرب من مضيق هرمز وتضم: فرقاطة O'Brien, Joseph Strauss والمدمرتين (2SH-60s) Jack Williams (2SH-60s).

جدول H-1

خسائر عملية فرس النبي Praying Mantis

البحرية الإيرانية

البحرية الأمريكية

تدمير منصتي نبط اثنتين (ساسان ونصر) إغراق زورق حامل للصواريخ (جوشان) إغراق فرقاطة واحدة (سهند) إلحاق الأضرار البليغة بالفرقاطة (سابلان) إغراق ثلاثة زوارق مراقبة ذوات سرعة عالية نوع Boghammar. وإلحاق الأضرار بثلاثة أخرى. إلحاق الأضرار بطائرة مقاتلة نوع فانتوم. 57 قتيلًا و110 جرحى.	طائرة هليكوبتر بحرية Cobra الذين من القتلى (طاقم)
--	--

الإيرانيون

بقيادة العميد البحري محمد حسين ملكزادكان من مقره في بندر عباس، مع 11 سفينة حربية (3 مدمرات، 4 فرقاطات، 4 زوارق مراقبة ومن بينها زورق واحد حامل للصواريخ)، عدد قليل من الزوارق الحاملة للبنادق، و20 طائرة مقاتلة.

- في المياه العالية في الخليج قبالة سواحل الإمارات العربية المتحدة: قارب الصواريخ جوشان (Combattant-II)، وست زوارق عالية السرعة للمراقبة نوع Boghammar.

- في بندر عباس: الفرقاطات الحاملة للصواريخ: الوند، البرز، سابلان، سهند؛ والمدمرات Babr, Palang, Damvand (وتفتقر إلى أية قيمة عسكرية)، وزوارق مراقبة Parvin, Bahram, Nahid (ويفتقرون إلى أية قيمة عسكرية)؛ سفن برمائية هجومية LST Hengham, Tomb, Larak, Lavan؛ سفن تجهيز الوقود بندر عباس، بوشهر، وخارج؛ السرب 91 المجهز بثماني طائرات فانتوم مقاتلة وقاذفة نوع F-4E؛ السرب 92 المجهز بثلاث بطائرات Orion للمراقبة البحرية نوع P-3F.

- في شاه بهار: السرب 101 المجهز بثماني طائرات فانتوم مقاتلة - قاذفة نوع F-4D.

- المراقبة الجوية بالقرب من بندر عباس: طائرتا F-14A ملحقتان من السرب 81.

ملحق رقم 8-1 خسائر الحرب

الخسائر بالطائرات

العراق

- تدمير 305 طائرات مقاتلة (بضمنها 218 أسقطتها المقاتلات الإيرانية، وأربع طائرات تم إسقاطها من طائرات الكوبرا الإيرانية): 82 ميغ-23، 78 ميغ-21، Su-20 /22 64، 46 ميراج F-1، 9 ميغ-25، Tu-22 9، Tu-16 5، Su-7 4، Su-25 3، 3 هنتر، طائرة واحدة Super Etendard، طائرة واحدة ميغ-29.
- تدمير 150 طائرة هليكوبتر (بضمنها 24 أسقطتها المقاتلات الإيرانية و25 من طائرات الكوبرا الإيرانية): 40 Mi-8، 32 Mi-25 /25، 30 Gazelles، 15 Mi-17، 6 Alouette III، 6 Mi-4، 5 BO-105، 5 MD-500، 4 Mi-6، 4 Super Frelons، 3 Bell 214.
- تدمير ثماني طائرات نقل (بضمنها إسقاط طائرتين من المقاتلات الإيرانية): An-12 3، An-24 3، طائرة واحدة An-26، طائرة واحدة IL-76.

إيران

- تدمير 180 طائرة مقاتلة (بضمنها 55 أسقطتها المقاتلات العراقية): F-5 90، Tiger II، 80 فانتوم مقاتلة F-4، 9 F-14 Tomcat، طائرة واحدة P-3 Orions.
- تدمير 250 طائرة هليكوبتر (بضمنها 13 أسقطتها المقاتلات العراقية)، 100 AH-1 Cobra، 85 AB-212 /214، 53 AB-205 /206، 12 CH-47، Chinooks.

- تدمير 15 طائرة نقل (بضمنها طائرتان أسقطتهما المقاتلات العراقية): C-1308 Hercules، Fokker 27 2، Boeing-747 2، طائرة واحدة Boieng-707، طائرة واحدة إيرباص A-300 (أسقطها الطراد الأمريكي Vincennes).

أسباب فقدان الطائرات الحرب الجوية

العراق

يعتقد طيارو المقاتلات العراقية أنهم أسقطوا 73 طائرةً ومن بينها 70 طائرة إيرانية (55 طائرة مقاتلة، 13 طائرة هليكوبتر، طائرتا نقل).

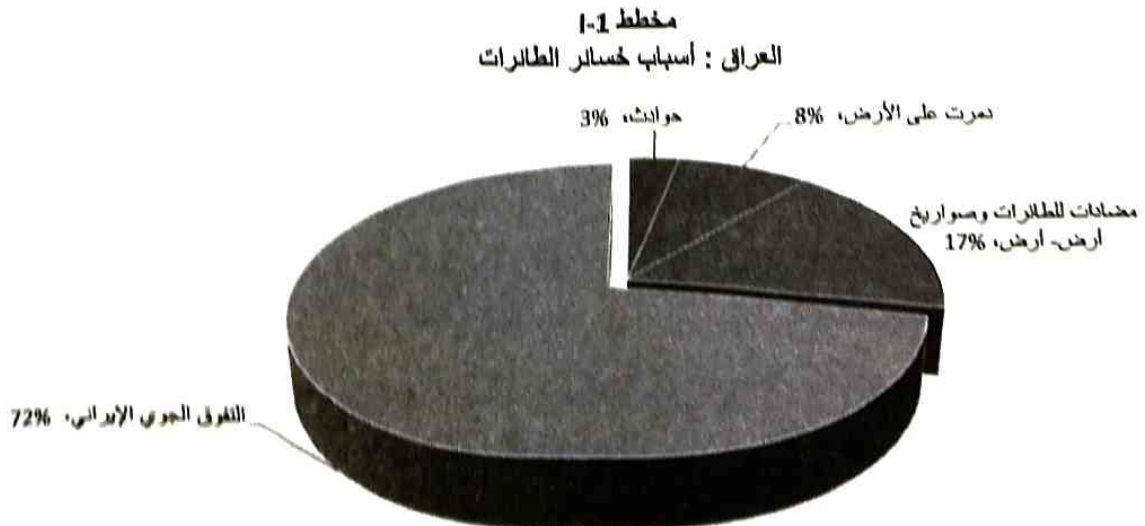
جدول I-1

خسائر الحرب

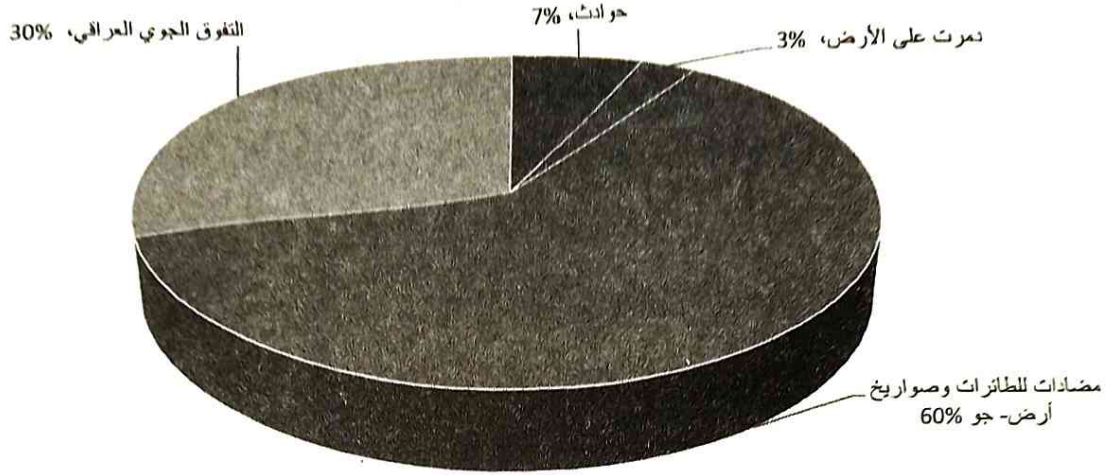
العراق	إيران
الضحايا (المجموع: 680 ألف قتيل ومفقود)	
180 ألف قتيل ومفقود	500 ألف قتيل ومفقود
125 ألف عسكري	380 ألف عسكري وحرس ثوري
5000 مدني	80 باسيج
50000 عراقي كردي	10000 مدني
520000 جريح وقعيد ومشلول تقريبا	30 ألف إيراني كردي
70000 أسير حرب لدى الجيش الإيراني	1,300,000 تقريبا
	45000 أسير حرب لدى الجيش العراقي
الخسائر بالمعدات	
2500 دبابة*	2100 دبابة**
2100 عربات مدرعة أخرى	2300 عربات مدرعة أخرى
650 قطع مدفعية ثقيلة	1000 قطعة مدفعية ثقيلة

الحرب العراقية - الإيرانية |

180 طائرة مقاتلة	305 طائرة مقاتلة
(فضلا عن 120 أصيبت بأضرار بليغة).	(فضلا عن 100 أصيبت بأضرار بليغة)
250 طائرة هليكوبتر (فضلا عن 150 أصيبت بأضرار بليغة)	150 طائرة هليكوبتر (فضلا عن 50 أصيبت بأضرار بليغة)
14 طائرة نقل	8 طائرات نقل
15 سفينة حربية:	15 سفينة حربية:
- فرقاطتان (سهند وسابلان ***)	- زورقا صواريخ Osa-1
- طرادان (Milanian, Kahnamvley ****)	- 5 زوارق صواريخ Osa-II
- زورقا صواريخ	- 6 زوارق TorpedoP-6
- (Paykan, Joshan) Combattent-II-class	- كاسحة ألغام بحرية واحدة
- سفينة برمائية واحدة (Iran Ajr)	- سفينة برمائية هجومية
- 3 زوارق مراقبة	- Polnochny-class LSM
- 3 كاسحات ألغام بحرية، 44 زورق مراقبة	- 13 زورق مراقبة خفيفا
	- خفيفا، طائرتان مائيتان.
	* وبضمنها 400 دبابة T-54 و T-62 استولى عليها الجيش الإيراني.
	** وبضمنها 600 دبابة Chieften, Scorpion, T-55, T-59, T-62 استولى عليها الجيش العراقي.
	*** وعلى الرغم من تعرض الفرقاطة سابلان لأضرار بليغة فإنها تم إصلاحها بعد الحرب
	**** وهناك طراد آخر تعرض لأضرار بليغة.



مخطط رقم I-2
إيران: أسباب خسائر الطائرات



جدول I-2

الانتصارات التي حققها الطيارون العراقيون (هدفان أو أكثر)

الطيار	نوع الطائرة المقاتلة	عدد الأهداف
علي صباح*	ميراج F-1	4
سمير عبد الرزاق	ميغ-21	4
محمد ريان	ميغ-23	4
مخلد عبد الكريم**	ميراج F-1	2
عمر جوبن؟	ميغ-21	2
أحمد سالم	ميراج F-1	2

* مُنح علي صباح ضربتان غير مؤكدتين إضافيتين جعلت منه الطيار العراقي الوحيد الذي يحمل الرمز Ace خلال فترة الحرب.

** اثنان فقط أكدتها السلطات الرسمية من بين أربع عشرة ضربة ادَّعى مخلد عبد الكريم تحقيقهما.

جدول I-3

الانتصارات التي حققها الطيارون الإيرانيون (ثلاثة أو أكثر)

عدد الضربات	نوع الطائرة المقاتلة	الطيار
12	F-14	فضل الله جوادنيه*
11	F-14	جليل زندي**
9	F-14	فريدون علي مازندراني
6	F-14	أبو الفضل مهرجان فر
6	F-14	حسن هرندي
5	F-14	شاهرام رستمي
5	F-14	حسين خليلي
5	F-14	جمشيد أفشار
5	F-14	جليل مسلمي
5	F-14	ك. صدقي
5	F-14	توفنيان
4	F-14	محمد موصبوغ***
4	F-14	يد الله خليلي
4	F-14	عباس أفخمي
3	F-14	علي أصغر جهان بخش
3	F-14	إي. أم. بيروفان
3	F-14	هاشم علي أغا
3	F-14	يد الله جواد بور
3	F-14	يد الله شريف راد
3	F-14	سيافاش بياني

* لدى فضل الله جوادنيه سجل عالمي في تحقيق الضربات بصواريخ Phoenix .

** توفي جليل زندي في حادث مروري بعد الحرب بوقت قصير.

*** محمد مصبوغ الطيار الوحيد الذي أسقط ثلاث مقاتلات بصاروخ واحد.

ملاحظة: يدعي عدة طياري فانتوم الذين حصلوا على رمز Ace للطيران أن انتصاراتهم قد تم مسحها من النظام. أما الآخرون الذين لا يزالون يحتلون مناصب في القوات المسلحة الإيرانية؛ لم يتم التصريح بأسمائهم بسبب الرقابة. هناك روايات مختلفة حول طيار آخر (عليه هدى) الذي أعطته المصادر المؤكدة ستة انتصارات، بينما يذكر الآخرون أنه ترك الخدمة الفعلية بعد اندلاع الحرب.

العراق

- يُعتقد أنّ طياري المقاتلات العراقية أسقطوا طائرة بضمنها (طائرة)، 2 ميغ-21R (للمراقبة والاستطلاع)، طائرة واحدة جزائرية Gulf-stream (طائرة مساعدة).
- طيارو ميغ-21: 32 نصرًا (21 طائرة و11 هلكوبترًا)
 - طيارو ميغ-23: 21 نصرًا (19 طائرة وطائرتا هلكوبتر)
 - طيارو ميراج 15: F-1 نصرًا (طائرات مقاتلة حصراً)
 - طياروا ميغ-25: خمس انتصارات (طائرات حصراً، وبضمنها طائرة واحدة جزائرية Gulf stream).
 - ويُعتقد أنّ طياري طائرات الهلكوبتر قد أسقطوا 20 هلكوبترًا (AH-1 Cobra 10، AB-214 9، واحدة AB-205).

إيران

- يُعتقد أنّ طياري المقاتلات الإيرانية أسقطوا 250 طائرةً بضمنها 244 طائرة عراقية (218 طائرة مقاتلة، طائرتا نقل، و24 طائرة هلكوبتر)، طائرتي ميغ-25، وطائرتي ميغ-27 سوفيتية الصنع، وطائرتي ميراج-5 مصريتين.
- طيارو F-14: 144 نصرًا (47 ميغ-23، 32 ميراج 24، F-1 ميغ-21، Su20 /22 20، 7 ميغ-25، 5 Tu-22، 1 Tu-16، 1 Super Etendard، 1 Mi-24، 1 Super Frelon، و4 ميغ سوفيتية الصنع وميراج مصرية واحدة).
 - طيارو F-4: 80 انتصارًا (29 ميغ-21، 21 ميغ-23، 19 Su-20 /22، 2 ميراج F-1، 2 An-24، 2 Mi-24، 1 Tu-22، 1 هنتر، 1 Bell-214، 1 Super Frelon، 1 ميراج مصرية).
 - طيارو F-5: 26 نصرًا (12 Mi-24، 6 Mi-8، 5 ميغ-21، 2 Su-20، 1 ميغ-25).
 - ويقال إنّ طياري الهلكوبتر "كوبرا" أسقطوا أربع طائرات مقاتلة (2 ميغ-21، 1 ميغ-23، 1 Su-22)، و25 طائرة هلكوبتر (10 Gazelles، 7 Mi-24 /25، 3 Mi-8).

ملحق رقم 9 الكلفة المالية

كان مجموع الكلفة المالية للنزاع لكل من العراق وإيران 1,100 مليار دولار

جدول 1-9 كلفة الحرب المالية للعراق

160 مليار دولار (35%)	خسارة في الموارد المالية النفطية
110 = = (24%)	ديون (لتمويل المجهود الحربي)
90 = = (20%)	أضرار في البنية التحتية
80 = = (18%)	شراء المعدات الحربية
9 = = (2%)	تعويضات عوائل الضحايا
3 = = (-1%)	بناء أنابيب جديدة لنقل النفط
435 = = (1988)	المجموع

المصادر:

Paul Rivlin, " The reconstruction of Iraqi Economy and the Weight of History," Orient 3(2004):369-383;
Kamran Mofid, The Economic Consequences of the Gulf war (London: Routledge, 1990); Anthony Cordesman,
The Lessons of Modern War: The Iraq-Iran War (Boulder, CO: Westview Press), 3-4.

جدول 2-9 كلفة الحرب المالية لإيران

350 مليار دولار (54%)	خسائر في الموارد المالية النفطية
180 = = (28%)	أضرار في البنية التحتية
35 = = (5%)	خسائر في الموارد المالية الصناعية
25 = = (4%)	تعويضات لعوائل الضحايا
20 = = (3%)	شراء المعدات الحربية
20 = = (3%)	تكاليف تتعلق بالمجهود الحربي
12 = = (-2%)	استيراد منتجات نفطية
3 = = (-1%)	الزيادة في بولصيات التأمين (تجارة النفط)
645 = = (1988)	المجموع

المصادر:

Paul Rivlin, " The Reconstruction of Iraqi Economy and the Weight of History," Orient 3(2004); Kamran Mofid, The Economic Consequences of the Gulf War (London: Routledge, 1990); Anthony Cordesman, The Lessons of Modern War: The Iraq-Iran War (Boulder, CO: Westview Press), 3-4.

المصادر

الأرشيفات

خدمة الدفاع التاريخية Service Historique de la Defence

(قلعة Vincennes، فرنسا)

[القسم التاريخي لوزارة الدفاع]

الملفات 9 Z 331/2 and 1997 Z 720/ 1997 (كانت استشارتها بإجازة خاصة من مدير أرشيفات الذاكرة والتراث بوزارة الدفاع) وتحتوي على سجلات المكان، مذكرات الاستخبارات، أوامر المعركة، وتقارير مختصرة وضعها مركز تحليل المعلومات العسكرية حول الحرب العراقية - الإيرانية للفترة 1980-1988.

مركز وودرو ولسن الدولي للباحثين (واشنطن، دي.سي)

(Washington,DC) Woodrow Wilson International Center For Scholars

يُحتفظ بالأرشيف الشفوي بمركز وودرو ولسن بواشنطن بوصفه جزءًا من تصوّر التاريخ الدولي عن الحرب الباردة الذي يتناول الحرب العراقية الإيرانية (1980-1988)، ويوفر لنا المنظورات المباشرة عن انغماس الحكومة الأمريكية في الحرب. وقد فتحت هذه الأرشيفات للعامّة خلال المؤتمر الدولي المنعقد بمقرات مركز وودرو ولسن في 19 تموز 2004.

أرشيفات STASI (المخابرات السرية لجمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة)

المعلومات المتعلقة بالحرب العراقية الإيرانية التي تم الحصول عليها في برلين بفضل بحث Bernd Schaefer كبير الباحثين بمركز وودرو ولسن. وتحتوي هذه الأرشيفات على معلومات رائعة جدًا عن التعاون بين بلدان الكتلة الشرقية السابقة مع العراق وإيران. يمكن الرجوع إليها بعد طلب الدخول على موقع شبكة www.cwihip.org.

جامعة الدفاع الوطني / معهد الدراسات الاستراتيجية الوطني (واشنطن دي.سي)

:(Washington,DC) National Defence University / Institute For National Strategic Studies

يعد الأرشيف الشفوي في جامعة الدفاع الوطني بواشنطن (NDU) جزءًا من مشروع مركز أبحاث سجلات الصراع (CRRC) الذي يضم كل التسجيلات الصوتية الجذابة والوثائق التي استولى عليها الجيش الأمريكي عند دخوله

بغداد في عام 2003. وهذه التسجيلات تضمنت المحادثات (باللغتين العربية والإنكليزية) التي دارت بين صدام حسين والأفراد الذين التقاهم في الفترة 1979-2002. وعند صعوده إلى السلطة أمر الرئيس العراقي تسجيل كل محادثاته وبضمنها محادثاته مع جنرالاته وأن تُسجّل بصورة منهجية "لفائدة الأجيال القادمة". وهذا الأرشيف بهذه الوثائق الأساسية يمكن الرجوع إليها في الموقع بشروط معينة من طريق الاتصال بالموقع: CRRC@ndu.edu. وهناك مختارات من هذه التسجيلات الصوتية تم جمعها في كتاب Saddam Tapes الذي نشرته Cambridge University Press, 2011

قائمة بنسخ التسجيلات الأكثر إثارة

موضوعه	تاريخه	رمز الملف
- تقرير يحلل الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي في إيران.	في 30 حزيران 1980	-SH-GIMD-D-000-842-
- لقاء بين صدام والقيادة القطرية لحزب البعث ومجلس قيادة الثورة يتعلق ببدء الحرب.	في 16 أيلول 1980	-SH-SHTP-A-000-835
- لقاء بين صدام وجنرالاته لمناقشة أمور الحرب.	في 23 أيلول 1980	-SH-SHTP-D-000-847
- لقاء بين صدام والموظفين العراقيين لمناقشة أمور الحرب.	في 6 تشرين الأول 1980	-SH-PDWN-D-001-021
- لقاء بين صدام وجنرالاته يتعلق بأوضاع العراق عند بدء الحرب.	في 12 تشرين الأول 1980	-SH-MISC-D-000-695
- لقاء بين صدام وجنرالاته.	في 17 تشرين الأول 1980	-SH-SHTP-D-000-623
- لقاء بين صدام وجنرالاته.	في 31 تشرين الأول 1980	-SH-SHTP-D-000-826
- لقاء الجنرالات العراقيين لمناقشة تقدم الحرب.	في تشرين الأول	-SH-MISC-D-000-827
- لقاء بين صدام وجنرالاته لتهيئة الجيش لهجوم جديد.	في الأول من تشرين الثاني 1980	-SH-SHTP-D-000-856
- لقاء بين صدام ورئاسة الأركان لمناقشة تقدم الحرب.	في تشرين الثاني 1980	-SH-PDWN-D-000-566
- تقرير عن تقييم التهديد العسكري الإيراني.	في الأول من كانون الثاني 1981	-SH-IISX-D-000-841
- تقرير رئاسة الأركان عن معركة الخفاجية ومناقشة إمكانية استخدام الأسلحة الكيماوية.	في 28 شباط 1981	-SH-IZAR-D-000-278

| الحرب العراقية - الإيرانية |

موضوعه	تاريخه	رمز الملف
- لقاء بين صدام ومستشاريه المقربين حول الهجوم الجوي الإسرائيلي على أوزيراك والقرار بإعادة بناء المفاعل النووي.	في أواسط حزيران 1981	-SH-SHTP-D-000-572 و SH-SHTP-D-000-910
- تقرير عن العمليات العسكرية في قاطع الفرقة العاشرة.	في 26 أيلول 1981	-SH-IZAR-D-001-086
- لقاء بين صدام وجنرالاته حول تطور الحرب.	في أواخر عام 1981	-SH-SHTP-D-000-561
- لقاء بين صدام ومستشاريه حول حالة العلاقات بين العراق وسوريا.	في شباط 1982	- SH-SHTP-D-000-628
- تقرير المخابرات العراقية عن التحركات الإيرانية.	في نيسان 1982	-SH-GMID-D-000-531
- لقاء بين صدام ووزرائه لمناقشة التقدم الإيراني في الأراضي العراقية.	في 21 حزيران 1982	-SH-SHTP-D-000-710
- لقاء بين صدام وجنرالاته بخصوص تطور المعارك الأخيرة.	في أيلول 1982	-SH-SHTP-D-000-864
- لقاء بين صدام وقيادة الجيش العراقي عن تطور الحرب.	في 11 مايس 1982	-SH-PDWN-D-000-029
- مذكرة بين القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية ومديرية الاستخبارات العسكرية حول استخدام الأسلحة الكيميائية.	في الأول من تشرين الثاني 1982	-SH-AFGC-D-000-094
- لقاء بين صدام حسين وجنرالاته لمناقشة تطورات الحرب.	في شتاء 1983	-SH-SHTP-A-000-627
- لقاء بين صدام وقيادة القوة الجوية لتقييم أداء القوات الجوية.	في 7 تموز 1984	-SH-SHTP-A-001-035
- لقاء بين صدام والضباط العراقيين لمناقشة تقدم العمليات.	في 14 تشرين الأول 1984	-SH-SHTP-A-000-735
- تقرير عن أنشطة العراق وإيران العسكرية خلال فترة الحرب.	في كانون الأول 1984	-SH-AADF-000-747
- تقرير حول النشاط الإيراني.	في كانون الثاني 1985	-SH-RPGD-D-000-706
- تقرير عن النشاط العسكري في قاطع الفيلق الرابع.	في كانون الثاني 1985	-SH-IZAR-D-000-781
- تقرير عن الوضع العام في الجبهة.	في شباط 1985	-SH-GMID-D-000-649
- لقاء بين الاستخبارات العسكرية ومديرية العمليات حول النشاط العسكري الإيراني.	في شباط 1985	-SH-GMID-D-000-663
- تقرير عن أوضاع القوات الإيرانية.	في حزيران 1985	-SH-GMID-D-000-744

الحرب العراقية - الإيرانية |

موضوعه	تاريخه	رمز الملف *
- لقاء بين صدام وجنرالاته حول الخطط بمجريات الحرب.	في شباط 1986	-SH-SPPC-D-000-540
- تقرير الاستخبارات العسكرية حول إمكانية استخدام القمر الصناعي الفرنسي للمراقبة المدنية Spot للأغراض العسكرية.	في 17 حزيران 1986	-SH-GMID-D-000-076
- تقرير عن النشاط العسكري الإيراني	في آب 1986	-SH-GMID-D-000-746
- لقاء بين صدام وأجهزة النظام السياسية والعسكرية لتقرير الحالة التي يجب تبنيها بعد الهجمات الصاروخية الإيرانية على المدن العراقية.	في 12 أيلول 1986	-SH-SHTP-D-000-411
- لقاء رئاسة الأركان لمناقشة انتشار القوات الإيرانية على الحدود العراقية.	في 29 تشرين الأول 1986	-SH-MISC-D-000-449
- لقاء بين صدام وجنرالاته حول تسليم الولايات المتحدة وإسرائيل الأسلحة لإيران.	في تشرين الثاني 1986	-SH-SHTP-D-000-608
- لقاء بين صدام ومجلس قيادة الثورة حول خطاب الرئيس ريغان المتعلق ببيع الأسلحة لإيران.	في 15 تشرين الثاني 1986	-SH-SHTP-D-000-555
- لقاء بين صدام ووزرائه حول مغزى مبيعات الأسلحة الأمريكية لطهران.	في أواخر تشرين الثاني 1986	-SH-SHTP-D-000-556
- تقرير عن الخسائر العراقية والإيرانية خلال "معركة اليوم العظيم".	في 27 كانون الثاني 1986	-SH-MISC-D-000-264
- لقاء بين صدام ومستشاريه حول قيام هدنة محتملة.	في عام 1987	-SH-SHTP-D-000-733
- لقاء بين صدام وأعضاء مجلس قيادة الثورة حول حالة العراق واستخدام الأسلحة الكيميائية.	في 6 آذار 1987	-SH-SHTP-A-000-896
- لقاء بين صدام وأعضاء القيادة القطرية لحزب البعث حول تطور الحرب والحاجة إلى استهداف المدن الإيرانية.		-SH-SHTP-A-000-23
- قرار صدام استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المتمردين الإيرانيين والكرديين في إقليم كردستان.	في آذار 1987	-SH-GMID-D-000-133
- لقاء بين صدام وقادة الفيالق لمناقشة "معركة اليوم العظيم".	في 28 آذار 1987	-SH-SHTP-A-000-634
- تقرير عن استخدام القوات الإيرانية للأسلحة الكيميائية ضد القوات العراقية.	في 14 نيسان 1987	-SH-GMID-D-000-125

| الحرب العراقية - الإيرانية |

موضوعه	تاريخه	رمز الملف
- لقاء بين صدام ومسؤولي النظام حول الهجوم على الفرقاطة الأمريكية USS STARK.	27 مايس 1987	-SH-SHTP-A-000-958
- تقرير حول معركة مندلي.	في 4 حزيران 1987	-SH-IAZR-D-001-087
- تقرير الاستخبارات العسكرية حول معمل الكتيبي اللبناني لتصنيع الأسلحة الكيماوية للعراق.	في 6 تموز 1987	-SH-GMID-D-000-087
- حول قدرة إيران الكيماوية والاستخدام المزعوم للأسلحة الكيماوية ضد القوات العراقية.	في تشرين الأول 1987	-SH-GMID-D-000-898
- لقاء بين صدام وجنرالاته حول دور الحرس الجمهوري والجهود لاستعادة جزر مجنون.	في عام 1988	-SH-SHTP-V-000-612
- تقرير يحلل الوضع العام في منطقة الخليج.	في الأول من كانون الثاني 1988	-SH-GMID-D-000-708
- خطط لمواجهة الهجمات الإيرانية والكردية في قاطع حلبجة والخسائر الناجمة عن الهجمات واستخدام الأسلحة الكيماوية.	في 15 آذار 1988	-SH-GMID-D-000-468
- الأوامر بشن عملية الأنفال الثانية ضد الكرد العراقيين.	في 20 آذار 1988	-SH-IZAR-D-000-655
- لقاء بين صدام ومستشاريه المقربين لتقرير المكان الذي سيشن فيه الهجوم المضاد الشامل.	في نيسان 1988	-SH-SHTP-A-000-568
- لقاء بين صدام ورئاسة الأركان حول خطط الخداع، الأسلحة الكيماوية، وعملية الأنفال.	في الأول من مايس 1988	-SH-GMID-D-000-902
- اجتماع رئاسة الأركان حول الوضع العام، ولا سيما في الفاو والمظاهر العسكرية والدبلوماسية للحرب.	في 26 مايس 1988	-SH-PDWN-D-000-730
- لقاء بين صدام وجنرالاته لمناقشة تطورات الحرب.	في 27 حزيران 1988	-SH-SHTP-D-000-538
- لقاء بين صدام وجنرالاته لمناقشة تحرير الفاو.	في تموز 1988	-SH-SHTP-D-000-568
- لقاء بين صدام وأعضاء القيادة القطرية لحزب البعث لمناقشة الانتصار العراقي.	في 9 آب 1988	-SH-SHTP-D-000-816

المقابلات

- عبد الله، عبد الخالق، مدير مركز أبحاث الخليج ومتخصص بمجلس التعاون الخليجي (دبي: في 28 ايس 2009؛ روما : في 2 كانون الأول 2009؛ المنامة في 13 كانون الأول 2009؛ كمبردج: 8 تموز 2010).
- أبو جابر، كامل، وزير الشؤون الخارجية الأردني الأسبق (اتصالات منتظمة منذ عام 2007).
- العامري، علي، جراح عراقي (واشنطن: 27 تشرين الأول 2011).
- العاني، علي، عقيد بالجيش العراقي (روما: 26 ايس 2009).
- العاني، مصطفى، مدير قسم دراسات الأمن الوطني والإرهاب بمركز أبحاث الخليج ومختص بالحرب العراقية الإيرانية (اتصالات منتظمة منذ 2009).
- الأسد، وائل، مدير قسم نزع السلاح والعلاقات المتعددة بجامعة الدول العربية (عمان: في 24 حزيران 2009؛ روما: في 29 تشرين الأول 2009؛ في ولتن بارك في الأول من كانون الأول 2010 و 22 ايس 2012).
- الفيصلي، شهاب، عميد بحري عراقي (روما: في 26 تشرين الثاني 2007).
- الحميداوي، أكرم، عقيد بالجيش العراقي (روما: في 27 تشرين الثاني 2007).
- الجبوري، نجم، جنرال عراقي، ضابط أسبق في قوة الدفاع الجوي المضاد للطائرات (واشنطن: في 26 تشرين الأول، 2011).
- الجبوري، محمد، عقيد بالجيش العراقي (روما: في 9 تشرين الأول 2009).
- المرعشي، إبراهيم، عالم اجتماع متخصص بتأثير الحرب العراقية الإيرانية على المجتمع العراقي (لندن: في 24 أيلول 2010).
- الصباح، ثامر (الشيخ)، رئيس جهاز الأمن الوطني الكويتي (روما: 31 ايس 2010).
- عبد، السماوي، جنرال عراقي (روما: في 9 تشرين الأول 2009).
- الشملان، أسد، مدير معهد الدراسات الدبلوماسية بالرياض، ومتخصص بجغرافية الخليج السياسية (روما: في 3 كانون الثاني 2009؛ المنامة: في 12 كانون الأول 2009).
- السلطان، خضير، عقيد بالجيش العراقي (روما: في الأول من نيسان 2008).
- السويدي، جمال، المدير العام لمركز الدراسات الاستراتيجية والبحث بالإمارات المتحدة (أبوظبي: في 26 ايس 2009).
- الوندائي، مؤيد، أكاديمي عراقي مختص بالحرب العراقية الإيرانية وقريب من الجنرالات الذين قاتلوا إيران (ولتن بارك في 2 كانون الأول 2010).
- الزيني، عبد اللطيف، جنرال بحريني (روما في 2 تشرين الثاني 2009).
- آشتون، نايجل، بريطاني متخصص بدور الأردن في الحرب العراقية الإيرانية (اتصالات مستمرة منذ 2010).
- باعبود، عبد الله، متخصص بشؤون مجلس التعاون الخليجي (اتصالات مسمرة منذ 2009).
- ياسبوس، انطونيو، مدير مرصد الدول العربية (اتصالات مستمرة منذ 2006).
- بشوب، فرزاد، متخصص بالعمليات الجوية للحرب العراقية الإيرانية (اتصالات منتظمة منذ 2010).

- بروم، شلومو، جنرال إسرائيلي متقاعد متخصص في الشؤون العسكرية بمعهد دراسات الأمن الوطني بتل أبيب ومهتم كثيرا بالملفات العراقية والإيرانية.
- بايرن، مالكوم، مسؤول عن تنظيم الأرشيفات الشفوية المتعلقة بالحرب العراقية الإيرانية (لندن في 24 أيلول 2010؛ واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- جورج، كيف، مدير مكتب المخابرات المركزية الأمريكية بطهران عند اندلاع الثورة الإسلامية (واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- كاربير دإنكوز، هلين (باريس في 23 آذار 2011).
- شوبين، بهرام، أكاديمي إيراني متخصص في الحرب العراقية الإيرانية (ولتن بارك في 1-2 كانون الأول 2010؛ واشنطن في 26 تشرين الأول 2011).
- كوجان، شارل، مدير عمليات الشرق الأوسط بالمخابرات المركزية الأمريكية للمدة 1978-1984 (اتصالات منتظمة منذ 2000).
- كوبر، توم، متخصص بالعمليات الجوية خلال الحرب العراقية الإيرانية (اتصالات منتظمة منذ عام 2010).
- كوردزمان، أنتوني، خبير في الشؤون العسكرية والمستشار السابق للإدارة الأمريكية عن الخليج والقضايا المتعلقة به (واشنطن في 25 تشرين الأول 1998؛ روما في 4 آذار 2009).
- إنجيسن، ماريك، مؤرخ متخصص بدور الجنود الأطفال في الحرب العراقية الإيرانية (لندن في 23 أيلول 2010).
- فرهنك، منصور، المندوب الإيراني في الأمم المتحدة للفترة 1979-1980 (واشنطن في 26 تشرين الأول 2011).
- جوبيل، ساندي، عقيد متقاعد من فيلق البحرية، ومراقب جوي سابق في الخليج (روما في 15 شباط 2012).
- مبلي، مارك، دبلوماسي أمريكي سابق مقيم في الخليج خلال الحرب العراقية الإيرانية (لندن في 24 أيلول 2010).
- حسن ياري، هوشانج، مؤرخ إيراني متخصص في النزاعات المعاصرة، والأستاذ في الكلية الملكية العسكرية بكندا (اتصالات منتظمة منذ عام 2008).
- هيسبورج، فرانسوا، المستشار الدبلوماسي السابق لشارل أرنو (اتصالات منتظمة منذ 2012).
- هوركيد، برنارد، مدير البحث في مركز CNRS مقيم في طهران خلال الحرب العراقية الإيرانية (اتصالات منتظمة منذ عام 2006).
- ارديسات، محمد، جنرال أردني ومدير مركز الدراسات الاستراتيجية الأردني (اتصالات منتظمة منذ عام 2007).
- إيزابيل، دونالد، عقيد أمريكي متقاعد الذي قاد عدة مهمات خاصة في الخليج للمدة 1987-1988 (اتصالات منتظمة منتظمة للمدة 2007-2009).
- جافيدنفر، ماثير، إسرائيلي متخصص بالعلاقات بين إسرائيل وإيران (لندن في 23 أيلول 2010).
- قادري سيد، محمد، جنرال مصري متقاعد مسؤول عن الشؤون العسكرية في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية بالقاهرة (اتصالات منتظمة منذ عام 2207).
- كالونوفسكي، آرتم، متخصص في العلاقات بين الاتحاد السوفييتي، العراق، وإيران (لندن في 24 أيلول 2010).
- كامرفا، مهران، مدير مركز الدراسات الدولية والإقليمية في جامعة جورج تاون بالدوحة (إستانبول في 5-6 حزيران 2008).

الحرب العراقية - الإيرانية |

- خليل، أيمن، مدير معهد دراسات الأمن بعمان (اتصالات منتظمة منذ عام 2008).
- كوخ، كرستيان، مدير البحث بمركز أبحاث الخليج (اتصالات منتظمة منذ 2008).
- لاكوست، بيير، الرئيس الأسبق للمديرية العامة للأمن الخارجي [1982-1985] (اتصالات منتظمة منذ عام 1999).
- ماك، ديفد، مدير دائرة "الشرق الأوسط" بوزارة الخارجية بواشنطن في بداية الحرب (واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- مالوفني، بيساك، عقيد متقاعد مسؤول عن مراقبة ورصد الجيش العراقي لحساب المخابرات العسكرية الاسرائيلية خلال فترة الحرب العراقية الإيرانية (واشنطن في 28 تشرين الأول 2011؛ تل أبيب في 5 تموز 2012).
- مؤدب، شهيدي، سفير سابق، وباحث في العلاقات الدولية بجامعة باريس الخامسة - السوربون (باريس في 20 24 آذار 2011).
- منعم، سيد عبد ال، مختص بالشأن السياسي ومختص في العلاقات العربية الداخلية والمدير الأسبق لمركز الأهرام (القاهرة في 6 شباط 2008).
- ميرفي، ريجارد، السفير الأمريكي في العربية السعودية للفترة 1981-1983، ثم مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب شرق آسيا للفترة 1983-1989 (لندن في 24 أيلول 2010؛ واشنطن في 26 تشرين الأول 2011).
- نديمي، فرزين، أكاديمي إيراني مختص بشؤون الطاقة خلال فترة الحرب العراقية الإيرانية (لندن في 24 أيلول 2010؛ واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- نجم، هاني، جنرال عراقي (روما في 22 أيلول 2008).
- ناتلي، دنيس، متخصصة بالقضية الكردية (واشنطن في 26 تشرين الأول 2011).
- نيوتن، ديفد، السفير الذي أعاد فتح السفارة الأمريكية ببغداد خلال فترة الحرب العراقية الإيرانية (واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- نوري، صلاح، جنرال عراقي (روما في 27 آذار 2009).
- رادشكو، سيرجي، متخصص في العلاقات بين الاتحاد السوفييتي، العراق، وإيران (واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- رنجوالا، جلن، باحث بجامعة كمبردج ومتخصص بتمويل المجهود الحربي العراقي خلال الحرب العراقية الإيرانية (لندن في 24 أيلول 2010).
- سريو غلام، محمود، أستاذ إيراني متخصص بالحرب العراقية الإيرانية (كمبردج في 9 تموز 2010).
- سفرنسكايا، سفتلانا، متخصصة في العلاقات بين الاتحاد السوفييتي، العراق، وإيران (واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- سيل، باتريك، مختص بالشأن السوري (اتصالات منتظمة منذ 2003 حتى وفاته في عام 2014).
- سيف، أرمين، مختص في العلاقات بين العراق وإيران بجامعة كمبردج (لندن في 23 أيلول 2010).
- شاكر، محمد، سفير مصري سابق ومدير سابق للمجلس المصري للشؤون الخارجية (اتصالات منتظمة خلال المدة 2008-2012).
- تالماج، كاتلين، مختصة بالحرب العراقية الإيرانية بمعهد ماسوشيستس للتكنولوجيا (لندن في 23 أيلول 2010).
- تومي، هاني، عقيد عراقي وضابط الشباب بالقوات الخاصة خلال الحرب العراقية الإيرانية (روما في 28 شباط 2011).

- ترب، شارل، أستاذ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية ومختص بالنزاع العراقي الإيراني (اتصالات منتظمة منذ عام 2009).
- فيليبوت، نيكولاس، السفير الأمريكي في الأردن ومصر خلال الحرب العراقية الإيرانية (واشنطن في 26 تشرين الأول 2011).
- وودز، كيفن، مسؤول عن الحفاظ على الأرشيفات الشفوية لصدام حسين بجامعة الدفاع الوطني، والمسؤول عن المقابلات المتعددة مع الجنرالات العراقيين (لندن في 24 أيلول 2010؛ واشنطن في 27 تشرين الأول 2011).
- يافي، جوديث، وكيل المخابرات المركزية الأمريكية الأسبق لرصد الحرب العراقية الإيرانية (اتصالات منتظمة منذ 2010).
- ياسين، فريد، السفير العراقي بفرنسا (باريس في 28 كانون الثاني 2010؛ ولتن بارك في الأول من كانون الأول 2010).

التقارير والدراسات

- أطلس الحرب العراقية الإيرانية، الطبعة الثانية، طهران، وزارة فيلق الحرس الثوري الإسلامي، 2010.
- Balta ,Paul, **Le conflit Irak-Iran: 1970-1989. Notes et études documentaires no.4889. Paris: La Documentation française,1989.**
- Barba,Jean-Francois, **Rapport du Controle general des Armees sur L'affaire Luchaire,IN des armes pour L'Iran, edited by Walter DeBock and Jean-Charles Deniau . Paris:Gallimard,1988.**
- Battle, Joyce,ed., **Shaking Hands with Saddam Hussein: The Us Tilt toward Iraq 1980-1984. National Security Archive Electronic Briefing Book no.82. Washington, DC: National Security Archive.Document declassified under the Freedom of Information Act, February 25,2003, <http://nsarchive.gwu.edu/NSAEBB/NSAEBB82/>.**
- Bergquist,Ronald.**The Role of Airpower in the Iran-Iraq War.MaxwellAir Force Base,Montgomery,AL:Airpower Research Institute ,Air University Press,1988.**
- Codrdesman, Anthony, **The Iraq -Iran War and Western Security. London: Jane's Publishing, Royal United Services Institute fir Defence Studies,1987.**
- Gamlen Elizabeth, **US Military Intervention in the Iraq-Iran War. Peace Research Report no.21. University of Bradford,1989.**
- Islamic Republic of Iran,**The Imposed War: Defence versus Aggression. 5 vols. War Information HQ and Supreme Council, 1982-1987.**
- **The Iran-Iraq War: A Referance Aid. Report No.DDB-2600-5954-88 (Report intended for Congress, declassified under the Freedom of Information Act). Simi Valley, Ca: Ronald Ragen Library, Defence Research Series,1988.**

| الحرب العراقية - الإيرانية |

- **Karsh, Efraim, The Iran-Iraq War: A Military Analysis, Adelphi Papers no.220. London: International Institute for Strategic Studies,1987.**
- **King, Ralph, The Iran-Iraq War: The Political Implications, Adelphi Papers no. 219. London : International Institute for Strategic Studies,1987.**
- **Pelletiere, Stephen, and Douglas Johnson. Lessons Learned: The Iran-Iraq War. Charisle, PA: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College,1991.**
- **Rajee, Farhang, Iranian Perspectives on the Iran-Iraq war, Gainesville: University Press of Florida,1997.**
- **Royal United Services Institute for Defence Studies: The war in the Gulf. Whitehall Paper. London : Royal United Services Institute for Defence Studies ,1988.**
- **Sabin, Philp, ed., Operation Morvarid. London: Dept. of War Studies, King's College 2006.**
- **Tower, John, The Tower Commission Report. (Official report of the Tower Commission on the Iran-Contra scandal). New York: Times Book 1987. Extensive excerpts can be found online at <http://www.presidency.ucsb.edu/PS157/assignment20%files20%public/TOWER20%EXCERPTS.htm>.**
- **Woods, Kevin, ed., Saddam's Generals: Perspectives of Iran-Iraq War. Alexandria, VA: Institute for Defence Analyses and National Defence University of Washington, 2011.**

الكتب

- **Aeschimann, Eric, and Christopher Boltanski, Chirac d'Arabie: Les mirages d'une politique française. Paris:: Grasset, 2006.**
- **Angeli, Claud, and Stephanie Mesnier. Notre ami Saddam. Paris: Olivier Orban, 1992.**
- **Ashton Nigel and Brayan Gibson, ed., The Iran- Iraq War: New international perspectives. London: Routledge, 2013.**
- **Balta Paul, Iran-Irak: Un guerre des 5000 ans. Paris: Anthropos-Economica, 1988.**
- **Barzin ,Nader. L'Iran nucléaire. Paris: L'Harmattan, 2005.**
- **Basbous Antoine, and Annie Laurent. Guerre secrete au Liban. Paris Gallimard, 1987.**
- **Benraad, Myrlam. L'Iraq. Idées recues. Paris: Le Cavalier Bleu, 2010.**
- **Bergman , Ronen. The secret War with Iran. New York: Free Press, 2008.**

- Bill,James.The Eagle and The Lion: The Tragedy of American -Iranian Relations. New Haven,CT:Yale University Press,1988.
- Bonnet,Yves. VeBvak au service des ayatollahs: Histoire des services secrets iraniens. Boulongne-Billancourt: Timee -editions,2009.
- Bowden,Mark.Guests of the Ayatollah. New York: Atlantic Monthly Press,2006.
- Brown,Ian. Khomeini's Forgotten Sons:The Story of Iran's Boy Soldiers. London: GreySeal Books,1990.
- Bulloch,John,and Harvey Morris. The Gulf War: Its Origins, History and Consequences. Methuen London Ltd,1989.
- Burgess,William. Inside Septsanz- SovietSpecial Operations: A Critical Analysis. Novato, CA:Presidio Press,1989.
- Cadlot,Jean-Michel. Quand L'Irak entra en guerre. Paris:L'Harmattan, 1989.
- Chubin Shahram,andCharles Tripp. Iran and Iraq at War. London:I.B. Tauris, 1988.
- Cogan, Charles. La Republlque de Dieu: Regards d'un American sur les Etats-Unis et L'Islam. Paris: Jacob-Duvernet,2008.
- Cockburn ,Andrew, and Patrick Cockburn,Out of the Ashes:The Resurrection of Saddam Hussein, New York: Harper,1999.
- Cooper ,Tom, and Farzad Bishop, Iran-Iraq War in the Air,1980-1988,Atglen, PA:Schiffer Publishing,2000.
- Iranian F-4 Phantom II Unlts II in Combat. Combat Aircraft no.37. Oxford:Osprey Publishing,2003.
- Iranian F-4 Phantom II Units In Combat. Combat Aircraft no.49. Oxford: Osprey Publishing,2004.
- Cooper Tom,and Farzad Bishop,with Ahmad Sadlk. Iraqi Fighters,Houston,TX: Harpia Publishing,2008.
- Cooper,Tom,and Farzad Bishop,with Babak Taghvace and Laim Devlin. The Modern Iranian Air Force. Houston,TX: Harpia Publishing,2000.
- Cordesman,Anthony, and Ibraham Wagner. The Iran-Iraq War:The Lessons of Modern War.2 vols.Boulder,CO: Westview Press,1990.

- Coughlin, Con. Hostage: (The Complete Story of Lebanon Captives, London, Little, Broen, 1992.**
- Coville Thierry. Iran: La Revolution invisible. Paris: Editions La Decouverte, 2007.**
- Creighton, John. Oil on Troubled Waters: Gulf Wars 1980-1991. London: Echoes, 1992.**
- Dawisha, Aheed. Iraq: A Political History from Independence to Occupation. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2009.**
- De Bock, Walter, and Jean-Charles Deniau. Des armes pour L'Iran. Paris: Gallimard, 1988.**
- De Guttry, Andrea, and Natalino Ronzitti. The Iran-Iraq War and the Law of Naval Warfare. Cambridge: Grotius Publications, 1993.**
- Dekker, Ige, and Harry Post. The Gulf War of 1980-1988. Dordrecht (Netherlands): Martinus Nijhoff Publishers, 1992.**
- Djalili, Mohammad-Reza. Iran: L'illusion reformiste. Paris: Presses de Sciences Po, 2001.**
- Dubos, Jean-Francois. Vente d'armes: Une Politique. Paris: Gallimard, 1974.**
- Dumas, Roland. Affaires etrangeres (1981-1988). Paris: Fayard, 2007.**
- El Azhary, M.S., ed. The Iran-Iraq War. New York: St. Martin's Press, 1984.**
- Faligot, Roger, and Jean-Guisnel. Histoire secrete de la Ve Republique. Paris: Editions la Decouverte, 2006.**
- Farrokh, Kaveh. Iran at War. Oxford: Osprey Pub. 2011.**
- Favier, Pierre, and Michel Martin-Roland, La Decennie Mitterrand, Vol.3 of Les Defis. Paris: Le Seuil, 1996.**
- Fisk, Robert, Pity the Nation: The Abduction of Lebanon. New York: Atheneum, 1990.**
- Gibson, Bryan. Covert Relationship: American Foreign Policy, Intelligence and the Iran-Iraq War 1980-1988. Santa Barbra, CA: PSI Reports, Praeger, 2010.**
- Giscard d'Estaing, Valery. Le Pouvoir et la vie. Vol. 1. Paris: Compagnie 12, 1989.**
- Guisnel, Jean. Armes de corruption massive: secrets et combines des marshands de canon. Paris: Editions La Decouverte, 2011.**
- , Charles Hernu ou la Republique au Coeur, Paris: Fayard, 1993.**
- Hilterman, Joost. A Poisonous Affair: America, Iraq and the Gassing of Halabja, New York: Cambridge University Press, 2007.**

- Hiro, Dilip. **The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict.** New York, Routledge, 1991.
- Hourcade, Bernard. **Geopolitique de L'Iran.** Paris: Armand Colin, 2010.
- Hourcade, Bernard, with Jean-Pierre Digard and Yann Richard.- **L'Iran au XXe siècle.** 2ed. Paris: Fayard, 2007.
- Hubac, Olivier. **Irak: Une Guerre mondiale de 1980 a nos jours.** Paris: La Martiniere, 2006.
- Johnson, Rob. **The Iran-Iraq War.** London: Palgrave Macmillan, 2011.
- Karsh, Efraim. **The Iran-Iraq War 1980-1988.** Oxford: Osprey Publishing, 2002.
- Katzman, Kenneth. **The Warriors of Islam: Iran's Revolutionary Guards.** Oxford: Westview Press, 1993.
- Kaul, Kapil. **Tanker War: Aspect of Iraq-Iran War 1980-1988.** Leicester: Stosius/ Advent Books, 1989.
- Khadduri, Majid. **The Gulf War: Origins and Implications of the Iran-Iraq Conflict.** Oxford: Oxford University Press, 1988.
- Khosrokhavar, Farhad. **L'islamisme et la mort: Le martyr revolutionnaire en Iran,** Paris: L'Harmattan, 1995.
- King, Ralph. **Irak-Iran: La guerre paralyse.** Editions Bosquet, 1987.
- King, Ralph, and Efraim Karsh, eds. **The Iran-Iraq War and the First Gulf War.** London: Routledge, 2006.
- Laurens, Henry. **L'Orient arab a L'heure americaine.** Paris: Hachette Litteratures , 2008.
- , **Paix et guerre au Moyen-Orient.** 2ed. Paris: Armand Colin, 2005.
- Laurent, Eric, **La face chchee du petrole.** Paris: Plon, 2006.
- Levinson, Jeffrey, and Randy Edward. **Missile Inbound: The Attack on the USS Stark in the Persian Gulf.** Annapolis, MD: U.S. Naval Institute Press, 1997.
- Lorentz, Dominique. **Secret atomique, ou la veritable histoire des otages Francais au Liban.** Paris: Les Arenes, 2002.
- Luizard, Pierre-Jean. **Comment est ne L'Irak modern.** Paris: CNRS Editions, 2009.
- , **La question irakienne.** Paris: Fayard, 2002.
- Mackey, Sandra. **Iraq and the legacy of Saddam Hussein,** New York: W.W. Norton, 2002.

- Marshall, Jonathan, Peter Dale Scott, and Jane Hunter. The Iran Contra Connection. New York: South End Press, 1987.**
- Mauil, Hanns, and Otto Pick, eds. The Gulf War: Regional and International Dimensions. London: Printer Publishers, 1989.**
- Mofid, Kamran. The Economic Consequences of the Gulf War. New York: Routledge, 1990.**
- Nonneman, Gerd. Iraq, the Gulf States and the War. London: Ithaca Press, 1989.**
- Makinsky, Michel, ed. "L'Iran ou la Revolution permanente." Les Cahiers De L'Orient 99 (summer 2010).**
- Malovany, Pesach. Milhamot Bavel HaHadasha (The Wars of modern Babylon). Tel-Aviv: Maarachot, IDF publications, Stematzky, 2010.**
- McDowall, David. A Modern History of the Kurds. London: I.B. Tauris, 2007.**
- Navias, Martin, and E. Hooton. Tanker Wars: The Assault on Merchant Shipping during the Iran-Iraq Conflict. London: I.B. Tauris 1996.**
- O'balance, Edgar. The Gulf War. London: Brassey's Defence Publishers, 1988.**
- Otelli, Jean-Pierre. Pioltes dans la tourmente: Raid sur Baalbek. Levallois- Perret: Editions Altipresse, 2005.**
- Parham, Ramin, and Michel Taubmann, Histoire secrete de la revolution Iranienne. Paris: Denoel, 2009.**
- Parker, John. Persian Dreams: Moscow and Tehran since the Fall of the Shah, Washington, DC: Potomac Books, 2009.**
- Parsi, Trita. Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran and The US. New Haven, CT: Yale University Press, 2007.**
- Pean, Pierre. La Menace. Paris: Fayard, 1987.**
- Pelletiere, Stephen. The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum. New York Praeger, 1992.**
- Perlumtter, Amos, Michael Handel and Uri Bar-Joseph. Two Minutes Over Baghdad. 2ed. London: Frank Cass, 2003.**
- Potter, Lawrence, and Gary Sick. Iran, Iraq and the Legacies of War. New York: Palgrave Macmillan, 2004.**
- Primakov, Yevgeny. Au Coeur de pouvoir: Memoires politique. Paris: Edition des Syrtes, 2002.**

- , **Russia and the Arabs: Behind the Scenes in the Middle East From the Cold War to the Present.** New York: Basic Books, 2009. **Rajaei, Farhang, ed. Iranian Perspectives on the Iran-Iraq War.** Miami University Press of Florida, 1997.
- Razoux, Pierre. Tsahal: novella histoire de L'armee israelienne.** Paris: Tempus Perrin, 2008.
- Rondot, Philippe. L'Irak.** Collection "Que sais-je?" Paris: PUF, 1995.
- Roux, Jean-Paul. Histoire de L'Iran de origins a nos jours.** Paris: Fayard, 2006.
- Ryan, Paul. The Iranian Rescue Mission: Why It Failed.** Annapolis, MD: Naval Institute Press, 1985.
- Saint-Port, Charles. Histoire de L'Iraq.** Paris: Ellipses, 1999.
- Sassoon, Joseph. Saddam Hussein Bath Party: Inside Authoritarian Regime.** Cambridge: Cambridge University Press, 2011.
- Scowcroft, Brent, and George Bush. A world Transformed.** New York: Vintage, 1999.
- Secord, Richard. Honored and Betrayed: Irangate.** New York: Wiley, 1992.
- Shemesh, Haim. Soviet-Iraqi Relations, 1968-1988: In the Shadow of the Iran-Iraq Conflict.** Boulder, CO: Lynne Rienner Publisher, 1992.
- Sick, Gary. All Fall Down: America's Fateful Encounter with Iran.** New York : Random House, 1985.
- Sicker, Martin. The Bear and the Lion: Soviet Imperialism and Iran.** London: Praeger, 1988.
- Sobhani, Sohrab. The Pragmatic Entente: Israeli-Iranian-Relations, 1948-1988.** London Praeger, 1989.
- Stubblefield Gary. Inside the US Navy SEALs.** Osceola, WI-MBI Publishing, 1995.
- Tahir-Kheli, Shirin, and Shaheen Ayubi. The Iran-Iraq War: New Weapons, Old Conflicts.** New York: Praeger, 1983.
- Tarock, Adam. The Superpowers' Involvement in the Iran-Iraq War.** York: Nova Science Publishers, 1998.
- Therme, Clement. Les relations entre Teheran et Moscou depuis 1979.** Paris: PUF, 2012.
- Timmerman, Kenneth. Le lobby de la mort: Comment L'Occident a arme L'Irak.** Paris: Calmann-Levy, 1991.
- Trab Zemzemi, Abdel-Majid. La guerre Irak-Iran: Islam et nationalismes.** Paris: Albatros, 1985.

- Tripp, Charles. *A History of Iraq*. 4th ed. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.
- Vaisse, Maurice. *La puissance ou L'influence? La France dans le monde depuis 1958*. Paris: Fayard, 2009.
- Vasset, Philippe. *Journal intime d'un marchand de canons*. Paris: Fayard, 2008.
- Ward, Steven. *Immortal: A Military History of Iran and its Armed Forces*. Washington, DC: Georgetown University Press, 2009.
- Wise, Harold Lee. *Inside the Danger Zone: The Military in the Persian Gulf 1945-1988*. Newport, RI: U.S. Naval Institute Press, 2007.
- Woodward, Bob. *Veil: The Secret Wars of the CIA 1961-1987*. New York: Simon & Schuster, 2005.
- Van Creveld, Martin. *Israhel: Histoire critique de la force de défense israélienne*. Maastricht: Editions du Rocher, 1998.
- Yodfat, Aryeh. *The Soviet Union and Revolutionary Iran*. London: Croom Helm, 1984.
- Zabih, Sepehr. *The Iranian Military in Revolution and War*. New York: Routledge, 1988.

السيرة الذاتية والمذكرات

- Aburish, Said. *Saddam Hussein: The Politics of Revenge*. London: Bloomsbury, 2001.
- Bakhtiar, Chapour. *Ma fidelite*. Paris: Albin Michel, 1982.
- Balaghi, Shiva. *Saddam Hussien: A Biography*. London: Greenwood Press, 2008.
- Bani-Sadr, Abol Hassan. *Le complot des ayatollahs*. Paris: Editions La Decouverte, 1982.
- , *L'Esperance trahie*. Paris: Editions Papyrus, 1982.
- Bani-Sadr, Abol Hassan, and Jean-Charles Deniau. *My Turn to Speak: Iran, the Revolution and secret Deals with the US*. New York: Brassey's, 1991.
- Bouvet, Beatrice, and Patrick Denaud. *Tarek Aziz: le diplomate de Saddam Hussein*. Paris: L'Harmattan, 2000.
- Christopher, Warren. *Chances of Lifetime*. New York: Scribner, 2001.
- Hochtroudi, Fariba. *All Khamenei ou les larmes de Dieu*. Paris: Gallimard, 2011.
- Karsh, Efraim, and Inari Rautsi. *Saddam Hussein: A Political Biography*. London: Grove Press, 2002.
- Khomeini (Ayatollah). *Pour un gouvernement islamique*. Paris: Fayard, 1979.

La chute: interrogatires de Saddam Hussein par le FBI.Preface and Commentary by Pierre-Jean Luizard.Paris: Editions Inculte/Actes Sud, Temps reel collection, 2010.

Moin, Baqer. Khomeini: Life of the Ayatollah. London:I.B.Tauris,1999.

Saint-Port, Charles. Saddam Hussein, un Gaullism arabe? Paris:Albin Michel,1987.

Seal, Patrick. Abu Nidal:A Gun for Hire. New York: Random House,1992.

————— **.Assad of Syria. London:I.B.Tayris,1988.**

أفلام روائية ووثائقية

القادسية: فلم عراقي من إخراج صلاح أبو سيف يصور معركة القادسية بين العرب والفرس للسيطرة على العراق. 1981 . 120 دقيقة.

Argo : فلم أمريكي من إخراج Ben Affleck حول محاولة المخابرات المركزية الأمريكية إنقاذ الرهائن الأمريكيين في طهران. 2012. 120 دقيقة.

العودة إلى بابل: فلم وثائقي عراقي - فرنسي من إخراج عباس فاضل يوضح التأثيرات السلبية للحرب على المجتمع العراقي. 2002. 52 دقيقة.

Barzakhia : "المعترضون". فلم إيراني من إخراج إيرج غديري يتعلق بمغامرات عدة مقاتلين إيرانيين الذين هربوا من السجن وأجبروا على الذهاب إلى الجبهة. 1982. 94 دقيقة.

باسيجي: فلم إيراني - فرنسي من إخراج مهران تمدون حول القصص البطولية للباسجيين خلال الحرب العراقية الإيرانية ونفوذهم الدائم على المجتمع الإيراني. 2012. 114 دقيقة.

Dar Koocheha-ye Eshgh: "في درب الحب". فلم إيراني من إخراج خسرو سينائي حول معركة خورمشهر. 1990. 83 دقيقة.

Ekhrajiha : "الطريد". فلم إيراني من إخراج مسعود دهنماكي حول المحاربين القدماء، وصعوبة عودتهم إلى الحياة المدنية. 2007. 90 دقيقة.

المفتون بالحب: فلم وثائقي إيراني من إخراج مصطفى أفيني حول حملات الحرب الرئيسية والاتصال الروحي بين الباسدران والإمام الخميني. 1988. 45 دقيقة.

زهور كركوك: فلم إيطالي عراقي من إخراج فيروز كمكاري حول اضطهاد الكرد خلال الحرب العراقية الإيرانية. 2010. 115 دقيقة.

Gilaneh : فلم إيراني من إخراج راخشان بني - اعتماد ومحسن أبو الوهاب يتابع حياة عائلة فرقتها الحرب العراقية - الإيرانية. 2005. 84 دقيقة.

بيت صدّام: فلم تلفزيوني بريطاني من إخراج Alex Holmes و Stephen Butchard يتابع سيرة صدّام حسين ولا سيما في فترة الحرب العراقية الإيرانية. من إنتاج قسم الدراما في BBC . 2008. أربع ساعات.

| الحرب العراقية - الإيرانية |

الحرب العراقية - الإيرانية: فلم وثائقي بريطاني من إخراج Terry Lloyd لحساب قناة 1991 ITN Production, VT Editor, ويمكن مشاهدته على You Tube. 37 دقيقة.

العيش في الغيوم: فلم وثائقي إيراني من إخراج عزيز الله حميد نجاد حول القتال في كردستان العراق، 1988. 45 دقيقة.

برسيبولس: فلم فرنسي بالرسوم المتحركة من إخراج Marjani Sarapi and Vincent

Paronnaud يتحدث عن تجربة لبننت مراهقة تعيش في إيران خلال الفترة ما بعد الثورة ولا سيما فترة الحرب العراقية الإيرانية، 2007. 95 دقيقة.

شبكات الإنترنت (Web Sites)

<http://en.wikipedia.org/wiki/Iran%E2%93%80%Iraq-War> ("free" encyclopedia).

غنية بالمعلومات عن الحرب العراقية الإيرانية

www.globalsecurity.org.

موقع يتحدث عن إشكاليات مفصلة عن الحرب العراقية الإيرانية.

www.fas.org ("cult")

وهو موقع يدار من اتحاد العلماء الأمريكيين، ومفيد بشكل خاص عن القضايا المتعلقة بتطورات أسلحة الدمار الشامل لطرفي النزاع.

شكر وتقدير

لا بدّ أن أشكر أولاً أصدقائي العراقيين والإيرانيين الذين ميّزوا أنفسهم هنا، وأولئك الذين شاركوا في تلك الأحداث الأسطورية وتفضّلوا إلى حدّ كبير بتزويدي برواياتهم الثمينة. أختار الكثير منهم ولأسباب أمنية أن تبقى شخصياتهم غير معروفة. لعلّ هذه السطور تعبّر عن شكري الكبير لهم. وشكري الخاص للدبلوماسيين والصناعيين والصحفيين والشخصيات العسكرية والأكاديمية الذين أناروا هذه الدراسة بتحليلاتهم. والشكر كذلك لأولئك الذين سهّلوا لي الوصول إلى أرشيفات "قسم تاريخ الدفاع" في Vincenne. ويجب أيضًا أن أشكر بالتحديد Frederic Guelton الذي كانت نصائحه واتصالاته وصداقته من أتمن الإسهامات في هذه الدراسة. وأشكر أيضًا: Kevin Woods, David Palkki, Christian Ostermann, Lorry Fenner, Pieter Biersteker إلى الأرشيف الشفوي و"تسجيلات صدام حسين" في واشنطن. والشكر كلّهُ إلى Bernard Hourcade الذي أمدني بمفاتيح حسّاسة تفسّر الصراع على السلطة في إيران؛ وإلى Pesach Malovany؛ لمعرفته الموسوعية بالجيش العراقي؛ وإلى Farzin Nadimi؛ لفهمه حصص الطاقة ومخاطرها، وإلى Francois Heisburg لأطالس الخرائط الاستثنائية لديه؛ وإلى Tom Cooper and Farzad Bishop لتعاطفهم الشديد والاستجابة للإجابة عن الأسئلة التي لا نهاية لها. وأشكر أيضًا Jaques Fremeaux الذي وافق على الإشراف على دراستي لمرحلة ما بعد الدكتوراه وإنجاز هذه الدراسة، وسمح لي الدفاع عنها في جامعة باريس "السوربون" الرابعة.

وأشكر أيضًا مديري "معهد البحث الاستراتيجي في المدرسة العسكرية"؛ لإخلاصهم
ومساندتهم. وأودُّ أن أُعبر عن شكري Giuseppe Vitiello ولكل طاقم المكتبة بكلية
الدفاع لحلف الأطلسي، وكذلك إلى Michel Goya و Florence Gaub لمساعدتهم في
التوثيق. وأخيرًا شكري من القلب إلى Andre Scialom , Jean Nicolas Gauthier,
Laurent Henninger لإعادة قراءة نصِّ هذه الدراسة بإمعان، ونصائحهم ومساندتهم
الحميمة. ويهني شكري العميق، وإلى الأبد، لزوجتي وبناتي اللواتي تحمّلن العبء
الاستثنائي حينما كنت أكتب هذا الكتاب.

الفهرست

- 372 :Quilles, Paul
515 ,363 :Raimond, Jean-Bernard
371 :Rainbow, Warrior
581 :Reiss, Clotilde
356 :Rene-Pierre Audran
518 ,513 :Roger Auque
565 :Rogers, William
369 :Schmitz, Karl-Erik
227 :SNIAS (وكالة الفضاء الخارجي):
SNPE (الجمعية الوطنية للبارود
والمفجرات): 688
688 ,374 ,127 :Thomson-CSF
722 :Tower, John
أسيا: 260 ,352 ,370 ,421 ,502 ,720
راجع أيضا كل بلد على حدة
أل ثاني، خليفة: 146
إبراهيم، ضياء توفيق: 639
إبراهيم حسين: 277
أبو ظبي: 146 ,466 ,550 ,552 ,718
أبو موسى (جزيرة): 83 ,427 ,468
552 ,554 ,564 ,622
أبو نضال: 275
اتحاد رجال الدين المقاتلين: 32 ,33 ,47
76 ,95 ,111 ,113 ,121
152 ,168 ,169 ,182 ,183
198 ,199 ,204 ,205 ,221
224 ,225 ,228 ,230 ,231
262 ,278 ,287 ,388 ,428
482 ,556 ,557 ,596 ,597
602 ,624 ,626
إثيوبيا: 689
سلطان أحمد: 316 ,640
محمود أحمددي نجاد: 229 ,581 ,597
الأحمر، البحر: 152 ,245 ,246 ,390
630
الأردن: 53 ,128 ,142 ,143 ,210 ,212
218 ,683 ,693 ,718 ,721
- 372 :Díaz, Francois
372 ,371 :Dubos, Jean-Francois
724 ,373
Eagles، النسر: 112 ,175 ,178 ,186
553 ,293 راجع أيضا القوة
الجوية الإيرانية
Eurodif، قرض: 130 ,131 ,299 ,355
356 ,357 ,358 ,361 ,362
363 ,364 ,517 ,518 ,579
580 ,630 ,632 ,634 ,635
Falcon: 344 ,345 ,469 ,506 ,646
655 ,664 راجع أيضا انظر
أيضا: القوة الجوية العراقية
Falcoz, Andre: 372
Favier, Pierre: 517
H-3: 211 ,626
IAEA (منظمة الطاقة الذرية الدولية):
131 ,383
ICRC (منظمة الصليب الأحمر الدولية):
310 ,376
JSC الدولية: 367
Kamikazes: 521
Kamkari, Fariborz: 512
Kitty Hawk: 480
Lacost, Pierre: 373 ,371 ,346
Lanxade, Jacque: 516 ,701
Le Canard enchainé، صحيفة: 371
Leeden, Michael: 472
Legrand, Michel: 373
Le Pichon: 516 ,701
Less, Anthony: 550 ,699 ,702
Manhurin, Cop: 374 ,688
Marcel Carton: 518
Marchiani, Jean-Charles: 517
Martin-Roland, Michel: 517
Matra (شركة): 374 ,462 ,646 ,663
Presse de la Manche (صحيفة): 370
- 341 :Terry Anderson
نم Argo: 108 ,729
372 :Barba, Jean-Francois
130 :Barre's, Raymond
نم Barzakiha: 729
Bernsen, Harold: 520 ,521 ,529 ,699
Besse, Georges: 363
Bianco, Jean-Luis: 357
Boulouque, Gilles: 514
Brindel, Glenn: 503 ,504
Broman, Mark: 368
Brooks, Dennis: 521 ,524 ,699
Brown, Ian: 433 ,723
Buckley, William: 351
Carlucci, Frank: 555
Cavallot, Guy: 227
Cave, George: 221 ,328 ,476
Chevallier, Guy: 374
Chevenement, Jean-Pierre: 133
CIEEMG، اللجنة الوزارية لدراسة تصدير
المواد الحربية: 372
Angeli, Claud: 722
Cogan, Charles: 106 ,104 ,113
Cornea, Aurel: 364
Coughlin, Con: 342
غاز CS: 295
CSPPA، (لجنة التضامن مع السجناء
السياسيين العرب وفي الشرق
الأوسط): 362
Dassault Corporation: 127 ,128
343 ,344 ,345 ,462 ,506
Dewavrin, Daniel: 371
DGSEDGSE (المديرية العامة للأمن
الخارجي): 371 ,374 ,358

一、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

一、
二、
三、
四、
五、
六、
七、
八、
九、
十、

| الحرب العراقية - الإيرانية |

القوة الجوية العراقية: 49, 53, 57, 59,	الشكرجي، طه: 165	نظريات اشتراكية: 120
,172, 194, 219, 239, 253,	الشيخ عبد الله (ثكنات): 346, 347	البكر، أحمد حسن: 80, 97
,291, 293, 381, 383, 387,	الصومال: 294	البوش: 94, 638
,390, 405, 416, 425, 429,	علوان العبوسي: 467, 507, 508	التجمع من أجل الجمهورية: 359
,430, 447, 448, 460, 462,	مضادات الدفاع الجوي العراقية: 39, 55,	الذكري، برزان إبراهيم: 277
,466, 487, 501, 503, 506,	718, 218	الجبهة العربية لتحرير الأهواز: 165, 677
,526, 531, 538, 545, 595,	القادة العرب: 37, 142, 311, راجع	الجزائر: 25, 29, 37, 73, 86, 88, 90,
630, 631	أيضا الجامعة العربية	,107, 117, 126, 142, 144,
ألمانيا: 114, 136, 137, 138, 299,	الجامعة العربية: 144, 147, 152, 403	,148, 275, 577, 584,
,354, 369, 378, 388, 459,	فوزي حميد العلي: 334	625, 593, 623,
,472, 526, 663, 682, 683,	الحمل المباشر: 356, 363, 364	اتفاقية: 25, 29, 37, 73, 86, 88,
690, 713	العيش في الغيوم (فلم): 411, 730	,90, 148, 275, 584, 623
ألمانيا الشرقية: 378, 388	الأفلام: 137, 138, 175, 178, 187,	الجنابي، علاء الدين حماد: 187, 190,
النمسا: 368, 369, 447, 661, 668,	,194, 240, 241, 285, 301,	,191, 194, 274, 639
681, 689	,390, 429, 436, 484, 508,	الحدود بين العراق وإيران: 621, راجع
اليابان: 292, 310, 520, 684,	,509, 516, 520, 521, 524,	أيضا اتفاقية الجزائر وشط
اليهود: 55, 66, 155, 157, 158,	,525, 527, 528, 533, 549,	العرب
اليونان: 369, 372, 689, 698,	,586, 595, 598, 630, 634,	الحرب الباردة: 18, 37, 78, 104, 119,
الإمارات العربية المتحدة: 83, 146, 386,	679, 683	,297, 303, 510, 713
,415, 427, 466, 520, 703,	شبه جزيرة الفاو: 72, 167, 184, 187,	الحرب العالمية الأولى: 77, 301, 310,
704	,188, 190, 192, 291, 302,	,318, 318, 335, 375, 376, 378,
اتفاقية أماسيا: 76	,338, 380, 436, 437, 438,	583, 593, 600
الأمريكي، الجيش: 19, 24, 43, 713,	,439, 440, 441, 442, 443,	الحرب العالمية الثانية: 78, 126, 131,
راجع أيضا انظر أيضا: البحرية،	,444, 445, 447, 448, 449,	,322, 327, 371, 375, 379,
العسكرية، الفرنسي، انظر أيضا:	,451, 453, 454, 459, 460,	,519, 555, 593, 595, 698,
فرنسا؛ بحرية، فرنسي.	,479, 481, 482, 502, 508,	الحصاد الأكبر: 495
أمل الفصائل الشيعية: 226, 236, 347,	,526, 530, 531, 536, 541,	القنبلة الذرية: 105, 156, 195, 298,
الأمم المتحدة: 20, 85, 134, 258, 259,	,543, 544, 545, 546, 556,	383, 581, 600
,281, 297, 310, 311, 366,	,559, 560, 573, 615, 632,	منظمة الطاقة الإيرانية الذرية: 131, 299,
,376, 389, 510, 527, 539,	635, 650, 671, 672, 717,	580
,570, 575, 594, 719	فلم القادسية: 100, 729	السلاح
محمد فتحي أمين: 639	القرنة: 283, 332, 380, 401, 402,	السوق الموازي: 472
الانتشار السريع، قوة: 110, 261,	,48, 30, 28, 50,	تجارة السلاح غير الرسمية: 159, 373,
إنجلز، جيمس: 553, 554	,52, 53, 58, 158, 186, 187,	472
يوري أندروبوف: 119	,192, 192, 211, 234, 290, 292,	السويد: 368, 369, 668, 669, 683,
أندمشك: 169, 311	,374, 388, 389, 391, 427,	688
الأموار، المعركة الأولى في: 200, 233	450, 537, 543	الشرعية: 91, 232

.677, 675, 674, 673, 672	.291, 288, 281, 280, 279	.176, 175, 170, 169, 167, 61, أهواز:
.694, 693, 691, 686, 685	.299, 298, 297, 293, 292	.204, 200, 195, 184, 183
.705, 698, 697, 696, 695	.319, 317, 314, 311, 305	.463, 380, 269, 234, 233
.718, 717, 714, 710, 706	.337, 330, 329, 324, 323	655, 645, 625, 577
731, 730	.349, 348, 345, 342, 341	أوبك (منظمة البلدان المصدرة للنفط): 86،
إيران-كوترا، قضية: 19, 471, 475	.355, 354, 353, 352, 351	.153, 148, 144, 142, 128
الإيراني، الجيش	.367, 366, 365, 364, 363	.417, 415, 391, 258, 244
الأسلحة السوفيتية التي تم الاستيلاء	.373, 372, 370, 369, 368	693, 692, 589, 418
عليها: 121, 707	.380, 378, 376, 375, 374	أوجلان، عبد الله: 398, 410, 457, 600
التنافس بين باسدران والجيش النظامي:	.389, 387, 385, 383, 381	أوروبا: 81, 85, 96, 134, 367, 359,
182, 94, 45, 41	.406, 398, 397, 393, 391	368, 370, 528. راجع
حالة: 29, 496	.417, 416, 415, 413, 408	أيضا انظر أيضًا: بلدان على
ضعف: 24	.429, 424, 423, 421, 419	انفراد
عدم ثقة النظام: 44, 45, 101, 557	.444, 434, 433, 431, 430	الإيراني، الحزب الشيوعي: 119, 424,
معدات: 651, 673	.455, 452, 450, 449, 445	إيران: 17, 18, 19, 20, 24, 25, 26,
مقارنة مع الجيش العراقي: 31, 33,	.463, 462, 460, 458, 457	.27, 29, 30, 31, 32, 33, 34,
.638, 589, 329, 143, 43	.474, 473, 472, 471, 466	.50, 45, 44, 41, 38, 37, 36,
706	.479, 478, 477, 476, 475	.55, 56, 59, 61, 73, 78, 81,
الإيرانية، رحلة الطيران 665: 549	.492, 489, 487, 482, 480	.82, 83, 84, 85, 87, 88,
إيطاليا: 137, 294, 369, 375, 526,	.500, 499, 498, 497, 493	.89, 90, 92, 93, 94, 95,
688, 679, 669, 664, 663	.508, 504, 503, 502, 501	.96, 101, 102, 103, 104,
إيفرن، كنعان: 160, 458, 512	.516, 515, 513, 510, 509	.105, 106, 107, 108, 109,
إيلام (عيلام): 66, 174	.526, 521, 520, 519, 518	.110, 111, 112, 114, 115,
بادفيلد، فيليب: 354, 476	.532, 531, 529, 528, 527	.116, 117, 118, 119, 120,
باركوفسكي، أناتولي: 118	.547, 543, 539, 537, 533	.121, 122, 123, 125, 131,
باسدران: 94, 167, 184, 401, 438,	.562, 558, 557, 556, 549	.132, 133, 137, 138, 143,
.459, 484, 490, 493, 541,	.569, 568, 565, 564, 563	.144, 145, 146, 147, 148,
562, 563. راجع أيضا أنظر	.576, 575, 574, 572, 571	.149, 150, 151, 152, 153,
أيضاً: الحرس الثوري	.583, 582, 581, 580, 577	.154, 155, 156, 157, 158,
باسكوا، تشارلز: 517, 515,	.589, 588, 587, 586, 584	.159, 161, 162, 163, 167,
باسيجي، فلم: 435, 729	.595, 593, 592, 591, 590	.171, 181, 183, 193, 196,
باكستان: 161, 558, 656, 670, 691,	.614, 604, 598, 597, 596	.204, 205, 206, 207, 209,
بالم، أولف: 259	.624, 623, 622, 621, 618	.210, 216, 219, 223, 224,
باول، كولن: 531, 549, 550	.629, 628, 627, 626, 625	.225, 226, 229, 231, 236,
البحري، مناطق الحظر: 288, 289, 290,	.635, 634, 633, 632, 631	.243, 244, 245, 246, 257,
.293, 498, 508, 519, 524,	.651, 642, 638, 637, 636	.259, 261, 262, 263, 264,
664, 628, 565	.671, 670, 669, 668, 665	.265, 274, 275, 276, 277,

المرب العراقية - الإيرانية |

.672, 671, 660, 649, 648	,85, 84, 81, 80, 79, 78, 77	البحرية الأمريكية: 117, 188, 347,
714, 692, 676	,97, 96, 90, 89, 88, 87, 86	,521, 519, 505, 478, 354
قصف: 55, 56, 58, 171, 172, 173,	,105, 104, 103, 102, 99	,530, 527, 526, 525, 522
,467, 463, 408, 407, 406	,120, 119, 118, 114, 109	,555, 554, 552, 550, 531
539, 538, 532, 487	,129, 128, 126, 125, 124	,586, 572, 568, 566, 565
محاولة الإيرانيين لتهديد: 25, 249,	,143, 142, 137, 136, 130	703, 699, 635, 634, 629
,308, 307, 294, 274, 264	,151, 149, 147, 145, 144	البحرية، الإيرانية: 147, 187, 188, 193,
,445, 440, 400, 329, 314	,162, 161, 160, 158, 154	,468, 428, 294, 263, 194
,491, 487, 481, 456, 454	,179, 173, 172, 171, 163	,556, 521, 517, 510, 499
495	,207, 206, 195, 189, 186	703, 632, 557
محاولة الإيرانيين لعزل بغداد: 243,	,235, 227, 219, 214, 210	البحرية، البريطانية: 43, 586
,497, 376, 315, 284, 245	,248, 245, 243, 242, 240	البحرية، العراقية: 138, 187, 189,
540, 510, 509	,262, 261, 259, 258, 249	,291, 290, 193, 191, 190
بلجيكا: 369, 370, 526, 683, 690	,277, 275, 274, 264, 263	664, 625, 459
بلغاريا: 122, 304, 668, 669, 687	,285, 284, 280, 279, 278	البحرية، الفرنسية: 130, 188, 343,
بلوجستان: 24	,298, 295, 294, 291, 289	517, 516
بنتاغون: 105. راجع أيضا انظر أيضا:	,309, 308, 307, 304, 303	برانتور، قرج الله: 213
الجيش الأمريكي	,318, 317, 315, 314, 311	البرتغال: 369, 687
بنجوين: 301, 317, 318, 411, 445,	,325, 323, 322, 321, 319	برتوكول القسطنطينية: 78
644, 575	,332, 331, 330, 329, 328	برجوردي، محمد: 313
بن يحيى، محمد صادق: 258	,352, 351, 350, 343, 341	برزاني، إدريس: 27
بهانور، محمد جواد: 225	,377, 376, 375, 366, 353	برزاني، مسعود: 27, 510, 562, 675
بهرام أفضلي: 189, 428, 641	,397, 393, 391, 380, 379	برسيبولس، (قلم): 539, 730
بهشتي، محمد: 96	,406, 403, 402, 401, 400	بريجنسكي، زبيغنيو: 106, 107, 112,
بوبيان، جزيرة: 190, 444, 445, 531	,417, 410, 409, 408, 407	بريجينيف، ليونيد: 120, 263, 303, 628,
بوش، جورج: 419, 476, 479, 550	,450, 445, 440, 422, 419	بريطانيا: 83, 85, 135, 367, 591,
بوشهر، المفاعل النووي في: 132, 299,	,459, 456, 454, 453, 451	621
630, 592, 578, 383, 382	,479, 469, 467, 463, 460	بريماكوف، يوفغيني: 118, 591
بولارد، جونتان: 478	,491, 489, 488, 487, 481	بزركان، مهدي: 93, 106, 107, 110,
بولندا: 661, 681	,505, 504, 501, 498, 495	624, 557
البوليساريو، جبهة: 143	,537, 536, 532, 527, 509	بستان: 68, 235, 237, 239, 243,
بومبيدو، جورج: 127	,557, 541, 540, 539, 538	627, 251, 249
بومدين، هواري: 88, 148	,578, 575, 564, 563, 562	بشارتي، علي محمد: 452
بيرث دي كويار: 281, 527, 576, 577	,586, 585, 583, 581, 579	بعلبك، الغارة على: 346, 349
بيروت: 19, 151, 226, 341, 342,	,623, 622, 621, 599, 589	بغداد: 17, 19, 23, 24, 25, 26, 30,
351, 349, 348, 347, 345	,630, 629, 628, 627, 626	34, 35, 38, 45, 47, 55, 56,
361, 360, 357, 354, 353	,647, 646, 644, 635, 634	57, 58, 61, 62, 64, 67, 76,

| الحرب العراقية - الإيرانية |

جوتير، كريستيان: 363	.236, 231, 205, 182, 170	.416, 377, 374, 364, 363
جودمان، بوب: 348	.285, 271, 268, 255, 250	.477, 476, 474, 423, 422
جوسبن، ليونيل: 354	.323, 318, 313, 287, 286	.631, 629, 628, 518, 478
جوكس، بير: 133	.535, 498, 461, 356, 341	راجع أيضا لبنان
جيوتي: 516	.628, 625, 623, 615, 597	ببشمركة: 495, 492, 459, 457, 330
جيرو، أندريه: 372	.641, 640, 635, 634, 630	.676, 675 راجع أيضا انظر:
جيسكار ديستان، فاليري: 125	.670, 667, 666, 665, 651	كردستان: الكرد
الحب للفتون، فلم: 433	.721 راجع أيضا انظر أيضا:	بيغن، مناحيم: 26, 105, 156, 158,
حرب الصفارات: 518, 515, 519, 633	الجيش الإيراني، الباصيج.	473, 275, 215
634	جابر الثالث (أمير الكويت): 145	بيكر: 676, 596, 168
حرب المدن: 380, 405, 406, 408	جاكسون، جيمي: 348	بين اظليك: 108
.631, 629, 538, 488, 487	جان الياسون: 579	تاتشر، مارغريت: 134, 135, 528
633	جبار، فخري حسين: 214	تامسون، مهران: 435
حرب الأيام الستة: 103, 126, 504, 583	الجيوري، محمد جاسم: 48, 60, 179,	تاور، جون: 471
حزب الله: 288, 336, 341, 342, 345	.302, 338, 443, 444, 449	تايلور: 260, 372, 690
.349, 351, 354, 357, 360	639	تركيا: 82, 90, 91, 149, 159, 160,
.416, 422, 423, 452, 472	الجيوري، نجم: 718	.161, 162, 163, 210, 212,
473, 629, 687	جزر مجنون: 332, 333, 334, 335,	.226, 243, 244, 245, 246,
حسين، صدام: 17, 19, 20, 24, 25, 26	.336, 337, 338, 399, 401,	.258, 259, 303, 327, 329,
.27, 28, 29, 30, 33, 34, 35	.409, 433, 438, 560, 563,	.388, 397, 398, 450, 457,
.36, 37, 41, 45, 47, 48, 60	.630, 631, 632, 636, 717	.458, 459, 492, 543, 586,
.73, 75, 79, 80, 82, 83, 84	جلالي، علي: 331, 339	.590, 599, 600, 630, 684,
.85, 86, 88, 89, 92, 96, 98	جمال، ضياء الدين: 485, 640	691, 692
.99, 100, 101, 102, 103	الجمهوري، الحرس: 41, 64, 172, 179,	تريشييه، جان كلود: 363
.104, 109, 115, 118, 121	.318, 325, 326, 335, 338,	تشلوفاكيا: 661
.126, 128, 129, 133, 142	.402, 440, 443, 444, 459,	فك التشفير من إيران: 323
.143, 145, 146, 147, 148	.484, 487, 488, 512, 536,	تشيرنينكو، كونستنتين: 349
.149, 150, 151, 152, 165	.544, 545, 546, 559, 562,	تشيرون، كلود: 133
.168, 169, 173, 176, 179	.577, 606, 640, 645, 660,	التضحية، يُعلم الأطفال على: 432
.181, 182, 183, 194, 195	.717 راجع أيضا انظر أيضاً:	التكريتي، سبعاوي إبراهيم: 277
.206, 210, 214, 218, 219	الجيش العراقي	تنظيم الجهاد: 147
.225, 235, 242, 243, 244	جنكو، لورنس: 354	توفنيان، حسن: 709
.245, 251, 253, 257, 258	جنوب إفريقيا: 370, 447, 661, 668,	تونس: 144
.259, 261, 263, 264, 271	682, 689	الثورة، مجلس قيادة: 79, 89, 274, 277,
.273, 274, 275, 276, 277	جنوب اليمن: 152	621, 716
.278, 279, 280, 281, 284	جنيف، بروتوكول: 375, 376	الثوري، الحرس: 27, 28, 30, 32, 41,
.288, 293, 294, 295, 299	الجهاد، مفهوم الإسلام لل: 232	.45, 62, 71, 166, 167, 169,

الغرب العراقي - الإيرانية |

.113 .111 .110 .109 .107	خاشقجي، عدنان: 368، 474	.318 .315 .312 .307 .301
.155 .151 .149 .132 .121	الخاقاني، محمد طاهر: 32	.329 .325 .324 .322 .319
.182 .178 .168 .159 .157	خالد (ملك العربية السعودية): 28، 90	.380 .352 .351 .350 .338
.224 .222 .221 .214 .199	.146 .145 .144 .103 .102	.408 .407 .403 .393 .381
.230 .229 .228 .226 .225	624 .245 .153	.424 .421 .416 .415 .410
.254 .250 .234 .232 .231	خامنشي، علي: 20، 45، 94، 96، 223	.453 .452 .449 .443 .429
.278 .271 .265 .257 .255	.255 .230 .229 .228 .224	.481 .479 .463 .456 .454
.299 .298 .285 .281 .279	.307 .298 .285 .279 .278	.490 .489 .487 .485 .482
.395 .367 .331 .317 .307	.423 .413 .403 .398 .397	.498 .497 .495 .493 .492
.407 .405 .400 .397 .396	.477 .458 .455 .454 .429	.511 .509 .507 .505 .504
.433 .424 .423 .420 .413	.575 .564 .527 .489 .483	.541 .538 .537 .532 .528
.481 .477 .472 .458 .455	.604 .597 .589 .588 .578	.559 .558 .550 .546 .543
.556 .539 .514 .491 .483	.640 .637 .631 .626 .605	.573 .572 .564 .562 .560
.575 .574 .571 .560 .558	641	.578 .577 .576 .575 .574
.602 .588 .587 .578 .576	خدام، عبد الحليم: 452	.587 .585 .584 .582 .579
640 .637 .636 .632 .623	خرازي، حسين: 166، 167، 495، 641	.602 .591 .590 .589 .588
خميني، أحمد: 367	الخرذل، غاز: 318، 335، 375، 442	.622 .621 .609 .608 .607
خميني، مصطفى: 92	493. راجع أيضا انظر أيضاً:	.627 .626 .625 .624 .623
خنادق: 41، 301، 315، 316، 332	الأسلحة الكيماوية	.636 .633 .631 .629 .628
خورمشهر: 23، 167، 169، 170، 175	الخرزجي، نزار: 338، 377، 447، 492	731 .729 .715 .714 .639
.182 .179 .178 .177 .176	.582 .562 .560 .543 .536	حسين، علي: 80، 326، 546، 587
.209 .205 .201 .196 .195	639	حسين (ملك الأردن): 28، 103، 142
.248 .243 .241 .240 .235	الخليج، دول: 104، 311، 469. راجع	.262 .245 .219 .218 .143
.273 .272 .271 .268 .267	أيضا انظر أيضا: مجلس التعاون	453 .452 .310 .284
.482 .439 .437 .277 .274	الخليجي، كل قائد أو دولة على	حليجة: 206، 313، 330، 411، 445
.621 .620 .560 .546 .483	انفراد.	.541 .540 .535 .512 .447
.659 .653 .645 .627 .625	الخليج، ملكيات: 26، 90، 102، 118	717 .635 .617 .575 .542
729 .660	145، 622. راجع أيضا انظر	الحمداني، رعد مجيد رشيد: 405
خوزستان: 23، 24، 32، 34، 61، 67	أيضاً: دول الخليج	حميد نجاد، عزيز الله: 411، 730
.183 .182 .165 .77 .71 .69	خليج عمان: 110، 112، 385، 516	الحميدية: 70، 71، 183، 184، 200
.214 .210 .205 .200 .185	.700 .656 .630 .520 .519	203
.240 .239 .238 .236 .233	703 .702 .701	خاتمي، محمد: 17، 167، 224، 229
.287 .286 .269 .267 .248	خليلي، حسين: 537، 709	598 .556 .461 .337 .279
.620 .610 .577 .574 .462	خماس، علاء الدين مكي: 326، 536	.382 .381 .288 .162
.665 .653 .645 .626 .621	الخميني، آية الله: 17، 25، 26، 27، 29	.429 .428 .425 .385 .384
693 .677	.94 .93 .92 .90 .47 .33 .32	.529 .465 .464 .462 .460
.170 .99 .89 .61 .30	.106 .102 .100 .97 .96 .95	695 .631 .628 .625 .576

| الحرب العراقية - الإيرانية |

رفسنجاني، أكبر هاشمي: 17، 20، 47،	620، 587، 294	241، 277، 311، 315، 325،
117، 96، 163، 182، 199،	تجنب صدام للطائفية: 18	335، 377، 441، 443، 456،
222، 223، 224، 227، 228،	حركة الأصولية الإسلامية: 458، 593	463، 491، 492، 544، 560،
229، 230، 231، 232، 236،	للأصولية الإيرانية: 338	587، 609، 637، 639،
237، 239، 250، 254، 255،	دينغ أكسيوبنغ: 123، 305	167، 175، 176، 194، 234،
259، 271، 275، 278، 279،	الذرية، الطاقة: 85، 128، 131، 219،	268
280، 285، 286، 287، 295،	580، 383، 262	داروك - دائر: 126
297، 298، 299، 300، 307،	ذنون، عبد الجواد: 639	دبريه، ميشيل: 127
310، 311، 331، 337، 346، 353،	راد، علي وكيلي: 581	دجلة، نهر: 23، 30، 57، 90، 149، 161،
357، 358، 360، 378، 385،	راز، زائيف: 215	240، 252، 284، 302، 315،
396، 397، 400، 402، 403،	رامسفيلد، دونالد: 351، 352، 479،	316، 330، 331، 332، 335،
405، 413، 416، 419، 421،	630، 629	337، 401، 409، 491، 512،
422، 423، 424، 433، 436،	راوندوز: 314، 338، 411، 449، 450،	536
437، 444، 445، 453، 454،	671، 511، 492، 458	دريبر، موريس: 263
455، 457، 469، 472، 477،	الراوي، إياد فتحيح: 326، 545، 640	دزفول: 50، 52، 57، 61، 169، 173،
480، 481، 482، 483، 484،	رجائي، محمد علي: 47، 107، 111، 121،	183، 195، 235، 299، 311،
489، 490، 492، 496، 497،	640، 626، 624، 169	380، 487، 645، 655، 657،
500، 506، 510، 527، 535،	رجال الدين، في إيران: 95، 96، 113،	الدعوة، حزب: 89، 92، 96، 315
556، 557، 558، 564، 567،	121، 168، 169، 182، 183،	دوران، عباس: 58، 191، 211،
571، 574، 575، 578، 583،	198، 199، 204، 205، 221،	الدوري، صابر: 449
584، 586، 588، 589، 592،	224، 225، 228، 229، 230،	الدوري، طالع: 165، 184، 269، 326،
597، 598، 604، 605، 626،	262، 278، 287، 388، 428،	484، 540، 640،
629، 630، 635، 637، 640،	482، 556، 557، 596، 602،	دوغلاس، جون: 354، 476،
رفيق دوست، محسن: 286، 405، 640،	626، 624	ديغول، شارل: 126
رمضان، طه ياسين: 81، 99، 181، 639،	رجوي، مسعود: 95، 168، 209، 222،	ديقد دوج: 341، 342،
الرهائن	226، 227، 278، 361، 562،	ديلامير، لويس: 226، 626،
إعدام: 351، 355	577، 626، 630، 632، 676،	الديمقراطي، الحزب الكردستاني الإيراني:
الأمريكيين: 101، 107، 108، 109،	641، 108، حسن:	32، 61، 207، 208، 264،
112، 113، 114، 116، 117،	الرزاق، سمير عبد: 186، 462، 708	265، 301، 313، 314، 317،
123، 126، 341، 353، 354،	رشدي، سلمان: 637، 587،	318، 319، 410،
471، 472، 473، 474، 476،	الرشيد، ماهر عبد: 317، 318، 325،	الديمقراطية، الجبهة الثورية لتحرير
477، 478، 480، 500، 571،	336، 399، 443، 482، 483،	عربستان: 27، 32،
624، 626، 627، 632، 729،	640، 639، 588، 545	الديمقراطية، في الجمهورية الإسلامية:
الفرنسيين: 355، 357، 358، 359،	640، 639، 338، رشيد، حسين:	27، 93،
360، 362، 363، 371، 374،	رضائي، محسن: 166، 231، 254، 271،	الدين
513، 515، 517، 518، 634،	279، 286، 298، 405، 438،	الإسلام السنّي: 75
635	481، 490، 491، 606، 641،	الإسلام الشيعي: 76، 223، 224، 232،

[الحرب العراقية - الإيرانية]

698, 686, 678, 669, 664	السفن: 39, 43, 110, 129, 138, 152,	روحاني، حسن: 225, 535, 597
720, 719	293, 290, 288, 192, 188	روحاني، حسين: 168, 676
سومر: 64, 174, 179, 400, 488,	391, 385, 383, 357, 353	روسيا: 123, 621. راجع أيضا انظر أيضاً:
645, 631	459, 451, 428, 427, 426	الاتحاد السوفيتي
سونتاج، كاميه: 360	502, 500, 499, 498, 466	روشوت، فيليب: 360
سونغ، كيم إيل: 305	517, 516, 510, 504, 503	رولو، ايريك: 358
سوهرايي، إسماعيل: 397, 640	525, 524, 521, 520, 519	رومانيا: 122, 661, 680
سويسرا: 335, 368, 369, 521, 661,	550, 533, 530, 529, 526	الري، تدمير أنظمة: 67, 584
690, 689, 682, 669, 663	557, 556, 554, 552, 551	ريان، محمد: 462, 708
سيغي، كابتن: 186	664, 634, 586, 568, 565	ريجير، فرانك: 353
سيناي، خسرو: 273	702, 701, 700, 698, 670	ريغان، رونالد: 114, 116, 117, 262,
شابان - دلاس، جاك: 127	سليمان العظيم (السلطان): 76	348, 350, 351, 387, 471,
شابور بختيار: 28, 91, 92, 132, 168,	السليمانية: 77, 206, 317, 318, 319,	530, 507, 505, 479, 473
624, 623, 581	511, 496, 447, 445, 411	569, 558
شارون، آريل: 157	542, 540	زاخو، جسر: 450, 459
شاكري، حسين: 169, 179	سليمي، محمد: 231	زاكروس، جبال: 34, 35, 38, 55, 61,
شامير، إسحاق: 478	سنغافورة: 137, 679, 683, 690	62, 63, 67, 75, 454
شاه: 24, 25, 27, 28, 33, 44, 49, 53,	سنندج: 206, 209, 235, 236, 264	زايد، الشيخ: 146, 415
87, 84, 83, 81, 78, 76, 55	سوريا: 97, 118, 142, 148, 149,	زكي، إباد خليل: 326
95, 93, 92, 91, 90, 88	214, 210, 158, 151, 150	زهور كركوك، فلم: 512, 729
109, 107, 106, 105, 100	350, 304, 276, 244, 243	ساتري، منصور: 576, 641
131, 130, 123, 116, 115	453, 452, 451, 417, 366	ساجد، كامل: 540, 639
167, 166, 156, 135, 132	675, 669, 627, 599, 597	السادات، أنور: 33, 90, 119, 147
228, 226, 223, 185, 168	692, 687	سالم، محمد: 61
353, 327, 304, 298, 291	سوسلوف، ميخائيل: 120, 263	السامرائي، وفيق: 324
461, 429, 427, 378, 367	سوسنجر: 171	سايكس-بيكو، معاهدة: 78
622, 621, 620, 584, 474	السوفييتي، الاتحاد: 29, 42, 44, 84,	سيرين، أوليغ: 422
658, 655, 624, 623	118, 116, 109, 104, 88	ستالين، جوزيف: 80, 98, 99
شاهبازي، علي: 557, 640	123, 122, 121, 120, 119	سربيل زهاب: 63, 64, 66, 174, 577
شاهين، محمود: 438, 449, 639	149, 135, 129, 126, 124	سعدى الجبوري: 640
شيارشين، ليونيد: 303	305, 304, 303, 299, 263	السعودية، العربية: 102, 103, 146,
شريعتمداري، كاظم: 96	365, 353, 323, 315, 306	152, 153, 188, 244, 245,
شط العرب: 18, 19, 23, 25, 29, 34,	421, 420, 418, 417, 375	260, 385, 386, 387, 390,
88, 87, 78, 77, 45, 37, 35	510, 500, 499, 423, 422	449, 453, 501, 520, 522,
187, 184, 179, 176, 103	592, 591, 558, 539, 533	528, 529, 586, 591, 598,
283, 271, 257, 242, 241	633, 628, 627, 624, 621	624, 660, 679, 684, 697,
442, 439, 437, 402, 302	663, 662, 661, 653, 634	720

[الحرب العراقية - الإيرانية]

عبادان: 37, 61, 72, 167, 170, 175,	242, 257, 288, 299, 331,	443, 459, 485, 546, 575
176, 177, 178, 179, 183,	353, 393, 395, 408, 434,	شعبان، حميد: 387, 639
184, 186, 187, 188, 194,	475, 476, 480, 524, 538,	الشمالية، كوريا: 305, 339, 463, 487,
195, 200, 234, 235, 241,	582, 599, 603, 638,	501, 524, 538, 665, 667,
380, 437, 439, 442, 443,	شيفرناندزه، أدوارد: 499	668, 669, 685
448, 463, 586, 610, 626,	شيلي: 683	شمخاني، علي: 231, 641
655, 693	الشيوعيون. راجع أيضا الاتحاد السوفييتي	شمعون، بيرس: 158, 472
عبد الجبار الأسدي: 639	الحزب الشيوعي العراقي: 85, 96, 119	شميدت، هلموت: 135
عبيسي، غلام علي: 28, 115, 168	حزب توده الشيوعي الإيراني: 95, 424,	شنان، عبد الواحد: 485
عثمان، محمود: 511, 675	428	شنته، الجنرال: 274
العثمانية، الإمبراطورية: 76, 77, 620,	صادق، جعفر: 541	شنفل، عبد الجبار خليل: 61, 99, 170,
621	صالح، علي عبد الله: 152	269, 274, 639
العدالة والتنمية، حزب: 593	صباح، علي: 462, 576, 708	الشهداء / الشهادة: 168, 182, 230,
عدم الانحياز، حركة: 58, 88, 259, 310,	صحفيون؛ اختطاف صحفيين: 354, 357,	287, 339, 394, 395, 433,
489	358, 360, 513, 517, 518,	434, 456, 497, 556, 576,
العراق: 17, 18, 19, 20, 23, 25, 27,	الصدر، مقتدى: 26	667. راجع أيضا انظر أيضاً:
29, 30, 31, 32, 33, 34, 35,	الصدر، موسى: 151	مؤسسة الشهداء
37, 38, 39, 40, 47, 48, 53,	صندي القادسية: 47	الشهداء، مؤسسة: 182, 287
54, 56, 58, 59, 61, 62, 73,	صديق، هوشانج: 388, 641	الشوش: 69, 70, 174, 233, 240, 248,
76, 77, 78, 79, 81, 82, 84,	صفوي، رحيم: 167, 271, 286, 641	249, 253
85, 86, 87, 88, 89, 90, 91,	صلاح الدين عزيز: 487	شوكته، الجنرال: 338, 438, 443, 448,
92, 96, 97, 101, 103, 104,	الصين: 123, 124, 243, 260, 291,	449
109, 114, 115, 116, 118,	305, 306, 339, 366, 388,	شولتز، جورج: 261, 473, 478
119, 120, 121, 122, 123,	405, 445, 501, 437, 405	شومان، موديس: 127
124, 125, 126, 127, 128,	509, 528, 591, 593, 628,	شيرازي، علي: 231, 641
129, 130, 131, 133, 135,	661, 663, 665, 668, 669,	شيراك، جاك: 128, 129, 359, 360,
137, 139, 141, 142, 143,	679, 685, 698	361, 362, 363, 513, 515,
144, 145, 147, 148, 149,	ضياء الحق، محمد: 259	517, 518
150, 151, 152, 153, 155,	الطائفية: 18, 395	قصر شيرين: 35, 62, 63, 64, 73, 174,
157, 158, 160, 161, 163,	طالباني، جلال: 27, 206, 318, 409,	204, 205, 210, 239, 248,
165, 168, 169, 181, 183,	410, 449, 459, 510, 512,	274, 279, 280, 284, 287,
186, 189, 193, 195, 196,	562, 623, 633, 675,	294, 328, 400, 409, 460,
206, 207, 210, 211, 213,	طباطبائي، صادق: 114	495, 577, 620, 627, 631,
215, 217, 219, 220, 225,	طلفاح، خير الله: 79, 80	633, 644, 645, 665
227, 231, 236, 242, 243,	طلمب، جزر: 26, 83, 146, 188, 468,	معاهدة قصر شيرين: 620
244, 245, 246, 257, 258,	طهران، معاهدة: 78	الهيمة، المسلمون: 18, 25, 76, 77, 78,
259, 261, 262, 263, 264,	طهراني، علي: 413	89, 94, 97, 108, 145, 228,

| الحرب العراقية - الإيرانية |

عزيز، طارق: 81، 277	.698، .696، .695، .694، .692	.279، .278، .277، .276، .275
عزيزي، فاروق: 159	.713، .711، .710، .706، .705	.290، .287، .284، .283، .280
العسكري، الانضباط الإيراني: 41	.720، .719، .716، .715، .714	.303، .299، .298، .293، .292
العسكرية، الدروس من الحرب العراقية الإيرانية: 596	730، 729	.312، .311، .307، .305، .304
العسكرية، العمليات: 205، 307، 458،	حركة المجاهدين العراقية: 285	.318، .317، .315، .314، .313
السيوف اللامع: 171	العراقي، الجيش: 17، 28، 31، 40، 44،	.328، .327، .326، .323، .322
الضوء الأبدي: 577	.104، .97، .88، .87، .73، .45	.338، .337، .331، .330، .329
الطريق إلى القدس (طريق القدس):	.143، .124، .122، .120، .115	.350، .345، .343، .342، .339
627، 280، 236	.195، .187، .184، .150، .147	.355، .354، .353، .352، .351
الفتح: 248، 251، 409، 628	.240، .208، .207، .205، .199	.368، .366، .365، .361، .357
الفجر: 307، 311، 314، 315، 316،	.264، .261، .254، .248، .243	.381، .378، .377، .376، .375
438، 338، 330، 319، 317	.304، .292، .287، .280، .274	.391، .389، .388، .387، .383
456، 450، 449، 445، 442	.323، .322، .321، .314، .307	.397، .396، .395، .393، .392
632، 630، 629، 628	.411، .403، .376، .328، .326	.410، .409، .408، .399، .398
الفجر الثامن: 438، 442	.497، .496، .457، .455، .445	.421، .417، .416، .415، .413
القدس: 409، 411، 472، 631	.536، .532، .513، .512، .501	.435، .434، .428، .424، .422
المدينة المقدسة: 535، 540، 635	.589، .585، .582، .562، .543	.449، .447، .445، .444، .437
النصر: 535، 540، 631	.617، .614، .612، .594، .590	.458، .457، .453، .451، .450
أنفال: 510، 511، 513، 541، 586،	.629، .626، .625، .622، .621	.479، .478، .469، .468، .459
717، 635، 633	.686، .685، .665، .637، .636	.495، .492، .491، .487، .481
أوبرا: 215	720، 715، 707، 706	.506، .504، .501، .498، .496
بدر: 400، 404، 405، 631	عريستان: 27، 32، 76، 181، 620، راجع	.527، .512، .511، .510، .509
بيت المقدس: 267، 270	أيضا خوزستان	.536، .535، .532، .531، .528
تحرير القدس: 330، 629	عزت إبراهيم الدوري: 277	.544، .543، .540، .539، .537
ثامن الأئمة: 234، 235، 626	صلاح الدين عزيز: 487، 639	.562، .560، .559، .558، .556
خير: 331، 335، 613، 630	طارق عزيز	.582، .581، .580، .574، .573
رمضان كريم: 283، 294، 628، 635	الاعتذار عن الهجوم على Stark: 507	.587، .586، .585، .584، .583
فاطمة: 249	المفاوضات على الديون: 342، 365	.593، .592، .591، .590، .589
كربلاء: 167، 454، 455، 458، 459،	الهجوم على: 25، 624	.613، .610، .600، .599، .596
493، 492، 488، 484، 482	في فرنسا: 226، 355	.621، .620، .619، .617، .614
633، 632، 620، 511، 495	في مفاوضات السلام: 585	.627، .625، .624، .623، .622
محرم الحرام: 299، 628	كمبعوث إلى القادة العرب: 37	.632، .631، .630، .629، .628
مخلب النسر: 112، 624	لقاءاته مع السوفييت: 122، 350، 421،	.637، .636، .635، .634، .633
مرصاد: 577، 636	528، 510، 501، 500، 489	.646، .643، .642، .639، .638
مسلم بن عقيل: 294، 628	لقاء بيرز دي كويان: 577	.670، .664، .659، .653، .652
	عزيز، طارق: 81، 97، 147، 311	.675، .674، .673، .672، .671
	عزيز، صلاح الدين: 487	.683، .680، .678، .677، .676

| الحرب العراقية - الإيرانية |

فونتين، مارسيل: 357، 518	الفخري، هشام صباح: 165، 210، 308	مورفايد الحويزة: 200، 201، 202
في درب الحب: 729	640، 399	204، 205، 248، 249، 269
في درب الحب، فلم: 729	الفرات، نهر: 48، 217، 240، 333، 401	331، 332
الفيصل، الأمير تركي (العربية السعودية):	537، 491، 487	العسكرية، مجموعة المراقبة: 579
418	فراش، حسين: 416	ميشيل عفلق: 80، 86
فيصل، الأمير (العربية السعودية): 415	فرنسا: 19، 20، 24، 30، 43، 85، 86	العقير، برتوكول: 145
قابوس (سلطان عمان): 146	89، 91، 92، 111، 124، 125	حسن علي: 521
قاسم، عبد الرحمن: 206، 207، 209	126، 127، 128، 129، 130	سالم علي: 326
235، 264، 265، 301	131، 132، 133، 143، 154	علي محتشمي بور: 571
313، 317، 330، 410، 676	210، 211، 212، 219، 226	عمان: 43، 110، 112، 143، 146، 147
القاضي، صلاح: 640	227، 284، 299، 339، 342	385، 452، 462، 516، 519
قالبياف، محمد باقر: 167، 271، 641	343، 345، 346، 349، 354	520، 521، 523، 524، 550
القدس، قوة: 287	355، 356، 358، 359، 360	553، 630، 656، 700، 701
القذافي، معمر: 151، 152، 390، 570	361، 362، 369، 370، 371	702، 703، 718
571	381، 388، 390، 427، 428	عيسى، أمير البحرين: 145، 146
قضية إيران - كويتا: 471، 479، 504	448، 502، 513، 515، 516	غاندي، أنديرا: 259
631، 632	517، 528، 562، 579، 580	غاندي، راجيف: 259
قطب زاده، صادق: 106، 254، 255	581، 622، 623، 626، 629	غديري، أيرج: 166، 729
627، 285	630، 632، 633، 634، 635	الغربي، البحر: 263
قطر: 77، 146، 425، 427، 464، 556	661، 662، 663، 664، 670	الغربية، الصحراء: 142، 143
688	676، 678، 679، 688، 698	غروميكو، أندريه: 119، 120، 350، 420
قم: 76، 95، 107، 173، 224، 380	713	غفوري-فرد، حسن: 415
407، 487، 514، 538، 539	فسك، روبرت: 354	غورباشوف، ميخائيل: 420، 421، 422
620	فضيحة لوشير: 372، 374	423، 424، 510، 533، 592
كابوني، آل: 98	الفكة: 68، 248، 249، 251، 252، 253	631
كاتكوف، آركاني: 422، 423	269، 287، 300، 308، 311	غوريانفر، مانوشهر: 472، 474، 475
كارتر، جيمي: 91، 102، 106، 108	627، 628	476
109، 110، 112، 113، 114	فلاح، ولي الله: 231	فابوس، لورانت: 355
115	الفلستينيون: 142، 151، 152	الفارسي، الخليج: 23، 157، 261، 288
عقيدة كارتر: 109-118	فهد، ملك المملكة العربية السعودية: 245	353، 382، 385، 462، 467
كارمال، بابراك: 108	246، 276، 385، 386، 387	532، 547. راجع أيضا انظر
كاسين، فيرنون: 221	415، 416، 417، 418، 419	أيضا: دول الخليج
كاظمي، أحمد: 236، 641	445، 452، 453، 460، 501	الفارسية، الإمبراطورية: 620، 621
كامب ديفيد، معاهدة: 90، 217	502، 524، 529، 547، 589	فاكوري، جواد: 53، 191، 231، 641
كامران، مصطفى: 47، 106، 222، 640	591، 630	فالداهيم، كورت: 258
كامل، حسين: 277، 543، 587	فهد، خط الملك: 385، 630	فالبي، معركة: 166
كربلاء: 76، 77، 91، 96، 167، 280	فوغارتي، وليام: 570	فانسن، سايروس: 112

| الحرب العراقية - الإيرانية |

.441, 403, 402, 401, 378	730, 716	,459, 458, 455, 454, 393
,479, 459, 457, 448, 443	كردستاني، الحزب الديمقراطي الاشتراكي:	,495, 492, 488, 484, 482
,542, 541, 539, 493, 487	675, 511	667, 620
,617, 613, 594, 563, 559	كرمنشاه: 32, 50, 57, 61, 63, 64, 66,	الکرد: 19, 27, 29, 30, 31, 41, 77,
,714, 662, 635, 631, 629	,577, 286, 181, 174, 166	,89, 88, 87, 86, 83, 82, 81
717, 716, 715	694, 655, 654, 653, 636	,162, 161, 143, 120, 94
598, 228, علي: لاريجاني	230, 224, مهدي: كرويبي	,235, 209, 208, 207, 168
لاشكاري، حسين: 38	639, 290, 274, عيد محمد: الكعبي	,313, 301, 275, 274, 264
لاوي، هوشانج: 388, 719	476, كليبين، بيتر:	,397, 330, 328, 326, 314
اللبنانية، الفصائل الشيعية: 227, 347,	347, كلوتز، برنارد:	,450, 447, 410, 408, 398
348	683, 661, كندا:	,495, 487, 482, 459, 457
لبنان: 19, 136, 149, 150, 151, 227,	363, كوادي، مارسيل:	,541, 540, 513, 512, 511
,342, 341, 339, 287, 275	633, 518, 517, 513, قضية: كورجي	,585, 582, 562, 560, 543
,364, 361, 360, 359, 349	,518, 517, 515, 514, وحيد: كورجي	,600, 599, 596, 590, 586
,471, 452, 451, 423, 374	634	,624, 623, 622, 621, 608
,519, 480, 476, 475, 473	136, كوردس، ردولف:	,638, 636, 633, 630, 628
,599, 593, 582, 580, 571	,669, 370, 260, 117, كوريا الجنوبية:	729, 720, 717, 716, 684
687, 629, 627, 626	686, 670	510, 206, الكردستاني، الاتحاد الوطني:
لطيف، كمال: 269	423, كورينينكو، جورجي:	,409, 398, حزب العمال، الكردستاني
,354, 276, 275, 135, 78, 19, لندن:	303, كوزشكين، فالدمير:	,630, 600, 512, 492, 457
,500, 480, 376, 367, 366	120, كوسجين، اليكسي:	633
,718, 633, 621, 528, 509	518, 357, كوفمان، جان بول:	کردستان: 19, 24, 45, 61, 73, 82,
721, 720, 719	136, كول، هلموت:	,171, 170, 168, 94, 87
571, 570, اسكلندا، لوكريبي:	207, 95, كوملا:	,207, 206, 205, 199, 174
337, 181, 102, 73, 32, لوموند:	,154, 146, 145, 115, 67, 31, الكويت:	,243, 235, 213, 210, 209
586, 526, 468, 288, لويد، شركة:	,389, 348, 329, 261, 260	,300, 278, 265, 264, 248
,359, 276, 243, 205, 152, 151, ليبيا:	,468, 445, 444, 440, 437	,318, 317, 314, 313, 301
,570, 492, 475, 406, 366	,500, 490, 480, 476, 475	,330, 329, 328, 327, 325
,668, 667, 665, 632, 630	,526, 522, 519, 508, 502	,445, 411, 410, 409, 338
689, 685, 669	,592, 591, 590, 589, 564	,460, 459, 457, 449, 447
ليفن، جيرمي: 353	,635, 634, 633, 629, 600	,512, 511, 510, 495, 492
مؤتمر فيينا: 76	697, 674	,543, 541, 540, 536, 535
مارديني، جعفر: 215	118, كيسنجر، هنري:	,564, 562, 560, 545, 544
360, مارسيل كوداري:	480, 473, 417, وليم: كيسي،	,625, 622, 587, 574, 573
,474, 473, 472, روبرت: ماكفارلين،	627, كيلان زارب:	,632, 631, 629, 628, 626
479, 476	,336, 335, 318, الأسلحة: الكيماوية،	,644, 636, 635, 634, 633
226, ماوري، بيير:	,377, 376, 375, 354, 337	,677, 676, 675, 665, 652

| الحرب العراقية - الإيرانية |

معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية: 219	المدنيون: 55, 312, 317, 379, 381,	مبارك، حسني: 147, 262, 403
معركة اليوم العظيم: 716	491, 408, 407, 405, 389	المتحدة، الولايات: 17, 19, 26, 29, 30,
المغرب: 91, 142, 143, 144, 148, 684	617, 582, 542	84, 87, 88, 91, 93, 101,
مغنية، عماد: 360, 361	395, 229, 93	102, 103, 104, 106, 107,
المفاوضات: 33, 73, 111, 124, 126,	مرجانه ستاربي: 539	108, 116, 117, 118, 123,
128, 129, 131, 135, 136,	المسلمين، إخوان: 147, 151	129, 142, 156, 185, 219,
137, 157, 158, 244, 344,	المَشْدُ، يحيى: 129	245, 261, 262, 263, 341,
353, 354, 355, 358, 359,	مشيخات الخليج: 101, 101, 261, 352,	348, 350, 353, 366, 367,
361, 362, 363, 367, 410,	590, 584, 519, 500, 421	385, 387, 419, 471, 472,
423, 473, 475, 476, 477,	697. راجع أيضا انظر أيضا:	473, 475, 477, 478, 489,
478, 511, 518, 528, 572,	القادة العرب؛ مجلس التعاون	499, 500, 502, 507, 519,
575, 576, 578, 579, 625,	الخليجي؛ دول الخليج؛ دول على	520, 521, 522, 524, 525,
630, 631, 636, 637. راجع	انفراد؛ قادة على انفراد.	531, 539, 549, 556, 558,
أيضا انظر أيضاً: وقف إطلاق	مصبوغ، محمد: 709	567, 569, 570, 572, 579,
النار	مصر: 30, 33, 90, 91, 105, 144,	581, 584, 586, 590, 591,
مكة: 104, 145, 400, 524	146, 147, 148, 375, 390,	600, 622, 624, 625, 627,
مكي، علاء الدين: 456	421, 461, 663, 679, 721	630, 631, 634, 663, 664,
ملكزاديكان، محمد حسين: 428	مضيق هرمز: 26, 52, 83, 134, 146,	681, 687, 698, 700, 716
منتظري، علي: 95	147, 187, 288, 354, 357,	متقي، مانوشهر: 458
مندلي، وادي: 64, 297, 380, 409, 488,	391, 405, 425, 428, 429,	مجلس التعاون الخليجي: 153, 154,
628, 631, 633, 717	440, 464, 468, 475, 498,	257, 366, 415, 416, 508,
منصوري، جواد: 221	499, 501, 502, 505, 516,	509, 590, 626, 718
مهديون، سيد: 27	519, 520, 523, 524, 525,	مجلس أمناء الثورة: 111, 199, 222,
مهران: 65, 66, 204, 248, 315, 316,	526, 537, 550, 554, 555,	المجيد، علي حسن: 36, 81, 97, 511,
328, 338, 400, 409, 435,	557, 564, 567, 595, 622,	512, 541, 608, 639,
454, 455, 562, 563, 629,	703, 632	512, 541, 608, 639,
630, 632, 636, 645, 653,	مطهري، مرتضى: 110	محكمة العدل الدولية: 531, 569, 571,
719, 729	المعارضة، للنظام الإيراني: 24, 29, 91,	572
المهندسون العسكريون الإيرانيون: 439	92, 95, 153, 168, 228,	محمد، رضا بهلوي: 33, 78, 88, 90,
المهندسون العسكريون العراقيون: 302	359, 482, 557, 562, 580,	621, 623
موجنبور، محمد حسن: 641	588, 596, 597, 635, 676,	محمود، شاكز: 218
الموساد: 129, 156, 158, 361,	المعارضة، للنظام العراقي: 86, 511,	المخابرات، الإيرانية: 226, 263, 497,
361, 229, 225، مير-حسين:	675, 684. راجع أيضا انظر	418، المخابرات السعودية:
588, 626	أيضا: الحزب الديمقراطي	المخابرات العراقية: 352, 369, 442,
المياه، خزانات: 67	المكردستاني؛ الحزب الديمقراطي	493, 715
ميتران، فرانسوا: 133, 343, 345, 346,	الاشتراكي الكردستاني؛ حزب	مخابرات: 231, 371, 570
349, 355, 518, 579, 580,	العمال الكردستاني	مخلد عبد الكريم: 462, 708
		مدني، أحمد: 45, 113

| الحرب العراقية - الإيرانية |

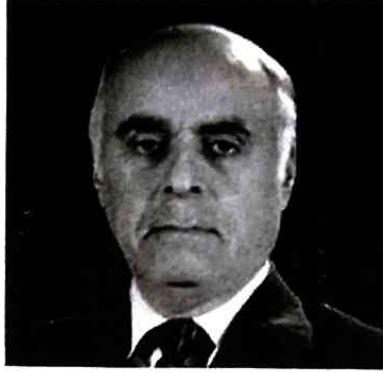
الواقعية، السياسية: 17	635
الوطني، حزب الاتحاد الكردستاني: 319،	ميرفي، روبرت: 502
623، 495، 410، 409	ميغ-25، قصف طهران: 407، 406،
CIA وكالة الاستخبارات الأمريكية: 28،	539، 487
84، 87، 105، 106، 108،	نادر، خالد داود: 325
112، 114، 115، 221، 262،	نجاد، قاسم علي زاهر: 179، 640، 641
303، 327، 352، 354، 383،	نظام الاختراق الإلكتروني الإيراني: 327،
417، 418، 472، 521، 630،	595، 480
728	النقطي، التلوث: 292
ولاية، علي أكبر: 229، 355، 363، 499	النقضية، الصناعة: 86، 104، 246، 331،
ياور، أسامة: 218	622، 540
يوغسلافيا: 661، 664، 680	النقضية، الصناعة الإيرانية: 104
يولي فورونتسوف: 528، 575	النقضية، الصناعة العراقية: 246
يوم كيبيور، حرب: 40، 66، 201، 622	النقضي، الحظر: 128، 290
	النفوذ، مناطق: 78
	نقاش، أنيس: 132، 580، 624، 630،
	635
	نمرودي، يعقوب: 158، 474
	نوجومي، بنهام: 366
	نورث، أوليفر: 475، 480
	نورماندي، جين-لويس: 360، 517، 518
	النووي، البرنامج الإيراني: 299، 581
	النووي، البرنامج العراقي: 105، 129،
	623، 220، 171
	نيكارغوا: 475
	نيكسون، ريجارد: 84
	هائسن، جورج: 360، 361
	هدنة: 73، 122، 225، 240، 242، 281،
	307، 408، 501، 510، 558،
	716، 629، 562
	هلال، داخل علي: 251
	همداني، علي أراكي: 641
	الهند: 259، 409، 439، 690
	هنغاريا: 211، 661، 664، 681
	هوانغ هوا: 124
	هيرو، ديليب: 102، 725
	وارن، كيستفور: 114





الدكتور بيير رازو

من مواليد العام 1966 وهو المدير الأكاديمي للمؤسسة المتوسطة للدراسات الاستراتيجية (FMES Institute). و استاذ في العلاقات الدولية، ومتخصص معترف به في الشرق الأوسط، وهو مؤلف مختص بالحرب الإيرانية العراقية والصراعات العربية الإسرائيلية وعن جيش الدفاع الإسرائيلي وحرب الفوكلاند وجورجيا. بشكل خاص - له العديد من المؤلفات - منها: تاريخ جديد للجيش الإسرائيلي (بيرين، 2006، "تيمبوس"، 2008). ويظهر بانتظام في وسائل الإعلام الفرنسية والأجنبية.



فلاح حسن الأسدي

- 1 - الاسم : فلاح حسن عبد الحسين سلمان خنفر الأسدي
- 2 - مكان وتاريخ الولادة : الهندية / كربلاء / 1947
- 3 - اللغات التي أجيدها : الانكليزية - الأسبانية - الفرنسية - لغة قشتالة القديمة

الشهادات العلمية :

- 1 - بكالوريوس في التاريخ / كلية التربية / جامعة بغداد - 1970
- 2 - دكتوراه / جامعة ايسست أنجليا East Anglia University البريطانية / مدرسة الدراسات الأوربية - 1982 (مرحلة واحدة) عنوان الأطروحة:

Trade and Business community in Old Castile: Medina del Campo: 1500 - 1575

الخبرات الإدارية :

- 1 - 1992-1988 رئيس قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة البصرة / العراق
- 2 - 2004-2000 رئيس قسم التاريخ / كلية التربية (حجّه) / جامعة صنعاء / اليمن
- 3 - 2009-2007 رئيس قسم التاريخ / كلية التربية - ابن رشد / جامعة بغداد / العراق
- 4 - 2013-2012 عميد كلية التربية الأساسية / الجامعة المستنصرية / العراق
- 5 - 2014-2013 رئيس جامعة النهرين / العراق
- 6 - 2016-2014 رئيس الجامعة المستنصرية / العراق
- 7 - 2016 - حتى الان عضو الفريق الاستشاري / قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة / العراق

الكتب المؤلفة والمترجمة :

- 1 - كتاب باللغة الأسبانية (مترجم للغة الانكليزية) عن تاريخ قشتالة
- 2 - كتاب « الموريسكيون فصل في صراع الحضارات » / بيت الحكمة / بغداد 2006
- 3 - ترجمة كتاب « حكم الأسرة البويهية في بغداد 334 هـ - 447 هـ » من اللغة الانكليزية لمؤلفه مفاز الله كبير 2012 .
- 4 - ترجمة كتاب « الأحزاب الإسلامية في العراق التحول في حزب الدعوة (1957-2009) » ، بالاشتراك مع أ.د. محمود القيسي .
- 5 - ترجمة كتاب « الوثائق البريطانية عن العراق » ، الجزء الأول ، بيت الحكمة ، تحت الطبع .
- 6 - ترجمة كتاب « محمد وشارلمان » لهنري بيرين ، بالاشتراك مع أ.د. محمود القيسي ، تحت الطبع .

956 / 3041

ر 259 رازو، بيير

الحرب العراقية الإيرانية / بيير رازو؛ ترجمة: فلاح حسن الأسدي

ط 1 - بغداد : دار ومكتبة عدنان، 2023.

ص (752) ، سم (24)

1 - العراق- تاريخ الحرب العراقية الإيرانية 1979-1988

أ - الأسدي، فلاح حسن (مترجم)

م . و

2023 / 2575

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (2575) لسنة 2023



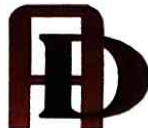
الحرب العراقية - الإيرانية

إنه لمن دواعي فخري الكبير ان أرى كتابي أخيراً عن " الحرب الإيرانية العراقية 1980-1988 " مترجماً وصادراً باللغة العربية في بغداد، البلد الذي وقعت فيه هذه الحرب الفضيعة التي حدّدت على نحو طويل الجغرافية السياسية للشرق الأوسط. ولحسن الحظّ، أنّ عراق اليوم هو ليس عراق صدام حسين. وبالنظر لمعدل عمر العراقيين المتوسط حالياً، لم يعاصر معظمهم تلك الحرب. لذلك كانت لديهم ذاكرة مشوّهة نقلها لهم آباؤهم، وكذلك من خلال المجتمعات المتنوّعة والعشائر المتعدّدة والأحزاب السياسية الذين غالباً ما كان لهم مصالحهم أو بالتأكيد روايتهم - المتباينة في أغلب الأحيان. وقد اعترف مجتمع الباحثين والمؤرخين بهذا الكتاب كونه مرجعاً لجميع الجنسيات، بما في ذلك إيران والعالم العربي. وأمنيّتي، من خلال تقديم هذه الطبعة باللغة العربية أن يعرف أكبر عدد من القراء الناطقين بالعربية ويفهم بدون اية حساسية أو تحييز ايديولوجي أو ديني، حقيقة ما حدث خلال هذا الصراع الرهيب الذي استمرّ ثمان سنوات، وكان له عواقب دائمة على حياة شعوب المنطقة؛ وذلك لأنّ الذاكرة الجماعية تظلّ أئمن ما يملكه البشر.

وعند قراءة هذا الكتاب، سيفهم الجميع لماذا دخل صدام حسين هذه الحرب، ولماذا لم تتوقّف الحرب في عام 1982 عندما طرد الإيرانيون الجيش العراقي الى الحدود الدولية، ولماذا استمرّت كلّ هذه السنوات الطويلة ولماذا توقفت في صيف 1988. لقد انتصر صدام حسين في هذه الحرب، إلا أن انتصاره كان انتصار بيروس باهظ الثمن الذي حمل بذور الهزائم المستقبلية في عامي 1991 و2003.

واليوم، مضى أكثر من خمسة وثلاثين عاماً منذ نهاية حرب ايران والعراق، وأكثر من عشرين عاماً منذ غزو الولايات المتحدة للعراق الذي أدّى الى سقوط صدام حسين. فلم تتعاف الدولة العراقية تماماً بعد عشرين عاماً من الفوضى، وتحول من لاعب أساسي في اللعبة الجيوسياسية في الشرق الأوسط، الى ضحية للتنافس على السلطة بين الدول الإقليمية والدولية...

ISBN 978-9922-697-35-2



DESIGNED BY MOHAMED MAHDI